بسم الله الرحمن الرحيم

موسوعة

العلامة الشيخ التسخيري

المجلد الثاني

التفسير

المعهد العالي للدراسات التقريبية
التابع للمجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامي

سرشناسه : تسخیری، محمدعلی، ۱۳۲۳-۱۳۹۹.
Taskhiri, Muhammad Ali
عنوان و نام پدیدآور : موسوعةالعلامةالشیخالتسخیری/ المعهدالعالی للدراساتالتقریبیة، التابع للمجمعالعالمی للتقریب بینالمذاهبالاسلامی.
مشخصات نشر : تهران: مجمع جهانی تقریب مذاهب اسلامی، ۱۴۴ق.= ۲۰۲م.= ۱۴۰ -
مشخصات ظاهری : ج.
شابک : دوره:۷-۳۲۱-۱٦۷-۹٦٤-۹۷۸ ؛ ۵۰۰۰۰۰ ریال: ج.٤۲-۳۲۲-۱٦۷-۹٦٤-۹۷۸ : ؛ ج. ۳-۹٦٤-۹۷۸-۱٦۷-۳۲۵-۵: ؛ ج. ۴:۹-۳۲۷-۱٦۷-۹٦٤-۹۷۸ ؛ ۵۰۰۰۰۰ ریال: ج.۱۶-۳۲۳-۱٦۷-۹٦٤-۹۷۸: ؛ ۵۰۰۰۰۰ ریال: ج.۸۷-۳۲٤-۱٦۷-۹٦٤-۹۷۸ : ؛ ۵۰۰۰۰۰ ریال: ج.۱۱-۰-۳۲۰-۱٦۷-۹٦٤-۹۷۸ :
وضعیت فهرست نویسی : فیپا
یادداشت : عربی.
یادداشت : فهرستنویسی بر اساس جلد دوم، ۱۴۰۰.
یادداشت : ج. ۴ و ۷ و ۱۱ (چاپ اول : ۱۴۴۲ق.=۲۰۲۱م.=۱۴۰۰)(فیپا).
یادداشت : کتابنامه.
مندرجات : ج.۲.التفسیر.- ج. ۳. عقیده و تمدن.- ج. ۴. الحضاره.-ج.۶.الاقتصاد.-ج.۷.الوحدة والتقریب.-ج.۱۱.الاصول والفقه
موضوع : تسخیری، محمدعلی، ۱۳۲۳-۱۳۹۹ -- فهرست مطالب
موضوع : Taskhiri, Muhammad Ali -- Concordances
موضوع : اسلام -- مطالب گونهگون
موضوع : Islam -- Miscellanea
شناسه افزوده : پژوهشگاه مطالعات تقریبی
رده بندی کنگره : BP۱۱
رده بندی دیویی : ۲۹۷/۰۲
شماره کتابشناسی ملی : ۸۵۱۱۸۴۴
اطلاعات رکورد کتابشناسی : فیپا

هوية الكتاب

اسم الكتاب: موسوعة العلامة الشيخ التسخيري (المجلد الثاني) التفسير

تأليف: محمد علي التسخيري

التنظيم و التحقيق: المعهد العالى للدراسات التقريبية
التابع للمجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الاسلامي

مسؤول امور الطباعة و تصميم الغلاف: محمد تقي مهجور

المخرج: أحمد أبوالحسيني

ردمك: الدورة: ٧_٣٢١_١٦٧_٩٦٤_٩٧٨ ج٢: ٤_٣٢٢_١٦٧_٩٦٤_٩٧٨:ISBN

الطبعة الأولى: ١٤٤٢هـ -٢٠٢١م

الكمّية: ١٠٠٠ نسخة

السعر: ٥٠٠٠٠٠ ريال

الناشر: الجمهورية الاسلامية في ايران ـ طهران:ص،ب: ٦٩٩٥- ١٥٨٧٥
المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الاسلامي
المعهد العالي للدراسات التقريبية (قم) ـ ص.ب: ٣٨٧٣_٣٧١٨٥

بريد الإلكتروني: info.taqrib@gmail.com **تلفكس:** ٠٠٩٨٢٥٣٧٧١١٣٨٨

* جميع الحقوق محفوظ للناشر *

مختصر المفيد
في
تفسير القرآن المجيد

محمدعلي التسخيري ـ محمدسعيد النعماني

(تنويه)

من رسالة بخط يد المرجع الشهيد الامام السيد محمدباقر الصدر (قدس السره)

الى آية الله السيد كاظم الحائري حو ل هذا التفسير

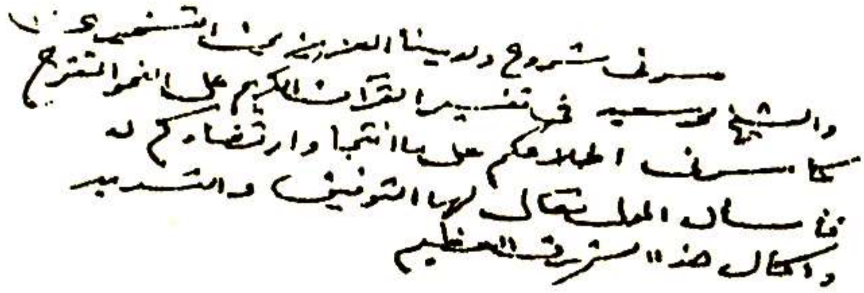

سرني شروع ولدينا العزيزين [illegible]
والشيخ [illegible] في تفسير القرآن الكريم على النهج الشريف
كما سرني اطلاعكم على ما انتجا وارتضاؤكم له
فأسأل المولى تعالى لهما التوفيق والتسديد
وإكمال هذا السفر العظيم

المقدمة

القرآن الكريم: هدية الله تعالىٰ للبشرية جمعاء.يهديها سواء السبيل القويم، ويرسم لها معالم مسيرتها التكامليّة، ويعلّمها كيفية الوصول إلىٰ غرض خلقتها من أقوم الطرق.

وإن تعاليمه الإنسانية الحيّة هي المقوّم الأساس للشخصية الإسلامية. ولذا فيجب أن تتركّز في نفوس الأفراد جميعاً، وتتحوّل إلىٰ منابع فيّاضة تصوغ الأحاسيس، وتصنع أنماط السلوك المطلوب إنسانياً.

ولن يفلح المسلمون يوماً إلّا إذا تحول القرآن في وجودهم إلىٰ معيار فاصل، ورؤية وحيدة. يقول أمير المؤمنين علي عليه السلام وهو يتحدث عن القرآن الكريم: «إِنَّ اللّهَ سُبْحَانَهُ أَنْزَلَ كِتَاباً هَادِياً بَيَّنَ فِيهِ الْخَيْرَ وَ الشَّرَّ فَخُذُوا نَهْجَ الْخَيْرِ تَهْتَدُوا وَ اصْدِفُوا عَنْ سَمْتِ الشَّرِّ تَقْصِدُوا»[1].

ويقول أيضاً: «وإنّ القرآن ظاهره أنيق، وباطنه عميق، لا تفنى عجائبه ولا تنقضي غرائبه، ولا تكشف الظلمات إلّا به»[2].

ويقول أيضاً: «كتاب الله تبصرون به، وتنطقون به، وتسمعون به، وينطق بعضه ببعض، ويشهد بعضه علىٰ بعض، ولا يختلف في الله، ولا يخالف بصاحبه عن الله»[3].

وإذا كان القرآن هو الثقل الأكبر لهذه الأمة، فإنّ أهل البيت عليهم السلام هم الثقل الأصغر لها وذلك بمقتضى أحاديث الثقلين المتواترة عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم[4]، وكأنّ الرسول العظيم صلى الله عليه وآله وسلم ترك في الأمة دستوراً أبدياً يوضح لها ـ نظرياً ـ مسيرتها، واناساً طاهرين يمثلون الصيغة العملية التفصيلية للقرآن الكريم هم أهل البيت عليهم السلام فأكمل بذلك الحجّة، وأوضح المحجّة، وهدى إلىٰ الحقّ كأقوى ما تكون الهداية.

وسعياً لتعميم الفائدة، ونشر المعرفة القرآنية بين مختلف المستويات، وشتى الأفراد، جاءت فكرة هذا التفسير في ذهن أحد جهابذة هذا العصر، ومجاهديه الكبار والعاملين علىٰ

---

١. نهج البلاغه: ص٢٤٢

٢. ن.م: ص٦١

٣. ن.م: ص١٩٢

٤. جاء هذا الحديث المبارک في مختلف الكتب و منها(صحيح مسلم، وسنن الدارمي، و خصائص النسائی،و سنن أبي داود، وابن ماجة، و مسند احمد و مستدرک الحاكم، و ذخائر الطبري، و حلية الأولياء، و كنزالعمال)

نشر أضواء القرآن والرسالة الإسلامية، وهو سماحة الإمام الشهيد السيّد محمّد باقر الصدر ﷺ حيث أمر اثنين من تلامذته بالبدء بمشروع لكتابة تفسير للقرآن الكريم، يحمل عناصر الإيجاز والعمق والوضوح، بالإضافة لبيان ما يمكن بيانه من الأبعاد الاجتماعية للمفاهيم القرآنية، وذلك بالاعتماد أوّلاً على الظهورات، القرآنية وثانياً على أحاديث الرسول الأعظم ﷺ وأهل بيته الطاهرين ﷺ.

وبدأ هذا المشروع فكانت الحصيلة، بحمد الله، هذا التفسير المبارك. وقد اطلع الإمام الشهيد على بعض كراريسه وعبّر عن سروره بها. ويتمتع هذا التفسير بمايلي:

١. الإيجاز إلى الحد الممكن، ممـا يجعل كلّ صفحة من القرآن الكريم تقابلها صفحة من التفسير تقريباً.

٢. طرح الأبعاد المختلفة للمدلول القرآني، ومنها البعد الاجتماعي الأصيل.

٣. طرح التفسير وفق مختلف الآراء مهما أمكن، مع التركيز على المروي عن أهل البيت ﷺ.

٤. اعتماد المنهج التقريبي، تجنب الإستفزاز والتجريح.

ومن الواجب علينا أن نقدم شكرنا للعلّامة المحقّق السيّد محمّد رضا الصفوي الذي قام بمراجعة دقيقة لهذا التفسير، وقدم ملاحظات قيمة ونافعة جداً.

والله تعالى نسأل أن يوفّق الأمة الإسلامية للعمل بهذه التعاليم المحيية، والنهوض بالتالي بدورها الحضاري في إقامة النظام القرآني على كل العمورة، إنه السميع المجيب.

وآخر دعوانا أن الحمدلله ربِّ العالمين

ملاحظة: اعتمادنا في تفسيرنا على النسخة المخطوطة بخط (عثمان طه) و يجب أن نؤكد على أننا نعتبر البسملة جزءاً من جميع السور إلا سورة «براءة» ـ على افتراض أنها سورة مستقلة ـ فهى أول آية من السورة القرآنية، و اذا كنا لم نعطها رقماً فإنما ذلک لمراعاة النسخة المشار إليها لا غير.

المؤلفان

سورة الفاتحة (١)

آياتها ٧

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ①﴾

بـ﴿اسم الله﴾ يبتدئ كل شيء، ومنه ينطلق الخلق وبمقتضى رحمته. فهو مملوك له ومستند إليه، يمدّه بالبقاء وإلاّ كان أبتر ـ كما ورد ـ وبهذا تعطى أوّل لبنة لبناء التصوّر الإسلاميّ، فيرتبط الكون بالحقّ تعالى، وتنتفي كل الآلهة الوهميّة. و(الله) هو اللفظ الموضوع للذات المستجمعة لكل الصفات الكماليّة.

المنعم نعمة وافرة شاملة للجميع دائمة لا تنفكّ عنه، وإنّ الرحمة هي أحد المبادئ الكبرى للتصوّر الإسلاميّ عن العالم.

والبسملة جزء من هذه السورة، ومن كلّ سورة قرآنيّة إلاّ سورة (براءة) كما هو موجود ـ منذ البدء ـ في المصاحف القرآنيّة، وتؤيده روايات أهل البيت عليهم السلام ـ كما نجده في التهذيب والكافي والعيون ـ وغيرها، ـ كما نجده في صحاح (مسلم) و(الدار قطني) و(أبي داود) ـ وهي أعظم آية في القرآن الكريم؛ لأنها تتحدّث عن قاعدة عامّة في التصوّر الإسلاميّ القرآني.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ②﴾ الثناء المتواصل له، والألف واللام للجنس، فالحمد المطلق لله، يلجأ إليه الإنسان بمجرد تصوّره لرحمته. وهو إمّا بملاحظة كماله تعالى، أو بالنظر إلى نعمه، أو بالرغبة والرهبة.

الربّ: المالك والسيّد والمربّي، ولا يطلق على غيره تعالى مضافاً كرّب الدار. وبهذا تنتفي كل الربوبيّات المصطنعة. العالمين: ويمكن أن يراد بها كل عوالم المخلوقات، كما يمكن أن تعني أصناف الإنسان.

وتربية الله للإنسان تكوينيّة، باعطائه موادّ التكامل من غرائز وعقل وغيرها، وتشريعيّة بهدايته إلى النظم التي تسيّر حياته. والمربّي بالخلق، والتكوين، هو المربّي بالتشريع والتنظيم لا غير.

﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ③﴾ بيان لمنشأ اختصاص الحمد به، وإسباغ لجو الرحمة على عمليّة التربية.

﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ④﴾ الدّين: الجزاء والحساب وفي هذا تأكيد على حقيقة المنتهى، حيث يقوم النّاس لربِّ العالمين ولهذا التصوّر الموسّع للحياة أثره في مجال حمل المسؤوليّة والترغيب والترهيب، والتوفيق بين المصالح الذاتيّة والاجتماعيّة.

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ حيث نتحرّر من كل العبوديّات الزائفة، ونعبدك وحدك ولا نستعين بسواك وتغيّر الأسلوب إلى الخطاب تأكيد على الحضور الحقيقيّ للمعبود لدى العابد والعبادة الشاملة لكل نواحي الحياة، والاستعانة بالله تمنح الإنسان طاقة واطمئناناً كبيرين بعد أن كان هو الغنيّ القادر على كل شيء ولا ينافي ذلك الخضوع والطاعة للمخلوق والاستشفاع به بأمر منه تعالى.

﴿اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ ۝٦﴾ صراط الإيمان بالله والتكامل، وهو الإسلام المتمثل في تعاليم القرآن ومنهج الرسول ﷺ ، وأهل بيته.

﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ ۝٧﴾ من النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين.

أمّا المغضوب عليهم فهم كل من عرف الحقّ وعانده، ومنهم غالب اليهود وأمّا الضالّون فهم الذين تاهوا عن الحقّ، ومنهم غالب النصارى.

فثمّة طريقان: طريق الإسلام، وطريق الانحراف بإصرار أو ضلال وبهذا تضمّنت هذه السورة خلاصة المفاهيم القرآنيّة كلها.

سورة البقرة (٢)

آياتها ٢٨٦

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مربنا الحديث عن البسملة.

﴿الم①﴾ من الحروف المقطّعة التي ذُكرت اوائل بعض السور، واختُلف فيها على وجوه، منها: أنها لمجرّد تنبيه السامع إلى ما بعدها، أو للإشارة إلى أن القرآن مؤلّف منها ومن أمثالها ولكنه يتحدّى الانس على أن يأتوا بمثله، ويؤيّده ذكر القرآن بعد هذه الحروف والتأكيد على صفته الخالدة، أو هي رموز بين الله والرسول تناسب مضامين السور وربما مبانيها وألفاظها، ولعلّ التدبُّر في السور المشتركة بحروف متشابهة يؤكّد ذلك، وتوقّف بعض فيها، وجعلها آخرون من المتشابهات.

﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ②﴾ إشارة إلى وعد الله لرسوله بإرسال الكتاب الهادي للبشرية، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فهو يعلو ولا يعلى عليه، لأنه الحقّ والهدى فلا يرتاب المنصفون في مضامينه.

فهو يهدي كل النّاس للتي هي أقوم، وإنما خصت الهداية بالمتّقين لاستعدادهم النفسي لترك الضّلال والاهتداء إلى الحقيقة، مما يشكل استعداداً للتأثر وتقبّل الهداية القرآنيّة التي تزيدهم هدى، وتلك حقيقة مهمّة ركّز عليها القرآن في مواضع عديدة، فالذين يتّقون آثار الضّلال يؤمنون بالقرآن؛ لأنه لا ريب فيه فيقودهم نحو السعادة الدائمة.

﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ③﴾ الصّفة الأولى للمتّقين هي: اليقين بعالم أوسع من عالم الحس، والتعلّق بالله الحقّ سبحانه، والإيمان بالوحي والآخرة وأمثالها، وذلك عن وعي ودليل، مما يحقّق للإنسان إنسانيّته، ويلقي آثاراً كبرى على حياته، وينقذه من الوهدة المادّيّة إلى السموّ المعنويّ والكمال. فهذه الصفة تعني الإيمان بأصول الدين.

والصّفة الثانية لهم هي: إقامة الصلاة، وأداؤها أداءً كاملاً، والخروج بها من مجرّد حركات وطقوس إلى استيحاء مداليلها التربويّة في الشعور والعمل، وتحقيق الصلة بين العبد وخالقه.

أما صفتهم الثالثة فهي: الإنفاق من عطاء الله، إذ رزقهم المال والعلم والحياة، فراحوا

يشكرون ذلك بالإنفاق لتتقوّى الروابط الإنسانيّة، وتسدّ الثغرات الاجتماعيّة، ولا ريب في أن الإنفاق يعبّر عن تقوى خالصة وإيمان بالغيب عميق، وقيام بالواجب الإنسانيّ وحتّى التكوينيّ، حيث نجد الإنفاق صفة عامّة للموجودات.

﴿والَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾﴾ وصفتهم الرابعة أنّهم يصدّقون بالقرآن العظيم ومفاهيمه وتشريعاته، ويصدّقون بكل الكتب السماويّة السابقة كما أنزلها الله، وهذه الصّفة الرابعة تُشعر بوحدة المسيرة المؤمنة، مما يمنح المؤمن شعوراً كبيراً بأنّه وارث خطّ النبوّات عبر التاريخ.

أمّا صفتهم الخامسة فهي: أنّهم يعتقدون اعتقاداً نافذاً إلى الأعماق، ومالئاً للوجدان بعالم الآخرة الذي يشكل المرحلة العليا للحياة الإنسانيّة الهادفة، واليقين بشيء لا يجتمع مع نسيانه مما يبعد المؤمن عن الذنوب، وبالتأمّل يتضح الترابط الطبيعي بين التقوى وهذه الصّفات المترابطة فيما بينها أيضاً. وهكذا يكون المتّقون ـ دون غيرهم ـ هم الذين حظوا بالهداية الإلهيّة فاستحقوا الفلاح الدائم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ اللّهُ عَلَى قُلُوبِهمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عظِيمٌ ﴿٧﴾﴾ وهؤلاء يقفون في قبال المتّقين، إذ لا يتلقّون هداية القرآن، ويتساوى لديهم الإنذار وعدمه، بعد أن أعماهم العناد المتناهي، فجعل الله حاجزاً حاجباً لقلوبهم عن نفوذ الإيمان، وللسمع عن نداء الحقّ، وللأبصار عن رؤية آيات الله الساطعة.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَادِعُونَ اللّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُم وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾﴾ وهذه هي الطائفة الثالثة القلقة التي تشكّل نموذجاً للمنافقين عبر العصور، فهم يحاولون التقنّع بقناع الإيمان لضرب الإيمان والمؤمنين، متّخذين من إيمانهم جُنّة، ومحاولين بذلك خداع الله والتمويه على الرسول والمؤمنين ـ جهلاً منهم وغباءً ـ وهم لا يخدعون إلاّ أنفسهم التي ستصيبها عاقبة السوء.

وفي هذا تثبيت لقلوب المؤمنين، وكشف لخطط المنافقين، وإضعاف لقواهم وإجهاض لآمالهم.

﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللّهُ مَرَضاً وَلَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾﴾

فالكفر والشكّ يتردّد في قلوبهم، ويستفحل ويشتدّ كلّما استمرّ جوّ العناد، حيث يتحول النور الهادي فيه بأمر الله إلى ظلام دامس. كما تشتد وطأة هذا المرض كلما عظَّم الله شأن النبيّ ﷺ ، وانتصرت رايات الإسلام فهم في مرض وألم بالإضافة إلى ما سيلقونه من العذاب الأليم لتكذيبهم بالحقّ.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ قَالُواْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَـكِن لاَّ يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾﴾ وهذه صفة أخرى لهم، إذ يلبسون لباس الإصلاح والبناء وهم في الواقع مفسدون في الأرض، يبعدون النّاس عن هدى القرآن، ويمزّقون القوى باسم تجميعها وإصلاحها.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُواْ كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُواْ أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاء أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاء وَلَـكِن لاَّ يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾ وإذا طلب منهم أن يتبعوا سبيل العقلاء من النّاس راحوا يصفونهم ـ جهلاً وعدواناً ـ بالسفهاء، أي الذين اضاعوا رشدهم وطاشت عقولهم. وهي صفة أخرى تعبّر عن تذرّعهم المقيت، وتعاليهم الزائف على من عداهم، بما سوّلت لهم أنفسهم، فوصفوا الواعين بالسفاهة، وهم أجدر بها لسلوكهم المشين، وتعاملهم المخاتل مع المسلمين وأعدائهم، ظانين ذلك فطنة ودهاء، وما هي إلاّ الخسّة والدناءة والجهل المعقَّد والتخبُّط.

﴿وَإِذَا لَقُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ قَالُواْ آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُواْ إِنَّا مَعَكْمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِؤُونَ﴿١٤﴾﴾ فهؤلاء يظهرون بوجهين، ويتكلّمون بلسانين، يقولون للمؤمنين: آمنّا (وربما كان المراد: آمنّا بانطباق الصفات الواردة في التوراة على الرسول)، فإذا التقوا سرّاً بشياطينهم الذين يوحون لهم ويحرّكونهم، قالوا نحن معكم وعلى عقيدتكم، وما تعاطفنا مع المسلمين إلاّ استهزاء بهم.

﴿اللّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴿١٥﴾﴾ يفسح المجال لهم كي يعمهوا ويتردّدوا في طغيانهم فتزداد مساوئهم وتنكشف خططهم على الملأ، فلا يجدوا إلاّ الخسران، وفوز المؤمنين الذين يستندون إلى الله، فيمدّهم بالنصر بعد أن يصيب عدوّهم بالبوار.

﴿أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوُاْ الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴿١٦﴾﴾ إنّهم خاسرون حينما فضّلوا العمى على الهدى الذي فطروا عليه، والإسلام الذي جاءهم

ليسعدهم، فلا هم انتفعوا بعطاء الدين، ولا هم استطاعوا إيقاف مسيرته الصاعدة. وهنا يذكر القرآن لهؤلاء مثلين، أولهما:

﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَّ يُبْصِرُونَ ﴿١٦﴾ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ ﴿١٧﴾﴾ إنّهم كمن عمل على إيقاد نار يستضيء بها، فلمّا أضاءت جاءتها ريح فأطفأتها، فراح يتخبط في غياهب الظلام، وهكذا حال المنافقين، إذ أنّهم سلكوا طريقاً يحاولون به الاستفادة من خير المؤمنين، وتحقيق مقاصدهم تحت ظل الإيمان، إلاّ أنّ الوحي يكشف خططهم، فيتمزّق القناع الواهي، وينطفئ الضوء الموهوم، فإذا هم لا يسمعون نداء، ولا يقدرون على نطق، ولا يبصرون سبيلاً للخلاص. وعاقبة هذا أنّهم لا يرجعون إلى مأمن الهدى، بعد أنْ تمزّق جمعهم وضاعوا في تيه الضلال.

أو أنّ هؤلاء استوقدوا نار الإسلام ليستفيدوا منها، دون أن يقوموا بواجبهم تجاهه، فذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات جزاء إعراضهم.

وهذا المثل ينطبق على الأمم التي اعتنقت الإسلام، ولكنها ترددت بين شريعته والنظم الوضعيّة الأخرى، فابتليت بظلام الانحطاط.

﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاء فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصْابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ واللّهُ مُحِيطٌ بِالْكافِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاء لَهُم مَّشَوْاْ فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُواْ وَلَوْ شَاء اللّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّه عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾ ومثلهم الثاني: الإنسان الحائر الذي تمطره السماء بشدّة، ويغطّيه الظلام الحالك، وتقصفه الرعود والبروق فلا يجد مهرباً من ذلك إلاّ أن يلجأ ببساطة إلى وضع أصابعه في أُذنيه، ليحتمي من غضب الله المحيط به، وربما حاول أن يستضيء بالبرق الخاطف، ليمشي خطوات ثمّ يفاجئه الظلام مرة أخرى، فيقف متردّداً حائراً، ولو شاء الله لأفقده السمع والبصر من الأساس، فهو القدير على كل شيء.

والمنافقون ـ عبر هذا المثل ـ حيارى يضربهم مطر الإسلام فلا يصيبهم منه إلاّ العقبات والإنذار والجهاد القويّ ضد خططهم، مما يتركهم في قلق شديد لا يمكنهم التخلص منه بالتستّر الكاذب، وربما حاولوا أن يستفيدوا من نور الإسلام وسماحته شيئاً، لينفّذوا

خططهم، ولكنها لحظات ثمّ يعود الظلام والحيرة القاتلة. تلك هي حال المنافقين، ولو شاء الله لسلبهم كل ما يملكون من قدرة على أيّ شيء.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاء بِنَاء وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَّكُمْ فَلاَ تَجْعَلُواْ لِلّهِ أَندَاداً وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ وبعد الإشارة إلى الأصناف الثلاثة، دعا الله النّاس جميعاً إلى الانضمام تحت لواء المتّقين بعبادة الله الواحد الخالق لهم وللذين من قبلهم، وإقامة حياتهم على أساس توجيهاته وحده، إذ هو الذي أنعم عليهم بعد الخلق، بأن هيّأ لهم كل الظواهر التي تيسّر لهم حياتهم، من أرض ممهّدة كالفراش، وسماء تعبّر عن بناء متناسق، وأنزل من السماء ماء يحيي كل شيء، فأخرج به نباتاً يقيم لهم أود الحياة... إنّ هذا التناسق في الكون يكشف عن الخالق المنظّم الواحد، لكل ذي عقل وفطرة سليمة، فلا معنى لجعل الأنداد والشركاء له تعالى.

﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُواْ شُهَدَاءكُم مِّن دُونِ اللّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَاتَّقُواْ النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾ تعلن هذه الآية التحدّي الإسلاميّ للجميع في أن يأتوا ب١مثل هذا القرآن، لتثبت لهم أنّه معجزة فوق طاقة الإنس والجنّ، وتؤكّد صدق النبي والاطمئنان بما يأتي به من عقائد وتشريعات. وقد عجز العرب وهم فرسان ألبيان أمام التحدي، فلجأوا للقتال وتركوا المعارضة البيانيّة.

وهناك ـ بالإضافة للإعجاز البياني ـ جوانب إعجازيّة أخرى في القرآن، كإخباره بالغيب، ومنه ما تؤكّده هذه الآية من عدم قدرتهم على الإتيان بمثله، وكذكره للحقائق العلميّة التي اكتشف الإنسان بعضها بعد زمن طويل، وكذلك اشتماله على أروع نظام متكامل للحياة يفوق كل ما عداه بما يستحيل أن يجعله نتاجاً بشريّاً.

ويمتاز الإعجاز القرآنيّ على سائر المعاجز، بأنّه لا يمكن أن ينفصل عن جانب الهداية فيه، فالقرآن معجزة هادية تربّي الإيمان في النفس تربية متأنيّة، بالإضافة إلى أنها معجزة معنويّة خالدة.

وإذا لاحظنا جوانب الإعجاز القرآنيّ، والإثنينية الواضحة بين الموحي والموحى إليه

(عبدنا)، والوعي والإخلاص النبويّ، عرفنا بطلان نظريّة الإيحاء النفسي وأنّ القرآن نتائج لعبقريّة النبيّ.

وجعل الكفار هنا إلى جنب الحجارة يؤكد هول النار، كما يؤكد كون الكافرين بمنزلة الحجارة، بعد أن لم يعملوا مواهبهم العقليّة.

﴿وَبَشِّرِ الَّذِين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقاً قَالُواْ هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُواْ بِهِ مُتَشَابِهاً وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥﴾﴾ هنا بشارة للذين آمنوا، وانعكس إيمانهم في سلوكهم، بأن لهم النعم العظمى؛ من جنان تجري من تحتها الأنهار، وثمار يرون أنّهم رزقوا مثلها من قبل، إلاّ أنّها فوق ذلك بكثير، وهي متشابهة جودة ولذّة، وأزواج مطهّرة تجمع معاني الجمال، وخلود في النعيم، وهو أعظم أمل محرك يتصوّره الإنسان، وفّره الإسلام للمؤمنين العاملين، وعجزت عن توفيره المبادئ المادّيّة.

﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾ ضرب الله من قبل مثلين. وربّما كان من أعداء الإسلام إنكار واستهانة بالتمثيل، فجاءت الآية تؤكّد على أنّ الله لا يرى نقصاً في ضرب أي مثل يؤدّي غرضاً حقاً، سواء كان ببعوضة أو ما هو أكبر منها، بعد أن كانت المخلوقات جميعاً تحيّر العقول بصنعة الله التي يتملاها المؤمنون، حين علموا أنّه الحقّ من ربّهم. أمّا الجاحدون فيقعون في حيرة متسائلين عن الهدف، فيردّ القرآن عليهم، بأنّ هذا التمثيل يؤدّي إلى هداية كثير من الناس. أمّا الذين يضلّون به، فهم الذين جرّوا أنفسهم إلى الفسق، وهو الخروج عن الإنسانيّة المتقوّمة فطرياً بارتباطها بالله وطاعته.

﴿الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ والفاسقون ـ بعصيانهم ـ نقضوا العهدَ الإلهيّ والمواثيقَ التكوينيّة التي أخذها عليهم، عندما غرس في وجودهم العقل والدوافع الفطريَّة للسير نحوه وطاعته، فقطعوا بذلك الصّلة بينهم وبينه تعالى، كما قطعوا الصّلة بما أمر الله به أن

يوصل، من قرآن يوجِّه حياتهم ـ وهو الثقل الأكبر ـ وقيادة معصومة ينشدُّون إليها بالحبِّ والطاعة ـ وهي قيادة النبي ﷺ وأهل بيته: ـ وهم الثقل الاصغر ـ وأرحام تقوّي الأواصر الاجتماعيّة وغيرها. ومن الواضح أنّ الذي يعيش حالة التمزّق هذه سوف يخسر كل شيء.

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ إستنكار للكفر بالله رغم كل الآيات الدالة عليه، ومنها ظاهرة (الحياة) و(الموت) التي يعايشونها ويدركون أنّ لكل من الحالتين خصائص مختلفة. والإنسان يمرّ بهما دون أن يملك إرادته تجاهها، مما يعبّر عن محكوميّته لقدرة عليا، خلقته وطوّرته وسوف تعيده إليها لتحاسبه على مسيرته.

وهذه الآية قد تشير إلى المراحل التالية: (ما قبل الحياة الدنيا ـ الحياة الدنيا ـ الموت ـ البرزخ ـ القيامة)، كما أنّها ربّما أرادت الانتقال من الموت الى الحياة الآخرة.

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾ إشارة إلى الظواهر المتناسبة الكثيرة التي تخدم الإنسان وحياته في الأرض، مما يعبّر عن العناية الإلهيّة، وعن الكرامة الإنسانيّة، التي تجعله سيّداً حاكماً لا محكوماً للمادّة.

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ تعرض هذه الآية وما بعدها حواراً، يخبر تعالى ملائكته فيه عن جعل الخليفة في الأرض، فيتساءلون عن سرّ ذلك، مع علمهم بأن هذا المخلوق مفسد سافك للدماء، وهذا الموجود الأرضيّ مكوّن من عقل وعاطفة وغرائز تجرّه إلى الفساد، فلماذا يُجعل خليفة مع وجودهم الذي يقدّس الله ويسبِّح؟ فيأتي الجواب الإلهيّ بأنّه يعلم مالا يعلمون من امتلاك هذا المخلوق الجديد للقدرة على التطوير والإبداع والتربية، التي قد توصله إلى ما هو اسمى من درجات الملائكة بكثير، حيث يتحلى بالعصمة الإلهيّة.

﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَؤُلاء إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾

قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُمْ بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ إمتحان إلهيّ للملائكة، ليؤكّد لهم علمه اللامحدود من جهة، وقدرة الإنسان على استيعاب العلم بشكل لا يعهدونه من جهة أخرى، إذ يعلّم الله آدم أسرار الخلق وعجائبه وموجوداته السامية فيستوعبها، ثمّ يعرضهم على الملائكة، فيقفون عاجزين مسلّمين معترفين باكتساب العلم منه تعالى، فهو العليم الحكيم، فيطلب الله تعالى من آدم أن ينبّئهم بأسمائهم، فلمّا أنبأهم بذلك جاء التأكيد الإلهيّ على علم الله المطلق، الذي يتساوى لديه الظاهر والباطن.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾ أمر الله ملائكته أن يسجدوا لآدم تكريماً له، ولما في صلبه من نور الأنبياء والأوصياء:، وتعظيماً واعترافاً بأفضليته، فجاء التسليم الكامل من الملائكة، في حين تجلّت المعصية والجهل في إبليس الذي كان يعاشرهم وليس منهم، فكان النموذج الأعلى للكافرين. ويستفاد هنا: أنّ الإنسان يمتلك قدرة على ارتياد المجاهيل، ولا يحتفظ بإنسانيّته إلاّ إذا أعمل هذه القدرة، وهو بذلك يحصل على مقام كريم تؤمر الملائكة بالسجود له، وكل ذلك في إطار من التسليم الكامل لله، ورفض أسلوب الشيطان المتكبّر المعاند للحقّ.

وهذا التسليم الكامل يتمّ بطاعة الله، كما يجب أن يُطاع، ولو كان السجود لإنسان مادام ذلك بأمره تعالى مشروعاً، فلا يبقى ريب في مجال طاعة القادة المعصومين وحبّهم، بعد أن كان ذلك مرضياً لله وتعظيماً وطاعة له تعالى.

﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلاَ مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الْظَّالِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾ والحديث هنا عن تجربة الإنسان الأوّل في الجنّة، والتي هيّأته لأن يقوم بحمل خلافة الله في الأرض ويشعر بمسؤوليّتها، فقد هيِّأت له ولزوجه في الجنّة أسباب العيش الرغيد، ثمّ كُلّفا بعدم القرب من شجرة ما، وحذِّرا من أن قربهما منها يؤدّي إلى ظلم النفس بحرمانها من النعم المتوفّرة.

وهذا تمرين على امتلاك ارادة الثبات على عهد الله، والتي هي قوام إنسانيّة الإنسان.

﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ

وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴿٣٦﴾ ولكنَّ الوسوسة الشيطانيّة حرفتهما عن الخطّ الطبيعي للإنسان، فأخرجتهما من سعادة الثبات عليه، وكانت النتيجة أن أُخرجا من الجنّة، لتبدأ مرحلة مواجهة في الأرض ـ ذات التمتّع المحدود ـ بين الإنسان والشيطان، وهو رمز الأذى والعداء للإنسان، والممثّل لحالة التمرُّد والعصيان والتكّبر والإغواء، ولا ريب في دور هذه المواجهة بينهما في دفع الإنسان للسير في طريق التكامل وتفجير طاقاته البنّاءة.

﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾﴾ إلاّ أنّ الرحمة الإلهيّة أدركت الإنسان عند كبوته الأولى، وفتحت له طريق الرجوع بأن علَّمته أسلوب طلب المغفرة، والتوسُّل بكلمات شريفة تفتح له أبواب الأمل، ليشرع في مرحلة جديدة... ثمّ شملته الرحمة ثانية عندما قُبلت توبته.

﴿قُلْنَا اهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرواْ وَكَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٩﴾ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَآمِنُواْ بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَكُمْ وَلاَ تَكُونُواْ أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلاَ تَشْتَرُواْ بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلاَ تَلْبِسُواْ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُواْ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾﴾ وهنا يأتي الخطاب الإلهيّ بالنزول إلى ميدان حمل الخلافة واطاعة تعاليم الله، التي يبعثها عن طريق الأنبياء، لتحقيق الأهداف العليا والخلاص من حالات الخوف والحزن والقلق المدمرة للسعادة، ليتمَّ التكامل في جوّ من الإطمئنان بالنتيجة التي ضمنها الله على أيّ حال.

أمّا الكفر والتكذيب بآيات الله فلا يؤدّي إلاّ إلى العذاب الخالد.

هذه هي قصّة التجربة الإنسانيّة الأولى، يعرضها القرآن بكلّ وضوح ونقاء وارتباط بينها وبين أهداف الإنسان، وتتجلّى عظمة هذا العرض بالمقارنة مع الصور الهزيلة التي عرضتها الكتب المحرّفة السابقة، بما فيها من خرافات وتناقضات ونسب باطلة إلى الله، كالتجسيم والجهل والحسد وإبعاد الإنسان عن منابع المعرفة والخير وأمثالها، في حين يجعل القرآن معرفة الإنسان سرّ كرامته وخلافته، والملاحظ أنّ الزلل قد مُحي بالتوبة فلا حاجة لنظرية الفداء المسيحية.

ينتقل الخطاب هنا إلى بني إسرائيل الذين كلِّفوا بحمل الرسالة قرونًا، لأجل تذكيرهم بنعم الله الكبرى، التي سيستعرضها القرآن بعد هذا، وهي تتطلّب منهم الوفاء بالعهد المأخوذ عليهم بطاعة الله، والسير العملي على هداه، والعمل بارشادات كتبهم التي بشرت بظهور النبي محمّد ﷺ ورسالته، التي تمثّل الصّورة التامّة لدين الله، والتي تطابق ماجاء في كتبهم من اصول التعاليم والبشارات.

إنّ شكر النعم والوفاء بالعهد يدعوهم للمبادرة إلى التصديق بالرسالة، لا المبادرة إلى المعارضة، ترجيحاً للمنافع المصلحيّة المادّيّة وخلطاً للحق بالباطل، وإخفاء متعمّداً له كما هو ديدنهم، حيث نجدهم يُلبسون المبادئ الهدّامة لبوساً علميّاً ودعائيّاً زائفاً، والقرآن إذ يوبّخ بني إسرائيل على نكولهم عن العهد إنما يوضّح للمسلمين خصائص اليهود التاريخيّة، كالعناد والتهافت على المادّة، والتلبيس وخلق الشبهات وكتمان الحقيقة، ليحذرهم المسلمون، وليجنّبوا أنفسهم مغبّة الاتصاف بهذه الصفات.

﴿وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ وَارْكَعُواْ مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ ادخلوا في صف المسلمين العابدين لله، باقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والتسليم الكامل بالركوع مع الراكعين.

ويتوجّه الخطاب إلى زعمائهم الدينيّين، الذين كانوا يأمرون أتباعهم بالتمسُّك بالتوراة وما فيها من برّ وتعاليم، وهم لا يلتزمون بالعمل بها، وهي تؤكّد ـ فيما تؤكّد ـ لزوم الإيمان برسول الإسلام، ولكن الخطاب عامّ في نهيه عن اتخاذ الدين حرفة وسبيلاً للغايات الرخيصة، ممّا يؤدّي إلى التشكيك في الرسالة وحَمَلتها. وقد أكّد قادة الإسلام المعصومون: لزوم التطابق بين الفكر والعمل، كقول الباقر عليه السلام: (إن أعظم النّاس حسرة يوم القيامة، من وصف عدلاً ثمّ خالفه إلى غيره)[1].

ولما لم يكن التنافر بين الفكر والسلوك أمراً طبيعيّاً، فهو يوجد القلق والاضطراب، وقد تؤدّي الإساءة العمليّة إلى التكذيب النظريّ.

﴿وَاسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴿٤٥﴾ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم

---

١. بحار الأنوار، ج ٧١، ص ١٨٧.

مُّلاَقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿٤٦﴾ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾﴾ بيان لاسلوب التغلّب على حالات الضعف أمام الاغراء المادّي، وذلك باعتماد عنصرين:

أحدهما(الصبر) أي امتلاك الارادة القوية، وتحمُّل المشاكل وتخزين الطاقات بروح الرضا، وأهمُّ محقّقاته الصوم.

وثانيهما: (الصلاة) والارتباط بالخالق العظيم.

إلاّ أنّ هذا الاعتماد أمر شاقّ ثقيل لا يتمّ إلاّ عند الخاشعين، الذين نفذ الإيمان إلى أحاسيسهم وعلموا بلقاء الله ورجوعهم إليه تعالى.

يبدأ القرآن بتفصيل نعم الله عليهم، وأولاها تفضيلهم على الأمم، بمنحهم شرف حمل خلافة الله ورسالته، الذي يبقى ماداموا عاملين بمقتضاها... وتذكيرهم بهذا اشارة للكرامة الرساليّة لهم ودفعاً لقبول الموعظة والاهتداء والتقوى.

﴿وَاتَّقُواْ يَوْماً لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلاَ يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ نفي لبعض التصوّرات اليهودية الباطلة وتأكيد على أنّه في يوم القيامة لا تتحمّل أيّ نفس تبعة نفس أخرى فلا تنفع الأنساب ولا يقبل منها شفاعة ووساطة وفداء، فلا ناصر لها من دون الله.

وبهذا نفى القرآن التصوّر اليهوديَّ ـ المسيحيَّ للشفاعة حيث تصبح مسوّغة لاعمال الإجرام في حين أنّ القرآن والروايات أكّدا وجود الشفاعة بمعناها الصحيح لبعض المقرّبين بإذن الله وبمقتضى رضاه وفي المحل المناسب حيث ينعدم الكفر والعناد. وبهذا ينفتح باب عظيم للأمل ولا يسمح باستغلال الشفاعة بعد أن كانت مشروطة، ولا يعلم أحد تحقّق شروطها فيه.

﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوَءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءكُمْ وَفِي ذَلِكُم بَلاء مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾ وهنا تذكير بنعمة إنجائهم من آل فرعون، بعد أن جشّموهم العذاب المستمرّ بذبح أبنائهم وإبقاء نسائهم على قيد الحياة لاستخدامهن، وكل ذلك أي العذاب والنجاة يمكن أن يشكل امتحاناً عظيماً لهم بالصبر على ظلم الطواغيت، والاعتبار من النجاة.

﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ وكذلك أنعم الله عليهم بشقّ الطريق لهم في البحر، ليعبروا ويغرق فرعون.

﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾﴾ وكذا أنعم عليهم بالعفو عنهم، رغم ظلمهم وعبادتهم العجل أثناء غياب موسى لأربعين ليلة.

﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾﴾ وهذه نعمة الوحي الذي آتاهم التوراة مقياساً لتمييز الحقّ من الباطل.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُواْ إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾﴾ كانت عبادة العجل ـ أثناء غياب موسى ـ سابقة اجتماعيّة خطرة جدّاً، خصوصاً بعد كلّ الآيات التي رأوها حسّاً، ولذا أعلن لهم موسى عليه السلام أنّهم قد ظلموا أنفسهم بهذا العمل، وأنّ عليهم التوبة النصوح إلى خالقهم، والتي تنسجم مع عظم الانحراف، وهي أنّ يقتل بعضهم بعضاً لكي يطهروا من رجس الشرك، ولتبقى ذكرى هذه التوبة شاخصة أمام الاجيال تمنعهم، كما تمنع غيرهم من التورّط في هذا الانحراف الهائل، وإذا افترضنا عمومية العقوبة فإنها نتيجة طبيعيّة لسكوت بعض النّاس عن عصيان الآخرين.

ولكنَّ رحمة الله تداركتهم قبل أن يفنوا عن آخرهم، فتاب الله عليهم وهو التوّاب الرحيم.

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ ذنب عظيم آخر ورحمة واسعة أخرى، حيث سأل المنتخبون الذين أخذهم موسى معه للميقات سؤالاً عظيماً، متأثّرين بانغماسهم في المادّة والحسّ فقالوا له: أرنا الله عياناً، وهذا طلب للمستحيل عقلاً؛ لاستلزام الرؤية التجسيم والتركيب والمحدوديّة للمطلق تعالى، ولذا جاء العذاب السماويّ رداً على عنادهم، ومنعاً لهم من تكرار أمثال هذا السؤال، وقد تمثّلت الرحمة في رجعتهم بعد موتهم إلى الحياة، ليشكروا الله تعالى على نعمه.

﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ

وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ ومن تلك النعم تظليل السحاب عليهم، صوناً لهم من لفح الشمس التي واجهوها وهم تائهون في الصحراء، كما أنّ منها إنزال «المنّ» ولعلّه صمغ الأشجار الحلو كالعسل، أو الكمأة ـ كما ورد ـ ومنها إنزال السلوى الذي قيل أنّه طائر السماني، الذي توفَّر لهم وصار في متناول أيديهم.

إلاّ أنّهم هنا ـ أيضاً ـ لم يشكروا الله بل ظلموا أنفسهم فقط، ولن يصيب ظلمهم الله تعالى كما يقول الإمام علي عليه السلام: «لا تضرّه معصية من عصاه، ولا تنفعه طاعة من أطاعه»[١].

﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُواْ هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَداً وَادْخُلُواْ الْبَابَ سُجَّداً وَقُولُواْ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزاً مِّنَ السَّمَاء بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾﴾ قد يكون المقصود من القرية هنا هو«بيت المقدس» حيث أمروا بالدخول ساجدين خاشعين، وأن يقولوا: حطّة، طالبين بذلك حطَّ أوزارهم، مستغفرين لذنوبهم، ولكنَّهم تمرّدوا أيضاً، فلم يفعلوا ما امروا به، وقالوا غير ذلك، فجاءهم العذاب من السماء لخروجهم عن خطّ الطاعة وعدم دخولهم باب حطَّة الذي هو باب الغفران. هذا وقد وردت الروايات الكثيرة المعتبرة عند المسلمين وهي تؤكد جعل مثل أهل البيت عليهم السلام في هذه الأمّة كباب حطَّة في بني اسرائيل، باعتبارهم السبيل الأقوم إلى مغفرة الله وطاعته.

﴿وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ كُلُواْ وَاشْرَبُواْ مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾﴾ وقد أنعم الله عليهم أيضاً بأن فجَّر لهم من الحجر ـ بدعاء موسى عليه السلام ـ اثنتي عشرة عيناً بعدد قبائلهم المنتسبة لأسباط يعقوب، فاختصّت كل قبيلة بمشربها، وذلك رزقاً من الله، وفضلاً يجب أن يشكر الله عليه، لا أن يعاث في الأرض بالفساد.

﴿وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُواْ مِصْراً فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَآؤُوْاْ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ

١. (نهج البلاغة، خ١٩٣، ص٣٠٣، صبحي الصالح).

بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾ عرض آخر لعناد اليهود ولجاجهم وكفرهم فهاهم ينعمون بالمنّ والسلوى، وتتفجّر لهم العيون كي يستمّروا في سيرهم نحو الغاية التي خرجوا من أجلها من مصر، فيحملوا بالتالي مهمّة الرسالة، لكنّا نراهم يرفضون بعناد وبطر هذه النعم ويكفرون بها، طالبين استبدالها بالبقل وهي الخضر، والقثاء، وهو نوع من الخيار، والفوم وهو الثوم أو الحنطة، والعدس والبصل.

فيستنكر ذلك نبيّهم موسى مذكّراً إيّاهم بسوء اختيارهم واستبدالهم الذي هو خير بالأدون، أما لو أصرّوا على ذلك، فإنه يمكنهم أن يدخلوا أيّ بلد شاءوا، وقد يكون المقصود الرجوع إلى مصر التي خرجوا منها خلاصاً من الهوان.

وهذه حقيقة قرآنيّة كبرى يعرضها سنّة إلهيّة في التاريخ، وهي أنّ العصيان والانحراف والقضاء على الأنبياء والمصلحين، على الرغم من العلم بدورهم الإيجابيّ الكبير، يؤدّي في النهاية إلى الذّلة والمسكنة والخضوع وفقدان مظاهر الحياة الإنسانيّة الكريمة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ردّ لدعاوى اليهود العنصريّة في كونهم وحدهم شعب الله والمغفور لهم سلفاً. فيقرّر القرآن أنّ باب السعادة والقرب الإلهيّ مفتوح لجميع النّاس على اختلاف قومياتهم وانتساباتهم، سواء كانوا مسلمين عاملين بإسلامهم أو يهوداً أو نصارى أو صابئين ـ وهم أتباع بعض الأنبياء ـ إذا كانوا قد آمنوا بالله واليوم الآخر واتبعوا الشريعة التي كلّفوا بها في زمانهم. أمّا بعد ظهور الإسلام فإن القرآن يقرر، بأن من يبتغي غير الإسلام ديناً فلن يُقبل منه.

وهكذا فإن أيّة أمّة إذا اتبعت سبيل الحقّ والرشاد فقد نفت عن كيانها الخوف والذلّة والحزن، بعد أن أوكلت أمرها وقيادتها إلى الله عزّوجل.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُواْ مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلاَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٤﴾ ويتحدّث القرآن عن موقف أخذ الله فيه العهد على بني إسرائيل في حمل رسالة الله، وجعلها حيّة في نفوسهم بتطبيقها على شؤون حياتهم بكل قوّة وإرادة وثبات.

ويؤطّر هذا الموقف بآية كونيّة هائلة، هي قلع الجبل من مكانه ورفعه على رؤوسهم، إمّا لضرب عنادهم وتحميلهم المسؤوليّة التي تضمن سعادتهم، وإمّا لإراءتهم آية حسيّة كبرى تقوّي من إيمانهم، وتؤكّد لزوم القيام بأعباء الهدى والشريعة.

ولكنّ هؤلاء خانوا عهدهم وميثاقهم، وانحرفوا بعد رؤية كلّ تلك الآيات، واستحقوا العقاب، إلاّ أنّ فضل الله عليهم ورحمته صار سبباً لنجاتهم من الخسران الكامل.

﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَواْ مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾﴾ كان العمل يوم السبت محرّماً على اليهود، ليفرغوا فيه إلى العبادة، وليتدرّبوا على الحدّ من طمعهم، ويمتحنوا فيه صلابة الارادة، إلاّ أنّ طائفة منهم تجاوزت المنع وراحت تصطاد من البحر، مستحلّة لذلك، أو أنها كانت تخطّط لعدم فرار السمك الذي كان يكثر يوم السبت امتحاناً لهم، وكان جزاء تحدّيهم لأوامر الله أن أُخرجوا أذلاء خاسئين من الإطار الإنسانيّ بالمسخ والانضمام إلى فصيلة القردة المعروفة بنزواتها وشهواتها.

فكانوا بذلك عبرة لمن رأوهم في زمانهم ولمن جاء بعدهم، ليمتنعوا عن الخروج على حدود الله، وليتّعظ بها من يطلب الحقّ ويخشى الله.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُواْ بَقَرَةً قَالُواْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً قَالَ أَعُوذُ بِاللّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُواْ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لّنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ فَارِضٌ وَلاَ بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُواْ مَا تُؤْمَرونَ ﴿٦٨﴾ قَالُواْ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاء فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ ﴿٦٩﴾﴾ إستعراض لحادثة عميقة الأثر في حياة بني اسرائيل، وفي مطلع الاستعراض نجد موسى عليه السلام يبلّغهم الأمر الإلهيّ لهم بذبح بقرة، وكان عليهم أن ينفّذوا هذا الأمر بلا اعتراض، تسليماً لله تعالى، ولكن طبيعتهم المعاندة دفعتهم لاتهامه، بأنّه يهزأ بهم، فيستعيذ موسى بالله من الهزء والسخريّة في أوامره تعالى؛ لأن ذلك من صفات الجاهلين.

﴿قَالُواْ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ البَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَاء اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ ذَلُولٌ تُثِيرُ الأَرْضَ وَلاَ تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لاَّ شِيَةَ فِيهَا قَالُواْ الآنَ

جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾﴾ ويستمرّون في لجاجتهم فيتساءلون عن صفات البقرة مع شيء من الاستخفاف في تعبيرهم: ادع لنا ربك، المتكرر ثلاث مرات. فأجابهم موسى بأن الله يصفها بأنّها بقرة لا فارض (كبيرة) ولا بكر (صغيرة) وإنّما هي عوان (وسط بينهما) فلينفّذوا ما أمرهم به، غير أنّهم يسألون ـ مرة أخرى ـ عن لونها فيجيبهم بأنّها صفراء حسنة اللون شديدة الصفرة، تسرّ الناظرين إليها. فيعودون للسؤال بطلب المزيد من التوضيح، بادّعاء اشتباه البقر عليهم، فيقال لهم: إنها (لا ذلول) أي لم يذللها العمل في إثارة الأرض وحراثتها، ولم تتدرب على سقي الزرع وهي سالمة من العيوب، ولا بقع فيها تخالف لونها.

وبعد كل هذا اللجاج والتساؤل الذي أعقبه التضييق والتشديد عليهم، قالوا: الآن جئت بالحقّ، وكأنّهم كانوا يشكّكون في أقوال نبّي الله من قبل، وأخيراً أقدموا على ذبحها، وما كادوا يفعلون ذلك، لصعوبة التنفيذ عليهم، إذ كانت البقرة ملكاً لولد برّ والده فأهداه إياها لينتفع بها، فاستفاد الولد من احتياج بني إسرائيل إليها فغالى في ثمنها مما أجبرهم على الرضوخ واعطائه ما يريد من الثمن.

ولعلّ أمرهم بذبح البقرة إشارة إلى أنّها مخلوق مسخّر لصالح الإنسان، فلا يستحقّ أن يعبد من دون الله، كما فعلوها من قبل.

﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾﴾ وهنا يوضّح القرآن سرّ الأمر بذبح البقرة، إذ كانوا قد عثروا على قتيل، واشتبه عليهم أمر القاتل، وراح كل يدرأ التهمة ويدفعها عن نفسه، مما أوجد خلافاً شديداً بينهم، فكان الأمر بذبح البقرة وضرب القتيل بجزء منها، لينهض حيّاً ويكشف عن قاتله، وليوضّح الله الحقّ بعد كتمانه من قبلهم، وليكون هذا المشهد آية ساطعة على إحياء الموتى بإذن الله، وتثبيتاً لإيمانهم، لعلّهم يعملون عقولهم في سبيلها الصحيح، بعد أن رأوا جزءاً من حيوان ميّت يضرب به قتيل فيحيى بإذن الله.

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاء وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللّهِ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾ كانت الآيات السابقة تدعو للخضوع والخشوع لله

تعالى وتحريك العاطفة في سبيله إلاّ أنّ قلوب بني إسرائيل قست، فكانت كالحجارة، بل هي أشدّ، إذ الحجارة قد تفيض بالخيرات والرحمة، حيث قد تتأثّر بالماء الكثير فتتفجّر منها الأنهار، وبالماء القليل فتتفطر وتنبع منها العيون، وأنّ منها لما يهوي من خشية الله، كما اندّك الجبل حينما تجلّى الله له، في قصة موسى عليه السلام ولكن قلوبهم المتحجّرة لم تتأثّر بآيات الله المتجلّية عياناً، وانعكست قسوتها على أعمالهم، ولكن الله لا يغفل عما كانوا يعملون. إنّ هذا التقريع لبني إسرائيل على ذلك، يركّز على لزوم اتصاف المؤمنين بالرحمة وامتلاك العواطف الواعية المتّصلة بالله، وقد قال تعالى في موضع آخر: «أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الحقّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ»[1].

وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: (إنّ أبعد النّاس من الله، القاسي القلب)[2].

كما ورد عن علي عليه السلام قوله: (ما جفّت الدموع إلاّ لقسوة القلوب، وما قست القلوب إلا لكثرة الذنوب)[3].

﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلاَمَ اللّه ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾ لقد تصور المؤمنون سرعة استجابة اليهود للدعوة؛ لأنّهم موحدون، وقد خاب ظنّهم في ذلك، فجاءت الآية تنكر هذا الظنّ، وتذكّرهم بصفات اليهود، وتهوّن من قيمتهم لئلاّ ينظر اليهم نظرة إجلال وتعظيم، فعرض تاريخهم الأسود، وعملهم على تحريف كلام الله عمداً بعدما سمعوه ووعوه. وإذا كان ذلك شأن أحبارهم ونخبتهم فكيف بالعامّة والجهلة منهم.

﴿وَإِذَا لَقُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ قَالُواْ آمَنَّا وَإِذَا خَلاَ بَعْضُهُمْ إِلَىَ بَعْضٍ قَالُواْ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾﴾ كان بعض اليهود يحدّثون المسلمين ببشارات التوراة بالنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم فإذا اجتمعوا فيما بينهم وبّخ بعضهم البعض الآخر

١. الرعد: ١٦.
٢. مجمع البيان، ج ١، ص ٢٨٠، إنتشارات ناصرخسرو.
٣. وسائل الشيعة، ج ١٦، ص ٤٦.

المحدّث على الأمر الآنف، واعتبروه خلاف الفطنة، إذ تسلّم الحجج بيد المسلمين ضدّ اليهود مع أنّها مما فتح الله به عليهم.

﴿أَوَلاَ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللّه يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾﴾ ولكنّهم ـ بعض اليهود ـ يغفلون عن أنّ الله يعلم ما يسرّون وما يعلنون، فالاحتجاج عند الله إنّما يكون بالواقع لا بما كشفه هؤلاء من الواقع.

﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لاَ يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلاَّ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾﴾ ومن اليهود فريق جاهل مستغل، لا يعرف من الكتاب إلاّ مجرد تمنّيات بالخلاص بفعل تحريفات كبارهم. وهؤلاء لا يتوقّع لهم الرجوع عن جهلهم. إنّ الأمانيّ إذا لم يدعمها العمل لتحقيقها لا قيمة لها. يقول الامام الباقر عليه السلام : «وأبلغ شيعتنا، أنّه لن يُنال ما عند الله إلاّ بالعمل»[١].

﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللّه لِيَشْتَرُواْ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُمْ مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾﴾ وعذاب للكبار المستغلين، الذين يكتبون ما يحقّق لهم مصالحهم من آراء، ثمّ ينسبونها لله لتكون مقدّسة، فهم إذن يبيعون الحقّ في قبال مصالحهم الرخيصة، وكلّ ثمن في قبال الحقّ قليل. ويصف الامام الصادق عليه السلام المستأكل بدينه بأنّه (الذي يفتي بغير علم ولا هدى من الله، ليبطل به الحقوق طمعاً في حطام الدنيا)[٢] وعاقبة مثل هؤلاء الفقر والهلاك.

﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللّه عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللّه عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللّه مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾﴾ غرور يهودي يشكّل أحد أمانيّهم، بادّعائهم أنّهم لا يعذّبون بالنار جزاء أعمالهم إلا أيّاماً معدودة، ولكنّ القرآن ينكر عليهم ذلك، فلم يحصلوا على وعد إلهيّ مسبق به، وإنّما هو تقوّل على الله بغير علم.

﴿بَلَى مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨١﴾﴾ ذكر لحقيقة قرآنيّة عامّة، تردّ الدعوى السابقة؛ وهي أنّ من كسب السيئات وأحاطت به الذنوب فصاغت حياته وسلوكه، وسدّت عليه طرق الهداية، لابدّ وأن يخلد في النار يهوديّاً كان أو غيره.

---

١. الكافي، ج ٢، ص ٣٠٠.
٢. معاني الأخبار، ص ١٨١، وسائل الشيعة، ج ٢٧، ص ١٤٢.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لاَ تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْناً وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنكُمْ وَأَنتُم مِّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾﴾ أمّا المؤمنون الملتزمون بالنهج القويم، فهم أصحاب الخلود في الجنّة. وقد سبقت الإشارة لهذا الميثاق المعبّر عن وحدة الدين عبر التاريخ في أُصوله وسننه، وهو يعطي التوحيد أساساً عقائديّاً للدين، بما فيه من تصوّرات ونظم للحياة، ومنها الأحكام التي تشدّ الجوانب الاجتماعيّة في إطار عاطفيّ واع، كالإحسان إلى الوالدين وذوي القربى واليتامى والمساكين، كما أنّ منها القول الحسن الذي يشيع المعروف والثقة في المجتمع.

وقد ورد عن الامام الباقر عليه السلام في تفسير هذه الآية: «قولوا للناس أحسن ما تحبّون أن يقال لكم»[١].

كما أنّ منها إقامة الصلاة بشرائطها، وإيتاء الزكاة لتحقيق التكافل والتوازن الإجتماعيّين، إلاّ أنّ بني إسرائيل نكثوا هذا العهد وأعرضوا إلاّ القليل منهم، ولا تخلو أمّة من المخلصين.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لاَ تَسْفِكُونَ دِمَاءكُمْ وَلاَ تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾﴾ ومن المواثيق التي أقرّت بها اليهود وشهدت عليها، أن لا يريق بعضهم دماء بعض، وأن لا يخرج بعضهم بعضاً من ديارهم.

﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَؤُلاء تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاء مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾﴾ تركيز على التناقض العملي لليهود المعاصرين لبدء الدعوة الإسلامية، إذ كانوا فرقاً متنازعة ـ في المدينة ـ وربما حالف بعضهم غيرهم من قبائل العرب، لضرب بعضهم الآخر، وإخراجه من دياره ظلماً وعدواناً، ولكن إذا وقع بعضهم في الأسر عملوا على استخلاص اسراهم بالمال، حتّى ولو كانوا من الفئة المعادية، وذلك عملاً بما جاء في التوراة من أنّه: (لا تجد

١. وسائل الشيعة، ج ١٦، ص ٣٤١.

مملوكاً من بني إسرائيل إلاّ أخذته واعتقته). وهنا يبدو التناقض بين تمسُّكهم بالتوراة في مفاداة أسراهم، ورفضهم لها في مجال قتل بعضهم وإخراجهم، وهو أهمّ من المفاداة.

إنَّ القرآن ينكر عليهم هذا التجزيء والعمل بقسم من الكتاب مع الكفر بالآخر وتركه. وهذا الاستنكار لا يخصّ اليهود بل يعم الأمم المؤمنة، فإن الشريعة كل مرتبط لا يؤدّي إلى ثماره المرجوّة إلا بالتطبيق الكامل لكلّ نظمه في كلّ مناحي الحياة الفرديّة والاجتماعيّة. وممّا يؤسَى له أن نجد البلاد الإسلاميّة اليوم، تجعل الإسلام أحد مصادر التشريع في دساتيرها، رغم أنّه يجب أن يكون المصدر الوحيد للتشريع.

ولاريب في أنّ جزاء من يجزّئون تعاليم الله في مقام العمل، هو الانحطاط والتأخّر والخزي في هذه الدنيا، والعذاب الشديد في الآخرة، باعتبار أنّ نوعيّة العمل في الدنيا تحدّد نوعيّة الجزاء في الأخرى.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُاْ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ فَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾﴾ باعوا أُخراهم بدنيا رخيصة محدودة النفع والحياة، فجزاؤهم العذاب الشديد الذي لا هوادة فيه من دون أن ينصرهم أحد، فيدفع عنهم العذاب، وبطلان قولهم السابق: لن تمسّنا النار إلاّ أياماً معدودة.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءكُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾﴾ تتابعت الرسل على أثر موسى عليه السلام حتّى بعث الله عيسى عليه السلام في بني إسرائيل بالآيات الواضحات، وأيّده بالروح المقدّس، وقيل هو جبرئيل، أو اسم الله الأعظم الذي كان يحيي به الموتى. وقد جاء الأنبياء لتربية البشريّة والتسامي بها وتذكيرها بواجبها وتفجير طاقاتها. يقول الامام علي عليه السلام: <فبعث فيهم رسله، وواتر إليهم أنبياءه، ليستأدوهم ميثاق فطرته، ويذكّروهم منسيّ نعمته، ويحتجّوا عليهم بالتبليغ، ويثيروا لهم دفائن العقول[١].

فلا مجال لبني إسرائيل بعد تواتر الرسل فيهم، أن يعتذروا بنسيان وطول أمد، ولكنهم أرادوا أن تستجيب الشرائع لهواهم ونزواتهم بدلاً من اتّباعها المفروض لتسمو نفوسهم على أهوائها،

١. نهج البلاغة، الخطبة ١، ص ٤٣، د. صبحي الصالح.

والشرائع فوق الأهواء، وحينما واجهوا صمود الأنبياء في الحقّ وضعوا العقبات في طريقهم، فكذّبوا بعضهم كموسى وعيسى عليهما السلام وقتلوا آخرين كيحيى عليه السلام . وهكذا نجدهم يتّبعون الهوى ويحكّمونه في الشريعة، وما فازت أمّة حكّمت آراءها الشخصيّة وميولها في شريعة الله.

﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّه بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾ وقد ادّعوا ـ بكل عناد واستهزاء ـ أنّ قلوبهم، مغشّاة، فلا ينفذ إليها نداء الإسلام وتعاليمه وحججه، ولا يد لهم في ذلك، فردّت عليهم الآية بأن أفهمتهم، أنّ هذه الحالة الوضيعة نتيجة طبيعيّة لغضب الله بعد الكفر به، والابتعاد عن مظان الهدى. لذا لا تجدهم يؤمنون إلاّ إيماناً واهياً أو لا تجد بينهم إلاّ القليل من المؤمنين.

﴿وَلَمَّا جَاءهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّه مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَاءهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّه عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾ ولما أنزل الله القرآن مصدِّقاً لما معهم من بشارات التوراة وتعاليمها الرئيسة، كفروا به، على الرغم من أنّهم كانوا قبل بعثة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم يهدّدون أعداءهم من العرب بظهوره، وربّما سألوا الله النصرة بحقّه، فلما ظهر كفروا به بغياً وحسداً؛ لأنه كان في غيرهم، ولذا فقد استحقوا اللعنة الإلهيّة.

﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْاْ بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُواْ بِمَا أنَزَلَ اللَّه بَغْياً أَن يُنَزِّلُ اللَّه مِن فَضْلِهِ عَلَى مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ فَبَآؤُواْ بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾﴾ باعوا أنفسهم في قبال الكفر والمتع الباطلة، وذلك بغياً وحسداً للنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم بما أولاه الله من نعمته وفضله، فعادوا بالخسران المبين والغضب الإلهيّ المضاعف، والعذاب المهين المذلّ. فما أخسر صفقتهم هذه، إذ باعوا أثمن شيء في قبال الهوى الرخيص. ولقد قال أمير المؤمنين علي عليه السلام : «إنّه ليس لأنفسكم ثمن إلاّ الجنّة، فلا تبيعوها إلاّ بها»[١].

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُواْ بِمَا أَنزَلَ اللَّه قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرونَ بِمَا وَرَاءهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاء اللَّه مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾ وَلَقَدْ جَاءكُم مُّوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٩٢﴾﴾ كان اليهود إذا دعوا للايمان بما أنزل الله تعالى على محمّد صلى الله عليه وآله وسلم ردّوا بكلّ مكر وتحايل، بأنّه يكفيهم ان يؤمنوا بما أُنزل

١ . نهج البلاغة، الكلمات القصار، ص ٥٥٦، انتشارات دار الهجرة – قم.

عليهم من التوراة إلاّ أنّ القرآن يفضحهم حينما يقرر أنّهم لا يلتزمون بما وراء التوراة من مقتضيات ولوازم كالايمان بالنبيّ ﷺ والقرآن، وهو الحقّ الذي صدّق ما معهم وطابق ما فيه. كما يفضحهم ـ مرة أُخرى ـ حينما يواجههم بقتلهم الأنبياء من قبل، رغم أنّ التوراة تنهاهم عن قتل أنفسهم بله الأنبياء المخلصين، ممّا يكشف عن عدم إيمانهم بها وأن قولهم مجرّد خداع.

ثم يكشف زيف ادعائهم الإيمان، فيذكرهم بكفرهم بموسى الذي جاءهم بالآيات الواضحات، ولكنهم عبدوا العجل ظلماً بعدما ذهب الى ميقات ربه.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُواْ مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُواْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾ تكرّر هنا ذكر الميثاق لتأكيد الحجّة، وتذكيرهم بالعهد الذي قطعوه على أنفسهم عندما ارتفع الجبل فوقهم، وطلب إليهم ان يحملوا العهد بقوّة وثبات، وان يسمعوا تعاليمه، غير أنّهم نكلوا عن ذلك، إذ بينما كانت أفواههم تعلن الاستجابة، كانت أعمالهم تعلن العصيان. وقد تغلغل حبّ العجل (المعبّر عن الشهوات) في اعماق قلوبهم، وامتزج بها سبب كفرهم وتماديهم في العناد.

وقد طُلِبَ إلى النبيّ ﷺ أن يوبّخهم على قولتهم تلك، مؤكّداً أنّ الإيمان الحقيقيّ يدفع للأعمال الصالحة لا لمثل هذه الأعمال القبيحة الصادرة منهم، فبئس الشيء يأمرهم به إيمانهم المدّعى إن كان يعني قتل الأنبياء وعبادة العجل.

﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ عِندَ اللّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمينَ ﴿٩٥﴾﴾ ادّعى اليهود أنّهم شعب الله المختار، وأنّه لن يدخل الجنّة إلاّ من كان هوداً، فطلبهم القرآن للمباهلة، وتحدّاهم بطلب الموت من الله ليثبت كذبهم في مدعياتهم؛ لأنه يعلم بأنّهم لن يقدموا على هذا بعد الذي فعلوه من المعاصي. وعدم اقدامهم يبطل دعواهم، وإلاّ فإن من اطمأنَّ إلى مستقبله في الآخرة اشتاق إلى الجنّة، كما كان الأمر عند المجاهدين الأولين.

﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَاللّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ اتصفت اليهود

بالحرص على الحياة، حتّى لو كانت حقيرة بعيدة عن رضا الله، فضلاً عن عدم استعدادها لتمنّي الموت. بل هي أحرص على الحياة من جميع الناس، حتّى من المشركين الذين لا يعتقدون بالآخرة؛ لأنّها تتوقّع العذاب الشديد جزاءً لأعمالها، غافلة عن أنّ طول حياتها لن يبعدها ولو قليلاً عن المصير المحتوم.

﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللّهِ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ ﴿٩٨﴾﴾ أبى اليهود ـ عناداً ـ أن يؤمنوا بالإسلام، بحجّة أنّ الملك الذي أوحاه هو عدوّهم (جبرئيل) ملك العذاب والجهاد ـ بزعمهم ـ دون (ميكائيل) الذي يعتبرونه ملك الرحمة. وهذا الحقد حمق لا مسوّغ له؛ فجبرئيل ملك مطهَّر يفعل ما يؤمر، وقد أمره الله أن ينزل على قلب الرّسول ﷺ القرآن، المصدِّق لما قبله من كتب الأنبياء، والمنير قلوب المؤمنين بالهدى وبشرى الفلاح. واليهود إذ يعادون ملائكة الله أو رسولاً من رسله، فهم يعادون الله، والله عدوّهم، يعاملهم معاملة الكافرين؛ لأنّهم ظلموا أنفسهم بتكذيب آياته.

﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلاَّ الْفَاسِقُونَ ﴿٩٩﴾﴾ لقد أنزل الله قرآناً يحوي الآيات الساطعة والتعاليم التي تحيي البشريَّة، وتهدي من يريد الحقَّ. أمّا الَّذين فسقوا وخرجوا عن مسيرتهم الفطريَّة فليسوا مؤهَّلين لتقبُّل النور والهدى.

﴿أَوَكُلَّمَا عَاهَدُواْ عَهْداً نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ توبيخ واستنكار لصفة يهوديَّة أصليَّة في وجودهم، وهي نقضهم للعهود، فقد نقضوا عهد الله عند رفع الطور، وخالفوا بشارات التوراة، وخانوا معاهداتهم مع النبيّ ﷺ. إذن ليحذرهم المسلمون؛ لأنَّ أكثرهم لا يملكون إيماناً يردعهم عن نقض العهود.

﴿وَلَمَّا جَاءهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ كِتَابَ اللّهِ وَرَاء ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾﴾ وعندما جاءهم الرسول الأكرم ﷺ المصدِّق لما معهم والمحقّق لبشارات التوراة، راح فريق من هؤلاء اليهود يتمادى في العصيان، فلا يلتزم بكتابه، بل ينبذه وراء ظهره، وكأنَّه ـ لجموده وتكبّره ـ لا يعلم أنّه كتاب الله وعهده. والملاحظ أنَّ القرآن يعبِّر بنبذ الكتاب عن نبذ بعضه، وربما كان ذلك مشيراً إلى وحدة تعاليمه ولزوم تطبيقه الكامل.

﴿وَاتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيْاطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولاَ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ (١٠٢)﴾ وهؤلاء ـ بنو إسرائيل ـ حين نبذوا الكتاب والقرآن وما فيهما من الآيات والهدى، استبدلوهما بالأساطير الوهميَّة، وصناعة السحر التي نشرتها الشياطين في عهد النبيّ سليمان عليه السلام، وقد اتّهمه اليهود بأنّه انحرف عن خطّ النبوَّة وتقرَّب إلى الأصنام، وأقام ملكه على أساس السحر الذي هو كفر بالله، لا ستلزامه التصرُّف المستقل بالكون، إلاّ أنّ القرآن ينزِّه سليمان عن ذلك، فهو عبد صالح آتاه الله العلم والحكم، أمَّا الكفر فهو صفة الشياطين الذين علَّموا النّاس السِّحر.

وقد أُنزلت على الملَكَين (هاروت وماروت) اللّذين كانا في (بابل) علوم، تقي النّاس مفعول السِّحر وتبطله، ولذا كان الملكان لا يعلّمان أحداً حتّى يحذّراه ويقولا له: إنّ هذا امتحان وابتلاء من الله تعالى، فيجب أن تُصرف هذه العلوم في مجالها الصحيح، ولما أُنزلت من أجله، إلاّ أنّ اليهود المنحرفين استغلوها أبشع استغلال في قطع الروابط الاجتماعيّة والتفريق بين الزوجين، ممّا يكشف عن حقدهم على كلّ ما هو إنسانيّ. وهناك خرافات نُسِجت حول هذه القصة لا تنسجم مع العقل السليم، وإنما هي من الإسرائيليّات.

والسِّحر استغلال لروابط كونيّة وخصائص طبيعيّة للتأثير في الآخرين، وإيهامهم بوجود قدرة لدى الساحر خارقة لقوانين الكون، وربَّما كان شعبذة ووهماً، وعليه فهو طاقة تسخَّر لتخريب البشريَّة، وقطع صلاتها وإغرائها، وهو محرَّم في كل الكتب السماويّة ومنها التوراة. وقد قرّرت التوراة أن ما تعلَّموه من السحر كفر لا نفع فيه أبداً، بل هو ضارّ بمجتمعهم، عائد عليهم بالوبال دنياً وآخرة.

وإنّ من تعاطى السِّحر بدلاً من العمل بكتاب الله ليس له في نعيم الآخرة نصيب، وما أبخس الثمن الذي باعوا به أنفسهم، فخالفوا علمهم السابق بعملهم السيّء، فكأنّهم لا يعلمون.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُواْ واتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّه خَيْرٌ لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ ولو اتّبع هؤلاء طريق الهدى لنالوا سعادة الدارين، ولا يُقاس ثواب الله إلى منافعهم الموهومة من السحر، فما أجهلهم بمصالحهم الحقيقيّة.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقُولُواْ رَاعِنَا وَقُولُواْ انظُرْنَا وَاسْمَعُوا۟وَلِلكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾﴾ حاول اليهود التنفيس عن حقدهم بسبِّ النبي ﷺ سبّاً خفيّاً عند نطقهم بكلمة (راعنا)، وكان أصحاب النبي يطلبون بها منه ﷺ أن يمهلهم حتّى يعوا كلامه، فحوَّرها اليهود حتّى بدت لديهم تعبّر عن سبّه وشتمه بالعبريّة آنذاك، أو تعطي معنى الرعونة أو الوصف بالرعي، فأمر الله المسلمين أن يغيِّروا التعبير إلى كلمة (انظرنا) المشابهة ل (راعنا) في المعنى؛ لئلا يستغلّها أعداؤهم لما امروا بالسماع الواعي المتقبّل.

ونفهم من هذا، دعوة قرآنيّة لعدم فسح المجال لأعداء الدعوة بتشويهها، إذا نحن استعملنا في مجال إعطاء المفاهيم الصحيحة بعض الألفاظ المشتركة الموهمة كالاشتراكية والقوميّة والوطنيّة والديمقراطية والحرية وأمثالها، ممّا اقترن بمداليل يرفضها الإسلام.

﴿مَّا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلاَ الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَاللّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاء وَاللّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾﴾ إنّ أعداء الإسلام من أهل الكتاب والمشركين لا يريدون للمسلمين أيّ خير ينزله الله عليهم، وأفضل الخير القرآن بتعاليمه وتشريعاته، ولكنّ الله فوق أهواء الأعداء، فهو يختصُّ برحمته من يشاء، تعبيراً عن فضله العظيم.

﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللّهَ عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾﴾ ربّما كانت الآية تشير إلى حادثة تحويل القبلة التي استغلَّها اليهود، وعابوا عليها الإسلام، أو إلى نسخ آية قرآنيّة باخرى، برفع حكمها أو محو رسمها من القلوب أو تأخيرها لوقتها عملاً بالمرونة ومقتضيات المصالح وتغيرها، أو تشير إلى تبديل علامة أو حجّة إلهيّة بأخرى، وعلى أيّ حال، فلله أن يبدل آية بمثلها أو بأحسن منها وفقاً لدواعي الحكمة، فهو على كل شيء قدير.

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾﴾ الآية تخاطب النبي ﷺ وتريد المسلمين، مذكّرة إيّاهم بقدرته تعالى، وأنّ له أن يتصرّف في الكون وينسخ أو ينسي أو يثبت ما يشاء فيه؛ لأنّه ملكه، وليس لهم من دون الله

وليّ ولا ناصر ومعين، فلتثبت قلوبهم على الهدى ولا يعبأوا بأراجيف اليهود وإشاعاتهم.

﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُواْ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِن قَبْلُ وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاء السَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾﴾ تحذير للمسلمين من التأثر بسنّة اليهود باقتراح الآيات تشهيّاً، إذ يعني استبدال الكفر بالإيمان وعاقبة ذلك الضّلال والانحراف عن السبيل القويم.

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُواْ وَاصْفَحُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾﴾ بيان لما يضمره أهل الكتاب من حسد شخصيّ خبيث للمسلمين على نعمة الإسلام، على الرغم من علمهم بأنّه الحقّ المنطبق مع بشارات كتبهم، ولكنّ الحسد أعماهم فلاهم يتّبعون الخير، ولاهم يريدون للمسلمين خيراً باتباعه، فيعملون على سلب المسلمين عزّهم العقائدي بشتّى السبل من شبه وإغراءات مختلفة. وقبال ذلك يأمر الله المسلمين بأن يعفوا ويصفحوا ـ وان كانوا قادرين على الرّد ـ وينتظروا وعد الله حين يأتي بأمره، ويقرّر الموقف النهائيّ من أعدائهم.

﴿وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُواْ لأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللّهِ إِنَّ اللّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾﴾ بعد الأمر بالصفح وانتظار وعد الله، يأمر الله المسلمين بإقامة الصلاة لتقوية روابطهم بالله، ورصّ بنيانهم الاجتماعيّ والعاطفيّ بإعطاء الزكاة وذلك ليشتدّ أمرهم استعداداً للموقف الحاسم، وليعلموا أنّ عملهم إنّما هو لخير أنفسهم وسعادة مستقبلهم، وسيتبعه جزاء وافر من الله العالِم بكلّ ما يقومون به.

﴿وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١١١﴾﴾ والقرآن هنا يردُّ على بعض دعاوى أهل الكتاب الباطلة، ومنها قول كل فريق، بأنَّ الجنّة مقصورة عليه دون غيره، وبالتالي فلا مكان فيها لغير اليهود والنصارى، فلا يؤهّل لها غيرهم. وهذه مجرّد أمان واهية يطالبهم في قبالها بالحجّة والبرهان، وأنى لهم ذلك؟ وفي الآية تدريب على اتخاذ الموقف الواعي الطالب للحجَّة تجاه أيَّة فكرة.

﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾﴾ فالمقياس الحقيقيّ للفوز بالجنّة والاطمئنان النفسيّ وعدم الخوف من العاقبة السيّئة هو: التسليم المطلق لله والإحسان بالعمل الصالح البنّاء.

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَىَ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾ عرض لتراشق الاتهامات بين اليهود والنصارى والمشركين، فكل يرى الآخر بعيداً عن الحقّ. أمّا أهل الكتاب فعناداً وتعصباً، بعد أن عرفوا وحدة التعاليم الدينيّة بتلاوتهم للكتاب، وأمّا المشركون فجهلاً وسفاهة، إلاّ أنّ أمر الجميع إلى الله فهو العليم بما عليه كلُّ فريق.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُوْلَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلاَّ خَآئِفِينَ لهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾ ومن هو أشدُّ ظلماً ممَّن وقف في وجه حركة التوحيد في الأرض، فمنع ذكر اسم الله في أماكن عبادته وهي المساجد، وسعى في خراب بنائها أو تعطيلها من المتعبّدين وجرّ النّاس إلى ما يشغلهم عنها؟! ولربّما نظرت هذه الآية إلى خراب الروم لبيت المقدس، أو سعي اليهود لمنع المسلمين من الاتّجاه للكعبة، أو عمل المشركين على خراب مساجد المسلمين في مكّة بعد الهجرة، أو منعهم النبيّ ﷺ من البقاء في مكّة المعظَّمة وفي البيت الحرام.

وكان المفروض أن لا يدخل هؤلاء المانعون المخرّبون المساجد، إلا خائفين خاشعين لله كما يليق بشأنها، أو خائفين من قوّة المسلمين. وربّما دعت الآية المسلمين إلى العمل على عدم تمكينهم من الدخول والوقوف بوجههم، فلا يدخلوا المساجد إلاّ خفية أو طلباً للأمان، وأخيراً توعّد الله هؤلاء المفسدين المعتدين بالخزي الدنيويّ والعذاب العظيم في الآخرة.

﴿وَلِلّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ اللّهِ إِنَّ اللّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾ وإذا منع المؤمنون من الصلاة في مسجد معيَّن، فليصلّوا في أيّ مكان، وليتّجهوا أنّى شاءوا، فالأرض كلُّها لله، وروح المسجد تسري لكل مكان. وقد جعلت الأرض للرسول مسجداً وطهوراً، وليس له تعالى مكان وجهة خاصَّة؛ لأنه فوق المكان والزمان، وقد وسع ملكه الكون. وهو العليم بما يفعل عباده أينما كانوا وحيثما اتجهوا.

﴿وَقَالُواْ اتَّخَذَ اللّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴿١١٦﴾﴾ ادَّعى الضالُّون أنَّ لله ولداً؛ كعزير عند اليهود والمسيح عند النصارى والملائكة عند المشركين. وهي

دعوى يكذّبها العقل والمنطق السليم، حيث تعني تصور التحديد والاحتياج والتركيب والشبيه في ساحة الله ـ تعالى وتنزَّه عن ذلك ـ وكلُّ ما يوجد في السماوات والارض مملوك ومخلوق ومحتاج وخاضع له تعالى، فكيف يجتمع هذا مع تصوّر البنوّة لله الغنيّ المطلق؟

﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾﴾ جواب آخر على ادّعاء البنوّة له تعالى، بذكر حقيقة خلق الله للأشياء وإبداعه لها، على غير مثال وحالة مسبقة تقتضيها البنوَّة، وإنّما ابتدع الأشياء لا من شيء، فإذا أراد إيجاد شيء وُجد.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ لَوْلاَ يُكَلِّمُنَا اللّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾﴾ أي الذين ليس لديهم كتاب فيعلمون، وهم المشركون الذين شابهوا أهل الكتاب في عنادهم ـ والكفر ملَّة واحدة ـ فراحوا يطلبون أن يكلِّمهم الله أو تأتيهم آية إلهيَّة، على الرغم من أنّ الله قد بيَّن الآيات مسبقاً بما يكفيهم، لو كانوا مستعدِّين لقبول الحقيقة وتحصيل اليقين.

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلاَ تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾﴾ ثبّت الله نبيَّه على الحقّ، وبيَّن أنّ مهمَّته هي الدعوة إلى الله وتبشير العاملين بالفوز وإنذار العاصين بالخسران، وأن لا داعي للتألّم على مصير المنحرفين، فمسؤوليّة ذلك تقع على عاتقهم وحدهم.

﴿وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾﴾ تؤكّد الآية أنَّ الكافرين من اليهود والنصارى لن يرضوا عن النبيِّ ﷺ إلاّ برفع اليد عن دعوته ـ وهي الحقّ ـ واتّباع ضلالتهم. فالمعركة إذن معركة عقائديّة بين الحقّ والباطل.

الإسلام هدى الله، وهو العالِم بما في الكون ومصالحه، والمنزَّه عن الهوى الشخصي، فالاسلام هو الهدى الحقيقيُّ، وما سواه ضلال وهباء.

فلا ميل عن خطّ الإسلام ـ بعد العلم بعقوبته ـ إلى سبل الكفر والأهواء الشخصيَّة التي تقود إلى الفناء. والخطاب وإن توجَّه للنبيِّ ﷺ إلاّ أنَّ المراد به تحذير الأمّة من الأُفول الحضاري إذا توجَّهت للنظم الوضعيَّة الناقصة حتماً.

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاَوَتِهِ أُوْلَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمن يَكْفُرْ بِهِ فَأُوْلَئِكَ

هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٢١﴾ إنّ الواعين الذين آتاهم الله الكتاب يتلونه حقّ تلاوته، بقلوب واعية، فهم المؤمنون به حقّاً، مما يوفّقهم للإيمان بالإسلام وتلقّي مواهبه الخيّرة، في حين يخسر الكافرون ذلك. يقول الامام الصادق عليه السلام في تفسير الآية:

يرتّلون آياته، ويتفقّهون به، ويعملون بأحكامه، ويرجون وعده، ويخافون وعيده، ويعتبرون بقصصه، ويأتمرون بأوامره، وينتهون بنواهيه، ما هو والله حفظ آياته، ودرس حروفه، وتلاوة سوره ودرس أعشاره وأخماسه، حفظوا حروفه وأضاعوا حدوده، وإنّما هو تدبّر آياته والعمل بأحكامه، قال الله تعالى: ﴿كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدَّبَّروا آياتهِ[١]﴾[٢].

﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَاتَّقُواْ يَوْماً لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ بعد أن ذكَّر الله بني إسرائيل بنعمه المتوالية، أعاد قوله في مطلع التذكير السابق، فذكَّرهم بتفضيلهم على الأمم ومنحهم مهمّة حمل رسالة الله، وخوّفهم من النكول عن ذلك لئلا يصيبهم العذاب يوم القيامة حيث لا شفيع لهم ولا ناصر.

﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾ بعد ذلك اللجاج من بني إسرائيل، انتقل القرآن إلى الحديث عن إبراهيم عليه السلام وهو النبي المعترف به من قبل اليهود والنصارى والعرب، ليعطي الشخصية الحقيقيّة له، وليؤكّد أنّ المسلمين هم ورثة رسالته، وأنّ بني إسرائيل فقدوا تلك الأهلية بظلمهم، وليمهّد لمسألة تحويل القبلة إلى البيت الذي بناه إبراهيم عليه السلام. فقد امتحن إبراهيم بكلمات، والمراد منها ـ كما يظهر ـ الابتلاءات المتوالية عليه من أمره بذبح ولده، وترك عائلته في صحراء مكّة، والهجرة من أرض المشركين، وكسْر الاصنام، والالقاء في النار وغيرها.

وكان هذا الامتحان ضرورياً لوصوله إلى مرحلة سامية من مراحل التكامل الإنسانيّ هي (الإمامة) العظمى، التي نالها بجدارة بعد أن كان نبياً رسولاً من قبل. وهي تعني القيادة الإلهيّة الفعليّة لإيصالها إلى الكمال الحقيقيّ في مجالها التكوينيّ والمعنويّ. وهذا المقام ناله

---

١. سورة ص: ٢٩.

٢. ارشاد القلوب، ج ١، ص ٧٩.

بعض الأنبياء والرسل، وخاتمهم الرسول الأكرم ﷺ كما ناله الأئمة المعصومون من أهل البيت عليهم السلام في اطار نبوّة النبي ﷺ ورسالته.

بعد أن مُنح إبراهيم ذلك المقام العظيم، راح يسأله لأبنائه، حرصاً منه على هداية البشريّة وبقائها على خطه، فجاء الجواب سنَّة تاريخيّة عامَّة، هي أنّ الامامة المجعولة من قبل الله لا تُعطى للظالمين أيّاً كانوا، وأيّاً كان ظلمهم: أكان انحرافا عقائدياً أم عملياً، ومتى كان الانحراف فليس هؤلاء مؤهَّلين لقيادة حركة التوحيد والتسليم عبر التاريخ؛ لأنَّ القائد يمثِّل النموذج الأعلى ـ فكراً وعملاً ـ لامّته فيجب أن تخلو صحيفته من أي انحراف مسبق قد يظهر ـ ولو لا شعورياً ـ على تصرّفاته، فيحرف الأمّة عن أهدافها، مما يوضّح لزوم العصمة في الإمام المعين من قبل الله.

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْناً وَاتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿١٢٥﴾﴾ تمهيد لتحويل القبلة بالتذكير بجعل البيت الحرام محلاً للعبادة، ومرجعًا وموضعًا لطلب الثواب، وأمناً للعابدين واللاجئين، وقد أمر المسلمون باتخاذ مقام إبراهيم محلاً للصلاة التي تشدّهم مع أبيهم في مسيرة عبادة الله، ثمّ يذكر القرآن أمر الله إبراهيم وإسماعيل بتطهير بيته تطهيراً حسيّاً ومعنويّاً، وقد نسبه لنفسه ليكون موضعاً حسّيّاً ورمزاً لاتجاه الكون لله ومحلاً للطائفين والمقيمين والراكعين والساجدين.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَداً آمِناً وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾﴾ دعا إبراهيم ربَّه وطلب إليه أن يجعل البيت مركزاً آمناً، يجتمع فيه النّاس بلا مشاكل ولا خوف، كما طلب أن يرزق أهله المؤمنين من الثمرات، فاجيب بأنَّ الرحمة تشمل الكافر أيضاً بمتاع دنيويّ قصير، ثمّ يضطره إلى عذاب النار وبئس المصير.

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾﴾ وحين يرفع إبراهيم وإسماعيل أركان البيت، يدعوان

بدعاء المسلم، فيطلبان من الله رضاه وقبوله؛ لأنه مقياس صحَّة العمل، كما يطلبان توفيقهما للتسليم، ثمّ يدعوان الله أن يجعل من ذرِّيتهما أمّة مسلمة، وأن يعلمهما أعمال الحجِّ، وهي تمثّل تشريعات الحياة، وأخيراً يلجآن إليه تعالى طالبين التوبة والغفران.

﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾ ثمّ يطلب إبراهيم وإسماعيل ـ وهما يرفعان قواعد البيت ـ إلى الله أن يبعث في تلك الأمّة المسلمة رسولاً منها، عاش معها وتأمَّلت سلوكه الطاهر، فإذا هو (الصادق الأمين) ليكون لها نموذجاً بشريّاً أعلى يهديها سواء السبيل، يتلو عليها آيات الله، ثمّ يفهمها مضامينها الحيَّة، وأخيراً يزكِّيها من انحرافات العقيدة والأخلاق والسلوك، فيعيِّن لها المنطلق والهدف والطريق بينهما وكيفية سلوكه. هذه هي أهداف الأنبياء في التاريخ أجملها إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام في دعائهما، واستجاب الله ذلك، فكانت الأمّة المسلمة وقائدها النبيّ محمد صلى الله عليه وآله تحقيقاً لذلك الدعاء، وحاملة لرسالة التوحيد والتسليم الإبراهيميّين، فهي إذن أولى بإبراهيم وبالبيت الحرام من غيرها.

﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣١﴾﴾ إن إبراهيم هو نموذج القائد الإلهيّ، وشريعته هي شريعة التسليم، فلا يعرض عنها إلاّ من سفه وافقد نفسه توازنها العقليّ؛ لأن إبراهيم مختار من قبل الله الحكيم قائداً في الدنيا، وهو في موازين الآخرة من الصالحين الفائزين، بعد أن أعلن ـ بلا تردُّد ـ إسلامه الكامل استجابة لنداء الله ربّ العالمين.

﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّه اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إَلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ وتركها إبراهيم عليه السلام وصية لأبنائه بالثبات على خطّ التسليم، وكذا فعل يعقوب عليه السلام، إذ أكّدا أنَّ الدين صفوة الله وخيرته، فعليهم أن يتمسّكوا بتعاليمه حتّى الموت، ولكنّ اليهود الذين يدَّعون حمل تعاليم يعقوب وإبراهيم انحرفوا عن ذلك وكفروا بهذه الوصايا الخالدة.

﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاء إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾﴾ يفنِّد القرآن مزاعم اليهود، بأنّهم يحملون وصايا يعقوب، فيجيبهم بأنّهم لم يكونوا حاضرين

حين احتضار يعقوب عليه السلام وهو على فراش الموت، إذ سأل أبناءه عمن يعبدون بعده ليستوثق منهم، فأجابوه بأنّهم يعبدون إلهه وإله آبائه إبراهيم شيخ الموحدين وإسماعيل جدّ العرب، واسحاق جدّ بني إسرائيل، وهو الإله الواحد. ثمّ أكدوا إذعانهم لرسالة الله وتسليمهم له.

﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾﴾ افتخر اليهود بآبائهم وما عملوه، فردَّتهم الآية بأنَّ أسلافهم أمّة قد مضت تحمل معها ما عملت، وأنّهم اليوم مسؤولون عن أنفسهم وما يعملون، ولا يعفيهم عمل أجدادهم عن لزوم الحقّ والعمل به، فليس للإنسان إلاّ ما سعى.

﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُواْ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾﴾ كان كلّ من اليهود والنصارى يحاول التأثير على المسلمين ليجرَّهم إلى عقيدته المنحرفة، محتكراً الهدى لنفسه تعصّباً ومكراً، فركّز القرآن الكريم ـ في معرض الردّ عليهم ـ على ملَّة إبراهيم عليه السلام الحنيف المائل عن الضّلال والشرك إلى الهدى والتوحيد.

﴿قُولُواْ آمَنَّا بِاللّه وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾ يتوجَّه الخطاب لكلِّ المؤمنين بالالتزام بالأصول العامّة للدعوة الإلهيّة وهي: الإيمان بالله وما أنزله من القرآن وكتب الأنبياء والمرسلين بلا تفريق بينهم؛ لأنّهم يستقون من مَعين واحد، ومن ثمّ التسليم الكامل لله.

ولا ينافي هذا لزوم الإيمان بالاسلام لا غير، لكونه وريثاً لكلِّ الرسالات التي نسخت بعض تعاليمها. والأسباط في الآية هم أنبياء قبائل بني اسرائيل.

﴿فَإِنْ آمَنُواْ بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَواْ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللّه وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾﴾ فإن آمن الآخرون بمثل ما آمن به المسلمون فقد اهتدوا، وإن أعرضوا فهم معاندون للحقِّ، ولا يهمُّ المؤمن الصامد على الحقّ أن يُعرض عنه غيره؛ لأن الله سيكفيه المكر والتآمر وهو السميع العليم.

﴿صِبْغَةَ اللّه وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّه صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدونَ ﴿١٣٨﴾﴾ إنَّ الإيمان بالله والتسليم له نابع من الواقع الذي فطر الله الإنسان عليه، لكي يعينه في مسيرته التكامليَّة.

وهو صبغة الله التي لا أروع منها، تصبغ المسلمين بالعبوديَّة الكاملة لله. ولا وزن بعد هذا لخرافات أهل الكتاب من التعميد وغيره فهي صبغات مزيفة.

﴿قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِي اللّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾﴾ إدّعى اليهود أنهم أحقُّ بالدين، لكثرة بعث الأنبياء فيهم، فردّهم القرآن بأن الله ربّ الجميع، ولا اختصاص له بشعب معيَّن، وأنّ الإخلاص والعمل هما مقياس التفاضل عند الله، وهما يتجسّدان في المسلمين.

﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأسْبَاطَ كَانُواْ هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللّهِ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾﴾ يتابع القرآن الردَّ على أهل الكتاب في ادعاءاتهم، ومنها أنّ إبراهيم وإسماعيل ويعقوب والأسباط الذين مرَّ ذكرهم كانوا يهوداً أو نصارى، فيؤكّد أن الله أعلم بحقيقة إسلامهم وبراءتهم من انحرافات المدّعين، الذين يعرفون ذلك ويخفونه، مقترفين بذلك أكبر الظلم، وما الله بغافل عما يقترفون.

﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾﴾ يعود التأكيد ـ مرة أخرى ـ على مسؤوليّة كلّ أمّة عن أعمالها، فلا ينبغي التشبث بالتاريخ الماضي وترك العمل في الحاضر.

﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاء مِنَ النَّاسِ مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَا قُل لِّلّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاء إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾﴾ كان استقبال المسلمين لبيت المقدس في صلاتهم في أوائل تاريخ الرسالة، موضعاً لفخر اليهود وادّعائهم تبعيَّة المسلمين لهم في ذلك.

ولـمّا كان تحويل القبلة إلى الكعبة الشريفة سيصيبهم بصدمة قاسية، إذ يفقدهم مسوّغ دعواهم، كما يمنح المسلمين شخصيّتهم المميَّزة، فقد كان المتوقَّع من هؤلاء السفهاء الطائشين رأياً وأخلاقاً، أن يعترضوا على هذا التحويل بالتساؤل عن سببه، وإشاعة بعض المزاعم حوله، ولكنَّ الله يردُّ عليهم بأنَّ الجهات كلها له تعالى، وهو الأعلم بالمصالح، فهو يوجّه من يشاء إلى أية جهة شاء، فإذا وجَّهه نحو اتّجاه معيَّن فذلك حقّاً هو الصراط المستقيم.

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ

شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللّهُ وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ وصف مهم للأمّة الإسلاميّة يعرّفها موضعها من الأمم، وأنّها الأمّة الوسط العدل، والطليعة الحضاريّة التي تفيض على العالم هداها، ويقاس إلى تقدمها تقدمُ الأمم وتأخُّرها؛ لأنّها تحمل الرسالة الوسط التي توجد التوازن في التصوّر والعلائق، رافضة تطرّفات أهل الكتاب والمشركين التي مزَّقت البشريّة ولا زالت.

والرسول شاهد على هذه الأمّة بحمله رسالة الله لها على خير وجه، فعليها أن تقتدي بهداه وتحمل رسالته لباقي الأمم، وتشهد وتتابع مسيرة الأرض نحو الله فتهديها إلى الصراط المستقيم.

ولا ريب في أنّ النخبة الممتازة (أهل البيت) عليهم السلام هي التي تمثّل الأمّة في هذه المهمّة الكبرى. وقد وردت روايات عن أهل البيت: تؤكّد ذلك[١]. فهم النموذج الأعلى للإسلام المجسّد.

بعد أن أخبر القرآن عما سيشيعه السفهاء وبطلانه، ووضع للمسلمين مركزهم الطليعيّ، بيّن أنَّ الاتّجاه إلى بيت المقدس لم يكن إلاّ تربية للمسلمين على متابعة الرسول ومغالبة الهوى؛ لأنهم كانوا من قبل ذلك متّجهين إلى البيت فوجَّههم الله إلى بيت المقدس ليفصلهم عن المشركين وليكشف ضعاف الإيمان. وكان الامتحان عسيراً إلا على المهتدين المنقادين.

فاؤلئك الذين اتبعوا الرسول وآمنوا وسلّموا بما قال، لا يضيع الله إيمانهم وصلاتهم، بل سيجزيهم الجزاء الأوفى.

﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاء فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوِهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ كان ﷺ قد وُعد بأن تكون الكعبة قبلة المسلمين الخاصَّة، فكان ينتظر ذلك شوقاً وتخلّصاً من أذى اليهود، وربطاً للأمّة بأبيها إبراهيم باني البيت، فتحقَّق ما انتظره وأمره الله بالتوجُّه إليها، وكذلك أمر المسلمين لئلاّ يفسَّر الحكم بخصوص النبيّ ﷺ .

١. انظر الكافي، ج ١، ص ١٩٠ و ١٩١.

ثبّت الله المسلمين على هذا الحكم، وأخبرهم بأن أهل الكتاب يعلمون أنّ هذا الأمر حقّ، لوجوده في كتبهم، وما الله بغافل عما يخفونه عناداً.

﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَاً لَّمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٥﴾﴾ تأكيد على عناد أهل الكتاب، بحيث لا تنفعهم كلُّ آية في مجال اتباع قبلة المسلمين، ولكنّ النبيَّ على بيِّنة من ربه في توجُّهه للكعبة، فكيف يتَّبع قبلتهم؟! ثمّ إنّ أهل الكتاب أنفسهم متنازعون لا يتبع بعضهم قبلة بعضهم الآخر، وما كان لرسول الله ﷺ أن يتَّبع أهواءهم وشطحاتهم بعد ما جاءه من العلم الإلهيّ، وإلاّ كان ذلك ظلماً عظيماً وحاشاه من ذلك.

وتوجُّه الخطاب إلى النبيّ ﷺ فيه إيحاء إلى عموم الحكم، وتحذير شديد للمسلمين.

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءهُمْ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾﴾ فإن أهل الكتاب يعرفون صدق النبيِّ ﷺ مما نعتته به كتبهم، فشخّصوه بوضوح كما شخّصوا ابناءهم، وهل ينكر الإنسان ابنه؟ إلاّ أنّ قسماً منهم يكتمون الحقّ عامدين عالمين.

﴿الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾﴾ ماجاء منه تعالى هو الحقّ لا غيره، فاثبت عليه بلا تردُّد.

﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُواْ الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُواْ يَأْتِ بِكُمُ اللّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾﴾ ليس الاختصاص بقبلة بدعاً، فقد كانت لكلِّ قوم قبلة يتوجَّهون إليها... فدعوا المماراة والجدل واتّجهوا متسابقين إلى الخيرات، وسيجزيكم ربُّكم عندما يجمعكم من شتّى أماكنكم بقدرته فإنّه على كلِّ شيء قدير.

﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾﴾ تأكيد للحكم بالتوجُّه للقبلة وشموله لكلِّ المسلمين في كلِّ أمكنتهم، لتشكِّل الكعبة متَّجه الأرض ومركز وحدتها على طريق الله.

﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ

شَطْرَهُ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾﴾ تأكيد آخر للحكم وعمومه وثباته على الجميع بلا تردُّد، ثمّ بيان لعلَّة ذلك، فربما اعترض اليهود بأنّ كتابهم يصف النبيّ ﷺ بأنّه يصلي للقبلتين، وكذلك ربما اعترض المشركون بأنّه كان الأحرى بمن يريد إحياء شريعة إبراهيم أن يتّجه إلى البيت الذي رفع قواعده، ولكن ثبوت المسلمين على اتّجاههم نحو الكعبة يكف ألسنة الناس، اللّهمّ إلا الظالمين منهم فإنّه لا ينفعهم شيء بسبب عنادهم، ولا ينبغي التخوّف منهم، بل الخوف الحقيقيّ إنّما هو من الله تعالى لا غيره.

كما أنّ من فوائد الثبات عليه التمتّع بمزاياه حيث يمنح المسلمين شخصيَّتهم المتميّزة، ويوحّدهم على طريق الهدى، لتتمّ النعمة وتتحقَّق الهداية الكاملة.

﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾﴾ فإن نعمة تحويل القبلة سبقتها من قبل نعمة أكبر، حيث بعث الله في الأمّة رسولاً منها؛ عاش معها وعرفت أخلاقه المثاليّة، ثمّ جاءها استجابة لدعوة إبراهيم، يتلو عليها آيات الله ويطهّرها من رجس الوثنيّة وأخلاقيّتها المنحطَّة، ومن ثمّ يفهمها مداليل الكتاب المحيي لها، ويوجّهها صوب الحكمة والتأمُّل في مختلف المجالات، ويفتح لها أبواب التقدُّم العلميّ بما يشهد له التاريخ، إذ انتقلت من أمّة ضائعة في الجهل إلى أمّة رائدة تحمل إلى العالم مشاعل العلم والمعرفة.

﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُواْ لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾ فلتذكروا الله دائماً لتكونوا مؤهّلين لتلقّي عطائه، ولتشكروا نعمه بالقيام بحقّها وإعمار الأرض، وعدم الكفر بها لئلاّ يصيبكم ما أصاب من سبقكم من الأمم من الزوال والانحطاط.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٣﴾﴾ استعينوا بالارتباط بالله وذكره، عن طريق الصلاة، وبالصبر وتقوية الإرادة، للقيام بمقتضيات شكر نعم الله والتضحية في سبيله، وفي الآية تهيئة نفسيّة لخطوات الجهاد الآتية.

﴿وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبيلِ اللّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاء وَلَكِن لاَّ تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ إنّ الجهاد يستلزم التضحيات وتقديم الشهداء الذين ينتقلون إلى حياة برزخيّة بين الدنيا

والآخرة، وهي أسمى من الحياة الأولى، يغمرهم فضل ربّهم، ويحصلون فيها على ما تشتهيه أنفسهم من نعم الله ورضوان منه أكبر، وهذه هي الحقيقة، فلا يقال لهؤلاء الشهداء أنّهم أموات، كلا، بل هم أحياء عند ربهم يرزقون وإن لم يشعر بهم الآخرون.

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمَوَالِ وَالأنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُواْ إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ البلاء والامتحان يربّي النفوس الإنسانيّة ويصقلها، ويبدي جوهرها المكنون، وبه تعلو على شهواتهاالرخيصة وارتباطها المادّيّ في سبيل هدف أسمى وعقيدة أغلى. ومن هنا امتحن الله الأنبياء والمؤمنين بأنماط من البلاء ليؤهّلهم لحمل رسالته. ولن يفوز في النهاية إلاّ الصابرون على البلاء، الثابتون على الحقّ رغم الأهوال، الموكّلون أمرهم إلى الله، القائلون: إنا لله وإنا إليه راجعون، لا بألسنتهم فقط وإنّما بعمق وجودهم وشعورهم بأنّهم ملك لله، وأنّهم إليه راجعون. وحينذاك يرون ثمار أعمالهم صلوات وتكريماً ورحمة شاملة، وسمة كبرى هي سمة (المهتدين) بعد أن لم يبذّروا بطاقاتهم وإنّما أعدّوها للمستقبل الذي صنعوه بالحقّ.

﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ اللّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾﴾ إنّ جبلي الصفا والمروة في مكّة من شعائر الله ومعالم دينه. ويشكّل السعي بينهما أحد مناسك الحجّ والعمرة في الإسلام، وقد تحرَّج بعض المسلمين من السعي بينهما ـ لأنَّ المشركين كانوا قد وضعوا على كلّ منهما صنماً ـ مبالغة في الابتعاد عن كلِّ ما هو جاهلي، فعرَّفهم القرآن أن لا إثم في ذلك، بعد أن جعل الله هذين الجبلين من شعائره، فلا مانع منه في حجّ أو عمرة واجبين، ومن تبرَّع وأزاد فذلك خير يشكره الله عليه، بأن يمنحه رضاه وعطاءه. والمسلم إذ يسعى بينهما يشعر بتضحيات العائلة الإبراهيميّة المسلمة، كما يشعر بلزوم التحرُّك النشط ضمن حدود الله في حياته كلِّها، وأنّه يتذكّر انطلاقة الدّعوة العلنية إلى العالم من على الصفا.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلعَنُهُمُ اللّه وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَئِكَ أَتُوبُ

عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ استحقَّ احبار اليهود غضب الله بكتمانهم التعاليم الهاديةوالبشارات الواضحة في التوراة، فانصبَّت عليهم لعنة الله ولعنة الإنسانيّة التي أوهموها ولعنة التاريخ الذي حرّفوه.

أما من ندم منهم وتاب وأصلح أمره وتدارك الخطأ فبيّن الحقّ للناس ـ إذ أنَّ التوبة ندم نفسيّ واصلاح عمليّ ـ فهؤلاء يرجع الله عليهم بالرحمة وبمقتضى لطفه العميم.

والآية مطلقة تحذّر كلّ صاحب علم نافع راح يكتمه أو يستغلُّه لصالحه الضيّق، وما أحوج البشريّة البائسة إلى الإسلام الناصع الأصيل المنزَّه عن البدع والانحراف والأهواء؟

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللّهِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾﴾ إذا تأصَّل الكفر في وجود الإنسان، انصبَّت عليه لعائن الله والملائكة والناس أجمعين، فخسر دنياه وراح مخلّداً في مظهر اللعنة «جهنّم» في الآخرة فما أجرأه على الله وما أشدَّ عذاب الله له.

﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾ التوحيد هو أساس الإيمان، وعليه تبتنى كلُّ تصوّرات الإسلام وتشريعاته. أمّا الرحمة فهي الصفة الإلهيّة التي بمقتضاها انطلق الكون، وخُلق الإنسان ومنح الهدى.

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللّهُ مِنَ السَّمَاء مِن مَّاء فَأَحْيَا بِهِ الأرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخِّرِ بَيْنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ في هذه الآية دلائل على ما ذكر من (وحدانيّة الله ورحمته) في الآية السابقة، ومن هذه الدلائل: الترابط الكونيّ الهائل بين الأرض والأجرام السماويّة، التي قد تبعد عنها ملايين السنين الضوئيّة، والذي يهيئ الأجواء للحياة الإنسانيّة، ومنها تعاقُب الليل والنهار المؤثّر على تكامل الأحياء، ومنها أيضاً: جريان السفن في البحر ـ طبق قوانين طبيعيّة مترابطة ـ وهي تحمل معها ما ينفع الناس، ومنها كذلك: هذا المطر الذي يحمل الرحمة والبركة للأرض فتحيى به أنواع الأحياء الدابة المنتشرة عليها والضروريَّة لحياة الإنسان، ومن هذه الدلائل اختلاف اتّجاه الرياح الذي يؤثّر في حركة السحاب الذي سخَّره الله لصالح الإنسان، يحمل الأمل والخير لمناطق الجفاف.

إذن كلّ هذه الظواهر الطبيعيّة العظمى المترابطة المنسجمة مع الحياة الإنسانيّة تكشف ـ لكلّ من فكّر وتأمّل ـ عن وحدة الخالق ورحمته بهذا الإنسان المعد لخلافة الأرض، كما أن لهذا الاستعراض الكونيّ أثره الباهر في تحريك الطاقات الفكريّة لديه، ليستكشف أسرار الكون ومجاهيله.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللّه أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللّه وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلّه وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلّه جَمِيعاً وَأَنَّ اللّه شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُواْ مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّؤُواْ مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾ أمّا من لا يعقلون ولا يتأمّلون فإنّهم في جهلهم وانحطاطهم تؤثّر عليهم بعض مخلوقات الله فيتّخذونها من دون الله آلهة مطلقة التأثير (ومن هذه الآلهة الوهمية: النجوم والشمس والقمر، والملائكة والأصنام وبعض الحيوانات، والقبيلة والآباء، والجنس والهوى، والقوّة والاقتصاد، والعلم والتجربة، والوطن والقومية، والحكّام المستبدون كفرعون، وكل من يشرّع من دون الله فيطاع).

ومن ثمّ يوجّهون حبّهم الفطريّ لله تعالى إلى هذه الموهومات التي تشكّل بذلك قيداً على نمو الذهن الإنسانيّ وتقدُّمه. أمّا الذين آمنوا ووعوا تلك الدلائل على الوحدانيّة والرحمة فيتّجه حبهم وجهته الصحيحة، ويتعلّق بالمطلق الحقيقيّ (الله) الذي يحبّونه أكثر من كلّ شيء، فينعكس ذلك على سلوكهم الفرديّ والاجتماعيّ، وتشكّل علاقة الحبّ بين الله وعباده أحد معالم التصوُّر الإسلامي.

ليت أولئك المشركين يشهدون يوم القيامة عذاب الله الشديد؛ ليعرفوا سخف ما تصوَّروه من قوّة لأنداده الوهميين. وهناك حين تبدو الحقائق يتبرّأ المتبوعون من الذين اتّبعوهم جهلاً ووهماً، فيرون العذاب المحيط بهم وتتقطّع وسائل النجاة، فيتمنّى هؤلاء التابعون أن يعودوا إلى الحياة الدنيا، ليقابلوا آلهتهم الوهميّة بالبراءة منها، ولكنّها مجرّد حسرات تحوّلت إليها أعمالهم، وهي لاتنقذهم من عذاب النار.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلاَلاً طَيِّباً وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ

عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاء وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ يطلب القرآن في هذه الآية ان تستثمر خيرات الأرض الطيّبة التي أبيحت لصالح البشريّة ومسيرتها التكامليّة، وأن ترفض أساليب الشيطان لاستدراجها ودفعها نحو الكفر بالنعمة، وإشاعة الخرافات التي تحرّم الاستفادة من بعض ثروات الطبيعة، أو إشاعة العمل بالسيِّئات المعيقة للتقدّم، والدفع نحو الفحشاء أي الخروج عن الصراط السويّ، وكلها تقوّلات على الله تعالى تعني التحليل والتحريم المعتمدين على الاستحسانات التي لا تغني من الحقّ شيئاً.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ من خطوات الشيطان استغلال الربط العاطفي بين السلف والخلف، ليصنع من الأوّلين أصناماً وهميّة تصوغ عقيدة الآخرين وسلوكهم، وتحرّف عقولهم عن المنطق السليم، وتقيّدها عن التفكير الحرّ النزيه، وتلقيها في هوّة التقليد الأعمى بلا دليل. والقرآن ضمن علاجه لكل قيود الفكر الموضوعيّ، يفنّد هذا الأسلوب بسؤال يوقف المقلّدين على خطئهم وهو: هل كنتم ستتّبعون آباءكم لوثبت لكم جنونهم؟ والجواب الطبيعيّ هو الرفض. إذن، فلينتبه المقلّدة إلى أنَّ المقياس هو الحقّ المؤيَّد بالبرهان. ولا ينافي هذا تقليد العامّة للمجتهدين العدول في أحكام الشريعة بعد ثبوته بالدليل.

﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاء وَنِدَاء صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾﴾ تقريع لهؤلاء المقلّدة، بتشبيههم ـ كما قيل ـ بالأغنام السائمة التي لا تسمع من نداء الإنسان إلاّ صراخاً لا تعي مضمونه. والظاهر أنّه تشبيه لحالهم وتبعيّتهم التي تستجيب للراعي بمجرّد دعوته دون أن تفهم مضمونها، وإنّما تتبعه ـ لاعتيادها ـ سواء سار بها للرعي أو الذبح. بل هم أسوأ حالاً من الأغنام، إذ منحهم الله أداة التفكير فعطّلوها وعادوا: صُمّاً لا يسمعون الحقّ، وبُكماً لا يقدرون على النطق به، وعُميًا لا يبصرون الآيات.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُواْ لِلّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾﴾ بعد الخطاب السابق الذي أباح الطيّبات واستثمار خيرات الطبيعة وعدم تعطيلها ـ بفعل الأساطير ـ وتحسين الإنتاج، يأتي هذا الخطاب المبيح للطيّبات وفق أوامر الله الأعلم بالمصالح، وتحقيقاً لشكر هذه النعم والقيام بحقّ العبوديّة الكاملة لله.

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾﴾ بعد طلب استثمار الخيرات، ذكرت الآية الخبائث التي يجب اجتنابها، وهي الميتة والدم المسفوح ولحم الخنزير، وما ذُبح ولم يُذكَر عليه اسم الله وحده، أمّا الثلاثة الأول فقد جاءت الروايات تشرح مضارّها وأيَّدها العلم، وأما الأخير فلتطهير المؤمنين من الشرك، وتمييز ذبائحهم عن غيرها، وقد استثنيت حالة الاضطرار الذي لم يسبقه ظلم، فللمضطر غير الظالم أن يتناول من هذه المحرَّمات بقدر الضرورة للإبقاء على حياته، ولا يتعدّى ذلك.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلاَّ النَّارَ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُاْ الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾﴾ نزلت في علماء اليهود[١] ـ كما يُروى ـ إلاّ أنّها تحذّر كلَّ حامل علم يكتم ما أنزل الله، لاستغلاله لمصالحه الرخيصة مهما غلت، إذ أنّها أخسَّ ثمن في قبال تحصيل رضا الله. وما يأكل هؤلاء إلاّ ناراً سيجرّهم إليها عملهم، وفوق ذلك عذاب شديد يوم القيامة، يتمثَّل في إعراض الله عنهم، وعدم تطهيرهم من دنس أعمالهم، وذلك لاستهانتهم بعقولهم وأوامر ربّهم، واستبدالهم الهدى بالضلال، والمغفرة بالعذاب، فيا لشدَّة صبرهم على النار! وما أعظم جرأتهم عليها! كل ذلك لعنادهم المتأصِّل، واختلافهم في الكتاب، بعد أن نزل من الله بالحقّ ليكون الهدى والمقياس.

﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّآئِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُواْ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاء والضَّرَّاء وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ جاءت الآية لتوقف الجدل حول القِبلة، وتعلن أنَّ الاتجاه إلى وجهة معيَّنة في المشرق أو في

١. انظر مجمع البيان، ج ١، ص ٤٦٠.

المغرب ليس كلّ البر، وإنَّما البرّ الكامل هو: الإيمان (بالله) ويشكّل الأساس في التصوّر الإسلاميّ عن الكون والحياة، و(بالآخرة) تعبيراً عن العدل الإلهيّ والحياة الممتدَّة للإنسان، و(بالملائكة) جزءاً من الإيمان بعالم الغيب، و(بالكتاب) المعبِّر عن الوحي المربِّي للبشريَّة، و(بالنبيِّين) قادة للحركة الموحِّدة لدين الله.

ثمَّ بإعطاء المال ـ غير الزكاة ـ تحرُّراً من الحرص وسمّواً على المادّة، وذلك لذوي القربى، لدعم الروابط العائليَّة، واليتامى والمساكين وابن السبيل المنقطع عن أهله وبلاده، والسائلين المحتاجين، وإعتاق العبيد لتحقيق مقتضيات التكافل والأخوّة.

كما يتقوَّم بإقامة الصّلاة وأدائها الكامل ووعي معطياتها، وإيتاء الزكاة، لتموين عملية تحقيق التوازن والارتفاع بالمستويات الضعيفة إلى حدّ (الغنى) والوفاء بالعهد لإشاعة الثقة، والصبر في البأساء وهي الشدَّة والفقر، والضرَّاء وهي المرض، وحين البأس وهو اشتداد الحرب، وهذه المواطن من أشدّ الحالات على الإنسان. ولذا يطلب الصبر عليها للتقوّي على باقي الجوانب. وقد نُصب لفظ (الصابرين) لتركيز المدح عليهم بتقدير (أخص)... فإذا جمع المسلم هذه الصّفات الحميدة، فهو الصادق في إيمانه والذي انعكست تقواه على مجالات حياته، وقد جاء عن النبيّ ﷺ: «من عمل بهذه الآية فقد استكمل الإيمان»[١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنثَى بِالأُنثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاء إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾﴾ رفض الإسلام سنَّة الثأر الجاهليّة الممزِّقة، وأعلن مبدأ القصاص والمساواة في القتل العمد؛ الحر بالحر، والعبد بالعبد، والأنثى بالأنثى. ولكنّ المرونة الإسلاميّة فتحت مجال رأب الصدع، للحفاظ على العواطف الأخويَّة والطاقات الإنسانيّة، فشرّعت العفو مع الدية (وهي مال يدفع لأهل القتيل) وبدونها، وربَّما حبَّذت الآية العفو بتعبير (أخيه) فإذا عفى أولياء الدم عن شيء من حقّهم فإن الأخلاق تقتضي منهم مطالبة القاتل بالدية المتعارفة بلا عنف، وتقتضي من القاتل أداءها بلا تهاون أو إنقاص.

١. بحار الانوار، ج ٦٦، ص ٣٤٦.

وهذا الحكم تسهيل من الله ورحمة بالقاتل والمجتمع، فإذا تمَّ العفو فلا مجال للتراجع باعتداء العافين على القاتل، وإلاّ أصابهم من الله العذاب الأليم.

﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَاْ أُولِيْ الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ تُعدُّ هذه الآية من أبلغ التعابير العربيَّة وأثراها رغم إيجازها. فهي تعلن أنّ الحياة الاجتماعيّة متوقِّفة على تشريع القصاص لردع الجناة، إذ ربَّما توقَّف تكامل المجتمع ـ كأيِّ كائن حيّ ـ على قطع العضو الفاسد لئلاّ يأتي على الكيان كلِّه، كما يمكن أن يؤدّي لشفاء الغليل لأولياء القتيل فلا يقومون بالانتقام. وقد أخطأت بعض النظريّات الحديثة، إذ رفعت هذه العقوبة، فوقعت في جحيم الإجرام، ممّا دعاها للتفكير بالعودة إليه، بعد أن كانت تتَّهمه ـ ظلماً ـ بالقسوة والوحشيَّة. أما السجن فلا يؤدّي دور القصاص والحدود إن لم يشجّع على الإجرام، وقد ذكر فقهاؤنا ـ تبعاً للأدلّة ـ أنّ الرجل إذا قتل المرأة فلأوليائها المطالبة بقتله قصاصاً بعد دفع نصف ديته، وذلك لأسباب اقتصاديَّة.

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ فَمَن بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾﴾ حبّذ القرآن للمتَّقين أن يوصوا ببعض أموالهم لأبويهم ولذوي قرباهم بشكل متعارف ومناسب، قياماً بحقوق الأبوَّة والقرابة. ولا تنفذ الوصيّة إلاّ في الثلث من التركة أو بإذن الورثة، والعمل بها بعد ثبوتها لازم، فمن بدَّل ما أوصى به الموصي كان آثماً، والله سميع عليم.

﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨٢﴾﴾ بعد الحكم بعدم جواز تبديل الوصيّة تعرّضت الآية لحالة يميل فيها الموصي عن المتعارف، فيضرّ بنصيب الورثة ـ وهو الجنف ـ أو يوصي بأمر غير مشروع ـ وهو الإثم ـ فللوصي، وربَّما لغيره، التدخُّل لإرجاع الموصي إلى حدِّ الاعتدال، أو لحلِّ الخلاف بين الموصى له والورثة بعد الموت، وكذلك لعدم تنفيذ الوصايا غير المشروعة، فليس تبديله إثماً.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ

إن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾﴾ كتب الله الصوم على هذه الأمّة كما فرضه على سائر الأمم، ممّا يوحي بضرورته للبشريَّة التي تحمل هدفاً سامياً. والتشابه هو في الوجوب دون الخصوصيّات. ويعني الصوم كفُّ النفس عن لذّات معينة في أيام معدودة قربة لله. وله تأثير كبير في مجال تربية الإرادة الواعية وتعميق الإخلاص له تعالى والشعور بقيمة نعمه، والتحسُّس بآلام الفقراء، وبالتالي الشعور بالمسؤوليّة الداخليَّة والعمل على تكوين مجتمع المتّقين، هذا بالإضافة إلى فوائده الصحِّية.

ويبدو اللُّطف الإلهيّ في توجيه الخطاب للَّذين آمنوا ليعملوا بمقتضى إيمانهم، ثمّ التخفيف عن ثقل الصوم بذكر اشتراك الأمم معهم، وأنّه يتمّ في أيام معدودة، وأنّه ضروريّ لإيصالهم إلى هدفهم وهو التقوى، وأخيراً استثناء بعض الحالات.

فيجب صوم شهر من السنة وهو رمضان، أمّا المريض والمسافر فيجب أن يفطرا بلا رخصة في الصوم ـ كما يبدو من الآية وروايات أهل البيت عليهم السلام [١] وعليه جمع من الصحابة[٢] ـ وعليهما القضاء بعد ذلك.

أمّا الذين يطيقونه أي يتحمَّلون مشقَّة غير عادية في الصوم فلهؤلاء الإفطار، وعليهم ـ حينئذ ـ اطعام مسكين فديةً، وهي تعبّر عن وجه اجتماعي لنظام العبادات.

والتطوُّع هو العمل برغبة، وقد دُفِع المؤمنون ليصوموا رغبة وطواعية فذلك خير، وتؤكّد الآية أفضليَّة الصوم لمن يطيقونه.

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِيَ أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُواْ الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ اللّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾﴾ إنَّ ظرف الصوم وهو شهر رمضان، أكتسب أهمِّيته من نزول القرآن فيه، وهو يحمل للعالم الهدى والفرقان المميِّز بين الحقّ والباطل، ممّا يوحي للإمَّة بعظم

١ . تهذيب الاحكام، ج ٤، ص ٢١٦، ح ١، ٢، و٣، ص ٢١٧، ح ٤، ٥، ٦، ٧، و٢١٨ ح ٨ .

٢ . كما روي عن ابن عباس وابن عمر وأبي هريرة (الموسوعة الفقهية الكويتية)(ج٢٨ ص٥١) واستدل له باحاديث منها: حديث جابر (ليس من البر الصيام في السفر) اخرجه البخاري (الفتح٤/ ١٨٣) ومسلم (٢/ ٧٨٦).

مهمَّتها واحتياجها إلى الإرادة والتضحية والاخلاص الَّذي يحقِّقه الصوم. وقد نزل القرآن تارة على قلب النبيِّ ﷺ جملة واحدة، لتربية القائد، ونزل تارة أخرى تدريجاً خلال مراحل الدعوة لتربية الأمّة. وهناك آراء أخر في هذا الخصوص.

ويأتي التركيز على عموم الحكم الواجب واستثناء المريض والمسافر، إذ يقضيان الصوم في أيّام أُخر، وهو تطبيق لدور مصلحة التسهيل على العباد في التشريع الإسلامي.

إنَّ الهداية الإلهيّة للسبيل القويم تستوجب تعظيم الله ـ جلّ وعلا ـ وشكره والقيام بلوازم الشكر.

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ الدعاء رحمة إلهيّة تفتح أبواب الأمل البنّاء، وتشعر الإنسان حسّاً بضعته أمام خالقه ولطف خالقه به، إذ يمدّه بالعزم والسكينة والثقة بالمستقبل. وقد علَّم أهل البيت عليهم السلام الأمّة أساليب الدعاء ومضامينه بشكل يربيِّها أروع تربية. هذا وقد عبَّرت الآية عن جوِّ الرحمة الإلهيّة، بذكر كلّ من ضمير المتكلِّم (الله تعالى) وضمير المخاطب (العبد) مرّات للمبالغة في الربط.

وربما تفهم ـ من الآية شرائط التأكيد في استجابة الدعاء ـ لو كان فيه مصلحة ـ وهي العبوديَّة، وحصر الأمل بالله دون غيره، والعمل بأوامره.

﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَآئِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ اللّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُواْ مَا كَتَبَ اللّهُ لَكُمْ وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّواْ الصِّيَامَ إِلَى الَّليْلِ وَلاَ تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللّهِ فَلاَ تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ كانت السنُّة النبويَّة قد حرَّمت ـ على من نام ليلة الصيام ـ مباشرة الزوجة، وكذا الأكل والشرب، وقيل إنّ حرمة المباشرة كانت تعمُّ شهر رمضان بلياليه، إلاّ أنّ بعض المسلمين كانوا يخونون أنفسهم ويخالفون أمر الله في ذلك، وقد نزلت هذه الآية لتنسخ حكم السُنَّة، مجوّزة المباشرة إرفاقاً ويسراً، موضحة بلفظ (اللباس) معاني الحنان والستر عن المعاصي، والتلاقي والترابط بين

الزوجين، وقد أخبرتهم عن توبة الله عليهم، وأكّدت جواز المباشرة وطلب الولد أو إشباع الغريزة من خلالها، كما أباحت الأكل والشرب، وإن كان بعد النوم، إلى أن يتميَّز بياض النهار عن سواد اللَّيل، إذ يبدأ الصوم. أمّا ختامه فهو دخول الليل بذهاب الحمرة المشرقيَّة أو غروب الشمس ـ على رأي ـ.

الاعتكاف، هو البقاء في أحد المساجد الجامعة ثلاثة أيّام مع الصوم نهاراً، وله أحكام ذكرت الآية منها حرمة مباشرة النساء، ولعلّ ذلك لأنّه لو كان الاعتكاف في رمضان فإنه تحرم المباشرة في لياليه دون ليالي رمضان الأخرى. ثمّ ذكرت الآية أنّ الأحكام الواردة فيها هي حدود الله التي يجب أن لا يقربها الناس، حتّى يتسنّى لهم بلوغ درجات التقوى.

﴿وَلاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾﴾ قرَّرت الآية احترام الملكية الخاصّة المؤطّرة بالصالح العام، حيث أضافت الأموال لضمير الجماعة، وقد منعت التعدّي وانتقال الأموال بالأسباب الباطلة شرعاً كالغصب والظلم وغيرهما، وخصَّت ذكر الرشوة بإعطاء مال أو هديَّة لإغراء الحاكم بالجور، ممّا يشكّل خطراً على العدالة.

وقد قدَّم أحدهم هديَّة للإمام عليّ عليه السلام متوقِّعاً ميلاً لصالحه فقال له ـ ضمن ما قال:

«هبلتك الهبول أعن دين الله أتيتني لتخدعني؟... والله لو أعطيت الأقاليم السبعة بما تحت أفلاكها على أن أعصي الله في نملة أسلبها جلب شعيرة ما فعلته»[1].

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوْاْ الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُواْ الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾﴾ سأل بعض النّاس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن علَّة خلق الأهلّة وكمالها ونقصها فجاء الجواب موضحاً ارتباط حالاتها بحياة الناس، فهي مواقيت مضبوطة واضحة للجميع، تنفعهم في تمشية أُمورهم، ومعرفة وقت واجباتهم كالحجّ. ولم يتعرَّض للإجابة المباشرة إمّا لعدم إمكان تفهيمهم الواقع الطبيعيّ، وإما لخروج ذلك عن مهمّة القرآن باعتباره كتاب تربية للبشريَّة، تاركاً كشف الأسرار الطبيعيّة للفكر.

١. نهج البلاغة، خ ٢٢٤، ص ٣٤٧، د. صبحي الصالح.

اعتاد الجاهليُّون ـ كما قيل ـ عند الإحرام أو الرجوع من سفر دخول البيوت من ظهورها وغير أبوابها، فردَّ القرآن ذلك مؤكِّداً أنّ البرَّ هو سلوك الطريق الطبيعيّ إلى كلِّ شيء، لحفظ الموازين، دون اضاعتها بسلوك السبل الملتوية، ومن ذلك السؤال عن الأهلَّة، كما أنَّ منه محاولة معرفة الشريعة من غير السبل التي عيَّنتها هي.

﴿وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبِّ الْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾﴾ تشرّع الآية ـ لأوّل مرة ـ قتال المشركين، في سبيل إعلاء كلمة الله وتطبيق شريعته وإزالة الطواغيت، وهي مسوّغات القتال في الإسلام دون الأطماع والشهوات. على أنّ القتال إنّما هو للظالمين دون المسالمين كالشيوخ والأطفال، فإنه يعدّ اعتداءً، ممّا يوضّح إنسانيّة الإسلام حتّى في قتاله.

﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلاَ تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاء الْكَافِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ انتَهَوْاْ فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾﴾ أُمِرَ المسلمون بملاحقة المشركين أينما ثقفوهم (وجدوهم)، وإخراجهم من ديارهم جزاء إخراج المسلمين من مكّة.

وهنا توضيح لجوِّ الأمر بالقتال، وتأكيد لحقيقة أنّه ـ ولو كان في مكّة ـ أهون من شرك المشركين وصدِّهم عن المسجد الحرام وقيامهم بشتّى الأساليب ضدَّ تنامي حركة الإيمان في الأرض. وهنا جاء استثناء للمسجد الحرام من الأمر السابق بقتال المشركين حيثما وجدوا، وذلك تأكيد لحرمته وجعله أمناً للناس، اللّهمّ إلا أن ينتهك المشركون حرمة البيت ويستغلّوها ضد الإسلام، فإنّه يجوز قتالهم حتّى ولو كانوا متحصِّنين فيه، أمّا إذا كفُّوا عن القتال ورفعوا أيديهم عن الكفر، فإن الله سيشملهم بالعفو والرحمة.

﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلّهِ فَإِنِ انتَهَواْ فَلاَ عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٩٣﴾﴾ القتال في الإسلام لا يستهدف إلاّ تحقيق المجتمع العابد لله، السائر وفق مقتضيات فطرته، وإزالة الموانع والطواغيت من طريقه، فلا تبقى فتنة (شرك وإغواء)، وبهذا تندفع شبهات أعداء الإسلام، إذ ليست الكفّ التي تحمل السيف لتنشر العدل كالأُخرى التي ترفعه لاستعباد البشر واستغلالهم.

أمّا لو امتنع المشركون عن القتال والتحريض، وعادوا إلى جادّة الصواب، فلا عدوان عليهم (أي عقوبة) بل العقوبة مختصَّة بالظالمين المعاندين.

﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ على الرغم من حرمة القتال في الأشهر الحرم ـ رجب، وذي القعدة، وذي الحجة، ومحرم ـ إلاّ أنّ الاستفادة من هذه المزية مخصوصة بمن احترمها ولم يعتد فيها، وإلاّ اعتُدي عليه (أي جوزي) بمثل اعتدائه؛ لأنَّ الحرمات قصاص ومقابلة، مع وجوب مراعاة الاعتدال في الردِّ.

﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوَاْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾﴾ إنَّ الإنفاق في سبيل الله يوفِّر للمقاتلين الدعم المادّيّ المطلوب، كما يوفّر للمجتمع التكافل والتوازن، وبدونه فإن المجتمع سيلقي نفسه بنفسه في مهوى الهزيمة والفقر والهلاك. وختمت الآية بالحثّ على التسامي والإحسان وكمال الإنفاق والاعتدال فيه، وفي أيّ أمر آخر، وينبغي الالتفات إلى أنَّ المسلم يجب أن يوازن دائماً بين ما يقدمه من تضحيات بالنفس أو المال، وما يحصل عليه من نتائج.

﴿وَأَتِمُّواْ الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلاَ تَحْلِقُواْ رُؤُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضاً أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾﴾ تطلب الآية إكمال الحجّ والعمرة قربة إلى الله وحده، فإن منع الحاجّ مانع من مرض أو خوف عدوّ فلم يستطع الإكمال، فعليه إرسال ما يمكنه من الأنعام ثمّ يصبر، فلا يحُلُّ إحرامه بحلق رأسه حتّى يبلغ الهدي (الأضحية) محلَّ نحره وهو مكّة أو منى، وإلاّ فمكان الصد، ولو اضطرَّ الممنوع لحلق رأسه ـ لأذىً فيه أو مرض ـ فعليه الفدية وهي صيام ثلاثة أيّام أو إطعام ستَّة فقراء أو نسك (ذبح شاة) كما تبيّن الروايات ذلك.

وأمّا في حال الأمن ففرضُ غير أهل مكّة هو حج التمتّع، حيث يأتون فيه بالعمرة أولاً

ثمّ يحلّون من الإحرام ويستمتعون بما أحلَّ الله من الطيِّبات والنساء، وبعده يحرمون للحجِّ الإبراهيمي وله أركانه وواجباته ومنها ذبح الهدي في منى، فإذا لم يجد فعليه صيام عشرة أيام، ثلاثة منها في أيام الحجّ (السابع والثامن والتاسع من ذي الحجَّة) وسبعة عند رجوعه، ليكون المجموع عشرة أيام كاملة.

والواضح أنّ الآية نصّ في تشريع عمرة التمتّع وحجّه، وتؤيّدها الروايات الكثيرة، ولا يمكن لأحد أن يجتهد في قبال النصّ.

﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللّهُ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ ﴿١٩٧﴾﴾ أشهر الحجّ معيَّنة وهي شوال، وذوالقعدة، وذو الحجّة. وتختصّ بعض أعماله بأيّام مخصوصة من ذي الحجَّة، فإذا أحرم الإنسان ولبّى نداء التوحيد، وانخرط في سلك جنوده، وجب أن يجنِّب نفسه الرفث (أي التمتّع الجنسي والجماع)، والفسوق (وهي المعاصي ذكرت هنا تأكيداً لحرمتها) والجدال (أي المناقشة مع اليمين والمؤدّية للإغضاب).

وعليه، أن يراقب نفسه بدقّة ويشعر أنّه بحضرة الله العليم بما يفعله من الخيرات، ليستزيد منها، ليحصل على أفضل زاد دنيوي وأُخروي، وهو التقوى التي تهفو إليها الألباب (العقول) وتدفع إليها الفطرة.

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُواْ اللّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّآلِّينَ ﴿١٩٨﴾﴾ كان بعض النّاس يتحرَّج من التجارة في موسم الحج؛ لأنّه موسم العبادة والذكر، فرفعت الآية الحرج في الاكتساب من فضل الله، وربَّما كانت الفائدة الاقتصاديَّة مقصودة أيضاً في الحج.

يذكر ـ سبحانه ـ هنا بعض مناسك الحجّ وهما الوقوفان: أمّا الوقوف بعرفة فيجب من ظهر التاسع إلى غروبه، ويمتدُّ للمضطرّ إلى طلوع فجر العاشر، وتتجلّى في هذا الموقف الروحي الرائع معاني الافتقار المجموعي لله وذكره والتحرُّر من براثن المادّة، والمساواة والوحدة والتراصّ، وغير ذلك.

وأمّا الوقوف بالمشعر فيتمّ بعد أن يفيض النّاس (أي يندفعون بكثرة) إليه حيث

يبقون فيه من طلوع الفجر إلى طلوع شمس العاشر من ذي الحجَّة، ويذكرون الله كثيراً، ويتحسَّسون عطاءه وهداه بعد فترة من الضمور والضلال، كما يحسِّسهم الموقف بمواقف القيامة الرهيبة.

﴿ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾﴾ كانت قريش تميِّز نفسها عن الباقين بالوقوف في خصوص المزدلفة، باعتبار أنّها من الحرم، وأنّ قريشاً أهله، بينما يقف باقي النّاس في عرفات، فجاءت هذه الآية نافيةً للتمايز آمرة الجميع بالوقوف في عرفات، ثمّ الإفاضة إلى المشعر في حركة مجموعيَّة واحدة مستغفرة، طالبة التوفيق من الله.

﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُواْ اللّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ ﴿٢٠٠﴾ وِمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُواْ وَاللّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾﴾ كانت العرب تتفاخر بعد الحجّ بأنسابها وآبائها، فجاء القرآن يغيِّر الموازين ويجعل ذكر الله فوق كل شيء، والارتباط به فوق كلِّ ارتباط؛ لأنه واهب كلِّ شيء.

وقد خطب رسول الله ﷺ أيام التشريق فقال:

«أيها الناس: ألا إنّ ربَّكم واحد، وان أباكم واحد، ألا لافضل لعربيّ على عجميّ، ولا لعجميّ على عربيّ، ولا لأسود على أحمر، ولا لأحمر على أسود، إلاّ بالتقوى»[1].

تربية للناس على الدعاء الكامل، وإعطاء للتصوّر الصحيح عن الدنيا والآخرة، فينبغي أن لا يركّز الحاج على طلب الدنيا أياً كانت، فلا يكون له في الآخرة خلاق (نصيب) وإنّما يطلب الأمر الحسن في الدنيا، وكذلك في الآخرة ليتحقّق التوازن في شخصيّته وموقفه منهما، ثمّ يدعو الله أن يخلِّصه من عذاب النار. ولا ريب في أنَّ الدعاء يستلزم اندفاعاً لتهيئة الأرضيَّة المساعدة للاستجابة، فإذا عمل لذلك فقد حصل على حصَّته ونصيبه الذي سعى إليه، والله سريع الحساب والجزاء.

---

١. الدر المنثور، ج ٩، ص ٢٦٨، باب ١٣، تحف العقول ص ٣٤.

وقد كتب الإمام أمير المؤمنين عليه السلام إلى محمّد بن أبي بكر واليه على مصر، يصف مجتمع المتّقين:

(إعلموا إنّ المتّقين ذهبوا بعاجل الدنيا وآجل الآخرة؛ فشاركوا أهل الدنيا في دنياهم، ولم يشاركهم أهل الدنيا في آخرتهم. سكنوا الدنيا بأفضل ماسكنت، وأكلوها بأفضل ما اكِلَت... أصابوا لذّة زهد الدنيا في دنياهم، وتيقّنوا أنّهم جيران الله غداً في آخرتهم، لا تردُّ لهم دعوة، ولا ينقص لهم نصيب من لذّة)[١].

﴿وَاذْكُرُواْ اللّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾ الأيّام المعدودات هي أيّام التشريق ـ ١١، ١٢، ١٣ من ذي الحجة، وينبغي فيها ذكر الله المتواصل، وروي أنّه التكبير المخصوص[٢]. وقد خيّرت الآية الحجّاج بين التعجيل بالبقاء يومين منها في منى والتأخُّر إلى الثالث عشر، ويختصّ التخيير بمن اتّقى، أي احترز من كلّ محرمات الإحرام أو خصوص الصيد والنساء. ثمّ توجّهت للمسلمين ـ في ختام الحديث عن الحجّ ـ ليتّصفوا بالتقوى، كحصيلة لعملية الحجّ التربويّة الكبرى، التي ذكّرتهم بيوم الحشر الأكبر، ممّا يساعد على تحقّق خشية الله وتقواه.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيِهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾﴾ عرض لنموذج المنافق من الناس، حيث تجد في كلامه المعسول ما يعجبك من الإطراء والاستقامة والحديث عن الخير والحقّ والإخلاص للمبادئ ومصالح الأمّة، وقد يحلف بالله ويشهده على مكنون قلبه، والله يعلم أنّه مملوء حقداً ونفاقاً، وأنّه ألدّ (أشدّ) خصوم الحقيقة، وبمجرد أن يعتلي منصباً ويربح سلطة يسعى في الأرض بالفساد والقضاء على موارد الأمّة الاقتصاديّة بالغصب وسنّ التشريعات الفاسدة، وعلى البشريّة بالقتل والاضطهاد، في سبيل مطامعه الرخيصة، ومثل هذا الصنف بعيد عن رحمة الله الذي لايحبُّ الفساد. وقد ابتليت الأمّة الإسلاميّة ـ كغيرها ـ بهذا النمط من القيادات المنافقة التي أذلّت الأمّة وجرّتها إلى الاضمحلال والضياع.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾﴾ إنّ تكبّره

---

١. نهج البلاغة، الرسالة ٢٧، ص ٣٨٣، د. صبحي الصالح.

٢. الكافي، ج ٤، ص ٥١٦، و ٥١٧، ح ١ – ٥.

وعناده ينسيانه غضب الله فإذا ذكّر به أخذته العزّة الظاهرة التي اكتسبها بالإثم فاستعظم ذلك، ولكن الغضب الإلهيّ سيقهر هذا التكبُّر بنار جهنّم وبئست مهاداً (محلاًّ) للمتكبِّرين.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاء مَرْضَاتِ اللّهِ وَاللّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾﴾ وعلى العكس من النموذج السابق، يعرض القرآن هنا نموذج الفدائيّ المؤمن المضحِّي لا لشيء إلا لتحقيق رضا الله وهو أسمى غاية، وقد تجلّت رأفة الله في هذا الشخص، فمنحته هذه الروح العالية، كما تجلَّت في الأمّة إذ قدَّمت لها هذا النموذج مثلاً سامياً تقتدي به.

وفي الروايات إنّ الآية نزلت في عليّ عليه السلام عند مبيته على فراش رسول الله صلى الله عليه وآله ليلة الهجرة [١]. يروى الميبدي: إن الله أوحى إلى جبرئيل وميكائيل: إني آخيت بينكما وجعلت عمر أحدكما أطول من عمر الآخر فأيكما يؤثر صاحبه بالحياة، فاختار كلاهما الحياة. فأوحى الله إليهما أفلا كنتما مثل علي بن أبي طالب، آخيت بينه وبين نبيي محمد (ص) فبات على فراشه يفديه بنفسه، ويؤثره بالحياة...) [٢].

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ ادْخُلُواْ فِي السِّلْمِ كَآفَّةً وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾﴾ دعوة للمؤمنين للدخول الجماعي تحت لواء التسليم المطلق لله، والإسلام الكامل لأوامره التي تتكفَّل حلَّ كلِّ المشاكل الإنسانيّة، وعدم اتّباع الهوى والظنّ، والحذر من خطوات الشيطان الماكرة الّتي قد تجزّئ الإسلام وتفصل أحكامه عن بعضها، فتشوّه حقيقته وكماله، أو تحبِّذ الدعوات الضالّة وتلبسها أقنعة مختلفة مثل أقنعة الإصلاح والوطنيَّة والسّلام العالمي وأمثالها.

﴿فَإِن زَلَلْتُمْ مِّن بَعْدِ مَا جَاءتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلآئِكَةُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَإِلَى اللّهِ تُرْجَعُ الامُورُ ﴿٢١٠﴾﴾ إستنكار وتهديد لموقف المعاندين للحقّ بيوم يأتي فيه عذاب الله، وأمره، في غمام يظللهم فيظنونه رحمة وفيه العذاب الأليم تصبّه عليهم ملائكة الله... إنّه الأمر الّذي قضاه الله ولا رادّ لقضائه، حيث ترجع أمور الخلق إليه فيحاسبهم الحساب الدقيق.

﴿سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُم مِّنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللّهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُ

---

١. نور الثقلين، ج ١، ص ٢٠٤ و ٢٠٥، ح ٧٥٧ - ٧٦٢.
٢. كشف الأسرار وعدة الأبرار ج ١، ص ٥٥٤ - ٥٥٥.

فَإِنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢١١﴾ ذكر لنموذج من نماذج العناد والزلل بعد وضوح الآيات، ليكون درساً لهذه الأمّة. فقد آتى الله بني إسرائيل البيّنات، ولكنّهم بدّلوا نعمة الله كفراً وتمرّدوا على أوامره، فكان عقاب الله شديداً، وهذه سنَّة إلهيّة عامّة في الأمم.

﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ اتَّقَواْ فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاء بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾ صنفان من البشر: صنف تافه الهدف رخيصه لا يبغي إلا متاع جسد، وشبع بطن، زُيّنت له الدنيا امتحاناً فكانت أسمى مقصد لديه وهي وضيعة، أمّا الأهداف السامية حقاً وأصحابها فهي عنده موضع للسخرية، وصنف فوق ذلك في هدفه؛ أنّه يعيش لله ولمجتمع الله، ولا يلقي بالاً لسخريات الآخرين؛ لأنّه في موازين الآخرة فوقهم مادّة وروحاً، وذلك عطاء إلهيّ لا يحدُّ.

﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ لِمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللّهُ يَهْدِي مَن يَشَاء إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾ كانت البشريّة تعيش حالة فطريَّة موحَّدة، وفي الفطرة نوازع وطبائع لتشكيل التجمُّع الذي لا يتكامل الإنسان إلاّ في اطاره. ولا ريب في أنّ المجتمع ـ أيَّ مجتمع ـ يحتاج إلى قانون تشريعي يوازن بين حاجات أفراده، ويحقّق التلاؤم بين المصلحة الفرديّة والمصلحة الاجتماعيّة، ويشيع العدالة، ويكون مقياساً لحلِّ أيِّ اختلاف وتصادم. وهذا النظام لا يمكن أن يوضع إلاّ من قبل الله الخالق العليم بكلِّ ذلك والمنزَّه عن الأهواء. ومن هنا فقد بعث الله الأنبياء المعصومين يحملون رسالته إلى البشريّة التي كان عليها أن تسير وفق هداه تعالى. إلاّ أنّ بعضاً من حملة الدين المزيَّفين أدركهم الحرص والطمع وحبُّ الرئاسة، فراحوا يحرِّفونه لصالح أهوائهم المختلفة بغياً وظلماً، فنشأ الاختلاف في الدين نتيجة الظلم. أمّا الرعيل المؤمن المستعد للتسليم المطلق لله فقد هداه الله إلى السبيل القويم.

والملاحظ، أنَّ الآية تؤكّد الوحدة الفطريَّة بين الناس، وأصالة الدين التاريخيّ، وأنّ المشرِّع الحقيقيّ هو الله العالم المنزَّه عن الميل دون الإنسان الجاهل المائل، وأنّ الدّين هو الحكم الوحيد للمسيرة الإنسانيّة، يسير مع تعقّد الاحتياجات مربياً إيّاها، حتّى تصل لدور

النضج فتأتيها الرسالة الخاتمة. يقول الامام أمير المؤمنين عليه السلام :

«فبعث فيهم رسله، وواتر إليهم أنبياءه، ليستهدوهم ميثاق فطرته، ويذكّروهم منسيَّ نعمته، ويحتجُّوا عليهم بالتبليغ، ويثيروا لهم دفائن العقول...»[١].

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء وَزُلْزِلُواْ حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾ جرت سنة الله بتمحيص المؤمنين وإعدادهم لتحمُّل المسؤوليات، والإيمان فكرة يراد لها أن تنظِّم شؤون العالم وتقوده، ولن تكون كذلك حتّى يحملها المؤمنون ويقتحموا في سبيلها العقبات، ويلاقوا البأساء (أي الشدَّة في غير النفس كفقدان المال) والضرّاء (وهي الشدَّة في النفس كالجرح) ويزلزلوا ويضطربوا، حتّى يصل الأمر بالرسول والمؤمنين إلى التساؤل عن أوان نصر الله، وكأنّهم يستبعدونه لشدَّة الهول، وحينذاك يأتي النداء الإلهيّ معلناً أنّ نصر الله قريب، ولكن لمن صبروا فكانوا أهلاً لذلك النصر.

﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾﴾ إنّ الإنفاق (وهو حالة إيمانية فردية واجتماعية) إنّما يتمّ من المال الحلال الخيّر ولأهداف خيّرة. والآية تركّز في موارده على الوالدين (ضمن العائلة الصغيرة) والأقارب (وهم العائلة الكبيرة) واليتامى والمساكين وابن السبيل المنقطع عن ماله (في إطار المجتمع الكبير) مما ينتج الترابط ويشيع العواطف الخيرة. ولما كان الله عليماً بكل ما يفعل من خيرات فإن الجزاء الأوفى هو النتيجة المرجوّة.

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّواْ شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾ تدفع الآية المؤمنين للقتال والجهاد، وهي تعالج حالة من الكراهيّة للقتال ناتجة من المشقَّة الطبيعيّة له، أو من تقدير خاطئ بأنّه يفني الوجود الإسلاميّ الفتيّ آنذاك، أو كتعبير عن الرحمة العامّة التي ربّاها القرآن في النفوس، وقد عالجته بالتذكير بحكمة الله وعِلمه بالمصالح التي كثيراً ما

---

١. نهج البلاغة، الخطبة ١، ص ٤٢، د. صبحي الصالح.

تخفى على الإنسان، فقد يحبُّ شيئاً وهو في غير صالحه، وقد يكره شيئاً وفيه الخير الكثير.

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللّه وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللّه وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىَ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُواْ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢١٧﴾﴾ روي أنَّها نزلت في سريَّة عبدالله بن جحش، التي أرسلها النبي ﷺ لتترصّد حركة قوافل المشركين، ولكنّها التحمت مع العدو في الأشهر الحرم بقتال لم تكن قد أمرت به، وعادت تحمل الغنائم والأسرى، فكبر ذلك على الكثيرين، وثار التساؤل عن حكم القتال في الشهر الحرام، فجاء الردّ القرآني يؤكّد، أنَّ أصل القتال فيه أمر مستنكر وكبير الوقع، ولكنَّ فتنة قريش وشركها وصدّها النّاس عن الإسلام بالتعذيب الشديد والاضطهاد، وكذلك كفرها بالله وصدّها عن المسجد الحرام، واخراجها المسلمين منه، كل ذلك أشد فظاعة من القتال في الأشهر الحرم، إذ الفتنة عقبة في وجه الرسالة المنقذة الهادية التي تحمل العدالة والسعادة للبشرية جميعاً، ويتأكّد هذا إذا لوحظ العناد الشديد للمشركين واصرارهم على تحيُّن الفرص لقتال المسلمين والقضاء عليهم، وارجاعهم إلى حضيض الجاهليّة التي أنقذهم الله منها.

ونظراً لخطورة الموقف يتوجّه التحذير الشديد للمسلمين بالبقاء على الحقّ وعدم الارتداد عنه إلى الكفر والضلال، إذ يفقدون ـ بذلك ـ الحصول على نتائج أعمالهم الحسنة الماضية، ويخسرون سعادتهم في الدنيا والآخرة، فالموت على الكفر يحبط الأعمال ويبطل آثارها على حياتهم، وإنّ قبول العمل متوقّف على بقاء الإيمان حتّى الموت.

وهذا التحذير الإلهيّ يجد له موقعه في كلِّ حين، فإغراءات الكفر قائمة، وأبواب الدعوات الضالّة مشرعة مغرية، فيجب أن يحذرها المسلم ويحصِّن نفسه تجاهها لئلاّ يحبط عمله.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللّه أُوْلَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللّه وَاللّه غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾﴾ إنَّ الذين انعكس الإيمان على واقعهم العمليّ فهاجروا إلى الله وجاهدوا في سبيله، هم الراجون حقّاً رحمة الله، وليس الرجاء مجرَّد تمنٍّ خادع لا أثر له، فإذا أخطأ المؤمن المجاهد أحياناً ـ كما أخطأت السريَّة المذكورة آنفاً ـ فإن الله سيعفو عنه لحسن نيّته.

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبيِّنُ اللّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (٢١٩)﴾ قيل بدلالة الآية ـ وهي مدنيَّة ـ على تحريم الخمر والميسر (القمار) لإثباتها الإثم فيهما والإثم محرَّم من قَبل في آية مكّية، وهذا هو الظاهر، وقيل إنّها لا تدلُّ عليه بل هي تمهيد للتحريم بعد ذلك، حيث بيَّنت هنا أن لهما أضراراً عقليَّة واقتصاديَّة واجتماعيَّة كثيرة تفوق المنافع المتصوَّرة فيهما، وقد تدرَّج الإسلام في تحريم الخمر كبعض الأحكام الأُخرى لتأصُّلها في الوجود الاجتماعيّ آنذاك، فعالجها بمرونة وتهيئة عقائديَّة ونفسيَّة وقضى عليها، في حين فشلت أعظم الدول الحديثة الَّتي جنَّدت كلَّ طاقاتها لحرب الخمر.

تذكر الآية أنَّ الإنفاق المطلوب هو (العفو) والظاهر أنّه الزائد عن المؤونة والحاجة حتّى المستقبّلية منها. وبعد هذا يدفع القرآن المسلمين للتفكّر في أحكام الله وحكمها وآثارها على حياتهم الدنيويَّة والأخرويَّة، وذلك للحصول على أداء واع لها ولنتائجها، كل ذلك في إطار التسليم الكامل لله.

﴿فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلاَحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاء اللّهُ لأعْنَتَكُمْ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٢٠)﴾ بعد نزول الآيات الناهية عن أكل مال اليتامى، تحرَّج بعض المسلمين من أموالهم، ولربَّما تخلّوا عن كفالتهم ومخالطتهم احتياطاً، مما أضرّ بهم، فوضّح القرآن أنّ العمل على اصلاح أُمورهم خير من ذلك التحرّج، وأن لا مانع من مخالطتهم ورعايتهم على أساس الأخوّة الإسلاميّة، وذلك أنّ الله أعلم بالنوايا الحسنة منها والسيِّئة. وهذا حكم يسهِّل على المسلمين أمورهم، ولو شاء الله لأعنتهم (كلّفهم وألزمهم) المشقّة بلزوم رعاية اليتامى مع الاحتياط الكامل، ولكنَّ الدين دين يسر وسماحة.

﴿وَلاَ تَنكِحُواْ الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ وَلأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلاَ تُنكِحُواْ الْمُشِرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُواْ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُوْلَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللّهُ يَدْعُوَ إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٢١)﴾ الأسرة هي الوحدة الأساس لبناء المجتمع العام عند الإسلام، وجوُّها الرحمة والتآلف

والترابط، وهو لا ينسجم مع الاختلاف العقائدي الأساس، ومن هنا حرم الزواج بين المسلمين والمشركين، ورغّب الرجال في الزواج بالمسلمة ولو كانت مملوكة فهي أفضل من المشركة ـ أياً كانت ـ ولو أعجبتهم بثروتها وجمالها، وكذا نهى عن تزويج المشركين ـ وان كانوا أحراراً ـ وأمر بترجيح المسلمين عليهم وان كانوا مملوكين، ذلك أنّ الوحدة لا يمكن افتراضها بين اتّجاه موحّد يدعوه الله إلى الجنّة والمغفرة، وآخر مشرك أهوج يدعو إلى النار. وهكذا يوضّح الله آياته لتتّضح المسيرة الصالحة.

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُواْ النِّسَاء فِي الْمَحِيضِ وَلاَ تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىَ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللهُ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾ المحيض هو العادة الشهرية عند النساء، وهي حالة غير عاديّة، وتشكّل أذى للنساء، وقد نهي المسلمون عن مقاربتهنَّ جماعاً أثناءها، فوازن الإسلام بذلك بين إفراط بعض اليهود والمشركين في التجنّب التام لها، وتفريط النصارى بعدم التجنب مطلقاً، ويرتفع المانع من الجماع بطهارتهن، حيث يجوز إتيانهنَّ ضمن الحدود التي قررها الله. أمّا من تجاوز هذه الأحكام، فإن أبواب التوبة مفتوحة له ليتطهر وليتكامل، وليكون مشمولاً برحمة الله المعبّرة عن حبّه.

﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَقَدِّمُواْ لأَنفُسِكُمْ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّكُم مُّلاَقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾﴾ إنَّ الإسلام واقعيّ يعترف بالغرائز، ولكنه يهذّبها ويصرّفها التصريف الصحيح، والآية تفسح المجال للأزواج للتمتُّع كيف شاءوا بالنساء، وشبّه المرأة بالحرث باعتبار أنها تثمر بقاء النوع الإنسانيّ، ثمّ طلب أن تؤطَّر العمليّة بإطار الله، حيث تجعل تقدمة للنفس في مستقبلها ومواصلة للأجيال التي تتابع سيرها التكامليّ في ظل تقوى الله ولقائه، وليبشّر المؤمنين الذين وعوا أحكام الله وطبّقوها التطبيق الكامل الموصل للخير والسعادة.

﴿وَلاَ تَجْعَلُواْ اللّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّواْ وَتَتَّقُواْ وَتُصْلِحُواْ بَيْنَ النَّاسِ وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾﴾ النهي إمّا عن جعل الحلف بالله تعالى على ترك البرِّ والتقوى والإصلاح مانعاً من القيام بهذه الأُمور، ولذلك ينبغي التكفير ثمّ القيام بها، وإمّا أنّ النهي هو عن جعل لفظ الجلالة (الله) في معرض الحلف كثيراً ولو لغرض البّر والتقوى والإصلاح؛ لأنّه يُفقد الثقة

بالحالف فلا يحقّق الهدف بالإضافة إلى كونه مخالفاً لاحترام هذا الاسم العظيم.

﴿لاَّ يُؤَاخِذُكُمُ اللّهُ بِاللَّغْوِ فِيَ أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾﴾ إذا كان الحلف بالله لغواً غير مقصود للحالف لسبق لسان أو عادة سيئة، فإنّه لا ينعقد، ولا يؤاخذ الله الغفور الحليم به، أمّا اليمين المؤثّر فهو ما كان حلفاً بالله تعالى لا غير مع القصد القلبيّ.

﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَآؤُوا فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُواْ الطَّلاَقَ فَإِنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾﴾ الإيلاء هو: الحلف على عدم مقاربة الزوجة غضباً وإضراراً لها، فإن للزوج تربُّص الحاكم الشرعي به وانتظار أربعة أشهر، فامّا أن يفيء (يرجع) الزوج إلى حقِّ الزوجية ويكفِّر عن يمينه ليغفر الله له، وإمّا أن يصمِّم على الطلاق، وإلاّ فإن الحاكم الشرعيَّ يرى رأيه في الموضوع.

﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلاَثَةَ قُرُوَءٍ وَلاَ يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُواْ إِصْلاَحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكُيمٌ ﴿٢٢٨﴾﴾ اعتبر الطلاق في الإسلام من أبغض الحلال؛ لأنّه يهدم الكيان العائليَّ، وإن كان ضروريّاً أحياناً، ومن هنا جاءت الأحكام تنظّمه وتمنع من تأثيراته السلبيَّة قدر الإمكان، ومنها حكم (العدَّة) حيث تنتظر المطلّقة ثلاثة قروء (القرء فترة الطهر بين حيضتين ظاهراً) وربَّما كان الغرض من ذلك امتحان بقاء الحالة التي استوجبت الطلاق، فلعلّها عارضة تزول في أثناء العدَّة، ويرجع العش الزوجي إلى الانسِجام. كما أنَّ من فوائدها حفظ الأنساب وعدم اختلاطها؛ لأنَّ الحمل لو كان لظهر أثره خلال العدَّة، وهنا لا يحلُّ للمطلقة المؤمنة بالله والآخرة أن تكتم ما أوجده الله في رحمها، وللزوج إرجاع زوجته في العدَّة إن كان يريد الإصلاح لا الإيذاء والإضرار.

يضع التشريع الإسلاميّ الحقوق بإزاء الواجبات ليحقّق التوازن. يقول الامام علي عليه السلام: «الحقّ أوسعُ الأشياء في التواصف، وأضيقها في التناصف، لا يجري لأحد إلاّ جرى عليه،

ولا يجري عليه إلاّ جرى له»[١].

والقرآن هنا يصرّح بأن للمرأة من الحقوق ما يقابل واجباتها طبق المعروف، وبذلك يرفع قدرها ويمنحها مكانتها الإنسانيّة، ولكنّ التشريع الحكيم لاحظ الاختلاف الطبيعيّ والوظيفيّ بين الجنسين، فمنح الرجل حقَّ قيادة العائلة، لأنّه أضمن استقامة وتعقّلاً.

﴿الطَّلاَقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلاَ يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُواْ مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلاَّ أَن يَخَافَا أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللّهِ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللّهِ فَلاَ تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللّهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٢٩﴾﴾ كان الرجل في الجاهليّة يستغل مسألة الرجوع في العدَّة ليكرِّرها ماشاء، إضراراً بالمرأة وانتقاماً منها، ولكنَّ الإسلام رفع هذا الحيف والظلم، بأن جعل الطلاق القابل للرجوع مرَّتين، وبعدها فإما أن يرجعها بقصد الالتئام والاصلاح، وإمّا أن يسرحها ويخلي سبيلها، بأن يطلّقها ثالثة بإحسان وبدون تعنيف وظلم، ولا يجوز أن يستولي على شيء مما جعله لها من مهر أو غيره.

إن كانت المرأة طالبة للطلاق خوفاً من عدم قيامها بالواجبات العائليَّة، فلها أن تبذل للزوج مالاً ليطلّقها، وله أن يأخذه في قبال الطلاق، وهذا هو طلاق الخلع.

والآية تدلُّ على أنَّ هذا الحكم (وهو عدم إمكان الرجوع) لا يتمّ إلاّ بتكرار الطلاق والرجوع، فلا يقع بلفظ الثلاث في مجلس واحد، ولا مجال للاجتهاد في قبال النص، وكلُّ هذه أحكام إلهيّة لا تقبل تغييراً وتحويلاً ولا يتعدّاها إلاّ الظالمون.

﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلاَ تَحِلُّ لَهُ مِن بَعْدُ حَتَّىَ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِن طَلَّقَهَا فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يَتَرَاجَعَا إِن ظَنَّا أَن يُقِيمَا حُدُودَ اللّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾﴾ فإن طلَّق الزوج زوجته طلقة ثالثة لم يمكنه الرجوع لها في العدَّة أو العقد عليها بعدها. نعم، إذا تزوَّجت زواجاً دائميّاً، حقيقيّاً لا صوريًا من شخص آخر، وجامعها، ثمّ طلَّقها برضاه، جاز للزوج الأول أن يعقد عليها برضاها إذا رأيا أنهما سينشئان حياة عائليّة صالحة ملتزمة بحدود الله. ولعلَّ من حِكَم هذا التشريع ردع الزوج عن الطلاق الثالث.

---

١. نهج البلاغة، الخطبة ٢١٦، ص ٣٣٢، د. صبحي الصالح.

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النَّسَاء فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلاَ تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لَّتَعْتَدُواْ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلاَ تَتَّخِذُوَاْ آيَاتِ اللّهِ هُزُوًا وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُمْ مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾﴾ إذا طلِّقت المرأة وقاربت انتهاء عدَّتها، فالزوج مخيَّر بين أن يرجعها لإقامة الحياة الزوجية الصالحة أو يتركها بالمعروف أيضاً لتنقضي عدَّتها فتنفصل عنه.

وبهذا حارب القرآن أولئك الذين يُرجعون زوجاتهم في العدَّة للإضرار بهنَّ وإيذائهنَّ، واعتبر ذلك ظلماً لأنفسهم، وربَّما كان ذلك؛ لأنَّ وجدانهم سوف يعذِّبهم، أو لأنَّ البشريّة جسم واحد، أو لأنَّ عملهم سوف يؤدّي إلى تنفير النّاس منهم في الدنيا وعذاب الله تعالى في الآخرة.

إنَّ التشريع الإسلاميّ قائم على أساس من علم إلهيّ تامّ وحكمة نافذة، فهو النظام الأصلح للبشريَّة، يهديها سواء السبيل، وعليها أن تعمل على تطبيقه الكامل، شاكرة خالقها المشرّع، متَّقية إيّاه تعالى، لا أن تكفر وتستهزئ به كما يفعل هؤلاء المستغلّون لحكم الرجوع في العدّة لإيذاء النساء وإهانتهنّ والقضاء على كرامتهنَّ الإنسانيّة.

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاء فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْاْ بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾﴾ للمرأة المطلَّقة بعد انتهاء عدَّتها أن تتزوَّج من جديد بزوجها السابق، أو من تشاء إن رضي كل منهما بالآخر في إطار أوامر الله، وليس لأحد ـ حينئذ ـ أن يعضلها (يمنعها) تحكُّماً، سواء كان زوجها السابق أو وليّها. وفي هذا الحكم إعطاء للمرأة حقَّها الإنسانيّ في اختيار شريك حياتها بحريَّة.

ولابدَّ من أن يستند التشريع الواقعيّ إلى أرضيَّة عقائديَّة، تنبع منها مفاهيم أساس وعواطف واعية تمكِّن التشريع من أن يجد طريقه للتطبيق الكامل، والتغلّب على كل العقبات الداخلية والخارجيةأمام المؤمن المعتقد بأنَّ الله هو العالم بالمصالح كلِّها دون غيره وهو الرؤوف بعباده، فلا يشرّع لهم إلاّ ما يزكّيهم ويطهّرهم ويقودهم إلى السعادة الحقيقيَّة.

﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلاَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لاَ تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلاَّ وُسْعَهَا لاَ تُضَآرَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلاَ مَوْلُودٌ

لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالاً عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُواْ أَوْلاَدَكُمْ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾﴾ ذكرت هنا بعض أحكام الرضاع، ومنها أنّ إرضاع الطفل حقّ للامّ لا تُمنع منه ـ وإن كانت مطلّقة ـ ومدَّته سنتان كاملتان إن أرادت كمال الرضاعة، وعلى الأب أن ينفق على الأم المرضعة بالمقدار المتعارف الَّذي يتيسَّر له، وليس له أن يضرَّ بالوالدة فيمنعها من رضاع ابنها وحضانته ورؤيته، ويضيّق عليها في النفقة وما يشبه ذلك، كما أنّه ليس للوالدة الإضرار بالوالد بالتشدّد في مقدار النفقة أو منعه من رؤيته وأمثال ذلك. وعلى ورثة الوالد ـ لو توفِّي ـ تأمين نفقة الرضاعة للولد.

هذا ويمكن للوالدين أن يتفقا ـ عن رضى و تشاور ـ على تقليل مدّة الرضاعة، أو فصل الولد عن الأم باعطائه إلى مرضعة أُخرى، وكذا الحال لو ردَّت الأمُّ الولد إلى والده، أو عجزت عن إرضاعه، فله أن يسترضع المرضعة الأُخرى ويعطيها أُجرة الرضاع المتعارفة، كما يمنح الأمَّ ما تستحقُّه لقاء رضاعها السابق ـ إن وجد ـ وهذه أحكام تتحدَّث عن علاقات بين الأبوين تتخلّلها حالات نفسيّة مختلفة، ممّا يتطلَّب تقوى ومراقبة إلهيّة تدفع الوالدين للاهتمام الشديد بالطفل، عبر التشاور والتراضي، لتحقيق الجوّ الصالح لنموّه وتربيته.

﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٣٤﴾﴾ الحديث هنا عن عدَّة المتوفّى عنها زوجها، وهي أربعة أشهر وعشرة أيام، وقد ذكرت الروايات أنّ عليها أن تلتزم حالة الحداد، فلا تتزيَّن احتراماً للمشاعر الزوجيّة. وتبدأ العدّة من حين العلم بالوفاة، وبانتهائها يكون للمرأة حرِّيتها في اختيار من تتزوَّجه وفق أوامر الشريعة. وبهذا قضى الإسلام على مجموعة من الخرافات التي كانت تكبِّل المرأة قبل ظهوره.

﴿وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاء أَوْ أَكْنَنتُمْ فِي أَنفُسِكُمْ عَلِمَ اللّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِن لاَّ تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلاَّ أَن تَقُولُواْ قَوْلاً مَّعْرُوفًا وَلاَ تَعْزِمُواْ عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّىَ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾﴾ إذا كانت المرأة في عدَّة الوفاة، ورغب شخص في الزواج منها بعد ذلك،

فلا إثم في هذه الرغبة النفسيّة التي يعلمها الله، وإبقائها مكنونة في النفس، ولا مانع من التصميم على الزواج منها وإخبارها بهذا التصميم كناية وتعريضاً بلا تصريح ولا مواعدة سرّية، ولعلّه لاحتمال أداء المواعدة إلى الحرام. ولا يجوز له أن يعقد عليها حتّى تنتهي أيام العدَّة المكتوبة عليها.

ولـمّا كانت هذه الأحكام تتدخَّل فيها نوازع نفسيَّة، فقد حذَّرت الآية من مخالفة هذه التشريعات الإلهيّة؛ لأنَّ الله يعلم ما في الأنفس.

﴿لاَّ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَاء مَا لَمْ تَمَسُّوهُنُّ أَوْ تَفْرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدْرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾﴾ لا مانع من تطليق الزوجة قبل الدخول بها، وكذلك فيما إذا لم يعيّن في عقد الزواج مهر فإذا لم يعيّن في العقد، وأراد الزوج أن يطلّق زوجته قبل الدخول بها، فإن عليه أن يهدي لها شيئاً من المال أو غيره تتمتَّع به، والعرف هو الذي يحدِّد ما يناسبه من العطاء موسّعاً (غنياً) كان أم مقتراً (فقيراً)، وهذا الإهداء حقّ فرضه الله على المحسنين.

﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إَلاَّ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَن تَعْفُواْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلاَ تَنسَوُاْ الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾﴾ أما لوعيّن المهر في العقد وطلّقها قبل الدخول بها فلها نصف المهر، إلاّ أن تعفو الزوجة البالغة الرشيدة أو وليّها ـ إن لم تكن كذلك ـ أو أن يعفو الزوج عن نصف المهر الآخر فيدفعه كله لها، ذلك أنّ العفو من كليهما أقرب للتقوى وربّما كان بلسماً للعواطف المجروحة عند الطلاق، إذ لا ينبغي أن يؤدّي الطلاق إلى نسيان الفضل بين المؤمنين والنفور، وتقطُّع العلائق الاجتماعيّة والعاطفيَّة.

وهكذا نلاحظ تأكيد الإسلام على نظافة العلاقات الإسلامية وطهارتها، وسدّ نقاط الخلل فيها، وتأطيرها بالمعروف والإحسان والتقوى والفضل العميم، ومراقبة الله في كل الأحوال، والله عليم بمكنونات النفوس.

﴿حَافِظُواْ عَلَى الصَّلَوَاتِ والصَّلاَةِ الْوُسْطَى وَقُومُواْ لِلّهِ قَانِتِينَ ﴿٢٣٨﴾﴾ على الرغم من أن الآيات السابقة واللاّحقة تتحدَّث عن الشؤون الزوجيَّة، فقد وقف القرآن عند الصلاة هنا ليذكّر المسلمين بالصّلة الأساس بالله تعالى، التي تضمُّ كلَّ علاقاتهم الاجتماعيّة في إطار عقائدي عام، وفي الأمر

بالمحافظة دفع لتعاهد الصلاة دائماً والإتيان بها كاملة مؤدّية لغرضها المنشود، وهو الارتباط القويّ بالله والانتهاء عن الفحشاء والمنكر، أمّا الصلاة الوسطى التي أكّد عليها فقد جاء عن أهل البيت عليهم السلام انها صلاة الظهر، ولعلَّ توسُّطها في قلب المشاغل اليوميَّة هو الداعي للتأكيد عليها.

﴿فَإنْ خِفْتُمْ فَرِجَالاً أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنتُمْ فَاذْكُرُواْ اللّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾﴾ إنّ الصّلاة لا تترك بحال، اهتماماً بشأنها وتأثيرها العظيم في حياة المسلمين وسعادتهم، عندما تؤدّى بوعي وخشوع، فحتى لو كانوا يعيشون حالة الخوف في حرب أو غيرها فإن عليهم أداءها سواء كانوا مترجِّلين (ماشين) أو راكبين، وإن كان ذلك يفقدها بعض شروطها كاستقبال القبلة والطمأنينة وغيرها، فإذا عاد الأمن لزم أداؤها وفق شرائطها المقرّرة.

﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِيَ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾﴾ تطلب الآية من الأزواج أن يوصوا بإبقاء زوجاتهم بعد موتهم في بيوتهم حولاً (سنة) مع الإنفاق عليهنَّ وعدم إخراجهنَّ، فإذا خرجت المرأة أثناء الحول أو بعده فلا إثم على الوصي فيما فعلته بنفسها من معروف.

والظاهر أن الآية منسوخة بآية عدَّة الوفاة السابقة، وبآية ميراث الزوجة. وقيل بعدم النسخ، وأنّها تبيّن تعليماً عامّاً يطلب من الزوج أن يوصي بإبقاء المرأة في داره والإنفاق عليها إلى عام احساناً منه لها، فإذا اختارت الخروج فلا حرج على الوصي في قطع النفقة عنها.

﴿وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾﴾ حكم عام للمطلّقات يحبِّذ إعطاءهنَّ هديَّة مالية أو غيرها، ولعلّها لمراعاة الحالة الشعوريَّة عند الطلاق. وتجب هذه الهديَّة لمن طُلّقت قبل الدخول بها مع عدم تعيين المهر في العقد ـ كما مر ـ.

﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾﴾ إنَّ القرآن الكريم يدعو للتدبّر في الآيات التكوينيّة والأحكام التشريعيّة، ليرتبط القلب بالله ويخشع في محراب عظمته ويسلّم لأوامره الهادية.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾﴾ يرجع القرآن

إلى إعداد المسلمين للقيام بمهامِّهم القياديَّة الكبرى، بعرض نموذجين مربِّيين: الأول: نموذج الألوف الذين خرجوا من ديارهم ـ بعد أن أصابهم البلاء ـ خوفاً من الموت، ولكن شاء الله أن يميتهم فلا ينفعهم الهرب، ثمّ شاء تعالى أن يتفضّل عليهم بالحياة ليشعروا أنّ الموت والحياة بيده وحده، وأنّ عليهم أن يشكروه ويسلموه قيادهم، وإن كان أكثر النّاس غافلين عن هذه الحقائق؛ لانسياقهم وراء إغراءات الحياة الدنيا.

﴿وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾﴾ وهنا يدفع القرآن المسلمين إلى الجهاد في سبيله، مذكّراً إياهم أنّهم بعين الله، يسمع دعاءهم ونجواهم، ويعلم ما يقومون به، ممّا يمنحهم الصلابة والثبات على الحقّ.

﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾﴾ وعلى الرغم من أنّ التصوّر القرآني يجعل الإنسان مجرَّد مستخلف على مال الله، وأنّ عليه أن يصرفه في شؤونه التي يريدها تعالى، إلاّ أن اللّطف الإلهيّ يتجلّى هنا بالدعوة إلى الإنفاق في سبيل الله، لصالح المجتمع الإنسانيّ نفسه، والتعبير عن هذا بأنّه إقراض لله تعالى وسوف يرجعه للمقرضين بأضعاف كثيرة. هذا والله هو قابض الرزق وباسطه، كل ذلك لأهمية الإنفاق والترغيب في توجيه الملكيَّة الخاصَّة توجيهاً حسناً، لصالح دعم حاجات المجتمع للتكافل والتوازن من جهة، والدفاع عن وجوده وحمل رسالة الله إلى الآخرين من جهة أُخرى.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُواْ لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكاً نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُواْ قَالُواْ وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَآئِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْاْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٢٤٦﴾﴾ وهذا هو النموذج الثاني لتربية الأمّة، فقد ابتلي بنوإسرائيل بالضياع والتشتّت، فحرَّكهم بصيص العقيدة للجهاد والخلاص فلجأوا إلى نبيّ لهم يطلبون منه تعيين ملك عليهم يجاهدون تحت قيادته، فامتحن النبي صدقهم متسائلاً عن إمكانيَّة نكولهم عن الجهاد عندما يفرض عليهم، مما حرَّك حماسهم ودفعهم للتأكيد على إصرارهم عليه، بعد كلِّ ذلك الهوان الذي أصابهم من الأعداء، بإبعادهم عن ديارهم وأبنائهم، ولكنَّ التجربة العمليّة كشفت فشلهم وظلمهم لأنفسهم، عندما فُرض القتال فلم يثبت منهم إلاّ القليل.

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكاً قَالُوَاْ أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاء وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾﴾ وعندما أخبرهم نبيّهم بأنّ الله قد اختار لهم طالوت ملكاً وقائداً لخلاصهم، تجلّى عناد اليهود وروحهم المادّيّة المتعالية، فاعترضوا بأنّ طالوت ليس من سلالة ملوك بني إسرائيل ولا يمتلك ثروتهم، فردَّ عليهم نبيّهم بأنّه يكفي أن يكون الله قد اختاره، وليست مقاييس الله كمقاييسهم الوضعيّة. فطالوت كفء مزوّد بقدرة جسميَّة وعقليّة تؤهّلانه للملك، والملك لله يؤتيه من يشاء من عباده.

﴿وَقَالَ لَهُمْ نِبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلآئِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾﴾ بعد الاعتراض السابق والردّ عليه ببيان كفاءته، تطلّب الموقف معجزة تطمئنهم على أنّ تنصيب طالوت ملكاً عليهم إنما هو من الله،وكانت المعجزة مجيء الملائكة حاملة التابوت وهو صندوق يحوي مقدَّسات بني إسرائيل وآثار أنبيائهم، وبه تنبعث السكينة والطمأنينة من الله في قلوبهم، لينطلقوا للقتال في سبيله بعد إيمانهم بواقعيَّة الأمر الإلهيّ وبكفاءة القائد.

وبهذا يكشف القرآن عن بعض نقاط الضعف في بني إسرائيل من قبيل أنانيتهم، وانخداعهم بالمظاهر الدنيوية، ونسيان الحكمة الإلهية في إصدارها للأوامر، ويعمل على ترسيخ الإيمان في نفوس العباد من خلال بيان الآيات الحسيّة المؤثرة في النفوس وهذا لا يتم إلا إذا استعدّت هذه النفوس للهداية والعمل بمقتضياتها المحيية. وفي كل هذا دروس رائعة للمسلمين العاملين على تطبيق شريعة الله في الأرض، والساعين لسوح الجهاد بعزم وثبات.

﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُواْ مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ قَالُواْ لاَ طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاَقُو اللّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللّهِ وَاللّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٢٤٩﴾﴾ أراد الله أن يمتحن طاعة جنود طالوت له وإخلاصهم لقضيتهم ويعوِّدهم على احتمال المكاره وتحمُّل أعباء الرسالة، فأخبرهم طالوت أنّهم سيلاقون نهراً وعليهم الاّ يشربوا منه ـ رغم تعبهم وعطشهم ـ

فمن شرب منه حتّى ارتوى فليس مؤهّلاً للسير مع جنود الله في مهمَّتهم الكبرى، إلاّ من اغترف غرفة واحدة بيده، وكان الامتحان عسيراً، حيث شربوا منه سوى فئة قليلة أطاعت الأمر فلم تشرب، أو شربت قليلاً، ففازت بكرامة الاستمرار في السير مع طالوت الذي انطلق بها لمقابلة جيش العدو الضخم، وهنا كان امتحان آخر حيث سيطر الرعب على مجموعة من جيشه ـ قيل هم الذين اغترفوا من الماء قليلاً ـ فيئسوا من النصر وقالوا لا طاقة لنا بجيش جالوت (قائد العدو) في حين تجلّت في نفوس القلّة المؤمنة معاني الإيمان بالله، والحياة الكريمة في الدنيا والآخرة، والشوق للقاء الله ورحمته، فقالوا بعزم وثبات: كم من فئة قليلة تسلَّحت بالعقيدة والصبر فنصرها الله على فئة كثيرة العدد، خاوية من الإيمان والهدف المقدَّس.

فالعقيدة هي النبع الدفّاق، يملأ وجود المقاتل إقداماً وثباتاً، ويمدُّه دائماً بالعزيمة، ويركّز أقدامه على الطريق مهما كان شاقّاً، وهو يعلم أنّه سيلاقي إحدى الحسنيين: النصر أو الشهادة والجنّة.

﴿وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُواْ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٥٠﴾﴾ إنّه دعاء المؤمن الملتجئ لله، يستمدُّ منه الصبر الغامر لوجوده، وثبات القدم على الطريق والنصر على العدوّ، بعد أن يقدّم كلَّ ما لديه من إمكانات. يقول أمير المؤمنين عليّ عليه السلام لولده محمّد يوم الجمل: «تزول الجبال ولا تزل، عضّ على ناجذك، أعر الله جمجمتك، تِد في الأرض قدمك، إرم ببصرك أقصى القوم، وغضّ بصرك، واعلم انّ النصر من عند الله»[١].

﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاء وَلَوْلاَ دَفْعُ اللّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٢٥١﴾﴾ وكان الانتصار نتيجة طبيعية للجهاد العقائديّ مهما كانت قوى العدو الكافر، وهنا يظهر دور (داود)الفتى المغمورالذي انطلق بكل إيمان إلى قائد الكفر (جالوت) فقتله، ثمّ حباه الله بموهبة الملك والحكمة وهي النبوَّة، وعلّمه ممّا يشاء من العلوم ومنها صناعة (الدروع).

إنَّ الصراع بين الحقّ والباطل ضروريّ، لنموِّ الطاقات المؤمنة، ومحو الظواهر الفاسدة من المجتمعات البشريَّة، وبدون المقاومة العقائديّة ستكون النتيجة سيطرة الشرِّ والباطل وخمود الحقّ وضياع الهدى، ففتح باب الجهاد والقتال فضل إلهيّ على الإنسانيّة جمعاء.

---

١ . نهج البلاغة، الخطبة ١١، ص ٥٥، د. صبحي الصالح.

﴿تِلْكَ آيَاتُ اللّه نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾﴾ قصص القرآن تكشف عن قدرته تعالى، ونزاهة أنبيائه وعثرات الأمم السالفة، وهي بنفسها شاهد بالحقّ على كون القرآن من الله أنزله على رسوله الكريم.

﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاء اللّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِم مِّن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُواْ فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَاء اللّهُ مَا اقْتَتَلُواْ وَلَكِنَّ اللّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾﴾ الرسل هم حاملو هدي السماء، وتختلف درجاتهم في الفضل باختلاف خصائصهم النفسيَّة ومهامِّهم القيادية. وأفضلهم رسول الإسلام ﷺ الذي جاء بالرسالة الخاتمة. وقد كلَّم الله موسى إكراماً له كما آتى عيسى بن مريم البيّنات والمعاجز وأيَّده بروح القدس (جبرئيل حامل الوحي)، وبهذا أوضح القرآن وحدتهم، ونفى التصوّرات الباطلة حولهم، وخصوصاً عيسى عليه السلام حيث نسبه إلى مريم وأبطل الدعاوى الفارغة بألوهيّته... هذا ولكنّ المصالح الضيقة والبغي جرَّت أتباع الأنبياء للخصام فاقتتلوا، ولو شاء الله ما اقتتلوا، ولكنَّه شاء للإنسانيّة أن تختار مصيرها، وعيَّن لها سبل الخير وسبل الشرِّ لتتحمَّل المسؤوليّة.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خُلَّةٌ وَلاَ شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٥٤﴾﴾ خوطِبَ المؤمنون ودُفعوا نحو الانفاق من أموال الله التي رزقهم إيّاها، وذُكّروا بأنّ ذلك ينفعهم في يوم القيامة، حيث لا خلّة (صداقة) ولا بيع ولا شفاعة لمن لم يأذن الله في الاستشفاع لهم من البخلاء الكافرين بأوامر الله الظالمين لأنفسهم.

﴿اللّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاء وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلاَ يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾﴾ إنَّ (آية الكرسي) هذه ممّا أكّدت الروايات كثيراً فضلها وسموَّ معانيها، إذ تحوي أُسس التصوُّر الإسلاميّ وتنفي التوهُّمات حول الحقيقة الإلهيّة، فالله هو الذات الواحدة المستجمعة لصفات الكمال والجلال، المعبودة دون غيرها، وهذا ما تؤكّده عبارة (لا

إله إلا هو) وهو (الحيُّ) الَّذي له الحياة الحقيقيّة بلا شوب موت أو احتمال فناء.

والحياة الإلهيّة هي عين القدرة والعلم اللاّ محدودين. وهو (القيُّوم) الذي يقوم ويشرف ويمدُّ كلَّ شيء ويتعلَّق به كلُّ شيء، فهو الغنيُّ وما عداه فقير إليه. وهو منزَّه عن الغفلة عن الكون، فلا تستولي عليه سنة (نعاس) أو نوم. وله الملكيَّة الحقيقيّة المطلقة، وقد استخلف الإنسان على بعض الأشياء والأموال، ليعمل فيها بما يشاء ويأمر به.

وسيجازي الخلقَ على ما عملوه يوم القيامة، والأمر كلُّه له، ولا أحد يشفع لأحد إلاّ بإذنه تعالى، إذ الشفاعة طلب واستدعاء من الشفيع، ولا يتمّ الطلب ولا يؤثِّر إلاّ إذا إذن الله تعالى.

فالعلم الإلهيّ المطلق لا يختلف لديه الماضي والحاضر والمستقبل، أمّا علوم الإنسان فهي محدودة وبتعليم ومشيئة منه تعالى. وقيل: إنّ المراد هو أنّ الله يعلم كلَّ الظروف التي تخفى على الشفعاء إلاّ ما علّمهم هو تعالى منها.

لقد وسع علم الله وملكه وسلطانه السماوات والأرض، وليس يؤوده (أي يشقُّ عليه) أن يحفظهما بقدرته، وهو العليّ على كلِّ قدرة، والعظيم ذو الجبروت والسلطان المطلق.

﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىَ لاَ انفِصَامَ لَهَا وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾﴾ لا يمكن تحميل العقيدة بالضغط والإجبار؛ لأنها اطمئنان نفسي له سبله الخاصَّة، وقد أعلن الإسلام بواقعيَّته حريَّة العقيدة في إطار ضمان أنفس متاع للفطرة وهو التوحيد ـ كما عبَّر أحد المفسِّرين ـ فبدون التوحيد لا قيمة للإنسان.

وإذا فرض الإسلام الجهاد فإنّما هو لصالح البشريّة في رفع الظلم عنها، وتنظيم شؤونها وفق تعاليم خالقها.

بيَّن الله للإنسان سبيل الرشد والحقِّ، وسبيل الغيّ والضلال، ومنحه فكراً مميِّزاً وإرادة فاعلة، فإن كفر بسبيل الطاغوت (الشيطان والأهواء المنحطَّة وكلّ معبود سوى الله) وآمن بالله وحده، فقد فاز بالسعادة الحقَّة وانشدَّ بقوة إلى ركن وثيق لا تنفصم عروته، وسار بثبات على شريعة الله السميع العليم.

﴿اللّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّوُرِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْلِيَآؤُهُمُ الطَّاغُوتُ

يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥٧﴾ إنّهما مسيرتان: مؤمنة يقودها الله برعايته وحنانه، وينقذها من وهدة الجهالة والنظم الفاسدة إلى نور الهداية والإسلام، وكافرة: يسوقها أولياؤها المتعدِّدون من الطواغيت فيخرجونها من نور الهدى الفطريّ إلى ظلمات الجهل والشقاء، وأخيراً إلى عذاب الخلود في نار جهنّم.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَآجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رِبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ مشهد من مشاهد الجهاد من أجل التوحيد بالحجَّة الواضحة والبرهان القاطع ضدَّ الطواغيت والمستغلين، فهذا بطل التوحيد إبراهيم عليه السلام يقف في وجه طاغوت عصره (نمرود) الذي كفر بنعمة الملك الذي آتاه الله إيّاه فاستغلَّه بادّعاء الألوهيّة، فواجهه إبراهيم عليه السلام بظاهرة الحياة والموت كدليل على وجود الله ووحدانيَّته وقدرته، ولكنَّ الطاغية يغالط ويوهم السذّج الرعاع، بأنّه هو أيضاً يحيي ويميت، بأن يحكم بالموت على شخص مثلاً، أو يعفو عنه، ويترك القرآن للقارئ الرَّد على هذا المنطق الملتوي. إلاّ أنّ إبراهيم يوضّح لهذا الجبار، أنّ ربَّه الذي يحيي ويميت هو الّذي نظَّم هذا الكون أروع تنظيم، ومنه طلوع الشمس من المشرق، فهل لنمرود أن يغيِّر هذا النظام فيأتي بها من المغرب؟ وما كان جواب نمرود إلاّ الحيرة القاتلة، إذ بهت حين تخلَّت عنه هداية الله التي لا يؤهَّل لها الظالمون.

والقرآن بهذا العرض يربّي المسلم على الحجاج المنطقيّ القاطع، البعيد عن المراء والجدل العقيم.

﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِئَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى العِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾ قصّة أُخرى محورها الإحياء والإماتة، تظهر رأفة الله وحرصه على هداية الإنسان، فها هو الرجل الصالح يمرُّ على قرية خاوية منهدمة، سقطت سقوفها وتبعتها

الحيطان، وباد أهلها فيقف معتبراً متسائلاً: أنّى (كيف) يحيي هذه الله بعد موتها؟ فيأتي الجواب عمليّاً، بأن يميته الله مئة عام ثمّ يبعثه حياً فيسأله: كم لبثت (بقيت)؟ فيجيب: إنّه قد لبث يوماً أو جزءاً من يوم، إلاّ أنّ الله يخبره بأنّه قد لبث مئة عام، ثمّ يأمره بأن ينظر إلى طعامه وشرابه الذي لم يتغيَّر خلال هذه المدَّة، ولينظر إلى حماره الذي توزَّعت عظامه وتلاشت كيف تركّبها القدرة الإلهيّة وتكسوها لحماً، وأمام هذه الآيات الباهرة التي جعلها الله عبرة للأُمم يخضع العبد الصالح معترفاً بقدرة الله على كلِّ شيء.

إن المنطق الديني منطق عقلاني لا لبس فيه، وإن الإنسان المتدين يعي الوجود كله ويعي موقعه فيه، وارتباطه الكامل بخالقه القادر الحكيم المطلق العليم اللطيف، فيسير بكل توازن وثقة نفسية وإرادة واعية نحو تحقيق الأهداف العليا، وإذا خالجته بعض التساؤلات فإنه يعيد التأمل في الكون بعمق فيكتشف الأجوبة بكل سهولة ومنطقية.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾﴾ هذا موقف آخر يركِّز على ظاهرة الموت والحياة، إذ يسأل فيه إبراهيم ربَّه تعالى عن كيفية الإحياء فيسأله الله: أولم تؤمن؟ ليجيب بأنّه يطلب ذلك لتحقيق الاطمئنان القلبي وإلاّ فهو مؤمن به، وواضح أنّ الإنسان يتأثر بمحسوساته أكثر من تأثُّره بمعقولاته... وقد عمل الإسلام كثيراً على تقريب المفاهيم المعقولة إلى حيث يحسُّ الإنسان بمفعولها إحساساً مباشراً.

وهنا يُطلب إلى إبراهيم أن يأخذ طيوراً أربعة ويقطِّعها ويخلط أعضاءها، ثمّ يوزّعها على جبال يضع على كل منها جزءاً، ثمّ يناديهن ليأتين إليه ساعيات أحياء بقدرة الله، وهكذا هو الحال في الإحياء، فإذا شاء الله جمع الموجودات ـ بقدرته ورحمته ـ يوم القيامة.

﴿مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّئَةُ حَبَّةٍ وَاللّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاء وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾ الإنفاق يرتفع بالمحرومين ليصلوا إلى حدّ (الغنى) كما قرَّره الإسلام، وهو حدّ مرن متغيِّر بتغيّر الظروف ومقياسه القدرة على ممارسة حياة كريمة متعارفة. وفي قبال هذا يقرِّب الإسلام الأغنياء في معيشتهم إلى هذا المستوى، بتحريم الإسراف وتفتيت ثروتهم بالإنفاق الواجب والمستحبِّ وغير

ذلك، وبهذا يحقّق المجتمع المتوازن المتعاطف. وفي الآية ترغيب في الإنفاق وتوحيد لمصلحتي الفرد والمجتمع، فلا يخسر المنفق لصالح المجتمع شيئاً، بل سيضاعف له الجزاء سبعمئة مرَّة، وفوق ذلك فضل عظيم.

﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ ثُمَّ لاَ يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُواُ مَنًّا وَلاَ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾﴾ وسبيل الله يجد مصداقاً له في خدمة مصالح المجتمع الذي يطبّق رسالة الله، فينبغي الانفاق فيه برغبة واحساس بالمسؤوليّة، ودون أن تتبع ذلك منّة بإظهار التفضُّل على المعطى أو أذى وإهانة، فإذا كان الإنفاق كذلك فإنّه ينتهي إلى أجر إلهيّ عظيم، وحياة مطمئنَّة بعيدة عن الخوف والحزن.

﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى وَاللّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾﴾ إنَّ الإنفاق يتبع التمكُّن، ويتمُّ في إطار أخلاقي،فإذا لم يستطع المسلم ذلك ردَّ طلب الطالب برفق وقول معروف، كالدعاء له بغفران الذنب وسدّ الحاجة وأمثال ذلك، فإن ذلك خير من أن يعطي صدقةً ويتبعها بأذى.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُبْطِلُواْ صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأذَى كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاء النَّاسِ وَلاَ يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لاَّ يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦٤﴾﴾ تأكيد آخر للإنفاق برغبة وأخلاقيَّة سامية، وعدم المنِّ بعد التصدُّق؛ لأنّه يبطلها ويُفقدها مفعولها النفسيَّ، وهنا يمثّل القرآن لحالة الصدقة المرفوضة لإتباعها بالمنِّ بالشخص الذي قسا قلبه وفقد قصد تحقيق رضا الله، فراح ينفق لا عن عقيدة وعاطفة إنسانيّة، بل عن رياء ومصالح ضيِّقة، فهو إذن كحجر صلد أملس (صفوان) كان عليه شيء من التراب الذي أصابه وابل غزير فمحا أثره، وانكشفت قسوة الحجر، وأنّه لا ينبت زرعاً ولا يثمر معروفاً، ولا يمكنه أن يستثمر عطاء الله في مجاله الصحيح، وكذا الغنيّ المرائي في إنفاقه لا يمتلك قابليّة تقبّل الهدى الإلهيّ والاستفادة من عطاء الله لإسعاد نفسه والمجتمع، وأنّى يهدي الله من كفر فأفقد نفسه قابليَّة الهدى والتكامل.

يقول أمير المؤمنين في نهج البلاغة: «إضرب بطرفك حيث شئت من الناس، فهل تبصر إلاّ فقيراً يُكابد فقراً؟ أو غنياً بدَّل نعمة الله كفراً؟ أو بخيلاً اتخذ البخل بحقّ الله وفراً؟ أو

متمرِّداً كأنَّ بأذنه عن سمع المواعظ وقراً؟»[١].

﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاء مَرْضَاتِ اللّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾﴾ وأمّا مثل المنفقين في سبيل رضا الله وتثبيت النفس على صراط الخير والسعادة، فهو كمثل جنَّة (بستان) على ربوة (تلّ) يحسن منظرها، ويطيب هواؤها، ويكثر عطاؤها، فإن أصابها وابل (المطر الغزير) أعطت أُكلها (ثمارها) كثيراً مضاعفاً، وإن أصابها الطلُّ (المطر الخفيف) فهي مورقة تنبت بمقدار ذلك، ليستفيد منها الناس، وهكذا النفوس الخيّرة تنفق بمقدار مالديها من سعة ولا تخسر شيئاً من ثواب الله؛ لأنّ الله بصير بحالها ونيتها.

﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاء فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾﴾ مثال رائع لإبطال الصدقات بالمنّ والأذى، إنّها كالجنّة (البستان) التي يبذل الإنسان جهوده لتعميرها، وتكثير أشجارها وجريان أنهارها، ليحصل على نتائجها وثمارها المتنوعة، ويحقّق بها آماله عند كبره، ولتكون سنده المادّيّ في حالة ضعفه وكثرة عيلته، ولكنه يجدها تحترق بعد أن أصابها إعصار (ريح شديدة) فيه نار شديدة حارقة، قضت عليها وعلى آماله العريضة، في وقت لا يمكنه أن يجدّد مسعاه في إحياء جنّته وتعميرها، وكذا الصّدقة التي تُدَّخر ليوم العوز والحاجة في الآخرة، حيث لا ينفع مال ولا بنون، ولكن المنَّة والأذى يمحقان أثرها ويبطلان أجرها وثوابها، ولربَّما أشارت الآية إلى أنّ عمل الآباء ينعكس خيراً أو شراً على أبنائهم وحياتهم في المستقبل.

وهكذا فالأمثال القرآنيّة آيات مبيِّنة لتفكير الإنسان، وتدبُّره في طبيعة مسيرته، وأعماله ونيّاته وتعامله مع الآخرين.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَلاَ تَيَمَّمُواْ الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾﴾ يطلب

---

١. نهج البلاغة، الخطبة ١٢٩، ص ١٨٧، د. صبحي الصالح.

القرآن من المؤمنين أن ينفقوا من طيبات مارزقهم الله من تجارة (كسبوها) أو زراعة ومعادن (أخرجها الله لهم من الأرض) ولا يتوجَّهوا ويعمدوا (يتيمَّموا) نحو الخبيث الرديء والمشتبه من أموالهم، فينفقوه ويقدّموه في سبيل الله، رغم أنّه لو أُهدي اليهم ما قبلوه ولا رضوابه إلاّ مع الإغماض فيه والكراهة والحياء، فكيف إذن يقدّمون لله مالا يقبلونه لأنفسهم؟ هذا وإنَّ الله عندما طلب الإنفاق فقد أراد به خير المجتمع وصالحه وإلاّ فهو غنيّ عن الانفاق والطاعة، وحميد يجازي المنفق للطيّبات بأفضل الجزاء.

﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاء وَاللّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾﴾ نفي لجذور البخل والطمع، وعدم الإنفاق الذي يأمر الشيطان به وبالفحشاء (الخروج عن الحدود الإلهيّة التي فيها صلاح الإنسان وسعادته)، وهل يقف الوهم الموعود به من قبل الشيطان في قبال وعد الله الصادق والقادر الحكيم، بالمغفرة لعباده المنفقين في سبيله، ثمّ بالفضل العميم في الدنيا بالرقيّ والسعادة، والتوسعة في الآخرة بالجزاء الأوفى؟!

﴿يُؤتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاء وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ ﴿٢٦٩﴾﴾ الحكمة هداية إلهيّة لمن يستعدُّ لها، تمكّنه من تمييز سبل الخير والقصد في المعيشة ونفي وساوس الشيطان وتقبُّل ايحاءات الرحمن، ولا ريب في أنّ من أُوتي الحكمة فقد أُوتي الخير الكثير، وقرب من واقعه الإنسانيّ، وانضم إلى أُولي العقول الذين يذكّرهم كلُّ شيء بواقعهم وواجبهم.

وهذه الملكة تحتاج إلى عطاء إلهيّ متواصل، وارشاد يسير به الإنسان بوعي كامل.

﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ اللّهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾﴾ إنَّ الله عليم بما ينفقه المؤمن، من زكاة أو صدقة مستحبّة أو ما تعلّق به نذر، فإنه لا يضيع في حساب الله شيء. أمّا أولئك الَّذين كفروا بأنعم الله، وخالفوا أوامره فيما خوّلهم من مال، وظلموا إخوانهم بعدم إعطائهم حقوقهم فليس ينجيهم من عذاب الله أحد.

﴿إِن تُبْدُواْ الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاء فَهُوَ خَيْرٌ لُّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾﴾ إنَّ الصدقة رغم كونها وظيفة دينيَّة وأخلاقيَّة على المعطي، تستتبع إحساساً بالضعف لدى الآخرين، ومن هنا كانت صدقة السرّ أجمل وقعاً وأحسن ثواباً، وأدعى إلى غفران السيئات، وأبعد عن الرياء والأذى، وأحفظ

لكرامة الفقراء، وإن كانت صدقة العلن نعم العمل وأمراً حسناً في نفسه، يؤجر عليه الإنسان، وربما كانت أفضل من صدقة السر أحياناً، كما لو أريد ترغيب الآخرين ونشر روح التبرع، وإعظام شعائر الزكاة الدينيّة.

﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللّهَ يَهْدِي مَن يَشَاء وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلأنفُسِكُمْ وَمَا تُنفِقُونَ إِلاَّ ابْتِغَاء وَجْهِ اللّهِ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾﴾ لعلّ المراد هنا هو فسح المجال للإنفاق المستحبِّ على غير المسلمين، استجابة للعواطف الإنسانيّة، على أن لا يؤدّي إلى تقوية جبهة العدو، وإلاّ حرُم، فيأتي الخطاب له ﷺ بأن الله هو الّذي يهدي من يشاء، فلا يمنعك كفرهم من الإنفاق عليهم. وربَّما كانت الآية تقصد التخفيف من حزنه ﷺ بعد مشاهدة شيء من التقاعس والرياء والمنّ في المجتمع المسلم. وبعد هذا أعلنت الآية أنّ الإنفاق سيعود بالخير على المنفق بسعادة مجتمعه وهو عضو فيه، والفوز في الآخرة بالجنّة التي فيها ما تشتهي الأنفس، كلُّ ذلك إذا كان الهدف خالصاً لوجه الله وحده.

﴿لِلْفُقَرَاء الَّذِينَ أُحصِرُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاء مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لاَ يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾﴾ دعا القرآن لإنفاق الخير على الذين افتقروا، نتيجة وقفهم قواهم على الإعداد للجهاد، أو التفقّه في الدين والقرآن أو العمل على تحقيق مصالح اجتماعيّة ضروريَّة أُخرى. فهؤلاء أولى بالإنفاق من غيرهم خصوصاً وأنّهم متعفّفون عن السؤال والإصرار عليه، حتّى يحسبهم الجاهل بحالهم أغنياء من شدَّة التعفّف، وإن كانت ملامح الفقر والتعفّف تلوح على وجوههم.

﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلاَنِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾﴾ نزلت هذه الآية ـ كما في مختلف الروايات ـ في الإمام علي عليه السلام حيث أنفق ماله ليلاً ونهاراً، سرّاً وعلانيّة، بكلّ إخلاص وحسن نية، مما جعل منه نموذجاً عالياً للمسلمين في الإنفاق في كلِّ وقت وبأيّ حالة، وتقديم اللَّيل على النهار والسرّ على العلن، يُشعر بأفضليّة صدقة اللَّيل والسر.

إنّ هذه الروح العالية تستوجب أجراً إلهيّاً كريماً، وحياة مطمئنَّة هانئة بعيدة عن الخوف والحزن.

﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لاَ يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ

بِأَنَّهُمْ قَالُواْ إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَن جَاءهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَىَ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧٥﴾﴾ في قبال إنسانيّة المنفقين لوجه الله، نواجه هنا الحيوانيَّة المادّيّة المجسَّدة في المرابين الَّذين يأكلون الربا بنهم، ويفقدون بذلك قدرتهم على إقامة حياة متوازنة، بل يتخبَّطون فيها كما يتخبَّط المصروعون الذين مسّهم الشيطان بجنون، فهم يتساءلون عن الفرق بين البيع والربا، رغم أنّ البيع عملية إنتاجيّة ومال في قبال عوض، والربا استغلال وشره، وكسب بلا عمل ولا عوض، يرفضه الإسلام في نظريَّته العامّة لتوزيع الانتاج البشري. إنّ المسلم إذا اتَّعظ بمواعظ الله العالم بمصلحته، ورفع يده عن الربا بعد تشريع حرمته فإن له تملّك الربا السابق على التشريع، ذلك أنّ الشؤون والأموال كلها بيده تعالى. أمّا من عاد مرة أُخرى إلى الرّبا فهو مهدَّد بالخلود في النار.

﴿يَمْحَقُ اللّهُ الْرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾﴾ إنَّ الربا بآثاره السلبيَّة في الأخلاق والاقتصاد يخلق النفور والتفكُّك والجريمة، وهذه أمور يعود ضررها على المرابي، الذي يكفر بأنعم الله، ويأثم بأذى عباده، في حين تنشر الصدقة المحبَّة والتوازن والعواطف الحسنة في المجتمع، وبهذا يعطي الإسلام الجوَّ الصالح لتحريم الربا والدفع نحو الصدقة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾﴾ يُرجع القرآنُ المسلمَ إلى ايمانه ومقتضياته من عمل للصالحات وإقامة للصلاة التي تربط حياته بالله تعالى، وإيتاء الزكاة لنفي الفقر ومحو أرضيَّة الربا، ومن ثمّ يذكّره بالأجر العظيم والحياة السعيدة التي ستعقب ذلك.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لاَ تَظْلِمُونَ وَلاَ تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾﴾ تهديد خطير بترك عملية الرّبا من الآن، وعدم مطالبة المقترضين به، فذلك من شروط الإيمان، وإلاّ فإن الله بكلِّ عظمته ووسائله الطبيعيّة وغيرها سيحيل حياة المرابين جحيماً من الخوف والحزن والقلق، أمّا لو تاب المرابي فإنه لا يُظلم، بل يُعطى رأس ماله، في نفس الوقت الذي لا يجوز أن يظلم بأخذ أي زيادة مهما كانت قليلة.

﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾﴾ فلو

كان المقترض فقيراً لا يمكنه إرجاع رأس المال، فإن الإسلام بمقتضى أخلاقيّته يوجب إمهاله حتّى يقدر على ذلك، في حين يحبّذ لصاحب المال الصدقة والتبرّع فهو خير وإن جهله الكثيرون.

﴿وَاتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾﴾ وكعادة القرآن في مختلف الشؤون نجده هنا يجعل التقوى هدفاً للمسلم، وإطاراً يطبّق فيه أحكام الله. إنّها تقوى الله، وتقوى يوم الله يوم القيامة حيث تُوفَّى كل نفس جزاء عملها بلا ظلم.

وهكذا وجدنا القرآن يحارب الربا حرباً مستعرة، ويشير إلى آثاره الهدّامة للحياة الاجتماعيّة. ولاريب في أنّ تحريم الربا يحقّق القضاء على اختلاف المصالح بين المرابين والتجّار ـ أولاً ـ ويدفع المال المعدَّ للربا إلى ميادين الإنتاج وإن كان طويل الأمد ـ ثانياً ـ على أن للربا آثاره الكبرى في المجال الأخلاقيّ، إذ يوجد الطمع والجشع والهدفية المادّيّة الرخيصة، كما أنّه يؤدّي إلى انحصار الأموال والنفوذ في يد المرابين الذين يستغلّون نفوذهم في تخريب العلائق البشريّة وتمزيقها واستعمارها. وها نحن نشاهد التكالب المالي في الحضارة الغربية والأزمات الدورية، وانحصار الأموال عند فئة من أعداء الإنسانيّة، التي تعمل على إشاعة الفاحشة والظلم، وتسلب حتّى شعبها حقَّ رؤية طريقه ورقيّه... وهي من نتائج الربا والانحراف عن هدى الله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلاَ يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللّهَ رَبَّهُ وَلاَ يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإن كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لاَ يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ من رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاء أَن تَضِلَّ إْحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى وَلاَ يَأْبَ الشُّهَدَاء إِذَا مَا دُعُواْ وَلاَ تَسْأَمُوْاْ أَن تَكْتُبُوْهُ صَغِيرًا أَو كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللّهِ وَأَقْومُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلاَّ تَرْتَابُواْ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلاَّ تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوْاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلاَ يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلاَ شَهِيدٌ وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللّهُ وَاللّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾﴾ في أطول آية قرآنيّة، يُنظّم الإسلام المعاملات ويجعلها في مسيرتها الصحيحة، تخدم التداول

وتسدُّ الاحتياجات في إطار من الثقة والاطمئنان، بعيداً عن أيّ نزاع أو سوء تفاهم. فالمجتمع الإسلاميّ المفروض عادل، متعاون لإحقاق الحقّ، لا كما نجده اليوم من فقدان ثقة ونزاع بين أفراده وجماعاته.

والأحكام الواردة في الآية، هي:

إذا تعامل المسلمان بدين وهو: كلُّ معاملة فيها تأجيل لدفع أحد العوضين، فالمستحسن لهما كتابة وثيقة التعامل بما لا يدع مجالاً للنزاع في كيفيَّة التعامل ومقدار الدَّين، وليكن الكاتب شخصاً عادلاً (مطبقاً لأحكام الله) فلا ينحاز إلى أحد الطرفين، ولا يتعدّى الحدود والحقوق، ولأنَّ صفة الكتابة والعدالة وفقه المعاملة من عطاء الله وفضله، فالمفروض أن لا يمتنع عن قيامه بهذا العمل.

وليكتب الكاتب وفق ما يمليه ويقرِّره المدين (من عليه الحق) ليكون ذلك إلزاماً مكتوباً يضاف إلى الإلزام الشرعي بالوفاء.

وعلى المدين أن يتَّقي الله تعالى، فيتحرّى الصدق، ولا يبخس (ينقص) ممّا عليه شيئاً. ولو كان المدين ناقص الأهليّة مثل (السفيه) الذي لا يمكنه إدارة ماله وشؤونه بحكمة، و(الضعيف) وهو ناقص العقل، وغير القادر على الإملاء والتقرير كالأخرس والغائب، فإن الوليَّ (بمختلف مراتبه) هو الّذي يملي ويقرر بالعدل والإنصاف.

وينبغي استشهاد رجلين عادلين ممّن يرتضي المسلمون دينهم على المعاملة، تأكيداً للثقة، وسدّاً لكلّ أبواب النزاع، ويكتفى برجل وأمرأتين تشهدان معاً، إن لم يكن هناك رجلان. ولعلَّ السرَّ في جعل إمرأتين في قبال رجل واحد، هو الطبيعة العاطفيَّة للمرأة، وقلَّة تثبُّتها، فإذا أخطأت إحداهما ذكَّرتها الأُخرى.

وليستجب الشهداء إذا دُعوا للشهادة، إقامة للحق، وحسماً للنزاع، ثمّ يحثّ القرآن على كتابة الدَّين ـ قليله وكثيره ـ بلا تكاسل؛ لأنّه أقرب لحصول العدالة، وأضمنُ لإقامة الشهادة، وأجلبُ للاطمئنان وانتفاء الشكوك. وهذا كلُّه بالنسبة إلى المعاملة المؤجَّل فيها أحد العوضين، دون المعاملات النقديَّة التبادليَّة بلا تأجيل، فإنّه يمكن الإكتفاء بالتبادل بلا كتابة، ولا مانع من كتابتها لزيادة الوثوق، وإن كان ينبغي الإشهاد فيها على العقد.

وقد نهت الآية عن أيّ أضرار أو أذى يمكن أن يصيب الكاتب أو الشاهد ممَّن عليه الحقّ (ويمكن أن تقصد الآية نهي الكاتب والشهيد عن الإضرار)، واعتبرت ارتكاب ذلك فسوقاً وخروجاً عن جادَّة العدل، وأخيراً أعطى القرآن هنا أيضاً للأحكام سنداً عقائدياً من التقوى ولزوم تبعيّة التعاليم الإلهيّة، والخشية من تضييع الحقوق، ومراقبة الله؛ لأنه بكل شيء عليم.

﴿وَإِن كُنتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُواْ كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللّه رَبَّهُ وَلاَ تَكْتُمُواْ الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾﴾ وإن لم تمكن الكتابة ـ كما في السفر ـ فليعط من عليه الحقّ رهناً للدائن باعتباره وثيقة على إرجاع الحقّ حين حلول الأجل. وعلى المسلم أن يؤدِّي الحقّ الذي عليه إذا ائتمنه الطرف الآخر ووثق به. وأخيراً دعت الآية الشهود للتدخُّل وإظهار الحقّ، وإلاّ أثمت قلوبهم التي كتمت الشهادة.

﴿لِّلَّهِ ما فِي السَّمَاواتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللّه فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاء وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاء وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾﴾ كلُّ مافي الكون مملوك، ومعلوم، وخاضع له تعالى، وعلى المسلم أن يتذكّر هذا دائماً، ويدرك أنَّ الله يعلم ما يكمن في النفوس، سواء أظهره الإنسان أم أخفاه، من نيّة سيّئة أو صالحة، أو كتمان شهادة أو انحراف عقائدي أو غير ذلك. وأنّه يحاسب عليه، فيغفر لمن يشاء، ويعذب من يشاء، تبعاً لقابليَّة المذنبين للعفو أو العقاب، والله على كل شيء قدير.

﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾ إنَّ سبيل الدين واحد في مبادئه الرئيسة، وإنْ أمكن أن ينسخ الدين الجديد الأديان السابقة في أحكامه، ويضيف إلى تصوراتها ومفاهيمها بما يتناسب والتطوّر القابل للبشريّة.

وإنّ الرسول صلى الله عليه وآله وسلم هو المؤمن الأول برسالته الخاتمة، والمؤمنون الذين يتحمَّلون هذه الرسالة يؤمنون بأصول الدين الأولى وتصوُّراته الأساس من التوحيد الكامل، والملائكة المطهَّرين، كجزء من عالم الغيب، وصحَّة كتب الله وصدق رسله. كما يسلِّمون التسليم الكامل لله (سمعنا وأطعنا) ويلتجئون إليه في كلّ الأمور طالبين الغفران. وأخيراً، فهم

يؤمنون بالقاعدة المهمّة الأخرى وهي الحياة الممتدَّة في ظلّ الله في الآخرة.

وهكذا تصل السورة إلى ختامها، لتؤكّد ما بدأت به من قواعد التصوُّر.

﴿لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَآ أَنتَ مَوْلاَنَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾ يشير هذا المقطع القرآنيُّ إلى أنّ المشرِّع الحكيم لاحظ الوسع الإنسانيّ في تشريعه، وهذا ممّا يطمئن الإنسان إلى قدرته على تجاوز الصعاب، ويدفعه إلى تحقيق هدفه السامي، كما أنّ المقطع ـ من جهة أُخرى ـ يرفع المسؤوليّة عمّا هو فوق الطاقة تعبيراً عن العدل واليسر الإسلاميّين.

والإنسان العامل يلقى نتيجة عمله الخيِّر كما يتحمل تبعة ما يكتسبه من إثم... فهو إذن مسؤول أمام الله عن تنفيذه لأوامره، والانتهاء عن نواهيه، ولا يتحمّل أحد عنه ذلك.

وبعد تأكيدهم السابق السمعَ والطاعةَ، يمضي المؤمنون ليطلبوا من الله أن يغفر لهم ضعفهم الإنسانيّ في نسيانهم وخطئهم، ويرجوه أن لا يحمل عليهم نتيجة عملهم عقوبات الأمم السالفة، وأوضاعها الثقيلة الوطء، وهم إذ يسلِّمون تمام التسليم، يدعونه أن لا يحمِّلهم مالا طاقة لهم به، ويعفو عنهم ويغفر لهم ويرحمهم.

وهكذا يأتي ختام سورة البقرة، وفيه تلخيص لروح العقيدة الإسلامية، يدعو به المؤمنون المشبعون به. فالله وحده هو مولى المؤمنين المطاع، والمشرِّع الوحيد لهم دون غيره، يطلبون منه هداهم وتوفيقهم، لحمل الرسالة الخاتمة والنصر الفكريّ والعسكريّ على جحافل الكفر وشبهاته.

سورة آل عمران (٣)

آياتها ٢٠٠

بِسْمِ اللّه الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الم ﴿١﴾﴾ مرَّ الحديث عن البسملة والحروف المقطّعة.

﴿اللّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴿٢﴾﴾ تقرير الحقيقة الإلهيّة الواحدة المستجمعة للكمال، والتي يقوم بها كلُّ ماعداها.

﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِآيَاتِ اللّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴿٤﴾ إِنَّ اللّهَ لاَ يَخْفَىَ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاء ﴿٥﴾﴾ إنَّ القرآن حق في نزوله من قبل الله، وحقّ في أهدافه وما يتضمَّنه من تصوّرات وتشريعات، وهو الكتاب المصدِّق لما جاء من الحقائق الدينيَّة والبشارات بالنبيّ ﷺ في كتب الله المنزَّلة قبله على موسى (التوراة) وعلى عيسى (الإنجيل). وكلُّ هذه الكتب المتَّحدة في المصدر إنَّما انزلت لتمنح البشريّة (الفرقان) أي المقياس الصحيح لتمييز الحقّ من الباطل، فتسير على هداه إلى السعادة والكمال. امّا الكافرون بآيات الله وهداياته فلهم العذاب الشديد، حيث ينتقم الله منهم لا بالتشفّي النفسيّ (بل يجازيهم على كفرهم) وهو العزيز الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض والسماء؛ لأنَّ علمه مطلق لا يحدُّه شيء.

﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاء لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦﴾﴾ إنَّ حياة الجنين، ونموَّه، وتطوُّراته التي كشف العلم الحديث عن روائعها وجوانبها الدقيقة، لتعبِّر عن قدرة الله المطلقة، وعلمه، ورحمته بالإنسان، وحكمته المبدعة.

﴿هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ في قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الألْبَابِ ﴿٧﴾﴾ المحكم والمتشابه مصطلحان قرآنيّان، ويقصد بالمحكم: الآيات الواضحة المعنى التي لا يشتبه في المقصود منها، وبالمتشابه: الآيات التي تتضمن ألفاظاً دالّة على معان

معيَّنة، ويمكن أن تُجسّد في مصاديق وموارد متعددة، بعضها باطل وغير مقصود. والسرُّ في الإتيان بالآيات المتشابهة ـ رغم أنّ القرآن كتاب بيان وهداية ـ هو أنَّ الكثير من المعاني العالية التي تتوقَّف على معرفتها الحياة الإنسانيّة، تقصر عن استيعابها الألفاظ مهما كانت دقيقة. وتوضيحها بأكثر من ذلك، يحتاج إلى زمن طويل، ومؤلّفات ضخمة، ليس من المعقول وحيها ضمن القرآن، الذي هو دستور عام للمسلمين على اختلاف مستوياتهم، هذا بالإضافة لما في وجود المتشابه من تحريك للعقل الإنسانيّ، وامتحان للنفوس ومقدار التزامها وتسليمها.

ولا يؤدّي وجود المتشابه في القرآن إلى أيِّ اختلاف عميق، بعد أن عيَّن الإسلام مرجعين رئيسين، أحدهما: الآيات المحكمة التي هي أم الكتاب، ومرجعه، وأصله، والثاني: الراسخون في العلم، أي النبيّ وأهل البيت عليهم السلام، فإذا تمسَّكت بهما الأمّة، لن تضل أبداً، كما في الحديث الشريف[1].

ولكنَّ الذين في قلوبهم زيغ (انحراف واضطراب) استغلُّوا التشابه لتطبيقه على بعض الموارد الباطلة، طلباً للفتنة وإضلال الناس، والتأويل على خلاف الحقّ، مع أنّ تأويل الآيات المتشابهة مختص بالله تعالى، وأمّا الراسخون في العلم فقد دفعهم ثبات قلوبهم واطمئنانها ـ على عكس الطائفة السابقة ـ إلى الإيمان بجميع الآيات المحكم منها والمتشابه، إذ كلُّها من عند الله تعالى. وبهذا الإيمان والرسوخ في العلم، كان هؤلاء من أولي الألباب والعقول النيّرة.

﴿رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾﴾ دعاء للمؤمنين المسلمين لأوامر الله، الواقفين عند حدوده، يطلبون فيه من الله الوهَّاب عدم الزيغ (الزلل والانحراف) بعد الهداية والتوفيق، وأن يهبهم رحمة من عنده تثبّت قلوبهم على الإيمان.

﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لاَّ رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللّهَ لاَ يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿٩﴾﴾ ويستمرّ الدعاء القرآني، فيلقّن المؤمنين تصوّرات الآخرة، ويجسِّدها أمامهم، حيث يجمع الله النّاس ليوم موعود آت بلاريب في إتيانه أو في مقاييسه، والله لا يخلف الوعد.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُم مِّنَ اللّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ

١. انظر: الكافي، ج ٢، ص ٤١٤.

النَّارِ ﴿١٠﴾ سار القرآن مع المسلمين في مراحل دعوتهم، يثبّتهم، ويربّيهم، ويحطّم معنويات أعدائهم، وهو هنا يذكّرهم بزيف تفكير الكافرين، وأنّ قواهم الماليّة والبشريّة لا تغني عنهم من الله، ولا تستطيع إيقاف زحف العقيدة، بل ستندحر في الدنيا، وتصبح حطب النار في الآخرة.

﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١١﴾ لقد كانت قوى فرعون وأتباعه والجبابرة من قبله هائلة ـ في نظرهم ـ ماليّاً وبشريّاً، مما دعاهم إلى الكبر والعناد، وأصّل فيهم عنصر تكذيب آيات الله، ولكنّه تعالى أخذهم، وجازاهم على ذلك، وهو شديد العقاب.

﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٢﴾ تهديد خطير للمشركين المغرورين المتفاخرين بأموالهم وأولادهم، بأنّهم سيهزمون ويُحشَرون إلى جهنّم وهي بئس المحل والمثوى لهم، أمّا النصر فهو حليف الفئة المؤمنة. وهذا تنبّؤ قرآنيّ صادق بالمستقبل.

﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاء إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَّأُوْلِي الأَبْصَارِ ﴿١٣﴾ وهنا يتجلّى التثبيت الإلهيّ لحملَة الرسالة حسّاً في معركتهم مع الكافرين ـ وربّما كانت بدراً ـ إذ يرى المشركون المسلمين ضعفي عددهم ـ عياناً ـ فيهابونهم وينهارون أمامهم. وقد يراد رؤية المسلمين للمشركين ضعفي عدد المسلمين مع أنّهم في الواقع ثلاثة أضعاف، وذلك لئّلا ييأسوا من النصر، ويتمّ الاحتفاظ بعنصر المقاومة العنيفة، وفي كلّ هذا درس للمتبصّرين الواعين إذا أرادوا معرفة النتائج.

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاء وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴿١٤﴾ أودع الله في أعماق الإنسان ـ بشكل طبيعيّ ـ ميولاً نحو النساء والأولاد والقناطير المقنطرة (الأموال الكثيرة) من الذهب والفضة، وكذا الميل نحو حيازة الثروة الحيوانيّة من الخيل المسوّمة (المدرَّبة المزيّنة المعدَّة للرعي وغيره) والأنعام والثروة الزراعيّة (الحرث). وهذه الميول في أصلها ضروريّة، لإبقاء الحياة البشريّة وإدامة عمران الأرض، ولكنَّ الشيطان والشهوات الجامحة، قد تستغلّ هذه الميول لإشباعها إشباعاً منحرفاً، وتجعل

هذا الإشباع هو الهدف الأعلى في الحياة، رغم أنّه متاع الحياة الدنيا، ووسيلة لهدف أعلى هو حسن المآب في الآخرة.

﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللّهِ وَاللّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٥﴾﴾ إنَّ العطاء الإلهيّ الذي أعدَّه للمتّقين، خير من كلِّ متاع الدنيا. وهل يُقاس المتاع المحدود إلى الخلود في الجنّة، حيث الأنهار، وحيث الأزواج المطهَّرة من شوائب نساء الدنيا، وفوق ذلك رضوان إلهيّ عظيم؟ إذن؛ فلتكن الدنيا سبيلاً، ولتكن الآخرة هدفاً يعمل لها الإنسان، والله بصير بما يعمل المرء ومدى إخلاصه فيه.

﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٦﴾﴾ إنَّ المتّقين يدعون ربّهم الذي آمنوا به وعبدوه بكل إخلاص، فيرجون منه الغفران، ويسألونه أن يقيهم عذاب النار بتوفيقهم للثبات على الطاعة، والسير على الخطّ الإسلاميّ القويم.

﴿الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ ﴿١٧﴾﴾ من أهمّ صفات المتّقين: الصبر: فهو عُدّة المؤمن في مواجهة أي مشكلة، إنّه يصبر ضد المعاصي والأهواء والمصائب، كما يصبر على مشقّة الطاعات والتكاليف، وكل ما يعترضه في طريق العمل لله تعالى، والصدق: التزاماً بالحقّ ومقتضيات الوجدان والفطرة السليمة، والقنوت (الخضوع) لله: وهو مقتضى الإيمان النافذ للمشاعر، والإنفاق: وهو نتاج الإعتقاد بملكية الله، والاخوة الإنسانيّة، والاستغفار وقت السَحَر: حيث الهدوء وصفاء النفس وتحمل السهر ومشقّة القيام، والبعد عن الرياء، وكلُّها تشكّل الجوَّ المناسب لمناجاة الله تعالى، واستغفاره، والتضرُّع إليه.

﴿شَهِدَ اللّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ قَآئِمَاً بِالْقِسْطِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾ إنَّ عدالة الله التي تتجلّى في الكون المتناسق المترابط، كما تتجلّى في تشريعاته الواقعية الحقَّة، تدفع الفطرة إلى التصديق الكامل بشهادة الله على نفسه بالوحدانيّة، ويتركّز الإيمان بشهادة الملائكة والوحي الذي يحمل الشريعة العادلة للبشريَّة، وأخيراً يطمئن القلب والمشاعر إلى الوحدانيَّة الإلهيّة، عندما يقف أولو العلم وأهله بما فيهم الأنبياء

والأوصياء والعلماء إلى صف الشهداء عليها، وهم مؤيّدون بالمعاجز والخبرات، والاطلاع على جوانب من أسرار الكون.

﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللّه الإِسْلاَمُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللّه فَإِنَّ اللّه سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩﴾﴾ إنَّ وحدانية الألوهيّة، تستوجب وحدة الدين الحقّ، الذي يعني التسليم المطلق لله تعالى والإخلاص له. يقول أمير المؤمنين علي عليه السلام في خطبة له: «الإسلام هو التسليم، والتسليم هو اليقين، واليقين هو التصديق، والتصديق هو الإقرار، والإقرار هو الأداء، والأداء هو العمل»[١].

وقد كان المفروض بأهل الكتاب أن يدينوا الله بالإسلام وتحكيمه في تصوُّراتهم وسلوكهم، ولكنَّ بغيهم وظلمهم دفعهم لاختلاف مصلحي في الدين، مع علمهم بحقيقة التوحيد وآيات الله، وسيحاسبهم الله جزاء اختلافهم وكفرهم بآياته.

﴿فَإنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ اهْتَدَواْ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ وَاللّه بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٢٠﴾﴾ فإذا استمرَّ أهل الكتاب في جدالهم وعنادهم، فليقل النبي صلى الله عليه وآله وسلم لهم: إنّه وأتباعه المسلمين قد أسلموا وجوههم لله تعالى وحده، وأعرضوا عمَّن سواه، فإن أسلم أهل الكتاب والأميون (المشركون) لله كذلك، فقد اهتدوا وفازوا، وإن تولَّوا وأعرضوا، فليس على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم شيء بعد إبلاغه رسالته، وليتركهم لله البصير بعباده ليقرِّر في حقِّهم ما يراه وفق علمه وحكمته.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللّه وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الِّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾ تعرية لأهل الكتاب وتاريخهم الأسود في كفرهم بالله، وقتل النبيّين بغير حقٍّ وهم مشاعل الهداية، بل وقتلهم الآمرين بالعدالة وبإجراء قوانين الله من النّاس الذين تحدّوا الظلم والطواغيت، وتهديد لهم بما يلاقونه من الشقاء والقلق، وفي الآخرة بما ينتظرهم من المصير السيّئ حيث لا ناصر لهم ولا شافع.

---

١. نهج البلاغة، ص ٤٩١، الحكمة ١٢٥.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوْتُواْ نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لاَّ رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾ إستنكار لموقف اليهود والنصارى المتناقض، فبينما هم ينتسبون للكتاب الذي أوتوا نصيباً وقدراً من علومه، أو اطّلعوا على قسم منه لم يحرف من قبل، نجدهم إذا دعوا لتحكيم هذا الكتاب في تحديد موقفهم من النبيّ ﷺ وتقييم سلوكهم، تولّى فريق منهم، وأعرض مخالفاً ما ادعاه... وربما كانوا يفترون ويخترعون شيئاً، ثمّ يخدعون به أنفسهم من مثل ادعائهم بأنّهم لن يعذّبوا في النار إلاّ أيّاماً قليلة، فلا داعي للالتزام الكامل بالكتاب. ولكنّ الحقيقة ستنكشف حتماً يوم القيامة، حيث تجازى كل نفس بما عملت بلا ظلم أو إجحاف.

﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاء وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاء وَتُعِزُّ مَن تَشَاء وَتُذِلُّ مَن تَشَاء بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾﴾ تعليم قرآنيّ باللجوء إلى الله المالك المطلق، والتركيز على أنّه تعالى مصدر القوى والعزّ والذلّ، يعطي الملك من يشاء، وينزعه ممَّن يشاء، طبق ما يعلمه من حكم ومصالح وسنن، وهو تعالى مصدر الخير في الكون وذو القدرة المطلقة على كل شيء.

وفي الآية تهديد للظالمين المغترّين بسلطانهم، وقد فُسِّر المُلك بالنبوَّة التي آتاها الله النبيَّ ونزعها من بني إسرائيل، نتيجة تهاونهم وعنادهم.

﴿تُولِجُ اللَّيْلَ فِي الْنَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الَمَيَّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاء بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾﴾ ويمضي الدعاء مستعرضاً قدرة الله وحكمته في الأمور التكوينيَّة، كظاهرة تداخل الليل والنهار، وتفاوتها بالقصر والطول، وهي ترتبط أشد ارتباط باستمرار الحياة الإنسانيّة، وكذا ظاهرة إخراج الحيِّ من الميت، وبالعكس، كإحياء الأرض الميتة، أو إخراج الأولاد المؤمنين من الآباء الكافرين، وعكسه، وأخيراً ظاهرة الرزق العميم للموجودات.

﴿لاَّ يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُوْنِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ

اللّه فِي شَيْءٍ إِلاَّ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللّهِ الْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾﴾ ينهى القرآن كثيراً عن مودَّة الكافرين والركون إليهم، ممّا يفسح المجال للتأثّر بهم، وفتح ثغرات لنفوذهم. ويؤكّد أنّ العواطف يجب أن تبتنى على العقيدة، وإذا والى المسلم كافراً، فقد قطع علاقته بربّه، ولم يعد من حزبه المفلحين، فليحذر ـ إذن ـ غضب الله الذي إليه المصير.

وللمسلم عند الضرورة أن يبدي ولاءه للكافر قولاً، وحتى عملاً، إنْ تطلَّب الموقف ذلك، وإن كان يتبرأ منه قلباً وعقيدة. والتقيّة، موقف يتّخذه كلُّ عاقل بفطرته، فيبدي غير ما يخفي، حينما يجد خطراً يهدِّد نفسه أو ماله أو شركاءه في العقيدة وأمثال ذلك، دون أن يكون للتحدّي أيّ نفع مواز للخسارة. وهذا بالضبط هو موقف النبي ﷺ في أوائل الدعوة.

وقد جاءت أحاديث النبي ﷺ والأئمَّة: تؤكّد وجوب التقيَّة أحياناً وجوازها، أو حرمتها، ومنها ماذكر في سبب نزول الآية التي تضمّنتها سورة النحل، لتسويغ موقف عمّار الذي قال كلمة الكفر بلسانه، وقلبه مطمئنّ بالإيمان. وتبعاً لاختلاف الظروف (ظروف التقيَّة وعدمها) وجدنا التفاوت في مواقف الأئمة: تجاه الضغط الظالم.

فالتقية لدى الشيعة موقف إنسانيّ إسلاميّ خالص، ينسجم مع الخلق والمنطق والفطرة، إنّها لحفظ الكيان العقائديّ، فإذا توقَّف هذا الحفظ على الاستشهاد، فما أرخص النفوس في سبيل ذلك، كما استشهد الحسين عليه السلام لهذا الهدف الكبير.

﴿قُلْ إِن تُخْفُواْ مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأرْضِ وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾ إنَّ الأعمال بالنيّات، والله عليم بذات الصدور، لا يختلف الحال لديه، فسواءاً أبدى الإنسان مافي صدره من سرّ، أو أخفاه، فإنه يعلمه الله العليم بما في السماوات والأرض، والقدير على كل شيء.

﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوَءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللّهُ نَفْسَهُ وَاللّهُ رَؤُوفُ بِالْعِبَادِ ﴿٣٠﴾﴾ تخويف لمن يوالون الكافرين بمشاهد القيامة، حيث يلقى النّاس أعمالهم الخيِّرة ماثلة أمامهم، بكل عطائها ونورها، في حين يودّون أن يكون بينهم وبين أعمالهم السيّئة فاصل زمنيّ بعيد، ثمّ يتكرّر التحذير لتشديد النكير على من يوالون الكافرين، وذلك رأفة بهم، ولئلا يبتلوا بعواقب هذا الولاء الوخيمة.

﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ ادّعى بعض أهل الكتاب، أو بعض المسلمين غير العاملين، أنّهم يحبّون الله، فجاءت الآية تؤكّد حقيقة أنّ الحبَّ الصادق هو الّذي يتبعه العمل بشوق بكلّ ما يريده المحبوب، وخصوصاً إذا كان هو الكامل المطلق ـ تعالى ـ قال الصادق عليه السلام: «ما أحبَّ الله من عصاه».

ولا يصدق العبد في دعواه حبّ الله إلا إذا أتّبع الإسلام ورسوله الأمين، كي يضمن حبَّ الله وغفرانه. وتشكّل علاقات الحب بين الخالق والمخلوق، وبين المخلوقين أنفسهم؛ حقيقة هي من أهمّ حقائق التصور الإسلاميّ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «وهل الدين إلا الحب والبغض في الله».

وبعد هذا لا يبقى مجال لاتهامات المستشرقين، بأنّ الإسلام يقوم على الجبروت والقهر والحقد!

﴿قُلْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَالرَّسُولَ فإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ ترشد الآية إلى حكم العقل والفطرة بلزوم إطاعة الله تعالى الخالق الرازق الهادي. وإنما تتمّ طاعة الله بطاعة رسوله الكريم. فإذا تولّى أحد وأعرض وكفر فإن الله لا يحبُّ الكافرين.

﴿إِنَّ اللّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ اختار الله تعالى صفوة من البشريّة بمقتضى علمه بكفاءتها وإخلاصها، فجعلها منار الهدى ومحور المسيرة نحو الكمال، وكان أوّلها آدم عليه السلام ثمّ نوح ثمّ باقي الأنبياء المعصومين من آل إبراهيم عليهم السلام، ومنهم أفضل الأنبياء محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وكذلك من آل عمران، والظاهر أنّه والد مريم عليها السلام (عليها السلام)... فكانوا جميعاً ذريَّة ونسلاً متشابهاً في السير على الحقّ وحمل مشعل الهداية إلى الله، وهو تعالى محيط بهم، يرعى تحركاتهم عبر التاريخ.

﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾﴾ يعرض القرآن هنا إحدى قصص النبوّة العامرة بالإيمان والتسليم، وهي قصّة عيسى بن مريم عليه السلام، ليؤكّد بشريَّته وعناية الله به، وإخلاص أسرته وإسلامهم لله. فقد نذرت إمرأة عمران (أم مريم) بإخلاص وانقطاع إلى الله أن تجعل ما في بطنها من حمل محرّراً من كلّ قيد وعبوديّة بشريّة، ليوقف حياته في خدمة (بيت المقدس) والعبادة فيه والقيام بمهامه. وراحت تسأله تعالى ـ بدعاء المؤمن الخاشع ـ أن يتقبّل منها نذرها، وهو

السميع بدعائها، العليم بحالها وإخلاصها.

﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَى وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وِإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾﴾ وعندما وضعت حملها، وتبيَّن أنّها أُنثى صارت في حيرة من أمر نذرها، إذ لا تصلح الأُنثى للخدمة الدائمة في المعبد عادة، فلجأت امرأة عمران مرة أُخرى إلى ربِّها تخبره عن حالها ـ والله أعلم بها وبحالها وبما سينتظر هذه المولودة من مستقبل ـ وأنها أسمتها (مريم) أي المرأة العابدة في لغتهم. وتطلب إليه تعالى أن يصونها برعايته ويعيذَها هي وذريتها به تعالى من الشيطان وإغواءاته.

﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقاً قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللّهِ إنَّ اللّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاء بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾ واستجاب الله الرحيم لدعاء أُمِّ مريم، وتقبَّل مريم بقبول حسن، بأن تكون محرَّرة خالصة لعبادته في بيت المقدس، وأنبتها وربّاها تربية حسنة، فكانت طاهرة عابدة مخلصة، وأوكل كفالتها إلى النبيّ زكريّا بعد أن وقعت عليه القرعة الآتي ذكرها، وقد رأى فيها زكريا مثالاً للمرأة العابدة المؤيَّدة من الله، فكلّما دخل عليها محراب عبادتها وجد عندها طعاماً ـ يبدو أنّه من طعام الجنّة ـ وحين سألها عن مصدره أجابته جواب المؤمنة العارفة الواعية: إنّه من عندالله الذي يرزق من يشاء بغير حساب.

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاء ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ الْمَلآئِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٣٩﴾﴾ وقد كان لهذا الموقف الحسِّي الرائع أثره البالغ في إنعاش الأمل عند زكريّا، الذي دعا الله تعالى أن يهب له ذريَّة طيّبة صالحة، إشباعاً لحسِّه الأبويّ، وتحقيقاً لهدفه الكبير، وقد حقَّق الله أُمنيته، فبشّرته الملائكة في المحراب أيضاً ـ حيث كان يقوم مصلياً عابداً لله ـ بولد اسمه يحيى، من صفاته: أنّه يصدِّق بكلمة من الله، والمراد بذلك عيسى عليه السلام، حيث ولد بأمر تكوينيّ خارق، وأنّه سيِّد في نفسه وفي قومه بصفاته العالية، وأنّه حصور (يحصر نفسه عن الشهوات ويرتفع عن التذلُّل لها زهداً بها) وأخيراً فهو من أنبياء الله ومن الصالحين العاملين في سبيل الله.

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىَ يَكُونُ لِي غُلاَمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاء ﴿٤٠﴾﴾ وهنا تدرك زكريّا طبيعته البشريّة فيتساءل عن هذه المفاجأة العجيبة، فكيف يولد له ولد وهو شيخ طاعن في السنّ، وامرأته عاقر عقيم؟! ولكنّ الخطاب الإلهيّ يذكّره بطلاقة المشيئة الإلهيّة من كل قيد أو سنّة طبيعية مألوفة.

﴿قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّيَ آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ إِلاَّ رَمْزًا وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ ﴿٤١﴾﴾ وكما سأل إبراهيم ربَّه أن يريه كيف يحيي الموتى حسّاً ليطمئنَّ قلبه، سأله زكريّا كذلك بأن يريه آية حسِّية يطمئنُّ بها، مع إيمانه بقدرة الله المطلقة، فتستجيب رحمة الله للإنسان حين يعطى زكريّا آية يسكن إليها، وهي أن يحتبس لسانه عن التكلُّم مع النّاس ولكنه ينطلق بذكر الله وحمده وتسبيحه بالعشيّ (أواخر النهار) والإبكار (أوائله).

﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلاَئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاء الْعَالَمِينَ ﴿٤٢﴾﴾ تكريم إلهيّ آخر لمريم العابدة المخلصة، إذ تبشّرها الملائكة باصطفائها واختيارها من الله تعالى حين تقبَّلها محرّرة له، وقبل عبادتها في بيته، وبتطهيرها من الكفر والدنس والآثام، وربما من عادات النساء لتصلح للعبادة في المسجد دائماً، وبتقديمها على نساء العالمين، وإكرامها بولادة المسيح عيسى عليه السلام منها دون أن تتزوج ويمسّها بشر، ولا يمنع هذا من أن تكون فاطمة بنت محمد صلى الله عليه وآله وسلم سيدة نساء العالمين من الأوّلين والآخرين ـ كما جاءت الروايات ـ ذلك أنّ تقديم مريم كان من جهة واحدة هي اختصاصها بولادة عيسى من دون أب، في حين تقدمت فاطمة من كل الجهات وعلى الإطلاق.

﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ تحمل الملائكة أوامر الله لمريم بالقنوت، أي الخشوع والخضوع في محراب العظمة الإلهيّة، والسجود والركوع مع قوافل الراكعين العابدين لله تعالى، وكل ذلك شكراً لله على إكرامها وتمهيداً لتلقّي نفخة الله وتكريمه لها بابنها المسيح عليه السلام .

﴿ذَلِكَ مِنْ أَنبَاء الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُون أَقْلاَمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ يذكّر القرآن ـ بهذا العرض الطاهر ـ بنسبه السماوي وتنزُّهه عن خرافات أهل الكتاب، وأنّ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم لم يكن حاضراً، ولكنّه يخبر عن دقائق

الأحداث. وهنا نشهد الاختصام حول كفالة مريم التي جاءت بها أمها إلى بيت المقدس، حيث ينتهي إلى الاقتراع بالأقلام أو السهام المبرية، يلقونها في النهر ـ كما روي ـ فأيّهم لم يجرف التيّار قلمه أو لم يرسب فهو الكافل، وقد كان ذلك زكريّا النبيّ والقريب لمريم.

﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلآئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾﴾ حملت الملائكة إلى مريم ـ بعد ذلك ـ بشارة الله بولادة ابنها «عيسى» الذي تتجلّى فيه كلمة الله، إمّا تكويناً «كن»؛ لأنه سيُخلق من غير أب، أو لأنه يحمل رسالة الله للناس، أو لانطباق كلام الله المبشَّر به في الكتب السابقة عليه. وأخبرتها الملائكة بأنّه سيكون ذا مقام جليل وفي طليعة النّاس في الدنيا والآخرة. ومن المقرَّبين إلى الله تعالى.

﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاء إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾﴾ وأخبرت الملائكة مريم أن ولدها سيكلّم النّاس وهو في مهده، ويعيش حياة الصالحين، حتّى يصبح رجلاً كهلاً، يحمل رسالة الله الى بني إسرائيل، فتذهل مريم لهذا الخبر، وهي التي لم يمسسها إنسان، فتتساءل عن كيفية ذلك، فيذكّرها الوحي بأنّ الله يخلق ما يشاء ولا يحدُّ قدرته شيء، فإذا أراد أمراً وقع الأمر (كن فيكون).

وبهذا يفند القرآن مزاعم بعض أهل الكتاب، التي تزعم أنّ المسيح هو ابن الله، ويؤكّد أنّه خلق بقدرة الله ومشيئته، وأنّ مريم هي المرأة البتول الطاهرة.

﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللّهِ وَأُبْرِئُ الأكْمَهَ والأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾﴾ إنّ المسيح عبد الله، يعلّمه الكتاب والشريعة، وأساليب التفهّم والحكمة، قولاً وعملاً والتوراة والإنجيل. واذ يعدّه للقيادة، يبعثه رسولا إلى بني إسرائيل يحمل معه آية إلهيّة معجزة تثبت صدقه، فكان يصنع طيراً طينيّاً ثمّ ينفخ فيه فيكون طيراً حيّاً بإذن الله، ويبرئ الأكمه (وهو من يعشو في الليل أو من ولد أعمى) والأبرص، بل ويحيي الموتى بإذن الله تأكيداً على عدم استقلاليّته في

ذلك، ولإقامة المعجزة وتحدّي قومه بأرقى فنون عصرهم وهو الطبّ.

ومن المعاجز التي جاء بها عيسى، إخبارهم عن أُمور حياتيَّة خاصَّة، كالأكل والخزن، وفي كل ذلك آية وعلامة على صدقه إن كانوا مستعدّين لقبول الحقّ.

﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُواْ اللّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾﴾ بُعِثَ عيسى نبياً إلى بني إسرائيل، ليكمل رسالة موسى عليه السلام، وذلك بالعمل بشريعة التوراة الاجتماعيّة، مع رفع لبعض التضييقات التي فُرِضَت على بني إسرائيل عقوبةً وبشكل مؤقت، بالإضافة لمجيئه بالطاقات الروحيّة الضروريّة، لعلاج النفسية اليهوديّة التي طال عليها الأمد، فقست وغرقت في المادة والحس. إلاّ أنّ العداء اليهوديّ للمسيح أفقد كلاً من المسيحيّة واليهوديَّة المنفصلتين قدرتهما على القيام بالمهمَّة المشتركة، وهي إيصال البشريّة إلى حيث تصبح ناضجة قابلة لحمل الرسالة الإسلاميّة الخالدة، التي هي وريثة كلّ الرسالات والجهود السابقة عليها، والتي تستوعب مختلف الشؤون الحياتيّة بنظام كامل خالد.

﴿إِنَّ اللّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ بعد أن طلب عيسى من بني إسرائيل العمل بتقوى الله ورفع اليد عن عنادهم، وإطاعته هو فيما يبلّغه عنه تعالى، أكّد الحقيقة التي جاء بها كلُّ الأنبياء وشوَّهها أتباعه بعد ذلك، وهي حقيقة التوحيد في الربوبيّة، والتي تعني التوحيد في العبادة أيضاً، وتسليم الأمر إلى الله والسير على صراطه المستقيم الموصل ـ دون غيره ـ إلى الكمال.

﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللّهِ آمَنَّا بِاللّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾﴾ وعندما جُوبه عيسى بكفر بني إسرائيل وعنادهم، راح يطلب النخبة الممتازة من الأنصار لرسالة الله، لينهضوا معه في تبليغها ونشرها، وليحملوها من بعده إلى الآخرين، فاستجاب الحواريّون لدعوته، وهم الذين اختصُّوا بعيسى، وتميَّزوا بالإخلاص الذي تجلّى في إعلانهم عن الاستعداد لحمل الرسالة ونصرتها، بعد إيمانهم بالله وتسليمهم له في كلِّ شؤونهم، ثمّ توجّهوا إلى الله تعالى يؤكّدون إيمانهم بالله وتسليمهم له في كلِّ شؤونهم.

﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلَتْ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٣﴾﴾ توجّه الحواريون إلى الله تعالى يؤكّدون إيمانهم بكتبه تعالى، واتّباعهم لرسوله، ويطلبون منه أن يكتبهم مع الشاهدين قولاً وعملاً لنبيِّهم عيسى على تبليغه لرسالته وإخلاصه لها...

﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ اللّهُ وَاللّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾ المكر هو التدبير، وقد مكر اليهود بعيسى عليه السلام فدبَّروا قتله بالوشاية إلى الحاكم الروماني، ولكنّ الله واجههم بمكره وتدبيره (بإبطال مكرهم) فإذا هو هباء، وإضافة المكر إلى الله تعالى إنّما هو للمشاكلة والمطابقة البلاغيّة.

﴿إِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٥٧﴾﴾ وكان إبطال مكر اليهود بوعد الله لنبيِّه عيسى عليه السلام بأن يتوفّاه (يأخذه لا أن يميته) ويرفعه إليه، وأن ينزّهه من أرجاس بني إسرائيل الذين كفروا بآيات الله، كما وعده بأن يجعل أتباعه الحقيقيّين فوق اليهود الكافرين بأنعمه، وأتباعه هم: المسلمون تسليماً كاملاً لله في مقاييس الله، وفي حياتهم المطمئنة أعلى من اليهود الحاقدين القلقين والأذلاء إلى يوم القيامة، أو هم الذين يؤمنون بنبوَّة عيسى وهم المسيحيون والمسلمون.

وفي يوم القيامة حيث يرجع الجميع إلى الله تعالى، سيكون الحساب الحقّ وتنكشف الحقائق، فيعذَّب الكافرون عذاباً شديداً في نار جهنم، بعد تعذيبهم بالذلّ والهوان والانحطاط في الدنيا، في حين يجزي الله المؤمنين العاملين بالرسالة، المضحّين لأجلها، ويوفّيهم أجورهم ويتمّمها عليهم، بعد سعادة دنيويَّة واطمئنان قلبيّ، إذ كانوا موضع حبِّ الله ورحمته، أمّا الظالمون فقد حُرموا من عطاء هذا الحبّ الإلهيّ العظيم.

﴿ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾﴾ كلُّ ما سبق من حديث عن القصص النبويّ إنّما هو آيات كريمة وقرآن حكيم، تلاه الله تعالى على رسوله محمّد صلى الله عليه وآله وسلم وأوحاه إليه، ليبيّن الحقيقة التي شوّهتها خرافات أهل الكتاب وأباطيلهم التي نسجوها حول أنبياء الله الصالحين المقرَّبين.

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللّه كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثِمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾ اعتقد النصارى بالوهيَّة عيسى أو كونه ابناً لله؛ لأنه وُلد من غير أب، فاحتجَّ القرآن عليهم بآدم عليه السلام ـ وهم لا يدَّعون له ما يدّعونه لعيسى عليه السلام ـ وقد خلقه الله من تراب وأراد له أن يكون فكان، وأمره أعجب من أمر عيسى عليه السلام الذي خلقه الله بإرادته من غير أب.

﴿الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُن مِّن الْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ إنَّ الله يهدي البشريّة للحقيقة في التصوُّر والعمل، فلا ينبغي أن يشكَّ المسلم في ذلك أو يصغي إلى خرافات أهل الكتاب.

﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَاءنَا وَأَبْنَاءكُمْ وَنِسَاءنَا وَنِسَاءكُمْ وَأَنفُسَنَا وأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَةُ اللّه عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴿٦١﴾﴾ نزلت هذه الآيات عندما استعدّ وفد نصارى نجران لمحاجّة النبي صلى الله عليه وآله وسلم في شأن رسالته، ولما أصرَّ هذا الوفد على جداله رغم كلِّ الحجج الواضحة طلب القرآن من النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يباهلهم (يلاعنهم) كحل أخير للموقف، وذلك بأن يدعو الطرفان (النبي والوفد) أشخاصاً يمثّلون أنفسهم ونساءهم وأولادهم، ثمّ يطلبوا من الله تعالى أن يصبَّ اللعنة والعذاب على الطرف الكاذب في دعواه.

وهنا جاءت الروايات الكثيرة الصحيحة لتؤكّد أنّ النبيَّ صلى الله عليه وآله وسلم لم يخرج معه للمباهلة سوى أهل بيته الّذين أذهب الله عنهم الرِّجسَ وطهَّرهم تطهيراً، وهم: عليّ كمعبّر عن نفس النبي، وفاطمة عليها السلام كأعلى نموذج طاهر لنساء المسلمين، والحسن والحسين عليهما السلام كأسمى مثال لأبناء الأمّة.

ومذ أبصر النصارى رسول الله ومعه أعزّ النّاس عليه، يقدّمهم ويباهل بهم، أحسّوا بالخذلان وتراجعوا عن تصميمهم، معترفين بهزيمتهم، ومتأكّدين من ثقة النبي وصدق دعواه، ومصالحين على إعطائه الجزية. وقد أورد القصة كبار المفسّرين والمؤرّخين والمحدّثين، كمسلم(ج٧ ص ١٢٠) والترمذي(ج٤ ص ٢٩٣) والطبري (جامع البيان ، ج ٣، ص ٤٠٤ ـ ٤٠٥) والزمخشري (الكشاف ج ١ شرح ص ٤٣٣٤٣٤) والرازي (ج٨، ص ٨٢...) والبيهقي (ج ٧ ص ٦٣) والحاكم (ج ٣ ص١٥٠) وأحمد(ج ١ ص ١٨٥) والبغوي(ج١، ص ٣١٠) وغيرهم، وفي الآية أعظم الفضائل لأهل البيت عليهم السلام.

﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ اللّهُ وَإِنَّ اللّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ اللّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾﴾ هذه هي الحقيقة في قصة عيسى عليه السلام فلم يكن إلاّ عبداً مخلصاً، أمّا الألوهية فهي لله ـ وحده ـ ذي العزّة المطلقة والحكمة التامة، فليتقدم الرسول ـ إذن ـ للمباهلة فإن أعرضوا عن الحقّ فالله عليم بفسادهم، وسيجازيهم على ذلك.

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ تركيز على العنصر المشترك بين المؤمنين بالله جميعاً، ودعوة إلى التوحيد من كلّ شائبة وخرافة ـ أُدخلت على الدين ـ إنّ التوحيد في الذات، فلا شريك ولا نظير ولا كفء له ـ تعالى ـ وفي العبادة فلا يتَّخذ الإنسان له أرباباً من الأنبياء أو الأحبار أو الطغاة أو غير ذلك، فيطيع هذه الآلهة الوهميَّة من دونه تعالى. أمّا إذا أعرض أهل الكتاب وتولَّوا عن هذه الدعوة فليشهدوا إذن أنّ الرسول الكريم وأتباعه هم المسلمون حقّاً لله الواحد.

وفي الآية تربية للمسلم على اكتشاف المشتركات مع الآخرين عبر الحوار معهم.

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّورَاةُ وَالإنجِيلُ إِلاَّ مِن بَعْدِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾﴾ لمّا كان إبراهيم عليه السلام موضع قبول للجميع، فقد حاول كلّ من اليهود والنصارى إضفاء طابعهم الخاصّ عليه، فردّ عليهم القرآن بأن ذلك مجرّد جهل وعناد، بعد معرفة حقيقة نزول التوراة والإنجيل بعده.

﴿هَاأَنتُمْ هَؤُلاء حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلاَ نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾﴾ إذا جاز لليهود والنصارى أن يجادلوا بعضهم في ما يعلمونه من نبوّة عيسى وعدم الوهيَّته، أو ما جاء في كتبهم، فليس من الجائز منطقياً أن يجادلوا فيما يجهلونه من حقيقة دعوة إبراهيم عليه السلام التي علم الله أنّها لم تكن ملوَّثة بتحريفات أهل الكتاب والمشركين، بل كانت حنيفيَّة مسلمة لله خالصة له في العبادة والطاعة.

﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَاللّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾﴾ إنَّ رابطة العقيدة ـ دون غيرها من الروابط الأرضيَّة ـ هي الرابطة الحقيقيّة بين البشر، ولذا

كان أولى النّاس وأقربهم إلى إبراهيمﷺ هم أتباعه الذين ساروا على منهجه، وهذا النبي محمّدﷺ ومن آمنوا؛ به؛ لأنّهم حملوا راية التوحيد الخالص والتسليم الصحيح لأوامر الله، وراحوا في مسيرة تكامليَّة واعية، يرعاها الله تعالى ـ عبر التاريخ ـ.

قال أمير المؤمنين عليﷺ : «إنّ أولىّ النّاس بالأنبياء، أعلمهم بما جاؤوا به» ثمّ تلا: ﴿إن أولى الناس...﴾ الآية. ثمّ قال أيضاً: (إنّ ولي محمّد من أطاع الله وان بعدت لحمته، وأنّ عدوَّ محمّد من عصى الله وإن قربت قرابته)[١].

﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾﴾ كان بعض أهل الكتاب يعملون على إضلال المسلمين ـ كما يعمل أبناؤهم اليوم ـ وتشكيكهم في معتقداتهم وهم لا يشعرون أنّهم بهذا يهدمون البشريّة الصالحة وهدفها السامي، مما يعود عليهم هم بالوبال والخسران.

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللّه وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾﴾ تنديد بتعصُّب أهل الكتاب، وكشف لموقفهم من آيات الله ونبوَّة النبيّﷺ ، إذ يكفرون بها، رغم شهادة كتبهم وكلِّ الدلائل على حقيقتها.

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾﴾ لكن أهل الكتاب يلبسون (يخلطون) الحقّ بالباطل، ليشوّهوا الحقيقة ويبثّوا التشكيك حولها، وبالتالي هم يكتمون الحقّ رغم علمهم به، ولكنها المصالح الدنيويَّة والاستغلال لبساطة الناس

﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُواْ بِالَّذِيَ أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُواْ آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾﴾ ومن محاولاتهم الماكرة؛ دسُّهم بعض أتباعهم ليدخلوا في عداد المؤمنين في مطلع النهار، ثمّ ليعودوا كفّاراً في آخر النهار، باعثين بذلك البلبلة والتشكيك بين بعض المسلمين الذين لم يتعمَّق الإسلام في نفوسهم.

﴿وَلاَ تُؤْمِنُواْ إِلاَّ لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللّه أَن يُؤْتَى أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللّه يُؤْتِيهِ مَن يَشَاء وَاللّه وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْتَصُّ

١ . نهج البلاغة، الخطبة ٩٦، ص ٤٨٤، د. صبحي الصالح.

بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاء وَاللّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ يتواصى أهل الكتاب أن لا يؤمنوا (لا يثقوا) إلاّ بمن هو على دينهم عند حديثهم عن ماجاء في الكتاب، وهم يظنون أنّ ماجاء فيه من الهدى يمكن إخفاؤه عن المسلمين، فلا ينتفعون به أو يحتجُّون به عندالله، وما هذه إلاّ خيالات وسخف، إذ الهدى الحقيقيّ من الله تعالى يفيضه على أوليائه المؤمنين ويتفضَّل على من يشاء بالنبوّة بمقتضى رحمته وحكمته وعلمه اللامحدود، وهو ذو الفضل العظيم.

﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لاَّ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ بيان واقعي منصف لحال أهل الكتاب، حيث إنّ منهم الأمين على أموال الآخرين مهما كثرت ـ والقنطار هو المال الكثير ـ كما أنّ فيهم من إذا اؤتمن على مبلغ زهيد كدينار لم يرع الأمانة واستحل أكل الدينار بالباطل، إلاّ أن يقوم عليه صاحبه مطالباً وملحّاً.

والأنكى من ذلك أنّ مثل هؤلاء الخونة يسوّغون تصرّفهم اللاّ أخلاقي بأنَّ الله لم يشرع عليهم سبيلاً (تبعة وذنباً) جراء أي عمل يقومون به بالنسبة للأميين، ويقصدون بهم (العرب) أو الأمم الأُخرى غير بني إسرائيل، ولذا فهم يستحلُّون أموالهم. وما هذه النسبة إلاّ كذب مفضوح يعلمون هم بزيفه قبل غيرهم، فإن الله لا يأمر إلاّ بالعدل والإحسان والأمانة وأمثال ذلك، مما يدرك حسنه الوجدان الإنسانيّ نفسه.

﴿بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾ يؤكّد القرآن حقيقة أن الله لا يأمر إلاّ بالعدل والإحسان وكلِّ ما يراه الوجدان حسناً، ومن ذلك: الوفاء بالعهد مع أيِّ طرف كان، فإنه من أجمل خصال المؤمنين المتّقين الَّذين هم موضع حبِّ الله وقربه ورحمته ويتجلّى هنا بشكل رائع الربط بين الجوانب الأخلاقيّة والعاطفيَّة والعقائديَّة، حيث ينتج الإيمان بالله التقوى الحقيقيّة التي تؤدِّي إلى الأخلاقيّة العالية ممّا يجعل صاحبها محبوباً لخالقه الرحيم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلاً أُوْلَئِكَ لاَ خَلاَقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللّهُ وَلاَ يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾ أمّا الذين لا يقيمون وزناً للعهد الإلهيّ، ولأيمانهم (اليمين هو الحلف) فيبيعونها بالثمن القليل، وهو المصالح الشخصيَّة الرخيصة، فهؤلاء لا خلاق (نصيب) لهم في الآخرة، ولا يكلِّمهم الله ولا ينظر إليهم.

وهذا التعبير الشديد التأثير على النفوس كناية عن طرد هؤلاء الخائنين عن ساحة الرحمة الإلهيّة والثناء الإلهيّ والتزكية والتطهير، إذ لا يستحقُّون ذلك، وإنّما أعدَّ لهم العذاب الأليم.

ومن كلِّ هذا التهديد والوعيد، تتجلّى أهميّة الوفاء بالعهد الفطريِّ مع الله تعالى بالايمان به وحده، والعمل بنظامه وتشريعاته وجعلها مقياساً للحياة، وكذلك أهميّة الوفاء بالعهد والعمل بمقتضى اليمين والقسم فيما بين الناس، وذلك لإشاعة روح الثقة الضروريّة لكلِّ مجتمع صالح متعاون بنّاء.

﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾﴾ يواصل القرآن فضح أساليب أهل الكتاب وطباعهم، ومنها ما يذكره هنا من أنّ فريقاً من علمائهم كانوا يفترون بعض الكلام الذي يكرِّس مصالحهم وآراءهم، ويدخلونه بين آيات الكتاب، ثمّ يلوون (يميلون) ألسنتهم في قراءته، ليخيّل لسامعهم أنّه من آيات الكتاب، مع أنّه ليس منها.

وقد ورد أنّهم كانوا يبدلون صفة النبيّ محمّد ﷺ الموجودة في التوراة بكلمات لا تنطبق عليه، ثمّ ينسبونها إلى التوراة كذباً وافتراءً، ويدَّعون أنّها من عند الله تعالى، وما هي منه، ولكنَّه الكذب المتعمَّد على الله سبحانه.

﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللّهِ وَلَـكِن كُونُواْ رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾﴾ يتَّجه الكتاب الكريم هنا إلى النصارى، ويكشف تحريفاتهم العقائدية، مؤكّداً أنّ الإنسان الّذي يؤتيه الله الكتاب الهادي والحكمة والنبوّة فيصل إلى كمال الإيمان، مثل هذا الإنسان لا يمكن أن ينحرف عن رسالته، فيدعو النّاس لتأليهه هو وعبادته من دون الله، وإنّما عليه أن يدعو النّاس ليكونوا ربّانيين في سلوكهم، أي منتسبين إلى الربِّ الواحد تعالى، وذلك بواسطة ما يعلِّمونه للآخرين ويعمِّقونه في وجودهم من مفاهيم الكتاب وتعاليمه الهادية.

﴿وَلاَ يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُواْ الْمَلاَئِكَةَ وَالنِّبِيِّيْنَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾﴾ إنّ النبيَّ ـ أيَّ نبيّ ـ وهو الإنسان الكامل في وعيه وعبادته، لا يتصوّر منه

الدعوة إلى اتخاذ الملائكة والأنبياء أرباباً، إذ كيف يأمر بالكفر بعد أن كان النّاس مسلمين بالفطرة والوجدان، وبعد أن ركَّز الأنبياء السابقون روح التوحيد والتسليم في البشريَّة. وبهذا رفض القرآن أيّ اتّباع أعمى من قبل إنسان لإنسان، وأيّ عبادة لغير الله تعالى، مركّزاً على عبوديّة الإنسان لله وحده وحرِّيته في قبال أفراد نوعه.

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّيْنَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُواْ أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُواْ وَأَنَاْ مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ في إطار تنزيه الأنبياء من دعاوى أهل الكتاب بنسبة الألوهيّة والتفرّد لهم، يرسم القرآن هذا المشهد العظيم، حيث أخذ الله العهد والميثاق من النبيِّين، أنّه مهما آتاهم من كتاب وحكمة لهداية البشريَّة، ثمّ جاء بعدهم رسول من الله، فإن عليهم الإيمان به ونصرته وتقوية دعوته، وعلى الأنبياء بدورهم بعد الإقرار بهذا الإصر (العهد) أن يأخذوه من أُممهم ويتواصوا به ويكونوا شهداء عليه، والله معهم من الشاهدين.

وهكذا تتجلّى نظرة الإسلام إلى الأنبياء في وحدة دعواتهم ومنهجهم العام، فلا تعصّب ولا أنانيّة ولا تفرّد وأُلوهيّة، بل عمليّة متواصلة تقود الإنسانيّة نحو كمالها، يبشّر السابق منهم باللاّحق ويصدّق اللاّحق بالسابق لتتلاحم حلقات المسيرة المباركة.

﴿فَمَن تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾ أمّا الذين تراجعوا من الأمم عن الالتزام بالميثاق الإلهيّ وخرجوا عن خطّ التوحيد ووحدة دعواته، وآثروا التعصُّب الأعمى، فهم الفاسقون (الخارجون) عن أمر الله وميثاقه وهداه.

﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾ إنَّ دين الله هو الإسلام الحقيقيّ، فإذا صدق أهل الكتاب في دعواهم اتباع دين الله، فليتّجهوا إلى الإسلام الذي تصدّقه الفطرة والأدلّة القاطعة، والذي يعني صوغ الحياة الإنسانيّة وفق إرادة الله وتشريعاته، لتكون منسجمة مع الكون بسماواته وأرضه ومافيها من موجودات، حيث أسلم الجميع طوعاً أو قهراً لله الخالق العظيم والغنّي المطلق، إذن، فلتسلّم الإنسانيّة أمرها لله خالقها، ولترجع إليه في تنظيم حياتها، كما سترجع إليه يوم القيامة فيحاسبها على مسيرتها ومدى التزامها ميثاقه وعهده.

﴿قُلْ آمَنَّا بِاللّه وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾﴾ وإذا فسق أهل الكتاب عن عهد الله، فليعلن الإسلام على لسان نبيّه العظيم الالتزام التامَّ بالميثاق الإلهيّ، الذي يتضمَّن الإيمان الكامل بالله وبالقرآن المنزّل على الرسول ﷺ ، وبكلِّ ما أنزل على الأنبياء السابقين إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب، وأحفاده الأنبياء (الأسباط) وموسى وعيسى وغيرهم بلا أيِّ تفريق بينهم، لوحدة دعواتهم ورسالاتهم، وليعلن الجميع كذلك التسليم العمليّ التامّ لله تعالى.

﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ إنَّ الإسلام الحقيقيّ والمنهج الإلهيّ والسعادة تكمن في اتّباع ما أُنزل على النبيِّ محمّد ﷺ اتّباعاً فكريّاً وعمليّاً، وأيّ انحراف عن خطّ الرسول الخاتم ورسالته مرفوض من قبل الله، ولن يؤدّي إلاّ إلى الانهيار والضياع في الدنيا والخسران في الآخرة.

﴿كَيْفَ يَهْدِي اللّهُ قَوْمًا كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُواْ أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُوْلَئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللّهِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾﴾ إنَّ أهل الكتاب الّذين علموا من كتبهم بصدق الرسول ﷺ وصدق دعوته، وكذلك المرتدون الذين ذاقوا حلاوة الإيمان، واطَّلعوا عليه، قد أهدروا جميعاً فرصة الهداية التي أُتيحت لهم، فغدوا يعيشون حالة من الانحراف والظلم والعناد ـ رغم توفُّر الدلائل والبينات ـ لا يتوقَّع لهم معها أن يتكاملوا ويصلوا إلى الهداية الإلهيّة، بل سيكون جزاؤهم الطرد من رحمة الله، وانصباب لعنات الله والملائكة والناس أجمعين عليهم؛ لأنّهم شوَّهوا وجودهم الإنسانيّ بتعصُّبهم وعنادهم، ولأنهم عرقلوا مسيرة الخير الإنسانيّة.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا لاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾﴾ هؤلاء الذين آمنوا بادئ الأمر، وشهدوا بحقّانية الرسول وجاءتهم العلامات الواضحة، وكفروا رغم كل ذلك، هؤلاء يستحقُّون لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، والخلود في عذاب هذه اللَّعنة المتمثّل في جهنم، بلا أن يخفَّف عنهم العذاب ولا يُنظرون (يؤجَّل عذابهم إلى حين). ويتجلّى استحقاقهم لهذا العذاب الهائل، بعد ملاحظة عنادهم للحقِّ الواضح، وهو يكشف عن

خبث باطنيّ، وإصرار نفسيّ على الانحراف مهما طال الزمن، وكذلك ملاحظة ضعتهم كمخلوقات ضعيفة وعظمة خالقهم الذي عصوه، بدلاً من شكران نعمه الجزيلة.

﴿إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُواْ فَإِنَّ الله غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾ ولكنَّ باب الأمل مفتوح لهؤلاء الضالّين، كي يعودوا إلى صراط الحقّ، ويتوبوا نادمين على ما بدر منهم، وعاملين على إصلاح أنفسهم، لتشملهم رحمة الله ومغفرته.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُواْ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الأرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٩١﴾﴾ وفي قبال التائبين يعرض القرآن هنا نموذجين للعناد:

الأول: نموذج الذين كفروا بعد إيمانهم، ثمّ ازدادوا كفراً فبلغوا حداً لا يُرجى معه الصلاح والهداية والتوبة.

والثاني: نموذج المصرّين المستمرّين على الكفر حتّى الموت، وهؤلاء سوف يجزون عذاباً أليما محتّماً، لا ناصر لهم من دونه ولا شفيع، ودون أن ينفعهم ما أنفقوه في حياتهم؛ لأنهم لم يقصدوا به وجه الله، كما لن ينفعهم أن يمتلكوا بعد الموت ـ فرضاً ـ ملء الأرض ذهباً ثمّ يتصدَّقوا به فداءً من العذاب الخالد، والقرآن يذكر هذين النموذجين محذّراً الكافرين من مغبّتهما وقاطعاً تمنّيات التوبة بعد ذلك.

﴿لَن تَنَالُواْ الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّه بِهِ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾﴾ بيان لنوعية الإنفاق، وأنَّه لن يحصل المرء على البر وهو الخير المعبَّر عن الإيمان الكامل إلاّ بالبذل من كل ما يحبُّه لنفسه، وبذلك تطهر القلوب من الخسَّة والطمع، وتطفح بروح الإيثار والمحبَّة... هذا والله عليم بكلِّ ما ينفقه الإنسان وما يقصده من ورائه. ويذكر لنا التاريخ صوراً رائعة للبذل حقَّقها الفرد والمجتمع المسلم تعبيراً عمّا يتركه الدين في النفس الإنسانيّة.

﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلاَّ مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُواْ بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٣﴾ فَمَنِ افْتَرَى عَلَى اللَّه الْكَذِبَ مِن بَعْدِ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩٤﴾﴾ في مجال فضح مدَّعيات اليهود وكشف شبههم،

يتعرّض القرآن إلى شبهة يهوديَّة حول تحليل القرآن لبعض الأُمور التي زعموا أنها كانت محرَّمة في ملَّة إبراهيم عليه السلام، رغم أنّه مصدّق لها، فيردُّهم القرآن ببيان حقيقة هي أنَّ الطعام كلّه كان حلالاً لبني إسرائيل، قبل أن تنزل التوراة، والذي حدث أن يعقوب (اسرائيل) حرّم على نفسه بعض الطعام لنذر أو ضرر أصابه منه، وجاءت التوراة فحرَّمت بعض الطعام عليهم خاصَّة، عقوبة على ظلمهم، وهنا يتحدّى اليهود أن يأتوا بالتوراة فيتلوها، ليجدوا تصديق ما يقول إن كانوا صادقين في موقفهم. ولكنَّهم يفترون الكذب، ومن افترى الكذب بعد وضوح الحقّ فإنّما يظلم نفسه ويظلم الحقيقة. هذا وقد ابتليت الأمّة الإسلاميّة ـ كما اليهود ـ بوضّاعين باعوا دينهم للسلطات الغاشمة فنسجوا الأكاذيب وشوَّهوا التاريخ.

﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾﴾ إنَّ تراجع اليهود عن الإتيان بالتوراة لكشف الواقع لهو اعتراف صريح بصدق الإسلام، وهو يؤكّد إلى جنب الدلائل البيِّنة، أنَّ القرآن كلمة الله والله أصدق القائلين، وقد أخبر بأنَّ الإسلام هو امتداد أكمل لملَّة إبراهيم الحنيفة الخالصة من شوائب اليهود وشرك المشركين، فاللازم اتّباع الإسلام ونبذ الخرافات والأكاذيب.

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾﴾ شعر اليهود بقيمة تحويل القبلة إلى البيت الحرام في حياة المسلمين، فتعمَّدوا إثارة الشبهات والأراجيف، ومنها: أنَّ اتّباع الإسلام لملّة إبراهيم ينافي الاتجاه إلى الكعبة، إذ كان إبراهيم يتَّجه إلى بيت المقدس ـ حسب زعمهم ـ فردَّهم القرآن بأنَّ الكعبة هي أوّل بيت وضع للعبادة ببكة (أي مكّة التي يبكُّ ـ يزدحم ـ النّاس عندها) فقد رفع قواعدها إبراهيم وابنه إسماعيل، ودعا النّاس للحج إليها. أمّا بيت المقدس فقد بناه سليمان بن داود بعد ذلك بقرون، ومن ثمّ أعلن القرآن الكعبة محوراً للهدى العالميّ، ومركزاً لبركات الله المادّيّة والمعنويَّة، فمن المنطقي إذن اتّجاه المسلمين إليها باعتبارها أوَّل مركز للتوحيد والهدى.

﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ الله غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾ وفي بيت الله الحرام آيات وعلامات واضحة، تدلُّ على عظمته وحرمته واتّصاله بملّة إبراهيم، وأوّلها: مقام إبراهيم،

وهو الحجر الذي كان يقف عليه عند بناء البيت أو حين العبادة، والثاني: الأمن لمن دخله، وهي سنَّة تاريخيّة متَّصلة به عليه السلام وأقرَّها الإسلام ودعا إليها، والثالث: فريضة الحجّ التي بدأت بأذان إبراهيم ودعوته النّاس ليأتوا إليها من كلِّ فج، واستمرَّت عند العرب حتّى ظهور الإسلام، إذ أقرها بعد أن هذَّبها من الخرافات التي علقت بها.

وتتجلّى في الحجّ معان جليلة: كتعميق الإرتباط بالله، وتركيز توحيده بالطواف حول مركز التوحيد، والشعور بالعمل والتضحية في سبيلها، وطلب المغفرة والتوبة، واستحضار التاريخ المؤمن، وتجلّي عظمة الدين بإثارة مشاعر الوحدة والأخوّة والمساواة، والتعرّف على مشاكل المسلمين، ونشر المعارف الإسلاميّة فيما بينهم. والحجُّ واجب على المستطيع من حيث القدرة الماليَّة والجسديَّة، فمن كفر بهذه الفريضة وتركها عامداً فإنما يخسر عطاءها الكبير، ولن يضر الله شيئاً؛ لأنه غنيّ عن طاعة العالمين. قال أمير المؤمنين عليه السلام: (وجعله ـ أي البيت الحرام ـ سبحانه علامة لتواضعهم لعظمته، واذعانهم لعزّته، واختار من خلقه سمّاعاً أجابوا إليه دعوته، وصدّقوا كلمته، ووقفوا مواقف أنبيائه، وتشبَّهوا بملائكته المطيفين بعرشه، يحرزون الأرباح في متجر عبادته، ويتبادرون عنده موعد مغفرته، جعله سبحانه وتعالى للإسلام عَلَماً، وللعائذين حرماً)[١].

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللّهِ وَاللّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَاء وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾﴾ توبيخ لأهل الكتاب على كفرهم بآيات الله، بتحريفها وكتمانها، وصدِّهم (منعهم) عن سبيل الله والطريق الحقّ الذي يحقّق مصالح البشريّة وسعادتها، دون السبيل الأعوج الذي يبغونه، ليجرّوا البشريّة إلى الدمار. كلُّ هذا وهم يعلمون بانحرافهم، وكأنهم غافلون عن أنّ الله شاهد عليهم ولا يغفل عما يقومون به.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوَاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ﴿١٠٠﴾﴾ تحذير للمؤمنين من اتّباع بعض أهل الكتاب ـ ولعلَّهم اليهود ـ إذ يؤدّي ذلك إلى الارتداد للكفر بعد الإيمان.

---

١ . نهج البلاغة، الخطبة١، ص٤٥، د. صبحي الصالح.

﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَصِم بِاللّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ كيف يكفر المسلمون بالله والإسلام بعد وضوح الحقّ لهم، عبر آيات بيّنات تُتلى عليهم، وبعد وجود رسول الله ﷺ بين ظهرانيّهم يحمل دلائل صدقه في سلوكه وأقواله ومعاجزه، ويرسم لهم الطريق الوحيد للهدى، فإذا سار المسلمون عليه فقد اعتصموا بالله وهُدوا إلى صراط مستقيم حتماً.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ إرشاد قرآنيّ لحكم العقل بطاعة المولى الحقيقي، والمنعم الوحيد على الكون والإنسان بالوجود والخير وسائر النعم، ولا يتمّ ذلك إلاّ بالتسليم الحياتيّ الكامل له تعالى، والثبات على ذلك حتّى الموت، ولما كان الموت غير معروف الأجل، فعلى المؤمن أن يمتحن إسلامه دائماً ويراقب سلوكه، لئلا يموت وهو غير مسلم. قال الإمام الصادق عليه السلام في معنى (حق تقاته): «يطاع ـ أي الله ـ فلا يعصى، ويذكر فلا ينسى، ويشكر فلا يكفر»[١].

﴿وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُواْ وَاذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىَ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ بعد دعوة القرآن لتقوى الله الحقّة تأتي الدعوة المهمّة للاعتصام المجموعي (الارتباط التام) بحبل الله، مما يحقّق الوحدة الإنسانيّة التي تشكّل العقيدة أساسها، وهي رابطة تسمو على الروابط القوميَّة والوطنيَّة والمصلحيَّة وأمثالها. وفي الآية تذكير للمسلمين بحالتهم المزرية في الجاهليّة، حيث العداوة الطاحنة، وحيث كانوا على شفا (حافّة) حفرة من نار الضياع والضلال الأخلاقي والعقائدي، فأدركتهم نعمة الله فعادوا إخواناً على منهج واحد والى هدف واحد، واتّصفوا بأروع الصفات الحميدة، وساروا صعداً نحو الهدى بعد أن مدّت السماء إليهم حبلها المتين وهو القرآن الكريم، والرسول الحامل للقرآن، وأهل البيت عليهم السلام الذين جعلهم الله حفظة للشريعة بعده ﷺ ، كما ورد في أحاديث كثيرة، منها: ما عن أبي سعيد الخدري، عن النبي ﷺ قال: (إني قد تركت

١. وسائل الشيعة، ج ١٥، ص ٢٣٥.

فيكم حبلين؛ إن أخذتم بهما لن تضلُّوا بعدي، أحدهما أكبر من الآخر: كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي، ألا وإنّهما لن يفترقا حتّى يردا عليَّ الحوض)[١].

وفي الآية كذلك درس رائع للمسلمين، يدعوهم دائماً لنبذ حالات الجاهلية، والتمزُّق، والابتعاد عن حبل الله، ويؤكّد لزوم العودة إلى نعمة الله العظمى (الإسلام).

﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ الإسلام دين الإنسانيّة القائد، والأمّة الإسلاميّة هي الأمينة عليه، فمن الطبيعي أن تعنى بأمر نشره على الصعيد العالميّ، وتطبيقه التام في مجالها الحياتيّ، وتوكل أمر متابعة ذلك إلى أمّة (جماعة) منها. وربّما كان المقصود أن تجعل من نفسها الأمّة الداعية للخير والحضارةالصحيحة، الآمرة بالمعروف، الناهية عن المنكر، ولا يتمّ ذلك إلا بعد معرفة المعروف والمنكر بالدقّة، واتخاذ أفضل الأساليب في الأمر، مع مراعاة عنصر المرونة والموعظة الحسنة. وقد ورد عن النبيّ ﷺ قوله: (لتأمرنَّ بالمعروف، ولتنهنَّ عن المنكر، أو ليستعملنّ عليكم شراركم، ثمّ يدعو خياركم فلا يستجاب لهم)[٢].

﴿وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَاخْتَلَفُواْ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُواْ الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٠٧﴾﴾ تحذير للمسلمين من الفرقة والتنازع، وتذكير بمصير أهل الكتاب الذين لم ينتفعوا بآيات الله الواضحة إذ سيلقون العذاب الخالد يوم القيامة، حيث تبيضّ وجوه المؤمنين، معبِّرة عن طهارتهم وإخلاصهم، وتسودّ وجوه العاصين لظلمهم وتفرُّقهم، وذلك بعد أن يؤنَّبوا على كفرهم بعد الإيمان. وممّا يؤسى له أنّ بعض المسلمين لم يستفد من هذا التحذير وسلك نفس المسلك، وقد قال رسول الله ﷺ: (لتركبنَّ سنن من كان قبلكم... حتّى ولو دخلوا جحر ضبّ لدخلتموه)[٣].

---

١. الكافي للكليني (ج١ ص ٢٩٤)، (الأمالي للصدوق ص ٥٠٠)، مسند احمد (ج ٣، ص ١٤ و ٢٦)، مسند أبي يعلى (ج٢ ص ٣٠٣)، المعجم الصغير للطبراني ج١ ص ١٣١) وغيرها كثير.

٢. الكافي، ج ٥، ص ٥٦.

٣. بحار الأنوار، ج ٥١، ص ١٢٨.

﴿تِلْكَ آيَاتُ اللّه نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ إنّ القرآن إذ يتحدّث عن آيات الله، ويذكّر بالثواب والعقاب الأخرويين بالحقّ، فإنما يهدف لهداية الإنسان وتحذيره من الانزلاق إلى الهاوية، وحينها يكون العذاب جزاء طبيعياً للمنحرفين، بدون أي شائبة ظلم في البين، وانما يحتاج للظلم الضعيف.

﴿وَلِلّه مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِلَى اللّه تُرْجَعُ الأُمُورُ ﴿١٠٩﴾﴾ أن لله ما في السماوات والأرض وإليه مرجع الأمور كلها

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّه وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾﴾ تكريم للأُمّة المسلمة بجعلها خير أُمم الأرض؛ لأنّها تحمل خاتمة الرسالات لا لنسب أو قوميّة ـ كما نجد ذلك عند اليهود ـ ، والمسلمون يحتلُّون هذا المنصب ماداموا يحملون الرسالة، فيأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، ويقيمون حياتهم على الإيمان بالله، والمجال مفتوح للجميع، كي يدخلوا في هذه المسيرة الطليعيّة، إلاّ أننا نجد أن فئة من أهل الكتاب قد وفِّقت لذلك، ونكص أكثرهم وفسقوا (أي خرجوا) عن المنطق السليم.

﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلاَّ أَذًى وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الأَدُبَارَ ثُمَّ لاَ يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾﴾ يضمن القرآن للمسلمين النصر على اليهود ما داموا مؤمنين به، آمرين بالمعروف ناهين عن المنكر، ويخبرهم أنّ أعداءهم لن يستطيعوا إلحاق الضرر البالغ بهم، إلا ما كان من قبيل الأذى، كالسبّ والجراح وعرقلة الجهود، أمّا النصر النهائيّ فهو للمسلمين، إذ لا ثبات لأعدائهم في القتال، وسرعان مايولّون الأدبار (ينهزمون) وليس لهم بعد ذلك من ناصر.

﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُواْ إِلاَّ بِحَبْلٍ مِّنْ اللّه وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَآؤُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللّه وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللّه وَيَقْتُلُونَ الأَنبِيَاء بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾﴾ عصى اليهود أوامر الله واعتدوا على خلقه، حتّى أنّهم كذّبوا بآيات الله وقتلوا الأنبياء المصلحين ظلماً، فحلَّ عليهم غضب الله، وضربت (كتبت) عليهم الذلّة والمسكنة، والإحساس بالحقارة والهزيمة الداخلية أينما ثقفوا (وجدوا) فلا نجاة لهم من ذلك ولا مفرّ، إلاّ بحبل (سبب) من الله بأن يعودوا إلى صراطه المستقيم

ومنهجه الحقّ، أو بأن يستفيدوا مما جعله الله لهم من حقوق الذمّة في المجتمع الإسلاميّ، أو بسبب من النّاس حين يعقدون تحالفاً مع الآخرين، يوفّرون به لأنفسهم الحماية والأمن.

﴿لَيْسُواْ سَوَاء مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللّه آنَاء اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللّه وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُوْلَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوْهُ وَاللّه عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾﴾ القرآن لا يدين جنساً أو شعباً بأكمله، وإنّما يركّز على العمل والسلوك، فها هو يوضّح أنّ الذلّة التي ضُربت على بني إسرائيل كانت نتيجة أعمالهم وانحرافهم، ولذا فهي لا تشمل القلّة الواعية التي انضمت إلى الرعيل المسلم، نابذة بذلك حقدها وتعصبها الذميم، ومتّصفة بسمات المسلمين من القيام بالحقّ والعمل به، وتلاوة آيات الله في آناء (أوقات) الليل، حيث الصفاء النفسيّ والهدوء، والسجود تضرّعاً وخضوعاً لله، والإيمان بالله تعالى واليوم الآخر، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والمسارعة في الخيرات، مما يجعلهم من الصالحين عقيدة وسلوكاً وعملاً، ولن يكفر (يُعدم) هؤلاء ثواب ما عملوا من خير وإحسان، أملاه عليهم صلاحهم وتقواهم الذي يعلمه الله، وسيجزيهم بمقتضاه الجزاء الأوفى والنعيم الخالد.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُم مِّنَ اللّه شَيْئًا وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١٦﴾﴾ إنّ كل الذرائع المادّيّة للكافرين، من الأموال والبنين والتي كانت تمهّد لهم السيطرة وتمنع عنهم الأذى في الدنيا، لن تغني (تمنع) عنهم من عذاب الله يوم الفزع الأكبر، حيث يواجهون أعمالهم السيّئة وانحرافهم العميق، الذي جرّهم إلى الخلود في النار.

﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هِذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللّه وَلَكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾﴾ وربما يقوم الكافرون في الدنيا ببعض الأعمال النافعة كالإنفاق لأغراض خاصة، من سمعة أورياء أو عاطفة، إلاّ أنّها إذ لم تكن نابعة من إيمان ونية خالصة، منسجمة مع باقي الأهداف الإنسانيّة العامة، فإنها ليست ذات قيمة أخلاقيّة في موازين الله، ولذا تشبّه الآية مثل هذه النفقات بحرث (حقل) خصب ثارت به ريح عاصفة فيها صرّ (برد شديد) فدمّرته عن آخره، نتيجة سوء تصرّف صاحبه وظلمه لنفسه في عدم اتّباعه السبيل الصحيح.

وهكذا، فالإسلام يركّز على نيّة العمل قبل العمل نفسه؛ لأنّ النيّة الصالحة تكشف عن تأصّل للخير في النفس، وسموّ معنويّ يشكّل منبعاً لتكرّر العمل في المستقبل.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لاَ يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاء مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَاأَنتُمْ أُوْلاء تُحِبُّونَهُمْ وَلاَ يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُواْ آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾﴾ تحذّر هذه الآيات المؤمنين ـ أينما كانوا، وفي أيّ عصر وجدوا ـ أن يتّخذوا من أعدائهم الكتابيين وغيرهم بطانةً (مستشارين وموضع ثقة)؛ لأنَّ هؤلاء يخالفونهم في العقيدة والهدف، ويعملون على اقتناص الفرص لضربهم والقضاء عليهم، فهم لا يألون (يقصّرون) في إلحاق الخبال (الشر وعدم الاتزان) بالمسلمين، وتراهم يتمنّون أن يقع المسلمون في العنت (التعب) نتيجة الأزمات والتفسّخ والهزائم، وإذا كانت أفواههم لا تلوح منها إلاّ بعض أمارات البغضاء والحقد، فإن قلوبهم تحمل حقداً أكبر فاض ـ رغم كل وسائل الإخفاء ـ فبدا بعضه على ألسنتهم. ولكن بعض المسلمين انطلت عليهم حيل الأعداء، ودفعتهم بعض العواطف اللاّواعية فمنحوهم حبّاً وثقة لا يبادلهم أعداؤهم مثلها.

وقد دعاهم القرآن إلى أن يلتفتوا إلى الفارق العقائدي الكبير، المتجلّي في إيمان المسلمين، بالكتب المنزلة من الله كلّها والالتزام بمقتضياتها، ورفض الأعداء لذلك وعدم إيمانهم بكامل الشريعة والكتب الإلهيّة. كما كشف القرآن عن نفاق هؤلاء بإنّهم إنما يعلنون الإيمان عند لقائهم بالمسلمين، فإذا خلوا إلى أنفسهم أكلهم الحقد وعضّوا أناملهم (اطراف أصابعهم) من الغيظ على المسلمين الذين نصرهم الله على أعدائهم، وفتح لهم سبل الخير والكمال، وهذا الحقد لابُدَّ وأن يدفعهم للكيد والتآمر، إلاّ أنّ الله تعالى يسخر من كيدهم ويدعهم يتعذّبون بهذا الحقد المميت، الذي لن يخفى على الله العليم بمكنونات الصدور.

ومن شأن هؤلاء أن يغمرهم الحقد والحزن والأسى، فيما إذا فتح الله على المسلمين خيراً أو

منحهم نصراً وحسنة، في حين يستولي عليهم الفرح والسرور عندما تنزل بالمسلمين نازلة ومصيبة.

وهكذا يكشف القرآن بوضوح نفسيّة أعداء الدعوة الإسلاميّة، وحقدهم وتآمرهم الدائم عليها، ليحذرهم المسلمون، فلا يعقدوا معهم أية روابط يمكن أن تشكّل ثغرات، ينفذون من خلالها إلى جسم الأمّة، ومن هنا يدعوهم القرآن إلى التسلُّح بالصبر والطاعة الكاملة لمنهج الله والاعتماد على قوته التي تدع القوى الأخرى هباء، وتكشف كلَّ خططها؛ لأنَّ الله محيط وعالم بها كلَّ العلم والإحاطة.

والتأريخ الإسلاميّ يكشف عن الدور التآمري الكبير الذي لعبه المستشارون اليهود وغيرهم، ممن قرَّبتهم الأجهزة الحاكمة، مما جرَّ على المسلمين الوبال والضياع، وإنّ وجود الجيش الهائل من المستشارين الأجانب في شتّى المجالات في الأقطار الإسلاميّة اليوم، لدليل حيّ على بعدنا عن إرشادات القرآن وتحذيراته.

﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّىءُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللّه سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾﴾ مصداقاً لما تقدَّم من تآمر أعداء الإسلام ونفاقهم، تذكِّر الآية بواقعة (أحد) المهمّة ودروسها، حيث خرج الرسول ﷺ غدوة ـ الصباح الباكر ـ من أهله في المدينة يبوّئ (يهيّئ) للمؤمنين أماكن القتال ويوزّعهم عليها، فانطلقت إشاعات الأعداء التي علم الله بها وفضح مضامينها.

﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلاَ وَاللّه وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللّه فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللّه بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُواْ اللّه لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ وحيث همَّت (عزمت) طائفتان من المسلمين أن تفشلا وتتراجعا نتيجة التقوّلات والحرب النفسيّة، ناسيتين أنّ وليَّهما الله، الذي يجب أن يتَّكل عليه المؤمنون في مسيرتهم الجهاديَّة المظفرة، هذا وان عنصر التوكُّل ليقوّي أمل الإنسان بالانتصار، أفلم ينصر الله المسلمين في بدر، على الرغم من ذلّتهم ـ أي قلّتهم وضعفهم ـ؟ فليتسلَّحوا بتقوى الله التي تجرُّهم إلى شكره تعالى، بتحقيق مقتضيات الخلافة في الأرض.

﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلاَثَةِ آلاَفٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَى إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ وعد النبيُّ ﷺ المؤمنين ـ وهم قلَّة ـ في بدر بنصر

إلهيّ حسّي، يتمثَّل في ثلاثة آلاف من الملائكة منزلين، لمشاركتهم في معركتهم المصيريَّة. فإذا صبر المسلمون، وثبتوا في الميدان، وأطاعوا أوامر الرسول ﷺ بمقتضى التقوى، فإن الله يضمن لهم ـ إذا أتاهم العدو من فورهم (أي بغتة) وهاجمهم ـ أن يمدّهم بخمسة آلاف من الملائكة مسوِّمين (أي لهم علامات مميَّزة أو يسومون الأعداء الهوان) وعلى المسلمين أن يعوا هذا في كلّ معاركهم، إذ الإرادة الواعية لهدفها والمعبَّر عنها بالصبر والتقوى هي الشرط الرئيس لطلب المدد الإلهيّ وتحقيق الانتصار.

﴿وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إِلاَّ بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾﴾ كان المدد الإلهيّ للمسلمين بالملائكة بُشرى سماويَّة تثبِّت قلوبهم وتطمئنها، وليعلموا أنَّ الأمور كلّها بيده تعالى ولا حول ولا قوّة إلاّ به، وهذا المدد يوجد التوازن النفسي المطلوب بين ثقة المسلم بنفسه وعمله وإيكاله الأمر له ـ تعالى ـ.

﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُواْ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾ لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذَّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٢٨﴾ وَلِلّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاء وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاء وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾﴾ إنَّ الأمور كلّها بيد الله لا غير؛ لأنَّه المالك الحقيقيّ لما في السماوات وما في الأرض، يغفر لمن يشاء ويعذِّب من يشاء وفقاً للحقِّ والحكمة. ومن هنا فله تعالى ـ بعد أن نصركم ببدر أن يقطع طرفاً من الذين كفروا ـ أي يضعفهم ويشلَّ حركتهم ـ أو يكبتهم ويذلّهم بالهزيمة والرجوع بالخيبة، أو يتوب عليهم، أو يعذبهم بظلمهم وضلالهم. وهكذا يعيش الإنسان بين خوف من عذاب الله ورجاء لتوبته ومغفرته. ثمّ إنَّ الأمور لما كانت بيد الله فلا معنى لتحميل النبي ﷺ أيَّ عاقبة أو مسؤوليّة ليست له يد فيها.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَأْكُلُواْ الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَاتَّقُواْ النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿١٣١﴾﴾ وفقاً لأساليب القرآن في علاج الأدواء الاجتماعيّة المختلفة، وللتنوّع في العرض نجده ينتقل من الحديث عن الضعف في ميادين القتال إلى الضعف في البناء الداخلي، والمتمثّل في (الربا) لينهى عن أكله أضعافاً مضاعفةً، ولعلَّه بهذا يحرِّم نوعاً من الربا الجاهلي الفاحش متدرجاً في تحريم الربا، أو أنّه يشير إلى طبيعة النظام الربوي المؤدية إلى تراكم الديون، خصوصاً على المستهلكين للمال المقترض.

هذا، وأنّ للربا آثاره الاقتصادية والنفسيَّة الأخلاقيّة المدمِّرة للمجتمع، وهو يجعل المرابي يتحين فرص احتياج المجتمع ليرفع السعر، كما يؤدّي إلى خزن مقدار كثير من المال المقوِّم لحياة المجتمع إشباعاً للجشع والطمع. وكعادة القرآن يؤطِّر حكمه هذا بإطار التقوى الإلهيّة، ليتحقَّق الفلاح الاجتماعيّ بعد الالتزام الكامل به، محذّراً من النار التي أعدَّت لكلِّ من سوَّلت له نفسه مخالفة أحكام الله والكفر بها.

﴿وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ لن تصيب الرحمة الإلهيّة مجتمعاً إلاّ إذا توفر على أرضية صالحة هي طاعة الله والرسول المبلّغ عنه، والتي هي أمر طبيعيٌّ يأمر به العقل قبل كلِّ شيء.

﴿وَسَارِعُواْ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ دعوة للتنافس في الخير والفوز بالغفران الإلهيّ، وجعله سمة اجتماعيّة عامّة، تمحو الأنانيّات وتشيع الصلاح، وبإضافة المسارعة للمغفرة، تشير الآية لسرعة تحقّق نتيجة العمل الخيّر، حيث ينعم الإنسان بجنّة هي أقصى ما تكون من السعة المعبَّر عنها ب«عرضها السماوات والأرض»، وقد أعدّت لمن سلكوا سبيل التقوى ومراقبة الله. والقرآن بهذا يمهّد لذكر بعض صفات المتّقين، لإصلاح ما أصاب المجتمع المسلم من انهيار نفسيّ، بعد غزوة أحد، وإعدادهم للمعارك المقبلة.

﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاء وَالضَّرَّاء وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾﴾ بعد التمهيد السابق، يعرض القرآن لبعض أهمِّ صفات المتّقين الأخلاقيّة وهي: الإنفاق حال العسر واليسر، إذ يعبِّر عن وثوق بالله ـ تعالى ـ وقيام بالواجب الإنسانيّ. وكظم الغيظ، وهو كبح الغضب الهائج الذي يحتفظ للإنسان بتعقّله، ويمنعه من الانتقام وتقطيع العلائق. والعفو عن الناس، وهي المرحلة الأخلاقيّة الأسمى التي لو راعاها المجتمع في مواردها الصحيحة لسادته العواطف الواعية، وأخيراً؛ يدعو القرآن للإحسان بكل معانيه وموارده وجعله إطاراً عاماً للسلوك، مما يجعل المجتمع مجتمع المحسنين الذي يحبُّه الله ويغمره برحمته.

﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُواْ أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُواْ اللّهَ فَاسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَى مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُوْلَئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ

وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾ الأصل في المتّقين الإحسان، أمّا أنْ يسيئوا بفعل الفاحشة (وهي الفعل القبيح) ـ كالزنا مثلاً ـ أو يسيئوا بظلم أنفسهم ومنعها ما تستحقّه من سير تكامليّ، فهذه حالة طارئة في حياتهم قد يبتلون بها لضعفهم، ولكن سرعان ما يعودون إلى الله ـ تعالى ـ فيذكرون عظمته وآلاءه ووعده بالخير ووعيده بالعذاب، ويستغفرونه ـ ولا غافر سواه ـ ومن ثمّ يرفضون البقاء على حالة الذنب، وإنّما يتحوَّلون إلى عالم الإحسان بوعي واخلاص وعزم أكبر؛ لينالوا أجر العاملين، وهو التنعّم الخالد في الآخرة بجنَّات تجري من تحتها الأنهار.

﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانْظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذَّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾﴾ يعترف الإسلام بالقوانين التاريخيَّة العامَّة، المتحكّمة في المسيرة الإنسانيّة بمقتضى إرادة الله وحكمته، ودون أن تفقد الإنسان إرادته، بل تترك له الخيار في أن يكون موضوعاً لقانون الانحطاط أو سنَّة الكمال.

وهذه القوانين التكوينيّة هي لصالح المسيرة الإنسانيّة الصحيحة أصلاً في نظر الإسلام؛ فالعاقبة للمتّقين، والنصر للمؤمنين، والفناء الحضاري للمكذّبين. وبهذا الإعلان ـ كما يبدو ـ تطرح خطوات علاج الحالة بعد أحد.

وهكذا نجد القرآن يدفع المسلم لتخطّي محيطه الخاص، والسير في آفاق الأرض، ودراسة المجتمعات وأسباب انحطاطها ورقيّها، ليكون أقرب إلى الواقع، وينتخب السبيل الأصلح لا ليبني متاحف أثريَّة جامدة يفتخر بها، ويعود إلى حالة من الوثنيَّة التاريخيَّة ـ كما نجده عند المسلمين اليوم ـ والواقع إنّ على الإنسان أن يشخِّص هدفه، ثمّ يكون موضوعيّاً يتقبَّل الهدى الإلهيّ ليحيله إلى عمل صالح، ولا تتحقّق الموضوعيَّة إلاّ بالتقوى.

﴿وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاء وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾﴾ سنَّة إلهيّة تؤكّد أنَّ المؤمن الملتزم هو الأعلى حتّى في هذه الحياة، وأن لا معنى للضعف والهوان والحزن وفقدان الإرادة، بعد معرفة سبب الهزيمة الحقيقي، وهو فقدان روح الإيمان والالتزام بمقتضياته. وبهذا ترفع الآية معنويّات

المسلمين المنهارة بعد معركة (أحد) وتذكِّرهم بأنَّ القرح (الجرح) الذي أصابهم أصاب عدوَّهم أيضاً، فلا معنى للضعف بعد وعد الله بالنصر، وأنَّ الأيام يداولها (ينقلها) الله بين الأمم تبعاً لأعمالها واختيارها، وليس هناك نصر أو هزيمة أبديان. وسنَّة المداولة قائمة على أساس مصالح عامّة لها دخلها في تحقيق التفاعل الحضاري البشري، ودفع الإنسانيّة للتكامل. وإيمان المسلم بهذا يمنع هزيمته النفسّية

﴿وَلِيُمَحِّصَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴿١٤١﴾﴾ كما أن من نتائجها هذا التمحيص الرائع للمؤمنين وانتهاء الأمر إلى تجلّي نماذج إيمانيَّة سامية تشكّل الفئة الشاهدة (المقدَّمة) على الأمّة والبشريَّة. نعم؛ لهذا التداول أثره في تطهير نفوس المؤمنين وظهور جوهرهم، فيعلم الله الذين آمنوا بإظهار واقعهم ويفني الكافرين.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللّهُ الَّذِينَ جَاهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ إنَّ الانتماء لمعسكر الإيمان، قولاً ونسبةً مجرَّدة، لا يكفي لحصول النصر ودخول الجنّة، وإنّما جرت سنَّة الله في الامتحان بالبلاء والمصاعب، لتبدو الفروق الحقيقيّة بين المؤمنين، فيمتاز واقعاً؛ المؤمن المجاهد الصابر عن الآخر المتخاذل غير الثابت على الحقّ.

﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾﴾ تذكير للمسلمين بتمنّيهم السابق للموت في سبيل الله، واستنكار لعدم صدق ذلك التمنّي بالهزيمة في أحد، والفشل في الامتحان وعند الرؤية الحسيّة للموت، حيث حمي الوطيس.

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىَ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ خلال علاج القرآن لنقاط ضعف المسلمين، يتعرَّض إلى النظرة الضيِّقة لنوعيَّة الارتباط بالنبيّ ﷺ والتي جعلتهم يعلِّقون ثباتهم، بل وإيمانهم على حياته ﷺ ، وما أن شاع قتله ﷺ حتّى رأيتهم يفرّون يائسين.

روى ابن هشام؛ إنّ أنس بن النضر انتهى إلى مجموعة من المسلمين آنذاك، وقد ألقوا بأيديهم، فقال: ما يحبسكم؟ قالوا: قتل رسول الله، قال: فماذا تصنعون بالحياة بعده؟ فموتوا على ما مات عليه رسول الله، ثمّ استقبل القوم فقاتل حتّى قُتل. وقد صحَّحت الآية هذا التصوُّر، وأعلنت أنّ المسلمين يجب أن يحملوا الإسلام على مدى العصور للعالم، كهدف سام

يعمل المسلمون على تحقيقه، حتّى بعد وفاة الرسول ﷺ، إذ ما هو إلا رسول أدّى رسالته كما أدّى الرسل من قبله رسالاتهم، فلتحمل الأمّة رسالته ﷺ وتواصل السير بثبات. وأيُّ تراجع وتقهقر إلى الجاهليّة لا يعني إلاّ الشقاء، وتضييع العزّ والهدى، ولن يضرَّ الله شيئاً، وسيجزي تعالى الشاكرين الثابتين على الحقّ والصامدين في معارك الجهاد الجزاء الأوفى.

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلاً وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٥﴾﴾ إنَّ عملية الموت تتمّ وفق آجال مكتوبة ونظام متقن، قائم على حكمة إلهيَّة، أمّا الجهاد أو الفرار فلا يؤثّران في ذلك، وعليه، فلا ينبغي أن يكون الموت مخيفاً للمؤمن ومانعاً له عن حمل مسؤوليّاته الكبرى، خصوصاً بملاحظة أهدافه التي تتجاوز الدنيا إلى عالم الخلود. أما ذوو الأهداف الدنيويَّة الرخيصة كمن خالفوا أوامر النبي ﷺ أو قاتلوا للحصول على الغنائم، فقد يحصلون على شيء منها لا قيمة له في حساب الله، والفائزون حقاً هم الشاكرون الصابرون.

﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا اسْتَكَانُواْ وَاللّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُواْ ربَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَآتَاهُمُ اللّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾﴾ وما أكثر الطلائع المجاهدة في التاريخ، والتي قاتلت تحت ألوية أنبيائها محقّقة بذلك ربيِّتها (أي انتسابها الكامل للربّ) بلا ضعف ودون أيّ استكانة (تضرع) للظالمين الطواغيت، بل تذرعت بالصبر واحتسبت ما أصابها في سبيل الله، فعادت موضع حبِّه الذي يعني الرحمة الفائضة، ولم تهزّها النوازل فتتبرَّم وتيأس وتفشل، بل أعلنت شعار اللجوء إلى الله في كلِّ شيء وطلب غفران النقص والزلل والإسراف، والضعف الذي يصيبها أحياناً، وذلك لتجنِّد كلَّ حياتها لله، وتثبت على الصراط المستقيم، وتنتصر على عدوِّها الكافر.

وهكذا لم تنسَ تربية نفسها واللجوء إلى الله في كلِّ المواقف الحرجة فآتاها الله النصر الدنيويّ، والعزّة والجزاء الأخرويّ الجزيل لقاء إحسانها. فليعتبر المسلمون ويواصلوا ـ بنفس الروح ـ حمل مشعل (الربّانية).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوَاْ إِن تُطِيعُواْ الَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ

خَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ اللّهُ مَوْلاَكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ ﴿١٥٠﴾﴾ دعوة قرآنيّة لقطع روابط الطاعة والاستماع لنصائح الكافرين، والاعتماد على خططهم، بعد وضوح أهدافهم الماكرة في العمل على إرجاع المسلمين إلى جاهليَّتهم السابقة. وهل هناك أسوأ من هذه العاقبة، والخسران الواضح والحرمان من هدى السماء؟ أمّا روابط الولاء الحقيقيّ فهي التي تشدُّ العباد بالله مولاهم الحقّ، خالق الكون، والمنعم عليه، والماسك بيده أسباب النصر، فهو خير الناصرين، وليس بريق الكفار ووعودهم إلاّ السراب الموهوم.

﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُواْ الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُواْ بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾ إذا صدق المؤمنون في طاعتهم، منحهم الله الثقة بأنفسهم ـ مهما قلّوا ـ وألقى الرعب والهلع في قلوب أعدائهم الكافرين ـ مهما كثروا ـ لأنَّ هؤلاء بكفرهم إنما يستندون إلى خيال ووهم يتصوَّرونه شريكاً لله تعالى دون أيِّ سلطان (دليل وبرهان) فإذا رجعوا لأنفسهم انكشف لهم وهمهم، وغمرهم الرعب من الله الذي سيجزيهم النار التي أعدَّها لهم، نتيجة ظلمهم لوجدانهم وعقولهم.

﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾﴾ كان الوعد الإلهيّ بالنصر وعداً حقيقيّاً، رأى المسلمون صدقه عند ثباتهم وإطاعتهم، فراحوا يهزمون المشركين ويحسُّونهم (يستأصلونهم) بإذن الله ونصرته لهم، ولكنَّ المسلمين فقدوا شرط النصر والعون الإلهيّ وهو الصبر والتقوى، وابتلوا بالفشل والتنازع في أمورهم، وعصى بعضهم أوامر النبيّ ﷺ واجتهدوا في مقابل نصّه ﷺ بالبقاء على الجبل، مهما كانت نتيجة الحرب، فتركوا مواقعهم ليحصلوا على جزء من الغنائم الدنيويّة، في حين صمد آخرون، مؤثرين الشهادة وابتغاء الآخرة.

وكانت النتيجة أن صرف الله المسلمين عن إلحاق الهزيمة بالكافرين، بل دارت الدائرة عليهم، ليمرُّوا بتجربة مرَّة وامتحان صعب، فيعودوا إلى ذواتهم، ويكتشفوا مكامن الضعف فيها، فيقوّموها استعداداً لميادين الجهاد المقبلة، وليحصلوا على رضا الله وعفوه عنهم، وينعموا بفضله العميم.

﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلاَ تَلْوُونَ عَلَى أحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غُمَّاً بِغَمٍّ لِّكَيْلاَ تَحْزَنُواْ عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ مَا أَصَابَكُمْ وَاللّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ ويستمرُّ القرآن في استعراض صور الهزيمة في (أُحد) فيذكِّر المسلمين بحالتهم حين اصعدوا (ابتعدوا وأمعنوا في الفرار وهو غير الصعود الذي يعني الارتقاء إلى المكان العالي) دون أن يلووا (يلتفتوا) على أحد من المسلمين، حتّى أنّهم خلّفوا رسولهم الذي كان يدعوهم من ورائهم للعودة والقتال، إلى جانب من ثبت معه من القلَّة المؤمنة الشاكرة.

وقد أثابهم الله بنعمة الندم والغمّ، لينقذوا أنفسهم فلا يحزنوا على النصر الفائت والهزيمة النكراء التي أصابتهم، وربما قيل إنّ الله ابتلاهم بغمِّ الهزيمة، جزاء على غمّ التنازع فيما بينهم، فيجب أن لا يحزنوا على ما فاتهم من النصر، وما أصابهم من الهزيمة؛ لأنّه نتيجة طبيعيَّة لما عملته أيديهم، أو أن الله عاقبهم بغمّ الهزيمة، جرّاء الغمّ الذي تركوه في نفس النبيّ ﷺ.

﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَى طَآئِفَةً مِّنكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لاَ يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾﴾ شمل الله طائفة من المؤمنين بفضله، فألقى عليهم أمناً يتمثّل بالنعاس، مما أذهب الكثير من تعبهم، وطمأن قلوبهم فقويت نفوسهم على منازلة العدو.

في حين بقيت طائفة أُخرى نهباً للحيرة والخوف، إذ لم تتجاوز همومها الضيّقة إلى الهموم الرساليّة الكبرى، وراحت تتساءل عن إمكان النصر وهل لهم فيه نصيب، وذلك بالرغم من وعود القرآن بالنصر، وكان هذا تساؤلاً جاهليّاً، ردَّه القرآن بأنَّ أمر النصر كلّه بيد الله يؤتيه وفقاً لحكمته وشروطه، ولا ينفع المؤمنين مجرّد الانتساب اللفظي لله تعالى.

وهكذا تخفي هذه الطائفة في نفسها ما لا تبدي وتظهر، وإنها تتساءل أيضاً عن النصر، وعن صحَّة تخطيط النبيّ ﷺ وصدق وعوده، وإلاّ فلماذا قُتل رجالها في المعركة، وهذا إنكار منهم لحقيقة النصر الإلهيّ للمؤمنين العاملين، وهي حالة جاهليّة حاول القرآن أن

يعالجها ببيان أن أمر النصر كلّه بيد الله، وقد جعل له شروطاً، وأنّ هناك نظاماً للآجال والموت لا يتعدّاه أيّ إنسان، وأنه هو الذي يتحكّم في البين، فحتى لو اختاروا البقاء في بيوتهم، لخرج من كُتب عليهم القتل إلى حيث يستشهدون. وأخيراً؛ لابدَّ من الامتحان الذي يتميّز فيه الثابت من المنهزم، وليكون لهم ذلك درساً جهاديّاً وتربويّاً، وإن بدا قاسياً مرّاً.

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ وَلَقَدْ عَفَا اللّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾﴾ ينبّه القرآن المنهزمين في أحد بأنّهم كانوا قد مهّدوا للهزيمة ببعض ما عملوه من أعمال غير خالصة لوجهه تعالى، مما يوفّر جوّاً قابلاً للتأثّر بإيحاءات الشيطان ودعواته للزلل والتخاذل عن حمل الرسالة، إلاّ أنَّ الآية تعلن العفو الإلهيّ العام عنهم، ليستأنفوا حياة جديدة؛ تعتمد على تربية النفس وتدارك الأخطاء والاعتبار بالماضي، وملاحظة مدى حلم الله ـ تعالى ـ وغفرانه ليتمَّ الشكر الحياتيُّ المطلوب.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِي الأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجْعَلَ اللّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾﴾ علاجاً لحالة الانهيار والتصوُّرات الباطلة التي تستتبعها، وحالة إلقاء التبعيّة على الرسول ﷺ، وأنّه كان السبب في أن يفقدوا رجالهم، تنهى الآية عن الخيالات الجاهليّة التي يتخيَّلها الكافرون، الذين لا يعتقدون بالحكمة الإلهيّة والإخلاص النبويّ والحياة الخالدة، ولذا نجدهم يقولون عن الغزَّى (الغزاة في المعارك) والضاربين في الأرض (المسافرين) أنّهم لو كانوا أقاموا في مدنهم لم يموتوا!! ولذا فالحسرة تأكل قلوبهم على خروج المتوفّين، أما المؤمن المعتقد بأنَّ أمر الحياة والموت بيد الله، وانه خبير بما يعمل النّاس فلا ينبغي له أن يتخيَّل هذه التخيّلات أو يصاب بتلك الحسرة.

وقد قيل: إنَّ الآية تنهى عن التشبّه بالكافرين في هذا التصوُّر؛ لإبقاء المؤمنين على قوّتهم، الأمر الذي يبعث الحسرة في قلوب أعدائهم ويوهن قواهم.

﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ بعد تذكير المسلمين بأنَّ أمر الإحياء والإماتة بيده تعالى؛ يعلن لهم أنَّ الموت هنا ربح لا خسارة. أليس هو في سبيل الله العظيم وتكامل الإنسانيّة؟ أليست المغفرة والرحمة الإلهيَّتان خيراً مما يجمعه النّاس من حطام الدنيا؟

﴿وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لإِلَى اللهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ ثمّ أليس الموت أو القتل بدءاً لمرحلة جديدة من الرجوع إلى الله الكامل، حيث يرفع الله الشهداء لمقاماتهم السامية، ويجزي العاكفين على الدنيا عذاباً وبيلاً.

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ إِن يَنصُرْكُمُ اللهُ فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾﴾ وخلافاً للتصوّرات الباطلة، فإن النبيّ ﷺ هو المتفضّل على المسلمين، وأخلاقه هي مركز وحدتهم وسبب انشدادهم، ولو كان فظّاً قاسي القلب يواجههم بجزاء فرارهم من المعركة لانفضُّوا وتفرَّقوا عنه، ولكنَّه ـ برحمة الله ـ لان لهم، فليعف عنهم وليشاورهم، ولكن القرار الحاسم بيده هو ﷺ وعليه أنّ يمضي في تنفيذه متوكِّلاً على الله تعالى.

ويلاحظ هنا، أنَّ الشورى هي غير الديمقراطيَّة الغربيَّة، إذ هي تشاور يقوم به ولي الأمر الذي يملك الولاية من الله طبق شروط معيَّنة، وذلك في مجال الإدارة العامة، وملء مناطق الفراغ التي تركتها الشريعة له، يملؤها بمشاورة الأخصّائيين.

وهكذا يدعو الإسلام وليّ الأمر للاستماع إلى رأي الأخصائيِّين أو كلّ من له رأي، كشفاً للواقع وتطييباً للقلوب، وتحميلا أكبر للمسؤوليّة، وشداً للأمّة بقائدها.

ونلاحظ أيضاً، كيف يشكِّل التوكُّل عاملاً إيجابيّاً، مثبّتاً للمؤمن الذي يعمل دائماً ببصيرة نافذة، ويبذل الجهد ملتفتاً إلى مدد الله وعطائه المتواصل. فهو الناصر الحقيقيّ للناس ولا ناصر لهم إن سلبهم مدده وعطاءه. وبهذه الروح المستمدَّة من الله والواعية للهدف، ينطلق المتوكّلون ليبنوا الحياة الإنسانيّة الكريمة العباديَّة.

﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾﴾ إنَّ الأنبياء (وهم أمناء الله على وحيه ورسالته) منزَّهون عن الغل (الخيانة) في التبليغ أو في إدارة المؤمنين وتوخّي الخير لهم، والآية تردُّ على التهم الباطلة التي قالت: إنَّ النبيَّ محمداً ﷺ أورد المؤمنين موارد القتل، أو أنّه ظلمهم في تقسيم الغنائم بينهم، وقد غفل هؤلاء عن عصمة الأنبياء، فنسبوا إلى رسول الله ﷺ الخيانة والظلم،

وهما من أكبر المآثم التي سيحاسب الله مقترفيها يوم القيامة، حيث توفَّى (تجازى بشكل كامل) كلُّ نفس ما كسبت وعملت بلا أيّ ظلم أو إجحاف.

﴿أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللّهِ كَمَن بَاء بِسَخْطٍ مِّنَ اللّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾﴾ إنَّ النبيّ ﷺ هو قائد الفريق المؤمن المتَّبع لرضا الله، الذي هو الهدف الأسمى للمؤمنين، فلا معنى لتصوّر الغلّ والخيانة في سلوكه، فهل يستوي من اتّبع رضا الله في كلّ خطواته، ومن باء (عاد) بسخط الله وحلَّ عليه غضبه؟

﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ اللّهِ واللّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾﴾ تختلف درجات النّاس من مطيعين وعاصين، والله تعالى بصير بهذه الدرجات التي حصلوا عليها، نتيجة أعمالهم.

﴿لَقَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَى الْمُؤمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾ تذكير مهمّ لتجديد الحيويّة ومحو الشكوك التي ساورت بعض المسلمين حول الرسول ﷺ، ببيان منَّة الله العظمى على المؤمنين، حين بعث منهم وفيهم خاتم رسله، يحمل لهم آيات الله الهادية، ويطهّرهم من الجاهليّة وضلالاتها، ويفتح أبصارهم على تعاليم الكتاب الإلهيّ، ويعطيهم الحكمة والشريعة الحقَّة، وبملاحظة الفوارق الكبرى بين حالتي الجاهليّة والإسلام يحسُّ المسلمون بمدى الامتنان الإلهيّ، فلا تعود للإشاعات المنافقة أي قدرة على النفوذ في صفوف المجتمع المسلم المتراصّ، وعرقلة مسيرته البنّاءة.

﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾﴾ إنَّ ما أصاب المسلمين في أُحد إنما كان من قِبَل أنفسهم، حيث عصى الرماة وأخلوا مراكزهم من جهة، وولّى الآخرون أدبارهم، مؤثرين الحياة على الشهادة من جهة أُخرى. ومع ذلك، فالآية الكريمة تهوّن عليهم المصيبة بتذكيرهم بالنصر والغلبة يوم بدر، حيث ثبتوا وصبروا وأطاعوا الرسول ﷺ، فأصابوا المشركين ضعفي ما اصيبوا به هم يوم أُحد، إذ قتَل المسلمون في بدر سبعين رجلاً وأسروا سبعين آخرين، ولم يُقتل من المسلمين يوم أُحد إلا سبعون رجلاً ولم يؤسر منهم أحد، هذا وإنّ الله قدير على كلّ شيء، فلا ييأس المخلصون من المسلمين، ولا يغترّ الآخرون بمجرّد انتسابهم غير العملي للإسلام.

﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُواْ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ قَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَوِ ادْفَعُواْ قَالُواْ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لاَّتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾﴾ تأكيد على أنَّ كلَّ ما يجري في الكون إنّما يتمّ بإذن الله، ومنه ما وقع في أُحد بعد أن هيّأ المسلمون أنفسهم للهزيمة بمخالفتهم وتنازعهم، على أنَّ تلك المصيبة قد شكَّلت بلاء وامتحاناً ضروريّاً، تمرُّ به الجماعة المسلمة، لينكشف لها إيمانها وثباتها على حقيقته، ولتتوضَّح جيوب النفاق من خلال أقوالهم المثبِّطة ومواقفهم المتخاذلة، فإذا قيل لهم تعالوا إلى الجهاد في سبيل الله أو ادفعوا العدوَّ عن أنفسكم وأهليكم سوّغوا تقاعسهم بحجج واهية، كقولهم: بأنهم لو أدركوا صدق المعركة في قتالها، أو تكافؤها لاتَّبعوا المسلمين والحقيقة هي أنّهم لا يمتلكون الدافع العقائديَّ للجهاد؛ فهم للكفر أقرب منهم للإيمان؛ لأنهم ينطلقون من العناد والمصالح التي لم تكن مع القلَّة المؤمنة آنذاك.

وهكذا؛ فأقوالهم إنّما هي مجرّد تسويغ لما تنطوي عليه قلوبهم من الشكِّ في الإسلام وميلهم إلى الكفر، ولكنَّ الله عليم بالنوايا التي كشفها للمسلمين، ليتّخذوا موقفهم الصحيح من المنافقين فلا يغترّوا بإشاعاتهم ولا يستجيبوا لتثبيطاتهم.

﴿الَّذِينَ قَالُواْ لإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَؤُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٦٨﴾﴾ بدت شماتة المنافقين الذين قعدوا عن القتال في قولتهم لإخوانهم، ومن يعيشون معهم في المجتمع المسلم: لو كان قتلاكم أطاعونا في عدم الخروج إلى قتال المشركين ما قُتلوا، ولتمتَّعوا بهذه الحياة، فواجههم القرآن بأنَّ أمر الموت والحياة بيد الله، فلا يؤثّر فيه القعود أو الجهاد، وإلاّ فهل يمكن لهؤلاء أن يدرؤوا (يدفعوا) عن أنفسهم الموت إن حلَّ بهم وهم قاعدون؟

﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾﴾ آية تحمل معاني الأمل للمجاهدين، وتنفي موارد الحسرة، وتصحّح مفهوم الموت... فليس

القتلى في سوح الجهاد لصالح الإنسانيّة أمواتاً طواهم الفناء ففقدوا متع الحياة، وإنما هم الأحياء حقّاً يعيشون في متع لا يشوبها مايشوب المتع الدنيويّة من كدر، فرزقهم يدر عليهم من ربّ رحيم، والفرح يغمرهم بفضل الله، وهم يتابعون أحوال المؤمنين الذين لم يلحقوا بهم، وبقوا في الدنيا فيستبشرون بمستقبلهم الوضّاء.

وهكذا فلا خوف عليهم من فقدان نعمة، ولا حزن على ما فاتهم، إذ لم يفتهم إلاّ العرض الأدنى الذي بُدّل بالثواب المقيم والله لا يضيع أجر المؤمنين. وفي الآية إشارة واضحة لبقاء الروح الإنسانيّة بعد الموت.

﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُواْ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ مِنْهُمْ وَاتَّقَواْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾﴾ تتحدَّث الآية عن بسالة المؤمنين وطاعتهم الجيّدة في غزوة حمراء الأسد، حيث ندمت قريش على عدم استثمارها الكامل لانتصارها في أُحد، فصمَّمت على الرجوع والقضاء النهائيّ على المسلمين، فجهَّز النبي صلى الله عليه وآله وسلم جماعة ممن أصابهم قرح (جرح)، وانطلق بهم كالأسود الجريحة لمقابلة قريش، وعندئذ خافت قريش من العاقبة ورجعت أدراجها إلى مكّة، وكفى الله المؤمنين القتال، ومدح من انطلق منهم بإخلاص وصدق، ووعدهم بالأجر العظيم المتناسب وعظمته ـ تعالى ـ

﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ عمل بعض الأشخاص على تخويف المسلمين المجاهدين إلاّ أنّهم أعلنوا ثباتهم على الحقّ وازدياد إيمانهم بعدالة قضيتهم وانتصارهم المحتّم، بعد أن وفَّروا كلَّ شروط النصر، واستندوا إلى الله، وهو نعم الوكيل للمؤمنين المصمِّمين العاملين في سبيله ـ تعالى ـ فتحوّل التهديد إلى فرصة.

﴿فَانقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُواْ رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾﴾ حصل الجيش المجاهد المنطلق إلى غزوة (حمراء الأسد) على الجزاء الأوفى والنعمة والفضل الإلهيّين، دون أن يشتبك مع المشركين في قتال أو يمسه سوء. ذلك أنّ هدفه في كلِّ حال هو (رضا الله) والله ذو الفضل العظيم على من اتَّبع رضوانه. ومن خلال الموقف نتعرف على الأثر التربويّ الذي تركته الهزيمة في أُحد في نفوس المسلمين نتيجة النقد

الذاتي لسلوكهم واسترشادهم بهدى القرآن وتعليمات النبي القائد ﷺ. كما كان هذا المدح العظيم توجيهاً قويّاً لما ينبغي أن يكون عليه المسلمون من الإصرار والطاعة.

﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءهُ فَلاَ تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ تخويفات الشيطان وإشاعاته خواء وهباء، يستهدف بها ضعاف النفوس وأصحاب المصالح الضيّقة فيخوّفهم من أتباعه. أمّا المؤمنون الواعون للحقيقة فلا ينبغي أن يتأثّروا بإغراءاته وتحذيراته، بل يجب أن ينحصر خوفهم الحقيقيّ بخشية الله ـ سبحانه ـ والحذر من مخالفة سبيل الهدى الذي رسمه، ووعيده على هذا الانحراف.

﴿وَلاَ يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّواْ اللّهَ شَيْئاً يُرِيدُ اللّهُ أَلاَّ يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾﴾ يُطَمئن الله نبيَّه ـ وبالتالي المسلمين ـ أن لا يحزنوا للاستجابة السريعة من قبل بعض من أغواهم الشيطان بالكفر وجرَّهم إليه، فوقفوا يحاربون الله ورسوله ورسالته، ذلك لأنَّ هؤلاء لن يوفَّقوا في حربهم هذه ولن يضرّوا الله ورسالته شيئاً والعاقبة لها بلاريب، أمّا المسارعون للكفر فسوف يقودهم انحرافهم إلى حرمان كامل من أيِّ حظّ (نصيب) في نعيم الآخرة، وفوق ذلك عذاب عظيم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُاْ الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ لَن يَضُرُّواْ اللّهَ شَيْئًا وَلهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾﴾ إنّها التجارة الخاسرة حقاً، أن يستبدل الإنسان ظلام الكفر والعصيان بنور الفطرة والإيمان، على أنّه يضرُّ نفسه لا غير. ولن يضرَّ الله شيئاً؛ لأنّه الغنيُّ المطلق عن الطاعة والأمن من المعصية، وليس عاقبة المنحرفين عن خطّ الصواب إلاّ الارتكاس في العذاب.

﴿وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُواْ إِثْمًا وَلَهْمُ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾﴾ ظنَّ الكافرون أنَّ انتصارهم الظاهري في المعركة وكسبهم لشيء من الحطام المادّيّ وتنعُّمهم بمتعها، إنّما هو كرامة وخير فازوا به، ولكنه في منطق الإسلام والواقع شرّ لهم، باعتبار أنَّ ذلك الإملاء (الإعطاء والإمهال) سوف يكشف نيّاتهم السيئة، ويؤكّد انحرافهم، ويعمِّق بُعدهم عن الرحمة الإلهيّة بازديادهم في الإثم، الأمر الذي يوقعهم في العذاب المهين المذلّ لهم. وهذه الآية ـ بالإضافة لتحذيرها الكافرين ـ تنفي ما قد يساور المؤمنين جراء تنعُّم المنحرفين، وتؤكّد أن النعم الدنيويَّة إنما تكون خيراً إذا كانت في إطار الرضا الإلهيّ.

﴿مَّا كَانَ اللهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىَ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاء فَآمِنُواْ بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾﴾ للبلايا آثار تكامليَّة على حياة الإنسان، إذ تبدي جوهره واستعداداته الكامنة، ومدى ثباته على الخطّ، وتميِّز بين الخبيث المنحرف والطيّب الباقي على الطهارة الفطريَّة، فتطهِّر المسيرة الإنسانيّة الصاعدة من الحثالات التي تعرقلها. وقد كشفت بليّة «أُحد» المنافقين بانهزامهم الجبان وإشاعاتهم المغرضة. وربما توقّع بعض المسلمين أن تكشف السماء هؤلاء المنافقين لهم رأساً دون أن يمرّوا بهذا البلاء، فردّ القرآن بأنَّ الله لن يطلعهم على الغيب، ولعلَّ ذلك لعدم قابليَّتهم لذلك أو لأنه يؤثّر على ما اقتضته الحكمة الإلهيّة من السير الطبيعي التكاملي، والسعي المتواصل بكلّ أمل نحو الأهداف وتجاوز العقبات.

نعم؛ يجتبي تعالى (أي يختار) من رسله من يطلعهم على الغيب لمصلحة معيَّنة، إذ هم الوسائط بين عالم الغيب وعالم الشهادة، يحملون رسالة الله للناس، وعلى النّاس الإيمان بهم وطاعتهم. ومتى ما تحقّق الإيمان والتقوى جاء الأجر العظيم.

﴿وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾﴾ تؤنِّب الآية أُولئك البخلاء بأموالهم الممتنعين عن صرفها في سبيل الله، وهي فضل إلهيّ كان المفروض بهم أن يوجّهوه لوجهته الصحيحة. إنَّ البخل بالمال لا يعبِّر عن خير وإشباع أفضل للّذة؛ لأنه حسبان من لا يؤمن بالله، بل هو شرّ تصيبهم عواقبه في الدنيا، ويطوَّقون بنتائجه الفادحة غداً، حيث تنكشف الحقائق ويرجع ما في السماوات والأرض إليه تعالى ويقفون للحساب العسير.

﴿لَّقَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاء سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ الأَنبِيَاء بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾﴾ لقد استغلَّ اليهود مختلف المواقف لبثّ سمومهم والكشف عن نفسيَّتهم المخاتلة. ومذ رأوا ابتلاء المسلمين بالعوز المالي وسمعوا قوله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً﴾ راحوا يعلنون ـ بكلِّ صفاقة ـ أنّ الله فقير لا ينصر أتباعه بالمال ونحن الأغنياء، فواجههم القرآن بأنَّ الله ـ تعالى ـ سيسجِّل عليهم قولتهم ويضمُّها إلى فعلتهم الآثمة في قتل الأنبياء ـ بغير حقّ ـ ليجازيهم عليها بعذاب الحريق يوم القيامة.

﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾﴾ العدل الإلهيّ حقيقة رئيسة في التصوُّر الإسلاميّ وخصوصاً في مدرسة أهل البيت عليهم السلام، حيث اعتبر أصلاً مهمّاً من أُصول مذهبهم. فالوجدان الإنسانيّ يحكم بحسن العدل وقبح الظلم ذاتاً، كما يحكم بعدالة بعض الأعمال بالخصوص وحسنها؛ كطاعة الله والوفاء بالوعد، وإجراء المعجزة على يد الصادقين، وكون بعض الأعمال ظلماً قبيحاً، كالكذب وعقاب المطيعين وأمثال ذلك. والوجدان نفسه ينفي الأعمال القبيحة عن الله تعالى، كما يثبت له الصفات الحسنة التي يجمعها عنوان العدل، والقرآن يؤكّد هذا الحكم الوجدانيّ بأساليب وآيات مختلفة، منها هذه الآية التي تقرر أن ما يصيب العباد من العقاب يوم القيامة إنما هو بسبب ما قدَّمت أيديهم من ذنوب وأنه تعالى ليس ظلّاماً للعبيد.

﴿الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلاَّ نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىَ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٨٣﴾﴾ عناد وتزوير يهوديّ آخر، ادّعوا فيه أنّ الله قد أمرهم أن لا يؤمنوا لرسول إلا أن يأتيهم ببيِّنة خاصّة هي القربان (أي ما يُتقرَّب به إلى الله من حيوان وغيره) الذي تحرقه النار السماويّة، وهذا النبيُّ صلى الله عليه وآله وسلم لم يأت بذلك.

ويفضح القرآن هذا التزوير بتذكيرهم بأنّ الله بعث إليهم من قبل رسلاً، حملوا معهم آيات ودلائل واضحة، ومنها ما طلبوا من خوارق، إلاّ أنّه لم يمنعهم كلُّ ذلك من تكذيبهم وقتلهم، مما يوضّح عنادهم وعدم صدقهم في طلبهم هذا، وأنّهم لا يريدون به معرفة الحقّ.

﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآؤُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾﴾ فليدَع النبيُّ التأثُّر بهذه الأقوال؛ لأن سنَّة اليهود الدائمة هي التكذيب برسالات الله، مهما كانت مؤيَّدة بالدلائل البيِّنة والزبر (أي كتب الحِكم والمواعظ) والكتاب السماويّ المنير الواضح الدلالة على الحقّ بما فيه من تشريعات قيِّمَة.

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَما الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾﴾ تعمّق الآية في المسلمين حقيقة التعلُّق بالحياة الأخرى وعطائها، والترفُّع عن الحرص على الدنيا والشعور بأنَّ الموت هو النهاية التي تذوقها كلُّ النفوس، مما يكشف عن قيمة الدنيا ومتعها الزائلة الخدّاعة، وأنّ الحياة الحقيقيّة هي الأخرى التي يُعطى فيها كلُّ إنسان أجره كاملاً، والفوز الكامل هناك لمن زُحزح (حُرِّك وأبعد) عن

النار، والتأثُّر بجاذبيتها المهولة، وأدخل الجنّة فحقَّق أعظم أمل للإنسان وهو الخلود في النعيم.

وبهذا تهون على المسلم الواعي كلُّ العقبات، ويتحرَّر من أسر القيود المادّيّة الرخيصة التي تُكبِّل انطلاقته لبناء الحضارة.

﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴿١٨٦﴾﴾ والإنسان موجود متكامل في ذاته وأعماقه بالإضافة إلى تكامله الاجتماعيّ الحضاريّ، والتكامل الإنسانيّ يتمّ من خلال التحدِّي الإراديّ لكلّ العقبات التي تزرع في طريقه... بهذه النظرة يواجه المسلم أيَّ بلاء في المال أو النفس، وأيّ أذى روحيّ، وإهانة يوجّهها المنحرفون من الذين أوتوا الكتاب من قبل، فلم يحملوه حقَّ حمله، ومن المشركين المنبتّين عن أصولهم الفطرية. ولا ريب في أنَّ هذا التحدّي الواعي بما يحمله من «صبر» و«تقوى» يؤدّي إلى القوّة والعزم والنصر في النتيجة.

﴿وَإِذَ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلاَ تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاء ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْاْ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ يتابع القرآن بين الحين والحين نقده لتلك الأمم التي شرفت بحمل الكتاب الإلهيّ، وقدَّمت العهد والميثاق بحمله وبيانه للأمم الأخرى وعدم كتمانه، فيصفها بأنها نقضت ميثاقها، وتركت كتابها وراء ظهرها (كناية عن الإعراض عنه) بل راحت تتاجر به، لتحقيق مصالح ضيِّقة لا تتناسب مطلقاً وعظمة النعمة والمصالح الحضاريّة الضخمة التي يحقِّقها. ومن هنا فلا جزاء لها إلاّ الخُسران والبؤس.

﴿لاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ فَلاَ تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾ وَلِلّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللّهُ عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾﴾ تذمُّ الآية أولئك الفرحين بما عملوا، المعجبين بأنفسهم بلا سبب، بل تراهم يحبُّون أن يحمدوا على أمر نسبوه إلى أنفسهم زوراً ودون أن يفعلوه، فليس لهؤلاء مفازة (نجاة) من العذاب، وأنّى لهم ذلك، ولله ملك السماوات والأرض ولا يعجزه شيء، وسيصبّ عليهم العذاب الأليم بكفرهم. ولعلَّها نزلت في اليهود المعجبين بأنفسهم والطالبين للحمد بلا مسوّغ أو نزلت في المنافقين الفَرحين بتخلفهم عن «أُحد» والَّذين يحبُّون ان يمدحوا على مازعموه من نصيحة.

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُوْلِي الألْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾﴾ بعد نقد نتائج معركة «أُحد» وما تبعها، يعود القرآن ليرسم لوحة تمثّل تصوُّرات المؤمنين عن الكون وآمالهم فيه، حيث تتجلّى الاستفادة الرائعة من العقل والفطرة، لكشف الحقيقة الكبرى؛ إذ كلُّ ما في الكون من ظواهر رائعة التناسق وخصوصاً ما في خلق السماوات والأرض من إبداع وحكمة، وما في اختلاف الليل والنهار (أي تعاقبهما واختلافهما في الطول والقصر) من آثار تكوينيّة مهمّة على تيسير الحياة على وجه الأرض... كلُّ هذا يقود إلى الصانع الحكيم ويتجلّى ذكر الله ويتعمَّق التفكير الجاد لدى ذوي الألباب (العقول) في كل حالاتهم ـ قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم (مضطجعين).

وعبر ذكر الله تعالى والتفكير في خلقه، يسير المؤمنون إلى تصوُّر الهدفيّة العامّة في الكون، وقيامه على الحقّ والعدل فيسبِّحونه وينزّهونه عن العبث، وبذلك تهديهم فطرهم إلى تصوُّر حياة الخلود والكمال في الآخرة وما فيها من جحيم ونعيم، فتهتزّ مشاعرهم ويطلبون منه ـ تعالى ـ أن يقيهم عذاب النار، وما يصحبه من خزي وبعد عن الرضا الإلهيّ، الأمر الذي يعذِّب المؤمنين أكثر من غيره، فيلجئهم لالتماس العفو وطلب إبعادهم عن طرق الظالمين الذين لا يجدون لهم ناصراً يوم القيامة. وهكذا نجد الإسلام يربي في المسلم روح التعبُّد وذكر الله والتفكير في جميع الحالات، بلا أن يحصر ذلك في نطاق معيَّن ضيِّق، فالكون كلُّه مسجد المسلم.

﴿رَّبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُواْ بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأبْرَارِ ﴿١٩٣﴾﴾ وتستمرُّ مناجاة المؤمنين ـ ذوي الألباب ـ مع ربِّهم، معلنين له التسليم المطلق، استجابة لرسله الصادقين الذين دعوهم للإيمان به ـ تعالى ـ ومن ثمّ يلوذون بالله من حالات ضعفهم، ويستغفرون لذنوبهم، ويطلبون توفيقهم للانخراط في سلك الأبرار المجاهدين والوفود على الله معهم.

﴿رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلاَ تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لاَ تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾﴾ وقد وعد الله المؤمنين عبر التاريخ ـ على لسان رسله ـ بالنصر والغلبة في الدنيا والغفران في

القيامة. وها هم يسألون أن يؤتيهم ما وعدهم، ولا يبتليهم بهذا الخزي، نتيجة الانحراف عن الخطّ الرساليّ الصحيح، وهو تعالى لا يخلف الميعاد.

﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُواْ وَقُتِلُواْ لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّن عِندِ اللّهِ وَاللّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾﴾ ومن ثمّ تأتي الاستجابة لدعاء المؤمنين مصحوبةً بالتوجيه نحو العمل في سبيل تحقيق الأهداف التي يُدعون لأجلها. فليس الدعاء مجرَّد تلفُّظ لا يسنده عمل متواصل بمضمونه. وقد ركّزت الآية على حقيقة مهمّة هي انفتاح طريق التكامل أمام الجنسين (الذكور والإناث) فكلُّهم أبناء آدم ويرجعون إلى أصل واحد، ويمتلكون إمكانات التكامل، وعليه، فهم سواء في المقام الإنسانيّ وإن اختلفت الوظائف الحياتية لأحدهما عن الآخر. فلا تفاضل إلاّ بالعمل والتقوى. وبهذا يقضي الإسلام على كلِّ التصوّرات الجاهليّة الناقصة عن الأنثى ومدى إنسانيَّتها، حتّى أنّ اوروبا كانت تشكُّ في كونها إنساناً، إلى عهد قريب، ولكنَّ الإسلام رفع قدرها وسما بها إلى المقام الإنسانيّ الحقيقيّ.

إنَّ الإيمان وحمل الرسالة يتطلَّب الجهاد والتحمُّل الشديد. فالمهاجرون في سبيل الله، الراحلون عن أهليهم وديارهم بضغط من الكفر ورموزه، والمتحمّلون للأذى في سبيل الله، والذين قاتلوا وقُتلوا، هؤلاء جميعاً سوف يكفِّر الله عنهم سيِّئاتهم السابقة، ويدخلهم جناته الخالدة جزاء من عنده، والله عنده حسن الثواب.

﴿لاَ يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُواْ فِي الْبِلاَدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلاً مِّنْ عِندِ اللّهِ وَمَا عِندَ اللّهِ خَيْرٌ لِّلأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾﴾ يواصل القرآن الكريم أسلوبه التربويّ للمسلمين، فيزهِّدهم بمتاع الكافرين الذين يتقلّبون (ينعمون) في البلاد، ولكنَّه متاع قليل، إذ تواجههم من بعده جهنّم التي مهَّدوها لأنفسهم بأعمالهم المشينة في الدنيا، وبئس المأوى والمهاد. في حين يعد الله المؤمنين المتّقين بأفضل العطاء، وهو الخلود في الجنان، وما عند الله خير لهؤلاء الأبرار، ولا تقُاسُ به أي نعمة دنيويّة.

﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلّهِ لاَ

يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللّه ثَمَنًا قَلِيلاً أُوْلَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللّه سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ تستثني الآية هنا من أهل الكتاب ـ الذين تعرَّضوا للنقد فيما سبق ـ طائفة نبذت العناد والتعصُّب وآمنت بالله، والإسلام، وما أُنزل إليها من قبل، ولم تساوم على آيات الله وأحكامه، فتغيِّر فيها وتبدّلها، نزولاً عند رغبات الحكّام، وتلبيةً للأهواء والمصالح، في مقابل أجر زهيد وثمن قليل، كما كان يفعل بعض الأحبار والرهبان، وإنَّما تعمَّق إيمان هذه الطائفة، فخشعت لله، فأثابها الله الجزاء السريع والأجر الجزيل.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَاتَّقُواْ اللّه لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾ يحوي هذا الختام توجيهاً قرآنيّاً رائعاً لكلّ المؤمنين، وفي كلِّ الأعصار، فتوجّه الآية لهم الخطاب، باعثةً فيهم روح التَّجمع على الإيمان، والإحساس بالوحدة الاجتماعيّة المتكاملة، ومبيّنة لهم العناصر اللاّزم توفُّرها في المجتمع المؤمن، لكي يحقّق أهدافه الإنسانيّة السامية، وهي:

أولاً: العقيدة الواقعيَّة المنسجمة مع الفطرة، والتي يقوم عليها نظام يصلح للحياة الإنسانيّة ويقودها نحو كمالها.

ثانياً: الإيمان التامّ بتلك العقيدة.

وهذان العنصران مفروضان عند توجيه الخطاب للذين آمنوا.

ثالثاً: الصبر، وهو الاحتفاظ بطاقة العمل بشريعة الله، وتجاوز العقبات الموضوعة في طريق تطبيقها بجهاد النفس ومخالفة الهوى، أو بجهاد الأعداء والطواغيت.

رابعاً: المصابرة، أي الانشداد الاجتماعيّ والتعاضد التام بين أفراد المجتمع الإسلاميّ لخلق جبهة قويّة تقارع قوى العدوان وتكسر مقاومتها وعنادها على الباطل، وإصرارها على ضرب الوجود الإسلاميّ.

خامساً: المرابطة، أي الكون بحالة من الحذر الشديد لحفظ الثغور الإسلاميّة، ومراقبة تحرّكات العدوّ الفكريَّة والعسكريّة، وسدِّ مجالات نفوذه إلى أعماق المجتمع الإسلاميّ، والتخريب فيه وزعزعة ترابطه وايمانه برسالته وثقته بنفسه.

وبعد ذلك كلِّه تقوى الله ومراقبته فيما افترض وأمر، فإذا تمّت هذه المقومات، فإن لمجتمع المؤمنين أن يتوقع النصر الإلهيّ والفلاح رغم كلِّ الضخامة في معسكرات الأعداء.

سورة النساء (٤)

آياتها ١٧٦

بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تحدّثنا من قبل عن المعاني الرائعة للبسملة باعتبارها أروع آية قرآنيّة.

وتُركّز سورة النساء على تطهير المسلمين من شوائب الجاهليّة وظلمها، كامتهان المرأة، وأكل مال اليتيم، وغيرها من المفاسد والمظالم، وتقرّر في قبال ذلك النظرة الواقعيَّة المنسجمة مع الفطرة الإنسانيّة، من خلال الأحكام والتعاليم الإسلاميّة السامية.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ تذكير للبشرية كلِّها بأصلها الواحد وخلقتها من آدم وحواء المخلوقين من طينة واحدة، واللذين منحا قدرة التناسل وإبقاء النوع البشريّ، وهو الأمر الضروري لاستمرار مسيرة التكامل الإنسانيّ، حيث يتكامل الفرد في مجتمع عادل، قائم على أساس الروابط النّسبيّة، وبهذا تشكّل وحدة الربّ ووحدة الأصل أساساً لبناء اجتماعيّ متكامل، يتَّقي ربَّه، ويحفظ روابطه النّسَبية، ولا مجال فيه للدعوات العنصريّة الممزِّقة ولا النظرات المستهينة بالمرأة. وقد عادت الآية فأكدت لزوم تقوى الله الذي يسأل بعضهم بعضاً الوفاء باسمه، وتقوى الأرحام، أي تجنُّب الآثار السلبيَّة لقطعها،كلُّ هذا في إطار شعور المجتمع المسلم برقابة الله الدقيقة المركَّزة في أعماقه.

﴿وَآتُواْ الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلاَ تَتَبَدَّلُواْ الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾﴾ دعوة لإرجاع أموال اليتامى إليهم بنفسها دون استبدالها بالأردأ أو ضم شيء منها إلى أموال الولي، حيث يُعتَبر ذلك حوباً (إثماً) كبيراً، وبذلك يتحقَّق التكامل الاجتماعي، والحفاظ على الحقوق، والوفاء بالعهد، وتقوية العواطف، ونفي العادات الجاهليَّة، التي تمنح الولي حقَّ التصرف المطلق.

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُواْ فِي الْيَتَامَى فَانكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاء مَثْنَى وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُواْ فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلاَّ تَعُولُواْ ﴿٣﴾﴾

تطلب الآية من الأولياء الذين يخافون عدم القسط بحقوق البنات اليتيمات إذا تزوَّجوا بهنَّ، أن يتَّجهوا إلى باقي النساء فيتزوجوا بما يطيب لهم منهنَّ، على أن لا يتجاوز عددهنَّ الأربع في الزواج الدائم، وقد حثَّت على العدالة بينهنَّ في المعاملة والنفقة والمعاشرة والمباشرة، فإن خاف الزوج من عدم تحقيق أدنى درجات العدل، فليكتف بواحدة، أو فليتسرَّ بالجواري المملوكات. وكل هذه الأحكام لأجل تحقيق العدالة الاجتماعيّة التي ينشدها الإسلام.

ويلاحظ هنا:

أولاً: إنَّ التعددّ يُشترط في الزواج الدائم دون المنقطع (المتعة) وملك اليمين، وذلك لأنَّ الزواج الدائم هو الأصل المتعارف والذي يتضمن مسؤوليات كبرى للزوج تجاه أُسرته. ولعلَّ التحديد لأجل توفير القدرة له على إدارة هذه الأسرة.

وثانياً: إذا لاحظنا الواقع الإنسانيّ من حيث قدرات الرجل، ونسبة عدد النساء والحالات الكثيرة التي يكون التعدُّد فيها هو الحلّ الظاهر للمشاكل، ولزوم المحافظة على المجتمع من الانحراف كما انجرَّ إليه الغرب، نعرف واقعيّة الحكم الإسلاميّ، وبطلان الإشكالات التي أثيرت حوله.

وثالثاً: إنَّ نظام ملك اليمين كان يعبّر عن ضرورة اجتماعيّة وسياسية ـ آنذاك ـ لمقابلة العدوِّ بالمثل، وعدم تعطيل القدرات الإنتاجيَّة للأسرى، ومراقبتهم، والتزوج بإناثهم لحفظ المجتمع من الزنا، ودفعهم للاختلاط بالمجتمع وتطبيعهم بالطابع الإسلاميّ.

وأخيراً، نُنبه إلى أنَّ الإسلام بريء من كلِّ التطبيقات المنحرفة لهذه الأحكام التي جعلها الإسلام، لتحقُّق العدالة ونفي العول (الظلم).

﴿وَآتُواْ النَّسَاء صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا ﴿٤﴾ وَلاَ تُؤْتُواْ السُّفَهَاء أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللّهُ لَكُمْ قِيَاماً وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلاً مَّعْرُوفًا ﴿٥﴾﴾ نفى الإسلام العادات الجاهليّة في سلب صداق الزوجة (مهرها)، وطلب أن يعطي الزوج المهر لزوجته، فتمتلكه نحلة وهِبَة خالصة، فإذا سمحت بطيب نفسها أن يأخذ زوجها شيئاً منه، فله أن يأخذه حلالاً طيباً.

﴿وَابْتَلُواْ الْيَتَامَى حَتَّىَ إِذَا بَلَغُواْ النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُواْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ

وَلاَ تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُواْ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُواْ عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾﴾ إحتياطاً لإرجاع أموال اليتامى والحفاظ عليها، تأمر الآية بامتحانهم لمعرفة ما إذا كانوا قد بلغوا سنَّ النكاح (البلوغ) بالإضافة إلى قدرتهم على حسن التصرُّف في المال (الرشد) فإن عُلِمَ منهم ذلك تدفع إليهم أمواهم، أما قبل هذه المرحلة، فإن الآية تنهى عن الاعتداء عليها والإسراف في أكلها بحجَّة القيام بشؤون الولاية، والإسراع والمبادرة لصرفها في شؤون الولي قبل أن يكبر الطفل فيطالب بها. وإنّما ينبغي للوليّ الغنيِّ أن يستعفف ويزهد فيها، فلا يأخذ شيئاً منها جزاء رعايته، في حين يأخذ الولي الفقير منها بالقدر المتعارف. وحسماً للنزاع، يطلب القرآن الإشهاد على عمليَّة إرجاع المال مع التذكير برقابة الله وحسابه الدقيق، ليضمن الدافع الداخليّ في النفوس.

﴿لِّلرِّجَالِ نَصيِبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاء نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾﴾ شروع في بيان قواعد نظام الإرث الذي بيَّنته السنَّة تفصيلاً. وقد اعتمد على أسس فطريَّة واقعية، إذ من الطبيعي شعور الابن بوراثته لأبيه في المال والطباع، وكذلك شعور المورِّث بلزوم مواصلة العمل حتّى آخر رمق، ليوفّر لوارثه حياة أهنأ. وهكذا يحقّق الإسلام أُسس التكافل الصغير بين افراد العائلة، ويحاول تفتيت الثروة.

ويعبِّر نظام الإرث عن تطبيق للنظرية الاقتصادية في التوزيع، حيث تنقطع صلة المالك بماله، ويترك الأمر للشريعة التي تفضَّلت عليه، فسمحت له بأن يوصي بثلث ماله، محرّكة فيه جوانب الإحسان. وقد استطاع الإسلام بهذا أن ينفي نظم الإرث الجاهليّة التي حرمت المرأة والطفل منه، فأوّل قاعدة فيه هي مسألة إرث الرجال والنساء من الوالدين والأقربين مهما كانت التركة، فلكلّ نصيبه المعيَّن.

﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُوْلُواْ الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلاً مَّعْرُوفًا ﴿٨﴾﴾ طلب إلى أولياء الميِّت والورثة أن يجعلوا نصيباً من التركة لذوي القربى ممَّن لا يرث واليتامى والمساكين، وذلك مع قول جميل، وتطييب للخاطر، لتحكيم الروابط العاطفية، وتحقيق جزء من التكافل الاجتماعي.

﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللّهَ وَلْيَقُولُواْ

قَوْلاً سَدِيدًا ﴿٩﴾ للتحذير من أكل أموال اليتامى، وعدم التوزيع الصحيح، أكَّدت الآية ضرورة الدقة والمراقبة، وحرَّكت عواطف الموزِّعين بأن ذكَّرتهم بحالهم هم لو تركوا ذريَّة ضعافاً يخافون أنْ يتخطَّفهم الأقوياء. وربما أرادت الآية تحريك العواطف نحو اليتامى الذين حضروا القسمة، كما رأى بعض الأشخاص أن هذا التحذير يشير للأثر التكوينيّ الذي يتركه التصرُّف الخيّر والسيِّئ للأب على أبنائه.

بهذا التصوير الرائع يتمّ التحذير من أكل أموال اليتامى، ممَّا دعا المسلمين للاحتياط المفرط، وعزل أموال اليتامى وطعامهم، فنبَّهتهم آية أُخرى إلى عدم الإفراط، وأنَّ التعامل بالإصلاح أفضل من ذلك.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾ يُوصِيكُمُ اللّهُ فِي أَوْلاَدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَاء فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلأُمِّهِ السُّدُسُ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَآؤُكُمْ وَأَبناؤُكُمْ لاَ تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعاً فَرِيضَةً مِّنَ اللّهِ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلِيما حَكِيمًا ﴿١١﴾﴾ أوصى الله بجعل نصيب الذّكر كنصيب الأنثيين عند اجتماع الذكور والإناث، وربّما كان ذلك على أساس اختلاف وظائف كلّ من الرجل والمرأة في النظام الاجتماعيّ الإسلاميّ، وليس هو قطعاً على أساس الاختلاف الجنسي ـ كما يتوهَّم الجاهلون ـ.

وإن انحصر الورثة في الإناث، وكنَّ أكثر من اثنتين، فلهنَّ ثلثا التركة، ولو كانت بنت واحدة، فلها النصف، أما لو كانتا اثنتين، فلهما الثلثان أيضاً، بمقتضى السنّة.

يشارك الأبوان الأولاد في طبقتهم، فإن كان للميِّت أولاد، فقد فرض لكلّ من الأبوين السدس، وإن لم يكن له أولاد، فإن الأُمّ تأخذ ثلث التركة، فإن كان للميت إخوة حجبوا الأمّ عمّا زاد عن السدس بشروط تُذكر في محلّها من كتب الفقه، ومنها أن يكون الإخوة من الأبوين، أو الأب خاصّةً، ومنها كذلك وجود الأب.

وهكذا نعرف أنّ الإخوة يقعون في طبقة ثانية بعد طبقة الأبناء، فلا يرثون مع وجود الأبناء، ولكنَّ وجودهم يحجب الأُم عمّا زاد على السدس.

وهذه الفروض تخرج من التركة بعد تسديد ديون الميت، وملاحظة وصيَّته في ثلث المال، وربَّما كان تقديم ذكر الوصيّة في الآية لأهمِّيتها.

وهذا المقطع تربويّ، يؤكِّد للمسلمين أنّ الله هو الذي يعلم الواقع بتمامه، وأنَّ أيّاً من الآباء أو الأبناء هو الأقرب نفعاً للإنسان. وعلى ضوء من الواقع قرّر تعالى أحكام الارث، وفرضها على الأمّة لتلتزم بها، فلا اعتراض بعد فرض الله ذلك، على أساس من علمه وحكمته التامَّة.

﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّن بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلاَلَةً أَو امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِن كَانُوَاْ أَكْثَرَ مِن ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاء فِي الثُّلُثِ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَآ أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّ وَصِيَّةً مِّنَ اللّهِ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ يرث الزوج نصف تركة الزوجة إذا لم يكن لها ولد ـ ذكراً أو أنثى ـ حين الموت. وإن كان لها ولد، فللزوج ربع تركتها، يُخرَج بعد إخراج حقوق النّاس في التركة (الديون) ولحاظ الوصية. وترث الزوجة ربع تركة الزوج إن لم يكن لها ولد ـ ذكراً أو أنثى ـ وإن وجدَ الولد ورثت الزوجة الثمن، وذلك بعد إخراج الدَّين وتنفيذ الوصيَّة.

الكلالة: إسم لما عدا الوالد والولد من الورثة، فهو ليس من أصول الميت ولا فروعه. فالأخ والأُخت ـ من الأُم ـ يرثون بالفرض السدس لكلّ من الذكر والأنثى، فإن تعددوا اشتركوا في الثلث بالتساوي. وهذا كله إن لم يكن أحد من افراد الطبقة الأعلى موجوداً.

ويعود التأكيد مرة أُخرى في موضوع الوصيّة والدّين، على أن تكون الوصيّة لا بقصد الإضرار بالورثة، ولو زادت على الثلث احتاجت لإذنهم، وكذلك الدّيَن، كما لو أقر بدَين لا يلزمه.

كما يعود التأكيد على أنَّ هذه الأحكام توصية من الله العليم الحليم، قائمة على أساس من مصالح يعلمها تعالى.

﴿تِلْكَ حُدُودُ اللّهِ وَمَن يُطِعِ اللّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾﴾ العقيدة هي روح التشريع الإسلاميّ، وضمان تنفيذه، والموجدة للمسؤوليّة الذاتيّة في

ذلك. والقرآن يركّز على هذه الحقيقة عندما يتعرَّض لأيّ حكم من أحكام الإسلام، وها هو يذكّرهم بأنَّ أحكام الإرث حدود إلهيّة يجب أن يسير المجتمع في إطارها، فإذا أطاع الله ورسوله حصل على النعيم المقيم في الآخرة، حيث الخلود في الجنّات تجري من تحتها الأنهار، ذلك هو أقصى أمل للإنسان، وهو الفوز العظيم، في حين أعدَّ للعاصين الخلود في النار والعذاب المهين.

وهذا بالإضافة إلى ما يتحقَّق في الدنيا من حياة سعيدة مطمئنّة للمطيعين المراعين لحدود الله، ومن حياة الضنك والقلق للعاصين والمتنكّبين للطريق السويّ.

ومسألة التمهيد العقائدي، وبيان الآثار الكبرى لتنفيذ الأحكام الإسلامية في الدنيا والآخرة ظاهرة قرآنيّة متكرّرة، وهي تعبّر عن واقعيّة الإسلام وعلمه بما تضيق به بعض النفوس في مجال التطبيق، خصوصاً في الحالات التي يُحرم فيها البعض من الحصول على مكاسب أكثر لصالح حصول الآخرين عليها.

﴿وَاللاَّتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَاسْتَشْهِدُواْ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىَ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللّهُ لَهُنَّ سَبِيلاً ﴿١٥﴾﴾ توفيراً للجو الاجتماعيّ النظيف، يأمر القرآن بعزل النساء اللواتي شهد أربعة من رجال المسلمين العدول عليهنَّ بالزنا، وهذا يكشف عن استخفافهنَّ بالمقرّرات الدينيّة الموضوعة لحماية الخليَّة الاجتماعيّة الأساس (العائلة) من التفكّك، وهو ما يرفضه الإسلام بشدة. ويتمّ العزل بحبسهنَّ في البيوت حتّى الموت. وهنا لمَّحت الآية إلى إمكان أن يجعل الله لهنَّ سبيلاً في حكم جديد، وهو ما تمَّ بعد ذلك حيث حكمت الشريعة بجلدهن مائة جلدة.

﴿وَاللَّذَانَ يَأْتِيَانِهَا مِنكُمْ فَآذُوهُمَا فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمَا إِنَّ اللّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿١٦﴾﴾ والرجل والمرأة اللذان يأتيان الزنا، يؤذيان ويعاقبان، كي يكون ذلك عبرة للآخرين، ودافعاً لهما إلى التوبة وإصلاح النفس، وحينئذ يعرض المؤمنون عنهما بعد أن تاب الله عليهما. وهذا الحكم المخفَّف جاء في مرحلة انتقال من المجتمع الجاهليّ إلى المجتمع الإسلاميّ النظيف، حيث تهيَّأت وسائل العفّة، وحيث كان الحكم الجديد المستقر هو جلد الزاني والزانية غير المتزوّجين.

وربما قيل باختصاص الآية السابقة بالمساحقة، وهذه الآية باللواط.

﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوَءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَئِكَ يَتُوبُ اللّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللّهُ عَلِيماً حَكِيماً ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ وَلاَ الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾﴾ قد يقع الإنسان ـ نتيجة جهله بنتائج عمله أو ضعفه أمام الإغراء ـ في المعصية، فيخرج عن سبيله الفطريّ القويم. وهنا فتحت له يد الرحمة الإلهيّة باب الرجوع إلى ذاته الحقيقيّة، منقذة له من الضياع والقلق واليأس، ودافعة للإسراع في التوبة، وحاميةً للمجتمع من تحوّله إلى مجرم محترف. وبهذا تكون التوبة عاملاً إيجابياً بنّاءً. ولا مجال لتوهُّم تشجيعها على الانحراف، بعد أن وضع لقبولها شروطاً، منها؛ أن لا يكون الدافع لها هو التأكّد من الموت برؤية علائمه. فإن هذا المذنب وغيره من الذين يموتون وهم كفّار لا تنالهم رحمة الله وغفرانه. وهكذا نجد أنّ الإنسان لا يقدم على الذنب بعد أن لم يكن يضمن بقاءه حياً، وموفقيّته للتوبة، خصوصاً وأنَّ للجريمة أثرها في إبعادها عنها.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ النِّسَاء كَرْهًا وَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُواْ بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلاَّ أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾﴾ ينفي الإسلام هنا عادات جاهليّة استهانت بإنسانيّة المرأة وحقوقها الطبيعيّة، كأن يكره الأبناء زوجات آبائهم ويمسكوهنَّ في البيوت حتّى الموت، ليرثوا أموالهنّ، أو يتنازلن عن إرثهنّ، أو أن تكره القبيلة الزوجات اللواتي مات أزواجهنّ على الزواج باعتبار أنها ترث الولاية عليهنّ، أو أن يقوم الأزواج بالضغط على زوجاتهم (عضلهنَّ) ومنعهنَّ من حقوقهنّ الطبيعيّة والزوجيّة، لأجل أن يتنازلن عن شيء من مهورهنَّ في قبال الطلاق. وكلُّ هذه أُمور يرفضها الإسلام؛ لأنها تعبّر عن استثمار ظالم، وتضييع للحقوق. نعم، إذا فعلت المرأة فاحشة، فإن لزوجها الحقّ في التضييق عليها، لتتنازل عن شيء من مهرها في قبال الطلاق؛ لأنها تجاوزت حقوق الزوجيَّة الطاهرة التي يريد الإسلام أن يؤطّر بها العائلة، فيدعها تقوم على أساس المعاشرة بالمعروف والحسنى، ويبتعد بها عن الانفعال الوقتي المهدِّم، بعد تذكير الإنسان بأنّه قد يكره شيئاً وهو غافل عمّا فيه من خير كثير، لعدم إحاطته بكلِّ الظروف.

﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلاَ تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُّبِيناً ﴿٢٠﴾﴾ أما إذا أصرَّ الزوج على الطلاق، وإحلال امرأة أُخرى في حياته مكان هذه الزوجة المطلَّقة، فعليه الوفاء بتعهُّداته الماليّة لها، مهما كثرت (القنطار) وعدم غصب شيء منها؛ لأنَّ ذلك بهتان واضح لا يرتضيه الإسلام.

﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾﴾ إثارة للعواطف الحارّة التي كانت قائمة بين الزوجين المتَّصلين جسماً وروحاً (أفضى بعضكم إلى بعض) أي تلابسا واتَّحدا، تؤكّد الآية لزوم عدم استرجاع الزوج المهر المعطى عند العقد أو بعده لزوجته المطلَّقة، خصوصاً وقد أخذت عليه بعقد الزواج ميثاقاً غليظاً.

﴿وَلاَ تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاء إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاء سَبِيلاً ﴿٢٢﴾﴾ حرَّم الإسلام على الأبناء نكاح النساء اللاّئي تزوجهنَّ الآباء، إلاّ ما كان قد سلف في الجاهلية، فإن تبعاته معفوّ عنها، وقد اعتبر ذلك من الفواحش، وسبل السوء، وسبباً لنفور الطبع الإنسانيّ السليم (المقت).

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالاَتُكُمْ وَبَنَاتُ الأَخِ وَبَنَاتُ الأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللاَّتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللاَّتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ اللاَّتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُواْ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلاَئِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلاَبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ الأُخْتَيْنِ إَلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾﴾ لعلَّه مراعاةً للنوازع الفطريَّة الإنسانيّة التي تنفر من الزواج بالمحارم ـ كما هو واضح في جميع الأمم ـ وتوفيراً للجو العائلي النظيف، وإقامةً للحياة الزوجية على أسس معقولة وبعيدة عن التنافس الذي قد يحلُّ محلَّ المودَّة والعواطف الطاهرة، تأتي أحكام الإسلام لتحرِّم على الإنسان الزواج من بعض النساء المتَّصلات به نسباً أو سبباً، وهنَّ:

الأُمّهات والبنات، والأخوات، والعمّات، والخالات، وبنات الأخ، وبنات الأُخت، والأُمّهات من الرضاعة، والأخوات من الرضاعة، وأُمّهات الزوجات، والربائب (أي بنات الزوجات اللواتي تمَّ الدخول بهن)، وزوجات الأبناء من الأصلاب (لا الأبناء المتبنين أو

الأبناء بالرضاعة)، كما حرَّم الجمع بين الأُختين إلاّ ماتمّ قبل الإسلام، فهو معفوّ عنه، وإن كان يجب عدم الجمع بالفعل بالانفصال عن إحداهما أو كليهما.

هذا وإن من يتأمل أحكام الإسلام في المسألة العائلية يدرك كم اهتم بها وكم خطّط لها. فالعائلة هي اللبنة الأساس لقيام مجتمع سليم متراصّ ومسؤول تسوده المحبّة والمودّة، وتتساوى فيه الحقوق والواجبات، ويتم فيه التعامل بكل عفّة وسداد، وتسدّ فيه الثغرات، ويتم تحصينه من العاديات. أما إذا تأزّمت الأمور وتحوّلت الحياة العائلية إلى جوّ خانق فإن الإسلام يسمح بالطلاق ـ رغم أنه يبغضه ـ وذلك بمقتضى واقعيّته.

﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاء إِلاَّ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللّه عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاء ذَلِكُمْ أَن تَبْتَغُواْ بِأَمْوَالِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُم بِهِ مِن بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللّه كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (٢٤)﴾ ومن المحرَّمات: النساء المحصنات، أي اللواتي في عصمة أزواجهن، فلا يجوز إقامة أية علاقة جنسيَّة معهنَّ، حفاظاً على الوحدة العائليَّة والتماسك الاجتماعيّ الصحيح، إلا أنّه يستثنى من النساء المتزوجات، المسبيّات (ملكت ايمانكم) فإنّهنَّ لا يعدن في عصمة أزواجهنَّ بعد السبي وانقطاع علاقتهنَّ بالأزواج الكافرين.

إنّها الشريعة الإسلاميّة التي كتبها الله لكم على أساس من المصالح والمفاسد دون التأثّر بالعادات والتقاليد والنظرات الضيِّقة.

بعد بيان المحرَّمات من النساء، راحت الآية الكريمة تبيِّن سبيل التكوين العائلي، وتلبية الحاجة الجنسيَّة الفطرية وتصريفها تصريفاً صحيحاً، وذلك عبر الاحصان أي الزواج وفق الأُطر الشرعيَّة بالبذل العفيف للمال للزوجة أو الأمة، دونما بذله إغراء وسلوكاً للسبل غير الشرعيَّة، وهي ما أُطلق عليه لفظ (السفاح) أو الزنا.

تتحدّث هذه الآية ـ وهي مدنيَّة ـ عن مشروعيَّة نكاح (المتعة) وذلك بملاحظة أنّ هذا المصطلح كان سائداً بين المسلمين آنذاك، ورأي أئمَّة أهل البيت ـ وهم أحد الثقلين ـ بالإضافة إلى بعض الصحابة بقاء تشريعه إلى وفاة الرسول ﷺ [1] وبالتالي ثباته إلى الأبد، أمّا

١ . صحيح مسلم (ج ٤ ص ١٣١)، سنن أبي داود (ج ١ ص ٤٦٨)، سنن البيهقي (ج ٧ ص ٢٣٧، ٢٣٨)،كتاب ←

الاستدلال على تحريمه ورفع مشروعيته ونسخه بآيات أو روايات فليس بصحيح، إذ بعض الآيات التي تذكر إما مكّية، أو مدنيَّة سابقة على هذه الآية، وبعضها الآخر لا دلالة فيه على النسخ. أمّا السُنة فلا تصلح ناسخة للقرآن الكريم. وعلى أيّ حال؛ فالمتعة حلّ إسلاميّ ناجع لكثير من المشاكل الجنسيَّة والاجتماعيّة، باعتبارها زواجاً شرعيّاً صحيحاً، يتمّ بعقد ومهر وأجل، والولد الحاصل منه يرث، ولها شروط مستوفاة في الكتب الفقهيَّة.

﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلاً أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلاَ مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَن تَصْبِرُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾ يفتح الإسلام سبيل الزواج من الإماء المؤمنات، مراعياً بذلك الواقع وعدم قدرة الكثيرين على الزواج الدائم من الحرائر اللواتي تحصنهن حريتهن إلى حد كبير عن الانحراف. وعليه، فللمسلم أن يتقدَّم إلى أهل هؤلاء الفتيات المسبيّات ـ أي سادتهنَّ ـ طالباً أيديهنَّ بمهر متعارف، ولا حزازة في هذا الزواج؛ لأنهنَّ مؤمنات ـ والله أعلم بايمان المؤمنين ـ ولا يختلفن عن باقي النّاس إلاّ في أحكام يفرضها الواقع والظروف القائمة، فبعضكم من بعض وكلُّكم بشر.

ويتجلّى إكرام الإسلام لهنَّ أيضاً في تعبيري «فتياتكم» و«أهلهنَّ» كما يتجلّى في تركيزه على الوحدة النوعية بين جميع الناس. وهذا الحكم إذ يفتح لهنَّ السبل الصحيحة للتمتُّع الجنسي، يغلق أمامهنَّ سبل الانحراف كالزنا واتخاذ الخدن، أي الصديق في السر والعلن. ولـمّا كانت الأمَة لا تحصنها حرّية أو انتساب أو خوف فضيحة من الانحراف كالحرة، فقد جاء تخفيف في عقابها إذا زنت، فهو نصف عقاب الحرة المتزوّجة، وأخيراً، فإن الإسلام يفضّل الصبر والزواج بالحرّة على الزواج بالأمة، في حالة عدم خوف المشقَّة.

﴿يُرِيدُ اللهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾﴾ شاء الله اللطيف أن يبيّن للبشريَّة منهج الكمال عبر هذه التشريعات العائليَّة

المسند للإمام الشافعي (ص ٢٢٥) مسند أحمد (ج ٣ ص ٣٨٠) وغيرها.

المهمّة، التي مشى عليها الركب المؤمن من قبل، بتوجيه من الرسالات السابقة. وما التشريعات الإلهيّة إلاّ لطف وعودة إلهيّة (توبة) على الإنسانيّة بالرحمة والتوجيه؛ لأنه ـ تعالى ـ الأعلم بحالها، والحكيم في علاج أدوائها، وتحقيق التوازن المطلوب في مسيرتها.

﴿وَاللّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلاً عَظِيمًا ﴿٢٧﴾﴾ أما أعداء الإنسانيّة المتَّبعون لشهواتهم الرخيصة من مثل: (الشيوعيين والفرويديين وباقي الفوضويين) فهم يعملون على أن يفقدوها هذا التوازن، ويميلوا بها عن سبيل الفطرة القويم. وما أسوأ عواقب هذا الميل العظيم

﴿يُرِيدُ اللّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾﴾ لاحظ التشريع الإلهيّ واقع الإنسان وفطرته، وشرَّع له التشريع الذي لا يكلّفه مشقّة وحرجاً بل يسلك به السبل الميسِّرة، لإيصاله إلى كماله، بعد أن لاحظ الشارع ـ تعالى ـ أنَّ الطبيعة الإنسانيّة تلازم الضعف وليست بقادرة ـ على طول الخطّ ـ على أن تمارس عملية تكامل تربويّ شاقّ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلاَ تَقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾﴾ في سياق التشريعات الاجتماعيّة جاءت هذه الآية المباركة، لتنفي أنماط التداول المضرَّة بالاقتصاد العامّ، والمقلّلة من فرص نمو الإنتاج، كانتقال الملكية عن طريق القمار والربا وأمثالها من سبل الباطل. في حين تفتح السبيل النظيف الضروري اجتماعياً، وهو سبيل التجارة التي تقرِّب بين المنتجين والمستهلكين، وتوسّع نطاق التعاون الإنسانيّ العامّ، بعد أن تتمّ عبر الرضا المتبادل من قبل المتعاملين، احتراماً لحقوق الملكيَّة الشخصيَّة التي تشكّل إلى جنب الملكيَّة العامّة العصبين الحسّاسين للاقتصاد الإسلامي. أما الاعتداء عليها فليس إلا اعتداء على المجتمع، وقتلاً لحياته الاقتصادية، تماماً كما يشكِّل قتل نفس إنسانيّة قتلاً للناس واعتداءً على وجودهم الحياتيّ.

وبهذا تتجلّى نظرة الإسلام الاجتماعيّة وواقعيَّتها واحترامها المتوازن للفرد والأمّة.

﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾﴾ إنّه التهديد الإلهيّ لكل من تسوّل له نفسه الاعتداء الظالم على حياة الآخرين وأموالهم، وبالتالي عرقلة المسيرة الاجتماعيّة المتكاملة، بأنّه سيصلى ناراً وسعيراً، وهو أمر يسير على الله تعالى.

﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾ المعاصي كلُّها تعدُّ كبائر لكونها مخالفة لأوامر الله العظيم المنعم، إلاّ أنّها إذا قيست إلى بعضها انقسمت إلى كبائر وصغائر، وربَّما تميَّزت الكبائر بشدَّة النهي عنها أو الوعيد عليها بالنار، كما أوضحته الأحاديث. وقد اقتضت الرحمة الإلهيّة أن تمنَّ على من اجتنبوا الكبائر وطهَّروا حياتهم منها بالعفو عن السيِّئات العابرة التي قد يقترفها الإنسان في حالة ضعف دونما إصرار وعناد، وإلاّ تحوَّلت السيّئة إلى كبيرة. وتشتدُّ الرحمة الإلهيّة بإدخال العبد بعد العفو إلى الجنّة، وهي المدخل الكريم.

﴿وَلاَ تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ اللّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُواْ وَلِلنِّسَاء نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُواْ اللّهَ مِن فَضْلِهِ إِنَّ اللّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾﴾ في الآية الكريمة تعليمات نفسيّة واجتماعيّة، فهي تنهى عن تمنّي ما لدى الغير من مزايا ومكتسبات، وتدفع للقيام بالوظائف الحياتيّة ودفع العجلة الاجتماعيّة دونما تباغض وتحاسد، وهي تؤكّد وحدة المجتمع الإنسانيّ وتوزيع الوظائف التكوينيّة والاجتماعيّة بين أبعاضه، كما أنّها تفسح المجال للاكتساب والإنتاج أمام الرجل والمرأة دون أن يظلم أحد أحداً، خلافاً للمبادئ السائدة آنذاك. وهي تربط الإنسان بالله، وتوجّهه إليه، ليسأله من فضله، وهو تعالى يمنّ عليه طبق إخلاصه ونواياه. وتختم الآية بذكر ما يحقّق طمأنينة الإنسان بصلاحية النظام الشرعي، إذ يقوم على علم الله الشامل لكل شيء.

﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٣٣﴾﴾ جعل الله لكل واحد من الرجال والنساء ورثة، هم أولى من غيرهم بالتركة، وقد ذكرت الآية الأسباب الثلاثة للإرث، وهي: الولادة والقرابة والزواج الذي يتمّ بعقد الأيمان، فيجب إعطاء الورثة نصيبهم التامّ.

﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاء بِمَا فَضَّلَ اللّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللّهُ وَاللاَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلاَ تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾ جعل الإسلام قيادة المجتمع العائليّ (أو العامّ) بيد الرجل، وهو ما عُبِّر عنه

ب(القوامة)، وذلك باعتبار ما يتميَّز به ـ نوعاً ـ من قدرات ذاتيّة، ومن إلزام بالإنفاق، وتوفير متطلَّبات الحياة المعيشيَّة، في حين تنهض المرأة بوظائفها العائليَّة التربويَّة بكلِّ أمان واطمئنان بال. والقوامة لا تعني بأيِّ حال إلغاء الدور الاجتماعيّ المؤثِّر للمرأة أو الاستهانة بشخصيتها.

ثم تمضي الآية للحديث عن المرأة الصالحة، فتصفها بأنّها القانتة، أي المطيعة للأوامر الإلهيّة، والحافظة للغيب والأسرار الشخصيَّة التي أمر الله بحفظها.

أمّا المرأة التي تأبى القيام بواجبها، ويُخاف منها التمرُّد (النشوز) الذي يؤدّي إلى تفكيك عرى العائلة، فإنّها توعَظ أولاً، وتُنصح، وإلاّ فتهجر في المضجع ـ كإجراء عاطفيّ ـ وأخيراً ربما يحتاج الأمر إلى بعض الضرب الخفيف، لتعود إلى الحالة الطبيعيّة، وحينئذ فلا سبيل عليها، ولا تصحُّ الاستفادة من الموقف للاعتداء عليها وظلمها، بل تجب في كل ذلك مراقبة الله العلي الكبير.

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُواْ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلاَحًا يُوَفِّقِ اللّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾﴾ وإذا ظهرت علائم الشقاق المستمرِّ بين الزوجين بما يهدّد العشَّ العائليّ الرحيم فإنَّه يُبعث حكم من أهله وحكم من أهلها ليدرسا سرَّ الخلاف بكل عناية وتجرّد، ليعود الصلح والوئام بتوفيق من الله العليم بالنوايا، الخبير بالسرائر.

﴿وَاعْبُدُواْ اللّهَ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُورًا ﴿٣٦﴾﴾ يتابع القرآن تعليماته الاجتماعيّة، مقيماً إياها على القاعدة الإسلاميّة الرئيسة: التوحيد سواء في الذات أو الفعل أو العبادة لله ـ تعالى ـ ومن هذه التعليمات مسألة الإحسان إلى الآخرين، والتي تبتني على أسس عاطفيَّة واعية، بدءاً بالإحسان إلى الوالدين، حيث يحمل معاني كثيرة، ومروراً بالإحسان لذوي القربى، ثمّ اليتامى والمساكين، للارتفاع بمستواهم الواطئ، ثمّ الجار القريب، والجار الأجنبي البعيد، وهكذا ينتهي المسير الإحساني إلى الدائرة الاجتماعيّة الواسعة، محقّقاً جوّاً عاطفياً رائعاً، وتكافلاً اجتماعيّاً عامّاً، وتواضعاً حيّاً لأوامر الله. وهي أهمُّ مميِّزات المجتمع المسلم الذي يحبُّه الله ويرضاه، والبعيد عن كلِّ ما يسخطه من اختيال وتكبُّر وتفاخر ونفسيّة ضعيفة.

﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا

لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٣٧﴾ في قبال الصفات الاجتماعيّة القائمة على الإحسان، يستعرض القرآن بعض الصفات الذميمة، ومنها البخل والبخل الساري، إذ يعبّر عن عدم إيمان كامل بالله وعدم يقين بوعده، فلا يكتفي أمثال هؤلاء بعدم قيامهم بأداء مقتضيات الإنعام الإلهيّ عليهم من الإنفاق، وإنما تراهم يندفعون لسدّ سبيل المعروف، فيأمرون النّاس بالبخل، وينحرفون بالملكيَّة الشخصيَّة عن أهدافها الطبيعيَّة. وما أن يطالبهم المجتمع بحقوقه، حتّى تراهم يخادعونه، ويكتمون ما آتاهم الله من فضله... كلُّ ذلك طمعاً وانحرافاً وحرصاً على منافع رخيصة ما أسرع فقدانها، حيث يواجههم بعد ذلك عذاب مهين، لكفرهم بأنعم الله.

﴿وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاء النَّاسِ وَلاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاء قِرِينًا ﴿٣٨﴾ ومذ يرى هؤلاء المنحرفون عن خطّ التوحيد العمليّ مصلحة شخصية في الإنفاق، يقدمون عليه مرائين الناس، عاملين على اقتناص استحسانهم وثقتهم، لتحقيق أغراضهم الدنيئة التي أبعدت من حسابها الإيمان بالله واليوم الآخر، وراحت تستمرئ حياة الشيطان وتمشي معه على خطوات الضلال، حيث الحيوانيّة الهابطة والدرك الأسفل.

﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُواْ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقَهُمُ اللّهُ وَكَانَ اللّهُ بِهِم عَلِيمًا ﴿٣٩﴾ إِنَّ اللّهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ نعم! ماذا على هؤلاء؟ وماذا سيخسرون لو استجابوا لنداء فطرتهم وآمنوا بالله تعالى إيماناً متعدياً إلى العمل، وأنفقوا مما أعطاهم الله وفي سبيله؟ إذن لسعدوا في الدنيا وعاشوا أروع حياة وأفلحوا في الآخرة، ولشملتهم عناية الله في الدارين، إذ يعلم بكلِّ ما يقوم به الإنسان، ولا يخفى عليه مثقال ذرة منه، فيجازيه دون أيِّ ظلم أو إجحاف، بل يضاعف جزاء الحسنات، ويعقبه بالأجر العظيم.

﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاء شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الأَرْضُ وَلاَ يَكْتُمُونَ اللّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾ يذكِّر القرآن هنا بمشهد القيامة الرهيب، حيث يؤتى من كلِّ أمّة بشهيد عليها هو نبيّها، ويؤتى بهذه الأمّة وشهيدها نبيّها صلى الله عليه وآله وسلم. وحينئذ يبدو الخزي العظيم لهؤلاء البخلاء المرائين أمام الخلق، فيودّون لو تسوَّى بهم الأرض، أي لو يعدموا أمام هذا الموقف الذي لا يستطيعون فيه أن

يكتموا الله حديثاً كما كانوا يفعلون في الدنيا، فيكتمون فضله ونعمته. وقد يُراد أنّهم يتمنَّونَّ آنذاك أن لو كانوا قد عُدموا ولم يكتموا حديث الله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقْرَبُواْ الصَّلاَةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى حَتَّىَ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلاَ جُنُبًا إِلاَّ عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىَ تَغْتَسِلُواْ وَإِن كُنتُم مَّرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاء أَحَدٌ مِّنكُم مِّن الْغَآئِطِ أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاء فَلَمْ تَجِدُواْ مَاء فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾﴾ نزلت الآية لتمنع من أداء الصلاة في حالة (السكر)، حيث قيل: إنَّ المراد به الكسل الشديد الذي يعقب النوم وغيره، كما قيل: إنها تعبّر عن مرحلة من مراحل التحريم التدريجيّ للخمر الذي انتهى بالتحريم. وربما منعت الآية من دخول المسجد حال السكر. وعلى أيِّ حال؛ فإن الآية تشعر بأنَّ الصلاة يراد منها تركيز الارتباط بالله تعالى، وتجسيد مفاهيم الإسلام ومعطياته، ولن يتمّ ذلك إلا بعد توفير جو الاطمئنان والخشوع والوعي الكامل، لما يُقال ويُفعل.

كما أنَّ الآية منعت الجنب من دخول المسجد حتّى يغتسل، إلاّ عابر سبيل، أي يقصد العبور. وفي هذا الحكم تركيز على قدسيَّة المسجد واحترامه.

ويحتاج المسلم للوضوء إن ابتلي بالحدث الأصغر كالمجيء من الغائط (أي محل التخلي)، وللغُسل إن ابتُلي بالحدث الأكبر (كملامسة النساء، أي مجامعتهن). فإن فقد الماء أو القدرة على استعماله نتيجة المرض أو السفر، للوضوء أو الغسل فعليه أن يتيمَّم، بأن يتوجَّه إلى صعيد طيِّب (أرض طاهرة)، فيضرب عليه بيديه، ثمّ يمسح بهما ما بين الجبينين من الوجه ثمّ اليدين إلى الزندين. وحكم التيمُّم تسهيل من الله للعبد، وتركيز على خضوعه له.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلاَلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ السَّبِيلَ ﴿٤٤﴾﴾ ينتقل القرآن هنا إلى الردّ على أهل الكتاب ـ واليهود خاصّة الذين أوتوا جزءاً من الكتاب الحقّ، نتيجة التحريف ـ ويفضح أساليبهم إذ يعجب منهم وهم يشترون الضّلال بدل الهدى، الذي تتوفَّر لديهم بعض دلائله المؤكِّدة صحَّة نبوَّة النبيّ ﷺ. ولا يكتفون بذلك بل يعملون على جرِّ المسلمين للضلال بكل وسيلة، أو لربّما كان ذلك بإظهار المودّة والنصح.

﴿وَاللّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾﴾ ولكن فليحذرهم

المسلمون ويقاطعوهم، باعتبارهم الأعداء التقليديين الذين يعلم الله عداوتهم، وما يحملون في نفوسهم من حقد وتآمر، وليعتمد المسلمون على أنفسهم، متوكّلين على الله، وكفى بالله وليّاً ونصيراً لكلِّ من يعمل في سبيله. وبهذا يتجلّى تثبيت القرآن للمؤمنين، وتثبيطه لأعدائهم، وكشفه لخططهم الجهنميَّة.

﴿مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِن لَّعَنَهُمُ اللّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴿٤٦﴾﴾ تأصّلت روح العناد والتحريف اليهوديَّة، فتجاوزت الأحكام والكتاب إلى الكلام والتعبير، فهاهم يقولون للنبي ﷺ تارة: سمعنا وعصينا، فلا داعي إذن لبذل الجهد معهم لإقناعهم، وهذا غاية العناد والجهل، وتجدهم تارة أُخرى يقولون له «إسمع ـ غير مسمع ـ وراعنا» وهي عبارة تعني في ظاهرها (استمع لنا ـ دون أن نأمرك بالسماع منا ـ واشملنا بالرعاية) ولكنهم يقصدون معنى إسمع ـ لا سمعت أو ابتُليت بالصمم ـ ووصفهم له بالرعونة. كلُّ ذلك ليّاً وطيّاً لألسنتهم في الكلام للتمويه والطعن في الدين الحقّ.

والقرآن إذ يذكر لهم هذه الصفة، ينفِّر المسلمين منهم، ويحذّرهم من تصرُّفاتهم الماكرة، ويذكر بعد ذلك البديل الصحيح لهذا التصرُّف السيّئ بأن يقولوا: سمعنا وأطعنا فاستمع الينا وأمهلنا (أُنظرنا) لنتبيَّن ماتقول. ولو سلكوا هذا السبيل القويم لكانوا أهلاً للسمع والتعامل معهم، ولكان ذلك خيراً لهم؛ لأنه يهديهم إلى الحقّ. إلاّ أنها يهود الماكرة ـ الكافرة ـ ولن تسير على طريق الحقّ إلاّ القليل منها، ممَّن وعى الحقيقة فآمن بها وأخلص لها.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ آمِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللّهِ مَفْعُولاً ﴿٤٧﴾﴾ يدعو القرآن (أهل الكتاب) إلى الإيمان به، كتاباً مصدّقاً لما جاء في كتبهم السابقة من تعاليم وبشارات، ويهدِّدهم إن هم لم يؤمنوا بطمس وجوههم أي إزالة علائمها الإنسانيّة، وإرجاعهم عن مسيرهم الفطريّ، وإبعادهم عن رحمة الله، ومسخهم قردة وخنازير كما مُسخ أصحاب السبت، وهم اليهود الذين اصطادوا في ذلك اليوم مع تحريمه عليهم.

﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء وَمَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾﴾ إنَّ الشرك بالله ظلم عظيم، سواء في المجال العقائديّ أو المجال العمليّ، كعبادة الأحبار والرهبان والطغاة، وتلقّي النظم من الكافر وما إلى ذلك. ولن يؤهَّل المشرك لرحمة الله إلا أن يرجع إلى سبيل الإيمان، أمّا ما دون الشرك من المعاصي الصادرة نتيجة ضعف إنسانيّ أمام الهوى فهي في معرض الغفران، جزاء عمل صالح أو شفاعة شافع، وذلك على أُسس وموازين تحدّدها الحكمة الإلهيّة (لمن يشاء) ويشكّل الجهل بتوفُّرها مانعاً من ارتكاب الجرائم، والاعتماد الكلي على الغفران.

وأخيراً ركَّزت الآية على الجذور الفطريَّة للإيمان والتوحيد، أما الشرك فما هو إلا افتراء عظيم على الوجدان والعقل.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ بَلِ اللّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاء وَلاَ يُظْلَمُونَ فَتِيلاً ﴿٤٩﴾ انظُرْ كَيفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللّهِ الكَذِبَ وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾﴾ ابتُلي اليهود بحالة العُجب، أي أن يزكّي الفرد نفسه، ويتصوَّر أنّه مثال الإيمان والإنسانيّة، وهذا إنما يعبِّر عن جهل وأنانيَّة وغرور، دعاهم لأن يصفوا أنفسهم بأنهم شعب الله المختار، وإذا كان عُجب الفرد بنفسه محطِّماً لشخصيّته، فإن عُجب المجتمع يجرُّه إلى الانحطاط الحضاري، وعدم مواصلة المسيرة التكامليَّة، وهي من إيحاءات الشيطان، وإلاّ فالتزكية عطاء إلهيّ يتمّ نتيجة عمل إنسانيّ خيِّر هادف، ولن يضيع في حساب الله تعالى أيُّ عمل مهما كان قليلاً (الفتيل هي النقطة على النواة) وهكذا يكشف القرآن عن افتراء اليهود، ويعجب من مدّعياتهم التي ينسبونها إلى الله، مبعداً المسلمين عن سلوك سبيلهم المنحطّ.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَؤُلاء أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُواْ سَبِيلاً ﴿٥١﴾﴾ تعرية أُخرى لليهود الّذين أُوتوا شيئاً من الكتاب بعد تحريف الكثير منه، فاستبدلوا الهدى والإيمان باتّباع سبيل الضّلال وعبادة الجبت (وهو كلُّ ما لا أثر له كالصنم) والطاغوت (وهو كلُّ ما تمرَّد وطغى على أمر الله من شيطان أو حاكم متجبِّر وأمثالهما).

وقد بلغ بهم السير مع المصالح إلى أن سوَّلت لهم أنفسهم ضرب الوجود الدينيّ الموحِّد، وذلك عندما شهد جماعة من اليهود لدى المشركين بأنّهم ـ أي المشركين ـ أهدى وأقوم سبيلاً من المسلمين.

﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾﴾ وهكذا تتَّحد مسيرة الإنسان التافه العابد للطاغوت مع مسيرة المشرك، فكل منهما تبعد عن السير الفطريّ الإنسانيّ، وتستحقّ لعنة الله والحرمان من عطائه.

﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لاَّ يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾﴾ وهكذا يستعرض القرآن صفات اليهود من (البخل والحرص والحسد والتحريف وأمثالها) فهم يستكثرون على النبيِّ ﷺ أن يؤتيه الله النبوّة والمقام الجليل، غافلين عن أنَّ الملك بيد الله وليس لهم منه نصيب وإلاّ لحرموا غيرهم من أيّ شيء منه حتّى بمقدار النقير (النقرة على النواة).

وهنا يذكّرهم القرآن بما آتاه الله لآل إبراهيم من الحكمة والنبوَّة والملك العظيم، فكفر بها بعض، وآمن آخرون، فعلام يحسدون النّاس (أي النبي ﷺ وآله) على أن نقل الفضل والنبوَّة والإمامة اليهم بعد أن نكل اليهود عن حمل أمانة الله، وراحوا يمعنون في الضلال، فجزاؤهم السعير.

﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَآ آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾﴾ والحسد صفة أُخرى ابتُلي بها اليهود بعد نكولهم عن حمل رسالة الله، ولذا تجدهم يعارضون الرسول ﷺ حسداً منهم على نعمة النبوة التي تفضَّل الله بها عليه، وربَّما كان التعبير بالناس وإرادة خصوص الرسول زيادة في التقريع لهم أو باعتبار أنَّ الرسالة تحملها الأمّة والرسول في طليعتها، وقد يكون المراد هو الرسول وأهل بيته بقرينة ذكر آل إبراهيم في الآية، وشهادة الروايات لذلك.

والواقع أنّ الحسد لا معنى له، فالرسالة فضل ونعمة تشمل من له أهليَّة حملها، وحين كان آل إبراهيم وبنو إسرائيل بالخصوص مؤهَّلين حملوها، وعندما نكلوا عن ذلك وانقسموا إلى فريقين؛ فبعض ثبت على إيمانه والآخر صدَّ وانحرف عنه، انتقلت إلى الأمّة المسلمة لتحملها إلى الأجيال.

والحسد مرض يبدِّد طاقات الفرد والأمّة، ويسير بهما نحو الانحلال، ويبعدها حتّى عن

عقيدتها، ويتركها فريسة القلق والأوهام، وقد جاء في الروايات: «إنَّ الحسد يأكل الإيمان كما تأكل النار الحطب»[١].

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ الْعَذَابَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلاًّ ظَلِيلاً ﴿٥٧﴾﴾ وتلك عاقبة طبيعيَّة للفريقين، فالفريق المتنكِّر للحقِّ والفطرة، المتمرِّد على أوامر الله، الناكل عن حمل رسالته ينتهي به الأمر إلى جهنّم يصْلونها ـ أي يحترقون فيها بشدّة ـ ويستمرُّ بهم العذاب بلا انقطاع، فإذا ما احترقت جلودهم بدّلوا غيرها ليستمرَّ التنكيل والإحساس بالألم، والله عزيز قادر، كما أنّه حكيم يجازي كلاً بما يستحقه. في حين يعدالله الفريق المؤمن بالخلود في جنّات النعيم، التي تتوفَّر فيها أسباب الهناء، حيث الأزواج المطهَّرة من كلّ لوث، والظل الظليل (الدائم أو الذي لا حرَّ فيه ولا برد).

﴿إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ إِنَّ اللّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾﴾ ردَّ القرآن من قبل على اليهود الحاسدين، بأنهم نكلوا عن حمل الرسالة، وهي أمانة الله ففقدوا مكانتهم منها، وها هو يذكّر الإنسانيّة كلّها بأداء الأمانة، سواء كانت أمانة فطريَّة أو حضاريّة أو علميَّة، وفي طليعة الأمانات الاجتماعيّة أمانة الحكم والولاية الإلهيّة، والحكم بالعدل الشامل للناس، باعتباره أساساً لكلِّ العلاقات الاجتماعيّة.

وقد بلغت العدالة الإسلاميّة في القضاء ـ مثلاً ـ إلى حد قوله ﷺ لعلي عليه السلام: «سوِّ بين الخصمين في لحظك ولفظك» ونعم ما يعظ الله به عباده وهو السميع البصير، العليم بكلِّ ما يصلح الإنسانيّة.

وهكذا يدعو القرآن هنا إلى بناء المجتمع على أساس الأمانة والعدل.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ

١. الكافي، ج ٢، ص ٣٠٦، ح ٢، ٣، و ج ٤، ص ٨٩، ح ٩.

فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴿٥٩﴾ يقرِّر القرآن هنا مبدأ الطاعة، كأحد دعائم المجتمع الإسلاميّ، الحامل للأمانة الإلهيّة، والطاعة الحقيقيّة لله وحده، وينبثق عنها لزوم طاعة الرسول، والامتداد القياديّ له المثّل في وليّ الأمر من المسلمين. ولما كان الأمر بالطاعة مطلقاً لزم كون الولي معصوماً بالدرجة الأُولى، ولذا فسر أُولو الأمر ب(أهل البيت عليهم السلام) الذي أذهب الله عنهم الرجس. ولما كان المبدأ عامّاً مستمرّاً فمن الطبيعي أن يصار إلى طاعة أقرب النّاس إلى المعصوم ـ علماً وسلوكاً ـ عند غيبته، وليسوا إلاّ الفقهاء العدول الأكفاء، وهو ما أكّدته روايات (ولاية الفقيه). ومن الواضح أنها لذلك لا تشمل الحكّام الظالمين والمتسلِّطين دونما مسوّغ شرعيّ على رقاب المسلمين.

فإن اختلف في الحكم الإسلاميّ الثابت، فالمرجع الأساس هو القرآن والسنّة النبوية. أما أُولو الأمر فليس لهم أن يضعوا أو ينسخوا حكماً ثابتاً بهما، ولذا لم يذكروا عند الردّ.

وربّما كان المراد من قوله تعالى: ﴿ذلك خير وأحسن تأويلاً﴾ أنّ الشريعة صُمِّمت على أساس مصالح واقعيّة تؤول إليها الأحكام، أو توقُّف السعادة الإنسانيّة على الالتزام بالشريعة.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُواْ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُواْ إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُواْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلاَلاً بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ تساؤل إنكاري يعبِّر أروع تعبير عن العلاقة بين الدين والحياة بكلِّ شؤونها، من خلال استنكار زعم المنافقين بأنهم يؤمنون بالشرائع الإلهيّة كلّها، في حين نجدهم يتحاكمون إلى الطاغوت، الذي يعني ما يقابل الشريعة الإلهيّة من شرائع وضعيَّة استمدَّت خططها من عقل الإنسان المحدود وغير المؤهَّل للتشريع، ولذا كان قيامه بالتشريع خروجاً عن الحدِّ الطبيعي وطغياناً، وادّعاءً لصفة من صفات الله تعالى.

ووجه الغرابة في عمل هؤلاء، أنَّ إيمانهم يدعوهم لتحكيم الشريعة في كلِّ حياتهم، ولكنَّ سلوكهم العمليَّ المادّيّ لا ينسجم مع ذلك، فهم يعيشون التناقض بين العقيدة الإلهيّة والسلوك المادّيّ الطاغوتيّ، وتلك مكيدة شيطانيَّة؛ لإيقاع الفصل بين الدين والسياسة والحياة، وذلك لكي لا يؤدّي الدين دوره القياديَّ المطلوب.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَى مَا أَنزَلَ اللّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ

صُدُودًا﴿٦١﴾ إنّها صفة النفاق الدائمة... فمن جانب يدّعي هؤلاء الإيمانَ بالشريعة الإلهيّة، ومن جانب آخر يُعرضون عن تطبيق تعاليم الله وأوامره. إن الفرد لا يمكنه أن يكون مسلماً ويعمل في إطار الكفر والطاغوت، وكل ما يبتدعه الانحراف من أُطر قوميَّة ووطنيّة وعلمانيّة وغيرها.

﴿فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآؤُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾﴾ إنَّ النتيجة الطبيعيّة لعدم تطبيق منهج الله في الحياة هي الضياع والمصائب، والانهيار بلاريب، وحين يحدث ذلك يلجأ المنافقون إلى الرسول كاذبين للمرة الثانية، وهم يقسمون بالله ـ وما أعظم جرأتهم عليه ـ أنّهم باتجاههم إلى الطاغوت وتحكيمه إنما أرادوا الإحسان والتوفيق وحلَّ الأزمة بين الحقّ والباطل!! وإيقاع التصالح بين النظام الإلهيّ والنظام الوضعيّ!!

وهذه حالة منافقة خطيرة نشهدها في كلِّ عصر، ويمكن أن يسقط فيها بعض البسطاء من المسلمين الانهزاميّين، حيث يسعون جاهدين إلى إضفاء الصبغة الإسلاميّة على مناهج غريبة عنه، كالاشتراكيَّة والديمقراطيَّة الليبراليّة بل وحتى الماركسيَّة وغيرها، فيلتقطون أحكاماً من هنا وهناك ليشكلوا منها خليطاً غير متجانس، ممّا يوقع المجتمع المسلم في دوّامة القلق ويفقده شخصيَّته الإلهيّة المستقلَّة.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغًا ﴿٦٣﴾﴾ ولكنَّ المرض القلبيَّ لا يخفى على الله، والنوايا منكشفة أمامه، فلتعاملهم أيّها الرسول معاملة حسنة، فيها الإعراض والرفض لهذا الاسلوب، وفيها الوعظ البليغ النافذ إلى أعماق النفس.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُواْ أَنفُسَهُمْ جَآؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُواْ اللّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُواْ اللّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾﴾ إلاّ أنَّ الوعظ يُعتبر مرحلة في المواجهة. ومن ثمّ يأتي التذكير بأنَّ الرسول الإلهيّ يبلِّغ عن الله رسالته، ويطبّق شريعته في الأرض حاكماً وقائداً، فتجب طاعته فيما يبلِّغ وفيما يأمر به، ليستطيع قيادة التجربة التربويَّة للبشر.

وهنا فتح لأبواب التوبة واراءة للسبيل الصحيح، فبدلاً من ظلم أنفسهم المتمثِّل في الكذب والقسم الكاذب، والتذرُّع بالحجج التوفيقيَّة الواهية نتيجة مخالفتهم لمقتضيات الإيمان العمليّة، كان عليهم العودة إلى تطبيق شريعة الله والتوبة، وطلب المغفرة من الله

مصحوباً بشفاعة الرسول واستغفاره لهم، وحينئذ سيجدون الله تواباً رحيماً بعباده.

﴿فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ إنها القاعدة الإسلاميّة الأساس التي تقرر عدم الإيمان عند عدم التحكيم الإلهيّ في الحياة، بل وعند عدم تقبُّل هذا التحكيم بصدر رحب، والتسليم المطلق له.

وبهذا تقرّر العلاقة بين النظرة الكونيّة والمنهج السلوكي كأقوى ما يكون. وقد ورد عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «لو أنّ قوماً عبدوا الله وحده لا شريك له، واقاموا الصلاة وآتوا الزكاة، وحجوا البيت وصاموا شهر رمضان، ثمّ قالوا لشيء صنعه الله أو صنعه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ألا صنع خلاف الذي صنع، أو وجدوا ذلك في قلوبهم، لكانوا بذلك مشركين، ثمّ تلا هذه الآية، ﴿فلا وربك...﴾ ثمّ قال ابو عبدالله: عليكم بالتسليم»[١].

﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُواْ مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلاَّ قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذاً لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْراً عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾﴾ إنَّ حمل الرسالة وإبلاغها عمل يتطلَّب التضحيات بالنفس والوطن والراحة، وهو مالا يتحمّله ضعاف الإيمان، إذ يتطلَّب إيماناً عميقاً والتزاماً أكيداً بطاعة الله والرسول، وهو أمر لا يتوفَّر إلاّ لدى القليل ممَّن وفى بعهد لله. وهنا تؤكّد الآية أهميّة طريق التضحيات، وتعد بنتائجه الخيرة التي تعود إلى النفوس تقوية وتثبيتاً، وعلى المجتمع عزّة وخيراً، وأجراً عظيماً في الدنيا والآخرة، وهداية إلهيّة إلى الصراط المستقيم، حيث رضوان الله وانفتاح السبل نحو الكمال أمام المؤمن المجاهد المهاجر في سبيل الله.

﴿وَمَن يُطِعِ اللّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللّهِ وَكَفَى بِاللّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾﴾ إنَّها مسيرة مؤمنة واحدة، يتّصل آخرها بأوّلها، مسيرة الطاعة لله والرسول، مسيرة الذين تمتّعوا بنعم الله وفي طليعتهم النبيّون والصدّيقون قولاً وفعلاً، والشهداء على أعمال الخلائق، والصالحون المتهيّئون للكرامة الإلهيّة. وما أروع هؤلاء من رفاق في هذه المسيرة الممتدَّة، وإنه الفضل الإلهيّ الذي يشمل النفوس المستعدَّة، والله عليم بها وبكلِّ ما يهديها إلى الهدف الكبير.

---

١. الأصول من الكافي، ج ١، ص ٣٩٠.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ فَانفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُواْ جَمِيعًا ﴿٧١﴾﴾ من توجيهات القرآن العسكريَّة للمسلمين؛ التزام اليقظة والحذر الدائم من العدو، ومن موارده: الخروج الجماعيّ للقتال (ثُبات: جمع ثُبة، أي بشكل مجموعات، وجميعاً: أي بشكل جيش عامّ) وعدم الخروج الفرديّ لقتال العدو، ذلك أن التنسيق والتجمُّع يحمل قوّة جديدة وحذراً أشدّ.

﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ الله لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾﴾ ولكي يشدَّ القرآن من أواصر الجيش وينفي عنه عناصر الضعف، يذكِّر المسلمين بوجود أُناس مبطِّئين يتثاقلون هم عن القتال، ويثبِّطون عزائم الآخرين، والذي تركهم في هذه الحالة إنّما هو ضعف شخصيَّتهم وتركيزهم على مصالحهم المادّيّة الضيِّقة، وهم بتخلُّفهم هذا يجعلون أنفسهم كما يزعمون بمنأى عن الخطر، فإن نزلت بالمسلمين المحاربين مصيبة اعتبروا عدم إصابتهم بها نعمة إلهيَّة!! وما هو إلاّ الخسران، إذ لم ينالوا حظَّ الشهادة. أما إذا أصاب المسلمين فضل إلهيّ فإنهم يعلنون حسرتهم على عدم حصول فرصة المشاركة والفوز بالغنيمة، وكأنَّهم كانوا بعيدين عن الجيش المقاتل، ولم تكن بينهم أواصر قويّة؛ لأنهم تقاعسوا أو انفصلوا عنه لضعف شخصيَّتهم. وهذا التعبير إنكار عليهم في عدم انسجامهم العاطفي مع مجتمعهم، فهم يفرحون لحزنه ويحزنون لفرحه.

﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَيُقْتَلْ أَو يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾﴾ وهنا يحرِّض القرآن المسلمين على الجهاد والقتال من خلال تشخيص الهدف (في سبيل الله) أولاً، ومن خلال بيان حقيقة الحياة الممتدَّة التي يشري (يبيع) فيها المقاتل حياة دنيا زائلة بحياة أُخرى خالدة، وينطلق لتحقيق إحدى الحسنيين على أيّ حال، إما القتل وإما النصر، وكلاهما يؤديّان إلى أجر إلهيّ عظيم.

﴿وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاء وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾ يواصل القرآن هنا تركيز الهدف، محرّكاً الحسَّ العاطفيّ والأُخوَّة الإيمانيّة. فالهدف هو تحقيق رضا الله الذي يتمثّل أحياناً في إنقاذ المستضعفين المؤمنين

الرازحين تحت نير الكفار والمستغيثين بالله، كي يخرجهم من القرية الظالم أهلها (كما كانت مكّة أثناء سيطرة المشركين عليها) ويجعل لهم وليّاً ونصيراً من عنده.

﴿الَّذِينَ آمَنُواْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُواْ أَوْلِيَاء الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾﴾ إنّهما خطّان: خطّ الحقّ، وخطُّ الباطل. فخطُّ المؤمنين هو القتال في سبيل الله الكامل المطلق، فهم أولياء الله والله وليُّهم، وخطُّ الكافرين هو القتال في سبيل الطاغوت، وما أخسَّ هذا الهدف وأرخصه، فهم أولياء الشيطان بما يمثّله من انحراف، والشيطان وليُّهم على مافيه من ضعف وخسّة. وحينئذ فموقع المؤمنين هو الأعلى وهو الأقوى، وعليهم أن يقارعوا خطّ الشيطان على مدى التاريخ.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّواْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدَّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى وَلاَ تُظْلَمُونَ فَتِيلاً ﴿٧٧﴾﴾ وفي مجال التذكير بنقاط الضعف، يتعرَّض القرآن إلى حالة أُولئك الَّذين كانوا يتوقون إلى القتال والردّ العنيف على الأعداء، في ظروف لا تسمح لهم بذلك. ولذلك أُمروا بالكفِّ والعمل على البناء الذاتيّ عبر إقامة الصلاة وايتاء الزكاة، إلا أن الضعف النفسيّ لبعضهّم ظهر حين أمروا بالقتال ـ بعد ذلك ـ إذ راحوا يخافون هجوم النّاس كما يخافون الله أو أشد من ذلك، مما دعاهم لأن يدعوا الله كي يؤخّرهم في الحياة قليلاً، ولا علاج لهؤلاء إلاّ تقوية إيمانهم بالله والآخرة، وتعميق تقواهم إلى الحدِّ الذي يشعرون معه بتفاهة متاع الدنيا، وخير الحياة الآخرة، حيث العدل العميم، فلا يُظلَم النّاس فتيلاً (شيئاً قليلاً).

﴿أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَذِهِ مِنْ عِندِ اللّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلًّ مِّنْ عِندِ اللّهِ فَمَا لِهَؤُلاء الْقَوْمِ لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾﴾ إنّه مفهوم لو تأمَّله الإنسان المتقاعس الخائف لأدرك حقيقته، وتغلَّب على ضعفه هو من خلال ذلك، فإن الموت لا يقف أمامه حائل حتّى ولو عاش الإنسان في قبب وبروج عالية مشيَّدة بعيداً عن كل خطر ومكروه. وفي حياة الطواغيت أهل البروج والقصور، عبر ودروس.

وتواصل الآية كشف ضعف تصوُّرات هذا الفريق المتقاعس، فتذكر أنّهم إن أصابهم الرخاء نسبوه إلى الله وإن أصابتهم الشدَّة تصوَّروا أنها من فعل الرسول، في حين أنَّ كلَّ المخلوقات والحالات منسوبة إلى الله تعالى تكويناً، وهو ﷺ متَّبع لأوامر الله في مجال التشريع، فكلُّ أمر هو بيدالله، ومن الله، يجريه طبقاً للسنن والحكم والمصالح. وأخيراً تعيب عليهم أنّهم لا يعون ولا يدركون (يفقهون) التصوُّرات الصحيحة.

﴿مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً وَكَفَى بِاللّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾﴾ لما كان حُسن الشيء انسجامه مع هدفه الذي خُلِقَ أو جُعِلَ لأجله، فإن التناسق العام يشهد بعموميَّة الحُسن في الكون؛ لأنه كلّه تعبير عن لطف الله بالوجود، ويسري إلى عالم التشريع. فكلُّ حكم إلهيّ هو الحُسن بعينه، وكلُّ ما يُصيب الإنسان نتيجة عمله بحكم الله حسن بلا ريب. أما إذا ابتُلي الإنسان بنقص في اللطف والحسن فذلك بفعل نفسه، فعلاً يسدُّ باب القابلية لهذا اللطف ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حتّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[1]. فعلى الرسول إذن أن يوصل اللطف الإلهيّ، ويشهد مسيرة تطبيق رسالة الله، وما عليه ـ إذا لم يؤمن النّاس أو ضعفوا عن حمل الرسالة ـ من شيء إذ ان الله تعالى هو الذي سيحاسب هؤلاء، وكفى به شهيداً وحسيباً.

﴿مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ وَمَن تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾﴾ فالرسول يقوم بابلاغ الرسالة الإلهيّة، كما يقود الأمّة على أساسها، باعتبارها شريعة تربِّي الإنسانيّة وتنظّم كلَّ شؤونها، وإنَّ طاعة الرسول في أوامره القياديَّة هي نفس طاعة الله تعالى في أوامره، ولا يمكن الفصل بين الطاعتين.

أما من أعرض وتولّى فإن الرسول ليس مسؤولاً عنه.

﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُواْ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلاً ﴿٨١﴾﴾ نقطة ضعف أُخرى لدى المنافقين، إذ يعلنون الطاعة المطلقة للرسول ﷺ، فإذا خرجوا من عنده راح بعضهم يبيّت

---

١. الأنفال: ٥٣.

(يضمر) غير ما يريده الرسول، إلاّ أنّ كلَّ هذا لا يخفى على الله، إذ يكتب ما يسرُّون ويضمرون ويحاسبهم على ذلك. أما الموقف فعلاً فإن على الرسول آنذاك الإعراض عنهم، باعتبار أنّ المسيرة ستهضمهم والآيات ستتبيَّن لهم، ولا ضير في عصيانهم مادام الله هو الوكيل المتكفّل بنصر هذا الدين. هذا، وربَّما كان عصيانهم نتيجة عدم إيمانهم بمنبع القرآن والوحي. ولذا تأتي الآية التالية فتقرّ حقيقة النسب الإلهيّ للقرآن.

﴿أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّه لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا (٨٢)﴾ فالقرآن الكريم إذا لوحظت كيفية نزوله التدريجيّ خلال ثلاث وعشرين سنة، وفي حالات مختلفة متفاوتة، ومعالجته لمختلف الشؤون الحياتيَّة معالجة دقيقة فطريَّة، فهو متناسق في كلِ جوانبه، مرن مستوعب للحالات المتغيّرة والثابتة، كلُّ ذلك على وتيرة واحدة لا يأخذه هوى، ولا يتعثَّر به جهل، معجز في ألفاظه ومعانيه، نافذ إلى أعماق الإنسان وعلاقاته، مخطَّط لإشباعها الإشباع العادل، يفسّر بعضه بعضاً، ويدلُّ بعضه على بعضه الآخر،

فإذا لوحظ كل ذلك فيه توضَّح نسبه السماويّ الإلهيّ دونما ريب أو شك، وإلاّ لتأثّر بالحوادث المتغيِّرة والعواطف المتفاوتة، والمعلومات المتكثّرة، والبيئة المتطوِّرة وغير ذلك، ولحدث فيه الاختلاف الكثير، وهو ما يشهد الوجدان العرفي بعدمه في القرآن، بعد التأمُّل والتدبَّر ـ أي قراءة ماوراء الظواهر ـ من دلالات بما يتناسب مع قُدرات الفرد المتأمّل.

﴿وَإِذَا جَاءهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلاَ فَضْلُ اللّه عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاَتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلاً (٨٣)﴾ نقطة ضعف أُخرى لدى هؤلاء الذين تركِّز عليهم الآيات، وهي نشر الإشاعات التي تبعث الذعر والتخويف، أو كشف بعض الأسرار المرتبطة بالأمن الإجتماعيّ، مما يؤثّر على المعنويّات الداخليَّة للمسلمين، ويفسح المجال للوهن والضعف، كلُّ ذلك إما عن ثرثرة أو تبجُّح غير مسؤول أو نفاق وعداء، واتّباع لمصالح ضيِّقة، إلاّ أنّه كان الأجدر بهؤلاء أن يتأكَّدوا من الأمر بإرجاع الخبر إلى الرسول والى أولي الأمر العارفين بالواقع. وحينئذ فإن المتتبِّعين للحقيقة (المستنبطين) سوف يعرفونها تماماً، وبهذا الأسلوب يسدُّ القرآن ثغرة كبرى كانت شياطين الأعداء تنفذ منها لإضعاف معنويّة الأمّة المسلمة، ولولا هذا الفضل الإلهيّ لأثَّرت نشاطاتهم على الأكثريَّة ولم يسلم منها إلا القليل.

﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ لاَ تُكَلَّفُ إِلاَّ نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَاللّهُ أَشَدُّ بَأْساً وَأَشَدُّ تَنكِيلاً ﴿٨٤﴾﴾ وهنا يأتي هذا الأمر القرآني العظيم للرسول ليقرّر الموقف الحاسم والحازم ويأمره بالقتال، حتّى ولو تقاعس الآخرون عنه وبقي لوحده، فهو تكليف إلهيّ يجب أن يطبَّق، ويعده بردِّ الله لهجوم الكفار وقوّتهم، والله أقوى وأشدّ عذاباً من غيره، وفي هذا الأمر معان كثيرة من التحريض على الجهاد، والإصرار على استمراره، والتعريض بالمتقاعسين، ودفعهم لاستحضار إيمانهم بالقوَّة الإلهيّة المطلقة.

﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُ كِفْلٌ مِّنْهَا وَكَانَ اللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتاً ﴿٨٥﴾﴾ في سياق الحديث عن الملابسات التي كان المنافقون يحدثونها بتصرفاتهم، فتارة يقفون في صف الإيمان وأُخرى في صف الكفر مما يوجب نوعاً من الريب في قتالهم، وربَّما شفع لهم بعض المؤمنين لحمايتهم، في هذا السياق تأتي هذه القاعدة العامّة لتطلب التأكُّد من الشفاعة للآخرين وحسنها؛ لأنَّ الشفيع يحصل على نصيب من الثواب إن كانت الشفاعة حسنة، ويتكفَّل بشيء من جريرتها إن كانت سيِّئة، والله تعالى بكلِّ علمه وإحاطته هو (المقيت) الذي يمنح النتائج حسنة أو سيئة.

وربّما كان المراد بالشفاعة أيضاً التحريض والتوسُّط في دفع المؤمنين للقتال (حسنة) أو تثبيطهم عنه (سيِّئة).

﴿وَإِذَا حُيِّيْتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيباً ﴿٨٦﴾﴾ ورغم أن الجوَّ الذي وردت فيه الآية يوحي بلزوم الردِّ بالمثل من المسلمين على عروض الطرف الآخر إن بدرت منهم بادرة حسنة، إلاّ أنها تطرح الأمر بشكل قاعدة عامّة تطلب من المسلم أن يردَّ التحيّة بأحسن منها أو بمثلها على الأقل، وإذا كان هذا بالنسبة للتعامل مع غير المسلمين، فهو أولى أن يحصل بين المسلمين أنفسهم.

هذا وقد امتاز المسلمون في تحيّتهم بكلمة (السلام عليكم) (وربما كانت من مواريث الأنبياء أو خصوص إبراهيم عليه السلام) وتمتاز هذه التحيَّة بأنها لا تحمل معاني الخضوع والتذلُّل، وإنما تحمل معاني الثقة المتبادلة والتعهّد الإسلاميّ برعاية الحقوق وتقوية الأواصر، ومن هنا أُمر المسلمون بإفشاء السلام ووجب الردُّ عليه حتّى في حالة الصلاة.

﴿اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لاَ رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾﴾ تركِّز هذه الآية الاعتقاد بالتوحيد والمعاد، باعتبارهما العلاجين الأساسين لكلِّ أنماط الضعف النفسيّ، وبالتالي الضعف الاجتماعيّ اللَّذين قد يبتلى بهما المسلمون خلال مسيرتهم. وتجسّد الآية أمامهم صورة يوم القيامة واجتماعهم فيه حقيقة ثابتة لا ريب فيها ولا شك، حيث تحدَّث عنها الله تعالى ووعد بها، وهل هناك أصدق من الله في كلامه وحديثه؟ وبهذا التصوير تستقرُّ في النفس روعة ذلك اليوم وجلاله، لتنعكس آثاره الايجابية على شخصية الإنسان المسلم وسلوكه.

﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُواْ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً ﴿٨٨﴾ وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَاء فَلاَ تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَاء حَتَّىَ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتَّمُوهُمْ وَلاَ تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيرًا ﴿٨٩﴾﴾ المراد هنا هم أُولئك الذين أسلموا بألسنتهم، ولكنَّهم لم يهاجروا من مكَّة، بل ظلوا هناك وانسجموا حتّى مع عقائد المشركين وعواطفهم، فودُّوا أن يكفر المسلمون مثلهم ليكونوا جميعاً سواء، وعلى أيّ حال فإن هؤلاء نتيجة نطقهم بكلمة الإسلام اختلفت كلمة المسلمين في نوعية الموقف الذي يجب أن يتَّخذ تجاههم، وهذا الاختلاف نقطة ضعف تعالجها هذه الآية، فتوضّح أنّ هؤلاء قد غرقوا في خطاياهم واختاروا طريق الضّلال فلا سبيل لهم بعد ذلك للخلاص. ومن هنا ودّوا أن يحيلوا المسلمين كفّاراً لتتساوى الحالات، وماداموا كذلك يجب قطع كل أواصر المودّة، حتّى يعودوا إلى ذواتهم ويثبتوا إيمانهم من خلال تحمُّلهم للأذى في سبيل الله فيهاجروا في سبيل الله، ومالم يفعلوا ذلك فإن على المسلمين ملاحقتهم أينما وجدوا باعتبارهم كفّاراً حربيين.

﴿إِلاَّ الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىَ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ أَوْ جَآؤُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَاتِلُونَكُمْ أَوْ يُقَاتِلُواْ قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاء اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْاْ إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً ﴿٩٠﴾﴾ ورغبة من الإسلام في توفير فرص أُخرى للمعاندين، وربَّما تجاوزاً لحالة تأليب الأعداء أو تحييداً لبعضهم وتشتيتاً

لكلمتهم، نجده في هذه الآية يستثني من المنافقين آنفي الذكر مجموعتين:

الأولى: من لجأوا إلى معسكر بينه وبين المسلمين عهد وميثاق هدنة.

الثانية: من وقفوا على الحياد فلا هم يقاتلون المسلمين مع قومهم، ولاهم مع المسلمين ضدَّ قومهم، فإن هممهم وصدورهم لا تتسع لاتخاذ موقف حاسم (وهم نظير بني مدلج كما في الروايات).

إلاّ أن هذه الحالة كانت مؤقّتة، فبمجرَّد ظهور قوّة الإسلام، تمَّ نفي وجود المشركين مطلقاً.

ربَّما كانت الآية توضّح الحكم السابق، وأنّ هؤلاء المعتزلين المحايدين كان بإمكانهم أن يشكّلوا قوّة قتالية ضدَّ المسلمين، فيجب استغلال فرصة الحياد ومنح هؤلاء الأمان، وعدم التعامل معهم بمثل التعامل مع من ذكر من قبل، فلا سبيل للمسلمين عليهم.

﴿سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُواْ قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوَاْ إِلَى الْفِتْنِةِ أُرْكِسُواْ فِيِهَا فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُواْ إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوَاْ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثِقِفْتُمُوهُمْ وَأُوْلَئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا ﴿٩١﴾﴾ تحذير قرآنيّ من أُناس آخرين منافقين يضعون أنفسهم في صفّ المحايدين لكي يأمنوا خطر المسلمين وخطر قومهم، إلاّ أنّهم مراوغون خطرون قد يظهرون بألسنتهم الإسلام، ولكنهم راكسون ومنغمسون في عبادة الأوثان، فيجب التأكُّد من حيادهم وعدم ميلهم وتآمرهم، وإلاّ فتجب ملاحقتهم وقتلهم أينما كانوا. وللمسلمين الحقّ في هذا التتبُّع قطعاً لدابر الفتنة، واستئصالاً لمواطن الخطر المتمثّل في ثنائي الشرك والنفاق.

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلاَّ خَطَئًا وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَئًا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلاَّ أَن يَصَّدَّقُواْ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مْؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِّيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةً فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللّهِ وَكَانَ اللّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾﴾ إنَّ المؤمن يرتبط بأعظم الوشائج الأخويَّة بالمؤمن الآخر، وهي وشيجة العقيدة. فمن الطبيعي أن لا يقدم على قتل أخيه متعمّداً إلاّ أنّه قد يقع الخطأ فيؤدّي إلى قتل عضو مؤمن من أعضاء المجتمع المسلم، وحينئذ تذكر حالات ثلاث لكلّ منها حكمها:

الأولى: أن يكون أهل القتيل المؤمن مؤمنين، فيجب إعطاؤهم الدية، إلاّ أن يعفوا عن القاتل ويتصدقوا بهذا العفو، وتحرير رقبة مؤمنة، وكأنه بهذين العملين يتمّ تطييب قلوب الأهل، كما يتمّ تعويض المجتمع المؤمن بإضافة عضو مؤمن حرّ إليه. ويلاحظ هنا أنّ الإسلام يعتبر الرقَّ موتاً والتحرير إحياء، مما يعبِّر عن الضرورة التي ألجأت الإسلام للقبول به بادئ الأمر باعتباره حالة استثنائية، ثمّ العمل على نفيه وفتح أبواب التحرير بشكل واقعيّ.

الثانية: أن يكون أهل القتيل المؤمن من الكفّار المحاربين للإسلام، وحينئذ فليس هنا إلاّ تعويض المجتمع المسلم بتحرير رقبة مؤمنة وضمّها حرَّة إليه، ولا يدفع أي شيء للأهل المحاربين.

الثالثة: أن يكون القتيل المؤمن من قوم عاهدوا المسلمين (عهد ذمة وهو مختصّ بأهل الكتاب، أو عهد هدنة) وحينئذ فدماؤهم محترمة، ويجب تسليم الدية إلى أهله، وتحرير رقبة مؤمنة أيضاً.

أما من لم يستطع تحرير رقبة مؤمنة، فإن عليه صيام شهرين متتابعين (أي يصوم على التتابع شهراً ويوماً على الأقل من الشهر الآخر، ثمّ يستطيع التفريق). ولعلَّ في ذلك إشارة إلى الفوائد التي يعود بها الصوم على الإنسان، فيسد ما بدر منه من نقص، ويشدّه إلى ربّه وغير ذلك.

وهو عودة إلهيّة بالرحمة على العباد، ففي هذا الحكم رحمة للعبد (القاتل خطأ) وأهل القتيل، والمجتمع المسلم.

﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾﴾ إنّها مكانة المؤمن الرفيعة، باعتباره الموجود المكرَّم السائر في خطّ الخلافة الإلهيّة، والعامل على تحقيق هدف الخلقة البشريَّة، فأيُّ اعتداء على هذا الوجود يعني اعتداء على كلِّ المسيرة، فهو بالتالي يستتبع الغضب الإلهيّ واللعنة والعذاب الأليم، وهو عقاب شديد قلّما يواجه القرآن به المجرمين، فالويل للطغاة الذين يلاحقون المؤمنين بالقتل والتشريد ـ دوماً ـ للحفاظ على عروشهم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلاَمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِندَ اللّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُواْ إِنَّ اللّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾﴾ تطلب الآية من المؤمنين التبيُّن والتأكّد أثناء الضرب (أي التحرك الجهاديّ) في سبيل الله، وقبول قول من ادّعى الإسلام،

وعدم التشكيك فيه للحصول على غنائم ماهي إلاّ عرض دنيوي زائل، لا قيمة له في قبال الهدف الكبير، وهو سبيل الله، حيث المغانم المعنوية كثيرة لاتقاس بها الغنائم الدنيويّة، والتخلُّص من تصوّرات الجاهليّة التي كانت تستهدف الأهداف الرخيصة فمنَّ الله عليهم بالإيمان وحمل الأهداف السامية.

ثم تعود فتؤكّد مسألة التبيُّن حفاظاً على حياة المؤمنين وتأكيداً على لزوم التعامل بالظاهر معهم، وتؤطّر هذا التأكيد بالتذكير بالخبرة والإحاطة الإلهيّة بكلِّ الأعمال.

﴿لاَّ يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلاًّ وَعَدَ اللّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾﴾ يستمرُّ القرآن في تحريضه على الجهاد عبر وسائل شتّى، وهو هنا يذكر أصنافاً ثلاثة من المؤمنين:

القاعدون أولو الضرر: أي الذين يقعد بهم مرضهم عن الجهاد.

والقاعدون غير أولي الضرر: أي الذين ربما شغلتهم أمورهم الخاصّة عن الجهاد بعد أن لم يجب عليهم عيناً، في حال قيام جماعة فيهم الكفاية بعملية الجهاد.

والمجاهدون: المنطلقون إلى ميدان العمل في سبيل الله.

وإذا كان الأولون معذورين لضررهم وربّما نالوا بنيّاتهم الدرجات العالية، فإن الفئة الثانية لن تحصل على الدرجة التي تحصل عليها الفئة الثالثة؛ لأنها نتيجة الجهاد. وفي هذا التقسيم بلاريب دفع للتسابق والعمل على الانخراط في سلك المجاهدين، والحصول على الأجر العظيم، رغم أنّ كلا الطرفين موعود باللطف الإلهيّ والحسنى.

وفي هذه الآية الكريمة دفع أكيد لاعتماد الاستعداد للجهاد دائماً، في سبيل إعلاء كلمة الله وتطبيق شريعته في الأرض، وعدم القعود عن بذل أي شيء، بعد أن يؤكّد القرآن الثواب العظيم مراراً، فهو يعبِّر أولاً بتفضيل المجاهدين على القاعدين درجة، ثمّ يذكر تفضيل المجاهدين بالأجر العظيم، ثمّ يفصّل ذلك بذكر الدرجات الإلهيّة والمغفرة والرحمة من الله الغفور الرحيم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي

الأَرْضِ قَالْوَاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾﴾ وهذا نموذج آخر من القاعدين، إلاّ أنّه هنا نموذج مرفوض، محكوم عليه بسوء المصير، وهو نموذج أُولئك المسلمين الذين رضوا بالعيش في ظلّ الكافرين، وخضعوا لضغوطهم، فتركوا إقامة الشعائر الإسلاميّة إرضاء للكفر. ويذكر القرآن هنا مشهداً مرعباً حيث تحاسبهم الملائكة وهم يتوفونهم، متسائلة عن السبب الذي دعاهم لهذه الحالة، فلا يملكون جواباً إلاّ التذرّع بحجَّة كونهم مستضعفين من قبل الكفّار. وهنا تردُّ الملائكة عليهم بسؤال إنكاري يقول: ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها؟ وبالتالي تتخلصوا من ضغط الشرك، وحينئذ فلا جواب لهم، بعد أن شدَّهم الطمع للاحتفاظ بالأموال، أو الخوف من أهوال الهجرة، والكسل عن العمل التغييري إلى البقاء وتحمُّل الضغط الكافر، ولا مصير لهؤلاء إلاّ النار.

﴿إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاء وَالْوِلْدَانِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلاَ يَهْتَدُونَ سَبِيلاً ﴿٩٨﴾ فَأُوْلَئِكَ عَسَى اللّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللّهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلى اللّهِ وَكَانَ اللّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾﴾ ويستدرك القرآن فيخرج من حكم الآية السابقة أولئك المستضعفين حقّاً، والذين لا يقدرون على الهجرة، ولا يملكون وسيلة (حيلة) يتخلَّصون بها من الضغط الكافر، وربما شمل حكم هذا الاستثناء أولئك الذين طلبوا معرفة الرأي الحق فلم يهتدوا إليه سبيلاً، أو اولئك الذين لا يملكون قدرة التحليل والتمييز بين الآراء، فركنوا إلى آراء ظنّوها صحيحة، فهؤلاء وأولئك عسى الله أن يعفو عنهم وهو العفو الغفور.

تأكيد قرآنيّ على الهجرة بعد أن يعيِّن جهتها (الله ورسوله) ويضمن للمهاجر النتيجة السامية، والأجر الإلهيّ إذا ما تعرض للموت في الطريق.

﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُواْ مِنَ الصَّلاَةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُواْ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾﴾ من خلال تحريض الآيات على الجهاد، تدعو هذه الآية للتقصير والتخفيف من الصلاة حال السفر والخوف من فتنة الكافرين واعتدائهم، وهذا التقصير وإن ذكر هنا بقيدين، لكنَّ السنَّة عمّمته لكل سفر. (وقد قيل

إنّ هذه الآية تتحدث عن صلاة الخوف والمطاردة لا صلاة المسافر)، وأكّدت أغلبيّة المسلمين بما فيهم الإمامية أن القصر عزيمة لا رخصة، ولا ينافيه التعبير بلا جناح عليكم، فهو وارد أيضاً في السعي، وهو واجب بلا شك، وربّما كان التخفيف في صلاة الخوف يشمل تحويل الرباعيَّة إلى ثنائية، كما يشمل التخفيف الكيفيّ بتحويل الحركات إلى إيماءات إذا تطلب الأمر ذلك.

﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاَةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَى أَن تَضَعُواْ أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ إِنَّ اللّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾﴾ في سياق الحديث عن الجهاد والقتال تتعرض هذه الآية إلى كيفيّة الصلاة أثناء مقابلة العدو، مركِّزة على أهميّة الاتّصال الدائم بالله تعالى من خلال الصلاة، وأهميّة الصلاة جماعة حتّى في حالات الخوف الشديد. ويختلف العلماء في كيفيَّة صلاة الخوف واستفادتهم من الآية، والراجح أنّ المراد هو أنّ ينقسم المسلمون طائفتين فتصلّي إحداهما مؤتمّة بالرسول ﷺ في ركعته الأُولى، فإذا أتمّ السجود، نهضت، فأتمّت ركعتها الثانية، منفردة مسرعة ومنهية صلاتها ركعتين، ثمّ متجهة إلى موقع الطائفة، الأُخرى التي وقفت للحراسة فتأخذ موقعها.

وتأتمُّ الطائفة الأُخرى بالنبيِّ في ركعته الثانية، فإذا انتهى السجود وسلَّم الرسول، قامت، فأتت بركعتها الأُخرى منفردة. وقد رويت صور أُخرى لهذه الصلاة، والحكم عامّ لا يختص بزمن الرسول ﷺ .

والآية تأمر كلَّ طائفة تأتمّ بالرسول بأخذ أسلحتها، مؤكِّدة الحذر والوعي الشديد، مذكّرة بتربّص العدو. أما إذا كانت هناك مشقّة من مطر أو مرض فقد سمحت لهم بعدم حمل السلاح أثناء الصلاة، ثمّ كررت عليهم مسألة الحذر الشديد، فإنه شرط ضروريّ لهزيمة العدو وابتلائه بالتالي بالعذاب المهين المذلّ.

﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلاَةَ فَاذْكُرُواْ اللّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ إِنَّ الصَّلاَةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾﴾ تأكيد لأهمّية الذكر المتواصل لله

عقب الصلاة، وفيّ كلّ حالة من حالات الإنسان (قياماً أو قعوداً أو اضطجاعاً على جنب) فذكر الله زاد مسيرته التكاملية ووقودها وسر توازنها ووعيها لهدفها الكبير، وأي غفلة عن ذلك تعني الارتكاس والنكوص والخلل في السير.

فإذا بلغتم محلاً آمناً فأدُّوا الصلاة كاملة في كيفيَّتها وكمّيتها.

إنَّ الصلاة فريضة ثابتة على مدى الزمان، لا تسقط بحال، وذلك نظراً لأنها تسدُّ حاجة طبيعيَّة دائميَّة للإنسان في مسيرته المعنويَّة، وربما فُسِّرت بأنها فريضة لها وقتها الخاص، إلاّ أنّه خلاف الظاهر بملاحظة السياق.

﴿وَلاَ تَهِنُواْ فِي ابْتِغَاء الْقَوْمِ إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللّهِ مَا لاَ يَرْجُونَ وَكَانَ اللّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾﴾ تحمل هذه الآية الكريمة أقوى تحفيز على القتال ومواصلته وتحمُّل مشقته، فهي تأمر بعدم الضعف والتهاون في مطاردة الكفر والطاغوت وأشقّائه، وتركّز في قناعة المسلم حقيقتين مهمَّتين مؤثّرتين في استمراريَّة جهاد الطغاة ذلك أنهم قد ألّموا عدوهم.

ثم إنَّ الرعيل المؤمن راج منتظر، والانتظار هنا من الله تعالى القويّ العليم الحكيم، والانتظار الحقيقيّ طاقة كبرى بها يُضمَن التحرُّك المتواصل والحرارة الدائمة، خصوصاً وأنّ النصر مضمون من الله تعالى، فهو مولى الذين آمنوا، والعليم بسبيل النصر، والحكيم الذي يضع الخطَّة الموصلة للهدف بكلّ دقّة. أما الذين لا ينتظرون مستقبلاً حيّا يتحقَّق لا محالة، فهم إذا تحرّكوا تحرّكوا على أمل نصر قصير دونما رصيد من قدرة تسندهم، فالكافرون لا مولى لهم.

﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللّهُ وَلاَ تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾﴾ وهكذا يتمّ تنزيل شريعة الله على أساس من الحقّ الثابت، والمصالح الإنسانيّة الممتدَّة مع المسيرة الفطريّة، لتحكم وتقضي، وتقدّم أيسر الحلول للمشاكل، وعلى حامل الشريعة أن يحكم بها دونما تهاون أو ميل أو تنازل، ودون أن يكون الحاكم خصيماً، أي مدافعاً عن خونة الحكم الإسلاميّ.

ولعلَّ مورد نزول هذه الآية واقعة، سرق فيها أحد المسلمين ورمى بها غيره من اليهود، وألحَّ قوم السارق على النبيّ ﷺ أن يقضي لهم ضدّ المتَّهم البريء وأصرّوا عليه في ذلك،

فأنزل الله هذ الآية لبيان الحقّ وتوضيح أنّ معيار الإسلام هو الحقّ حتّى لو كان ضدّ أحد الأنصار ولصالح أحد اليهود.

﴿وَاسْتَغْفِرِ اللّه إِنَّ اللَّه كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾﴾ إنَّ الاستغفار يعني طلب العودة الدائمة إلى الله وطلب المدد منه، وهو أمر يشترك فيه الجميع حتّى المعصومون ليغمرهم المدد والغفران، ويعطيهم القوّة في الوقوف بوجه الباطل.

﴿وَلاَ تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللّه لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾﴾ العصاة يخونون أنفسهم؛ لأنَّ وبال المعصية يعود إلى النفس، وربّما كان المراد خيانة المجتمع المسلم باعتباره نفساً واحدة، فيجب عدم الدفاع عنهم؛ لأنهم مبعدون عن الرضا والحبّ الإلهيّ.

﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلاَ يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللّه وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لاَ يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللّه بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾﴾ إنّهم يخفون خيانتهم ويستحيون من الناس، في حين كان الأجدر بهم أن يخشوا الله ولا يقدموا على ما قاموا به من معصية، وزادوا عصياناً في رمي الغير بها، والله تعالى مشرف على كلِّ أعمالهم، مطَّلع على ما يبيّتون (يضمرون) من كلام وتآمر، فهو المحيط بكل الأعمال.

﴿هَاأَنتُمْ هَؤُلاء جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَن يُجَادِلُ اللّه عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً ﴿١٠٩﴾﴾ دعنا نفترض أنّ الدفاع عن هؤلاء أدّى إلى ستر جريمتهم في الحياة الدنيا، إلاّ أنّه من سيجادل ويدافع عنهم يوم القيامة، ويتكفَّل بخلاصهم آنذاك؟

﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللّه يَجِدِ اللّه غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾﴾ بدلاً من لجوء العصاة إلى رمي الغير بالمعصية للتخلُّص من تبعاتها، كان الأجدر بهم أن يعودوا إلى ربهم، مستغفرين ومستفيدين من فرصة العفو الإلهيّ، عبر التوبة والاستغفار الخالصين.

﴿وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللّه عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾﴾ الملاحظ في هذه الآية وما قبلها التأكيد على عودة الإثم على النفس نقصاً وضعفاً، وهي حقيقة يجب أن يشعر بها المؤمن دائماً، فينسجم بشكل طبيعي مع خطّ الطاعة، ويبتعد كذلك عن خطّ المعصية.

﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾﴾ قيل: إنَّ الخطيئة هي المعصية التي لا تتجاوز آثارها الإنسان العاصي نفسه، كترك بعض الواجبات كالصوم،

في حين أنّ الإثم معصية يستمرّ وبالها، كقتل النفس بغير حقّ. وعلى أي حال؛ فإن الطريق الطبيعيَّ للتخلُّص من الوبال هو التوبة النصوح، فإذا سلك العاصي طُرقاً أُخرى وهي رمي الآخرين بهذه المعصية، فقد ارتكب إثماً مضاعفاً واضحاً، حيث اتبع سبيل البهتان والاتّهام الكاذب.

﴿وَلَوْلاَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مُّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاُّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ وَأَنزَلَ اللّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾﴾ إنَّ تسديد الله تعالى دائم للنبيّ، يعصمه من أيِّ ميل أو استجابة لتآمر يعمل من خلاله بعض النّاس على تشويه الحقيقة، ويظنون أنّهم يُضلّون النبيّ ﷺ في حين أنّهم لا يضلّون إلاّ أنفسهم، ولا يستطيعون الإضرار بالنبيّ ﷺ مطلقاً، بعد أن أنزل الله عليه الكتاب والحكم، وعلّمه العلوم الواسعة، وهذا هو الفضل الإلهيّ العظيم.

﴿لاَّ خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاَحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتَغَاء مَرْضَاتِ اللّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾﴾ تقلّل الآية من قيمة التّناجي وتبادل الحديث سرّاً بعيداً عن المؤمنين، وتبيين الأُمور دون علم المؤمنين وقائدهم، وخصوصاً إذا تمَّ هذا من قبل المنافقين والعصاة ومؤيّديهم، إلاّ أنّ الآية تستثني من التزهيد بالنجوى التّناجي والاجتماع الخفي لغرض ابتغاء مرضاة الله تعالى بالقيام بتقديم صدقة في السر أو العمل على نشر المعروف أو الإصلاح بين الناس، ممّا يترك آثاره الإيجابيَّة الطيِّبة على المجتمع دون أن يضطرّ الآخرين لالقاء ماء الوجه أو الخجل، فإن الإعداد السرّيَّ المسبق للأعمال الصالحة التي يرضاها الله حتماً يوجب الفوز بالأجر العظيم.

﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾ إنَّ من ينفصل عن سبيل الرسول، ويتّبع سبيلاً لا يتّفق مع سبيل المؤمنين ـ وهو سبيل الطاعة لله والرسول والتمتّع بالخصائص العامّة للأُمّة الإسلاميّة من الوسطيّة والشهادة والقيام بالقسط وغير ذلك ـ مثل هذا يوكَل أمره إلى من يتولاّه (وكلّ ما عدا الله ضعيف لا يقدر على شيء) ويصلى جهنّم وبئس المصير.

﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء وَمَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيدًا ﴿١١٦﴾﴾ إن مشاقَّة الرسول، والانفصال عن سبيله، واتّباع سبيل المشركين؛ تعني

في الواقع تولّي الأصنام وبالتالي الشرك بالله، وهو ذنب عظيم لا يغفره الله ـ وإن كان يغفر ما دونه لمن تتوفّر فيهم شروط المغفرة ـ لأنه الضّلال البعيد عن هدى الفطرة ومقتضاها الواضح.

﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ إِنَاثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلاَّ شَيْطَانًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ اللّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلأُضِلَّنَّهُمْ وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الأَنْعَامِ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللّهِ وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾﴾ ذكرت الآية السابقة أنّ الشرك يعني الضّلال والوهم البعيد (عن الفطرة ومقتضياتها) وكمثال على ذلك نجد المشركين يعبدون الملائكة وهم يتصوّرون أنّها إناث!! وربّما كانت الآية تشير إلى أنّ الآلهة التي يعبدها المشركون آلهة مؤنّثة بالمعنى اللُغوي للتأنيث، وهو الانفعال والتأثُّر، فكلُّها مخلوقة متأثّرة لا قيمة استقلالية لها ـ وربّما عبدوا الشيطان واتّبعوه رغم أنّه العدوّ الأثيم المريد (أي الذي لا خير فيه مطلقاً) مما استحقَّ معه اللعنة والطرد الإلهيّ، فراح يخطط لاقتطاع جزء من البشريّة المؤمنة وإبعادها عن السير الصالح من خلال الإضلال والأماني الكاذبة التي تبعدهم عن طاعة الله، استجابة لرغباتهم النفسيّة الكاذبة، وكذلك من خلال بثّ خرافات الشرك بينهم، لكي يحرِّموا الكثير من الثروات الحيوانيّة بعد تقطيع آذانها، وتغيير الخلق الإلهيّ، كما في إخصاء العبيد وأنواع المثلة واللواط وغير ذلك، وكله خروج عن حكم الفطرة السليمة.

وتلك نتيجة طبيعية لمن يتّخذ عدوَّه وليّاً له، ويترك الوليَّ الحقيقيّ الرحيم وهو الله تعالى، وبذلك فانه لن يجني سوى الخسران المبين.

﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا ﴿١٢٠﴾﴾ إنَّ الشيطان ضعيف جاهل مخاتل معاد، ومن الطبيعي أنَّ الوعود والأماني الشيطانيّة رغم سعتها الوهميّة هي غرور وتغرير وإيهام لا غير.

﴿أُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلاَ يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾﴾ إنّها العاقبة الطبيعيّة لمن اتّبعوا خطّ الشرك والبعد عن الفطرة، وركضوا وراء العدوّ الشيطان، واتّخذوه وليّاً من دون الله وغرقوا في الخرافات القاتلة التي خسروا معها حياتهم الدنيا، وليس لهم في الآخرة مفرّ من جهنّم التي ستكون مأواهم ومسكنهم.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعْدَ اللّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللّهِ قِيلاً ﴿١٢٢﴾﴾ في الآية السابقة وضَّح القرآن وهم الوعود الشيطانيّة، ذلك لأنها وعود من عدوّ ضعيف جاهل مخاتل. وفي قبال ذلك فالاعتماد الحقيقيّ المبتني على قاعدة متينة يجب أن يتمّ على الوعود الإلهيّة المؤكّدة للمصير المشرق للمؤمنين العاملين للصالحات إلى الجنّة، والخلود فيها، وهو أقصى ما يمكن أن يتصوَّره إنسان من السعادة في ظل رضوان الله، إنّه الوعد الإلهيّ الحقّ، باعتباره ثابتاً مطلقاً، مستمدًا ثباته من علم الله المطلق وصفاته الكماليّة، ومن أصدق من الله قولاً ووعداً؟

﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلاَ يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللّهِ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾﴾ إنّه المعيار الإسلاميّ الحقّ الذي لا يتّبع الأهواء والأماني والتقوّلات والادّعاءات الكاذبة، بأن الانضمام اللفظيّ أو النسبيّ أو الطبقيّ إلى مجموعة يكفي في النجاة حتّى ولو لم يستتبع ذلك العمل الصالح والالتزام بالخطّ الأصيل، فقد يتصوَّر المسلم أنّه بإسلامه المجرَّد اللفظيّ قد نجا ولا عليه إذا لم يعمل، تماماً كما تصوَّر أهل الكتاب من قبل فقالوا «نحن أبناء الله وأحباؤه» و«لن تمسّنا النار إلاّ أيّاماً معدودة» وأمثال ذلك، إلاّ أنّ المعايير الإسلاميّة المنطقيّة تأبى كلَّ هذه التصوُّرات الباطلة، فالعاملون بالسوء سيلاقون نتائج عملهم بلا ريب، إلاّ أن يغفر الله لهم نتيجة استعداد منهم ولطف منه تعالى، ولن يجد المسيؤون من ينصرهم من دون الله من وليّ أو نصير.

﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتَ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾﴾ أمّا العاملون للصالحات في إطار إيمانهم فلهم الجنّة، ولا يُظلمون مطلقاً، حتّى بمقدار نَقرة الطائر على التمرة، مبالغة في الدقة. ومن هنا يُعلم، أنّ العمل الصالح في غير هذا الإطار لا يؤدّي إلى هذه النتيجة الكبرى. وفي الآية تأكيد رائع لانفتاح طريق التكامل أمام الأُنثى تماماً كالذكر، وهو أمر لم تكن البشريّة آنذاك لتعترف به.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ واتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً ﴿١٢٥﴾﴾ وهل هناك دين ينسجم مع الفطرة أحسن انسجام من الإسلام الكامل لله تعالى، والانطلاق في عمل الاحسان، واتّباع طريقة إبراهيم عليه السلام وهي الطريقة

الحنيفيّة الخالصة المنسجمة مع الفطرة بكل نقائها، الأمر الذي أهّل إبراهيم لمقام الخلّة الإلهيّة، فمهما سما الإنسان في عبوديته وتسليمه، سما في مقامه وقرب من الحقيقة الكونيّة التي تقررها الآية التالية: ﴿وَلِلّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَانَ اللّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا﴾.

﴿وَلِلّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَانَ اللّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا ﴿١٢٦﴾﴾ وهي تؤكّد أنّ الوجود كلّه مخلوق لله، وأنّه تعالى محيط بكلّ شيء فيه، ومن الطبيعيّ ـ بالتالي ـ أن يتوجّه الكون إليه بالطاعة والعبادة والتسليم طوعاً وكرهاً.

﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاء قُلِ اللّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاء الَّلاتِي لاَ تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَن تَقُومُواْ لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا ﴿١٢٧﴾﴾ كان المؤمنون الذين هداهم الله للإسلام يعملون على تطبيق الإسلام على كلّ جوانب حياتهم، والتخلُّص من أوضار الجاهلية، ومنها تلك العادة الذميمة: الاستهانة بالنساء، واليتامى بالخصوص، حيث يلقي القويّ منهم ثوبه على اليتيمة فتصبح تحت تصرُّفه، فهو يتزوّجها إن كانت جميلة، ويعضلها ويتركها دون أن يسمح لها بزواج إن كانت دميمة، مستهدفاً أن يرثها ما تملك.

وهكذا كان الحال بالنسبة لليتامى الذكور المستضعفين، حيث لا يُشركون في إرث، باعتبارهم لا يستطيعون قتالاً وإنتاجاً!! هذه العادات الجاهليّة جاء المؤمنون يطلبون رأي النبيّ فيها، فأعطاهم القرآن رأي الله (الذي يستند إليه الرسول دائماً).

والمعنى أنّ الله يفتيكم في اليتامى الإناث اللاّئي كُتِبَ لهنَّ بشكل طبيعيّ أن يكنَّ أحراراً في الزواج، وكنتم ترغبون عن نكاحهنّ، أن تفسحوا المجال لهنَّ في ذلك، وليس لكم أي ولاية عليهنّ، وكذلك يُعامل المستضعفون من الذكور (الولدان) معاملة عادلة فيعطون حقوقهم؛ لأنهم أُناس قبل كل شيء، والله تعالى هو العليم بكلّ خير يفعله الإنسان.

﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلاَ جُنَاْحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الأَنفُسُ الشُّحَّ وَإِن تُحْسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾﴾ عالج القرآن من قَبل حالة النشوز لدى الزوجة، وها هو يعالج هذه الحالة لدى الزوج بكلِّ واقعيَّة. فإذا خافت المرأة من زوجها النشوز والإعراض الذي قد ينتهي إلى

الطلاق، فإن لها أن تصطلح معه بالتنازل عن شيء من حقوقها، عملاً على توفير جوِّ المحبة بينهما، فإن الصلح خير من النفور والفراق، وفيه نفي لبعض البخل الذي يؤدّي بالزوج إلى هذه الحالة، فسماح الزوجة يؤدّي بشكل طبيعيّ إلى سماح الزوج ويسود الوئام. ثمّ تأتي دعوة القرآن الأزواج للإحسان والتقوى، مؤطِّرة حياتهما الزوجية بما يمنحها روحها الإيمانيَّة.

﴿وَلَن تَسْتَطِيعُواْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ النِّسَاء وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلاَ تَمِيلُواْ كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِن تُصْلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٢٩﴾﴾ إنطلاقاً من واقعيَّته، يذكِّر القرآن بأن العدالة التامَّة بما يشمل الميل القلبيَّ أمر غير ممكن، بالنظر لطبيعة الإنسان، ولذا فلن يكلّف المتزوّج بأكثر من واحدة بهذا المستوى اللاإرادي، وإنّما عليه أن يعدل في أعماله الإرادية: كالتعامل والقسمة والنفقة، ولا يميل إلى إحداهما تاركاً الأُخرى لا هي بزوجة ولا هي حرَّة مطلّقة... وإنما يحقّق التوازن المطلوب، كلُّ ذلك في إطار من الاصلاح والتقوى.

ونذكر هنا أنّ بعض النّاس حاول الأخذ بصدر هذه الآية ضامّاً إليه المقطع القرآني ﴿فإن خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُواْ فَوَاحِدَةً﴾[١] ليستنتج تحريم الإسلام للتعدُّد! وهذا افتراء وتمحُّل يبدو بعد ملاحظة الآية بكاملها، فالمنفيّ هو العدل الحقيقيّ الشامل، والمطلوب هو العدل التقريبيّ الإرادي. ولا ندري كيف يستنتج هذا الحكم مع صراحة الآية القرآنيّة ﴿فانكحوا ما طاب لكم...﴾ في تشريع تعدّد الزوجات.

﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللّهُ كُلاًّ مِّن سَعَتِهِ وَكَانَ اللّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾﴾ وعلى أساس نفس الواقعيّة المشار إليها يفسح الإسلام المجال للطلاق، وذلك بعد أن يستنفد كل الأساليب التي تحفظ لعشّ الزوجيَّة حرارته واستمراريَّته. أما حين يصعب الحال فقد يكون الطلاق ـ رغم كونه أبغض الحلال إلى الله ـ هو الحل الأفضل، ولن يعدم أي من الزوجين بعده أن يعيش حياة غنى وسعادة ويُرزق من فضل الله حياة جديدة، والله هو الواسع العليم.

﴿وَللّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُواْ اللّهَ وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ لِلّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَانَ اللّهُ غَنِيًّا

١. النساء:٣.

حَمِيدًا ﴿١٣١﴾ وَلِلّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَى بِاللّهِ وَكِيلاً ﴿١٣٢﴾﴾ فهو تعالى يشمل بلطفه الخلق جميعاً، ولا معنى لليأس.

إنّها الرحمة الإلهيّة، والعلم الإلهيّ الذي شرّع لهذه الأمّة وللأُمم السابقة هذه الأحكام الواقعيّة، لطفاً بها وتوجيهاً لها نحو السعادة التي لا تُنال إلا بالتقوى.

أما الانحراف والكفر فلا يعودان بالسوء إلاّ على الإنسان نفسه، فالله تعالى له الغنى والحمد وله ملك السماوات والأرض.

﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾﴾ تهديد إلهيّ لأولئك الذين يخرجون عن اطار التقوى ويسلكون سبيل الطغيان والعتوّ بأنهم لا قيمة لهم، وأنه تعالى إن يشأ يذهبهم ويسكن الأرض آخرين فليس ذلك عليه بعزيز.

وقد روى بعض المفسِّرين: أنّ الآية لما نزلت، ضرب رسول الله ﷺ يده على ظهر سلمان، وقال: (هم قوم هذا) [١].

﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِندَ اللّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَكَانَ اللّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾﴾ إنَّ الدنيا السامية وان المصلحة الحقيقيّة تكمن في تقوى الله، فعنده تعالى ثواب الدنيا والآخرة، ويتلخَّص ذلك في اتّباع دينه، فليتّجه طالبو السعادة إليه لا غير.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاء لِلّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقَيرًا فَاللّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلاَ تَتَّبِعُواْ الْهَوَى أَن تَعْدِلُواْ وَإِن تَلْوُواْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾﴾ دعوة قرآنيّة للمؤمنين جميعاً كي يعدّوا أنفسهم للقيام بالقسط دائماً، وأداء الشهادة لله تعالى، كما هو الواقع، حتّى ولو كان ذلك مؤدّياً لفقدان مصالح شخصيَّة، أو مصالح للوالدين والأقربين، ودون أيِّ ميل أو إذعان لتحريك عاطفي، نتيجة الغنى والفقر، فالله تعالى هو أولى بالمشهود عليهم من الأغنياء والفقراء.

وتتأكَّد هذه الدعوة بالنهي عن اتّباع الهوى ـ عند أداء الشهادة ـ مخافة العدول عن الحقّ والقسط، وكذلك النهي غير المصرَّح به عن اللّيِّ في الشهادة وتحريفها أو الإعراض عنها، فإن الله تعالى يعلم الحقيقة، ولابُدَّ وأن يجازي كلَّ من حرَّفها أو أعرض عنها.

---

١. مجمع البيان (ج ٣ ص ٢٤٣).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ آمِنُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِيَ أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللّهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾﴾ تؤكّد هذه الآية القرآنيّة ضرورة الربط القويّ بين عناصر التصوُّر الإسلاميّ، بما فيها (قضايا التوحيد والصفات الإلهيّة والإيمان بالرسول والقرآن، والرسل الذين سبقوه وكتبهم والملائكة...) فكلّ منها يستلزم الآخر مما يشكّل لدى المسلم وحدة تصوُّريَّة لا تنفصم أجزاؤها، وأي قبول لبعضها ورفض للآخر يعني في الواقع رفضاً لكلِّ التصوُّر الإسلاميّ والدخول في معسكر الكفر والضلال البعيد.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ آمَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ازْدَادُواْ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ اللّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلاَ لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلاً ﴿١٣٧﴾﴾ تتحدَّث هذه الآية عن اناس مذبذبين منافقين يتردَّدون بين حالتي الإيمان والكفر قبولاً ورفضاً، على اختلاف مصالحهم، ثمّ تزداد حالة الكفر لديهم وتستحكم، فلا يجدون في أنفسهم بعد هذا التذبذب الغريب قدرة على العودة إلى الله والإيمان الحقيقيّ، والتمتّع بمغفرة الله وهداه.

﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾﴾ تهديد قرآنيّ للمنافقين بالعذاب الأليم. ولقد كان لهذه التهديدات أثرها الكبير في تثبيط عزائمهم في المجتمع الإسلاميّ الأوّل، كما أنّ لها أثرها في تنبيه هؤلاء الذين يسلّمون أنفسهم لأهوائهم ومصالحهم، لتقودهم حيث تشاء، فهم هنا مؤمنون وهناك كافرون، فيشكّلون مصدر خطر على حياة المجتمع الإسلاميّ دائماً.

﴿الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ العِزَّةَ لِلّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾﴾ إنَّ مصالح المنافقين قد تقودهم لموالاة الكافرين بدلاً من المؤمنين، لجوءاً إليهم وكسباً للعزّة منهم!! وهو خيال ووهم، فإن العزّة لله جميعاً

﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللّهِ يُكَفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلاَ تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ إِنَّ اللّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾﴾ تحذير من مجالسة الكافرين والاستماع إلى كفرهم بآيات الله واستهزائهم بها، وتذكير بما أُنزل من قَبل في سورة الأنعام من قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ

يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حتّى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ...﴾[١] أما المجالسة والاستماع فيعني الانخراط في سلكهم، ويعني النفاق، والكافرون والمنافقون لهم محالُّهم من جهنّم.

﴿الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللهِ قَالُواْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُواْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَن يَجْعَلَ اللهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً ﴿١٤١﴾﴾ صفة وضيعة من صفات المنافقين، فهم يتحيّنون الفرص مهما كانت، فإن فتح الله على المؤمنين تقرّبوا إليهم مدّعين أنّهم كانوا يقاتلون إلى جنبهم، وإنْ حانت للكافرين فرصة انتصار راحوا إليهم يتودّدون لهم، مدّعين أنّهم حموا ظهورهم من المؤمنين، وسهّلوا لهم فرصة النصر، إلاّ أنّ القرآن يتوعّدهم بعذاب الله مثّبطاً عزائمهم.

وهذه الحقيقة تمتلك بعداً واقعياً، فتذكر أنّ المؤمنين إذا صدق إيمانهم انتصروا وعلوا، كما تمتلك بعداً تشريعياً بالمنع عن كلّ عمل يؤدّي إلى علوّ الكافرين وذلّ المؤمنين أمامهم، والدفع نحو تهيئة كلّ ما يؤدّي إلى علاء المؤمنين.

وهذه الآية ـ من خلال بعدها التشريعيّ ـ تشكّل قاعدة أساسيّة، سواء على الصّعيد الداخلي للأُمّة، أو على صعيد العلاقات الدوليّة، فكلُّ عمل أو معاهدة أو ميثاق جعل للكافرين على المؤمنين سبيلاً يعدُّ ملغىً لا قيمة له، وقد استدلّت بعض الروايات بهذه الآية، فإنها ببعدها الواقعيّ تبعث اليأس في نفوس المنافقين لئلا يستمرّوا في غيِّهم وتلوُّنهم.

﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُواْ إِلَى الصَّلاَةِ قَامُواْ كُسَالَى يُرَآؤُونَ النَّاسَ وَلاَ يَذْكُرُونَ اللهَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴿١٤٢﴾﴾ ولكي تنبّه المنافقين إلى ضلالهم وتميت عزائمهم، تذكّر الآية بالعلم الإلهيّ بكلّ ما يصنعون، ظانّين أنّهم يخادعون الله! والله خادعهم وكاشف كلّ ما يصنعون.

وهذه علامة حسّية على النفاق، وعدم تركُّز الإيمان في القلوب، وإلاّ فالصلاة تعني قمّة الوعي والاتصال بالخالق العظيم والاستمداد من منبع الرحمة والنور، وهي حالة لا تنسجم

١. الأنعام: ٦٨.

مع الكسل والضجر... إلاّ أنّ الإيمان لم يستحكم في القلب، ولذا فالمنافقون يعيشون رياءً متواصلاً، ولا يلجأون إلى ذكر الله إلا قليلاً، وذلك رياءً وحيطة لأنفسهم.

﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لاَ إِلَى هَؤُلاء وَلاَ إِلَى هَؤُلاء وَمَن يُضْلِلِ اللّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً ﴿١٤٣﴾﴾ تحقير للمنافقين وبيان لوضعهم القلق ونفوسهم المتأرجحة، وهو أمرٌ ينعكس على مجمل الحياة، وما ذلك إلاّ الضّلال والبعد عن هدى الله، ولن يجد الضالُّون عن هدى الله سبيلاً لحياة إنسانيّة كريمة.

وهكذا نجد القرآن يتابع المنافقين، محطّماً عزمهم، مضعّفاً عقولهم، موقفاً إيّاهم على الضعة والقلق الذي يعيشونه، وكلُّ ذلك له أثره العظيم في تنبيههم من جهة، وكشف ألاعيبهم من جهة أُخرى.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾﴾ يدعو القرآن المؤمنين إلى عدم القرب من حمى الكافرين، وعدم مدّ علائق الولاء معهم، وذلك لئلا يتأثَّروا بأحابيلهم، وليتميَّزوا عن خطّ المنافقين المذبذبين، وإلا فهم سيتعرَّضون لسخط الله، وبالتالي سيلاقون مصير المنافقين في الدرك الأسفل من النار، دون أن يكون لهم نصير أو وليّ.

﴿إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَاعْتَصَمُواْ بِاللّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلّهِ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾﴾ وهنا تفتح الآية للمنحرفين والمنافقين باب التوبة والإصلاح والعودة إلى الله، والاعتصام بحبله والإخلاص له.

﴿مَّا يَفْعَلُ اللّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ وَكَانَ اللّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾﴾ تعبير قرآنيّ رائع عن اللُّطف الإلهيّ الشامل وتذكير به، وبالتالي فالإنسان هو الذي يحرّم على نفسه لطف الله الفيّاض المطلق.

﴿لاَّ يُحِبُّ اللّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوَءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلاَّ مَن ظُلِمَ وَكَانَ اللّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾ إِن تُبْدُواْ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوَءٍ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾﴾ إنَّ الإسلام يعمل على إشاعة روح الثقة والمحبة والظنّ الخيّر بين أبناء الأمّة الإسلاميَّة، والجهر بالسوء يتنافى

مع ذلك التوجُّه الإسلاميّ الأصيل، إلاّ أن يكون هذا الجهر بالسوء من قبل من طالته يد ظالم فراح ينتصر لنفسه، ويكشف موقع الظلم ليتخلّص منه.

ولكي لا يمعن الظالم في ظلمه ويسرف المظلوم في الردّ، يجب تذكير الطرفين بالعلم الإلهيّ بالنيات، ولزوم مراقبته تعالى فيما يفعلون، مع ترغيب في العفو وستر العيوب.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ اللّهِ وَرُسُلِهِ وَيقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً ﴿١٥٠﴾ أُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُواْ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُواْ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُوْلَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٥٢﴾﴾ يؤكّد القرآن في مواضع عديدة أن التصوُّر الإلهيّ كلٌّ مترابط لا يتجزّأ، ولا يمكن أن يقع مورداً لتلاعُب الكافرين حسب ميولهم، فهم تارة يكفرون بالله ورسله، وتارة يفرِّقون بين الإيمان بالله والإيمان بالرسل، أو يفرِّقون بين الإيمان برسول ما ورسول، سالكين سبيلاً وسطاً!! إنَّ مثل هؤلاء المتوسِّطين ـ كما يزعمون ـ أناس كافرون بالمجموع في الواقع، ولا مصير لهم نتيجة مسلكهم التجزيئيّ إلاّ العذاب المهين.

أمّا المؤمنون حقّاً والواعون والمتَّبعون للتعاليم الإسلاميّة المنسجمة مع الفطرة والعقل السليم، فهم يؤمنون بالله ورسله، ولا يفرِّقون بين أحد منهم من حيث الصدق والتبليغ عنه تعالى، وهم الحائزون على أعظم الأجر يوم القيامة.

﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاء فَقَدْ سَأَلُواْ مُوسَى أَكْبَرَ مِن ذَلِكَ فَقَالُواْ أَرِنَا اللّهِ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُواْ الْعِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُواْ الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لاَ تَعْدُواْ فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾﴾ تشير هذه الآية إلى عناد اليهود وتاريخهم المليء بالجهل والأسئلة التافهة، فها هم هنا يسألون رسول الله ﷺ أن يُنزل عليهم كتاباً من السماء. ولا ريب في أنّ ذلك مجرَّد عناد لا غير، إذ لو كانوا يرغبون في معرفة الحقّ لفكّروا في القرآن العظيم الذي تحدّاهم أن يأتوا بمثله، وإذ عجز الجميع عن ذلك فإنّه دليل قاطع على صدقه وإعجازه.

ومن هنا، فإن القرآن بدلاً من رفض طلبهم يذكِّر بسؤال عنادي أعظم من ذلك لهم، وهو

طلبهم أن يروا الله جهرة وما هو إلاّ طلب المحالّ، وأنّى تحيط به الأبصار وهو المطلق جلَّ وعلا، فما كان جوابهم إلاّ الصاعقة تأخذهم بظلمهم. وزيادة في عرض عنادهم، تعرض الآية صورة قبيحة لهم، فبعد أن جاءتهم البيِّنات الواضحات نجدهم يلجأون إلى عبادة العجل.

ثم يشملهم العفو الإلهيّ رغم كلِّ ذلك.

وأعطى الله موسى السلطان المبين وهو القدرة والغلبة على السامريّ صاحب العجل، أو الألواح الإلهيّة، إلاّ أنّهم مع كل هذا يستمّرون في عنادهم، فيرفع فوقهم الجبل مهدّداً لهم بالسقوط إن لم يؤمنوا ويستسلموا، وحينئذ فلا يجدون بداً من الاستسلام والقبول بالميثاق والعهد، وقد تضمن عهدهم الالتزام بدخول بيت المقدس ساجدين، وتعظيم يوم السبت باعتباره عيداً لهم، وكان الميثاق قويّا متيناً.

﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بَآيَاتِ اللّهِ وَقَتْلِهِمُ الأَنْبِيَاء بِغَيْرِ حَقًّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾﴾ ورغم أنَّ الميثاق المأخوذ على بني إسرائيل كان غليظاً، إلاّ أنّهم نقضوه وراحوا يكفرون بآيات الله، ويقتلون الأنبياء، ومنهم زكريّا ويحيى، ويعلنون عدم إمكان هدايتهم من خلال قولهم ﴿قلوبنا غُلف﴾ أي مغلَّفة لا تنفذ إليها دعوة، ولا يتسرّب إليها هدى بطبيعتها.

وهنا يوضّح القرآن أنّ القلب بطبيعته مؤهَّل لتلقّي الهدى، إلاّ أن يظلم الإنسان ويكفر فيجازيه الله تعالى بالختم على قلبه.

ويستمرُّ في استعراض مظاهر كفرهم وانحرافهم، فيذكر قولتهم الإجراميّة في مريم الطاهرة واتّهامها بالبهتان العظيم.

﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ اللّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾﴾ نتيجة أُخرى من نتائج انحراف بني إسرائيل وهي ادّعاؤهم قتل عيسى بن مريم وهو رسول الله، وذلك رغم عدم علمهم بذلك، وضربهم في الوهم والظنّ. ولكنّ القرآن يحسم الموقف معلناً أن هؤلاء لم يقتلوا

عيسى ولم يصلبوه وإنّما اشتبه عليهم الأمر، فظنّوا شخصاً غير عيسى أنّه هو فصلبوه، أما عيسى فقد رفعه الله إليه وغيّبه عنهم والله تعالى عزيز حكيم قادر على ذلك.

﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾﴾ فعيسى عليه السلام لم يُقتل ولم يُصلب وإنّما تمّ رفعه وإبقاؤه حياً، ولابد أن يؤمن به أهل الكتاب حال حياته. أما كيف يتمّ هذا الإيمان فقد اختلف فيه المفسرون، والله عليم بذلك، إلاّ أن ذكر هذا المعنى إنما هو لتأكيد عدم قتله وصلبه وتشبُّهه لهم، وأن هذه الحقيقة ستتجلّى لجميع أهل الكتاب، وسيكون عيسى يوم القيامة شهيداً على أهل الكتاب، كاشفاً لكلّ ما انحرفوا به.

﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾﴾ وهكذا نكل بنو إسرائيل عن خطّ الرسالة الإلهيّة، ونقضوا الميثاق، وقتلوا الصالحين، وافتروا وادعوا، وتبجّحوا بالإثم، وظلموا، وأخذوا الربا رغم نهيهم عنه، وأكلوا أموال النّاس بالباطل، فكان جزاؤهم تحريم الطيّبات عليهم في الدنيا ولولا الظلم لم تحرم، فما يفعل الله بعذابهم إن شكروا وآمنوا وجزاهم الله يوم القيامة بالعذاب الأليم.

﴿لَّكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاَةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أُوْلَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾﴾ ما ذكرته الآيات السابقة من أوصاف منحطّة لبني إسرائيل يمكن أن يمثّل الطابع العامّ، إلاّ أن ذلك لم يمنع من أن يوجد فيهم أُناس تعمّقوا في العلم، فقادهم ذلك إلى الإيمان بالإسلام والأديان التي سبقتهم، فذكرهم القرآن ومدحهم وخصَّ (المقيمين الصلاة) بذلك، وذكر أنّهم ملتزمون بباقي الأحكام الإسلاميّة ومؤمنون بكلِّ تفاصيل العقيدة، الأمر الذي يؤهّلهم للأجر العظيم.

﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ

الرُّسُلِ وَكَانَ اللّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾ بعد أن تعرَّضت الآيات السابقة لأهل الكتاب الذين فرَّقوا في الإيمان بين الانبياء، وذكرت أنّ الراسخين في العلم آمنوا بالأنبياء جميعاً، بعد هذا راحت الآية القرآنيّة تؤكّد وحدة الوحي والشريعة والمسيرة المؤمنة والقيادة الإلهيّة عبر التاريخ كلّه.

فكلهم يستقي من خالق الكون، والمشرِّع للبشريَّة نظامها الأصلح لها، وكلّهم يبلّغون عنه تعالى، سواء ذكروا في هذه الآية أم ذكروا في آيات أُخرى أم لم يذكروا في القرآن، ويبشّرون بالحياة الطيِّبة التي تنتظر المؤمنين، وينذرون بالعقاب الأليم في الدنيا والآخرة.

ورغم أنَّ الله تعالى أودع في الفطرة استعداد الإيمان بالله، ودوافع الاتجاه إليه، وقدرة التأمُّل في مجالات الكون، بل وأودع فيها عقلاً عمليّاً يدرك حسن العدل وقبح الظلم وبعض مصاديقهما، إلاّ أنَّ العقل بعد أن يوصل الإنسان إلى الله ويفرض على صاحبه طاعة المولى الحقيقيّ، يعلن عجزه عن إدراك كلِّ حقيقة الكون وخفاياه وروابطه، كما يعلن عجزه أيضاً عن إدراك معالم النظام الأصلح، وهو ما يسبِّب إرسال الرسل ليكونوا حجَّة من الله على خلقه، يوصلون إليه شرائعه ويقودونه نحو تطبيقها الأفضل.

﴿لَّكِنِ اللّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلآئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾﴾ إنّما شهادة الله جلَّ وعلا بصحَّة الرسالة التي أنزلها بعلمه، وشهادة الملائكة بذلك وإن كانت شهادة الله العظيم كافية للإثبات. وما الإعجاز القرآني إلاّ شهادة إلهيّة بالرسالة الموحاة إلى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم .

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ اللّهِ قَدْ ضَلُّواْ ضَلاَلاً بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾﴾ بعد وضوح الآيات والبيِّنات وقيام شهادة الله والملائكة بالرسول، يتوضَّح الضّلال البعيد الذي ابتُلي به الكافرون والصادُّون عن سبيل الله.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ اللّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلاَ لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقاً ﴿١٦٨﴾ إِلاَّ طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾﴾ وطبيعي أن ينتهي أمر الكافرين والظالمين إلى الضّلال والضياع والحياة التعيسة، حياة البعد عن الله وغفرانه وهداه، وبالتالي حياة السير على طريق جهنّم والخلود في العذاب.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَآمِنُواْ خَيْرًا لَّكُمْ وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَكَانَ اللّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧٠﴾﴾ بعد أن أبطل القرآن مفتريات أهل الكتاب وكشف عنادهم، دعا النّاس جميعاً ومنهم أهل الكتاب إلى الإيمان بالرسول بعد أن

جاءهم بالحقّ من ربهم، واعداً إياهم بالخير العميم، موضحاً أنَّ هذا الطلب هو بمقتضى فضل الله بهم، وإلاّ فإن الكفر لن يضرَّ الله ـ جلَّ وعلا ـ شيئاً فهو مالك السماوات والأرض.

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ وَلاَ تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ إِلاَّ الْحَقِّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُواْ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ وَلاَ تَقُولُواْ ثَلاَثَةٌ انتَهُواْ خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَات وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَى بِاللّهِ وَكِيلاً ﴿١٧١﴾﴾ في إطار تصحيح العقائد وإعطاء الصورة العقائديّة الأصلية للتوحيد، يتَّجه القرآن هنا إلى النصارى، مصحِّحاً ما تسرَّب إلى عقائدهم من انحرافات وثنيَّة، إذ جعلوا عيسى ابناً لله ـ سبحانه ـ وما ذلك إلا غلوّ وتجاوز لحدود المنطق الصحيح والتديّن الفطريّ الأصيل، وتقوّل على الله جل وعلا، وربَّما يترك هذا المفهوم أثره على المسلمين أنفسهم بأن لا يقعوا ما وقع فيه من قبلهم من الغلوِّ في الدين.

المسيح هو المبارك الذي أنعم الله عليه، وهو كأيِّ إنسان آخر ولدته أمّه وهي مريم ـ التي ذُكر اسمها لرفع أية شبهة ـ كما أنّه رسول الله، مثله كمثل باقي الرسل الذين أنعم الله عليهم بالرسالة التي تعبِّد النّاس جميعاً لله. وقد خصَّه الله بأن جعله كلمة تكوينيّة من (كن) أُلقيت إلى مريم الطاهرة. وهذه الكلمة التكوينيّة كانت أمراً إلهيّاً وروحاً منه ﴿قل الروح من أمر ربي﴾ وحملها ملك مقرّب تمثّل لها بشراً سويّاً.

فيجب الإيمان الحقيقيّ بالله تعالى ـ الذي ليس كمثله شيء ـ ورسله جميعاً، والانتهاء من عقيدة (التثليث) وهي ممّا أدخلته الوثنيَّة في النصرانيَّة، فاعتقدوا بالأقانيم الثلاثة (الأب، الإبن، روح القدس) وهي عقيدة تتنافى مع التصوُّر الفطريّ السليم، الأمر الذي اضطرّ النصارى لتوجيهها بتوجيهات واهية.

إنَّ من الخير للإنسان أن يرجع إلى مقتضيات الفطرة والعقل السليم، فيبني على أساسها تصوراته عن الكون، ويستمدُّ من عقيدة التوحيد سلوكه الحياتيّ.

فالفطرة الإنسانيّة لن تستريح إلاّ إلى الوجود الحقّ المطلق ـ وهو الواحد الذي لا شريك له ـ والكون الواحد المنظَّم الدقيق، والرسل جميعاً يشهدون بوحدانيّة الله تعالى.

والله تعالى منزَّه عن أن يكون له ولد، أو شريك أو شبيه أو مثيل. وكل تصوّر من هذا

القبيل إنما هو من قياس تشبيه المخلوقات بالله وهو باطل. إنَّ كلَّ ما في السماوات والأرض مملوك ومحتاج في ذاته لله تعالى، بل إنّ الفهم الإنسانيّ السليم يؤكّد احتياج كلِّ ما سوى الله له تعالى وقيامه به، وكفى بالله وكيلاً وقيّماً على الكون كلّه، ومع هذا فما أسخف ادّعاء الولدية لله مهما كان توجيهه وتصويره.

﴿لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْداً لِّلّهِ وَلاَ الْمَلآئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزيدُهُم مِّن فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُواْ وَاسْتَكْبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلُيمًا وَلاَ يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللّهِ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾﴾ إنَّ المسيح، الذي ادَّعت بنوته النصارى، والملائكة الذين ادّعى المشركون لهم نظير ذلك؛ موجودات مقرَّبة مباركة تعبد الله تعالى، ولا تأنف ولا تتكبّر في ذلك، فطريق العبوديّة لله هي طريق التكامل والتقرّب من الحقيقة الكونيّة الكبرى. وسيحشر الله تعالى العباد جميعاً إليه، فيحاسبهم على مواقفهم، فأمّا المؤمنون العاملون للصالحات فيوفّيهم أُجورهم وفوق ذلك فضل من عنده، وأمّا المستنكفون المستكبرون فلهم العذاب الأليم ولن ينصرهم من دون الله وليّ أو نصير.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ بِاللّهِ وَاعْتَصَمُواْ بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾﴾ إنّه القرآن العظيم، كتاب البرهان المنطقيّ الفطريّ المتين، والعلامة الساطعة من ربّ الخلق، والنور المبين الهادي إلى الحقّ، يهدي المؤمنين المعتصمين به إلى الرحمة والرضوان الإلهيّين، وهو الصراط المستقيم إلى السعادة الحقيقيّة للإنسان، بعيداً عن أضاليل أهل الكتاب والمشركين.

﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلاَلَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ فَإِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِن كَانُواْ إِخْوَةً رِّجَالاً وَنِسَاء فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ وَاللّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٧٦﴾﴾ الكلالة هي القرابة، والمراد بها هنا ـ كما تفسّره الروايات ـ الإخوة من الأبوين (الأشقاء) أو من الأب (وإذا وجد الاشقاء لم يرث الإخوة من الأب ويقومون

مقامهم إذا عدموا) فإذا توفِّي شخص ولم يكن هناك فرد من الطبقة الأُولى وكانت له اخت فلها نصف ما ترك أخوها، ويعود الباقي (بعد أن تأخذ الزوجة ـ إن وجدت ـ حصّتها) إلى الأخت نفسها بالردِّ ـ عند الإمامية ـ وإلى العصبة عند أهل السنة.

ولو أنعكس الأمر، فكان الميّت أُنثى لا ولد لها ولا والدين فيرثها أخوها كاملاً بالفرض ـ ما عدا سهم الزوج إن وجد فلو كان الوارث أُختين فلهما الثلثان فرضاً والباقي يعود اليهما بالرد، ما عدا سهم الزوج أما لو كان الورثة إخوة ـ رجالاً ونساء ـ فُيقسَّم الارث بينهم على القاعدة ﴿للذكر مثل حظّ الانثيين﴾ بعد عزل سهم الزوج.

وهنا فروع وتفصيلات أُخرى تفهم من الآية أو يستدلُ عليها من الآية أو يستدل عليها من السُنّة.

وتختتم الآية ببيان الحقيقة العامّة وهي أنَّ الشريعة وأحكامها جاءت لهداية البشريّة إلى النظام الأصلح، إذ تقوم على أساس علم إلهيّ واسع بكلِّ حاجات الإنسان وأساليب إشباعها عادلاً حكيماً.

سورة المائدة (٥)

آياتها ١٢٠

بِسْمِ اللّٰه الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تحدثنا من قبل عن جزئية البسملة للسور القرآنيّة ومعانيها

ونقل اتفاق الرواة على أنّ سورة المائدة كانت آخر سورة مفصَّلة نزلت على رسول الله ﷺ في أواخر حياته، فهي ناسخة غير منسوخة، والملاحظة أنّها ـ عموماً ـ تدعو المسلمين جميعاً لحفظ المواثيق والوفاء بالعهد، صفة إنسانيّة خلقيَّة يقوم على أساسها النظام الصحيح، ويمتّد العهد والميثاق من المواثيق الفطريَّة إلى المواثيق الاعتباريَّة، ليشكّل الوفاء به صفة من صفات هذه الأمّة المسلمة.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَوْفُواْ بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ إِلاَّ مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ①﴾ والعقد هو شدُّ أحد الشيئين بالآخر شدّاً يصعب انفصاله، وقد أُطلق على المقاولات الاعتباريَّة تشبيهاً لها بالأُمور التكوينيّة.

فإذا استجمع العقد شروطه، ولم يخالف أيَّ تحديد شرعي وجب الوفاء به، حتّى ولو كان بالتالي يخالف مصلحة أحد الطرفين، وفي هذا المعنى تتجلّى أخلاقيَّة الإسلام في عهوده وذممه، خصوصاً بعد أن نقارنها بمبتدعات أهل الكتاب وما نراه من دول الاستكبار القائمة اليوم من تحايل ومخاتلة ونقض للعهود والمواثيق الإنسانيّة.

والأحكام الإلهيّة عقود التزم بها المؤمنون لربّهم، وعليهم الوفاء بها بتطبيقها على كلّ شؤون الحياة. ومن هنا يأتي هذا البيان لبعض الأحكام.

فبهيمة الأنعام حلال (أكلها وما ينتفع به منها) للمسلمين وهي الأزواج الثمانية من (الإبل والبقر والضأن والماعز) مع وجود استثناءات ستأتي فيها بعد أشار إليها القرآن بقوله: ﴿إلا ما يتلى عليكم﴾. ومن الاستثناءات حرمة هذه المحلّلات إذا تمَّ اصطياد الوحشي منها في حال الإحرام، والله تعالى يحكم ما يريد هداية للإنسانيّة إلى السبيل الصحيح.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُحِلُّواْ شَعَآئِرَ اللّهِ وَلاَ الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلاَ الْهَدْيَ وَلاَ الْقَلآئِدَ وَلا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُواْ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ

شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢﴾﴾ شعائر الله هي علاماته الواضحة التي تتميَّز بها الشريعة الإلهيّة عن غيرها، فيجب احترامها، والشهر الحرام هو ما حرَّمه الله من شهور السنة القمريَّة وهي (المحرَّم ورجب وذو القعدة وذو الحجة). و(الهدي) هو ما يساق للحجِّ من الغنم والبقر والإبل. (القلائد) جمع قلادة وهي ما يقلد به الهدي في عنقه من علامات تشعر بأنّه هدي. والمقصود من «آمّين البيت الحرام» أولئك القاصدون له الذين يبتغون الفضل من ربّهم حجاً أو تجارة.

فيجب إذن تعظيم شعائر الله وعدم القتال في الأشهر الحرم، وعدم التعرض للهدي، وإنما يترك لينحر يوم النحر، وتأمين القاصدين لبيت الله الحرام. وهكذا يوفِّر الإسلام للأمّة المسلمة أجواء من الشريعة الواضحة المعالم والزمان والمكان الآمنين لتسترجع فيها ذاتها وتدرس مشاكلها وتسير نحو علائها. وهذا الأمر للإباحة؛ لأنَّه آت بعد المنع فيفيد السماح بالصيد بعد الإحلال من الإحرام، وإن كانت حرمة الصيد في حدود الحرم باقية. وهذه صورة خلقيَّة رائعة يقدمها الإسلام هنا، فمن الطبيعي أن يحمل المسلمون العداء (الشنآن) لأولئك الذين (صدُّوهم) ومنعوهم من زيارة البيت الحرام في صلح الحديبيَّة مثلاً، إلا أنَّ هذا الغضب يجب ان لا يحملهم (يجرمنّكم) على الاعتداء عليهم والانتقام منهم عند التسلّط والقدرة.

وبدلاً من ذلك يقودهم نحو التعاون على عمل الخير (البرّ) والتقوى والتكامل، مع نبذ أي تعاون على الانحراف والاعتداء، بأيَّة حجَّة تمَّ هذا التعاون المنحرف، تعصباً لقوميَّة، أو قبيلة أو ما إلى ذلك، فليسّ ذلك من صفات هذه الأمّة القائمة على الأُسس الأخلاقيّة النبيلة. ثمّ أعطى الإطار العام لكل الأوامر الإسلاميّة وهو التقوى، لتأكيد حقيقة العمل الدقيق بتعاليم الله وهو شديد العقاب.

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُواْ بِالأَزْلاَمِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ

وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾﴾ بيان لبعض الأشياء المحرَّمة في الإسلام والتي أُشير إليها بعبارة «إلا ما يُتلى عليكم». والملاحظ تأكيد القرآن على أن ما حرم إنّما هو لما فيه من مفسدة بقرينة قوله تعالى هنا ﴿ذلكم فسق﴾ أي خروج عن المسيرة الطبيعيّة الفطريّة للإنسان، وكذلك قوله تعالى في مكان آخر معللاً بأنّه رجس، والرجس من عمل الشيطان. وأوضح منه قوله تعالى: ﴿إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم﴾.

وعلى أيٍّ؛ فالمحرمات المذكورة هي: الميتة: وهي الحيوان الذي لم يمت على الطريقة الشرعية في الذبح. والدم ولحم الخنزير، وما ذبح لغير الله، والمنخنقة (أي البهيمة التي تموت بالخنق) ، والموقوذة (التي تضرب حتّى تموت)، والمتردّية (أي التي سقطت من مكان عال فماتت) والنطيحة (التي نطحها حيوان فماتت) وما أكل السبع (أي التي افترسها حيوان مفترس كالأسد).

واستثنت الآية ما ذكّي منها على الطريقة الشرعية أثناء حياتها.

ومن المحرَّمات «ما ذُبح على النصب» وهي الحيوانات التي كانت تُذبح للحجارة التي كان الوثنيون يقدّسونها، ومنها «الاستقسام» أي اقتسام لحم الحيوان أثناء المقامرة.

أما المقطع القرآني المتحدّث عن اكمال الدين فهو يشكّل وحدة قرآنيّة كاملة، ويعبِّر عن حقيقة ضخمة تمّت في آخر أيام النبي ﷺ فكمل بها الدين ويئس لها الكفار. ولا ريب أنها حادثة ضخمة لا تنسجم ومجرَّد إعطاء آيات التحريم أو مجرّد فتح مكّة أو ما إلى ذلك، وإنما تنسجم تمام الانسجام مع التفسير القائل بنزولها بعد رجوع الرسول ﷺ من حجَّة الوداع ووقوف النّاس في مكان يدعى غدير خم (بين مكّة والمدينة) في الثامن عشر من ذي الحجة سنة عشر من الهجرة الشريفة حين أعلن الرسول العظيم ﷺ علياً ولياً للامة فقال: (من كنت مولاه فهذا عليٌّ مولاه. اللّهم وال من والاه، وعاد من عاداه، وانصر من نصره، واخذل من خذله)[1].

١. انظر الكافي (ج ٨ ص ٢٧)، الأمالي للطوسي (ص ٣٣٢)، سنن ابن ماجة (ج ١ ص ٤٣)، السنن الكبرى للنسائي (ج ٥، ص ١٣٤)، مسند احمد (ج ٤ ص ٢٨١)، المعجم الأوسط للطبراني (ج ٢ ص ٢٤)، المستدرك للنيسابوري (ج ٣ ص ٥٣٣) وغيرها.

وهكذا تمّ إكمال الدين واتمام النعمة عبر تعيين الإمامة والقيادة بعد ختم النبوّة وانقطاع الوحي، لئلا تواجه الأمّة الفراغ الهائل بعد موت النبي ﷺ . وبذلك ضمن استمرار القيادة الدينية والتربية الإلهيّة، فلا خوف من انقطاعها وليبأس الكافرون المتربّصون بالإسلام والمنتظرون لانقطاع القيادة بموت الرسول العظيم. وعلى هذا دلَّت الأحاديث المروية بطرق مختلفة من السنَّة والشيعة، وهي تنسجم مع حديث الغدير المتواتر المروي عن جمٍّ غفير من الصحابة. وقد اعترف بتواتره جمع كثير من العلماء. وبهذه الآية أُعلن كمال الدين وقدرته التامَّة على تسيير دقّة الحياة الإنسانيّة كلها، فلا حاجة للتطفّل التشريعيّ على موائد الكفر. وانطلاقاً من سماحه يجيز الإسلام للمضطرّ المبتلى بمجاعة (مخمصة) غير مختار (متجانف) لإثم ومقارف للحرام أن يأكل من هذه المحرَّمات بما يرفع هذا الاضطرار.

﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللّهُ فَكُلُواْ مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُواْ اسْمَ اللّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٤﴾﴾ وكما أكَّدت الآيات السابقة أنّ المحرَّمات إنما حرِّمت؛ لأنها فسق، فإن هذه الآية تؤكد أنّ الأُمور المحلَّلة إنما كانت كذلك لكونها من الطيِّبات، وكأنَّ الآية ترجع الإنسان إلى فطرته وذوقه الطبيعيّ لتشعره بهذا المعنى.

قيل: إنّ (وما علمتم) معطوفة على الطيّبات، فتعني أنّه أحلَّ لكم صيد ما علَّمتم من الجوارح، وقيل: إن (ما) شرطيَّة، جوابها: «فكلوا مما امسكن عليكم».

والجوارح: جمع جارحة وهي التي تصيد من الطير والسباع، والمقصود هنا الكلاب، والتكليب: تعليمها وتدريبها، فالكلاب المعلَّمة إذا اصطادت شيئاً من الوحش لصاحبها وقد سمّى عليه باسم الله فقتلته فذلك له تذكية ولحمه حلال، على أن يتمّ ذلك في إطار من التقوى الإلهيّة بلا اسراف أو تبذير في الثروة الحيوانيّة، كما يُشعر بذلك قوله ﴿واتقوا الله﴾.

﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلُّ لَّهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلاَ مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَن يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٥﴾﴾ بيان للمنن الإلهيّة بإحلال الطيّبات،

وكذلك إحلال طعام أهل الكتاب، فلا مانع من أن يطعموا منهم أو يطعم أهل الكتاب من طعام المسلمين، وفسر الطعام بالبُر أو غير ذلك، إلاّ أنّه لا يشمل ما يتطلَّب التذكية من طعامه فإنَّه محرم ـ وفق الآيات السابقة ـ لعدم استيفائه لشروط التذكية، إذ هو رجس وفسق فلا يدخل في عداد الطيّبات. فالتحليل إنما هو من جهة الانتساب لا غير.

منَّة أُخرى على المسلمين بالسماح لهم بالزواج من المسلمات العفيفات (المحصنات)، وكذلك العفيفات من أهل الكتاب شريطة أن يكون النكاح بالأسلوب الشرعي، ومنه ايتاء المهر والأجر، بعيداً عن جوّ السفاح والزنا المحرّم، والمصادقة الحرام (المخادنة). والمسلم الذي لم يعمل بمقتضيات إيمانه بالإسلام من لزوم تطبيق تعاليمه هو ـ في الواقع ـ كافر بإيمانه، وخصوصاً إذا استمرَّ على العصيان ممّا يؤدّي إلى حبط عمله، فلا يعود له أثر في حياته، وهو في الآخرة من الخاسرين.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فاغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُواْ بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَينِ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُواْ وَإِن كُنتُم مَّرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاء أَحَدٌ مَّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاء فَلَمْ تَجِدُواْ مَاء فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ مَا يُرِيدُ اللّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهَّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾﴾ هذه الآية تتضمَّن حكم الطهارات الثلاث (الوضوء وغسل الجنابة والتيمُّم). فأمّا الوضوء فيتمُّ بغسل الوجه ـ أولاً ـ وقد حدَّدته الروايات بأنّه ما بين قصاص الشعر من الناصية وآخر الذقن طولاً، وما دارت عليه الإبهام والوسطى عرضاً، ثمّ غسل اليدين ـ ثانياً ـ إلى مرفقيهما. وقد عيَّنت الروايات عن أهل البيت عليهم السلام اتّجاه الغسل من مرفق اليد إلى الأصابع، وهو الحالة الطبيعيّة المتعارفة في غسل اليد.

وقد نقل صاحب (مجمع البيان) أن الأمّة أجمعت على صحَّة وضوء من بدأ بالغسل بالمرافق وانتهى إلى أطراف الأصابع، مما يعيّن ما قلناه من أن المراد بقوله «إلى المرافق» هو تحديد للمساحة المغسولة من اليد دون تعيين الاتجاه. وبعبارة أخرى فإن (إلى المرافق) قيد للأيدي لا متعلق (فاغسلوا)، أما الثالث فهو مسح بعض الرأس، وقد عيَّنت الروايات أنّه يجب أن يتمّ في مقدَّمه والجزء الرابع من الوضوء، هو المسح للأرجل لعطفها على الرؤوس

وتأكيد الروايات عن أهل البيت عليهم السلام لذلك[١]. واختلفت روايات أهل السنة فيه[٢]. واختلفوا في ذلك[٣]، وظاهر الآية المسح.

وهذا الجزء الذي يجب مسحه من الأرجل هو ظاهر الرجل من الأصابع إلى الكعبين، وهما العظمان الناتئان في ظهر القدم.

أما الجنابة ـ وهي الحدث الأكبر الذي يحصل بالجماع أو مطلق خروج المني ـ فالتطهير منها لا يتمّ بالوضوء وإنما هو بالغُسل. هذا في الحالات العادية.

أما في حالات المرض والسفر (وهي مظنَّة لعدم التمكُّن من الماء) وكذلك في حالات العودة من الغائط (وهو تعبير كنائيّ عن قضاء الحاجة) أو الجماع، فإن الحكم ـ عند فقدان الماء ـ التيمّم بصعيد طيِّب أي بوجه الأرض النظيف أو الأصيل الذي لم يتغير بطبخ أو نضج.

ويتألَّف التيمُّم من مسحتين؛ إحداهما للوجه (وهو ما بين الجبينين) والأُخرى لليدين وهي ما دون الزند كما بيَّنته روايات أهل البيت عليهم السلام.

الحرج: هو الضيق الشديد، وقد قرَّر القرآن الكريم بهذه الآية الكريمة يُسر الشريعة الإسلاميّة وسماحها، فأعلن أنَّ الإسلام لا يدع المسلم في حرج مطلقاً، وهذا يعني أنَّ بعض الاحكام الإسلاميّة شرِّعت رأساً في حالات الحرج، كالتيمُّم عند فقدان الماء، كما أنّ أي حكم إسلاميّ أدّى إلى الحرج يمكن عدم الالتزام به بالمقدار الذي يرتفع الحرج منه.

ومن هنا سُمِّي هذا الباب بباب الأحكام الثانويَّة، وهو يعبِّر أروع تعبير عن مرونة الإسلام المستوعبة لمختلف الحالات. والآية هنا بعد أن تنفي أيَّ حرج تعلن أنَّ هدف الإسلام هو التطهير (الظاهريّ والباطنيّ). فالوضوء تطهير ظاهريّ ينتج عنه تطهير باطنيّ، وبذلك تتمّ نعمة الله على العباد، بإعطائهم الدين الذي يهديهم سواء الصراط ـ لعلَّهم يشكرون ربَّهم قولاً وعملاً ـ فيطبِّقونه على كلِّ الحياة.

﴿وَاذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّه عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُواْ

١. وسائل الشيعة (ج ١ ب ١٥ من ابواب الوضوء).
٢. تفسير الطبري (ج ٦ ص ٨٢).
٣. راجع المحلي لابن حزم (ج ٦ ص ٥٦)، الرازي في مفاتيح الغيب (ج١١ ص ١٦١).

اللّه إِنَّ اللّه عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧﴾﴾ فليذكر المؤمنون نعمة الله عليهم، والميثاق والعهد الذي أعطوه بفطرتهم وإسلامهم لله، فأعلنوا السمع والطاعة. وحيث اعتنقوا الإسلام واتّخذوه ديناً لهم فما عليهم إلاّ الاهتداء بهدي الله وتقواه، وإصلاح ذات الصدور أي النيّات والميول الباطنيَّة، ليتحقَّق الأمل الإنسانيّ المنشود.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلّه شُهَدَاء بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُواْ اللّه إِنَّ اللّه خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾ هكذا يريد الإسلام للمؤمنين أن يكونوا في كلّ وجودهم: قوّامين حقّاً لله، عاملين على تحقيق الأهداف الإلهيّة، شاهدين بالقسط والعدل، مطبِّقين له دون أن يحملهم (يجرمنّهم) العداء (الشنآن) لأحد على عدم إقامة العدالة والشهادة لله وللحقيقة، فإن إقامة العدل تحقّق مجتمع المتّقين.

﴿وَعَدَ اللّه الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٩﴾﴾ وعدٌ إلهيّ للمؤمنين العاملين بالغفران والأجر الكريم، ووعد الله لا يتخلّف، فليعمل له العاملون الملتزمون بالخطّ الإسلاميّ الأصيل.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١٠﴾﴾ أما عاقبة الكافرين المكذّبين بالآيات فليست إلاّ الهلاك والدمار والعذاب الإلهيّ الخالد في الجحيم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّه عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُواْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَاتَّقُواْ اللّه وَعَلَى اللّه فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾ تذكير إلهيّ من جديد بالنعم على المسلمين، بعد أن أنجاهم الله من تآمر الكافرين الذين حاولوا بسط أيديهم والاعتداء على الوجود الإسلاميّ، فكان التأييد الإلهيّ بمنع أيديهم من الوصول بأذى للمسلمين، وهذه النعمة تتطلّب أن يتّجه المسلمون نحو حياة الشكر والتقوى والتوكّل والاعتماد على الله العظيم.

﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللّه مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ وَبَعَثْنَا مِنهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللّه إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاَةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللّه قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاء السَّبِيلِ ﴿١٢﴾﴾ إعتباراً بقصص الأمم الماضية،

يتحدَّث القرآن عن بني إسرائيل الذين اعطوا الله تعالى ميثاقاً وعهداً بحمل رسالته فبعث لهم منهم اثني عشر نقيباً ووليّاً عليهم، ووعدهم بالتأييد المستمر بقوله ﴿إني معكم﴾ وتكفير السيئات ومحوها وادخالهم جنّات تجري من تحتها الانهار، شريطة إقامة الصلاة كأقوى رابطة بين العبد وربّه، وإيتاء الزكاة، لسدّ الفجوات الاقتصاديَّة في المجتمع، والإيمان بالرسل، وتبعيَّتهم ونصرتهم، والتبرُّع لصالح المجتمع، باعتباره إقراضاً حسناً لله، فإذا تمَّ كلُّ ذلك الالتزام جاء الوعد الإلهيّ بالعاقبة الحسنة، أمّا الكفر فلا يؤدّي إلاّ إلى الضّلال والروايات تدل على أنّ الرسول ﷺ سيخلفه اثنا عشر خليفة كعدد نقباء بني إسرائيل[١].

﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِ وَلاَ تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىَ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمُ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ إلاّ أنَّ بني إسرائيل نكلوا ونقضوا ميثاقهم، ولم يلتزموا بمقتضيات عهدهم لله فابتلوا بالعذاب الأليم الذي لا يصل إليه عذاب، وحملوا صفات الانحطاط الحضاريّ المقيت. والقرآن يلخّصها بالأُمور التالية:

أ – اللعنة الإلهيّة: أي الابتعاد عن رحمة الله، وما أشدَّ هذا العذاب لأنه يعني الابتعاد عن خطّ الحقيقة والإنسانيّة الأصيلة.

ب – القلوب القاسية: بموت العواطف والحرارة الثوريّة والإيمانيَّة التي تمتّعوا بها من قبل فحملوا رسالة الله، وهي من أشدِّ الأُمور التي قد تصيب المغيِّرين إذا لم يلتزموا برسالتهم التغييريَّة الثوريّة. وهو ما أشارت إليه الآية القرآنيّة الأُخرى ﴿ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحقّ ولا يكونوا كالذين اوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون﴾[٢].

ومن عواقب هذه القسوة: الاستهانة بالنصوص الإلهيّة، وعدم الارتباط الإيماني العاطفي بها، وبالتالي تحريفها لفظاً ومعنى لتحقيق مصالحهم الضيّقة.

---

١. راجع الصحاح.

٢. الحديد: ١٦.

ج - نسيان بعض ما كان سر عظمتهم وانطلاقتهم وسعادتهم. وهو بالتالي يشير إلى اتصافهم بالخيانة للمبدأ والشريعة، وعلى امتداد تاريخهم الطويل، باستثناء القليل ممن وفوا لرعاية الحقّ منهم.

وبهذا يحذر الأمّة الإسلاميّة الثائرة على طواغيت النفس والمجتمع من أن تُبتلى بهذه الأمراض الحضاريّة عندما تنقض عهدها الذي أعطته لربها، باعتبارها أمّة وسطا شاهدة قائدة.

وفي قبال عناد أهل الكتاب يبدو السماح الإسلاميّ عبر طلب القرآن العفو والصفح عنهم، والإحسان إليهم عسى أن يثوبوا إلى رشدهم ويسيروا في الخطّ المستقيم.

﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللّهُ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾﴾ ويتوجَّه القرآن هنا إلى النصارى بعد أن ذكَّر اليهود بنقضهم للميثاق، فيعلن أنّهم أيضاً نقضوا المواثيق التي أعطوها بايمانهم بالنصرانيّة من العمل على نشر السلام، والاتجاه إلى الآخرة والإعراض عن الملاذ، وما إلى ذلك من تعاليم الدين الذي جاء به المسيح عليه السلام، إلاّ أنّهم أيضاً ابتُلوا بداء النسيان الحضاريّ لبعض تلك التعاليم، فابتلاهم الله بالعداوة وألصقها (أغراها) بمسيرتهم إلى الأبد. وآية ذلك هو هذا النزاع الدائم بينهم ـ فكريّاً وعمليّاً ـ حتّى شهدنا بينهم الحروب المدمِّرة على امتداد تاريخهم.

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءكُم مِّنَ اللّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾ بعد أن انتقد القرآن أهل الكتاب من اليهود والنصارى وذكَّرهم بنقضهم الميثاق، أعلن أنَّ الرسول الأكرم محمّداً صلى الله عليه وآله وسلم جاءهم بالرسالة الإسلاميّة الحقَّة التي أظهرت الكثير ممّا كان يخفيه علماؤهم من الحقّ (وهو برهان جليّ على صحّة الرسالة خصوصا بعد الالتفات إلى أميَّة الرسول) كما أنها تركت الكثير من الإضافات والبدع التي أحدثوها في دينهم.

إنَّ الإسلام جاء نوراً في ظلمات الجاهليَّة، وتخرُّصات أهل الكتاب وأوهامهم، فأعطى الحقائق والأحكام المنسجمة مع الفطرة.

﴿يَهْدِي بِهِ اللّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنِ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾ من الطبيعيّ أنَّ الهداية لا تؤثّر إلاّ في أرضيَّتها المناسبة،

والأرضيَّة التي تذكرها الآية تتلخّص في العزم على اتباع رضوان الله كمقياس عام في الحياة، فإن ذلك سيؤدّي إلى التبعيَّة التامَّة لتعليمات القرآن التي يتجلّى فيها رضا الله. وسبل السلام هي طريق السلامة من كل شقاء وانحراف وظلمات، وكلّها تتأطَّر بإطار الصراط المستقيم، صراط السلام.

﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَآلُواْ إِنَّ اللّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاء وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾﴾ ويبدو أنَّ القرآن يشير إلى فرقة نصرانيَّة مفرطة في الغلوّ، بادعاء الاتّحاد بين الله والمسيح بدلاً من جعله ثالث ثلاثة.

إلاّ أنَّ الرَّد على هذا الاعتقاد السخيف سهل، فهؤلاء يعتقدون أنّه إله بشر (ولذلك عبَّروا عنه بأنّه ابن مريم) فهو الإنسان المحتاج إلى أُمه، وهو وأُمه وجميع الكون محكومون للقدرة الإلهيّة التي إن شاءت أهلكته هو وأُمه ومن في الأرض جميعاً، ولا يمنعها من ذلك مانع، فجميع ما في السماوات والأرض وما بينهما هي من الممكنات، وهي مملوكة محكومة له تعالى، يخلق ما يشاء منها وهو على كل شيء قدير. فالواقع هو أنّهم لم يعرفوا الله على حقيقته ولا المسيح أيضاً. إنّ الله هو الكامل المطلق الغنيّ عن المكان والزمان وكل شيء غيره، وهو القادر المطلق، فهل القول بوحدته مع مخلوق ممكن ضعيف محتاج إلاّ ضرب من السخف والضلال؟!

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاء اللّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاء وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاء وَلِلّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾ من الادّعاءات الجوفاء التي قال بها أهل الكتاب؛ أنّهم أبناء الله وأحباؤه، وهو ادّعاء قادهم للقول بفكرة شعب الله المختار إلاّ أنّ القرآن الكريم ينقض عليهم هذا القول بذكر حقيقة العذاب الإلهيّ لهم (وهو أمر يتنافى مع البنوّة) ومن هنا ينتقل لذكر الحقيقة العامّة وهي أنّهم بشر، وأنّ البشر جميعاً مخلوقون له تعالى وعليهم أن يلتزموا بالتعاليم الإلهيّة، وحينئذ يجازى العاصون ويثاب المطيعون، فالبشر جميعاً وما في الكون كله مخلوق ومملوك ـ حقيقة ـ بالتالي له تعالى وإليه مصير الوجود.

ومن خلال هذا المضمون العامّ ينبغي أن يعي المسلمون أيضاً هذه الحقيقة، ولا يصابوا بالغرور الزائف والادّعاء الكاذب.

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَاءنَا مِن بَشِيرٍ وَلاَ نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾﴾ توجُّه قرآنيّ آخر لأهل الكتاب، مذكّراً إياهم بالفترة التي انقطع فيها الوحي، وساد التحريف واتجهت النفوس إلى الرسول الخاتم تنتظره بشوق، وها قد جاءها هذا الرسول، مبيّنا الحقائق ومبشّراً ومنذراً، مما يقطع الحجّة على الناس، فلا يبقى مجال لادّعاء عدم وجود رسالة بعد مجيء الرسول المنتظر، والله تعالى قادر على إرسال الشريعة الخالدة.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاء وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّن الْعَالَمِينَ ﴿٢٠﴾﴾ تذكير قرآنيّ بالنعم الإلهيّة الخاصَّة على بني إسرائيل، والتي احتجَّ بها موسى عليه السلام عليهم، فقد شرَّفهم الله بجعل بعض الأنبياء فيهم، ومنحهم استقلالهم وملكيّة القرار في أمورهم، وبالتالي التفضُّل عليهم بما لم يعهد عند غيرهم من الأمم السابقة والمعاصرة لهم.

﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ المُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللّهُ لَكُمْ وَلاَ تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿٢١﴾﴾ بعد تذكيرهم بالنعم، يطلب منهم موسى عليه السلام القيام بحمل المسؤوليّة في قبالها، بحمل الرسالة والصراع ضد الطاغوت من خلال دخولهم للأرض المقدَّسة (بيت المقدس) وتحريرها وامتلاك أزمَّتها؛ لأنهم الوارثون ما داموا حاملين للأمانة، ملتزمين الشريعة، أما مع الارتداد على الأدبار والارتكاس في الرجعيّة الحقيقيّة فليس هناك إلاّ الخسران؛ خسران أهلِّية حمل الرسالة، وفقدان النعم الإلهيّة. وبهذا يتبيّن زيف ادّعائهم للأرض المقدَّسة دائماً، وانها أرض الميعاد. بينما يرتبط هذا بحمل الأمانة دون النكوص عنها.

﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىَ يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ نموذج لحياة الدعة والإخلاد للراحة، والتهرُّب من التضحيات رغم أنّهم يرغبون في الفتح، وليس الفتح إلاّ في ظل الجهاد.

﴿قَالَ رَجُلاَنِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُواْ عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللّهِ فَتَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾﴾ ومن بين ذلك الحشد تميز رجلان من الفئة المؤمنة، فراحا يواجهان المنطق المتخاذل المستسلم، بالموقف الرساليّ المنطقيّ السليم،

إنّهما يخافان الله تعالى فلا يعصيان له أو لرسوله أمراً، وقد أنعم الله عليهما فهما يشكران نعمه بالالتزام بمقتضياتها، والنعم هنا مطلقة غير مقيَّدة، وتشمل الرؤية الواضحة والحكمة في اتخاذ القرار الصعب، ويمكن أن تكون النعمة هنا هي نعمة الخوف من الله وحده، التي لا تُبقي في قلب الإنسان مكاناً للجبن والتردُّد والحيرة، بل يتحوَّل المؤمن بهذا الخوف إلى قوّة صامدة وطاقة كبرى، تزول الجبال ولا يزول، وبمقدار تأصُّل هذا الخوف في القلب، تتأصَّل معاني الشجاعة والإقدام والصبر على المكاره والتفاني في سبيل الله تعالى، ومن منطلق هذه القوّة طلب الرجلان من بني إسرائيل أن يدخلوا البلدة ويقتحموها ليستفيدوا من ميِّزات الهجوم والمباغتة وعنصر المفاجأة، فيأخذوا زمام المبادرة من العدوّ، ولا شك أنّهم هم الغالبون في هذه الحالة إذا ما اقترن ذلك بالتوكّل على الله، والاعتماد على وسائل النصر التي يحملها عنده، فيمنّ بها على المؤمنين المجاهدين، ويذكِّرنا هذا بمقولة للإمام علي عليه السلام: «اغزوهم قبل أن يغزوكم؛ فوالله ما غزي قوم قطّ في عقر دارهم إلاّ ذلّوا»[1].

﴿قَالُواْ يَا مُوسَى إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴿٢٤﴾﴾ ولكنَّ هذا المنطق الصحيح والرؤية الصائبة لم تكن لتؤثّر في نفوس بني إسرائيل، التي استمرأت الراحة وسيطر على جوانبها اليأس والهلع والخذلان، كما لم تؤثّر فيهم كلمات نبيّ الله موسى من قبل، فكرَّروا هنا عدم استجابتهم للنداء الإلهيّ، وأضافوا إلى ذلك ـ بكل صلافة ـ أنّه إذا كان مصرّاً على القتال فليذهب هو وربه ليُقاتلا نيابة عنهم، أما هم فقاعدون ينتظرون النتائج، وقد يقطفون ثمار النصر في نهاية المطاف. وهذه الروح الانهزاميَّة تذكِّر بموقف للمسلمين على النقيض من ذلك في يوم بدر، حيث وقف أحدهم وهو (المقداد) ليقول للنبيّ صلى الله عليه وآله: ولا نقول لك ما قالت بنو إسرائيل لموسى ﴿فاذهب أنت وربك فقاتلا انا ها هنا قاعدون﴾ ولكنّا نقول: (اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون)[2].

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لا أَمْلِكُ إِلاَّ نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٥﴾﴾ وهنا

١. الكافي، ج ٥، ص ٤، نهج البلاغة، خطبة ٦٩.

٢. بحار الأنوار، ج ١٩، ص ٢٤٧ و ٢٤٨.

يلجأ موسى عليه السلام إلى ربّه معلناً قلّة النصير طالباً منه تعالى أن يفصل بينه وبين هؤلاء القوم المعاندين والفاسقين الخارجين عن الطريق الإنسانيّ الأقوم.

﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ فَلاَ تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾ وتستجيب القدرة الإلهيّة لدعاء موسى عليه السلام فتحرّم عليهم التنعُّم في الأرض المقدّسة، وتفرض عليهم التيه في الصحراء أربعين عاماً، عقاباً لهم على فسقهم وانحرافهم، غير مأسوف عليهم، وهذا بنفسه عذاب أليم ينفي ما ادعوه من قبل من البنوَّة والحب بينهم وبين الله تعالى.

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِن أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾﴾ ولعلّه للتركيز على معياريَّة العمل الصالح، ونفي أيّ دخل للنسب في التقييم، يذكر القرآن القصَّة الحقيقيّة لابني آدم: إنهما ينتسبان بمستوى واحد لآدم، إلاّ أنّ الله تعالى يتقبَّل من أحدهما فيكرمه نتيجة إخلاصه، دون أخيه المرفوض قربانه نتيجة انحرافه وحسده وسوء سريرته، مما دفعه لتهديد أخيه بالقتل، إلاّ أن الأخ يصحّح له خطأه، ويعلن القاعدة القرآنيّة العامّة ﴿إنما يتقبل الله من المتّقين﴾.

﴿لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَاْ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لَأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾﴾ ولئن أقدم قابيل على قتل أخيه استجابة لانفعال وحقد، وبسط يده إليه، فإن هابيل يعلن أنّه لن يردَّ عليه بقتله بنفس الدوافع؛ لأنَّ ذاك يعني معصية الله تعالى وهو يخافه. ولا يعبِّر هذا الموقف عن أية سلبيّة أو انهزاميّة، وإنما هو موقف مبدئيّ منطقيّ سليم.

﴿إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاء الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ ولتتمَّ عملية ردع قابيل عن هذه الجريمة، يذكّره أخوه هابيل بأنّه سيتحمَّل إثمه وإثم أخيه المقتول لو أقدم على ذلك مما يؤدّي به إلى النار جزاءً على ظلمه.

﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ وهكذا مهَّدت له نفسه الشريّرة أن يقتحم كلَّ العقبات العقائديّة والعاطفيَّة، ويستجيب للدوافع الذاتيّة الضيِّقة فيقتل أخاه، ويصبح بالتالي من الخاسرين بكلِّ ما في كلمة الخسارة من معنى.

﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ بعد

تنفيذ جريمته عاد المجرم حائراً ضعيف الحيلة، لا يدري كيف يواري جريمته، حتّى بعث الله غراباً يبحث في الأرض، ليريه كيف يدفن جسد أخيه، وحينئذ وقف على ضعفه وقلّة تفكيره، إذ عجز عن أن يصل إلى ما وصل إليه طائر ضعيف، فتملّكه الندم والأسف بشكل فطريّ، وأحسَّ بالعجز رغم ما أُصيب به من غرور كاذب وطغيان زائف.

﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاء تْهُمْ رُسُلُنَا بِالبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَلِكَ فِي الأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ (٣٢)﴾ بعد أن ذُكرَت قصّة ابني آدم للاعتبار، يعود القرآن في حواره مع أهل الكتاب ليذكّرهم بأنهم حملوا خصائص قابيل من الحسد والطغيان، فكُتب عليهم ـ في إطار الشريعة التفصيليَّة المعطاة لهم ـ أنَّ قتل إنسان واحد بغير حق يعني قتل النّاس جميعاً، باعتبار ما فيه من خرق للحرمة الإنسانيّة، وتحدّ لوجودها الخيِّر، في حين أن إحياء نفس إنسانيّة ـ إحياءً ماديّاً أو معنويّاً بهدايتها إلى الحقّ وإنقاذها من الموت والضلال ـ يعني تقدير هذا الوجود المكرّم والمساهمة في تحقيق أهدافه السامية.

وفي تفسير هذه الآية، روى الكافي بإسناده عن الفضيل بن يسار قال: قلت لأبي جعفر عليه السلام: قول الله عزوجلّ في كتابه ﴿ومن أحياها فكأنما أحيا النّاس جميعاً﴾؟ قال: «من حرق أو غرق»، قلت: ومن أخرجها من ضلال إلى هدى؟ قال: «ذلك تأويلها الأعظم»[١]. وهو حديث مستفيض.

وهذه الآية الكريمة آية على إكرام القرآن للإنسان، وتأكيد لوجوده المؤثّر في صنع أهدافه الكريمة.

ورغم البيّنات والشرائع الواضحة التي حملها الرسل إلى أهل الكتاب، فإننا نجد الكثير منهم ـ نتيجة عنادهم وطغيانهم ـ يفرطون في الانحراف ويسرفون في الفسق، ويجاوزون الحدود التي كتبها الله عليهم.

﴿إِنَّمَا جَزَاء الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُواْ أَوْ يُصَلَّبُواْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي

---

١. الكافي، ج ٢، ص ٢١٠و ٢١١.

الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ قال سيّد قطب في تفسير هذه الآية: «وحدود هذه الجريمة التي ورد فيها هذا النص، هي الخروج على الإمام المسلم الذي يحكم بشريعة الله، والتجمع في شكل عصابة، خارجة على سلطان هذا الامام، تروّع أهل دار الإسلام، وتعتدي على أرواحهم وأموالهم وحرماتهم. ويشترط بعض الفقهاء أن يكون ذلك خارج المصر بعيداً عن مدى سلطان الامام. ويرى بعضهم أن مجرد تجمُّع مثل هذه العصابة، وأخذها في الاعتداء على أهل دار الإسلام بالقوّة، يجعل النص منطبقاً عليها، سواء خارج المصر أو داخله، وهذا هو الأقرب للواقع العمليّ ومجابهته بما يستحقه.

وهؤلاء الخارجون على حاكم يحكم بشريعة الله، المعتدون على أهل دار الإسلام المقيمين للشريعة (سواء كانوا مسلمين أو ذميين أو مستأمنين بعهد) لا يحاربون الحاكم وحده، ولا يحاربون النّاس وحدهم، إنما هم يحاربون الله ورسوله، حينما يحاربون شريعته، ويعتدون على الأمّة القائمة على هذه الشريعة، ويهدّدون دار الإسلام المحكومة بهذه الشريعة. كما أنّهم بحربهم لله ورسوله، وحربهم لشريعته وللأُمّة القائمة عليها وللدار التي تطبّقها، يسعون في الأرض فساداً... فليس هناك فساد أشنع من محاولة تعطيل شريعة الله، وترويع الدار التي تقام فيها هذه الشريعة.

كما أنَّ للنص ـ في صورته هذه ـ مفهوماً آخر متعيّناً كهذا المفهوم؛ هو أن السلطان الذي يحقُّ له ـ بأمر الله ـ أن يأخذ الخارجين عليه بهذه العقوبات المقررة لهذه الجريمة، هو السلطان الذي يقوم على شريعة الله ورسوله، في دار الإسلام المحكومة بشريعة الله ورسوله. وليس أيّ سلطان آخر لا تتوافر له هذه الصفة، في أية دار أُخرى لا يتوفَّر لها هذا الوصف.

انه ليس لسلطة لا تقوم على شريعة الله في دار الإسلام أن تأخذ الخارجين عليها باسم شريعة الله. وما لمثل هذه السلطة وشريعة الله؟ إنها تغتصب حقَ الالوهيّة وتدَّعيه، فما لها تتحكم بقانون الله وتدَّعيه؟!

إنما جزاء أفراد هذه العصابات المسلَّحة، التي تخرج على سلطان الإمام المسلم المقيم لشريعة الله، وتروّع عباد الله في دار الإسلام، وتعتدي على أموالهم وأرواحهم وحرماتهم؛ أن يُقتَّلوا تقتيلاً عادياً، أو أن يصلّبوا حتّى يموتوا (وبعض الفقهاء يفسّر النص بأنّه الصلب بعد القتل للترويع) أن تقطع أيديهم اليمنى مع أرجلهم اليسرى من خلاف، أو ينفوا أو

يبعدوا عن محلّ إقامتهم أو محلّ ارتكاب جرمهم». فالجزاء الذي يلقونه إذن في الدنيا لا يُسقط عنهم العذاب في الآخرة، ولا يطهرهم من دنس الجريمة كبعض الحدود الأُخرى. وهذا كذلك تغليظ للعقوبة، وتبشيع للجريمة.. ذلك أن الجماعة المسلمة في دار الإسلام يجب أن تعيش آمنة ولأن السلطة المسلمة القائمة على شريعة الله يجب أن تكون مطاعة. فهذا هو الوسط الخيّر الرفيع الذي يجب توفير الضمانات كلها لازدهاره وهذا هو النظام العادل الكامل الذي يجب أن يصان من المساس به.

﴿إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ بعد ذلك الوعيد بالعقاب الشديد، يفتح القرآن أمامهم باب التوبة والارتداع عن الإقدام على التمرُّد، وذلك قبل القبض عليهم، الأمر الذي يكشف عن رجوعهم عن الغيّ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَابْتَغُواْ إِلَيهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُواْ فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُواْ بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾ يدعو القرآن المؤمنين إلى الإرتقاء في مدارج الكمال الإنسانيّ، عبر التقوى واتّباع السبل والوسائل إلى الله تعالى، وهو الكمال المطلق، ويعمّ هذا كل سبيل مقرَّب إليه، ومن الوسائل: التأسّي بالرسول العظيم وأهل بيته الطاهرين، والتوسل والاستشفاع بهم باعتبارهم عباداً مقرَّبين إليه جلَّ وعلا، وتعطي الآية تركيزاً خاصاً على الجهاد باعتباره معاناة واعية في سبيل الوصول إلى الفلاح. واستمراراً لمضمون الآية السابقة يوضّح القرآن أنّ الرقيّ المعنوي ـ وهو هدف لخلقة الإنسان ـ وبالتالي النجاة من عذاب الله يوم القيامة أمر لا يمكن أن يُشترى بمال الأرض كلها ولو كان مضاعفاً، وإنما يتمّ من خلال التقوى وابتغاء الوسيلة والجهاد في سبيل الفلاح.

﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ النَّارِ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾﴾ إنّه العذاب المطبق المقيم الذي لا مفر منه.

﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُواْ أَيْدِيَهُمَا جَزَاء بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللّهِ وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾﴾ تبين الآية حدَّ السرقة وهو قطع اليد، ومقداره عند الإمامية قطع الأصابع الأربع من اليمين، وعند المذاهب الأربعة قطع اليمنى من المفصل، وهناك تفصيلات وشروط تجعل

تنفيذ الحدِّ نادر الحصول، إلاّ أنّه مع ذلك يبقى رادعاً قويّاً عن الاعتداء على الملكيَّة الفرديَّة والعامّة، الأمر الذي يؤكّد احترام الإسلام لهما في حدودهما الشرعيّة، ولا معنى لتوهُّم القسوة في هذا الحد وأمثاله، بعد ملاحظة ما كفله الإسلام للمسلم من حياة كريمة عادلة، تجعل التفكير في السرقة وأمثالها من الجرائم أمراً معبّراً عن روح التجاوز على الحقوق والإصرار على الانحراف، فالعقوبة هنا نكال وعبرة، ودروس لردع كل من تسوّل له نفسه الاعتداء.

﴿فَمَن تَابَ مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾﴾ ومرة أخرى يفتح القرآن باب التوبة والإصلاح للمجرمين، كما فتحها من قبلها للمفسدين في الأرض.

وقد قال جمهور الإمامية بسقوط الحدِّ عنه لو تاب وأصلح قبل ثبوت الجريمة، وقال بذلك بعض السلف من أهل السنَّة، إلاّ أنّ جمهورهم لا يسقطون الحدَّ لو تاب وان سقط عنه العذاب الإلهيّ.

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَاء وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاء وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾﴾ فالله تعالى هو مالك الكون والمشرّع للبشريَّة طريقها السليم، وهو يعذّب المنحرفين كما يتوب على العائدين إلى السبيل القويم، فمشيئته تعالى تتعلّق بثواب المطيعين وعقاب العاصين؛ لأنه مقتضى العدل الإلهيّ.

﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لاَ يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُواْ آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هِادُواْ سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُواْ وَمَن يُرِدِ اللّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللّهِ شَيْئًا أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾﴾ كان المنافقون واليهود يثيرون أُموراً تشيع البلبلة والفوضى في المجتمع المدنيّ الأوّل، مما كان يحزن الرسول لرسالته ومستقبلها، ولهؤلاء الذين تجنّبوا طريق الهدى وهو مفتوح أمامهم، إلاّ أنَّ الآية الكريمة تطيِّب قلب الرسول وتطمئنه على مستقبل الرسالة، وتذكر له أنّ هؤلاء ـ والمقصود هم المنافقون ـ اختاروا طريق العصيان والضلال وسارعوا في الكفر ولبسوا ثوب النفاق فهم يؤمنون بأفواههم دون قلوبهم.

كما أنّ اليهود تأصَّلت فيهم خاصّة الاستماع للكذب ولأقاويل الآخرين، ممّن لم يأتوا الرسول،

ولم يستمعوا للحقيقة، كما ابتلوا بداء التحريف للكلام والحكم الإلهيّ عن مواضعه الصحيحة.

ومن صفتهم؛ أنّهم إذا تحاكموا إلى الرسول أخذوا بالحكم إن حقّق لهم هوىً في أنفسهم وإلاّ تركوه وحذّروا أتباعهم من الاستجابة له.

إنّهم إذن أُناس مفتونون قد امتحنهم الله بذنوبهم فارتكسوا في الانحراف، ولا منجي لهم من ذلك بعد أن أغرقت الجريمة قلوبهم بالأدران، فلا مجال لطهارتها، وحينئذ فالضياع والضلال الحضاريّ يصيبهم في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم.

﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِن جَآؤُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُم أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾﴾ تكرّر الآية صفة اليهود وهي كثرة استماعهم للكذب، وتعقّب ذلك بأكلهم السحت، وهو المال الحرام الذي يؤخذ بالرشوة وغيرها... وبالتالي فهي تطلب إلى الرسول ﷺ أن يحكم بينهم بحكم الله وبالقسط، أو يعرض عنهم فإن الإعراض عنهم لا يضرُّه بشيء.

﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُوْلَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾﴾ وفي الآية استفهام إنكاري يستهدف توضيح طويّة هؤلاء ونيّتهم في عملية رجوعهم إلى النبيّ ﷺ ليحكم بينهم، فهم لا يريدون حكم الله وإنّما يسعون لحكم ينسجم مع أهوائهم، وإلاّ فكيف يرجعون لتحكيم رسول لم يؤمنوا بعد برسالته، وفي قضية أوضحت التوراة حكمها؟ إلاّ أنّ الحقيقة هي أنّهم لا يؤمنون بشيء إلاّ بأهوائهم.

﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَابِ اللّهِ وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَاء فَلاَ تَخْشَوُاْ النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلاَ تَشْتَرُواْ بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ التوراة كتاب الله، وكتاب الله نور في ظلمات الحياة وهدى للبشريّة إلى حيث الأهداف العليا، وحكم يحكم به الأنبياء الذين أسلموا أنفسهم لله، لليهود الذين نزلت التوراة لهدايتهم. ومن بعد الأنبياء يحكم بالتوراة أولئك الذين استؤمنوا وجعلوا شهداء عليها وهم الربانيّون الأوصياء ثمّ الأحبار، أي العلماء المؤتمنون على الشريعة، فالعلماء هم ورثة الأنبياء في رسالتهم؛ يعملون على تحكيم شريعة الله، وتنفيذ التجربة الدينيَّة في الحياة الاجتماعيّة، وهو ما يؤكد ولاية الفقهاء.

وإذا كان هؤلاء هم المكلَّفين بحفظ الرسالة فإن عليهم إلاّ يخشوا أحداً إلاّ الله في تبليغ رسالته وقد قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلاّ اللَّهَ﴾.

فليعتبر بذلك وعّاظ السلاطين الذين يسخرون علمهم وفتاواهم لتنفيذ رغبات الحكّام الطغاة والاشتراء بآيات الله ثمناً قليلاً، بل عليهم أن يقولوا الحقّ ويطرحوا حكم الله بلا أي خشية من النّاس إذا ضُربَت مصالحهم الضيِّقة.

وهنا يعلن القرآن هذه الحقيقة الكبرى شعاراً وهدىً، ومعياراً أمام الأجيال جميعاً. ذلك أنّ من لم يطبّق شريعة الله في الأرض يفقد عنصر الإيمان بالله ويعدُّ من الكافرين؛ لأنَّ حقّ التشريع إنما هو له وحده، فإذا لم يستمد الحكم منه جلَّ وعلا واستمدّ من الأهواء والآراء الوضعيَّة فهو في الواقع شرك وكفر. وبهذا ندرك الالتحام الكامل بين الإيمان والعمل، فإذا لم يتعدَّ الإيمان إلى العمل فهو في الواقع يفقد صفته الذاتيّة.

﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنفَ بِالأَنفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٤٥﴾﴾ وقد جعل الله في التوراة حكم القصاص، فالعين بالعين والسنّ بالسنّ والجروح تقابلُ بمثلها قصاصاً، إلاّ أن يتصدَّق ويعفو صاحب القصاص عن الجاني، فإن ذلك يعدُّ كفّارة له. وهكذا يفتح القرآن باب القصاص ردعاً للجناة وتنفيساً عن المجنيِّ عليه، إلاّ أنّه يرغِّبه في العفو ويثيبه عليه.

وتأكيداً للإعلان السابق، يعلن القرآن أنَّ الحكم بغير ما أنزل الله يعدُّ ظلماً عظيماً؛ لأنه يعني عدم القيام بالحقّ الإلهيّ في تطبيق شريعة الله، وظلم النفس والمجتمع بتطبيق شريعة الأهواء والعقول الناقصة.

﴿وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِعَيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾﴾ وهنا يتَّجه القرآن إلى مرحلة بعثة عيسى بن مريم عليه السلام وإنزال الإنجيل الذي صدَّق ما قبله من التوراة، وكان مثلها هدىً ونوراً للقافلة الإنسانيّة، يعطيها التصوُّر التوحيدي الصحيح، وينظّم لها حياتها، ويهذّب من أخلاقها ويغرس فيها التقوى، وخصوصاً بعد الانغماس اليهوديّ في المادّيّة بشتّى مظاهرها.

﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤٧﴾﴾ وما كان إنزال الإنجيل إلاّ ليعمل به النّاس ويطبّقوه على حياتهم، عملاً بحاكميَّة الله وتسليماً لأمره، أما ترك التطبيق واللجوء إلى القوانين الوضعيَّة البشريَّة، فهو يعني الجاهليّة والخروج عن المسيرة الطبيعيّة للإنسان (الفسق).

﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ عَمَّا جَاءكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ آتَاكُم فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ إِلَى الله مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾﴾ وهنا يصل القرآن إلى المرحلة الإسلاميّة باعتبارها قمَّة العطاء الإلهيّ التشريعيّ الثابت (الحقّ) فهو من جهة يصدّق الرسالات السابقة، ومن جهة أُخرى يسمو عليها ويهيمن، باعتباره أكمل الرسالات وأكثرها تفصيلاً، فلا حكم إلاّ بالقرآن ولا شريعة إلاّ شريعة الإسلام الوارثة لكلِّ الشرائع، فيجب تطبيقها ورفض كلِّ الأهواء الإنسانيّة الجاهليَّة. وماذا بعد الحقّ الثابت إلاّ الضّلال والتمزُّق؟!

والشرعة والمنهاج هما الأسلوب التفصيليّ الذي ينظّم مجمل الحياة الإنسانيّة، ولذلك كانت الشريعة الإسلاميّة غير الشريعة النصرانيَّة، وإن اتفقتا في الروح والمنبع. وحينئذ فقد كان اختلاف الأديان حالة طبيعيَّة لتدرّج الإنسانيّة في تقبُّل الحقائق والنظام الإلهيّ، وبالتالي فإن كلَّ مرحلة بشريَّة تمتحن وتبتلى بتطبيق الشريعة الخاصَّة بها، ويتميز المحقّون عن المبطلين، فلا يجوز مطلقاً أن نساوم على شريعتنا الإسلاميّة، أو أن نخلط بينها وبين غيرها من الشرائع، حتّى ولو كانت سماويَّة، وإنما علينا أن نستبق ونسرع إلى الخير في تطبيق الإسلام كلّه على كلِّ حياتنا، وتقديم أفضل النماذج التطبيقيَّة، لنحصل على نعيم الدارين.

﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴿٤٩﴾﴾ تأكيد مجدّد على لزوم الحكم بما أنزل الله، ونبذ الأهواء الجاهليّة والقوانين الوضعيَّة، ولزوم الحذر في عمليَّة التطبيق من الخداع والتلفيق والتحايل على شيء من الأحكام الشرعيّة، والدقَّة في تنفيذها حتّى ولو أدّى ذلك إلى إعراض أو نفور من قِبَل

ذوي النفوس المريضة، فإن ذلك لا يعود عليهم إلاّ بالوبال، وسوف تصيبهم العواقب الطبيعيّة لذنوبهم وانحرافهم وفسقهم، أي خروجهم عن الحدّ الإنسانيّ الطبيعيّ. ومن الجدير بالذكر أن هذا التحذير إنّما هو للتهاون في بعض الأحكام،فكيف بمن يعرض عن الشريعة، ويستبدل بها نُظماً وضعيَّة تافهة.

﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾ إستنكار قرآنيّ يستمدُّ تأييده من الفطرة الإنسانيّة، ذلك أنَّ الله تعالى هو العليم الخبير بتركيبة الإنسان وروابطها وبيئته وقوانينه الطبيعيّة وما يحتاجه، وهو اللطيف بعباده، يرشدهم إلى خير سبيل منسجم مع أهداف خلقتهم، لا تأخذه عاطفة ولا لومة لائم، ولا تؤثّر عليه أيٌّ من المؤثِّرات التحريفيَّة. أمّا الجاهليّة الإنسانيّة فكلها جهل وضعف وهوى وميل، فلا يُقاس حكم الجاهليّة الإنسانيّة بحكم الله جلَّ وعلا، ومن أحسن من الله حكماً.

وبهذا لا يضع القرآن أيَّ أمر مشترك بين حكم الجاهليّة وحكم الله، ويدعو المسلمين جميعاً للتسابق لتطبيق شريعة الله على كلِّ الحياة.

وقد قال الامام الصادق عليه السلام :

(الحكم حكمان: حكم الله وحكم الجاهلية، فمن أخطأ حكم الله حكم بحكم الجاهلية)[١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاء بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ نهي قرآنيّ صريح للمؤمنين عن أن يقيموا الولاء لليهود والنصارى، وبالتالي عن أن يعتمدوا على وعودهم ودعمهم وخططهم، وذلك تحصيناً للمسلمين من فتح نقاط ضعف أمام غيرهم. ثمّ إنَّ انحرافهم العقائديَّ لايبقي فيهم محلاً للولاء. على أنهم، نتيجة اشتراكهم في الموقف ضدَّ الإسلام، يتضامنون ويتوالون في معسكر واحد، وحينئذ فإن الموالي للأعداء يعدُّ منهم ومن صفِّهم، وهو صفُّ الضّلال والانحراف عن الخطّ الإسلاميّ الصحيح.

﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى

---

١. الكافي، ج ٧، ص ٤٠٧.

اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُواْ عَلَى مَا أَسَرُّواْ فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ إنَّ المسلم مؤمن بالله، مصدّق بوعوده، عامل على نصرة رسالته دون وجل. أمّا إذا ضعفت عقيدة الفرد وأصيب قلبه بداء القلق والوهن والوجل، فإنه حينئذ سيكون عرضة للانحراف وبالتالي الانضمام إلى صفّ الباطل والمسارعة فيه، خشية أن يأتي يوم يسيطر فيه الباطل، وتصيبه حينئذ دائرة السوء. وما أخسَّ مثل هذا الفرد وأضعفه!

ولكي ينسحب هؤلاء من صفِّ الكفر والولاء له، ويتخلَّصوا من منطقهم الوجل، يذكِّرهم القرآن بالقدرة الإلهيّة والفتح الموعود والأمر الإلهيّ الذي لا مردَّ له، وبالندم العظيم على ما أخفوه في أنفسهم إذا حلَّ ذلك الفتح العظيم، وبهذا المنطق نفسه نردُّ على كلِّ الأنظمة التي تركن إلى هذا المعسكر أو ذاك، خشية أن تصيبها دائرة السوء دون أن تعلم أنها تتمتع ـ لو ركنت للحقّ ـ بالدعم الإلهيّ الذي لا يقهر.

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُواْ أَهَؤُلاء الَّذِينَ أَقْسَمُواْ بِاللّه جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُواْ خَاسِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾ وحينما يحلُّ الفتح الإلهيّ يفتضح أمر الوجلين المسارعين للحصول على ولاء الكافرين، ويبدأ تبكيتهم على أيمانهم الغليظة (جهد الأيمان) المؤكّدة انضمامهم إلى معسكر الإيمان، وانها لم تمنعهم من المسارعة في الكفر، الأمر الذي أبطل كلَّ أعمالهم الحسنة وعاد عليهم بالخسران المبين.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللّه بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّه وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لآئِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللّه يُؤْتِيهِ مَن يَشَاء وَاللّه وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾ إنَّ دين الله باق منتصر رغم كلِّ العاديات، وحتى لو رجع بعضهم على أعقابه مرتدّاً عن خطّ الإسلام الصحيح فإن الله تعالى يتكفَّل بدخول آخرين في هذا الدين وحمل مشعله إلى العالم. وتذكر الآيات أروع الصفات لهؤلاء الحمَلة لمشعل الإيمان. فعلاقة الحبِّ الرائع تقوم بينهم وبين ربهم، ومعنى ذلك أنّهم ـ من جهة ـ أهل لتلك المحبَّة الإلهيّة، ومن جهة أُخرى ينطلقون في سبيل محبوبهم الوحيد، في سبيل الله، ولا يرتبطون بروابط الولاء إلاّ له، يتواضعون للمؤمنين ويلبسون لباس العزّة

على الكافرين المنحرفين، فالله تعالى هو كلُّ شيء في حياتهم؛ في سبيله يجاهدون، ولا يأخذهم أو يمنعهم من الجهاد لوم اللائمين ولا تحذير المثبطين.

إنّهم حينئذ سيكونون حمَلة الأمانة الإلهيّة، والمؤهَّلين للفضل الإلهيّ العظيم الذي يؤتيه من يشاء وهو الواسع (الكريم) العليم بالنفوس.

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴿٥٥﴾﴾ وهذه الآية القرآنيّة تحصر الولاية على الخلق بالله تعالى وبالرسول وبالذين آمنوا، الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة حال ركوعهم، وقد وردت الروايات الكثيرة بنزول الآية في حق عليّ بن أبي طالب عليه السلام وقد اشترك في نقلها عدة من الصحابة، واتفق على نقلها العلماء وأئمة الحديث وأوردها الفقهاء[١]. والروايات الواردة عن أهل البيت في هذا الشأن كثيرة.

﴿وَمَن يَتَوَلَّ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ اللّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٥٦﴾﴾ إنّها مشخَّصة حزب الله الرئيسة وهي تولّي الله والرسول والذين آمنوا، وأيّ نكول عن ذلك يعني فقدان هذا الشرف العظيم والهزيمة أمام الإغراء.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾ تأكيد على لزوم عدم تولّي الذين سخروا من الإسلام من أهل الكتاب ومن الكفار. وهذه هي طبيعة الكافرين وأسلوبهم الرخيص في الحرب النفسيَّة ضدَّ المسلمين.

﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلاَةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾﴾ ولما لم يكن الكفّار يتفهّمون القيمة الحقيقيّة للصلاة، ولا يدركون معنى وقوف العبد في مقام العبوديّة لله واتّصاله بالمطلق، واستمداده القوّة والعطاء منه، فإنّهم يتخذون النداء للصلاة ـ وهو الأذان كما قيل ـ مادة للسخرية من الأذان والصلاة، وبالتالي من المؤمنين، مما لا يدع مجالاً لمدّ أواصر الولاء معهم مطلقاً.

---

١. راجع جامع البيان (ج ٦ ص ٣٨٩)، العمدة لابن البطريق (ص ١٢١) وخصائص الوحي المبين له أيضاً (ص٨٠)، والمعجم الأوسط للطبراني (ج ٦ ص ٢١٨) وغيرها.

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ ﴿٥٩﴾﴾ وهنا يأمر القرآن الرسول بالردِّ عليهم، وتوضيح الخطل الذي يقعون فيه، عندما يقودهم الحقد والتعصب والانتقام الكاذب إلى عداء المؤمنين، لا لشيء إلاّ لأنّهم آمنوا بالله والقرآن والكتب التي سبقته، ولو صدقوا مع أنفسهم لجعلوا هذا سبباً للحبِّ لا للانتقام، إلاّ أنّ أكثرهم انحرفوا عن الوضع الإنسانيّ الصحيح وابتلوا بالفسق والخروج على تعاليم الله وأحكامه.

﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللّهِ مَن لَّعَنَهُ اللّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُوْلَئِكَ شَرٌّ مَّكَاناً وَأَضَلُّ عَن سَوَاء السَّبِيلِ ﴿٦٠﴾﴾ وهنا يستهزئ القرآن بهؤلاء الساخرين المستهزئين بالمؤمنين، فيأمر الرسول ﷺ بإخبارهم بمن هم أحقُّ بالاستهزاء من المؤمنين، وهم أنفسهم بالذات، بعد أن استحقُّوا لعنة الله تعالى وطرده لهم من رحمته، وغضبه عليهم، ومسخ بعضهم قردة وخنازير، لهم طباع الحيوانات وسلوكاتها الحيوانيّة، وتركهم أذلّة خاسئين يعبدون الطاغوت ويتمرَّغون على أعتابه، وما أخسَّ مثل هذه الحالة فهي المستحقَّة للسخرية والاستهزاء؛ لأنها ارتكست في شرِّ مكان والضلال البعيد.

﴿وَإِذَا جَآؤُوكُمْ قَالُوَاْ آمَنَّا وَقَد دَّخَلُواْ بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِ وَاللّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾﴾ هذه هي حال المنافقين؛ ظاهر برّاق يخلب الألباب، وباطن خبيث يضمر الكفر، فهؤلاء عندما يلتقون المؤمنين يعلنون الإيمان، في حين أنّهم دخلوا كافرين كذلك، ظانّين أنّهم يخفون ذلك الكفر، والله عليم بما يخفون. وهذا الإخبار ممّا يثبِّط عزائم المنافقين ويدعهم في قلق شديد من انكشاف أمرهم، ويقوّي ـ من جهة أُخرى ـ عزيمة المؤمنين.

﴿وَتَرَى كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾﴾ ولكي يفضحهم أمام الملأ المؤمن، فإن القرآن يستعرض ظاهرة طبيعيَّة تنشأ من النفاق والكفر، وهي ظاهرة المسارعة في الانحراف القوليّ والعمليّ من الإثم والاعتداء وأكل المال الحرام، وما هي إلاّ أعمال بائسة تقودهم نحو الخواء والضياع.

﴿لَوْلاَ يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾﴾ وهنا تلقي الآية القرآنيّة اللوم على المسؤولين عن الشؤون الروحيَّة والدينيَّة

من العلماء والرهبان، نتيجة سكوتهم عن المعاصي والانحرافات القوليَّة والعمليَّة بأكل المال الحرام، وتطالبهم بالقيام بمسؤوليّاتهم الجسيمة من خلال النهي عن المنكرات وتحصين المجتمع من التلوُّث بالمحرَّمات.

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاء وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾﴾ رأينا القرآن من قبل يردُّ على الانحرافات اليهوديَّة في العقيدة والعمل، موضحاً نكولهم عن حمل الرسالة الإلهيّة، وهنا يردُّ على انحراف عقائديّ آخر، إذ تصوروا أنَّ الله تعالى إذ خلق الخلق فإنَّه ـ بعدُ ـ غير قادر على التغيير، وإذ أصدر الحكم فإنّه غير مستطيع للنسخ، وإذ حمَّل أمّة ما رسالة فإنّه لا يمكنه نقلها إلى غيرهم ـ والعياذ بالله ـ وهنا يُبطل عقائدهم ويدعو عليهم بغلِّ اليدين وتقييدهما، واللعنة والطرد من الرحمة الإلهيّة. ويعقِّب على ذلك ببيان القدرة الإلهيّة المطلقة والرحمة الواسعة، والتي تعود على المؤمنين خيراً وبركة، وعلى الكثير من أهل الكتاب طغياناً وكفراً، وعداوة دائمة بينهم إلى يوم القيامة، وهزائم متلاحقة في الحروب وسعياً في الأرض بالفساد. إلاّ أن الله لا يحبُّ المفسدين فسعيهم يخيب لا محالة، والعاقبة الحقيقيّة للمؤمنين المتّقين.

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُواْ وَاتَّقَوْاْ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٦٥﴾﴾ يؤكّد القرآن انفتاح طريق العودة إلى الله أمام أهل الكتاب، وأنّ الله تعالى سيغفر لهم ما تقدَّم من سيِّئات، إذا دخلوا في معسكر الإيمان والتقوى، ونبذوا حالات الكفر والعناد، وحينئذ فلهم الثواب الأُخرويّ الجزيل.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيهِم مِّن رَّبِّهِمْ لأكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاء مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾﴾ وفي المجال الدنيويّ تركِّز الآية على أنّ اتّباع منهج الله (إقامة الحياة على أُسس الكتب السماويَّة الحقَّة دونما تحريف) يؤدّي للحياة الدنيويَّة السعيدة سعادة حقيقيَّة، بالإضافة للسعادة الأُخرويّة، وفي الآية تأكيد للعلاقة بين الحياة وفق الشريعة الإلهيّة وانفتاح النعم الكونيَّة، وارتفاع المستوى الاقتصادي فيها، باعتبار انسجام

الكون مع العدل من جهة، وكذلك باعتبار أنّ هذا التخطيط يضمن السلوك الاقتصادي الأفضل وعبارة: «من فوقهم ومن تحت أرجلهم» تعبير كنائيّ عن النعم السماويَّة والأرضيَّة.

إنَّ في أهل الكتاب مجموعة وعت طريق الحقّ وسلكت سلوكاً معتدلاً (مقتصداً) في حين راح الكثير منهم يسلك طريق الانحراف، وبهذا تبدو النظرة الإسلاميّة الموضوعيَّة بالاعتراف بحقّ الفئة الصالحة بالرغم من كثرة الانحراف في غيرها.

﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٦٧﴾﴾ تأكيد إلهيّ قويّ على الرسول الكريم لإبلاغ ما أُنزل إليه من ربِّه، واعتبار تبليغ هذا الأمر المهمّ بمستوى تبليغ الرسالة كلّها، ووعد أكيد بعصمته من الآخرين المعارضين والمعاندين، وأنّ هؤلاء لن يهتدوا إلى مقاصدهم ولن يوفَّقوا في الوقوف أمام هذه الدعوة الكبرى. والملاحظ من النصوص الروائيّة الشريفة في كتب الشيعة والسنة أنّ الآية نزلت في (غدير خم) حيث أُمر الرسول العظيم بوصل النبوّة بالامامة، وإعلان ولاية الإمام أمير المؤمنين عليه السلام وهو ما أعلنه بعبارته المعروفة: «من كنت مولاه فهذا عليّ مولاه»[١].

وهكذا نعرف أهميّة امتداد القيادة الإسلاميّة ومواصلتها لتربية الأمّة، واعدادها لتحمل أعظم المسؤوليّات التاريخيَّة.

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّىَ تُقِيمُواْ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلاَ تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٦٨﴾﴾ يعود القرآن ليخاطب أهل الكتاب فيقرّر أنَّ التديّن لا يعني مجرد الانتساب إلى الكتاب والتبجّح به، وإنّما هو نظام حياتي يشمل كلَّ الشؤون ويوجّه كلَّ الحياة، ومتى مالم يمتلك الكتاب هذه الخاصية فإن الأمّة المنتسبة له ـ سواء في ذلك المسلمون وأهل الكتاب ـ لن تملك شيئاً ولا يحقّ لها أن تدَّعيه.

---

١ . أنظر: بحار الأنوار، ج ٣٧ ، ص ٥٢ ، اخبار الغدير وما صدر في ذلك اليوم، وأنظر: الغدير للأميني، وراجع ص ١٠٨ من هذا الكتاب

إنَّ الهدى الإلهيّ ـ أو أي نعمة أُخرى ـ إذا لم يصادف أرضيَّة مساعدة فإنَّه قد يزيد المعاندين طغياناً وكفراً، وحينئذ لا معنى للأسى على قوم اختاروا طريق الكفر والعناد.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالصَّابِؤُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وعَمِلَ صَالِحًا فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾﴾ تردُّ الآية على دعاوى أهل الكتاب العنصريّة، فتقرر أنَّ باب الفلاح مفتوح لكل مؤمن بالله واليوم الآخر، متّبع لما هو مكلّف به من الشريعة في زمانه. أما بعد ظهور الإسلام فإن القرآن يقرّر بأنَّ من يبتغي غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه، وهكذا فإن أيّة أمّة تتّبع سبيل الحقّ تنفي عن كيانها الخوف والذلّة والحزن.

﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلاً كُلَّمَا جَاءهُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُواْ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾﴾ بالرغم من الميثاق المأخوذ على بني إسرائيل لحمل الكتاب وإبلاغ الرسالة، إلاّ أنّهم اتّبعوا الهوى وواجهوا به رسل الله فلم يقبلوا إلاّ ما يوافق هواهم، فإذا لم يتمّ ذلك راحوا يكذّبونهم ويقتلونهم.

﴿وَحَسِبُواْ أَلاَّ تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُواْ وَصَمُّواْ ثُمَّ تَابَ اللّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ وَاللّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾﴾ ظنّ أهل الكتاب أنّهم لن يُختبروا في إيمانهم، وأن مجرَّد انتسابهم للكتاب كافٍ لفوزهم، فتركوا العمل مما أوقعهم في عذاب العمى (عدم إبصار الحق) والصمم (عدم سماع العِظة) ثمّ شاءت الإرادة الإلهيّة أن تتوب عليهم، ليرجعوا إلى الحقّ، إلاّ أنّ كثيراً منهم عادوا إلى حالة العمى والصمم، مما يكشف عن لؤم وعناد نفسيّ آثم.

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُواْ اللّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللّهُ عَلَيهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾ إنّ أيَّ إعتقاد بالتجسيم الإلهيّ، وبحلول المطلق في البشر النسبيّ الناقص المحتاج وبأيٍّ نحو كان؛ يعدُّ من الكفر والشرك المنبوذ.

فسواء اعتقد المسيحيون بحلول الله في المسيح! أو أنَّ الله ثالث ثلاثة (الله والروح والمسيح) فإنَّهم يكونون قد وقعوا في الكفر، وهكذا نجد كيف يتحوَّل الإيمان بالرسول ـ وهو الدليل على الله ـ إلى عقبة في وجه الإيمان الصحيح بالله تعالى نتيجة الجهل. وعلى أيّ فإن المسيح نفسه

يكذِّب هذا الاعتقاد، ويدعو أتباعه لعبادة الله، وهو ربّ المسيح ورب الجميع، ويعلن أنّ من يشرك بالله، فإنَّه لن ينال الجنّة والفلاح وإنما يُحشر إلى النار مع الظالمين، ويبتلى بالعذاب الأليم.

﴿أَفَلاَ يَتُوبُونَ إِلَى اللّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾﴾

وهذه دعوة قرآنيّة للتوبة، والعودة إلى المنطق الصحيح، ومقتضيات الفطرة السليمة، وطلب الغفران الإلهيّ.

﴿مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلاَنِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾﴾ تعمل الآية على إعادة العقيدة الصافية حول المسيح وأُمه، باعتبارهما إنسانين مُنح أحدهما الرسالة كسائر الرسل السابقين، وكان الآخر صدّيقاً عابداً، وكانت فيهما كل خصائص البشر، ومنها الحاجة إلى الطعام، الأمر الذي يُبعد عنهما أيَّ إحتمال للربوبيّة، كل هذا من أوضح الواضحات إلاّ أنّ العناد قد يدفع بعض النّاس لتكذيبها رغم الوضوح.

﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلاَ نَفْعًا وَاللّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾﴾ كيف يعبد هؤلاء وجوداً ناقصاً محتاجاً، لا يستطيع أن يضرَّ أو ينفع، ويتركون عبادة الله السميع العليم؟! والقرآن بهذا يردُّ على المشركين جميعاً، سواء كانوا من أهل الكتاب أو غيرهم ممن يعبدون ما سوى الله تعالى.

وبهذه الاستدلالات الفطريَّة الرصينة استطاع القرآن أن يبطل أباطيل أهل الكتاب وانحرافاتهم العقائدية، كما يصون عقائد المسلمين من الوقوع فيما وقع فيه أهل الكتاب من قبل، من الشرك والغلوّ وتحويل الشخصيات المقدَّسة إلى آلهة تُعبد من دون الله، ويعتقد فيها مالا تملكه من قدرات وطاقات.

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعُواْ أَهْوَاء قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا وَضَلُّواْ عَن سَوَاء السَّبِيلِ ﴿٧٧﴾﴾ تنهى هذه الآية عن أمرين مهمَّين ينحرفان بالفكر الإنسانيّ عن مساره الصحيح وهما الغلوّ، والتقليد الأعمى، فأمّا الغلوّ في الدين فيعني تحويل الكثير من الأُمور النسبيَّة إلى مطلقات عامّة، من خلال تصعيد ذهنيّ لا واقع له، ويعني أيضاً منح الكثير من أفراد البشر كالأنبياء والرهبان والأحبار والصلحاء

صفات اُلوهية وجعلهم مؤثّرين في الكون بالاستقلال، وأمّا التقليد الأعمى، فيعني عدم التعقُّل الصحيح والاعتماد على ما يقدّمه الآخرون من أهواء وضلال، وربّما كان القرآن يشير بهذا إلى تسرُّب العقائد الوثنيَّة من الأمم الكافرة إلى عقائد أهل الكتاب، وما هي إلاّ أهواء سخيفة ابتعدت بالبشرية عن السبيل المنطقيّ السويّ السليم.

﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُواْ لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾﴾ لقد تعرَّض الكافرون من بني إسرائيل إلى لعنة وطرد من أنبيائهم، كداود وعيسى، نتيجة عصيانهم واعتدائهم وعدم تناهيهم عن المنكرات، وهو بئس العمل.

والقرآن يحذر المسلمين من أن يقعوا في هذه الحالة والاتعرضوا للعقاب واللعنة أيضاً. والواقع أنّ صفة مقارعة الظلم واجتناب الطاغوت، ومحاربة كلّ مظهر جاهليّ، هي من خصائص هذه الأمّة الإسلاميّة الرئيسة. والآيات الشريفة والروايات كثيرة في دفع الأمّة لبناء الحياة على أساس إسلاميّ ومحاربة كل مظاهر الظلم، وقد جاء في (الدر المنثور) عن معاذ بن جبل، قال: قال رسول الله ﷺ في حديث له:

(... وان رحى الإسلام ستدور فحيثما دار القرآن فدوروا به، يوشك السلطان والقرآن أن يقتتلا ويتفرَّقا، إنّه سيكون عليكم ملوك يحكمون لكم بحكم ولهم بغيره، فإن أطعتموهم أضلّوكم، وإن عصيتموهم قتلوكم. قالوا: يا رسول الله كيف بنا إن أدركنا ذلك؟ قال: تكونون كأصحاب عيسى نشروا بالمناشير، ورفعوا على الخشب. موت في طاعة خير من حياة في معصية. إنّ أول ما نقص في بني إسرائيل أنّهم كانوا يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر شبه التعزير فكان أحدهم إذا لقي صاحبه الذي كان يعيب عليه آكله وشاربه كأنه لم يعب شيئاً، فلعنهم الله على لسان داود، وذلك بما عصوا وكانوا يعتدون.

والذي نفسي بيده لتأمرنَّ بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليسلطنَّ الله عليكم شراركم ثمّ ليدعونّ خياركم فلا يستجاب لكم. والذي نفسي بيده لتأمرنَّ بالمعروف ولتنهنَّ عن المنكر ولتأخذنَّ على يد الظالم فلتأطرنَّه عليه أطراً أو ليضربنَّ الله قلوب بعضكم ببعض)[١].

---

١. الدر المنثور، ج ٣، ص ١٢٥.

﴿تَرَى كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِالله والنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاء وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨١﴾﴾ من الظواهر المرضية في بني إسرائيل، أنّهم كانوا يوالون الكفّار والمشركين ويعملون لصالحهم، الأمر الذي عرَّضهم لسخط الله والخلود في العذاب، ويعلّل القرآن هذه الحالة بعدم إيمانهم بالله والنبيّ، وفسقهم وانحرافهم عن الخطّ الأصيل. وبهذا يحذّر المسلمين أيضاً من تولّي المعسكر الكافر ومدّ أواصر المودَّة معه. وهذا ما نجده اليوم في كثير من الحاكمين وأتباعهم، الأمر الذي يعرّضهم للخلود في العذاب.

﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُواْ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ قَالُوَاْ إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾ يتّصف اليهود ببعد مفرط عن الدين الإلهيّ، وعناد وتكبُّر وغرق في المادّيّة، يبعدهم بالمآل عن الخطّ الإسلاميّ، ويجعلهم أشدّ عداوة له. أما النصارى ـ وخصوصاً في صدر الإسلام ـ فكانوا يتمتَّعون بوجود طائفة من القساوسة والرهبان، وبحالة من عدم الاستكبار، الأمر الذي يقرّبهم إلى الحقّ، ويمهّد السبيل لإيمانهم وانسجامهم مع الخطّ الإسلاميّ الأصيل.

وهذه الآية تبيّن وجود عنصر ايجابيّ في المسيحيين آنذاك نتيجة قربهم من روحانيَّة المسيحيَّة، بالرغم مما اصيبت به عقائدهم من انحراف.

﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لاَ نُؤْمِنُ بِاللّهِ وَمَا جَاءنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَابَهُمُ اللّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاء الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾﴾ امتداداً للعنصر الروحيّ الذي كان متوفراً لدى النصارى ـ آنذاك ـ فإنهم كانوا يتأثّرون بالآيات القرآنيّة، فتفيض أعينهم من الدمع ـ كما حدث بالنسبة للنجاشيّ في الحبشة ـ وذلك نتيجة وقوفهم على الحقّ الذي تعلنه هذه الآيات، ثمّ أنّهم يعلنون بعد ذلك إيمانهم وانضمامهم إلى معسكر الشاهدين الصالحين، وهو ما يستتبع لهم الثواب العظيم جزاء للمحسنين. والملاحظ أنّ الآية تؤكّد أن وجود العلماء والصالحين المطبّقين للشريعة، وانعدام حالة الاستكبار في أي مجموعة يؤهّلها للهداية الإلهيّة.

هذا؛ ولقد ابتعد النصارى يوماً بعد يوم عمّا كانوا عليه، وغرقوا ـ مع الأسف ـ في أوهام الجاهليَّة، ونمت فيهم عقد حاقدة مادّيّة يهوديَّة المنشأ أدّت بهم إلى صليبيَّة عمياء، وتعال واستكبار على الشعوب الضعيفة.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٨٦﴾﴾ وقد فقد المشركون كلَّ أهليَّة للهدى، فلم تكن فيهم حالة روحيَّة، ولا علماء ولا صالحون، وعاشوا في حالة الاستكبار فابتلوا بسوء العاقبة.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُحَرِّمُواْ طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللّهُ لَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللّهُ حَلاَلاً طَيِّبًا وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِيَ أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾ ربَّما وقع في ذهن بعض المسلمين أن يحرّم بعض الطيِّبات التي أحلّها الله له ـ عملاً بتصوّر منحرف عن الزهد ـ وهذه الآية تمنع هذه الظاهرة المنحرفة وتدعو للتمتُّع بالحلال الإلهيّ؛ لأنَّ الحرام والحلال في الشريعة مبنيّان على أساس من مصالح ومفاسد واقعيَّة، وعلم إلهيّ دقيق بالإنسان وعلاقاته، وحاجاته ونوع إشباعها إشباعاً عادلاً، الأمر الذي جعلها «طيبات» حلالاً فحينئذ يعتبر أيّ تجاوز لهذا التخطيط الإلهيّ للحياة اعتداءً وتجاوزاً لا يحبُّه الله تعالى.

وفي الآية نهي واضح عن الرهبانيّة، والانعزال عن الحركة الاجتماعيّة، واللذَّة المشروعة، ودفع للتمتع بالحياة وفق الأُطر الشرعيَّة وهو ما يقتضيه التقوى والإيمان.

﴿لاَ يُؤَاخِذُكُمُ اللّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُواْ أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾﴾ إنَّ اللغو في الأيمان رغم أنّه عمل غير صحيح؛ لأنه يجعل الله عرضة للقسم به في كلِّ موطن، وهو يتنافى والتقديس المطلوب، إلاّ أن هذا النوع من القسم غير المقصود وغير الصادر عن وعي لا يترك أثراً شرعيّاً، وإنما يترتَّب هذا الأثر على القسم الصادر عن قصد وحينئذ يجب التزامه، فإذا حنث الإنسان فيه، فقد استوجب ذلك الكفّارة، وكفّارة القسم كما تبيِّنه الآية هي:

التخيير بين إطعام عشرة مساكين من الطعام المتعارف،

أو كسوتهم وإلباسهم لباساً مناسباً،

أو تحرير رقبة لوجه الله.

فإذا لم يستطع الإنسان ذلك، فعليه صيام ثلاثة أيّام، تكفيراً عن حنثه وعدم التزامه بقسمه.

وفي الختام، تدعو الآية للاهتمام والحفاظ على الأيمان من الابتذال، وعدم عقدها كيفما اتفق، وإذا عقدت يجب الالتزام بها، والأفضل أن تسود الثقة بين أبناء المجتمع المسلم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾﴾ الميسر هو القمار، والأنصاب هي الحيوانات التي كانت تذبح وتنضح بها الأصنام، والأزلام هي قطع خشبيَّة بشكل سهام كانوا يستقسمون بها لحم الحيوان أثناء المقامرة. والآية الشريفة تجمع بين كلِّ هذه العناصر التي عادة ما تجتمع في مجالس المترفين والبعيدين عن الوعي الإنسانيّ وتصفها جميعاً بأنها رجس مستقذر تفرزه المكائد الشيطانيَّة، فعلى المؤمنين اجتنابها اجتناباً قاطعاً، لعلَّهم يطوون بذلك طريق الفلاح.

وهذه الآية كانت المرحلة الأخيرة من عملية تدريجيَّة واقعيَّة، غيّرت الإنسان المسلم داخليّاً وإيمانيّاً، ثمّ سارت معه حتّى بلغت به التحريم الكامل للخمر، وكانت النتائج رائعة وقاطعة حين فشلت النظم الأُخرى في عمليَّة إنقاذ مجتمعاتها من هذا الداء الوبيل.

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللّهِ وَعَنِ الصَّلاَةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾ في هذه الآية تحسيس للمؤمنين بالأهداف الشيطانيَّة عبر إشاعة الخمر والميسر، وتتلخَّص في نشر التمزُّق والعداء والحقد والابتعاد عن الحياة الإنسانيّة الواعية المتَّصلة بالله، وبالتالي تفقد الأمّة شخصيتها القويَّة الفاعلة، وهذا ما أثبتته الحوادث التاريخيَّة، حيث تمزَّقت الشخصيّة الإسلاميّة بنفوذ الخمر، وما يرافقه من مجون ودعارة، إلى مجالس الأُمراء والحكّام في الماضي ـ كما في الحاضر ـ وكانت المصائب وفي طليعتها فاجعة الأندلس السليبة. وما نشاهده اليوم في عالمنا الإسلاميّ أمر لا يمكن أن يرضى به أيّ مسلم يستمع إلى مثل هذه الآيات الشريفة.

﴿وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَاحْذَرُواْ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلاَغُ الْمُبِينُ ﴿٩٢﴾﴾ تركيز على لزوم طاعة الله وطاعة الرسول فيما يبلغه عن الله وما يصدره من

أوامر قياديَّة، وتحذير من مخالفة خطّ الطاعة وتحميل الأمّة مسؤوليتها في هذا السبيل؛ فما على الرسول إلاّ إبلاغ الرسالة إبلاغاً واضحاً.

﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُواْ إِذَا مَا اتَّقَواْ وَّآمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَواْ وَّآمَنُواْ ثُمَّ اتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾ لعلَّ هذه الآية الكريمة تعمل على رفع حرج أولئك المؤمنين، الذين كانوا يتعاطون الخمر قبل تحريمها، فتعلن لهم عن عدم وجود تبعة عليهم إذا ما ساروا في طريق الإيمان، وتعمَّق الإيمان في نفوسهم، ولاحت مقتضياته على حياتهم من التقوى، والعمل الصالح، والإحسان.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٤﴾﴾ لن يتكامل الإنسان إلاّ عبر الامتحان المتواصل، والعبادات في الإسلام تحوي هذا الجانب المؤثر في التكامل، كما في الصوم والحج. والآية هنا تشير إلى هذا المعنى؛ إذ يقرب الصيد من المحرمين، بحيث تناله أيديهم ورماحهم، إلاّ أنّ عليهم الامتناع عن الصيد استجابة لأوامر الله تعالى، وسيطرةً على النزعات النفسيَّة، وتوفيراً لجو آمن يأمن فيه النّاس والحيوان.

وفي الامتحان يبدو جوهر الإنسان ومدى إيمانه بالغيب وخوفه من الله تعالى.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقْتُلُواْ الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاء مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَو عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللّهُ عَمَّا سَلَف وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ اللّهُ مِنْهُ وَاللّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿٩٥﴾﴾ بعد هذا يأتي النهي عن الصيد حال الإحرام، فمن قتل الصيد متعمّداً فعليه أن يذبح بهيمة من الأنعام من مستوى الصيد الذي قتله، والذي يحكم بذلك شخصان عادلان يعيّنان المماثلة، ثمّ يوجّه الهدي إلى الكعبة أو يطعم مساكين بقيمته أو يصوم ما يساوي ذلك من الأيام، وذلك جزاء هتكه لحرمة الحرم، أما ما كان من الصيد قبل التحريم فمعفوّ عنه، فإذا عاد أحد لهذا العمل بعد التحريم فإنه يعرّض نفسه لانتقام الله وهو العزيز المنتقم.

﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِيَ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾﴾ تعلن الآية حلّيّة صيد البحر وطعامه

للمحرمين ولغيرهم من القوافل، سواء لهم أمُ لقافلتهم (السيارة) في حين تحرّم على المحرمين صيد البر، وتحذّرهم من مخالفة أمر الله، مذكِّرة إياهم بالتقوى والعودة إليه تعالى.

﴿جَعَلَ اللّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِّلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلاَئِدَ ذَلِكَ لِتَعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَنَّ اللّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾﴾ تبدو من هذه الآية الحقائق التالية:

أولاً: إنَّ الإسلام لم يكتف بأن تقوم العبادات بإشباع الجانب المعنويّ في وجود الإنسان، من اشتراط النيَّة ومن علو مضامين الألفاظ وأثرها التربويّ، وإنما حاول أن يشبع الجانب الحسِّي فيه، بجعله أمكنة حسِّية وأزمنة حسِّية منسوبة إلى عالم الغيب، ليقرّب إليه الأُمور المعقولة، ويجعلها محسوسة برموزها مما يمنحها التأثير التربويّ المطلوب، إضافة إلى إيجاد حالات من الإقبال النفسيّ عند الفرد والمجتمع، مما يعتبر شرطاً للتكامل الإنسانيّ.

ثانياً: إنّ البيت الحرام والشهر الحرام بما يستتبع من عملية الحج، ومن توفير الأمان والسلام للإنسان والحيوان بما فيه الهدي والحيوانات المقلَّدة (التي في عنقها علامة كونها للكعبة) وحتى النبات، ومن جعله مثابة تثوب إليه الأمم وتطوف فيه حول رمز التوحيد، وتتشاور فيه بكل حرية حول مشاكلها وحلولها وتواجه فيه صورة المجتمع المسلم العابد، الآمن، المتحابِّ في الله، والسائر وفق تعاليم الله، والنافي لكلِّ الطواغيت الداخليَّة والخارجيَّة، وإعلان البراءة منهم، كل هذا مَنح المسلمين قواماً لحياتهم المتكاملة، وبهذا تبدو عظمة التشريع الإلهيّ القائم على أساس علم غير محدود بالوجود والتاريخ والإنسان وما يصلحه ويوصله إلى كماله.

﴿اعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٨﴾﴾ لتحقيق توازن في موقف الإنسان بين الخوف والرجاء، تركّز الآية على هذ الحقيقة التصوُّرية وهي كونه تعالى شديد العقاب والغفور الرحيم في الوقت نفسه.

﴿مَّا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاَغُ وَاللّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾﴾ إنّ الرسول يبلّغ عن الله تعالى رسالته، ويبقى أن يتحمَّل الإنسان الفرد والمجتمع مسؤوليّة العمل والطاعة، ومراقبة العلم الإلهيّ الدقيق بكلّ الظواهر والخفايا، وقد حاول بعض المغرضين الاستدلال

بالآية على نفي حاكميَّة الرسول على الأمّة وهو تمحُّل، فالآية ليست بهذا الصدد وإنّما هي بصدد نفي إلقاء تبعة عدم الإيمان والطاعة عليه، ثمّ إنَّ الواقع العمليَّ لسيرة الرسول، وطبيعة الأحكام الإسلاميّة تنفيان هذا التفسير.

﴿قُل لاَّ يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُواْ اللّهَ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ على الفرد المسلم أن يشخِّص الخبيث من الطيِّب بفطرته وباتّباعه لدينه، وحينئذ يتّبع الطيّبات والأساليب الطيّبة، ويرفض الأساليب الخبيثة، غير مكترث بكثرة هذا أو قلَّة ذاك؛ لأنه اتّقى الله وأعمل عقله، فسار في سبيل النجاح.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَسْأَلُواْ عَنْ أَشْيَاء إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْأَلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللّهُ عَنْهَا وَاللّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُواْ بِهَا كَافِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ تذكر الآية الكريمة المؤمنين بعدم التساؤل عن أشياء يحتملون أنّها لو أُبديت لهم لأساءتهم، وذلك كالتدقيق في شرائط الأحكام، ومحاولة معرفة الأُمور المستقبلة، وأمثال ذلك. وربّما كان ذلك نتيجة وسوسة شيطانيَّة ينبغي أن يبتعد عنها المسلم، وينتظر ما يأتيه من بيان قرآنيّ ليطبّقه. وتذكّر الآية التالية بوجود مثل هذه الخصلة لدى أقوام سابقين سألوا ولم يعملوا بالجواب المقرَّر، مما اقتضى السخط الإلهيّ.

﴿مَا جَعَلَ اللّهُ مِن بَحِيرَةٍ وَلاَ سَآئِبَةٍ وَلاَ وَصِيلَةٍ وَلاَ حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ يَفْتَرُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ البحيرة: الناقة تلد خمسة أبطن. والسائبة: المنذورة للآلهة، فهي تسيّب لحالها. والوصيلة: الشاة تصل أخاها لو ولدا معاً فلا يذبح تخصيصا للآلهة. والحامي: الفحل يولد من ظهره عشرة أبطن. وتنعى الآية على أهل الجاهليّة تحريمهم بعض الأنواع من الأنعام، وبالتالي إهدارهم للثروة الحيوانيّة، نتيجة جهلهم. وبهذا تُدان كلُّ الأساطير التي تتحكّم في الأمّة، فتمنعها من الاستفادة من نعم الله.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَى مَا أَنزَلَ اللّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلاَ يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ تنكر هذه الآية صفة التقليد التي يتذرَّع بها هؤلاء المقلّدة، الذين يدعون لتغيير حياتهم وتطبيق ما أنزل الله، وتحكيم الرسول فيها لتنتظم هذه الحياة وتتغيّر إلى الأفضل، وتنتهي الآية بسؤال إنكاريّ عميق المغزى إذ تسألهم؛

هل كانوا يقلّدون آباءهم لو علموا بجهلهم وضلالهم؟ والجواب بالنفي طبعاً، وحينئذ يندفعون لإعادة النظر في الموروثات وإعمال العقول فيها.

والتقليد كما يُعبِر عن ضعفٍ حضاريّ لهذه الفئة وبعد عن عنصر التغيير التكامليّ، فهو يعبر أيضاً عن تذرّعٍ وتسويغ للعناد والصدود عن الحقّ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ إنَّ المؤمن مأمور بالتبليغ تبعاً للرسول، وهو المبلِّغ الأول، فإذا لم يترك تبليغه الأثر المطلوب فما عليه ضير من ضلال الضالّين وجحد الجاحدين، فإن البشريّة سترجع إلى ربِّها وتلاقي نتائج عملها.

﴿يِا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ فَأَصَابَتْكُم مُّصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِن بَعْدِ الصَّلاَةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لاَ نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَلاَ نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللّهِ إِنَّا إِذًا لَّمِنَ الآثِمِينَ ﴿١٠٦﴾ فَإِنْ عُثِرَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَآخَرَانِ يِقُومَانُ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الأَوْلَيَانِ فَيُقْسِمَانِ بِاللّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِن شَهَادَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ يركّز القرآن على كتابة الوصيَّة، لما في الوصيّة من آثار اجتماعيّة وحفظ للحقوق المتبادلة من الضياع والامتهان، وفي هذا السبيل يدعو المسلم إذا سافر أو أراد السفر وحضرته ساعات الموت أن يحضر شاهدين عدلين من المسلمين، وإن لم يكن هناك شاهدان مسلمان، فليحضر شاهدين من غير المسلمين، وإذا ارتاب أولياء الميّت في مدى تنفيذهما للوصيَّة أخّروا الشاهدين إلى ما بعد الصلاة، باعتبارها لحظات مقدَّسة يقل معها احتمال الكذب، ليقسم هذان الشاهدان على صدقهما، وعدم كتمان الشهادة، وعدم شراء الباطل بثمن بخس، وعدم إخفاء الحقيقة حتّى ولو كان المقسم له من القربى، فإن اكتشف الكذب أو الخيانة في الأمر، اتخذ شاهدان آخران من ذوي الأولويَّة والاستحقاق في الإرث ليقوما مقامهما في الوصيَّة، ويقسما على صحَّة شهادتهما وتقدُّمها على شهادة الشاهدين السابقين، وأنهما لن يعتديا على الحقيقة.

﴿ذَلِكَ أَدْنَى أَن يَأْتُواْ بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُواْ أَن تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ وَاتَّقُوا

اللَّه وَاسْمَعُواْ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ إنّ كلَّ هذه الشدَّة وهذه الظروف الخاصَّة والأنماط من القسَم، إنما هو لغرض الاطمئنان على أداء الشهادة أداء حقيقياً، وإلاّ لحدثت الفضائح وردَّت الأيمان وفقدت الثقة.

﴿وتعقّب الآية؛ بالتذكير بالتقوى والطاعة والابتعاد عن النتائج التي تلحق الفاسقين.

يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُواْ لاَ عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾﴾ بهذه الآية يمهِّد القرآن لحوار بلسان الحال بين عيسى وربِّه تعالى، ويبدأ التمهيد بجمع مقدَّس يجتمع فيه الرسل جميعاً أمام الله تعالى، ليسألهم عن نتائج عملهم ومدى استجابة الأمم لهم، فيجيبون تأدّباً واعترافاً بالنقص في العلم بأنهم لا علم لهم في قبال العلم الإلهيّ بخفايا القلوب والاستجابات الحقيقيّة للرسالة الإلهيّة.

﴿إِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِىءُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوتَى بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي قَالُوَاْ آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾﴾ بعد التمهيد السابق ينتقل القرآن إلى حوار بين الله تعالى وعيسى عليه السلام، ومن الواضح فيه أنّه يحاول تصحيح العقيدة التي انحرف بها أتباعه بعد ذلك، ويتمُّ هذا التصحيح من خلال إيحاءات هذا الحوار، إذ يبدأ بالتذكير بالنعم الإلهيّة على عيسى ووالدته الطاهرة مريم، إذ أيّده بروح القدس، وهو إمّا ملك الوحي وإما التأييد الإلهيّ الخاصّ، الأمر الذي أعطاه خاصّة تكليم النّاس في المهد، ليعلن قبل كلِّ شيء عبوديّته لله وبراءة والدته من التهمة والخطيئة. فكان كلامه هناك إبلاغاً للحقيقة، كما كان كلامه وهو كهل إبلاغاً للرسالة، كما تجلّت النعمة الإلهيّة في تعليمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل.

وكانت النعمة الثالثة قدرته الإعجازيَّة في صنع الطين كهيئة الطير بإذن الله، ونفخه فيها لتصبح طيوراً حيّة بإذنه تعالى، وكذلك في إبراء الأكمه (أي الأعمى بالولادة) والأبرص،

بإذنه تعالى، وبالتالي قدرته الخارقة في إحياء الموتى. كل ذلك بإذن الله تعالى فلا يحدث شيء في الكون إلاّ بذلك الإذن التكويني.

ولعلّ تكرار كلمة (بإذني) جاء لتقرير هذه الحقيقة العامّة، وإبعاد التصوّرات المشركة في حقيقة النبي عيسى عليه السلام فكلُّ شيء قائم به تعالى ولا يوجد إلاّ بإذنه.

ويعود القرآن إلى تعداد النعم الإلهيّة، فيذكر منها أنّه جاءهم بالبيّنات الواضحات، فردُّوا عليه مهرّجين واصفين إيّاه بالسحر والشعوذة. ومن النعم أيضاً هداية الحواريين للإيمان بالله ورسوله فاستجابوا لنداء الإيمان وأسلموا لأوامر الرسول القائد.

﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ السَّمَاء قَالَ اتَّقُواْ اللّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿١١٣﴾﴾ وبالرغم من إيمان الحواريين وتسليمهم، فإنّهم طلبوا إنزال مائدة من السماء، تشكّل دليلاً حسّياً، فيأكلون منها وتطمئن معها القلوب، ويتركّز العلم بالتصديق وتتمُّ مقدمات الشهادة بذلك للآخرين من ورائهم. وقبل أن يستجاب دعاؤهم جاء التوجيه الإلهيّ لهم بأنّ مقتضيات الإيمان الصادق هو التقوى والتسليم والأدب في السؤال وعدم قول ما يستشف منه التشكيك.

وربّما كان في هذا الحوار ـ بالاضافة لبيان النعم الإلهيّة على الحواريين، وبالرغم من وجود مثل هذا الطلب منهم ـ ما يشعر المسلمين بلزوم الترفُّع عن هذه المستويات والاتّجاه للأهداف الأسمى.

﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ السَّمَاء تَكُونُ لَنَا عِيداً لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١٤﴾﴾ بعد أن رأى عيسى من أصحابه إخلاصاً في الطلب دعا ربَّه بكلِّ أدب وخضوع، واعتراف بالجميل، واستمداد للرزق لينزل عليه وعلى الحواريين مائدة من السماء، تكون سبباً لفرحهم الطبيعيّ، وتشكّل علامة واضحة على اللُّطف والتأييد الإلهيّ، وهذه حالات طبيعيَّة، فإن المعجزة الحسِّية تقود القلب للاطمئنان وتثير فيه الفرح. وفي الآية إشارة لجواز اتّخاذ المؤمنين بعض الحوادث المهمّة في تاريخهم عيداً يذكّرهم بها.

﴿قَالَ اللّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لاَّ أُعَذِّبُهُ

أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿١١٥﴾ إستجاب الله تعالى لدعاء عبده عيسى، إلاّ أنّه حذّر هؤلاء الحواريين الّذين آمنوا وأسلموا ثمّ راحوا يطلبون دليلاً حسّياً آخر. وعندما يأتيهم هذا الدليل فإن مسؤوليّتهم حينئذ تعود أعظم ممّا كانت عليه، الأمر الذي يستدعي عذاباً خاصّاً عند جحودهم وكفرهم، وهو عذاب لا يتناسب مع عذاب الكافرين الآخرين.

ويلاحظ هنا، أنَّ هذا الحوار كما يركّز على النعم الإلهيّة على الحواريين وبالتالي على كلِّ أتباع المسيح، يركِّز أيضاً على بنوَّة عيسى لمريم مبعداً الأذهان عن مسألة (البنوَّة الإلهيّة) ومنزِّهاً مريم (عليها السلام) في الوقت نفسه من تهمة الخطيئة. وكلُّ هذا تمهيدٌ لما يراد بيانه في الحوار الآخر التالي.

﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ سؤال إنكاري يوجِّهه الله تعالى لنبيِّه وعبده عيسى عليه السلام بهدف إفهام الأتباع بخطئهم وانحرافهم في تصورهم عن هذا العبد الرسول، فيسأل تعالى عمّا إذا كان قد طلب من النّاس أن يؤلّهوه ـ والعياذ بالله ـ فيردُّ عيسى منزِّها ربَّه «سبحانك» معلناً أنّه ما كان يملك بكلّ وجوده أن يقول ذلك، وإلاّ فلو كان قاله لعلِمه الله، وهو يعلم ما في نفسه، وهو علاّم الغيوب.

﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُواْ اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ فلم يقُل عيسى لقومه إلاّ ما أمره الله به، وإلا ما قالته الرسل لأُممهم «أن اعبدوا الله» فهو ربّ عيسى وربُّ النّاس جميعاً، ولم يقم في قومه إلاّ بدور الشهادة والقيادة، فلما توفّاه الله إليه كان هو الحفيظ الرقيب على أتباع عيسى، وهو تعالى على كلِّ شيء شهيد عليم رقيب.

﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ وبلسان التضرُّع والتسليم يعلن عيسى أنَّ قومه عباد الله تعالى، فله أن يعذِّبهم وله أن يشملهم بالغفران، وهو القويّ العزيز الحكيم في ما يفعل.

وهكذا نلاحظ المفاهيم العقائديّة الأصيلة البعيدة عن كلِّ شبهة وشرك، والمركِّزة على

العبوديّة الكاملة، تُلقى على المسيحيين من خلال هذا الحوار بلسان الحال.

﴿قَالَ اللّه هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللّه عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾﴾ إنّها الحقيقة التي لامراء فيها، فالقيامة يوم يتجلّى فيه صدق الصادقين، ونتائجه الإيجابية المتمثّلة في جنّات تجري من تحتها الأنهار، وخلود فيها، يسودهم الرضا المتبادل بين الله والعبيد وهو الفوز العظيم، وبهذا يشهد القرآن بصدق عيسى مؤكداً المفاهيم التي طرحها في جواب الله.

﴿لِلّه مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٢٠﴾﴾ وهذه خلاصة الدرس الذي أوصى به هذا الحوار، فالجميع عبيد له تعالى، والسماوات والأرض وما فيهما مطويّات بيمينه، فعلى الجميع الطاعة والعبوديَّة المطلقة.

سورة الأنعام (٦) آياتها ١٦٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تحدّثنا من قبل عن البسملة وأنها جزء لا يتجزّأ من السور القرآنيّة.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِم يَعْدِلُونَ ۝١﴾ تبدأ السورة بحقيقة كبرى من حقائق التصوّر الإسلاميّ؛ وهي أنَّ الحمد كلَّ الحمد وبشتّى أنواعه إنّما هو في الحقيقة لله تعالى؛ لأنّه خالق الوجود كلّه برحمته، والمنعم عليه بكلِّ مافيه من نعم، ومن هذه النعم خلق السماوات والأرض بما فيها من مظاهر العظمة والدقَّة والهدفيَّة السامية، وكذلك بثّ النور والظلمات في هذا الكون، ليقوم كل منهما بدوره التكوينيّ في تسيير دقّة الوجود. فالله تعالى هو خالق كلِّ شيء وكلّ مظهر كونيّ ومرحلة تكامليَّة، فالعجب إذن من التصور الثنويّ الباطل ـ كما هو الأمر عند المجوس ـ ومن أيّ تصوُّر مشرك آخر للكافرين بهذه الحقائق، ليعدلوا بالله تعالى غيره من مخلوقاته.

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلاً وَأَجَلٌ مُّسمًّى عِندَهُ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ۝٢﴾ بعد التعرُّض لخلق الكون جميعه، تركّز الآية على خلق الإنسان من طين، مذكّرة إيّاه بعظمة المراحل التي قطعها وجوده من الطين إلى هذا الموجود الكريم، ومؤكّدة أنّ الله تعالى قضى للإنسان مدَّة معيَّنة، وأخفى أجلاً آخر لديه، حيث يتأثَّر أحدهما بعوامل المحو والإثبات ـ كالدعاء وبرّ الوالدين ـ في حين يبقى الآخر محتوماً لا تغيير فيه، وبعد كلّ هذه الدقَّة فهل للمرء أن يمتري ويتمحَّل ويشكَّ في هذه الحقيقة؟

﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ۝٣﴾ الله تعالى محيط بكلِّ شيء دونما حاجة إلى مكان ـ فالحاجة ممّا لا تتطرَّق إلى الساحة الإلهيّة ـ وهو بإحاطته تحضر لديه كلُّ الأشياء، ويتساوى لديه السرّ والعلن، ويعلم بكل ما تفعله المخلوقات.

﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلاَّ كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ۝٤ فَقَدْ كَذَّبُواْ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنبَاء مَا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِؤُونَ ۝٥﴾ بعد كلِّ تلك الحقائق الواضحة لدى الفطرة والوجدان، يعرض القرآن صورة هؤلاء المنحرفين المعاندين، فلاتهمُّهم الحقائق

ولا نداء الفطرة، وإنّما هم مصممون على رفض الآيات الإلهيّة والتكذيب بالحقّ والاستهزاء به، ولكنهم سيعلمون بالحقيقة وسيرون الجزاء الأليم.

﴿أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاء عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٦﴾﴾ إلا يسترجع هؤلاء صورة الأمم السابقة، الذين كانوا قد مُكّنوا وأعطوا القوّة في الأرض بمستوى لم يمنحه هؤلاء المعرضون، واستمتعوا بالنعم الإلهيّة حيث السماء تدرُّ عليهم بالخيرات، والأنهار تجري بالعطاء، ولكنهم لم يشكروا النعم الإلهيّة، ولم يستجيبوا لنداء الحقّ والفطرة، مما عرّضهم للهلاك والزوال الحضاريّ نتيجة ذنوبهم وأحل قوماً آخرين محلَّهم، وفي الآية إشارة إلى قوانين حقيقيّة تربط بين العصيان التشريعيّ والانحلال الحضاريّ.

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَقَالُواْ لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الأَمْرُ ثُمَّ لاَ يُنظَرُونَ ﴿٨﴾﴾ صورة أُخرى للعناد تتمثَّل في إنكار الواضحات، والتمحُّل ببعض الطلبات، كإنزال الكتاب والملك، فحتى لو أنزل الله كتاباً حسّياً بحيث يلمسونه بأيديهم، فإنّهم سيكذّبون حسّهم وسيصفون هذا الكتاب بالسحر المبين، ولو أنزل الله ملكاً لرفضوه بلا ريب، ووصفوه بصفات أخرى، مكذّبين له مما يعجّل لهم بالعذاب.

﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾﴾ ولو أنَّ الله استجاب لطلب هؤلاء المعاندين بإنزال ملك رسولاً إليهم، لما استطاعوا أن يبصروه إلاّ رجلاً كغيره من الآدميين، فحينئذ يبقى مجال التشكيك والالتباس خصوصاً وهم المعاندون. ويلاحظ أنّه بالرغم من تأكيد المكذّبين لزوم أن يكون الرسول فوق البشر فإن القرآن يؤكّد بشريَّة الرسول، ولعلَّ ذلك لأنَّ الرسول يبقى النموذج التطبيقيّ الأمثل للإنسان العبد المطيع، وليستطيع أن يقودهم عملياً نحو الأهداف الإنسانيّة الكبرى، وربَّما كانت الحكمة أيضاً غلق الباب أمام تجريد الرسول من شخصيَّته، والعمل على تأليهه، وهذا ما حدث بالنسبة للبشر، بالرغم من كلِّ علائم الإنسانيّة فيهم فكيف بالملائكة؟

﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِىءَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِؤُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ سِيرُواْ فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾﴾ والقرآن هنا يوضّح أنّ هؤلاء المعاندين إنّما يستهزئون بالحقيقة، وبالتالي فهو يسلّي الرسول لئلاّ تؤلمه هذه التمحّلات، كما يذكّر المكذّبين بمصارع الأمم المستهزئة من قبلهم، وآثارهم مازالت قائمة، ولذا يحثّ القرآن على القيام بالتأمُّل في مسيرة التاريخ، والاعتبار بمصير الأُمم.

﴿قُل لِّمَن مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قُل لِلّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لاَ رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾﴾ سؤال يطرحه القرآن على هؤلاء فلا يملكون مع الله إلاّ أن يجيبوا بالحقيقة، ذلك أن الكون، بما فيه من عظمة، مخلوق لوجود كامل العلم والقدرة هو الله تعالى. ومن هنا فالجواب يتمّ على لسان النبيّ بشكل طبيعيّ، معبّراً عمّا يعترف به هؤلاء من وجود الله وإن كانوا يشركون في حاكميَّته.

لم يكن خلق الكون إلاّ برحمة ملازمة للذات الإلهيّة، فكأن الله فرض الرحمة على نفسه جلّ وعلا وبها خلق الكون.

ومن مظاهر الرحمة الإلهيّة جمع البشر في يوم القيامة، باعتباره يمنح الحياة الإنسانيّة معنى هدفيّاً، ويقرر العدالة في هذه المسيرة، فلا ريب في وجود مثل هذا اليوم.

والخاسرون حقّاً حينئذ هم أولئك الذين فسقوا عن المسيرة الفطريَّة، وخرجوا من إطار الإيمان والطاعة فخسروا أنفسهم وبالتالي خسروا كلَّ شيء.

﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٣﴾﴾ الموجودات في كلِّ الأزمنة (ليلها ونهارها) حاضرة لديه تعالى مملوكة له، فهو عليم بها ولا يخفى عليه شيء منها.

﴿قُلْ أَغَيْرَ اللّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلاَ يُطْعَمُ قُلْ إِنِّيَ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكَينَ ﴿١٤﴾﴾ الله تعالى خالق الكون بسماواته وأرضه، وهو الرازق والمانح لكلِّ نعمة فيه، دونما حاجة مطلقاً لأيِّ شيء، وحينئذ فالعجيب الغريب أن يتولّى أحد غير الله، وهو المولى الحقيقيّ المستجمع لكلّ صفات الكمال والجلال.

إنَّ الرسول مأمور بأن يكون في طليعة المسلمين لله والرافضين للشرك، وكلُّ متَّبع له لابُدَّ أن يسير على هذا المنهج القويم، رافضاً منهج التبعيَّة للجاهليَّة بكلِّ مظاهرها الطاغوتيّة.

﴿قُلْ إِنِّيَ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾﴾ ولبيان عظمة عصيان الله وكونه صلى الله عليه وآله وسلم أوّل المكلّفين بالطاعة، يأمر القرآن الرسول بإعلان هذه الحقيقة: حقيقة الخوف من العذاب العظيم إذا عصى ربّه.

﴿مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴿١٦﴾﴾ إنّه عذاب عظيم إذا تخلَّص منه أحد فقد شملته رحمة الله وفاز فوزاً مبيناً.

﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدُيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿١٨﴾﴾ تأكيد القدرة الإلهيّة المطلقة، فلا يوجد شيء في الكون من خير أو ضرّ إلاّ بإذنه، ولا رادّ لقضائه، وهو القاهر القويّ، والحكيم الخبير بما يفعل.

﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادةً قُلِ اللّهِ شَهِيدٌ بِيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُل لاَّ أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾﴾ هكذا يتعامل القرآن مع الفطرة: يسألها فتجيب على التوّ بالحقيقة، فينوب عنها في الجواب، مربيّاً لها سائراً بها إلى الوضوح التام... فنرى القرآن يطلب من مخاطبيه أن يوضّحوا من هو أكثر الشهداء شهادة بالغة صادرة عن علم وأمانة؟ ولا يجد هؤلاء المخاطبون إلاّ أن يردّدوا مع القرآن: إنّه الله، فهو الشهيد الحقّ، وها هو الله تعالى يشهد بأنّه أوحى القرآن للرسول، ليقوم بإنذار هذه الأمّة المخاطبة وغيرها من غير المخاطبين (ومَنْ بَلَغَ) أي من بلغه الخطاب من الأمم الأُخرى.

أمّا إذا شهد الكافرون عناداً بالشرك فلا مساومة بين الحقّ والباطل «قل لا أشهد» وإنما يتبرّأ خطّ التوحيد من خطّ الشرك في مختلف المجالات. فالآية تتضمَّن مفاهيم كثيرة، منها: لزوم انسجام العامل العقائديّ مع الفطرة، ومنها أيضاً: عالميّة الرسالة التي تُعلن في مكَّة، ومنها: رفض أيَّة مساومة بين خطَّي الحقّ والباطل وغير ذلك.

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءهُمُ الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾﴾ بعد استشهاد الفطرة يتوجه القرآن إلى أهل الكتاب مؤكداً أنّهم يعرفون انطباق صفات النبيّ الموعود عليه صلى الله عليه وآله وسلم حقّ المعرفة، كما يعرفون أبناءهم، وأنّهم يعرفون أنّ

الإسلام هو النظام الحقّ الذي ينبغي أن يطبّق، وانه لا تقاوم نور الإسلام سخافاتهم المتبقية، ولكنّهم يرفضون الانصياع للحقيقة، وبالتالي يخسرون ذواتهم الحقيقيّة عبر عدم انسجامهم مع مقتضيات الإيمان.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢١﴾﴾ نعم، إنّه الظلم العظيم، والصلف الرهيب أن يقف الإنسان أمام الحقيقة الكبرى، أمام الله العظيم المنعم المحيط، فيكذب عليه، أو يكذّب آياته البينّات الواضحات، رجاء الحصول على مكاسب رخيصة. والحقيقة أنّ هذه المكاسب الضيّقة هي سبيل الضياع لا الفلاح ـ لو كانوا يشعرون ـ.

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلاَّ أَن قَالُواْ وَاللّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾﴾ وفي سياق توضيح الحقيقة للمشركين، ينقلهم القرآن إلى يوم الحشر (الذي قررت الآيات السابقة أنّه الحقيقة التي لا تشكُّ فيها الفطرة، التي تشاهد الهدفيّة في هذا الكون) وهناك في ذلك الموقف الرهيب يطالب المشركون بالبحث عن شركائهم المزعومين، فلا يملكون من جواب على هذا الامتحان العصيب إلاّ إنكار الشرك ـ مقسمين على ذلك ـ فهم يعترفون بأنّهم كانوا يكذبون على أنفسهم وهي متيقّنة بحقيقة التوحيد.

﴿انظُرْ كَيْفَ كَذَبُواْ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ وهكذا يتركهم القرآن يتخبَّطون في موقفهم المخجل، هذا وهم يتناقضون مع أنفسهم، ولا يجدون لهم نصيراً مما كانوا يفترونه من أوهام.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُواْ بِهَا حَتَّى إِذَا جَآؤُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنْ هَذَآ إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُواْ عَلَى النَّارِ فَقَالُواْ يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلاَ نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾﴾ واستمراراً في عمل القرآن على كشف الضعة النفسية للمشركين، واظهار شخصيَّتهم الحقيقيّة في أُسلوب جوابيّ بليغ، وتحطيم مقاومتهم، يستعرض صفاتهم التي تتقزّز منها النفس البشريَّة، فهم في الظاهر يستمعون للرسول ولكنَّ عنادهم وإصرارهم على الباطل أدّى لعدم نفاذ كلمة الحقّ إلى قلوبهم، فهي في وعاء

يحفظها من الوعي، بل إنَّ كلمات الحقّ لا تتجاوز فتحة الأُذن وكأنّ بها وقراً عن السماع!

إنّهم معاندون ولذلك فالموقف من أيّ آية معروف من قبل، ولا منطق لهم إلاّ الجدال. وإنّ الاتهام الموجَّه للآيات الإلهيّة بأنها أساطير الأولين، يعدّ نموذجاً لما نشاهده في كلِّ عصر من اتباع الجاهليّة العمياء، يكذبون ويتهمون بكلِّ سهولة.

إنّهم ينهون الآخرين عن الاقتراب من الحقيقة، لئلا ينجذبوا إليها، كما يبتعدون هم بدورهم عنها تحسّباً من أن ينفذ النور إلى قلوبهم المكنونة بالغيّ والعناد! إنّ هؤلاء بأعمالهم هذه إنما يلقون أنفسهم في مهاوي الضياع والهلاك دون أن يشعروا، ويبقى الحقّ والإسلام يجتذب إليه القلوب، ويفضح كلَّ الأكاذيب ويبعثها حسرة في نفوس المشركين، حينما يقفون على النار يوم القيامة، ليقولوا بكل ألم: ياليتنا نرجع إلى الدنيا وحينها سنكون مؤمنين مطيعين غير مكذّبين بآيات ربّنا، ولات حين رجوع!

﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ ولكنّ الآية الشريفة توضّح أنّه لم يتغيّر شيء في الموقف، سوى أنّهم كانوا يخفون استيقان نفوسهم بالله في حياتهم الدنيا، وهاهم اليوم يعلنون ذلك خوفاً، فإذا عادوا إلى حياتهم الدنيا عادت مطامعهم واستهواهم العناد وعادوا للعصيان، مما يوضّح كذبهم في إعلانهم السابق بأنهم سيعودون مؤمنين.

﴿وَقَالُواْ إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾﴾ بعد عرض موقف المشركين من التوحيد، يستعرض القرآن موقفهم من القيامة (بعد أن قرّر من قبل أنّهم يدركون بفطرتهم أنّ الهدفيّة في الكون تلازم وجود يوم البعث) فهم يعلنون أنّ الحياة هي هذه الدنيا لا غير، وأنّ الموت فناء لا بعث بعده.

﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُواْ عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُواْ بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُواْ العَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾﴾ ثمّ ينتقل بهم إلى يوم القيامة حيث لا يمكن التكذيب، فيعرض سؤالاً إلهيّاً لهم: أليس هذا بالحقّ؟ فلا يملكون إلاّ الجواب بالايجاب (بلى) وبلى هذه هنا تعبّر عن نداء فطرتهم في حياتهم الدنيا بكلِّ وضوح، ولكنَّهم كذّبوا هذا النداء، وكذبوا على أنفسهم، فلا مناص من العذاب.

﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَاء اللّهِ حَتَّى إِذَا جَاءتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُواْ يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلاَ سَاء مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾﴾ إنّه الخسران، يذكّر به القرآن اليوم لئلا يبتلى به الإنسان في الغد، فالخاسرون حقّاً هم المكذّبون بلقاء الله (بالرغم من اتّجاه الفطرة الواضح إلى الله) فإذا ما جاءهم يوم القيامة بدت الحسرة في نفوسهم على إضاعتهم وتفريطهم بالفرص الثمينة الموفَّرة لهم، وعودتهم بالذنوب الثقيلة أوزاراً يحملونها أسوأ حمل.

﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾﴾ الحياة الدنيا في التصوّر الإسلاميّ إذا فقدت الهدف الأخرويّ، وجعلت نفسها هدفاً عادت مجرد تسلية وقضاء وقت، وابتعاداً عن التعقل السليم. أما إذا اصطبغت بروح الآخرة فإنّها تصبح جسراً للعلاء ومرقاة للتكامل. ومن هنا فإن تعبير الحياة الدنيا قد يراد به الفرض الأول، فيزهد الإنسان فيه ويوجّه اهتمامه للحياة الأُخرى، باعتبارها خيراً للمتّقين، ولا يعني هذا التوجيه الانعزال، بل بالعكس يعني الانخراط في المجهود الاجتماعيّ التكامليّ، المحقّق للسعادة الأخرويّة.

﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَى مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللّهِ وَلَقدْ جَاءكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾﴾ من خلال متابعة القرآن للمسيرة الإسلامية، وتسديده لخطواتها، يعمل على تقوية فؤاد النبيّ وتطييب خاطره بعد أن يواجه بهذا التكذيب العارم، فيخبره بأنهم في الحقيقة لا يكذّبون الرسول بشخصه وإنما يتبع موقفهم حالة عنادهم للآيات الإلهيّة التي حملها إليهم فهم يقفون في قبال الله دائماً، ولذا فقد كذّب خطُهم وموكبهم الموغل في القدم موكب الحقّ والأنبياء دائماً، والموقف الإيجابيّ هو الصبر في قبال الكذب والأذى... هذه هي سنَّة الصراع بين الحقّ والباطل والتي تنتهي دائماً بانتصار الحقّ؛ لأنَّ الله هو واهب النصر لا غير، ولا تتبدَّل سنّة الله وكلماته وقد أنبأت عنها قصص المرسلين.

﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاء فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٥﴾﴾ لقد قست قلوب المعاندين فلا تنفعهم الآيات مطلقاً، ولذا فإن القرآن يؤكّد أنّه مهما عمل الرسول

لهدايتهم (حتى ولو اخترق الأرض أو السماء كناية عن القيام بأشقّ الأعمال) فإنّهم لن يهتدوا باختيارهم وإن كان الله تعالى يستطيع إجبارهم عليه، ولكنه شاء للبشر أن يؤمنوا باختيارهم.

﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾﴾ إنَّ الإنسان الحيَّ هو الَّذي استيقظت لديه الخصائص الفطريَّة، وفي طليعتها الاتّجاه إلى الحقيقة والاستجابة لندائها، أما أولئك الذين ضعفت لديهم الخصائص الإنسانيّة، فهم موتى واقعاً وأحياء ظاهراً، ومن هنا يذكّر القرآن بهذه الحقيقة، فلا داعي للتألُّم لإعراض الموتى، وإنما يتُرك هؤلاء ليبعثوا بعد الموت ويجزوا بما كانوا عملوه.

﴿وَقَالُواْ لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللّهَ قَادِرٌ عَلَى أَن يُنَزِّلٍ آيَةً وَلَـكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾﴾ جرت سنّة الله تعالى في خلقه أنّه إذا نزلت آية حسّيّة خارقة وكذّب بها من طلبوها نزل بعدها العذاب لا محالة، وحينئذ نفهم مضمون هذه الآية، حيث تخبرنا بأنهم اقترحوا آية حسّيّة غير القرآن، متحدّين بها القدرة الإلهيّة، ومصرّين على عنادهم، الأمر الذي يؤدّي بهم للهلاك. ومن هنا يؤكّد القرآن على قدرة الله في إنزال هذه الآية الحسّيّة، ولكنَّه ينعى عليهم جهلهم بالعواقب المترتِّبة على ذلك، ويدفع الرساليّين للمضيِّ في دعواتهم دون الركون إلى اقتراحات المعاندين، والاكتراث بآرائهم الناقصة.

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ تضمُّ المسيرة الكونيّة أمماً حيّة أُخرى من الحيوانات تعيش إلى جانب الإنسان، وكل منها تؤدّي دوراً مقصوداً وتحكمها سنن كونيّة رائعة «ما فرَّطنا في الكتاب من شيء» تنطلق من بداية وتنتهي محشورة إلى ربّها ليظهر فيها أمره. وهذه الآية الكريمة تبعث العقول والنفوس لاستجلاء مجالات العظمة الإلهيّة في عالم الحيوان، وهي مما يملأ النفس طمأنينة بالحكمة الإلهيّة والهدف الكونيّ الرائع، وربَّما كان التأمُّل في حياة نملة يقود الآلاف نحو الإيمان.

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَن يَشَإِ اللّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾﴾ الكون كله مجالات نيّرة لتجلّي الهدف الإلهيّ. أمّا الكافرون فهم لا يسمعون الحقّ، ولا ينطقون به، بل يعيشون في عالمهم المظلم الذي اختاروه لأنفسهم،

فحقّت عليهم المشيئة الإلهيّة بالضلال، إلاّ أن يرجعوا، أو يتهيّأوا فتشملهم رحمة الله.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُكُم إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٠﴾﴾ تُرى لو أنَّ عذاب الله تعالى انصبَّ على هؤلاء المكذّبين أو أتتهم ساعة الحساب، فمن ذا يجيرهم منه تعالى؟ هذا السؤال التقريري يوجَّه إليهم، لتجيب فطرهم بعد استيقاظها أن لا ملجأ من الله إلاّ إليه، فكلُّ ما دونه محكوم ضعيف. ومن هنا تتوجَّه فطرة الإنسان ـ مهما كان ـ في حالات الشدَّة إلى الموجود المطلق القادر لينقذها مما هي فيه من الهول العظيم.

﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاء وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾﴾ نعم، عند الهول العظيم تتوجَّه الفطرة إلى خالقها، متجاوزة كلَّ الشوائب والأوهام وآلهة الهوى والزيف بكلِّ مظاهرها، وحينئذ تشملها الرحمة الإلهيّة الفيّاضة، بمجرَّد استعداد النفوس للفيض العميم. وهكذا يبقى رصيد الفطرة عاملاً قويّاً يسيّر الإنسان إلى الهدى، ويشجّع الرساليين العاملين، ويبعث فيهم أعظم الآمال، لتقرير حاكميّة الله في المجتمع.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلنَآ إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾﴾ هذه هي سنّة الله: أن يمتحن الأمم المطبِّقة لرسالته بالحالات المتنوِّعة ـ حالات المسرَّة وحالات الصعوبات ـ ليبلوهم ويصوغهم أُمماً رساليَّة تستوي على الخطِّ، لا يرخيها بطر ولا يمزّقها ضرّ أو خطر، يشدّها إلى الله تضرُّعها إليه ولجوؤها دائماً لعطائه.

ولعل الآية تشير إلى الأمم المكذّبة لأنبيائها، فيصيبها الله بالبأساء والضرّاء لترجع إلى الحقّ.

﴿فَلَوْلا إِذْ جَاءهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَـكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُواْ بِمَا أُوتُواْ أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾ وعند البلاء يكون التضرُّع هو سبيل الخلاص، وبدون التضرُّع فالقسوة القلبيَّة المتحجِّرة سبيل الانحراف والانخراط في سلك الفتنة الشيطانيَّة، ونسيان الحياة الإنسانيّة الحقَّة. وعند الرخاء يمتحن الإنسان أيضاً، فإذا أصابه البطر والفرح ابتُلي بانهيار الحضارات والتيه المحيِّر.

﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ وَالْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ وعندما تقسو القلوب، ويُتَّبع منهج الشيطان، ويستولي الغرور على الأمم المنحرفة، تنصبُّ عليها لعنة الله فتستأصل

شأفتها، ولا تبقي لهم باقية، رحمة بالأرض والمسيرة الإنسانيّة الصاعدة. وهذه السُّنّة الإلهيّة تدفع المؤمنين للعمل المتواصل؛ لاستئصال الظلم والشرك وكلّ أنواع التمرُّد على حكم الله تعالى.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُم بِهِ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾﴾ يواجه القرآن فطرة هؤلاء المكذّبين المشركين بالتساؤل عمّا لو سلبهم سمعهم وأبصارهم، وأعمى قلوبهم فمن القادر على إرجاع ذلك إليهم مما دون الله من القوى الضعيفة المحتاجة إليه تعالى؟ وهكذا ينوّع القرآن الآيات والدلائل لتقريرها في النفوس، ولكنهم نتيجة عنادهم يعرضون عن الحقّ.

﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ ﴿٤٧﴾﴾ فالظالمون متعرّضون لعذاب الله بغتة وفجأة أو بعد ظهور علائم هذا العذاب (جهرة). فعليهم أن يحسبوا حسابهم ويتخلّصوا من الموقف بالرجوع إلى وعيهم والتفكّر في أمرهم.

﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾﴾ فالأنبياء يثيرون دفائن العقول، ويهدون الفطر إلى الله من خلال البشائر التي يطرحونها، والانذار بالعذاب الأليم، ويبقى الخيار أمام البشر أن يؤمن ويصلح، فيتخلص من الخوف من المستقبل، والحزن على الماضي، ويسير بخطى وئيدة نحو الأهداف العليا. أما المكذّبون الضالّون فلهم مسُّ العذاب والضياع الحضاري نتيجة فسقهم وخروجهم عن الخطّ الإنسانيّ الصحيح.

﴿قُل لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ اللهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلاَ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ يطلب القرآن من النبيّ أن يعرض الحقيقة، لكيلا تنطرح بعض الأفكار السابقة التي تصعد بالنبيّ عن المستوى الإنسانيّ، وتحوّله إلى موجود خارق، مما يفتح مجال التطرُّف والغلوّ من جهة، كما يفتح باب الالحاح في طلب الخوارق من المعاندين، من جهة أُخرى. ولذلك فإنه يطلب من النبي أن يعلن أنّه لا يملك خزائن الله (وإنما عليهم أن يبحثوا عنها بعلم وعمل) وأنّه لا يعلم الغيب المخصوص به تعالى، وانه ليس بمَلَك يستغني عن الحاجات الإنسانيّة، وإنما الذي يختلف فيه عن البشر هو أنّه إنسان طاهر يوحى إليه ويستنير بنور الله، ومن الطبيعيّ أن تستنير به البشريّة

بعد ذلك فلا يستوي مسير العُمي الذين لا يلجأون إلى الوحي، ومسير المبصرين المستنيرين.

﴿وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُواْ إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلاَ شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾﴾ إنّ الوحي إنَّما يؤثّر في قلوب أولئك الذين خشعت قلوبهم للحقّ، وخافوا العذاب الإلهيّ يوم الحشر، يوم لا ينفع وليّ ولا شفيع، مما يدفعهم للتقوى والطاعة.

﴿وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ إنَّ المعيار الإسلاميّ في التفاضل هو معيار العبادة والدعاء في الصباح والمساء، والإخلاص لله تعالى، وصاحبها أولى بتفهُّم الرسالة والعمل بها. ومن هنا فيجب أن لا يستمع الرسول إلى طلب الكبراء منه بأن يطرد المؤمنين لفقرهم، بالرغم من أنّ حسابهم على أنفسهم، فطردُ هؤلاء المؤمنين إنما يعني الظلم المنهيّ عنه بعينه.

﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولواْ أَهَؤُلاء مَنَّ اللّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾ إنّ تفاوت النّاس في الفقر والغنى ليس إلاّ امتحاناً وفتنةً، ومن ذلك الامتحان أن يتجرَّأ أحد، فيسخر من الآخرين ويستهين بهم، ويتساءل عن إمكان أن يمنَّ الله بالقرب على من يتصوّر أنّه أدون منه، إلاّ أنَّ القرآن يواجه هذا المنطق بأن المعيار هو الشكر والتقوى والعمل لله، دونما أيِّ دخل للاعتبارات المالية والنسبية وغيرها.

﴿وَإِذَا جَاءكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَن عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾ إنّ المؤمنين بآيات الله يشملهم السلام الإلهيّ، وينعمون بالرحمة الإلهيّة التي كتبها الله على نفسه فلا تنفكّ عنه. ومن آثار تلك الرحمة التوبة التي يمنّ بها على من عمل من عباده سوءاً، نتيجة جهل لاعناد، ثمّ عاد إلى ربِّه عوداً حقيقيّاً، وعمل صالحاً وتلافى ما أورده من نقص.

﴿وَكَذَلِكَ نفَصِّلُ الآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾﴾ وهكذا تأتي آيات الله المفصّلات لتوضّح المسيرة بكاملها، فتتوضَّح سبيل الحقّ عن سبيل المجرمين المنحرفين، ولا تبقى شبهة في مسيرة العاملين لإعلاء كلمة الله.

﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ قُل لاَّ أَتَّبِعُ أَهْوَاءكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ

إِذًا وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾ الملاحظ في الآيات السابقة واللاحقة هو تأكيد الفصل الكامل بين خطَّي الحقّ والباطل، وسبيل الله والانحراف، ومنهج صياغة الحياة وفق هدى الله في قبال منهج الأهواء، والأصنام الوهميَّة. فيأتي هذا التأكيد القرآنيّ للرسول أن يعلن تبرّؤه من عبادة ما سوى الله من الموجودات الضعيفة المخلوقة له تعالى، ثمّ يعلن رفضه للأهواء والنوازع الوهميَّة؛ لأنّها تلقي في الضّلال والظلام وتُبعد عن الهدى والنور.

﴿قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ ﴿٥٨﴾﴾ إنّ أهل الإيمان يملكون أعظم الهدى في طريقهم وأقوى اليقين بحقّانيتهم، وليس المهمُّ أن يصدّق بهم الآخرون أو يكذّبوا. أما إذا اقترح المكذّبون العذاب فإن جوابهم الواضح هو: «لو أنّ عندي ما تستعجلونَ به» وأنّ الأمر موكول إلى الله تعالى فهو الذي يفصل بين الحقّ والباطل، ولو أن الأمر كان بيد الرسول لقضى بينه وبينهم، ولاقى الظالمون مصيرهم، ولكنه ـ كما مرّ ـ بيد الله وهو الذي يقرّر المصير.

﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾ إنّ العلم الإلهيّ المطلق يشمل كلّ شيء في الكون، فمفاتيح الغيب كلها بيده تعالى، والكون كله حاضر عنده، ولا يعزب عن علمه شيء، سواء أكان في البرّ أم البحر أم الفضاء، وكلُّ صغيرة وكبيرة مشمولة بهذا العلم الواسع. وفي الآية جوانب إعجاز ضخمة لا يحيط بها عقل إنسان.

﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾﴾ إنّ العناية الإلهيّة تشمل حياة الإنسان آناً بعد آن، فهو تعالى يلطف بالإنسان فيتوفّاه في منامه (ولهذا أثر كبير على حياة الإنسان) ثمّ يعيد إليه الحياة الكاملة بعد النوم، ليقوم بنشاطه الحياتيّ اليوميّ (ما تقوم به الجوارح) وهكذا حتّى يصل إلى أجله المقضيّ له، فيرجع إلى ربّه لينبّه بما عمل في حياته.

وهكذا يجب أن يشعر الإنسان دائماً بعين الله ترعاه وترقبه كما يشعر بالحساب الإلهيّ غداً فيلزم الطريق الأقوم، ويبتعد عن طريق العناد والإجرام.

﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُم حَفَظَةً حَتَّىَ إِذَا جَاء أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لاَ يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾﴾ إستمراراً للمفهوم السابق، تركّز هذه الآية الحقائق الثلاث التالية: القدرة الإلهيّة القاهرة، والعناية واللّطف بالإنسانيّة، وضرورة استحضار حقيقة الموت دائماً، فإذا تركَّزت في خَلَد الإنسان لم يعد يفكِّر في الانحراف والإجرام والابتعاد عن طريق الهدى والنور، وهذا المنهج التربويّ ترك أعظم الآثار في المسيرة الفرديَّة والاجتماعيَّة، في حين يفتقد ذلك أي منهج تربوي وضعي.

﴿ثُمَّ رُدُّواْ إِلَى اللّهِ مَوْلاَهُمُ الْحَقِّ أَلاَ لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ ﴿٦٢﴾﴾ وعندما يحسُّ الإنسان المسلم بمصيره الواضح، حيث تتوفّاه رسل الله دونما إفراط أو تعدٍ، وتعيده إلى الله مولاه الحقيقيّ، وحيث تتجلّى بكلِّ وضوح حاكميَّة الله المطلقة وهو أسرع الحاسبين، نعم، عندما يتركّز هذا المعنى فإن المعاد يؤدّي دوره التربويَّ الكبير في الحياة والحضارة.

﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ اللّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾﴾ يعود القرآن إلى استثارة الفطرة من جديد، ويذكِّرهم بموقف حسّي حقيقيّ، إذ يتَّجه الإنسان ـ حينما يعاني مشكلة كبرى ـ إلى القدرة الإلهيّة القاهرة التي تستطيع إنقاذه إلى ساحل الأمان، وحيئنذ فإنه ينسى كلَّ تكبره، ويلجأ إلى شكر الله على هذه النعمة العظمى. فهو وحده الذي ينجيه من هذه المصيبة ومن كلِّ مصيبة. ثمّ إذا حصل الإنسان على الأمان نسي حالته الفطريَّة المتيقّظة، ونسي وعوده وعاد متكبّراً طاغياً بعد أن استغنى في الظاهر.

﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾﴾ إنّ الشرك بالله يقود الأمم إلى الانهيار الحضاريّ، ويؤهلها للعذاب الإلهيّ المنصبِّ عليها من الأعلى ومن الأسفل، ويبتليها بالتفرُّق والتحزُّب الاعمى، واعتداء القويّ على الضعيف. وهكذا فإن التاريخ كلّه آيات على هذه السنّة الإلهيّة، إلاّ أنَّ البشريّة مازالت لا تفقهها جيِّداً، ولا تعتبر بها الاعتبار المناسب.

﴿وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾﴾ إنَّ الحقّ أحقُّ أن يتَّبع، إلاّ

أنَّ هؤلاء القوم كذّبوا به، وحينئذ فهم المسؤولون عن انحرافهم، وليس النبيّ عليهم وكيلاً.

﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾﴾ وهكذا توضَّحت المسيرتان: مسيرة الحقّ المنتصر، ومسيرة الشرك المنخذل، فيجب انتخاب السبيل الأقوم.

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلاَ تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٦٨﴾﴾ إنّ الخطّ المؤمن منهيّ عن مجالسة أهل الباطل ومعايشتهم، وهم يخوضون في حديث التكذيب بآيات الله ويعيشون عيشة الانحراف، فيجب الإعراض عنهم حتّى يتخلَّصوا من حالتهم هذه، ويدخلوا في مسيرة طبيعيَّة، فإذا ما نسي المؤمن هذا الأمر الإلهيّ بفعل الشيطان، فإن عليه أن يتذكَّر ويصحِّح موقفه ويبتعد عن مسيرة الظالمين.

﴿وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَلَكِن ذِكْرَى لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾﴾ فإذا تجنَّب المتّقون مشاركة الظالمين خوضهم في آيات الله، وقاموا بواجبهم في تذكيرهم بما هم عليه من العصيان، فإنه لن يصيبهم شيء من التبعات التي يحاسب الظالمون عليها، وإنما يأتي التذكير ليرجع المنحرفون إلى صوابهم، ويزداد المتَّقون تقوىً إلى تقواهم.

﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللّهِ وَلِيٌّ وَلاَ شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لاَّ يُؤْخَذْ مِنْهَا أُوْلَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ إنّه الرفض الكامل لخطِّ الظلم والإنحراف والخوض في آيات الله، الخطّ الذي لا يعبأ بدينه وتعاليمه الحياتية وتطبيقها، إلاّ ليشبع نزوة أو يلهو به (وما الدين إلاّ طريق التكامل والعلاء لا طريق اللهو واللعب). إلاّ أنّ هذا الرفض التام ينسجم مع محاولة التأثير الإيجابيّ في هذا الخطّ من قبل المؤمنين عبر التذكير بالعواقب الوخيمة، حيث (تبسل) أي ترتهن النفس وتعاقَب بما قدمت من عمل، فهي لا تملك يوم الجزاء والياً محامياً، ولا شفيعاً مدافعاً، ولا تستطيع أن تفتدي موقفها بأيِّ فداء مهما كان، وإنّما هو العذاب الأليم، المتمثّل في شراب من حميم (شديد الحرارة) وعذاب أليم.

﴿قُلْ أَنَدْعُو مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَنفَعُنَا وَلاَ يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللّهُ

كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللّهِ هُوَ الْهُدَىَ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾ المؤمن واع تمام الوعي لمنطلقه وهدفه ومسيرته نحو الهدف، أما الكافرون فهم غارقون في الضّلال والوهم. ومن هنا يقف المؤمن أمام خطّ الضّلال معلناً رفضه لما سوى الله من المطلقات الوهميَّة، التي لا تستطيع جلب نفع أو إلحاق ضرر (فلا تسدُّ خوفاً أو رجاءً)، ومؤكّداً ثباته على خطّ الصعود نحو الكمال المطلق وتجنُّبه الوقوع في الرجعيَّة الحقيقيّة (أي التراجع عن المسيرة الفطريَّة الصاعدة) والارتكاس في الحيرة الكاملة، نظير من تجاذبته الأهواء الأرضيَّة الباطلة فعاد لا يدري أيستجيب لإغراءاتها الزائفة أم يتَّبع نداء الحقّ الذي يطلقه أصحابه وزملاء مسيرته الفطريَّة الصاعدة، وهم يدعونه لمواصلة السير الإنسانيّ المتكامل، لكنَّه يبقى قلقاً حائراً.

إنّ هداية الله هي الهداية الحقيقيّة؛ لأنه ـ تعالى ـ العليم بواقع الإنسان وظروفه وما يصلحه، واللطيف الهادي إلى ذلك، والقادر على تحقيق ما يسعد به. ومن هنا فإن تصوّر هذه الحقائق يدفع الإنسان المؤمن لتسليم أمره وحياته ومسيرته وتشريعاته كلِّها لله، وتقديم الطاعةالكاملة لربِّ العوالم جميعاً، انسجاماً مع مسيرة الكون كلِّه.

﴿وَأَنْ أَقِيمُواْ الصَّلاةَ وَاتَّقُوهُ وَهُوَ الَّذِيَ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾ فطريق السعادة الحقيقيّة يتمّ من خلال إقامة الصلاة، تعبيراً عن الارتباط بالخالق العظيم، وتقوى الله في كلِّ الأُمور، فهو تعالى المحاسب للخلق يوم يحشرون إليه.

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّوَرِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾ وهو تعالى خالق الكون بالحقّ وإليه يرجع الكون بالحقِّ، وقوله يوم القيامة هو الحقّ، حيث تبدو المالكيَّة الحقيقيّة له عياناً يوم الحشر، يوم ينفخ بالصور. وهكذا تستمر الآية في عرضها للعلم والحكمة والخبرة الإلهيّة لتؤكِّد عنصري التسليم والتقوى في النفس الإنسانيّة.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ يمثّل سيّدنا إبراهيم عليه السلام ـ كما يبدو من مواضع متفرّقة من القرآن الكريم ـ الإنسان النموذجيَّ الخالص في فطرته، والنافذ في بصيرته، والمنسجم في سلوكه مع وعيه تمام الانسجام، والمتفاني في

تحقيق ما تمّت له معرفته. ومن هنا فهو يمثّل النموذج الإنسانيّ المسلم عبر التاريخ، ذلك النموذج الذي يستطيع أن يترك تأثيره الحضاريَّ الأتمَّ، ويتفوّق على كل المشاكل التي تعترض المسيرة الإنسانيّة، وها هو هنا يقف في مواجهة أبيه آزر (وهو غير والده الحقيقيّ كما يبدو من التحقيق في الآيات والروايات؛ لأنّه تبرّأ منه بعد أن يئس من هدايته، في حين بقي يدعو لوالديه بالمغفرة إلى نهاية حياته) ويعترض عليه في اتّخاذه أجساماً معدنيّة وغيرها، باعتبارها أصناماً ورموزاً تمثّل ظواهر طبيعيَّة معيَّنة، والقيام بعبادتها وتقديم الطاعة لها بوصفها شريكة لله تعالى في تدبير أُمور الكون. وإنَّ التذكير نفسه بحقيقتها يسوق الذهن إلى أنَّ هذا العمل ضلال مبين.

﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾﴾ وفي سياق حوار إبراهيم الفطريّ مع قومه، يسرح بفكره في الكون من حيث انتسابه إلى الله تعالى (أي في الملكوت) ساعياً بكل موضوعيّة للوصول إلى اليقين بالله العظيم، نافياً لكل المطلقات الوهميّة.

﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٧٧﴾﴾ وإذ يظلّله الليل يرى كوكباً درّياً لامعاً، فيفترضه تقليداً وتبعاً لعبدة الكواكب، أنّه ربّ ثمّ يكرّ عليه بالرفض؛ لأنه أفل وغرب وطرأت عليه حالة الاحتجاب، مما أفقده أهلية تعلق القلوب به وحبه، ذلك أنّه لا يملك الكمال المطلق الذي تسعى إليه الفطرة، وكرر الأمر مع القمر ـ وله من يعبده ـ وعندما يأفل بدوره يتوجه إلى الربّ الحقيقي، طالباً منه الهداية؛ لأن الهداية فيض إلهيّ يتوجه للمحل المستعد له، وإلاّ كان العبد من الضالّين التائهين.

﴿فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾﴾ وبعد التدرّج يأتي دور الشمس، ويتوقع المشاهد لهذا الاستعراض النتيجة نفسها، بالرغم من كبر الشمس، ولكنّها تأفل، ويتكرّر الموقف الرافض، ويبدأ طريق العودة الحقيقيّة إلى الكمال المطلق وحده بعد نفي كل عناصر الشِرك الوهميّة.

﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾ وتتوجّه النفس بكلِّ نقائها إلى فاطر السماوات والأرض ومبدعها، وتؤمن به إيماناً (حنيفاً) خالصاً من كلّ لوثة مشركة.

﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلاَ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَن يَشَاء رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلاَ تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾﴾ وهنا تثور في نفس قومه ما استقر فيها من خرافات، ليهددوه بغضب الآلهة الذي سينصب عليه انتقاماً، فيردّ عليهم ـ بعد تلك المسيرة الفطريّة التي سلكها إلى الله ـ بأنّه يعجب من محاجّتهم ومجادلتهم في الله، وقد أشرقت أنوار الهداية الإلهيّة في قلبه، فعاد يبصره بكلِّ بصيرته ويطمئنّ إلى قدرته وجبروته، وبالتالي فهو لا يخشى كل تلك الأوهام، ذلك أنّه لن يحدث شيء في الكون إلاّ بإرادة الله الكامل المطلق، وبعلمه الواسع لكلِّ شيء، وهو أمر يقود إليه الرجوع إلى النفس، والتأمّل والتذكّر لما تقتضيه.

﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلاَ تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾﴾ إنّه ليعجب من تخويفهم له، وتذكيرهم بنقمة الآلهة وهي أوهام، في حين لا يخافون نقمة الله الجبّار العظيم (وكانوا يؤمنون به ويشركون به)؛ لأنّهم أشركوا به وجودات لم ينزل من الله برهان على وجودها.

﴿الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ بعد أن ردَّ إبراهيم على قومه الذين حذّروه من سخط الآلهة الوهميَّة، بأنَّ الأمر على العكس من ذلك، فإن الوجود الحقيقيّ الذي يجب أن يخافه المشركون هو الله تعالى، أمّا المؤمنون فهم في ظلّه آمنون، بعد ذلك تأتي هذه الآية الكريمة لتبيّن أن المؤمن ـ حقّاً ـ بالله ربّاً لهذا الكون، والذي لا يخلط (يلبس) إيمانه بانحراف عقائدي ـ وهو من أنماط الظلم ـ هو الإنسان الآمن حقّاً، والسائر بكلّ أمان في طريق الهداية الفطريَّة.

﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاء إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾﴾ لقد امتلك إبراهيم عليه السلام بصفائه الفطريّ الحجَّة البالغة على من جادلهم وحاورهم، وما كان يستطيع ذلك إلاّ بلطف ومدد إلهيّ له، والله تعالى يمنح من يشاء الدرجات والمستويات النفسيَّة المختلفة، وعلى أساس من حكمته وعلمه.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلاًّ فضَّلْنَا عَلَى

الْعَالَمِينَ ﴿٨٦﴾ في هذا المقطع الشريف ينطلق القرآن من اللطف الإلهيّ على إبراهيم، إذ وهبه ولده إسحاق ثمّ حفيده يعقوب، ليصل إلى حقيقة مهمّة من حقائق التصوُّر الإسلاميّ وهي: (وحدة الهداية الإلهيّة) (ووحدة التشريع الإسلاميّ) ذلك لأن الهداية من منبع واحد، ولمخلوق متَّحد في نوعه وفطرته، فلا غرو أن تكون واحدة في روحها، تشمل كلَّ الأنبياء، وهم يحظون بهذا الشرف، نتيجة قابليّتهم للوحي ورقيّهم المعنويّ وصلاحهم (وكذلك نجزي المحسنين) الأمر الذي يفضّلهم على العالمين بدرجة الوحي والنبوّة، ثمّ هم يصبحون بعد ذلك نماذج عليا، تقود البشريّة بالهداية نفسها إلى حيث الكمال المطلوب.

﴿وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَلِكَ هُدَى اللّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُواْ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾ وهكذا يمتدُّ ضوء الهدى الإلهيّ ليشمل كلَّ نفس تستحقّه وتتقبَّله، ويهديها إلى صراط مستقيم واحد، أمام جميع المسيرة البشريّة الصاعدة والعابدة له تعالى، ولن تعترض مسيرتها مشكلة أقوى من الشرك والتصعيد النفسيّ للأوهام، بجعلها آلهة مطلقة، الأمر الذي يوجّه ضربة لتلك المسيرة الحضاريَّة، وبالتالي يؤدّي الشرك إلى ضياع الأعمال (حبطها) وانهيار المكتسبات.

﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلاء فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُواْ بِهَا بِكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾ لقد امتاز خطّ الأنبياء بالهدى العظيم؛ إذ مُنحوا الكتب السماويَّة المقدَّسة التي تحوي الشرائع والنظم التي هي سر سعادة البشريّة، وأُعطوا الحكم بما يفتح لهم سبيل القضاء العادل بين الناس، وبالتالي فقد اتّصفوا بصفة النبوة، وتعني الإنباء عن عالم الغيب، فهم حلقة الوصل بين عالمَي الغيب والشهادة.

بعد أن استعرض القرآن خطّ الأنبياء بما فيه من فطريَّة وايمان وأمن وإحسان وصلاح وتفضيل بالكتاب والحكم والنبوة، عاد ليعنّف كفّار مكّة والمشركين، بأنهم إذا اختاروا طريق الضّلال فهم الخاسرون؛ لأن الفلاح كلّه في خطّ الأنبياء والمعصومين والصالحين عبر التاريخ.

﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ ﴿٩٠﴾﴾ في خطّ الأنبياء والصالحين يتجلّى الهدى الإلهيّ الواحد دائماً، ولذلك فالاقتداء الحقيقيّ إنّما يتمّ بذلك الهدى لا غير.

وهذا التعبير هو منطق الأنبياء والمصلحين الإلهيّين جميعاً، فهم لا يعملون ولا يدعون النّاس إلى الله لقاء أجر دنيويّ، وإنما يوصلون الهدى للعالمين، ليسيروا إلى هدفهم المنشود.

﴿وَمَا قَدَرُواْ اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُواْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاء بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُواْ أَنتُمْ وَلاَ آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾﴾ بعد الردّ على مشركي مكّة وتعنيفهم لعدم اتّباعهم طريق الأنبياء، يتَّجه القرآن إلى أهل الكتاب وهم الطائفة الأُخرى التي وقفت بوجه الدعوة الإسلاميّة، فيصفهم بأنّهم أُناس لم يعطوا المقام الإلهيّ حقَّه من الربوبيّة وهداية النّاس جميعاً نحو أهدافهم العليا. فقد ادعوا ـ عناداً ـ أنّه تعالى لم ينزل على بشر شيئاً من الوحي! هذا، وهم يدَّعون الانتساب إلى الكتاب والأنبياء الذين جاءوا به.

ولذا، فإن القرآن يردُّ عليهم بالتساؤل عمّن أنزل الكتاب على موسى بما فيه من نور وهدىً للناس، وبما يحمله من تشريعات إلهيّة هي أكبر من عقول البشر وتصوُّراتهم؛ لأنها تعلو على كلّ النوازع الإنسانيّة، إلاّ أنّ اليهود راحوا ينهلون من تلك العلوم، ثمّ هم يخفون كثيراً منها لعنادهم، ويُظهرون الأمر تبعاً لما تقتضيه مصالحهم الضيّقة.

انّ الجواب الطبيعيّ عن هذا التساؤل القرآنيّ هو أن الله تعالى هو منبع الهدى ومنزل الكتاب على البشر، فإذا شاء هؤلاء أن يخوضوا في الضّلال فهم وشأنهم.

﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلاَتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾﴾ وعلى غرار الكتاب الإلهيّ المنزل على موسى جاء هذا الكتاب الكريم (القرآن) وهو يحمل كلَّ علائم صدقه. فهو مبارك يحوي البركات والنعم الإلهيّة التي ترسم للبشريّة سبل علائها، وهو مصدِّق ومنسجم مع الهداية التي حملتها الكتب السماويّة الأُخرى، فهو إذن مصداق آخر من مصاديق الهداية الإلهيّة يحمل معه كلَّ معاني البركة.

والمراد بأُم القرى: مكّة، فهي مركز الإنذار الإلهيّ، ومنها ينطلق النور إلى ما حولها من أرجاء العالم.

ومن الطبيعيّ أن ينتهي كلُّ مؤمن بالمسيرة الإنسانيّة الهادفة والسائرة إلى يوم الآخرة، إلى

الإيمان بالقرآن الكريم، نتيجة ما يحمله من خصائص الهدى، ومن ثمّ ينطلق للتسليم المطلق لله، وإقامة الصلاة، والتمتّع بعطائها الدائم ومخزونها الروحيّ الذي لا ينضب، عبر المحافظة عليها.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوْحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنَزلَ اللّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلآئِكَةُ بَاسِطُواْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُواْ أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾﴾ والقرآن بهذا يرجعهم إلى أنفسهم ليتصوّروا أن أعظم الظلم هو الكذب على الله، ونسبة الشريك إليه أو ادّعاء الوحي كذباً أو ادّعاء القدرة على مجاراة الله في كتابه، وكلُّها من أعظم أنماط الظلم. فإذا رجعوا إلى الحقيقة اذعنوا بالتوحيد الإلهيّ في الربوبيّة، وانقادت نفوسهم لتصديق الرسول الصادق الأمين، وامتنعوا عن الادّعاءات الباطلة بمعارضة القرآن بما يظنّون أنّه يضاهيه.

وهنا مشهد رهيب يصارع فيه الظالمون غمرات الموت (أمواجه الغامرة) والملائكة تبسط أيديها منذرة بالعذاب، طالبةمنهم أن ينقذوا أنفسهم لو كانوا يستطيعون، مهدِّدة ايّاهم بعذاب الهون (الخزي) نتيجة تقوّلهم على الله واستكبارهم عن آياته.

﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاء ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاء لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾﴾ فها هم يعودون إلى ربّهم لوحدهم ودونما قوّة وشوكة، تاركين كلّ ما خوَّلهم وفوّضهم من نعم وقوى وراء ظهورهم، لا شفيع لهم فيركنون إليه ليأمنوا من العذاب، ولا أكاذيب تنفعهم، كلا، فالعلائق متقطّعة، والمزاعم باطلة لا قيمة لها، وهناك الهول العظيم، وبهذا الترهيب تعود النفس إلى واقعها، وترجع إلى وعيها، وربّما كان في هذه العودة النهوض من نومة الغفلة.

﴿إِنَّ اللّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾﴾ وعندما ترجع النفس إلى وعيها تتوجّه إلى مظاهر الخلقة وتكتشف من جديد جوانب العظمة في هذا الكون الرائع، ويتجلّى أول ما يتجلّى لديها هذا الإعجاز الطبيعيّ، حيث ينفلق الحبُّ والنوى (جمع نواة) وهي موادّ جامدة لا تبدو فيها حياة. فتنبثق منها الحياة،

هذا السرّ الإلهيّ الخالد، وتسير الحياة في تقلُّبها، فتتحوَّل مرة أخرى إلى موت ظاهري، لتمهّد لحياة أُخرى هي حلقة في سلسلة السير الطبيعي نحو الكمال. كل هذه العظمة تشير إلى فالق الحبِّ والنوى، الخالق العظيم، فلا يبقى أي مجال للإفك والانصراف عن الحق.

﴿فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾﴾ مظهر آخر من مظاهر العظمة الإلهيّة يتجلّى في هذا التحوّل الطبيعيّ، من ظلام الليل إلى نور الصباح الذي يفلق ويشقّ الظلام، لتتحرك الإنسانيّة في مسيرة الإعمار، ثمّ يأتي الليل بكل سكونه وهدوئه، لتسكن النفوس وعند الصباح تكون مستعدّة للعمل والبناء بشتّى أنواعه، كل ذلك نتيجة حركة كونيّة عظيمة الأبعاد، متناسقة، تشمل حركة الأرض، وموقع الشمس، وحركة القمر، ومواقع النجوم الثابتة التي يهتدي بها السائرون، براً وبحراً. وكل ذلك منسجم أيضاً مع ظاهرة الحياة الإنسانيّة، الأمر الذي يؤدّي بالمتأمّل إلى تصوّر الهدف الكبير، لخلقة الله العزيز القويّ العليم بالواقع، فلا مجال مطلقاً لفرض ما يسمى بالمصادفة العمياء.

﴿وَهُوَ الَّذِيَ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾﴾ مظهر رائع آخر من مظاهر العظمة الإلهيّة يتجلّى في الخلقة الإنسانيّة الواحدة، إذ تبدأ من منشأ واحد، ونفس واحدة، ثمّ تسري في مسارها الحضاريّ، فجيل مستقرّ في الحياة يقوم بواجبه الإعماريّ، وجيل مستودع في الأصلاب ينتظر دوره. وهكذا ترقب العناية الإلهيّة هذا المخلوق الإنسانيّ المعدَّ لهدف عظيم. إن المتأمل في هذا المظهر والتفقّه في معانيه ليجلّي أمام المتأمل آيات رائعة من العظمة كلَّ حين، وتنبثق منها مفاهيم إسلاميّة أُخرى، كمفاهيم الوحدة على صعيد الإنسانيّة، حيث ينتفي كلُّ تمايز عنصريّ، وتعال طبقيّ، ويتوجَّه الجميع لله، لتحقيق الأهداف العليا.

﴿وَهُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُواْ إِلِى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾﴾

وهنا يتمّ نقل التأمُّل الإنسانيّ إلى نعمة الماء، منبع الحياة وحامل الرحمة إلى الوجود، إذ ينزله الله من السماء فيروي به الأرض ويحييها، فيخرج منها نبات كلِّ شيء، وغذاء الموجودات يسري فيه اخضرار الحياة، ويخرج منه الحبُّ المتراكب (كالسنابل)، والنخل المعطاء حيث طلعها، وهو أول ما يظهر من الزهر المؤدّي للثمر، وحيث قنوانها (أي أعذاقها المحمّلة بالثمر) الدانية المتدلّية، والجنّات الأخرى من الأعناب والزيتون والرمّان المشتبه منه (وهو المتساوي في الصفات، حتّى ليشتبه الرائي فيه) وغير المتشابه بما يميّز أنواعه من صفات.

هذا هو عطاء الله تعالى فلينظر الإنسان إلى رحمته، حين تتجلّى في الثمر، وحين تتجلّى في نضجه وتهيئته للأكل، وبالتالي لضمان استمرار الحياة الإنسانيّة... وهكذا يسير القرآن بالنفوس إلى الإيمان من خلال هذه الآيات الرائعة.

﴿وَجَعَلُواْ لِلّهِ شُرَكَاء الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُواْ لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ وعندما يشرق الإيمان عبّر السير القرآنيّ السابق، يذكّر القرآن بفرية المشركين الذين جعلوا لله من خلقه شركاء، وهم الجن، والله تعالى هو خالق الجميع. إلاّ أنّ المشركين المخلوقين يعودون فيخرقون (ويختلقون) له أبناء وشركاء، كلُّ ذلك دونها علم ولا دليل، سوى الظنّ والهوى والاختلاق. فسبحان الله تنزيهاً عن الشريك وعلوّاً عن هذه الصفات.

﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾﴾ إنّه تعالى خالق الكون ومبدعه، فلا حاجة له إلى ولد، ومحال أن يتصوَّر في حقِّه ذلك، وهو الوجود المطلق، فلا معنى لتصوُّر امتلاكه الصاحبة (الزوجة) والولد وما إلى ذلك، فكلُّها من تصوُّرات المخلوقين، والله تعالى خالق كلّ شيء وهو العليم بكلِّ شيء. وهكذا نجد القرآن العظيم يسير بالنفس إلى الإيمان الفطريّ الأصيل، ثمّ ينفي عن التصوّرات كلَّ انحرافات المشركين.

﴿ذَلِكُمُ اللّهُ رَبُّكُمْ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾﴾ بعد نفي الأوهام وتقرير الوحدانيّة والربوبيّة والخالقيّة الإلهيّة لما سواه، يعود من الطبيعيّ الطلب من الخلق أن يعبدوه، ويصوغوا حياتهم وفق هداه، ويطبّقوا شرائعه، خصوصاً وأنه تعالى أراد ذلك من الخلق وهو الوكيل عليهم، يمدُّهم بالوجود ويراقب أعمالهم.

﴿لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾ نفي لتوهُّم إمكان رؤية الله ـ تعالى عمّا يصفون ـ فإن القول بإمكانها يستلزم بلا ريب الجسميّة والاحتياج للمكان، وبالتالي يستلزم نفي الألوهيَّة المطلقة، وهي الحقيقة التي لن تستريح النفوس إلاّ بالوصول إليها، وتنزيهها عن كلِّ حاجة أو قيد بمقتضى العقل، إنّه تعالى فوق الإدراك البشري، وهو العليم بكلِّ مدى يدركه البصر، وبكلِّ خفاياه ونواياه، إنّه اللطيف من جهة فلا يصل إليه أيُّ بصر، وهو الخبير من جهة أُخرى فلا يعزب عن علمه مثقال ذرّة.

﴿قَدْ جَاءكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَاْ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾﴾ إنّها الهداية التشريعيَّة الإلهيّة التي تضيف إلى بصيرة الإنسان التكوينيّة بصائر ومنافذ جديدة ضخمة، يعرف من خلالها مسيرة السعادة والحقّ، دون أن يجبر على اختيار هذه الطريق؛ لأنَّ التكامل الإنسانيّ رهين الاختيار الحر لطريق السعادة، فإذا أبصر الحقّ واتَّبعه عاد ذلك على وجوده بالخير، ومن عمي عنه عناداً عاد بالوبال عليه، فلا إجبار وإنّما هي الحقيقة التي يجب أن تُتَّبع.

﴿وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ حقيقةٌ يعرضها القرآن بكلِّ وضوح أمام العقول، فيكشف أمامها سبل سعادتها، ولا يضير الحقيقة شيئاً، أن يطلق المكذّبون شعار تدارس النبيّ ﷺ لهذه الآيات مع غيره من علماء الأديان واكتسابها منهم، فإن ذلك لن يسدَّ باب الهدى والتبيين أمام أُولئك الذين يطلبون الحقيقة ويعلمون سبل صلاحهم.

﴿اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ إنّ الوحي الإلهيّ السبيل الوحيد للسعادة ومعرفة الحقيقة، فيجب اتّباعه وتطبيق تعاليمه على كلِّ الحياة، أما المشركون المكذّبون المطلقون للشعارات الفارغة فلا قيمة لهم، ولا يشكّلون عقبة بوجه عملية التطبيق.

﴿وَلَوْ شَاء اللّهُ مَا أَشْرَكُواْ وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾﴾ وإنّ باستطاعة القدرة الإلهيّة أن تجبرهم على الإيمان، إلاّ أنّ مشيئته تعالى تعلَّقت بكونهم أحراراً في العقيدة، فإذا لم يختاروا سبيل الهدى فلا داعي لأن يتحسَّر الرسول عليهم، فليس موكّلاً بإيمانهم.

﴿وَلاَ تَسُبُّواْ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ فَيَسُبُّواْ اللّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾﴾ تأديب إلهيّ رائع وتربية

للمؤمنين، للتحرُّز من سبّ مقدسات المشركين وما يعبدون من آلهة، لئلاّ يتجرأ هؤلاء بتوجيه السبّ للباري جلّ وعلا، اعتداءً وجهلاً، وهذا هتك عظيم يجب التحرُّز من أن يؤول إليه هؤلاء المنحرفون بجهلهم وعدوانهم، فتزيِّن لهم نفوسهم حسن ما يفعلون، بالرغم مما فيه من قبح عظيم سيعرفونه يوم يرجعون إلى ربّهم، وتنكشف لهم الحقيقة، ويُخبرون بما كانوا يفعلون. وهذا تعليم قرآني يدفع لعدم إهانة مقدسات الآخرين لأنها تؤدي لنتائج فادحة.

﴿وَأَقْسَمُواْ بِاللّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءتْ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾﴾ من علامات النفاق أن يدرك هؤلاء عظمة القسم بالله، بل ويغلّظون الايمان بكلِّ طاقتهم، معلنين كذباً أنّهم إذا واجهوا آية مقنعة آمنوا بها، ولكنَّ القرآن يكشف نواياهم، معلناً أنَّ الآيات والعلامات كلّها حاضرة لدى الله، معلولة له، مشيرة إليه والى آلائه، ولكن ما يدريكم أيّها المؤمنون أنَّ الآيات ـ مهما كانت واضحة ـ لن تؤدّي إلى إيمانهم وإذعانهم.

﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾ وما يدريكم أنّهم بعد أن يواجهوا الآيات الواضحة المقنعة، يبدأون بالتذرُّع والتقلُّب والتحايل بالقلوب والأبصار، ليتخذوا الموقف نفسه قبل مجيء الآية، وحينئذ يرتكسون في الضلالة ويعمهون (يتردّون) في الطغيان.

﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلآئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ إِلاَّ أَن يَشَاء اللّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾﴾ إنَّ العناد قد استحكم في هؤلاء الكافرين المكذّبين، فلا تنفع الاستجابة لطلباتهم، فحتى لو نزلت عليهم الملائكة، وكلّمهم الموتى، وواجهوا كلَّ أصناف المخلوقات، وأدركوا من خلال ذلك عظمة الخلق الإلهيّ، وشهادة الكون على خالقه الواحد، فإنهم لن يؤمنوا إلاّ أن تدركهم الهداية الإلهيّة، ولكن أكثريَّتهم غارقة في الجهل والعناد.

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نِبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاء رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾﴾ وهكذا يقف العتاة والشياطين والمتمرّدون دائماً في وجه خطّ الهداية، ويعملون على إحباط تأثيرها، من خلال

طرح الشائعات، والقيام بحملة نفسيّة وايحائيَّة وتمويهيَّة، ومحاولة طرح الشعارات البرّاقة لإغراء العامّة والجهلة وذوي الأهواء، وإثارة الغرائز، كلُّ ذلك لوضع العثرات أمام خطّ الأنبياء. وإذا تأمّل المؤمن هذه الحقيقة، لم يعد يخشى هذه الأساليب في الوقت نفسه الذي يكتشفها فيه ويعمل على إحباطها. وهكذا فُسح المجال لهذا الصراع لينمو الحقّ ويتكامل، وإلاّ فالمشيئة الإلهيّة تستطيع أن توقف المتمرّدين عند حدِّهم.

﴿وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُواْ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾ إلاّ أنّ كلَّ تلك الإيحاءات لن تترك أثرها، إلاّ في قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة، ولا يشعرون بالمسؤوليّة، فهم يتّبعون كل شائعة أو إيحاء، ويعملون بمضمونها دون تحقيق، ولكن لا يضير خطّ الحقّ والأنبياء أن يقترف هؤلاء ما يقترفون.

﴿أَفَغَيْرَ اللّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنَزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾﴾ إنّ الله تعالى هو الحَكَم بين عباده؛ لأنه العليم اللطيف، الصادق الرحيم بالبشريّة، ولذا أنزل الشريعة لها، مفصّلاً أُسلوب مسيرتها، فلا نقص في هذه الحكميَّة الإلهيّة مطلقاً، ولا مسوّغ أبداً للرجوع إلى غيره. وهذه حقيقة يعلمها أهل الكتاب بكلّ وضوح، بما يلاحظونه فيه من جوانب للعظمة، ومجالات للحقِّ والإنصاف، وتقرير كلمة الفصل، فلا مجال لأي تكذيب أو شكّ أو مراء.

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً لاَّ مُبَدِّلِ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾﴾ إنّها كلمة الله الصادقة والعادلة، وشريعته القائمة على أساس من المعرفة الصادقة للواقع الكونيّ والتاريخيّ والإنسانيّ، والعدالة في إشباع حاجات الإنسان للنظام الأصلح. ومن هنا فهي حقيقة واقعة لا معنى للتبديل والتحوُّل فيها. وربَّما كانت تشير إلى خاتميَّة الرسالة، وأنها عرضت بشكل كامل السبيل الوحيد للسعادة الإنسانيّة، فلتعمل البشريّة على تطبيقها والتزامها دائماً، دونما انحراف إلى خطّ شياطين الجنّ والإنس ولتستشعر دائماً سمع الله وعلمه بهذه المسيرة فتثبت على الخطّ.

﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾﴾ سبيل الله هو سبيل الهدى والحقّ، وما عداه ضياع وتمويه واتّباع للظنون،

وفرض وتخمين باطل. إنها الحقيقة التي يجب أن تستقرَّ في خلد المؤمنين العاقلين.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾﴾ والعلم الإلهيّ الشامل هو المهيمن على المسيرة، وهي حقيقة تمنح مسيرة الحقّ قوّة وثباتاً، كما تبثُّ الرعب في مسيرة الضالّين المكذّبين.

﴿فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾﴾ تقرِّر الآية لزوم ذكر اسم الله على الذبيحة حتّى تحلَّ، وهو حكم من جملة أحكام كلها تؤكّد الشخصيَّة المستقلَّة لهذه الأمّة، وكلُّها تقرِّر ربط سلوكها بعقيدة التوحيد، وتبعدها عن خرافات المشركين، وتذكّرها بالنعم الإلهيّة الوفيرة، لتقوم بشكرها وأداء مقتضيات الشكر.

﴿وَمَا لَكُمْ أَلاَّ تَأْكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلاَّ مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾﴾ ربَّما كانت الآية تردُّ على أولئك الذين يتحرَّجون من أكل الحيوان، معلنة أنّه مادام قد أحلَّ بالتسمية ومادامت أحكامه مبيَّنة، فلا مانع من أكله. أمّا تبعيَّة الأهواء والخرافات فما هي إلاّ اعتداء على الحقيقة والفطرة، والله أعلم بالمعتدين.

﴿وَذَرُواْ ظَاهِرَ الإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُواْ يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾﴾ إنّ المجتمع المؤمن يبتعد عن الإثم في الظاهر والباطن، فكلُّ انحراف عن خطّ التوحيد والشريعة هو إثم، سواء أكان في العقيدة، أم العمل في الظاهر، أم الباطن، وهو بالتالي يقود أهله إلى العقاب الدنيويّ والأُخروي.

﴿وَلاَ تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾﴾ تأكيد للحكم السابق بلزوم التسمية على الذبيحة، فإن عدم التزامه فسق وانحراف عن خطّ الشريعة والمسيرة الطبيعيَّة. هذا هو الحكم ولا داعي للمجادلة مع أولياء الشيطان الذين يعملون على افتعال نزاع فرعي في مسألة واضحة أمر بها الله، فيجب عدم الانجراف إلى هذا المأزق، وإلاّ وقع المؤمنون في هوّة الشِرك عبر طاعتهم، لتآمر أولياء الشيطان.

﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ

لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ إنَّ العقيدة هي الحدُّ الفاصل بين الحياة والموت، فمنها تبدأ حياة المعنى وصيرورة المادة سبيلاً للتكامل، وبدونها يتحوَّل الوجود إلى موت لا حركة فيه ولا نموّ ولا عطاء. إنّها تربط الوجود الإنسانيّ بالكون والحقيقة الكبرى، وتشدَّه إلى أُصوله الأصيلة، وحينئذ يتحرَّك بهداه، وبنوره الذي يمشي به مشياً حضاريّاً بين النّاس ينشر الهدى، ويسدُّ النقص، ويبثُ المعرفة، ويوجد الانسجام بين القوى، ويجمعها، ويؤمُّها إلى الخير. فهل يقاس مثل هذا الوجود الخيّر بذلك الوجود الميّت اللاّعقائديّ، الغارق في الظلام المتراكم، بحيث لا سبيل إلى النجاة، وهو يتصوُّر أنّه يحيا حياة سعيدة، وما ذلك إلاّ من تزيين الشياطين؛ إلاّ أنّ الآية ترسم خطّي النور والظلام أمام الإنسان، ومع ذلك يتخبّط المتخبّطون.

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجَرِمِيهَا لِيَمْكُرُواْ فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلاَّ بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ إنَّ المجرمين المتحكِّمين في الأمورهم سرُّ البلاء، نتيجة نشرهم لسنّة الإجرام، وكبتهم لصوت الحقيقة، وتمكُّن هوى الزعامة من نفوسهم، فهم يمكرون دائماً، معبّرين عن الضياع بشعارات الهدى. وهم يعملون على تفكُّك عرى الجماعة، وهم بالتالي يقضون على وجودهم دون أن يشعروا بذلك.

﴿وَإِذَا جَاءتْهُمْ آيَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللّهِ اللّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ اللّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُواْ يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾ من مقتضيات العناد أن يندفع هؤلاء المجرمون الكبار لطلب الأمور السخيفة، ومنها أن يوحى إليهم مثلاً، وهو أمر باطل، فالوحي لن ينزل إلاّ على القلوب المستعدّة، والله أعلم حيث يجعل رسالته العظيمة، فهؤلاء إذن لا يدركون حقيقة أن طلبهم هذا محال، وإذا كانوا يمنحون أنفسهم هذا العلوّ الكاذب، فإن القرآن الكريم يهدِّدهم بالصِّغار عند الله والعذاب الشديد، نتيجة هذا المكر والخداع والعناد والتكبُّر.

والتهديد القرآنيّ هذا، له دوره في كسر شوكة هؤلاء الأكابر، وتمزيق ما يحيطون به أنفسهم، من هيبة كاذبة، وفسح المجال للجماهير للتفكير الحرّ بالحقيقة واتّباعها.

وبهذا ندرك متابعة القرآن الدائبة لحركة الأمّة الإسلاميّة النامية، ورفعه المستمرّ للعقبات

من أمامها، ودفعها باستمرار على خطّ الهدى نحو الإيمان والتكامل.

﴿فَمَن يُرِدِ اللّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاء كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ إذا أراد الله للعبد الهدى فتح قلبه لنور الإيمان بالإسلام؛ لأنَّ الإسلام هو الحقيقة المضيئة والهادية إلى الكمال، أما إذا أراد الله بعبد الخزي والضلال أغلق كلَّ منافذ النور في وجوده وضاقت عليه نفسه تماماً، كمن يضيق عن النَفَس عندما يرتفع إلى أعالي الجو (وهي حقيقة علمية تنتج من عدم التناسب بين الضغط الجوي وضغط الدم) وبهذا يتمّ تناسق بين الحالة المعنويّة والمثل المادّي.

ويلاحظ هنا أنّ الإرادة الإلهيّة لا تتمّ اعتباطاً، وإنما تقوم على قاعدة ﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حتّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ فالرجس والعذاب ينتظر الذين لا يؤمنون. وعدم الإيمان يتمّ نتيجة انسداد منافذ النور، وانسدادها يتمّ بإرادة إلهيّة تأتي نتيجة انحراف الإنسان نفسه عن الحقيقة.

﴿وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾﴾ وبعد أن يرسم القرآن ملامح المسيرة الإنسانيّة التي يريدها الله عبر الآيات السابقة، يعلن أنّ هذا هو الصراط الربوبيّ المستقيم الذي يراد ترشيد الإنسان فيه، ليصل إلى النهاية السليمة، من خلال الآيات المفصّلة الواضحة، والمعالم اللائحة، شريطة أن يتمتّع بعنصر التذكُّر والاعتبار.

﴿لَهُمْ دَارُ السَّلاَمِ عِندَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ وطبيعي أن ينتهي الصراط المستقيم إلى دار السلام والأمان في كنف الله وولايته الشاملة، جزاءً لهم على ما عملوه من الصالحات.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الإِنسِ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ الإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلاَّ مَا شَاء اللّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ يوم يقف فيه جميع المخلوقين أمام ربّهم، فيخاطب الجنّ (وربّما أُريد منه الشياطين) بأنهم عملوا على تكثير أتباعهم من الإنس، وتوجيههم نحو الهاوية والضلال، ولذا فهم أهل للعذاب؛ وهنا يردُّ أبناء الإنس بأنهم وقعوا في حبائل الجنّ، وما أعدُّوه من المتع الزائفة في هذه الحياة الدنيا، وقضوا بهذه التوافه المدّة الثمينة التي كُتبت

لهم. وحينئذ يأتي النداء الإلهيّ، معلناً أنَّ النار هي المأوى يخلَّدون في عذابها ما شاءت الإرادة الإلهيّة وكلُّ أفعاله تعالى ومشيئته تقوم على أساس من الحكمة (ووضع الشيء في محلّه) والعلم بكلِّ الحقائق والروابط والنتائج، مما ينفي أيَّ شبهة للعبثيَّة في الساحة الإلهيّة المقدَّسة.

﴿وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ إن الظالمين، نتيجة اتّباعهم لمصالحهم الشخصيّة، وانفصالهم عن مركز القدرة والولاء الحقيقيّ، يحاولون التجمّع في قبال الحقّ، والتساند ضدَّه، وبالتالي ينسحبون جميعاً إلى النتيجة الواحدة والعقاب الأثيم نتيجة ما اختاروه من حياة منحطَّة. وهذه حقيقة دائمة؛ أن يجتمع الكفر ويتساند ضدّ القوّة والصحوة الإسلاميّة، ولكنه يفشل أمامها في النهاية.

﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاء يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُواْ شَهِدْنَا عَلَى أَنفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُواْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَافِرِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ إستمرار في عرض مشهد الحساب الأخرويّ، حيث تقف الخلائق أمام ربّها فيسألها عن إيمانها بالرسل الذين أخبروها بآيات الله، وأنذروها وخوّفوها من عقاب الآخرة، فتجيب مقرّة أمامه تعالى بالانحراف نتيجة اغترارها بالحياة الدنيا، شاهدة على نفسها بالكفر.

﴿ذَلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ ﴿١٣١﴾﴾ وهكذا يقرّر القرآن حقيقة الاختيار الانسانيّ، وكون العقاب على أساس من الظلم المتعمَّد الذي يرتكبه الإنسان، لا الغفلة وعدم الشعور.

﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ لكلّ من الخلائق من الإنس أو الجنّ درجاتهم المناسبة لأعمالهم، بعد أن كانت عين الله ترقب ما يعملون.

وعليه، فالعمل هو الذي يحدِّد المستوى عند الله، وهي حقيقة تدفع المسلم للاستزادة، خصوصاً بعد أن يشعر بأن عين الله هي التي ترقبه دائماً.

﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِن بَعْدِكُم مَّا يَشَاء كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ إنَّ الدرجات المعطاة للعاملين تقوم على أساس من العدالة الإلهيّة، وهذا المقطع القرآنيّ يؤكّد حقيقة هذه العدالة بنفي دواعي الظلم من الساحة الإلهيّة، وأهمُّها الحاجة للظلم، والصفات السيّئة المتأصّلة، في حين أن العقل يحكم بأن الله

هو الغنيُّ المطلق، وهو الرحيم بعباده، والقادر على إجراء العدالة والشمول بالرحمة، ولذا فهو يمدُّ هؤلاء بالحياة وهو قادر على إفنائهم وإحلال آخرين محلَّهم، تماماً كما تجلّت قدرته في إنشائهم من ذرّية قوم آخرين.

ولكلّ هذه الحقائق أثرها في وعي المسلم، إذ تدفعه نحو العمل، وتطمئنه إلى الدرجات التي سيحصل عليها، وتركّز في خلده معاني العدالة والرحمة والقدرة الإلهيّة، وكلُّها معان لها قيمتها العمليّة المؤثّرة تماماً في صياغة مسيرته وتشعره بضرورة النظر في سنن الله في التاريخ، وحركة الأُمم، وتبدُّل الأدوار.

﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لآتٍ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾﴾

واستمراراً لتقرير المفاهيم الحياتيّة المؤثّرة، تقرِّر الآية بكلِّ تأكيد حقيقة يوم الوعد، يوم القيامة، فلن تستطيع قدرة بشريَّة أن توقف مشيئة الله المتعلِّقة بمجيء هذا اليوم، بكلِّ ما فيه من تبعات، الأمر الذي يدفع بالإنسان ليحسب حسابه تماماً.

﴿قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُواْ عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾ توجيه قرآنيّ للرسول الكريم ليعلن لقومه اطمئنانه بمسيرته وعاقبتها الخيِّرة، سواء في انتشار أضوائها في شتى أنحاء العالم وقيادة الإنسانيّة نحو النور أو في الآخرة، حيث الثواب والفلاح، في حين ينتظر المشركين المخاطبين المصير الأسود. كل هذه المعاني طُرحت بشكل إجماليّ، يقول: فليعمل كلٌّ على حالته ومكانته، وسيرى الطرفان النتيجة، ولكنَّ الفلاح هو للمؤمنين، والعاقبة للمتّقين.

﴿وَجَعَلُواْ لِلّهِ مِمِّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُواْ هَذَا لِلّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَآئِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلاَ يَصِلُ إِلَى اللّهِ وَمَا كَانَ لِلّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَآئِهِمْ سَاء مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾ يعود القرآن إلى خرافات المشركين، فيعمل على تطهير النفوس، ومنها، خرافة تخصيص جانب من الزرع والأنعام لله، وآخر لشركائه المزعومين من الأوثان والأصنام. ويمعنون في السخف فيأخذون مما خصَّصوه لله ويعطونه لسدنة الأوثان، في حين لا يؤخذ من حصَّة الأوثان ليعطى لسبيل الله، وهو سخف مضاعف. ويلاحظ هنا دور سدنة الأوثان في سحب أموال المشركين إليهم عبر هذا الابتزاز السيِّئ، وهي حالة نلحظها دائماً من قبل المنتفعين بسدانة بعض الأماكن.

﴿وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلاَدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاء اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾﴾ ويمعن المتنفعون بسدانة الأصنام في الإضلال حين يزيّنون للمشركين قتل أولادهم تقرُّباً للآلهة، مستهدفين الردى لهم وهلاكهم، عاملين على إفنائهم جسديّاً وعقائديّاً بتلبيس الدين عليهم وتزييفه بهذه السخافات الباطلة.

وهذا تأكيد لقدرة الله على إيقاف انحرافهم، ولكن شاءت القدرة الإلهيّة أن يمنح الإنسان حريته في انتخاب طريقه، والابتلاء بنتيجة ما اختاره من طريق، فليترك المشركون غارقين في افترائهم وانحرافهم.

﴿وَقَالُواْ هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لاَّ يَطْعَمُهَا إِلاَّ مَن نّشَاء بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لاَّ يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاء عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ يستمرّ القرآن في نقد الخرافات الجاهليّة التي قد تجد لها مصاديق في كلِّ عصر، وإن كانت بثوب عصريّ جديد... فها هم يحجرون شيئاً من الثروة الحيوانيّة والزراعيَّة بذريعة أنها مخصوصة لا يطعمها (أي لا يأكل منها) إلاّ من شاؤوا هم، وبالطبع تتمثل هذه المشيئة، زوراً، في إرادة السدنة والنفعيّين. ثمّ هم يحرّمون ركوب بعض الأنعام (حرّمت ظهورها) ولا يذكرون اسم الله على بعضها الآخر عند حلبها أو ذبحها، وهكذا ينطلقون محلّلين ومحرّمين دونما دليل، وافتراءً على الله، فهم بذلك نظير الأنظمة الوضعيّة المشرّعة اليوم، تنطلق بعقولها القاصرة مخططة للحياة الإنسانيّة، بالرغم من أنّها تجهل أكثر حقائقها. ولكن الله سيجزي كل المفترين بالجزاء المناسب في الدنيا أو في الآخرة.

﴿وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاء سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حِكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾﴾ إفتراء تشريعيّ آخر للجاهلية، يتمثَّل في قانون وضعيّ، يخصّص ما تلده بعض الأنعام للذكور في المجتمع دون الإناث، فإذا ولد ميّتاً اشترك فيه الصنفان!! وإنّ إطلاق صفة التشريع على أنفسهم، والتحريم والتحليل تعدُّ كلها جرأة على المشرِّع الحقيقيّ، لاجزاء لها إلاّ العذاب الوبيل. ذلك أنّ الشريعة تقوم على أساس من الحكمة والعلم الواسعين، بالإنسان والحياة والكون، وعلائقها ببعضها، وهي أمور لا يصل إليها الفهم الإنسانيّ القاصر.

﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُواْ أَوْلاَدَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ اللّهُ افْتِرَاء عَلَى اللّهِ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾﴾ وهذه الآية تعلن ـ بكلّ وضوح ـ أنَّ الإنسان الرابح هو الذي استفاد من طاقاته البشريّة والماديَّة واتّبع الشريعة الإلهيّة الواضحة، أمّا الخسران المبين فيتمثّل في السير وراء الأوهام الجاهليّة السفيهة، وإهدار الدماء الإنسانيّة، وقتل النسل تقرّباً للآلهة، واهدار الطاقات والثروات الحيوانيّة والزراعيّة، اتّباعاً للأساطير الوهميَّة، وافتراءً تشريعيّاً على الله ـ جلّ وعلا ـ وبالتالي وقوعاً في الضّلال الذي لا هدى فيه.

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُواْ حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾﴾ بعد أن نعى القرآن على الجاهليين تشريعاتهم الاعتباطيّة السخيفة، راح يبيّن النعم الإلهيّة وتنوُّعها ليسبح الفكر الإنسانيّ في عطاء الله، وتنوُّع النعم من أروع العطاء... فهذه جنّات ذات عرائش وقوائم تمسك الزرع، وتلك جنّات قائمة على أُصولها لوحدها، وهناك النخل والزرع المتفاوت في طعمه (وكلُّ طعم يحقّق غرضاً حياتياً)، والزيتون والرّمان، وهي ثمار قد تتشابه وقد تختلف، ولكنها كما قلنا تمدُّ الإنسان بما يتمتَّع معه بحياته... إلاّ أنّ الإنسان الجاهل قد يلجأ لتحريم ما أُحلّ له، وجعله متناسباً مع متطلّباته، ومن هنا يأتي الأمر بالاستفادة من الثمر عند نضجه، ومن ثمّ القيام بالواجب الاجتماعيّ، ودفع حقوق الآخرين في الزرع والثمر إليهم على التوّ (يوم الحصاد) فهي حقوق لهم وليس للزارع منعها، ثمّ نهوا عن الإسراف، سواء في الاستهلاك أو حتّى في الإنفاق، بحيث لا يبقي المرء لعياله شيئاً، فالاعتدال هو المطلوب حتّى في الإنفاق.

﴿وَمِنَ الأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾﴾ وفي قبال تنوُّع الثمار تذكّر الآية بتنوُّع الحيوانات، فمنها الحمولة عالية القوائم والحاملة للأثقال، ومنها (الفرش) الصغيرة المفترشة للأرض، وربُّما أُشير هنا إلى بعض منافع الأنعام، كحمل الأثقال واتخاذ الفرش من أصوافها وأوبارها. فليستفد الإنسان من رزق الله أروع استفادة، وليتجنَّب الخطوات الشيطانيّة الماكرة التي تسوّل له إهدار الثروة الإنسانيّة والحيوانيَّة، وتسوّغ له التشريع السفيه، لا لشيء إلاّ لتقضي على مسيرته المتوازنة؛ لأنَّ الشيطان هو العدو المبين للإنسان، فلا يأمره إلاّ بما ينفي وجوده وحضارته.

﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنثَيَيْنِ نَبِّؤُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ الإِبْلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاء إِذْ وَصَّاكُمُ اللّهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ ويمضي السياق القرآنيّ في استعراض سخافات المشرّعين الجاهليّين، موضّحاً لهم بدقّة تشريعاتهم السفيهة الاعتباطية. فالأنعام ثمانية أزواج: ذكر وأنثى من كلٍّ من الضأن والمعز والبقر والإبل، وكلُّها أُحلَّت للإنسان إلاّ أنَّ الجاهليّة تنطلق محرِّمة ومحلِّلة، على أساس من أساطير وأوهام، ودونما سلطان من الله المشرِّع الحقيقيّ، وإلاّ فبأيِّ دليل تحرّم الجاهليّة بعضها دون بعض؟! وهل المحرَّم هو الذكران أم الأنثيان من الضأن أو المعز، أم هو ما اشتملت عليه أرحام الانثيين من الأجنَّة؟! أم ماذا؟ وبأيِّ دليل أو علم؟ وهكذا بالنسبة للإبل والبقر يأتي التساؤل نفسه، ثمّ يعقّب القرآن عليه بتساؤل استنكاريّ: أم كنتم شهداء إذ وصّاكم الله بهذا؟ وطبيعي أنّ الجواب هنا ليس إلاّ الوجوم والإقرار بالجهل والافتراء، وما أعظم الظلم! إنّه افتراء التشريع، ليقع النّاس في الضّلال والضياع.

والقرآن بهذا، يوجّه خطابه لكلِّ المشرِّعين عبر التاريخ، معلناً لهم أنّهم يظلمون البشريّة ويجرُّونها للهاوية بعملهم وجرأتهم هذه على مقام المشرّع العليم الحكيم، وموضحاً أنّ الله لن يهدي الظالمين سبيل السعادة والكمال.

﴿قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾﴾ بعد أن أنكر القرآن على المشركين تحريمهم وتحليلهم دونما علم أو دليل، أعلن لهم أنّ الوحي هو منبع التشريع الحقيقيّ، والوحي لم يحرّم إلاّ الميتة والدم المسفوح (السائل المنصبّ) ولحم الخنزير، فإن ذلك رجس حرام، وأضاف للمحرَّمات (الفسق) أي الحيوان غير المذبوح بالطريقة الشرعيّة، كأن يذبح للأصنام ولا يُذكر عليه اسم الله، وأمثال ذلك، فإنّها أُمور محرَّمة على أساس ما فيها من مفاسد (ويلاحظ هنا أن الآية مكّية وهناك آيات وروايات حرَّمت أصنافاً أُخرى من الحيوان).

وتحقيقاً للمرونة والتسهيل واللطف، فإنّه سمح للمضطر الذي لم يبغ ولم يعتد (ولم يقصد أكل ما حرّم الله، والتعدّي على حدوده) بتناول شيء من هذه المحرَّمات، غفراناً من الله ورحمة به.

﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ وِإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿١٤٦﴾﴾ بعد هذا الحصر للمحرَّمات يذكر القرآن أنّ اليهود لمّا بغوا عوقبوا بتحريم كلّ حيوان له ظفر ـ أي غير مشقوق القدمين، كالابل والأنعام والبطّ ـ وكذلك تحريم شحوم البقر والغنم، إلاّ شحم الظهر والدهن الملتف بالأمعاء أو المباعر، والمختلط بعظم. إلاّ أنّ هذه الأنماط من التحريم لم تكن أحكاماً أوّلية، وإنما هي عقوبة معيَّنة على الظلم. وهذه هي الحقيقة، لا ما يدَّعيه اليهود من خرافات.

﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾﴾ فإذا أصرّ اليهود على خرافاتهم، واعتبروا تحريم الأمور المذكورة في الآية السابقة على أساس أنها شريعة دائمة، لا على أساس انها عقاب لهم، معتبرين أنّ العقاب يتنافى مع الرحمة الإلهيّة؛ فليواجهوا بحقيقة أنَّ الله ذو رحمة واسعة بلاريب، إلاّ أن ذلك لا يتنافى مع عقاب المجرمين؛ لأنه أيضاً مظهر للرحمة والعِبرة.

﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَاء اللّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلاَ آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم حَتَّى ذَاقُواْ بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إَلاَّ تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾﴾ يتوجّه القرآن صوب المشركين مناقشاً بعض ادّعاءاتهم الباطلة، ومنها تسويغهم لانحرافاتهم العقائديّة والسلوكيّة بادّعاء الجبريَّة، حيث ادعوا أنّ المشيئة الإلهيّة لو أرادت غير الشِرك وغير هذا السلوك الوضعي لحقَّقته واقعاً، ولكنها لم تشأ ذلك فهي راضية عنه، وعن تحريم ما حرّموه، وبالتالي يبطل ادّعاء الرسول بطلان الشرك!! وهكذا نشاهد هذا المنطق الباطل لدى أهل الجاهليّات، سواء السابقين أو المعاصرين الذين يلجأون إلى هذا المنطق، وهم يعلمون ببطلانه.

ولكنّ القرآن يواجههم أولاً بالتذكير بالمصير الأسود الذي انتهى إليه المسوّغون السابقون، كما يذكِّرهم ثانياً بأنّ الحديث عن المشيئة الإلهيّة التي تعلّقت ـ كما يزعمون ـ بهذا

الوضع المنحرف رجم بالغيب، وظنّ ووهم وتخرُّص، فليس هناك طريق علميّ للمشركين إلى عالم المشيئة الغيبيّة.

﴿قُلْ فَلِلّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاء لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ وفي المرحلة الثالثة يردّ القرآن على قول المسوّغين بإرجاعهم إلى فطرتهم ووجدانهم ليشاهدوا الحجَّة الإلهيّة البالغة في أنفسهم، حيث يجدون أنفسهم مختارين في فعل الخير والشر، وفي الوصول إلى الحقيقة العقائديَّة، وأنّ الله منحهم هذا الاختيار، ولم يشأ أن يجبرهم على الهدى، وإلا فلو شاء لهدى النّاس أجمعين.

﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِن شَهِدُواْ فَلاَ تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاء الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾﴾ وفي المرحلة الرابعة من النقاش مع المشركين المسوّغين، يوجّه القرآن خطاباً تعجيزيّاً لهم بالإتيان بمن يشهد لهم أنّ الله شرّع انحرافاتهم السلوكية، بل وحتى لو لفّق المشركون بعض شهداء الزور فيجب تعريتهم وفضحهم وعدم الاعتماد على أقوالهم القائمة على أساس من الهوى والتكذيب بالآيات الإلهيّة الواضحة وإنكار الآخرة واتخاذ الندّ (العِدْل) والشريك لله الواحد القهّار.

﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلاَدَكُم مِّنْ إمْلاَقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلاَ تَقْرَبُواْ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾﴾ بعد إعداد الأرضيّة الذهنيَّة المناسبة يطرح القرآن الكريم بعض المحرَّمات الرئيسة والعامَّة، والتي لا تختص بشريعة دون أُخرى وهي:

أولاً: الانحراف العقائديّ نحو الشِرك بكلّ أنواعه، فإنه أصل الانحراف كلّه، كما أنّ التوحيد أصل المسيرة الإنسانيّة الخيّرة، فالشِرك يعني تأليه مطلقات وهميّة وتحكيمها في الشؤون الحياتيّة، الأمر الذي يمزّق هذه المسيرة ويشيع حاكميَّة الطاغوت.

ثانياً وثالثاً: ترك الإحسان بالوالدين وقتل الأولاد خشية الفقر، فإن ذلك يعني تمزيق العلائق العائليَّة، وهي أساس النظريَّة الاجتماعيّة الإسلاميَّة.

رابعاً: التقرُّب إلى عالم الفواحش (وهي السلوكات المفرطة والخارجة عن الحدِّ الإنسانيّ الطبيعيّ، والممزّقة للعلائق الاجتماعيّة النظيفة، كالزنا) وقد نُهيت الإنسانيّة عن التقرُّب

إليها، لئلا تقع في حبائلها. وشمل النهي التجاوزات الظاهريّة والباطنيّة (أي أن تتمّ في السرّ أو العلن) أو تتناول الظاهر أو الباطن الإنسانيّ.

خامساً: قتل النفس دونما جواز شرعيّ، وإفناء العنصر الفعّال في المجتمع.

﴿وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لاَ نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللّهِ أَوْفُواْ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾﴾ والمحرّم الآخر في جميع الشرائع هو التصرُّف في مال اليتامى، فإن فيه تضييعاً لحقّهم، وبالتالي تمزيقاً لعلائق الملكيّة المتوارثة، اللّهمّ إلاّ أن يكون التصرُّف بأسلوب أفضل لصالح حفظه، ويمتدُّ هذا النهي إلى أن يبلغ اليتيم أشدَّه، أي حتّى البلوغ والرشد، وحينئذ يتصرَّف في أمواله كأيِّ مالك.

وبعد هذا يأتي تحريم التطفيف في الميزان، وبخس النّاس أشياءهم، وعدم رعاية العدل في التعامل، ولكن لما لم تمكن الدقّة في رعاية هذا الحكم، أو في رعايته مع الحكم السابق، جاءت الآية توضّح كونهما حكمين عرفيين، فلا تكلف نفس إلاّ وسعها، فإذا بدرت منها بادرة تجاوز على الحقّ دونما علم بذلك فالله هو الغفور.

ثمّ تتعرَّض الآية الشريفة لحكم تحريميّ آخر هو عدم العدالة في القول، كالشهادة والفتوى وأمثالها، فيجب تحرّي العدالة ونشرها في القول والفعل، دون أن يتأثّر ذلك بعواطف القرابة، والأواصر العائليّة، والعشائريّة، والعنصريّة وأمثالها.

ثم يذكر الحكم التحريميّ الأخير وهو عدم الوفاء بالعهد، ذلك أنّ الوفاء بالعهد ممّا أكّدته الشرائع وركّز عليه الإسلام ﴿إنّ العهد كان مسؤولا﴾[١] فهو دعامة من دعائم العلائق الاجتماعيّة والدوليّة السليمة، كما أنّه صفة تدفع إلى التزام المواثيق التي أعطاها الإنسان بفطرته لربّه وبعقله للحقيقة.

هكذا إذن يذكّر القرآن بالأحكام التحريميَّة العامّة التي أعلنتها جميع الشرائع، ويردُّ بذلك على المشركين الذين اخترعوا ووضعوا من عند أنفسهم نظاماً تحريميّاً وهميّاً، ونسبوه إلى الله ظنّاً وتخرّصاً.

---

١. الإسراء: ٣٤.

ومن الغريب أن يتنكّر عالمنا الإسلاميّ اليوم لهذه الوصايا الإلهيّة فيشيع فيه كثير من هذه المحرَّمات في جميع الشرائع، فيسود فيه حكم الطاغوت، والعقوق، والإجهاض، وإباحة الفواحش، بل وتقنينها أحياناً، وقتل النفوس البريئة المطالبة بسيادة الإسلام، والتعدّي على الأموال، والقوانين الوضعيّة المنحرفة، وشيوع الأفكار القوميّة والعنصريّة، وغير ذلك، الأمر الذي يتطلّب من المسلمين تقويماً جديداً لوضعهم على ضوء القرآن.

﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ في ختام البيان القرآني للمحرَّمات العامّة في جميع الشرائع، يعلن أنّها معالم لصراط إلهيّ مستقيم واحد يجب أن تتّبعه البشريّة وتجعله مقياساً لتقدُّمها وتقهقرها، فهو سبيل الوحدة والكمال والتقوى، وتتجنَّب بذلك اتّباع السبل الأُخرى، وهي سبل الشيطان والفرقة والضياع.

﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِيَ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَاء رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ بعد أن ذكر القرآن الصفة الإجماليَّة للصراط الإلهيّ في المجال التشريعيّ بيّن تماميّة النعمة على بني إسرائيل حين أحسنوا في عملهم، وبلغوا المستوى الرساليّ المناسب، فنزل الكتاب الذي فصّل لهم نظمهم التشريعيّة وهدايتهم بكلّ وضوح، لكي تنسجم حياتهم مع الإيمان بالتوحيد والإيمان بالآخرة ولقائه.

﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾﴾ والقرآن أيضاً كتاب إلهيّ مبارك، لما فيه من هدى عميم وتشريع تفصيلي كامل، فيجب اتّباعه والتحلّي بالتقوى، ليكونوا أهلاً للرحمة الإلهيّة المتجلِّية في سيرهم نحو الكمال.

﴿أَن تَقُولُواْ إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُواْ لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ ونزول القرآن هذا قطع حجّة بعض المشركين وتعلُّلهم، بأن الكتاب الإلهيّ إنما نزل على خصوص اليهود والنصارى فلا يشملنا أو لا نفهمه، أو يّدعون أنّ الكتاب لو كان قد نزل عليهم لحملوا الأمانة بأفضل مما حملها الآخرون.

فها قد جاءتهم البيّنة والهدى والرحمة الإلهيّة، ولا سبيل لهم إلاّ اتّباع الحقّ، فإذا صدفوا وأعرضوا عنه، عرّضوا أنفسهم لسوء العذاب.

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن تَأْتِيهُمُ الْمَلآئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لاَ يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انتَظِرُواْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ إستفهام إنكاريّ على الكفّار المعاندين، فماذا ينتظرون؟ هل ينتظرون الانكشاف التّام للحقائق، حيث تأتي الملائكة وتظهر العظمة الإلهيّة بكل وضوح أو تظهر بعض الآيات الإلهيّة الخارقة التي لا تبقي مجالاً للشكّ؟ إنّ هذه الحالة إذا حدثت فلا مجال للتبجُّح بالإيمان والتستُّر به؛ لأنه غير نافع حينئذ إن لم تكن النفس قد آمنت قبل ذلك أو عملت خيراً في إطار إيمانها السابق، وحينئذ فلا فائدة لهذا الانتظار.

﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ خطّ التوحيد خطّ واحد، يتجمع فيه اتّباعه على شريعة الله ويعتصمون بحبله، ولا يتمّ التفرّق إلاّ بعد الإيمان ببعض الكتاب دون بعض، وإلاّ باتّباع الأهواء والانحراف عن الخطّ الذي رسمه الله ورسوله، وجعله متمَسّكاً لأتباعه، فإذا تمَّ ذلك تمزّقت الأمّة إلى شيع وأحزاب، وحينئذ فإن الرسول والشريعة منهم بريئان، وإنّما يوكل أمرهم إلى الله، ليواجههم بالمصير الأليم حين يرجعون إليه.

﴿مَن جَاء بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاء بِالسَّيِّئَةِ فَلاَ يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾ من نعم الله تعالى على عبيده مضاعفة الحسنات، وفتح أبواب الأمل أمامهم، أمّا السيّئات فلا تُجزى إلاّ بمثلها، تحقيقاً للعدالة، فلتسر هذه الأمّة في خطّ الحسنات، ومن أهمّها: الوحدة والتمسك بشريعة الله.

﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾﴾ من هذه الآية الشريفة حتّى آخر السورة، نستطيع التعرّف على خلاصة الهدف العام من سورة الأنعام، ويأتي هذا التلخيص في مقاطع، كلها تبدأ بكلمة (قل)، فتشكّل شعارات إلهيّة للمسيرة المؤمنة عبر التاريخ.

وفي هذا المقطع يعلن الرسول أنّ الهدى الإلهيّ قاده إلى الصراط المستقيم، وهو الدين القيّم

على الحياة كلّها، بنظُمه المنسجمة مع الفطرة الإنسانيّة والمخلصة لما أودعه الله في الفطرة من مواثيق، يرتبط بها الإنسان مع ربّه وخالقه ومبدعه، ويتخلَّص بها من الشرك والمشركين.

والملاحظ أنّ القرآن الكريم يؤكّد في مواضع كثيرة ـ ومنها هذا الموضع ـ طريقة إبراهيم التوحيدية ليجعل الإسلام الوريث الحقيقيّ لهذه الملَّة الحنيفة، ويدعو إليه كلَّ من يدَّعي الارتباط بشيخ الموحّدين إبراهيم عليه السلام.

﴿قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّه رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ يذكر هنا تسليم إبراهيميّ مطلق لله تعالى، فكل الدعاء، وكلُّ الأعمال العبادية، وكل التحولات الحياتيّة من المحيى وحتى الممات متوجّهة إلى الله تعالى وبيده سبحانه، فهو ربّ العالمين لاشريك له في ذلك، وبذلك أمر الله، والرسول أول المسلمين العابدين المطيعين لهذا الأمر، وبهذا يعود قدوة لأُمّته، لتصوغ كلَّ حياتها وفق هدى الله، فإذا حادت عن خطّ التسليم المطلق حادت عن خطّ الرسول والإسلام.

﴿قُلْ أَغَيْرَ اللّه أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلاَ تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلاَّ عَلَيْهَا وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ إستدلال على التوحيد في العبودية، بأن الخلقة كلّها تبدأ من الله، فلا مجال لعبادة غيره مطلقاً، ولا مجال لادعاء المشركين بأن هناك أرباباً أُخرى تتحمَّل أوزار الآخرين، فكل نفس تحمل نتائج عملها، وتعود إلى ربّها العظيم، ليسألها عمّا فعلت، ويوضّح الموقف الحقّ الذي وقع الاختلاف فيه.

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٥﴾﴾ وهكذا تطرح السورة في ختامها مفهوم الخلافة الإنسانيّة لله، بحالة تنطوي على أثر كبير في الحياة. وإذا كان هناك اختلاف في الطاقات فهو من أجل تنظيم الحياة، والتسابق في تحقيق مقتضيات الخلافة الإلهيّة، والدخول في الامتحان الإلهيّ الكبير، فإن انحرفوا فالله سريع العقاب، وإن أحسنوا فهو الغفور الرحيم.

سورة الأعراف (٧)

آياتها ٢٠٦

بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تحدّثنا عن البسملة وجزئيّتها للسورة.

﴿المص ﴿١﴾﴾ من الحروف المقطَّعة، وقد ذُكرت في تفسيرها أقوال أشرنا إليها سابقاً.

﴿كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلاَ يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾﴾ إنّه كتاب إلهيّ اُنزل للرسول، حاملاً للبشريَّة الهدى، ومتكفّلاً تنظيم الحياة. ومن الطبيعيّ أن يواجهه كثير ممن تُضرب مصالحهم، فليصبر الرسول على المعارضة ولا يتحرّج مطلقاً من مواجهة الناس، ولينذربه البشرية، وحينئذ ستنجذب إليه النفوس المستعدَّة للإيمان.

﴿اتَّبِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلاَ تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾ فليتّبع الجميع ما أنزل الله إليهم من شرائع تهديهم سواء السبيل، وليرفضوا ولاية غيره من المطلقات الكاذبة، والآلهة الوهميَّة، وتلك حقيقة لا يعيها حقَّ وعيها إلاّ القليل.

والملاحظ أنّ الآيات في مطلع هذه السورة تعدُّ هذه الأمّة لحمل المسؤوليّة التاريخيَّة بكلّ قوّة، والاخلاص لها، وتحذّرها من الانحراف والنكول.

﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ﴿٤﴾﴾ تذكير بالأُمم السابقة التي حُمّلت رسالة الله، فلم تحملها فابتُليت بالعذاب الأليم في وقت استراحتها بياتاً (ليلاً) أو هم قائلون (ظهراً).

﴿فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءهُمْ بَأْسُنَا إِلاَّ أَن قَالُواْ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٥﴾﴾ وحين يُصدمون بالعذاب واليأس ينتبهون إلى ظلمهم وانحرافهم، ويدركون المصير الأليم.

﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾﴾ إن البشريّة مسؤولة كلُّها ـ بما فيها الأنبياء ـ عن رسالتها وشرائعها، ومدى التزامها مقتضيات الرسالة، ويجب أن تمهِّد نفسها لهذا التساؤل الإلهيّ العظيم في ذلك الموقف الرهيب. وقد ورد عن النبيّ ﷺ: «ألا كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيّته»[1].

---

١. مجموعة ورّام، ج ١، ص ٦، بحار الأنوار (ج ٧٢ ص ٣٨)، صحيح مسلم (ج ٦ ص ٨)، مسند احمد (ج ٢ ص ←

﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴿٧﴾﴾ وستخبر البشريّة يوم القيامة بما عملته بكل وضوح وحينئذ يكون الفصل الحقّ.

﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِآيَاتِنَا يِظْلِمُونَ ﴿٩﴾﴾ والموازين الإلهيّة يوم القيامة حقّ بمعنى أن الحقّ هو الوزن الذي توزن به الأعمال فكل عمل يكتسب قيمته من مدى اشتماله على الحقّ وحينئذ تفقد السيئات أي وزن، لأنها تبتعد عن الحقّ، وهذا المعنى إذا تصوّرته الأمّة والفرد ترك آثاراً كبرى للمحاسبة والدقّة في السلوك والانضباط، في التزام أوامر الله تعالى وتطبيق شرائعه كلّها في الحياة كلّها.

وحينئذ فالمفلحون هم الذين رجحت كفّة أعمالهم الحسنة بما اشتملت عليه من حقّ، وجاءوا إلى الله بقلب سليم، وبوزن إنسانيّ راجح، والمعيار في الثقل والخفة هو القرب والبعد عن الحقّ.

أما أولئك الذين خفّت موازينهم فهم الذين خسروا أعزّ مالديهم وهي أنفسهم، واغتربوا عن ذواتهم، وساروا في السبيل المنحرف عن سبيل الفطرة الصاعد إلى الكمال، فظلموا بذلك أنفسهم والحقيقة معاً.

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾﴾ يشير القرآن الكريم إلى كلِّ النِعم الإلهيّة التي تمهّد للإنسان مسيرة حياتيّة متوازنة ومتمكّنة، وتلك من قبيل القوى النفسيَّة والظواهر الطبيعيّة التي تتناسق فيما بينها، لتوفّر الجوَّ الحياتيَّ الملائم، وهذا التناسق يشكّل أروع دليل على وجود التخطيط الإلهيّ الكونيّ الرائع، الأمر الذي يستوجب الشكر الإنسانيّ الوفير والعمل الدقيق بشريعة الله ومستلزمات النعم، إلاّ أنّ الإنسان، قاصر عن أداء حقِّ الشكر، ومقصّر في كثير من الأحيان.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلآئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿١١﴾﴾ من هنا يبدأ استعراض بداية الخلقة الإنسانيّة،

---

٥٤ ـ ٥٥) صحيح البخاري (ج ٣ ص ٨٧) وغيرها.

لتحقيق أهداف تربويَّة كبرى، فنشهد الخلقة الإنسانيّة والتصوير الرائع، ثمّ الأمر الإلهيّ للملائكة بالسجود لآدم، تكريماً لما يحمله من عناصر الإنسان والروح الإلهيّة المودعة فيه، فتسجد الملائكة إلاّ إبليس أدركه التكبّر فعصى أمر ربّه. وفي الآية مافيها من معاني التكريم الإنسانيّ والعصيان الشيطانيّ.

﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ وعندما يُسأل إبليس عن هذه المعصية الأولى للباري جلّ وعلا، يعلن أنها الأنانيّة والتعالي والتكبّر، فهو يدّعي أنّه خير من آدم؛ لأنه خلُق من نار وخُلق آدم من طين، والنار أفضل من الطين، ويترك القرآن للقارئ أن يكتشف خطأ هذا المنطق الاستكباريّ الذي يعلنه إبليس.

﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿١٣﴾﴾ وحين تكبّر إبليس أُمر بالهبوط من مكانته، ووصف بأنّه من الصاغرين (الأذلاّء) وهذا هو مصير كلِّ المستكبرين الطغاة الذين يظنُّون أنّهم ينازعون الله تعالى رداءه وكبرياءه وسلطانه وحاكميّته في الأرض.

﴿قَالَ أَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ المُنظَرِينَ ﴿١٥﴾﴾ وبعد عقاب الهبوط، يطلب إبليس من ربِّه أن يمهله طول الحياة الدنيا، حتّى يأتي يوم بعث الخلائق، فيمهله المولى ـ جلّ وعلا ـ لحكمة يراها في ذلك، ولعل منها أنّ التكامل الإنسانيّ لا يتمّ إلاّ من خلال الصراع ضدَّ الشياطين والطواغيت.

﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾ وهنا يعلن إبليس ـ رمز الإغواء والإضلال ـ أنّه سوف يقابل هذا العقاب (نتيجة عمله هو) بالمضي في إغواء الإنسانيّة من خلال طرح العقبات أمام المسيرة الإنسانيّة السويّة، ومنعها من تقدُّمها نحو هدف الخلقة المعلن، ورصد حركاتها من أمامها ومن خلفها وعن ايّمانها وشمائلها (أيسارها)، وذلك بهدف جرّ البشريّة إلى طريق الكفر بأنعم الله، وترك طريق الشكر المتجلّي في تطبيق شريعة الله على الأرض، وتحقيق أصول الحاكميَّة الإلهيّة.

وهذا التفصيل في استعراض الوعود الشيطانية والتربُّص والمراقبة الإبليسيَّة، ربَّما استهدف

تعميق مسألة عداء الشيطان في النفس، ليتمثّل أمام الإنسان خطّان: خطّ الهداية والشكر والتواضع لله، وتطبيق شريعته على كلّ الحياة، وخطّ الشيطان، خطّ التكبّر والعناد، والحقد والغواية، والتربُّص بالمؤمنين ومنعهم عن امتثال الأوامر الإلهيّة، وتحكيم نظام الظلم والطغيان.

﴿قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْؤُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾﴾ طرد إلهيّ وتوبيخ عظيم للشيطان ومن تبعه من الطواغيت والمستكبرين والظالمين. فهم مطرودون بكلِّ ذلة وهوان من رحمة الله، ومبعدون عن فضله، وموعودون بجهنم تطحنهم طحناً يوم القيامة.

﴿وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلاَ مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢١﴾﴾ وتبدأ التجربة الأولى للإنسان الأوّل من خلال إسكان آدم وزوجه في الجنّة، وفسح المجال لهما ليشبعا رغباتهما حيث شاءا ، مع المنع من التقرّب من شجرة معيّنة، وإلاّ أوقعا نفسيهما في الظلم، ولم يلزما الصراط السويَّ. ومع بدء هذه التجربة يمارس الشيطان مهمَّته الإغوائيّة الأُولى، فينفذ إليهما موسوساً وداعياً إيّاهما بصوت خفيّ (وهو أول أساليب الإغواء) للتقرُّب وعصيان الأمر الإلهيّ، مستهدفاً كشف ما أُخفي عنهما من سوءاتهما (أي عوراتهما) وربَّما كان المراد هنا نزع لباس الحياء والتقوى، لتشجيعهما على اختراق حرمة الأمر الإلهيّ.

وهنا إغواء آخر من خلال الاستفادة من نقطة ضعف، لتحقيق الهدف الخبيث، وتلك هي مسألة الفناء. فادّعى لهما أن الأكل من الشجرة يرفع مقامهما إلى مقام الملك العظيم والخلود الأبديّ، وإمعاناً في الإغواء راح ابليس يبالغ في القسم والحلف مؤكداً أنّه لهما من الناصحين المشفقين.

﴿فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَآنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾﴾ ونجحت عملية الإغراء الشيطانيّ للإنسان الأوّل آدم وزوجته، فأوصلهما

(دلاّهما) بإغرائه وغروره إلى ما كان يستهدفه، وقربا من الشجرة المنهيِّ عنها وذاقاها فانكشفت لهما عوراتهما، فراحا يسترانها بأوراق شجر الجنّة.

وجاء النداء الإلهيّ الذي أنكر عليهما فعلتهما وعصيانهما، وذكَّرهما بالنهي المسبق عن التقرُّب لتلك الشجرة ونبَّههما إلى التذكير المسبق بأكاذيب الشيطان وعدائه.

﴿قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ وقد ترك الإنكار الإلهيّ عليهما آثاره الإيجابيَّة، وتنبَّهت النفس إلى الحقيقة وأدركت سرَّ الخطأ، واكتشفت مكمن الداء، وعرفت العدوّ، ولجأت إلى الملجأ الحقيقيّ، وبدأت عملية العودة إلى الله جلّ جلاله: والاعتراف أولاً بالذنب وظلم النفس، ثمّ السعي لطلب الغفران والرحمة، إذ هما فقط المنجيان من حالة الخسران والضياع.

﴿قَالَ اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾﴾ بعد تلك التجربة الكبرى يأتي الأمر الإلهيّ للطرفين (آدم وزوجه وفي قبالهما إبليس) ليهبطوا إلى الأرض، ويبدأوا المسيرة الحضاريَّة، مع ملاحظة مقولتين وحقيقتين واقعيّتين تُطرحان هنا كسنن إلهيّة يجب الالتفات إليها دائماً:

أُولاهما: هذا العداء الذي لاينتهي بين خطّ الرحمن وخطِّ الشيطان، وهذا الصراع له أثره في طريق الكمال الإنسانيّ.

وثانيتهما: ارتباط الإنسانيّة بالأرض «فيها تحيون وفيها تموتون» وقد هيّأ الله تعالى فيها كلَّ عناصر الحياة الممكنة (والمتأمّل في هذه العناصر يدرك بوضوح عظمة الصنعة الإلهيّة) ومنها يتمّ حشر البشريّة إلى يوم القيامة. وفي هذه الحقيقة دفع لإعمار الأرض وتطبيق شريعة الله فيها، فالإنسان خليفة الله في أرضه.

﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾﴾ تذكير للإنسان بنعمة اللباس والزينة (الريش) التي تستر عورته، وتبديه في حلية مناسبة، إلاّ أنّ اللباس الأفضل هو اللباس المعنويّ (لباس التقوى) فهو يواري سوءات الباطن، وتلك حقيقة هي من آيات الله ودلالاته للإنسان، لعلَّه يتذكَّر مسيرته الطبيعيّة وحقيقته دائماً.

﴿يَا بَنِي آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاء لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾﴾ تحذير للإنسانيّة من الفتنة الشيطانيَّة، وتذكير بما جرى لآدم وحواء أبوي الإنسانيّة، حيث أغواهما الشيطان وأخرجهما من نعيم الطاعة الإلهيّة إلى حضيض المعصية، ونزع عنهما لباسهما فانكشفت عوراتهما وتكشفت مساوئهما.

وتذكير ثان بالمكر والحيلة والإرصاد الشيطانيّ. فهو يراقب المسيرة بكلِّ خفاء، ويتحيّن الفرص لبثِّ سمومه، إلاّ أنّ القرآن يؤكّد أن لا ولاية للشيطان على المؤمنين المستعيذين بالله، وإنما يبثُّ سمومه في النفوس الضعيفة.

﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءنَا وَاللّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللّهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاء أَتَقُولُونَ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾ درس آخر من قصَّة الخليقة الآنفة تعرضه هذه الآية الشريفة، فالمنحرفون الذين يمارسون الفحشاء (كالطواف بالبيت الحرام في حالة العري) يؤوّلون ويسوّغون أعمالهم القبيحة، والخارجة عن الحياء الإنسانيّ بأنهم إنما يفعلون ذلك استمراراً لما كانت عليه سيرة آبائهم، ليعطوا أعمالهم صفة تاريخيّة طبيعيَّة، بل ويدّعون الكذب على الله، مدَّعين أنّه تعالى أمرهم بالفاحشة، وهو تعالى لا يأمر بذلك بل يحثُّ الإنسان على اتّباع سبل الخيرات والأعمال الصالحة، ويهديه إلى الطيبات، ويستره بلباس التقوى.

﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾﴾ بعد أن نفى القرآن الأمر الإلهيّ بالفحشاء ـ وهو يعني الخروج عن السيرة السويّة ـ أعلن أن الله تعالى يأمر بالقسط والعدل، والاعتدال في المسيرة الإنسانيّة، واللجوء إلى بيوت العبادة (المساجد) والدعاء الخالص والانقطاع إلى الله عمّا سواه من الشياطين والطغاة. وإذ لاحظنا زمان نزول الآية وهي مكّية أدركنا أن المراد هو اللجوء إلى كلِّ ما يذكّر بالله ويركّز طاعته، وكانّها تريد أن يوسّع الإنسان من نطاق المسجد (محل عبادة الله) ليشمل الحياة كلَّها، وهي رؤية تتنافى مع الرهبانيَّة من جهة، وفكرة فصل الحياة عن المسجد من جهة أُخرى.

﴿فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلاَلَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاء مِن دُونِ اللّهِ

وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾ بدأت البشريّة بخطّين متصارعين؛ خطّ الحقّ وخطّ الباطل، وهي على هذه السنّة دائماً حتّى تعود إلى ربّها. ففريق أخلص لله فهداه، وآخر عصاه فاستحقّ الضّلال البعيد؛ لأنه والى الشيطان وأتباعه وأولياءه من الطغاة والمستكبرين.

﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾﴾ درس آخر متفرّع على استعراض قصّة التجربة الأُولى لآدم في الجنّة. فقد فُسح له المجال للتمتّع، ولكن وضعت له حدود عندها يضمن سيره التكامليّ الطبيعيّ. وهكذا كانت الشرائع الإلهيّة (وأكملها الإسلام) تفسح المجال للاستفادة الطبيعيّة من الطبيعة، فلا تنافي بين العبادة والتزيُّن، وإنّ الله يحبُّ المؤمن الجميل في تصرُّفاته ولباسه، ولا مانع من التمتّع بالنعم الطبيعيّة، إلاّ أن ذلك يجب أن يتمّ في حدود الاعتدال ولا يتجاوزه إلى الإسراف، وتجاوز الحد الطبيعيّ.

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللّهِ الَّتِيَ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِي لِلَّذِينَ آمَنُواْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾﴾ وخلافاً للرهبانيَّة وكلِّ من يدَّعي أن الله حرّم على البشريّة التمتّع بنعم الحياة المادّيّة، تصرِّح الآية الكريمة بعدم التحريم، بل هي زينة الله ولطفه أخرجه لعباده وطيِّباته، رزقهم بها، وهما من ملازمات الحالة الاجتماعيّة الطبيعيَّة. وفي الآية إشعار بوجود جذور فطريَّة للتزيُّن والتمايل نحو الطيِّبات، وهي حالة تستدعي التأمُّل العميق... فالزينة والطيِّبات خلقت لكلِّ البشر، والذين آمنوا يتنعَّمون بهذه الحياة، فيلبسونها بأفضل ما لُبست، ويأكلونها بأفضل ما أُكلت (كما أشار إلى ذلك أمير المؤمنين علي عليه السلام في «نهج البلاغة» عند حديثه عن مجتمع المتّقين) وهم بعد ذلك مختصّون بالنعم الإلهيّة يوم القيامة.

﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ وقد انصبَّ التحريم الإلهيّ ـ باعتباره لطفاً بالبشريَّة ـ على كلِّ تلك الأعمال التي تخرق الحدود الطبيعيَّة، وتعرقل المسيرة التكامليَّة ـ سواء في ظاهرها أو في بواطنها ـ وهي الفواحش والإثم، أي الذنب الموجب للانحطاط والسقوط كشرب الخمر والاعتداء على الآخرين وحقوقهم، ومن أعظم

الانحراف: الشرك في العبوديّة والحاكميّة، ونسبة الأكاذيب إلى الله، واتّباع الظنون.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاء أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾﴾ وانطلاقاً من حِكَم قصَّة الخلقة الأُولى، والحقائق التي أعلنها القرآن لمسيرة التاريخ الإنسانيّ، يقرِّر القرآن حقيقة أعمار المجتمعات الإنسانيّة وآجالها، وأن عليها أنّ تستغلّ عمرها للقيام بمقتضى الخلافة الإنسانيّة.

﴿يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾﴾ تأكيد قرآنيّ على مسيرة التقوى والصلاح والهدى الإنسانيّ من خلال اتّباع الرسل، الذين يبعثهم الله ليخبروا الإنسانيّة بواجباتها الحياتيَّة، ويقودوها في صنع التاريخ، وضمان إلهيّ للمسيرة أنها إذا لبست لباس التقوى وعملت الصالحات في إطارها المبيَّن من قِبل الله، وطبَّقت شريعة الله، فإنها لن تحزن على شيء فاتها، ولن تُبتلى بالخوف والقلق من المستقبل.

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا أُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٦﴾﴾ أما الذين كذَّبوا بآيات الله الواضحة للعيان، وابتُلوا بنفس الداء الذي ابتُلي به إبليس وأتباعه، وهو داء الاستكبار والتعالي على الأوامر الإلهيّة، ونسيان حقيقة الذات الإنسانيّة، والغربة عنها، وبالتالي ظلم البشر وامتصاص دماء الشعوب، فسوف يُبتلون بعذاب الخلود في نار جهنَّم.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّه كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُوْلَـئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ حَتَّى إِذَا جَاءتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُواْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللّه قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَافِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾ تقرِّر الآية أنَّ الافتراء على الله ونسبة الشرائع الوضعيَّة إليه أو ادّعاء سماحه للقوانين الوضعيَّة بتنظيم الحياة الإنسانيّة، أو تكذيب الآيات الإلهيّة كلها تعدّ أعظم الظلم، وأنها من صفات خطّ الشيطان والمستكبرين من أتباعه، وهؤلاء سينالون ما قدّر لهم في الحياة، وينالون نصيبهم مما كُتب لهم، ثمّ تأتيهم ملائكة الله لتتوفّاهم، وحينئذ يرون الحقيقة عياناً، ويدركون أيَّ جناية كُبرى قاموا بها بحقّ الإنسانيّة، ويواجهون هذا السؤال الرهيب: أين ما كنتم تدعون من دون الله؟ أي أين هؤلاء الذين كنتم تلجأون إليهم من دون الله وتقدِّمون لهم الولاء والطاعة، ممّا سوى الله من

الأرباب الوهميَّة والمطلقات الكاذبة؟ فلا يملكون في قبال هذا السؤال الاستنكاري إلاّ الاعتراف الفظيع المهين بأن هذه الآلهة سخيفة لا تملك أن تمدَّ يد المساعدة لأتباعها وعملائها، ولا تستطيع إنقاذهم من عذاب الله.

﴿قَالَ ادْخُلُواْ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّن الْجِنِّ وَالإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأُولاَهُمْ رَبَّنَا هَؤُلاء أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِن لاَّ تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾﴾ مصير رهيب ينتظر أولياء الشيطان والمستكبرين والطغاة، حيث يأتي النداء الإلهيّ لهم بالدخول في نار العذاب الإلهيّ إلى جانب الأمم الأُخرى التي سبقتهم من قبل وسلكت نفس سلوكهم، فابتليت بنفس المصير الأسود، حيث الغضب الإلهيّ، وحيث اللَّعنة المتبادلة بين هذه الأمم المنحرفة، حتّى إذا أدرك بعضهم بعضاً، واجتمعوا في النار جميعاً، انقسموا فريقين؛ فهنا الفريق الأول فريق الشياطين وأئمَّة الكفر والحكّام الضالّين، وهنا الفريق الثاني، وهم أولئك المنخدعون والذيليّون والسائرون في ركاب الظالمين والممهِّدون لهم ظلمهم، ويعلن الفريق الثاني أنّهم مخدوعون من قِبل الفريق الأول، ويدعون ربَّهم كي يصبَّ العذاب المضاعف على هؤلاء الرؤساء المجرمين، وينسون أنّهم هم الذين مهّدوا لهم ظلمهم. ومن هنا يأتي النداء الإلهيّ، بأنّ العذاب المضاعف يصيب الفريقين معاً.

﴿وَقَالَتْ أُولاَهُمْ لأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُواْ الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾﴾ وهنا يأتي التبكيت والخذلان، ويبدو الخبث الاستكباري، حيث يخاطب الفريقُ الأول الفريقَ الثاني بأنهم متساوون في العذاب بلا زيادة لأحد على آخر، فليذوقوا العذاب نتيجة أعمالهم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاء وَلاَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾ هذا هو حال المكذّبين بآيات الله والمستكبرين والطغاة المتحكِّمين بمصائر الشعوب، فإنهم معزولون عن الرحمة الإلهيّة، ولا تفتح لهم أبواب السماء، ولا ينعمون مطلقاً بالجنّة، فذلك محال عليهم، كما أنّ دخول الجمل في ثقب ابرة الخياطة من المحالات، وذلك هو جزاء المجرمين.

﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾﴾ وإمعاناً في التنكيل والتهديد، يعرض القرآن لهؤلاء المكذّبين المستكبرين في الأرض حالتهم في جهنّم، حيث تُفرش لهم مهاد وفرش من نار جهنم، وتغطّيهم غواشي العذاب الأليم، فهم محاطون بالعذاب والغضب الإلهيّ من كل جانب.

وبهذا يتعمَّق الحاجز النفسي بين الاستكبار العالميّ التاريخيّ، وخطّ الإيمان والصلاح، فلا تكاد تجد أية نقطة التقاء بينهما. ذاك خطّ العذاب والبُعد عن الرحمة، وهذا خطّ اللُّطف والعبوديَّة.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ لاَ نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٤٢﴾﴾ هذه الفئة هي التي تحمل رسالة الله، وتقوم بمقتضيات الخلافة، وتصارع الطاغوت على مرّ التاريخ. فهي تؤمن بالله وتعمل بكلّ الصالحات في شتّى المجالات، اللّهم إلاّ إذا لم تستطع القيام بالأعباء، وناءت تحت ثقل المشكلات والعقبات التي يضعها الخطّ المستكبر، فحينئذ لا يكلّف الله نفساً إلاّ وسعها، فتعيش حياة الصبر والتقيَّة، وتتحين الفرصة لمواصلة عملية التطبيق الكامل لشريعة الله، وتتأهَّل بذلك لحياة الخلود في الجنّة، وهو أقصى ما يمكن أن يأمله إنسان من خير على الإطلاق، ولا يحقّقه إلاّ الإيمان بالآخرة والخلود في النعيم.

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ وَقَالُواْ الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللّهُ لَقَدْ جَاءتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُواْ أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾ في قبال الصورة الكالحة التي يعيشها خطّ الاستكبار في جهنَّم، حيث تلعن كلُّ أمّة اختها، ويدعو كلُّ فريق على الآخر؛ يعرض القرآن هذه الصورة الرائعة للحياة في الجنّة، حيث يسود الحبُّ والوداد، فلا تجد في الصدور غلاً وحِقداً بعد أن نزعته يد الرحمة الإلهيّة، وحيث تجري أنهار الجنّة تحتهم بأعذب ماء، فتنشد القلوب نشيد الحمد لله الذي امتنَّ على عباده بالهدى، وأوصلهم إلى هذا المقام العظيم، وما كانوا ليهتدوا لوحدهم إليه. ويتجلّى الحقّ الذي جاءت به الرسل عياناً للجميع، فيشملهم ـ من بعد ـ نداء الرحمة الإلهيّة مهنّئاً إيّاهم بالجنّة التي ورثوها بإخلاصهم وأعمالهم الصالحة.

﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا

وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُواْ نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالآخِرَةِ كَافِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾ في سياق مشاهد القيامة التي يعرضها القرآن هنا يأتي هذا الحوار بين الفئة الطاهرة (أصحاب الجنّة) والفئة الكافرة (أصحاب النار) فيعلن الأولون أنّهم وجدوا وعد الله للمؤمنين حقّاً، فهل وجد الكافرون ما كانوا يوعدون به حقاّ أيضاً؟ ولا مناصَّ من الجواب بالإيجاب ليعلن مناد بينهما أن اللعنة الإلهيّة ـ أي الطرد والإبعاد عن ساحة اللطف الإلهيّ ـ منصبة على الظالمين لأنفسهم ولفطرتهم وللآخرين، من خلال وقوفهم عقبات أمام تحقيق إرادة الله وانفتاح سبيله أمام السائرين نحو الكمال، فهم لا يقتصرون على ظلم أنفسهم، بل يسعون لتحريف السبيل واعوجاجه، وبالتالي ينكرون المعاد إلى الله.

وبهذا يحمل هذا النصُّ الشريف التبكيت والتخويف والتهديد لكل ظالم في الأرض.

﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلاًّ بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْاْ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾﴾ وهنا منظر آخر من مناظر القيامة حيث يبدو فيه فاصل بين الفريقين، أهل الجنّة وأهل النار، وفي أعلى الفاصل «الأعراف» يقف أُناس متميّزون بمقامهم، يعرفون كلاً من الفريقين بما يحمله من سيماء العزّ أو الذلّ، وهم بالتالي يهنّئون أهل الجنّة بمقامهم، ويبعثون لهم السلام، وهم على أهبة الدخول إلى الجنّة طمعاً في الثواب العظيم.

﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاء أَصْحَابِ النَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ وَنَادَى أَصْحَابُ الأَعْرَافِ رِجَالاً يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُواْ مَا أَغْنَى عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ فإذا اتّجه أصحاب الجنّة إلى أهل النار استعاذوا بالله، داعين أن لا يجعلهم مع هذا الفريق المطرود عن الرحمة، ثمّ راح أصحاب الأعراف يبكّتون أشخاصاً يعرفونهم بسيماهم تبكيتاً شديداً، مذكّرين إيّاهم بما كانوا يعتزُّون به من قوّة وجبروت، يتفاخرون بها على قومهم ويستكبرون بها في الأرض.

﴿أَهَؤُلاء الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لاَ يَنَالُهُمُ اللّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُواْ الْجَنَّةَ لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾﴾ وزيادة في التبكيت يتوجَّه أهل الأعراف إلى المجرمين من أهل النار،

مستفهمين عمّا ظنّه هؤلاء بالمؤمنين، إذ تصوَّروا خطأ وعناداً أنّهم أضاعوا ملذّاتهم، ولم يحظوا بالنِعم الإلهيّة، إذ لم يسلكوا سبيل الاعتداء والغي، وإذ ضحّوا بكل مالديهم في سبيل دينهم وعقيدتهم، وتحملوا الأذى والعذاب، فها هم اليوم يتأهَّبون لدخول الجنّة، ليحصلوا على حياة الرضا والأمن، فلا خوف من شيء في المستقبل، ولا حزن على شيء مضى سابقاً.

﴿وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ الْمَاء أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللّهُ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾﴾ ويتصاعد الاذلال لأهل النار إذ يتوسّلون إلى أهل الجنّة أن يفيضوا عليهم من الماء أو الرزق الإلهيّ، فيأتي الجواب إن الله تعالى حرّم ذلك على الكافرين يوم القيامة؛ لأنه يوم الجزاء لا الإمهال والمراعاة.

﴿الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَاء يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُواْ بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾﴾ إنّهم استهزأوا بالدين وأهل الدين وقوانينه ونظمه، وراحوا يسخرون كلَّ ذلك لتحقيق مصالحهم الهُوج ودنياهم الرخيصة، تخدعهم في ذلك ميولهم ومصالحهم وملاذّهم، دون أن يأبهوا بشيء للشعوب الخيّرة والقوى المعنويّة المعطّلة، والسير الإنسانيّ الحضاريّ إلى الله، فلا شيء أمامهم إلاّ المصالح، حتّى ولو سُحقت في سبيلها النفوس وأُريقت الدماء، وهذا هو ديدن كلّ المستكبرين المتحكّمين بمصائر الشعوب والممتصّين لدمائها.

وهو نداء إلهيّ رهيب يعلن انتهاء اللُّطف والرحمة بالمجرمين، ويصِّور لهم الموقف الأليم الذي سيلاقونه، موقف النسيان والإهمال تماماً، كما نسوا فطرتهم وواجباتهم وشعوبهم ولقاء ربّهم يوم القيامة وجحدوا بآيات الله برغم وضوحها التامّ.

﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾ إنّهم جحدوا وكذَّبوا بآيات الله، بالرغم من أنّه تعالى أنزل إليهم كتاباً مفصَّلاً ومبيناً بكلّ وضوح يحمل معالم صدقه؛ لأنه أُنزل على علم الله فحمل للناس الهدى إلى الهدف والهدى للطريق والسعادة التامَّة لمن آمن به.

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاء فَيَشْفَعُواْ لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ

وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾ فهل ينتظر هؤلاء المكذّبون أن تتجلّى لهم الحقيقة عياناً؟ وحينما تتجلّى يعلن أولئك الذين جحدوا بآيات الله ونسوا ما شاهدوه من علائم التصديق؛ أنّ رسل الله قد جاءت بالحقّ بلا ريب، فمن ذا الذي يشفع لنا وينقذنا من المصير الأليم الذي صرنا إليه، نتيجة عدم التسليم للحقّ الواضح المفصَّل؟ وهل لنا من سبيل نرجع فيه إلى الحياة الدنيا؟ لنعمل وفق هذا الهدى، ونطبّق شريعة الله في الأرض، وهكذا يتجلّى لهم أنّهم خسروا ذواتهم واغتربوا عنها، حين ابتعدوا عن دين الفطرة ودين السعادة والأهداف المعنويَّة الكبرى التي يستهدفها، والتصقوا باللَّذات المادّيّة الرخيصة، وغرّتهم الحياة الدنيا، ولم تنفعهم كلُّ أساليب الافتراء التي كانوا يطلقونها ضدّ خطّ الدين والإيمان.

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ بعد هذه المشاهد الرائعة التي ينقلها القرآن عن القيامة، وهي تحمل الكثير من المعاني التي يُراد غرسها في النفوس، والتي تعمل على تحقيق الهدف القرآنيّ الهادي إلى سواء السبيل، تعود الآيات إلى قضيَّة التوحيد والخلق، وتركز في النفوس عظمة الخلقة الإلهيّة ومراحلها المتعدّدة (في ستّة أيام) من أيّام الخلقة، وأنّه تعالى استوى بقدرته وأوامره على (العرش) وهو المركز الذي يُدار منه الكون عبر الملائكة الطائفين به، فإلى العرش تنتهي حلقات الترابط الكونيّ، وهو سرّ الوحدة الشاملة، وهو محل تجلّي القدرة واللُّطف الإلهيّيَن، ومن الألطاف حركة الليل والنهار الناتجة من حركة الأرض، وموقع الشمس، وفق قوانين كونيّة صارمة رائعة، تفرض هذا السير الدورانيّ الحثيث، الدقيق، المتتابع. وباللطف نفسه جاء خلق الشمس والقمر والنجوم مسخّرات بأمر الله لصالح الإنسان، وهو أكرم موجود، عسى أن تتهيّأ أمامه كلُّ سبل الرقيّ والكمال.

فله ـ وحده لا شريك له ـ الإيجاد، وإليه يرجع أمر الموجودات في تربيتها وتشريعها، كما في تكوينها وتنسيقها وتنظيمها، تنظيماً يقف أمامه الفكر الإنسانيّ مبهوراً، ويسجد أمامه الوعي مذعناً، ويتجلّى أمام العقول، فلا تملك إلاّ أن تؤمن بكلِّ خشوع وتبتُّل، وتعلن أنّ الله تبارك وتعالى غمر الكون ببركاته ونعمه، وشمل العالمين بربوبيَّته وهدايته.

﴿ادْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ وإذ يبلغ القرآن بالنفوس إلى هذا المبلغ، يدعوها للدعاء والتضرُّع أمام الربِّ العظيم بكلّ حياء واستتار، كما ينفّرها من الاعتداء على حقوق الذات، وحقوق الآخرين، وحقوق الله، فيزكّيها بما لكلمة التزكية من معنى الإنماء ومضمون التطهير، ويبعدها عن الإفساد في الأرض، في الحين الذي يدعوها فيه للارتباط بالله، والتعلُّق به خوفاً من عقابه وطمعاً في ثوابه، معلناً أنّ الفيض الإلهيّ عميم وقريب من النفوس المستعدَّة له، وهي النفوس المحسنة.

﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاء فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْموْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾﴾ وهذه صورة أُخرى من صور الرحمة، إذ تنطلق الرياح وفق قوانين الله، تحمل بشرى الرحمة الإلهيّة، وتقلُّ الغيوم المثقلة بالماء إلى بلد ميّت ممحل، لتحييه بالماء، وتخرج الثمرات، وتتمّ عملية إحياء كونيّة لتشهد على عملية إحياء أُخرى يوم القيامة، فتصبح عبرة للمعتبرين.

﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لاَ يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾﴾ وكما رأينا من قبل تأكيد القرآن لزوم توفير القابليَّة في النفوس، لتنال رحمة الله، فإن هذا المقطع الشريف يؤكّد أنّ العطاء الإلهيّ تام، شريطة أن تكون القابليّة تامَّة، فالبلد الطيِّب يخرج نباته بإذن الله طيّباً، في حين لا يخرج نبات الأرض الخبيثة إلاّ نكداً قليل العطاء، وذلك مثل عام يضربه القرآن لكلِّ من وعى النعمة الإلهيّة، وعمل على شكرها.

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾﴾ أُسلوب آخر من أساليب تقرير الإيمان في النفوس وتحقيق الأهدف التربويّة القرآنيّة. فبعد أن استعرض القرآن مشاهد القيامة، ولمحنا فيها عواقب الفريق المؤمن والفريق الكافر يقصّ علينا قصّة نوح مع قومه، مبتدئاً بالكلمة التي قالها الأنبياء جميعاً لأممهم ﴿أعبدوا الله مالكُمْ من إله غيرُهُ﴾ نافياً كلَّ الآلهة الوهميَّة في الكون، وكل من يُدَّعى لهم التأثير المستقل، ومركّزاً على الإله الواحد، وداعياً للتفكير بعذاب يوم عظيم، وهو يوم القيامة، حيث ستصير البشريّة إليه. وهكذا يقوم كل التصوّر على أساس التوحيد والمعاد.

﴿قَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلاَلَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُواْ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾﴾ وكما ردَّد المكذّبون عبر التاريخ، ردَّ عليه الملأ والمترفون، مكذّبين دعوته، ومعلنين أنّه في ضلال بيّن!! على الرغم من أنّ كلامه كان يحمل كلَّ علائم الهدى، فما هو في نفسه إنسان خفيف العقل والمنطق، بل هو الإنسان القويم المهتدي، وهو مع ذلك يحمل رسالة من ربّ العالمين، ويبلّغ رسالاته بكلّ وضوحها وجلالها، ويخاطب وجدانهم ناصحاً، وفطرتهم موجّهاً، ويريهم من العلوم الإلهيّة ما لم يكونوا يعلمون. ولا عجب أن تنزل عليهم الرحمة من خلال رجل منهم (عاشوا معه وخبروا حكمته وعقله) لينذرهم ويحذّرهم من عذاب الله، وليوصلهم إلى حالة التقوى، وهي سلّم الكمال الإنسانيّ، ويهيّئهم حينئذ للعطاء والرحمة الإلهيّة.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْماً عَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾ إلاّ أنّ الاستدلال الحكيم لم ينفع مع قومه، فكذّبوه كعادة كلِّ المستكبرين، فشملته الرحمة الإلهيّة بإنقاذه هو ومن معه في الفُلك، وأُهلك المكذّبون عبر ظاهرة الطوفان، بعد أن أفقدوا أنفسهم ظاهرة الرؤية وعادوا قوماً عمين عن النظر إلى الحقيقة.

﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلاَ تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وِإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٦٦﴾﴾ ويستمر القرآن في عرضه قصَّة صراع الإيمان مع الكفر، فيذكر المثال الثاني؛ وهو قصة (عاد) التي بُعث إليها أخوها هود (الذي عرفته وخبرت حكمته أيضاً) ليقول لها ما قاله نوح من قبل لقومه، وهو إعلان كلمة التوحيد ونفي الآلهة المصطنعة، والدعوة للتقوى، وتطبيق شريعة الله في الأرض، ليواجهه الأشراف (الملأ) من قومه متّهمين إياه بالسفه والكذب، كعادة كل المكذّبين عبر التاريخ، وهذا التكرار في المشهد يترك أثره المثبّط لعزائم المشركين المكذّبين لرسول الله ﷺ، كما يترك أثره الإيجابي لأتباع خطّ الإيمان.

﴿قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٧﴾﴾ وكما استدلَّ نوح

على صدقه في رسالته، استدلّ هود على صدقه بإرجاعهم إلى ما يطمئنون إليه في واقعهم ومكنون أنفسهم من عدم وجود سفاهة، وأنه يحمل علامات الرسول من ربّ العالمين.

﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنَاْ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾﴾ وهذه هي طبيعة الرسل الإلهيّين، فهم يبلّغون الحقيقة وينصحون البشريّة بكل أمانة وطهارة، وهما علامة الصدق.

﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَاذكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُواْ آلاء اللّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾﴾ وكما استنكر نوح تعجُّب قومه، من أنّ رجلاً منهم يتأهّل لتحمّل الوحي الإلهيّ، فإن هوداً يستنكر الموقف نفسه من قومه حيال رجل جاء ينذرهم بعذاب الله إن انحرفوا، ويذكّرهم بالمنحة الإلهيّة لهم، إذ جعلهم حكّام الأرض وخلفاءها بعد نوح، ومنحهم قوّة وتقدماً مادّيّاً (مما يشعر بتقدُّم مدنيّ كبير لهم) وكل تلك آلاء ونِعم إلهيَّة، ينبغي أن تذكر فتشكر بتطبيق شريعة الله وتنفيذ أوامره، فإن فيها الفلاح والتقدُّم الحقيقيّ.

﴿قَالُواْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧٠﴾﴾ ويشتدُّ عناد الملأ المترف من قومه، ويتعجَّبون من دعوته لعبادة الله وحده وترك آلهتهم المصطنعة، برغم كونها مما يعبد آباؤهم!! وكأنَّ ذلك مصحِّح منطقيّ لألوهيَّتها الكاذبة، وزيادة في الكفر والجحود، وربّما إمعاناً في إغواء النّاس يطالبونه بتنفيذ وعيده وإنذاره.

﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ فَانتَظِرُواْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾﴾ وهنا يهدِّدهم هود بالعذاب، ويعلن أنّهم استحقوا وقوع الرجز ـ وهي الظاهرة التي يفرُّ الإنسان منها ويتنفَّر من آثارها ـ وعذاب الغضب الإلهيّ المبعد عن الرحمة. ولعلَّه كان يدعو عليهم ويعلن استنكاره لجدالهم ودفاعهم عن أسماء مصطنعة وآلهة وهميَّة صاغوها بأنفسهم، لتحقِّق لهم مآربهم الوضيعة، ويصعدوا بها إلى مقام الإطلاق والألوهيَّة ـ كذباً وزوراً وتخلّفاً فكريّاً ـ على الرغم من أنّها لا تملك من الوجود المطلق أي نصيب أو تأييد أو سلطة.

وهذا هو ديدن النفوس المتخلّفة والمستكبرة؛ تبتدع أسماء وصوراً، وتطلق شعارات فارغة، وتطرح نماذج وهميّة، ومقاييس كاذبة، ثمّ تعمل على زرعها في نفوس العامّة

وتصعيدها في الأذهان، حتّى تبلغ مآربها، وربما انخدعت هي بما صنعت بأيديها، فراحت تعبدها وهماً ووقوعاً في الفخّ نفسه.

إنّ هذا الحوار ليهزُّ نفوس المشركين، وينبِّههم إلى نقطة الخطأ الكبرى، ويسوقهم إلى الإيمان سوقاً.

وبعد هذا التبكيت، يشدّد من وعيده داعياً إياهم لانتظار العذاب.

﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾﴾ وتكرَّرت العاقبة حين أنجاه الله هو والذين آمنوا معه فشملتهم الرحمة في حين قُطع دابر الكافرين واجتثت أُصولهم.

﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللّهِ وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوَءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾ ومثل ثالث يضربه القرآن على الحقيقة التي يسعى لتقريرها، وهي: (حقيقة الصراع بين الكفر والإيمان، والنداء الموحَّد للأنبياء، والموقف الموحَّد للمكذّبين وعاقبة الصراع الواحدة) وهذا المثل هو قوم ثمود، إذ يبعث لهم أخوهم صالح ليقول لهم ما قاله نوح وهود من قبل، وليستدلَّ على صدقه ببيّنة إلهيّة واضحة حسِّية وهي الناقة المعجزة باعتبارها آية إلهيَّة، وكلُّ ما هو مطلوب من القوم أن يعتبروا بهذه الآية، ويدعوا الناقة فإنها تأكل في أرض الله ولا يمسّوها بسوء ليطفئوا بذلك هذا السراج الدالَّ على صدق النبي صالح، وبالتالي يلغوا باب الهداية أمام الطالبين، فإذا فعلوا ذلك مسّهم العذاب الأليم.

﴿وَاذْكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُواْ آلاء اللّهِ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾﴾ ويذكّرهم نبيُّهم صالح بتحمُّلهم خلافة الأرض بعد أن تحولت القدرة الحضاريّة من عاد إليهم، فهم حينئذ مشمولون بألطاف الله وآلائه، يملكون القدرة ويتبوأون من الأرض (يتمكّنون منها) حيث يشاؤون، ويستفيدون من مناطقها السهلة لبناء قصورهم، وينحتون من الجبال بيوتاً لهم، مما يدلُّ على تقدُّم في المدنيَّة وتطوُّر في الذهنيَّة العلميَّة منحهم الله إياه. وهذه الألطاف تشدِّد من مسؤوليَّتهم تجاه تحكيم شريعة الله في الأرض، وعدم النكول عن عهود الله والامتناع عن الإفساد في الأرض.

﴿قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُواْ إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ إِنَّا بِالَّذِيَ آمَنتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٧٦﴾﴾ وبطبيعة الحال، فإن الملأ الذين ضُربت مصالحهم الضيّقة، والذين ينطلقون من منطلقات الاستكبار الذاتيّ الوضيع، يتوجَّهون بالتساؤل لأولئك المستضعفين الذين آمنوا بصالح وصدَّقوا برسالته، مشكّكين في صحَّة دعوى صالح للنبوَّة، إلاّ أنّهم يواجهون بالموقف الإيمانيّ الرائع المطمئنّ، إذ تُعلن الفئة المستضعفة أنّها مؤمنة تمام الإيمان بالحقيقة، ولم ينفع معهم التشكيك ولا التهديد ولا تكذيب الملأ. فيردّ الملأ بأنهم كافرون مصرّون على الكفر.

﴿فَعَقَرُواْ النَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾﴾ وهذا الردُّ العنيف من الملأ هو ديدن المستكبرين عبر التاريخ. إنّهم يستخدمون منطق القوّة والعنف لفرض سلطتهم بعد أن لم ينفع التشكيك، وهكذا قطعوا قوائم ناقة صالح، وهي آية إلهيّة ونعمة ربانيَّة ـ كانوا قد طلبوها ـ وطغوا وعتوا عن أمر ربِّهم وراحوا يتحدَّون الرسول أن ينفّذ ما وعدهم به، فانصبَّ عليهم العذاب، وتلك حالة يشهدها الإنسان لدى كلّ متكبّر، وخصوصاً حينما يصاب بخيبة الأمل عند إخفاق خططه الشيطانيّة، فهو ينسى حتّى ما يصدّق به وجدانه وتأخذه العزّة بالإثم، ويتصوَّر أنّه يستطيع الخلاص من سلطان الله وعذابه.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٧٨﴾﴾ وتلك عاقبة المستكبرين، فهؤلاء الملأ اصيبوا بالرجفة والصيحة والصاعقة ـ حسب التعبيرات القرآنيّة ـ فإذا بذلك التكبّر يتحوَّل إلى ذلّ، وذلك الاطمئنان بالتكذيب يتحوَّل إلى اضطراب ووجوم، والتحدّي يتحوَّل إلى جثوم وخنوع، فهم ساقطون على وجوههم وركبهم لا يقدرون على شيء.

﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِن لاَّ تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ ﴿٧٩﴾﴾ بعد أن أُصيب قوم صالح بعذاب الاستئصال الأليم، تولّى عنهم صالح وأعلن أنّه كان في دعوته لهم ناصحاً، ومرشداً ومربيّاً وقائداً إلى الهدى عبر رسالات الله، وهي السبيل الوحيد للسعادة، إلاّ أن هؤلاء النّاس نتيجة عتوّهم وتكبُّرهم لا يحبُّون الناصحين،

ويعني ذلك أنّهم لم ينسجموا مع عواطفهم الحقيقيّة التي تدعو للميل نحو الناصحين.

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّن الْعَالَمِينَ ۝٨٠ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاء بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ۝٨١﴾ وهنا ينتقل القرآن الكريم إلى مشهد آخر من مشاهد المكذّبين، فيستعرض حالة قوم لوط ـ وقيل أنّهم أهل منطقة سدوم ـ وقد كان هؤلاء قد ابتلوا بانحراف أخلاقيّ خطير يتمثل في اللواط، تلك الحالة الرذيلة التي تترك أثرها المخرّب على العلاقات الاجتماعيّة، فتبعدها عن المسار الفطريّ الطبيعيّ لها، وهي حالة ابتُليت بها الجاهليّات المختلفة ومنها الجاهليّة الغربيّة الحديثة، بالرغم من أنها مما تأباه الفطرة الطبيعيّة ـ كما قلنا ـ إذ تعبّر عن فحش وخروج عن الحدّ الطبيعيّ، وإسراف في تصريف الغريزة، يؤدّي إلى التحطيم الاجتماعيّ، وهو أمر حاربته الأديان السماويّة بشدّة، وشجّعتّ على العلاقة الزوجيّة؛ لأنها تنسجم ـ من جهة ـ مع اتجاهات الفطرة، ومن جهة أُخرى تعتبر البناء العائليّ الطبيعيّ الحجر الأساس في البناء الاجتماعيّ الكبير.

﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُواْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ۝٨٢﴾ وعلى الغرار نفسه ممّا كان المستكبرون عبر التاريخ يصنعونه، ردَّ قوم لوط على دعوته التطهيريَّة الفطريَّة، معتبرين هذه الدعوة ـ وإن كانت تطهيريَّة ـ عملاً سلبيّاً واجراماً يعاقب فاعله بالتبعيد من البلد. ومن هنا نعرف مدى الانحراف الذي أصابهم، فهم يعترفون بكون دعوته تطهيريَّة وفطرتهم تجنح إلى التطهير في تركيبتها، إلاّ أن انحرافهم وجموحهم عن الحقّ وانغماسهم في الذنوب يحول بينهم وبين الاستجابة للنقاء، بل يدفعهم للتلوّث ومحاربة التطهير.

﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ۝٨٣ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ۝٨٤﴾ فنجّاه الله من ذلك الوحل والعذاب، في حين لم ينفع امرأته صلتها السببيَّة بالنبيِّ مادامت تتّصل صلة عقائديَّة بالانحراف والبيئة الفاسدة، فاستثنيت من عملية الإنقاذ وأُبقيت مع الغابرين المصابين بالهلاك والدمار، الذي نزل عليهم كالمطر.

وهذه هي إضاءة العبرة التي تُرى بين الحين والحين، لتذكر السامعين بالهدف الإنسانيّ من وراء عرض هذه المشاهد، ويتلخَّص في تثبيط عزائم المكذّبين المنحرفين بتذكيرهم بالعاقبة السيّئة، وتثبيت عزائم المؤمنين وتركيز أقدامهم على صراط الحقّ ودفعهم للثبات.

﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾﴾ وهذا مشهد آخر يعرضه القرآن عبرة للتاريخ، وتقوية لخطّ الإيمان، حيث يبعث الله شعيباً إلى مدين ليعلن قبل كلّ شيء كلمة التوحيد: «اعبدوا الله» وهي الأساس والروح لكلّ نظام إلهيّ، وليأتيهم بآية بيّنة من ربّه دليلاً على صدق دعواه للرسالة. وحينما يقوم الدليل ويتمُّ الإيمان بالله تعالى وحده، فإن من الطبيعيّ أن تبنى الحياة على أساس من شريعة الله المنسجمة مع الفطرة، وهي تقتضي إعطاء كلِّ ذي حقّ حقّه دونما إنقاص منه، والوفاء بالكيل والميزان وعدم بخس النّاس أشياءهم وحقوقهم، فهي قاعدة تدعو إليها الفطرة بكلّ وضوح، تماماً كما تنهى عن كلّ ما يفسد الأرض والعلائق الاجتماعيّة، ويخلق التزلزل في البناء الاجتماعيّ الرصين، الذي تصلحه الشريعة الإلهيّة الغراء.

فالإيمان الحقيقيّ بالله يقتضي التزام منهجه، وهذا الالتزام يبقيهم على درب الخير المتواصل، درب التكامل، وهو هدف الخلقة، ولا خير في مجتمع يسوده العدوان والغش والتدليس والغدر.

﴿وَلاَ تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُواْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ وَانظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾﴾ وهذا نهي عن حالة وضيعة يُبتلى بها المنحرفون عن صراط الله، فهم يترصّدون المؤمنين المجاهدين العاملين بمنهج الله، ويحبسون عليهم أنفاسهم، ويقطعون عليهم السبيل، ويهدّدونهم بترك مبدئهم، والانحراف عن سبيل الله والاتّجاه نحو الأهداف المعوجّة المائلة عن الحقّ.

وإذ يستفيد شعيب عليه السلام من نداء الفطرة وتحريك العواطف يذكّرهم بالنعمة الإلهيّة الكبرى، نعمة القوّة بعد الضعف، والكثرة بعد القلّة، كما يدعوهم للتأمُّل في التاريخ وملاحظة عواقب المفسدين.

﴿وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُواْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يْؤْمِنُواْ فَاصْبِرُواْ حَتَّى يَحْكُمَ اللّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ وإذ وقع الاختلاف بين قومه في مجال الإيمان به

وعدمه، وانقسموا إلى فريقين، فإن النبيّ يدعو الجميع للصبر والتروّي وانتظار الحكم الإلهيّ العادل، وفي ذلك توفير للجوّ المناسب، وتقريب إلى الحقّ، وتركيز لمسألة أنَّ الحلَّ الحقيقيّ للمشكلة يتمّ عبر حكم الله.

﴿قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلاَّ أَن يَشَاء اللّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴿٨٩﴾﴾ مرَّة أُخرى نواجه الملأ المستكبرين وهم يتوعَّدون نبيَّهم وأتباعه المؤمنين به بالتبعيد، إلاّ أن يرجعوا عن خطّ الهدى إلى خطّ الضلال.

وهنا يواجههم منطق النبوّة والإيمان الذي لا يتزعزع قائلاً: إنّ كلَّ أحاسيسهم تكره حياة الكفر والضلال، وتتنفّر من مظاهره الشيطانيّة، وكيف يرجّح الإنسان الطبيعيّ المنسجم مع فطرته حياة الظلام على حياة النور، إنّه عاهد ربَّه على الإيمان وعلى العمل بمقتضيات الإيمان، وبناء الحياة وفق الهدى الإلهيّ، وأيُّ نكول عن هذا العهد يعني التكذيب، ويعني الكفر بنعمة الإيمان، والجحود بآلاء الله المتمثّلة في الإنقاذ من الضياع وحكم الطاغوت، إلى حياة العزّة والحريَّة الحقيقيّة والنور.

وهذا تأكيد على أنّ الإرادة الإنسانيّة ـ مهما كانت ـ محكومة للمشيئة الإلهيّة. فهو الأعلم بالمصير الإنسانيّ مهما كان التصميم والعزم جازماً، وهو العليم بكل شيء، وعلى أساس من هذا التصوّر يأتي مفهوم التوكُّل على الله تعالى ربِّ الكون وهاديه، فالله تعالى عليم بكلِّ شيء، ولطيف بالإنسان ومريد لهدايته، فليوكل الأمر إليه، ولا يخيب المتوكّلون عليه.

يتوجّه النبيّ شعيب بهذا الدعاء الرائع في مضمونه، معلناً أنَّ الفتح والنصر والحكم بيد الله، فليفتح الله بالحقِّ، وليقض قضاءه فهو خير الفاتحين.

﴿وَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْباً إِنَّكُمْ إِذاً لَّخَاسِرُونَ ﴿٩٠﴾﴾ بعد أن يئس الملأ من شعيب، راحوا يهدّدون المؤمنين به بالخسران، نتيجة اتّباعهم صراط النبيِّ شعيب، وهكذا يفسِّر هؤلاء الرقيَّ والتكامل تفسيراً عكسياً، ليغروا به المؤمنين ويصدُّوهم عن الحقّ.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٩١﴾ الَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَانُواْ هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٢﴾﴾ وعلى غرار قوم عاد، توجّه عذاب الاضطراب والرجفة إلى قوم شعيب، وأكبّهم الله على وجوههم وركبهم خاسئين أذلّة، نتيجة ذلك العتوّ والاستكبار، وأعلن القرآن حينئذ أنّ الخاسرين حقّاً هم المكذّبون الذين لم يستجيبوا لنداء الحقّ، فأصابهم العذاب ومحاهم من الوجود، بعد كلّ تلك الخيلاء، وكأنّهم لم يبنوا ما بنوا ولم يكونوا من قبل، وتلك عبرة للمعتبرين.

﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٩٣﴾﴾ وكما تولّى الأنبياء من قبل عن المكذّبين، تولّى شعيب عن قومه، معلناً أنّه قد بلّغ الرسالة، وحمل الأمانة، وألقى النصيحة، ولكنّهم كفروا بها فذاقوا وبال أمرهم، ولا أسف على القوم الكافرين.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلاَّ أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَواْ وَّقَالُواْ قَدْ مَسَّ آبَاءنَا الضَّرَّاء وَالسَّرَّاء فَأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾﴾ بعد استعراض أحوال المكذّبين، وما جرى بينهم وبين أنبيائهم من حجاج، وما انتهوا إليه من عاقبة، يطرح القرآن هذا التلخيص العام قانوناً وسنّة تاريخيّة لا محيص عنها، ليترك بذلك أثره على المسيرة الإسلاميّة الإنسانيّة عبر القرون التالية.

إن هذا القانون يتلخّص في تقرير حقيقة تاريخيّة تؤكّد أنّ طريق التكامل الإنسانيّ محفوف بالمصاعب، وأنّه لن يتمّ إلاّ عبر الامتحان والاختبار والإحساس بواقع الإنسانيّة، الضعيف أمام الخالق القويّ العظيم. فالأنبياء عندما يرسَلون إلى القرى يمرُّ أهلها بحالات الشدَّة والضرّ في النفس والمال، حتّى يتضرّعوا إلى بارئهم، ويشعروا بضعفهم، ثمّ تأتي حالة من الرخاء فينسى معها بعضهم ما كانوا عليه من الشدَّة، ويعتبرونها حالة طبيعيّة أصابتهم، كما أصابت آباءهم من قبل، ولا علاقة لها بأعمالهم وامتحانهم، وحينئذ يأخذهم عذاب الله بغتة ودونما تمهيد سابق.

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾ وهذا قانون تاريخيّ متمّم للقانون السابق، وهو يعبّر عن نوع آخر لم يألفه البشر الغارقون في المادّة والحسّ. أنّه يعني الترابط الوثيق بين عالم

الغيب والشهادة، وبين الإيمان والتقوى، وبين البركات السماويّة والأرضيّة مما يؤدّي إلى التقدّم المادّيّ والحضاريّ في الوقت نفسه، في حين يؤدّي التكذيب والانحراف إلى العذاب والضياع الحضاريّ أيضاً. وما كلُّ المشاهد التي عرضها القرآن إلاّ دليل ناصع على هذه الحقيقة، وما كلُّ ما تشاهده البشريّة اليوم من انحطاط أخلاقيّ وحضاريّ لدى المذاهب المادّيّة إلاّ شاهد آخر على هذه السنّة التاريخيّة التي يؤكّدها القرآن.

﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتاً وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ اللّهِ فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾ في هذه الآيات تأكيد على لزوم الخوف من عذاب الله، والحذر الشديد من الانحراف والضياع، وإلاّ عرَّض المجتمع نفسه لانطباق السنّة الإلهيّة دون أن يمنع منها مانع، وربّما كان الإنسان غارقاً في نوم أو لعب فيأتيه العذاب بغتة دونما تمهيد سابق. وتلك خصلة سيّئة؛ أن يأمن الإنسانُ عذاب الله، فيتمادى في الغيِّ، ثمّ يصاب بالخسران المبين.

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْ نَشَاء أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ وهذا خطاب قرآنيّ لكل أمّة ييسر الله لها أن تملك النعمة والقوّة، وتمتلك السيطرة، لتأخذ حذرها من عذاب الله إذا طغت ولم تقُم بحقّ الخلافة الإنسانيّة لله، ولم تطبّق شريعة الله في الأرض، فإنها ستكون حينئذ عرضة لإصابتها بعذابه تعالى، نتيجة ذنوبها. والعذاب الشديد يتمثّل بعد ذلك في الطبع على القلوب، وضياع الشخصيَّة الإنسانيّة حتّى لاتعود تسمع نداء فطرتها ولانداء ربّها ولا نداء المصلحين الناصحين.

﴿تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآئِهَا وَلَقَدْ جَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴿١٠١﴾﴾ إستنتاج آخر من عرض مشاهد البعثة والتكذيب، وهو يؤكّد أنّ الرسل جاؤوا إلى هذه الأمم بالبيّنات والدلائل الواضحة، المنسجمة مع كلِّ السبل المؤدّية لليقين الوجدانيّ، إلاّ أنّهم كانوا يواجهون بالتكذيب من قبل الملأ المستكبر، لا لشيء إلاّ لأنّهم اعتادوا في مسيرتهم التكذيب بكلِّ ما لا ينسجم مع مصالحهم، فكأنها العزّة بالإثم تأخذهم، وكأنَّ الطبع على قلوبهم نتيجة تكذيبهم المستمر لنداءات الحقّ يمنعهم من الإيمان بما كفروا به من قبل.

﴿وَمَا وَجَدْنَا لأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ إنّهم لا يحترمون عهودهم التي قطعوها بفطرهم، ولا مواثيقهم التي أعطوها بأفواههم، ذلك أنّ الالتزام بالعهد فرع الانسجام الشخصيّ مع العقيدة والتعهّد بالمبادئ، وهؤلاء لا مبادئ لهم، وهذا الانحراف عن الحالة الطبيعيّة هو الحالة التي يعبِّر عنها القرآن بالفسق. وإذا رفض الإنسان الانصياع لنداءات العقل والوجدان خرج عن حالته الإنسانيّة ولم يعد من الطبيعيّ له توقُّع بناء الشخصيَّة الفرديّة أو الاجتماعيّة.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُواْ بِهَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ يواصل القرآن هنا الإشارة إلى مشاهد بعثة الأنبياء ومواجهة الطواغيت والملأ المستكبرين لهم، فيشير إلى قصَّة موسى وبعثته إلى فرعون ومَلَئِهِ الذين رأوا الآيات البيّنات، ولكنهم ظلموا بها وانحرفوا عن مدلولها، فكانت عاقبتهم عاقبة من سبقهم من المكذّبين.

﴿وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾﴾ وقصّة موسى تعبّر عن صرخة المستضعفين المحرومين في وجه الطواغيت أروع تعبير. إنّ الإنسان الضعيف عندما يتصل بالله تعالى يملك أعظم قوّة يستطيع بها أن يقارع كلَّ الطواغيت، وهكذا جاءت صرخة موسى بوجه فرعون: ﴿إني رسول من ربّ العالمين﴾ دونما خوف أو وجل.

﴿حَقِيقٌ عَلَى أَن لاَّ أَقُولَ عَلَى اللّهِ إِلاَّ الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٠٥﴾﴾ ومن الطبيعيّ جداً أن لا يتوقَّع من رسول الله إلاّ قول الحقّ، وخصوصاً إذا كانت النسبة إلى الله جلّ وعلا. ومن هنا فموسى عليه السلام يعمل على كسب الثقة بقوله، كما يذكّر بالبيّنة والمعجزة التي يحملها تصديقاً لكلامه وانتسابه إلى الوحي. وبعد هذا يطلب من فرعون أن يطلق بني إسرائيل لينهض بهم موسى، فيحقّق الهدف الرساليّ المطلوب ويكسر شوكة الاستكبار الفرعونيّ بالتالي.

﴿قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ إلاّ أنّ ذلك الكلام الخالص لم يترك أثره المطلوب في نفس فرعون الطاغية، بل راح يتحدّى موسى أن يُظهر بيِّنته التي ذكرها في معرض حديثه، ثمّ راح يشكّك حتّى في صدق هذا الرسول.

﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاء لِلنَّاظِرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ وهنا

يظهر موسى عليه السلام معجزتين إحداهما: تحوّل العصا إلى ثعبان حقيقيّ، والأُخرى: تحوُّل بشرة يده السمراء إلى بشرة بيضاء ناصعة خارقة للعادة، لا يشكُّ أحد معها بأنها معجزة إلهيّة خارقة.

والملاحظ في الأمر أنّ هذا النوع من الإعجاز كان يتناسب مع ماكان يسود ذلك العصر من فنّ السحر الذي ما هو إلاّ أوهام تنجلي عندما تتجلّى شمس الإعجاز الحقيقيّة.

﴿قَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾﴾ وبالرغم من الوضوح، فإن العناد عن الحقّ يبدو من أول الأمر، ذلك أنّ الملأ المترف من آل فرعون يطلق تهمة السحر على موسى أولاً، ثمّ يحذّر كلَّ المستأكلين على موائد الطغيان بأنّهم سيفقدون مراكزهم، ومساحات نفوذهم إذا فسحوا المجال لموسى، لكي يقود قومه نحو الهدف. فكلُّ همّهم هو الحفاظ على العروش والنفوذ والأرض، فذلك لدى الظالمين فوق التصديق بالحقيقة، والإذعان لربوبيَّة ربّ العالمين.

﴿قَالُواْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَآئِنِ حَاشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾﴾ في قبال هذا الهجوم النبويّ على بلاط فرعون لم يجد الملأ إلاّ أن يطلبوا هدنة وفرصة، ليدبّروا أمرهم، ويحيكوا خيوط مؤامرتهم بتحريك السحرة ضدَّ موسى، فأرسلوا مناديهم إلى السحرة في المدن ليجتمعوا في مهرجان عامّ، وينازلوا معجزة موسى.

﴿وَجَاء السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالْواْ إِنَّ لَنَا لأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإَنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾﴾ ويستجيب السحرة لنداء فرعون، مستهدفين المنافع المادّيّة، فيضمنها فرعون لهم، مضيفاً إلى ذلك وعدهم بالتقريب إليه، وجعلهم من وعّاظ السلطان، وهي حالة نلحظها لدى الطغاة والمنحرفين من المستأكلين باسم الدين والعلم.

﴿قَالُواْ يَا مُوسَى إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوْاْ فَلَمَّا أَلْقَوْاْ سَحَرُواْ أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾﴾ وهنا خيَّر السحرة موسى في البدء بإلقاء الحبال واستعراض القوّة، فطلب منهم أن يبدأوا هم، وفعلاً فقد شرعوا فيه وسحروا أعين الناس، أي صوَّروا الخيال والوهم لأعين النّاس حقيقة واقعيّة، وبعثوا الرهبة في النفوس عبر سحرهم العظيم.

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ

﴿مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾﴾ وأوحى الله إلى موسى أن يلقي عصاه، فإذا هي ثعبان حقيقيّ، يأكل كلَّ ما طُرح أمام النّاس من سحر، وينفي كلَّ تلك الأوهام، ويمحو كلَّ ذلك الإفك والتزوير. إنّه الحقّ، وإذا وقع زهق الباطل، على الرغم من تضخّمه في النفوس.

﴿فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَانقَلَبُواْ صَاغِرِينَ ﴿١١٩﴾﴾

وبدا الصَّغار والذلّة على السحرة، بعد أن غلبتهم الحقيقة الإعجازيّة، وراحوا في فكر عميق يشعرون معه بضعتهم أمام ربّ موسى، ربّ العالمين.

﴿وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ واستجابت نفوسهم للحقِّ فما وجدوا أنفسهم إلاّ وهي ساجدة لهذه العظمة الإلهيّة، بعد أن أدركت ضعف تخطيطها أمام الحقيقة.

﴿قَالُواْ آمَنَّا بِرِبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ وهذه إحدى الصوّر القرآنيّة الرائعة للإيمان والثبات الآتي بعد تبصُّر وإمعان، إذ أعلن السحرة الذين أتى بهم فرعون، لإخماد صوت الإيمان، أعلنوا جميعاً إيمانهم بالله ربّ العالمين، وهو الربُّ الذي يدعو للإيمان به موسى وأخوه هارون وكل الأنبياء، أعلنوا ذلك بكلِّ صراحة بالرغم من الموقف الفرعونيّ الرهيب.

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُم بِهِ قَبْلَ أَن آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُواْ مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ وهذه صفة طاغوتيّة فرعونيَّة، يتصوَّر معها الحكّام الطغاة أنّ إيمان النّاس بالله وتكوينهم لموقفهم من الكون والحياة والإنسان يجب أن يتمّ عبر إذن حكوميّ. ومعنى ذلك أنّ الحاكم يتصرَّف بكلِّ الوجود الشعبيّ بما يشاء. وهناك صفة طاغوتيّة أُخرى تشير إليها الآية، وهي توجيه الاتّهام بالخيانة إلى الفئة المؤمنة، والعمل على الإطاحة بالكيان الحاكم، وإخراج أتباعه من المدينة. وبالطبع فإن اتّهام الخيانة يعرّضهم لعقاب مبهم مرعب، يعبّر عنه فرعون بقوله (فسوف تعلمون).

﴿لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلاَفٍ ثُمَّ لأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُواْ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ وعلى سُنّة جميع الطواغيت يأتي هذا الوعيد الرهيب، بتقطيع الأيدي والأرجل من خلاف، وربّما أراد به قطع الأيدي اليمنى والأرجل اليسرى أو العكس، والصلب صلباً جماعياً والتطهير العرقيّ.

مرّة أُخرى يتجلّى الثبات الواعي القائم على أساس من نظرة عميقة إلى الحياة وعلاقتها

بالله، فها همّ السحرة يواجهون تهديد فرعون بالتذكير بتلك النظرة، نظرة الإيمان بالحياة الأُخرى، والإسراع إلى الجنّة، فيكون الموت عندها قنطرة الخلود.

﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ وما أروع أن يثير الإنسان نقمة الطغاة عبر إعلانه الإيمان بالله، وعبر إذعانه للآيات الإلهيّة البيّنات!

وهذا هو دعاء المؤمنين عبر التاريخ، حينما يواجهون المصاعب والمشاكل، وما يريده الإسلام للفئة المؤمنة أن تعلنه كذلك في كلِّ موقف. إنّه يعني اللجوء إلى الله كركن ركين، وطلب الصبر الواعي، واستمداد القدرة على الاستقامة على خطّ الحقّ حتّى الموت، وهي أقصى ما يتمنّاه، وأصعب امتحان يمرُّ به. وإشارتهم إلى التسليم المطلق تؤكّد وحدة المسيرة المؤمنة، ووحدة الشريعة، وهي الإسلام.

﴿وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَونَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ وراح الملأ المترف ـ وهو يرى الأرض تهتزُّ تحت قدميه، ومصالحه مهدّدة ـ يحرّض فرعون على هذه الفئة المؤمنة بموسى، ويصوِّرها فئة مفسدة في الأرض، تعمل على إبعاد الشعب عن هذا الطاغوت وآلهته الرسميَّة! وبهذا فهم يتصوَّرون الأرض ملكاً خالصاً لهم، وأنّ ثباتها وصلاحها يتمثَّل في استمرار حاكميَّتهم ومصالحهم فقط، وكلُّ ما دون ذلك فهو فساد! ويأخذ فرعون الاعتزاز بقدرته، ويعلن أنّه سيتتبّعها بكلِّ قسوة، مقتّلاً أبناءها، ومستحيياً نساءها، ومحكماً قبضته وقهره عليها في كلِّ شؤونها.وعلى الطرف الآخر يقف موسى، قائد المستضعفين، طالباً منهم تقوية الأواصر بالله، والاستعانة به، والصبر على الشدائد، معلناً هذا المفهوم الرائع، وهو أنّ الأرض بيد الله وطوع أمره، وهو تعالى يمنح أزمَّتها لمن يشاء دون أن تتدخَّل في إرادته قدرة طاغوتيَّة، أو تغيِّر منها أهواء صنميّة، وأنّ الله تعالى قرَّر بسنَّته النافذة أنّ النهاية المحتَّمة إنما هي للمتَّقين.

﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللّهِ وَاصْبِرُواْ إِنَّ الأَرْضَ لِلّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُواْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِينَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ

أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ وهنا يشكو المستضعفون لنبيهم جور الاستكبار، إذ ظلمهم قبل مجيء موسى وبعده، ليجيبهم موسى بالثقة نفسها، راجياً ربَّه أن يهلك عدوَّهم ويستخلفهم في الأرض؛ لأنها له، وحين يتسلَّمون الخلافة سوف ينظر ماذا تفعل هذه الفئة تجاه مسؤوليّاتها. ولعلَّها إشارة إلى ما حصل بعد ذلك من نكول في حمل الأمانة.

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَونَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّن الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾﴾ وراحت أنماط العذاب الإلهيّ ـ كالقحط المتوالي سنة تلو أُخرى، ونقص الثمرات ـ تصيب فرعون وآله لعلَّهم يرعوون ويعودون إلى الحقيقة.

﴿فَإِذَا جَاءتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَى وَمَن مَّعَهُ أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾﴾ ونتيجة للانحراف عن جادَّة الفطرة، كانت التفسيرات التي يطرحها آل فرعون خرافيّة، فإذا أصابتهم نعمة إلهيّة نسبوا ذلك إليهم، وربما علّلوها بقدرتهم ومعلوماتهم، كما قال قارون من بعد «إنما أُوتيته على علم»، وإذا ابتُلوا بنقمة راحوا يتطيَّرون ويتشاءمون من موسى، وينسبون إليه ما وقعوا فيه من بلاء. إلاّ أنَّ القرآن الكريم يعلن لهم سرَّ خطئهم، حينما يذكّرهم بأنَّ الأمر كلّه لله، وأنّ المقادير كلّها بيده، فطائرهم ومستقبلهم إنما هو عند الله، بالرغم من أنَّ أكثرهم لا يعلم هذه الحقيقة.

﴿وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِن آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾﴾ وهذا نمط من الإصرار على الانحراف، فهم يعلنون أنّهم سيبقون على خطِّهم المنحرف مهما تكثَّرت الآيات والدلائل التي يزعمون أن موسى يريد أن يسحرهم بها، وهذا نمط من المجتمع المصاب بأمراض الطغيان.

إنه قد اتّخذ موقفه من قبل دونما رويَّة ولا تفكير.

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلاَتٍ فَاسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ وتتابعت العقوبات الإلهيّة على آل فرعون، ومنها (الطوفان) أي السيل الذي يُغرق أرضهم، والجراد والقمل والضفادع والدم، فتسود منطقتهم بين حين وآخر نماذج من العذاب، فلا تدعهم وادعين، كلّ ذلك لكي ينتبهوا ويتذكّروا الحقيقة.

﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُواْ يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ ﴿١٣٤﴾﴾ وكلّما كان البلاء يعمّهم ويلقي عليهم بكاهله كانوا يلتجئون لموسى، كي يدعو ربَّه بما له من كرامة عند الله وعهد أن لا يردّ دعاءه، ليزيل عنهم العذاب، واعدين إياه بالإيمان وإطلاق سراح الشعب المسجون من بني إسرائيل.

﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾ ولكي تتمّ الحجّة، يستجيب الله دعاء موسى، ويكشف عنهم العذاب إلى فترة معيَّنة، لكنَّهم ينكثون ذلك العهد القاطع الذي منحوه، مما أهّلهم للانتقام الإلهيّ الرهيب والغرق في البحر، حيث تتجلّى حقيقة أن العاقبة للمتّقين.

﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَآئِيلَ بِمَا صَبَرُواْ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾﴾ وتمَّت إرادة الله العظيم حين أورث الله المستضعفين مشارق الأرض (وقد يكون المراد الأرض المقدَّسة وهي بلاد الشام وحواليها) ومغاربها، وراح يبارك لهم في خيراتها، فالخيرات والبركات تزداد عندما يسود العدل والتقوى والاستغفار، وتحقَّق بذلك وعد إلهيّ قاطع لبني إسرائيل، أن سيستخلفهم في الأرض، ويحمّلهم أمانة قيادتها وإعمارها، باعتبارهم الفئة المؤمنة المتّقية، نتيجة صبرهم ومقاومتهم الجبابرة والطواغيت، في حين توجَّه التدمير الإلهيّ إلى فرعون وقومه، وما بنته أيديهم من عمران وتمدُّن زائف.

وهكذا يسير القرآن مع هذه الدورة من الصراع بين الحقّ والباطل، من مبدئها إلى منتهاها، ليرينا منطق الطاغوت ومنطق المستضعفين، فإذا الطاغوت متكبِّر متجبِّر، يعيش بأوهامه، وتغرُّه قدرته، ويفرض سيطرته على الشعب بالحديد والنار، ويستخفُّ قومه ويأمرهم باستئذانه حتّى في المجال العقائديّ، فإذا خالفوه صبَّ عليهم أنماط العذاب الأليم، وإذا المستضعفون فئة مؤمنة بربّها، واعية لمصيرها، متدرّعة بالصبر والاستقامة، ناظرة إلى المستقبل حيث العاقبة للمتَّقين، فهي لا تخشى في الله لومة لائم، ولا عذاب منتقم. إلاّ أنَّ القرآن لا يمنح الأمانة لشعب بشكل مطلق، وإنما لحمل الأمانة شروط، فإذا نكل عنها ابتُلي بالمصير نفسه.

﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَآئِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْاْ عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُواْ يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ وهنا يتحدَّث القرآن عن مرحلة جديدة من حياة بني إسرائيل، وهي مرحلة التحرُّر من ربقة فرعون، حيث يعمل موسى على بناء الأمّة التي تحمل الأمانة، وحيث تبدو بين الحين والحين نقائص هذا الشعب، يعمل الرسول على إصلاحها، وأول نقيصة هنا هذه التي يتحدَّث عنها القرآن، إذ تطفو رواسبهم الجاهليّة السابقة، فيطالبون موسى بتعيين آلهة نظير تلك التي رأوا قوماً يعكفون عليها، فلا يجد موسى بداً من وصفهم بالجهل، بعد أن لم تنفع فيهم كلُّ المواعظ والتوجيهات السابقة التي طرحها عليهم.

﴿إِنَّ هَؤُلاء مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾﴾ ويضيف موسى إن عمل عبّاد الأصنام سخافة لا معنى فيها، وضياع لا هدى فيه، وهلاك لا نجاة منه. إنّه سبيل الشرك والتجسيم.

﴿قَالَ أَغَيْرَ اللّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٤٠﴾﴾ وإنّ الله خالق الكون وربُّه، وكلَّ ما عداه مخلوق له، قائم به تعالى فكيف يبتغي الإنسان ربّاً غير الله، وكلُّ النعم منه تعالى، ومن نعمه أنّه فضّل بني إسرائيل على العالمين، بما حمّلهم من الرسالة والأمانة، وهي نعمة يعيشون من افضالها، وتطمئنُّ لها نفوسهم.

﴿وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَونَ يَسُومُونَكُمْ سُوَءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءكُمْ وَفِي ذَلِكُم بَلاء مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾﴾ وهنا يعدّ القرآن أفضال الله عليهم، ويذكّرهم بالنعم المتوالية التي غمرهم بها ربّ العالمين، بما لا مجال معه لتوهُّم الحاجة لمثل هذه الآلهة الوهميَّة، وفي كلِ تلك النعم ابتلاء وتدريب وتمحيص لمن يراد لهم أن يحملوا الرسالة، وما عليهم إلاّ حملها بصدق مع وعي لأُسسها العقائديّة دونما جهالة.

﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلاَثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلاَ تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ ويتّجه موسى عليه السلام إلى الميقات المحدّد له، ابتداءً ثلاثون ليلة، ثمّ جاء تتميمه لحكمة إلهيّة بعشر أُخرى، ليتأهّب لحمل الأمانة وتلقّي الشريعة من قبل ربّ العالمين، وتبليغها بعد ذلك لبني إسرائيل، وربّما كانت هذه المدَّة أمراً ضرورياً لتهيئة النفوس لهذا الأمر العظيم.

وقبل الذهاب إلى الميقات أوصى موسى أخاه بأن يخلفه في القيادة، وأن يكون في إدارته صالحاً، وأن يتجنّب طريق المفسدين، وهو تحذير ضروريّ خصوصاً مع وجود مفسدة وكوامن شرّيرة في هذا الشعب.

﴿وَلَمَّا جَاء مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ موسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾﴾ وفي الميقات يطلب موسى من ربّه أن يتجلّى له بشكل أقرب إلى الحسّ، لينتقل من عالم الإيمان العقليّ إلى الإيمان الحسّي الذي تطمئنُّ معه القلوب تمام الاطمئنان بالعقيدة، وإن موسى ليتنزّه عن طلب رؤية الله رؤية حسية، إذ أنها تستلزم الجسميَّة والتحديد والتركيب والاحتياج للمكان والزمان والإدراك، وكلُّها أُمور يدرك العقل والفطرة بكلِّ وضوح استحالتها بحقِّ الكامل المطلق، والغنيّ المطلق، وربّ الكون الذي لا تدركه الأبصار، وليس كمثله شيء. إنّه طلب للتجلّي الأقرب للحس، وهذا مالا يتحمّله موسى، لذا ووجه بالنداء الالهي: «لن تراني» ولكن تستطيع أن تلاحظ ثبات الجبل أمام هذا التجلّي، فإذا استقرَّ مكانه أمكنك ذلك. وحينما تم التجلّي للجبل لم يثبت، بل تحوّل إلى ذرات ترابيّة صغيرة مندكّة، الأمر الذي صعق له موسى فسقط مغشيّاً عليه. وعندما أفاق موسى راح يستغفر ربّه من سؤاله هذا تائباً، منزّهاً معلناً أنّه في طليعة المؤمنين.

وهكذا تسلّح موسى بهذه التجربة، واستفاد منها، أنّ الطلب يجب أن يتمّ عند وجود الاستعداد، وأنَّ الساحة الإلهيّة منزّهة عن أي درجة من درجات الحس، وأنَّ عليه أن يبصر العظمة الإلهيّة في كلِّ شيء أمامه ويخلص منها إلى الصورة الأصليّة.

﴿قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاَتِي وَبِكَلاَمِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ وهنا يُحمَّل موسى الأمانة الإلهيّة، والمسؤوليّة الكبرى، لصياغة المجتمع العابد لله، بعد أن تمَّ اصطفاؤه واختياره وإعداده لتلك القيادة. وقد حباه الله بتكليمه وأعطاه الوحي المباشر، فما عليه إلاّ أن يحمل هذه الأمانة بكلِّ قوّة وعزيمة، ويمضي في طريق تبليغها وتطبيقها في الحياة، فذلك هو الشكر العظيم.

﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ

يَأْخُذُواْ بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٤٥﴾﴾ فقد شملت العناية الإلهيّة البشريّة على مرّ العصور بإعطائها المنهج اللاّحب للهداية، ورسم كلّ ما تحتاجه من إرشادات سماوية، تفتح لها آفاق سيرها التكامليّ، فكلُّ شريعة إلهيّة تحمل للإنسانيّة في زمانها كلَّ ما تحتاجه في هذا المجال، وما على المؤمنين بهذه الرسالة إلاّ أن يحملوها بكلِّ قوّة وثبات، ويتّبعوا الطريقة الأمثل والحل الأولى، ويتجنَّبوا طريق المساوئ التي تنحطّ بالبشرية، وتقودها إلى الاضمحلال والضياع، وتلك دار الفاسقين الخارجين عن صراط الحسنى والكمال. وقيل إن المراد بدار الفاسقين الأرض المقدَّسة التي كانت آنذاك بيد الوثنّيين ـ وهو بعيد ـ.

﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الرُّشْدِ لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٤٦﴾﴾ إنّ الفاسقين عن خطّ الفطرة يوقعون أنفسهم في عمى وضلال بعيدين، فيصرفهم الله عن رؤية آياته وشمول آلائه، ذلك لأنهم ينسون أنفسهم وواقعهم العبوديّ، ويلبسون رداء التكبُّر والتجبُّر، فيتصوَّرون أنفسهم قادرين على إدارة حياتهم والتشريع لها دونما حاجة لهدى الشريعة الإلهيّة، وبالتالي فهم لا يعيرون بالاً لآيات الله الباهرة، ولا يأبهون لنداء الحقيقة الصارخ، الذي يدعوهم للالتجاء لله سبحانه، القادر بعلمه ولطفه على أن يهديهم سبيل الرشاد. ولكنَّهم بالرغم من ذلك لا يتخذونه سبيلاً لكمالهم، بل يزدادون ضلالاً عندما يختارون لأنفسهم سبيل الغيّ والضياع والبعد عن الهدى الإلهيّ... إنّهم بمخالفتهم لنداء الوجدان والفطرةوالواقع ابتلوا بالعمى والعناد التامّين، فراحوا يكذّبون بالآيات، ويغفلون عن عطائها الحياتيّ العظيم.

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَلِقَاء الآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾﴾ وتلك عاقبة طبيعيَّة لمن لم ينطلق من منطلق التوحيد والإيمان بالآخرة، لتنظيم حياته تنظيماً واقعيّاً سليماً، فإنه لن يصل مطلقاً إلى المقصود وإن بدا أحياناً في صورة من الانتفاخ والنمو غير الطبيعي، كناقة رعت نباتاً ساماً فانتفخت بطنها ثمّ نفقت، وهذا هو الحبط والضياع الذي سيواجهه هؤلاء أيضاً. وهذا بالضبط ما يؤكّده الوجدان ويثبته تاريخ الأمم المنحرفة عن خطّ التوحيد.

﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّهُ لاَ

يُكَلِّمُهُمْ وَلاَ يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً اتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَالِمِينَ ﴿١٤٨﴾﴾ وكنموذج للفسق عن خطّ الهداية يطرح القرآن مسألة عبادة العجل، باعتبارها انتكاسة في مسيرة بني إسرائيل أصابتهم بعد غيبة نبيِّهم موسى. وهي انتكاسة خطيرة أتت على كلِّ مكتسباتهم، فتحوَّل الإيمان بالمطلق الحقّ إلى إيمان بعجل مجسَّد، صيغ من حليِّ القوم واحتيلَ له حتّى أصبح ذا خوار.

وهكذا تلاعب المفسدون بعقائد القوم، فاستغلوا عنصر الذهب (الحليّ) وعنصر التزوير (عبر الخوار) فتركوا آثارهم المخرّبة على الأمّة التي كُلِّفت بحمل رسالة الله، وانحرفوا بها، في حين كانت تستطيع تبيُّن الحقيقة لو استمعت لعقلها ورأت زيف هذا الإله المصطنع، الذي لا يستطيع كلاماً ولا يهديهم سبيلاً، فكان موقفهم هذا موقف الظالمين.

﴿وَلَمَّا سُقِطَ فَي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْاْ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ إلاّ أنّهم تنبّهوا إلى الخطأ الفظيع، وعلموا بضلالهم، فعادوا إلى الله يرجون رحمته لينجيهم من الخسران المبين.

﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِيَ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الألْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِي فَلاَ تُشْمِتْ بِيَ الأعْدَاء وَلاَ تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٥٠﴾﴾ وبكثير من الأسى والغضب عاد موسى إلى قومه من رحلته المقدّسة التي حُمّل فيها الوحي الإلهيّ، لهداية قومه، فإذا به يجدهم مصابين بتلك الانتكاسة الضخمة، وكأنّهم استبطأوا موسى في عودته، فمالوا إلى طريق الانحراف، وتعبيراً عن الغضب لدين الله وضع الألواح جانباً وراح يقبض على شعر رأس أخيه ويجرُّه إليه، فما كان من هارون إلاّ أن يستثير معاني الرحمة والحبّ فيخاطبه: «ابن أم» مذكراً إيّاه بالرحم، ومعلناً أنّه قام بواجبه خير قيام، إلاّ أنّ استكبار القوم استضعفه واستضعف موقفه، بل كادوا أن يقتلوه. ومن هنا فمن الطبيعي أن لا يثير موسى شماتة الأعداء بهذا العمل الانفعاليّ، وأن لا يصنّف أخاه النبيّ إلى جانب القوم الظالمين.

﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾ ويتجلّى خلق الأنبياء حينما تتّضح الحقيقة وتستكين نفس موسى لله، فيدعو أن يغفر الله له ولأخيه ما بدر منهما ويدخلهما في رحمته الواسعة وهو أرحم الراحمين.

﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾﴾ وهذا خبر قرآنيّ يطرح هنا بشكل قانون تاريخيّ عامّ، فكلُّ من اتخذوا طريقاً غير طريق الله، وتشريعاً غير تشريع الله وإلهاً غير الله سبحانه، سيكون مصيرهم الابتلاء بالغضب الإلهيّ، والانحطاط الحضاريّ، والذلّة في الحياة الدنيا ـ بالرغم مما يبدون فيه أحياناً من زينة ونعمة فارهة وجبروت ـ إلاّ أنّه القانون الإلهيّ الذي لا يتخلّف ـ كما تؤكّده الآية، ويثبته التاريخ ـ وهو جزاء المفترين دائماً.

﴿وَالَّذِينَ عَمِلُواْ السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِن بَعْدِهَا وَآمَنُواْ إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾﴾ إلاّ أنّ سبيل العودة إلى الله مفتوح دائماً أمام العاصين، وأبواب الرحمة مفتّحة للتائبين المنيبين إليه تعالى، في إطار إيمان كامل، وندم على الماضي وتصميم على السير المستقيم.

﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ وبهذا التعبير الأدبيّ المعجز ينتقل القرآن إلى مرحلة البناء التشريعيّ، التي بدأها موسى، حينما راح يعلمهم ماجاء في الألواح، ويعمل على تطبيقها في حياتهم، وهي لا تحمل إلاّ الهدى وإلا الرحمة، وهما لا يشملان إلاّ الذين يخافون ربّهم ويتّقون.

﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِّمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاء مِنَّا إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاء وَتَهْدِي مَن تَشَاء أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾ مقطع آخر من قصّة بني إسرائيل يطرحه القرآن للاعتبار. وفي هذا المقطع نشهد موسى وقد اختار من قومه سبعين رجلاً ليحضروا معه موقفه في تلقّي الوحي الإلهيّ (الميقات) إلاّ أنّهم أيضاً ـ كما يبدو من آيات أُخرى ـ عبّروا عن طبيعة بني إسرائيل التجسيمية، فطلبوا رؤية الله جهاراً!! فكان عقابهم الصاعقة التي نزلت بهم وقضت عليهم لقولتهم الباطلة هذه. وحينما وجد موسى نفسه في هذا الموقف الحرج ـ حيث سيتّهم بأنّه تآمر عليهم وهم من عليّة القوم!! راح يسأل ربّه تعالى لو كان أهلكهم قبل هذا الموقف، ويعتبر عملهم ذلك سفهاً، طالباً العفو والتجاوز، معلناً أنّه الامتحان الإلهيّ الكبير، يضلُّ به الله من يشاء ويهدي به من يشاء. ويختم دعاءه كأيِّ مؤمن مخلص بالإيمان بالولاية الإلهيّة، طالباً الغفران والرحمة، والله خير الغافرين.

﴿وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاء وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾﴾ وذلك دعاء المؤمن أيضاً، إذ يدعو ربَّه أن يرزقه خير الدارين، الدنيا والآخرة وهما مترابطتان تماماً، شريطة أن يسير الإنسان في الدنيا على منهج الله في كلِّ شؤون حياته. وهذا ما يعلنه موسى عليه السلام متعهّداً بالتزام خطّ العودة الى الله. ومن الطبيعيّ أنّ القابليَّة عندما تتمّ فإن الفاعليَّة الإلهيّة سوف تؤثّر أثرها، فإذا جاء العصيان جاء العذاب، وإذا تمّت أُسس التقوى والإنفاق والإيمان الذي يؤطِّر كلّ الحياة فإن الرحمة الإلهيّة تسع كل شيء، ولا نقص في فاعليَّتها مطلقاً.

﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِيَ أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ وهذه الانتقالة إلى أمّة النبي محمّد صلى الله عليه وآله وسلم قد تكون باعتبار ما بشَّرت به التوراة والإنجيل من صفات الرسول الخاتم، كما يمكن تفسيرها باعتبارها مصداقاً لشمول الرحمة الإلهيّة الواسعة لكلّ الأُمم، حال كونها سائرة على خطّ الحقّ والسير بها مرحلة مرحلة نحو التكامل. وعلى أيّ حال، فالآية تتحدّث عن صفات الرسول العظيم ومنها (الأُميّة) ظاهرة عظيمة المدلول، وإلاّ فكيف يحمل رجل (أُميّ) لا يقرأ ولا يكتب أعظم رسالة لإسعاد البشريّة إلى الأبد، دون أن يكون متّصلاً بمصدر العلم والرحمة؟ كما أنّ منها انطباق الصفات التي تذكرها التوراة والإنجيل عليه مما يذكِّر أهل الكتاب بلزوم اتّباعه، وفاء لدينهم وإيمانهم، ويكشف للسذَّج منهم ما قام به علماؤهم من إخفاء للحقيقة تحقيقاً لمصالحهم الضيِّقة.

ومنها: أنّه يأمر النّاس بالمعروف وينهاهم عن المنكر، وهو استدلال فطريّ رائع. فالتأمّل في الشرائع الإسلاميّة يوصل المتأمّل إلى كونها منسجمة مع نداءات الفطرة الداعية للركون إلى الله، والرحمة بالخلق والابتعاد عن خطّ الرجس والظلم والانحراف. وهذه الحقيقة دليل فطريّ على صدق هذا الرسول العظيم.

ومنها: أنّه يحلُّ لهم الطيّبات ويحرّم عليهم الخبائث، وهو إرجاع ثان للفطرة وطلب تصديقها.

ومنها: أنّه يضع عنهم إصرهم (ثقلهم) والأغلال (القيود) التي قيَّدتهم بها الجاهليَّة؛ قيود الجهل، والتعصُّب، والظلم، والتكبُّر، والآلهة الوهميَّة، وغير ذلك، ويمنحهم الحريّة الحقيقيَّة.

وإذا كان الأمر كذلك، فخطّ الفلاح الحقيقيّ هو خطّ اتّباع هذا الرسول وتأييده، بكلِّ ثبات ونصرة في رسالته، واتّباع القرآن والإسلام الذي أُنزل معه، فهما نور الحياة كلّها وما عداهما الظلام الدامس.

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ وبعد تلك المقدَّمة الرائعة يطلب القرآن من الرسول العظيم أن يعلن عالميَّة رسالته، وخلودها، وشمولها لكلِّ الأمم والأجيال ونواحي الحياة، وما الحياة إلاّ ملك لله، خالقها والمشرع الوحيد لها، بيده الأمر التكوينيّ، وله الأمر التشريعيّ، فلتؤمن البشريّة بالله وبهذا الرسول (الأُمّيّ) الذي يجسّد بنفسه الإيمان بالله وشريعته (كلماته) فذلك هو سبيل الهداية الوحيد.

﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ وإنصافاً للحق، يعلن القرآن أنّ الانحراف لم يصب كلَّ أتباع موسى، فإن جماعة منهم كانت تهدي بالحقّ وتعدل به.

﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾ يستعرض القرآن هنا النِعم الإلهيّة المتوالية على بني إسرائيل، وهي تقسيمهم إلى اثنتي عشرة جماعة وقبيلة، يرجع كلٌّ منها إلى ولد من أولاد يعقوب، وجعل كلّ أمّة منهم مختصَّة بعين ماء تشرب منها دونما تجاوز على حقوق الآخرين، وذلك بعد أن ضرب موسى الحجر بعصاه فتفجّرت منه اثنتا عشرة عيناً. كما تجلّت النِعم الإلهيّة في تظليلهم بالغمام وتوفير المنّ ـ وهو نوع من الشراب الحلو ـ والسلوى، وهو طائر السماني، وما عليهم بعد هذه النعم إلاّ أن يستفيدوا منها في سبيل تعاليهم، إلاّ أنّهم بانحرافهم ظلموا أنفسهم قبل غيرهم، والله تعالى يتنزَّه أن يوجَّه إلى سلطته وملكه نقص.

﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُواْ هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُواْ حِطَّةٌ وَادْخُلُواْ الْبَابَ

سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُواْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾﴾ ومن انحرافات بني إسرائيل التي تعبّر عن كفرهم بالنِعم ما تحدّثنا عنه هذه الآيات، فقد أُمروا بدخول بلدة من الأرض المقدَّسة شريطة أن يكون الدخول بدعاء خاص وبخضوع وابتهال، ولكنَّ العناد الإسرائيلي يدركهم آنذاك فيبدّلون الدعاء الخاص (وهو قول حطَّة) إلى دعاء آخر يعبّرون فيه عن ميولهم المادّيّة، وطمعهم في ما يشبع البطون دون ما يزكّي النفوس، وبطبيعة الحال فقدوا شرط القابليَّة للرحمة الإلهيّة، ولذلك فقد ابتُلوا بالرجز والعذاب السماويّ الأليم، نتيجة ظلمهم وانحرافهم. والملاحظ هنا هذا التأكيد الشديد على العدالة الإلهيّة والرحمة الإلهيّة من جهة، وهذا الإصرار على الانحراف الذي يؤدّي بطبيعة الحال إلى الضياع والاضمحلال الحضاريّ من جهة أُخرى، وتلك فكرة يركّز عليها القرآن كثيراً، لكي تعيها البشريّة في طريقها الطويل.

﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً وَيَوْمَ لاَ يَسْبِتُونَ لاَ تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾﴾ ويذكّر القرآن بني إسرائيل ـ وهم في وقفتهم المعاندة للرسالة الإسلاميّة ـ يذكّرهم بتلك المدينة التي كانت تقع على مقربة من ساحل البحر، وقد امتُحن أهلها بامتحان إلهيّ خرجوا منه خاسرين، ذلك أنّهم أُمروا بجعل السبت يوم عبادة لا لطلب المعاش، فمنعوا عن الصيد، وامتحنهم الله بالصيد الكثير الذي كان يبدو لهم عياناً (شرّعاً) في حين يبتعد عن الساحل ويختفي في غير ذلك اليوم... وما أن وجد بعضهم ذلك حتّى ثارت فيه أطماعه، فراح يضع الحواجز في البحر خلف السمك الظاهر يوم السبت، ليقوم باصطياده يوم الأحد.

وهكذا يشير القرآن إلى هذا التحايل المقيت على القانون من قبل ذوي الأطماع، ليؤكّد أنّ ذلك فسق عن الحقّ، وخروج عن روح الحكم، وهو أمر لا ينجرُّ إليه المؤمن وإنّما يتَّبع رغبة المولى بكلِّ أبعادها، ويتَّبعها اتّباع العبد الحقيقيّ للمولى الحقّ.

﴿وَإِذَ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُواْ مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ وهذه صورة اجتماعيّة تلاحظ أحياناً، ذلك أنّ الله يقيّض للعاصين من ينهاهم عن المنكر، ويعظهم لعلَّهم يتّجهون نحو الصواب، إلاّ أنّه قد

يظهر فريق آخر من النّاس يلوم الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، ويثبّط من عزيمتهم، معتبراً عملهم هذا ضرباً من العبث بعد أن كان العصاة سادرين في غيّهم لا يرعوون، مما يجعلهم في معرض الهلاك والعذاب الشديد، وهنا تنبري الفئة المؤمنة الآمرة بالمعروف معلّلة إصرارها على عملها بأمرين:

الأول: إتمام الحجَّة وإسقاط التكليف الإلهيّ مما يؤهّلها للاعتذار عن أية نتيجة سلبيَّة قد تنجم عن ذلك.

والثاني: رجاء عودة المذنبين إلى ساحة التقوى حتّى ولو كان ذلك باحتمال ضعيف، وفي الآية لوم لهؤلاء المتقاعسين عن العمل الوعظيّ وهم يلومون الواعظين.

﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾﴾ إن الإنسان عندما يتجرّأ على المعصية، ويمعن في جرأته هذه يرتكس في حالة النسيان للميثاق الإلهيّ، والحقيقة التي آمن بها من قبل حتّى يعود مجرّداً من عقيدته التوحيديَّة؛ نتيجة أعماله المنافية لها، وحينئذ يعود قابلاً للعذاب المرّ البئيس؛ لأنه فسق عن طبيعته الصحيحة وخطّه المستقيم ـ أي أنّه نسي ذكر الله فنسي ذاته الحقيقيّة، واستحقَّ العذاب الأليم. وطبيعيّ أن ينجو الناهون عن السوء دون أولئك الذين فعلوه أو سايروه ولم ينهوا عنه، حتّى ولو كان ذلك بحجَّة عدم التأثير.

﴿فَلَمَّا عَتَوْاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿١٦٦﴾﴾ وطبيعي أن العتوَّ ـ أي المعصية المستمرّة والتكبُّر على الواقع ـ يؤدّي بالإنسان إلى الخروج من حالته الإنسانيّة بعد فقدان خصائصها الحيَّة، وفي طليعتها الاتجاه نحو الكمال، بإرادة حرَّة واعية، وإذا تمَّ ذلك تحوّل أفراد الإنسان العاتون العاصون إلى قردة أذلّة، بعيدين عن الكرامة.

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾﴾ وأذن الله تعالى أن يبتلى هؤلاء باللعنة والطرد عن رحمة الله، والابتلاء بمن يعذّبهم العذاب السيّئ الدائم إلى يوم القيامة.

إنّه عذاب العصاة العتاة يعيشونه واقعاً دائماً، رغم ما يبدون فيه من سعادة ظاهرة.

والله تعالى يتّصف بسرعة العقاب إلى جانب اتصافه بالغفران والرحمة الدائمين، الأمر

الذي يركّز في خلد الإنسان المسلم معنى متوازناً من (الرغبة والرهبة) وهو ضروري جداً، لإيجاد شخصيَّة متوازنة تتكامل الدوافع فيها، لتوفير جوّ الطاعة والكمال.

﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الأَرْضِ أُمَمًا مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾﴾ وتبقى العين الإلهيّة ساهرة على مسيرة الإنسان دائماً، تسدُّ نقصها وتعاقب مسيئها وتنفي عنها النفايات دونما تأثير على الإرادة الإنسانيّة أو انقاص من قدر الحريّة الإنسانيّة، لتتجلّى بالتالي فئة صالحة مطيعة لأمر الله، عاملة على إعمار الأرض، وفئات اخرى لا تحمل هذا المستوى من الصفات، وتأتي الابتلاءات والظروف المختلفة الحسنة والسيئة، لتوفّر الظروف التكامليَّة الطبيعيَّة، لتجلّي الإرادة الإنسانيّة والعودة بالتالي إلى الحقيقة.

﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُواْ الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مُّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لاَّ يِقُولُواْ عَلَى اللّهِ إِلاَّ الْحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِ وَالدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ وهذه حالة أُخرى من حالات المجتمع يعالجها القرآن الكريم هنا، وهي تمثّل أُناساً لم ينسجموا مع مسيرة سلفهم المتكاملة، وإنّما تلقّوا علمهم فقط، في حين انغمسوا في المجال العمليّ في الأعراض الدنيويّة الزائلة والشهوات، وراحوا يتحايلون على أنفسهم مسوّغين عملهم بأن الله سيغفر لهم ذنوبهم ويخلِّصهم من العذاب، مهما فعلوا وأصروا على التهافت المادّيّ الرخيص. هذا، في حين أنّهم عرفوا الحقيقة ودرسوا أبعادها وعلموا بالميثاق وأدركوا أن سبيلهم ذلك لا يؤدّي بهم إلاّ إلى الهلاك، وهنا يؤكّد القرآن أنّ العاقبة والدار الآخرة السعيدة لا تكون إلاّ لأولئك الذين سلكوا طريق التقوى والورع، وابتعدوا عن طريق الانحراف، وتلك حقيقة يفهمها الذين يعقلون حقاً، لا أولئك الذين اكتفوا بدراسة الحقيقة عن الالتزام بها.

﴿وَالَّذِينَ يُمَسَّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾﴾ إنّه الطريق الصالح، طريق التمسُّك بكتاب الله، والاتصال بالله عبر الصلاة، وهو بلا ريب سوف يؤدّي إلى الفلاح والأجر الإلهيّ المضمون.

﴿وَإِذ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّواْ أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُواْ مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾﴾ وهنا يكرّر القرآن الكريم تذكير بني إسرائيل بالخارقة

الإلهيّة، حيث رفع الله الجبل فوق رؤوسهم كأنه غمامة وطلب منهم الميثاق والالتزام بالتوراة، وهي حادثة تبقي ذكرى الميثاق قويّة في النفوس، وتدفعهم لحمله بكلّ قوّة وتلزمهم طريق التقوى، إلاّ أن بني إسرائيل ـ رغم ذلك ـ نسوا عهدهم ونقضوا الميثاق.

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُواْ إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾﴾ وفي السياق الآنف نفسه، أي سياق تأكيد الميثاق الإلهيّ والالتزام به على طول الخطّ الحياتي، يرسم القرآن صورة غيبيَّة رائعة، تقف منها الأجيال الإنسانيّة على مر العصور، أمام ربّها بكل ما تحمله فطرتها النقيّة من صفاء، واتجاهات، ويقين بديهي بالقضايا العقليّة النظرية والعملية، وعندما يأتي النداء الإلهيّ طالباً الإيمان بالربوبيّة الإلهيّة للناس، تعود هذه الأجيال إلى واقعها، فتشهد عظمة الخالق عياناً وتجيب بكلّ قوّة ويقين (بلى).

وبهذه الصورة الفريدة، يعلن القرآن الوجود الدائم لهذا النداء الفطريّ في أعماق الإنسان؛ لا تختص به منطقة دون منطقة أوجيل دون جيل أو زمان دون زمان، وهو بالتالي يمثّل أعظم ميثاق وجداني يمنحه الإنسان لله جلّ وعلا.

وبهذا لا يبقى أيُّ مجال لتسويغ الانحراف عن الخطّ الإلهيّ، بذرائع من قبيل الغفلة فلا مجال للغفلة عن نداء الفطرة القائم، أو من قبيل التأثر بشرك الآباء والانجراف مع خطّ المشركين ـ خطّ الباطل ـ والابتلاء بالتقليد الذي لا محيص عنه وهو تسويغ سخيف، ذلك أنّ الإنسان بما أوتي من عقل يزن الأمور، وإرادة تقرر الموقف، وأضواء فطريّة هادية تسوق إلى الحقيقة لا يستطيع أن يسوّغ لنفسه عملية التقليد العقائديّ. وبهذا يسدُّ القرآن الطريق أمام الانحراف عبر التسويغات الباطلة، ومن خلال ايقاف النّاس على آيات الخلقة في الآفاق والأنفس، لعلهم يعودون إلى ذواتهم الحقيقيّة، ويستمعون إلى نداءاتها، ويتخلَّصون من حالة الغربة عن الذات والفسق عن الحالة الطبيعيّة.

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِيَ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾﴾

وهذا تحذير قرآنيّ من حالة انحراف يُصاب بها الأفراد، فتقعدهم عن السير في طريق التكامل وتتلخَّص هذه الحالة في إنسان وهبه الله تعالى آياته، وأطلعه على الحقيقة الصافية، فعاد لقمة سائغة للشيطان الغويّ، لكي يبثّ فيه سموم الغواية ويدخله في صف الغاوين.

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَاء مَثَلاً الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُواْ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾ مَن يَهْدِ اللّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَن يُضْلِلْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٧٨﴾﴾ ونظراً لما يتمتَّع به الإنسان بفطرته من طاقات، فإنه مؤهّل للارتفاع والتكامل شريطة أن لا ينساق إلى أهواء ضيّقة وميول أرضيَّة، وهو ما اُبتلي به هذا الإنسان مورد المثل ـ ويقال أنّه بلعم بن باعورا ـ إذ أراد لنفسه الضياع، والله تعالى لايجبر أحداً على الهدى، وهكذا التصق بالأهواء الأرضيّة، واتّبع هواه فعاد حيواناً لاهثاً لا ينفع معه إرشاد، حيث يتأصّل في نفسه حبّ الدنيا ليصبح طبيعة له كطبيعة الكلب إذ يلهث على أيّ حال. وهذه الصورة القصصية تشكّل عبرة للمتفكّرين، إنّها صورة اُولئك المكذّبين بآيات الله والظالمين لذواتهم، قبل غيرهم، ويبقى طريق الهدى الإلهيّ الطريق الوحيد ولا يمثّل ما عداه إلاّ الخسران المبين.

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ ويستمرُّ القرآن في عمليَّة إرشاد الإنسان إلى طاقاته الذاتيّة، ونفي الشوائب العارضة على النفس الإنسانيّة، فيؤكّد أنّ كثيراً من أفراد الجنّ والإنس هيأهم الله لجهنّم بعد أن أرادوا لأنفسهم الضياع، واستهدفوا جهنّم من خلال انسلاخهم من طبيعتهم ومسيرتهم الفطريّة، رغم بقاء الصورة الظاهرية، إذ أنَّ لهم قلوباً ولكنّهم لا يفقهون ويعرفون بها، وأعيناً ولكنّهم لا يبصرون بها عظمة الخالق المتجلّية لهم، وآذاناً ولكنهم لا يسمعون بها نداءات الحقّ العالية، وبذلك يفقدون الحالة الطبيعيّة ويتحوَّلون إلى أنعام تلهث خلف المرعى، بل ويهبطون حتّى عن مستوى الأنعام، بعد أن امتلكوا الخصائص العالية وفرّطوا بها، وهكذا يقدّم القرآن مثل الغافلين لينبّه الإنسانيّة إلى تجنُّب هذا المصير.

﴿وَلِلّهِ الأَسْمَاء الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُواْ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَآئِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾ ولـمّا كانت الأسماء معبّرة عن المعاني التي تحملها، ولـمّا كان الله تعالى هو الكمال المطلق، والمتّصف بأقصى المضامين الكماليّة من العلم والقدرة والحياة باعتبارها مظاهر لكمال واحد، فإن من الطبيعيّ أن يُدعى الله بكلّ الأسماء الحسنى، وتنفى عنه كل ماعداها من أسماء النقص؛ لأنّ ذلك يعني الإلحاد والخروج عن الحدّ الطبيعيّ للحقيقة والوقوع في مهاوي الضياع وهو جزاء الملحدين.

﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾﴾ في قبال صورة الملحدين نجد هناك أمّة من خلق الله دعت الله بأسمائه الحسنى، وأوكلت نفسها إلى الحقّ وعملت به، وراحت تهدي الآخرين إليه، وتقيم موازين العدالة في المجتمع.

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾﴾ وهذا تحذير آخر من الوقوع في الاستدراج، ذلك أن المكذّبين بآيات الله يقصرون أنظارهم على الملذّات السافلة، ويزداد ولعهم بها شيئاً فشيئاً، حتّى يصلوا إلى مراحل العمى، وهم لا يعلمون أنّهم كذلك. وهي حالة قاتلة ابتلوا بها، نتيجة الإملاء والإمهال الإلهيّ لأولئك المكذّبين بآيات الله، والمخلدين إلى الأرض، والمهملين لـما يملكون من طاقات إنسانيّة فريدة.

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾﴾ وقليل من التأمّل والتفكير في حياة هذا الرسول العظيم وإيمانه وأقواله وأفعاله وما جاء به من قرآن كريم؛ يقود الإنسان للإيمان برسالته ونفي التهم التي يلصقها به الأعداء.

﴿أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ مَن يُضْلِلِ اللّهُ فَلاَ هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ إنّ النظر إلى موجودات هذا الكون من زاوية اتّصالها بخالقها العظيم، واحتياجها المطلق له وخصوصاً في جوّ يقترب فيه الأجل، وينقطع فيه الأمل بزخارف الدنيا وبهارجها الخدّاعة، يقود الإنسان بكلّ وضوح إلى الإيمان الكامل بالله الغنيّ المطلق وعدم الإلحاد في أسمائه.

أما إذا لم تترك هذه الحالة من التأمّل آثارها الطبيعيّة على حياة الإنسان، فمعنى ذلك فقدان

حالة الوعي الإنسانيّ المطلوب، والارتكاس في الضّلال والعمى السادر في طريق الطغيان.

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لاَ تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ يشير القرآن هنا إلى إلحاح من قبل بعض السائلين لمعرفة وقت قيام القيامة، إلاّ أنّ القرآن يؤكّد أن علمها يختصُّ به الله تعالى، فلا تعلم إلاّ من قبله تعالى، إذ يوضّحها في حينها، ويؤكّد أنّ علمها ثقيل ثقل الساعة نفسها وهي تأتي بغتة، كلُّ ذلك، لكي يبقى للساعة تأثيرها التربوي المطلوب ـ كما يبدو ـ.

﴿قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلاَ ضَرًّا إِلاَّ مَا شَاء اللّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَاْ إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾﴾ وهنا يتمّ التأكيد على بشريَّة الرسول من جهة، وأنَّ علم الغيب أصلاً مما يختصُّ به الله تعالى حقيقة؛ (لأنَّ الماضي والحاضر والمستقبل عنده سواء) من جهة أُخرى، اللّهم إلاّ أن يوحي به إلى وليّ من أوليائه المخلصين، ولتحقيق ذلك يؤمر النبيّ ﷺ بأن يعلن للناس أنّه لا يملك لنفسه ضرّاً ولا نفعاً وأنه رهين المشيئة الإلهيّة، ولكي يركّز هذا المعنى يستدلُّ على عدم علمه بالغيب، بأنّه لو كان كذلك لراح يتجنَّب الضرر ويطلب الخير بعلمه هذا وهو ما لايكون. وبهذا، تصفو النظرة إلى الرسول عبداً لله يحمل رسالته نذيراً وبشيراً للمؤمنين.

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَت دَّعَوَا اللّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحاً لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحاً جَعَلاَ لَهُ شُرَكَاء فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾﴾ واستمراراً لمسألة الميثاق الإلهيّ وضرورة الالتزام به يسير القرآن مع النفوس فيذكّرها بالحقائق، ويثبّت الإيمان في أعماقها، وها هو هنا يشير إلى وحدة الأصل الإنسانيّ والنعمة الإلهيّة الكبرى في خلق الزوجين وبثّ الأُلفة بينهما، ليتمَّ جو السكينة والعاطفة الفطريَّة، وإذ يتمّ اجتماع الزوجين (المعبَّر عنه بالتغشّي هنا) تسير مراحل انعقاد النطفة الإنسانيّة من حالة خفيفة تمرُّ بها المرأة عبر الأيام إلى حمل ثقيل يتعلّق به الأمل الكبير، ليدعو الزوجان ربَّهما أن يرزقهما ولداً صالحاً صحيحاً فيسرّهما ويشبع رغباتهما الطبيعيَّة، وتأكيداً على استجابة الدعاء

يعلنان أنهما سيكونان شاكرين لأنعم الله تعالى، إلاّ أنّ الإنسان أحياناً ينسى عهوده ومواثيقه وحالة ضعفه وحاجته عندما يظن أنّه استغنى بالحصول على بغيته، وهانحن نشهد هذا الإنسان المتضرّع لله، يعود مشركاً بالله الخالق الواحد المنعم، وتعالى الله عما يشركون.

﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لاَ يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلاَ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾﴾ وعجباً ما يفعل المشركون، إذ يجعلون لله أنداداً هم مخلوقون له تعالى، محتاجون له، لا يدفعون عن أنفسهم ضرّاً ولا يمكنهم إقامة ذواتهم دونما مدد إلهيّ مستمر.

﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لاَ يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاء عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُواْ شُرَكَاءكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلاَ تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾﴾ إنّ هؤلاء الشركاء المزعومين لله لا يملكون من أمرهم شيئاً، بل لا يعون ما يقال لهم، فلا يستجيبون لدعوة إلى هدى، وإذا كانوا كذلك فهم أخسُّ من أن يكونوا شركاء، وماهم إلاّ مخلوقون كغيرهم من مخلوقات الله العظيم.

وهكذا يمضي القرآن في تبكيت المشركين بالله عاملاً على إيقاظ فطرتهم، لتفهُّم الحقيقة والعودة إلى ميثاقها الذي عاهدوا به ربَّهم، والسير في طريق الوعي الإنسانيّ بعيداً عن الأصنام الوهميَّة والشركاء المزيَّفين الذين لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً.

ولكي يتمّ التحدّي في أقصاه، يطلب القرآن من هؤلاء المشركين أن يدعوا هؤلاء الشركاء ليصبّوا كيدهم وحقدهم دونما إمهال!! وهم أعجز من أن يفعلوا ذلك. وحينئذ تنكشف الحقيقة بشكل حسّي واضح.

﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴿١٩٦﴾﴾ وهنا يتحدّى الرسول المشركين معلناً التجاه إلى ولاية الله وهو الوليُّ الحقّ بما له من صفاتِ الكمال؛ فهو القدرة والغنى والحياة والعلم عينها، وله الأسماء الحسنى كلُّها، ومن لطفه تعالى أنّه نزّل الكتاب لتهتدي به الإنسانيّة، وهو بالتالي وليُّ الصالحين العاملين بكتاب الله والمطيعين لشريعته.

﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلاَ أَنفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لاَ يَسْمَعُواْ وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾﴾ أما الشركاء المزعومون

لله تعالى فهم مبتلون بكلّ نقاط الضعف، فلاهم ينصرون أتباعهم ولا هم ينتصرون لأنفسهم، بل إنّهم لا يقبلون الهداية، فما هي إلاّ وجودات جامدة بلهاء، ربّما يحسبها الناظر ذات حياة وبصر، وهي تفقد أقلَّ مقومات الحياة، فهل يصح إذن اللجوء إلى هذه الآلهة الوهميَّة وترك عبادة الله ذي الأسماء الحسنى كلّها؟ هذا ويحتمل أن تكون هذه الأوصاف للمشركين أنفسهم، إذ لا يعون ما يسمعون ولا يستفيدون من أبصارهم بشكل واع.

﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ ولعلَّ في هذه الآيات خلاصة رائعة للنظام الأخلاقيّ الإسلاميّ في مجال سلوك الفرد في المجتمع، قائداً كان أم شخصاً عاديّاً.

إنّ عليه وفق هذه الآية أن يحمل شعار العفو عن الإساءة إلى شخصه، فلا يلحُّ على الإنتقام ولا يتتبّع العثرات. وقد ورد عنه ﷺ أنّه لم ينتقم لنفسه من أحد قط[١]. وربما فسّر العفو بالتجاوز عن الإفراط والتفريط، وانتهاج الوسطية في السلوك، وهذا العفو أدعى لنشر المحبّة والسماح بين أفراد المجتمع. وعليه أيضاً أن ينسجم مع (العرف) وهو ما يتعارف عليه العقل الإنسانيّ العامّ، ويأمر به، وفي هذا دلالة على كون الأوامر الدينيّة تنسجم مع مقتضيات الفطرة الإنسانيّة ودوافعها، باعتبارها المنظم العام للسلوكات العقلائيّة، والأمر بالمعروف، وهذا يلاقي بطبيعته قبولاً رائعاً من الآخرين.

أمّا الأمر الثالث؛ فهو الإعراض عن الجاهلين، ففي هذا الإعراض تذكير لهم بجهلهم وتوبيخ لهم على إصرارهم على العناد، وعزل لهم عن تعاطف الناس. وكلُّ ذلك قد يقودهم لمراجعة أنفسهم من جديد، ويبعد صاحب الرسالة عن الدخول معهم في جدال لا جدوى منه. فالإعراض إذن فيه توفير لوقت العاملين عن الصرف في قضايا تافهة.

﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾﴾ وفي حالات السلوك الاجتماعيّ من الطبيعيّ أن يواجه الإنسان الرساليّ الكثير من الأنماط الغريبة التي قد تحرّكه وتغضبه وتفقده الرؤية المطلوبة. وهنا لابُدَّ من تذكّر الله تعالى والاستعاذة به من شرّ الشيطان ونفثاته، فذكر الله زاد المؤمن في كلِّ حال، وهو يذكّره بأنَّ الله تعالى يراقب مواقفه

١. تفسير الميزان (ج ٨ ص ٣٨٠)، صحيح البخاري (ج ٧ ص ١٠١)، مسند احمد (ج ٦ ص ٢٢٣).

دائماً، ويعلم ما يجري له، وبالتالي فهو يهديه سواء السبيل؛ لأنه وليّه.

﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَواْ إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾﴾ وهذه صفة يتميّز بها المتّقون دائماً، ذلك أنّهم غير معصومين عن الخطأ، فإذا زلّت بهم قدم أو مسّهم الشيطان الذي يطوف حولهم، متربّصاً بهم، لجأوا إلى ذكر الله واستعادوا وعيهم بكل سرعة وراحت بصيرتهم تتّقد فتقودهم نحو سبيل الخير.

﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لاَ يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾﴾ عودة إلى المشركين الجاهلين، وتذكير بعناصر السوء التي تمدُّهم بالغيّ والانحراف وتوسوس لهم بالشر وسوسة دائمة ليردّدها هؤلاء دون وعي.

﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُواْ لَوْلاَ اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يِوحَى إِلَيَّ مِن رَّبِّي هَذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾ كشف لأحد أساليب الشياطين التي توسوس للمشركين، فهم يحرّكونهم للمطالبة بمزيد من الآيات، لا لغرض الإيمان وتحرّي الحقيقة بل للتلاعب، فإذا جاءتهم الآية كذّبوا بها، وإذا لم تأتهم راحوا يتحكّمون ويسخرون، طالبين من الرسول أن يختار مما يقدر عليه بعض الآيات، ويقوم بها إن استطاع، إلاّ أنّ القرآن يعلّم الرسول أن يواجههم بحقيقة أنّه يتّبع ما يُوحى إليه من ربّه وأنّ هذا القرآن الكريم يحمل بنفسه كلَّ معاني الإعجاز، فكلُّ ما فيه جلاء للبصيرة وكلّه هدىً ورحمة للمؤمنين.

﴿وَإِذَا قُرِىءَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُواْ لَهُ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾ ومن الطبيعيّ أن يتمّ الإنصات التامّ للقرآن، حتّى يترك أثره المطلوب في النفس، ويجري فيها مجرى الرحمة الغامرة.

﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ وَلاَ تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ ﴿٢٠٥﴾﴾ تأكيد آخر لإدامة ذكر الله في كلّ حال وكلِّ زمان بالغدو (أوائل كل نهار) والآصال (أواخر كل نهار) وبما له من الخشوع والخوف، ولا داعي للجهر من القول بعد أن كان تعالى عليماً بكلِّ ما في أعماق الإنسان.

﴿إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ﴿٢٠٦﴾﴾ تلك هي حال المقرّبين من الله والذين تذوب الحجب المادّيّة بينهم وبينه جلّ وعلا، فهم لا يستكبرون مطلقاً عن العبادة بل يواصلون حياة التسبيح والتنزيه والسجود في محراب العظمة الإلهيّة.

سورة الأنفال (٨)

آياتها ٧٥

بِسْمِ اللَّه الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مرّ بنا أنّ البسملة جزء السورة.

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ قُلِ الأَنفَالُ لِلّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُواْ اللّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بِيْنِكُمْ وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ①﴾ سورة الأنفال مدنيَّة، نزلت بعد غزوة بدر، لتقصَّ بعض أحداثها ودروسها والملابسات التي رافقتها، وتتمحور حول الجهاد وتربية الأمّة المجاهدة، وإعدادها بتعميق عقيدتها وتركيز رؤيتها، إضافة إلى بعض الأحكام التي تنظّم تعاملها فيما بينها، أو مع الأمم والجماعات الأُخرى.

الأنفال جمع نَفَل، وهو الزيادة على الشيء. ومنه سمّيت الصلاة الزائدة على الفريضة بالنافلة، كما تطلق على الغنائم الحربيّة؛ لأنها زيادة على الهدف فهو الانتصار، وقد تشمل الأنفال غير الغنائم مما يسمى بالفيء.

وحكم الأنفال أنّها لله ولرسوله لتوضع حيثما أراد الله والرسول من مصالح الإسلام والمسلمين، وقد تفضَّل الله على المسلمين بأن أخذه منهم حين اختلافهم في كيفيَّة قسمته بعد بدر، ثمّ ردّه عليهم بعد إخراج الخمس منه.

وقد عالج القرآن حالة الاختلاف في الغنيمة بين المسلمين وهم في حالة جهاد بردّهم إلى التقوى وتذكيرهم بالله وحده، ومن ثمّ مطالبتهم بإصلاح ذات البين، وما يمكن أن يتركه الاختلاف من آثار سيئة على علائقهم المبنيّة على الأُخوَّة، لإيجاد المجتمع المتماسك المجاهد المؤمن المطيع لله ولرسوله.

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ②﴾ في الآية بيان لبعض الصفات الرئيسة للمؤمن، من وجل القلب وخشوعه حين ذكر الله، تأثراً بنور الإيمان، وإحساساً بالمسؤوليّة، والخوف من عدم القيام بها كاملة، ونتيجة للاحساس بعظمة مقام الربوبيّة وجلال هيبتها، ومن الازدياد المستمر في الإيمان من خلال تلاوة آيات الله والنظر فيها، مما يجعله يواصل السير التكاملي،

ومن التوكّل على الله تعالى وحده مما يعني السير بخطى ثابتة، وبعزم راسخ وإرادة قويّة.

﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾ والمؤمن يقيم الصلاة بأركانها، لتعبّر عن صلته القويَّة بالله تعالى، وكذلك فهو ينفق من ماله الذي رزقه الله دون منّ أو أذىً. وأصحاب هذه الصفات هم المؤمنون حقّاً، فليس الإيمان بالتشدُّق والتمنّي، وإنما هو ما وقر في القلب وصدَّقه العمل، ولهؤلاء المؤمنين درجات عظيمة عند الله، ومتفاوتة بحسب استعداد كلّ إنسان للخير والعطاء.

﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ ﴿٥﴾ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٦﴾﴾ يذكّر القرآن المسلمين هنا بموقفهم الكاره للحرب قبل البدء بها، وأنّ موقفهم من الغنائم في النهاية يذكّر بالموقف من بداية المعركة، مع أن خروج النبيّ ﷺ من المدينة كان خطوة مدروسة حقّة لابدَّ منها، وإن كره ذلك بعض المؤمنين الذين لم يروا مستلزمات الدخول في حرب مع المشركين كافية، ومن ثمّ كان الهلع بادياً على بعضهم حتّى كأنهم يتوجَّهون إلى الموت وهم ينظرون إليه.

﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتِيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللّهُ أَن يُحِقَّ الحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾﴾ يبدأ القرآن هنا ببيان سلسلة من الدروس الإلهيّة على المسلمين يوم (بدر) ويبدأ بتذكيرهم بالوعد الإلهيّ بالاستيلاء على أموال قريش وقافلتهم التجارية، أو الانتصار عليهم في القتال، وكيف أنّهم أرادوها غنيمة سهلة؛ لأنها أكثر أموالاً واقلّ رجالاً، وهي ليست بذات شوكة وقوّة وسلاح، ولكن الله أرادها ملحمة فاصلة بين الحقّ والباطل، تقطع دابر (آخر) الكافرين، حيث كانت بدر فاتحة وبداية لبقية الانتصارات التي توّجت بفتح مكّة، واستئصال الشرك وتثبيت الحقّ وإبطال الباطل، على الرغم من مؤامرات المشركين.

وبهذا يعطي القرآن درساً رائعاً للمسلمين، كي يفكّروا قبل المصالح الضيّقة بالمصلحة الرساليَّة، غير آبهين بالعقبات والتضحيات في سبيل تحقيق الأهداف العليا.

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُرْدِفِينَ

﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللّهُ إِلاَّ بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللّهِ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ وهنا يستعرض القرآن بعض مظاهر النصرة الإلهيّة للخطّ المؤمن مما آل به إلى النصر رغم ضعفه في العدّة والعدد. فحين استغاث المؤمنون بربّهم استجاب تعالى لطلبهم وأمدّهم بألف من الملائكة متتابعين، وكانت مسألة نزول الملائكة بشرى إلهيّة للمؤمنين تطمئن قلوبهم للإسناد الإلهيّ، وتدفعهم للتضحية المتواصلة، مطمئنين بأن الأمر كله بيد الله تعالى، وما عليهم إلاّ بذل أقصى الجهد، وتوفير الحالة المستعدّة لنزول الفيض والنصر الإلهيّ من قبل الله القويّ الحكيم في أفعاله.

﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّن السَّمَاء مَاء لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ ﴿١١﴾﴾ مظاهر أُخرى من اللطف الإلهيّ، والتثبيت الربّانيّ لهذه الفئة المجاهدة، فتارة يغشّيهم النعاس، أي تشملهم حالة من الغفوة تذهب عنهم تعب الطريق وآثار الرعب، فإذا بحالة من الأمن والطمأنينة تخلف حالة التعب والرعب، وأُخرى ينزل عليهم المطر فيمدّهم بما يغتسلون به، فيصلّون طاهرين من كل دنس، وتذهب عنهم الوساوس الشيطانيّة، وتتقوّى قلوبهم، وتثبّت أقدامهم في طريق الجهد الوعر.

﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلآئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُواْ الرَّعْبَ فَاضْرِبُواْ فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾﴾ وهكذا تشترك القوى الملائكيّة مع القوّة البشريّة المؤمنة في المعركة الضارية ضد الكفار، وتتجلّى الرحمة هنا من جهتين: اولاهما تثبيت الملائكة لقلوب الذين آمنوا، وثانيتهما الرعب الملقى في قلوب الكفار، وبذلك يتوفر الجوّ المساعد للهجوم المباغت على الكفار، وضرب أعناقهم وقطع أيديهم المقاتلة.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِقِ اللّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٣﴾﴾ إن الجاهليّة المقاتلة قطعت شوطاً بعيداً في حربها ضد الله والرسول خلال سنوات عديدة، وعملت ما استطاعت لإطفاء نور الحقّ، فكان جزاؤها الحقّ، الابتلاء بهذه الهزيمة الساحقة التي أذلّت كبرياءها وحطّمت غرورها، فكان ذلك مظهراً من مظاهر العقاب الإلهيّ الشديد، لسنّة تنطبق على كل فئة تعاند خطّ الحقّ وتعمل على إطفاء جذوته الإلهيّة المتّقدة.

﴿ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ ﴿١٤﴾﴾ فإن الهزيمة في الدنيا مقدمة لعذاب خالد في الحياة الأُخرى، حيث النار التي سجّرها الله لغضبه، وبهذا التهديد تنخلع قلوب الكافرين ويبعث فيهم الرعب.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفاً فَلاَ تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ ﴿١٥﴾﴾ بعد استعراض مظاهر اللطف الإلهيّ يستخلص القرآن من ذلك درساً يدفعهم للثبات في زحفهم المقدّس ضدّ الكافرين، بحيث لا تنطرح في ذهن المجاهد فكرة الفرار والإدبار عن المواجهة.

﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفاً لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاء بِغَضَبٍ مِّنَ اللّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٦﴾﴾ وربّما يتراجع الخطّ المؤمن المقاتل تراجعاً موقّتاً، للتمويه على العدو، وتغيير الموقع القتاليّ وانتخاب المواقع الأفضل، أو بالانضمام لفئة مؤمنة وتقوية مواقعها، وهذه حالات تراجُع صحيحة. أما الفرار الحقيقيّ فيعني الذنب الكبير، ويعني البوء والرجوع بغضب إلهيّ والابتلاء بعاقبة رهيبة.

ذلك أن الفرار هنا يترك آثاره على أمن الأمّة الإسلاميّة، واستقرار الرسالة في نفوس المؤمنين، كما يعبِّر عن ضعف إيمان الفارّ برسالته، وعدم انسجامه مع معتقداته بالله القويّ العزيز وبالنصر الإلهيّ للمؤمنين وبالنعم الإلهيّة التي تنتظر الشهداء في الحياة الأُخرى، كما يعني عدم الإيمان بضعف الخطّ الكافر رغم عدّته وعدده.

وبهذا البناء والترغيب والترهيب تتبلور شخصيَّة الإنسان المؤمن المقاتل المقتحم لصفوف الأعداء واثقاً من إحدى الحسنين: النصر أو الشهادة.

﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاء حَسَناً إِنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ ﴿١٨﴾﴾ وهذا المعنى من أهمّ مبادئ التصوُّر الإسلاميّ، ذلك أنّ الله تعالى هو المؤثّر الوحيد في الكون، فهو الذي يمنح القدرة للفعل الإنسانيّ، وهو الذي يأذن له بالتأثير، وهي حقيقة عامّة في كلّ شيء، إلاّ أنّها تتجلّى بكلّ وضوح عندما يأتي النصر الإلهيّ عياناً، كما كان الأمر في معركة بدر.

ومع كل ذلك يبقى للفعل الإنسانيّ دوره بإذن الله، حيث يدخل المؤمنون مرحلة البلاء الحسن عندما يجاهدون في سبيل الله، في حين ينتهي كيد الكافرين إلى حالة من الوهن والضعف والهزيمة.

وهذا التصوُّر، مع انسجامه التامّ مع العقيدة التوحيديّة، له أثره العظيم في دفع المؤمنين نحو الجهاد، والاستهانة بكلِّ القوى المتجمِّعة ضدَّهم؛ لأنَّ كيدهم سيعود ضعيفاً إذا ما أبلى المؤمنون بلاءً حسناً.

﴿إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَاءكُمُ الْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾﴾ يتّجه الخطاب إلى المشركين الذين دعوا الله أن يجعل الدائرة على أبعد الفريقين عن الهدى والخصال الحسنة، ويمنح الفتح للفريق الآخر، فيعلن لهم أنّهم إن كانوا يطلبون الحقيقة، فقد بدت لهم بكل وضوح، فما عليهم إلاّ الانتهاء والعودة إلى الحقّ وإلاّ عاد عليهم الغضب الإلهيّ.

أما الإصرار على العناد والاعتزاز بالقوة والكثرة العددية فلن يؤدّي إلاّ إلى الهزيمة، ذلك أنّ الله والكون كله مع الفئة المؤمنة المقاتلة في سبيل دينها.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾﴾ يطلب القرآن الكريم من المؤمنين الالتفاف حول دينهم وقائدهم الرسول العظيم، واتّباع أوامره بكلِّ دقّة وتنفيذها، والابتعاد عن الحالة الجاهليّة التي تسود الفئة المقاتلة، حالة ادّعاء الاستماع في حين لا يبدو أي أثر لأوامر القائد في النفوس.

﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابَّ عِندَ اللّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ اللّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾ تبكيت رهيب للمشركين فهم أسوأ من كلِّ من يدبُّ ويمشي على الأرض. فهم رغم ما يدعونه من علم وقدرة وحياة إنسانيّة، أبعد ما يكونون عن هذه الصفة. بل هم شرٌّ من الدوابُّ الحيوانيَّة؛ لأنّها تسير وفق الهداية التكوينيّة الفطريَّة، في حين يملك هؤلاء ما يسمو بهم إلى العلاء، ولكنهم يهدرون طاقاتهم ويعيشون في حالات الخمول الفكريّ والضياع واتّباع الأهواء الحيوانيّة الرخيصة. فهم الصمُّ البُكم رغم ما يملكون من ألسنة وأسماع، وهم الّذين لا يعقلون رغم قدراتهم العقليَّة، وهم الَّذين أفقدوا أنفسهم قابليَّة استماع الهدى، فلم يعودوا مؤهَّلين له، ولو أسمعهم الله ذلك لما كان منهم إلاّ الإعراض عن الحقّ والاتّجاه نحو الأهواء.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ لِلّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ يَحُولُ

بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ في قبال أولئك الذين أفقدوا أنفسهم كلَّ خصائص الحياة، تأتي هذه الآية الكريمة لترسم للمؤمنين طريق الحياة الإنسانيّة الحقّة، وهو طريق الدين والاستجابة لله وللرسول. ذلك أنَّ الحياة الإنسانيّة المتسامية تعني الحركة الدائمة على طريق التعقُّل ومعرفة الواقع الإنسانيّ، والتكامل المتواصل للتقرُّب من الكمال المطلق، والخلاص من الأهواء الرخيصة، واستكناه القدرات الكامنة، وهو ما يتركه الدين في النفوس من أثر.

إنّه تقرير على أن الله تعالى يعلم عمق الشخصيَّة الإنسانيّة، ويوجِّهها للحقِّ ويهديها سواء السبيل هداية فطريَّة، فلا مجال إذن للابتعاد عن الحقيقة أو إخفائها أو التنصُّل منها، خصوصاً وأن المصير بالتالي إليه تعالى ليحاسب النفوس ويجزي العاملين.

﴿وَاتَّقُواْ فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٥﴾﴾ وهنا يحذّر القرآن الأمّة من الفتن والنزاعات الداخليَّة داعياً إياها للتساند في دفع هذه الفتن، ذلك أنها لا تعود بالوبال على الظالمين المتسبّبين فيها فحسب وإنّما تصيب كل الأمّة بشرِّها، فالآية إذن، تركّز على عنصر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، باعتباره خصيصة من خصائص الأمّة. ثمّ هي تحذّر بالتالي من عذاب الله إذا ما تهاون أيُّ فرد في أمر يمس مجموع الأمّة ومسيرتها بسوء.

﴿وَاذْكُرُواْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾ تذكّر الآية المسلمين بالإعجاز الذي صنعه الإسلام، فنقلهم من شراذم قليلة مستضعفة على يد المستكبرين والجشعين، لا تأمن على نفسها وعرضها ومالها، إلى أمّة تقوى يوماً بعد يوم، وآواهم وأيّدهم الله بنصره، فقامت لهم دولة إسلاميَّة وكيان مقاوم وشخصيّة مستقلّة، ورزقهم الطيّبات وفتح عليهم الخيرات. كلُّ ذلك ليحملوا أمانة الله وينهضوا بعبء الرسالة الإسلاميّة، شاكرين لله أنعمه وأفضاله. وربّما كان هذا مثالاً للإحياء الذي أشارت إليه الآية السابقة، وهذا التذكير قائم في كلِّ حين، يدعو أبناء المسيرة المؤمنة للّجوء إلى كنف الإيمان، كي يحيوا حياة العزّ والطمأنينة، في ظلّ شريعة الله وأحكامه.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَخُونُواْ اللّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُواْ أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾﴾

الإنسان المؤمن مؤتمن على أمانات ومواثيق تمتدُّ من مواثيق الفطرة الداعية للّجوء لله الواحد القهّار، واستمداد التشريع منه وطاعته إلى مواثيق اتّباع الرسول، وهو رحمة الله للعالمين، وبالتالي مواثيق الحقوق الأخوية القائمة بين المؤمنين ومواثيق العبء الذي تتحمَّله الفئة المسلمة عبر التاريخ، باعتبارها الأمّة الوسط والشاهدة، وخيانة هذه المواثيق لا تنسجم مطلقاً مع ادّعاء الإيمان.

﴿وَاعْلَمُواْ أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلاَدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ ومن الطبيعي أن يرتبط الإنسان بالمال والولد، ولكن يبقى لهذا الارتباط حدوده الطبيعيّة التي لا ترقى لمستوى الارتباط بالأمانة الإلهيّة الكبرى، فهذه هي المقدَّمة على كلّ حال، والأجر الإلهيّ هو مطمح المؤمنين، وفي سبيله يضحّون بكلّ غال ورخيص.

﴿يِا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إَن تَتَّقُواْ اللّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾ إنَّ التقوى الحقيقيّة لله تترك على النفس صفاء ونوراً ورحمة إلهيَّة، يفرّق فيها الإنسان المسلم بين الحقّ والباطل، ويكشف بها ظلمات الطريق الصعب، طريق حمل الأمانة الإلهيّة والجهاد في سبيلها. وتتابع الرحمة الإلهيّة إثر تركُّز التقوى في النفس، فيكفّر الله السيئات (أي يمحوها) ويغفر الذنوب، فيعود الإنسان طاهراً حكيماً بالأُمور، بصيراً في مسيرته الحضاريَّة، وذلك فضل إلهيّ عظيم.

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللّهُ وَاللّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ تذكير آخر بالنِعم الإلهيّة حيث كان المشركون يمكرون بالرسول ليحبسوه أو يقتلوه أو لينفوه من مكّة ولكنَّهم غفلوا عن مكر الله بهم وجزائه العادل لهم حيث أنجى رسوله وبالتالي أنجى العصبة المؤمنة لتنتقل إلى حياة جديدة أسمى.

﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُواْ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاء لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأوَّلِينَ ﴿٣١﴾﴾ صورة من عناد المشركين وادّعاءاتهم الجوفاء، إذ ادّعوا أنّهم استمعوا إلى كلام الله فلم يجدوا فيه إلاّ أساطير الأوّلين الماضين وقصصهم الخرافيَّة!! وأنّهم يستطيعون الإتيان بمثله، وهذا أُسلوب آخر من أساليب المواجهة الدعائيَّة للرسالة الإسلاميَّة، وبلبلة الصفوف والتشكيك في الأصالة القرآنيّة، متناسين العظمة القرآنيّة وأسرار الإعجاز فيه.

﴿وَإِذْ قَالُواْ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاء أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ وهذه صورة أُخرى من العناد الجاهليّ، فبدلاً من أن يدعوا ربّهم لهدايتهم للحقّ، يطلبون منه تعالى أن يهلكهم إن كان ما يقوله الرسول حقّاً.

﴿وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾﴾ وعد إلهيّ بلطف عميم يمنع العذاب عن الأمّة مادام الرسول فيهم يمارس مسؤوليّته في هدايتهم ويأمل إنقاذهم من الضلال، ومادامت الأمّة تنهج منهج الاستغفار. فهاتان إذن نعمتان تضمنان للأُمة النجاة من العذاب الإلهيّ.

﴿وَمَا لَهُمْ أَلاَّ يُعَذِّبَهُمُ اللّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُواْ أَوْلِيَاءهُ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُ إِلاَّ الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾﴾ إنّ المشركين معرّضون للعذاب الإلهيّ من خلال ما يقومون من أعمال شنيعة، تذكر الآية في طليعتها مسألة المنع من حجّ بيت الله الحرام، والوقوف بوجه أولئك الذين يقصدونه ليقيموا شعائر الله ويحقّقوا أهداف الأنبياء، وهي تتلخّص بعبادة الله واجتناب الطاغوت، والمشركون يتذرعون لذلك بولايتهم على المسجد الحرام، في حين أن الولاية الحقيقيّة على البيت للمتّقين فقط دون غيرهم. وليست الولاية على البيت الحرام لشخص أو فئة أو قبيلة معيّنة. وبهذا يضمن الإسلام حرية العبادة والتعبير في المنطقة التي جعلها الإسلام منطقة الأمان لكل المسلمين، بعيداً عن بطش الطواغيت وإرهاب الظلمة والفاسقين.

﴿وَمَا كَانَ صَلاَتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلاَّ مُكَاء وَتَصْدِيَةً فَذُوقُواْ الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ أما محاولات المشركين لاستخدام الأساليب الدينيّة المزوّرة ضد الدين الحقيقيّ الأصيل، وما يؤدّونه من عبادات فهي أُمور شكلية جوفاء لا تحمل أي مدلول، بل إنّه مجرد صفير وتصفيق لا يتركان أي أثر تربويّ في النفس، في حين تعمل مناسك الحجّ على بناء الشخصيّة المؤمنة المتبرّئة من المشركين بكل ظواهرهم ومظاهرهم، والعابدة لله الساعية لتطبيق شريعته في كل الأرض.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ اللّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ وهذه هي الصفة الثالثة

للمشركين. إنّهم يستفيدون من القدرات المالية التي يملكونها، ليحقّقوا أغراضهم الدنيئة وينشروا الدسائس بين المؤمنين، وبالتالي ليمنعوا من انتشار النور الإلهيّ في العالم، والحيلولة دون إشعاعه على مختلف جوانب الحياة، إلاّ أنّ الآية تنذرهم بالحسرة والخيبة وعدم الوصول إلى الأهداف الخبيثة، ومن ثمّ الهزيمة المطلقة، والحشر إلى الدمار والنار والانهيار الحضاريّ.

وبهذا، توضّح هذه الآيات صفات نجدها في المشركين وأتباعهم اليوم وهي استغلال (القوة) و(الادّعاء الكاذب والتزوير) و(الذهب) للوقوف أمام حركة الإيمان الساعية للطواف الحقيقيّ حول البيت الحرام، وإعلان مبادئه واستلام رسالة الحجّ الاجتماعيّة.

﴿لِيَمِيزَ اللهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىَ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ وعد إلهيّ للمؤمنين بأنّه تعالى سيفرّق بين خطّ الحقّ وخطّ الباطل، ليكتشف العالم خبث الباطل وطيب الحقّ، وحينئذ لن ينفع الباطل تراكمه وتجمعه، ذلك أنّه تجمُّع ركام وحطام لا قيمة له، ومصيره إلى جهنَّم، وهو الخسران المبين، في حين يعيش خطّ الإيمان بكلِّ صلابة وقوَّة وترابط حقيقيّ لا يأبه لهذه المؤامرات.

﴿قُل لِلَّذِينَ كَفَرُواْ إِن يَنتَهُواْ يُغَفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينِ ﴿٣٨﴾﴾ تهديد للكافرين كي يقلعوا عن تآمرهم ضد خطّ الإيمان، ويستغفروا فيغفر الله لهم ذنوبهم الماضية، أما إذا أصرّوا على الباطل فإن سنّة الله في إهلاك الظالمين جارية بلاريب.

﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلّه فَإِنِ انتَهَوْاْ فَإِنَّ اللّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ أما خطّ الإيمان فعليه أن يقاتل الكفر وجنوده، مستهدفاً محو الفتنة من الأرض، وإعلاء كلمة الدين في كل أرجائها، فإذا انتهى الكفار عن غيّهم، فليعملوا الصالحات وليعلموا أنّ الله بصير بما يعملون.

﴿وَإِن تَوَلَّوْاْ فَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ مَوْلاَكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿٤٠﴾﴾ أما إذا أصرُّوا على إعراضهم عن الحقّ وعنادهم وصدِّهم عن سبيل الله، فليتأكّد المؤمنون من أنَّ الدعم الإلهيّ معهم، وأنه تعالى مولاهم وهو نعم المولى ونعم النصير، أمّا الكافرون فلا مولى لهم ولا نصير.

﴿وَاعْلَمُواْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُمْ بِاللّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى

الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾﴾ وهذه الآية حلّت نزاعاً جرى بين المؤمنين في الغنائم وأعلنت أن ما يغنمه المسلمون من أيّ شيء يجب تقسيمه إلى هذه الأقسام: قسم لله، وقسم لرسوله، وهكذا لذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل، وعلى الرغم من أن الآية واردة في غنائم الحرب، إلاّ أنّ النص الشريف لا يخصص الحكم بالحرب، وقد أكّدت روايات أهل البيت عليهم السلام [١] أنّ الخمس يشمل كل ما يغنم ويكسب، وأنّ الأسهم الستّة توزّع بين وليّ الأمر، باعتبار منصبه، وبين بني هاشم (يتاماهم ومساكينهم وابن سبيلهم) بعد حرمانهم من الزكاة. ثمّ أنّ الآية تذكّر بالجوّ الطبيعي الذي يجب أن يتوفّر للأحكام الإسلاميّة، وهو جوّ الإيمان بالله والرسالة المنزّلة على الرسول (وخير ما يوصف به هنا هو العبوديّة لله) يومَ الفرقان وهو وصف أعطاه الله تعالى لغزوة بدر، ليعلن أنّها تفصل بين مرحلتين أساستين: مرحلة الباطل ومرحلة الحقّ.

﴿إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لاَخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَـكِن لِّيَقْضِيَ اللّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾﴾ تذكير قرآنيّ باليد الإلهيّة التي صنعت النصر في بدر، فقد التقى الفريقان على غير ميعاد سابق وقد نزل المشركون وهم ذو عدّة وعدد، بجانب الوادي الأقصى، كما نزل المؤمنون في جانب الوادي الأدنى، وكان الجانب الأقصى ذا أرض صخريّة وماء، في حين كان الجانب الأدنى ذا أرض رخوة وبلا ماء. هذا، في حين تخلّص ركب أبي سفيان من المسلمين، إذ اتخذوا طريق الساحل. وهكذا واجه كلُّ فريق الآخر، وليتحقّق قضاء إلهيّ هو الذي كان في الواقع يدير المعركة، والله تعالى سميع عليم بكلّ الأُمور التي تحقّق ذلك.

﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلاً وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَلَـكِنَّ اللّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٤٣﴾﴾ وهنا أيضاً كشف لتدخُّل إلهيّ في المعركة،

---

١. الاستبصار للشيخ الطوسي (ج ٢ ص ٥٥) التهذيب للشيخ الطوسي (ج ٤ ص ١٢٢) الكافي للشيخ الكليني (ج ١ ص٥٤٥).

إذ يرى النبي ﷺ المشركين في منامه وهم قلّة، ويبشّر أيضاً بالنصر والاستيلاء على القافلة، فيخبر المؤمنين بذلك ليطمئنّوا بالنتيجة.

﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولاً وَإِلَى اللّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ ﴿٤٤﴾﴾ وهذا لطف إلهيّ آخر، إذ يبصر المؤمنون الكفّار ثلّة قليلة فيها فيعودون مطمئنين لقدرتهم على قتالهم، وكذلك يبصر الكفّار المؤمنين قليلين فيستهينون بهم، ولكنَّهم يدركون الأمر بعد الزحف، إذ يرونهم مثليهم رأي العين ـ كما تقول الآية ١٣ من سورة آل عمران ـ الأمر الذي أفزعهم وأحبط خططهم، فكانت الهزيمة. وهذه حقائق رآها البدريّون وأدركوا معها أنَّ اليد الإلهيّة هي سرُّ النصر التاريخيِّ العظيم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُواْ وَاذْكُرُواْ اللّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلَحُونَ ﴿٤٥﴾﴾ وهذا هو الدرس الآخر الذي يجب استخلاصه من هذه الواقعة، إنّه درس الثبات بوجه العدوّ مهما كانت قوّته، ودرس اللجوء إلى الله، وتذكُّر آلائه ونعمه ودعمه ونصره للمؤمنين، فإن ذكر الله هو سبيل الفلاح.

﴿وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُواْ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾ بالإضافة إلى عاملي الثبات وذكر الله اللّذين ذكرتهما الآية السابقة، تذكر هذه الآية عوامل طاعة الله والرسول، والوحدة الإسلاميّة في الموقف، وعدم النزاع العمليّ، والصبر، أي تخزين الطاقات وتحمّل المشاق في سبيل الهدف الأسمى. فهذه هي عوامل الفلاح وبدونها يبدو الفشل وتتبدّد الطاقات.

﴿وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَارِهِم بَطَرًا وَرِئَاء النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَاللّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾﴾ وهذا توضيح لسلوك الفئة المقابلة لخطّ الإيمان، إنّها تخرج بطرة متكبّرة ومرائية دون أن تملك إيماناً بما تقاتل من أجله، وساعية لخدمة الباطل والصدّ عن سبيل الله، ظانّين أنّهم يستطيعون الوقوف أمام القوّة الإلهيّة وهي بهم محيطة، وبهذا يحذّر القرآن المؤمنين من هذا السلوك، كما يهوّن بذلك قوّة عدوِّهم.

﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لاَ غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَاءتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لاَ تَرَوْنَ إِنِّيَ

أَخَافُ اللّهَ وَاللّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٤٨﴾﴾ إنَّ الفئة المشركة أسلمت قيادها لعدوّ الإنسانيّة الشيطان، فراح يسير بها نحو الهاوية: يزيّن لها أعمالها حتّى لتنسى كلَّ عيب فيها، بل يقودها حتّى لتأليه نفسها، والاغتراب عن ذاتها، وتصوّر نفسها قويّة غالبة، حتّى كأنها لا غالب لها من الناس. وإمعاناً في التغرير يعلن الشيطان أنّه يجير أتباعه، وهكذا يقود الشيطان هؤلاء المغفلين إلى الهاوية عبر هذه الشعارات الفارغة، وحينما تبدو الحقيقة ويتخاذل جيش الكفر، فمن الطبيعيّ حينئذ أن يعترف الشيطان بضعفه وكذبه ويتراجع عن شعاراته الفارغة (ينكص على عقبيه) ويعلن أنّه بريء من هذه الفئة الضّالّة، زيادة في تبكيتها وإظهاراً لعدائه، كما يعلن أنّه يرى الحقيقة التي لا يبصرونها بما له من طاقات وأنه يخاف الله ويخشى عقابه الشديد!! وهكذا تحيط الخيبة بجيش المشركين، فلا يملكون سبيلاً للنجاة منها وتلك عاقبة أتباع الشيطان.

﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَؤُلاء دِينُهُمْ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ فَإِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾ وهؤلاء أيضاً نموذج مخذّل لا يبصر من الأُمور إلاّ ظواهرها. فعندما شاهدوا الجموع الغفيرة للمشركين وقلّة المؤمنين ادّعوا أن الفئة المؤمنة قد أوقعها دينها في المهلكة (وهم بذلك يعبّرون عن المرض الذي في قلوبهم تجاه الإسلام) ولكن الحقيقة سرعان ما تنكشف حيث ينتصر المؤمنون الذين توكّلوا على الله واستندوا إلى عزّته وحكمته فنالوا الفلاح.

﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُواْ الْمَلآئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾﴾ تهويل للموقف الرهيب الذي ينتظر الكافرين البطرين الذين يتصوَّرون أن لا غالب لهم، في حين تتوفّاهم الملائكة وهي تضرب وجوههم وأدبارهم أو تبكّتهم وتبشّرهم بعذاب الحريق.

﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللّهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُواْ بِآيَاتِ اللّهِ فَأَخَذَهُمُ اللّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٥٢﴾﴾ وهكذا يشير القرآن إلى السُنّة الإلهيّة التي أعلنها من قبل وهي أنَّ عاقبة الظالمين هي الهلاك الحضاريّ، ويذكر لذلك مثلاً آخر، وهو عاقبة فرعون ومن ساروا بسيرته، ومن كانوا على غراره من الجبابرة البطرين المكذّبين بالله ورسله وشرائعه، والطاغين والساعين في الأرض بالفساد فعاقبهم الله بما جنته أيديهم وهو تعالى شديد العقاب.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّه لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّه سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾ وهذه الحقيقة نابعة من أُصول العقيدة التوحيديَّة، ذلك أنّ الله عزوجلّ هو الفيّاض اللطيف المنعم الكريم، مادام النّاس قابلين لذلك. فإذا غيّروا وفقدوا قابليَّتهم واستعدادهم لتلقِّي النعم، غيَّر الله تلك النعم، وهو تعالى سميع عليم بكلِّ شيء، لا يعزب عنه مثقال ذرة، وسننه جارية في الكون، فيجب أن تعتبر بذلك الشعوب والأفراد، ويشعروا بأنهم إذا شاؤوا أبقوا النعم، وإذا شاؤوا غيروها، فذاقوا العذاب الأليم.

وقد روي عن أهل البيت عليهم السلام: إنّ الله قضى قضاء حتماً إلاّ ينعم على العبد بنعمة فيسلبها إيّاه، حتّى يحدث العبد ذنباً يستحقّ بذلك النقمة[١].

﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُواْ بآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَونَ وَكُلٌّ كَانُواْ ظَالِمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ وهذا تأكيد تاريخي للحقيقة السابقة، ذلك أن آل فرعون اعتادوا الانحراف عن خطّ الفطرة تماماً، كمن سبقوهم من المكذّبين بآيات الله تعالى، فكانوا من الظالمين واستحقّوا الهلاك الحضاريَّ نتيجة ظلمهم وعتوّهم عن الحقيقة.

﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّه الَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾﴾ ورغم عموميّة لفظ الدوابّ إلاّ أنّه يستعمل في خصوص البهائم، وحينئذ يأتي هذا التعبير ليكشف عن الدرك الأسفل الذي يصل إليه الكافرون المفرّطون بعقولهم ومقتضيات فطرتهم، فيعودون شرّ البهائم؛ لأنهم كفروا بأنعم الله ولم يعودوا يتقبّلون صفة الإيمان.

﴿الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لاَ يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾﴾ فإن هؤلاء الكافرين يفقدون كلَّ خصيصة إنسانيّة ولا يعرفون أيَّ معنى خلقيّ، ولذا فهم ينقضون عهودهم التي يعطونها تحقيقاً لمصالحهم ثمّ لا يلتزمون بها، وينقضونها المرّة بعد المرَّة. فهم إذن لا يثبتون على عهد ولا يمكن أن يؤمن جانبهم. وحينئذ فلا أمان للمجرمين الخونة، ويجب توجيه ضربة قويّة لهم، حين الظفر بهم في الحرب، بحيث تتمزَّق لها أفئدة من يتَّبعون سيرتهم، ويتذكَّرون

١. الكافي، ج ٢، ص ٢٧٣.

النتائج الرهيبة لنقض العقود، فلا يقدمون عليها. وخلاصة المعنى، أنّه عند الظفر بناقضي العهود هؤلاء يجب القضاء عليهم بتوجيه ضربة يتمزّق بها السائرون على طريقهم.

﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاء إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الخَائِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾ وحين تبدو علامات الخيانة من الكافرين المعاهدين يجب إعلامهم بذلك، والتوجُّه لقتالهم بعد هذا الإعلام، معاملة لهم بمثل ما يفعلون من نقض العهد وخيانة له، والله لا يحب الخائنين، ولا يمنحهم أي حقّ.

﴿وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُواْ إِنَّهُمْ لاَ يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾﴾ وهذا تهديد إلهيّ للكافرين، المتبجّحين بقوتهم وجبروتهم، فهم يتصوّرون أنفسهم سبقوا إلى النصر عبر خداعهم ونقضهم للعهد، في حين أنّهم أعجز من أن يقفوا أمام الإرادة الإلهيّة القاهرة.

﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾﴾ وهذا أمر قرآنيّ خالد لكلِّ أجيال الأمّة الإسلاميَّة، ينسجم مع طبيعة وظيفتها التاريخيّة الحضاريَّة، باعتبارها خير أمّة أُخرجت للناس، والأمّة الشاهدة، والأمّة الوسط، فمن الطبيعي أن تمتلك هذه الأمّة كلَّ عناصر القوّة العسكريَّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة وغيرها، وتمتلك كلَّ العناصر التي تؤهلها لإرهاب أعداء الله وأعدائها المعروفين، بل وغيرهم ممن يقفون خلفهم، متسترين دون أن يعلنوا العداوة خوفاً من المسلمين. ومن الطبيعيّ أنَّ من عناصر القوّة الإنفاق في سبيل الله، لسدِّ الثغرات الاجتماعيّة ونشر العدالة، وهو يعود على صاحبه بالخير والعطاء الإلهيّ.

﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦١﴾﴾ وإذا بدت من الكفّار علائم الجنوح للسلم والموادعة مع المسلمين، كان على الرسول ﷺ الاستجابة لهذه الرغبة، ويرى بعض العلماء أنَّ هذا الحكم كان موقّتاً، وقد جاء الحكم النهائي في سورة براءة.

﴿وَإِن يُرِيدُواْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللّهُ هُوَ الَّذِيَ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾﴾ أما إذا حاول الكفّار الجانحون للسلم أن يخادعوا الرسول ويستفيدوا من حالة الموادعة لغايات خبيثة، فإن الله تعالى يتكفل للرسول بالنصر. وفي الآية إشارات لعوامل الانتصار الإسلاميّ

الأوّل على كل العقبات وفي طليعتها التأييد الإلهيّ للرسول بالنصر، وبوقوف المؤمنين خلفه ﷺ بكلّ صلابة ووحدة حقيقيّة.

﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مَّا أَلَّفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَـكِنَّ اللّه أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ إنّ الوحدة الحقيقيّة لا تقوم على أساس المصالح الوقتيَّة والعوامل الجغرافيّة، أو الجنسيَّة، أو القوميَّة، أو غيرها، وإنما تقوم على أُسس العقيدة الواقعيَّة، البناءة، النافذة إلى كلِّ الوجود الإنسانيّ، حيث تربط القلوب وتوجد تلاحماً فريداً بينها، وهي حالة لا تتحقّق إلاّ بالتأييد الإلهيّ العظيم، ولا يمكن أن توجدها العوامل المادّيّة، حتّى لو كان ذلك على مستوى إنفاق ما في الأرض جميعاً.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُواْ مِئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّئَةٌ يَغْلِبُواْ أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾﴾ بعد تلك المقدّمة التي ركّزت النعمة الإلهيّة والتلاحم العميق بين المؤمنين، يأتي هذا الأمر بالتوكُّل على الله تعالى والاعتماد الدائم على دعمه، ومن ثمّ الاعتماد على الطاقة الذاتيّة للمؤمنين المخلصين. وبثّ روح الحماس فيهم، مع ضمان النصر على العدوّ رغم القلَّة. فإن فئة صغيرة من المؤمنين الصابرين يمكنها التغلُّب على عشرة أضعافها، إن حقّقت مفهوم الصبر، وانطلقت من خلفيّاتها العقائديّة وطاقاتها المعنويَّة الهائلة، وتلاحمت في وحدة متراصَّة حقيقيَّة. في الوقت الذي لا يملك الكفّار المقاتلون ما يشدُّهم إلى بعضهم، فهم لا يعرفون السبيل الحقيقيّ إلى التلاحم، ولا يدركون حقيقة الهدف الذي يقاتلون من أجل تحقيقه.

﴿الآنَ خَفَّفَ اللّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُواْ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللّهِ وَاللّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ وتبعاً لحالات الصبر والوعي تكون المقاومة، وتكون القدرة على المواجهة، ولـمّا كان هناك ضعف بين المسلمين لا يقدرون معه على المواجهة المكثَّفة، جاء التخفيف القرآنيُّ عنهم ليكتفى بثبات المجتمع الإسلاميّ أمام ضِعف عدده من الكفّار. وفي الآيتين إشارة واضحة لتناسب نوع المقاومة مع نوع الصبر، والروح المعنويّة ونوع الوعي الذي يملكه المقاتلون المدافعون عن حمى العقيدة.

﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾﴾ والملاحظ في هذه الآية الكريمة أنّ الجيش الإسلاميّ يجب أن يرتفع في نظرته وتعامله على المنافع القصيرة والعواطف الوقتيَّة إلى مستوى الحفاظ على المصالح العليا، وتحقيق الأهداف البعيدة للأُمة، وحينئذ فإن الخطر الداهم يجب درؤه بكلِّ حزم وقوّة، دونما تفكير بالمنافع المادّيّة والعواطف الزائلة، فإذا لم يثبت كيان الإسلام، ولم تتقوَّ دعائمه، ولم يثخن المسلمون في الأرض، فإن الواجب على النبيّ وأتباعه المقاتلين أن يشتدّوا في قتال الكافرين ومحوهم لكي تطير لهول ذلك القلوب المحاربة، ولا يبقى أمل في النجاة أو استعادة الأسرى عبر بذل الأموال والمفاداة، في حين لا يفكر المسلمون إلاّ في القضاء على العدوّ دونما هوادة.

فإذا ما انقلب هذا التصوُّر إلى عمليَّة تأسير واسعة رجاء الفداء والحصول على ما يصلح وضعهم الاقتصاديّ، متناسين الخطر الداهم، فإن ذلك سوف يصيبهم بالعذاب العظيم، وربَّما يترك أثره الكبير على كيانهم الذي لم يتقوَّ بعدُ ولم تضرب جذوره في الأرض.

﴿لَّوْلاَ كِتَابٌ مِّنَ اللّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾ وربَّما كانت هذه الآية تشير إلى أنّ الله تعالى تكفَّل لهذه الرسالة أن تنتصر، وللرسول أن يتغلّب على أعدائه. ولولا ذلك لكانت عمليَّة التأسير التي رجَّحها المسلمون في بدر على القتل خطيرة النتائج على كلّ المجتمع الإسلاميّ. وقيل: إن المراد هو انّ الله تعالى تكفَّل بالغفران والعفو عن أهل بدر، وإلاّ فإنّهم قد يكونون مستحقّين للعذاب نتيجة ذلك.

﴿فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلاَلاً طَيِّبًا وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾﴾ بعد ذلك العقاب الشديد تبيح الآية للمسلمين أن يتمتَّعوا بالغنائم، باعتبارها حلالاً طيّباً، داعية إيّاهم للتقوى والتمسُّك التام بأحكام الله، متذكّرين اللُّطف والمغفرة والرحمة الإلهيّة العميقة.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الأَسْرَى إِن يَعْلَمِ اللّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾﴾ يتوجّه القرآن هنا إلى أسرى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ويخاطب قلوبهم، محرّكاً فيهم الاتّجاهات الخيّرة، ومذكّراً بالتعامل الإسلاميّ الجيد معهم، على الرغم من أنّهم كانوا يستحقُّون القتل نتيجة نيّاتهم الخيانيَّة السابقة، للقضاء على

الدعوة الإسلاميّة واجتثاثها من أُصولها، مع ملاحظة ضعفها وعدم تمكّنها من الأرض آنذاك... فالآية الشريفة تدعوهم للنيَّة الخيّرة، مذكِّرة إيّاهم بأنَّ الله تعالى يعلم ما في القلوب، وواعدة إياهم بالتعويض عليهم كلَّ ما خسروه نتيجة الحرب والفداء، إن كانوا يتَّجهون الاتّجاه الخيّر، بالإضافة لحصولهم على الغفران الإلهيّ عن الذنوب. وفي هذا دفع لهم إلى ساحة الإيمان.

﴿وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُواْ اللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾ أمّا عاقبة الخيانة فإنّها الوبال العميم. وقد جرَّب الأسرى المشركون ذلك في حربهم ضدَّ المسلمين، فلينتهوا ويتركوا أُسلوب الخيانة وإلاّ لأمكن الله منهم بلا ريب، فهو تعالى عليم حكيم في أفعاله.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَواْ وَّنَصَرُواْ أُوْلَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلاَيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُواْ وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلاَّ عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾﴾ تركّز هذه الآية الكريمة على رابطة العقيدة والتزام مقتضياتها، باعتبارها أهمَّ رابطة في المجتمع المسلم، ولمّا كانت تشير في تطبيقها الأول إلى المجتمع الإسلاميّ الأوّل، فهي تؤكّد الولاية المتبادلة بين المهاجرين المجاهدين ـ بما يملكون من نفس ونفيس ـ والأنصار المؤوين لهم، وهي ولاية عامّة تشمل كلَّ ما يمكن تصوّره من متعلِّقات لها: كولاية الإرث، والتكافل في الديات، والمغارم، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وغيرها. وذلك لكيلا يكون هناك عوز في جناح من المسلمين ولتشتدَّ الأواصر، فيصبح الجميع عائلة واحدة متضامنة متكافلة.

أما أعضاء هذه العائلة من المؤمنين الذين لم يستجيبوا لنداء الهجرة وبقوا في أوطانهم، مؤثرين الإبقاء على مصالحهم هناك، فإن هذه الولاية الواسعة لن تشملهم إلاّ في إطار الدفاع عن وجودهم إذا هدَّدهم خطر واستنجدوا بالمسلمين، فعليهم مناصرتهم ومقاتلة أعدائهم من المشركين، شريطة أن لا يكون هناك عهد قائم بين هؤلاء المشركين والمجتمع الإسلاميّ بعدم القتال، فحينئذ ترجّح مصالح المسلمين العليا على مصالح تلك الفئة المسلمة غير المهاجرة.

﴿وَالَّذينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾﴾ والمجتمع الكافر بدوره متضامن يحاول الحفاظ على وجوده، ومقاتلة المؤمنين بشكل

متضامن، الأمر الذي يستدعي التلاحم والتكافل لمواجهته. أما إذا لم يتحقَّق ذلك ولم ينظر للعلاقة الإيمانيَّة باعتبارها وحدة، وللعلاقة الكافرة باعتبارها وحدة أيضاً، فإنه ستكون هناك نتائج خطيرة وفتنة وفساد كبير. ويمكن أن تشكّل الآية توجيها عامّا للمسلمين في كل عصر يدفعهم للولاية المشتركة بعد أن أقام أعداؤهم ولاية مشتركة بينهم ضدّ المسلمين.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ آوَواْ وَّنَصَرُواْ أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾﴾ عودة إلى مجتمع الإيمان والهجرة والجهاد في سبيل الله والإيواء والنصرة، وتركيز على أن هذه الخصائص هي التي تشكّل المجتمع الإيمانيَّ الحقّ، وتؤهّله للمغفرة الإلهيّة، والتقدُّم المادّيّ الكريم. وبدونها تفقد الأمّة خصائصها، وبالتالي تفقد دورها الحضاريَّ المفروض.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُواْ مِن بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ مَعَكُمْ فَأُوْلَئِكَ مِنكُمْ وَأُوْلُواْ الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللّهِ إِنَّ اللّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧٥﴾﴾ فإذا هاجر المؤمنون بعد ذلك وانضمُّوا إلى دار الهجرة، فقد دخلوا في الولاية العامّة المشار إليها آنفاً.

وبعد أن مضت فترة كانت فيها الولاية والتكافل العامّ هو السائد بين المسلمين في الصدر الأوّل، حتّى في مجال التوارث، جاءت هذه الآية الكريمة لتقرّر الحكم الدائم فتعلن: أنّ التوارث إنّما يتمّ على أساس الرحم فأولو الأرحام بعضهم أولى ببعضهم في شريعة الله، ولعلَّ ذلك باعتبارهم امتداداً طبيعياً لذويهم، ليكون الدافع الذاتيّ للتملُّك مستمراً حتّى آخر لحظة من الحياة، مما يؤدّي إلى الإعمار المتواصل للأرض.

سورة التوبة (٩)

آياتها ١٢٩

وتسمّى بسورة (براءة) أيضاً، وقد اختلف في كونها سورة مستقلّة أو أنها تابعة لسورة الأنفال، وقد أتُّفق على نزولها في السنة التاسعة للهجرة، وهي تحدّد بدقّة، العلاقة بين المجتمع المؤمن والكافرين، وقد بلّغها الإمام عليّ عليه السلام يوم الحجّ الأكبر من قِبَل النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم [1]. ولعلّ السرّ في عدم شروعها بالبسملة ـ إن كانت سورة مستقلة أنها نزلت لتعلن السخط والغضب الإلهيّ ضدّ المشركين، مما لا ينسجم مع البسملة وما فيها من معاني الرحمة.

﴿بَرَاءةٌ مِّنَ اللّه وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ فَسِيحُواْ فِي الأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُواْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللّه وَأَنَّ اللّه مُخْزِي الْكَافِرِينَ ﴿٢﴾﴾ لما كانت الرسالة الإسلاميّة قد تأصّلت في النفوس وقويت، ولما كان المشركون ـ بشكل طبيعيّ ـ لا يتّبعون إلاّ مصالحهم، ويتعاملون من منطق القوّة قبل أي التزام، ولما كان الإسلام يسعى لتطهير الأرض من لوث الشرك والمشركين الذين لا يستحقّون صفة الإنسانيّة، بعد أن خرجوا على مقتضيات فطرتهم، لكل ذلك ولغيره وجدنا القرآن هنا يعلن البراءة من الشِرك ويرفض التعايش معه.

والملاحظ هنا أنّ المشركين المعاهدين كانوا على قسمين كما يبدو، فبعضهم غير ملتزم بعهوده يعمل على نقضها باستمرار متى ما سنحت له الفرصة، والآخرون يلتزمون العهد. وطبيعيّ أن يكون التعامل معهم مختلفاً، فأما الناقضون فإن القرآن يمهلهم أربعة أشهر، لهم الحقّ فيها أن يسيحوا في الأرض ثمّ يختاروا بين الفناء أو الدخول في مجتمع الإيمان، محذّراً إيّاهم بأنهم مهما بلغت قوّتهم لن يعجزوا الله القدير، بل سيخزيهم الله ويذلهّم.

﴿وَأَذَانٌ مِّنَ اللّه وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ أَنَّ اللّه بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللّه وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾﴾ إنّه الإعلان الإسلاميّ العامّ الذي حمله الإمام عليّ عليه السلام ليقرأه يوم الحجّ الأكبر، يوم عيد النحر، (والعمرة هي الحجّ الأصغر) وحين تلتقي الجموع. إنّه إعلان البراءة

---

١. سنن الترمذي (ج ٤ ص ٣٣٩)، مسند أبي يعلى (ج ٥ ص ٣١٢)، مسند احمد (ج ٢ ص ٢١٢).

من المشركين، ورفض التعايش معهم ومتابعتهم، والسعي لتطهير الأرض منهم، إلاّ أن يتوبوا، فذلك طريق الخير الحقيقيّ، إمّا الإعراض عنه فإنّه سيؤدّي بهم إلى الهلاك؛ لأنهم سيواجهون قوّة الله المتمثّلة في قدرة المجتمع المسلم وقيادته، وسيقتلون بالعذاب الأليم.

﴿إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُواْ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّواْ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾﴾ أما أولئك الذين ثبتوا على عهدهم، والتزموا مواثيقه، ولم ينقصوا منها شيئاً، ولم يساندوا أعداء الإسلام، فإن الإسلام ملتزم عهوده تجاههم، لا يخرقها ولا يخرمها حتّى تنتهي المدّة المحدّدة في العقد، والتزام العهد من صفات مجتمع المتّقين، حتّى ولو كان العهد مع المشركين.

﴿فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾﴾ وبعد انتهاء المدة التي حرّم الله فيها قتال الكافرين الناقضين للعهد، فإن المسلمين مأمورون بمتابعة المشركين أينما وجدوهم، وسدِّ المنافذ عليهم، وأخذهم ومحاصرتهم والترصُّد لهم في كل مرصد، فلا خيار لهم حينئذ من الفناء إلاّ أن يتوبوا إلى الله، ويرجعوا إلى نداء الفطرة التوحيديَّة، ويدخلوا في عداد المسلمين، ويقوموا بكلِّ الواجبات التي يقوم بها المسلمون من إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة. وحينئذ يغفر الله لهم ما جنوه من قبل، ويُخلى سبيلهم، ويعيشون في أمان كأعضاء في المجتمع المسلم.

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾﴾ وبهذا المقطع القرآني نعرف أن الغاية الرئيسة من تلك الشدَّة هي إعادة المشركين إلى صوابهم، وإبعادهم عن حياة الخسّة والضياع التي جعلتهم ينسون أنفسهم ويقفون أمام خطّ الهداية الإلهيّة عقبات كبرى لابد من القضاء عليها. فالقرآن هنا، وبالرغم من ذلك الأمر الشديد، يفسح المجال لأي مشرك يريد أن يستمع إلى كلام الله، مستجيراً بالرسول، يفسح المجال له، ليفكّر ويعي النداء الإلهيّ، ضامناً له العودة إلى مأمنه، ليفكّر ويفكّر، ويتخلَّص من جهله، ويعود إلى حياة الإيمان والإنسانيّة، ولتنعم بعد ذلك البشريّة في حياة مطمئنة في ظلِّ الدين الإلهيّ، وعلى أساس من التوحيد، وتتخلَّص من جرثومة الشرك وفساده الكبير الخطير.

﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللّهِ وَعِندَ رَسُولِهِ إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُواْ لَكُمْ فَاسْتَقِيمُواْ لَهُمْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾﴾ إنّ التزام العهد والميثاق إنّما ينطلق من منطلقات إيمانية وقيم روحيّة قويّة، الأمر الذي يضمن الثبات على مقتضيات العقود والتزام لوازمها، في حين يفقد المشركون كلَّ هذه الأُسس الأخلاقيّة والقيم الروحية، فلا معنى لتصوُّر التزامهم العهود. وفي الآية إشارة واضحة إلى ابتناء الأخلاق على القواعد الإيمانيّة، فلا معنى لكل الادعاءات الإنسانيّة التي تتبجح بها المبادئ المادّيّة، في حين لا تجد الأخلاق لديها أي مضمون.

ومع ذلك، فإن على المسلمين الوفاء بالعهود الممضاة عند المسجد الحرام، باعتبار ما تحمله هذه العهود من ضمانات نابعة من عظمة المكان لدى الطرفين.

ثم إنّ الالتزام متقابل، فما دام الطرف المقابل ثابتاً، فإن الأمر مضمون من الطرف الإسلاميّ؛ لأنّ ذلك من مقتضيات التقوى والخلق الأصيل، وهو ما يتمتَّع به المسلمون.

﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لاَ يَرْقُبُواْ فِيكُمْ إِلاًّ وَلاَ ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨﴾﴾ يتكرَّر هذا الاستفهام الاستنكاري هنا ليؤكّد الحقيقة الآنفة الذكر، وذلك عبر ذكر حقيقة يثبتها تاريخ تعامل المشركين مع الفئة المسلمة. إنّه تعامل وحشيّ عبر التاريخ، فالمشركون لا يبالون بشيء من مقتضيات الأخلاق والطبيعة الإنسانيّة، فهم لا يعيرون آيات الله قيمة ويبيعونها بأرخص الأثمان وهذا هو العمل السيّئ، بل يسحقون كل القيم حينما يسيطرون على المسلمين. إنّهم يرتكبون كل جريمة ولا يلتزمون أي «إلّ» أو «خلق واضح» أو «بند صريح» من بنود العهد، ويرتكبون كل مايُذَم عليه الإنسان بطبيعته إذا ارتكبه.

نعم، قد تنطلق أبواق دعايتهم وألسنتهم بالكلام المعسول والشعارات البّراقة المؤمّنة والمرضية، إلاّ أنّ قلوبهم في الواقع تغلي حقداً، مما يدفع أكثرهم للخروج عن مقتضيات الطبيعة الإنسانيّة والدخول في صفة الفسق عنها.

﴿اشْتَرَوْاْ بِآيَاتِ اللّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاء مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لاَ يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلاًّ وَلاَ ذِمَّةً وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾﴾ إنّهم بخروجهم عن النسق الإنسانيّ الطبيعيّ، وفسقهم عن المسيرة الأصيلة، استبدلوا بآيات الله، التي عرضت عليهم

سبل النجاة، ثمناً قليلاً، وحياة خسيسة، وراحوا يقفون في وجه السائرين إلى الله، ويقيمون شريعة السوء والانحراف والاعتداء على حقوق الآخرين.

﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ وَإِن نَّكَثُواْ أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُواْ أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لاَ أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾﴾ أما إذا عادوا إلى سبيل الإيمان والتزموا عملياً بمقتضياته، فإن الإيمان يجبُّ ما قبله، وحينئذ فإن علائق الأُخوّة هي التي تحكم، والمحبَّة هي التي تسود. أما إذا نقضوا ونكثوا العهد والمواثيق وراحوا يوجّهون ضرباتهم إلى الدين، فإنه تجب مقاتلة أئمّة الكفر والداعين إليه حتّى يرجعوا إلى صوابهم.

﴿أَلاَ تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُواْ أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَؤُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤُمِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ ما المانع من قتالهم بعد أن نقضوا عهودهم وصمّموا على إخراج الرسول، وابتدأوا بقتال المؤمنين غير الخشية من عدّتهم؟ وهذه لا معنى لها في قبال طاعة الله وخشيته والدفاع عن دينه.

﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَن يَشَاء وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾﴾ انطلقوا لقتال قوى الشِرك، واتكلوا على الله ووعده الكريم لكم بالنصر، وشفاء الصدور المؤمنة وذهاب غيضها والتوبة، ووعده لتلك القوى بالعذاب والخزي الأليم. إنّه الأمل الكبير يدفع المؤمنين للجهاد بعد أن تحقّقت كل عوامله الأخرى من فساد المشركين وارتفاع الخشية إلاّ من الله.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُواْ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُواْ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ اللَّهِ وَلاَ رَسُولِهِ وَلاَ الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ إنّ الجهاد بلاء وامتحان، ولابدَّ أن يتتابع البلاء لتتمّ عمليّة التربية المطلوبة، وتتربىّ النفوس على الثبات والتضحية في سبيل الله، والتزام منهج الله ورسوله والمؤمنين، دونما أيّ انحراف أو ضعف نفس يقود للتمسّك بسبل الكفر والانخداع بمغرياته، والسير في سبله الخادعة. وتنتهي الآية بتأكيد حقيقة العلم الإلهيّ بخبايا النفوس، لئلا يبقى مجال للتقاعس ومخادعة النفس، ولتسدَّ كلّ الأبواب أمام التخاذل في طريق الجهاد.

﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُواْ مَسَاجِدَ الله شَاهِدِينَ عَلَى أَنفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿١٧﴾﴾ هذه الآية وما بعدها تقرران حقيقة من حقائق التصوّر الإسلاميّ الأصيل، وهيّ أنّ الإيمان والإخلاص روح العمل وأساسه، وما لم يتوافرا في الإنسان فإنّه لا يستطيع التحدث عن قيمة إنسانيّة وعمل خلقيّ ممدوح. فالمساجد هي بيوت التربية والتزكية الأخلاقيّة، وليست لأيّة مساهمة للفئة المشركة في بنائها أثر ولا قيمة مادامت لا تنسجم مع أهدافها، وما دامت تشهد على نفسها بالكفر من خلال أقوالها وافعالها، وحينئذ لا عمل ينفعها ولا نجاة لها من النار.

﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ الله مَنْ آمَنَ بِاللّه وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللّهَ فَعَسَى أُوْلَئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾﴾ والمؤمنون بالله والآخرة والمصلّون المزكّون والذين لا يخشون أحداً إلاّ الله هم وحدهم الذين يرفعون قواعد بيوت الله؛ لأنهم في مسيرتهم ينسجمون مع أهدافها الإنسانيّة الهادية.

﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللّه وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ الله لاَ يَسْتَوُونَ عِندَ الله وَالله لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾﴾ وهذا مثال ثانٍ على تلك الحقيقة، فلا يكفي أن نقيّم العمل بآثاره الإيجابيّة الخارجيّة، بل يجب ملاحظة الأُسس الإيمانيّة التي يحملها العاملون؛ لأنها تمنح العمل أعظم قيمة وتضمن استمراريّته من خلال كونه نابعاً من منبع الإيمان الفيّاض. وقد جاء في الرواية[١] إنّ الآية نزلت في العباس بن عبدالمطلب وشيبة، إذ كانا يتفاخران بالسقاية والعمارة، وقارنت ذلك بإيمان عليّ بن أبي طالب وجهاده ورجّحته عليهما. وهكذا نعرف أنّ الهداية إنما تنال المخلصين المؤمنين، أما الظالمون فلا هادي لهم.

﴿الَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ الله بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ الله وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾﴾ هذا هو معيار التفاضل ونيل الدرجات عندالله. إنّه الإيمان، والهجرة، والجهاد في سبيل الله بالأموال والأنفس، ولا فوز بدون ذلك.

---

١. مجمع البيان، ج ٥ ، ص ٢٨، الدر المنثور للسيوطي (ج ٣ ص ٢١٨)، شواهد التنزيل للحسكاني (ج ١ ص ٣٢٥).

﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ إنّه الأمل الكبير والبشارة العظمى بالرحمة والرضوان، والجنّة ذات النعيم الدائم، وبه يضمن الإسلام منبعاً متدفّقاً، لا ينضب، للعمل الصالح والجهاد في سبيل الله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ آبَاءكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاء إَنِ اسْتَحَبُّواْ الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ ولكي يتمّ ضمان الدفع التامّ الدائم للجهاد والعمل الصالح في سبيل الله، يعمل القرآن الكريم على رفع أحد أعظم الموانع من طريق المؤمنين وهو مسألة (الولاء) لغير الله، ذلك أن الولاء تستقى جذوره من العاطفة، والعاطفة إذا التهبت غلبت الوعي والعقل، فينبغي أن تهذَّب وتوجَّه لتعمل منسجمة مع العقيدة الواعية. ومن هنا ينهى القرآن عن الولاء للآباء والإخوان الذين يرجّحون الكفر على الإيمان؛ لأنّ هذا الولاء يستتبع التبعيّة، أو في الأقل، التقاعس في طريق الجهاد، وتمحُّل الأعذار، مما يضرُّ بالمسيرة الهادفة ويؤدي إلى ظلم كبير.

﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ واستمراراً لذلك التوجيه، توجيه نفي الولاء لغير الله، يركّز القرآن على الحبّ: فحبّ المؤمن انما هو لله والله هو الكمال المطلق، والحبّ مهما تعالى لله ترك آثاره الإيجابيّة على مجمل الوجود الإنسانيّ، وارتقى به من المستويات الواطئة، والأهداف الضيّقة، والتعلّق بالدنيا التافهة، والتركيز على المطامع الشخصيّة وأمثال ذلك. ولذلك يجب أن يلحظ المؤمن هذا المقياس الحسّي الوجدانيّ في نفسه، فهل الله والجهاد في سبيله أحبُّ لديه من الآباء، والأبناء، والإخوان، والأزواج، والعشيرة، والمال، والتجارة، والمسكن، أم لا؟! فإن كان الجواب بالنفي ـ والعياذ بالله ـ فإنه التهديد الكبير بالسقوط والضياع والفسق عن طريق الإيمان ومسيرة الفطرة.

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ اللّهُ

سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَذَلِكَ جَزَاء الْكَافِرِينَ ﴿٢٦﴾ واستمراراً في تعميق الأمل في النفوس، وشدّ القلوب إلى الله وتأييده، يذكّرهم القرآن الكريم بنصر الله لهم في مواطن كثيرة وحتى في (حنين) التي غفل فيها المسلمون عن السبب الأول للنصر، وهو اللّطف الإلهيّ، واعتمدوا على كثرتهم، إذ قد اجتمع لهم لأول مرة جيش عدّته اثنا عشر الفاً[١]، إلاّ أن ذلك لم يغن عنهم شيئاً، وضاقت عليهم الأرض وهي واسعة، ثمّ انهزموا مدبرين. نعم، حتّى في حنين كانت الرحمة الإلهيّة تتجلّى لهم في سكينة الله ينزلها على رسوله وعلى المؤمنين، وفي جنود غير مرئيين يحاربون الكفّار ويصبُّون عليهم العذاب، فهو جزاؤهم في النهاية، ويتمُّ النصر الإلهيّ المؤزّر.

﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللّهُ مِن بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَن يَشَاء وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾ إنّ النصر الإلهيّ للمسلمين في (حنين) كان رحمة لهم على الرغم مما بدا منهم من ركون للكثرة وإعجاب بها. وهو شعور منحرف كان ينبغي أن يتنزّهوا عنه. ومن هنا تأتي هذه الآية لتعلن توبة الله عليهم؛ لأنه تعالى غفور رحيم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلاَ يَقْرَبُواْ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاء إِنَّ اللّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ هذا الإعلان القرآني المهمّ يشكّل منعطفاً حسّاساً في مسيرة الإسلام. إنّه يعلن انقطاع صلة المشركين عموماً بالمسجد الحرام؛ لأنه مركز الطهر والطهارة، وهم نجس مستقذر، ترفضهم الفطرة بطبعها، وتستقذرهم الطبيعة الإنسانيّة، بعد أن فسقوا عنها وخالفوا مقتضياتها. إنّها النجاسة المعنويّة التي قد تستتبعها النجاسة المادّيّة، وإنه العام التاسع للهجرة الشريفة، العامّ الذي أذّن فيه الإمام عليّ عليه السلام بالبراءة من المشركين، ومنع الطواف العاري بالبيت، وعاد البيت إلى أحضان المؤمنين لا غير، ليشكّل محور حركة التوحيد في الأرض، كلّ الأرض. ولما كان مجيء المشركين يعني تشكيل موسم له آثاره الاقتصاديّة على حياة أهل مكّة، فإن القرآن يرجّح ـ من جهة ـ جانب العقيدة على أيّ شيء آخر، ويضمن ـ من جهة أخرى ـ فضل الله

١. مجمع البيان للطبرسي ج ٥ ص ٣٣.

وغناه من طريق آخر، والله يدبّر الأمر بعلم وحكمة بالغين.

﴿قَاتِلُواْ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُواْ الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٢٩﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللّهِ وَقَالَتْ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِؤُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُواْ إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ إِلَهًا وَاحِدًا لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾ تبدأ هنا مرحلة جديدة في تنظيم العلائق بأهل الكتاب، وهم على الأرجح (اليهود والنصارى والمجوس، وكل من ثبت لهم كتاب سماويّ) فهؤلاء على الرغم من أنّهم يؤمنون بالله إجمالاً وباليوم الآخر، إلاّ أنّهم يشركون بالله في تصوّراتهم عن أنبيائهم، فهذا ينسب نوعاً من الالوهيّة إلى عزير، والآخر ينسبها إلى المسيح تقليداً لقول المشركين من قبلهم، وآخرون يطيعون أحبارهم ورهبانهم طاعة عمياء، وينقادون إليهم انقيادهم لإله، ثمّ هم لا يؤمنون بتفاصيل الآخرة، إلى الحد الذي يفقدهم حتّى صفة الإيمان بها عموماً، ثمّ إنّهم لا ينسجمون مع المجتمع الإسلاميّ الذي يعيشون فيه، ولا يطبّقون تعاليمه ومراسمه العامّة (محرّماته ومحلّلاته) ولا يعترفون بشرائعه الحقّة. لذلك، فإن وجودهم عقبة كأداء في قيام مجتمع إسلاميّ نظيف يطبّق تعاليم القرآن وتسوده حكومة الإسلام، فمن الطبيعيّ أن يرفض الإسلام هذا الوجود بهذا الوصف، ويطلب مقاتلته حتّى يذعن لحكومة الإسلام ويعطي ضريبة (الجزية) مستسلماً غير مستكبر، وينسجم مع المجتمع في حدّ الانسجام الأدنى، أي احترام العقيدة الإسلامية، والشعائر الإسلامية، والمساهمة في نفقات المجتمع حتّى يمكن القبول بهم مواطنين في هذا المجتمع. وهذا حكم يختصُّ بأهل الكتاب، أما المشركون فلا يقبل منهم شيء إلاّ الإسلام؛ لأنهم لا يستطيعون الانسجام بأيِّ حال من الأحوال مع المجتمع المسلم.

﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِؤُواْ نُورَ اللّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٣٢﴾﴾ يتحدّث القرآن هنا عن محاولات أهل الكتاب اليائسة لمحو دين الله، واطفاء نوره العظيم، عبر الدعايات والأقاويل الباطلة والشائعات الموهومة، فيسخر بمن يستخدم فاه الضعيف

لإطفاء نور الله العظيم، الذي يأبى جلّ جلاله إلاّ أن يتمّه على رغم أنف الكافرين.

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾ إنّ الله تعالى هو منبع هذا الدين الحقّ، وقد أرسل رسوله به ليهدي البشريّة سبيل علائها وسعادتها الحقيقيّة، ولابُدَّ من أن يسيطر هذا الدين في النهاية على مجموع المسيرة، وينتشر به القسط والعدل القرآنيّ على وجه المعمورة ويجذب إليه كلَّ القلوب، ويحقّق به مطلوب كلِّ ميل طبيعيّ للتديُّن في أبناء البشريّة جمعاء. إنّه الوعد الإلهيّ الذي لا يتخلف، على الرغم من كل تآمر المشركين، وهو ما تنتظره البشريّة بفارغ الصبر، ويبعث فيها العزم الدائم على الجهاد المتواصل ضد كلّ العقبات الموضوعة في طريق إعلاء الدين.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لأَنفُسِكُمْ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾﴾ ويكشف النص القرآنيّ هذا عما يفعله الكثير ممَّن نصَّبوا أنفسهم أعلاماً للدين، في حين أنّهم ليسوا ـ في الواقع ـ إلاّ عقبات بوجه تديّن النّاس وبوجه ظهور الدين على الأرض كلّها. إنّهم باسم الدين يعملون على تحقيق مصالحهم الضيّقة، ويربّون الجماهير على طاعتهم طاعة عمياء دون أي تخلُّف، كأنّما هم أرباب، ويستثمرون النوازع الدينيَّة ليجمعوا الأموال الطائلة والثروات الكبيرة، ليستخدموها في الصدّ عن سبيل الله، وتحقيق مطامعهم ومطامع أسيادهم وتنفيذ مخطَّطاتهم الشيطانيَّة، وإقامة وضع اقتصادي مسرف تسحب فيه الأموال ـ من قبيل الذهب والفضّة ـ من مجال التعامل الحيويّ والانفاق في سبيل الله إلى الكنوز المتراكمة، ليبقى المجتمع مشلولاً عاجزاً عن القيام بدوره.

وهؤلاء يهدِّدهم القرآن بأشدّ العذاب، إذ يحمى عليها في نار جهنّم، وتلصق بأبدانهم (جباههم وجنوبهم وظهورهم) ثمّ يأتي التبكيت القاتل: «هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون».

﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَات وَالأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلاَ تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَاتِلُواْ الْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا

يُقَاتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾ وهكذا شاء الله تعالى في كتابه التكوينيّ أن تكون الشهور القمريَّة اثني عشر شهراً، منها أربعة يحرم فيها القتال هي: (ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب) وهي سنّة نبويّة سابقة أثبتها القرآن الكريم، باعتبارها من سنن الدين المنظم للمسيرة الحياتيّة والقيِّم عليها، وأعلن أنّ أيَّ تعدّ فيها على حرمة هذه الأشهر يعني الظلم الاجتماعيّ، اللّهمّ إلاّ أن يهاجم العدوُّ الأمّة الإسلاميّة كما يفعل المشركون، وحينئذ يجب القتال المعبَّأ ضدَّهم كما تعبّأوا ضدَّ الإسلام. وهكذا نجد القرآن يركّز على محطّات الأمن الزمانيّة (الأشهر الحرم) والمكانيّة (منطقة البيت الحرام)، لغرض حضاريّ سام.

﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلِّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِّيُوَاطِؤُواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللّهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ اللّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٧﴾ كانت العادات الجاهليّة تتحكَّم أحياناً فتعمل على تغيير أسماء الأشهر لترتفع الحرمة ـ بزعمهم ـ فيستطيعون إشباع رغباتهم في القتال، وهذا ما يسمّى بالنسيء، وهو ما هاجمه القرآن باعتباره زيادة في الكفر وتدخّلاً إنسانيّاً في حكم إلهيّ، فالحلُّ والحرمة إنما هما بيد الله وليس لأحد أن يغيّر اسم شهر بعينه. ولعلَّ مورد الآية أن الاستنفار لغزوة (تبوك) كان في رجب، وهو من الأشهر الحرم إلاّ أنّ رجب هذا لم يكن رجب الحقيقيّ، بل هو رجب مدّعى على أساس النسيء، فرفض الإسلام أن يرتّب الحرمة إلاّ على رجب الحقيقيّ، ورفع هذا التوهُّم، آمراً بالانطلاق لقتال المشركين كافَّة، ورفض كلَّ تبعات النسيء المذكور.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ هذه الآية وما بعدها نزلت بعد الأمر بالتوجُّه للقتال في تبوك البعيدة عن المدينة، ومع أنّ الظرف الزمانيَّ والمكانيَّ لم يكن مساعداً إلاّ أنّه كان من الضروري أن يتوجَّه المقاتلون فيباغتون العدو قبل أن يعدّ عدته، ولذلك بدت في المسلمين بعض مظاهر الضعف والتثاقل عن القتال، الأمر الذي عالجته هذه الآيات، فهي ـ من جهة ـ أكّدت عنصر الإيمان الذي أعلنوه فكان سمتهم، ثمّ ركّزت على سبيل الله الذي يقرّب العبد إليه تعالى، وذكّرتهم بعظمة الحياة الآخرة بالقياس إلى دناءة الأهداف والمتع الدنيويّة، ثمّ عاتبتهم على التثاقل والتباطؤ في

الخروج إلى القتال. خصوصاً وأن التهديد الرومي كان خطيراً.

﴿إِلاَّ تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلاَ تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ وتتصاعد لهجة التهديد الرهيب حين يأتي هذا الوعيد بالعذاب الأليم، ونقل مهمّة حمل الرسالة الخالدة إلى قوم آخرين، دون أن يلحق بمسيرة الرسالة أي ضرر أو نقص، ذلك أنّ القدرة الإلهيّة فوق كلّ قدرة وهي تسدُّ كلَّ نقص.

﴿إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُواْ السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ وزيادة في علاج هذا الضعف الذي طرأ على جهاد المسلمين، يأتي هذا التبكيت والتذكير بالدعم الإلهيّ المتواصل لمسيرة الرسالة، والرسول وذلك عندما صمّم الكافرون في مكّة على إخراجه، ثمّ ملاحقته ومتابعته للقضاء عليه، حتّى التجأ هو وصاحبه أبو بكر إلى غار جبل ثور. ولما كان في متناول القوم فقد انصبَّ الحزن في قلب صاحبه فأكّد ﷺ له في هذا الموقف إنّ الله هو ثالثهما. ولا داعي للحزن، وكانت سكينة الله تقوّي قلب الرسول، وكان التأييد الإلهيّ بجنود لم يشعروا بها، وربما كانت هذه الجنود هي خيوط العنكبوت التي غطّت أبواب الغار حتّى أوهمت المعقّبين بأنّهما لم يدخلاه. وراحت كلمة الكافرين وأمانيُّهم وشعاراتهم تغرق في الخزي، في حين ظلَّت كلمة الله هي العليا دائماً؛ لأنّها مؤيَّدة بالعزّة والحكمة الإلهيّة.

﴿انْفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُواْ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾ بعد التمهيد المذكور يأتي الأمر المطلق بالجهاد دون أن يعوقهم عائق، خفافاً أو ثقالاً، أي سواء كانوا مخفّين من علائق الأهل والعيال والحياة اليوميّة أو مثقلين بها، فإن عليهم الانطلاق ـ دونما معاذير ـ للجهاد بالأموال والأنفس، فإن الجهاد يحقّق الخير للمسيرة الإسلاميّة. وقد تركت هذه الآية أكبر الأثر في التحريك للجهاد، وقطعت عليهم التماس الحجج.

﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لاَّتَّبَعُوكَ وَلَكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٤٢﴾﴾ وهنا تكشف الآية حالة ضعف بين بعض المسلمين آنذاك، فتخبر عنهم أنّهم لو كانوا يواجهون مسألة عرض

ومتاع قريب وسفر قصير الأمد لا تبّعوا الرسول ابتغاء الغنيمة، إلاّ أنّهم قعدوا عن الجهاد وجبنوا، لمّا رأوا بُعد السفر. والغريب أنّهم يتعلَّلون بعدم القدرة على الخروج مع المسلمين، طالبين النجاة بالتخلُّف عن القتال وادّعاء العجز، في حين أنّهم يهلكون أنفسهم بذلك.

﴿عَفَا اللّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴿٤٣﴾﴾ ولمّا كان القرآن يعمل على كشف ضعفهم وسوء سرائرهم، فإنّه يوجّه العتاب اللطيف المقترن بالعفو إلى الرسول، نتيجة الإذن لهم بالقعود، وهذا أُسلوب بلاغيّ رائع في التعبير، وإلاّ فإن عدم الإذن لهم أولى في كشف نواياهم، والحقيقة هي أنّ القرآن يؤكّد بعد بضع آيات أنّ خروجهم كان سيضرُّ الزحف الإسلاميّ ويلقي فيه الخور والضعف.

﴿لاَ يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أَن يُجَاهِدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾﴾ وفي قبال أولئك المتخاذلين يأتي هذا النمط الطبيعيّ من المؤمنين، فهم مندفعون بطبيعتهم إلى الجهاد، بعد أن آمنوا حقّاً بالله وصفاته من العلم والقدرة، وتحلّوا بصفات التقوى الرفيعة، وآمنوا بعظمة العطاء الأُخرويّ الجزيل المترتّب على جهادهم.

﴿إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾﴾ أمّا هؤلاء القاعدون المستأذنون تخاذلاً فانهم يكشفون بذلك عن عدم إيمانهم الحقيقيّ بالله والآخرة وانغماس قلوبهم بالريب والشك.

﴿وَلَوْ أَرَادُواْ الْخُرُوجَ لأَعَدُّواْ لَهُ عُدَّةً وَلَكِن كَرِهَ اللّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُواْ مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٤٦﴾﴾ وعلامة ذلك أنّهم لم يعدّوا العدَّة للجهاد، ولم يهيّئوا وسائله، فأركسهم الله بذلك، وألقى عليهم عار القعود لما يعلمه من نفاقهم وكسلهم، وهكذا عادوا إلى صفّ العجزة والمرضى ومن سقط عنهم القتال.

﴿لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً ولأَوْضَعُواْ خِلاَلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾ إنّ الجهاد لا يتحمّله إلاّ ذوو الهمم والقلوب الحيّة، أمّا هؤلاء المتردِّدون في الريب، فإن انضمامهم إلى الزحف مضعف له، ومسرع في تفتيت عزائمه، نتيجة تقوّلاتهم وإشاعاتهم الباطلة، التي قد يستجيب لها بعض الأفراد من ذوي القلوب الساذجة.

﴿لَقَدِ ابْتَغَوُاْ الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُواْ لَكَ الأُمُورَ حَتَّى جَاء الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٤٨﴾﴾ وهنا يذكّر القرآن بماضي هؤلاء المنافقين المتقاعسين عن القتال، وأنّهم إنّما أسلموا ظاهراً بعد سلسلة من التآمر والمكر وتقليب للأمور بوجه حركة الإسلام، حتّى انتصر عليهم على الرغم من كرههم له.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلاَ تَفْتِنِّي أَلاَ فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُواْ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٤٩﴾﴾ ومن معاذير هؤلاء المستأذنين للقعود عن القتال خوف الفتنة والابتلاء بأعراض الدنيا وزينتها! والحقيقة أنّهم بتخاذلهم قد سقطوا في هاوية الفتنة وحضيض جهنّم.

﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُواْ قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّواْ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾﴾ إنّهم جزء منفصل عن المعسكر والجسم الإسلاميّ فلا يحسُّ بألمه، ولا يفرح لفرحه، بل هم على العكس من ذلك، إذ يتألمون إذا فرح المسلمون ويفرحون لمصائب المسلمين، معتبرين أنّهم احتاطوا للأمر فلم يلقوا بأنفسهم إلى التهلكة، ثمّ يعرضون وهم فرحون بهذا الاحتياط!

﴿قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللّهُ لَنَا هُوَ مَوْلاَنَا وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾ وهذه هي عقيدة المؤمن بالله، العامل بواجباته ومهامه. إنّه ينطلق متوكّلاً عليه، عالماً أنّه لن يصاب بشيء إلاّ بأذنه وتحت ولايته تعالى، وهل على المؤمن بعد ذلك من غضاضة إن ابتلي بشيء وهو بعين الله؟

﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلاَّ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُواْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾﴾ وهذا هو شعار المؤمنين حقّاً، فالنتيجة على أي حال هي لصالحهم، فإما النصر وإما الشهادة والفوز بالجنّة، فلِمَ التقاعس عن الجهاد وعن تحقيق رضا المولى الحقيقيّ؟! أما عاقبة المتقاعسين المتردّدين فليست إلاّ الخذلان والعذاب من عند الله مباشرة أو بأيدي المؤمنين.

﴿قُلْ أَنفِقُواْ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٣﴾﴾ ويحاول بعض منهم أن يدرأ عنه هذا الواجب ويسوّغ تخلّفه، ببذله شيئاً من المال للمجاهدين ابتغاء دفع بأسهم، وربّما للحصول على بعض الغنائم لو غنموا في مسيرتهم، ومن الطبيعيّ أن لا يقبل هذا الإنفاق؛ لأن القبول الإلهيّ إنما يكون من المتّقين المخلصين، لا المنافقين المتقاعسين الفاسقين.

﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلاَّ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِاللّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلاَ يَأْتُونَ الصَّلاَةَ إِلاَّ وَهُمْ كُسَالَى وَلاَ يُنفِقُونَ إِلاَّ وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٥٤﴾﴾ إنّهم لا يتمتّعون بصفة الإيمان بالله والرسول، وبالتالي فإن عبادتهم شكلية لا روح فيها يؤدّونها درءاً للتهمة عنهم لا غير، ولذلك فالكسل يستولي على وجودهم عند الصلاة والكره يغمر قلوبهم عند الإنفاق، وتلك حالة طبيعية في المنافقين. أمّا المؤمنون فهم يعرجون في صلواتهم إلى العوالم الواسعة وتبهرهم الأنوار الإلهيّة، وهم يشعرون أنّهم ـ من خلال إنفاقهم ـ يتاجرون في سوق الله، وربحهم الجنّة والعطاء الوفير.

﴿فَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٥٥﴾﴾ بعد ان فضح القرآن نيّات هؤلاء المنافقين المتقاعسين عن الجهاد بين يدي رسول الله، راح يحذّر المسلمين من الإعجاب والانخداع بما يملكه هؤلاء من أموال وأولاد باعتبارها نعمة إلهيّة، ولما لم يكونوا في طريق الهدى فإن هذه النعم تتحوّل بإرادة إلهيّة الى نقمة عليهم، وعذاب إلهيّ أليم تزهق به النفوس في الدنيا، نتيجة الكفر والانحراف عن طريق التكامل.

﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلاً لَّوَلَّوْاْ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾﴾ صورة أُخرى من مظاهر الضعف النفسيّ لهؤلاء، إذ نجدهم يلجأون للقسم بالله العظيم، مؤكّدين أنّهم من المسلمين، إلاّ أنّ الحقيقة والتصرُّفات تفضحهم، وتؤكّد أنّهم يعلنون ذلك من فرقهم وخوفهم، ولو وجدوا ما يلجؤن إليه من ملجأ أو مغارة أو نفق لأخفوا أنفسهم فيه هاربين.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوْاْ مَا آتَاهُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللّهُ سَيُؤْتِينَا اللّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللّهِ رَاغِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾ وها نحن نجدهم هنا يعيبون على الرسول ﷺ توزيعه للصدقات، معبّرين عن سخطهم، لا لشيء إلاّ لكي يحصلوا على نصيب أوفر، ويحقّقوا منافعهم الضيّقة. فإن حصلوا عليها أعلنوا رضاهم، وإلاّ بدا السخط والغضب على وجوههم. في حين أنّ المفروض في المؤمن ـ وهم يدّعون الإيمان والإسلام ـ أن يرضى برضا الله ويقبل قسمته تعالى ـ وهي العدل بعينه ـ ويطمح إلى فضله ولطفه وبالتالي يحوّل حياته

كلّها إلى سيرة نحوه ورغبة في التقرُّب إليه.

﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاء وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللّهِ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾﴾ وهنا تذكر الآية مصارف الزكاة وهي للفقراء والمساكين (وهم كما يبدو من سائر التعبيرات القرآنيّة أحسن حالاً من الفقراء) والساعين العاملين لجبايتها وسائر مايرتبط بها، والذين يعطون لتأليف قلوبهم، كما تصرف لتحرير العبيد وربما لرفع مستوى معيشتهم، وسداد دين الغارمين، أي من ركبتهم الديون فلا يقدرون على دفعها، ثمّ هي تصرف مطلقاً في كلّ شيء يعود بالنفع على الناس، ويحقِّق رضا الله تعالى، كما تصرف لرفع حيرة المسافرين الذين انقطعت حيلتهم وذهبت أموالهم. وهكذا يبدو من الآية أنّ الصدقات والضرائب المالية إنما تسلَّم لوليّ أمر الأمّة ـ وهو ما يتناسب مع أمره بأخذ الزكاة ـ ليسدّ بها موارد الخلأ الاقتصاديّ في المجتمع ويعمل على تحقيق الرضا الإلهيّ بإقامة مجتمع سليم اقتصادياً، لا يعاني من الحرمان والفقر، وهي بذلك تعبّر عن التكافل الاجتماعيّ والتوازن المطلوب في المجتمع بالإضافة إلى توفير قسط منها، لتحقيق مقاصد سياسيَّة واجتماعيّة، كما في سهم المؤلَّفة قلوبهم.

﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيِقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُواْ مِنكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾﴾ وهنا أيضاً نشهد المنافقين ينظرون إلى خلق كريم لرسول الله وهو استماعه للشورى والشكوى، فيتّهمونه بأنّه سمّاع لكلّ شيء، فيردُّ عليهم القرآن بأنّه في إصغائه هذا يحقّق الخير لهم، إذ يستمع للوحي ويبلّغه ويستمع للمؤمنين ويثق بهم ممّا يعود بالرحمة عليهم، أما المؤذون له فهم الذين لا يحصلون إلاّ على العذاب والهوان.

﴿يَحْلِفُونَ بِاللّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾﴾ إنّ المنافقين يلجأون للقَسَم بالله ليحصلوا على رضا المؤمنين، في حين أنّ الرضا الإلهيّ هو الغاية الكبرى وابتغاءه هو شرط الإيمان الحقيقيّ.

﴿أَلَمْ يَعْلَمُواْ أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾﴾ وتحقيق الرضا الإلهيّ لا ينسجم مع عملهم وسلوكهم المعاند لله، ولذلك فهم في معرض

العذاب والخزي العظيم.

﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِم قُلِ اسْتَهْزِؤُواْ إِنَّ اللَّه مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾﴾

والقرآن بهذا يثبّت قلوب المؤمنين ويفتّت عزائم المنافقين المتربّصين الدوائر بالإسلام إذ يهدّدهم بفضح أسرارهم وإعلان ما يحذرونه وكشف ما يهزأون به.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّه وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِؤُونَ ﴿٦٥﴾﴾ وهذه حيلة المنافقين، فهم يطلقون الشائعات ويحيكون المؤامرات ويبثّون كلمات الوهن والضعف، فإذا حوسبوا عليها راحوا يتذرّعون بأنهم كانوا يمزحون ويلعبون!! وهنا يأتي الردُّ عليهم، بأن المزاح واللعب لا يكون بآيات الله وسلامة المسيرة الإسلاميّة وقيادة الرسول العظيم، فما هي إذن إلاّ أعذار واهية لا تستطيع أن تستر نفاقهم.

﴿لاَ تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾﴾ إنّه التهديد الفاضح لهم، ولا جزاء لكفرهم بعد الإيمان وتآمرهم على الأمّة إلاّ العذاب، وإذا امكن استثناء بعضهم فإن أهل الإصرار ورؤوس النفاق والإجرام منهم سيلحقهم العذاب الأليم.

﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُواْ اللَّه فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٦٧﴾﴾ وهكذا ينضمُّ المنافقون والمنافقات إلى جبهة واحدة، لها طابعها وسماتها العامّة يسند بعضها بعضاً ويشترك الجميع في جبهة النفاق ليحقّقوا أهدافه الخبيثة؛ من تشجيع المنكرات، ونشر الفواحش، والوقوف بوجه الإصلاح والمعروف، ومنع تحلّي المجتمع بالخلق القويم، والاستحواذ على الأموال، والمنع من بذلها في سبيل قوام المجتمع. وعلّة هذا الانحراف أنّهم نسوا الله خالق الكون وهاديه فطردوا من رحمته وفيضه العميم وخرجوا بالتالي عن المسير الطبيعي للحياة الإنسانيّة، ودخلوا في عداد الفاسقين.

﴿وَعَدَ الله الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّه وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾ وهكذا تنضمُّ عناصر الانحراف إلى جبهة واحدة (يؤلفها

المنافقون والكافرون) لمقاومة المسيرة الإسلاميّة، ولكنها محكوم عليها بالانهيار وجزاؤها الاخرويّ خلود في النار فيه كفايتها، وحياتها حياة اللعنة والطرد عن الرحمة؛ لأنها حياة العذاب المستمرّ الذي لا يفتر.

﴿كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُواْ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالاً وَأَوْلاَدًا فَاسْتَمْتَعُواْ بِخَلاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُم بِخَلاَقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ بِخَلاَقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُواْ أُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٦٩﴾﴾ وهكذا هي مسيرة النفاق دائماً؛ أُناس يتمتّعون بالقوّة والمال والولد فتبطرهم النعمة، فيتجبّرون ويطغون ويصدّون عن سبيل الله، ويسلكون سبيل الاستمتاع بما توافر لهم من قوى، ظنّاً منهم أنّ هذه الحياة خالدة باقية لهم، ولكنّ تلك القوى ذهبت أدراج الرياح، فلم تبق لها آثار في الدنيا، ولم تمنعهم من عذاب الله في الحياة الأخرى، وبالتالي فهم لم يحصلوا من ذلك إلاّ على الخسران الحقيقيّ.

فهل يا تُرى يفلح المنافقون الذين ساروا على خطّهم واتّبعوا سيرتهم، وظنّوا أنّهم بذلك سيحصلون على مكاسب كبرى، على الرغم من كونهم أقلّ قوّة ومالاً؟ إنّه الأمل الخادع!!

﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وِأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾﴾ وهذا التاريخ أمام المنافقين الذين يتقاعسون عن دعم المسيرة، ويتآمرون عليها، فليتأمّلوه ليعتبروا به ويقلعوا عن عنادهم ونفاقهم؛ أمامهم قوم نوح وقفوا بوجه مسيرته فابتلوا بعذاب الطوفان، وعاد (قوم هود) لم يستجيبوا للهدى، فأصابتهم ريح صرصر، وثمود (قوم صالح) ساروا بسيرتهم فأصابتهم الرجفة، وقوم إبراهيم ساروا في خطّ الطاغوت فهلكوا، وهكذا مديَن والمؤتفكات، وهي القرى التي عصت أمرَ الله فجعل عاليها سافلها، وهكذا المناطق التي سكنها قوم لوط وعصوا أمر ربّهم.

إنّها مسيرة النفاق والكفر والعصيان، المسيرة التي أعطاها الله كلَّ ما يصلحها وفتح أمامها سبيل الصلاح والتكامل، وجاءتهم الأنبياء بالآيات الواضحات التي يستجيب لها كلُّ طالب للحقيقة، إلاّ أنها عميت ولم تشأ الخير واتّبعت أهواءها وظلمت نفسها بنفسها، فيجب أن يعتبر المنافقون في كلِّ عصر بهذه المسيرة ويكتشفوا العاقبة إن هم ساروا على نهجها.

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللّهُ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾ بعد أن تحدَّث القرآن عن جبهة النفاق واعلن خسرانها الأبديّ الدائم، على الرغم مما يبدو من ظواهر وقتية ينتقل القرآن إلى جبهة الإيمان والحق، فيذكر السمة الأولى لمجتمع الإيمان وهي سمة الولاية المشتركة، فكلٌّ منهم يسدد الآخر ويتولّى أمره في جوّ من الإخاء والثقة المتبادلة، وكلهم في عمل دائب على تحقيق المعروف (وهو ما تهفو إليه الفطرة الصافية ووضحته الشريعة الحقّة) وجميعهم في سعي حثيث للوقوف بوجه انتشار المنكر، وهو المجتمع الذي يعتمد الصلاة معياراً للعلاقة بربِّه، يستمد منه القوّة والتسديد، والزكاة أساساً لتحقيق التكافل والتعاون، وتطبيق أحكام الله شريعة ومنهاجاً للحياة. وهو بذلك يحقّق القابليّة اللازمة لنزول الرحمة الإلهيّة، والتي تنطلق من منطلق العزّة والحكمة الإلهيّة، فلا تترك أثرها الإيجابيّ إلاّ في المحلّ المستعد لها.

﴿وَعَدَ اللّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾ وفي قبال ذلك التصوير الرهيب لعاقبة المنافقين في الدنيا والآخرة، يأتي هذا الوعد الإلهيّ الكريم لكلِّ العاملين من المؤمنين والمؤمنات بالجنّة والخلود فيها، وفوق ذلك، بالتنعّم بحياة الرضوان والقرب الإلهيّ، أي القرب من الكمال المطلق مع التمتّع بكلِّ ما يتصوّر من لذات مادّيّة مضاعفة، وذلك هو الفوز العظيم. ذلك لأنه غاية ما يمكن أن يتصوَّره الإنسان من كمال وما يطمح إليه من أمل، ولما كان هذا مدعوماً بالعزّة الإلهيّة والحكمة الربانيّة، فهو محقّق بلا ريب، وله فليعمل العاملون الذين يرجون من الله مالا يرجوه المنافقون والكافرون.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾﴾ قلنا من قبل إنّ جو هذه الآيات يوحي بأنّها نزلت قبل (غزوة تبوك) وبعدما أُصيب به المجتمع المستعد للجهاد من ضربات تآمرية من قبل المنافقين. وتهديد خطير من قبل الروم. وقد جاءت هذه الآيات المشجعة للمؤمنين والمثبطة للكافرين، لتهيئ الجو للأمر بالجهاد المتواصل ضد الكفر والنفاق، والغلظة عليهم، وتهدّدهم بالعذاب الأليم.

﴿يَحْلِفُونَ بِاللّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلاَمِهِمْ وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْ وَمَا نَقَمُواْ إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ وَإِن يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾﴾ ورغم ما ذكر هنا من روايات جعلت مورداً لنزول الآية، نجد القرآن يبهم القول ليكون ـ والله العالم ـ شاملاً لنوع المنافقين خصوصاً وهو يتحدّث عن جبهتهم العامّة ضدّ الإسلام، وهو هنا يشير إلى الكلمات التي يتفوهون بها مما يكشف عن كفرهم بالله ورسوله، فإذا ما اطلع المسلمون على ذلك راحوا ينكرون تلك الأقوال أو يعتبرونها من فضول الكلام واللعب. في حين يؤكّد القرآن أنّ كلماتهم قيلت حقّاً، وأنّها تكشف عن كفرهم بعد أن أعلنوا إسلامهم، وأنّهم أكّدوا كلماتهم المعبّرة عن كفرهم، بتهيئة بعض المقدّمات لتنفيذ ما قالوا ـ وإن لم يستطيعوا أن ينالوا ماهمّوا به ـ وهكذا كان القرآن وما زال يكشف المنافقين وألاعيبهم.

وعلى الرغم من أنّ المنافقين قد استفادوا من سماح الإسلام ولطفه، وحصلوا على ثروات وغنى إلاّ أنّهم راحوا ينقمون على الإسلام بدلاً من العمل له، ومع ذلك فإن باب التوبة مفتوح مرة أُخرى أمامهم، لكي يتجنّبوا العذاب الأليم دنيويّاً وأُخرويّاً، وليعلموا أنَّ غضب الإسلام إذا انصبَّ عليهم فليس لهم معين ولا نصير. وهكذا نجد الآية تتعامل معهم بلين وشدَّة، حتّى يمكن إطفاء نائرتهم، وربّما سحبهم إلى الصف الإسلاميّ الواحد.

﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُواْ بِهِ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُواْ اللّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾﴾ وهذه صفة أُخرى لبعض المنافقين فهم يعطون العهود على أن يتصدّقوا إذا حصلوا على ما يحقّق ذلك، ولكنهم يتخلّفون عن ذلك، معبّرين بذلك عن ضعف في الإيمان ولا مبالاة بالعهود، وتلك صفة النفاق الذي يتأصّل شيئاً فشيئاً في القلوب، حتّى يستقرّ فيها دون مزاولة، مما يعود عليهم بالوبال والعذاب.

﴿أَلَمْ يَعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللّهَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾﴾ إنّ ضعف الإيمان هو سبب النفاق وإلاّ فإن من متطلّبات الإيمان بالله أن يعلم المرء بالاطلاع الإلهيّ على السرِّ والنجوى وأنه تعالى علاّم الغيوب، وحينئذ فلن يقدم المرء على التلوُّن والإخفاء

والنفاق، بعد أن كانت الحالتان ماثلتين على السواء أمام الله العليم الخبير.

﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ إِلاَّ جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ ومن أعمال المنافقين أنّهم كانوا يثبّطون الآخرين عن عمل الخير، ويسخرون من المؤمنين الأغنياء الذين يبذلون أموالهم صدقات، وكذلك يستهزئون بالمنفقين الضعفاء الذين لا يجدون إلاّ جهدهم، فينفقون بمقدار ما يستطيعون. إذن، فالمنافقون يستخدمون سلاح السخرية ضد المنفقين.

﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٨٠﴾﴾ وهكذا يقطع القرآن عليهم الطريق هنا، لئلاّ يطمعوا في استغفار الآخرين لهم، والحلُّ الوحيد هو ما أشار إليه القرآن من قبل وهو التوبة المخلصة، والانضمام إلى معسكر المؤمنين بكلِّ صدق، أما الحياة الفاسقة عن مسيرة الفطرة والموت على هذا الخطّ فلن يؤمَّل معها النجاة والغفران الإلهيّ.

﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلاَفَ رَسُولِ اللّهِ وَكَرِهُواْ أَن يُجَاهِدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَقَالُواْ لاَ تَنفِرُواْ فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلاً وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا جَزَاء بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ وتستمرّ الآيات في تعرية هؤلاء المتخلّفين عن ركب الجهاد وفضحهم، فهم يفرحون بتخلُّفهم عن ركب الرسالة، ويكرهون الجهاد في سبيل الله، ويحذِّرون المجاهدين من النفير في الحرِّ، وبالتالي، فإنّهم بعيدون عن خطّ الإسلام بعواطفهم وعملهم، ومؤهّلون لعذاب الله وحرِّ جهنّم، وهي أشدّ حرّاً من الانطلاق في الصيف للجهاد، وسيورثهم هذا التخلّف كآبةً يقلُّ معها ضحكهم وفرحهم ويعظم معها بكاؤهم وشقاؤهم.

﴿فَإِن رَّجَعَكَ اللّهُ إِلَى طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَاتِلُواْ مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُواْ مَعَ الْخَالِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَلاَ تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلاَ تَقُمْ عَلَىَ قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُواْ وَهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨٤﴾﴾ وتأمر الآية هنا بنبذ هؤلاء، وحذفهم من قائمة القوى المجاهدة وطردهم أبداً حتّى لو جاؤوا يستأذنون للاشتراك في صف الجهاد، ذلك لأنهم تخلّفوا أوّل مرة عن جهاد الأبطال

والرجال، فلتضرب عليهم ذلّة القعود مع الخوالف الذين لا يستطيعون الجهاد كالنساء والأطفال، وليترك الرسول ﷺ الصّلاة على ميّتهم والدعاء له عند قبره؛ لأنه قد مات على الكفر، وخرج عن مقتضى السير الإنسانيّ الطبيعيّ، ودخل في عداد الفاسقين.

﴿وَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلاَدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ ولن يضرَّ حركة الجهاد أن يحذف من قوائمها ما يملك هؤلاء المنافقون من أموال وأولاد، بل إنَّ هذه القوى يحوّلها الله الى سبل، لتعذيبهم في الدنيا، وإغواء مستمرّ تزهق معه النفوس على الكفر وتحرم من نعمة الإيمان.

﴿وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُواْ بِاللّهِ وَجَاهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُوْلُواْ الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُواْ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٨٦﴾﴾ وعندما يصدر أمر إلهيّ بالإيمان والجهاد في ركب رسول الله بالمال والنفس، يروح ذوو القدرة والتمكُّن منهم يتمحّلون الأساليب ويستأذنون الرسول في البقاء والتخلّف مع القاعدين.

﴿رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾﴾ ما أسوأ هؤلاء في الظاهر والواقع، فقد فقدوا في الظاهر فخر الجهاد، ولبسوا ثياب ذلّ التخلُّف مع من تفرض عليهم حياتهم البقاء في المدينة، وفوق ذلك عميت قلوبهم عن النظر إلى حياة العزّ والشرف، حياة الجهاد في ركب يقوده رسول الله، ويسير لتحقيق إرادة الله وتغيير مسيرة التاريخ كلها، فهم إذن لا يفقهون عظمة هذه الحياة واقعاً، ويفضّلون عليها حياة القعود.

﴿لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ جَاهَدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَأُوْلَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾﴾ أمّا الرسول والمؤمنون معه، فهم ماضون على خطّهم لا يثنيهم شيء عن تحقيق رضا الله، ولا يقعدهم تقاعس هؤلاء عن الانطلاق لتحقيق إرادته تعالى، وهم بذلك يحرزون أعظم الخيرات، وهم بالتالي المنتصرون المفلحون بعد أن استجابوا لله وعملوا على تغيير مسيرة الإنسانيّة. والروم كانوا قوّة طاغوتيّة آنذاك.

﴿أَعَدَّ اللّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾﴾ وفوق كلِّ ذلك فوز إلهيّ عظيم، وخلود في الجنان، بما يحقّق أقصى ما يطمح إليه الإنسان بطبيعته وفطرته.

﴿وَجَاء الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ

الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾ وتبدو هنا حالتان متضادتان: إحداهما مجيء أهل العذر ممن لا يجدون نفقة أو سلاحاً أو حتّى قدرة بدنيّة يطلبون من رسول الله أن يأذن لهم بالجهاد تحت لوائه، للحصول على ثواب الجهاد وعطائه، والأُخرى قعود المكذّبين المنافقين عن التحرّك مع الركب الرساليّ، على الرغم من قدرتهم على الجهاد. وعرض هاتين الصورتين إلى جانب بعضهما بعضاً يشعر بخسّة المنافقين الكافرين.

﴿لَّيْسَ عَلَى الضُّعَفَاء وَلاَ عَلَى الْمَرْضَى وَلاَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وهنا تنفي الآية الحرج والتكليف عن المرضى، وأولئك الذين لايملكون نفقة الجهاد (وكانت هذه النفقة تلقى على عاتق المجاهد آنذاك) شريطة أن ينصحوا لله ورسوله ويستفيدوا من الفرصة السانحة في المستقبل للقيام بوظيفة الجهاد.

إنّ هؤلاء المعذرين محسنون في رغبتهم للجهاد، ولا سبيل عليهم في تحميل الجهاد. وهذه قاعدة عامّة ومؤشر قرآنيّ له آثاره في مختلف الحقول، وقد بنيت على هذه القاعدة استنتاجات فقهية واسعة.

﴿وَلاَ عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ إنّه الإيمان يدفع هؤلاء للجهاد، ولكن الضرورة المادّيّة تستلزم ـ أحياناً ـ تخلّف هؤلاء المشتاقين للجهاد مما يثير أحاسيسهم، فتفيض أعينهم من الدمع؛ لأنّهم لم يوفّقوا لذلك، لعدم توفُّر المحمل اللاّزم.

﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاء رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾ أمّا المسؤوليّة والثقل فهما متوجّهان إلى أولئك الذين يتمحّلون الأعذار على الرغم من تمتعهم بكلّ المقوّمات المادّيّة للتحرُّك للجهاد، ولكنّهم اختاروا القعود مع الخوالف، وغرقت قلوبهم في العمى عن رؤية حياة الجهاد الرائعة.

﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لاَّ تَعْتَذِرُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ ويتجلّى النفاق مرّة أخرى حين يسوقون الأعذار الواهية عند عودة

المؤمنين من الجهاد، ليبرروا تمرّدهم وخروجهم عن الصفّ الواحد، فيؤمر الرسول بالردّ عليهم وعدم تصديقهم وإعلامهم بأن الله تعالى فضحهم وبيّن أخبارهم، كما أن سيرتهم ستبدو بكل وضوح أمام الله ورسوله وأمامهم يوم القيامة، حيث تكشف الحجب وينبّؤون بما كانوا يعملون. وفي هذا الردّ العنيف، والتهديد المرعب ما فيه من تخويف، وتذكير بالمحاسبة ودفع للرجوع عن حالة النفاق.

﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللّه لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُواْ عَنْهُمْ فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاء بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾﴾ إنّه أيضاً من نتائج النفاق أن يتوسّل هؤلاء بالحلف بالله، وهو القسم بالوجود المقدس المحبوب، لتأكيد أعذارهم الواهية، طلباً للخلاص، والتجاوز عن إساءتهم مما يزيد الطين بلّة، ويكشف عن عدم الإيمان الحقيقيّ. وهنا يؤمر الرسول ايضاً بالإعراض عنهم، لا لأنهم يستحقون ذلك فحسب، بل لأنهم رجس، ومجموعة قذرة فقدت طهارة الإنسانيّة وصدق الفطرة وكرامة الوجود، فلتبتعد عنها الفئة الطاهرة، ولتتركها لمصيرها الجهنميّ الذي ستلقاه نتيجة لاختيارها لهذا السلوك المُشين.

﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْاْ عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْاْ عَنْهُمْ فَإِنَّ اللّه لاَ يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٩٦﴾﴾ وتوكيداً لتماديهم وتوقّعاتهم يذكر قسَمهم من جديد وكأنهم يحاولون استرضاء المؤمنين، فيأتي التأكيد على أنّ المؤمنين حتّى لو اشفقوا عليهم ورضوا أن يتجاوزوا عن تخلفهم فإن الله العظيم لن يرضى عنهم؛ لأنهم خرجوا عن الحالة الطبيعيّة للإنسان وعادوا فاسقين، ولعل التعبير فيه شدّة وتأكيد على الإعراض عن من شقوا الصف الإسلاميّ، وقطع الطريق على من يتمادون في ذلك.

﴿الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلاَّ يَعْلَمُواْ حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللّه عَلَى رَسُولِهِ وَاللّه عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾﴾ والمراد منهم ساكنوا البادية من العرب وهؤلاء لم يتغلغل الايمان بعد في نفوس البعض منهم، ولم يمكن محو ظلمات الكفر والنفاق منها إما لقسوتهم وجفائهم أو لبعدهم عن أجواء الإيمان والتعاليم النبويّة المباشرة مما يشدّد الكفر والنفاق ويبعدهم عن معرفة معالم الشريعة. ولا نعدم في كل عصر ومن كل قوم من يبتعد عن أجواء الإيمان، وتترسّب فيه العناصر الجاهليّة وإن كان ينسب نفسه للمجتمع الإسلامي.

﴿وَمِنَ الأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾﴾ واذا اضطر هؤلاء للإنفاق ليعدّوا من افراد المجتمع المسلم، فإن عدم انغراس الإيمان، وعدم تأصّل المفاهيم الإسلاميّة عن الكون والحياة والمجتمع والمال في نفوسهم، تظهر نمطين من السلوك فيهم: الأول: اعتبار الإنفاق غرامة وخسارة يتحملونها مكرهين، والثاني: عدم الانسجام مع حركة المجتمع الصالح، وانتظار لحظات الانفلات منها، بعد تعرض المسلمين للحالات الصعبة. ولكنه الغضب الإلهيّ الذي يتوعدهم أنفسهم بمثل هذه الحالات، بعد ان كانت الرقابة الإلهيّة تراقب سلوكهم السيّئ المريب.

﴿وَمِنَ الأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾﴾ وفي حين ينتقد القرآن أولئك المنحرفين، ينصف تلك الثلة التي وقفت مع الجماعة المسلمة، لتعيش حياة الإيمان، وتنفق مالها تنشد به التقرّب الى الله والتمتّع بدعاء الرسول. ويأتي اللطف الإلهيّ ليعلن القبول والقربة وشمول الرحمة والغفران. وهذا التخصيص لهذه الفئة بهذا اللطف نابع من كونها انتصرت على أجوائها والتحمت بالمسيرة المؤمنة رغم مقتضيات تلك الأجواء. وهو كذلك أُسلوب وتربية قرآنيّة في عدم إصدار الأحكام المطلقة تجاه الآخرين، كما هو مع أهل الكتاب وغيرهم.

﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ وتوضح الآية أصناف المجتمع الإسلاميّ بعد العودة من واقعة تبوك التي حقّقت أهدافها ـ وهي من مفاصل تاريخ الدعوة والحركة ـ وهذه الأصناف هي: أولاً: السابقون الأوّلون: الذين سبقوا للدعوة وآمنوا بها بصلابة وتحملوا الصعاب وهاجروا، أو نصروا الدعوة وسدّوا ما تحتاجه من مقتضيات، وثانياً: الفئة التي عملت على الارتفاع الى مستوى الفئة السابقة عبر اتّباعها لها بكل صدق واحسان وطلب للحقّ.

هذان الصنفان استحقا الرضا الإلهيّ؛ لانهما بدءا بالمسيرة الصالحة وحملا همومها وواصلا تحمّل المشاق، طلباً للرضا الإلهيّ الدائم. لتعلن الآية مباشرة هذا اللطف والرضا

في جو ايمانيّ رائع، إنّه الرضا المتبادل (رضا الله عن عبده لطاعته، وإحساس العبيد بعظمة النعمة الإلهيّة الغامرة) وإنه النعيم الدائم الذي يحقّق أقصى ما يتمنّاه الإنسان وأعظمه.

﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُواْ عَلَى النِّفَاقِ لاَ تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ و هذا صنف ثالث يتكوّن من الأعراب ومن أهل المدينة، موجود في المجتمع يتحرّك معه جسداً ولكنه لا يعيش معه روحاً، بل يعمل على إيجاد انسجام كاذب مع المسيرة، حتّى ليكاد ذلك يخفى على القيادة. وإن كان لا يفلت من عين الرقابة الإلهيّة. ومن هنا يعذب هؤلاء عذاباً مضاعفاً؛ لأنّهم خالفوا أوامر الله في الواقع واعتادوا عليه (مردوا) وعملوا على إلباس المخالفة ثوباً يقبله المجتمع. وأمامهم العذاب العظيم في الآخرة.

﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلاً صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾﴾ وهذا صنف آخر تخلّف عن التحرّك مع الجماعة الإسلاميّة في جهادها، وأدرك بعد ذلك عظمة جرمه فعاد الى ربه تائباً، بعد أن خلط مع عمله الصالح أعمالاً سيّئة فقبل الله توبته، وضمّه إلى المسيرة الصالحة لطفاً ورحمة وغفراناً. وقيل: إنّها نزلت في أبي لبابة ونفر من أمثاله، بعد أن تخلّفوا عن غزوة تبوك، وعندما أدركوا خطأهم ربطوا أنفسهم بأعمدة المسجد فأطلقهم رسول الله ﷺ بعد نزول هذه الآية[١].

﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاَتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾﴾ وسياق الآية يؤكّد أنّ الرسول ﷺ أمر بأخذ الصدقة منهم والدعاء لهم، إلاّ أنّ الروايات تتظافر في أنها كانت منطلق فرض الزكاة عموماً وكان ذلك في شهر رمضان. والآية تركّز في خلد المسلم أنّ الصدقة تطهير وتزكية للنفس، وخلاص لها من الشحّ والبخل، بل وتنمية لكمالاتها في نفس الوقت. كما انها تعني مساهمة المسلم في عمليّة التكافل والقيام بمقتضيات الخلافة. ثمّ أنها تؤخذ في جوّ أخلاقيّ رائع؛ جوّ الدعاء الذي يسكن النفس لئلا تشعر بضيق الإنفاق، بعد أن تعيش أجواء اللطف تحت سمع الله وعلمه.

---

١. انظر مجمع البيان، ج ٥، ص ١٠١.

﴿أَلَمْ يَعْلَمُواْ أَنَّ اللّه هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللّه هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾﴾ تأكيد على جوّ الزكاة المطهّر والمنمّي للنفس، بعد أن يقبلها الله بنفسه ويأخذها بيد اللطف ويتوب على الدافعين ويرحمهم برحمته؛ لأنّهم تعاملوا معه.

﴿وَقُلِ اعْمَلُواْ فَسَيَرَى اللّه عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ وهكذا ينسجم المؤمنون بعملهم مع المجتمع ليبقى عملهم يراه الله ورسوله والمؤمنون الشهداء على مرّ التاريخ، وليطلعهم الله على حقيقة هذه الأعمال وآثارها يوم الحساب.

﴿وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللّه إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللّه عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾﴾ وهو صنف لم يتحدد مساره بعد، ربما لتأرجحه بين السلوك الصالح والانحراف دون أن يتصف بالنفاق وانحراف العقيدة، وربما لحالة استضعاف ويتخذ مساره الواضح بعد ذلك فيستحق الجزاء المناسب.

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللّه وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفَنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ الْحُسْنَى وَاللّه يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٠٧﴾﴾ وهذه فئة أخرى معيّنة يذكرها القرآن ـ ولا نعدم نظائرها على مدى العصور، ممن يستغلّون المظاهر الدينيّة لضرب الدين نفسه والتآمر عليه ـ فيذكر أنّها تعمل على بناء مسجد (والمسجد منطلق الدعوة وبيت العبادة) وتقسم على أنها لا تريد إلاّ الأهداف الخيّرة، ولكي تكسب المسجد قدسيّة إضافيّة في ذهن المؤمنين فهي تدعو الرسو ل للصّلاة فيه.

أمّا الأهداف الحقيقيّة لهؤلاء وأمثالهم فهي: الحاق الضرر بمسيرة الأمّة، وبث الكفر والشبهات، ونشر الفرقة والتمزيق بين المؤمنين، والإرصاد والتآمر عليهم، بتشكيل خليّة تآمرية تجمّع الفئات الحاقدة المحاربة لله ورسوله، وتعدهم بالمدد الكافر (كما تذكر ذلك بعض الروايات)[1] وتعبّئهم ضد المسيرة الصالحة.

وهكذا تفضح الآية هذه الفئة وأساليبها وأهدافها، دعماً للمسيرة، بل وإرشاداً لأجيال

١. أسباب النزول (للواحدي)، ج ١، ص ٢٦٤.

الأمّة، لتنتبه لمثل هذه المؤامرات وترصدها بكل دقّة، ولاتنخدع بالمظاهر مهما كانت الأقنعة.

﴿لاَ تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ ويأتي النهي الإلهيّ الصارم عن القيام في هذا المسجد الضرار، وإفشال خطط المتآمرين باسم الدين. ولعل كلمة (ابداً) توحي بالحذر الدائم من مثل هذا العمل. ثمّ يقدم القرآن البديل الصالح، إنّه مسجد (قبا) الذي أُقيم على التقوى من أول يوم، فهو أحق أن يقوم فيه الرسول، وهو ساحة يقوم فيها المؤمنون بعبادة الله هياماً لقربه، وشوقاً للطهارة، وبالتالي يؤهلون أنفسهم لشمول المحبة الإلهيّة وما أروعه من مقام.

﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىَ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾ النيّة الصادقة التي تقوم على تقوى الله، وتحقيق الرضا الإلهيّ، هي أساس انطلاق المسلم الحقّ في كل سلوكاته ولا ريب أنّها أساس لبنيان متين ثابت، لا يقاس الى ما يُبنى على منحدر رخو يؤدّي إلى الهلاك الجهنميّ الرهيب نتيجة الظلم والبعد عن الهداية الإلهيّة.

﴿لاَ يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْاْ رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلاَّ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾ إنّ البناء الذي بُني على شفا جرف هار، وانحراف وظلم سوف ينهار، كما يترك آثاره السلبية في القلوب يملؤها شكّاً وحقداً وحسرة لا تفارقها حتّى يتمّ تمزيق تلك القلوب المرتابة، وتلك حقيقة تاريخيّة ثابتة في علم الله وحكمته.

﴿إِنَّ اللّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللّهِ فَاسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾ نقلة رائعة الى حياة الإيمان: حيث تتمّ الصفقة الإيمانيّة بين المؤمنين الوالهين الى الجنّة والعطاء فهم يقدّمون ـ لصالح العقيدة ولإسعاد البشريّة على امتدادها ـ أنفسهم وأموالهم. فالمهمّ هو القيام بالواجب، وليس المهم أن ينتصروا على عدوّ المسيرة أو يقضي عليهم هذا العدوّ، وإنما المهم أن ينالوا فيها (الرضا الإلهيّ) وبالتالي يتأهّلون لنيل الثمن الغالي، إنّه الجنّة والخلود في ظل الرضوان الإلهيّ، وعداً إلهيّاً حقّاً، قدّم في الكتب السماويّة على امتداد الصراع التاريخيّ بين

معسكري الكفر والإيمان، ومن أوفى بعهده من الله وهو الخير المطلق والصادق المطلق والقادر المطلق، وإنّها البشارة التي لا يتصوّر ما فوقها وإنه الفوز العظيم.

﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللّه وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾ تمضي هذه الآية في بيان صفات المتأهّلين لنيل الرضا الإلهيّ، فهم التائبون (العائدون الى الله) العابدون (الساعون لتحقيق هدف خلقتهم) الحامدون (الشاكرون نعم الله في وجودهم وأنماط الهداية الداخليّة الفطريّة والخارجيّة التشريعيّة، وفي الطبيعة حيث يتمّ شكر النعمة بإعمار الأرض وتهيئة الأجواء المساعدة للمجتمع الإنسانيّ الفاضل)، السائحون (بفكرهم سيراً في الأنفس والآفاق وبعلمهم سيراً في نشره، وبدينهم سيراً في تحكيمه وتطبيق شريعته) الراكعون الساجدون (اقامة للصّلاة وتعظيماً لشعائر الله، وتوثيقاً للصِلات مع الله) الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله (سعياً في تحقيق الطهارة الاجتماعيّة والأمن الاجتماعيّ والمسؤوليّة المشتركة، وبالتالي كل أهداف الإسلام الإجتماعية).

فإذا تحقّقت هذه الصفات في الفرد المؤمن، والمجتمع المؤمن تحقّق الخير كله والبشرى الكبرى، وتميّزت الأمّة المسلمة عن غيرها.

﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُواْ أُوْلِي قُرْبَى مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾﴾ وهذه الآية تركّز صلة العقيدة وتغلّبها على الصّلات الأخرى، فحتى بعض التصرّفات العاطفيّة أو الميول الطبيعيّة إذا تعارضت مع السمات الماضية وجب نبذها، ومنها مسألة (الاستغفار)، إنها صفة إيمانية يعمل بها المؤمنون لأنفسهم ولغيرهم ممن هم على نفس المنهج، أما أعداء الله، أصحاب الجحيم فلا معنى للاستغفار لهم، ولا يحقّ للمؤمنين القيام بذلك، انطلاقاً من وشيجة القربى وغيرها.

﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلّه تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾ أما مسألة استغفار إبراهيم لأبيه المشرك فإنّه ـ من خلال خلقه الحميد وحلمه وخوفه من الله ـ تصوّر أنّ أباه سوف يتّجه نحو باب الغفران الذي انفتح له بعد أن وعده إبراهيم بذلك، ولكن تبيّن بعد ذلك أنّه عدوّ لله فتبرّأ منه، وإبراهيم كبير

العائلة المسلمة، وشيخ التوحيد رمز البراءة من المشركين. وفي بعض روايات أهل البيت عليهم السلام إنّ الاب هنا هو عمّ إبراهيم[١] باعتبار أنّ آباء النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى آدم هم من الموحّدين.

﴿وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ إِنَّ اللّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾ وربما كان المؤمنون الذين استغفروا لبعض المشركين واجهوا هذه الحالة بخوف، وتصوّروا أنّهم بذلك قد ضلّوا عن الطريق، فجاءت هذه الآية لتوضّح الموقف وتعلن أنّ الهدى قائم، وأنّ هذا النهي إنما يترك مفعوله بعد صدوره بوضوح (وما كنا معذّبين حتّى نبعث رسولاً).

وهي قاعدة استفاد منها العلماء في تقرير الموقف العمليّ عند غموض الحكم الشرعيّ.

﴿إِنَّ اللّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾﴾ أمّا الولاء الكامل فإنما هو لله ملك السماوات والأرض (وهو الوجود كله) ومالك الحياة والموت، فهو الوليّ المطلق وهو النصير القادر المطلق ولا ولاء لغيره تعالى.

﴿لَقَد تَّابَ الله عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾ إنّها العودة الإلهيّة بالرحمة الى الرسول الكريم والمهاجرين والأنصار الذين وقفوا خلفه في لحظات العسر الشديد أثناء المسير الى تبوك. وكاد العسر هذا أن يبعث الشك في قلوب البعض. ولكنها التوبة والعودة المكرّرة من الله عليهم بالرحمة، لتعصم قلوبهم وتثبّتها على الحقّ. ومع أنّ الشك كاد أن يصيب البعض ولكن مخاطبة الجميع بما فيهم النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قد يكون نوعاً من تطييب الخواطر وبعث الامل.

﴿وَعَلَى الثَّلاَثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّواْ أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُواْ إِنَّ اللّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ وهكذا شملت الرحمة الإلهيّة حتّى أولئك الثلاثة الذين تخلفوا عن جيش المسلمين المتحرك الى تبوك وارجئ الحكم عليهم ـ وهم كعب بن مالك وآخران من

---

١. بحار الأنوار، ج ١٢، ص ٤٢.

المسلمين ـ وقد شكلّت حركتهم عصياناً وتقاعساً عن الطاعة في حالة الشدّة، فكان أن صدر الأمر النبويّ الشريف بالمقاطعة الاجتماعيّة لهم، وكانت هذه المقاطعة شديدة الوقع عليهم، حتّى لكأن الارض الرحيبة تضيق عليهم، بل إنّ نفوسهم ضاقت عليهم وغمرهم الهمّ والكرب، وتجلّت لهم حقيقة اللجوء إلى الله بكل وضوح، فتهيّأت نفوسهم لتشملها الرحمة الإلهيّة. إنّ عزمهم على العودة هو لطف من الله وتوبة، وإنّ قبول هذه العودة والغفران لطف وتوبة أخرى، والله هو التواب الرحيم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَكُونُواْ مَعَ الصَّادِقِينَ (١١٩)﴾ إنّ المفروض بالمؤمن المنخرط في المسيرة الإسلاميّة أن يكون معها في السرّاء والضرّاء، وهذا هو مقتضى الإيمان ذلك أنّه يؤمن بصدقها ويعلم بأنّها المسيرة الحقّة، التي تحقّق رضا الله، ومن هنا فإن الإيمان والتقوى يقتضيان هذا الانسجام والكون مع مسيرة الصادقين. ويأتي أهل البيت عليهم السلام في طليعة المؤمنين الصادقين.

﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ اللّهِ وَلاَ يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لاَ يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلاَ نَصَبٌ وَلاَ مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ يَطَؤُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلاَ يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلاً إِلاَّ كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١٢٠)﴾ ذلك أنّ أهل المدينة ومن حولهم حملوا همّ الدعوة من أوّل الأمر، وانطلقوا في هذه العمليّة التغييريّة الكبرى، فليس من اللائق بهم ولا هو منسجم مع دعواهم أن يتخلّفوا عن رسول الله قائدهم الى تحقيق أهدافهم أو أن تهمّهم أنفسهم أكثر من الاهتمام بنفسه، ولا ينبغي أن يصدر ذلك من أناس يعلمون أن كل ما يبذلونه هو بعين الله، فالظمأ (العطش) والنصب (التعب) والمخمصة (الجوع) في سبيل الله ، وكل خطوة يرفعونها ليغيظوا (ويغضبوا) الكفّار ، وكل ضربة يوجهونها لهم، إنّما هي في حساب الله عمل صالح (تصلح به مسيرة الإنسان) ويترتّب عليه الأجر الإلهيّ المفروض للمحسنين. إنّ المؤمن إذ يتذكّر هذه الحقيقة تصغر عنده الالام، وتذوي أمامه المصالح الضيّقة وينشدّ إلى الهدف الكبير الكبير.

﴿وَلاَ يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً وَلاَ يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ (١٢١)﴾ فما قيمة النفقة صغيرة أم كبيرة، وما أهميّة التعب والسفر عبر الوديان اذا كان ذلك بعين الله ورعايته يكتبه لهم بأحسن ما يمكن ويجزيهم أفضل الجزاء.

﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُواْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ وربما كان هذا النهي الشديد عن التخلّف عن الجهاد حافزاً لكل المؤمنين للتحرّك نحوه تماماً، كما قد يتوهّم أنّ التفقّه في الدين ـ وهو أيضاً أمر صعب ولازم ـ يتطلّب من الجميع التوجّه والنفير، فجاءت هذه الآية الشريفة لتؤكّد أنّ الأمر فيهما أمر كفائيّ إذا قامت به الجماعة الكافية يسقط عن الآخرين. فالإسلام واقعيّ يضع كل شيء في محلّه، فهناك مجتمع قائم بتسيير الحياة الاجتماعيّة تقوم طائفة منه ـ تقلّ أو تكثر بحسب الحاجة ـ بمهمّة الجهاد، وأخرى بمهمّة التفقّه في الدين.

وفي الآية دلالة واضحة على حجّية قول الواحد من الفقهاء والرواة إذا رجعوا إلى قومهم، وأبلغوهم بالحقائق التي وقفوا عليها.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ قَاتِلُواْ الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلِيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ وينتقل القرآن من حوادث تبوك إلى الجهاد بمعناه العامّ، ليحضّ المؤمنين على أداء فريضة الجهاد لتحكيم شريعة الله في الارض.

ويؤكّد على التحرك المرحليّ من خلال البدء بقتال الذين يلون ويجاورون (دار الإسلام) ومن طبع القتال الغلظة والشدة في ذات الله، ولكنها لا تعني العنف الأهوج الذي رفضته النصوص الإسلاميّة، التي عرضت أخلاقيّات الحرب في تصوّر الإسلام كأروع مايكون، ولا ريب أنّ كل المحاولات لحذف ثقافة الجهاد من تراثنا الإسلاميّ ستفشل؛ لأن القرآن سيبقى حياً فيه، ولأنّ عزّ هذه الأمّة في جهادها لإعلاء كلمة الله، ولأنّ الله وكل قدراته المطلقة إنما هي مع المتّقين.

﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾ إنّ السور القرآنيّة هي كلام الله العظيم وهدىً ورواء للقلوب المستعدّة للهدى، أمّا القلوب النافرة والملوّثة بالنفاق فلن يزيدها إلاّ نفوراً، والآية الشريفة تكشف بعض حالات المنافقين الذين يواجهون هذه الحالة (نزول السور) بشيء من التهكّم متسائلين عن الأثر النفسيّ لها لأنّهم لم يحسّوا بلذّتها وعطائها في أنفسهم ويحسبون الآخرين على منوالهم، في حين أنّ إنزال سورة قرآنيّة يعمّق الإيمان في النفوس المستعدّة للحقيقة ويرفع من مستوى الأمل والبشرى فيها.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾

فالقلوب المريضة كالأراضي البور يتحوّل المطر فيها إلى وحل والعطاء الطاهر الى رجس إضافيّ وعمىً مستمرّ حتّى الموت.

﴿أَوَلاَ يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لاَ يَتُوبُونَ وَلاَ هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾﴾ ولعلّ الآية تذكّرهم بالحالات التي يمرّون بها في حياتهم باستمرار، وهي بطبيعة الحال حالات شدّة تهزهم وتدعوهم للعودة إلى الله القادر القويّ والتوبة إليه، ولكن شدّة العناد والنفاق تمنعهم من الاستجابة لهذه الحالات، والتوبة والتذكّر والاتّعاظ مما يزيدهم عمىً إلى عماهم وبعداً عن الاستجابة لدواعي الفطرة والتنبّه الوجدانيّ عبر هذه التجارب النفسيّة.

﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُواْ صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُون ﴿١٢٧﴾﴾ فإذا اُنزلت سورة إلهيّة تحمل المعاني العظام، لم ينتبهوا لها، بل تغلبهم شقوتهم ويتحيّنون الفرص متلصّصين ليهربوا من الحقيقة. كل ذلك لجهلهم وعماهم عن الحقّ.

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ إنّها رحمة الله الغامرة إذ بعثَ في المسلمين (رسولاً) يحمل كل جلال الرسالة الإلهيّة، ولكنّه من (أنفسهم) وليس غريباً عليهم وليس ملكاً إنّه بشر منهم، يستطيع أن يكون خير قدوة واُسوة،

يشقّ عليه أن يلقي قومه في العنت والشدّة، بل يحرص عليهم ويحنو ويرؤف بهم، ويحمل لهم كل معاني الحبّ والرحمة.

وما أحوج البشريّة إلى القيادة الإلهيّة الرحيمة، وما أروع أن تنقاد إليها، لتحقّق لها العلاء المنشود. وهنا نلاحظ التلاحم بين الأسس العقائديّة والجو العاطفيّ.

﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾ أمّا إذا تولّى الجمع ولم يأتمروا بقيادة الرسول الإلهيّة الرحيمة، فإن الله الذي لا إله إلاّ هو كافيه وناصره والتوكّل الكامل عليه؛ لأنّه مصدر القوى، والقدرة المطلقة، وربّ العرش العظيم (مركز إدارة الكون كله).

سورة يونس (١٠)

آياتها ١٠٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تحدّثنا من قبل عن جزئيّة البسملة للسورة.

﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ۝١﴾ إشارة إلى علو مقام القرآن؛ لانه كلام الله النازل بالهدى، الحافل بالآيات ذوات المعاني السامية، وهو الكتاب الذي تستقر فيه الحكمه فيتعامل مع واقع الفطرة وحقائق الحياة، ويوجه المسيرة الإنسانيّة إلى هدفها المنشود.

﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُواْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ ۝٢﴾ تصوّر البعض أنّه من الغريب أن يوحى إلى الإنسان في حين أنّ هذا التصوّر هو غريب، فالإنسان هو الموجود السامي المفضل القابل لتحمّل الوحي وتنفيذ مضامينه في الحياة، ليفتح الوحي آفاقاً ضخمة له، وليرسم لعقله المعالم التي يجب أن يتحرّك فيها، ويسخّر القوى الإنسانيّة لتحقيقها. والوحي يحمل الإنذار لجميع البشر والبشرى لخصوص المؤمنين، بأنّ لهم المقام السامي عند ربهم إن هم ساروا على هدى الوحي، وحينما لا يستطيع الكافرون مقاومة عطاء الوحي وأنواره يلجأون للتهم الباطلة، ويصفونه بالسحر الواضح.

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ ۝٣﴾ شروع في الردّ على هؤلاء المكذّبين، وتوضيح قضية الربوبيّة ونفي الشرك. فكل هذا التناسق في الكون، وهذه الوحدة في هداية عمليّة التكامل، وهذه القدرة النافذة إلى عمق كل ذرّة فيه، وهذا التدبير الموحّد، وهذا الكون الذي يمر خلقه بمراحل، كل ذلك يقود إلى الإيمان بالله ربّاً يجب أن تدين له البشريّة بالطاعة والعبوديّة ونفي أي تاثير مستقلّ لأي شيء يعدّ شفيعاً وللأسباب الأُخرى في مسيرته المنسجمة، فهذه الأسباب الأخرى إنما تعمل بإذن الله مسخّرة له، فهو الخالق المدبّر لا غير وإليه يجب أن تتوجّه العقول والحياة بالذكر والعبادة.

﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ

الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾﴾ بعد ذكر مبدأ الخلق يأتي التذكير بالمعاد إلى الله وحده لا غير، وبالوعد الإلهيّ الذي لا يتخلّف، فمنه المبدأ والمنطلق وإليه المعاد، وليتحقّق العدل الإلهيّ ويصل العابدون العاملون إلى النعيم، في حين ينتظر الكافرين شراب جهنميّ وعذاب أليم، نتيجة انحرافهم عن الحقّ.

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاء وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللّهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾﴾ آيتان إلهيّتان بارزتان أمام الفطرة الإنسانيّة، فيهما مثال التحرّك الكونيّ والانسجام الجميل، وروعة الضياء والنور، ومراحل الحركة والعطاء المؤثّر على حياة الإنسان وتنظيمها عدداً وحساباً، والتتابع منذ عرف الإنسان نفسه، كلها حقائق تدركها النفس بوضوح، ويكتشف العلم الإنسانيّ على مر العصور حقائق أعظم وأعظم ولكنها كلها تبقى منسجمة مع ظهور هذه الآية، وتؤكّد الحقّ الذي يقوم عليه الكون كله، ومنه هاتان الظاهرتان. وهذا التناسق الجميل والنظام الرائع الضروريّ لحياة الإنسان الجسديّة والاجتماعيّة ـ بما لا تستغني عنه البشريّة ـ يكشف عن الربوبيّة الواحدة والتدبير الحكيم المتفرّد.

﴿إِنَّ فِي اخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾﴾ وهذه الحركيّة المنسجمة آية بنفسها رائعة، وهذا التنوّع في ماخلق الله في هذا الكون الوسيع من العجائب تشدّ القلوب إلى الربّ المدبّر الواحد، فتدفعها للقيام بحقّ العبوديّة بكل معانيه، وتحقّق التقوى النفسيّة بكل قوّة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا وَرَضُواْ بِالْحَياةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّواْ بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ﴿٧﴾ أُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمُ النُّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾﴾ أمام الحقائق الباهرة التي أشارت اليها الآيات السابقة فأكّدت الربوبيّة الإلهيّة المتفرّدة، والعدالة والحقّ الساريين في الكون، يقف المنكرون غير الراجين لقاء الله، ولذا فهم راضون بصورة الدنيا من الحياة ومستسلمون لرغائبهم الدانية، وغافلون عن الآيات بعد أن محوا عقولهم وسخّروها للأهواء الرخيصة، يقفون موقف الضياع والفسق عن الفطرة وانتظار النار والعذاب الأليم، نتيجة هذا الموقف الدنيء المنقطع عن الإيمان بالآخرة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٩﴾﴾ يقف هؤلاء المؤمنون في قبال أولئك المنكرين، فهم واعون للحقّ مستمعون للهدى مؤمنون بالحقيقة الساطعة، عاملون بمقتضياتها من الأعمال التي تصلح المسيرة البشريّة، أمامهم الهدى الإلهيّ يستهدونه فيرشدهم بإيمانهم به نحو السير الصحيح، وتلتحم الحياة الدنيا بالآخرة، فهم في الحياتين في جنّات النعيم وفي أجواء من الرضا الإلهيّ.

﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلاَمٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾﴾ إنّه شعار المؤمنين في الحياتين أيضاً: التسبيح، والسّلام والتحميد، فالتسبيح تنزيه لله عن كل مالا يليق بساحة قدسه من انواع الشرك، والسّلام خير كله ومحبة للآخرين، والحمد انعكاس طبيعيّ لما تشاهده النفس الواعية من نعم الله الغامرة التي تحكي جمال الله وكماله ولطفه العميم بالبشريّة في كل حالاتها، إذ الكون كله تجلّيات لاسماء الله الحسنى، وفي هذه العوالم من الحسن ما لا تجد النفس معه إلاّ أن تعلن بالحمد لله ربّ العالمين. وهكذا يتكامل الإطار ببداية التسبيح والتنزيه والتوحيد، انتهاء بالحمد له تعالى مروراً بالمحبة والسّلام.

﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾﴾ ويتمادى المنكرون في انحرافهم فيطلبون تعجيل العذاب، ولكن القرآن يذكّرهم بالحكمة من تاخيره، وهي أن هذا التأخير لصالحهم من خلال إعطائهم فرصة المراجعة والتوبة، فرغم العناد والظلم تبقى الرحمة الإلهيّة تصرّ على تنبّههم للحقيقة، وخروجهم من حالة الطغيان والضياع.

﴿وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَّسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾﴾ ومن الحالات التي تعبّر عن لطف الله أيضاً حالات العودة إلى الله عند الضّر والشدّة وانقطاع الوسائل، حيث يلجأ الإنسان متضرّعاً إلى الوجود القادر المخلص، داعياً في مختلف حالاته، إلاّ أنّ هذا الإنسان سرعان ما ينسى هذا اللطف ويغفل عن باب الرحمة، وذلك حينما تنكشف الغمّة، فيستهويه الطغيان من جديد، وتزيّن له نفسه حياة السرف والترف فيغرق في العمه من جديد.

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُواْ

لِيُؤْمِنُواْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ وهي عبرة يجب أن يعتبر بها هؤلاء المسرفون الغافلون المستعجلون لعذاب الله، ليدركوا أنّ هناك علاقة قويّة بين الهلاك والظلم والعناد الطاغي، رغم أنّ الرسل كانت تطرح الآيات البيّنات، والمنطق السليم يعتبر بالبيّنات ولكنّه الطغيان والإسراف يعمي القلوب ويدفع نحو حياة الإجرام.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلاَئِفَ فِي الأَرْضِ مِن بَعْدِهِم لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾ إنّها نعمة الله عليهم باستخلافهم في محل هؤلاء الهالكين وهو تذكير مؤكّد لهم للعودة إلى الله والعمل الصالح والخلاص من نفس العاقبة، وهو توجيه للنفوس لاستحضار الرقابة الإلهيّة في كل الحالات. وهكذا تتجلّى السُنة الإلهيّة الكونيّة في تعاقب الحضارات والتداول والاستخلاف، وإنّ الجميع مسلمين وغيرَهم معرّضون للامتحان في إقامة العدل ونفي الظلم.

﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاء نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾﴾ آيات القرآن واضحة بيّنة، فيها علّو المعنى ودقّة التنسيق وسموّ الهدف، ولذلك وقفوا أمامها مبهورين عاجزين عن أن يأتوا بمثلها، ولا يسعهم إلاّ التسليم. إلاّ أنّ العناد وعدم الإيمان بالآخرة من قبل البعض دفعهم لطلب عجيب: طلب الإتيان بقرآن غير هذا أو تبديله، وذلك إما لتنسجم مضامينه مع أهوائهم أو للاستهزاء أو للامتحان أو لغير ذلك. إلاّ أنّه يطلب من الرسول أن يردّ عليهم بأنّه مجرّد متلقّ للوحي، وأنه هو لو تخلف لواجهه العذاب العظيم. وهذه الاثنينية بين الموحي والموحى إليه ظاهرة قرآنيّة عامّة تردّ على ادّعاءات المشركين، وكل المشكّكين القدامى والمحدثين الذين يقولون بنظرية (الوحي النفسي) الموهومة.

﴿قُل لَّوْ شَاء اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾﴾ إستمرار في الردّ على طلبهم السخيف بتغيير القرآن. ذلك أنّ نزول الوحي كان بإرادة إلهيّة، ولو شاء تعالى لما أنزل القرآن، ولا علّمهم الرسول معانيه الرائعة، ولقد كان ﷺ يعيش بينهم أربعين عاماً قبل نزول الوحي ولم يكن يحدّثهم بشيء منه؛ لأنّه لم يكن قد أوحي إليه. إنها لفتة تدعو للتعقّل والتأمّل لو كانوا يعقلون.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾﴾ إنّه الظلم العظيم أن ينسب الإنسان لله شيئاً افتراءً وادّعاءً للوحي بالباطل، أو يكذّب بآياته الواضحات، وأنه لإجرام كبير يؤدّي إلى الضّلال والشقاء.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاء شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللّهَ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾﴾ ويمضي القرآن في تسخيف هؤلاء وتذكيرهم بانحطاطهم العقليّ، إذ يقدّمون ولاءهم وخضوعهم لموجودات لا تضرّ ولا تنفع مدّعين أنها سوف تشفع لهم وتوصلهم إلى الله، والله لا يعلم بمثل هؤلاء الشفعاء المزعومين، بل هو الشرك الذي يتنزّه الله تعالى عنه.

﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلاَّ أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُواْ وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾﴾ وماذكره القرآن من تصرّفات وطلبات سخيفة للمشركين إنما هو انحراف عن الحالة الفطريّة التوحيديّة ووقوع في الضلال، وانقسام النّاس بالتالي إلى مسيرتين مؤمنة وكافرة، شاء الله أن تلتحما في صراع عبر التاريخ حتّى يحكم بينهما يوم الجزاء. فقد اقتضت حكمة الله أن يمهل أطراف الصراع في الدنيا لمزيد من الاختبار وتحقيقاً للربوبيّة والتربية للعالمين.

﴿وَيَقُولُونَ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلّهِ فَانْتَظِرُواْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾﴾ ويستمر المشركون الذين لا يرجون لقاء الله بطلب آية أُخرى (غير القرآن) غير مدركين لعظمة القرآن المعجزة الخالدة، ويأتي الردّ من الرسول المطيع لله: إنّها إرادة إلهيّة، وإنه لا يعلم الغيب علماً ذاتياً بل هو ينتظر الوحي، فلينتظروا معه ماينزل من الله.

﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّن بَعْدِ ضَرَّاء مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾﴾ تذكير قرآنيّ لهؤلاء المشكّكين في الرسالة والوحي، والذين جاءتهم الرحمة الإلهيّة المتمثّلة ببعثة النبيّ ﷺ فيهم، ليخلصهم من الجاهليّة والفرقة، ولكنّهم راحوا يتذرّعون بالطلبات السخيفة والأساليب الماكرة، كطلب تغيير القرآن، أو طلب آية ومعجزة أُخرى وأمثال ذلك، تذكير لهم بأنّ الإنسان الضعيف عادةً ما يثوب إلى ربّه ساعة الحاجة، فإذا قضيت واستغنى عاد إلى مكره ولجاجه، ولكنّ الله اسرع مكراً وردّاً على المكر الذي ترصده رسل الله بكل دقّة وحينئذ يكون الردّ المناسب.

﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَاءتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ اللّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنِّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾ واستمراراً في هذا التذكير يستعرض القرآن هذه الحالة التي تتكرر عادة لدى الناس، فهم يتمتّعون بنعمة الله وقوانين الطبيعة ويسيرون في البحر، تحملهم الفلك وتدفعهم الريح الطيّبة فرحين مسرورين وربما غفلوا عن هذه النعمة أو تناسوا المنعم ولكن العسرة والشدّة تبدو حينما تعمل قوانين الله عملها أيضاً فتعصف الرياح وتهاجمهم الامواج من كل طرف، ويشعر هؤلاء بالهول الكبير فينتبهون للحقيقة التي غفلوا عنها حالة الاستغناء فيلجأون بفطرتهم إلى الله المنقذ، طائعين معلنين أنّهم إن شملتهم الرحمة فسيكونون من الشاكرين.

والملاحظ أنّ الآية الشريفة تستفيد من روعة التعبير لتجسد هذا المشهد الوجدانيّ، تحقيقاً لهدف التذكير.

﴿فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنفُسِكُم مَّتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَينَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ إلاّ أنّ الإنسان يدركه ضعفه (إلاّ أن يحتفظ بخاصية التذكّر) فيعود إلى الطغيان والبغي والظلم واتّباع سبيل الضلال، ناسياً حقيقة أنّه يعتدي على إنسانيته ووعيه، مستمتعاً بمتعة دنيوية رخيصة ومفرّطاً بحياة سامية في الدنيا وثواب خالد في الآخرة، حين يرجع إلى ربّه فينبّئه بعمله ويجزيه على انحرافه وبغيه.

﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاء أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاء فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّىَ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ هكذا يريد القرآن أن يعمّق نظر الإنسان للدنيا فلا يفتتن بها، إنّها حالة قد تتغيّر لأي عارض، كما تغيّرت الريح الطيّبة إلى ريح عاصف، فهي تشبه مطراً ينزل بلطف الله فتتلقّفه الارض، ويمتّصه النبات فيمرع ليشبع الإنسان والحيوان وتتزيّن به الطبيعة، وحينئذ أيضاً يدرك الإنسان ضعفه ويتصوّر أنّه القادر، ويغفل عن قدرة الله لتغير عليه الحوادث في كل آن،

وليصبح حصيداً يبساً مجدباً، وكأنه لم يكن بالأمس في غاية الزهو والخضرة.

وتتوالى الآيات لتبقي الإنسان واعياً للحقيقة مفكّراً بالمصير.

﴿وَاللّه يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلاَمِ وَيَهْدِي مَن يَشَاء إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ والمصير الحقّ يجب أن يكون إلى دار السّلام والأمان الدائم الذي لا يشوبه قلق أو زوال، وهو ما يدعونا إليه اللطيف الخبير الرحيم، فما أسمى الفرق بين حياتين: حياة متقلّبة تتّسم بالزوال والنسيان والقلق والمكر وأخرى هي السلام بكل معانيه الجميلة.

﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلاَ يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلاَ ذِلَّةٌ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٦﴾﴾ تتماشى هذه الآية مع مقتضيات الفطرة ككل القرآن، فالمحسنون لهم المثوبة والعاقبة الحسنى بل ولهم من فضل الله زيادة على ذلك قد تفوق تصوّرهم هم. وسوف لن يواجهوا الأهوال ولن تتغيّر ألوان وجوههم (قتر) ولا تبدو عليها الذلة إنّهم أصحاب الجنّة وقد حقّقوا أقصى ما يصبون إليه وهو الخلود في النعيم والسلام في ظل الرضوان الإلهيّ.

﴿وَالَّذِينَ كَسَبُواْ السَّيِّئَاتِ جَزَاء سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ اللّه مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧﴾﴾ وفي قبال خطّ الإيمان يقف هؤلاء الذين عاشوا الانحراف والخسران يلاقون جزاء سيّئة بمثلها وتغشاهم الذلّة، ويفقدون مايمنعهم من عذاب الله، ويغرقون في ظلام الندم والضياع ويا لبؤس هؤلاء إنّهم سيخلدون في عذاب الله وما أعظمه من عقاب. وهكذا يجمع القرآن بين سواد الوجوه الظاهريّ لاحتراقها بالنار، وسواد الذل الباطنيّ لتلوّثها بالظلم ليعبّر أروع تعبير عن العذاب الغامر الذي سيلاقي أهل المعاصي، فعليهم التأمّل من جديد في هذه العاقبة الأليمة.

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾﴾ وهكذا تحشر الخلائق إلى الله المؤمنون والمشركون، ثمّ يقال للمشركين ومن جعلهم المشركون شركاء لله: قفوا مكانكم انتم وهؤلاء الشركاء، ثمّ يتمّ الفصل بينهما (فزيّلنا بينهم) وينبري الشركاء لتبرئة أنفسهم من إثم هؤلاء وشركهم وإعلان أنّ هؤلاء لم يكونوا يعبدونهم في الحقيقة؛ لان الشركاء لم يكونوا

شركاء ولم يكونوا يستحقّون العبادة، وانما توهّم المشركون قيامهم بهذه العبوديّة.

﴿فَكَفَى بِاللّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ﴿٢٩﴾﴾ ويلجأ هؤلاء الشركاء المزعومون إلى الله ليستشهدوا به معلنين أنّهم كانوا غافلين عن إثم المشركين وفي كل هذا مافيه من تبكيت المشركين وتذكيرهم بعمق الوهم الذي يعيشونه. حيث يتبرّأ منهم حتّى من كانوا يتوجّهون اليهم بالعبادة والتقديس.

﴿هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّواْ إِلَى اللّهِ مَوْلاَهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾﴾ إنّها الحقيقة الكبرى والمولويّة الحقّة تظهر بأجلى مظاهرها يوم القيامة، فإذا ماعداها زائف، وإذا كل أنماط العبوديّة الأُخرى وَهْمٌ وضلال، وهناك تنكشف حقائق الأعمال وتوفّى كل نفس نصيبها مما أسلفت وقدّمت من عمل، وهنالك تبطل الدعاوى الأُخرى ولا يجد المشركون من يعصمهم من العذاب الأليم.

﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ والأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيَّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللّهُ فَقُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾﴾ واستهدافاً لنفي الشركاء والشفعاء المزيّفين، تأتي هذه الآية لتصحيح الموقف لدى المشركين بتذكيرهم بنعم الله العظمى في الكون والنفس، حيث تتناسق الطبيعة وشتّى القوانين الأرضيّة والسماويّة لتشبع مايحتاجه الإنسان، وتدوم حياته ويتنعم برزق الله، يديم مسيرته البنّاءة لتحقيق الهدف من خلقته. إنّ ظواهر الرزق من السماء والارض، والحواسّ، والحياة، تشكّل مجموعة متناسقة يقود التأمّل فيها إلى معرفة أعمق بالوجود الحيّ القادر الرحيم المطلق، وبدون ذلك فليس أمامنا إلاّ افتراض تجمع مالا يحصى من الصدف، وهو المحال الذي ترفضه الفطرة السليمة، فليس أمامنا إلاّ الإيمان بالله وحده ونفي أي تأثير لما عداه، ولو كان ذلك بشكل شفاعة مستقلّة، وبالتالي العمل بمقتضيات حق المولوية وهي التقوى.

﴿فَذَلِكُمُ اللّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلاَلُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾﴾ إنّه المولى الحقيقيّ وماعداه الوهم والخيال الباطل.

﴿كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُواْ أَنَّهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾﴾ ولأنهم خرجوا عن حالتهم الفطريّة فإنّهم لم يستحقّوا شرف الإيمان.

﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾﴾ إستمرار في الاحتجاج ضد المشركين، والاستمداد من الفطرة لتقرير حقيقة التوحيد، وأنّ الله تعالى بيده الخلق أوّل مرّة وإعادة الخلق للحساب، وإعطاء حياة الخلق الأوّل معنى وغاية، وأن لادور لمن يطرحونهم شركاء في العمليّة مطلقاً، فينبغي أن لا تنطلي عليهم أساليب الضّلال فتصرفهم عن الحقّ.

﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لاَّ يَهِدِّيَ إِلاَّ أَن يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾﴾ ذلك أنّ اتّباع الحقّ حالة فطريّة لأنّها من طرق التكامل، واتّباع الهادي إلى الحقّ اتباع للحق نفسه، وحينئذ يواجه المشركون بحقيقة مهمّة وهي أنّ هؤلاء الشركاء أضعف من أن يقودوهم إلى الحقّ، وأنّ الهدى الحقيقيّ هو هدى الله في جميع المجالات، بينما لا يملك هؤلاء أن يهتدوا هم فضلا عن أن يقوموا بهداية الآخرين، والفطرة تقتضي وتحكم باتّباع الهادي الحقيقيّ وهو الله.

﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنًّا إَنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللّهَ عَلَيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾ إنّ هؤلاء المشركين أخطأوا السبيل إلى الحقّ بعد أن أصرّ أئمتهم على إضلالهم ـ وهم اي القادة يعلمون بالحقّ ولكن سوّلت أنفسهم الباطل ـ أمّا الأكثريّة فهم المقلّدون التابعون للظنون والأوهام، ولو عادوا إلى فطرهم وعقولهم لأدركوا أنّ الظن لا يغني من الحقّ شيئاً، وأن عليهم الوصول إلى اليقين بالحقيقة واتّباعها بعد ذلك، وربما كان المراد أن الأكثريّة تتبع الوهم، وهناك اقليّة مستضعفة لا تملك التفكير أصلاً في هذه الأمور.

﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَى مِن دُونِ اللّهِ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لاَ رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٧﴾﴾ وينتقل القرآن إلى نقطة ضعف كبرى في نفس المشركين، وهي تشكيكهم في نسبه السماويّ وهي نقطة سارية في نفوس من لم تستقرّ العقيدة في وجودهم، كما يعمل الأعداء وحتى اليوم على بثّ الشبهات حولها ومن هنا فإن أسلوب معالجتها آنذاك أيضاً يسري باستمرار ليعالج اي شبهة لاحقة.

إنّ هذا القرآن لا يمكن أن يفترى على الله، لأنّه مظهر لقدرة إلهيّة لا بشريّة، إنّه بما يملكه من معان سامية، وتناسق بديع وتكامل في الرؤى، وإخبار عن عالم الغيب، وعلوّ عن الزمان

والمكان، وروعة خارقة في التعبير واستعصاء على التقليد، وتصديق وتفصيل لحقائق الكتب السماويّة السابقة، وانسجام تامّ مع الفطرة والمنطق السليم، إنّه مع كل هذه الحقائق لا يقبل الافتراء مطلقاً ولا يدخله الشكّ في أنّه نازل من ربّ العالمين خالق الكون بقوانينه، والرحيم للإنسان والهادي إلى سواء السبيل.

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾﴾ نعم على هؤلاء المشكّكين أن يجرّبوا أنفسهم هم بل يستمدوا من الآخرين قدراتهم ليأتوا بسورة من مثله، تحمل نفس السموّ والإعجاز، ولن يقدروا بل لن تستطيع الاجيال التالية حتّى من تشبّعوا باسلوبه أن تأتي بسورة من مثله، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً.

﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٣٩﴾﴾ إنّ سموّ المعاني القرآنيّة وقصور أفهام المكذّبين عن إدراك المعاني الكبرى التي تؤول إليها (وهي أُمور سيطّلعون عليها قريباً) هو الذي دعاهم للتكذيب كما دعا من قبلهم، لذلك بقوا دون أن يفكّروا بعقل سليم فابتلوا بعاقبة الظالمين.

﴿وَمِنهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُم مَّن لاَّ يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾﴾ وهكذا وفّق الله البعض للإيمان بالقرآن في حين منع البعض فسادهم من هذا التوفيق.

﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَاْ بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾﴾ دعوة للنبيّ ﷺ كي يتبرّأ من خطّ المكذّبين.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُواْ لاَ يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾﴾ وهناك من يستمعون إليك وهم صم لا يعقلون، فهم لا يقبلون الهدى ولا يملكون القابليّة له.

﴿وَمِنهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُواْ لاَ يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾﴾ كما أنّ هناك من ينظرون إليك ولكنهم في الواقع عمي لا يقبلون الوعي والبصر المؤدّي للمعرفة.

﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ والعدل الإلهيّ هو أحد ركائز التصوّر الإسلاميّ التي يبتني عليها الكثير من التصوّرات الأُخرى، ومن هنا فإن هؤلاء لم يصبهم ظلم من الله، وإنّما كانوا هم الظالمين لأنفسهم بتفريطهم بهذه النعم الإلهيّة.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُواْ إِلاَّ سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ

كَذَّبُواْ بِلِقَاء اللّهِ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾﴾ إنّ الحقيقة سوف تتجلّى بوضوح يوم القيامة: وسيعرفون أنّ ما أفنوا عمرهم له من الدنيا لا قيمة له في الواقع، إنّه لا يمثّل إلاّ ساعة من النهار تمّ فيها التعارف ثمّ انقضت بسرعة، فتبيّن لهم الخسران والبعد عن الهدى، وهكذا يركّز القرآن في ذهن الإنسان حقيقة الحياة الإنسانيّة الممتدّة، ليفكّر في سعادته على امتدادها ولا يقتصر على مقطع قصير منها، وحينئذ تتغيّر حسابات الربح والخسارة.

﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾﴾ إنّها سنن الله في التاريخ: أن يهدي الله بلطفه الإنسان، ويرسل له التعاليم التي تقوده إلى السعادة، فإذا انحرف عن الخطّ استحقّ العذاب، وما على الرسول إلاّ البلاغ، وفيما عدا ذلك فالأمر موكول لله، فقد يرى تحقّق الوعيد الإلهيّ في حياته، وقد يتوفّاه الله قبل ذلك، وعلى أي حال فالسنن لا تتخلّف، والجميع في محضره تعالى فينبغي أن لا يغرّهم تأخّـر العذاب، كما ينبغي للنبيّ ﷺ أن يواصل دعوته، سواء تحقّق الوعيد أو تأخّر.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاء رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾﴾ إنّ اللطف الإلهيّ عميم، والعدل الإلهيّ حقيقة لامراء فيها، فالرسل تبلغ الهدى الإلهيّ لكل الأمم، وعليها أن تستغلّ هذا اللطف، فإذا عصت استحقّت العذاب.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٨﴾﴾ ويتساءل المنحرفون متهكّمين: متى يتحقّق الوعد والقضاء الإلهيّ الذي وعدتمونا به؟ ويأتي الجواب: إنّه يتبع السنن والتقديرات الإلهيّة وليس أمره بيد الرسول، بل لايملك هو لنفسه ان يضرّها أو ينفعها، والمشيئة الإلهيّة وسننها الكونيّة هي النافذة في التاريخ، وتطوي الأمم على أساس منها عمرها وأجلها فإذا استوفت ذلك تحقّق التقدير الإلهيّ بكل دقّة.

﴿قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلاَ نَفْعًا إِلاَّ مَا شَاء اللّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاء أَجَلُهُمْ فَلاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾﴾ إنّ استعجال العذاب لن ينفع المجرمين، ولن يخلّصهم منه، فهو محيط بهم، قد يأتيهم ليلاً أو نهاراً فلا داعي لهذه العجلة.

﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُم بِهِ آلآنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾﴾ وكأنّ هؤلاء ينتظرون أن

تلوح بوادر العذاب ليؤمنوا بالرسالة، ولكن القرآن يحذّرهم من التمادي في ذلك، اذ سوف لن ينفعهم ذلك بعد ان يحيط بهم ما كانوا به يستعجلون.

﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾﴾ ويوم القيامة يقال لهؤلاء الظالمين هذا القول الأليم، وليس ذلك إلاّ بما كسبته أيديهم.

﴿وَيَسْتَنبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾﴾ إنّهم يعجبون من إعادتهم إلى الحساب والعذاب، ويتساءلون عن مدى تحقّق ذلك، غافلين عن أنّ وعد الله حقّ، وأنّ القدرة الإلهيّة لا يعجزها شيء.

﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الأَرْضِ لاَفْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّواْ النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾﴾ إنّ عذاب الله عظيم ولا يقابله أي شيء، فإذا حلّ فإن الظالمين سوف يسترخصون مافي الأرض (لو كانوا يملكونه) ليقدّموه فداء وخلاصاً منه، إنّه الندم العظيم على الظلم، وإنّما الحسرة المكبوتة ولكنّه جزاؤهم العادل.

﴿أَلا إِنَّ لِلّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَلاَ إِنَّ وَعْدَ اللّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾﴾ إنّ الإيمان بالملكيّة الحقيقيّة الإلهيّة الشاملة لما في السماوات والأرض، والإيمان بالقدرة الإلهيّة المطلقة، وكذلك الإيمان بالصدق الإلهيّ في الوعد (ولا معنى لتصوّر الكذب فيه) كل ذلك يؤدّي بطبيعة الحال إلى حقيقة أنّ وعد الله حقّ واقع لاشكّ فيه، ولا ينكره إلاّ البسطاء من عامّة النّاس وهم الأكثريّة غالباً.

﴿هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾﴾ إنّ أمر الحياة والموت بيده تعالى في إطار ملكيّته للكون كله، وقيمومته على كل من سواه، فلا معنى لتصوّر التخلّف في الوعد الإلهيّ، وبالتالي الوقوع في الغرور.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاء لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾ عودة لبيان عظمة القرآن يتمّ فيها التركيز على العطاء الخُلُقيّ القرآنيّ، فهو موعظة تخرج الإنسان من الغفلة والحيرة والشكّ، وهو شفاء ينزع من الصدور أدواءها وامراضها، وهو هدى تشريعيّ يعلّم الإنسان سبل تحقيق إنسانيّته وعلائها، وهو بالتالي رحمة إلهيّة غامرة تصعد بهذا الموجود إن شاء هو سبل التكامل.

﴿قُلْ بِفَضْلِ اللّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ إنّه العطاء والفضل من الله الغنيّ، وإنّها الرحمة العامّة للناس وبهما (الفضل والرحمة) جاء الهدى الإلهيّ لا لحاجة إلهيّة للعبادة أو لتكريس الذات، بل ليتكامل الإنسان ويسلك سبل علائه، وهو الفرح الحقيقيّ والمتعة التي لا متعة بعدها، وأين منها التمتّع بما يجمعه الإنسان من حطام زائل ومتعة مقطوعة.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلاَلاً قُلْ آللّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾﴾ إنّ الإنسان مغمور بالنعم الإلهيّة في نفسه، وفي الكون، وكل هذه النعم تحكمها قوانين ولها مقتضيات وروابط لا يعلمها إلاّ الله، وربما بلغ الإنسان بمعرفته إلى شيء يسير منها. ولذلك فلا ينظم العلاقة بها إلاّ وحي مرشد ودين جامع يعيّن المسموح به وغير المسموح، تحقيقا لمقتضى تلك العلاقات وإيجادا للعدالة في الإشباع وبالتالي التزاماً بالنظام الأصلح في الحياة، وعليه يجب الرجوع إليه تعالى واستئذانه وإلا فالوقوع في الافتراء والضلال.

﴿وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾﴾ ولا ريب أنّ اتّخاذ الإنسان صفة المشرّع دون إذن الله، سوف يؤدّي به إلى الهلاك والكذب على الله وهو من له حق التشريع وهو المتفضّل المنعم، وشكر النعمة يقتضي طاعة المولى المنعم، ولكن بساطة العامّة وهم الأكثرية تنسيهم هذه الحقيقة.

﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاء وَلاَ أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾﴾ إنّ كل حركة في الكون، وكل حالة يكون عليها الرسول ومنها تلاوة كتاب الله، وكل عمل يصدر من أي فرد ولو كان ذلك سريعاً حاضر عند الله تعالى، اذ الكون كله تحت أمره وعلمه، يعلم كل صغيرة وكبيرة فيه.

﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء اللّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ الَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ إعلان قرآنيّ خالد، عن حقيقة كبرى فالمقرّبون من الله هم الأولياء الذين عمر قلوبهم الإيمان وملأ وجودهم، فأوجد حالة التقوى المستدامة النابعة من الأعماق، فسلّموا لله كل أُمورهم واذعنوا له بالربوبيّة، وقدموا له كل مقتضيات العبوديّة فلا شيء يملأ وجودهم إلاّ التقوى، ولا شيء إلاّ هو مملوك له ورضاه هو الغاية القصوى، هؤلاء المقرّبون لا يعرض

عليهم ـ دنياً وآخرة ـ خوف من ضرر أو نقص، أو حزن على فقدان شيء تعلقت قلوبهم به، كيف والله معهم وجدوه فوجدوا كل شيء، وانشدّت احاسيسهم به وعاد الخوف والحزن يتمّان في إطار الرضا الإلهيّ نفسه.

وقد روي عن النبي ﷺ قوله: «لا يحقّ العبد حقّ صريح الإيمان حتّى يحبّ لله ويبغض لله»[١].

﴿لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾ أولياء الله يعيشون الاستبشار بتحقق الأمل، والسعادة المعقولة دنياً وآخرة، لان الله اللطيف القادر الصادق قرّبهم منه وضمن لهم هذه الحياة الكريمة، وأنّ لهم الحسنى على كل حال، ولا تغيير ولا تبديل لسنن الله وكلماته في الكون، فماذا بعد هذه الحالة من شيء يرجوه الإنسان؟ إنّه أعظم فوز متصوّر، إنّه الفوز العظيم.

﴿وَلاَ يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾﴾ إنّ الإيمان بأنّه تعالى هو العزيز المطلق، وهو السميع العليم بأحوال الإنسان ومسيرته، لايدع للمؤمن أي مجال للحزن على شيء، بعد أن لم يتعلق قلب المؤمن بغيره تعالى، وبعد أن ضمن له حياة السعادة الحقة والبشرى المستدامة، فيجب أن لا تترك المصائب والشدائد ولا مايقال من كلمات الطعن والإهانة أي تأثير في قلوب المؤمنين الذين يعتزّون بعزّة الله تعالى.

﴿أَلا إِنَّ لِلّهِ مَن فِي السَّمَاوَات وَمَن فِي الأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ شُرَكَاء إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾﴾ ومن مظاهر العزّة المطلقة أنّ كل ذي شعور و إحساس في الكون ـ أقويائهم وضعفائهم مملوكون مربوبون له تعالى، بيده أمرهم ومايصنعون، والشركاء الذين يتّبعون من دونه مجرد أوهام وأباطيل يصنعها التخمين والظنون، والاعتزاز بالأوهام من الأمور السخيفة.

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾﴾ إشارة إلى بعض نعم الله العظيمة على الإنسان ـ وكلها عظيمة ـ وهما ظاهرتا

---

١. فتح القدير، ج ٣، ص ٣٩٤، الدر المنثور، ج ٥ ، ص ١٧٩.

الليل والنهار بما تملكه هاتان الظاهرتان الكونيّتان من خصائص تنسجم كل الانسجام مع حاجات الإنسان الطبيعيّة، للسكون في الظلام تارة، وللحركة في النور تارة أُخرى. إنّ هذا الانسجام بين ظواهر الطبيّعة وهي لا تعدّ ولا تحصى، وبين حاجات الإنسان الطبيعيّة ـ وهي كذلك ـ يكشف لكل ذي وعي عن التخطيط الكونيّ الدقيق من الخالق القادر العليم الرحيم، وعندها فلا ينبغي أن يعيش الإنسان في أوهام الشرك، والاعتزاز بالظنون، وإنما يلجأ إلى المنعم الرحيم يشكره على نعمائه، ويعتزّ به ويعيش البشرى الدائمة.

﴿قَالُواْ اتَّخَذَ اللّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَات وَمَا فِي الأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتقُولُونَ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾﴾ واذا كان القرآن نفى صفة الوالديّة والولديّة عنه تعالى في آيات أخرى بأساليب متنوّعة، فهو هنا ينفيها بالتذكير بالغنى الإلهيّ المطلق ولا معنى لتصوّر الحاجة في ربّ الكون ومالكه ليحتاج إلى ولد ومعين إنّه خرص وادّعاء من المشركين لا دليل لهم عليه، وتقوّل بلا دليل.

﴿قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ إنّ المشركين في تقوّلاتهم على الله، وكذبهم المتعمّد يسيرون في مسير الضّلال والضياع، ويتجنبون سبيل الفلاح والتعقّل والوعي. وقد يتمتّعون في حياتهم الدنيا، ولكنها حياة زائلة ينتظرها بعدها في الآخرة العذاب الشديد، نتيجة ماقدموه من كفر وتكذيب.

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللّهِ فَعَلَى اللّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُواْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُواْ إِلَيَّ وَلاَ تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾﴾ يعود القرآن إلى الإشارة إلى القرون الخالية للاعتبار منها، وتجنب مزالقها، ويذكر قصة النبيّ نوح الذي انطلق يبلّغ رسالات الله وحيداً صابراً واعياً معتزاً بربه معلناً لقومه ـ المكذّبين باصرار لدعوته التي واصلها طويلا ـ أنّهم إن ضاقوا بدعوته فإنه لن ييأس ولن يضعف؛ لأنّ الله وليّه يمدّه بالعون والعزة وقوة العزيمة، فليجمعوا امرهم وليضمّوا إليهم شركاءهم وليتأكدوا من موقفهم وليعلنوه بصراحة ودونما مواربة، ولينفّذوه بلا تأجيل.

﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾﴾ أمّا إذا أدمتم عنادكم، وأعرضتم عن الحقّ الذي جئتكم به ودعوتكم إليه طويلاً، وفي كل الأحوال فإن ذلك لن يضرّني شيئاً، ولن آسى له لأني لم أسألكم أجراً ولم أطلب نفعاً دنيويّاً حتّى أحزن عليه (وهنا يبدو الربط الرائع مع الآيات السابقة) لأني أعيش مع الله واطلب أجري منه، وهو مضمون لا ريب فيه. وهو مقتضى تسليمي الكامل لله ورضاه وما يقدّره لي دونها حزن على فقدان شيء من الحطام أو خوف من خطر أو ضرر.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلاَئِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾﴾ وكان التكذيب جواب قومه، وكانت عاقبته هو والذين آمنوا معه الخلاص منهم وركوب سفينة النجاة، ومن ثمّ امتلاك ناصية الارض وحكمها والاستخلاف عليها، بعد أن زال السلف المكذّب واصيبوا بعذاب الغرق في الطوفان، وهذه هي الحقيقة التي يجب أن يعيها الكافرون والمؤمنون معاً، فالكون يقوم على العدل والحقّ، وإذا كان للباطل جولة، فإن دولة الحقّ هي الفائزة في النهاية، وفي هذا ما فيه من تثبيط لعزائم المكذّبين المتولّين عن الحقّ، الذي جاء به الأنبياء والنذر، وتقوية لإرادة الخطّ المؤمن وتوسعة لآفاق رؤيته وتعميق لأمله بالله، وهو القادر الصادق الرحيم.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِ رُسُلاً إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَآؤُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِ مِن قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلوبِ الْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾﴾ ثمّ يشير القرآن إلى مجموعة الرسل الذين جاؤوا بعد نوح عليه السلام إلى زمان موسى عليه السلام وقد حملوا الآيات البيّنات الواضحات المنسجمات مع العقل والفطرة، ولكنّه العناد المتاصّل الذي أهلك قوم نوح امتدّ في هذه الأقوام المتتابعة مشكّلاً خطاً عامّاً يرفض أن يؤمن بما كذب به من قبل، ويبدو أنّه سيبقى ممتّدا، فالعناد هو هو والتكذيب والأصنام هي هي، وإن تغيّرت أشكالها وعناوينها، وسُنّة الله تعالى أن يطبع على قلوب المعاندين.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ واستمراراً في عرض الخطّين المتضادّين خطّ النبوّة وأولياء الله وخطّ العتاة المكذّبين المعاندين يستعرض القرآن قصّة موسى عليه السلام بما يناسب السياق، فقد بعث موسى وأخوه هارون بالحقّ إلى فرعون ـ وهو رمز الطغيان والعناد ـ ومعه ملؤه وجماعته الحاكمون،

ويقال إنّهم الاقباط الذين كانوا مع فرعون ـ فاستكبروا واستمّروا على إجرامهم وهي سمة خطّ الباطل (الاستكبار والاجرام).

﴿فَلَمَّا جَاءهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَى أَتقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلاَ يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ ﴿٧٧﴾﴾ وراحوا يكذّبون بالحقّ المتمثّل بتعاليم الله التي جاء بها موسى عليه السلام والايات والمعجزات الباهرة ويصفونها بالسحر الواضح ليردّ عليهم موسى عليه السلام بأنّها الحقّ المبين ـ لو تأمّلوا وتعقّلوا ذلك ـ وأنّ الساحر مشعوذ يوهم الآخرين فهو غارق في الوهم بعيد عن الفلاح والحقّ، في حين يقرب منطق النبوّة من العقل والفطرة والوجدان ويقودها نحو الأهداف العليا في نسق منطقيّ متوازن.

﴿قَالُواْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاء فِي الأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾﴾ وهنا كشفوا عن سر تكذيبهم بالحقّ، وأنّه الخوف من أن تنزوي عنهم امتيازاتهم المبتنية على الخرافات الموروثة التي تمنح فرعون قدرة الاستكبار والظلم، وتبقي الرعيّة خاضعة خانعة.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَاء السَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَى أَلْقُواْ مَا أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾﴾ وكأنّ الطاغية رآها نقطة ضعف يمكن أن يعارض بها موسى عليه السلام ويوهم العامة، فدعى أمهر السحرة لاجتماع مهرجانيّ كبير، وعند الاجتماع جاء التحدّى فطلب منهم موسى أن يعرضوا سحرهم وأوهامهم، فطرحوا عصيهم وحبالهم فبدت كأنّها حيّات وثعابين.

﴿فَلَمَّا أَلْقَواْ قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللّهَ لاَ يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ وحين عرضوا سحرهم جابهم موسى عليه السلام بالحقيقة فما جاءوا به هو السحر وإنّ الله سيبطله بقوّته، وإنه الباطل الذي يريدون به الفساد ونصرة الطاغوت ومخالفة خطّ الإيمان والحقّ، والله لا يصلح عمل المفسدين.

﴿وَيُحِقُّ اللّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾﴾ هذه هي سُنة الله تعالى، فهو يحقّ الحقّ بكلماته وقضائه الكونيّ القائم أصلاً على الحقّ، وهو يبطل الباطل فيذهب جفاء، وهي حقيقة قائمة رغم أنف المجرمين وتهويلهم واستعراض قواهم الوهميّة. وهكذا استطاع موسى أن يبطل سحرهم. وكان أوّل من انتبه إلى هذه الحقيقة هم السحرة أنفسهم.

﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾﴾ وكانت حصيلة هذا الصراع وهذه المباراة أن بقيت الطغمة الفرعونيّة على عنادها، وآمنت به مجموعة ضعيفة من بني إسرائيل متّقية مستخفية في إيمانها، خوفاً من جبروت فرعون وممن يمالئونه ويداهنونه من أشراف بني إسرائيل (وملئهم) كيلا يفتنوهم عن الحقّ ويجبروهم على الكفر. وهكذا كان فرعون جبّاراً عالياً في الأرض، مسرفاً يتجاوز كل الحدود ولا يسمح حتّى للعقول والقلوب أن تؤمن بالحقيقة اذا توضّحت لها معالمها.

﴿وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُواْ عَلَى اللّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾﴾ وهنا يقوم موسى بأوّل أدواره القياديّة في أُمّته، ينفخ فيها روح الثبات والإصرار على الحقّ بتذكيرها أنّ الإيمان بالله القادر الحكيم اللطيف يتطلب التوكّل عليه، وحينئذ يتّصل العبد الضعيف بالمطلق القويّ، لتردّ الفئة المؤمنة المستضعفة بالإيجاب، فتعلن توكلها على الله وتدعوه أن يحفظ لها إيمانها قبل كل شيء من فتن الظالمين، وينجيها برحمته من الكافرين، لتقوم بواجبها في دعم الحقّ ومواصلة خطّه.

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾﴾ ويؤمر موسى عليه السلام أن يبدأ بالخطوة التالية، وهي فرز بني إسرائيل وإعطائهم شخصيّة متميزة فتعتزل مجتمعها الفاسد، وتتجمّع عناصرها في بيئة صالحة، وبيوت متقابلة فيتمّ التواصل ويتمّ التناصر وتتحوّل حياة البداوة إلى حياة الاستقرار والتنمية والتزكية وإقامة الصلاة والتعبّد لله تعالى، ولتأتي البشارة الإلهيّة بالمستقبل الواعد، والنصر للمؤمنين.

﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُواْ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ ﴿٨٨﴾﴾ ودعاء القائد من لوازم القيادة، ليطهّر نفسه، وينشر التوعية في أُمته، كما يطلب من الله أن يسهّل له الدرب ويقوّي منه القلب، وهكذا يقف موسى بعد أن يئس من فرعون وملئه داعياً ربّه أن يطمس على ما آتى الله فرعون من نعم الزينة والأموال فأفسدوا بها البلاد والعباد، ويربط قلوبهم بالباطل حتّى يروا العذاب الأليم نتيجة إصرارهم على الإفساد والكفر بانعم الله.

﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلاَ تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾ وكأنّ موسى كان يدعو ويؤمّن على دعوته هارون لذلك جاءت الاستجابة الإلهيّة للدعاءين بالقبول، لينطلق موسى لاستدامة تربية الفئة المؤمنة، مستجيباً لأمر الله بالاستقامة والثبات على الخطّ، وهي أمر صعب مستصعب، رافضاً كل السبل المنحرفة والمؤامرات الجاهلة والاقتراحات الباطلة.

﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلِهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَاْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾﴾ ويطوي القرآن مراحل البناء والصراع ليصل إلى العاقبة التي ابتلي بها خطّ الطاغوت، بعد أن ضيّق على بني إسرائيل، فتحرّكوا مهاجرين بقيادة نبيّهم، وعندما واجههم البحر (ويقال: إنّه البحر الأحمر) امتدت يد العناية من جديد اليهم لتفتح لهم أخدوداً في الماء ليعبروا سالمين، وليدخل فرعون ذلك المسرب بعد أن تعقّبهم ظلماً وتجاوزاً للحدّ واعتداءً، وهنا اطبق البحر عليه فأشرف على الغرق، وعاين العذاب الأليم فراح يعلن إيمانه بما آمنت به بنو إسرائيل لينجو كما نجوا ولكنّ أوان الإيمان والتسليم كان قد فات.

﴿آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾﴾ نعم فات الأوان بعد أن عاش حياة الظلم والفساد والإجرام وانشدّ قلبه للتفاهات، فلم يؤمن حتّى راى الهلاك، فتحقّق بذلك دعاء موسى وهارون.

﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ ﴿٩٢﴾﴾ لقد أعلن النداء الإلهيّ، أنّه سيموت على كفره وإنما سيطفو بدنه وجسمه ليبقى عبرة للمعتبرين على مرّ العصور، وهي تعلن أنّ هذا العالي المتجبّر الطاغية الذي لم يكن يسمح لشعبه حتّى بالإيمان بشيء إلاّ أن يستأذنوه، عاد بدناً لا روح فيه، وجيفة لا قيمة لها، وإن كان الكثير من النّاس يغفلون عن هذه الامور ويعيشون غافلين عن حقيقة الموت، وحقيقة العاقبة السيّئة للطغاة والمعاندين.

﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُواْ حَتَّى جَاءهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾﴾ وامتنّ الله تعالى على

الفئة المؤمنة ورزقها كل ما تتطلبه الحياة الإنسانيّة الكريمة من سكن وتمدّن وطيّبات (مبّوأ صدق) إلاّ أنّ الآية وهي تتحدث عن هذه النعم العظيمة على بني إسرائيل تشير إلى النكسة التي أصابتهم ومزّقت تجمعهم وأفقدتهم إحدى أهمّ خصائص الأمّة المؤمنة وهي (الوحدة) بعد أن كفروا بهذه النعمة واختلفوا في الحقّ عالمين عامدين وعادت كل فرقة تدّعي أنها على الحقّ، والله تعالى إليه مردّهم يوم القيامة وسيقضي بينهم في هذا الخلاف الباطل.

﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَؤُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِ اللّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٥﴾﴾ وهكذا وضّحت الآيات السابقة حقائق كثيرة:

منها: أنّ سنن الله جارية في عاقبة الخطّين المؤمن والكافر. ومنها: أنّ الإصرار على الظلم والكفر قد يؤدّي إلى انطباعها بطابعها فلا تنفع الآيات. ومنها: أنّ الطغيان والعلوّ في الأرض حالة استكبارية يجب ان لا تخدع النّاس فيستسلموا لها، بل يجب أن يلحظوا العاقبة الأليمة. ومنها ـ ضرورة الاعتبار بقصص الماضين التي يقصّها القرآن الكريم، ولا ريب فيها فهي حقائق لا يمكن ان ينكرها أهل الكتاب لو سئلوا عن ذلك، فهي الحقّ من الله الحقّ ولا معنى للتكذيب والمماراة.

وهذا الأُسلوب من الخطاب للنبيّ ﷺ متعارف، ولا يتضمن أيّ افتراض فعليّ للريب عند النبيّ ﷺ فإنه مجرد فرض أو أنّه خطاب له وإرادة المشككين، لكي ينجو من التكذيب والخسران.

﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَاءتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾ فهناك تلازم بين الكفر والخسران، وبين العناد وقساوة القلب المانعة من الإيمان، والاعتبار بالآيات مهما كانت واضحة إلاّ أن يروا بأُمّ أعينهم العذاب الأليم، كما راى فرعون فأعلن إيمانه ولات حين مناص.

﴿فَلَوْلاَ كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ آمَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الخِزْيِ فِي الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ ﴿٩٨﴾﴾ أما حالة قوم يونس عليه السلام فإنها تنسجم مع القاعدة السابقة (لا قبول للإيمان عند حلول العذاب) فقد كذّبوا نبيّهم وعصوا، حتّى

تعرّضوا في النهاية لدعائه عليهم، ولما لاحت بوادر العذاب أدركوا الخطأ الجسيم وتعلّقوا بخيط النجاة المتبقّي ولجأوا إلى حياة الإيمان بصدق وإخلاص ونفعهم إيمانهم وأعطوا فرصة الحياة من جديد. خلافاً لفرعون الذي علم الله عدم صدقه.

﴿وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ شاء الله تعالى أن يكون الإيمان بالاختيار وأن ينطلق من عمق الإنسان، وهو سر تميّز الإنسان عن باقي المخلوقات وتكامله الفريد، ولو شاء الله أن يؤمن النّاس جميعاً ولو بشكل جبريّ لتحققت المشيئة الإلهيّة بلا ريب.

وعليه فلا إكراه في الدين، وسبل الخير والشرّ مشرعة واضحة، والاختيار الإنسانيّ هو الذي يعيّن أحدها دون الآخر.

إنّ إرادة التغيير تبدأ من الإنسان أما التأثير فبيد الله تعالى فإن شاء الإنسان الإيمان تحقّقت إرادة الله التكوينيّة وتحقق الإيمان أما إذا شاء الانحراف فمأواه الرجس والشكّ والضياع؛ لأنه بنفسه لم يستخدم طاقته العقليّة الهادية. فمرجع الأُمور كلها لله تعالى وحده.

﴿قُلِ انظُرُواْ مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾﴾ دعوة لتنمية الطاقات العقليّة وإعمالها عبر التأمّل في خلق الله وعجائبه ودلالاته، وكم كان لتوجيهات القرآن من تأثير ضخم على النهضة العقليّة والفكريّة لهذه الأمّة. وتخليصها من حالة العناد الجاهليّة التي لا تفتح للنفس أية نافذة للاعتبار والنموّ.

﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلاَّ مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِهِمْ قُلْ فَانتَظِرُواْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ وعندما لا تغني الآيات والنذر فيجب أن ينتظر المعاندون أيّاماً مثل أيّام السابقين، وضياعاً مثل ضياعهم.

﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُواْ كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ أمّا الناجون فهم الرسل: قادة خطّ الإيمان، وهم الذين آمنوا بهذا الخطّ، وتلك سنّة إلهيّة لا تتغيّر.

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلاَ أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ

لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلاَ تَدْعُ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَنفَعُكَ وَلاَ يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ ولعلّ هذه الآيات تلخص أهداف السورة من تقرير الحقائق الكبرى وهي:

أولاً: إنّ هذا الدين يبتني على التوحيد الخالص لله، وهو خالق الكون وبيده مسيرة الحياة والموت. وتركيز الآية على التوفّي تلويح إلى تهديد المكذّبين بالعذاب.

وثانياً: إنّ الرسول العظيم هو أول المؤمنين وأثبتهم على الحقّ وخطّ الإيمان والمؤمنين.

وثالثاً: إنّ وجود النبيّ كله مسخر للدعوة، وعامل بها بكل وعي وحنيفيّة وإخلاص، فلا مطمع للمشركين فيه.

ورابعاً: إنّ هذه الآلهة التي يزعمها المشركون وهميّة لا تنفع ولا تضرّ، فلا معنى للدعاء لها؛ لأنّه من سخف القول والظلم للحقيقة والواقع.

﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلاَ رَآدَّ لِفَضْلِهِ يُصَيبُ بِهِ مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾﴾ أمّا النافع الضارّ في الكون فهو الله تعالى، ولا يقف في سبيل نفاذ أمره وسننه أي شيء، فهو القاهر كما أنّه هو الغفور الرحيم. وحينئذ فلا يعبد في الكون سواه ولا يدعى إلاه.

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَاْ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾﴾ إنّها الكلمة الفاصلة: فهذه رسالة الحقّ من الربّ الغفور تهدي البشريّة إلى علائها، ويبقى الإنسان مخيّراً بين اختيارها والفوز، أو اختيار طريق الضّلال والضياع، ولا جبر في البين، وليس الرسول وكيلاً عليه يجبره على الطاعة. وعنصر الاختيار هذا هو الذي يميز الإنسان عن غيره، ويفتح له طريق الكمال اللاّمتناهي.

﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىَ يَحْكُمَ اللّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾ وهكذا تتركّز مبادئ العقيدة عبر آيات الكتاب الحكيم ويزول التشكيك في الوحي من قبل النّاس ويؤمر الرسول باتّباعه حقيقة كبرى، والصبر على هذا الاتّباع وتحمّل كل التبعات، حتّى يأتي حكم الله، ولن يكون كما توحي به الآية إلاّ لصالح الرسول وتقوية دعوته؛ لأن الله خير الحاكمين، فهو الأعلم والأقدر والأرحم من كل من عداه.

سورة هود (١١) آياتها ١٠٩

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قلنا إنّ البسملة جزء من السورة.

والظاهر أنّ هذه السورة نزلت في فترة حرجة من المرحلة المكّية، وأن كل آياتها مكّية دون استثناء. وهدفها الرئيس هو التركيز على التوحيد ولوازمه وأنه يغطّي كل المساحة المعرفيّة العقائدية.

﴿الَر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾﴾ إنّه القرآن الكريم الذي ترجع آياته رغم تنوعها وتفصيلاتها، واختلاف ماتعالجه من موضوعات إلى معنى واحد محكم وهو التوحيد ولوازمه، فكأنّ كل تفصيلات العقيدة والشريعة الإسلاميّة هي مراتب توحيديّة وتفريعات لمبدأ واحد، ثمّ تذكر تفصيلاته من قبل الله الحكيم الخبير بكل الحقيقة في الكون، وكل العلاقات والروابط الكونيّة وما تقتضيه، ومنها الواقع الإنسانيّ وسبيل التكامل الصحيح. ولعلّ الآية تشير إلى تنزيلين للقرآن: إجماليّ على قلب النبيّ، وتفصيليّ خلال مدّة النبوّة.

﴿أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ اللّهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾﴾ إنّه تعالى الحكيم الخبير بالواقع، فلا مؤثّر إلاّ هو ولا معبود إلاّ هو، يهدي البشريّة بلطفه إلى كمالها عبر مايحمله لها الرسول البشير النذير من أوامر ونواه، ترسم للإنسان سبل الكمال ومقتضيات التوحيد.

﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾﴾ منه تعالى يتمّ طلب الغفران، لتتم التوبة والرجوع والطاعة، وحينئذ فالسعادة والحياة الحسنى إلى أجل مسمّى مقرّرعنده تعالى. إنها الحياة التي تقتضيها الفطرة، ويسودها العدل، ويتفاضل فيها ذوو الفضل، لما امتازوا به من عمل صالح لا لغيره من عوامل التفاضل والتمييز الوهميّة: العنصريّة، والقوميّة والجنسيّة واللغويّة واللونيّة وغيرها. فإن تولّى الإنسان وأعرض عن هذه الحياة في ظل التعاليم الإلهيّة، فإنّه يخاف عليه من عذاب الآخرة.

﴿إِلَى اللّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾﴾ إنّ الخلائق ترجع إلى الله تعالى، وهو

القادر على إرجاعها بلاريب. والإيمان بالمعاد يترك أثره على الحياة ويشدّها إلى الالتزام بطريق الخير، والابتعاد عن العذاب الشديد.

﴿أَلا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُواْ مِنْهُ أَلا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٥﴾﴾ إنّ المشركين الجاهلين يتصوّرون أنّهم إذا أعرضوا عن كلام الله ومالوا بصدورهم إلى الخلف ليستتروا منه أو طأطأوا برؤوسهم وأخفوها بثيابهم، فإنّه لن تلزمهم الحجّة، وكان بإمكانهم الفرار من الحقيقة، ناسين أن الله تعالى عليم بكل شيء، عليم بما يسرّون أو يعلنون أو يضمرون في صدورهم من نوايا، فهم لديه حاضرون.

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾﴾ وهو تعالى العليم بكل مايدبُّ على الأرض من أنواع الحيوانات والمخلوقات المتنوّعة، وهو المقدّر لها رزقها. وعليها أن تطلب هذا الرزق ولا تتقاعس في طلب المتوفر في هذه الطبيعة بما يناسبها بكل دقّة متناهية، وتنسيق يبعث الوجدان على الإيمان بالله المدّبر الرّازق العليم بحركة الكون وحركة المخلوقات فيه، يعلم أين تستقر وأين تكمن وكلها حاضرة لديه في كتاب الكون والوجود، الواضح لاهل العقول، كما أنها تتحرّك في مسار معلوم لتحقق الهدف من الخلقة.

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَق السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاء لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِن بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾﴾ إشارة إلى التحوّلات الكونيّة الهائلة التي تم بها خلق السماوات والأرض في ستّة مراحل، بعد أن لم يكن هناك إلاّ الماء فكان العرش الإلهيّ (وهو النقطة التي يدار منها الكون) قائماً على الماء، وهو مادّة الحياة، لتنطلق بذلك الحياة المناسبة لمسيرة الإنسان ويكون كل شيء مسخراً لهذه المسيرة بدقّة (وهذا مايشهد له العلم يوماً بعد يوم) ويبدأ التاريخ الإنسانيّ في ظل الهدى والاختبار الإلهيّ والتسابق الإنسانيّ الحرّ لإعمار الارض ، وهذا يؤدّي بطبيعة الحال إلى الإيمان بيوم الجزاء، نتيجة التسابق، وهو يوم البعث الذي يحاول الكافرون التكذيب به رغم أنّه نتيجة طبيعيّة للمسيرة، ولكن هؤلاء يعتبرونه خيالاً وسحراً موهوماً.

﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلاَ يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ

مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِؤُونَ ﴿٨﴾ وربما خدع هؤلاء بتأخّر العذاب عنهم مدة من الزمان، فظنّوا ذلك تأييداً لتكذيبهم به، وتساءلوا عما يحبسه ويمنعه من أن يصيبهم؟ ولكن الآية تهدّدهم بأنّه إذا جاء أمر الله فسوف يشملهم لا محالة، وسوف يحيط بهم هذا الذي استهزأوا به من قبل. إنّ حكمة الله هي التي تؤخر العذاب لمصالح قد يكون منها فسح المجال للتأمّل والإيمان ورفد المسيرة بالصالحين العاملين.

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾﴾ وهكذا هو الإنسان الذي لم يربّه الدين، وعاش السطحيّة بلا تعمّق وتدّبر فإن شملته رحمة إلهيّة ثمّ نزعت منه، عاد يائساً كافراً بأنعم الله.

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاء بَعْدَ ضَرَّاء مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾﴾ وإن أعطاه الله نعمة بعد حالة من الضرّ عاش فرحاً وفخراً غامراً مسكراً ناسياً لطف الله به.

﴿إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾ أمّا الصابرون العاملون بتعاليم الله والذين ربّتهم الشريعة الحقّة، فهم الواعون لحقيقتهم مهما تغيّرت الأحوال ولذلك فهم الناجون من اليأس والكفر ومن الفرح والفخر، وهم المؤهّلون لغفران الله والأجر الكبير. ويلاحظ هنا الربط الرائع بين السيرة السويّة المتوازنة في الدنيا، والنتيجة الرائعة والعاقبة الحسنة في الدنيا والآخرة.

﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَآئِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاء مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾﴾ وتبدو الاثنينية هنا بين المرسل والرسول بما يكّذب نظرية (الوحي النفسيّ) التي طرحها بعض المستشرقين المعاندين، فإن التكذيب الكافر بالآيات والتوحيد والبعث، قد يكون من شأنه أن يبعث الرسول على ترك بعض الآيات، وعلى أن يضيق صدره باقتراحاتهم السخيفة من قبيل طلب الكنز أو اصطحاب ملك، ولكن الحقّ تعالى يذكّره بأنّه نذير لهم لا غير وأنّ الأمر كله لله تعالى وهو على كل شيء وكيل.

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾﴾ مقولة أُخرى للكافرين تتّهم الرسول بافتراء القرآن مما قد

يضيق به صدره. إلاّ أنّ القرآن يتحدّاهم هنا، وبالتالي يتحدّى الأجيال بعدهم أن ياتوا بعشر سور مفتريات تحمل ماتحمله السور القرآنيّة من فخامة اللفظ وعظمة المعنى، فإنهم سيعجزون عن ذلك حتّى لو استعانوا بغيرهم من دون الله.

﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّمَا أُنزِلِ بِعِلْمِ اللّهِ وَأَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾ فإن لم يستطع هؤلاء المدعوون من دون الله، أن يأتوا بعشر سور تحمل مايحمله القرآن من سموّ، فإنه ينبغي لهؤلاء المكذّبين أن يرجعوا إلى الله ويصدّقوا بالقرآن والتوحيد الإلهيّ. هذا هو مقتضى الحال فهل ينسجم هؤلاء معه ويعودون مسلمين؟

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾﴾ من الطبيعيّ أن يؤدّي نظام الأسباب والمسبّبات الذي اراد الله أن يسود الكون، إلى أنّ كل من يعمل لهذه الدنيا ويهيّئ لها أسبابها، فإنه يصل إلى النتائج المرجوّة أمّا الآخرة فيجب أن تلحظ وتقصد بالنية، وحينئذ فإن العاملين للدنيا وحدها قد ينالون زينتها كاملة.

﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ ولكن هؤلاء العاملين لدنياهم دون أن يقصدوا المعاني السامية وتحقيق مقتضيات الخلافة الإلهيّة وخدمة الإنسانيّة لن يحظوا بشيء من العطاء الأُخرويّ؛ لأنّ أهدافهم كانت دانية وبالتالي فسيقتصر عملهم على زينة الدنيا ويبطل أثره ويحبط في الآخرة فلا يبقى إلاّ العذاب. وبهذا يعمل القرآن على تفسير حصول الكفار على الرقي المادّيّ أحياناً، لعملهم بنظام الأسباب، ولكنه يركّز على أن الهدف يجب أن يسمو وذلك لإقامة نظام القيم وهو اغلى من زينة الدنيا. على أن الأخذ بالأسباب بنية سامية يحقّق نظاماً إنسانيّاً راقياً معنويّاً ومادّياً وهو ما نجده في وصف الامام علي عليه السلام لمجتمع المتّقين كما جاء في نهج البلاغة، في كتابه لمحمد بن أبي بكر حين ولاّه مصر.

﴿أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إَمَامًا وَرَحْمَةً أُوْلَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلاَ تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾﴾ ويستمر القرآن في الردّ على منكري الرسالة، مؤكّداً على وضوح الرؤية تماماً لدى الرسول والمؤمنين ويعضد هذا الوضوح شهادة

الآخرين من أهل البصيرة واليقين. وطبقته بعض الروايات على عليّ عليه السلام [١] وهو المؤمن البصير الذي يقول «لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً» [٢] ذلك أن إيمان أمثال علي عليه السلام بهذه الرسالة يكشف بنفسه عن صدقها وعظمتها وسلامة مسيرتها ، ويقوّي قلوب المؤمنين. ويقوم كتاب موسى والذي يحظى بالأسبقيّة والتقدير بما يشتمل عليه من معارف وشرائع وبشائر تنسجم تماماً مع المضامين القرآنيّة شاهداً آخر على صدق هذه الرسالة التي يؤمن بها أتباعها بكل وضوح وطمأنينة. أما الكافرون من الاحزاب والطوائف فليس لهم إلاّ النار جرّاء مخالفة عقولهم، فلا مراء ولا معنى للشكّ في القرآن، فهو الحقّ وإن أنكره أكثر الناس.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّه كَذِبًا أُوْلَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الأَشْهَادُ هَؤُلاء الَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى رَبِّهِمْ أَلاَ لَعْنَةُ اللّه عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٨﴾﴾ إنّ الكافرين المشركين مفترون على الله، فهم الأظلم على الحقيقة الناصعة، وسيلاقون نتائج ذلك يوم العرض على الله ومواجهة الحقيقة، حيث يشهد عليهم الشهود وتنصبّ عليهم اللعنة.

﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّه وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿١٩﴾﴾ إنّهم يقفون عوائق في طريق الهدى ويسعون لجرّ البشريّة إلى الطريق الملتوي البعيد عن الحقّ ذلك لأنهم لايؤمنون بالآخرة ولا يستمعون إلى نداء الوجدان.

﴿أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ اللّه مِنْ أَوْلِيَاء يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ إنّه التهديد الرهيب، فيجب أن لا يغترّ هؤلاء بما لديهم، فهم أضعف من أن يقفوا أمام القادر المطلق مصدر القوى وخالقها، وأضعف من أن ينجدهم من دون الله أولياء، كلا فإن عملهم على الصدّ عن سبيل الله، لاقيمة له من جهة؛ لأنّهم ضعفاء أمامه تعالى، كما أنّه سيؤدّي إلى مضاعفة العذاب، لعدم الإيمان والصدّ عن سبيل الله، ولأنهم عطلّوا أسماعهم وأبصارهم فلم يستخدموها في سبيل الحقّ.

﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾﴾ إنّهم إذ سلكوا

---

١. فتح القدير للشوكاني (ج ٢ ص ٤٨٩)، كنز العمال (ج ٢ ص ٤٣٩) جامع البيان للطبري (ج ١٢، ص ٢٢)، الكافي (ج ١ ص ٢٢٩).

٢. الكافي (ج ٣ ص ١٧٣) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد (ج ١١ ص ٢٠٢).

طريق الاعوجاج والضلال، فقد خسروا ذواتهم وتغرّبوا عنها، ولم يعد ينفعهم ماتصوّروه من باطل وما صاغوه من أوهام.

﴿لاَ جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾﴾ إنّه الخسران المبين أن يترك الإنسان الخلود في النعيم ويغرق في العذاب الدائم، نتيجة اتّباع الأهواء في ساعات قلائل.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُواْ إِلَى رَبِّهِمْ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٣﴾﴾ أمّا المؤمنون العاملون الصالحات، المطمئنون إلى ربهم المتواضعون له (اخبتوا) الواعون لمسيرتهم فهم أهل النعيم الخالد.

﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالأَعْمَى وَالأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ إنّهما مسيرتان على مرّ التاريخ: مسيرة الوعي والاستماع للحقّ والفطرة، ومسيرة الغباء والعناد والعمى فهل تستوي المسيرتان؟

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾﴾ وينتقل القرآن لتبيين المسيرتين من خلال قصص الأنبياء، ويبدأ بنوح ﷺ الذي يعلن كغيره من الأنبياء أنّ هدفه هو الإنذار الواضح القويّ البيّنة.

﴿أَن لاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ اللّهَ إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾﴾ إنّها الدعوة إلى صياغة الحياة وفق هدى الله، والابتعاد عن خطّ الضّلال والأصنام الذي يؤدّي إلى عذاب الآخرة الأليم.

﴿فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قِوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾﴾ وهنا انبرى الأشراف من قومه، ليعلنوا استكبارهم وليستدلوا على معارضتهم له، بأنّه من البشر، فلا موجب لاتّباعه، وأن الذين اتّبعوه كانوا من الطبقات الاجتماعيّة السفلى، كما يبدو منهم ذلك لأول وهلة، أو أنّهم اتّبعوه دون تروّ وتفكير. فإذا اتّبعه هؤلاء الشرفاء تدنت طبقتهم، وأن نوحاً وأتباعه لا يتمتّعون بمزايا إضافيّة على المكذّبين، بل اتّهموه بالكذب.

﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّيَ وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ ﴿٢٨﴾﴾ وبهذا يردّ نوح على حجّتهم الأُولى (البشريّة) بقوله أنّه يختلف عنهم، بأنّه مرسل من ربّه، وأن لديه البيّنة والمعجزة على ذلك، وأنه يتمتّع برحمة إلهيّة

هي الكتاب والعلم والقدرة على هداية الآخرين. أمّا إذا شاؤوا أن يكذّبوا عقولهم التي لو تأمّلوا لأدركوا بها صدقه وعظمة ماعنده من منطق حكيم، وإذا ركبتهم أهواؤهم واستكبارهم فخفيت عليهم ميزة نوح وما يتمتّع به منطقه من روعة، فإن الهدى لا يأتي إجباراً وإلزاماً بعد أن كان الملأ له كارهين؛ لانّ الإيمان أمر قلبيّ، لا يتمّ إلاّ بالاقتناع به، ولا اكراه في الدين.

﴿وَيَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللهِ وَمَآ أَنَاْ بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّهُم مُّلاَقُو رَبِّهِمْ وَلَكِنِّيَ أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾ وهي حقيقة ردّدها الأنبياء عبر التاريخ، لتوضيح بُعدهم عن المطامع الرخيصة، فهم لا يريدون أجراً على دعوتهم وإذا كانوا يرغبون في أمر فهو لصالح قومهم والمسيرة الخيّرة، ممّا ينفي تهمة الكذب الموجّهة إليهم. أما ماذكره المكذّبون من كون اتّباعه من الطبقة الدانية، وقد وصفهم هنا بالذين آمنوا احتراماً لهم، وتأكيداً على انّ غايته هي أن يؤمن النّاس دونما تمييز بين غنّي وفقير، فهؤلاء أمرهم إلى الله، ولا يستطيع أن يبعدهم عنه طمعاً في إيمان الأغنياء. ثمّ أعقب ذلك بوصف المعترضين بالجهل إذ يطلبون منه ذلك، لجهلهم بمعايير النبوة، وجهلهم بالمعاد.

﴿وَيَا قَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ اللهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾﴾ إنّ طرد هؤلاء المستضعفين المؤمنين يعني نقضاً لأهداف النبوّة، وظلماً لهم، والله ينتصر للمظلوم ويدافع عنه.

﴿وَلاَ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ اللهِ وَلاَ أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلاَ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلاَ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللهُ خَيْرًا اللهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ أمّا ماوصفوه به من عدم الفضل عليهم فيرد عليهم بأنّه لا يفضلهم مادّيّاً فلا كنزله، ولا يعلم الغيب، وليس ملكاً يتنزّه عن حاجيّات الإنسان، كما أنّه لن يجاري الملأ فيستهين بالضعفاء المؤمنين، ويمنع لطف الله بهم؛ لأن الله أعلم بما في نفوسهم. وبهذا يردّ على هؤلاء المستكبرين، ويزيّف معاييرهم فالله ينظر إلى النفوس لا المظاهر، فلا يمكن الحكم بها، والا كان ذلك من الظلم. وهكذا يواجههم بعظمة الرسالة ومنطقها لا بالمظاهر الكاذبة.

﴿قَالُواْ يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتَنِا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللهُ إِن شَاء وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلاَ يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾﴾ وبعد أن يئسوا

من مواجهته منطقياً وأخذتهم العزّة بالإثم، لجأوا إلى التحدّي وطلب العذاب الذي خوّفهم وحذّرهم منه، فواجههم بنفس المنطق قائلاً ان العذاب بيد الله، وأنه إن أراد تعذيبهم فليسوا يستطيعون رّد ذلك وحينئذ يحقّ عليهم الأمر ولا أثر لنصيحته في منع ذلك لأنّهم اختاروا سبيل العذاب والضلالة والغواية، وفقدوا صلاحيّة الاتّعاظ بالنصحية والهداية فاختار الله لهم ذلك وعلى أي حال فالأمر إليه تعالى، هو الربّ وإليه المعاد.

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَاْ بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرَمُونَ ﴿٣٥﴾﴾ وهذه لفتة رائعة ينتقل فيها القرآن من قصّة نوح التي عبّرت عن نموذج نبويّ مستمرّ في مواجهة المكذّبين، إلى اعتراض مشركي العرب على الرسول بأنّه يفتري هذه القصص، فيأتي الرد نبويّاً أيضاً مؤكّدا أنّه يتحمّل المسؤوليّة نتيجة هذا الافتراء المدّعى ولكنه يتبرّأ مما يقومون هم به من إجرام وتهم باطلة وعزوف عن الخضوع للمنطق.

﴿وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾ إستمرار لعرض مقاطع من قصّة نوح وحرصه على إيمان قومه، حيث يعرض القرآن هنا إخبار الوحي له بأنّ النفوس المستعدّة قد آمنت، اما الباقون فقد فقدوا قابليّة الإيمان فلا داعي للتألّم لذلك بعد فقدان الأمل فيهم.

﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلاَ تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُواْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾﴾ ويؤمر نوح بصنع السفينة أو السفن بالأحرى تحت العناية الإلهيّة، ووفقاً للأوامر المعطاة وان لايشفع لقومه بعد أن حقّ عليهم العذاب بالغرق والطوفان.

﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُواْ مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ ويمضي نوح في تنفيذ أمر ربه بكل طمأنينة غير آبه بسخريّة قومه الجاهلين، معلناً أن الأحرى أن يسخر المؤمنون منهم؛ لجهلهم بالحقيقة الكبرى وبما سيحلّ بهم، وانحرافهم عن طريق الهدى.

﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾﴾ والمستقبل كفيل بكشف الحقيقة حيث ينجو المؤمنون ويرتكس الكفرة الجاهلون في العذاب المخزي لهم في الدنيا، حيث الغرق وفي الآخرة حيث النار والجحيم والدوام فيها.

﴿حَتَّى إِذَا جَاء أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾﴾ ويحل الوعد الإلهيّ، ويفور الماء بأمر الله من موقده ومنبعه ويتفجّر، ويؤمر نوح بأن يحمل في السفينة التاريخيّة هذه من كل جنس من أجناس الحيوان ذكراً وأُنثى بما يكفل استمرارية الحياة. كما يحمل معه أهله دون من تقدم العهد الإلهيّ فيه بالهلاك (وهما زوجته وابنه)، وبعد ذلك أمر بأن يحمل معه المؤمنين به وكانوا قلّة.

﴿وَقَالَ ارْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ اللّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾﴾ فأمرهم بالركوب جميعاً لتسري وترسو على اسم الله، وكأن المشهد يذكرنا بالحياة الإنسانيّة كلها، إذ تنطلق باسم الله وتسري فتتقدم وتقف باسمه تعالى، وبمقتضى غفرانه الدائم ورحمته الواسعة وحماه الكريم. إنّها مسيرة تقودها النبوّة باسم الله.

﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلاَ تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاء قَالَ لاَ عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾﴾ وحين تثور الأمواج العاتية، وتعلو كالجبال، يلمح نوح ابنه فتدفعه عاطفته لدعوته لركوب سفينة النجاة هذه، وترك صحبة الكافرين، إلاّ أنّ الغرور والجهل يستبدّان بالفتى، ليعلن أنّه سيلجأ إلى جبل يعصمه من الماء، فيرّد عليه الأب الرحيم بأنّه أمر الله ولا عاصم آنذاك من أمر الله إلاّ أن تشمل الإنسان رحمة الله فتنقذه من الغرق. ولكنّه العتوّ والغرور والكفر يدفع الفتى للعصيان فيقف الموج حائلاً بين الأب وابنه العاق فيغرق. وكأنّ المشهد يكمل الهدف المطلوب: نبوّة واعدة بالخير لا يتّبعها إلاّ قليل، وسفينة الحياة تقودها النبوّة باسم الله، وعصيان وغرور وكفر ينتهي بأهله إلى الغرق والهلاك، وهي عاقبة المكذّبين.

﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءكِ وَيَا سَمَاء أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاء وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ وتمثّل هذه الاية غاية في الإعجاز البيانيّ، فهي بتعبيرات مختصرة تصف مشهداً عظيماً من مشاهد التاريخ حيث يغور الماء وتظهر الأرض، ويتوقّف المطر، وينقضي الأمر العظيم، وتستوي السفينة على جبل (الجودي) ويأتي النداء الرهيب بإبعاد الظالمين عن رحمة الله ومسيرة التاريخ.

﴿وَنَادَى نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابُنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ وتعود إلى نوح عاطفته وينادي ربّه ويستنجزه وعده الحقّ في نجاة اهله، وابنه من أهله، فهو مشمول بحكم الله في ذلك ـ كما يبدو ـ والله أحكم الحاكمين؛ لأنه الصادق القادر الحكيم.

﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلاَ تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٤٦﴾﴾ ويأتي الجواب الذي يؤكّد أن الأهل الموعود نجاتهم هم الصالحون فقط، أما الذين تجسّم فيهم الفساد فلا يعدّون في الواقع من الأهل، وفي هذا تأكيد على كون مسيرة الأنبياء هي مسيرة الصالحين التي ترعاها عين الله، ولا ينتمي اليها الفاسدون حتّى ولو انتسبوا إلى قيادتها بنسب البنوة أو غيرها. وفي هذا السياق جاء التذكير الإلهيّ لنوح بان لا يسأل ما ليس له به علم، والا كان من الجاهلين.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٤٧﴾﴾ وهنا ينفض عن نفسه تأثير العواطف، ويستعيذ بالله أن يسأله ماليس له به علم أو أن يقف مع الجاهلين ويؤكّد استغفاره وعودته إلى ربه بأنّه سيكون من الخاسرين إن لم يشمله الغفران والرحمة الإلهيّة.

﴿قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلاَمٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾﴾ وبعد انتهاء الطوفان تبدأ المسيرة الطبيعيّة للإنسان، إذ يهبط النبيّ نوح من السفينة التي عبرت به وبالمؤمنين مرحلة الخطر تظلّله السلامة الإلهيّة، ووعود البركة والنماء له وللمؤمنين الذين ساروا في خطّه لتعمر الأرض ويقام مجتمع المتّقين المتمتّعين بنعم الله، وستكون إلى جنب هؤلاء أُمم يتاح لها أن تتمتّع أيضاً بهذه النعم، لكنّها لا تطيع الله ولا تنهج منهج الصلاح وحينئذ ستبتلى بما ابتلي به أمثالهم من العذاب الأليم.

﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاء الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلاَ قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾ وتلخّص الآية دروس هذه القصّة في صدق الوحي الإلهيّ، المعبّر عن الغيب عبر هذا العرض الرائع السليم من عيوب الكتب الأخرى ، ووحدة مسيرة الانبياء السائرة باسم الله ، وبعين الله، وتحقق النصر لهذه المسيرة في النهاية بعد الصبر والصمود، وهي سُنة إلهيّة جارية في التاريخ.

﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ وعاد هي الأمّة التالية لقوم نوح، والتي يذكرها القرآن عبرةً للمؤمنين. لقد بعث إليهم أخوهم هود وعرض أمامهم كلمة الأنبياء جميعاً (كلمة التوحيد) لينزّهوا الله ويتركوا آلهة الشرك التي كانوا يفترونها مطلقات وهميّةً بشريّة أو حجريّة تكبّل العقل وتمزّق المسيرة.

﴿يَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾﴾ كما يردّد هود شعار الأنبياء الآخرين (عدم طلب الأجر) لئلا يتّهموا بوجود أهداف دنيويّة، بل هم: قادة التاريخ إلى هدف الخلقة الأسمى، يعملون على تفجير طاقات الفطرة الإنسانيّة وإثارتها، لتحقق أثرها المطلوب. ولعل الإشارة إلى الفاطر هنا إشارة إلى هذه الحقيقة ودعوة للتعقّل الصحيح.

﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلاَ تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ دعوة لطلب الغفران من الربّ ثمّ العودة المخلصة إليه وضمان لانهمار الرحمة الإلهيّة من السماء ونمو القوّة وازديادها ـ والتلازم بين نمو القوى الروحية ونمو القوى الاقتصادية والسياسيّة وغيرها سُنّة إلهيّة أكدها القرآن مراراً ، والابتعاد عن حياة الانحراف عن الفطرة والإجرام.

﴿قَالُواْ يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾﴾ ويتكرّر الردّ الجاهليّ على تلك الدعوة الخيّرة: العناد وادّعاء عدم الدليل أولاً ثمّ الإصرار على الشرك وعدم الإيمان.

﴿إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوَءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللّهِ وَاشْهَدُواْ أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾﴾ واستمراراً في العناد الجاهليّ، تتّهم عاد نبيّها بالهذيان والجنون، ناسبةً لآلهتها قدرة المس والإيذاء، ليأتيها الرد القاطع من نبي الله هود: إنّه يعلن بقوّة ويشهد الله كما يشهدهم على إعلانه أنّه بريء من كل هؤلاء الشركاء المزعومين.

﴿مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لاَ تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾﴾ نعم، إنّ هوداً يتحدّاهم بالبراءة من الشركاء المزعومين فهل يمكن للشركاء أن يردّوا على هذه البراءة المعلنة؟ كلا، إنّهم أعجز من ذلك كما يتحدّاهم ـ وكانوا قوماً أشداء ـ أن يصيبوه باذى أوكيد، ودونها إمهال أو نظرة، إنّه يتحدّاهم جميعاً، أن يقدروا على إيذائه.

﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾ وسر هذا التحدّي القويّ، أنّه يستند إلى توكلّه على ربّ الكائنات والقادر على كل شيء والغالب على كل القوى والمسيطر على كل ما في الكون من متحرّكات، وسُنّة الله تعالى هي نصرة رسله ودحر الباطل وكيده، إنّه تعالى على صراط مستقيم وسُنتّه ثابتة لا تتغيّر ، فماذا الذي يخشاه هود من قومه؟

﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلاَ تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾﴾ أمّا عناد عاد وإعراضهم عن هود فلا يضره شيئاً، بعد أن أبلغهم الرسالة، كما لا يضرّ الله تعالى وهو الغني، وإنمّا يعود عليهم بالخسران والهلاك، ليقوم بشأن الخلافة في الارض غيرهم حسب السنن الإلهيّة الكونيّة وهو تعالى حفيظ لا يعزب عن علمه شيء ولا يفلت منه أحد.

﴿وَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾﴾

وتمضي سنّة الله وأوامره حيث تصل الأمور إلى نهاياتها، فينجّي الله برحمته هوداً والمؤمنين معه من عذاب غليظ، أصاب عاداً بالدمار والهلاك، فلم تغنهم قوّتهم وغلظتهم من الله شيئاً.

﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُواْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْاْ رُسُلَهُ وَاتَّبَعُواْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾﴾ هكذا أنكرت عاد الرسالة، ولم تذعن لآيات الله وعصت رسله واتبعت بدلاً من ذلك الجبابرة العتاة، فهي إذن رفضت هدفي الأنبياء معاً، وهما (عبادة الله واجتناب الطاغوت).

﴿وَأُتْبِعُواْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلا إِنَّ عَادًا كَفَرُواْ رَبَّهُمْ أَلاَ بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾﴾ فاستحقّت اللعنة الدنيويّة والهلاك والإبعاد الحضاريّ، كما استحقّت اللعنة الأخرويّة والعذاب المقيم.

﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾﴾ وبعد ذكر عاقبة عاد، يأتي ذكر ثمود على نفس النسق (وهي من العرب العاربة) حيث يدعوها أخوها ونبيّها صالح ﷺ لعبادة الله ونفي الشرك، ويعلّمها أن الله تعالى هو الذي اوجدها وربّاها وفوّض إليها عمارة الارض، وهذا اللطف الإلهيّ العظيم يتطلّب استغفاره والعودة إليه

وطلب الهدى منه، وهو تعالى القريب من عباده، والمجيب لدعواتهم.

﴿قَالُواْ يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾﴾ وتكرّرت المواجهة الجاهليّة المتخلّفة هنا، فثمود تعترف بوجاهة صالح ورجائها فيه إلاّ أنها تستغرب النهي عن عبادة ما يعبد الآباء! وهو عندهم منكر يدعو للشك والارتياب.

﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةً مِّن رَّبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ اللّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾﴾ وهنا يتعامل معهم صالح بكل تودّد، بعد أن يذكّرهم بأنّهم قومه، ثمّ يرجعهم إلى وجدانهم ليحكموا من خلاله على موقفه السليم، فالحقّ أمامه واضح، والبيّنة قائمة على الحقيقة التي تؤكّد وحدانيّة الله وبطلان ما يعبدون ، وها قد اختاره الله لتبليغ رسالته وشملته الرحمة، فكيف يترك كل هذه الأمور ويعصي الله إرضاءً لقومه؟ إنّه الخسران المبين.

﴿وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللّهِ وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾﴾ ويعرض صالح عليه السلام عليهم معجزته وهي ناقة أخرجها الله من صخرة صماء، وقيل لثمود إن هذه الناقة يجب أن تشرب ماء النبع في يوم ويشرب القوم في اليوم الآخر، فإذا كان يومها شربت الماء وارتوى النّاس من لبنها ـ على ماروي[1] ـ كما طلب النبيّ منهم أن يذروها لوحدها، فإنها ستنطلق لترعى في الأرض دونما مساس بمزارعهم ـ والأرض أرض الله ـ ولا يمسّوها بسوء، لتكون معجزة مستمرّة تشهد لصالح بالصدق. فإذا عصى القوم أمر رسولهم أصابهم العذاب القريب.

﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾﴾ ولكن عتوّهم وطغيانهم دفعهم للقضاء على هذه المعجزة وقتل الناقة، رغم أنها كانت نافعةً لهم معنويّاً وماديّاً، فابتلوا بالتهديد الإلهيّ وانتظار العذاب القاطع بعد ثلاثة أيام.

﴿فَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ

١. البرهان، ج ٣، ص ١١٧.

هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾﴾ وحين حلّ الموعد وجاء الأمر شملهم الخزي والعذاب، ونجّى الله صالحاً والمؤمنين معه برحمة منه، والله هو القويّ العزيز.

﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٦٧﴾﴾ ويشير القرآن هنا إلى عذاب الصيحة، وفي موضع آخر يذكر الصاعقة والرجفة. وكانت النتيجة أن وقعوا على وجوههم موتى، وتكرّرت عاقبة المكذّبين.

﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا أَلاَ إِنَّ ثَمُودَ كَفرُواْ رَبَّهُمْ أَلاَ بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾﴾ وهكذا تنطوي صفحة اخرى من صفحات الكفر والعناد، وكأنّها لم تكن، وكأنّهم لم يكونوا يتمتّعون بالحياة والقوّة والغنى. فقد قادهم طغيانهم وجهلهم إلى الفناء ونالهم عذاب الإبعاد والمحو من صفحة التاريخ فكانوا لا يستحقّون الحياة الإنسانيّة.

﴿وَلَقَدْ جَاءتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُواْ سَلاَمًا قَالَ سَلاَمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاء بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾﴾ وهنا يُذكر جانب من قصّة إبراهيم عليه السلام وربما جاءت مقدمة للوصول إلى قصة لوط التي تكرر المشهد السابق نفسه. فيدخل رسل الله على إبراهيم، وهو لا يعرفهم، ويسلمون عليه، فيجيب ويقدّم لهم عجلاً (حنيذاً) مشويّاً على الحجارة المحماة.

﴿فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لاَ تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُواْ لاَ تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾﴾ إلاّ أنّه يجدهم لا يأكلون، مما يبعث في نفسه الريبة والخوف منهم ومن مقاصدهم. الأمر الذي دفعهم لتوضيح حقيقتهم ومهمّتهم، فهم رسل الله إلى قوم لوط، وينفّذون مهمّة إلهيّة، نعرف من السياق أنّها لمعاقبتهم على سوء أعمالهم.

﴿وَامْرَأَتُهُ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَقَ وَمِن وَرَاء إِسْحَقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾﴾ وكانت امراة إبراهيم، وهي تشهد الحادثة قد دخلت في حالة من الطمث ـ على رأي ـ أو أنّها ابتهجت لرؤية الحادثة وسماعها بهلاك المنحرفين من قوم لوط ـ على رأي آخر ـ وحينها بشّرتها الملائكة بأنها ستلد ولداً اسمه إسحاق وسوف يولد لإسحاق يعقوب وهو (إسرائيل).

﴿قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَاْ عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾﴾ واهتزّت امرأة إبراهيم للنبأ والبشرى بأنها ستلد ـ خصوصاً ـ وهي عجوز، وزوجها شيخ، وليس من المعهود من مثلها أن يحصلا على ولد.

﴿قَالُواْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللّهِ رَحْمَتُ اللّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾﴾ ولا عجب إذا تحقّق أمر الله القادر الحكيم. ثمّ أن بيت إبراهيم خصّه الله بخصائص ونعم وهذه إحداها، والله تعالى هو أهل الحمد والتمجيد، ومشيئة الله نافذة.

﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾﴾ وهكذا انكشف حال الضيوف، فهم رسل الله فلا خوف، وهم المبشّرون له بولد وهو شيخ، ومهمّتهم إهلاك قوم لوط لأنهم ظلموا، ولكن إبراهيم الحليم الكثير التأوّه من ضلال الناس، المنيب العائد إلى ربه باستمرار، يعمل على صرف العذاب عن قوم لوط ـ عبر الحوار مع الملائكة لعلهم يملكون فرصة أخرى للإيمان والعودة إلى الله.

﴿يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاء أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾﴾ إلاّ أن الملائكة يؤكّدون له أنّه أمر الله القاطع بعذابهم، وأنه لامجال لردّ العذاب عنهم، بعد أن سدّوا على أنفسهم ـ طبعاً ـ باب العفو، بكفرهم وعتوّهم وانحرافهم عن الفطرة.

﴿وَلَمَّا جَاءتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾﴾ ويدخل رسل الله على لوط وهو لا يعرفهم، فيسوؤه الأمر، ويضيق عليه الحال، وهو يعرف قومه الشاذّين جنسياً عن الحالة الطبيعيّة الفطريّة، وهؤلاء الضيوف ـ كما يبدو من السياق ـ أُناس في غاية الجمال.

﴿وَجَاءهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُواْ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلاء بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُواْ اللّهَ وَلاَ تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾﴾ ويدخل عليه قومه المنحرفون الملوثون بالسيئات، ويرى فيهم رغبة العدوان والشذوذ فينهاهم عنه مقدماً لهم البديل الصالح (ككل مربّ حكيم ينهى عن سلوك منحرف، ويقدّم البديل الأفضل المحقّق للغرض)، إنّه الزواج ببناته أو هو الزواج بالنساء من قومه ـ فهن بناته في الواقع ـ ويذكّرهم بالله، ويدعوهم للخوف منه، كما يحرّكهم نحو الحميّة الخُلقيّة، فهؤلاء ضيوف كبيرهم لوط والاعتداء عليهم خزي وعار، وبالتالي يدفعهم نحو الرشد والتعقل متسائلاً عن وجود رجل رشيد فيهم.

﴿قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾﴾ ولكنّه العناد،

والشهوة القاتلة التي لا تصغي للحقّ، فيردّون عليه بأنّهم لم يعتادوا السبيل الصحيح، بل ساروا على المنهج الشاذّ الذي يعرفه لوط منهم.

﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾﴾ وهنا يتمنّى لوط أن يمتلك قوّة مناسبة، أو يسنده ركن شديد من عشيرة أو عقلاء أقوياء ليدافع عن ضيوفه. وفي ذلك بيان لضرورة القوّة للدفاع عن القيم والمجتمع، وقد جاء في النص الوارد أنّه لو علم بمن معه من الملائكة لعلم أنّه منصور بركن شديد.

﴿قَالُواْ يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُواْ إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلاَّ امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾﴾ وكشف الرسل عن حقيقتهم وركنهم الشديد، وأنبؤوه بأن قومه عاجزون عن الوصول إليه، فليسر بأهله ليلاً تاركاً قومه دون أن يعيرهم أي اهتمام، وأنه ستتخلّف زوجته مع قومه؛ لأنها انسجمت مع كفرهم فسيصيبها ما يصيبهم من عذاب في الصباح وهو موعد قريب.

﴿فَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾﴾ وكما هي الحال مع المكذّبين الضالّين عن طريق الله والفطرة، فقد حلّ أمر الله ودمّر القوم وانقلبوا مادّيّاً كما انقلبوا من قبل معنويّاً، وأُمطروا بحجارة مغطاة بطين ومتراكمة عليهم.

﴿مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾ إنّها حجارة هادفة، تصيب هدفها بدقّة فلا يبعد منها الظالمون العتاة أينما كانوا وحيثما حلّوا.

(وقد جاءت نصوص التوراة بتصوّرات أُخرى، كما جاءت روايات تذكر تفاصيل نعرض عنها ونكتفي بما ذكرناه انسجاماً مع الظاهر القرآني الحق).

﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلاَ تَنقُصُواْ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّيَ أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾﴾ مقطع تاريخيّ آخر يستعرضه القرآن للاعتبار وتربية الجماعة المسلمة، حيث يرسل النبي شعيب إلى أهل مدين وهو منهم، ويعلن كلمة التوحيد ـ كغيره من الأنبياء ـ ويعطف عليها دعوته إلى العدالة والأمانة وعدم إنقاص الكيل والميزان (ولعل تخصيصه بالذكر لشيوعه بينهم). وهذا ربط رائع بين التصوّر عن الواقع الكوني المتوازن والسلوك الإنسانيّ العادل. خصوصاً وأن

مدين كانت تتمتّع بالخيرات مما يلزمها أن تشكر الله المنعم، فلتستجب إذن لدعوة نبيّها، ولتخفّف من عذاب الله المحيط بها إذا كفرت بأنعم الله.

﴿وَيَا قَوْمِ أَوْفُواْ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾﴾ تأكيد للدعوة السابقة وتوضيح لها، فعليهم أن يوفوا الكيل تحوّطاً لحقّ الناس، وكرماً وتحقيقاً للعدالة واحترازاً من إنقاص حقوقهم وبخسهم إيّاها وابتعاداً عن الظلم الاجتماعيّ والإفساد في الارض. وهذا المشهد يؤكّد أهميّة العدالة الاقتصاديّة وترابطها مع باقي المجالات.

﴿بَقِيَّةُ اللّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَاْ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾﴾ إنّ مايتبقى من التعامل الحسن العادل الذي يرضى الله به خير للمؤمنين العاملين بمقتضى إيمانهم الرابطين بين عبادتهم لله وسلوكهم المرضي من قبله تعالى، وهو لا يأمر بشيء إلاّ وفيه مصلحة للعباد، منسجمة مع حكمته وعدالته تعالى. إنّه المنطق الذي يجب أن يقود سلوكهم، وإلا فالنبيّ لا يملك سلطة يجبر قومه بها على الطاعة في هذا المجال. وتستمر بقيّة الله الخيّرة في الأمم إلى أن تتحقّق الوراثة الكاملة للأرض، ويعمها العدل والقسط.

﴿قَالُواْ يَا شُعَيْبُ أَصَلاَتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاء إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾﴾ تهكّم معاند من قوم شعيب، ترى هل ينطلق من تعليمات صلاته لله لينهاهم عن التقليد السفيه للآباء في عبادتهم للأصنام، والظلم الاجتماعيّ في عمليّات تبادل الأموال. وكأنّهم يرون أن العقيدة يجب أن لا تقود الحياة، وإلا كان ذلك سفهاً يتنزّه عنه شعيب وهو الحليم الرشيد!

﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىَ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾﴾ وبنفس خُلق الأنبياء يتلطف شعيب بهم ويعلن لهم أنّه وصل إلى الحقيقة ببيّنة من ربه، وأن الله رزقه رزقاً حسناً وعلّمه تعاليمه الأصيلة، وأنه لن ينهاهم عن شيء ثمّ يقوم هو بفعله، بل إن هدفه ـ كهدف كل الأنبياء ـ هو الإصلاح قدر استطاعته. إنّ هذه الأمور جميعاً تكشف عن الوعي الكامل لا السفه ـ كما يزعمون ـ فلينطلق شعيب في

دعوته الواعية مستمدّاً التوفيق من الله ومتوكّلاً عليه وإليه ـ تعالى ـ ترجع الأمور كلها، وله الحكم أولاً وأخيراً. وهكذا تجتمع عناصر القوّة والتغيير من الإيمان والوعي والبيّنة والإصرار والاستمرار والتوكّل على الله وطلب التوفيق منه تعالى.

﴿وَيَا قَوْمِ لاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾﴾ وهنا يحذّرهم نبيّهم شعيب من أن تدفعهم معاداته إلى حالة طغيان وعصيان لله، وحينئذٍ سيبتلون بما ابتليت به الأقوام السابقة (قوم نوح أو قوم صالح) وهاهم قوم لوط لا يبتعدون عنكم زماناً ومكاناً، وقد رأيتم ما اصابهم نتيجة عصيانهم وكفرهم.

﴿وَاسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾﴾ وباب التوبة مفتوح أمامهم، فليطلبوا من الله الغفران وليعودوا إليه تائبين وهو الربّ الرحيم الودود المحبّ لعباده، ومن هذا المنطلق تأتي أوامره ونواهيه.

﴿قَالُواْ يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلاَ رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾﴾ ولكن الضّلال قد يلف القوم فينسلخون عن منطقهم الإنسانيّ أمام الحقيقة الواضحة، ليأتي التذرّع السخيف بأنهم لا يفهمون كثيراً من أقواله ثمّ يأتي التهديد ـ وهو السبيل اللامنطقيّ الآخر ـ فشعيب ضعيف ولولا ما يملك من نفر قليل يدعمونه لقاموا برجمه؛ لأنه لا يملك عزّة وقوّة تمنعهم من ذلك.

﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾﴾ فيردّ عليهم موضّحاً غفلتهم عن عظمة الله وعزّته التي لا تقاس بعزّة النّاس وقوّتهم، فيجب أن يخشوا غضبه وقد نسوا تعاليمه وخلّفوها وراءهم ، والله تعالى هو المحيط بالخلق والعليم بما يصنعون.

﴿وَيَا قَوْمِ اعْمَلُواْ عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُواْ إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾﴾ ثمّ يأتي التحدّي النبويّ الواعي في قبال عنادهم الأعمى ليعلن لهم أنّه مستمر في دعوته، وليستمرّوا هم في عتّوهم وتقوية أنفسهم، والمستقبل كفيل بتوضيح الموقف ومعرفة من سيناله العذاب، ومن هم الكاذبون.

﴿وَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مَّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٩٤﴾﴾ وكما كانت سُنّة الله في المكذّبين حل أمر الله وأنجى الله شعيباً والمؤمنين، في حين شملت قومه الظالمين الصيحة الإلهيّة، فإذا هم في ديارهم على وجوههم منكفئون ميتون.

﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا أَلاَ بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾﴾ وكأنّهم لم يقيموا فيها ولم يعمّروها ولم يتمتّعوا بقوى كبرى، لقد لفظتهم المسيرة الإنسانيّة وأُبعدوا عن الحياة كما أُبعد الظالمون من قبل. وعلى من بعدهم أن يبتعدوا عما وقع فيه أولئك من انحراف وفساد.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾﴾ وبنفس السياق يشار باختصار هنا إلى قصّة موسى عليه السلام فلقد حمل رسالات الله مصحوباً بآيات الله وحججه الواضحة وعونه البيّن.

﴿إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُواْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾﴾ إلاّ أنّه ووجه ـ أيضاً ـ بعناد فرعون وأتباعه من الأشراف وكبار القوم(الملأ) (ولعل عدم الإشارة لباقي افراد الشعب تكشف عن أنّهم كانوا مسحوقين لا يملكون من أمرهم شيئاً) وقد ابتلي هذا الملأ بالتبعيّة العمياء لفرعون، رغم أنّه كان مستبدّاً سخيفاً في أمره وغير رشيد.

﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾﴾ وهذه التبعيّة العمياء سوف تتجلّى في مشهد آخر يوم القيامة، حيث يقود فرعون ـ وهو رمز الطغيان في التصوّر القرآنيّ ـ قومه إلى النار ليوردهم ـ كما يورد القطيع ـ النار، وبئس هذا الورد الذي يشعل الحشا بعد أن كان المفروض ان يطفئ الظمأ.

﴿وَأُتْبِعُواْ فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾﴾ وهكذا تبعتهم اللعنة التاريخيّة كما تبعت كل المكذّبين بالرسالات، والمفرطين بنعمة العقل والمنطق الرصين، وفوق ذلك عذاب خالد في الآخرة وهو بئس الرفد (المعين) المرفود؛ لأنه بدل ان يعينهم يلقيهم في العذاب الأليم.

﴿ذَلِكَ مِنْ أَنبَاء الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾﴾ وفي ختام السورة تستخلص العبر من جديد؛ فلقد أوضح هذا السرد التاريخيّ الموجز الكثير من العبر عن أقوام بقي بعضها أو بقيت آثارهم، في حين حصد الزمن الآخرين.

﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ

اللّهِ مِن شَيْءٍ لِّمَّا جَاء أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾ فقد فرّطوا بعطاء الله في النفوس حيث الفطرة والعقل وفي الحياة حيث الخير والنعم، فصرفوا عقولهم عن معرفة الله وهو الكمال المطلق، واكتشاف الحقيقة في العالم كله عبر هذه المعرفة، الأمر الذي لا يكشف عنه الإيمان بالآلهة المزعومة والمدّعاة من دون الله، بل أغرقتهم هذه الألهة في العمى ـ لأنّها مطلقات وهميّة وكاذبة، كبّلت مسيرتهم الصاعدة بطبعها نحو الكمالفابتلوا بالضياع والهلاك والتتبيب، كما أنها لم تستطع أن تمنع عنهم غضب الله ونقمته.

﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ تلك هي سنّة الله في التاريخ: فليس للظلم إلاعاقبة الهلاك والعقاب الإلهيّ الشديد. فليعتبر الظالمون عبر التاريخ.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾﴾ إنّ العذاب الدنيوي نموذج حسيّ لعذاب الآخرة، ذلك اليوم الرهيب، حيث تؤول إليه المسيرة البشريّة فيجتمع الناس، ويشهد الجميع الحقيقة عياناً آنذاك، ولكن قلوب المؤمنين بالآخرة تؤمن به وتخاف عذابه فتقيم حياتها الدنيا أيضاً على هدى الله، وتتجنّب معصيته، وبهذا يتمّ الربط الجميل بين العقيدة والحياة.

﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلاَّ لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾﴾ وتأخير يوم القيامة يقوم على أساس تخطيط إلهيّ حكيم، يعطي الحياة الإنسانيّة معناها الكبير ويحقّق الحكمة من خلق الإنسان.

﴿يَوْمَ يَأْتِ لاَ تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾﴾ إنّه اليوم الذي تتجلّى فيه للعيان مالكيّة الله، فلا تتكلّم أي نفس إلاّ باذنه تعالى، ورغم أن الإذن التكوينيّ ضروريّ في كل آن، ولكن الإذن آنذاك محسوس بنفسه. وفي ذلك اليوم تتميّز الصفوف: صفوف الشقاء والسعادة، نتيجة ماعملوه في الدنيا بملء إرادتهم.

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُواْ فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاء رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاء رَبُّكَ عَطَاء غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾﴾ والنار الملتهبة بزفيرها وشهيقها عاقبة الأشقياء، يخلدون في عذابها أما السعداء فمصيرهم الجنّة، يخلدون في نعيمها غير المنقطع (المجذوذ) مادامت السماوات والارض وهي دائمة

وإن كانت تتبدّل فالظاهر أنّه خلود دائم إلاّ أن يشاء الله.

﴿فَلاَ تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَؤُلاء مَا يَعْبُدُونَ إِلاَّ كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُم مِّن قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾﴾ فلاشكّ ـ إذن ـ في فساد حياة الشرك التي تعيشها الجاهليّة المقلّدة لآبائها في عهد الرسول ﷺ ولاريب في أنها ستؤول إلى الضياع، وتلك سنّة الله كما راينا. ولاشك أن الرسول ﷺ لم يكن يساوره أدنى شكّ، ولكن الخطاب من خلاله لبعض المسلمين.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾﴾ ويعود القرآن ليذكّر بحالة مَرَضية قد تتعرّض لها الجماعة المؤمنة آنذاك، وهي الاختلاف في كتاب الله نتيجة اختلاف الأهواء والتفسير بالراي، فهي حالة تعرّض لها قوم موسى من قبل، وقد اقتضت السنن الإلهيّة السماح باستمرار الاختلاف عسى أن يعودوا إلى مرجعهم وهو كتاب الله، وان كان قوم موسى يشكّون فيه؛ لأنّ سند التوراة لم يعد متواتراً، بل قد لا يملك مايثبت صحّته.

﴿وَإِنَّ كُلاًّ لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾﴾ تأكيد على أن الله سيعطي جزاء الجميع إن خيراً فخير أو شرّاً فشرّ ولا يهمل أحداً.

﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلاَ تَطْغَوْاْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾﴾ إنّها العبرة التي يجب أن يستفيدها المؤمنون من كل حوادث التاريخ وتقلّباته واهواله وهي ثبات المؤمن ورسوخه على خطّ الحقّ والتوحيد والفطرة وربما كانت الاستقامة على الخطّ أصعب من مجرد التواجد عليه، الامر الذي يوحي به قول النبي ﷺ: «شيبتني هود»[١]. ولعل ذلك لأنه أمر والمؤمنون معه بالاستقامة، وعدم الانحراف والاستكبار عن الخضوع لله، مراعين دائماً حقيقة أنّهم دائماً في محضرٍ من الله تعالى.

﴿وَلاَ تَرْكَنُواْ إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللّهِ مِنْ أَوْلِيَاء ثُمَّ لاَ تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾﴾ بعد الأمر الإيجابي بالاستقامة ـ على الخطّ ـ يأتي هذا النهي الصارم عن

---

١. الخصال، ج ١، ص ١٩٩.

الاستناد إلى الظالمين بدلاً من الله تعالى مما يعني الاشتراك معهم في عقيدتهم أو مسيرتهم المؤدية إلى عدم الفلاح في الدنيا، ونار الاخرة، لفقدان النصير الحقيقيّ وهو الله.

﴿وَأَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ ﴿١١٤﴾﴾ وهذا المسير الشاق يتطلّب الشحن الروحي الذي تقوم به الصلاة أروع قيام، إنّ صلوات الليل والنهار هي التي تؤمّن باستمرار طاقة الثبات على الحقّ، كما أن الوعد الإلهيّ بالآثار الرائعة للحسنات حيث تعمل على محو السيئات يقوّي عنصر الأمل في المؤمن بالفلاح والغفران، فيمضي ثابتاً على الخطّ اللاحب.

﴿وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾﴾ وهذه شحنة إلهيّة أُخرى تدفع المؤمنين لتربية الإرادة الواعية وهي: الصبر والصمود إلى جانب الأمل بالله فهو لا يضيع أجر المحسنين.

﴿فَلَوْلاَ كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾﴾ عودة إلى حال الأمم السابقة حيث نشهد اكثرية ظالمة مترفة مجرمة تسير نحو الهلاك وأقليّة صابرة تنهى عن الفساد وقد ينجي الله الأمم لوجود هؤلاء فيها.

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾ فإن اتّجاه الأمم نحو الاصلاح ينجّيها من الهلاك الحضاريّ لا محالة.

﴿وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾﴾ هكذا شاء الله أن يكون الإنسان مختاراً، فانقسمت الصفوف عبر التاريخ إلى خطّين أحدهما خطّ الحقّ، والآخر خطّ الباطل، ولم يشأ أن يجبر النّاس على خطّ واحد، وواضح أن الإرادة الإنسانيّة الحرّة هي التي تسير به نحو الكمالات دون أن يشكّل ذلك نقصاً في إرادة الله المطلقة.

﴿إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾﴾ هكذا يفكّر المسلم تماماً، فالخلق والهداية تمّا انطلاقاً من رحمة الله، وانفتح أمام الإنس والجان طريقا الخير والشر، وجاء التحذير من سلوك طريق الشر وأنه سيؤدّي إلى جهنّم التي تنتظر أتباعها المنحرفين الفارين من رحمة الله الواسعة. وقد تكون في الآيتين إشارة إلى أن الاختلاف في الرأي أمر طبيعي اقتضته سنة الله في خلقه، ما لم يؤدّ إلى الهلاك والبوار.

﴿وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاء الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ إنّ هذا العرض التاريخيّ لأنباء الرسل يستهدف تقوية قلب الرسول وارادته في مواجهة المحن والتكذيب ، فهو يوضّح المسيرة الحقّة، يتعظ بها القائد ويتذكّر المؤمنون ولينطلقوا بعزيمة صلبة وأمل واعد في طريقهم الشاقّ.

﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ اعْمَلُواْ عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ ﴿١٢١﴾﴾ كما أن فيه تحذيراً لغير المؤمنين وتثبيطاً لعزائمهم، وليعمل الصفّان والعاقبة للأصلح وللمتّقين.

﴿وَانتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ إنّ الأمل يشعّ في قلوب المؤمنين؛ لأن الله الحكيم القادر وليّهم، وسنن التاريخ معهم فالانتظار يدفعهم للعمل، أمّا الكافرون فلن ينتظروا إلاّ الدمار.

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ ذلك أنّ الله خالق الكون لايغفل عن شيء، وله العلم الكامل وبيده القدرة والأمر كله فليعبده المؤمنون متوكّلين عليه منطلقين على بصيرة لتحقيق رضاه، وهو يعلم بكل شيء فلا يجوز التساهل في عبادته والتوكّل عليه.

سورة يوسف (١٢)

آياتها ١١١

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ويمكن أن نلخّص هدفها، بأنّها تعرض صورة جميلة حسّاً ومعنىً لرعاية الله لعبيده، فهم يصنعون على عينه، وهو يتولّى الصالحين المحسنين، وينقذهم مهما كانت الصعاب وتعدّدت أنواع المعاناة.

﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝١﴾ لعل المراد ـ كما قلناه ـ أن هذا الكتاب مركّب من الحروف المعهودة، ولكنه معجزة الرسالة وبيّنة النبوّة.

﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢﴾ لقد حمل القرآن تعاليم الله بكل سموّها، وجاء بلسان عربيّ واضح، مستهدفاً بناء الحياة العقليّة، إذ أن الوحي يربيّ الملكات العقليّة كما يفتح آفاق المعرفة أمام المتدبّرين.

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ۝٣﴾ وعبر هذا الوحي يطلّع النبيّ وبعده المؤمنون على أحسن السير الإنسانيّة وهو أمر لم يكونوا على اطلاع عليه. فقصة يوسف نموذج رائع للقصص الهادف.

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ۝٤﴾ فيوسف الصبيّ الأثير لدى أبيه يعقوب يرى في المنام أحد عشر كوكباً والشمس والقمر ساجدين جميعاً له فيقصّ رؤياه على أبيه... فهي إذن بشرى إلهيّة سوف تبقى حيّةً في ضمير الغلام تقوده نحو الغد الأمثل.

﴿قَالَ يَا بُنَيَّ لاَ تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٥﴾ ويقرأ الاب ماوراء هذه الرؤيا الصادقة من معاني رفيعة ومقام سام ينتظر ولده، وأنه محفوف بعناية الله، ولما كان يعرف أيضاً نفسيّة إخوة يوسف، فإنه يطلب منه أن لا يحدثهم عن هذه الرؤيا لئلا يحتالوا عليه ويؤذوه من خلال مايوسوس به الشيطان، وهو العدوّ الواضح للإنسان.

﴿وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ

يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾﴾ ويعد الأب ولده ـ من خلال نفسه النبويّة وعلمه ببركات الله على آل إبراهيم ومعرفته بسموّ نفس يوسف ـ أن يحظى بعناية واختصاص من الله، وعلم يستطيع معه أن يعرف حقيقة أحاديث النفس والأحلام والعلاقات القائمة بينها، ونعمه تامة مستمرّة على هذا البيت الذي يشرف بالنبوّة وحمل الرسالة إلى الآخرين.

﴿لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ ﴿٧﴾﴾ بعد أن بدأ القرآن القصّة بذكر البشرى التي أُشار إليها حلم يوسف، يتحدّث هنا عن الآيات الإلهيّة والعبر التي تجلّت من خلال أحداث القصّة لاولئك الذين يسألون ويحاولون معرفة هذه الحقائق.

﴿إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾﴾ فقد صدق ما توقّعه النبيّ يعقوب إذ تصوّر إخوة يوسف ـ وكانوا عشرة من أُم واحدة أنّه وأخاه من أمه استأثرا بقلب أبيهم وعاطفته ، وثار الحسد في نفوسهم ، وغرّتهم قوّتهم وتضامنهم وراحوا يتّهمون أباهم باتّباع عواطفه، والخطأ في التقييم، اذ أحب ولدين صغيرين ضعيفين أكثر منهم، وهم الأقوياء النافعون.

﴿اقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴿٩﴾﴾ وسوّل لهم الشيطان العمل على حذف يوسف من الساحة بقتله أو تغييبه، ليبأس الأب العطوف ويتركّز أمله وحبّه في أولاده الأقوياء وحينئذ يصلحون وتصلح أُمورهم، ويتداركون بالتوبة جريمتهم النكراء هذه، بحكم الشرع والضمير الإنسانيّ.

﴿قَالَ قَآئِلٌ مَّنْهُمْ لاَ تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴿١٠﴾﴾ وربما صحا ضمير أحدهم فاقترح استبعاد فرض القتل، واقترح القاءه في أعماق أحد الآبار التي يستقي منها المارّة ليعثروا عليه ويبعدوه معهم، فيتحقّق هدفهم، وربما شككهم في عزمهم على القيام بجريمتهم بقوله «إن كنتم فاعلين».

﴿قَالُواْ يَا أَبَانَا مَا لَكَ لاَ تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ ﴿١١﴾﴾ وبدأ تنفيذ الخطّة الغادرة فوجّهوا استفهاماً استنكاريّاً لأبيهم، مستنكرين منعه يوسف من الذهاب مع إخوته هؤلاء، مما يكشف عن عدم اطمئنانه بقدرتهم على حمايته أو تشكيكه في عطفهم عليه، مع

أنّهم لأخيهم ناصحون مشفقون!!

﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿١٢﴾﴾ وبعد الاستعطاف والاستنكار قدّموا مقترحهم بإرساله معهم، لكي يشبع حاجته من السياحة واللعب ـ وهو صبيّ ـ وقدّموا التأكيدات المتتالية بصيانته من كل أذى.

﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُواْ بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴿١٣﴾﴾ فأعلن لهم يعقوب سرّ توجّسه وأنه يحزن لو ذهبوا به، لخوفه من أن يكون طعمة للذئب في لحظة غفلة منهم.

﴿قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴿١٤﴾﴾ واستمر التحايل واستعراض القوّة والتأكيد والقسم بأنهم سيحفظونه بكل ما يستطيعون، وإلاّ فسيعدّون أنفسهم خاسرين مع أنّهم أقوياء لا يخسرون.

﴿فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِ وَأَجْمَعُواْ أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾﴾ ويقدم هؤلاء على ارتكاب الجريمة النكراء (وهي تغييب أخ صبي بريء في غاية الصفاء، وفجع اب عطوف عظيم الشأن به) ولكن عناية الله تصنع هذا الطفل وترعاه وهي تؤكّد له أنّه تحت ظلّها وأنه سوف ينجو ويواجههم بحقيقتهم ولؤم مايرتكبونه بعد أن أعماهم الحسد والطمع.

﴿وَجَاؤُواْ أَبَاهُمْ عِشَاء يَبْكُونَ ﴿١٦﴾﴾ وعادوا إلى أبيهم في الليل ليبرّروا جريمتهم من خلال نفس ما تخوّف منه أبوهم، ولكن تسبق التبرير حالة كاذبة من البكاء والعويل.

﴿قَالُواْ يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لِّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴿١٧﴾﴾ إنّه تحايل قاتل على الأب، فهم يجبهونه بنفس ما احتمله من قبل. لقد شغلهم السباق تاركين متاعهم عند يوسف ليغتنم الذئب هذه الفرصة ويلتهم يوسف ـ هكذا وبكل بساطة ـ قالوها مشككين في تصديق أبيهم لهم.

﴿وَجَآؤُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾ وقدموا لأبيهم قميص يوسف ملطّخاً على سطحه بدم كاذب، ليؤكّدوا صحة مدعاهم، ولكن الأب الحصيف العارف بمسار الأُمور يردّ عليهم

بانّهم دبّروا مكيدة، وأن روايتهم لا قيمة لها عنده إلاّ أنّه سيصبر ويتجمّل ويلجأ إلى الله ويستعين به على أي حال.

﴿وَجَاءتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُواْ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلاَمٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾﴾ وتمرّ قافلة على البئر فترسل من يجلب لها الماء فيدلي دلوه وعندما رأى الدلو وقد تعلّق به غلام، بشرّ القافلة بذلك ففرحت بذلك وأخفته، لئلا ينتزع منها ناوية جعله بضاعة رابحة. كل هذا يجرى وعين الله تراقب الحال وترصده.

﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾ وباعت القافلة الصبيّ ببعض دراهم وبقيمة زهيدة. وكأن القرآن يلمّح هنا إلى جهل الإنسان بالقيم والحقائق، فلايتعامل معها بما تستحقه.

﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لاِمْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنِّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَاللّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾﴾ اشُتري يوسف من قبل رجل مصريّ، فقدّمه إلى امرأته طالباً منها حسن التعامل معه ولعله توسم فيه النبل فتوقّع أن ينفع العائلة، واذا تأكّدت لها قابليّته فقد تتخذه ولداً لها. ومرة أُخرى يذكّر القرآن بالعناية الإلهيّة التي فتحت ليوسف سبيل التمكين في الأرض ودرّبته على التحقق من حقيقة الأُمور والحوادث. ذلك أن الله هو الغالب على كل شيء، وإرادته هي النافذة وإن كان أكثر النّاس في جهل من ذلك.

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾ وهكذا ربّت يد العناية يوسف، حتّى بلغ سنّ الشباب وهو يتمتّع بصفات متميّزة، فله القدرة على الحكم النافذ وله العلم الجيّد بالأمور، كل ذلك نتيجة اللطف الإلهيّ الشامل للمحسنين.

﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ ويبدأ فصل آخر من حياة يوسف عليه السلام إذ تقع امرأة العزيز وهو وزير ملك مصر في غرامه فتراوده عن نفسه، ورغم الإغراءات الكثيرة: من حالة الشباب والحيوية لديه، وحالة الإغراء لدى امرأة العزيز التي هيأت له الأجواء، وحالة الخلوة، حيث الأبواب مغلّقة، إلاّ أنّ الإيمان القويّ والمحبّة الإلهيّة والإحساس

المتواصل باللطف الإلهيّ، وقبح المخالفة دفعه للوقفة الصامدة واللجوء إلى الله.

﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاء إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾ لقد كان الموقف صعباً فالمرأة تهم وتقترب وتغريه بالمعصية، الا أن العناية الإلهيّة المستمرّة تريه من الحقيقة برهاناً يمنعه عن أن يقع فريسةً للموقف السيئ، فيجره ذلك للفحشاء والمنكر. وهكذا تشمله الرحمة فتبعده عن الاقتراب من المعصية (السوء) وكذلك بالتالي تبعد عنه الفحشاء (الزنا) ذلك لأنه كان عبداً مخلصاً لله.

﴿وَاسُتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاء مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوَءًا إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾ وراح يوسف وامراة العزيز يستبقان أيهما يصل إلى الباب، هو للخلاص وهي لإغلاقه. وتعلّقت بقميصه فقدّته طولاً من خلفه، إلا أنهما واجها العزيز لدى الباب، وهنا تنقلب المرأة المغرمة إلى متهمة ليوسف بأنّه أراد بها سوءاً، ثمّ هي تطرح موضوع السجن أو العذاب الاليم جزاءً لذلك الاتهام.

﴿قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الكَاذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِن الصَّادِقِينَ ﴿٢٧﴾﴾ وردَّ يوسف هذه التهمة موضحاً أن التحرّش تمّ من قبلها، وأكّد شاهد من أهل المرأة (وتؤكّد بعض الروايات أنّه كان صبياً في المهد أنطقه الله) [١] أن القدّ الذي تمّ لثوب يوسف إن كان من الأمام فهو دليل على صدق التهمة وكذب يوسف، وإن كان من الخلف دلّ على أنّ المرأة جذبته من الخلف فشقّته، فهي إذن كاذبة في دعواها في حين صدق يوسف.

﴿فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ وحين رأى العزيز دليل كذب المرأة برّأ يوسف وألقى باللائمة عليها، مؤكداً أن كيد مثل هذه النسوة عظيم، لما يملكن من عناصر التأثير الجنسي على الرجال.

﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴿٢٩﴾﴾ إنّها خطيئة ارتكبتها المرأة بمراودتها لهذا الشاب الذي صار جزءاً من البيت فاستعصم منها، ثمّ باتهامه

---

١. تفسير العياشي، ج ٢، ص ١٧٤.

بهذا العمل الشنيع فعليها ان تستغفر لذنبها وعلى يوسف أن لا يأبه لهذا العمل ويعرض عنه.

﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾﴾ وتناقلت نسوة في المدينة حادثة الحبّ الحرام هذه من سيدة لها مقامها الاجتماعي، لفتى يعيش معها في البيت، لتعود ولهى به ويحيط الحبّ بقلبها وهو أمر يعدّ حتّى في تصوّر المجتمع الجاهلي من الضّلال الواضح.

﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ ولكن المرأة الماكرة بعد أن سمعت بهذا اللغط والفضيحة تحاول أن تبّرر وتعمّم المشكلة، فتدعو هذه النسوة إلى وليمة، وتعدُّ لهنَّ نمرقة ناعمة ليتّكئن عليها، وتقدّم لهن السكاكين لتقطيع الفاكهة، وحين تنشغل النسوة بالأكل تطلب من يوسف أن يخرج عليهنَّ، فلما أبصرنه أصبن بالدهشة لفرط جماله، فرحن يجرحن أيديهن بدل تقطيع الفاكهة، كما رحن يؤكّدن أنّه ليس بشراً بل هو ملك كريم، لما لاحظن فيه من جمال صورة وروعة سلوك.

﴿قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسَتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ وهنا تبرر امرأة العزيز سلوكها الذي لمنها عليه وتعترف بأنها هي التي راودته فامتنع، مؤكّدةً أن عليه أن يستجيب للإغراء وإلا واجه عقوبة السجن والإذلال بالتأكيد.

﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٣﴾﴾ ويشعر يوسف بحراجة الموقف إذ تحوّلت الفتنة إلى حالة مجموعيّة تطلب منه أن يعصي الله فليس له وهو المغرم بالله، إلا أن يلجأ إليه تعالى كي يمنَّ عليه بخيار السجن ـ إن كان ولابد منه ـ ويعطيه قوّة المقاومة وبدون ذلك فإنّه سيقع في المعصية وينزع إلى الحرام ويدخل في عمل الجاهلين.

﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾﴾ وكانت الاستجابة الإلهيّة التي أنجته من التلوّث بصفات هذا المجتمع الجاهليّ المتميّع، وابقته نقيّ الثوب يصنع على عين الله وسمعه.

﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُاْ الآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ ﴿٣٥﴾﴾ ورغم تأكيد الشواهد على براءة يوسف إلا أن الحاكمين قرّروا أن يسجنوه لبعض الوقت ربّما ليتخلّصوا من هذه الفتنة.

﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانَ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾﴾ وفي السجن يقوم يوسف بواجبه التبليغيّ التربويّ. ودخل معه السجن عبدان من عبيد الملك فراحا يحكيان له مارأياه في المنام: إذ رأى أحدهما أنّه كان يشتغل بعصر الخمر، في حين رأى الآخر نفسه يحمل فوق راسه خبزاً تأكل الطيور منه، وطلبا منه أن يفسّر لهما هذين الحلمين باعتبارهما تفرّسا فيه العلم والإحسان والنفس الطاهرة العارفة بخفايا الأُمور.

﴿قَالَ لاَ يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ وقبل أن يجيبهما ويفسّر حلمهما زرع الثقة به في نفسيهما عبر إبدائه شيئاً من العلم الذي منحه الله إياه، فهو يستطيع أن يخبرهما بنوع الطعام الذي سيأتيهما، وأثره عليهما مؤكّداً أنّه علم أعطاه الله له بعد أن نأى بنفسه عن مجتمع الشرك والإلحاد وإنكار الآخرة، وارتبط بالله الواحد العليم الحكيم.

﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَآئِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللّهِ مِن شَيْءٍ ذَلِكَ مِن فَضْلِ اللّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ وهنا يكشف لهما نفسه وأنه سليل النبوّة الموحّدة التي يشملها الله بعنايته، وهي عناية خاصّة بهذا البيت الطاهر، وعامّة للناس الذي خلقهم بلطفه ليتكاملوا وأرسل لهم التشريعات ليصلوا إلى هدف الخلقة، إلاّ أن النّاس قد لا يدركون ذلك أو تطغى عليهم شهواتهم فيكفرون بأنعم الله، ولا يشكرونها ويعرّضون أنفسهم للهلاك.

﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾﴾ ويدخل مع صاحبيه أثناء السجن في حوار فطريّ جميل، إذ لا يمكن أن تقاس حياة الشرك بأربابها المتفرقة المتشاكسة إلى حياة التوحيد، حيث يقودها الإله الحقيقيّ الواحد القاهر لماعداه بحكمة ولطف وانسجام.

﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَآؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ

الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ وحقيقة الأمر أن الإنسان قد يصوغ من أوهامه أسماءً أو يقوم بتحويل بعض النسبيّات المؤثّرة في ظروف خاصّة إلى مطلقات وهميّة، وهي في الواقع لا تملك حولاً ولا قوّة ولم تستمدّ ذلك من الله القويّ القهّار صاحب الحكم والسلطان الحقيقيّ، الذي لم يشأ لعباده إلا أن يعبدوه ويلتزموا بشرائعه المحيية والقيّمة على الحياة الإنسانيّة، والسائرة بها نحو كمالها، إلا أن أكثر النّاس لا يعلمون هذه الحقائق الكبرى.

﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾﴾ بعد أن قام بدوره النبويّ التبليغيّ راح يخبرهما بتأويل حلميهما، حيث سيقوم أحدهما بوظيفة ساقي الخمر لسيّده في حين سيصلب الآخر وتأكل من راسه الطير، وأن ذلك من أمور القضاء المقطوع به.

﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾﴾ وهنا طلب من الشخص الذي سينجو أن يذكره عند الملك، لعلّه يأمر بإخراجه من السجن ـ وكان من المفروض أن يكون لبعض الوقت ولكن الشيطان أنساه ذلك فبقي يوسف أقل من عشر سنين سجيناً.

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلاَتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾﴾ تتحدث الآية عن الرؤيا الملَكية الشهيرة وملخّصها: أنّه كان قد رأى في منامه سبع بقرات سمينة تهاجمها وتأكلها سبع بقرات هزيلة، وسبع سنابل خضر، والى جانبها سبع سنابل يابسات، فطلب من الملأ حوله أن يفسّروا هذه الرؤيا ان كانوا يملكون هذه القدرة.

﴿قَالُواْ أَضْغَاثُ أَحْلاَمٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأَحْلاَمِ بِعَالِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ ليجيب الملأ بأنّها مجرّد أخلاط من الأحلام والصور الوهميّة، وأنّهم لا يملكون ما يفسّرها.

﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَاْ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾﴾ وهنا تذكّر صاحب يوسف في السجن ماجرى هناك بعد أن مضت مدة على نسيانه، وانبرى قائلاً: أنا أُخبركم بتفسير الحلم فأرسلوني إلى يوسف في سجنه.

﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلاَتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾﴾ ويطوي السياق القصة ليواجه يوسف بالسؤال عن الرؤيا الملكيّة السابقة ويطلب منه تفسيرها ـ بعد أن وصفه بالصدّيق لما عرف منه سابقاً ـ لأنّ النّاس ينتظرون ذلك.

﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ وهنا بدا يوسف مرشداً مخطّطاً لتلافي الأزمة التي تكشف عنها الرؤيا، فهو لا يخبرهم بالمضمون بل يعطيهم إرشاداته لتلافي الموقف، ومنها يعرفون الحقيقة. فعليهم أن يزرعوا سبع سنين متواليات ويتركوا الحصاد في سنابله حفاظاً عليه من الفساد؛ لأنه ستتلوها سبع من سنيّ الجدب والمجاعة، يستهلك فيها ما ادّخروه إلا قليلاً يحتاطون به، ويتلو ذلك عام مليء بنصر الله والغيث والمطر والمحصول القابل للعصر والاستفادة.

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللاَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾﴾ ويأمر الملك ـ بعد هذا الراي السديد من يوسف ـ بإخراجه وجلبه اليه، لتبدأ مرحلة جديدة من حياة يوسف: إنّها مرحلة العزّ. فقد جاءه رسول العزيز طالباً إليه المثول عند الملك، ولكن يوسف الصابر يأبى ذلك إلا أن تحلّ مشكلة النسوة حتّى يدخل الحياة الاجتماعيّة دون أن تشوب سابقته أية تهمة ـ طبعاً ـ مع تأكيده أنهنّ صاحبات الكيد وأن الله تعالى يعلم ذلك.

﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَاْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴿٥٢﴾﴾ وعندما يوجّه الملك السؤال لهنّ يؤكّدن ـ بنوع من اللجوء إلى الله أنّه بعيد عن السوء، وتعلن امرأة العزيز بصراحة أنّها هي المذنبة وأنّه من الصادقين، وتضيف مؤكّدة: أنّها لم تخنه في الغيب وربما لتعلن إيمانها بالله وأنه لا يهدي كيد الخائنين.

﴿وَمَا أُبَرِّىءُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّيَ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾ وتتابع امرأة العزيز اعترافها ورجوعها إلى الحقّ قائلة أنها لا تبرّئ نفسها والنفس أمّارة بالسوء، فلا ينجو منها إلاّ من رحم الله وغفر له وهو الغفور الرحيم.

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مِكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾﴾ وحينئذ يصدر الملك أمره بالإتيان بيوسف ليجعله مقرّباً ومن خاصّته، فلما جاءه يوسف وكلّمه أكّد الملك أنّه عاد لديه مكيناً متمكّناً أميناً.

﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَآئِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾﴾ وهنا يطلب يوسف أن ينصبه مسؤولاً على الخزائن ويسلّمه عصب الحياة الاقتصادية؛ لأنه يحمل أهليّة ذلك المكوّنة من: التخصّص (العلم والقدرة الإدارية) والالتزام (الأمانة اللازمة) ولا مانع من هذا الطلب بل هو من الراجح أن يتقدم المؤهلون لحمل المسؤوليّة بعد أن كانوا يهدفون للخدمة لا لشغل المناصب إرضاءً للأهواء.

﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنِّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاء نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاء وَلاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ وهكذا عيّن يوسف مسؤولاً جديراً متمكّناً من الأُمور، يتّخذ منها المكان المطلوب بكل حرّية واختيار. وتلك هي الرحمة الإلهيّة التي تفعل ماتشاء. وتتحقق السنّة الإلهيّة المؤكّدة دائماً (لا إضاعة لأجر المحسنين).

﴿وَلأَجْرُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾ وبعد أجر الدنيا يأتي أجر الآخرة، وهو الأفضل المراد للمؤمنين المتّقين.

﴿وَجَاء إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ أَلاَ تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَاْ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾﴾ ولما كانت دائرة القحط واسعة فقد شملت أرض كنعان أيضاً، وهي البعيدة، مما دفع إخوة يوسف للبحث عن الطعام في مصر ولم يكن معهم أخوه من أمّه، وكان يعقوب يمنعه من السفر معهم. فدخلوا عليه فعرفهم وهم لا يعرفونه، ولم يحتملوا فيه ذلك مطلقاً. ويبدو أنّه أكرمهم وسألهم عن حالهم، وعندما جهّزهم بمتاعهم طلب منهم أن يأتوه بأخٍ لهم من أبيهم مؤكّداً أنّه يوفي الكيل ويكرم الوافدين ليضمن عودتهم بأخيهم هذا.

﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلاَ كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلاَ تَقْرَبُونِ ۝٦٠﴾ وأضاف مهدّداً بأنهم إن لم يجلبوه معهم فلن يلقوا لديه الاحترام والوفادة، بل ليس لهم أن يدخلوا أرضه ويقربوا منه ولا كيل لهم عنده.

﴿قَالُواْ سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ۝٦١﴾ وشعر الإخوة بصعوبة المهمّة، ولكنّهم أكّدوا ليوسف دون أن يعرفوه أنّهم سيحاولون ذلك بكل جد.

﴿وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُواْ بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انقَلَبُواْ إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۝٦٢﴾ وطلب يوسف من رجاله أن يدسّوا ماجاؤوا به من بضاعة ثمناً للطعام الذي اشتروه في رحالهم بدلاً من الطعام نفسه، لعلّهم يعرفونها ويدركون أن عليهم العودة من جديد ومعهم أخوهم، لكي يحصلوا على الكيل.

﴿فَلَمَّا رَجِعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُواْ يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝٦٣﴾ وعندما عادوا إلى أبيهم أخبروه بمنعهم من الكيل إلا أن ياخذوا معهم أخاهم متعهّدين بحفظه.

﴿قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلاَّ كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَاللّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ۝٦٤﴾ فردّ يعقوب عليه السلام عليهم مشكّكاً في نواياهم ومذكّراً بموقفهم السابق من أخيه يوسف، ومؤكداً أنّه إنما يعوّل على الله فهو خير الحافظين وأرحم الراحمين.

﴿وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَاعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُواْ يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ۝٦٥﴾ وهكذا وجدوا أنفسهم وهم لم يغنموا شيئاً فها هي بضاعتهم أُعيدت إليهم ولا طعام لديهم، فعادوا متوسّلين إلى أبيهم مؤكّدين أنّهم لا ينوون بغياً، وإنما يريدون تزويد أهلهم بالطعام، وسوف يحفظون أخاهم ويزداد طعامهم كيل بعير وهو أمر ميسور لديهم إذا صحبوا أخاهم. وقيل: إنّ يوسف زوّدهم بالطعام وأرجع اليهم بضاعتهم إكراماً لهم وتشويقاً ليجلبوا أخاهم وإلا منع منهم الكيل بعد هذه الرحلة، وأن تعبير (مانبغي) يراد به أننا لا نقصد سوءاً وإنما نريد الخير.

﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلاَّ أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ۝٦٦﴾ ويستجيب الأب على مضض شريطة أن يعطوه

عهداً وثيقاً يشهدون الله عليه بأنّهم سيعودون به إليه إلاّ أن تنسدّ كل السبل أمامهم، فقدّموا العهد له، فأكّد لهم أن الله هو الوكيل على ذلك.

﴿وَقَالَ يَا بَنِيَّ لاَ تَدْخُلُواْ مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُواْ مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ ثمّ إنّ الأب ـ وخوفاً من أن يحسدوا باعتبار ماهم فيه من العدد الكثير وحسن الهيئة والجمال أمرهم أن يدخلوا من أبواب متعددة. إلاّ أنّه وفي كل مرة يلجأ فيها إلى ترتيباته واحتياطاته، يعلن أن الأمر كله بيد الله لارادّ لحكمه، فيجب التوكّل عليه والاطمئنان إليه، بعد القيام بكل الإجراءات اللازمة.

﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللّهِ مِن شَيْءٍ إِلاَّ حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾﴾ ونفّذ الأبناء وصيّة الأب، وحقّقوا حاجة في نفس يعقوب إلا أنَّ قضاء الله وقدره هو الغالب وربما كانت الإرادة الإلهيّة قد حولّت المسير لتحقيق اللقاء المرتقب ، ولقد كان يعقوب حصيفاً مزوّداً بتعليم إلهيّ، ولكن أكثر النّاس بعيدون عن هذه المستويات العلميّة.

﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَاْ أَخُوكَ فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾﴾ و يدخلون على يوسف، وكان أول السرور أن ضمّ يوسف أخاه إليه وأخبره بالحقيقة، طالباً إليه عدم التألّم لذكريات الماضي المؤلم، وطمأنه للترتيبات التي سيتّخذها فيما بعد.

﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴿٧٠﴾﴾ وحين تجهّز القوم أمر بدسّ كأس الملك الثمينة في الرحل المخصّص لأخيه، ومن بعد ليعلن مناد لهم: أيتها العير (القافلة) إنكم لسارقون.

﴿قَالُواْ وَأَقْبَلُواْ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾﴾ وبعد تعجّب شديد يتساءل إخوة يوسف بشيء من الإقبال وربما الثقة بعدم وجود ما يستدعي التهمة: ماذا تفقدون؟

﴿قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاء بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَاْ بِهِ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾﴾ فقيل لهم: إنّه صواع (كأس) الملك، وإن من يأتي به له حمل بعير ويوسف ضامن لذلك.

﴿قَالُواْ تَاللّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴿٧٣﴾﴾ وطبيعي أن يقسم إخوة يوسف بالله إنّهم ماجاءوا ليفسدوا في الأرض ويسرقوا شيئاً.

﴿قَالُواْ فَمَا جَزَآؤُهُ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ ﴿٧٤﴾﴾ فيسألهم فتيان يوسف: فما جزاء هذا العمل إن اكتشفت السرقة.

﴿قَالُواْ جَزَآؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ قال الإخوة إن عرف السارق فيجب أن يؤخذ هو رهينةً لذلك. وتلك كانت شريعة يعقوب.

﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاء أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاء أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلاَّ أَن يَشَاء اللّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّن نَّشَاء وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾ ولكي تنطلي العملية عليهم ولا يكتشفوا الأمر، بدأ يفتش أوعيتهم ثمّ فتّش وعاء أخيه، ليكتشف وجود الصواع فيه. كل ذلك كان بأمر الله، وقد استخدمت وسيلة تسمح بها السنن الجارية لكي يضمّ يوسف أخاه إليه. وكانت سنّة الملك (دينه) تقضي بأن يجازى السارق بما ارتضاه لنفسه قبل كشف السرقة.

ومرّة أُخرى يفوز يوسف في العملية بما ملكه من حكمة وعلم، والله تعالى يرفع درجات من يشاء وإن علمه فوق العلوم.

﴿قَالُواْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللّهُ أَعْلَمْ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾﴾ وتتحرك الأحقاد الدفينة على الأخوين (يوسف وأخيه) وهما من أُم غير أُمهم، فيدفع إخوته من أبيه التهمة عنهم باتهام هذا الفرع بأن السرقة عادة فيه متّهمين يوسف بالسرقة من قبل، فاسرّ يوسف ذلك في نفسه ولكنّه جبههم بعبارة (أنتم شر مكاناً) مشيراً بشكل عام إلى ما اشتملت عليه نفوسهم من حقد وحسد وتعصب، وتاريخهم من خيانة وجفاء.

﴿قَالُواْ يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾﴾ وعندما تذكّروا ماجرى بينهم وبين أبيهم، راحوا يسترحمون العزيز يوسف، بذكر أبيهم الشيخ الكبير ويقترحون استبداله بأحدهم، محرّكين حس الإحسان فيه.

﴿قَالَ مَعَاذَ اللّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلاَّ مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّآ إِذًا لَّظَالِمُونَ ﴿٧٩﴾﴾ وهنا يستعيد يوسف بالله أن يأخذ إلاّ من وجد الصواع في رحله وإلاّ كان ذلك ظلماً.

﴿فَلَمَّا اسْتَيْأَسُواْ مِنْهُ خَلَصُواْ نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُواْ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم

مَّوْثِقًا مِّنَ اللّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّىَ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٠﴾﴾ وحين يئسوا من فعل أي شيء راحوا يتدارسون الموقف فذكَّرهم أكبرهم سناً بالميثاق الغليظ الذي أخذه أبوهم منهم ـ خصوصاً بعد ما اقترفوه من جريمة بحق يوسف ـ ثمّ أعلن لهم أنّه سيبقى هنا حتّى يأذن له أبوه أو يقدّر الله له شيئاً وهو خير الحاكمين.

﴿ارْجِعُواْ إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُواْ يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ﴿٨١﴾﴾ ثمّ يطلب إليهم أن يعودوا فيخبروا أباهم بما شهدوه من سرقة ابنه وأنهم لا يعلمون الحقيقة ولا الغيب ولم يكونوا يعلمون ذلك عندما تعهدوا بإرجاعه.

﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيْرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾ واستشهدوا بأهل القرية الذين رافقوكم وبالقافلة التي حملتكم، واكدوا على كونكم لا تقولون إلاّ الصدق.

﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾﴾ وحين أُخبر يعقوب ثار به الحزن، وردّد ماقاله من قبل حين أخبر بمصير يوسف، وربط الواقعة الحاليّة بالماضية، ولكن الموقف لن يعدو الصبر الجميل واللجوء إلى الله العليم الحكيم، فقد تقتضي إرادته أن يعيد إليه أولاده الثلاثة. ويشفي صدره المجروح.

﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾﴾ ويشيح يعقوب بوجهه عنهم، ويرجع إلى حبيبه يوسف متذكراً آسفاً، في حين فقدت عيناه بصرهما من حزن مكنون مكظوم في النفس.

﴿قَالُواْ تَالله تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴿٨٥﴾﴾ ويردّد الأبناء كلمة قد تكون عن حقد، وقد تكون عن ترحّم على الأب الشيخ: مستنكرين هذا الترداد المستمر لاسم يوسف والذي قد يؤدّي إلى الإشراف على الموت أو الموت بالفعل.

﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾ ليرد الاب أنّه إنما يلتجئ إلى الله ويبثّ إليه همومه؛ لانه يعلم أُموراً لا يعلمونها هم، فهو لا ييأس من روحه ولا يقنط.

والآيات الكريمة تشعّ بصفات المؤمن الحقّ والأنبياءهم قادة المؤمنين وفي طليعتهم.

فالرجوع المستمرّ إلى الله، وبثّ الهموم إليه، والرغبة في نصره، والأمل العظيم بلطفه وفضله، وشدّ القلب بحبّه وعدم اليأس من رَوْحه يملأ وجود المؤمنين.

﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلاَ تَيْأَسُواْ مِن رَّوْحِ اللّهِ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾ وهنا يطلب من بنيه العودة إلى مصر للمرّة الثالثة للبحث عن يوسف وأخيه وأن لا يدعوا لليأس مجالاً؛ لأنّ المؤمن الموصول القلب بالله لا ييأس من رحمته وروْحه الطيب المعطاء. واليأس من رحمة الله التي وسعت كل شيء دليل على الكفر به وإنكاره.

﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ إِنَّ اللّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾﴾ ويرحلون ليدخلوا على العزيز يوسف مسترحمين طالبين منه أن يلاحظ ماهم فيه من ضرر، وما جاؤوا به من بضاعة رديئة، لكنهم يحملون في قلوبهم رجاءً كبيراً لما لمسوه في العزيز من إحسان وسماحة، فهم إذن يطلبون كيلاً وافياً وصدقةً عليهم لعلّها تعني إطلاق سراح أخيهم. داعين له بحسن الجزاء من الله لتصدّقه عليهم.

﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ ﴿٨٩﴾﴾ ومن هنا يتغيّر الموقف وتأتي فترة الصراحة ليسألهم عن مافعلوه بيوسف وأخيه نتيجة جهلهم.

﴿قَالُواْ أَإِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَاْ يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيِصْبِرْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾﴾

ويبدو أن سوابق الحالة، ووصية الأب ونبرات الأخ دفعتهم لهذا التساؤل بل التأكّد من أنّه يوسف ، ليجيبهم بالإيجاب، وتحدث المفاجأة ويتحقّق الوعد الإلهيّ للمتّقين الصابرين المحسنين. بعدم تضييع أُجورهم.

﴿قَالُواْ تَاللّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴿٩١﴾﴾ فليس أمام الإخوة إلاّ الإقرار بالذنب بعد الإقرار بلطف الله بحق يوسف إذ فضّله عليهم نتيجه تقواه وصبره.

﴿قَالَ لاَ تَثْرَيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٩٢﴾﴾ إلاّ أن خطأ الإخوة يقابله صفح كريم، وطلب المغفرة لهم من الله، وهو أرحم الراحمين. وتلاحظ العودة إلى الله في مختلف المواقف.

﴿اذْهَبُواْ بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾﴾ ويتشوّق يوسف إلى الأب الحبيب الواله، فيطلب من إخوته الذهاب بقميصه إليه والقاءه على

وجهه ليعود بصيراً بإذن الله، في سابقة فريدة تظهر التأثير والتأثّر بين عالمي المادة والروح، وهذا التأثير يفسّر تأثير التبرّك وأثره بإذن الله، كما يطلب أن يعودوا إليه بأهلهم أجمعين.

﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلاَ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾﴾ وبينما كانت القافلة تغادر مصر قال الأب المشوق أني لأحسّ ريح يوسف إلا أن تعتبروني خاطئاً.

﴿قَالُواْ تَاللّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلاَلِكَ الْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾﴾ ليردّ من حوله متعجّبين وربما متبرّمين من هذا التكرار: إنّك لفي ضلالك القديم.

﴿فَلَمَّا أَن جَاء الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾﴾ وتحصل المفاجأة إذ يأتي البشير مبشّراً بيوسف، ويلقي ثوبه على وجه يعقوب ليعود بصيراً ويعلنها يعقوب مرةً أُخرى أمام أبنائه الذين كانوا عنده أنّه يعلم من الله مالا يعلمون.

﴿قَالُواْ يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴿٩٧﴾﴾ ويطلب أبناؤه إليه أن يستغفر لهم نتيجه خطاياهم التي اتضحت للجميع.

﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيَ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾﴾ فيعدهم بأنّه سوف يستغفر لهم الله، ولعل في هذا التعبير شيئاً من التألم.

﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَاء اللّهُ آمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾ وتحرّك الأب الواله على راس قافلة الأهل ليدخلوا على يوسف، وتتحقق أنباء الغيب في جوّ من اللطف الإلهيّ العميم والعواطف المتدفّقة والحنان المتزايد ليؤوي إليه أبويه بعد أن تحرّك لاستقباله ثمّ طلب من الجميع دخول مصر آمنين إن شاء الله.

﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بَي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاء بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاء إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ ورفع يوسف أبويه على كرسيّ الملك وخرّ الجميع إلى الأرض ساجدين بعد أن غشيهم النور الإلهيّ الساطع على جبين النبوّة، والسجود لله تعالى؛ لأنه لا يكون إلاّ له وحده، وإن كانت قبلتهم جهة يوسف، أو أن يقال إنّهم سجدوا له بأمر الله ولا مانع من ذلك. وأعلن يوسف الحالة تأويلاً لرؤياه التي ابتدأت بها السورة بعد أن جعلها الله رؤياً حقيقيّة تعبّر عن لطف الله به

بإخراجه من السجن والإتيان بهم من أرض البداوة والخلاص من عداوة الاخوة الذين تأثروا بإلقاءات الشيطان، وهكذا يأتي التذكير المتواصل بالله ولطفه ومشيئته وعلمه وحكمته.

﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنُيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿١٠١﴾﴾ ويواصل حديثه داعياً ربّه مثنياً على إحسانه به، اذ أكرمه بالملك وعلّمه من تأويل الأحاديث وتفسيرها، متصاعداً في ثنائه على الله، متحدّثاً عن كونه تعالى مبدع الكون، فله الولاية العامّة على الجميع ومنهم يوسف وفي كل الأزمان دنياً وآخرة فليمنحه الله الاستقامة على الخطّ ويتوفّه مسلماً ويلحقه بالصالحين.

﴿ذَلِكَ مِنْ أَنبَاء الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُواْ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ ويبدأ من هنا التذكير ببعض دروس القصّة، ويأتي التذكير بكون القصّة من أنباء الغيب التي وصلت إلى الرسول الاكرم ﷺ والا فهو لم يكن حاضراً حين عزموا على تنفيذ خطّتهم الماكرة.

﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ وهي حقيقة يردّدها القرآن فما على النبيّ إلاّ البلاغ، ولا داعي للتحسّر على عدم استجابة الناس.

﴿وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾﴾ إنّها خصلة الأنبياء والصالحين، والمهم لديهم تذكير العالمين. ومن دون أجر ومنفعة مادّيّة يطلبونها. وهكذا هو الرسول ﷺ وهكذا هو القرآن الكريم.

﴿وَكَأَيِّن مِّن آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ والإنسان معرّض للغفلة دائماً وإلا فالآيات كثيرة في السماوات والأرض، والمهم أن تُستجلى لا أن يمرّ عليها الإنسان ناسياً نفسه ووعيه، معرضاً متكبّراً. وهذا القرآن بمضامينه العليا يجب أن يهديهم، ولكنّهم يبقون معرضين.

﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ والإيمان كما الشرك من حالات القلوب وهما لا يلتقيان إذا كانا حقيقيين، أما إذا تنزّلا عن ذلك فقد يختلطان في بعض مراتبهما حيث يتمّ الإيمان ولكن بشكل باهت يجتمع مع الشرك الخفيّ عقيدةً أو عملاً ومن هنا يلام هؤلاء ويدعى المؤمنون لتنقية إيمانهم من شوائب الشرك وهو ما لاحظناه في حالة إخوة يوسف وكانوا مؤمنين ولكن لا بالشكل المطلوب.

﴿أَفَأَمِنُواْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾﴾ ولكن الانحراف عن خطّ الله له عواقبه، فينبغي أن لا يأمنها المنحرفون فقد تعرض عليهم عارضة من العذاب أو يأتيهم يوم الحساب دون أن يشعروا.

﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللّهِ وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ إنّ الخطّ والهدف والدلائل واضحة، والدعوة بيّنة لا لبس فيها، والرسول وأتباعه على بصيرة تامة في دعوتهم إلى الله، فهم يتحركون مسبّحين لله وموحّدين بعيدين عن مسيرة الشرك بشتّى صوره.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَواْ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾﴾ وإنّ رسالة النبي ﷺ تسبقها رسالات لرجال أوحي إليهم من شتّى بقاع الأرض، فليتأمّل المتأمّلون مسيرتهم المنتصرة في النهاية والعاقبة للتقوى دائماً. فأين المتفكّرون؟

﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَاءهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاء وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾﴾ وقد تتشابك المصائب في حياة الرسول إلى حد الاستيئاس من التأثير وانتشار ظاهرة التكذيب ولكن يأتي النصر الإلهيّ في هذه اللحظات، فينجّي الله من يشاء ويشمل المجرمين بقوّته وعذابه.

﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَـكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾ هكذا هي قصص الأنبياء: عبر لأولي العقول المتأمّلة. إنّها الحقيقة التي تؤكّد وحدة المسيرة التي يصدّق ويؤيّد بعضها بعضاً، والتي تفتح الآفاق أمام البشريّة لتجد فيها الحلول لكل مشاكلها والهدى الإلهيّ والرحمة الواسعة في ظلّ الإيمان بالحقيقة القرآنيّة الكبرى.

سورة الرعد (١٣)

آياتها ٤٣

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تحدثنا من قبل عن جزئية البسملة للسورة.

﴿المر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِيَ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾﴾ سورة الرعد حافلة بالحيويّة والتنوّع والتقابل إلاّ أنّها تصبّ في هدف واحد هو الإيمان بالله الحقّ والكتاب الحقّ والرسول الحقّ وإن كان أكثر النّاس لا يعلمون، وقد لخّصت هذه الآية كل هذه الحقائق.

﴿اللّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاء رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾﴾ آيات متتابعة متقابلة: سماوات ترفع ولكن من دون أعمدة مرئيّة، وكون يدار من العرش وهو مركزه الذي تتجلّى فيه القدرة الإلهيّة، وشمس وقمر مسخّران لحقيقة واحدة وإن كان كل منهما يمتلك مسيرة ولمدّة معيّنة. إنّه التدبير الإلهيّ العظيم، وإنّها الآيات المفصّلة الواضحة، لعلّها تهدي الإنسان للإيمان باللقاء الإلهيّ الكبير، عبر ملاحظة هذا التخطيط الكونيّ العظيم، الذي يستحيل أن يتمّ صدفة أولا تكون له غاية.

﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾ وينتقل المشهد الرائع إلى الأرض: الممدودة أمام الإنسان، والتي تنظّم حركتها الرواسي الشامخات من الجبال، وتروي بقاعها الأنهار الجاريات، فتمرع جنباتها بالثمار المتنوّعة المتمتّعة بالزوجيّة العامّة والمتقلّبة بين الليل والنهار، يغشى أحدهما الآخر في نسق رائع يهب الحياة قيمتها وحاجتها، والمسيرة تنوّعها، والنظام تناسقه لوتامّل المفكّرون الواعون.

﴿وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاء وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾ مظاهر تنوّع أُخرى. قطع متجاورات من الأرض منها الخصيب ومنها المجدب ومنها الناعم

والصلد، ومنها جنّات عامرة بالفواكه والزرع والنخيل ومنها ماله عود واحد ومنها ماله عودان(صنوان) يغذّيها ماء واحد ولكنها تتفاوت في الطعم والأكل. إنّها آيات تبهر العقول تنسيقاً وتحقيقاً للأهداف الحياتيّة. إنّ التفسير الوحيد المعقول هو وجود القدرة المبدعة الحكيمة التي مهدت للحياة الإنسانيّة كل هذه الظواهر، وإلاّ فيجب افتراض تجمع مالا يحصى من الصدف وهو مستحيل. وفي الآيات حقائق كونيّة كشف العلماء عن بعضها.

﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ الأَغْلاَلُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدونَ ﴿٥﴾﴾ والعجب العجاب منطقهم الأعوج: كيف يتحوّلون إذا صاروا تراباً إلى خلق جديد، وتقوم الحياة الآخرة، ناسين خلقهم من تراب أوّل مرّة، كافرين بعظمته وقدرته، غارقين في هواهم وجهلهم، ممهّدين لحياة الذلّ والأغلال والخلود في الجحيم.

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلاَتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٦﴾﴾ يتمادى هؤلاء في التحدّي والضلال حينما يستعجلون الرسول مايحذّرهم منه، بدل أن يسيروا بشكل طبيعيّ نحو الحسنات، وينسون ماجرى من قبل من عقوبات قاصمة لأمثالهم. إنّ عليهم العودة إلى الله والاستغفار، فإنّه تعالى ذو مغفرة للناس، لكنه شديد العقاب للمعاندين.

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾﴾ وهكذا يمتلئ الكون بالآيات ويأبى الكافرون إلاّ أن تنزل آية مع الرسول والآيات لا تنزل إلا باذن الله، ولكي يتحقّق غرض التصديق وما هؤلاء بمصدّقين بعد أن كانوا لا يفكّرون بكل ما يحيط بهم، فما على الرسول إلا الإنذار وهداية كل البشريّة، التي لن تخلو مطلقاً من إمام هاد مؤيد من عندالله يقودهم نحو الحقّ.

﴿اللّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَى وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾﴾ جانب آخر من عظمة الله ذلك هو خلق الإنسان، وعلم الله بحركة هذا الخلق، يتتبّعه ويحيطه بلطفه أينما كان، واستقراره في رحم أي أُنثى في هذا الكون الفسيح، يعلم تقلّباتها حينما تقل (تغيض) دماؤها التي تغذيها أو تزداد، فتلفظها خارج الرحم ، وكل مسيرة الحياة

لها قدرها الدقيق المتوازن.

﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ﴿٩﴾﴾ نعم، إنّه عالم الغيب والشهود، الجميع عنده حضور وهو فوقها بعظمته وتعاليه يرقبها ويمنحها لطفه باستمرار وإلا أصابها الفناء.

﴿سَوَاء مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴿١٠﴾﴾ لا يغيب عنه سرّ القول ولا جهره، ولا الاستخفاء بالليل ولا السير بالنهار، إن هذا التنوّع واقع تحت علمه وبصره.

﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللّهِ إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلاَ مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ ﴿١١﴾﴾ وسواء اكانت هناك معقّبات وموانع أمامه أو خلفه تحفظه من الحوادث التي تقع بأمر الله، فإن القدرة الإلهيّة هي المتحكّمة في الكون، ولكنها أرادت أن تجري الأمور بأسبابها، ومنها مسألة التغيير الاجتماعيّ، اذ كانت سنة الله أن لا يتمّ إلا إذا أعمل الإنسان أو المجتمع إرادته التغييريّة بنفسه، أما إذا لم يحقّقوا ما يؤهّلهم للخير فإن العاقبة السيّئة تنتظرهم لا مردّ لها ولا يمنع منها مانع.

﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِىءُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلاَئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاء وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ ﴿١٣﴾﴾ آيات إلهيّة أُخرى: البرق، والسحاب الثقال الممطرة، والرعد المسبّح بحمد الله وتسبيح كل شيء بحركته في دائرته المرسومة والملائكة المتحرّكة بأمره لتحريك الكون، والصواعق التي تصيب من يشاء الله، كلها مظاهر العظمة التي تجمع بين الخوف والرجاء والحياة والموت، لتنتظم الحياة الإنسانيّة عبر هذا التنوّع الهائل الهادف، فكيف يجادل أحد في هذه الحقيقة شديدة الوضوح فهي تقهر ماعداها.

﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لاَ يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلاَّ كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاء لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاء الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ ﴿١٤﴾﴾ إنّ الاتّجاه لله بالدعاء هو الحقّ؛ لأنه هو السميع القادر على الإجابة ، أما الاتّجاه إلى غيره بالدعوة فهو الباطل الذي لا يصل إلى شيء، بل هو كرجل ظمآن يمد يده إلى الماء صارخاً به ليصل إليه ولكنه لا ولن يصل ، إنها صرخةً في واد وسير في التيه.

﴿وَلِلّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ ﴿١٥﴾﴾ إنّ الكون العاقل في سجود وامتثال طواعية وبالاختيار، وكرهاً وإجباراً من خلال سيطرة القوانين الكونيّة والإرادة الإلهيّة، وحتى الظلال فهي في سجود عند الصباح حيث امتداد النور وبعد انكساره عند الأصيل، ويخرج هؤلاء الضالّون عن كل المسيرة.

﴿قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاء لاَ يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلاَ ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُواْ لِلّهِ شُرَكَاء خَلَقُواْ كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿١٦﴾﴾ إنّ العقل والفطرة وكل الظواهر المتناسقة تشهد لله العظيم بالربوبيّة، ويبقى الأغبياء والخارجون على الفطرة وموجودات الظلام خارج السرب، فهم لا يملكون من دونه من ينفعهم أو يضرّهم، فلماذا هذا اللجاج وعدم التفريق بين العمى والبصر وبين النور والظلمات، وهل لهم أن يثبتوا لله شركاء، لهم مخلوقات كمخلوقات الله فهي توقع الباحث في الشبهة؟ كلا، إنّ الحقيقة الواضحة، والانسجام الكامل بين الظواهر تؤكّد وحدة الخالق وقهره لكل من عداه، بل هو الوجود الحقّ وحده.

ويلاحظ التقابل الرائع هنا أيضاً بين الطوع والكره والنفع والضرّ، والشخوص والظلال، والغدو والآصال، والأعمى والبصير، والظلمات والنور، والخالق القاهر والشركاء العاجزين.

﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاء حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاء وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللّهُ الأَمْثَالَ ﴿١٧﴾﴾ مظاهر أُخرى للتدبير الواحد: نزول الماء من السماء، وسيلان الأودية كل بقدرها، والسيل يحمل الزبد الرابي الطافي ويستر الماء الزلال تحته، وتحرك الفلزات والمواد الأرضية التي تصاغ منها أدوات الحياة أو حلي الإنسان، تحركها أيضاً سائلةً يعلوها زبد زائد قد يحجب المعدن الأصيل وهكذا هو مثل الحقّ والباطل، فقد يطفو الباطل ويرهب الناظر، ولكنّه يبقى جفاءً لا نفع فيه، أما الحقّ فهو الماء الزلال والمعدن الكامن النافع الباقي في الأرض. وكذلك

دعوات الحقّ الثابتة النافعة ودعوات الضّلال التي تذهب جفاء.

﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لاَفْتَدَوْاْ بِهِ أُوْلَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٨﴾﴾ والذين يتّجهون إلى الله ويستجيبون لدعوته وينسجمون مع الكون هم الفائزون بالعاقبة الحسنى، وهي أقصى مايريده الإنسان، أما الخارجون عن السرب الموحد فمهما حصلوا عليه من مكاسب حتّى لو كانت ضعف ما في الأرض فإنهم يقدّمونها فداءً لخلاصهم ولات حين مناص، بالاضافة إلى أهوال الحساب التي تسوؤهم، ثمّ مأواهم النار وبئس المستقرّ.

﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ ﴿١٩﴾﴾ انَّ اللبيب الواعي والأعمى المتخبّط ليسا سواءً: فالعالم بحقيقة ما أنزل إلى الرسول بالخصوص يمتلك لبّاً حصيفاً يدفعه للتأمّل والتذكّر باستمرار، وتلك خصيصة أولي الألباب.

﴿الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللّهِ وَلاَ يِنقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴿٢٠﴾﴾ وهؤلاء إذ يدركون الحقّ، يملأ الحقّ وجودهم فيمنحون الله ولاءهم وعهدهم بعبادته وحده، واجتناب الطاغوت وسوف يثبتون على ميثاقهم هذا بقوّة.

﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الحِسَابِ ﴿٢١﴾﴾ فيندفعون إلى حيث أمرهم الله، ومنه وصل الأرحام وطاعة الإمام، تملأهم الخشية من الله ومن سوء الحساب، فهم ملتزمون بالشريعة بدقّة متناهية.

﴿وَالَّذِينَ صَبَرُواْ ابْتِغَاء وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلاَنِيَةً وَيَدْرَؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٢﴾﴾ والصبر بكل أقسامه لوجه الله يشدّ من عزائمهم، والصلاة القائمة تربطهم بالله، والإنفاق من رزق الله في السرّ والعلن ديدنهم، والدفع بالتي هي أحسن، والعمل على مواجهة السيّئات بالحسنات خُلقهم، وحينئذ فهم أهل لتلك العاقبة الحسنى.

﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالمَلاَئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلاَمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾ وهي الجنّات الخالدة، حيث يصحبهم فيها الصالحون من آبائهم وأزواجهم وذرّياتهم، وتدخل

عليهم وتحفّهم ملائكة الرحمة من كل باب من أبواب الحياة، وتحيّيهم بتحية الإسلام والسلام الخالد والعاقبة الحميدة دون أية شائبة، وكل ذلك جزاء لصبرهم وثباتهم.

﴿وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ اللّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُوْلَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٢٥﴾﴾ أما الذين عموا عن هذا الخطّ اللاّحب، ونقضوا عهد الله المأخوذ بالفطرة ميثاقاً غليظاً يدركه العقل وتتفاعل معه النفس، فمسيرتهم تخالف أمر الله، وإنما هي قطع الأواصر الصالحة ، والإفساد في الأرض، فحقيق أن تحلّ عليهم اللعنة وأن يعيشوا سوء الحياة.

﴿اللّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاء وَيَقَدِرُ وَفَرِحُواْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ مَتَاعٌ ﴿٢٦﴾﴾ إنّهم لا يدركون أن اللجوء إلى الله يحقّق لهم العيش الدنيويّ السليم؛ لأنه تعالى هو الذي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر (يضيّق) ولكنّهم جعلوا همّهم الحياة الدنيا، يفرحون بلذّاتها الزائلة، وماهي كلها إلا مجرّد متاع عابر يذهب جفاء، والحياة الآخرة هي الحيوان الدائم في ظل الله العظيم.

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاء وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾﴾ عود إلى مقولة أولئك المطالبة بآية من الله وهم ينكرون كل آيات الكون الباهرة. ناسين أن الهدى إنما يهبه الله لمن أهّلوا أنفسهم للهداية، أما المعاندون فلا تنفعهم الآيات مهما كثرت. ثمّ إن هذا القرآن هو أعظم آية لو كانوا يهتدون.

﴿الَّذِينَ آمَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللّهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ إنَّ الإيمان يمر بمرحلة التعقّل والتأمّل، وبعد اليقين ينتقل إلى كل الوجود الإنسانيّ بعواطفه وأحاسيسه؛ ليغمرها بالطمأنينة المعنويّة وحلاوة الذكر الإلهيّ، وليعود القلب مطمئناً به متفاعلاً معه؛ لأنه يحقّق له أعظم أمانيه وهو الاتصال بالمطلق الحقيقيّ والبعد عن كل المطلقات الموهومة.

﴿الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ ﴿٢٩﴾﴾ إنّ الحياة لن تكون سعيدة إلا إذا كان القلب سعيداً والقلب لا يسعد ولا يطمئن إلا إذا ذاق حلاوة الإيمان بالله تعالى ، واذا تحقّق الإيمان نظّم السلوك بنظام العمل الصالح، فطوبى لهؤلاء في حياتهم وقرّة عين في عيش هنيء يرجعون إليه.

﴿كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ لِّتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِيَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾﴾ إن إرسال الأنبياء يتمّ وفق لطف الله ورحمته، وهكذا إرسال الرسول إلى هذه الأمّة، وقد سبقتها أمم في ذلك، فهي جزء من المسيرة والتاريخ البشريّ، عليها أن تراجعه وتطالعه بعمق ووعي. وإنّ الرسول يتلو عليها القرآن الكريم رحمة بها في حين يقابل البعض رحمة الرحمان بالكفر والعصيان، ويماطلون ويتذرّعون بطلب الآيات، ولكنه يؤمر بتكرار كلمة التوحيد وتمسّكه بها وتوكّله على ربه الرحمن وإيمانه بعودته إليه.

﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَل لِّلّهِ الأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُواْ أَن لَّوْ يَشَاء اللّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلاَ يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللّهِ إِنَّ اللّهَ لاَ يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿٣١﴾﴾ إنّهم ينتظرون قرآناً تسيّر به الجبال وتقطّع به الأرض أو تكلّم به الموتى حتّى يؤمنوا ولكن القرآن جاء يكلّم الأحياء ويربّي النفوس لتقود الحضارة وتغيّر التاريخ، وهو أمر أعظم مما طلبوه، وحتى لو تمّ للقرآن ماطلبوه ما كانوا ليهتدوا إلا أن يشاء الله؛ لأنّ الأمر كله بيده تعالى وهو لا يهدي هؤلاء المعاندين. ولما كان المؤمنون يرغبون في اهتداء هؤلاء، فإن القرآن يؤكّد لهم أنّهم لن يهتدوا فلييأسوا منهم وليعلموا أن لو شاء الله لهدى النّاس جميعاً، ولكن الهداية المطلوبة يجب أن تتمّ بشروطها الإراديّة.

وسوف يبقى هؤلاء المعاندون معرّضين للكوارث (قارعة) حتّى يأتي وعد الله المحتّم.

﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِىءَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾﴾ إنّ الاستهزاء بالرسل تم من قبل، وفسح للأمم المستهزئة أن تتمادى في عملها ولكن العقاب الإلهيّ أدركها على ماكسبت فلماذا لايعتبر هؤلاء.

﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُواْ لِلّهِ شُرَكَاء قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِي الأَرْضِ أَم بِظَاهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكْرُهُمْ وَصُدُّواْ عَنِ السَّبِيلِ وَمَن يُضْلِلِ اللّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾﴾ إنّ كل النفوس حاضرة لديه تعالى، وهو محيط بها ويفيض عليها وعلى ماكسبت الوجود، وبدون ذلك فهي لاشيء، هذا ما يقتضيه العقل والوجدان إلا أن هؤلاء

التائهين تصوّروا له شركاء وأمر النبي أن يطلب منهم أن يعرّفوهم ويصفوهم وهم عاجزون عن ذلك بإثباتاته وأدلته. ثمّ إنّهم يبدون وكأنهم يكشفون شيئاً لا يعلمه الله!! وهو تعالى القائم على كل نفس بما كسبت، ولعلهم يحاولون تزويق القول عن الشركاء دونما برهان.

فهم إذن مدانون على كل حال، والحقيقة الناصعة أنّهم ليسوا أهل المنطق، وإنما زُيّن لهم مكرُهم وصُدوا عن سبيل الله ، ومن يضلله الله فلا هادي له.

﴿لَّهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُم مِّنَ اللّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾﴾ إنّهم ارتضوا العذاب الدنيويّ بابتعادهم عن هدي الله تعالى، ولهم عذاب أُخرويّ أكثر مشقّة منه وليس لهم من عذاب الله مانع وحماية.

﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وِظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ ﴿٣٥﴾﴾ أمّا المتّقون فقد وعدوا بالجنّة وهي العاقبة الحسنى التي تحقّق كل الأمل الإنسانيّ، وهو الخلود في النعيم، حيث الأُكُل (النعيم) الدائم والظلّ المستمر، وفي قبالها النار الحارقة وهي عقبى الكافرين.

﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللّهَ وَلا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ ﴿٣٦﴾﴾ وهنا يتعرّض القرآن لبعض من أهل الكتاب في صدر الدعوة إنصافاً منهم أو استفتاحاً على المشركين حيث كانوا يفرحون بظهور هذه الدعوة الجديدة، ومن أحزابهم من ينكر بعض ما أنزل إلى النبي ﷺ . وقد أمر أن يعلنها صريحة واضحة: إنّه يدعو للتوحيد بكلا معنييه الذاتيّ والعباديّ وإن مآب وعودة البشريّة إليه لا غير.

﴿وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءهُم بَعْدَ مَا جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ وَاقٍ ﴿٣٧﴾﴾ وهاهوالقرآن باحكامه الواضحة يفصّل أبعاد العقيدة والشريعة بلغة عربيّة دقيقة. ولكي يسدّ على المشركين باب اقتراحاتهم السخيفة، يعلن القرآن أن الرسول لو اتّبع أهواءهم وطلب غير هذا القرآن فإنه سيبتلى بغضب لا دافع له من الله.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾﴾ وإذا كانوا يعترضون على بشريّة الرسول فإن الرسل من

قبله كانوا بشراً لهم أزواجهم وذرّيتهم ولا يملكون أن يأتوا بأي آية مقترحة إلا أن يشاء الله لحكمة يراها، فكل شيء له حسابه، ولكل وقت كتاب.

﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاء وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴿٣٩﴾﴾ فلكل مرحلة اقتضاءاتها، ولكل زمان أحكام مكتوبة تخصّه حسب علم الله وإرادته فيغيّر كتاباً بكتاب، وأحكاماً باحكام أو يثبت الأحكام السابقة، ولكن أصل الشريعة وأمّ الكتاب أمر ثابت باعتبار أنّه يعالج حالة ثابتة في مسيرة الإنسان، وكل الهدف هدايته نحو كماله المنشود، وتشمل الآية القضاء الإلهيّ الثابت والمتغيّر.

﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴿٤٠﴾﴾ وعلى ماسبق فقد تتحقّق بعض الوعود وقد يُتوفّى الرسول قبل تحقيقها فإن ذلك تابع لإرادة الله الحكيم، والمهم أن يؤدّي الرسول ما كُلّف به دون اتّباع أهواء الآخرين ويبقى الحساب والنتائج حسب الإرادة الإلهيّة فلا عجلة ولا يأس، وإنما هو العمل بالتكليف.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لاَ مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٤١﴾﴾ إنّ إرادة الله هي النافذة، فقد تحدّد قوّة أمّة وتنقص من ثرائها، إنّه حكم الله ولا مردَّ له ولا معوّق وهو الذي يحاسب الجميع.

﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٤٢﴾﴾ فينبغي أن لا تغرّ هؤلاء قوّتهم ومكرهم، فقد سبقهم الذين من قبلهم ولكنّ الكون بيد الله والمكر الحقيقيّ (التخطيط النافذ) كله له، وهو المحيط العالم بالأمور، وهذه حقيقة ستبدو واضحة للكافرين.

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ كَفَى بِاللّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴿٤٣﴾﴾ ردّ على من كذّبوا رسالة الرسول ﷺ بأنّ الله تعالى يشهد بذلك إذ أنزل هذا القرآن المعجزة وشهد فيه برسالته، وكفى بالله شهيداً، بالإضافة إلى شهادة من عندهم علم الكتب المنزلة من ذي قبل[١].

---

١. وهم أهل البيت: راجع الكافي (ج ١ ص ٢٢٩)، أو علي ٧ الأمالي للصدوق ص ٦٥٩، جامع البيان للطبري (ج١٣ ص ٢٣١) تفسير البغوي (ج٣ ص ٢٥) شواهد التنزيل (ج ١ ص ٤٠٠) وهناك آراء اخرى.

سورة ابراهيم (١٤)

آياتها ٥٢

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

البسملة جزء من السورة، وتحمل معاني جمّة.

﴿الَر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿١﴾﴾ لقد أنزل هذا الكتاب إلى الرسول ليهدي النّاس به إلى نور المعرفة الحقيقيّة بالكون والحياة والإنسان، ومن ثمّ ليبيّن لهم بإذن الله أفضل السبل للسعادة والعزّة.

﴿اللّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾﴾ وأول حقائق هذه المعرفة هي التوحيد، وأن الكون بمافيه ملك لله، فينبغي التصرف فيه طبقاً لأحكامه، أما الكافرون بهذه الحقيقة فلهم الضياع والويل والعذاب الشديد.

﴿الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُوْلَئِكَ فِي ضَلاَلٍ بَعِيدٍ ﴿٣﴾﴾ إنّهم يستحبّون مافي هذه الحياة ويفضّلونها على الآخرة بما فيها من قيم إنسانيّة رفيعة، بل ويقفون حجر عثرة امام تحكيم شريعة الله وتقدّم سبيله المستقيم، ويصرّون على الانحراف، إنّهم إذن في ضلال وتيه.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللّهُ مَن يَشَاء وَيَهْدِي مَن يَشَاء وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤﴾﴾ وتلك طبيعة الدعوة الواضحة ليفهمها النّاس الذين يجب أن يحملوها، ثمّ ليبلّغوها أيضاً بوضوح ولينفّذوها على بصيرة. وهكذا ينفتح أمام النّاس طريقا الصلاح والفساد، فمن حقّق في نفسه قابلية الوصول إلى الحقّ شملته العناية الربانيّة وإلا أركسه الله في الضلال، وكلا الأمرين يتمّان بإرادته وحكمته سبحانه فهو العزيز وهو الحكيم.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾﴾ وهكذا كان الأمر مع رسالة موسى اذ الهدف نفس الهدف وهو إخراج قومه من ظلمات الجاهليّة والضياع إلى نور المعارف الإلهيّة والحياة الإنسانيّة المتعالية، حيث ذكرى أيام الله وهي الأيام الخاصّة التي حملت ذكريات الارتباط بالوجود الإلهيّ المقدّس، لتبقى هذه الذكرى شاخصة في ضمير الأمّة العارفة توضّح لها المعالم وترسم

لها الشعائر وتبيّن لها آيات الصبر والثبات على الخطّ رغم المحن، وتعلّمها أساليب شكر النعم.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّه عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءكُمْ وَفِي ذَلِكُم بَلاء مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾﴾ وقد أنعم الله على بني إسرائيل نعماً كثيرة ومنها نعمة النجاة من ظلم آل فرعون، حيث العذاب المرّ المتتابع، وحيث ما يسمى بالتطهير العرقي والإبادة الجماعيّة والتجاوز على الأعراض. ولقد كان ذلك أيضاً بلاءً وامتحاناً عظيماً، وتربية على التحمّل الواعي للمصائب، وفاءً للهدف.

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾﴾ إنّها سنّة تاريخيّة ـ بإذن الله ـ فالشكر يعني القيام بحق النعم، ويعني استغلالها بأفضل وجه. «ولكل شيء زكاة»[١] ـ كما ورد في الحديث ـ وبالتالي فهو يؤدّي بطبيعة الحال إلى التنمية والتزكية، أما كفر النعمة فيعني الاستغلال الأعمى لها أو التفريط والإفراط، وبالتالي ضياعها وعدم القيام بما يجب تجاهها والقبول بالعذاب الإلهيّ.

﴿وَقَالَ مُوسَى إِن تَكْفُرُواْ أَنتُمْ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللّه لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾﴾ فإن الله سبحانه وتعالى خلق الخلق حين خلقهم غنيّاً عن طاعتهم، آمناً من معصيتهم؛ لأنّه لا تضرّه معصية من عصاه، ولا تنفعه طاعة من أطاعه[٢] هكذا يقول علي عليه السلام مستمدّاً هذا المعنى من كتاب الله المجيد؛ لأنّ الله غنيّ حميد، وإنّما الأمر كله لصالح المخلوقين، فلامنّة على الله بل الله يمنّ علينا بالهدى. ونحن الخاسرون إذا كفرنا بأنعم الله.

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لاَ يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللّه جَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّواْ أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُواْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾﴾ وهذه هي الحقيقة الممتدّة مع الزمان والمكان: فهناك خطّ الهادين من الأنبياء، وهناك خطّ المكذّبين من عتاة الأمم المختلفة المعلنين بالتكذيب بتصرفات وإشارات دونما حشمة ولا أدب ـ والمشكّكين في حقيقة واضحة.

---

١. الكافي، ج ٤، ص ٦٢.
٢. نهج البلاغة الخطبة ٩٣.

﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُواْ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾﴾ إنّ الإيمان بالحقيقة الكبرى ينطلق بشكل فطريّ بعد أن يلاحظ الإنسان هذا التناسق العجيب في هذا الكون الرائع بشكل لايدع مجالاً للإلحاد والشرك. هذه هي الحقيقة التي يذكّر بها الأنبياء ويتعجّبون من انكار النّاس لها لشدّة وضوحها.

ثم إنّ الله لم يدعُ النّاس ليكرّس ذاته أو لينتفع هو ـ سبحانه ـ وإنما دعاهم بلطفه ليغفر لهم ويطهّرهم من أوضار الجاهليّة وأنجاسها، ثمّ يمهلهم ويواتر إليهم الرسل ويرسل لهم الآيات البينات ليعيشوا في ظلالها أفضل أنواع الحياة، ويؤخّر مؤاخذتهم إن عصوا إلى أجل معيّن، كيما يرعووا ويعودوا إلى رشدهم وصلاحهم، محبّة ولطفاً بالعباد.

ولكنّ الأنبياء دائماً يواجهون بالعناد والجهل وإنّهم إنما يريدون تغيير العادات والعبادات الموروثة وهذا مالايتمّ الإيمان به إلا بالإتيان بالخوارق التي ترغم المكذّبين على التصديق.

﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللّهَ يَمُنُّ عَلَى مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللّهِ وَعلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾ ولم ينكر الرسل بشريّتهم بل كانوا يؤكّدونها دائماً لئلاً تحوّلهم الأوهام من طرق إلى الله إلى موانع وشركاء كما جرى لبعض الأنبياء كعيسى عليه السلام، والفرق بينهم وبين غيرهم أنّهم امتلكوا استعدادات إنسانيّة عالية فمنّ الله عليهم من بين العباد بالنبوّة. ومن هنا فليس لهم بذواتهم قدرات خارقة الا أن يأذن الله فهو القادر المطلق، وعليه يتّكل المتوكّلون وبه يقوم الكون ويستمر الوجود.

﴿وَمَا لَنَا أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾﴾ هذا هو مقتضى العقل والفطرة فما الداعي لعدم اللجوء إلى الله وهو القدرة المطلقة، بل علينا الصبر الواعي على أذاكم مؤكّدين مرّة أُخرى على عنصر التوكّل الواعي لتأثيره الكبير، فعلى الله يتوكّل المتوكلون وإليه يلجأ اللاّجئون وبه يتمّ الاطمئنان.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴿١٣﴾﴾ ويأتي هنا دور التهديد بالطرد والنفي بعد دور التكذيب، ولكن الله على الدوام يثبّت رسله ويهدّد المكذّبين الظالمين بالهلاك.

﴿وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾ ويبشّر رسله بأنّه سيمكّن خطّه المؤمن من الأرض. فالأرض إنما خلقت للإنسان الإنسان، والكافرون يفقدون معالم الإنسانيّة لأنهم لا يستجيبون لنداء العقل والوجدان. نعم، إن الأرض للإنسان المعظّم لله والخائف منه ومن وعيده، وفي هذا الخوف أقصى معاني الرجاء.

﴿وَاسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾﴾ وراح كلا الطرفين (الطغاة والأنبياء) يدعون لتحقيق الفتح، والعاقبة لخطّ الإيمان والخيبة لخطّ الجبروت والعناد؛ لأنه لايستند إلى منطق ودليل.

﴿مِّن وَرَآئِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِن مَّاء صَدِيدٍ ﴿١٦﴾﴾ وتقف من وراء الطغاة جهنّم، وكأنّها تنتظرهم لتبلعهم وترهقهم عطشاً ليسقوا من ماء صديد سائل وسخ من الجسوم.

﴿يَتَجَرَّعُهُ وَلاَ يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَآئِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾﴾ يُسقون بعنف ويبتلعونه بكُره، ولايكادون يستسيغونه لقذارته، وتنصبّ عليهم أسباب الموت من كل جانِب، ولكنهم لا يموتون بل يتواصل عليهم العذاب الشديد. وكل هذه الصور المروّعة تُعرض عسى أن تردعهم عن طريق الغيّ والانحراف.

﴿مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لاَّ يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلاَلُ الْبَعِيدُ ﴿١٨﴾﴾ إنّهم يتصوّرون لهم قوّة وجمعاً وجبروتاً، ولكن مثلهم مثل الرماد إذ تهب عليه الريح الشديدة في يوم عاصف فتذروه في الفضاء هباءً فلا يتمالك نفسه أو شكله، وهكذا هؤلاء اذ لا تقوم قوّتهم وأعمالهم على قاعدة إيمانيّة صلبة يستطيعون بها أن يتمالكوا أنفسهم، وهكذا يعمهون في ضلال بعيد.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾﴾ نقلة رائعة إلى هذا الكون الفسيح، القائم بالحقّ والمخلوق بالحقّ على أساس من لطف الله، والمنطلق باسم الله والمشير بالتالي إلى الله وقدرته المطلقة التي إن شاءت أعدمت هذا الخلق وجاءت بخلق جديد.

﴿وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾﴾ أنّه أمر هيّن أمام القدرة الإلهيّة المطلقة.

﴿وَبَرَزُواْ لِلّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاء لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللّهِ مِن شَيْءٍ قَالُواْ لَوْ هَدَانَا اللّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاء عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا

مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾﴾ وينقل القرآن أحد مشاهد القيامة: حيث يبرز الخلق جميعاً أمام الله العظيم، ويقول ضعاف العقول والشخصيّة المستضعفون في الدنيا للمستكبرين العتاة ومعهم الشيطان قائد العصاة، لقد كنّا لكم تابعين فهل يمكنكم أن تغنوا عنا اليوم من عذاب الله، بعد أن تنازلنا لكم عن ذواتنا وحريّاتنا وعصينا الله لأجلكم؟

ويأتي الجواب الطبيعي القاتل: لو هدانا الله لهديناكم، إنّه المصير الأسود الذي لا ينفع معه جزع أو صبر، ولا مفرّ منه في هذا اليوم الرهيب. وفي هذا المشهد مافيه من تحريك لهؤلاء الضعفاء لئّلا يطمعوا في نصرة المستكبرين لهم، ولا يديموا هذه التبعيّة العمياء، ودفع للمستكبرين لإعادة النظر في موقفهم العنيد.

﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلاَ تَلُومُونِي وَلُومُواْ أَنفُسَكُم مَّا أَنَاْ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ وهنا تأتي الحسرة الكبرى حين يعلن الغويّ الأول عدم مسؤوليّته الكاملة عن هذا المصير الأسود، وإنما يعود اللوم عليهم، اذ لاحظوا أن الله وعدهم وشهدت الفطرة بأحقيّة الوعد الإلهيّ ولكنهم اتّبعوا وعد الشيطان الغويّ الخائن بوعوده. ثمّ إن الشيطان كان يسوّل ويسوّغ دون أن يملك أي سلطان على هؤلاء المجرمين فاختاروا طريقه واتبعوا الهوى واستجابوا لمغرياته، فليس لهم إلا أن يلوموا أنفسهم باختيارهم بكل حريّة هذا الضّلال والضياع، وهاهو الشيطان اليوم لا يستطيع الاستجابة لصرختهم وإنقاذهم كما لا يستطيعون الاستجابة لصرخته وإنقاذه.

وهاهو يتبرّأ من شركهم ويعلن أن الظالمين لهم عذاب أليم.

﴿وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلاَمٌ ﴿٢٣﴾﴾ تلك كانت نهاية خطّ الضّلال الكئيبة وهاهي النهاية السعيدة لخطّ الإيمان والتقوى والعمل الصالح، جنّات تجري من تحتها الأنهار يظلّلهم الإذن الإلهيّ والسلام والأمان إلى الأبد.

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاء ﴿٢٤﴾﴾

هذه سنّة إلهيّة أُخرى تجري في التاريخ بإذن الله: فالكلمة الطيّبة لن تذهب هباءً إنّها كشجرة طيّبة عميقة الجذور ضاربة في العمق ، مرتفعة في السماء تنشر ظلّها الوافر على الأرض فينعم منه الآخرون، وإن الكلمة الطيبة ـ كلمة الحقّ ـ تبقى تنشر عبقها في التاريخ بكل ثبات وقوّة وتهزّ قلاع الضّلال وتشدّ من عزيمة المؤمنين وتزرع النور في القلوب.

﴿تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللّٰهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ والشجرة الطيّبة دائمة العطاء بإذن ربّها، ومثلها الكلمة الطيّبة يمشي عطاؤها عبر الأجيال. وهكذا هي الأمثال القرآنيّة تقرّب المفاهيم وتتناول أهم قضايا الإنسان وتبقى تذكرة للناس كل الناس.

﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾﴾ وفي قبال ذلك تشبه الكلمة الخبيثة الشجرة الخبيثة التي لا جذور لها، فهي قلقة في مهبّ الريح، لا ثمر فيها ولا ظلّ بل لايمكن أن يمرّ بها مارّ آمناً رغم أنها قد تبدو كثيرة الأغصان وهي هي الكلمة الخبيثة، لا نفع لها ولا استقرار وقد تعصف بها الحقائق فتزيحها من الوجود، ولا يمكن السماح بها أحياناً؛ لانها لا تؤمن بوائقها.

﴿يُثَبِّتُ اللّٰهُ الَّذِينَ آمَنُواْ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللّٰهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللّٰهُ مَا يَشَاء ﴿٢٧﴾﴾ وفي ظل المثل السابق يأتي الإعلان الرائع من القويّ الصادق عن تثبيت المؤمنين بالقول الثابت في الحياتين، فلا خلل ولا تراجع ولا وهن ولا تحايل ولا ضرر ولا ضرار وإنما النظر البعيد إلى الهدف والثبات في الخطى والرحمة للآخرين والمنطق السديد المنفتح على الحياة.

أما الظالمون فوجودهم قلق وضلال وعطاؤهم هباء. وهكذا تقود إرادة الله البشريّة نحو الغد الإلهيّ المشرق.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَةَ اللّٰهِ كُفْرًا وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴿٢٩﴾﴾ يتوجّه الخطاب القرآني إلى الأمّة الحاضرة مؤكّداً عليها حقيقة كبرى وهي ضرورة شكر النعمة والعمل على استدامتها، وهي قضية وجدانيّة لا ريب فيها. وبالتالي توجّه أصابع الاتهام إلى أُناس يبدّلون نعمة الله كفراً، ويقودون قومهم إلى الضياع والهلاك، والى جهنّم المحرقة للأبدان وبئس القرار.

﴿وَجَعَلُواْ لِلّٰهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴿٣٠﴾﴾ لقد

ترك سادة القوم نعمة الرسول والتوحيد واستبدلوها بالكفر، والآلهة الوهميّة شركاء لله لا لهدف إلا ليقفوا بوجه مسيرة الإيمان ويضلّوا النّاس عن سبيل الله، ليتمتّعوا بمصالح ضيّقة رخيصة مستضعِفين للآخرين وسارقين لحقوقهم، ولكنها متع قليلة مصيرها إلى النار.

﴿قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُواْ يُقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خِلاَلٌ ﴿٣١﴾﴾ ويؤمر الرسول بالتركيز على خطّ الإيمان: ليقوّي رابطته بالله عبر إقامة الصلاة وهي عمود الدين، والإنفاق من رزق الله في السر والعلن ليضمن للمجتمع العدالة عبر التكافل والتوازن... كل ذلك في ظل تقوى الله لتعمر بها الآخرة حيث لا مجال هناك للتبادل الاقتصادي ولا للعلاقات والصداقات، ويقف الافراد لوحدهم أمام الحساب.

﴿اللّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّر لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَآئِبَينَ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿٣٣﴾﴾ نعم كبرى تحيط بالإنسان وتسهّل حياته ولا مناط له من أن يفسرها بخلق الله ولطفه: خلق السماوات والأرض، وماء ينزل من السماء فتشربه الأرض العطشى لتخرج من ثمراتها ما يتغذّى به الإنسان وفلك (سفن) تسخّرها قوانين الله لتجري في البحر، وأنهار تحمل الخير إلى مسافات واسعة، والشمس والقمر متتابعين على مر العصور، والليل والنهار مسخرين لراحة الإنسان: كيف تجمعت؟ كيف انسجمت ؟ كيف تعاضدت هذه الدورات الكونيّة للحركة، والماء، والنور؟ ماهو محور هذه الحركة من قوانين؟ وهل هناك من تفسير منطقيّ الا رحمة الله بهذا الإنسان؟

﴿وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾ وخلاصة هذا الحشد الهائل من النعم الإلهيّة تتمثّل في هذه الآية: لقد علم الله بكل حاجات المسيرة مادّيّة ومعنويّة فهيّأها بلطفه وكرمه، ليسير الإنسان نحو كماله المنشود والمغروس إجمالاً في فطرته. ولكن أين تكمن المشكلة؟ هل هي في نقص الفطرة أم هي في نقص الطبيعة أم هي في عدم الهداية الإلهيّة؟ كلا وحاشا. إنّها في عنصرين أساسيين: الظلم الواسع والاستئثار والكفر الشديد للنعمة والطغيان.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾﴾ ويكاد المرء يشعر أن الآيات السابقة تشكّل مقدّمة لذكر قصّة إبراهيم عليه السلام النموذج الكامل للإنسان الموحّد الذاكر الشاكر. حيث تبدأ به داعياً ربه إلى جوار بيت الله الحرام، وهو يردّد: ربّ ، ربنا يكرّرها باستمرار، طالباً منه تعالى أن يمنح هذا البلد أمناً بتوحيده، وأن يبعده وبنيه عن عبادة الأصنام.

﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾ لأنّها أضلّت الكثيرين من الناس، وعلى ذلك انقسم الخلق خطّين ليعلن أنّه يركّز على خطّ الإيمان وأنهم منه، أمّا الآخرون فيتبّرأ منهم ولكنه لايدعو عليهم بالهلاك وإنّما يرجو أن يعودوا للخط الصحيح فتشملهم الرحمة والمغفرة (وهنا يخاطب القرآن ضمائر أهل مكّة الذين يفتخرون بإبراهيم ويحدّد الموقف بدقة).

﴿رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ الصَّلاَةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ ثمّ تنطلق المسيرة الابراهيمية التوحيدية بإسكانه من ذريته بهذا الوادي الذي لا يبدو فيه أي مظهر من مظاهر الحياة (ولكنه سوف يغيّر كل المسيرة البشريّة) وذلك كي يقيموا الصلاة في الأرض، ويطلب من ربّه أن يعطف القلوب نحوهم، ويرزقهم من الثمرات لعلّهم يشكرون خالقهم العظيم على نعمه. فالهدف تكوين مجموعة عابدة شاكرة لأنعم الله (ولكن أين أهل مكّة من هذا الهدف؟).

﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللهِ مِن شَيْءٍ فَي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاء ﴿٣٨﴾﴾ وتتواصل المناجاة ليعلن إبراهيم أنّهم يعيشون جميعاً بعين الله وتحت ظلّه، وأنّه لا يخفى عليه في الكون شيء، فالكون جميعاً في محضره.

﴿الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاء ﴿٣٩﴾﴾ ثمّ يقدّم الحمد كله لله على نعمة أستجابة دعائه و اعطائه ولدين مثل إسماعيل وإسحاق وذلك على كبره، فربّه سميع الدعاء.

﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاَةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاء ﴿٤٠﴾﴾ ويعود مكرراً ملحّاً أن

يهبه الله هو وذريّته القدرة على إقامة الصلاة بكل لوازمها ويتقبّل دعاءه (وإقامة الصلاة أوسع من مجرّد أدائها).

﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾ ثمّ يستغفر لنفسه ولوالديه ولكل المؤمنين يوم يقوم الحساب.

وهكذا يبدو إبراهيم مضحّياً لإعلاء كلمة الله، داعياً لرفد مسيرة التوحيد، وربوبيّة الله، متبرّئاً من المشركين، عاملاً على إقامة المجتمع العابد، معترفاً بحضور الكون في محضر الله، حامداً شاكراً متضرّعاً مستغفراً لوالديه ولكل المؤمنين مهتمّاً بذريته وسيرها على خطّ الإيمان. ولكن أين المجتمع الذي يدّعي الانتساب إلى إبراهيم بل ويعيش على ذكراه من الحالة الإبراهيميّة هذه؟

﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ اللّه غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ ﴿٤٢﴾﴾ إنّها عين الله وعلمه الواسع ترقب مايعمله الظالمون بدقّة وتسجّل كل تحرّكاتهم وهي إذا أمهلتهم فإنما تؤخّرهم ليوم هائل مرعب تبقى الأبصار فيه مفتوحة مبهوتة.

﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لاَ يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاء ﴿٤٣﴾﴾ موقف رهيب رهيب ينتظر الظالمين: فالرؤوس ممتدّة الأعناق (مهطعين) والعيون الحائرة التي تنشط وكأنّها لا تعود لصاحبها، والأفئدة المتحوّلة إلى هواء، كل ذلك يوضّح هذه الرهبة والهول العظيم.

﴿وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُواْ رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُواْ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾﴾ إنّه إنذار عظيم للناس، وتحذير من يوم يأتيهم فيه العذاب ولا يملك الذين ظلموا حين يرونه إلا طلب المهلة من ربهم، مخاطبين إياه بالخطاب الصحيح (ربنا) ولكن لات حين مناص إذ يأتيهم الرد بشكل تساؤل قاتل ألَستُم المقسمين سابقاً أنكم خالدون؟

﴿وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾﴾ ألستُم المغفّلين الذين سكنوا مساكن الظالمين قبلهم والرائين ما فعلنا بهم، ثمّ الغافلين عن كل مايشهدون وعن الاتعاظ بالأمثال.

﴿وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ وَعِندَ اللّه مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴿٤٦﴾﴾

وهكذا يقضي الله على مكرهم فهو مرصود مسيطر عليه مهما كان عظيماً، وإن كان من الممكن أن تزول معه الجبال.

﴿فَلاَ تَحْسَبَنَّ اللّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿٤٧﴾﴾ إنّه الوعد الإلهيّ الذي لا يتخلف، والله عزيز ذو انتقام من الظالمين مهما طغوا وبغوا وتجبّروا.

﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُواْ للّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾﴾ وسيتحقّق الوعد كاملاً يوم الحساب بعد أن تبدّل الأرض غير الأرض وتتغيّر السماوات، ويبرز الجميع أمام الله الواحد القهّار لا تخفى منهم خافية.

﴿وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾﴾ ويعرضون في هذا الموقف الرهيب: مشدودين موثّقين. ترهقهم الذلّة والصغار.

﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمْ النَّارُ ﴿٥٠﴾﴾ وقد غطّت ثيابهم مادة القطران الشديدة الاشتعال، والنار تنتظرهم وتلفح وجوههم.

﴿لِيَجْزِي اللّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ اللّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٥١﴾﴾ هناك يُجزى الظالمون بما كسبوا وما صنعوا من مكر، ولم تكن مهلتهم ذات بال، إنّه الحساب السريع الذي ينتظرهم فليتّعظ هؤلاء الظالمون وليرعووا عن غيّهم قبل أن يقفوا تلك المواقف الرهيبة.

﴿هَذَا بَلاَغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِ وَلِيَعْلَمُواْ أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ ﴿٥٢﴾﴾ ويأتي هذا الإعلان التاريخي للبشريّة جمعاء:

ليعلم النّاس هذا البلاغ وليسمعوا هذا الإنذار وليعلموا أن الإله واحد له الربوبيّة وله العبادة وله الملك والأمر، وليذكر العقلاء هذه الحقيقة دائماً وفي كل الشؤون إذا أرادوا الفلاح.

آياتها ٩٩

سورة الحجر(١٥)

بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

البسملة آية رائعة تحدثنا عنها وعن جزئيتها للسورة.

﴿الَرَ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ ۝١﴾ إنّ القرآن الكريم مكوّن من هذه الحروف، ولكنه معجز في تركيبه اللفظيّ ومضمونه المعنويّ وبَيّن في خطابه. وعادة ما نجد إشارة للقرآن بعد هذه الحروف.

﴿رُّبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ ۝٢﴾ قد يأتي على الكفار زمان يشعرون فيه بخطئهم ويودّون لو كانوا مسلمين، فهلاّ انتهزوا الفرصة السانحة.

﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝٣﴾ ولكنهم الآن مصرّون على الانحراف، لاهون متمتعون بمتعهم الرخيصة غارقون في فسحة الأمل الكاذب، وسوف يرون الحقيقة.

﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلاَّ وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ۝٤﴾ فسنّة الله جارية، ولابدّ أن يهلك الضالّون، ولكن ذلك يتمّ طبق قوانين تتحكّم بإذن الله في مسيرة البشر.

﴿مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ ۝٥﴾ لا تتخلّف أمّة عن هذه السنن الإلهيّة، فهناك مجالات ممنوحة وهناك مقاييس تترتّب عليها نتائج يعلمها الله فلا إهمال ولا نسيان، وعلى الجميع ان يتذكّروا ذلك ويعدّوا العدّة لمستقبلهم المفصل على مقاس العمل. وهكذا فإن للأُمم كما الأفراد آجالاً وأعماراً.

﴿وَقَالُواْ يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ۝٦﴾ من أساليب مواجهة الرسول السخرية والاتهام بالجنون لتنفير النّاس عنه، إنّه أُسلوب العاجزين.

﴿لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلائِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ۝٧﴾ ومنها: طلب الخوارق كإنزال الملائكة عناداً وهزءاً وتنفيراً وتلاعباً بالآيات واستبعاداً لكون الرسول الإلهيّ بشراً.

﴿مَا نُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ إِلاَّ بِالحَقِّ وَمَا كَانُواْ إِذًا مُّنظَرِينَ ۝٨﴾ ولكن الملائكة لاتتنزل إلا بالحقّ وتحقيق أوامر الحقّ تعالى، وإذا نزلت وكُذّبت فلا إمهال ولا نظرة في العذاب فهل يستعجلونه؟

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾﴾ وإذا شاؤوا معجزة قاطعة وحجةً واضحة فهذا هو القرآن الكريم بكل خصائصه الرائعة، التي تحقّق الإيمان بالمنزل إليه، وقد تكفّل الله بصيانته من التحريف؛ لأنه كتاب الأمّة الخاتمة ودستورها، فهو خالد في عطائه وثابت في حروفه وتركيبه.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾﴾ ولم يكن الرسول بدعاً فقد سبقته مسيرة الرسل الإلهيين.

﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِؤُونَ ﴿١١﴾﴾ ولم يكن تكذيب المكذّبين المستهزئين بدعاً أيضاً.

﴿كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾﴾ هكذا هو حال القلوب المجدبة فهي كالأرض القاحلة لا تقبل المطر إلا وحلاً، والهدي إلامزيداً من الضلال.

﴿لاَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾﴾ تأصّل فيهم العناد، فلا تنفعهم الآيات والدلائل الواضحة، وقد سبقهم في هذا العناد السابقون من نظرائهم، وجرت فيهم سنة الله.

﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاء فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُواْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾﴾ وحتى لو منحناهم فرصة الصعود إلى ملكوت السماوات والإحساس عن قرب بما تخبرهم به الرسل لاعتبروا ذلك من سحر الأنظار وتسخير الحواس وإلاّ فلا واقع له، عناداً متأصّلاً وإنكاراً مهما كانت الدلائل واضحة.

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاء بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ﴿١٦﴾﴾ إشارة إلى إحدى مظاهر عظمة الكون التي كان المفروض بها أن تهدي هؤلاء الذين يشكّكون ويسخرون ويطلبون إنزال الملائكة، فهذه النجوم بأفلاكها العظيمة ومناظرها الخلاّبة للناظرين وبتناسقها الذي يحرّك الذوق الفنّي في فطرة الإنسان، وسمّوها وعلوّها يجب أن توقف الإنسان خاشعاً.

﴿وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾﴾ إنّها سامية عالية لا تدنو منها الشياطين الرجيمة الدنيّة.

﴿إِلاَّ مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾﴾ إلاّ أن يدنو البعض منها ويحاول الحصول على بعض المعلومات، ولكن الشهب تلاحقه فلا يكسب شيئاً. وهذه أُمور يعلمها الله ولا علم لنا بواقعها.

﴿وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾﴾ وهذه الأرض العظيمة مدّتها وفرشتها وتفرشها يد القدرة الإلهيّة، وألقت فيها الجبال الضخمة الراسية لتنظّم حركتها، وتنبت فيها من كل شيء له اتزانه وانسجامه الدقيق وتوافقه مع الحاجات الطبيعيّة والإنسانيّة.

﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ ﴿٢٠﴾﴾ وجعلت فيها أنماط العيش والحياة للإنسان ولباقي الموجودات الحيّة التي لا يُطعمها الإنسان بل تسهّل الطبيعة رزقها باذن الله.

﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾﴾ وكل مافي الكون والطبيعة له مخازن وخطط وحركة دقيقة مقدّرة معلومة ترتبط بالمجموع المنظّم.

﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾ وتتحرّك الرياح فتنشر الخير والعطاء، ومن عطائها التلقيح النباتيّ ومن عطائها التلاقح المؤثّر في مجال الغيوم والمطر وغير ذلك مما يعرضه العلماء ويدركه قبلهم النّاس بحسّهم ومعرفتهم حتّى البسيطة منها، وينزل المطر الطهور فتتحرّك الأنهار وتمتلئ المخازن الأرضيّة وتتوزّع السقيا وتنسجم مع حاجات الإنسان والحيوان والنبات، كل ذلك بدقّة مافوقها دقة. كيف تحركت الرياح، وكيف قامت بدورها في التلقيح، وكيف يخزّن الماء دونما جفاف أو عفونة أو فساد طعم وغير ذلك؟ كلها أسئلة يتابعها العلم بالتحقيق. ويقف منها الوجدان موقف التأمّل، ثمّ الإذعان لعظمة المدبّر العالم الحكيم، ومشيئته النافذة في الكون.

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ ﴿٢٣﴾﴾ إنّه تعالى مالك الحياة والموت، وتفنى المخلوقات ويبقى وجهه الكريم.

﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾ وعلمه يشمل من تقدّموا في الموت ومن تأخّروا فيه وهو بهم جميعاً محيط.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾ وإليه يرجع الخلق جميعاً للحساب فيحاسبهم بحكمته وعلمه.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾﴾ إشارة إلى خلق الإنسان العجيب من طين يابس (صلصال) متّخذ من طين آسن.(حمأ مسنون)

﴿وَالْجَآنَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ ﴿٢٧﴾﴾ وإذ اقتضت الحكمة الإلهيّة ان يخلق البشر من طين، فقد خلق الله معشر الجان قبله من نار.

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٢٩﴾﴾ ويُؤمَرُ الملائكة بالسجود لهذا الإنسان الذي نفخ الله فيه من روحه.

﴿فَسَجَدَ الْمَلآئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾﴾ ﴿إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٣١﴾﴾ فيستجيب الملائكة أجمعون إلا إبليس، وهو منطلق انحرافه وبداية المواجهة بين الخير والشرّ.

﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلاَّ تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾﴾ وعندما يسأل عن سر عصيانه وتمرّده على أوامر ربّه يجادل بأنّه أفضل من الإنسان؛ لأنه خلق من نار والنار أفضل من الطين، فيؤسس بذلك معياراً شيطانياً للتفاضل يقوم على أساس مادي عنصريّ مقيت.

﴿قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ وطبيعي أن يطرد الشيطان الذي كان مع الملائكة يعبد الله، لأنّه عصى الأمر الإلهيّ فلا محلّ له بين العابدين المنفّذين أمر ربّهم بدقة.

﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴿٣٥﴾﴾ وستشمله اللعنة الإلهيّة إلى يوم القيامة؛ لأنّه اختار طريق العصيان استكباراً وغروراً.

﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾﴾ يطلب الشيطان بعد طرده أن ينظر ويمهل، وتستمرّ حياته إلى يوم البعث والقيامة، لينفذّ حقده الشيطاني.

﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَى يَومِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾﴾ ولأمر يعلمه الله يستجاب لهذا الطلب إلى يوم معلوم. ولعلّه دخيل في وصول المسيرة الإنسانيّة إلى أهداف خلقتها، عبر الامتحان والصراع مع الباطل العنيد والشوائب والانحرافات التي تعرض عليها فتبعدها عن الثبات على المسير الصاعد. وقد تكون في الآيات إشارة إلى أنّ الحوار أصل مقبول حتّى مع أبغض الخلق.

﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾﴾ وهنا يعلن بدء المعركة وأنها تتمثّل في التزيين وتجميل الانحرافات والإغواء وتحريك الأطماع والشهوات في كل نفس ضعيفة، والنفوذ إلى الفراغات وملئها بالعناصر المحطمة. أما النفوس التي يعمرها

الإيمان الحقيقيّ النافذ للأحاسيس والمنتج للإخلاص فلا سبيل للشيطان عليها مطلقاً.

﴿إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾﴾ وهذه سنّة الله التي لا تتغيّر، وصراطه الذي يبقى مستقيماً لاعوج فيه وهو يؤكّد لكل التاريخ الإنسانيّ أن الإرادة الإنسانيّة هي نفخة إلهيّة، وجانب من جوانب الروح التي نفخت في طينة الإنسان، وهي بالطبع لكي تبقى قويّة تحتاج للارتباط بالله والوصل بالمطلق لكي تصمد أمام التزيين والإغواء، ويبقى ضعاف النفوس هم الذين يجرّهم الشيطان إلى معسكره ويضمّهم باستمرار إلى الغاوين الضالّين.

﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾﴾ وعاقبة الغاوين جميعاً هي جهنّم حيث تلتقي فيها كل فصائلهم.

﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ ولها أبوابها السبعة المفصلة باختلاف هذه الفصائل وعملها وعنادها طبعاً.

﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾﴾ أما المتقون الذين شكروا النعمة ، واستفادوا من النفحة الإلهيّة وسخّروا إرادتهم لتضبط دوافعهم وغرائزهم وفق هدى عقولهم لتحقيق مقتضيات عبوديّتهم لله والدخول في معسكر المخلصين، فلهم أروع عاقبة: جنّات وعيون.

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ادْخُلُوهَا بِسَلاَمٍ آمِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾﴾ في هذه الجنّات غاية مايمكن أن يتمنّاه الإنسان: السلام والأمن، والحبّ، والأخوّة، والراحة والخلود. ولعلّها صفات لما يجب أن يكون عليه المؤمنون في الدنيا.

﴿لاَ يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمَ ﴿٥٠﴾﴾ هكذا يريد القرآن للمسلم أن يعيش توازناً في التصوّر والموقف النفسيّ والسلوك: فهو يتصوّر ربّه العظيم غاية في الرحمة واللطف (وفي الآية تعبيرات رائعة معبّرة) كما يتصوّر عذابه غاية في الرهبة وحينئذ يقف موقفاً موازناً بين الخوف والرجاء، في حين ترسم له الشريعة سلوكه الخاصّ والعامّ بشكل متوازن رائع.

﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴿٥١﴾﴾ ويشار هنا إلى ضيوف إبراهيم من ملائكة العذاب لتأكيد عدم الإمهال إذا أنزلت الملائكة.

﴿إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلامًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾﴾ وعندما دخلت الملائكة وسلّموا عليه لمح إبراهيم فيهم ما يبعث على الخوف فواجههم بذلك.

﴿قَالُواْ لاَ تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾﴾ إلاّ أنّهم بدّدوا مخاوفه وبشّروه بولد عليم.

﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾﴾ ويتعجّب لهذه البشارة وهو رجل كبير السنّ وامرأته عجوز عقيم، كما يذكر القرآن في موضع آخر.

﴿قَالُواْ بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلاَ تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ ﴿٥٥﴾﴾ ولكن ذكّرته الملائكة بأنّها بشارة حقّ لأنّها من الله القادر الحكيم.

وحينئذ لا معنى لليأس والقنوط.

﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾﴾ فأكّد هو أنّه لا يقنط من ربّه إلاّ الضالون الذين ما عرفوا الله حقّ معرفته.

أمّا المؤمنون فهم يؤمنون بقدرة الله ويعيشون في كل لحظة على أمل عطائه.

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُواْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلاَّ آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلاَّ امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ وبعد الاطمئنان إلى الملائكة يسألهم عن مهمتهم التي جاءوا من أجلها، فيجيبوه أنّهم أرسلوا لصبّ العذاب على قوم لوط المكذّبين العصاة، والمجرمين بحق الفطرة الإنسانيّة، وطمأنوه بعدم شمول العذاب لآل لوط فهم ناجون إلاّ امراته فإنّها ستفنى مع الباقين المعذّبين.

﴿فَلَمَّا جَاء آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾﴾ ويكرّر لوط حينما يواجه الملائكة إبداء خوفه وإنكاره لهم خصوصاً وهو يعرف قومه الفاجرين.

﴿قَالُواْ بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾﴾ فتخبره الملائكة بمهمّتها وأنّها جاءت لإنزال العذاب الذي كان قومه يمترون به ويكذّبونه.

﴿وَأَتَيْنَاكَ بَالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٦٤﴾﴾ ولما كان لوط شديد الخشية والقلق على ضيوفه المتميّزين فقد جاءت تأكيداتهم هذه لتبدّد مخاوفه.

﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَامْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾﴾ وتطلب منه أن يسير بأهله (ومن تبعوه؛ لأنّهم من أهله) قبل الصبح وان

يكون في مؤخّرتهم ولا يدع أحداً منهم يرجع أو يتلفّت أو يتلكّأ؛ لأن موعد العذاب سيكون في الصباح، ويتّجه إلى مكان محدد.

﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلاء مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾﴾ لقد حقّ العذاب على قوم لوط والذي سيفنيهم عن بكرة أبيهم عندما يحلّ الصباح.

﴿وَجَاء أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾﴾ وفي غفلة مما يخبّئه لهم القدر الإلهيّ، جاءوا وقحين مجتمعين مستبشرين بوجود شبّان جميلي الوجوه ليعتدوا عليهم في علانية واضحة تتقزّز لها النفوس بالفطرة لشدّة شذوذها.

﴿قَالَ إِنَّ هَؤُلاء ضَيْفِي فَلاَ تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَاتَّقُوا اللّهَ وَلاَ تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾﴾ يواجههم لوط الوقور بكل الأساليب الحكيمة مدافعاً عن ضيوفه، مستنهضاً فيهم بقايا الشرف والتقوى، واحترام الضيافة ومقام كبيرهم لوط.

﴿قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٧٠﴾﴾ ولكنّ الغرور والفجور والشذوذ المستحكم دفعهم لتأنيبه هو على استضافة مثل هؤلاء الشباب.

﴿قَالَ هَؤُلاء بَنَاتِي إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٧١﴾﴾ ثمّ قدّم البديل الصحيح الطّاهر لإشباع الحاجة الجنسيّة وهو التزوّج بالنساء من بناته وبنات أمته؛ لأنهن بناته، وهي طريقة ناجعة ينتفع بها المربّون والمصلحون.

﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾﴾ وهنا يقسم القرآن وكأنه يشير إلى مجموع الغافلين المستسلمين للشهوات، إنّهم سادرون في الغفلة سابحون في السكرة الحرام.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾﴾ وجاء العذاب عند شروق الشمس، وانقلب العمران رأساً على عقب وأمطرتهم السماء حجارة بركانيّة قاتلة(سجّيل).

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾﴾ وبقيت آثارهم عبرة وذكرى للذاكرين باقية في طريق قائم لم يندرس بعد، تشير للمصير الأسود وبذلك يدرك المؤمنون عظمة الله وصدقه في الوعيد.

﴿وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ ﴿٧٨﴾﴾ وهكذا صدق الأمر مع قوم شعيب

أصحاب الشجر الكثير المتشابك (الأيكة) وقد كانوا بدورهم ظالمين.

﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾﴾ فأصابتهم النقمة الإلهيّة، وبقيت آثارهم وآثار قوم لوط علامة (إماماً) واضحة على طريق مطروق بين الحجاز والشام.

﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾﴾ وكذلك فعلت ثمود إذ كذّبت صالحاً فاعتبرت مكذّبة بالمرسلين.

﴿وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾﴾ وقد جاءتهم الآيات لطفاً بهم إما لتثبت لهم صدق الرسول أو لتهديهم الصراط المستقيم، ولكنهم أعرضوا عنها عناداً واستكباراً.

﴿وَكَانُواْ يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ ﴿٨٢﴾﴾ وكانوا متحصّنين في بيوت وكهوف يعتبرونها آمنة.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾﴾ فعوقبوا بصيحة رهيبة أخذتهم صباحاً.

﴿فَمَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾﴾ فلم تنفعهم بيوتهم وتحصيناتهم شيئاً.

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾﴾ بعد عرض قصص الماضين يعود القرآن لتقرير الحقائق الإيمانيّة وتركيز دلالة الكون عليها. ومنها مسألة قيام خلقه بالحقّ، وأنه خلق لغاية ولم يكن عبثاً. والهدفيّة تبدو واضحة من خلال الترابط التام بين أجزائه، ومن هنا تنتقل الآية إلى الإيمان بالآخرة إذ هي تفسّر هدفيّة المسيرة وعدم عبثيّتها؛ لأنّ فيها إحقاق الحقّ، وإليها تهفو قلوب المؤمنين وبها تثبت فلا تتأثر بتكذيب المكذّبين وتعرض عنهم وتصفح وتعفو دونما عتاب وكل ذلك لان الله هو الخلاّق العالم بخلقه.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾﴾ إن الرسول مؤيّد باستمرار من ربه، يثبّته فكراً وقلباً ويذكّره دائماً باللطف العميم: وهاهنا تذكير بعطاء سورة الفاتحة التي تحتوي على المعارف الإلهيّة الرائعة المترابطة، التي ينعطف بعضها على بعض ويفسر بعضها بعضاً، بالإضافة للتذكير بمجموع القرآن الكريم وهو كتاب الهداية الكبرى، وهكذا يأتي التذكير بالحقائق القرآنيّة بعد التذكير بالحقائق الكونيّة.

﴿لاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ

لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ ﴿٨٩﴾﴾ ومع كل تلك النعم لا معنى للنظر وتمنّي مالدى الأزواج الآخرين من متاع أو الحزن لانحرافهم بل النعمة الكبرى تقتضي تدعيم الجبهة الداخليّة من خلال الكون مع المؤمنين ورعايتهم، ومن ثمّ إعلان الهدف من الرسالة وهو الإنذار لكل العصاة.

﴿كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾﴾ ومنهم أولئك الذين عملوا على إطفاء نور القرآن وتبعيضه والتلاعب به.

﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ﴿٩١﴾﴾ بعّضوا القرآن وقسّموه تلاعباً به وصدّاً عن سبيل الله.

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِيْنَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ إنّهم جميعاً مسؤولون عمّا يعملون من أعمال تقف في طريق دعوة الحقّ.

﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾﴾ فليعلنها الرسول دعوة صريحة دونما لبس، وليمض في طريقه معرضاً عن هؤلاء المشركين المتلاعبين بآيات الله.

﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿٩٥﴾ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ فالله تعالى هو الحافظ لعبده ورسالته وقرآنه من شرّ هؤلاء المستهزئين اللاّهين عن الحقيقة، المشركين بالله وسوف يعلمون لمن العاقبة وكيف يكون المصير.

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾﴾ وقد يضيق صدر الرسول بألاعيب الكفار وإعراضهم عن الحقيقة الواضحة والسبيل القويم، وأقاويلهم السخيفة.

﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿٩٨﴾﴾ وأروع علاج لهذه الحالة هي اللجوء إلى الله والتسبيح بحمده والعبادة الخاشعة والسجود حيث القرب من الله المطلق القادر الرحيم.

﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾ والتزام خطّ الطاعة والعبوديّة مدى الحياة والقيام بما يلزمه هذا الخطّ من سلوك يتجاوز به مطبّات الحياة.

بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تحدّثنا مراراً عن البسملة.

﴿أَتَى أَمْرُ اللّهِ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ①﴾ لقد جاء وعد الله الذي يستعجل به المشركون. فلقد حقّت كلمة الله أن تدخل البشريّة مرحلة الرسالة الخالدة، وأن ينقطع دابر الشرك عن قريب. ويشرع القرآن بعد هذا ببيان نعم الله على الإنسان.

﴿يُنَزِّلُ الْمَلآئِكَةَ بِالْرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُواْ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَاْ فَاتَّقُونِ ②﴾ فهو تعالى ينزّل الملائكة وهي تحمل الروح من أمره إلى الأنبياء، ليعلنوا كلمة التوحيد، ويدعوا إلى تقوى الله الواحد المنعم.

﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ③﴾ وهو تعالى خلق السماوات والأرض بالحقّ، والهدفيّة في هذا الكون واضحة لوجود هذا الترابط والتنسيق والانسجام في كل الظواهر الكونيّة، مع متطلبات الحياة الإنسانيّة، وكل هذا يثبت وحدة الخالق ونفي أي شريك عنه.

﴿خَلَقَ الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ④﴾ وهو ـ تعالى ـ خلق هذا الإنسان العجيب المتكامل من نطفة قذرة متواضعة، ولكنّ هذا الموجود قد ينسى أصله والمنعم عليه، ويتخذ موقف الخصيم المجادل في كل هذه النعم.

﴿وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ⑤ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ⑥﴾ وهو ـ تعالى ـ خلق هذه الأنعام ليشبع حاجة الإنسان من دفء ومنافع شتّى، وأكل، وجمال وزينة وراحة ومعونة على السفر. إنّ التأمّل في هذا الإشباع الرائع لحاجات متنوعة وحده يحقّق الإيمان التام بالهدفيّة في الخلق، والنعمة الإلهيّة، ووحدة المنعم الكريم.

﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُواْ بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ ⑦﴾ وتبدو هذه النعمة أكثر وضوحاً في بيئة ظهور الإسلام حيث كانت الأنعام الوسيلة الوحيدة التي تساعد الإنسان على التنقّل بجسمه وبأثقاله ومتاعه، وكل هذا يعبّر عن رأفة ورحمة وتخطيط دقيق لتدوم هذه الحياة.

﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ۝٨ وَعَلَى اللّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ وَلَوْ شَاء لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩﴾ وهذه حيوانات لها دورها المستمر في خدمة الإنسان، وإشباع حاجاته الجماليّة أيضاً، وتوجد إشارة إلى موجودات وحيوانات أخرى تقوم بوظيفة إشباع حاجات الإنسان دونما علم منه، ولكن الرحمة والرأفة تدركان الإنسان، وتهيئان له الحياة الكريمة، وتذكران بآيات الله، ليسير نحو معرفة ربّه ويحقق سبيل تكامله، مستعملاً كل ماجهّزه الله به في فطرته من إمكانات الهداية والسير الصحيح لتحقيق التكامل، ولكن قد ينحرف الإنسان في مسيرته ويجور ولا يقدر ربّه حقّ قدره، وهو بذلك يظلم نفسه في الواقع. فالهداية مفتوحة للجميع وقد شاء الله أن يهتدي الإنسان بإرادته وإلاّ فإن الله قادر على الإجبار عليها.

﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ۝١٠﴾ وهو ـ تعالى ـ الذي أنزل المطر من السماء نعمةً أُخرى، تشرب منه النّاس وترعى أنعامها في المراعي التي تعيش على المطر.

﴿يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝١١﴾ وهو تعالى الذي أنبت بالمطر الزرع والزيتون والنخيل والأعناب وباقي الثمرات نعماً أُخرى تسهّل للإنسان حياته، كي يتأمّل فيها ويفكّر في الحقيقة.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالْنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالْنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝١٢﴾ ومن نعمه هذا الليل والنهار وحركة الشمس والقمر، والنجوم المسخّرة بامر الله وما أعظمها من نعم تدفع الإنسان لكشف أسرار الكون الرحيب القائم بالحقّ.

﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ۝١٣﴾ ومن نعمه ماخلقه الله في الأرض من إمكانات عظيمة، سواء على سطحها أوفي باطنها من أنواع شتّى تتناسب جميعاً مع حاجات الإنسان وغيره.

﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝١٤﴾ ومن نعمه هذا البحر المالح الذي لا يُشرب ولا يسقي، ولكنه يشبع حاجة الإنسان أيضاً من لحم طريّ يغذيّ به

بدنه، وحلية تشبع ذوقه الجماليّ الفطريّ ، ووسائل نقل تمخر وتشقّ الماء لتنقل للإنسان بدنه ومتاعه ويبتغي فوقها رزق الله وفضله ويشكره على نعمائه.

﴿وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلاً لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾﴾ ومن نعمه ـ تعالى ـ هذه الجبال الراسيات الثابتات على الأرض لتحفظ لها حركتها المتوازنة وتمنعها من الاضطراب، وهذه الأنهار التي تنقل الخير معها إلى مختلف الأمكنة، وهذه السبل والطرق التي تسهّل للإنسان حركته وبالتالي قدرته الحياتيّة وتهديه لتحقيق مقاصده.

﴿وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾﴾ ومن نعمه العلامات التي يهتدي بها السالكون في الأرض كالمرتفعات والمنخفضات والأشياء الشاخصة، اللغات والإشارات والخطوط، ومنها هذه النجوم التي بها يهتدي السائرون.

﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾﴾ الله تعالى هو الذي يخلق كل هذه النعم والظواهر التي تنسجم جميعاً مع الحياة الإنسانيّة وتؤكّد الهدفيّة والحقّ الذي يقوم عليه الكون، ووحدة الخالق الحكيم (وبدون هذه المعاني يجب افتراض تجمّع مالا يحصى حقيقةً من الصدف وهو أمر لا يقبله العقل مطلقاً) فكيف يقاس هذا الخالق العظيم إلى موجودات عاجزة تافهة.

﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ اللّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾﴾ وبعد استعراض النعم المذكورة قبل هذه الآية يؤكّد القرآن أن النعم أوسع بكثير مما ذكر بحيث لا يمكن إحصاؤها، وكلها تقوم على أساس من مغفرة ورحمة بالبشريّة هداية لها إلى أهداف خلقتها. وفي الاشارة إلى هذه النعم وتكرارها توجيه للعقول على استكشافها والاستفادة منها لإعمار الحياة.

﴿وَاللّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾﴾ كما تقوم هذه النعم التي لا تحصى على أساس من علم إلهيّ شامل بحقيقة الإنسان وحاجاته وحركاته الخفيّة والمعلنة، فالمسيرة الكونيّة ومنها المسيرة الإنسانيّة حاضرة لديه.

﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ لاَ يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْواتٌ غَيْرُ أَحْيَاء وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾﴾ اما الشركاء الذين يدّعونهم فهم عاجزون عن أي شيء بل هم مخلوقون له وهم أموات لا قيمة لهم ولا يشعرون متى يبعث أتباعهم للحساب.

﴿إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾﴾

التوحيد هو الحقيقة كلها وإنكار المنكرين للآخرة باعتبارها من أهم لوازم التوحيد والهدفيّة في الكون نابع من عناد واستكبار لا غير.

﴿لاَ جَرَمَ أَنَّ اللّه يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ ولكنهم تحت سمع الله وبصره عليم بأسرارهم وحركاتهم الظاهرة وهو لا يحبّ المستكبرين.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُواْ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾﴾ إنّهم ـ انطلاقاً من استكبارهم ـ يصفون ما أنزله الوحي بالقصص الوهميّة، وعجيب أن يصف الغارقون في الوهم والخرافات كتاباً كالقرآن بالأساطير.

﴿لِيَحْمِلُواْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلاَ سَاء مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ فسيحملون تبعات أعمالهم كاملة وتبعات أعمال من يضلّونهم ويقلّدونهم بغير علم وهي تبعات تعود عليهم بأسوأ العواقب.

﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾ ألا يعتبر هؤلاء بمن قبلهم إذ أسسوا بنيان المكر والاستكبار، فحطّم الله قواعده فخرّ عليهم السقف وأحاط بهم العذاب من حيث لا يشعرون.

﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآئِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالْسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٢٧﴾﴾ ويقف هؤلاء في الآخرة موقف الخزي ليجيبوا على سؤال يخزيهم أكثر ويطالبهم بالبحث عن الشركاء الذين زعموهم وجادلوا وأصرّوا على وجودهم.

وهنا يعلن أهل العلم ـ وهم الذين عصمهم الله من الضّلال والانحراف ـ أنّ الخزي كله والسوء كله على الكافرين.

﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ فَأَلْقَوُاْ السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾﴾ وقد كانوا عند الاحتضار يمارون أيضاً رغم أنّهم استسلموا للموت، فيدّعون أنّهم لم يعملوا سوءاً فيأتيهم الردّ القاطع: بلى إنّ الله عليم بما كنتم تعملون.

﴿فَادْخُلُواْ أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ وهكذا تشرع لهم أبواب جهنّم ليدخل فيها هؤلاء بما يتناسب وأعمالهم جزاء على تكبّرهم وعنادهم. والتكبّر

داء مستشرٍ يصيب الفرد والجماعة بالنظرة المتعالية وغير الواقعيّة للأمور.

﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْاْ مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُواْ خَيْرًا لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾﴾ ويتوجّه السؤال في مشهد القيامة صوب المتّقين الذين تأصّلت التقوى في نفوسهم فيقال لهم: ماذا أنزل ربكم؟ وبطبيعة الحال يأتي الجواب أنّه أنزل خيراً وهدىً، قاد حياتهم في دار الدنيا إلى السعادة الحقيقيّة ثمّ هم به في الآخرة يرفلون بالخير العميم، حيث الدار الأفضل والأكمل للمتّقين.

﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآؤُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللّهُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾﴾ إنّ الخير كله يتمثّل في جنّات عدن واستقرار تجري من تحتها الأنهار رخاء ومتاعاً طيّباً كيفما يشاؤون بلا تحديد، كذلك هو جزاء المتّقين، إنّه إشباع كامل لاقصى ما يتمناه الإنسان بفطرته.

﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُواْ الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾﴾ لقد مرَّ هؤلاء بمشهد الاحتضار السهل في قبال احتضار المتكبرين الصعب حيث تتوفّاهم الملائكة في أجواء الطيب والخلوص من خبث الظلم ، وفي سلام من أي خوف وحزن، ثمّ تبشّرهم بدخول الجنّة تعجيلا للخير وبشارة بالنعيم الخالد.

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللّهُ وَلكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ يتوجّه الخطاب من جديد إلى مشركي قريش مهدّداً ومتوعّداً إياهم بالموقف الصعب المتمثّل في مجيء الملائكة بالعذاب أو أي أمر يشاؤه الله لتعذيبهم، مذكّراً إيّاهم بالظالمين من قبلهم ومالاقوه من عذاب نتيجة ظلمهم لأنفسهم، ومخالفتهم لعقولهم وفطرهم.

﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِؤُونَ ﴿٣٤﴾﴾ إنّهم عانوا من نتائج عملهم هم، وحلّ بهم الشيء الذي كانوا ينكرونه ويستهزئون به.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَاء اللّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلا آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ ﴿٣٥﴾﴾ مقولة للمشركين بالله يفنّدها القرآن: فهم يبرّرون شركهم، وعبادة الأصنام من قبلهم ومن

قبل آبائهم وتحريمهم بعض الأمور تحريماً من دون نهي إلهي، يبررون كل ذلك بأنّه مسموح به؛ لأنّ الله لو شاء لمنعهم منه تكويناً. وهي مقولة طرحها مشركون آخرون قبلهم. ومن الواضح سخفها فإن الله تكويناً فتح أمام الإنسان طريقين وترك له الحريّة في الاختيار وليس هناك من إجبار تكوينيّ على أي منهما وليستقيم معنى الحساب، فلا محاسبة مع الإكراه ونفي الاختيار، وما على الرسل إلاّ تبليغ الهدى الإلهيّ (الإرادة التشريعيّة) لا غير

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾﴾ هذا هو هدف كل الأنبياء الذين بعثوا لكل الأمم ويتلخص في أمرين: بناء الفرد والمجتمع العابد، واجتناب كل مظاهر الطغيان والطاغوت، وتبقى للإنسان إرادته الحرة في الاختيار بين طريقي الحقّ والباطل. وطبيعي أن مسؤوليّة اختيار طريق الباطل تقع عليه فيستحقّ العقاب وهو أمر ينكشف بوضوح عبر السير في الأرض، ورؤية عاقبة المكذّبين.

﴿إِن تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾ فلا داعي للحرص على هداهم بعد أن اختاروا طريق الضّلال فأضلّهم الله، ولم يعد لديهم من ينصرهم من دون الله.

﴿وَأَقْسَمُواْ بِاللّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لاَ يَبْعَثُ اللّهُ مَن يَمُوتُ بَلَى وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾﴾ وهذا قول آخر لهم يفنّده القرآن: إنّهم يقسمون بشدّة على إنكار البعث، ولكنه حقيقة لا مفر منها؛ لأنّها من وعد الله الحقّ، وإن لم يعلم بها أكثر الناس.

﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُواْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَاذِبِينَ ﴿٣٩﴾﴾ حيث تكون هناك في الآخرة الموازين، وتنكشف الحقائق التي اختلفوا فيها كما ينكشف كذب هؤلاء المشركين.

﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾ وليس في الأمر أية مشقّة على الله، فأمره التكوينيّ يعني تحقّق الشيء، ذلك أنّ مايفيضه من الوجود على الأشياء هو نفس وجودها.

﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي اللّهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾ أما المؤمنون المهاجرون في سبيل الله بعدما ظُلموا فسيوفّر الله

لهم مكاناً حسناً في الدنيا ولأجر الآخرة أكبر من ذلك بلا ريب، لو كانوا يعلمون، وكأنّ الآية تحث على تعميق هذا المعنى في نفوس المؤمنين، وتؤكّد هذه الحقيقة أمام المنكرين.

﴿الَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾﴾ ذلك لأنّهم تحمّلوا وصبروا وتوكّلوا على الله، ومن يتوكّل على الله فهو حسبه.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ إنّ الرسل هم رجال من البشر يوحى إليهم، وليس المراد إرسال أُناس خارقي العادة يحملون قدرات تكوينيّة غيبية تعطّل قوانين الطبيعة ليستجيبوا لما يطلبه المعاندون بتغييرها إنّما هم مبلّغون لإرادة الله التشريعيّة التي تبقى معها للناس قدرة اختيار الطاعة أو المعصية، هكذا كانت سنة الله فليسأل أهل الذكر والكتاب والاطلاع على الماضي عنها.

﴿بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ والأنبياء يحملون للبشرية الآيات البينات الدالة على صدقهم، والزبر أي الكتب الهادية إلى الشرائع. وهكذا حمل الرسول إلى النّاس هذا القرآن الهادي الموضح لمنهج الحياة، والمربي للمسيرة العقليّة والحضارية لهذه الأمّة إن عملت به.

﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُواْ السَّيِّئَاتِ أَن يَخْسِفَ اللّهُ بِهِمُ الأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾﴾ أمّا الذين يشرّعون لانفسهم سبيل السيئات ويعرضون عن القرآن، فيجب أن لا يأمنوا الخسف أو أن يأتيهم عذاب الله من حيث لا يشعرون.

﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾﴾ أو يشملهم العذاب في تحوّلات حياتهم، في حلّهم وترحالهم والله لا يعجزه شيء.

﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾﴾ أو يأخذهم العذاب حين يحتاطون منه ويتخوّفون فيقلّ تضرّرهم به، والله رؤوف رحيم.

﴿أَوَ لَمْ يَرَوْاْ إِلَى مَا خَلَقَ اللّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلاَلُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالْشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِلّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ إنّ عليهم الانسجام مع الكون العابد الساجد لله. ذلك أن ظلال الأشياء المتحركة يميناً وشمالاً تعبّر عن خضوعها لقوانين الله المنسّقة لهذه الحركة الدقيقة المترابطة، فهي ساجدة لله مسبّحة شاهدة له بالوحدانيّة والحكمة والتدبير خاشعة طائعة (داخرون).

﴿وَلِلّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَالْمَلآئِكَةُ وَهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ (سجدة مستحبة)

والكون كله في سجود رائع انقياداً لأمره، وكشفاً عن تنزيهه وتعبيراً واضحاً عن حكمته وتدبيره دونما استكبار أو عصيان، ومن هذا الكون الملائكة الذين ينفّذون أوامره ويخافونه بكل معنى الكلمة.

﴿وَقَالَ اللّهُ لاَ تَتَّخِذُواْ إِلهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلهٌ وَاحِدٌ فَإيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴿٥١﴾﴾ فلينسجم الإنسان مع الكون في توحيده، وطاعته والخوف منه.

﴿وَلَهُ مَا فِي الْسَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾﴾ فهو ـ تعالى ـ مالك الكون بكل معنى الملكيّة الحقيقيّة، ولذلك فله الدينونة التامّة المستمرّة (واصباً) ومنه الهداية الكاملة للإنسان كي يطوي سبيل تكامله على أحسن وجه، ولذا فمن العجيب أن يخاف غير الله، وهذا من منابع القوّة والعزّة عند المؤمن.

﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾ إنّ كل النعم التي يحسّها أو لايحسّها الإنسان هي من لطف الله. لكنه ينسى هذه الحقيقة ولا يتذكّرها إلاّ حينما يمسّه الضرّ وخصوصاً حين تنقطع به السبل ليلجأ اليه ويجأر بصوته داعياً طالباً كشف الضرّ.

﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾﴾ فاذا استجاب ربّه الرحيم له وكشف مابه من ضرّ عاد فريق من الأفراد إلى نسيانهم القاتل وراحوا يشركون بالله في ذاته أو عبادته.

﴿لِيَكْفُرُواْ بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾﴾ تهديد لأولئك الذين يكفرون وينكرون لوازم التمتّع بنعم الله من الطاعة والشكر للمنعم الحقيقيّ، فإن هؤلاء سيعلمون العاقبة المرّة التي تنتظرهم.

﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لاَ يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ ويربط هؤلاء الكافرون أنفسهم بآلهة مدّعاة لايعلمون عنها شيئاً، فهي تقيّد مسيرتهم وهم يخصّصون لها بعض مارزقهم الله من الثروات فيبذّرونها وهماً وجهلاً. وسيسألون تحقيقاً عما افتروه كذباً وبهتاناً.

﴿وَيَجْعَلُونَ لِلّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾﴾ انحراف آخر ينجرّ إليه المشركون وهو الإيمان بآلهة مؤنّثة باعتبارها من بنات الله ـ تعالى ـ وهكذا يتحدّث القرآن عن سخفهم بتخصيص الله بالبنات، في حين أن لهم ما يشاؤون من ذكور. وتعالى الله عن أن يكون له ولد وإنما ذلك من قياس التشبيه الباطل.

﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلاَ سَاء مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ وهكذا ينعى القرآن على الجاهلين سخافاتهم العقديّة، كما ينعى عليهم عاداتهم الاجتماعيّة الباطلة، فإذا بشّر أحدهم بمولودة أنثى اسودّ وجهه، وراح يكظم غيضه وحنقه، ويختفي كي لا يراه احد ويخيّر نفسه بين أن يحتفظ بهذه البنت أو يدسّها ويئدها في التراب، فما أسوأ حكمهم بذلك. وبهذا الأسلوب والنفس الإنسانيّ يواجه القرآن النظرة السلبيّة الظالمة للأنثى والتي لازالت تمارس من قبل البعض.

﴿لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَىَ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾﴾ إنّ المشركين ينكرون الآخرة وبالتالي تذوب عندهم معاني الحسن والقبح، ويسودهم مثل السوء باعتباره صفة عامّة، ذلك أنّ من لا يطمع في ثواب ولايخاف من عقاب تموت عنده القيم بالتدريج. أما الإيمان بالله والخير الكامل ومصدر العزّة والحكمة فهو يربّي كل القيم الإنسانيّة العليا ويعمّقها باستمرار.

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاء أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾﴾ ولوأنّ الله عامل النّاس بالعدل وعاقبهم بما يستحقّونه نتيجة ظلمهم لأهلكهم جميعاً، ولكنّه لطف بهم وأخّرهم إلى أجل محدّد لا يتخلّف.

﴿وَيَجْعَلُونَ لِلّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى لاَ جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾﴾ والعجب أنّ المشركين ينسبون لله مايكرهون نسبته لأنفسهم كالبنات ويتلبّسون بالكذب، مدّعين أن لهم الحسنى حياة وعاقبة والواقع أنّهم سائرون إلى النار لا محالة.

﴿تَاللّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ وها قد سبقت أمم أضلّها الشيطان عن إطاعة رسل الله وتولاّها

وساقها نحو الضلال، ومازال يقودها حين نزول الآية ليوردها العذاب الأليم.

﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾﴾ وقد ابتليت تلك الأمم بتفاسير واختلافات ونزاعات، وجاء هذا الكتاب ليوضّح لها الموقف الحقّ ويهدي هذه الأمّة رحمة بها إلى أفضل مسير ومصير على صراط مستقيم.

﴿وَاللّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾﴾ ويعود القرآن إلى تعداد النعم الإلهيّة على الإنسان فيتحدّث هنا عن خاصّيّة الإحياء التي يملكها الماء النازل من السماء، فبعد أن تبدو الأرض وقد أماتها الجفاف إذا بها يحييها المطر بإذن الله، وطبيعيّ أن الإنسان إذا أصغى لمثل هذا المعنى آمن بإمكان إحياء الموتى للبعث.

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِلشَّارِبِينَ ﴿٦٦﴾﴾ ونعمة الأنعام تملك دلالاتها هي الأخرى، ليتساءل المرء عن روعة التناسق بين الإنتاج الحيوانيّ والحاجة الإنسانيّة. فهذا اللبن الخالص السائغ للشاربين ينتج من بين فرث يحتوي عليه الكرش ودم يجري في الشرايين والأوردة لكنه يتميّز بينهما بطعمه السائغ وخواصه المغذية، ودونما شائبة من طعمهما أو رائحتهما، لينمّي الجسم الإنسانيّ بخواصّه.

﴿وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ ونعمة النخيل والأعناب هي الأخرى مجال للتعقّل من خلال انسجامها مع حاجة الإنسان إلى الرزق الحسن، وربما استفيد منها مايؤدّي إلى إسكار العقل (الخمر) (ولعل في هذا أول خطوة باتجاه التحريم بعد جعله في مقابل الرزق الحسن).

﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾﴾ ومقطع آخر من عظمة الخلقة يتجلّى في النحل هذا الموجود الصغير العجيب. إذ ألهمها الله بفطرتها كيفيّة بناء بيوتها وخلاياها في مختلف الأماكن، في الجبال وعلى الشجر وفي عروش الكروم وغيرها.

﴿ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاء لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾﴾ ثمّ هاهي تنطلق إلى كل الثمرات المتنوّعة والممثّلة في أول أمرها بأزهارها لتسلك طريقها عائدة إلى خلاياها لتودّع ماتحوّل في بطونها من عسل تختلف ألوانه، حاوياً الشفاء للناس. ويلاحظ بدقّة هذا الانسجام

الرائع بين هذه السوائل (الماء، اللبن، عطاء الأنعام من الرزق الحسن، والعسل) وبين تركيبة بدن الإنسان وحاجاته. مما يدفع إلى مزيد من التفكير والتدبّر.

﴿وَاللّه خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لاَ يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللّه عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾ ثمّ هاهي خلقة الإنسان ومسيرته التكوينيّة العجيبة من النطفة ومراحل حياته ونموّه الجسديّ والفكريّ ليصل إلى مستويات من العلم ثمّ قد تعرض الوفاة فيفقد قدراته الحياتيّة أو يسير نحو الشيخوخة بحيث يفقد علمه تماماً، هذه المسيرة تكشف بوضوح عن عظمة الخالق وعلمه وقدرته.

﴿وَاللّه فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الْرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُواْ بِرَآدِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاء أَفَبِنِعْمَةِ اللّه يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾﴾ ثمّ هذا التفاضل في الرزق آية من آيات الله تحقّق غرضاً حياتيّاً، وربما أُسيء استخدام هذا الأمر، فلم يحاول ذوو اليسار أن يردّوا مارزقهم الله على ماملكت أيمانهم من رقيق ليكونوا مثلهم سواء في مستوى المعيشة. فيجب عدم الجحود والإنكار للوازم النعم. وفي ذلك بيان لوجوب إشاعة العدل والمساواة المنصفة.

﴿وَاللّه جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللّه هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾﴾ ثمّ هذه الصلة بين الجنسين الزوج والزوجة وما ينتج من بنين وحفدة والرزق الإلهيّ الطيّب لمدّ هذه المسيرة المتنامية وكلها نعم إلهيّة يجب ان تشكر لا أن يتمّ الإيمان بالباطلوالكفر بهذه النعم.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّه مَا لاَ يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ شَيْئًا وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾﴾ إنّه الانحراف الكبير أن يشاهد الإنسان كل هذه النعم التي يستحيل أن تجتمع دون تخطيط عظيم، ثمّ يدين بالعبوديّة لمخلوقات لا تملك له رزقاً من السماوات والأرض ولا تستطيع أن تفعل شيئاً.

﴿فَلاَ تَضْرِبُواْ لِلّه الأَمْثَالَ إِنَّ اللّه يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾﴾ إنهم يحاولون أن يمثّلوا الله ويصفوه تشبيهاً له بهذه المخلوقات وهذا جهل مطبق لا يقاس إلى علم الله مطلقاً.

إنّهم بهذا يقعون في قياس باطل وتشبيه مرفوض.

﴿ضَرَبَ اللّه مَثَلاً عَبْدًا مَّمْلُوكًا لاَّ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ

يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ ترى هل يمكننا أن نقيس ـ مثلاً ـ عبداً مملوكاً لا قدرة له على إنسان آخر يمتلك أمره، وقد رزقه الله الرزق الحسن فهو ينفق منه في السر والعلن؟ إنّه قياس المعدم من كل شيء إلى الغنيّ القادر على كثير من الأشياء، وهو عمل الجاهلين.

﴿وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لاَ يَقْدِرُ عَلَىَ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لاَ يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾ وهل يمكننا أن نساوي بين رجل أبكم لا ينطق ولا يسمع ولا يفهم ولا يقدر على شيء، يعيش ثقلاً على كاهل مولاه، وأينما يوجهه ليعمل يعود خالي الوفاض وصفر اليدين، وبين من يملك قدرات خيّرة فهو يأمر بالعدل وهو يمشي في حياته متوازناً وعلى صراط مستقيم؟ إنّه قياس واضح البطلان.

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلاَّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾﴾ إنّ له تعالى غيب السماوات والأرض فهو مالك كل شيء ظهر أوغاب، ومن الغيب أمر الساعة وقيام القيامة وما أمرها إلاّ كلمح البصر أو أقرب من ذلك زيادة في تشبيه سهولة الأمر عليه؛ لأنه تعالى القادر المطلق، والأشياء جميعاً بالنسبة إليه سواء.

﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ الْسَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ عود إلى تعداد بعض النعم الإلهيّة التي تخفى على الإنسان ولكنها من الغيب المملوك لله، ومن فضل الله على الإنسان دون أن يعلمه. فها هو الإنسان يخرج من بطن أمه لا يعلم شيئاً ، ولكن اللطف الإلهيّ يمّن عليه بوسائل المعرفة: السمع والبصر والفؤاد وهو القلب واللب لعلّه يعرف ويتعلّم ويشكر الله على هذه النعم.

﴿أَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاء مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ اللهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾﴾ وحركة الطيور المسخّرة في الأعالي والمتحرّكة وفق قوانين الله حركة تبعث على التأمّل والإيمان بالعظمة الإلهيّة التي نظّمتها.

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ ﴿٨٠﴾﴾ والاستقرار في المسكن والاستفادة من جلود الأنعام بيوتاً وخياماً خفيفة الحمل حين الإقامة

وأثناء التنقّل (الظعن) ومن أصوافها وأشعارها للأثاث والمتاع، كل ذلك يعبّر عن نعم إلهيّة، تكشف عن التناسب بين الحاجة الإنسانيّة والمنتج الحيواني.

﴿وَاللّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلاَلاً وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾ وكذلك يجد الإنسان في الظلال راحة وتسكيناً وفي أكنان الجبال وكهوفها وفي السرابيل والألبسة والأغطية والسرابيل التي تحفظ الإنسان من الصدمات كالدروع، يجد راحته وطمانينته ويشعر بنعمة الله عليه إذ هيّأ له كل هذه الظواهر بما فيها من نتائج ضروريّة لحياته وفق تخطيط دقيق، كي يسلّم لله ويشكره على نعمه. وهكذا نجد القرآن الكريم يستعرض الظواهر الكونية التي تمهد للحياة الإنسانية الهائئة ليستطيع الإنسان أن يطوى طريق تكامله.. وإنه من الضلال الكبير أن يلاحظ الإنسان كل هذه النعم وكل هذا التناسق العجيب بين هذه الظواهر مع الحاجات الإنسانية ثم لا يؤمن بالخالق العظيم ولا يسلم له.

﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ ﴿٨٢﴾﴾ أما إذا أُصيب الإنسان بداء العناد، وتولّى عن ذكر الله فلا معنى للأسى عليه، بعد أن قام الرسول بوظيفته من البلاغ الواضح.

﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٣﴾﴾ إنّهم يعرفون نعم الله ويدفعهم عنادهم لإنكارها عملاً، وربما ابتلي بعضهم بالكفر بها وبلوازمها نظريّاً وهم الأكثريّة.

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لاَ يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ وَلاَ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾ وَإِذَا رَأى الَّذِينَ ظَلَمُواْ الْعَذَابَ فَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ وسوف تأتي الأمم يوم القيامة ومعها شهداء عليها منها، عاشوا معها ورأوا سلوكها، وقد يكونون من الأنبياء أو الأوصياء وباقي الأئمة والقادة. وحينئذ فلا يؤذن لها في يوم الجزاء بالكلام والاعتذار بعد هذه الشهادات الحسيّة، كما لا مجال أيضاً للاستعتاب يوم الجزاء وطلب الرجوع للدنيا والعمل بأوامر الله، ولا مجال للمساومة والتخفيف والإمهال.

﴿وَإِذَا رَأى الَّذِينَ أَشْرَكُواْ شُرَكَاءهُمْ قَالُواْ رَبَّنَا هَؤُلاء شُرَكَآؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوْ مِن دُونِكَ فَألْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَأَلْقَوْاْ إِلَى اللّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾﴾ وحين يرى المشركون أولئك الشركاء المزعومين لله وهم يواجهونهم

بأنّهم كذّبوا في مقولتهم، يعود هؤلاء لله، وهم يشعرون بمدى الضّلال الذي كانوا فيه، ويدركون أن ماكانوا يفترونه وَهْمٌ باطل لا غير.

﴿الَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ اللّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾﴾ ومن الكافرين من لم يكتفوا بظلمهم لأنفسهم وكفرهم، بل راحوا يقفون في وجه الدعوة ويصدّون عن سبيل الله فاستحقّوا العذاب المضاعف نتيجة هذا الإفساد.

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلاء وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾ تأكيد لما سبق من ذكر الشهداء على الأمم تمهيداً لذكر شهادة الرسول على هذه الأمّة، فهي تقطع الحجّة وتنفي الاعتذار خصوصاً بعد أن جاءهم بالقرآن تبياناً لكل شيء يحتاجونه بشكل عام لبدء مسيرتهم الإيمانيّة وصنع حضارتهم ورحمة وبشارة للمؤمنين به بأنهم سيغيّرون التاريخ إذا عملوا به وصاروا شهداء على الأمم.

﴿إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾﴾ بيان لبعض الخطوط العامّة للتعاليم الإسلاميّة التي جاء بها الكتاب الكريم تبياناً وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين. وتشمل:

العدل: قاعدة عامةتقوم عليها كل الأحكام والقوانين في المجتمع الإسلامي.

ثم الإحسان: وهو أوسع مدلولاً من حيث المصاديق وفيه إضافة أخرى، إذ يعني التفضّل وعمل الخير للآخرين دون انتظار المقابل أو زيادة الإحسان لقاء عمل الآخرين أو العفو عن إساءتهم.

وإيتاء ذي القربى: ويعني القيام بحقوقهم والإحسان إليهم وتوثيق الصلات بهم؛ لأنّهم دائرة التماسك الأولى في المجتمع.

والنهي عن الفحشاء: (وهي ماعظم قبحه) والمنكر (وهو ماينكره المجتمع وشريعته) والبغي (الظلم). وهي المقولات المهمّة للوعظ الإلهيّ لهذه الأمّة.

﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ اللّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلاَ تَنقُضُواْ الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ اللّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾﴾ والوفاء بعهود الله: صفة عامّة لمجتمع المتّقين، وهو بالتالي

يؤدّي للالتزام الكامل بمقتضى الإيمان وأنواع القسم ولايتمّ إلاّ بالله، ونقض الأيمان المؤكّدة أشدّ من عدم الوفاء بالعهد؛ لأنّ الإنسان قد جعل الله كفيلاً عليه، والله تعالى عليم بما يفعله.

﴿وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾﴾ تاكيد للوفاء بالعهد وتشبيه للناكثين للعهود بامراة سفيهة تفتل غزلها ثمّ تعود لتنقضه، ودفع لعدم اتخاذ الأيمان وسيلة للغدر والخيانة، سعياً لكسب الأرباح وإغناء مجموعة وترجيحها على أخرى. وسيمتحن الله التزام المؤمنين بالعهد واليمين، ويحاسب أولئك المتخلّفين والمختلفين على الحطام.

وبشكل عام، فالقرآن يؤكّد على ضرورة التزام الأمّة بالعهد الإلهيّ وبعناصر القوّة والمنعة، وعدم نقضها بالفرقة والمعصية.

﴿وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلكِن يُضِلُّ مَن يَشَاء وَيَهْدِي مَن يَشَاء وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ هكذا شاء الله أن تختلف الاستعدادات وتختلف الاستجابات لأوامر الله، ويوم القيامة يكون السؤال والجزاء، وما دامت المساءلة موجودة فالإضلال والهداية إنما تكون بعد اختيار الإنسان لطريقهما واستعداده لهما.

﴿وَلاَ تَتَّخِذُواْ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ الْسُّوءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾﴾ إنّ اليمين علامة مقدّسة على الصدق. فإذا اتّخذت وسيلة للغش والخديعة كان ذلك أدعى للانحراف وزلل الأقدام، بعد أن كان المفروض أن تثبت على الخطّ. والزلل وقوع في السوء، وتشويه للإيمان، وإشاعة للتحايل وعدم الثقة وانحراف عن السبيل القويم وتعريض للنفس والمجتمع للعذاب العظيم.

﴿وَلاَ تَشْتَرُواْ بِعَهْدِ اللّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً إِنَّمَا عِندَ اللّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾﴾ إنّ العهد الذي منحه العبد لربّه عبر إسلامه وعبر تأكيده له بالقسم عهد عظيم لا يقدّر بثمن، فكيف به وهو يستخدم لمصالح مادّيّة ضيّقة زائلة لا قيمة لها في قبال ما أعدّه الله للمؤمنين الثابتين على الخطّ من عطاء خالد.

﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُواْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ

يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ ويستمرّ القرآن في التذكير بعظمة العهد المعطى لله، وعظمة النتائج التي تترتّب على الثبات على الخطّ والالتزام بالعهد بالتذكير المؤكد على المقارنة بين المنافع الدنيويّة الزائلة والعطاء الأخرويّ الخالد. فالصبر والثبات هو المطلوب للوصول إلى النتائج الحسنة الخالدة.

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ وإذا كانت هناك بعض الاختلافات في الوظائف الاجتماعيّة والجسميّة فإنه لا فرق بين الجنسين الذكر والأنثى في مجال إمكان التكامل الإنسانيّ عبر العمل الصالح شريطة توفّر عنصر الإيمان. وحينئذ فالنتيجة هي الحياة الطيبّة التي ينشدها الإنسان ـ ذكراً أو أنثى ـ بفطرته وشوقه نحو الكمال والسعادة في الدنيا ، والثواب في الآخرة المناسب لأفضل ما عملوا، منّة وكرماً منه، (فالمعيار في الثواب هو أفضل الأعمال دون غيرها). وهكذا يرسّخ القرآن النظرة الإيجابيّة وعدم الاستهانة بالمرأة التي اضطهدت في كثير من الحضارات والعصور.

﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللّه مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾﴾ إنّ القرآن الكريم وسيلة الهداية والتربية والثبات على الصراط المستقيم شريطة التوجّه لمعانيه والتفاعل الوجدانيّ معه. ولا ريب أنّ الشيطان يعمل على الوسوسة والإلهاء. ومن هنا فعلى من يقرأ القرآن لينهل من نميره أن يلجأ لله ويتوكّل عليه ويتعوّذ به من الشيطان الغويّ الرجيم.

﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ ذلك أنّه لا تأثير للشيطان على المؤمنين المتوكّلين على الله. وهو إنما يترك أثره في النفوس التي تفسح المجال له وتتولاّه وتشركه في عبادة الله.

﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللّه أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُواْ إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾﴾ ومن إلقاءات الشيطان أن يبعث المشركين للتشكيك في النسب الإلهيّ للقرآن، واتّهام الرسول بالافتراء حينما يبدل الله آية مكان آية أو ينسخها لانتهاء وقتها واحتياج الأمّة للآية البديل ـ وفق علم الله ـ.

﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ إنّها الحقيقة الواضحة فالمنزل هو جبرئيل مبلغاً كلام الله إلى الرسول بالحقّ، حاملاً الثبات القلبيّ للمؤمنين والهدى والبشرى للمسلمين المنقادين لهذا الحقّ.

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾ ومن تشكيكات المشركين في القرآن ونسبته إلى الله تعالى ادّعاؤهم أنّ الرسول ﷺ يتعلّمه من بشر وهو غلام روميّ في مكة. ويأتي الردّ واضحاً أنّ لغة المشار اليه أعجمية (رومية) فكيف تأتي بقرآن عربي في هذا الحدّ من الإعجاز في ألفاظه ومعانيه.

﴿إِنَّ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللّهِ لاَ يَهْدِيهِمُ اللّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾﴾ وإنْ أريد به أنّه ﷺ كان يتلقّى المعاني من هذا الرجل الأعجميّ ويصوغها بهذا الشكل المعجز، فجوابهم أنّ هذا القرآن المعجزة في ألفاظه ومعانيه الخالدة على مرّ الزمن هو من عند الله، والله تعالى لا يجري المعجزة على يد الكاذب (فهذا أمر مستحيل عقلاً) ولا يهديه إلى هذه الألفاظ والمعاني الخالدة بل له العذاب الأليم.

﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللّهِ وَأُوْلئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ إنّ الرسول العظيم هو المؤمن الصادق، ويشهد على ذلك تاريخه الناصع ومظاهر إيمانه القاطع وإعجاز القرآن ودلالته على أنّه كان يتلقّاه بكل إيمان وتعبّد وخضوع، أما الكذب فلا يأتي به إلاّ غير المؤمنين.

﴿مَن كَفَرَ بِاللّهِ مِن بَعْدِ إيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾﴾ إنّ للإيمان حلاوة روحيّة عالية تشد النفس إليها فتستهين بالمصاعب والشدائد في سبيله، وقد يشتدّ الضغط فلا يجد المؤمن إلاّ أن يظهر الكفر بلسانه ـ تقيّة ـ مع بقاء قلبه على الإيمان مطمئنّاً ثابتاً ـ كما حدث لعمار بن ياسر أثناء تعذيبه في حين يستولي الضعف على بعض النفوس فترتدّ إلى الكفر وحينئذ تستحقّ العذاب العظيم؛ لأنّها لم تستجب للضغط بقدره بل انهارت تماماً بعد أن ذاقت حلاوة الإيمان من قبل.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّواْ الْحَيَاةَ الْدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ وَأَنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ وهذا الانهيار النفسيّ والاستسلام للكفر إنما هو نتيجة عدم التسامي على الرغبات الدانية والانغماس في حب الحياة الدنيا وترجيحها على الآخرة.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لاَ جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرونَ ﴿١٠٩﴾﴾ وهكذا كانت عاقبة الاستسلام للشهوات الدنيا أن طبع على قلوبهم فهي غافلة وعلى أسماعهم، فهي صمّاء وعلى أبصارهم فهي عمياء، وكان الخسران الأخرويّ نتيجة طبيعيّة لذلك.

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِن بَعْدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَاهَدُواْ وَصَبَرُواْ إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾ أمّا من فتنوا واستسلموا ـ لفترة ـ للضغوط، ولكنّهم عادوا إلى الحقّ مخلصين واثبتوا ذلك بأن هاجروا وجاهدوا وصبروا فإن لطف الله وغفرانه يشملهم والله هو الغفور الرحيم.

﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾﴾ إنّه يوم الحشر والحساب، حيث تنشغل النفوس في الدفاع عن ما عملته في الدنيا. وتقتضي العدالة الإلهيّة ـ مهما كان الدفاع والجدال ـ أن تجازى كل نفس وفق عملها دونما تنقيص وظلم.

﴿وَضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللّهِ فَأَذَاقَهَا اللّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾﴾ مثل قرآنيّ يتناسب مع حال أهل مكّة يذكّرهم بالنعم الإلهيّة التي ينعمون بها في بيئة يسودها الخوف والجوع. وبدلاً من أن يشكروا الله على هذه النعم فإن أهل هذه القرية (البلد) يتخذون سبيل الكفر والعناد فيبتلون بعذاب الجوع والخوف.

ومثَل الشكر والكفر جار في كل أمّة وكل زمان ومكان، فهل من معتبر؟!

﴿وَلَقَدْ جَاءهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١١٣﴾﴾ وهاهي رحمة الله تشملهم، فتبعث فيهم رسولاً منهم يعرفونه بالأمانة والصدق، لينقذهم من حيرة الضلالة، ويقودهم إلى العلاء، ويكمل لهم النعم، لكنهم يتمادون ويكذبونه ظلماً وطغياناً فيشملهم العذاب.

﴿فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللّهُ حَلالاً طَيِّبًا وَاشْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾﴾ وبعد هذا المثل يطلب القرآن من مخاطبيه أن ينعموا برزق الله الحلال الطيّب، ويشكروا هذه النعمة الإلهيّة في إطار تقديم الطاعة والعبوديّة لله والحياة في ظل أوامره ونواهيه.

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ اللّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾ فالطيّبات هي المحلّلة والخبائث كالميتة والدم ولحم الخنزير وما ذبح لغير الله هي المحرّمة، إكراماً للإنسان وصوناً له من الأذى وانسجاماً مع الفطرة، فيجب الالتزام بهذه النواهي إلاّ أن يضطر الإنسان فقد يسّر الله عليه وسمح له بتناول هذه المحرّمات شريطة أن لا يكون اضطراره نتيجة عدوان وبغي وتجاوز.

﴿وَلاَ تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلاَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ

إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ إنّ علم الله ولطفه هما منطلق التحليل والتحريم الذين يجب أن ينظّم الإنسان حياته كلها وفقهما. ولا يجوز أن يشرّع الإنسان لنفسه فيحرّم أو يحلّل وفق هواه وعاداته ثمّ ينسب ذلك إلى الله كذباً وبهتاناً، فإن ذلك يعني الخسران والضياع.

﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾ فقد يؤدّي هذا الانفلات إلى شيء من التمتّع القليل، ولكنه يؤدّي بالتالي إلى العذاب الأليم.

﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَـكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾﴾ ولما كان اليهود قد ظلموا أنفسهم فقد عوقبوا بتحريم بعض الأمور عليهم بالخصوص، فلا يسري ذلك على المسلمين.

والآية تؤكّد على العدالة الإلهيّة في التشريع.

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُواْ مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُواْ إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾﴾ التوبة باب مفتوح للأفراد والأمم، ومصدر للأمل للمسلم، يدفعه للعودة إلى الحقّ دائماً والخلاص من تبعات الجهالة التي أوقعته في العمل السيّئ. ولابد بعد الوعي والعودة إلى الله من إصلاح الخلل وإعادة الأمور إلى نصابها، ليعود الله بعد التوبة على العبد بالغفران والرحمة.

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ ويعود القرآن للحديث عن النموذج التوحيديّ السامي وهو إبراهيم ليربط المسلمين به بقوّة. فلقد كان لوحده أمّة وكان مطيعاً لله بكل إخلاص (حنيفاً) وإماماً للموحّدين العابدين الوسطيّين المتوازنين في حياتهم البعيدين عن الشرك والمشركين.

﴿شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾﴾ وكان الشكر صفة وعلامة له، فاختاره الله ليكون نموذجاً للشاكرين وربّاه وهداه إلى صراط مستقيم.

﴿وَآتَيْنَاهُ فِي الْدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٢٢﴾﴾ ولما كان من الشاكرين المهتدين فإن الله وهب إبراهيم في الدنيا معيشةً حسنةً وهو في الآخرة من الصالحين، فله إذن جزاؤهم.

﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ وهكذا

يرتبط هذا الدين ورسوله بملّة إبراهيم ودينه القويم، ليكون دين التوحيد والشكر والطاعة لله، والوسطيّة الحنيفيّة والهدى والصلاح، بعيداً عن الشرك والضياع.

﴿إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾﴾ وتحريم العمل في يوم السبت هو من ديانة اليهود الذين اختلفوا فيه، فمنهم من قبله ومنهم من ردّه وليس من ملّة إبراهيم ولا شريعة الإسلام، والله هو الحاكم والحكم في هذه الموارد يوم القيامة.

﴿ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ إنّ هذه الرسالة هي رسالة الله والصراط المستقيم، فليعلن الرسول دعوته إليها بالحكمة (أي الحجّة القويّة والأسلوب القويم المناسب لحال المخاطب) والموعظة (أي البيان الهادي للحقّ والذي يرقّ به القلب وينسجم مع الفطرة) والحوار بالتي هي أحسن وهو منطق الإنسان السليم، وأسلوب المسلم يلتزم به دون تسرّع في الحكم بالضلالة أو الهداية، فكلاهما علمه الواقعيّ عند الله تعالى. وهكذا يضع القرآن أسس الحوار السليم.

﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرينَ ﴿١٢٦﴾﴾ وفي قمة التعامل الحضاريّ العادل يطلب القرآن أن يعاقب المشركون بمثل أعمالهم هم دون الانسياق للمشاعر أو زهوة النصر، ولكن الصبر أجدى وأكثر خيراً وأثراً طيّباً.

﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللّهِ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلاَ تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ والصبر تربية للإرادة الواعية ولطف إلهيّ بالمؤمن ، وثبات على الحقّ يؤمر به الرسول وأتباعه بالطبع دون اكتراث لخطّ الباطل واهتمام بمكره وألاعيبه، وإن كان ذلك لايعفي من الحيطة والحذر.

﴿إِنَّ اللّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ وتختم السورة بهذا التوجيه العام للمؤمنين أن يدركوا بكل وضوح أن الله معهم بكل قدرته ولطفه ماداموا على خطّ التقوى والإحسان.

سورة الإسراء (١٧)

آياتها ١١١

بِسْمِ اللَّه الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ ﴿١﴾﴾ الإسراء حادثة ورحلة عجيبة وقعت ليلاً للرسول ﷺ من المسجد الحرام في مكّة إلى المسجد الأقصى في بيت المقدس، قبل الهجرة. وهناك أخبار بتكرر هذه الحادثة، واختلف العلماء في كيفيّته وكيفيّة المعراج الذي تمّ بعده من المسجد الاقصى ـ المبارك هو وما حوله باعتباره أرض الرسالات ـ إلى السماء وجاءت فيهما أخبار كثيرة. ونحن نجيز فيه مايجيزه العقل القطعيّ دون ذلك، ونمشي فيه مع الظواهر إذا قويت الأسناد. وعلى أي حال فإنّه يكشف عن سمو نفسي رفيع له ﷺ وعن اختصاص له بالكرامة ورؤية أسرار الخلق وآيات الله. ويبقى متمتعاً بأعلى صفة وهي (العبوديّة).

﴿وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلاَّ تَتَّخِذُواْ مِن دُونِي وَكِيلاً ﴿٢﴾﴾ والكتاب هوالشريعة التي أُعطيت لبني إسرائيل لتهديهم إلى الحياة الأمثل، حياة العبوديّة لله والاتكال عليه وحده.

﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾﴾ وهكذا يستمر الهدي الإلهيّ لينظّم حياة ذريّة المؤمنين الذين حملهم نوح بأمر الله معه في سفينته، أجيالاً بعد أجيال عناية مستمرّة من الله بعبيده المؤمنين، وجزاء لخطّ النبوّة العابد الشاكر لأنعم الله.

﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾﴾ لقد قضى الله لبني إسرائيل في التوراة أنّهم سيفسدون في الأرض مرّتين وسيستكبرون ويعلون ويسيطرون على فلسطين مفسدين طاغين. وبكل أسى فقد عاش بنو إسرائيل على العموم تاريخاً استكبارياً وادعوا أنّهم شعب الله المختار، وأورثهم ذلك حقداً وشغباً حتّى مع أنبيائهم ورسلهم فكيف بالآخرين.

﴿فَإِذَا جَاء وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلاَلَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولاً ﴿٥﴾﴾ وعندما تحين المرّة الأولى يبعث الله عليهم عباداً أقوياء

ينتقمون من بني إسرائيل، ويستبيحون طول البلاد وعرضها وكان ذلك أمراً محتماً.

﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾﴾ وحين يتعالى طغيان هذه الجماعات ويرجع بنو إسرائيل إلى الله ويصلحون أمرهم يردّ الله لهم القوّة البشريّة والماليّة والتعبويّة ليطردوا الظالمين.

﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاء وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُوؤُواْ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُواْ الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوْاْ تَتْبِيرًا ﴿٧﴾﴾ وهذه حقيقة يجب أن تعيها البشريّة وان كان الخطاب متوجهاً لبني إسرائيل، ذلك أن الإحسان والصلاح يعود لنفس المحسن في الدنيا أو في الآخرة، وكذلك الإساءة، وبذلك ينتفي التعارض في منطق المؤمن بين المصالح الذاتيّة والمصالح الاجتماعيّة.

وعندما يعود الإسرائيليون للفساد مرّة أخرى تهاجمهم الجيوش الجبّارة وتذلّهم، وتدخل المسجد رمزاً لكل فلسطين وتشوّه صورتهم ووجوههم وتدمّر وتتبّر كيانهم تدميراً وفي هذه الآيات وتحديد نوع الفساد ومصيره أقوال وآراء تترك للمطوّلات.

﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾﴾ إنّ الله تعالى رحيم بعباده، ولكنّهم أحياناً ينحرفون عن الخطّ السليم فيستحقّون العذاب، وهكذا يأتي التهديد لبني إسرائيل أن لايعودوا إلى الفساد وإلاّ ابتلوا من جديد بالعذاب، وحوصروا بجهنم. وهاهم يعودون للفساد اليوم بأبشع صوره وإذا بهم جزء من مشروع عدائيّ يستهدف وجود الأمّة من خلال زرعه في المنطقة. ولاحّل إلاّ بالعودة إلى حبل الله والوحدة والابتعاد عن الفرقة. فنسأل الله أن يحطِّم شوكتهم وشوكة من يعينهم.

﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يِهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وأَنَّ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾﴾ والقرآن الكريم هدي آخر من الكتب السماويّة الهادية. إلاّ أنّه الكتاب الأخير الجامع الذي يطرح الصيغة الأقوم والأمثل والأكمل على الإطلاق، وفي كل شؤون الإنسان ولجميع الأجيال فيهديها للعلاء. وفي الآيات التالية نماذج رائعة لما هو أقوم نفسيّاً واجتماعيّاً إن هي التزمت خطّ الإيمان وإلاّ فالعذاب الأليم في الانتظار.

﴿وَيَدْعُ الإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً ﴿١١﴾﴾ هذه هي الحقيقة التي يجب أن يتفهّمها الإنسان عبر التأمل والتدبّر، ولكنّ الإنسان غير المتبصّر يسير مع هواه وأحاسيسه العمياء فيسأل الله الشرّ والخير، متخبّطاً عجولاً دونما رويّة.

﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً ﴿١٢﴾﴾ وهنا يعود القرآن لتركيز العقيدة وإعادة التوازن لهذا الإنسان العجول، مذكراً له بآيات الله في الكون وبالتوازن والترابط فيه، ومنها ظاهرتا الليل والنهار وهما رمزا الظلام والنور المتعاقبان في غاية الدقّة والانضباط، وهما تعطيان الحياة الإنسانيّة تلوّناً وتغايراً، وتشبعان فيه الحاجة للنشاط والراحة معاً، كما تعيّنان له الوحدات الزمنية لينظم حياتّه ويستمرّ في عمله لإعمار الأرض، وهكذا تقوم كل الظواهر الكونيّة وبدقّة متناهية بواجباتها وليحيا الإنسان بوعي في إطار هذا الكون، متأمّلاً منسجماً منضبطاً دونما عجلةٍ أو خمول.

﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَآئِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾﴾ ويسري هذا الانضباط إلى عمل الإنسان الذي يلازمه في مسيرته وينفتح أمامه يوم القيامة كتاباً منشوراً، فلا إهمال ولا باطل في الكون.

﴿اقْرَأْ كَتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾ وهناك تنقطع الحجّة ويعود الإنسان حسيباً على نفسه. حين يواجه الحقائق بكل وضوح.

﴿مَّنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴿١٥﴾﴾ تأكيد مجدّد على الحقيقة السابقة فالهدى والضلال يعودان للإنسان، وعليه فلا تتحمّل نفس وزرغيرها بعد ان توضّح الحقّ للجميع ببعثة الرسل وبدون وضوح الطريق لا معنى للتعذيب.

﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾﴾ هناك رابطة بين شيوع الترف والفسق والهلاك، فالمترفون في العادة يتمرّدون على الأوامر حفاظاً على مصالحهم الآنيّة، مما يتطلّب العمل على مواجهته.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿١٧﴾﴾

ومسيرة التاريخ تؤكّد حقيقة هلاك الأمم بذنوبها، والله تعالى هو الخبير البصير بما يفعلون؛ لأنّهم عباده وخلقه.

﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاء لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾﴾ والذين ابتلوا بقصر النظرة يركّزون على هذه الحياة العاجلة ولذّاتها الفانية، وحينئذ وبقدر ما تتعلّق به المشيئة والإرادة الإلهيّة في المقدار أو الأفراد، يعطون مرادهم ويغرقون في غواياتها، ولا عاقبة لهم في الآخرة إلاّ النار يصلونها مذمومين مطرودين.

﴿وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾﴾ أمّا من اختار سبيل التكامل سبيل الآخرة، وقام بلوازم هذا الاختيار إيماناً واحتساباً وطاعة لله، فقد استحقّ العطاء الإلهيّ نتيجة سعيه المطلوب.

﴿كُلاًّ نُّمِدُّ هَؤُلاء وَهَؤُلاء مِنْ عَطَاء رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاء رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾﴾ إنّ اللطف الإلهيّ غامر بلا منع وحظر يمدّ الجميع، مؤمنهم وكافرهم، ويحقّق للإرادة الإنسانيّة ما تريد، وللحياة أن تمتدّ لينتخب كل إنسان ما يريد، ويستمرّ التنافس والصراع.

﴿انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً ﴿٢١﴾﴾ وكما يتنافس الجميع على اختلاف طاقاتهم في كسب الرزق، فيتفاوتون في الدنيا، فإن التفاوت حاصل في الآخرة، نتيجة اختلاف مستويات العمل لها، وواضح أن درجات الآخرة أعظم وأسمى من التفاضل الدنيويّ.

﴿لاَّ تَجْعَل مَعَ اللّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولاً ﴿٢٢﴾﴾ إنّ الشرك يعني الانفصال عن الحقيقة، ويعني فقدان التوازن الحياتيّ ويعني الإيمان بالاصنام الموهومة المقيّدة لمسيرة التكامل ويعني غير ذلك مما يمزّق الحياة، ويدع الإنسان فريسة للذمّ والخذلان.

﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا ﴿٢٣﴾﴾ وإنّ التوحيد في العبادة أساس المسيرة المتوازنة والعلاقات الطبيعيّة الفطريّة حيث تأتي الرابطة الاسريّة بشكل طبيعيّ، مترتّبة على الرابطة العقائديّة. فيدعو القرآن إلى الإحسان بالوالدين، ويستثير العواطف بالتذكير بصفة الوالديّة ولوازمها، ويزداد التأكيد حينما يبلغ الوالدان أو أحدهما

سنّاً متقدّمة قد تشكّل عبئاً على الأولاد، فيأتي النهي حتّى عن التأفيف والنهر والزجر وكل ماينمّ عن عدم الاحترام، وإنما الأمر بالقول الكريم الرحيم.

﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ وخفض الجناح مبالغة في التواضع، وهكذا يجب أن يكون الأبناء غاية في الرحمة والتواضع، داعين الله للوالدين بالرحمة جزاء على مابذلاه من أتعاب التربية حينما كانوا صغاراً ولا يقوون على شيء.

﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُواْ صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾﴾ إنّ الإيمان الأصيل هو النافذ إلى النفوس، والموجّه للقلوب وبالتالي الجوارح، وعلم الله نافذ للأعماق وبالتالي يستحقّ الصادقون فقط أن يشملهم الغفران الإلهيّ عند التوبة والعودة عن أي تقصير بحقّ الوالدين.

﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلاَ تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُواْ إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴿٢٧﴾﴾ وبعد الوالدين يأتي التذكير بالحقوق العائليّة الواسعة، ثمّ الحقوق الاجتماعيّة الأوسع للمساكين، وأبناء السبيل (المنقطعين عن أهلهم وبلدهم)، وقد روي ان النبي ﷺ بعدما نزلت هذه الآية أعطى فدكاً لفاطمة[١] ثمّ جاء النهي عن تبذير الثروة واضاعتها وحرمان المجتمع منها، فإنّه عمل شيطاني كافر.

﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاء رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلاً مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾﴾ وعندما لا يجد الإنسان ما ينفقه على المحتاجين ويضطرّ للإعراض عنهم مع أمل في التمكّن، فإن ذلك يجب أن يتمّ بأسلوب أخلاقيّ وبأقوال ليّنة وليعدهم إلى ميسرة.

﴿وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾﴾ واستمراراً في إيجاد الشخصية المتوازنة ينهى القرآن عن البخل من جهة وعن الإنفاق حتّى لا يُبقي لديه شيئاً من جهة أخرى لئلاّ يبقى الفرد يعيش حالة اللوم والضعف والانحسار وعدم الاستمرار في النشاط الإجتماعيّ.

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاء وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾﴾ والتفاوت

---

١. راجع شواهد التنزيل للحاكم الحسكاني (ج ١ ص ٤٣٩) ومجمع الزوائد للهيثمي (ج ٧ ص ٤٩)، ومسند أبي يعلى (ج ٢ ص ٣٣٤) وكنز العمال للمتقي ج ٣ ص ٧٦٧، الاحتجاج للطبرسي (ج ١ ص ١١٩) وغيرها.

في الرزق سنّة ولطف بالعباد؛ لأنّه دافع نحو النشاط والعمل. فلا معنى للبخل والتبذير مادام الرزق بيد الله.

﴿وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُم إنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْءًا كَبِيرًا ﴿٣١﴾﴾ كما أنّه لا علاقة بين الفقر وكثرة النسل بعد أن كان الله هو الرازق. ومن هنا يأتي التشديد في النهي والإنكار على من يئدون ويقتلون أولادهم خشية الإملاق والفقر، فإنه عمل خاطئ وتصوّر باطل.

﴿وَلاَ تَقْرَبُواْ الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاء سَبِيلاً ﴿٣٢﴾﴾ ويستمرّ القرآن في رفض التصوّرات الخاطئة، الممزّقة للنسيج الاجتماعيّ السليم بالنهي عن الزنا، بل النهي عن القرب منه؛ لأنّه يعني الإشباع الحيوانيّ الأعمى لغريزة أريد منها أن تكون أساساً لقيام العائلة وهي وحدة البناء الاجتماعيّ الأولى في التصوّر الإسلاميّ، وعليها قامت نظريّاته الاجتماعيّة وأحكامه المتنوّعة.

﴿وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّهُ إِلاَّ بِالحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلاَ يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا ﴿٣٣﴾﴾ وهنا يأتي التأكيد على احترام الحياة الإنسانيّة للغاية، ورفض قتل النفس الإنسانيّة إلاّ أن تقوم بعمل فاحش يفقدها احترامها وتستحقّ الإعدام على ذلك، ومن ذلك أن تعتدي على نفس أخرى فيكون لوليّ هذه الأخيرة أن يقتصّ من القاتل دون أن يتجاوز الحدّ ويسرف، بعد أن وعده الله بالنصر.

﴿وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُواْ بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاً ﴿٣٤﴾﴾ وكما جاء النهي عن القرب من الزنا جاء هذا النهي عن القرب من أموال اليتامى، إلاّ بما يحفظ مصالحهم، باعتبارهم الطبقة الأضعف، حفظاً لحقوق الملكيّة وإبقاء لمال اليتيم حتّى يبلغ رشده اللاّزم ويستفيد من ماله، ووفاء للعهد فالعهد في المجتمع الإسلاميّ يعني المسؤوليّة والالتزام.

﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذا كِلْتُمْ وَزِنُواْ بِالقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴿٣٥﴾﴾ وهكذا يجب أن تُحترم الحقوق والمعايير والمكاييل والموازين العادلة، فإن في ذلك الخير الاجتماعيّ والمصير الاجتماعيّ الأحسن. من خلال نفي الفوضى وإشاعة الثقة والانضباط.

﴿وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً ﴿٣٦﴾﴾ فالعلم هو الأحق بالاتباع؛ لأنه انكشاف كامل ومبّرر لحمل المسؤوليّة تجاه الواقع وتجاه كل الوسائل التي تكشف عنه، كالسمع والبصر والعقل. وفي الآية دعوة لنبذ الإشاعات وسوء الظن وغيرها مما يفكك النسيج الإجتماعيّ.

﴿وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً ﴿٣٧﴾﴾ وهنا يأتي نهي آخر عن التكبّر والاختيال والمشي بتبختر واعتزاز، ويأتي التذكير بالضعف الإنسانيّ عن خرق الأرض أو بلوغ الجبال طولاً.

﴿كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾﴾ إنّ كل تلك السلوكيات السيّئة أمور يكرهها الله رحمة بالإنسان ولطفاً وتحقيقاً للتماسك.

﴿ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلاَ تَجْعَلْ مَعَ اللّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾﴾ بعد هذه السلسلة من التعليمات القرآنيّة الاجتماعيّة البنّاءة لمسيرة متوازنة وعلى أساس عقائديّ متين، يأتي التأكيد على أنها من الحكمة الموحى بها ونسبها التوحيدي الإلهيّ فيجب التقيّد بها وإلاّ فالهلاك واللوم والضياع والتأخّر.

﴿أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلآئِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ عودة إلى تصحيح بعض التصوّرات الجاهليّة وتبيين الواقع والتصوّر الصحيح. فقد يعتبرون الملائكة بنات لله، ورغم أن تصوّر البنوة لله امرٌ سخيف في نفسه، فإن تصور اختصاص الله بالبنات دون البنين أمر سخيف آخر، وهنا يأتي هذا الاستفهام لينكر عليهم تصوّرهم، أنّ الله خصّهم بالبنين واختص هو بالبنات (والبنات في تصوّر الجاهليّة أقلّ مرتّبة).

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُواْ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ نُفُورًا ﴿٤١﴾﴾ والقرآن الكريم يعمل على صرف النفوس إلى الحقّ بشتى الأساليب لتتذكّر مقتضيات فطرتها، ولكن هؤلاء المعاندين للفطرة يرتكسون في العناد والنفور عند استماعهم له لعدم قابليّتهم للهدى.

﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لاَّبْتَغَوْاْ إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً ﴿٤٢﴾ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾﴾ ومن تصوراتهم الباطلة أن قالوا بوجود شركاء لله في تدبير الخلق وإدارته. ولكنّ القرآن يذكّرهم بلازم هذا القول وهو أن يسعى هؤلاء الشركاء

للغلبة وتقليل قدرة الله ذي العرش والقوّة سبحانه وتعالى على كل هذه الأقاويل الباطلة الوضيعة إلى حدّ السخف.

﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾ فالكون بكل مكوّناته العظيمة والصغيرة تسبيح متناغم وتنزيه وتعظيم لله، وإن كنا لا نفقه ولا نفهم كيفيّة هذا التسبيح، ولا مجال فيه للعصيان والتمرّد على أمر الله، فكلها وجودات ناقصة تحتاج إلى موجّه والى منسّق عليم قدير، ولكن البشر من خلقه قد يُسفّون في تصوّراتهم الباطلة ورغم ذلك فالله حليم غفور.

﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْاْ عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾﴾ والذي يقرأ القرآن يتفاعل معه ويشعر بعظمته وروحه، ولكن من لا يؤمنون بالآخرة وبالتالي لا يؤمنون بالله حقيقة الإيمان، هؤلاء تقف بينهم وبين الاستجابة لدعوة القرآن حجب نفسيّة وعاطفيّة ومصلحيّة وتعصّب مقيت، فقلوبهم في وعاء مقفل وآذانهم مبتلاة بوقر وثقل في السمع، وأنفسهم في نفور شديد من كلمة التوحيد.

﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾﴾ وربما راح بعضهم يلجأ إلى بعض، ويقوّي بعضهم بعضاً بتناج وهمس خفيّ وتآمر على المنطق وإبعادٍ عن الاستجابة، وكل ذلك تحت علم الله وسمعه، إذ يظلمون أنفسهم والحقيقة بنسبة السحر إلى الرسول.

﴿انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّواْ فَلاَ يَسْتَطِيعْونَ سَبِيلاً ﴿٤٨﴾﴾ ومن اساليبهم ضرب الأمثال وبثّ الأقوال المشكّكة اليائسة التي تكشف عن الضّلال والتيه والطريق المسدود.

﴿وَقَالُواْ أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾﴾ ومن أقوالهم المشكّكة: التشكيك في إمكان البعث خلقاً جديداً بعد تحوّل الإنسان إلى عظام وبقايا بالية.

﴿قُل كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُؤُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾﴾ إنّ إرادة الله هي النافذة فليكونوا حجارة أو حديداً أو خلقاً أشدّ وأكبر

صلابة من ذلك، فإن الله سيعيدهم إلى خلقتهم الأولى ويبعثهم.

لأنّه القادر على كل شيء، ولأنّه هو الذي خلقهم أوّل مرّة. وعندما يجابهون بهذا الجواب الواضح يحرّكون رؤوسهم مستهزئين متسائلين: متى هو؟ قل عسى أن يكون قريباً ولكنّه في علم الله محدّد.

﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً ﴿٥٢﴾﴾ إنّه اليوم الذي يدعوكم فيه إلى الحساب فتستجيبون مدركين لعظمته ونعمته حامدين له، عالمين أنّ الحياة الدنيا في قبال الآخرة إنما هي إقامة قليلة.

﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلإِنْسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾﴾ وفي أثناء الردّ على المتهجّمين المشكّكين يلتفت القرآن إلى المؤمنين طالباً منهم أن يقولوا التي هي أحسن، محذراً من نقاط الضعف التي يستغلّها الشيطان لخلق النزاع والوقيعة بينهم فهو العدو البيّن.

﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً ﴿٥٤﴾ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾﴾ إنّ الله تعالى هو الأعلم بعباده واستعداداتهم للرحمة أو العذاب وليس الرسول نفسه موكلاً بهداهم بل الأمر بيده تعالى، فهو العليم بكل شيء واليه توكل الأمور وإرادته مطلقة في كل شيء. ولقد شاء أن يفاضل بين النبيّين ويؤتيهم مايشاء كما آتى داود الزبور، وكل ذلك وفق علم مطلق وقدرة مطلقة وحكمة يعلمها هو.

﴿قُلِ ادْعُواْ الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلاَ يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلاَ تَحْوِيلاً ﴿٥٦﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾﴾ أسلوب آخر يحتجّ به القرآن على المشركين، اذ يطلب منهم أن يدعوا هذه الآلهة المزيّفة أن تكشف عنهم الضُر أو تغيّر حالهم، ولكنهم سوف يكتشفون أنّها غير قادرة على ذلك مطلقاً ، بل هي نفسها تستمدّ منه القدرة والوسيلة وتتقرّب إليه وترجو رحمته وتخاف عذابه، وكل مافي الكون يرجو ربه ويخاف عذابه ويحذره، ومن يقدر على تحمّل غضب الله ونقمته؟!

﴿وَإِن مَّن قَرْيَةٍ إِلاَّ نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِك

﴿فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾﴾ إنّ القرى (البلاد) جميعاً آيلة إلى الهلاك قبل يوم القيامة أو العذاب الشديد إن كانت قد أتت ما تستحقّه به، وكل ذلك مقدّر مكتوب.

فيجب الإذعان للحقيقة والإعداد ليوم القيامة وعدم التكذيب به.

﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾﴾ لقد كانت الآيات والخوارق تأتي شواهد على صحّة الرسالات، ولم يكن يؤمن بها الكثيرون، مما يجعلهم مستحقّين للعذاب، ولكن الله شاء لهذه الأمّة الخاتمة والوارثة أن لايعاجلها بالهلاك، فلم يستجب لطلب المعاجز الخارقة من قبل المشركين باعتبارهم سيكذّبون بها فيستحقّون العذاب تماماً كما جرى مع الآخرين، ومنهم ثمود التي كذّبت وعقرت الناقة المعجزة الواضحة ظلماً منها وجاءها العذاب.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي القُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾﴾ أمّا الخوارق التي حدثت بعد البعثة كإخبار الرسول بالإسراء والمعراج فلم تجعل بمثابة معاجز لتصديق الرسالة بل كانت امتحاناً لتصديق مايقوله الرسول وكذلك ذكره الشجرة الملعونة في القرآن، وقيل: إنّها شجرة الزقوم التي جاء ذكرها في القرآن والتي جعلت فتنة للظالمين وامتحاناً لهم، إذ راحوا يكذبون بها متهكمين، وقيل: إنها شجرة النفاق الملعونة التي حذّر منها رسول الله، والتي يمتحن النّاس بها، إذ تغويهم وتثبطهم عن الحق. ولكنّ المنافقين لا يزيدهم التخويف إلاّ طغياناً.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلآئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إَلاَّ إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾﴾ وإنّ التكذيب ابتدأ من إبليس استكباراً وعتواً، وهو أمر يذكّر به القرآن في مناسبات شتى محذّراً من اتّباعه داعياً للإذعان للحقّ.

فبعد أن أمر الملائكة بالسجود لآدم استجابوا إلاّ إبليس فقد رفض ذلك، بحجّة أنّ آدم خلق من طين وهو مخلوق من نار، ولكنّه الحسد والاستكبار.

﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إَلاَّ قَلِيلاً ﴿٦٢﴾﴾ وعندما طُرد إبليس وطلب أن يُنظر إلى يوم الدين، فأُمهل إلى يوم الوقت المعلوم عند الله، راح يعلن عن رفضه لتكريم آدم ويهدّد بغواية أكثر ذريته واقتطاعهم عن مسيرة الهدى.

﴿قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَاء مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾﴾ ويشاء الله أن يفسح المجال له ويفتح أمام الإنسان سبيلي الخير والشرّ ليختار ويتكامل بإرادته أو يرتكس في الباطل باختياره، فجزاؤه الموفور جهنّم.

﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا ﴿٦٤﴾﴾ وتتنوّع وسائل الغواية الشيطانيّة: إغراء القوّة، والضوضاء، والمشاركة في اختيار العقيدة، واكتساب المال والولد، وإعطاء الوعود المغرية، ولكنّها في النهاية وعود زائفة لاحاصل لها سوى الغرور الكاذب.

﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً ﴿٦٥﴾﴾ والمهمّ أنّ الإرادة تبقى حرّة لا يقهرها الشيطان، خصوصاً إذا حقّقت العبوديّة و لجأت لله وتوكّلت عليه.

﴿رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾﴾ عودة لتعميق الإيمان باستثارة الفطرة عبر استعراض نعم الله الكبرى. فهاهي الفلك تسوقها القوانين الكونيّة التي سنّها الله، لتحمل الإنسان طالباً فضله في البحر مستفيداً من رحمته الشاملة.

﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الْضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإِنْسَانُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾﴾ وهي حالة يؤكّد عليها القرآن لينبّه الوجدان للحقيقة؛ ذلك أن الذي يحيط الخطر به في البحر وتنقطع به السبل يدرك بما يقرب من الإحساس أنّ هناك قوّة عظمى تقدر على إنقاذه، فيلجأ إليها ولا يخدع نفسه باللجوء إلى قوى وهميّة اصطنعها هو. ولكنه ما أن يزول الخطر حتّى يعود إلى آلهته الوهميّة ويعرض عن الحقيقة الكبرى. فينبغي أن نكون مع الله دائماً في الضرّاء والسرّاء، وفي كل الحالات والمجالات.

﴿أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لاَ تَجِدُواْ لَكُمْ وَكِيلاً ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لاَ تَجِدُواْ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾﴾ ولكنّ الإنسان لا يستطيع أن يؤمّن له حياة بعيدة عن الخطر كخطر الخسف في البر أو خطر العواصف التي ترمي بالحصباء ولا منقذ له، أو خطر العودة إلى حالة الخطر في البحر فتُرسل عليه ريح قاصفة تحطّم مركبه وتغرقه، نتيجة عناده وكفره، فلا يجد من ينقذه أو يتابع أمره ويتساءل عن علّة ما

أصابه ويثأر له، فكيف يغفل وكيف يطغى ويأمن.

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴿٧٠﴾﴾ إنّ الله تعالى كرّم الإنسان وأعطاه كل مايسهّل له مسيرته الحياتيّة بكرامة وعزّة، ووفّر له كل وسائل النقل التي يحتاجها، ليقوم بدوره الإعماريّ، ووفّر له في الطبيعة كل ما ينسجم مع نموّه الجسمي من الطيّبات المنسجمة مع ذوقه وميوله الفطريّة ووهبه إمكانات تفضّله على كثير من المخلوقات، وفوق كل تفضيل نعمة العقل الذي يدرك به الواقع وموقفه منه، ويقوم بحقّ الاستخلاف، وهذه النظرة السامية والتكريميّة للإنسان من الأصول الأساسيّة في المفاهيم الإسلاميّة، وعلى أساسها تقوم الكثير من الأحكام.

﴿يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُوْلَئِكَ يَقْرَؤُونَ كِتَابَهُمْ وَلاَ يُظْلَمُونَ فَتِيلاً ﴿٧١﴾﴾ إنّ مسيرة الإنسانيّة متواصلة ومقاصدها متنوّعة وأئمّتها مختلفة. وكلها معلومة عند الله. وسوف تعرض عليه يوم القيامة، حيث يدعى كل أُناس إلى الحشر يقدمهم إمامهم، وكأنّه تكرار مجدد للحالة الدنيويّة، والفرحون في هذه المسيرة هم حملة صحائف أعمالهم بيمينهم، يمرّون قارئين لكتبهم بكل فخر، إشارة رمزيّة للثقة بالنفس والقيام بالواجب، وأنّهم حقّقوا مقتضيات إنسانيّتهم وعبدوا ربهم فوفاهم ربّهم أجرهم، ولم ينقصهم شيئاً.

﴿وَمَن كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً ﴿٧٢﴾﴾ وأمّا الذين أكبّوا على شهواتهم ولم يبصروا الحقيقة في الدنيا، فإنّهم يحشرون يوم القيامة متخبّطين في الضلال، جزاء لما اختاروه من سبيل.

﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لاَّتَّخَذُوكَ خَلِيلاً ﴿٧٣﴾ وَلَوْلاَ أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً ﴿٧٤﴾ إِذاً لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لاَ تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾ وتشير الآيات إلى محاولات المشركين الخبيثة لتحريف المسيرة النبويّة الصادقة وتشكيكها في الوحي وتلويثها بالافتراء وإغراءاتها بالتقريب والخلّة، إلاّ أنّ الدعم واللطف الإلهيّ يقف أمام كل تلك المحاولات، ويمنع تحققها وتحقّق نتائجها ومضاعفاتها من العذاب، وفي الآيات شواهد على شدّة التآمر، ودور العصمة، والاثنينية بين المرسل والرسول، مما ينفي قطعاً نظريّة الوحي النفسيّ لبعض المستشرقين وأتباعهم.

﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ لِيُخْرِجوكَ مِنْهَا وَإِذًا لاَّ يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلاَ تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً ﴿٧٧﴾﴾ وإذ عجز المشركون عن تحريف الرسالة وإغراء الرسول راحوا يستفزّونه ويدفعونه ليترك هذه البلاد وشأنها، في غير الموعد الملائم، ولو فعل ذلك لحلّ بهم العذاب. ولكن التسديد الإلهيّ دفعه للتخطيط الدقيق للهجرة، فكانت من أروع الخطى. فلم ينزل العذاب على المشركين ولو كانوا اجبروا الرسول على الخروج لشملهم العذاب، باعتباره سنّة الله التي تجلّت في مسيرة الرسالات السابقة، وسنّة الله لا تتغير.

﴿أَقِمِ الصَّلاَةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾﴾ وازاء الإغراءات وأساليب الشيطان الماكرة لا سبيل إلاّ الاتصال المستمرّ بالله، وتوثيق الصلة معه باستمرار، ومن هنا يأتي دور الصلاة وهي من الاركان التشريعيّة بل هي عمود الدين الذي يجب أن يقام بكل لوازمه. والآية تشير إلى الفترة مابين الزوال إلى منتصف الليل، والواقع في هذا الوقت ـ كما تشرحه الروايات[١]، وعاد بديهيّاً لدى المسلمين هو أربع صلوات هي الظهر والعصر والمغرب والعشاء وتنظمّ إليها صلاة الفجر المشار إليها بعبارة (وقرآن الفجر) حيث تشهد هذه الصلاة ملائكة الليل والنهار.

﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾﴾ والتهجّد هو السهر بعد النوم في أوّل الليل، والمراد أن الرسول مامور بالسهر مصلّياً تالياً للقرآن، وهي وظيفة إضافيّة على الفرائض التي بيّنتها الروايات[٢] وأشارت إليها الآية السابقة إجمالاً. وبذلك يستحقّ المقام المحمود والمميّز.

﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾﴾ دعاء يعلّمه القرآن للرسول وبالتالي للأمّة. ويحوي معاني رائعة. فهو يؤطّر الحياة كلها: مداخلها ومخارجها بالصدق والثبات والطمأنينة والوصل بالله، واستمداد

١. الكافي، ج ٣، ص ٢٧١.
٢. من لا يحضره الفقيه، ج١، ص ٤٨٤.

القدرة والنصرة منه.

﴿وَقُلْ جَاء الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾ وهكذا تكون نتيجة الوصل بالله والصدق في الحياة أن يأتي هذا الإعلان الرائع عن مجيء الحقّ وبطلان ماعداه؛ لأنّه لا ينسجم مع الحقيقة ولا يملك مايدعمه من حجّة، ولا يقوى على مقاومة مسيرة الحقّ.

﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاء وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إَلاَّ خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾ والقرآن هو الموجّه الأوّل الصادق للحياة والإشباع الحقيقيّ لحاجات الإنسان والشفاء لأدوائه القلبيّة في مسيرته، وفيه كل مظاهر الرحمة الإلهيّة للعباد الذين ساروا على خطّ الإيمان، وبطبيعة الحال فإن النفوس الظالمة المنحرفة عندما تواجهه تزداد عناداً وخساراً.

﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَؤُوسًا ﴿٨٣﴾﴾ إنّ الاسلام يربّي الإنسان المتوازن الثابت على خطّ الوصل الإلهيّ مهما تغيّرت الأحوال. والآية تنتقد حالة الإنسان القلق المنقطع عن الله، فهو يطغى ويعرض عن الحقّ، ويبتعد عن الله إذا تمتّع بنعمة إلهيّة، وهو يعيش اليأس والقلق إذا مسّه الشرّ.

﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلاً ﴿٨٤﴾﴾ وهكذا تكون النتائج العمليّة منسجمة مع التركيبة الإنسانيّة، فاذا تمّت التربية الإيمانيّة كان العطاء وإلاّ فالنتائج السيّئة.

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً ﴿٨٥﴾﴾ الروح حقيقة كبرى وآثارها واضحة، ولكن هذه الحقيقة عصيّة على أن تدركها العقول، وخصوصاً العاديّة، ولذلك اكتفى القرآن في جواب السائلين عنها بأنّها من أمر الله وأنّ علم الإنسان قاصر عن الإحاطة. وما اكثر المجاهيل في الكون والحياة.

﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لاَ تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلاً ﴿٨٦﴾﴾ لوشاء الله لحرم البشريّة من الوحي، ولما وصل للرسول شيء منه ، فالرسول متلقّ له ومبلّغ لا غير.

﴿إِلاَّ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾﴾ إنّ نزول الوحي بالهدى القرآني إنما هو من خلال رحمة الله ولطفه وفضله على الرسول والأمّة تبعاً له.

﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ

كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا (٨٨)﴾ إن القرآن معجزة الرسالة الخالدة بألفاظه ومعانيه وتعاليمه المحيية للأجيال الإنسانيّة، يسير كالشمس في العقول عبر التاريخ، ومهما تعمّقت فيه الأفكار اكتشفت آفاقاً جديدة فهو إذن يتحدّى الجميع أن يأتوا بمثله حتّى لو دعم بعضهم بعضاً.

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُورًا (٨٩)﴾ لقد وضّح القرآن للناس مناهج الرشاد وطرق الفلاح، ولكن أكثر النّاس أبوا أن يستضيئوا بنوره، واختاروا طريق الكفر والضلال.

﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعًا (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيرًا (٩١)﴾ وبدل أن يستجيبوا للتحدّي راحوا يعرضون عن القرآن ويسألون الرسول أن يفجّر لهم ينبوعاً لا ينضب ماؤه أو يوجد بالإعجاز جنّة من نخيل وعنب تجري فيها الأنهار

﴿أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاء كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللّهِ وَالْمَلآئِكَةِ قَبِيلاً (٩٢)﴾ ٩٢.

أو يسقط السماء عليهم قطعاً (كسفاً) أو يأتي بالله والملائكة أفواجاً دعماً له.

﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاء وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إَلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً (٩٣)﴾ أو يكون له بيت من المعادن الثمينة أو أن يصعد إلى السماء ثمّ يرجع اليهم بكتاب يقرأونه، ولا جواب لهذه الاقتراحات الطفوليّة الساذجة إلاّ قول الرسول: سبحان الله هل كنت إلاّ بشراً رسولاً. فهو بشر ينزّه الله ويتلقّى وحيه ويبلّغ رسالته.

﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُواْ إِذْ جَاءهُمُ الْهُدَى إِلاَّ أَن قَالُواْ أَبَعَثَ اللّهُ بَشَرًا رَّسُولاً (٩٤)﴾ إنّ معجزة القرآن واضحة جليّة تدعو الجميع للإيمان والتصديق برسالة الرسول، ولكنّ مامنعهم من ذلك هو شبهة عارضة وهي استبعاد أن يكون الرسول بشراً، وكأنهم يريدونه ملكاً يتمتّع بفعل الخوارق والعجائب.

﴿قُل لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلآئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاء مَلَكًا رَّسُولاً (٩٥)﴾ ولكنّهم لم يدركوا أن الرسول يراد له أن يبلّغ شريعة الله ويقود تجربة إنسانيّة يكون هو نموذجها الأسمى والمطبّق الأوّل لها، فيجب أن تكون هناك سنخيّة بين الرسول والمرسل

إليهم، فاذا كان المرسل إليهم ملائكة مثلاً كان من الطبيعي ان يُرسل لهم ملك رسول يهديهم بهدي السماء، ويصلح لهم نقائصهم المادّيّة الأرضيّة انطلاقاً من علم الله ولطفه.

﴿قُلْ كَفَى بِاللَّه شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾﴾ فلا جدال مع هؤلاء الجهلة المتعنّتين وإنما يكفي أن ينتبهوا إلى شهادة الله على الرسالة من خلال إجراء هذه المعجزة القرآنيّة على يديه وهو تعالى الخبير البصير بكل الأمور والشاهد على العباد. ولأوّل مرّة في عالم الرسل والرسالات تستبدل الخوارق في الإعجاز بالكتاب وما فيه من بلاغة وعلم ومفاهيم ترتقي بالبشريّة لترى آيات الله في الآفاق والأنفس ويتبيّن لها الحقّ.

﴿وَمَن يَهْدِ اللّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاء مِن دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾﴾ إنّ الهدى والضلال بيد الله وعلى أساس من اختيار العباد واستحقاقهم لذلك، وهؤلاء المعاندون اختاروا طريق الضّلال وابتعدوا عن الله، فليس لهم أولياء ينصرونهم من دونه، وهؤلاء كما اختاروا لمسيرتهم في الدنيا إذ أغلقوا أعينهم وأفواههم وأسماعهم عن الحقيقة وساروا مكبّين على وجوههم سيحشرون كذلك مكبّين أذلاّء عمياناً وبكماً وصماً يوم القيامة.

ويساقون إلى نار جهنّم التي لا يخبو ولا يسكن لهيبها.

﴿ذَلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِآيَاتِنَا وَقَالُواْ أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾﴾ ذلك مصيرهم الذي اختاروه هم بعد كفرهم بالآيات الواضحة، وتشكيكهم بإمكان البعث وعودة العظام وبقايا الإنسان البالية من جديد.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ اللّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لاَّ رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إَلاَّ كُفُورًا ﴿٩٩﴾﴾ في حين أنّ من الواضح قدرة الله على ذلك وهو خالق السماوات والأرض، وقد جعل لهم أجلاً يموتون فيه، ولكن الظالمين لا يبصرون ولا يفكّرون بل يكفرون بالحقائق.

﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإِنفَاقِ وَكَانَ الإنسَانُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾﴾ ثمّ بعد ذلك الطلب للمعاجز والجنّات يبصرون لطف الله الواسع ورحمته بهم، ولكنّهم بدورهم يعيشون البخل والخشية من الفقر. وتلك هي حالة الإنسان البعيد عن

التربية الإلهيّة، إذ يبقى قلقاً شديد البخل خشية الإملاق.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَونُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾﴾ إنّ الإتيان بالخوارق الكثيرة قد يسكت المعاندين لفترة، ولكنه لن يربّي نفوسهم على الإيمان، فهذا موسى آتاه الله الخوارق الواضحة كالعصا واليد البيضاء والطوفان والجراد والقمّل والضفادع والدم والسنون وغير ذلك، مما يشهد به بنو إسرائيل، فما كان جواب فرعون رأس العناد إلاّ أنّه اتّهم موسى بالجنون والابتلاء بالسحر.

﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلاء إِلاَّ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَونُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾﴾ ويردّ عليه موسى بأنّه يعلم أنّ هذه آيات أنزلها الله معه ليتبصّر بها النّاس فتقودهم إلى الحقّ، ولكنه لعناده يكذّب بها وسيهلك نتيجة لذلك وله الويل والثبور.

﴿فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ الأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾﴾ وهنا يعمل فرعون على استفزازهم وتحريكهم ليقوموا بما يوجب القضاء عليهم، فتحرّكوا هاربين فتتبّعهم ليحقّق ما يريد ويمحوهم من الأرض، ولكنه ابتلي بغرقه هو وقومه. وهذا هو منطق الطغاة وعاقبتهم فليدرك ذلك أمثالهم ومنهم طغاة قريش.

﴿وَقُلْنَا مِن بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُواْ الأَرْضَ فَإِذَا جَاء وَعْدُ الآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾﴾ ويشاء الله أن يرث بنو إسرائيل أرض فرعون وملكه، ليرى الله كيف يعملون ويشكرون هذه النعمة أو يكفرون بها ـ ويوم القيامة ـ يجمعهم جميعاً للحساب.

﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾﴾ وإذا كان أثر تلك الخوارق وقتياً فقد جاء هذا القرآن منزّلاً بالحقّ ونازلاً به ثابتاً ثبوت الحقّ ودوامه على مر الزمان، يبشّر البشريّة بالدين الخالد والشريعة الجامعة وينذرها ويحذّرها من سلوك سبل الضلال.

﴿وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً ﴿١٠٦﴾﴾ كما جاء مفصّلاً يربّي الأمّة آناً وآناً ويربّي الاجيال جيلاً فجيلا بكل صبر وتأنّ ومتابعة.

﴿قُلْ آمِنُواْ بِهِ أَوْ لاَ تُؤْمِنُواْ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾﴾ وسواء آمن به هؤلاء المشركون أم لم يؤمنوا فإن هناك فئةً أوتيت العلم من قبل ذلك (وقد تكون إشارة لتصديقه من قبل بعض أهل الكتاب) تدرك عظمة القرآن وتخشع قلوبها عند

تلاوته، بل لا يملك هؤلاء إلاّ ان يخرّوا ساجدين معلنين تفاعلهم معه مدركين عمقه.

﴿وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً (١٠٨)﴾ مسبّحين لله ومنزّهين ومؤمنين بتحقّق الوعد الإلهيّ بالبعث والحساب.

﴿وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا (١٠٩)﴾ (سجدة مستحبة) ويتكرّر هنا ذكر السجود و الزيادة في الخشوع لسماع القرآن والبكاء المتفاعل معه.

﴿قُلِ ادْعُواْ اللَّهَ أَوِ ادْعُواْ الرَّحْمَنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ الأَسْمَاء الْحُسْنَى وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاَتِكَ وَلاَ تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً (١١٠)﴾ إنّه تعالى الكمال المطلق، وله كل الأسماء الحسنى المعبّرة عن مظاهر الكمال، واليه تنتهي كل معاني الجمال والحقّ، وعنده فقط تسكن النفس التوّاقة للكمال، الولهى للحقيقة المطلقة، لتصل إلى توحيده في الذات والفعل والعبادة. ولا معنى لجدال الجاهليين حول أسمائه، ودعوة الله أو الرحمن سواء، وكل إلى ذاك الجمال يُشير.

﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَم يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلَّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا (١١١)﴾ وبما أنّه تعالى هو الحقيقة الكاملة العالمة القديرة فلا داعي للجهر بالصلاة ولا داعي للإخفات، وإنما الأليق بالوقوف بين يدي الله هي حالة التوازن بينهما.

إنّه تعالى خالق الكون ومالكه فهو أهل للحمد وحده، ليس له شريك ويتنزّه عن أن يكون له ولد أو وليّ يسدّ نقصاً فيه، كلاّ، فهو الكامل الغنيّ المطلق والكبير المتعال.

سورة الكهف (١٨) آياتها ١١٠

بِسْمِ اللّه الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أوضحنا من قبل معاني البسملة وجزئيّتها للسورة.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجَا ۝١﴾ الحمد لله وحده وهو أهل له إذ أنزل على الرسول عبده الكتاب الذي لا انحراف فيه بل هو كلٌّ متناسق منسجم مع الحقّ في الكون والفطرة في الإنسان هادياً له نحو العلاء.

﴿قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ۝٢ مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ۝٣﴾ إنّه الكتاب القيّم القائم بإشباع كل حاجات الإنسان التربويّة باعتدال وحكمة وتدبير، أُنزل على عبده لينذر من الانحراف ويبشّر بأروع العواقب عند الثبات على الخطّ، وتحقيق أقصى مايحلم به الإنسان بطبعه وهو الخلود في النعيم.

﴿وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ۝٤﴾ وينذر المنحرفين المشركين القائلين بأن لله أولاداً وبنات، جهلاً وزوراً وتأثّراً ببعض العناصر الوهميّة والنسبيّة في التأثير.

﴿مَّا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ۝٥﴾ إنّ نسبة الولد إلى الله كلمة عظيمة الخطأ كبيرة الجرأة على الحقيقة، يقولها هؤلاء دون علم لهم ولا لآبائهم بها، إنّها تعني فيما تعني التجسيم والنقص والتركيب تعالى الله عن ذلك.

﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ۝٦﴾ إلاّ أنّ هذه الكلمات الباطلة وهذا التكذيب والعناد يجب ان لايثبّط من عزيمة الرسول، ويبعث في نفسه التأثّر والتألّم والأسف لما عليه هؤلاء من ضلال وعدم إيمان.

﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝٧﴾ فهاهي الأرض مترعة بالجمال والزينة والتناسب مع رغبات الإنسان، وكل ذلك يجب أن يبعث فيهم التأمل في منبع العطاء ومخطّط الجمال، ولكنهم قد يفشلون في الامتحان ويغلقون بصائرهم عن الحقيقة النّاصعة. في حين أن التأمّل الصحيح يجب أن يدفعهم للولاء لله والتسابق في الأعمال الحسنة.

﴿وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ۝٨﴾ وحين يفقدون كل ذلك الجمال وتعود

الأرض قاحلة لا نبت فيها ولا نضارة يدرك المعاندون سخفهم وضياعهم ونتائج عدم تأمّلهم، وعدم تعاملهم بما هو أفضل مع نعم الله في الأرض.

﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾﴾ وتبدأ من هنا قصّة أصحاب الكهف: وهم نموذج الفئة المؤمنة المفكّرة المضحّية في سبيل عقيدتها، متجاوزة كل إغراءات القوّة والزينة والراحة. لقد خلّد التاريخ هذه القصة في رقيم ولوح قديم، وربما تناقلت الشعوب بسالتهم إيماناً وإعجاباً ولكنهم يمثّلون الحالة الطبيعيّة في المؤمن فلا عجب في سلوكهم أو في قدرة الله.

﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾ ملخّص للقصّة يعطى أولاً ثمّ يأتي التفصيل: إنّهم فتية تركوا زهو الحياة ولجأوا إلى ضيق الكهف يستمدّون من الله رحمته ويسألونه الهداية والرشد في مسيرتهم بعد أن ضاقت عليهم الحياة وضاقوا بالباطل.

﴿فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾﴾ فأنامهم الله نومة لا يسمعون فيها أيَّ صوت وطالت، نومتهم إلى سنين عديدة.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ﴿١٢﴾﴾ ثمّ أيقظهم الله من نومهم ليبدأ اختلاف في مدة النوم وإحصائها.

﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾﴾ ومن هنا يبدأ تفصيل القصّة وبيانها الحقّ الصحيح، فقد كانوا فتية وفّقهم الله للإيمان بوعي وعمق ونفوذ إلى الأحاسيس، وحينها يفيض عليهم بهداه المتزايد والمتنامي، فلا يكفي الإيمان العقليّ فقط.

﴿وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾﴾ لقد أعطى الإيمان لقلوبهم رباطة وعزيمة وطمأنينة، فقاموا بكل عزم وقالوا بكل اطمئنان إنّ ربنا هو الله ربّ السماوات والأرض ومدبّرها، فلا شريك له بعد وضوح هذا التناسق الرائع الذي يجعل الشرك شططاً وسخفاً من القول.

﴿هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾﴾ وهو ما ابتلي به قومهم فقالوا بآلهة وهميّة لا مثبت لها ولا دليل عليها، بل

الكون بتناسقه شاهد على التنسيق الواحد، إنّ الشرك ظلم وافتراء على الحقيقة وكذب على الله.

﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحمته وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾﴾ ولما لم يمكن التعايش بين مجتمع مشرك وفتية مؤمنين فقد قرّروا الاعتزال والتخفّي وربما اكتشف أمرهم ، ولجأوا إلى الكهف، طالبين لطف الله ورحمته، ففيها متّسع من الكهف الضيق بعد سلامة الإيمان.

﴿وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾﴾ والشمس المتناسقة مع هذه الحركة الإيمانيّة لا تنالهم بأمر الله باشعّتها، فتتمايل عند الطلوع عنهم إلى اليمين، فلا تؤذيهم، ولكن تنير الكهف وإذا غربت تتّجه إلى الشمال وهم في متّسع، ولعلّ ذلك للموقع الجغرافي للكهف لا تناله الأشعة مباشرة فهي إذن تشرق على أحد الجانبين عند الطلوع والغروب دون أن تباشرهم بذلك.

لينعموا في نومتهم بلا تأثير للحرّ. وذلك من آيات الله اللطيف الرحيم، والهدى الحقيقيّ هو هداه، والضلال عن سبيله هو الضّلال الرهيب الذي لا منقذ منه.

﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾﴾ ويحسبهم الرائي أيقاظاً ولكنهم نائمون وتقلّبهم يد العناية الإلهيّة ذات اليمين وذات الشمال، وربما لكيلا تركد قواهم. وكلبهم عند الباب باسط ذراعيه كأنّه يحرسهم ، وهم في حالة تثير الرعب وتبعث على الفرار لمن يراهم، ولعلّ ذلك لئلاّ ينغّص عليهم نومتهم أحد أو ينالهم بسوء.

﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾﴾ واستيقظوا متسائلين عن المدّة التي استغرقها نومهم وهم لا يحسون بطوله، ولكنّه على أي حال شكّل رحمة بهم أراحتهم هذه الفترة. ولم يستغرقوا في الإجابة وإنما اكتفوا بانّها كانت يوماً أو أقلّ منه، ثمّ أوكلوا العلم إلى الله واهتمّوا بأمرهم ليبعثوا أحدهم بدراهمهم إلى المدينة، ليختار

أزكى الطعام ويجلبه إليهم، وراحوا يوصون الرسول بالحذر واللطف في التعامل.

﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾﴾ إنّ الخوف كله من اكتشافهم وغلبة الكفر عليهم وقتلهم أو العمل على إعادتهم إلى الكفر والارتداد وبالتالي فقدان هذه الجوهرة العظيمة جوهرة الإيمان. وعندها يكونون قد ارتكبوا الخطأ الكبير بسبب عدم احتياطهم للأمر. كل هذا دون أن يشعروا بمرور القرون ودوران الزمن وتعاقب الأجيال وفناء الكافرين، وتناقل قصّتهم عبر التاريخ الماضي واختلاف الآراء فيها.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾﴾ ولكنَّ المدينة التي كانت قد تحولّت للإيمان تكتشف أمرهم وتكبرهم وتعظّمهم. والعبرة من هذه القصّة تتجلّى في تقديم نموذج حسّي للبعث، ليعلم النّاس أنّه حقّ، وأن الساعة آتية لاريب فيها. كما يتجلّى جانب من قدرة الله على إبقائهم أحياء. وينتقل القرآن إلى حادثة موتهم بعد ذلك بمدة قليلة ـ كما يبدو ـ إذ راح النّاس يتنازعون خارج الكهف: هل هناك حياة أخرى بعد الموت، خصوصاً وأن هذه الحالة دالّة على وجودها مما يرجّح رأي المؤمنين بها؟ وكيف يصنعون لهم؟ وكيف يخلّدون ذكراهم؟ وعلى اي دين كانوا؟

فقال بعضهم: ابنوا عليهم بنياناً واتركوهم لحالهم، وقال آخرون ممن يؤمنون بالآخرة: لنتّخذ عليهم مسجداً يعبد فيه الله ويبقى ببقاء ذكرهم.

﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾﴾ ويدور الجدال بين النّاس حول اصحاب الكهف وعددهم، وراحوا يرجمون بالغيب بين الثلاثة والخمسة والسبعة إلاّ أن القرآن يغلق هذا البحث العقيم موكلاً الأمر إلى الله، فهو يعلمه كما يعلمه القليل أيضاً. فلاداعي للدخول في جدل حولهم إلاّ في بحث عابر، ولا داعي لاستفتاء أحد في ذلك.

ونستفيد من هذا، لزوم أن يكون موضوع الحوار المطلوب عملياً ومفيداً.

﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ

وَقُلْ عَسَى أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾ إنّ الحكم والعلم الحقيقيّ في الغيبيّات الماضية والآتية لله، فيجب أن نعيش في الإطار ولا نقطع بوقوع أمر في المستقبل إلاّ أن يشاء الله، فهو المهيّئ للأسباب والمسهّل للأمور. والأسباب التكوينيّة ليست أسباباً ذاتيّة وإنما يمدّها الله بإقدارها على التأثير وإذنه لها بذلك.

وهكذا يلجأ المؤمن إلى ربه ويعيش في مجال مشيئته، ويتذكّر مدده الدائم له بالحياة والحركة، ويطلب منه الهدى والرشد.

﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ﴿٢٥﴾﴾ فصل الخطاب في المدة التي لبثها أهل الكهف في نومهم، يعلنه القرآن وهو ثلاث مئة سنين وازدادوا تسعاً. وقد يكون تحديد المدة بسنينها وعدم تحديد عددهم، لكوْن طول مدة المكوث ثمّ البعث بعدها مؤثراً في السامع بخلاف عددهم.

﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾﴾ وعلى أي حال، فالله أعلم بمدّة بقائهم نائمين، وله غيب السماوات والأرض.

﴿وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾﴾ وهكذا يطلب القرآن من الرسول أن يتلو كتاب الله، ويعلن أن لا مبدّل لكلمات الله وسننه وأن لا ملجأ إلاّ إليه.

﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾ قبس من التربية والرعاية الإلهيّة، حيث يطلب القرآن من الرسول أن يثبّت نفسه مع صفّ المؤمنين الذين يواصلون الدعاء صباح مساء يريدون به وجه الله ورحمته وهداه ، ولا يترك ملازمتهم ولا يلتفت إلى صفّ أناس أكبر همّهم زينة الحياة الدنيا (وقيل إنّهم كبراء قريش الذين كان الرسول يطمع في استمالتهم لهذا الدين، وكانوا ينفرون من صف الفقراء من المسلمين) وأن لا يستمع إلى طلبهم، فهم الغافلون عن ذكر الله والمتّبعون لهواهم والمفرطون المسرفون.

﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا

أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاء كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾﴾ وأن يعلن بكل صراحة أنّ الحقّ هوما أوحاه الله إليه فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر، وإذا اختار طريق الكفر فقد ظلم وقد أعدّ الله للظالمين ناراً يحيط فسطاطها بهم ولا مهرب منها. وإذا استغاثوا من حرّها اغيثوا بماء يغلي كالزيت المغليّ أو كالنحاس الذائب، يشوي الوجوه وساءت متّكأ وملاذاً.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُوْلَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾﴾ في حين ينعم المؤمنون العاملون للصالحات بعطاء الله الذي لا يضيع أجرهم مطلقاً، بل يدخلهم جنّات دائمة تجري من تحتهم الأنهار، ويتمتّعون فيها بأروع الحليّ والأساور الذهبيّة، ويرفلون بثياب الحرير الأخضر من سندس (ديباج) وإستبرق (وهو نوع آخر منه) متّكئين في راحة ونعيم وخلود، وهو اقصى مايتمنّاه المرء ثواباً ومآلاً.

وتلاحظ المقارنة بين حالة الكبراء المترفين في سرادق النار والمستضعفين المؤمنين في جنّات عدن.

﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾﴾ وكمثل للقيم الزائفة والأخرى السامية، يضرب القرآن مثلاً لنموذجين من البشر: أحدهما رجل غنيّ تُنسيه النعمة منعمها فهو مالك لجنّتين من كروم كثيرة، يحفّ بهما النخيل وينمو بينهما الزرع.

﴿كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾﴾ وقد أثمرت كلتا الجنتين بمحصول وفير، ويجري خلال الجنّتين نهر غزير.

﴿وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾﴾ وراح صاحب الجنّتين مختالاً يفتخر على صاحبه الآخر الذي لا يبلغ مستواه من الغنى، في حوار له معه قائلاً: أناّ أكثر منك مالاً وأعزّ منك نفراً، كناية عن كثرة الولد والأتباع.

﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ﴿٣٥﴾﴾ ويستولي الغرور عليه فيعميه عن الحقائق ، ويدخل إلى بستانه مزهوّاً به، ظالماً لنفسه ووعيه، ناسياً أن هذه متع زائلة معلناً أنّه لا يظنّ زوالها.

﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾﴾ بل يرتقي به الغرور إلى إنكار البعث ـوهكذا هو الغافل يسلب الحادثة نسبيّتها شيئاً فشيئاً ليمنحها التعميم المزيّف ثمّ هو يقول إنّه على فرض وجود الآخرة فإن له مقاماً كريماً عند الله باعتبار عناية الله به في هذه الدنيا.

﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾﴾ وهنا يجيبه صاحبه المؤمن الواعي وهو يحاوره بتذكيره بغروره وضعفه، إذ كان أصله تراباً فمنّ الله عليه ونقله إلى خلق حيويّ أسمى، ثمّ نقله إلى خلق أشرف فجعله إنساناً فكيف يمكن لعاقل أن يكفر بالله؟

إن تأمّلاً بسيطاً في مراحل التكامل الإنسانيّ يقود الإنسان إلى الخالق.

﴿لَّكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٣٨﴾﴾ إنّه الخالق الربّ الذي يتابع إمداد الإنسان في مراحل تكامله ويفيض عليه الوجود والتكامل، وشكر هذه النعم العظمى يتجلّى في التوحيد والعبادة.

﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِن تُرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾﴾ إنّ البديل الطبيعيّ لحالة الزهو والكفران السابقة أن يدخل من أنعم الله عليه بجنّة وفيرة إلى جنّته واعياً لعطاء الله ومشيئته وقوّته ولطفه، معلناً ذلك لساناً وقلباً. ويضيف هذا الصاحب المحاور: أنّه راض بقسمة الله له أن يكون أقلّ منه مالاً وولداً.

﴿فَعَسَى رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾﴾ إنّ الأمر لله فقد يمنُّ على صاحبه الأقلّ منه مالاً بالمال والولد أو يؤتيه خيراً مما لدى الآخر الغنيّ في حين يرسل على جنة الغنيّ سهاماً وشهباً سماويّة لتصبح أرضاً يباباً ملساء لانبات فيها.

﴿أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا ﴿٤١﴾﴾ أو تغورمياهها وتشحّ ينابيعها، فلا ينفع معها حفر أو علاج.

﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾﴾

وجاء أمر الله ودُمّر الثمر وخوت الجنّة على قوائمها، وساد الندم والأسف على تلك الجهود المبذولة والأموال المنفقة ، وعلى ذلك الكفر بالحقيقة والشرك بالله، وعاد المغرور وحيداً فريداً لا ناصر له من دون الله.

﴿هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾﴾ وهنا يتجلّى الولي الحقّ أمام العقول المنكرة، فهو وحده المثيب وبيده العقبى الخيّرة.

﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاء أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاء فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾﴾ إنّه مثال مصغّر لدنياً مكبّرة: ماء ينزل رحمة فتشربه الأرض لتنبت نباتاً فتعصف به الرياح فيتناثر بقدرة الله القادر المطلق. وهكذا هي هذه الدنيا الفانية التي يركن إليها المغترّون.

﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾﴾ إنّه الدرس العامّ المطلوب تركيزه في نفوس المؤمنين. ذلك أنّ المال والبنين هما زينة الحياة الدنيا وقوام استمرارها، وقد أودع في الفطرة الإنسانيّة مايشدّ الإنسان إليهما لتستمرّ الحياة، فالتمتّع بهما طبيعيّ ولكن في الإطار الطبيعي، فلا يتحوّلان إلى معبود ومعشوق وآلهة وهمية بل همّا واسطتان للتكامل والإعمار والقيام بالصالحات، فهي الخير المطلوب والهدف المرجوّ.

﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾﴾ واستمراراً في تعميق البناء القيميّ للمؤمن يعرض القرآن بعض مشاهد القيامة، حيث تسير الجبال وتنكشف الأرض بكل أنحائها وتحشر الخلائق جميعاً فتعرض أمام ربّها العظيم، تعرض كماهي وعلى حقيقتها بلا أي زينة أو تفاضل، ويأتي التأنيب الإلهيّ للمنكرين الزاعمين أنّه لا بعث ولا موعد للحساب.

﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ ويفتح سجلّ الأعمال الشامل، ويقف أمامه المجرمون بضعف وإشفاق مبهوتين لهذه الدقّة في الإحصاء بل لهذا العرض المجسّد للأعمال، فلا مجال لادّعاء الظلم أو الإنكار.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾﴾ إنّه تذكير بمنطلق خلق الإنسان حين أمر الملائكة بالسجود لآدم فسجدوا إلاّ إبليس وكان من الجنّ، يخالط الملائكة فأدركه الغرور وخرج عن أمر ربه، وأعلن العداء للإنسانيّة والسعي الدؤوب لإغوائها، ولكن الظالمين أبوا إلاّ أن يتولّوا عدوّهم وذريّته، ويستجيبوا لإغراءاته بدلاً من رفضه واللجوء إلى الوليّ الحقيقيّ.

﴿مَا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾﴾ ولكن الشياطين ـ وخلافاً لتوّهم المشركين لايملكون أهليّة الولاية فلا قدرة لديهم، ولا علم بخلق السماوات والأرض، ولا علم لهم بأنفسهم وخلقها، ولا دور لهم في إدارة الكون، وماكان الله أوكل إليهم أمراً وهم المضلّون الأعداء للبشريّة، فلا معنى لتولّيهم والركون إليهم.

﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾﴾ ويأتي التحدّي الإلهيّ في ذلك الموقف الرهيب، طالباً من المشركين أن ينادوا الشركاء المزعومين لله، وعندما لا يستجيب الشركاء للنداء يدرك المشركون خسرانهم بوضوح، وتحول بينهم وبين الشركاء المزعومين هوّة الهلاك.

﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾﴾ وتبرز النار المخيفة أمام المجرمين، ليعلموا أنّها مصيرهم المحتوم.

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾﴾ ويعود القرآن إلى مخاطبيه ليؤكّد أنّه فتح أمامهم كل السبل ليصلوا إلى الحقيقة، فلا معنى لهذا الجدل والمراء والتملّص.

﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾﴾ ولم يمنعهم من الإيمان والعودة إلى الله إلاّ طلبهم أن يطبّق عليهم ماجرى على من سبقهم، وهو عذاب الاستئصال ـ استبعاداً لوقوعه ـ أو تأتيهم نذر العذاب فيواجهونها ليؤمنوا حينئذ ولا فائدة بعد من الإيمان.

﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا ﴿٥٦﴾﴾ ومسألة التعذيب بعد الإنكار أمر موكول إلى الله، وما على الرسل إلاّ التبشير بالحياة في ظلّ الله والإنذار والتحذير من مخالفة أوامره، إلاّ أنّ الكافرين يتّخذون أسلوب الجدل وكل الاساليب الباطلة الأخرى، ليردّوا بها على الحقّ الثابت، ومن أساليبهم الاستهزاء بآيات الله وإنذاره، وكل ذلك دليل على العجز عن المواجهة المنطقيّة.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾﴾ إنّه لأعلى درجات الظلم أن يواجَه أحد بآيات الله العليم القادر فيُعرض عنها ولا يبالي بما عمله من المعاصي، فكان أن أوقعه الله في حالة عمى القلب فكأنّه محبوس في وعاء فلا يفهم، ومبتلى بوقر الأذن وصممها، فلا يستجيب لدعوة الهدى والصلاح، بل يرتكس باستمرار في الضّلال

﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾﴾ لقد طلبوا استعجال العذاب، ولكن رحمة الله وغفرانه شاءت أن تمنحهم فرصة أكبر، والوعد محدّد لن يجدوا عنه ملجأ ومفرّاً.

﴿وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾﴾ ألا يرون حالة من سبقهم اذ جاءهم الهلاك لظلمهم، بعد تحديد موعد لذلك، وتلك سنّة الله.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾﴾ ولكي يدرك هؤلاء المطالبون بتعجيل العذاب أنّ لله مصالح وحكماً في تأخيره عنهم يأتي ذكر حديث موسى مع العبد الصالح. ويبدأ باعتزام موسى القيام برحلة إلى مجمع البحرين ـ وقيل هما بحر فارس وبحر الروم أو البحر الابيض المتوسط والبحر الأحمر أو مجمع خليجي العقبة والسويس ـ وأنّه كان مصمماً على ذلك حتّى لو طالت الرحلة أعواماً ودهراً طويلاً. للاستزادة من العلم والمعرفة، ذلك لأنه كان قد وُعد هناك بوعد وأعطي علامة لذلك. وقد اصطحب معه أحد اعوانه وحمل معه سمكة مشوية.

﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾﴾ فلمّا بلغا المحل الموعود، أحيى الله السمكة فسلكت طريقها إلى البحر، والمرافق يتعجّب لذلك، ولكنه نسي أن يخبر موسى بذلك، كما نسي موسى أن يسأله عن السمكة.

﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾﴾ فلمّا تجاوزا الموعد المحدّد للقاء العبد الصالح أدرك موسى التعب فطلب من مرافقه أن يأتيه بالسمكة ليتغدّيا.

﴿قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾﴾ ولكن المرافق تذكّر الحادثة وأخبره بها (وكانت هي العلامة التي أعطيت له للقاء العبد الصالح) وكانت عند صخرة مطلّة على البحر، وذكر له أنّه نسي أن يخبره بها، رغم أنها كانت حادثة عجيبة.

﴿قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾﴾ فقال موسى أن ذلك كان مقصده فعادا من حيث أتيا يتّبعان الأثر.

﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾﴾ عبداً من عباد الله آتاه الله الرحمة وعلّمه علماً لدنّياً مباشراً خاصّاً. وقيل: إنّه الخضر عليه السلام.

﴿قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾﴾ فكلّمه موسى بلطف طالباً أن يتّبعه فيعلّمه من علمه اللدنّي الخاصّ، لتنمو طاقاته ويزداد رشده.

﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ﴿٦٨﴾﴾ فاخبره الرجل بأنّه لا يستطيع معه صبراً؛ لأنّ علمه ليس من العلم المتعارف والمتداول بل هو علم خاصّ جداً، ذلك أن الإنسان بطبعه لا يستطيع أن يصبر حين يرى أمامه حدثاً غريباً وربما كان ظاهره العدوان أو السفه، ولكنه يصدر من رجل صالح عالم. وبدلاً من محاولة الوصول إلى الحقيقة واستعلامها، يقوم بالاعتراض.

﴿قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾﴾ فاكّد له موسى وعاهده أن يكون ـ بإرادة الله ـ صابراً ولا يعصي له أي أمر يصدره.

﴿قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾﴾ فطلب الرجل الصالح من موسى أنّه إن اتّبعه فيجب أن لا يسأله عن سرّ فعلتهِ حتّى يكشف هو له عن ذلك. فالعلم والمعرفة يحتاجان إلى المصابرة والتحمّل.

﴿فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴿٧١﴾﴾ فانطلقا معاً ـ دون أن يصطحبا المرافق معهما ـ فركبا سفينة فقام الرجل الصالح بثقبها وإيجاد عيب فيها، فتساءل موسى عن سرّ هذا العمل العدوانيّ في الظاهر؛ لأنه يؤدّي إلى غرق السفينة بأهلها.

﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾﴾ فذكّره الرجل بالعهد الذي قطعه على نفسه، وأنه لا يستطيع الصبر معه.

﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٧٣﴾﴾ فطلب منه موسى الصفح وعدم المؤاخذة نتيجة نسيانه لعهده، وعدم تكليفه بالعسير من أمره.

﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾﴾ وانطلقا في مسيرتهما ليلاقيا غلاماً فيقتله الرجل، فيعترض عليه موسى ويعتبره قاتلاً لنفس زكيّة غير مذنبة لغلام لم يبلغ الحلم، وهو أمر منكر لا يمكن السكوت عليه.

﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾﴾ فذكّره الرجل ثانية بأنّه لا يستطيع ان يصبر معه، فطلب موسى معتذراً أن يعطيه الفرصة الاخيرة، فإن سأله بعدها فله ان ينهي هذه الصحبة وله عذره.

﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾﴾ وتحرّكا حتّى وصلا إلى قرية، ولما كانا جائعين فقد طلبا طعاماً من أهل القرية فرفضوا ان يقدّموا لهما الطعام، وهنا رأيا جداراً آيلاً للسقوط فقام الرجل بإقامته وتقويته ودعمه، فاعترض عليه موسى بأنّه يصنع خيراً لهم دون مقابل وأجرة رغم جفائهم لهما.

﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾﴾ ولم يبق لموسى مجال للاعتذار وراح الرجل يعلن الفرقة ويشرح له الحكمة وراء تلك الأمور الغريبة.

﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾﴾ لقد كان خرق السفينة لمصلحة ملاّكها وكانوا فقراء مساكين يعملون عليها، وكان هناك ملك ظالم يغصب السفن الراسية وبطبيعة الحال فانه سيترك هذه السفينة الجانحة المعطوبة لأهلها رغبة عنها ليقوم المساكين بإصلاحها والارتزاق بها. فهو ضرر قليل يدفع ماهو أعظم.

﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾﴾ وأما الغلام

فقد كان في حقيقته كافراً طاغياً يستطيع أن يضغط على أبويه المؤمنين ويجرهما جرّاً إلى العناء وربما الكفر، وقد شاء الله أن يبدلهما به ولداً صالحاً زكيّاً يقوم برعايتهما ويصل رحمهما.

﴿فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾﴾ وأما الجدار فقد كان مقاماً على كنز ليتيمين لرجل صالح، فلو سقط لانكشف الكنز ونهب من قبل الناهبين البخلاء، فشاء الله أن يبقى الجدار ويستتر الكنز حتّى يكبرا، و ـ بالطبع ـ لديهما مايدلهّما عليه رحمة بهما وجزاءً حسناً لأبيهما الصالح.

وبعد بيان الغاية من أعماله يوضّح الرجل العالم لموسى أنّ ما عمله كان بإرادة إلهيّة خاصّة، ولا يدخل في الحسابات الظاهريّة والتصرفات العادية.

وهكذا تومىء هذه القصّة إلى أنّ هناك حكماً مخفيّة لكثير من الظواهر الكونيّة التي قد تبدو للإنسان مبهمة، بل تبدو فيها جوانب مظلمة ظالمة، رغم أن فيها الصلاح والجمال، فيجب أن يوكل الإنسان الأمر فيها إلى الله العليم القدير الرحيم. كما يمكن أن تكون للتحلّي بالصبر والمثابرة، لاكتشاف مجاهيل الكون والحياة.

وتأتي القصّة ـ كما أسلفنا ـ في سياق بيان وجود حكم إلهيّة في إمهال الكافرين لا يدركونها، وفي سياق ترك الغيب لله كما في قصّة أصحاب الكهف.

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾﴾ ويأتي هنا الحديث عن ذي القرنين في جواب تساؤل ـ ربما كان امتحانياً آتياً للمشركين أو من قبل أهل الكتاب ـ ولكنه ينسجم مع سياق الإخبار عبر العلم الغيبيّ.

﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾﴾ إنّه رجل مكّنه الله وأعطاه قوّة وسلطاناً، ومنحه أسباب العظمة والقدرة والعمران، وكل مايوصله إلى ذلك فاستفاد من هذه القدرات بشكل مستمّر ومتتابع.

﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾﴾ فانطلق بقواه نحو الغرب حيث

منتهى اليابسة المعروفة آنذاك، وحيث كانت تلوح إلى منتهى النظر برك مملوءة بالطين الأسود الحارّ، وحينئذ يبدو للناظر على مدى الأفق أنّ الشمس تغرب فيها. ووجد عندها قوماً يسكنون تلك المنطقة. وهنا خيّره الله بين تعذيبهم وبين أن يسلك معهم مسلك العفو، ولعلّ هذا التخيير لما علم من حال القوم، ولما عرف منه من خير وصلاح أو لعلّه تخيير امتحان.

﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاء الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾﴾ فما كان منه إلاّ أن اتّخذ سبيل العدل، إذ وعد الظالمين بالعذاب الدنيويّ الذي يتبعه عذاب أخرويّ أكبر، حيث يبدو أن القوم قد تعرّفوا من قبل على منذر إلهيّ بيّن لهم سبيل الحقّ وأعطاهم وعي الآخرة، وأما من آمن وعمل صالحاً فسوف يكون له الجزاء الحسن والمعاملة الطيّبة.

﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾﴾ وفي رحلته الثانية اتّجه ذو القرنين نحو الشرق أقصى الشرق في نظره فوجد الشمس تطلع على قوم لا يحجبهم عنها حاجب من جبل أو غابة. وربما لا يملكون ما يستترون به عنها أو أنّهم كانوا يعيشون الحياة الهمجيّة.

﴿كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾﴾ وقد تعامل معهم ذو القرنين بما يعلمه الله من تعامل المؤمن القادر العادل.

﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾﴾ وفي رحلته الثالثة جهّز خبراته وقواه، واتّجه إلى منطقة تقع بين سدّين أو جبلين فوجد عندهما قوماً بسطاء ذوي لغة غير مفهومة.

﴿قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾﴾ ولما كان هؤلاء البسطاء والضعفاء مبتلين بهجمات وغارات من قبل اقوام همجيّة مفسدة في الأرض اسمها يأجوج وماجوج، وقد رأوا في ذي القرنين هذه القدرات الهائلة، فقد طلبوا منه أن يبني لهم سدّاً مابين الجبلين أو الحاجزين الطبيعيّين يمنع الغزاة في مقابل أجر يقدّمونه له.

﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾﴾ ولكنه

وعدهم ببناء السدّ دون أن يقبل منهم الأجر، وكانت خطّته أن يردم مابين الجبلين مستعيناً بقوتهم الجسميّة العضليّة.

﴿آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾﴾ وطلب منهم أن يجلبوا له قطع الحديد ويكوّموها في الفتحة بين الجبلين، حتّى كأن جانبي الجبلين صدفتان تحيطان بالحديد المكوم، وتراكم الحديد حتّى ساوى القمتين وحينذاك أشعل النار المتوهّجة بالمنافخ ثمّ طلب نحاساً مذاباً فصّبه عليه ليسدّ الخلل بين القطع ويقوّي الحديد.

﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا ﴿٩٧﴾﴾ وهكذا أغلق الطريق على الأقوام الهمجيّة، فلم تستطع أن تتسلّقه أو تثقبه.

﴿قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاء وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاء وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿٩٨﴾﴾ ولم يغترّ ذو القرنين بهذا الإنجاز العظيم، وإنما شكر الله على رحمته ولطفه به، إذ استطاع أن يساعد هؤلاء الضعفاء. وأعلن أنّ هذا العمل الجبّار مهما كان فهو صغير إلى جانب قدرة الله، وسيندكّ عند حلول يوم القيامة.

فكان بذلك نموذج الحاكم القويّ الصالح العامل بالعدل والمعين للضعفاء.

﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾﴾ وعندما يحين يوم القيامة يجمع الله النّاس ليموج بعضهم في بعض، ثمّ يأتي النداء الإلهيّ ونفخة الصور لتنظّم صفوفهم للحساب.

﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾﴾ وتعرض جهنّم بكل مافيها من رهبة أمام الكافرين.

﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاء عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾﴾ ويبصر الغافلون الذين لم يبصروا الحقيقة ولم يستمعوا إليها في الدنيا النار أمامهم الآن.

﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاء إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾﴾ وإذا بأولئك الذين تولّوا عباد الله من دون الله واطاعوهم يرون أنفسهم أذلّة لا ينصرهم أحد، ويتجلّى لهم مصيرهم في النار.

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾ إنّهم الأشدّ خسراناً فأما الدنيا فسعيهم فيها ضلال وضياع في الواقع، رغم أنّهم يحسبون أنّهم يحسنون صنعاً ويشبعون فيها أهواءهم.

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿١٠٦﴾﴾ وأما في الآخرة فلا قيمة لأعمالهم ولا وزن، بعد أن كانوا كذبوا بآيات الله ولقائه، واستهزأوا بالآيات والرسل فاستحقّوا عذاب جهنّم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾﴾ وفي قبال أولئك الأخسرين أعمالاً يقف المؤمنون العاملون للصالحات، وقد حقّقوا كل آمالهم حيث جنّات الفردوس ينعمون فيها بالطيّبات، خالدين لا يرغبون عنها إلى حياة أخرى.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾﴾ وهكذا جاءت هذه السورة المفعمة بآيات الله وعلم الله وهداه للبشريّة الحائرة الجاهلة، تقودها نحو صلاحها وتوصلها نحو السعادة بالعلم الإلهيّ المطلق والكلمات الإلهيّة التي لا تنفد ولا تنتهي مطلقاً.

﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾﴾ مثال حسّيّ على الإطلاق في العلم والقدره والهدي الإلهيّ فإن البحر الواسع الغزير ـ لو تصوّرناه حبراً تكتب به الكلمات ـ يمدّه بحر مثله سوف ينفد ويفقد ما لديه من طاقات وتبقى الكلمات الإلهيّة أوسع وأوسع من ذلك؛ لأنّ فيها أسرار الوجود العظيم، وحسبك أنّ الانبيّاء والرسل مع كل ما يملكون من مراتب العظمة والسمو، إنما هم كلمات إلهيّة.

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١١٠﴾﴾ وما الرسول إلاّ إنسان كالباقين، ولكنّه يمتاز عليهم بالوحي وإعطاء المعرفة التوحيديّة مما يسمو به إلى اعلى درجات الكمال في الوجود، ويبقى أمام الإنسانيّة أن تستفيد من هذا العطاء فترجو لقاء ربّها وتعمل صالحاً، وتقوم بكل مقتضيات التوحيد، لتسعد وتنعم بالخلود، وهكذا تختتم السورة بالتأكيد على لزوم الالتزام بخطّ الإيمان، والاعتقاد بعظمة الله وعلمه المطلق.

سورة مريم (١٩)

آياتها ٩٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

البسملة آية قرآنيّة تعبّر عن قيام الكون باسمه تعالى.

﴿كهيعص ۝١ ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ۝٢﴾ تبدأ السورة بالحديث عن الرحمة الإلهيّة التي خصَّ الله بها زكريّا النبي، وهذه الروح تسري مع السورة حتّى النهاية وبطبيعة الحال فإن الرحمة نفسها تقتضي الشدّة مع المنحرفين. وربما كان هدفها تركيز عبوديّة الله وصفاته المطلقة. وتقديم النماذج الرفيعة من الإنسانيّة.

﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاء خَفِيًّا ۝٣﴾ إذ راح زكريا يناجي ربّه في معزل عن الناس، ويبثّه همومه. والدعاء سلاح المؤمن، ووصل له بربه، وتنفيس له عن كربته، وبالتالي فهو سبيل للتكامل.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۝٤﴾ إنّه يشكو لربّه الوهن والضعف الشديد والشيخوخة ويعلن لربّه أنّه عاش مع الدعاء، ونجى به من الشقاء، واستمدّ منه السعادة باستمرار.

﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥﴾ إنّه يخشى أن يضيع تراثه من بعده، وربما كان يشير إلى تركته المعنويّة كاستمرار خطّه الدعويّ التوحيديّ ، وقيمومته على مريم، والمادّيّة أيضاً، خصوصاً وهو لا يرى في الموالي من عمومته أو كلالته أو عصبته الخير المطلوب ولا ولد له؛ لأن امرأته كانت عاقراً لا تلد ولذا فهو يسأل الله أن يعطيه ولداً بقدرته غير المعتادة، بعد أن كانت الظروف العاديّة كلها تأبى حصول ذلك.

﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝٦﴾ إنّه يطلب الوريث الصالح المرضيّ المتخلّق بالخلق الحسن الذي يرثه في ماله وفي خطّه العلميّ والعمليّ الصالح، والدعوة إلى التوحيد، وربما كان يرجو الله أن يجعل في ولده امتداداً للنبوّة، خصوصاً وهو يشير إلى آل يعقوب وهوالخط التوحيديّ النبويّ المعروف عبر التاريخ.

﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ۝٧﴾ ويستجيب الله دعاءه، ويناديه مبشّراً له بغلام، ويعطيه اسماً لم يسمّ به أحد قبل ذلك (يحيى)، ولم يكن له شبيه من قبل.

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾﴾ وهنا يتهيّب زكريّا الموقف وهذه الاستجابة السريعة لهذا الأمر المستبعد بالنظر إلى الواقع القائم؛ فامرأته عاقر وهو شيخ كبير جفّ عطاؤه وفقد قواه، فيتساءل عن كيفيّة تحقّق ذلك.

﴿قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴿٩﴾﴾ وطبيعي أن يأتي التذكير الإلهيّ بالقدرة المطلقة، فكل شيء أمامه هيّن سهل، خصوصاً بعد التنبه إلى أنّ الله تعالى خلق الإنسان ولم يك شيئاً.

﴿قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾﴾ ومسألة الإيمان العقليّ بهذا الإمكان شيء، وموضوع الاطمئنان القلبيّ بمثل هذه الحادثة العجيبة شيء آخر، وهوما رأينا شبيهه في قضيّة إبراهيم، وكيفيّة إحياء الموتى، لذلك يطلب زكريا من ربه آية حسّيّة ، والحسّ أكثر تأثيراً في تحقيق الاطمئنان. فكانت الآية الحسّيّة أنّه يفقد القدرة على تكليم النّاس ثلاث ليال بأيامها.

﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾﴾ ويخرج زكريّا إلى قومه وأتباعه من محراب صلاته ـ وهو إشارة إلى محل الحرب ضد الشيطان والشرك ـ ليطلب منهم بالإيماء والإيحاء ـ لأنه لا يقدر على التكلّم أن يسبّحوا الله صباحاً و مساءً.

﴿يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾﴾ ويتوجّه النداء ليحيى ـ وهو صبيّ ـ أن يتحمّل الأمانة الإلهيّة (النبوّة) ويأخذ التوراة ـ أو كتاباً خاصاً به ـ ويبلّغ بها بعد أن يتفهّم معارفها ويطبّق تعاليمها، وقد آتاه الله القدرة على ذلك، رغم كونه صبيّاً لم يبلغ الحلم بعد. وقد يكون ذلك تمهيداً لولادة المسيح عيسى من دون أب وبمعجزة إلهيّة هي الأخرى.

﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾﴾ وغمره الله بالحنان والنموّ الصالح والتقوى وهي عناصر تؤهّله لحمل الأمانة.

﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾﴾ واتصف ببرّ الوالدين والتواضع للناس والبعد عن التكبّر والعصيان والغلظة، يعيش مع الناس، ويلين لهم، ويرحم ضعفاءهم.

﴿وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾﴾ فهو يعيش حياة السلام والإيمان من حين ولادته، وهو يموت في جوّ السلام واللطف، وسوف يبعث والسلام يحفّه

أيضاً. وهكذا يشكّل يحيى نموذج الإنسان المؤمن الصالح: ترعاه الحكمة، وتنميه الرحمة والحنان، وهو بر بوالديه ومن أحسن إليه، ورحيم بالناس، يتّقي المعاصي، ويعمل مطمئناً في إطار السلام الإلهيّ. وفي الآية إشارة إلى أهميّة يوم الولادة ويوم الوفاة.

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾﴾ وبعد ذكر قصّة زكريّا ويحيى يأتي الحديث عن عيسى، وتتشابه حياتهما وسيرتهما المباركتين نموذجين إنسانيّين صالحين على مستوى القمة.

فهذه مريم المرأة المباركة الصالحة العذراء أُمّ عيسى تعتزل قومها متجهة إلى منطقة شرقيّة.

﴿فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾﴾ وتتّخذ لها مكاناً تحتجب فيه عن قومها، وربما لتعتكف للعبادة. وهنا يتمثّل لها جبرئيل بشراً سويّ الخلق.

﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَن مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾﴾ وبطبيعة الحال فإنّها تذعر إذ يفاجئها رجل سويّ في هذه الخلوة، فتستعيذ بالله الرحمن وتذكّره بالتقوى.

﴿قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾﴾ ليجيبها بأنّه رسول من الله، ليهب لها غلاماً طاهراً زكيّاً نامياً بالخير.

﴿قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾﴾ ويزداد تعجبها رغم أنّ روعها يهدأ بعد أن تعلم أنّه ملك إلهيّ مقدّس، ولكن أنّى يمكن أن يهبها غلاماً وهي عذراء لم يمسسها بشر، ولا هي إنسانة فاجرة تستجيب للعمل الحرام؟!

﴿قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾﴾ وهنا يأتي نفس التذكير السابق الذي تمّ لزكريّا، وهو التذكير بالقدرة الإلهيّة المطلقة، بالاضافة للحديث عن الحكمة الإلهيّة من ذلك، وهو ان يكون الحادث آية ومعلماً يقود الخلق إلى الإيمان بالله وقدرته المطلقة ويحقّق مقتضيات الرحمة الإلهيّة بالخلق، فالرحمة هي سرّ خلق الكون ومدّه بالحياة والحركة، وهي سرّ بعث الانبياء ليهدوا البشريّة إلى أهداف خلقتها. وكل ذلك كان أمراً محتّم الوقوع.

﴿فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾﴾ وتعود حاملة بعيسى ـ بأمر الله ـ وتبتعد عن قومها متّجهة إلى مكان بعيد.

﴿فَأَجَاءهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾﴾ وألجأتها أعراض المخاض والولادة إلى جذع نخلة يابس، ولا معين لها، وهي تلد لأوّل مرة، فيستولي عليها الفزع وتتمنّى أن لو كانت قد ماتت قبل هذا ونسيها الناس.

﴿فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾﴾ ويناديها طفلها ـ على الظاهر ـ من تحتها أن لا تخاف ولا تحزن فقد جعل الله لها جدولاً سارياً يجري تحت قدميها، ثمّ إن عليها أن تهزّ النخلة العارية لتساقط عليها رطباً جيّداً صالحاً للاقتطاف.

﴿فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾﴾ وهكذا يتجلّى جانب آخر من الرحمة الإلهيّة، فإذا بمريم تجد الشراب والطعام والطمأنينة (قرّة العين) والضمان بعدم أيّة مشكلة، فيضيف طفلها أنّ لها أن تأكل وتشرب وتطمئن، فإذا واجهها قومها فعليها أن تعلن أنّها نذرت صوم الصمت فلن تكلّم بشراً أثناءه.

﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾﴾ وعندما عادت إلى قومها حاملة ولدها بهت القوم، فهاهم يشهدون مريم العابدة القدّيسة العذراء وهي تحمل طفلاً فاتّهموها بالعمل المنكر الفظيع.

﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾﴾ فهي أخت هارون اي المنتسبة إلى هذا الفرع المعروف، وهو من هو في ورعه وعفته، وهي ابنة عمران الرجل الخيّر المعروف بالصلاح، وما كانت أمها من المنحرفات، فكيف إذن ترتكب هذا العمل القبيح؟!

﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾﴾ فأفهمتهم بالإشارة أنّ عليهم أن يسألوه عن أمره فيزدادون تعجّباً وحيرة من أمرهما اذ كيف يكلّمون صبياً يرتضع؟

﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾﴾ وفي قلب العاطفة وفورانها تحقّق القصّة هدفها، إذ يعلن الرضيع ـ الذي اتّخذه البعض إلهاً جهلاً ومكابرة ـ ويصرّح أنّه عبدالله خصّه الله برحمته فآتاه الكتاب وجعله نبيّاً.

﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾﴾ ومنحه البركة وهي الخير المتزايد، له وهو يولد وينمو، وللناس اذ يهديهم نحو السعادة ويربّيهم تربية زاكية

ويقف إلى جانب الضعفاء والمحرومين، وأوصاه الله ـ مادام حيّاً ـ بالصلاة وهي قربان كل تقيّ وعمود الدين وصلة العبد بالله، والزكاة وهي قيام بحقّ المال، وسدّ للحاجات الاجتماعيّة.

﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾﴾ فهو إذن نموذج للإنسان الصالح الذي يبرّ والدته ويتواضع للناس ولا يشقى به أحد، وليس من الجبابرة الطغاة.

﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾﴾ وهو ـ كما رأينا يحيى من قبل ـ يولد في سلام ويموت ويبعث في جوّ السلام. وهكذا هو المؤمن الحقّ.

﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾﴾ هذا هو عيسى بن مريم على حقيقته. إنّه العبد الصالح لله وإنّه الإنسان البر المبارك المصلّي المزكّي المطيع لربه، لا ما يفتريه بعض أهل الكتاب من أنّه إله أو أنّه ابن الله، فإن الله هو الكامل الغنيّ القادر المطلق، فلا معنى لنسبة الولد إليه وهو خالق الكون بإرادته وينفذ أمره بلا تخلف وامتناع.

﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾ إنّه ربّ الكون والأنبياء والبشريّة جمعاء، وعليها أن تقوم بما تقتضيه هذه العبوديّة من اتّباع أوامره ونواهيه، فهي الصراط المستقيم نحو الكمال والسعادة.

﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾﴾ هذه هي حقيقة عيسى رغم اختلاف فرق النصارى فيه، رجماً بالظنون والأوهام واتّباعاً للمصالح الرخيصة وتقوّلاً عليه. والقرآن ينذرهم ويحذّرهم من مشهد يوم عظيم.

﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾﴾ إنّ البصر والسمع قويّان حديدان آنذاك، ولكنّهما اليوم كليلان يرهقهما الضّلال والضياع.

﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾﴾ إنّه اليوم الذي تتجلّى فيه حسرة الظالمين الذين منحهم الله كل مايمكن أن يحقّقوا به سعادتهم، من عقل باطنيّ ووسائل حسّيّة للمعرفة وأنبياء يهدونهم سواء السبيل، ولكنهم فرّطوا في كل ذلك وغفلوا عنه ولم يبق سبيل للنجاة.

﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾﴾ لقد قضي الأمر وورث الله الأرض والخلق ، وعادت المخلوقات إليه للحساب.

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾﴾ وينتقل القرآن إلى مظهر آخر للرحمة الواسعة، يتمثّل في دعوة أبي الأنبياء إبراهيم الصدّيق الصادق مع فطرته ومع ربّه ومع عائلته وقومه.

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾﴾ وهاهو يحاول مع أبيه ـ وقد يكون عمّه كي يثنيه عن طريق الوثنيّة، فهو ينكر عليه وهو الإنسان السامع المبصر العاقل أن يعبد وثناً لا يسمع ولا يبصر ولا يعقل شيئاً، كما لا يملك أن ينفع أو يضرّ في شيء.

﴿يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾﴾ ومن الطبيعيّ الفطريّ أن يتّبع الجاهل بشيء أمر من يملك العلم به، وقد حصل إبراهيم على العلم الواقعيّ المنسجم مع البرهان والفطرة، وهو أمر حرم منه أبوه، فينبغي له أن ينفتح على هذا العلم، وينتخب السبيل القويم؛ والإنسان مدفوع لذلك.

﴿يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾﴾ إنّ الوثنيّة مسلك شيطانيّ مضل، ينبع من غرور وضياع ووهم، يحوّل الشيء العاجز الفقير إلى وجود مطلق وهميّ، مقيّد لحركة الإنسان وداع إيّاه لعصيان الله الرحمن المنعم العظيم مما يؤهّل المرء لاستحقاق العذاب الإلهيّ، والانتقال من ولاية الله تعالى إلى ولاية الشيطان وهو ما يخافه إبراهيم على أبيه ناقلاً ذلك بلطف وبكل صدق.

﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْراهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾﴾ ولكن قلب الأب القاسي لا يقبل هذا الكلام الرحيم العطوف، وانما يستغرب ويحتجّ عليه بأنّه رغبة وخروج عن المسيرة التي جرى عليها الأبّ، وبالتالي فهو يهدّده بالقتل رجماً بالحجارة إن لم يرجع عن هذه الدعوة ويطلب منه الابتعاد عنه لمدّة طويلة.

﴿قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾﴾ ويعود إبراهيم الرحيم ليقول له: سلام عليك دون عنف وتحدٍ، واعدا إياه باستغفار الله الرحيم له لانه تعالى حفيّ بإبراهيم، يستجيب دعاءه ويكرمه.

﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاء رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾﴾ أمّا الاعتزال فهو ما يريده إبراهيم مبتعداً عن مجتمع الشرك والضلال، ملتجأ إلى الله، داعياً

أن لا يسلكه في درب الأشقياء المتكبّرين. وقد يكون الاعتزال أحياناً شكلاً مرحلياً من أشكال المواجهة مع الباطل.

﴿فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾﴾ وحين اعتزل قومه الضالّين، ومسلكهم الوثنّي الشيطانيّ شملته العناية والرحمة الإلهيّة ووهبته اسحق وبعده ولده يعقوب وهي إشارة إلى استمرار النبوة في ولده وبيته ليكون منار الهدى عبر الأزمان.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾﴾ لقد كانت ذريّة إبراهيم مهبط الرحمة وبيت التوحيد ومعدن الصدق، ومحور المقام الرفيع في التاريخ.

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾﴾ ويتمّ الانتقال هنا إلى مظهر آخر من مظاهر الرحمة الإلهيّة.

إنّه موسى رجل الإخلاص والمثابرة على الحقّ ـ ولذلك استخلصه الله ـ والرسول المبعوث لنشر الهدى بعد أن كان نبيّاً عنده من أنباء الغيب ما يصله بالله باستمرار.

﴿وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾﴾ وقد ناداه الله من الجانب الأيمن من جبل الطور وقربه إليه معنويّاً، ليناجيه ويقرّبه من أفضاله.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾﴾ وكان من رحمة الله أن أعطاه اخاه هارون النبي ليكون له معيناً ووزيراً.

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾﴾ كما كان إسماعيل مظهراً آخر من مظاهر الرحمة ونموذجاً إنسانيّاً سامياً، إذ كان صادق الوعد وكان رسولاً هادياً ونبيّاً متّصلاً بالله باستمرار. وكان يحث أهله على الصلاة اهتماماً بشأنها الرفيع ودورها في الحياة، كما كان يؤكّد على الزكاة والإنفاق لسدّ الخلل الاقتصاديّ وتحقيق التوازن المطلوب وبالتالي فهو يحقّق في فكره وحياته الهدف الذي يجب أن يطلبه المؤمن دائماً وهو رضا الله؛ لأنه أوسع المعايير وأعمقها وأدقّها في الحياة. (والظاهر أنّه غير إسماعيل بن إبراهيم).

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾﴾ وهكذا

يذكر ادريس النبي ويتم التركيز على صدقه المؤكد، كما تمّ التركيز عليه من قبل عند التعرض للأنبياء السابقين. وهي صفة يراد تركيزها في المؤمن دائماً، لأنّها تعني الانفتاح على الحياة والفطرة والآخرين بكل وضوح، مما يؤدّي لجوّ الثقة والتوازن والتعالي الأخلاقي، وبالتالي استحقاق المكانة الرفيعة عند الله تعالى، كما استحقها إدريس.

﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَن خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴿٥٨﴾﴾(سجدة مستحبة)

تأكيد على مسار السورة في تقديم النماذج العليّة التي تشملها الرحمة الإلهيّة فتقود المسيرة البشريّة إلى علائها: وتتركّز هذه النماذج في خطّ المهتدين الصادقين الذي يبتدئ بآدم ويسير في ذرّيته الصالحين ممن حملته سفينة نوح ويمتدّ في ذريّة أبي التوحيد إبراهيم ومن بعده إسرائيل (يعقوب) إنّه الخطّ المهتدي المجتبى من قبل الله لمهمّة الهداية العامّة، خطّ الصالحين الواعين المتفاعلين مع آيات الله الكاشفة عن جلاله وجماله وعظمته ورحمانيّته، فاذا تليت عليهم خرّوا لله ساجدين باكين متضرّعين.

﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾﴾ إلاّ أنّ البشريّة العمياء يغرّها الشيطان في فترات أخرى، فتقطع الصّلة بالله وتضيّع الصلاة، فتبتعد عن التقوى وعن ماضيها الصالح وتسيطر عليها الأهواء، فلا يبقى لها مصير إلاّ الخواء والغيّ والوهم والانحلال والظلام.

﴿إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا ﴿٦٠﴾ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا ﴿٦١﴾﴾ أمّا الجانب المضيء في التاريخ فهو مسيرة التائبين العائدين إلى الله، والمؤمنين به والعاملين للصالحات، فإنّها ستسعد في الدنيا ولها الجنات في الآخرة، جنّات الثبات والإقامة الدائمة التي وعدها الله بها، وكان وعد الله متحقّقاً بلاريب؛ لأنه القادر الصادق.

﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾﴾ إنّها جنّات القول الحقّ، والخلّو من اللغو والكلام الفارغ، والسلام والأمن والهناء بالرزق الإلهيّ الخالد الدائم.

﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾﴾ إنّها عاقبة عباد الله المتّقين الواعين للحقيقة.

﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾﴾ تؤكّد الروايات على أنّ هذه الآية والآية التالية هي قول أمر جبرئيل أن يقوله للرسول رداً على استبطائه للوحي. فهو لا يتنزّل إلاّ بأمر الله الذي يملك الأمر كله وهو تعالى لن ينسى أمر الهداية.

﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾ إنّه ربّ الكون، فله العبوديّة الكاملة والمولويّة والطاعة في كل سلوك فرديّ واجتماعيّ. وهذا هو مقتضى العقل القطعيّ، فيجب العمل والاصطبار على تحقيق رضاه قياماً بحقّ المولى والمالك الحقيقيّ للكون، وشكراً للمنعم العظيم والربّ الكريم الذي لا يشاركه أحد في الربوبيّة.

﴿وَيَقُولُ الْإِنسَانُ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ﴿٦٧﴾﴾ إستمرار في عرض شبهات الكافرين وكشف زيفها، فهم يستبعدون البعث بعد الموت، ناسين أنّ الله خلقهم قبل ذلك دون أن يكونوا شيئاً.

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾﴾ إنّه التهديد الرهيب بالحشر يوم القيامة مع الشياطين، والإحضار حول جهنّم جاثين على ركبهم أذلاّء بعد ان كانوا متكبّرين أشقياء.

﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾﴾ ثمّ بانتزاع رؤوس الكفر والعناد منهم الأشدّ تمرّداً على الرحمن، الذي شملت رحمته كل شيء، وقذفهم - أوّلاً بأوّل - إلى نارجهنّم جزاء على سبقهم في العناد وإصرارهم عليه.

﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾ وهنا يعلن القرآن أنّ الخلائق جميعها تشهد هذا العرض الرهيب وترد هذه الساحة بشكل قاطع وحينئذ يّنجّي الله المتّقين فيشعرون بعظمة النعمة، ويعبرون الصراط إلى الجنّة، ويُبقي الظالمين أمام لهبها جاثين اذلاّء ينتظرون العذاب.

﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا

وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ ومن الشبهات التي كان المشركون يردّدونها إغراءً للمؤمنين وإعجاباً بمسلكهم هم ماكانوا يقارنون فيه بين نواديهم المزيّنة بالأثاث والزخارف واللذائذ والمناظر، رغم أنّها تنكر آيات الله، في حين يقبع المؤمنون بها في فقرهم وعنائهم وبؤسهم، فأيّ الحالتين أفضل؟

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِئْيًا ﴿٧٤﴾﴾ ونسي هؤلاء المتفاخرون بأثاثهم وأبّهتهم ومناظرهم أنّ الله أهلك أقواماً كانوا أكثر تزيّناً وأثاثاً وبهاءً، فليس ذلك معياراً تقاس به السعادة وتقدّر به الحقيقة ويغترّ به المغترّون.

﴿قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَٰنُ مَدًّا حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾﴾ فليستمرّ هؤلاء في ضلالهم، وليمدّهم الرحمن بما يستمرّون به من متع رخيصة زائلة، حتّى إذا رأوا عذاب الدنيا أو موقف القيامة الرهيب فسيعلمون الحقيقة وراء كل الظواهر وسيعرفون أيّ الفريقين (المؤمنين والكافرين) هو الأدنى مكاناً والأضعف جنداً.

﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾﴾ أمّا الخطّ المؤمن فهو متكامل، يمدّه الله بالهدى المتزايد، ويفتح أمامه سبل العمل الصالح الباقية آثاره على مر الدهور، والتي ستتحوّل إلى ثواب إلهيّ ومأوى خيّر، يحقّق للإنسان كل مايصبو إليه من سعادة في الدارين.

﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾﴾ وهذا نموذج من سلوك المشركين وأقوالهم، إنّه يكفر بآيات الله ثمّ يدّعي أنّه سيؤتى مالاً وولداً، وكأنّه يدّعي أن الكفر مدعاة لتوفّر الخير والرفاه.

﴿أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾﴾ وكأنّه مطّلع على الغيب أو أنّه موعود من قبل الرحمن بذلك. ولكن الحقيقة واضحة في أنّه مجرّد ادّعاء وتكبّر ومحض افتراء.

﴿كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾﴾ كلا، إنّها افتراءات وتصوّرات باطلة يبتلى بها المبطلون باستمرار مكتوب عليهم، فتجرّهم إلى الخيبة والعذاب الممتد معهم إلى مابعد موتهم، ليواجهوا عواقبها يوم لا ناصر لهم ولا وليّ، وإنما يقفون لوحدهم أمام الله العظيم وعذابه الأليم.

﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾﴾ وإنّما أشرك هؤلاء بالله آلهةً؛ لأنّهم تصوّروا أنّها ستعزّهم وتنصرهم.

﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾﴾ ولكنّه الوهم القاتل فستكفر الآلهة نفسها بهذا الشرك وترفضه، بل تقف على الضدّ منه. حيث ستظهر الأمور على حقائقها وتنكشف الخفايا.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾﴾ بل ألا ترى الشياطين اليوم تحرّك الكافرين وتؤزّهم نحو الفساد الذي فيه هلاكهم وضياعهم؟ فهي في الواقع تعمل ضدّهم رغم أنّهم يعبدونها، فكيف تكون لهم عزّاً.

﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾﴾ فلا عجلة في الأمر، ذلك أن كل ما يقومون به معدود مسجّل عليهم، ليوفّوا حسابهم يوم الحساب.

﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾﴾ يوم تتميّز الصفوف، فهذا وفد مكرم من المتّقين يتّجه نحو الرحمن وعطائه، وهذه مجموعة مهانة من المجرمين تساق إلى جهنّم فترد الهوان.

﴿لَّا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾﴾ وإذا كان المشركون يتّخذون من دون الله آلهة لتشفع لهم آنذاك، فذلك وهم باطل. فالشفاعة لا تتمّ إلاّ بعهد من الله يعطيه للمقرّبين.

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾﴾ وهذا انحراف آخر يلقي صاحبه في حضيض الشرك: إنّه ادّعاء الولد لله عملاً بقياس التشبيه، وهو مزلّة الأقدام ونتيجة الضعف في التصوّر وتصعيد ذهنيّ للمخلوق إلى مرتبة الخالق سبحانه.

﴿لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾﴾ فهو أمر فظيع تتفطّر السماوات لبشاعته وتنشقّ الأرض وتخرّ الجبال وتتحطّم، لفرط انحطاطه، لأنّه يعني التشبيه لله بمخلوقاته والتجسيم والنقص والحاجة والمحدوديّة وكلها يتنزّه عنها سبحانه.

﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ

عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾ فكل من في السماوات والأرض عباد لله مطيعون، لا يملكون من أمرهم شيئاً، وهم في كنفه يعيشون ويُرزقون ، تعدّهم يد القدرة وتحصيهم، وكل فرد منهم سيقدم على ربّه وحيداً راجياً عونه ولطفه.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾﴾ وعلى العكس من المشركين وأقوالهم التي تملأ الكون رهبة ورجفة ولعنة عليهم، يتحدّث القرآن هنا عن جوّ المحبة الذي يحيط بالمؤمنين العاملين للصالحات، وعن عهد الرحمن لهم بأن يلقي مودّتهم في قلوب الناس.

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾﴾ وبالتالي فإن رحمة الله تجلّت أروع تجلّ في القرآن الكريم، الذي يحمل أعظم المعاني والتعاليم، وقد يسّرت وسهّلت بهذا اللسان العربيّ المبين، ليستقي منه المتّقون البشرى بالحياة السامية، وليمكن أن يترك تأثيره في الأناس الذين عاصرهم الرسول فينذرهم عاقبة عنادهم اذ كانوا قوماً مجادلين مخاصمين.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴿٩٨﴾﴾ ولكن لا مجال للعناد واللجاج بعد هذا التاريخ المفتوح أمامهم بكل الأمم التي عاندت فرأت وبال أمرها ضياعاً في متاهات النسيان، فلم يعد لها وجود ولم يبق منها أحد ولا يسمع لها صوت يذكر.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تحدّثنا من قبل عن البسملة.

﴿طه ① مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ②﴾ خطاب للرسول الكريم يعمل على تقليل اندفاع الرسول ومشقّته في التعامل مع الرسالة وإتعاب نفسه في حمل القرآن، بل وإلقائها في العذاب والمشقّة الزائدة، سواء في التعبّد أو في التعامل مع الآخرين.

﴿إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَى ③﴾ إنّ هذا القرآن تذكرة لمن خشي الله واتّقاه و شاء الوصول إلى الحقيقة والتعبّد المطلوب، والاستجابّة لما ركّز في الفطرة من ميل نحو التديّن.

﴿تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى ④ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ⑤﴾ وهو منزل من خالق الكون والوجود بمقتضى رحمته الواسعة وهدايته للكون، تشريعاً عبر إرسال الأنبياء والكتب، وتكويناً عبر سيطرته على العرش وهو مركز إدارة الكون.

﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى ⑥﴾ فله ملكيّة الكون الحقيقيّة بما فيه من سماوات وأرض وما بينهما وما تحت الثرى (التراب)، وهي حقيقة إذا تقرّرت في النفوس غيّرت النظرة للأشياء ووجّهت الإنسان نحو الرؤية الصحيحة والمنهج المطلوب.

﴿وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ⑦﴾ وهو ـ تعالى ـ عليم بكل شيء ومحيط بالأشياء، فكلها ماثلة أمامه فلا فرق بين جهر وسرّ، بل إنّ ما هو أخفى من السرّ وهو حديث الضمير الذي نسيه الإنسان وبقي في لا شعوره، معلوم له. وبالتالي فإن الله مع الرسول بعلمه ولطفه يسدّد خطاه ويقوّي من عزيمته.

﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ⑧﴾ إنّه الله الواحد المتصرّف في الكون والمتّصف بكل صفات الجمال والجلال، وله كل الأسماء الدالّة على معاني الكمال والجمال.

﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ⑨﴾ ويذكر هنا حديث موسى وتسديد الله له في مسيرته الشاقّة، انسجاماً مع مطلع السورة.

﴿إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى

النَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾ هاهو موسى يعود بأهله من مدين بعدما قضى مدّة تعهّده لشعيب إلى مصر، وفي الصحراء يضلّ طريقه فيبصر على البعد و هج نار بعيدة فيطلب من أهله أن يمكثوا مكانهم ليذهب هو باتّجاه النار عسى أن يجلب منها شعلة أو يعرف الطريق الصحيح ممن أوقدها.

﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِي يَا مُوسَى ﴿١١﴾ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾﴾ فلما وصل إلى النار نودي بنداء الجلال الإلهيّ وأنّه في الحضرة الإلهيّة وحظوتها، وطلب منه أن يخلع نعليه، لأنه في طوى، وهو الوادي المقدس؛ لأنه منتسب لله، وكل ما ينتسب لله مقدس.

﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى ﴿١٣﴾﴾ نداء الاختيار الإلهيّ لموسى ومنطلق الوحي والرسالة.

﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴿١٤﴾﴾ إنّ التوحيد هو أساس الرسالةالإلهيّة ولذا يأتي التأكيد عليه بكل أدوات التوكيد، ومن التوحيد تنطلق العبادات والتشريعات، وفي مقدّمتها الصلاة فهي عمود الدين، وهي قربان المتّقين وهي مثال رائع لذكر الله.

﴿إِنَّ السَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى ﴿١٥﴾﴾ والإيمان بالقيامة هو الركن الآخر للعقيدة ويبقى العلم بها مجهولاً يترقّبه الإنسان المؤمن، ويسعى له كي يدخله طاهراً سليماً، وهو يعلم أن كل ما عمله في هذه الدنيا سيواجهه في الآخرة إن خيراً فخير وإن شرّاً فشرّ.

﴿فَلاَ يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لاَ يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى ﴿١٦﴾﴾ إنَّ الإيمان بالآخرة سرّ السير الصحيح على خطّ التكامل، فيجب التمسّك به وعدم الاستماع إلى من أنكرها، لأنه اتّبع هواه وشهواته، فأنكر أن يحاسب، وظنّ أن الأمر قائم على العبث فانحطّ إلى الدرك الأسفل.

﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى ﴿١٨﴾﴾ ويبدأ هنا موضوع إعجاز موسى باعتباره علامة صدقه، فالمعجزة لا يقدر عليها إلاّ الله؛ لأنها تخرق القوانين السائدة، والله لا يجريها إلاّعلى أيدي الصادقين، فيسأل موسى عما في يمينه، فيجيب بأنها عصاه التي يتوكّأ عليها ويخبط بها أوراق الشجر لإطعام الغنم، بالإضافة للمنافع الأخرى وكلها منافع عادية.

﴿قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى ﴿١٩﴾ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى ﴿٢٠﴾﴾ ويؤمر موسى بإلقائها فإذا بها تتحوّل إلى حيّة متحرّكة تدبّ فيها الحياة.

﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى ۝٢١﴾ وعندما يحسّ بالرهبة من هذه الحالة يؤمر بأخذها، لتعود بأمر الله عصا كسابقها.

﴿وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاء مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى ۝٢٢﴾ وأمره أيضاً بوضع يده تحت إبطه ليخرجها بيضاء دونما آفة أو مرض.

﴿لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى ۝٢٣﴾ إنهما آيتان من آيات الله الكبرى ترتبطان بالتكامل، والتحوّل والتكامل يعني الانتقال إلى حالة أكمل بتأثير قدرة فاعلة تهب الحالة الأكمل، ويتوضّح الأمر بجلاء عندما توهب الحياة وهي السرّ العظيم.

﴿اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ۝٢٤﴾ إنّها وظيفة كبرى أن ينطلق إلى فرعون الطاغية فيكسر طغيانه.

﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ۝٢٥﴾ ولكي يضمن القدرة على تحقيق المهمّة على أكمل وجه، يسأل موسى ربّه أن يمنحه أشياء؛ في مطلعها شرح الصدر ليتحمّل المشكلات مهما عظمت.

﴿وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ۝٢٦﴾ ومنها تيسير الأمر فالله هو الميسّر، فلا تنفع طاقة الإنسان دون تيسيره.

﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ۝٢٧ يَفْقَهُوا قَوْلِي ۝٢٨﴾ ومنها: أن يحلّ عقدة في لسانه ربما كانت تمنعه من توضيح مقصوده تماماً.

﴿وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ۝٢٩ هَارُونَ أَخِي ۝٣٠ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ۝٣١ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ۝٣٢﴾ ومنها: أن يعينه باخيه هارون، ويشدَّ أزره به، ويشركه في أمر الرسالة وتحقيق المهمّة الكبرى، وليشتركا في التسبيح والذكر الكثيرين.

﴿كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ۝٣٣ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ۝٣٤ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ۝٣٥﴾ فالتسبيح والذكر هما مادّتا التكامل النفسيّ، وتحصيل القابليّة للطف، وهما حبل الوصل مع الله الذي يراقب عبده ويبصر تحرّكاته، فهو حاضر عنده يعلم حاجاته ويسدّد خطاه.

﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى ۝٣٦ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى ۝٣٧﴾ واستجاب الله لموسى هذه الأدعية، وذكّره بألطافه عليه منذ ولادته.

﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى ۝٣٨ أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي ۝٣٩﴾ فهاهو

يرعاه رضيعاً، اذ يوحي إلى أمّه أن تضعه في صندوق ثمّ تقذفه في النهر لينقله النهر إلى الساحل ليتسلّمه عدوّ الله وعدّو موسى وهو فرعون. وهكذا ينجو الطفل من الموت نتيجة الأمر الفرعونيّ بقتل كل ذكر يولد في بني إسرائيل، كما يلقي الله محبّة منه عليه فينصرف فرعون عن قتله.

وهكذا يصنع موسى على عين الله، ومن كان كذلك لا يمكن أن يمسّه سوء. وكذلك ينمو هذا الموجود الضعيف الذي لايجد عند ولادته موضعاً من الأرض يستقرّ عليه، ينمو في قلب القدرة الطاغية، ثمّ يقضي عليها؛ لأنّه يصنع على عين الله.

﴿إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ ويرعاه الله ايضاً عندما يردّه إلى أمّه من خلال رصد أخته له، وحين رأت رجال فرعون يطلبون مرضعة له اقترحت عليهم أمّه مرضعة له لتقرّ عينها بطفلها ولا تحزن. كما يحوطه بعنايته عندما قتل القبطي انتصاراً للإسرائيلي المظلوم، فهداه للاستغفار والفرار من القصاص، وما تلا ذلك من حوادث وامتحان وفتن حتّى استقرّ لسنين في أرض مدين. وفي الوقت المقدّر يرجع موسى إلى مصر، وفي الطريق حدثت حادثة البعثة.

﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴿٤١﴾﴾ وهذا تشريف عظيم لموسى أن يستخلصه الله لنفسه، ولكنّ ذلك لا يعني تكريساً للذات الإلهيّة فالله هو الغني المطلق وإنما يعنيّ تكريساً للطف الإلهيّ بالبشريّة باختيار القادة الأفضل لقيادتها نحو العلاء.

﴿اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي ﴿٤٢﴾﴾ فلينطلق موسى بآيات الله وبراهينه وأحكامه، يعينه أخوه دون أن يضعفا أو يفترا في هذه الانطلاقة عن ذكر الله والتذكير بالله.

﴿اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾ وليذهبا إلى فرعون الطاغية، ولكن عليهما أن يتعاملا معه بالقول اللّين عسى أن يكون ذلك سبباً في تذكّره وانتباهه أو خشيته من الله. وهذا من الأصول الأوليّة للتبليغ في الإسلام، حيث اللّين والمرونة بداية حتّى مع أشدّ الطغاة.

﴿قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾﴾ وهنا يتخوّف الرسولان من أن يتجاوز فرعون حدّه أو أن يشدّد العذاب، وهو جبّار طاغية.

﴿قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى ﴿٤٦﴾﴾ ولكن الله يشدّ من أزرهما ويعدهما بالنصر المستمرّ وهو يراقبهما باستمرار، ولاخوف لمن كان الله معه.

﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴿٤٨﴾﴾ ويأمرهما بان يعلنا لفرعون أنّهما رسولان من ربّه ورب كل المخلوقات، ويطلبا منه أن لا يمانع في حركة بني إسرائيل بقيادتهما إلى الأرض المقدّسة، ولامعنى للتمرّد وهو يشاهد آية معجزة من الله تدل على صدقهما، وسيكون مشمولاً بالسلام والأمن إن هو اتّبع الهدى وامتنع عن الظلم والطغيان.

﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَى ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴿٥٠﴾﴾ وهنا تساءل فرعون عن ربّهما، وكأنّه لا يريد أن يعترف به ربّاً له، فأجابه موسى إنّ ربّه هو الله الذي خلق الأشياء كلها ثمّ هداها إلى كمالها.

﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى ﴿٥١﴾﴾ وراح يتساءل ثانية عن الموقف من القرون الماضية التي فنت ومن ربّها؟ وماذا سيكون مصيرها؟ وكيف تجازى؟

﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾﴾ فأحاله موسى إلى علم الله الواسع بكل شىء فلا يغيب عنه شيء مطلقاً، ولامعنى فيه للضلال والنسيان، وكل الأشياء حاضرة لديه، يرقبها ويهديها ويعلم مسيرها ومصيرها.

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى ﴿٥٣﴾﴾ ويستمرّ موسى في عرضه المنطقيّ لنعم الله، فيؤكّد أن الهدي الإلهيّ الشامل واضح لكل بصيرة، فها هي الأرض ممّهدة للحياة الإنسانيّة بأروع تمهيد، فلا هي صلبة لايمكن اختراقها أو زراعتها، ولاهي رخوة لايمكن الاستقرار عليها، وها هي السبل والطرق الممهّدة للتواصل، وهذا الغيث الإلهيّ النازل بالرحمة من السماء ليحيى الأرض، فإذا بها غنيّة بالنباتات المتنوّعة وهي ـ كسائر الأحياء في الكون ـ مشمولة لقانون الزوجيّة الرائع.

﴿كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُوْلِي النُّهَى ﴿٥٤﴾﴾ ويتواصل هذا التناسق

الكونيّ الشاهد على الهداية والتخطيط الإلهيّ، من خلال انسجام المحصول الزراعيّ مع الحاجة الإنسانيّة والحيوانيّة إليه. وهو انسجام يبعث ذوي العقول على الخشوع للهادي الحكيم.

﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴿٥٥﴾ وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى ﴿٥٦﴾﴾ ويستمر التذكير بهذا الانسجام الرائع بين الإنسان والأرض، حيث خلق منها وتكوّنت شخصيته واشبعت حاجاته، ثمّ هو سيعود فيدفن فيها ليعود جزءاً منها وتراباً فيها، ثمّ ليخرج منها حيّاً للحساب، ولتكتمل فصول المسيرة وهدفيّتها، ورغم هذه الآيات والمشاهد الواضحة، فإن الطغيان الفرعونيّ يلجأ للتكذيب و العصيان.

﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى ﴿٥٧﴾﴾ ويحاول فرعون هنا أن يستخدم سلاح التهمة ـ بعد أن لم ينجح في التشكيك المنطقيّ ـ فيتّهمه بالسحر من جهة، وبالعمل على تهجيرهم من أرضهم تحريكاً للعامّة من جهة اخرى.

﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾﴾ ويهدّده بسحر يقابل سحره (المدّعى) ويطلب تحديد موعد لهذا التحدّي، لايتخلف عن حضوره الطرفان، ويكون مكشوفاً مفتوحاً للجميع وفي مفترق طرق.

﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾﴾ وقبل موسى التحدّي وأن يتمّ ذلك يوم عيد الزينة وعند ارتفاع الشمس، ليكون المشهد واضحاً للعيان.

﴿فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى ﴿٦٠﴾﴾ وراح فرعون يستعين بقواه المادّيّة، وكل مكره وخداعه وملئه وجبروته ليملأ المشهد رهبة.

﴿قَالَ لَهُم مُّوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى ﴿٦١﴾﴾ وقبل التحدّي راح موسى يعظهم ويحذّرهم من عذاب الله وإهلاكه لهم، ومن خيبتهم نتيجة تكذيبهم بآياته.

﴿فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى ﴿٦٢﴾ قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى ﴿٦٤﴾﴾ وقد ترك الوعظ أثره في بعض النفوس، فراحت تتحدّث إلى بعضها حديثاً خافتاً إلاّ أنّ المنحرفين راحوا بغوغائيّتهم يحمّسون

الآخرين ويذكّرونهم بما ادّعوه لموسى وأخيه من أنهما يريدان سلب أرضهم، بل سلب منهج حياتهم الوثنيّ ـ و هو المنهج الأصحّ في نظرهم ـ ويحرّضونهم على شدّ العزائم وتجميع الكيد ووحدة الصف، ويرتفع الشعار الفرعونيّ الإستكباريّ (وقد افلح اليوم من استعلى)

﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى ﴿٦٦﴾﴾ وخيّروا موسى في البدء بهذه المنافسة فترك لهم ان يبدأوا هم ـ ولعلّه أراد أن يعرضوا كل ما لديهم ثمّ ينقضّ على سحرهم وباطلهم فألقوا حبالهم وعصيّهم فخيّل له وللناس طبعاً أنها أفاع تسعى لتواجه معجزته بمثيلاتها.

﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَى ﴿٦٧﴾﴾ فأحسَّ موسى إحساساً خفيّاً بالخوف من تمويه السحرة على الناس.

﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَى ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى ﴿٦٩﴾﴾ ولكنَّ الله تعالى يذكّره بأنّه المنتصر، فليلق بعصاه لتتحوّل إلى ثعبان عظيم يلقف كل هذا الوهم، وهو محصول لكيد ساحر، و لايفلح الساحر مطلقاً، لأنه يبني سحره على التخيّل والوهم لا الحقيقة التي يحملها موسى والتي تمحو ما يأفك السحرة من الوجود.

﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى ﴿٧٠﴾﴾ وهذه هي لحظة التحوّل الكبير، حيث تتجلّى الحقيقة بكل إشراقها، ويشعر السحرة بروعتها أمام ما كانوا يعرفونه من وهم، فيسجدون لله مؤمنين واعين. إذ أنّهم استطاعوا أن يميّزوا بخبرتهم بين الوهم والحقيقة.

﴿قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى ﴿٧١﴾﴾ مقولة فرعونيّة عجيبة حيث يحاول الطغاة أن يستولوا على كل شيء في حياة الناس، فحتى الإيمان ـ ومكانه القلب يجب أن يتمّ بإذنهم ولذلك يعتبر فرعون إيمان السحرة بدون اذنه خروجاً عليه. ثمّ يوجّه التّهمة الأكبر لزعيمهم ومعلّمهم موسى عليه السلام بالتآمر والخيانة، وكأنّه رتَّب هذه النتيجة من قبل، وبالتالي يهدّدهم بالعذاب الشديد بتقطيع الأيدي والأرجل من خلاف (كاليد اليمنى والرجل اليسرى) والتصليب في جذوع النخل. إنّه منطق

الطغاة الدائم: كمّ الأفواه وإغلاق العقول والاتهام بالخيانة، والتهديد الرهيب.

﴿قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٧٢﴾﴾ وفي قبال ذلك يأتي منطق الإيمان الصلب الواعي المستشعر للذّة الحقيقيّة. فالدلائل الواضحة قد فتحت امام السحرة عالماً رائعاً، لايؤثرون عليه حياة فرعون الخاوية. والحياة المعنويّة أغلى من هذه الحياة المادّيّة فليقض عليها فرعون.

﴿إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴿٧٣﴾﴾ لقدسما إيمانهم فراحوا يستغفرون ربّهم، ويطلبون منه تخليصهم من الحياة الفرعونيّة التي تُكره النّاس على السحر والوهم، والملوّثة بالفناء، والارتفاع إلى الحياة الإلهيّة المفعمة بالخير والبقاء.

﴿إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيى ﴿٧٤﴾ وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُوْلَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى ﴿٧٥﴾﴾ ولا تقاس حياة الإجرام التي تعقبها حياة جهنميّة مردّدة دائماً بين الحياة والموت، إلى حياة الإيمان والعمل الصالح، التي ترقى بهم إلى الدرجات العالية.

﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاء مَن تَزَكَّى ﴿٧٦﴾﴾ حيث الخلود في جنّات الإقامة الرائعة، جزاء للتزكية التي تمّت في الدنيا. وهكذا يأتي شعار (قد أفلح من تزكى) قبالة الشعار الفرعونيّ (وقد أفلح اليوم من استعلى)

﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى ﴿٧٧﴾﴾ وعندما يفشل فرعون في موقف التحدّي، يبدأ بعملية الترهيب وتنفيذ الوعيد فينزل الوحي على موسى بالسير بقومه ليلاً للخلاص من أذى فرعون، والاتّجاه نحو البحر الذي سيوفّر الله له فيه طريقاً يابساً، لاخوف فيه من أن يدركهم فرعون، ولاخشية فيه من الغرق.

﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾﴾ ويتحرّك فرعون بجبروته وجيشه للقضاء على موسى وأتباعه ويحاول أن يستفيد من نفس الطريق فيغطّيهم الماء ويغرقهم.

﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى ﴿٧٩﴾﴾ لقد قاد فرعون قومه إلى الضّلال وهكذا هم الطغاة دائما لاخير فيهم ولا هدى.

﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى ﴿٨٠﴾ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى ﴿٨١﴾﴾ ويلتفت القرآن إلى بني إسرائيل يذكّرهم بنعم الله الدائمة، بتخليصهم من عذاب العدو والانتقال إلى الجانب الأيمن من جبل الطور، حيث تحقّق الوعد الإلهيّ بإنزال التوراة، وإنزال المن (وهو طعام حلو يتجمّع على أوراق الشجر) والسلوى (وهو طائر السماني) لينعموا به ويسدّوا جوعهم في مسيرتهم الطويلة، ويشكروا الله ولايسرفوا ويطغوا فيه، إذ أن ذلك يغضب الله، والغضب الإلهيّ على قوم يقودهم إلى الضياع والهوي.

﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى ﴿٨٢﴾﴾ في حين تقود العودة إلى الله واكتساب مغفرته، وتعميق الإيمان والعمل الصالح إلى الهدى والنور والرقي.

﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَى ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُولَاء عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾﴾ ويستمرّ التذكير بالنعم، للتأكيد على شكرها والتحذيرمن الكفر بها وزوالها، وكانت نعمة إنزال التوراة من أعظم النعم، وقد سبق موسى المجموعة التي كانت معه، إلى مناجاة ربّه وتلقّي تعاليمه، ولذا أجاب على السؤال عن سبب استعجاله بأنّه هو الحصول المبكر على الرضا الإلهيّ، وأن قومه على الأثر، في حين أعلمه الله بأنّ قومه الذين تركهم برعاية أخيه هارون قد فشلوا في مطلع التجربة، وسقطوا في الامتحان، حيث استجابوا لفتنة السامريّ بعد أن ابتعد عنهم قائدهم ورسولهم لأيام معدودة.

﴿فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي ﴿٨٦﴾﴾ وعاد موسى إلى القوم يسوده الحزن والغضب، لهذا الفشل المبكّر وهذا التراجع، وذكّرهم بالوعد الإلهيّ الحسن بإنزال التوراة، وفيها النور والهدى، وتساءل عن علّة هذا الانحراف الكبير، والانقلاب على الأعقاب أهو طول ابتعاد القائد عنهم أو هو الرغبة في حلول الغضب الإلهيّ وخلف الوعد للقائد بالبقاء على نهجه؟

﴿قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾﴾ وهنا تذرّع بنو إسرائيل بأن هذا الانحراف كان رغماً عنهم، فلقد أغراهم السامريّ الذي جمع ما طرحوه من حليّ المصريّات التي كانت معهم يحملونها فنبذوها للتخلص منها، فأخذها وصاغ منها عجلاً مجسّداً من ذهب ودعاهم لعبادته، وأثار فيهم الروح المادّيّة وحبّ الذهب.

﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَٰذَا إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾﴾ وكان عجل الذهب الجامد هذا قد صيغ بشكل اذا هبّت عليه الريح أصدر ما يشبه خوار العجل، وهكذا استطاع السامريّ أن يغريهم، زاعماً هو ومن معه أنّ إلههم وإله موسى قد تجسّد في هذا العجل، وقد نسيه موسى هنا وراح يبحث عنه في جبل الطور!! وهكذا عاد القوم إلى الصنميّة التي فروا منها، ثمّ اتّهموا نبيّهم بالبعد عن ربّه.

﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾﴾ ويكفي في معرفة سخف هذا الادعاء، أن يلاحظ هؤلاء أن هذه الدمية لا تسمع قولهم ولاتستجيب لهم، فضلاً عن أنّها لا تملك لهم نفعاً ولا ضرّاً.

﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَٰنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴿٩٠﴾ قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾﴾ ولم تنفعهم نصائح هارون وتحذيراته من الفتنة، وأنّ ربّهم هو الرحمن، وأنّ عليهم اتّباعه واطاعة أمره، وهونبيّهم ونائب قائدهم، بل أصرّوا على الانحراف والعكوف على هذه الدمية الذهبيّة حتّى يرجع موسى إليهم.

﴿قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴿٩٣﴾﴾ ويتوجّه موسى لأخيه هارون باللّوم على عدم اتّباع أمره وطريقته، وعدم منعهم من الضّلال والانحراف والفساد.

﴿قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾﴾ وهنا يحاول هارون أن يهدّئ أخاه مذكراً إيّاه بالرحم، طالباً منه عدم الأخذ برأسه ولحيته، مبرّراً عدم الشدّة في مقاومة الفتنة، بأنّ ذلك كان سيؤدّي إلى التفرقة والتمزّق مع أنّ موسى كان قد أمره بأن لا يحدث فيهم أمراً.

وغضب موسى وردّة فعله الشديدة هذه أمر طبيعيّ، فهو صاحب رسالة توحيديّة منقذة للبشريّة وتحتاج إلى من يحملها بقوة إيمانيّة وإذا به يواجه الواقع المرّ والسقوط المريع، ومن الخطوة الأولى في وهدة الشركوالضلال.

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴿٩٦﴾﴾ وراح موسى يسأل السامريّ عن أمره، ليجيب بأنّه كان ماهراً في الصياغة، فلاحظ الحليّ التي أخذت من المصريات بأمر الرسول، فكانت من الأمور المتعلّقة به، فأخذها ونبذها في النار وصاغ منها الدمية الذهبيّة واعترف بأن ذلك تسويل وإغراء نفسيّ لاغير.

﴿قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُ وَانظُرْ إِلَىٰ إِلَٰهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾﴾ وهنا حكم عليه موسى بالطرد والإبعاد، وأمره بعدم ارتباط أي أحد به، حتّى يأتي وعد الله وعقوبته، ثمّ أمر بإعدام العجل وسحقه ونسفه وإلقائه في الماء لتموت هذه الأسطورة الزائفة.

﴿إِنَّمَا إِلَٰهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾﴾ ويعود القوم إلى رشدهم في ظل الإيمان بالله الواحد لاشريك له، العليم بكل شيء والمحيط بكل المخلوقات والمطلق الذي لايحدّه شيء.

وبهذا يسدل الستار على تجربة كبرى وخطأ جسيم ارتكبته جماعة، أريد لها أن تصنع التاريخ فأرداها العمى إلى الحضيض، لولا أن تداركتها رحمة الله، وهيّأت لها القيادة الرشيدة المنقذة.

﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾﴾ وكذلك يعرض القرآن على الرسول ـ وبالتالي على أمّة الرسول ـ قصص الماضين وصراع خطّي الكفر والإيمان ، وجهاد الأنبياء، وانتصارهم، ليقوى بذلك قلب الرسول وتعرف الأمّة مسيرتها، وتلتزم بالخطّ الذي يرسمه القرآن لها.

﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾﴾ إنّ القرآن سبيل السعادة فأيّ إعراض عنه في الدنيا يعني الدخول في سلك الإجرام، ويعني التعرّض لأثقال يوم القيامة وأوزارها، والخلود في الشقاء وتحمّل الاعباء.

﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾﴾ يوم ينفخ في البوق إعلاناً ببدء القيامة، فإن هؤلاء المعرضين عن الذكر سيحشرون زرق العيون والوجوه من الخوف والهلع، وتسيطر عليهم رهبة الموقف، فهم يتخافتون ويتهامسون ويتصوّرون أنّهم لم يلبثوا في الدنيا إلاّعشرة أيام، ولكنهم يدركون أنّ ما عاشوه في الدنيا لا يعدّ شيئاً في قبال الآخرة، وهكذا فرّطوا في نعيم دائم، واستحقّوا الخلود في الشقاء لقاء تنعّم زائف في وقت محدود.

﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾﴾ والله تعالى محيط بهم، يعلم نجواهم، حيث يذكّرهم أعقلهم بأنّ الحياة الدنيا لم تكن إلاّ يوماً فقط، في قبال هذه الحياة الآخرة الخالدة، فليس من المعقول أن تلتذّ الذات بيوم قصير وتستسلم للعذاب الخالد بعد ذلك.

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴿١٠٧﴾﴾ إنّه اليوم الذي يشهدون فيه حسّاً جواب تساؤلهم عن هذه الجبال العظيمة وما مصيرها؟ حيث ينسفها الله ويذرها ويحوّلها إلى أرض مستوية خالية لا انخفاض فيها ولا ارتفاع.

﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَت الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾﴾ وهنا يدعوهم داعي الله إلى الحشر، فيستجيبون له دون أي تمهّل أو استنكاف، ويسودهم الخشوع لعظمة الرحمن، فلا يصدر منهم إلاّ الهمس والصوت الخفيّ.

﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾﴾ إنّه يوم القضاء بالعدل وتحقّق الوعد والوعيد دونما مانع، وحيث لاتنفع الشفاعة إلاّ من إذن الله تعالى له بذلك وارتضى قوله، وفي الآية إشارة لحصول الشفاعة للمقرّبين، ولكن بإذن من الله وبتحقّق شروطها.

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ﴿١١٠﴾﴾ إنّه يوم تجلّي العلم الإلهيّ المحيط بالإنسان من أمامه ومن خلفه، أما علم الإنسان فهو أعجز من أن يصل إلى الإحاطة بآفاق العلم الإلهيّ.

﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾﴾ هناك تخشع الوجوه وتذلّ

النفوس أمام تجلّي الحياة والقيوميّة الإلهيّة المحيطة، والمهيمنة والمسيطرة على كل شيء وحينذاك يخسر الظالمون.

﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾﴾ أمّا خطّ الإيمان فهو الفائز آنذاك، لا يخاف ظلماً ولا يتوقّع نقصاً في الثواب.

﴿وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾﴾ هكذا هو القرآن العربيّ في ألفاظه ومعانيه الواضحة، الموضّح للطريق والمحذّر من العذاب، كيما يمشي الإنسان على الصراط السويّ ويتذكّر الحقيقة دائماً.

﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾ إنّه الله العظيم المتعالي على كل نقص، والحقّ الثابت قبل كل شيء ولا حقيقة لغيره إلاّ به، وهو منزّل القرآن العربيّ المبين، الذي علّم النبي به إجمالاً من قبل، فيجب أن لا يعجل بقراءته قبل إكمال الوحي له، كما يجب أن يطلب من الله أن يزيده علماً باستمرار، وهكذا يدعو القرآن إلى الاتّجاه الدائم نحو السماء وانتظار الأمر الإلهيّ والاستزادة من العلم.

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴿١١٥﴾﴾ واستمراراً لذكر فضل الله على الأنبياء، تذكر هنا قصّة النبي آدم عليه السلام اذ شاء الله أن يمرّ بتجربة الجنّة، والالتزام بالأوامر الإلهيّة بدقّة، والتحلّي بصفة التوبة التي تعيد الإنسانيّة إلى حالتها الطبيعيّة، بعد أن تنسى ذلك في لحظة ما وتفقد عزمها وإرادتها.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى ﴿١١٧﴾﴾ ولتعلن في البدء كرامة الإنسان، تؤمر الملائكة بالسجود له وإعظامه، ويأبى إبليس لطغيانه أن ينفّذ الأمر، ويأتي التحذير لآدم ليشخّص مكمن الخطر له ولزوجه، إنّه ابليس ووساوسه التي تخرج الإنسان من جنّته وسعادته وتلقيه في الشقاء.

﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى ﴿١١٩﴾﴾ وهاهي الجنّة توفّرت لآدم بكل نعمها: فلا جوع ولا عري ولا ظمأ ولا شمس حارّة، فلينعم بها وليسترشد بأمر الله بعدم القرب من شجرة معينة.

﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى ﴿١٢٠﴾﴾ ولكنّه النسيان وعدم التجربة، إذ يقع فريسة وساوس العدو الذي يركّز على ميل إنسانيّ فطريّ للكمال والبقاء، والتملّك المستمر والخلود وهو ما يتجاوز ما توفّر له، فيصوّر لآدم أن ذلك لا يتوفّر إلاّ بسلوك طريق المعصية والأكل من الشجرة المنهيّ عنها.

﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ﴿١٢١﴾﴾ ولعدم التجربة أكلا من الشجرة، وعلى التوّ واجها عاقبة المعصية، اذ انكشفت لهما عوراتهما، وربما كان ذلك تعبيراً عن انكشاف حالة العصيان، وعدم الحياء، أو تحرّك الغريزة الجنسية فيهما، فراحا يغطّيان ذلك بورق الشجر.

﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى ﴿١٢٢﴾﴾ وهنا يأتي العطف الإلهيّ ويتوب الله عليه ويهديه الصراط السوي.

﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴿١٢٣﴾﴾ وتبدأ هنا مسيرة الإنسان في الأرض، وهو في الأصل قد خلق لها، وليكون خليفة لله فيها، ولكنه كان محتاجاً لاجتياز تجربة الجنّة لينفتح على الصراع بين الحقّ والباطل. سائراً نحو الكمال، مسلّحاً بتجربة الجنّة محفوفاً بالتوبة الإلهيّة والهدى، مشخصاً عدوّه الطاغي، عارفاً أنّ كماله يكمن في اتباع الهدى الربانيّ، ليبتعد عن الضّلال والشقاء. إنّه خير درس للحياة الإنسانيّة.

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴿١٢٤﴾﴾ أمّا الإعراض عن الذكر، وما أنزل الله فليس يستتبع إلاّ الشقاء والحياة الصعبة والعمى الأخرويّ.

﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾﴾ ويعترض الإنسان على أن حُشر أعمى وقد كان في الدنيا بصيراً.

﴿قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى ﴿١٢٦﴾﴾ ليجاب بأنّه جزاء تصرّفه في الدنيا، إذ جاءته آيات الله لتفتح قلبه على طريق النور، فتغاضى عنها وتناساها، فابتلي بعذاب الإهمال والنسيان يوم القيامة.

﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى ﴿١٢٧﴾﴾ إنّه

أسرف وتجاوز الحد الطبيعيّ للعبوديّة والتفكير في آيات الله، الذي يقود بشكل طبيعيّ إلى الإيمان، فأصرّ هذا المنحرف على عناده فعاش حياة الشقاء في دنياه، وإنّ عذاب الآخرة أشدُّ وأكثر استمراراً.

﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾﴾ إنّ هؤلاء المكذّبين لا يقفون وقفة المتأمّل في ماتبيّن لهم من آيات، وعرفوه من سير الأمم المكذّبة وعواقبها، وما وقفوا عليه من آثارهم البائدة ومساكنهم الخاوية فإن في كل ذلك ما يدعو أرباب العقول للتأمّل.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾﴾ إنّ ذلك الاسراف والعناد يستدعي أن يُستأصل هؤلاء، لخروجهم عن إنسانيّتهم، ولكن الله يؤخّرهم إلى أجل معيّن حكمة منه ولطفاً.

﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾﴾ إنّه هدف السورة كلها، أي تثبيت قلب الرسول إزاء المشاكل والإعراض والتقول والإسراف الذي يواجهه، فالصبر سلاح المؤمن، والتسبيح المتواصل في الصباح والمساء والليل والنهار هو عدّته وزاده للوصول إلى حالة الرضا بكل شيء: باللطف الإلهيّ والوعد الإلهيّ والعزّة في الدنيا والآخرة.

﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾﴾ والخطاب هنا للأمّة من خلال خطاب النبيّ ﷺ فإن الرضا بما قسمه الله هو النعمة الكبرى، فلا ينبغي الالتفات إلى ماحظي به الكفّار من ازواج ونعم ماديّة، وان كانت تبدو زاهية ، لكنها كالوردة تذبل عما قليل. إنّها الفتنة والامتحان والزوال، أما العطاء الإلهيّ فهو الخير والبقاء.

﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾﴾ إنّ الصلاة تشدُّ الإنسان بالله، وتربّي الفرد والعائلة والمجتمع على التقوى، فليأمر الرسول أهله بها ويصطبر عليها وليقمها كاملة، ولتعمل الأمّة كذلك، وحينئذ فإن عائلة مصلّية صابرة على الصلاة خير من كل ما يتمتّع به الآخرون من أرزاق، فإن الله هو الرزّاق، وإنّ النتيجة النهائية هي للتقوى والمتّقين. وبذلك يعمر الأمل في قلب المؤمن مهما كانت الظروف.

﴿وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى ﴿١٣٣﴾﴾ وهنا يعود الحديث عن أولئك المكذّبين، وهم يطلبون البيّنة والآية، ناسين أنّ القرآن خير آية تشهد على مافي الصحف والكتب الأولى من حقائق.

﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَى ﴿١٣٤﴾﴾ ولو كانوا قد عذّبوا قبل ان ينزل القرآن لتذرّعوا بعدم إتيان الرسول وعدم إقامة الحجّة وإلاّ لاتبعوه قبل أن يذّلوا ويخزوا، ولكن هاهي الحجّة الدامغة فلماذا يبقون على العناد.

﴿قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى ﴿١٣٥﴾﴾ تاكيد على هدف السورة: ولينتظر كل طرف عاقبة الامر وستنكشف الحقيقة ويُعرف المفلحون المهتدون بهدى الله.

سورة الأنبياء (٢١)

آياتها ١١٢

بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

البسملة جزء من السورة.

﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مَّعْرِضُونَ ﴿١﴾﴾ إنّ البشريّة تقترب كل يوم إلى عالم الحساب، خصوصاً وأنّ الرسول ﷺ بعث وهو رسول آخر الزمان، والزمان مهما امتد قصير إذا قيس بالآخرة فيجب أن يعدّ النّاس أنفسهم للحساب، وينقذوا أنفسهم الغارقة في الغفلة.

﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مَّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾﴾ إنّهم لا يدركون عظمة الهدى الإلهيّ والذكر الربانيّ المتجدّد لهم باستمرار، ولذلك يقابلونه لاعبين، في حين يريد الله أن يقودهم به إلى العلاء.

﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّواْ النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٣﴾﴾ إنّهم غارقون في الغفلة والإعراض واللعب واللّهو والتناجي سرّاً بالتشكيك ـ ظلماً ـ بالنبوّة باعتبارأنّها لا يمكن أن تعطى لبشر مثلهم، وأنّ ماجاء به الرسول هو السحر، فكيف يؤمنون به وهم يبصرون حقيقته؟!

﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاء وَالأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٤﴾﴾ ليعلن الرسول أنّه يقول الحقيقة التي يعلم بها الله، العالم بما في السماء والارض السميع العليم بنجواهم المشكّكة هذه.

﴿بَلْ قَالُواْ أَضْغَاثُ أَحْلاَمٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الأَوَّلُونَ ﴿٥﴾﴾ وتتتابع التهم فما أقوال الرسول إلاّ أحلام غير متّسقة، بل هي افتراءات بل هي خيالات شاعر، وإلاّ فليُقم على مايطرحه دليلاً، كما اقام المرسلون الدليل وجاءوا بالمعجزات.

﴿مَا آمَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾﴾ كلاّ، إنّهم لن يؤمنوا مهما جاءت الأدلة، فهم مكابرون، وقد سبقتهم أمم مكذبة، رغم الأدلة البيّنة فأُهلكت نتيجة ذلك وهم على نفس الشاكلة، فلا أمل في إيمانهم.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ۝٧﴾ لقد كان الأنبياء الماضون بشراً. وهو وصف يصرّ عليه الأنبياء، لئلا يتحوّلوا في ذهن الجاهلين المغالين إلى آلهة، ولا تنافي بين البشريّة والنبوّة. إن الأولى لهؤلاء الجاهلين أن يرجعوا إلى أهل الذكر، والعلماء بالأمر ومنهم علماء أهل الكتاب ليسألوهم عن الحقيقة، والرجوع إلى أهل الخبرة هي قاعدة عقلائيّة.

﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ۝٨﴾ تأكيد لبشريّة الرسل فهم يأكلون الطعام وهم يموتون ولايملكون الخلود ، كباقي أبناء آدم.

﴿ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنجَيْنَاهُمْ وَمَن نَّشَاء وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ ۝٩﴾ إنّهم يحملون رسالة الله، ويبلّغون تعاليمه رغم العقبات والموانع. ولكن الله صادق الوعد وقد وعدهم بالنصر العاجل أو الآجل، فهم الناجون وأعداؤهم هالكون؛ لأنّهم مسرفون يتجاوزون حدّ المسيرة البشريّة الطبيعيّة.

﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝١٠﴾ إنّ هذا القرآن فيه خير الأمّة وهداها، وهو يذكّرها بإنسانيّتها، فهو أفضل بيّنة على صدق الرسول، وهو يحقّق للعقول بغيتها لو تمّ الاحتكام إليه.

﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ ۝١١﴾ وهاهو التاريخ أمامهم، فليشهدوا حوادثه، وليروا تداول الأمم والحضارات، فكم قضى الله على القرى التي ظلمت، ليحل محلهم قوم آخرون.

﴿فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ۝١٢ لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ ۝١٣﴾ وحينما كانوا يشعرون بالعذاب كانوا يلجأون إلى الهروب عساه ينجّيهم من عذاب الله، فيأتيهم التقريع الإلهيّ أن لا تهربوا بل عودوا إلى عيشكم وترفكم إن كنتم قادرين! لتجيبوا على مايلاحقكم من تساؤلات حول ماقدّمتموه من إجرام.

﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ۝١٤ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ ۝١٥﴾ إنّه جواب المعترفين ولكن بعد فوات الأوان، إذ قد حلّ العذاب وحينئذ فهو

لا يكشف عن توبة صادقة، بل هو ترديد اعترافات للخلاص ، ليشملهم العذاب وليعودوا هشيماً تحصده يد الفناء والخمود.

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاء وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٧﴾﴾ في قبال الغفلة واللهو ولعب المشركين يؤكّد القرآن حقيقة الجدّ الإلهيّ في الكون وابتنائه على الحقّ والحكمة. وذلك أساس تعذيب الجاحدين، كما هو مبنى الإيمان بالمعاد، أما اللهو واللعب واتخاذ النساء والأولاد فلا سبيل له إلى الذات الإلهيّة؛ لأنّه من قياس الخالق المطلق الغنيّ إلى المخلوقات العاجزة الغافلة فلا عبث في الخلق وإنما هي السنن والقوانين.

﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾ إنّها الحقيقة الخالدة، فالكون قائم بالحقّ، والحقّ غالب على الباطل ومهلك له. أما تصوّرات المشركين وأوهامهم فلها الويل والدمار.

﴿وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ إنّ الله خالق الكون ومالكه والمسيطر عليه وهاديه إلى الكمال عبر طاعته، فكلّ من عند الله من المقرّبين اناساً كانوا أم ملائكة مستغرقون في العبادة وهي سرّ الكمال، بل كلّما زاد القرب زادت العبادة؛ لأنّها علوّ مرتبة وزيادة معرفة، فلا استكبار عن عبادة ولا ملل منها، بل كل همّهم تسبيح الله وتنفيذ أوامره في كل وقت دونما عيّ أو تعب.

﴿أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ أمّا هذه الآلهة الأرضيّة المزعومة العاجزة بنفسها فهل تستطيع أن تحيي وتميت؟ والجواب الطبيعيّ هو النفي.

﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ إنّه من أقوى الأدلّة على التوحيد أن ندرك أنّ لازم وجود الآلهة المتعددة المطلقة القادرة هو فساد الكون، وعدم تناسقه، وعدم سريان إرادة واحدة فيه، وهذه أمور ينفيها الواقع المتناسق الموزون، ويعود الوجدان منزّهاً مسبّحاً لربّ العرش المسيطر الغنيّ المطلق النافذ أمره بلا مسؤوليّة تتابعه، وإنما يتحمّل المخلوقون المسؤوليّة.

﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ

لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾﴾ إنّ القرآن وهو جامع لتعاليم الأنبياء يؤكّد التوحيد، ولكن ماهو برهان المشركين؟ إنّهم لا يملكون إلاّ الجهل بالحقّ والإعراض والجحود.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ إنّ الأنبياء جميعاً دعوا للتوحيد وعبادة الله وحده ويعتبر هذا من أدلّة التوحيد. يقول علي عليه السلام «لو كان لربّك شريك لأتتك رسله»[١].

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ من أوهام المشركين اعتبار الملائكة بنات لله فسبحانه وتعالى على ذلك بل هم عباد مكرّمون مطيعون لأمره عاملون به ولا يتكلّمون إلاّ بما يأمرهم به. ومن كان كذلك كيف يكون ولداً.

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِّن دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ والله محيط بهم وعالم، وهم لا يشفعون إلاّ لمن ارتضاه الله، فلا معنى لاتّخاذهم شفعاء من قبل المشركين المطرودين من رحمته. كما أنّ الملائكة خائفون من عذاب الله رغم أنّهم مطيعون. ولو أدعى أحدهم الألوهيّة ـ جدلاً ـ فجزاؤه جهنّم تماماً، كما هي جزاء الظالمين، فلا معنى لتوهّم كون الملائكة بنات، كما لا معنى لجعل الخلق لله والتدبير المستقل للملائكة وأمثال ذلك.

﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾﴾ إنّ الكون كله خاضع لإرادة حكيمة تنظّمه وتوجّهه، فليمتدّ الإنسان ببصره إلى عجائب الكون، وقوانينه وتحوّلاتها، فقد كانت السماوات والأرض سديماً متّحداً، ثمّ حدث الفتق وتنوّعت الأشكال بقدرة الله والله أعلم بنوعيّة هذه التحوّلات الهائلة، التي يكتشف العلم شيئاً فشيئاً بعض أسرارها، وهكذا شاء الله أن تقوم الأحياء بالماء أينما كانت، كل ذلك ينبئ عن حقيقة النظام الكونيّ الرائع، فما الداعي لإنكار الحقيقة وعدم الإيمان؟

﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾

---

١. نهج البلاغة، الرسالة رقم ٣١.

وَجَعَلْنَا السَّمَاء سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾﴾ وهذا التوازن الرائع في الكون، وهذه الجبال التي تنظّم حركة الأرض لئلا تضطرب، وهذه السبل كالأنهار المنظّمة لدورة المياه وحركة الإنسان وهي تمهّد له الحياة المطلوبة، وهذه السماء العجيبة المحفوظة بقوانينها، كل هذا يبصرونه ثمّ يعرضون عنه وعن دلالاته.

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾﴾ وهذا الليل والنهار وحركة الشمس والقمر بكل دقّة وتوازن لكلّ مداره، ألا يشدّ الإنسان شدّاً إلى خالقه العظيم؟ وفي كل هذا توجيه للعقول للمزيد من العلم والإكتشاف.

﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ ﴿٣٤﴾﴾ إنّه ناموس الحياة، فليس لبشر أن يخلد حتّى ولو كان هو النبيّ، فهو ميت والمشركون بالتالي ميّتون فليتبصّروا حالهم وليعدّوا لمصيرهم.

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾﴾ هذه هي الحقيقة الصارخة وإن أنكرها البعض ـ عملاً ـ وتصرّفوا وكأنهم خالدون. ولكنه واقع إنسانيّ يجب أن ندركه، كما ندرك أننا في حالة امتحان بالشرّ فنصبر، وبالخير فلا نبطر، وإنما نتّبع هدى الله في الحالين، مدركين أنّ هذه الحياة لها هدفها، وأنّ هناك يوماً للحساب نعود فيه إلى الله فيوفّينا ما نستحقّه.

﴿وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ كان الاستهزاء من أساليب المشركين الغافلين، إذ يستكثرون على الرسول أن يقول الحقيقة عن سخف آلهتهم وتفاهتها، في حين أنّهم يكفرون بالحقيقة الواضحة، إذ ينكرون الرحمن، ورحمته تعمّ الكون والحياة.

﴿خُلِقَ الْإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾﴾ ثمّ هم مبتلون بعيب الاستعجال، وإن كانت العجلة جزءاً من تركيب الإنسان وخلقه، وذلك لكي يصلح أمره ولكنهم يستغلّونه لتكريس عنادهم وتحدّيهم لما يعد به الرسول من عذاب الله.

﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ

يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾﴾ إنّهم غافلون لا يعرفون مدى العذاب الإلهيّ وكيف تحيط بهم النار، فيحاولون دفعها عنهم مبهوتين إذ تأتيهم من أمامهم ومن خلفهم، فلا ينفعهم ذلك ولا ينصرهم ناصر، بل تهاجمهم فجأة فتبغتهم فلا مفرَّ حينئذ ولا تأجيل.

﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُون ﴿٤١﴾﴾ ألم يّتعظ هؤلاء بمصير الذين استهزأوا بالرسل ـ من قبل ـ وحاولوا إذلالهم، فوقعوا هم في الذّلة والعذاب.

﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾﴾ لو أعاد هؤلاء النظر في أمرهم لعادوا إلى رشدهم فمن الذي يحرسهم ليلاً ونهاراً غير الله؟ وهل يدركهم شيء سوى رحمته وهو الرحمان بالخلق جميعاً، ولا يمنع من عذابه مانع إن أراد بهم ضرّاً نتيجة عملهم، ولكنّهم رغم وضوح الجواب عن هذه التساؤلات يعرضون عن الحقّ.

﴿أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾﴾ وهل تقدر آلهتهم المزعومة أن تقدّم لهم شيئاً، أو تمنع عذاب الله، وهي لا تستطيع أن تحمي نفسها أو تستمدّ من غيرها ما يحفظها منه.

﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاء وَآبَاءهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾﴾ إنّ هؤلاء المعاندين غرّتهم حياتهم الممتدّة ومتاعهم الزائل فظنوا أنّهم باقون أقوياء متمتّعين غافلين عن مايجري حولهم من تصرّم الأعمار وزوال النعم وانقراض الأمم، وهل يتصوّرون أنّهم قادرون على تخطّي كل عوامل الفناء، وهي محيطة بهم ومحسوسة لديهم.

إن الغفلة والغرور هما المرضان الخطيران اللذان يبتلى بهما الإنسان فينسى واقعه وموقعه، وإن العلاج الناجع هو التذكّر والعودة الى الحقيقة، واللجوء الى الله، والدوام على ذكره، والإحساس الكامل بسيطرته على الكون، وغلبته على كل القوى، وبالتالي الدينونة الكاملة له.

﴿قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاء إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾﴾ إنّ الإنذار الذي يعلنه الرسول آت من الوحي الإلهيّ، ولذا فهو جدير بالاستماع إليه إذا كانت الأسماع صاغية والعقول واعية، ولكن هؤلاء المغرورين مبتلون بالصمم، فهم لايسمعون ولا يفهمون الحقيقة.

﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٤٦﴾﴾ إنّهم يحتاجون إلى وخزة من العذاب ليعلنوا الويل ويعترفوا بالظلم.

﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ إنّ موازين الله عادلة يوم القيامة، وهي تنتظر الجميع فيوفّون حقّهم بكل دقّة، فلا يغيب عنها أي شيء مهما كان صغيراً كوزن حبّة الخردل مثلاً، والله خير الحاسبين.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاء وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾﴾ وتأكيداً للمفاهيم السابقة يبدأ القرآن بعرض صور من حالات الأنبياء السابقين وأممهم والذين وقفوا في وجوههم وعواقبهم. فيذكر هنا موسى وأخاه هارون إذ آتاهما الله التوراة فرقاناً وميزاناً يفصل بين الحقّ والباطل ، وضياء يكشف الحقائق وذكراً للمتّقين.

﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾﴾ فالمتّقون الذين يخشون ربهم بالغيب، والذين يستعدّون للآخرة، ويخافون أهوالها هم المؤهلون للاستفادة من الفرقان والاستضاءة بنور الإيمان.

﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ وهذا القرآن يحمل كل تلك المعاني الوضّاءة والذكر المبارك باستمرار، فلماذا تنكرون منه.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِه عَالِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ وهذا إبراهيم الذي سبق موسى، آتاه الله كماله ورشده، والله يعلم مستواه الراقي من الوعي والإخلاص وهما سرّ الرشد.

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءنَا لَهَا عَابِدِينَ ﴿٥٣﴾﴾ إنّه يواجه أباه ـ ولعلّه كان عمّه ـ وقومه بسؤال فيه التهكّم والتحقير والاستغراب من الجهل والجمود، فيتساءل عن الأصنام والتماثيل (لا الحقائق) التي يعكفون عليها عابدين!! ليجيبوه بجواب سخيف: إنّه استمرار لعادة موروثة دونما وعي.

﴿قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾﴾ وبكل صراحة يجبههم بالحقيقة، إنها عادة ضالّة بكل وضوح.

﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ ﴿٥٥﴾﴾ ولم يهضم القوم هذه الصراحة، ويتساءلون عن مدى جدّيته في هذا البيان.

﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَٰلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ۝٥٦﴾ وهنا يبدأ إبراهيم بتوضيح الأمر، إنّ الحقيقة التي تملأ الكون المنسّق الجميل تشير إلى الله ربّ الوجود كله وفاطره وخالقه. وهو ماتوصّل إليه، وهاهو يعلنه بكل وضوح.

﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ۝٥٧﴾ ولكي يؤكّد ذلك، أعلن لهم أنّه سيعمد إلى الكيد بهذه الأصنام بعد أن يغادروها ويتركوها لحالها.

﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ۝٥٨﴾ وفي حالة انشغالهم عمد إبراهيم بفأسه ليحطم الأصنام إلاّ كبيراً لها، إذ تركه ليرجعوا إلى هذا الصنم متساءلين عن علّة التحطيم.

﴿قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ۝٥٩ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ۝٦٠﴾ وفوجئ القوم بالمنظر فتساءلوا عن الفاعل الذي ارتكب هذا الظلم! ليجيب البعض إنّهم سمعوا الفتى إبراهيم يذكر الآلهة بسوء.

﴿قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ۝٦١ قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ۝٦٢ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ ۝٦٣﴾ وسئل ابراهيمهل هو الفاعل؟ فأجابهم بما يحاول به أن ينبّههم للحقيقة: بل فعله كبيرهم هذا الواقف سالماً فاسألوا الأصنام لتجيبكم إن كانت تنطق!!

﴿فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ ۝٦٤ ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنطِقُونَ ۝٦٥﴾ وكانت ضربة أعادتهم للحظة إلى وعيهم وحدّثوا أنفسهم بأنهم هم الظالمون، إذ يعبدون جماداً لا ينطق، وأدركهم الخجل فنكّسوا رؤوسهم يقولون له: لقد علمت ماهؤلاء ينطقون.

﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ۝٦٦ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝٦٧﴾ وهنا ينبري لهم بكل قوّة مستنكراً أن يعبدوا من دون الله مالا ينفع شيئاً ولا يضرّ، متأفّفاً موبّخاً لهم على ذلك، داعياً إيّاهم إلى التعقّل والوعي.

﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ۝٦٨﴾ فأيقنوا بأنّه المحطمّ، وأدركتهم حميّة الكفر والعناد، فحكموا عليه بالإحراق انتصاراً للآلهة المحطَّمة، وهو سلاح العاجز عن المواجهة بالمنطق والدليل.

﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾﴾ وشاء الله بقدرته المطلقة أن تكون النار على إبراهيم برداً وأماناً، فيبطل كيدهم فيعودوا هم الأخسرين، والعاقبة للمتّقين.

﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾﴾ وآمن به لوط وهاجر معه إلى أرض الشام أرض البركات الأرضيّة والسماويّة؛ لأنّها كانت مهبط الوحي والنبوّات، وهو هدى للعالمين، كما هي أرض الخصب والخيرات.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ ﴿٧٢﴾﴾ وأنعم الله عليه بالذريّة الصالحة، بإسحاق وولده يعقوب، عطيّة منه لهذا النبيّ المهاجر.

إن عرض قصّة سيدنا إبراهيم عليه السلام أمام المشركين آنذاك يذكّرهم بالحالة التوحيديّة التي تعني الوعي والمنطقيّة والتعقّل والتحدّي والفتوّة والانتصار، في قبال الحالة الصنميّة بما تحمله من ظواهر سلبيّة كالتقليد الأهوج للآباء، واللامنطقيّة والظلم والعناد والخسران الحضاري، وفي ذلك ما فيه من تقوية لخطّ الإيمان وتضعيف لخطّ الشرك، وتكذيب لما يدّعيه المشركون من انتساب الى إبراهيم.

﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاء الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾ وهكذا شاء الله أن تستمر الإمامة في نسل هؤلاء الطاهرين، لتحقّق هدفها التاريخي وهو هداية البشريّة بارادة الله نحو كمالها وتحقيق هدف خلقتها، ووصول أفراد الإنسان إلى مقاماتهم الحقيقيّة، وفعل الخيرات وإقامة الصلاة لتقوية العلاقة بالله، وإيتاء الزكاة لتحقيق التكافل، وبالتالي إيجاد المجتمع العابد.

﴿وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾﴾ إشارة سريعة لقصة لوط وقد أوتي الحكمة والعلم فدعا إلى الله ولكن قريته (سدوم) لم تستمع إلى دعوته، بل راحت تعمل الخبائث اي الفاحشة مع الذكور، وهي خروج على الطبيعة، فنجّاه الله منها وأدخله في رحمته؛ لأنّه كان من الصالحين.

﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ

الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾﴾ إشارة أخرى لنوح النبي ـ قبل إبراهيموهو يلتجئ إلى ربه شاكيا إليه مصائبه مع قومه المكذّبين، ليستجيب الله له وينجيه وأهله من الهم والمصائب الكبرى وينصره عليهم، بعد أن كانوا قوم سوء فيغرقهم أجمعين.

﴿وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّن بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾ صورة آخرى من حياة الأنبياء يذكرها القرآن وتفصّلها الروايات[1]، حيث تحدث حادثة دخول غنم أحدهم في مزرعة كرم (عنب) مملوكة للآخر ليلاً فتأكل كل الزرع ، فيعرض هذان الأمر على داود، وكان هذا النبي حاكماً على بني إسرائيل فرأى ـ وهو يستشير ولده سليمان ـ أن تمنح الغنم لصاحب الزرع، ولكن سليمان رأى أن تمنح منافعها ـ أي الغنم لصاحب الزرع , فكان حكم سليمان أكثر رفقاً. وكلا الرأيين ركّزا على ضمان ما أتلفته الغنم، ولكن حكم سليمان كان أقرب الى الرحمة والعدالة وذلك بتفهيم من الله. وهكذا امتن الله عليهما بالحكمة والعلم، كما امتن على داود بتسخير الجبال لتتجاوب مع تسبيحه (والكون كله تسبيح لله) وكذلك هي الطير في السماء فقد سخرت له مسبّحة منزّهة لله، كما علّم الله داود صناعة الدروع التي تشكّل حلقاً تلبس متداخلة، لتحافظ على الأبدان حالة الحرب. وكان ذلك تقدّماً في الصناعة الحربية آنذاك، مما يستدعي الشكر لله على هذه المنّة.

﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ ﴿٨١﴾﴾ وكذلك امتنّ الله على سليمان بتسخير الرياح العاصفة له ليأمرها بالسير إلى الأرض المباركة (الشام) محقّقة له مايريد بأمر الله تعالى.

﴿وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ ﴿٨٢﴾﴾ وكذلك سخِّرت له الجنّ لتغوص له في أعماق الأرض والبحر، ولتحقّق له ما يريد من أعمال ربما عجز عنها الإنسان العاديّ. كل ذلك بعلم وقدرة وضبط إلهيّ قويّ مما يوضّح قدرة الله المطلقة ولطفه بعباده المؤمنين ونصره لمسيرة الأنبياء.

---

١. راجع: مجمع البيان، ج ٧، ص ١٠٩.

﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ ﴿٨٤﴾﴾ وهذا أيّوب النبي وهو يلتجئ إلى ربّه متضرّعاً كي يكشف عنه ما أصابه من ضرّ وابتلاء، والله أرحم الراحمين، ليستجيب له ويكشف عنه ضرّه، فإذا هو في صحّة وعافية، ويؤتيه ماله وأهله وأولادهم وأحفادهم نعمة مضاعفة، ولتكون تلك ذكرى لخطّ العبادة؛ إنّه خطّ الابتلاء وتحمّل المشاكل، ولكن العاقبة والنصر له بلاريب.

﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُم مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٦﴾﴾ ويستمرّ القرآن في عرض صوّر الصالحين بالتذكير بإسماعيل وإدريس وذي الكفل وكانوا من نماذج الصابرين في طريق الحقّ، فأدخلوا في رحمة الله ومظلّته للصالحين.

﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ وهاهو صاحب الحوت يونس بعد أن بُعث إلى قومه فكذّبوه، فدعا عليهم بالعذاب، وحين أشرف عليهم العذاب تابوا توبة نصوحاً فكشفه الله عنهم، في حين ابتلى الله عبده يونس الذي خرج من قومه غاضباً من تكذيبهم، ظانّاً أن الله سيفتح له آفاقاً أرحب ولا يقتّر عليه من رزقه، ابتلاه بالتقام الحوت له ـ وهو يركب البحر ـ وفي ظلمات جوف الحوت راح العبد الصالح يدعو ربّه ويسبّحه ويستغفره ويعترف له بظلمه لنفسه وقصوره ليستجيب الله له وينجّيه من الغم. وتلك سنّة الله في المؤمنين الصالحين ينصرهم وينجّيهم ويمنحهم العاقبة الحميدة على مدى التاريخ.

﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴿٨٩﴾﴾ وهذا زكريّا النبي يلتجئ إلى الله شاكياً إليه وحدته وعقمه مسترحماً إيّاه وهو خير الوارثين.

﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ فيستجيب الله له ويهبه يحيى النبيّ ويصلح له زوجته ويعيد لها حيويّتها. وتلك هي حياة الرسل والصالحيندعوة وجهاد ومسارعة في الخيرات ولجوء إلى الله في حالات الرغبة والرهبة , وخشوع وعبادة دائمين، فيوفّيهم أجور الصابرين، وما على المؤمنين إلاّ مواصلة الدرب وصناعة التاريخ.

﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩١﴾﴾ وهذه لمحة عن مريم أم عيسى النبي، وهي رمز العفة والعبادة والإخلاص، وقد نفخ فيها الله من روحه فولدت عيسى بأمر الله، ليكونا معاً آية وبرهاناً للعالمين.

﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾﴾ هذه هي حصيلة هذا الاستعراض السريع لشيء من حياة الأنبياء. إنّها تتلخص في أنّ البشريّة أمّة واحدة، ومسيرة واحدة لها قيادتها الحقيقيّة المغيّرة والسائرة بها نحو الهدف الواحد وهم الأنبياء، ودينها هو التوحيد بكل لوازمه وإمكاناتها هي الفطرة، وعلى أساس منها تصطبغ المسيرة وتنتظم الهداية ويقام المجتمع العابد.

﴿وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ ﴿٩٣﴾﴾ إلا أنّ البشريّة تمزّقت فرقاً ونحلاً وطرائق وستعود إلى ربها وحكمه، ولا عودة لها إلى الدنيا، حتماً وينكشف الحقّ لها.

﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ ﴿٩٤﴾﴾ أمّا مسيرة الإيمان العامرة بالعمل الصالح فهي المسيرة الناجية التي ستصل إلى هدفها قطعاً في الحياتين معاً، ولن يذهب سعيها هدراً مطلقاً.

﴿وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾﴾ وأمّا القرى التي ظلمت فأُهلكت فسوف ترجع إلى ربها وتواجه مصيرها الأسود حتماً.

﴿حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٩٧﴾﴾ من أشراط الساعة ـ كما يشير القرآن في سورة الكهف ـ خروج يأجوج ومأجوج وانسياحهم في الأرض، فإذا انفتحت أمامهم السبل وراحوا يتحرّكون من الأعالي إلى كل جهة، فحينئذ تكون قد اقتربت القيامة، وحينئذ تنشدّ عيون الكافرين إلى هذا الحدث خوفاً وهلعاً، داعين بالويل والثبور، لغفلتهم عن هذا اليوم الرهيب ومعترفين بظلمهم.

﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴿٩٨﴾﴾ إنّه مشهد عظيم يصدر فيه وصف الحقّ تعالى لهم ولآلهتهم بحصباء جهنّم وحجارتها، هواناً لهم ولما يعبدون من دون الله.

﴿لَوْ كَانَ هَؤُلَاء آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٩٩﴾﴾ إنّ آلهتهم ضعيفة لا تملك أن تدفع عنها السوء أو أن تمتنع من دخول النار، فلتستعدّ هذه الآلهة وعبادها للخلود في الجحيم.

﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ إنّ لهم في جهنّم زفيراً شديداً، وهم لا يسمعون شيئاً، نتيجة إغلاقهم أسماعهم عن الحقّ في الدنيا، وما الآخرة إلاّ انعكاس لتلك المسيرة السابقة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَى أُوْلَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾﴾ في حين يبقى المؤمنون الذين سبق لهم من الله الوعد بالحسنى والجنّة، يبقون بعيدين عن هذا الهول العظيم.

﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ إنّ المؤمنين الموعودين بالجنّة لا يسمعون حسيس جهنّم المرعب، بل هم ينعمون بالطمأنينة وبكل ما تشتهيه أنفسهم خالدين. وبهذا يشبع القرآن أعظم الآمال الإنسانيّة وهو ما تعجز عن تقديمه المبادئ الوضعية؛ لأنّ مداها قصير لاقيمة له في قبال حياة الخلود الأخرويّة. وبهذا تطمئنّ نفس المؤمن ولا يبقى مجال لصراع المصالح الذاتيّة والاجتماعيّة، وهو سر هلاك الأمم عبر التاريخ. فالدين هو الحلّ.

﴿لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ فلا حزن من ذلك الفزع والخوف الأكبر، بل تكريم ملائكيّ رائع وبشرى بتحقّق الوعد الصادق.

﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاء كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٠٤﴾﴾ إنّها الحقيقة الكونيّة الهائلة، يوم يطوى الكون كما يطوي مالك الكتاب كتابه، ويعود إلى هيئته أول مرة. وكل ذلك سهل يسير على يد القدرة الإلهيّة الفاعلة لما تشاء.

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ وهذه حقيقة كونيّة تاريخيّة أخرى أعلنها كتاب الزبور، وهو كتاب داود النازل بعد التوراة، وتثبتها الوقائع التاريخيّة، ويقرّرها القرآن الكريم بقوّة، وتتلخّص في أنّ التاريخ يسير نحو مجتمع الصالحين لا محالة حيث يكون الدين كله لله، وتملأ الأرض عدلاً كما ملئت ظلماً، ولذا اعتبرت الآية مشيرة لظهور المهدي المنتظر (عجّل الله فرجه الشريف) وبهذا تنفتح على الدوام أمام المؤمنين أبواب الأمل الواعد.

﴿إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ إنّه إعلان إلهيّ للمسيرة العابدة أنّها هي

المنصورة، وهي الوارثة وهي المرحومة بشرط تعبيد الحياة وتسليمها لله تعالى.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ وماجاء هذا الرسول وهذه الرسالة إلاّ بالرحمة لكل البشريّة.

﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾﴾ إنّها تنادي بالتوحيد وهو دين المسيرة المؤمنة، وتدعو للإسلام وهو لازم التوحيد. والإسلام بخصائصه العامّة يضمن للبشريّة كلها السعادة وكل الحقوق الإنسانيّة.

﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنتُكُمْ عَلَى سَوَاء وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾﴾ هكذا وبكل وضوح يعلن الرسول مبادئه ، فالكل سواء أمام هذه الحقيقة، أما جزاء الانحراف عن الحقّ فهو غير معلوم الأجل للرسول، بل هو موكول إلى الله تعالى.

﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾﴾ والله محيط بالكون والإنسان، لا فرق لديه بين نداء بصوت عال أو أمر مكتوم.

﴿وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴿١١١﴾﴾ فلا يُعلم سرّ تأخير العذاب، ولعلّه امتحان وتمتيع إلى أجل أو استدراج وإمهال كي يزدادوا في الإثم.

﴿قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾﴾ إن الله هو الحاكم بالحقّ وهو الرحمن بالبشرية جمعاء، ولذا يتوجّه الرسول إليه تعالى ليفصل بينه وبين قومه، ويستعين به لمواجهة ما يصفونه من كذب واستهزاء وافتراء وجهل. وفي كل هذا ثبات لفؤاده وإرعاب للكافرين.

سورة الحج (٢٢)

آياتها ٧٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

البسملة ـ كما أكّدنا ـ جزء من السورة.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾﴾ تبدأ السورة بتخويف النّاس من هول يوم القيامة ليترك الاعتقاد بالمعاد أثره في السلوك (وفرق كبير بين مجتمع يؤمن به ويحسب له حسابه وآخر لا يؤمن به). إنّها دعوة للخوف من الله والإعداد لذلك اليوم الرهيب، حيث الزلزال العظيم، وحيث الذهول الشامل بحيث تذهل كل مرضعة عن رضيعها، رغم أنّه متّصل بها معنىً وحسّاً، وتضع الحامل جنينها، وتسود الدهشة حتّى كأن النّاس سكارى، ولكنّه العذاب الرهيب الشديد.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٤﴾﴾ في ظلّ هذا الهول الذي يدعو للتأكّد والتأمّل تجد أناساً يجادلون جاهلين في الله وصفاته متّبعين تشكيكات الشياطين العصاة الغواة، الذين يقودون أولياءهم إلى الضّلال وعذاب النار حتماً.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٥﴾﴾ ولينظر هؤلاء المشككون في المعاد إلى مايجري حولهم، ليدركوا مدى قدرة الله. فهاهو الإنسان يبدأ تراباً ثمّ يتحوّل ـ بقدرة الله ـ إلى نطفة، ثمّ إلى علقة لقيحة تحمل كل خصائص الإنسان، ثمّ إلى مضغةأي قطعة لحم أو دم غليظ تامّة الخلقة أو غير تامّة، تتّخذ مسيرها ليتكوّن الجنين الذي يستقرّ في الرحم إلى أجل معيّن أو يلفظه الرحم، ثمّ لينمو

الجنين ويخرج للحياة طفلاً، ثمّ ليصل الطفل إلى مرحلة النمو البدنيّ والعقليّ، وهكذا فقد يتوفّى وقد يمتدّ العمر إلى مدة طويلة، فيفقد الإنسان قواه ويهرم بحيث يفقد وعيه وعلمه.

ثم لينظر المشكّكون إلى هذه الأرض الهامدة الميّتة، ينزل عليها المطر فتهتزّ وتنمو وتنبت أزواج النبات الذي يشيع البهجة في الحياة.

إنّ المتأمّل في هذه الفواصل العظيمة بين البدء والختام، وهذا التكامل من مرتبة أدنى إلى مرتبة أسمى يدرك بوضوح وجود وعظمة تلك القدرة التي حقّقت هذا التكامل ونفخت الحياة وقادت الإنسان إلى هدفه بدقّة متناهية، وهيّأت له مايديم حياته من إمكانات داخليّة وطبيعيّة منسجمة مع هذا الهدف. إنها القدرة المطلقة الحكيمة. وأيّ افتراض للصدفة في البين يعني السخف وترفضه النفس والعقل.

وهكذا يستخدم القرآن لتاكيد المعاد أساليب تحريك المشاعر بالتخويف تارة ودفع العقل للنظر والتعمّق تارة أخرى.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ ﴿٧﴾﴾ في هذا الجوّ النفسيّ والعقليّ تتقرّر هذه الحقيقة الكبرى وهي: أن الله هو الحقّ الثابت، وأن البعث يتمّ بقدرته فهو على كل شيء قدير، وأن القيامة آتية بلاريب، وأن المخلوقات سوف تنطلق من قبورها بأمره لتواجه الحساب، وحينئذ يكون لمسيرة الإنسان معناها وهدفها وعدالتها.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾ ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٩﴾﴾ وفي هذا الجوّ أيضاً يبدو سخف من يماري ويجادل ويشكّك في الله دون أن يستند إلى علم عقليّ أو هدي معيّن مستند إلى حقيقة أو وحي وكتاب واضح، وإنّما هو إعراض وجدال وإشباع للغرور والتكبّر والعجرفة لإضلال الآخرين (وكأن هاتين الآيتين تشيران للمضلّين في حين أشارت ماقبلهما إلى الأتباع الضالّين) وهؤلاء أهل للخزي والهوان الدنيويّ، وعذاب النار الأخرويّ.

﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾﴾ وهو جزاء لما كسبوه والله تعالى لا يظلم عبيده.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١١﴾﴾ نموذج من الأفراد يعرضه القرآن ليبعد المؤمنين عنه؛ إنّه الإنسان المتأرجح على الحافّة (الحرف) الذي يؤمن طلباً للربح فإن حصل عليه ثبت واطمأنّ، وإن أصيب بامتحان وبلاء انقلب وتراجع، فهو بذلك يعبّر عن عدم إيمانه في الواقع وهو الخاسر الحقّ في الدنيا، حيث القلق والتأرجح، وفي الآخرة حيث فقدان الثواب واستحقاق العقاب.

﴿يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنفَعُهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدْعُو لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلَى وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ ﴿١٣﴾﴾ إنّه غريب في قلقه يتّجه إلى ماسوى الله ليحقّق له مصالحه ولن يحقّق له هذه المصالح، كما أنّه غير قادر على الإضرار به، وهكذا يغرق نفسه في الضّلال البعيد، فهو في الواقع يضرّ نفسه بدعائه أكثر من أن ينفعها، فبئس المولى المتّبع وبئس العشير المصاحب.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾﴾ أما المؤمنون العاملون للصالحات فأمامهم جنّات الخلد وعدهم بها ربّهم، والله قادر صادق رحيم رؤوف.

﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾﴾ إنّ الثقة بالله وبنصره هي مقوم الحياة المستوية المتكاملة المطمئنة، واليأس من لطف الله كفر وعذاب، واليائسون من نصر الله لهم أو للرسول يمكنهم أن يشدّوا أنفسهم بحبل إلى مكان عال ويخنقوا أنفسهم به أو يقطعوه ليهووا إلى الأرض، ويكونوا بذلك قد أشبعوا غيضهم وحنقهم. وكأن القرآن بهذا يبكّتهم ويستهزئ بحالتهم البائسة اليائسة.

﴿وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾ هكذا جاء هذا القرآن بآياته الواضحة ليشكّل مصدراً للهدى، فإذا اختار الإنسان سبيل الهدى هداه الله إليه بعد أن يعرف صدقه، ذلك أن الله فيّاض عليم، فإذا هيّأ الإنسان نفسه لتقبّل الفيض الإلهي شمله ذلك فكان من المهتدين.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَىٰ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾﴾ تسير كل الأمم سواء المؤمنون المسلمون واليهود والصابئون والنصارى والمجوس والمشركون سيرها في التاريخ تحت علم الله وسيطرته وإحاطته وسترجع اليه ليحكم فيها بحكمه الحقّ.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿١٨﴾﴾ (سجدة مستحبة) وإنّ الكون كله ساجد لله؛ من في السماء، ومن في الأرض، والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والحيوانات التي تتحرّك. وينسجم مع سجود الكون التكوينيّ سجود إراديّ لكثير من الناس، في حين يخرج كثير منهم عن الحالة المنسجمة فيستحقّ العذاب، ومن أهانه الله بذنوبه فلا عزّة له ولا كرامة، لأنه فسق عن الحالة الطبيعيّة فاستحقّ الهوان.

﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾﴾ صورة الخطّين المتخالفين (خطّ الإيمان وخطّ الضلال) يوم القيامةأما خطّ الضّلال فهو في أشد المحتياب تفصّل له من نار، و سائل يغلي يصبّ على الرؤوس فينصهر به ما تحت الجلود وفي البطون، وأعمدة من حديد، كلما تحرّكوا للخروج أعيدوا إلى جهنّم، وقيل لهم؛ ذوقوا عذاب الحريق.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾ وأما خطّ الإيمان والعمل الصالح فإنّه ينعم في بحبوحات الجنان تجري من تحتها الأنهار بملابس حريريّة ناعمة وحليّ من ذهب ولولؤ بديع، فأين هذا من ذاك؟!

والقرآن بنزوله التدريجيّ خلال ثلاثة وعشرين عاماً يستعرض ويكرّر هذه الصوّر بأنحاء مختلفة، لكي يترك أثره في قلوب مخاطبيه ونفوسهم، وتنسجم مع هذا الخطّ أو ذاك، داعماً خطّ الإيمان بما يقويّ فيه عنصر الأمل بالمستقبل المشرق الذي يحقق أقصى ما تصبو إليه

النفس الإنسانية بفطرتها وهو الخلود في النعيم وفي ظلّ الرضوان الإلهي، في حين ينتظر خطّ الضلال أقصى ما يتصور من عذاب؛ إنه الخلود في الحريق.

﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾﴾ إضافة إلى جوانب التنعّم المادّيّ يتمتّع المؤمنون بالقول الطيّب، حيث التسبيح والسلام والحمد لله، وبسلوك الصراط الإلهيّ الحميد، فلا يصدر منهم إلاّ الفعل الطيّب أيضاً.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاء الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ بعد هذه الصوّر المؤثّرة عن خطّي الإيمان والكفر ينتقل القرآن إلى واقع المشركين في مكّة. مكّة التي قامت على أساس المسجد الحرام ـ مركز الهداية التوحيديّة في الأرض فإذا بهؤلاء يتحكّمون بها، ويعلنون الشرك، ويصدّون عن سبيل الله وعن الأداء الصحيح للحج والعمرة ـ كما فعلوا عام الحديبية ـ فإن الله أراد لمكّة أن تكون دار الأمان للناس لا يختلف فيها مقيم (عاكف) عن وارد من خارجها (باد)، وهدّد كل من يعمل ظالماً على الوقوف ضد حالة الأمان هذه، بالعذاب الأليم.

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿٢٦﴾﴾ يعود القرآن ـ لتأكيد ماسبق ـ إلى أول المسيرة حيث حدد الله مكان البيت الذي أراد الله ان ينسب إليه (والأرض كلها بل الكون ينسب إليه؛ لأنّه خالقه، ولكنها عناية إلهيّة بالبشرية التي تتأثّر بمحسوساتها أكثر من معقولاتها) ليعمل إبراهيم على بنائه وتطهيره ليكون مرجعاً وساحة للعابدين لله من الذين يطوفون حوله، والمقيمين للصلاة فيه، والراكعين الساجدين.

﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾﴾ وأمر إبراهيم بدعوة النّاس إلى حجّ بيت الله الحرام وإعلان الالتزام بميثاق التوحيد. وراحت دعوته تتردّد في جنبات التاريخ. وقد أخبره الله أنّ المؤمنين سيستجيبون لهذه الدعوة ويتّجهون للبيت على أقدامهم أو على ظهور رواحلهم التي يضمرها ويضعفها التعب لطول المسير من الفجاج البعيدة.

﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ

الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ وهنا يجتمع ممثلو كل مجتمعات البشريّة المسلمة ليشهدوا منافع كثيرةمنها التعارف والتآلف على منهج التوحيد، ومنها التأكيد على تواصل المسيرة عبر التاريخ، ومنها معرفة آمال الموحّدين وآلامهم. ومنها الارتباط بمنهج إبراهيم ـ وليذكروا الله ويعظّموه ويؤدّوا ميثاقهم له، وذلك في زمان واحد ومكان واحد ونداء وأحد بلباس واحد في ظلّ الأمان والسلام، ثمّ ليشكروا الله على نعمه وتوفيره لهم أكلهم من بهيمة الأنعام وليتدرَّبوا على إطعام البائس الفقير.

﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾﴾ وبعد انتهاء الإحرام يعمل المؤمنون على إعادة تنظيف وتجميل أبدانهم بالحلق أو النتف أو قصّ الأظافر، ثمّ الوفاء بما نذروه لله، ثمّ الإتيان بالطواف الأخير حول البيت القديم الذي منع الله الجبابرة منه.

﴿ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴿٣٠﴾﴾ إنّ حرمات الله هي الحدود التي يجب تعظيمها والوقوف عندها، أما ماحرمته الجاهليّة من الأنعام فلا قيمة لتحريمها له، وإنما المتّبع هو محرّمات الشريعة، ومن أهمّها ماذبح للأوثان ، وأقوال الزور والباطل المبتدعة من قبل الجاهلية.

والملاحظ أنّ هناك شوائب جاهليّة طرأت على عمليّة الحجّ الإبراهيميّ، وعمل الإسلام على نفيها من قبيل تعظيم الأوثان ، وتحريم بعض الثروات الحيوانيّة، وتلطيخ الأوثان بدماء الأضاحي، وأقوال الزور، والتصفيق، والصفير، وتعالي قريش على النّاس ونفيرها من دونهم من المزدلفة، وإتيان البيوت من خلفها بعد الإحرام، والتلهيّ بذ كر الآباء والتفاخر بهم، والنسيء، والطواف العاري وكلها أمور نفاها الإسلام.

﴿حُنَفَاء لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاء فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾﴾ أراد الله لهذه الأمّة أن تكون موحّدة خالصة لله (حنيفة)، وأن تبتعد عن الشرك وهو الوهدة الحضاريّة الكبرى، فمثل المشرك المبتعد عن الحقيقة مثل من هوى من مكان عالٍ فمزقته طيور الأهواء الجارحة أو قذفت به الرياح إلى هوّة عميقة لا يمكنه النجاة منها.

﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾﴾ بعد أن تنتفي كل الشوائب والبدع تبقى شعائر الله معالم واضحة على طريق الأمّة، ويبقى الحجّ علماً للإسلام فيجب تعظيم هذه الشعائر التي جعلها الله، والاعتبار بها، فهي تربّي التقوى في القلوب باستمرار، وربما أشير هنا إلى خصوص البدن (الجمال) التي تساق هدياً وتشعر بعلامة الهدي.

﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾﴾ فإن للبدن ـ أو عموم الشعائر ـ منافع لكم يمكنكم الاستفادة منها إلى حين ذبحها ومنتهاها إلى البيت الحرام القديم.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾﴾ وهكذا يقرّر القرآن أنّ الأمم المؤمنة كانت لها أنواع من العبادات، وهي تذكر فيها اسم الله على ذبائحها وتشكره وحده على هذه النعمة. إنّه الإله الواحد الذي يجب أن تسلم له البشريّة وتخبت ـ أي تطيعه بإرادتها ـ لكي تصل إلى الهدف، وحينذاك تستحقّ البشارة بالنعم الدائمة.

﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ إنّ مناسك الحجّ تربّي في الإنسان التوحيد، والشكر، والطاعة، وذكر الله، والخشية والصبر، وإقامة الصلاة، والإنفاق مما رزقه الله. فهي تربّي الإنسان على أن يكون إنساناً حقّاً.

﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ والبُدن هي الإبل السمينة التي تقدم هدياً في الحجّ فتصبح من شعائر الله (التي تحتاج إلى جعل إلهيّ) فهي الخير في حياتها وعند نحرها. ويجب ذكر الله عليها بالتسمية، وصفّها بنحرها قائمة معقولة الرجل. فإذا نُحرت واستقرّت على الأرض وماتت أمكن الأكل منها، وإطعام الفقير سأل الطعام (المعترّ) أم لم يسأله (القانع).

وهكذا سخّرت هذه الثروة الحيوانيّة للإنسان لتشبع حاجاته، وليشكر الله على ذلك.

﴿لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾﴾ كل هذه المناسك ومنها الهدي إنما هي لتربية التقوى في النفوس (لا لينتفع الله بهذه اللحوم والدماء فهو غنيّ ـ سبحانه ـ عن ذلك) إذ

سخّرها للإنسان ليكبّر الله ويشكره على الهداية، ويحسن السلوك ليصل إلى غايته وكماله في الحياة.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾﴾ إنّ الله العظيم الجبّار يدعم المؤمنين ويدافع عنهم، ولا يشمل دعمه الكافرين الذين خانوا مواثيقهم الفطريّة. وبهذا يشعر المؤمنون بالأمل والقوّة اللامتناهية في مواجهة جميع الأخطار.

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ بعد أن تهيّأت الظروف المناسبة في المدينة جاء الإذن بالقتال للمؤمنين بعد أن تحمّلوا الظلم والأذى الكثير، وضمن الله لهم الدفاع عنهم وتحقيق النصر وهو القادر عليه.

﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾﴾ لقد أُخرج المؤمنون من ديارهم ظلماً؛ لأنّهم رفعوا كلمة الحقّ والإيمان. فيحقّ لهم الجهاد، ولولا سنّة التدافع لهدمت أماكن العبادةكمحال عبادة الرهبان (الصوامع)، وبيع النصارى (الكنائس)، ومصليات اليهود ومساجد المسلمين باعتبارها معالم الدين، وأنها يذكر فيها اسم الله كثيراً، وقد ضمن الله النصر لمن يدافع عن دينه وينصر الله وهو القويّ العزيز. وهذه السنّة الكونيّة تمثّل حالة الردع وعدم الفوضى بين الناس. والحفاظ على معالم المسيرة المتدينة وفي الآية بيان لحماية أماكن العبادة على تنوّعها، باعتبارها محالّ للارتباط بالله ـ رغم التنوّع في العبادة ـ وكذلك باعتبارها من المقدّسات المنتسبة له تعالى، والمقدّسات بطبيعة الحال هي جزء من شخصيّة كل أمّه فلا يصحّ الاعتداء عليها لأنّه اعتداء على هويّة الأمة وكرامتها.

﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾ هذا هو هدف المنتصرين في مختلف الميادين إنّه إقامة الصلاة وهي عمود الدين ومصدر النهي عن الانحراف، وإيتاء الزكاة لسدّ خلّة الجماعة، والأمر بالمعروف وهو كل خير، والنهي عن المنكر ـ وهو كل شرّ ـ والأمور بعد ذلك موكولة إلى الله. وأين هذا من أهداف الذين يحتلّون البلاد استكباراً وتسلطاً ونهباً للثروات واستعماراً للشعوب.

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾

وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَى فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾﴾ وليس تكذيب المشركين أمراً جديداً فقد صدر من أمثال قوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وقوم لوط وأصحاب مدين (قوم شعيب) وقوم موسى وكانت العاقبة واحدة وهي: الإمهال وإعطاء الفرصة ثمّ العذاب فكيف كان إنكار الله لهذا السلوك المنحرف؟

﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾﴾ لقد نالهم العذاب بعد تكذيبهم فإذا هم آثار تتحدّث عن نفسها؛ قرية مهدمة، وبئر لاوارد لها، وقصر هلك سكانه.

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ فليسر هؤلاء المكذّبون في الأرض بقلوب واعية وآذان سميعة ليتّعظوا بالعواقب. ولكنّهم لا يملكون ذلك بعد أن ابتلوا بالعمى الحقيقيّ وهو فقدان البصيرة وعمى القلوب دون عمى الأبصار. وهكذا يعمل القرآن على أن يعيد الإنسان إلى إنسانيته وتذكيره بطاقاته التي فرّط فيها.

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾﴾ وكدأب غيرهم يستعجل المشركون العذاب ـ نخوة وإمعاناً في العناد ـ وليعلموا أنّ وعد الله حقّ؛ لأنّه الصادق القادر، طال الزمان أو قصر، وهو لا يخاف الفوت.

وربما كان عدد الألف هنا كناية عن طول المدة والزمان.

وما أكثر القرى التي ظلمت فأمهلت ـ رغم ظلمها ـ ثمّ عوقبت، والمصير بالتالي إلى الله.

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٥١﴾﴾ إنّه خطاب جميع الأنبياء يعلنه الرسول منذراً بكل وضوح فإن آمن القوم وعملوا الصالحات فلهم الغفران والحياة الطيّبة، وإن رفضوا وعملوا على إطفاء نور الله بكل ما يملكونه من جهد استحقّوا الجحيم.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ

اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ روي عن أهل البيت عليهم السلام أن الرسول من ينزل عليه الوحي والنبيّ هو من يرى الوحي في المنام[1]. وعلى أي حال فإن الآية تقرّر أن الرسل والأنبياء يتمنّون تصحيح المسيرة وقيادة المجتمعات إلى النور والعلاء والكمال، ولكنّ الشياطين توسوس وتشكّك وتقف في وجه ذلك، وقد تكفّل الله بمحو الشبهات، وتحكيم آياته وهو العليم الحكيم.

وما جاء في بعض المنقولات من روايات الغرانيق وأمثالها، من استجابة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لأماني الشيطان مرفوض لا يستحقّ الردّ عليه.

﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾﴾ وإلقاءات الشيطان تشكّل امتحاناً لمن لم يتأصّل الإيمان في قلوبهم أو استعصت قلوبهم عليه، فبعدوا عن الحقّ وبانوا عنه.

﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾﴾ أما العلماء المؤمنون فثابتون على الحقّ؛ لإنّ علمهم به قد ملأ وجودهم بالإيمان، ووجّه قلوبهم وعواطفهم وصبغها بالطاعة والهداية الإلهيّة، فيضها تامّ ودائم تشمل القلوب المستعدّة فتقودها إلى الصراط المستقيم.

﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾﴾ أمّا الكافرون فيبقون في التشكيك والمراء حتّى يفاجئهم يوم القيامة، أو يشملهم عذاب يوم لا خلاص منه، وحينئذ يدركون الحقيقة بعد فوات الأوان.

وفي هذه الآية وما سبقتها تركيز على خصيصة المؤمنين وهي الثبات على الحقّ، والطمأنينة في القلوب، والأمل بالمستقبل، في حين يبتلى المشركون بالشكّ والمراء والخوف من المستقبل وعذابه. ومن الطبيعي أن العقل السليم لا يرجّح حالة القلق على حالة الطمأنينة أبداً.

﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥٧﴾﴾ حيث الملك والمالكية

---

١. يراجع: الكافي، ج ١، ص ١٧٦: باب الفرق بين الرسول والنبي والمحدَّث.

والسيطرة الواضحة لله تعالى، وهو الحاكم الحقّ يثيب المؤمنين الصالحين ويدخلهم جنّات النعيم، ويعاقب الكافرين المكذّبين بالعذاب والهوان.

﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٥٨﴾ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾﴾ إنّ الهجرة في سبيل الله وإعلاء كلمته تعبّر عن إخلاص وتضحية في سبيل الهدف، ولذا تهون فيها الصعاب ويُجزى المهاجرون بأفضل الجزاء، وإذا قتلوا أو ماتوا فجزاؤهم الدخول إلى مدخل يرضونه ويرضاه الله لهم.

﴿ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾﴾ وإذا واجه المعتدى عليه أعداءه وعاقبهم بمثل ما عاقبوه به دون زيادة وتجاوز ثمّ حصل البغي والظلم منهم عليه ثانية فإن الله تعالى سينصره ويدافع عنه مع أن الله تعالى من صفاته العفو والمغفرة، في إشارة إلى استحباب العفو عند المقدرة.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾﴾ وهكذا يكون التدافع من سنن الحياة كما أن التداخل بين الليل والنهار كذلك. وكلها من لوازمها وهي تحقّق بالتالي المسيرة المتوازنة تحت سمع الله وبصره.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾﴾ إنّ الله هو الحقّ الثابت المطلق، والكون كله يقوم بالحقّ وعلى الحقّ بكل سننه وقوانينه، وما عدا ذلك الباطل والوَهم والقلق، والله تعالى أسمى وأعلى مما يتصوّرون؛ لأنّه المطلق الحيّ القيوم المريد المحيط بما سواه.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾﴾ بلطفه وحكمته يقوم الكون وتنطلق الحياة وينزل المطر فيحيي الأرض الجرداء الميتة، لتصبح بهيجة مخضرة.

﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾﴾ إنّه المالك الحقيقيّ للكون وهو الغنيّ المطلق وله الحمد كله.

والآيات الكريمة تعمل باستمرار على تعميق الصفات الإلهيّة في خلد الإنسان المؤمن، وإذا تجسّدت في وجدانه صفات الإله الحق السميع البصير العليّ الكبير اللطيف الخبير الغني

الحميد الرؤوف الرحيم أشرق وجوده بهذه الصفات فتنوّر سلوكه بها، ليتحوّل إلى موجود ربّانيّ الصفات، يسعى للخير والمعروف والرحمة، ويراقب الله في كل حال ويحاسب نفسه باستمرار وهو بالتالي يطوى مراحل تكامله عبر هذا العهد والمراقبة والمسؤوليّة.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾﴾ وظاهرة تسخير ما في الأرض من جبال و سهول وبحار وجماد وحيوان ونبات لصالح الحياة الإنسانيّة، والفلك وحركتها في البحر بأمر الله، والسماء بكل ما يمسكها، ويمنع من أن يخرقها شيء فيصيب الإنسان بمكروه، إلى غير ذلك من النعم والقوانين التي لا تحصى، لايمكن أن تفسر إلاّ على أساس الرأفة والرحمة الإلهيّة الحكيمة المدبّرة، التي تحرّك الفطرة للإيمان الواعي بالله.

﴿وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾﴾ ونفس حركة الحياة بتطوّراتها ـ الحياة الدنيا ثمّ الموت ثمّ الإحياء للآخرة ـ ظاهرة تستوجب التوقّف طويلاً عندها والتأمّل في عطائها، لكن الإنسان ـ مع الأسف ـ شديد الكفر لهذه النعمة.

﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾﴾ وهكذا شاء الله أن تتميّز كل أمّة بمنهجها في العبادة والحياة وشعائرها وملامحها، انسجاما مع قيمها ومبادئها. فلا معنى لاعتراض غير المسلمين عليهم في ذلك، وأنهم جاءوا بمناسك جديدة، فليثبت الرسول على دعوته إلى الله فهو على الهدى المستقيم، ولتلتزم الأمّة بمنهجها وشعائرها لأنها سرّ شخصيتها وعلائم هويّتها.

﴿وَإِن جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾﴾ ولئن اعترض المشركون على المناسك التي جاء بها الإسلام، وصحح انحرافاتهم كما في مجال الحجّ ـ كما مرّ ـ فليكل الرسول الأمر إلى الله، ولايدخل معهم في نقاش، بعد أن اتخذوا منهج الجدال والعناد، والله هو الحاكم الفصل يوم القيامة.

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾ والله ـ تعالى ـ هو العالم بكل شيء تتساوى لديه الأشياء والأزمان والأماكن، وكل الأشياء مثبتة في علمه وذلك على الله يسير سهل.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾﴾ ليلتفت هؤلاء المجادلون في المنهج الإسلاميّ إلى خللهم الكبير، وهو عبادة أمور موهومة لم يأتهم فيها من الله برهان وحجّة، ولم يحصل لهم علم بها فلا شيء إلاّ الخرافة والتقليد الأعمى والظلم للحقيقة والعقل والوجدان بلا دليل يدعمهم، ولا منطق ينصرهم.

﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾﴾ وبدلاً من الاستناد إلى الأدلة الواضحة البيّنة على صحّة أقوال الرسول، يلجأون إلى الإنكار والانفعالات الشديدة، والبطش بمن يتلو عليهم هذه الآيات الكريمة. وهنا يؤمر الرسول بالتبكيت والإنذار لهم بالنار الموعودة فهي أعظم مصير سيّئ متصوّر، يلهب نفوسهم ويقلق فكرهم، ويفتّت قواهم ويربك خططهم ويعدّهم للانهزام أمام جيش الإيمان.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾﴾ تنبيه رائع لوجدان هؤلاء النّاس عبر ضرب مثل من حياتهم المألوفة، فليستمعوا له بوعي؛ ذلك أن هذه الاصنام التي تُدّعى لها القوّة والشراكة لله ضعيفة إلى أقصى ما يتصوّر، بحيث أنها عاجزة عن خلق موجود ضعيف كالذباب، بل لو أن كل هذه الآلهة المزعومة اجتمعت بكل ما تملك من قوّة لما استطاعت ذلك، بل لو سلبها الذباب شيئاً لم تستطع استنقاذه منه!! نعم، إنّ الطالب (الآلهة) والمطلوب (الذباب) في غاية الضعف.

﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾﴾ إنّه سخف شديد أن تقاس هذه الموجودات إلى الله، وجهل فاحش بعظمة الله وقوّته وعزّته، وبالتالي فهو ظلم فاحش للحقيقة والتقييم المنطقيّ السليم.

﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾﴾ إنّ الله لطيف رحيم سميع بصير بالبشريّة، هو خلقها، وهو يعلم ما يحقّق لها هدف خلقتها ويهديها إلى كمالها، ولذا فهو يختار من تتوفّر فيه عناصر الصدق والأمانة من الملائكة والناس، لإبلاغ رسالته ووحيه الهادي لذلك.

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٧٦﴾﴾ و هو تعالى يراقبهم ويسدّد خطاهم ويعلم مسيرتهم وهذا يؤدّي معنى العصمة باعتبارهم يتحرّكون تحت عناية الله، وبذلك تطمئنّ الإنسانيّة إلى صدق ما يبلّغونه، وتتّخذهم نماذج حياتيّة سامية فتقتدي بها، وهو تعالى مرجع الأمور في الكون والمحيط بها.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٧٧﴾﴾ (سجدة مستحبة) ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿٧٨﴾﴾ نداء للأمّة الإسلاميّة يحمل لها كل واجباتها ووظائفها الفرديّة والاجتماعيّة، بل والحضاريّة أيضاً. فهي مأمورة ببناء الذات العابدة عبر الركوع والسجود وعبادة الله وفعل كل خير يأمرها به الله وتنتبه إليه فطرتها، وذلك في كل حياتها وسلوكها كي تصل إلى فلاحها وكمالها. وهي مأمورة ببذل أقصى جهدها، وبما يتناسب مع رسالتها وأهدافها الإنسانيّة التي اختيرت هي لها، وبما تملكه من طاقة لتحقيق ذلك، فلا حرج عليها ولا تضييق بل هو قيام بسنّة إبراهيم الحنيفيّة الخالصة السمحة. فقد كان إبراهيم أوّل المسلمين، وشكّلت هذه الأمّة نموذجاً للأمّة التي دعا إليها إبراهيم.

وهي نعمة إلهيّة كبرى على هذه الأمّة أن منحها هذا الاسم في الكتب السابقة وفي القرآن، لكي تتّخذ الرسول قدوتها الكماليّة، فتكون بذلك قدوة حضاريّة للبشريّة جمعاء. ولن تكون كذلك إلاّ إذا أقامت الصلاة وآتت الزكاة واعتصمت بمنهج الله و أوامره وحقّقت مقتضيات المولويّة الإلهيّة، وهو نعم المولى ونعم النصير.

سورة المؤمنون (٢٣)

آياتها ١١٨

بِسْمِ اللَّه الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تحدّثنا قبل هذا عن البسملة.

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١﴾ تركّز هذه السورة على الإيمان ومستلزماته الأخلاقيّة كي يحقّق الهدف وهو الكمال الإنسانيّ والفلاح.

﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝٢ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣﴾ فأوّل مستلزمات الإيمان هو النفوذ إلى الأعماق وصياغة المشاعر فتخشع لله دائما. وأسمى حالات الخشوع إنما يتمّ أثناء الصلاة، حيث يفرغ الإنسان لربّه ويناجيه ويعلن له العبوديّة الخالصة، وحينئذ فلا مجال للغو والسفه وإنما الوجود كله يصغي للحقّ وحده.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ۝٤﴾ والإيمان يربّي النفس على البذل في سبيل الله، وسد خلّة المجتمع، وتوفير فرصة الحياة للآخرين.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاء ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ۝٧﴾ كما أنّ الإيمان يدعو لطهارة العلاقات الاجتماعيّة وقصر العلاقة الجنسيّة على الحياة الزوجيّة التي تقتصر على العلاقة مع الزوجة أو مع الجواري اللواتي يتملكهنَّ المسلمون (على أساس نظام معيّن راعى فيه الإسلام الظروف القائمة والمعاملة بالمثل، والحفاظ على العفّة الاجتماعيّة، وضرورة اختلاط الأسرى بالمجتمع، وانفتاح طريق الإيمان وبالتالي الحريّة لهم، كي يندمجوا في المسيرة) ففي هاتين الحالتين لاتوجد ملامة وفيما عداهما يمتنع المؤمنون عن أيّة علاقة جنسيّة وإلاّ تجاوزوا الحد. (ومن هذا نعلم أن زواج المتعة الذي كان مسموحاً به في عصره ﷺ داخل في الحياة الزوجيّة، وإن كان دخولاً موقتاً) فقد استدلّ البعض على حرمتها بهذه الآية، حيث قالوا: إنّها ليست زواجاً ولا ملك يمين، وبهذا فقد نسخت آية حليّة المتعة من سورة النساء(الآية ٢٤)، والصحيح أن هذه آية مكية فلا يمكن أن تنسخ تلك وهي مدنيّة. وثانياً فإن المتعة زواج، لأنه عقد وصداق وتوارث للولد مع بعض الفروق كالتوقيت مثلاً.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٨﴾﴾ ومن مقتضيات الإيمان حفظ الأمانةوالوفاء بالعهد. فعلى أساس منهما تنتظم الحياة الفردية والاجتماعيّة الإنسانيّة في كل عصر.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾﴾ واستمرارية الصلاة والحفاظ على أركانها وأوقاتها وعددها هو الذي يحقّق غرضها الحياتيّ المطلوب، وتكرار الصلاة مرّتين هنا لأهميتها.

﴿أُوْلَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١﴾﴾ هؤلاء المؤمنون المتّصفون بلوازم الإيمان هم السائرون على طريق الكمال في الدنيا، وهم الحائزون على الإرث الأخرويّ العظيم. إنّه الخلود في الجنان وهو اقصى ما يمكن أن يتمنّاه الإنسان من أمل، تعجز عن تحقيقه المبادىء المادّيّة.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾﴾ تعميقاً للإيمان وتقوية له يأتي التذكير هنا بمراحل خلقة الإنسان، إذ تبدأ وتعقد من طين جامد ثمّ تتحوّل إلى نطفة منويّة، فيها مقدّمات الحياة، فتستقرّ في الرحم المهيّئة بشكل عجيب لحفظها وتنميتها، وتشكّل بامتزاجها مع بييضة الانثى علقة، فتتحوّل هذه إلى مضغة (قطعة من دم غليظ) لتتحوّل إلى عظام، ومن ثمّ لتكتسي العظام لحماً، ثمّ يأتي الإبداع الإلهيّ ليحوّله إلى جنين إنسانيّ. وفي كل ذلك روائع للخلق والتعبير يقف المرء أمامها عاجزاً، فتبارك الله احسن الخالقين.

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾﴾ وهكذا يتّصل الموت والبعث في القيامة بمسيرة الحياة، ليتمّ التدبير الإلهيّ.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ ﴿١٧﴾﴾ ومن عجائب النفس إلى عجائب الآفاق، حيث الممرّات السبع وهي كلها تحت سمع الله وعلمه.

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاء مَاء بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ ثمّ ها هو المطر ينزل بقدر يناسب حاجة الإنسان لتجذبه الأرض وتبدأ دورة رائعة من الماء، فيها حياة الإنسان والأرض التي يعيش عليها، والله قادر على منع هذه النعمة. وإذا حدث نقص أو فيض فإنما هو لعدم استثمار المياه من قبل الإنسان بصنع السدود وإرواء الأرض.

﴿فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِ جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾﴾ ومن الأرض والماء تنشأ الجنّات من النخيل والأعناب والفواكة المتنوّعة التي تشبع بطون النّاس بالأكل وعيونهم بالجمال، بتنسيق وتخطيط جميل يكشف بوضوح عن يد القدرة الرائعة.

﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاء تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ ﴿٢٠﴾﴾ وها هي شجرة الزيتون التي تنبت كثيراً في طور سيناء، تنتج زيتاً فيه الكثير من الخصائص المنسجمة مع حاجة الإنسان، كما تنتج أداماً يصبغ الطعام فتلتذّ به العيون والبطون.

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ والى عالم الحيوان ومنافعه الكثيرة المنسجمة بدقّة مع الحياة الإنسانيّة وحاجاتها. فمن حليبها الذي يُشرب إلى لحمها الذي يؤكل وإلى حمل الإنسان من مكان لآخر، تماماً كالفلك المسخّرة طبق قوانين إلهيّة لتقوم بهذه الوظيفة في الأنهار والبحار. والعبرة الكبرى من ذلك هي الإيمان بالقدرة المدبّرة.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾﴾ بعد تركيز الإيمان بالله يأتي الحديث عن دعوة الرسل جميعاً لهذه الحقيقة. فهذا نوح يعلن دعوة التوحيد والتقوى، ليجيبه الملأ الكافرون من قومه بالتشكيك في إمكان كون الرسول بشراً، وليس من الملائكة وأنهم لم يُسبقوا بذلك، وأن نوحاً إنما يحاول ادعاء التفضّل عليهم لاغير.

﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاء اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾﴾ ثمّ يتّهمونه بالجنون، فيجب أن يترك وشأنه حتّى يموت.

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ ﴿٢٥﴾﴾ ليلجأ نوح إلى الله طالباً أن يبدله بتكذيبهم وأذاهم بالنصر.

﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاء أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾﴾ ويؤمر نوح بصناعة الفلك تحت رعاية الله وهدايته، حتّى اذا أتمّ ذلك انتظر الأمر والحكم الإلهيّ بالطوفان، عبر العلامة

الخاصّة وهي فوران الماء متفجّراً بأمر الله من موقده ومنبعه، وحينئذ أمر بأن يحمل معه من أنواع الأحياء من كل نوع منها زوجين اثنين، كما يحمل معه أهل بيته والمؤمنين به إلاّ الكافرين المستحقّين لعذاب الله، على أن لا يشفع لهؤلاء المستثنين، فيجب أن يلاقوا عاقبة الظلم; وهي الغرق في هذا الطوفان العظيم.

﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾﴾ وتأتي التعليمات الإلهيّة لنوح أن يعلن الحمد لله على تخليصه من الظالمين، ويطلب منه ـ جل و علا ـ أن ينزله على الأرض منزلاً مباركاً، كثير العطاء وهو خير المنزلين.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾﴾ إنّ في قصة نوح آيات وعبراً تحوي معاني الصبر، والشكر، ووحدة الدعوة وارتباط التقوى بالتوحيد، ونفور الملأ المترف دائماً من الحقّ، وتوجيه التهم الباطلة للمخلصين، وتآمره على الدعاة، والنصر الإلهيّ لهم، وهلاك الظالمين دونما شفيع، وحمد الشاكرين المؤمنين لله، وطلبهم العون منه دائماً واستمداد البركة منه، ونجاحهم في امتحان البلاء.

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٣١﴾﴾ ويستمرّ القرآن في عرض تجارب الدعوة وما تواجهه من عقبات، فيذكر تجربة جيل آخر.

﴿فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾﴾ وقد أرسل الله إليه رسولاً من بين أفراده، ليعلن له كلمة التوحيد والتقوى نفسها.

﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ وتتكرّر التجربة فيقف في وجهه الملأ الأشراف المتفعون من الضلال، المكذّبون بالآخرة، والمترفون اللاّهون في الدنيا، فيشكّكون في نبوّته؛ لأنّه إنسان يأكل ويشرب كالآخرين، فكيف يتّبع النّاس إنساناً منهم؟ إنّه في منطقهم خسران واضح.

﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾﴾ ثمّ ليستهزئوا

بالمعاد يوم القيامة بعد أن يتحوّل الإنسان إلى تراب وعظام بالية، مستبعدين ذلك، مركّزين على هذه الحياة الدنيا لاغير، ومنكرين للبعث.

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾﴾ ومتبعين ذلك باتّهامه بالكذب، ومعلنين إصرارهم على عدم الإيمان.

﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾ ويلجأ الرسول إلى ربه طالباً النصر ليعده الله به عن قرب، وحينئذ يندم الكافرون.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاء فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾﴾ ليأخذهم عذاب الصيحة وليتحوّلوا إلى غثاء مهمل من مهملات التاريخ، وتشملهم اللعنة الأبديّة.

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ ﴿٤٢﴾﴾ وهكذا تتوالى الأجيال ويتكرّر المشهد: عناية إلهيّة بالبشريّة وهدايتها عبر إرسال رسل مبشّرين ومنذرين صابرين على الشدائد مهما طال الزمان، واضحين في دعواتهم، متّحدين في مضمونها. ولكن يقف في وجههم ملأ مصلحيّ مترف مكذّب بلقاء الآخرة مثير للتشكيكات في شخصيّة الرسول ودعوته، فيُصبّ عليه العذاب بالحقّ ليتحوّل إلى ركام يُلقى في مزابل التاريخ.

﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَاء أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾﴾ ولكل أمّة أجل وزمان، وهي تستوفي أجلها في التاريخ. وتتابعت الرسل لطفاً من الله بالبشريّة، ولكن التكذيب تتابع أيضاً فتشابهت النتائج، وتبع المكذّبون بعضهم بعضاً، وتحولوا من أمم أريد لها التكامل وصناعة التاريخ إلى أحاديث يلوكها التاريخ وشملتهم اللعنة والبعد والنسيان.

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾﴾ وفي نفس السياق السريع تذكر قصّة موسى وهارون ومعهما كل ما ينبّه الوجدان، وتذعن له العقول من آيات وعلامات.

﴿إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ ﴿٤٧﴾﴾ وعلى غرار كل الملأ والمستكبرين المتجبّرين يرفض فرعون وملؤه تلك الآيات البيّنة، ويحتجّون بنفس الحجّة، بشريّة الرسول، ويضيفون إليها أن قوم هذين الرسولين البشرين يعبدون فرعون، فالأحرى بهما أن يشبها قومهما في العمل كما أشبهاهم في البشرية.

﴿فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾﴾ وتكرّرت سنّة الله بإهلاك المكذّبين.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾﴾ ثمّ بلّغ موسى كتاب الله (التوراة) لبني إسرائيل كي يسيروا على طريق الهدى.

﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾﴾ وهنا يشار إلى عيسى وأمه مريم باعتبارهما آية من آيات الله، وقد منَّ عليهما بايوائهما إلى مكان مرتفع ومستو، يجري فيه الماء وتطمئن فيه النفس.

﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ خطاب عام لقادة البشريّة (الرسل) ليعيشوا كالبشر يأكلون ويعملون، ولكنه أكل للطيّبات وعمل للصالحات فتقتدي بهم البشريّة المؤمنة، وتمضي المسيرة تحت علم الله ورعايته.

﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴿٥٢﴾﴾ لتتحقّق المسيرة الواحدة العابدة المتّقية، وتسير تحت قيادةالأنبياء إلى كمالها المنشود.

﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾﴾ كذلك أراد الله لهذه البشريّة أن تسير وموقفها العمليّ واحد وعلى خطّ الأنبياء، إلاّ أنَّ الأمم تمزقت بعدهم إلى فرق وأحزاب، يتبجّح كل منها بمالديه، ويفرح به ناسياً الهدف الأسمى والمسيرة الواحدة.

﴿فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ ﴿٥٤﴾ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ على هؤلاء أن لايحسبوا أن ما يحصلون عليه من نعم ومال وبنين إنما هو نتيجة رضا الله عنهم، كلا، فإن الأمر على خلاف ما يظنّون وإن كانوا لايشعرون.

﴿إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾﴾ وعلى الجانب الآخر يقف الخائفون من الله، المؤمنون بكل آياته، البعيدون عن الشرك بكل أنواعه.

﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾﴾ إنّهم يحسّون بعظمة الله وألطافه ويستقلّون طاعاتهم تجاهها، ويخشون ان يقصّروا في ذلك فهم ينفقون ويعملون الصالحات وقلوبهم وجلة من يوم الجزاء.

﴿أُوْلَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴿٦١﴾﴾ ولذلك فهم يتسابقون في فعل الخير ويتحيّنون أسرع الفرص لذلك. واذا كان المشركون ينتظرون أن يسارع الله لهم في الخيرات وهم مشركون فإن هؤلاء يسارعون فيها وهم وجلون.

﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾﴾ هذا هو الدين منسجم مع الفطرة، ومنسجم مع القدرة فلا يكلّف أحداً ما لايطيق. وها هو الكتاب يعرض الحقّ بوضوح تامّ أمام الفطرة والقدرة، ويهدي للعدل والإنصاف دونما ظلم أو حيف.

﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِن دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ ﴿٦٣﴾﴾ ولكن المشركين تغمر قلوبهم الغفلة عن هذه الحقائق، وتزيدهم أعمالهم المنحرفة غفلة عن الآيات البيّنات.

﴿حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾﴾ فإذا شمل العذاب المترفين تنبّهوا من غفلتهم، وراحوا يصرخون مستغيثين، ولكن بعد فوات الأوان، فلا ينفع الجؤار والعويل، ولا ينصرهم ناصر من عذاب الله.

﴿قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾﴾ لقد جاءتهم الدلائل والآيات المنبّهة للوجدان، فلم تزدهم إلاّ تراجعاً عن الحقّ، واستكباراً وهجراً وإمعاناً في الهذيان، في نوادي السمر الليليّة، فهم لا يستحقّون النصر.

﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءهُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾﴾ هذه هي حقائق القرآن واضحة بيّنة، فلماذا لا يتدبّرون فيها وفي جمال معانيها. إنّه كتاب يعرض كل ما قاله الأنبياء عبر التاريخ من التوحيد والتقوى، فلا شيء محدث فيه لم يسمعونه من قبل.

﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴿٧٠﴾﴾ ألا يعرفون الرسول الذي عاش معهم صادقاً أميناً قويّ الشخصيّة مفكّرها؟ فلا معنى لتهمة الجنون السخيفة. بل هو الحقّ الواضح الذي جاءهم به وان كان اكثرهم للحقّ كارهون.

﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾﴾ إنّ للحقّ قيمة قائمة بذاتها لا تتغيّر بتغيّر الأهواء

والرغبات، والحبّ والكره. ولو كان يتّبع الأهواء لانتقض بناء الكون القائم على أساس من علم الله ورحمته وقدرته، وعلى انسجام التشريع مع حركة الكون وحاجات الإنسان الحقيقيّة وإشباعها العادل السليم، فما عليهم إلاّ اتّباع القرآن المذكّر لهم بالحقيقة. إلاّ أنّهم يعرضون عن الذكر والوعي ويستمرئون الغفلة والعناد.

﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٧١﴾ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ ﴿٧٤﴾﴾ بعد أن فنّد القرآن أعذارهم وتبريراتهم لحالات الإعراض والعناد، أكد هنا أنَّ النبي ﷺ لم يسألهم أجراً وخرجاً على أداء رسالته، فأجره على الله وهو خير الرازقين، وأنّ ماجاء به هو طريق الحقّ المستقيم، وأن المنكرين للآخرة هم المنحرفون عن الحقيقة.

﴿وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾﴾ إنّهم ناكبون منحرفون فإذا انكشف عنهم البلاء والضر برحمة من الله وجدتهم مصمّمين سادرين في الغيّ، غارقين في الطغيان.

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾﴾ ولقد رأوا من قبل عذاب الله، فلم يؤدّ بهم ذلك للاستكانة والتضرّع لله.

﴿حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾﴾ فإذا ابتلوا بالعذاب الشديد عادوا يائسين من كل خلاص.

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ عودة قرآنيّة إلى تركيز الإيمان عبر تنبيه الوجدان إلى دقّة الخلقة الإلهيّة. فها هي منابع المعرفة الإنسانيّة ـ وبها يكمل الإنسان ويتسامى ـ يركّز عليها القرآن. وهي الحواس كالسمع والبصر، والأفئدة وهي قدرة الإدراك والتعقّل التي يتميّز بها الإنسان باعتبارها أعظم نعمة إلهيّة، لايستطيع أن يؤدّي الإنسان حقّها من الشكر.

﴿وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾﴾ وقد امتنّ الله فهيّأ له ظروف الحياة في هذه الأرض بكل مستلزماتها، ليقوم بإعمارها وتنفيذ حقّ الخلافة فيها، ولتنتهي المسيرة إلى الله حيث الجزاء والحساب.

﴿وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾﴾ ثمّ هاتان الظاهرتان العجيبتان؛ الحياة والموت وهذه الظواهر الكونيّة الواضحة، ومنها الليل والنهار وما تعبّران عنه من قوانين وظواهر عجيبة، ألا يدعو كل ذلك للتأمّل والتعقّل؟

﴿بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾﴾ ولكنّهم بدلاً عن التعقّل راحوا يردّدون أقوال الضالّين القدامى، من التشكيك بالبعث وإعادة الإنسان إلى الحياة، بعد أن يصير تراباً وعظاماً، واعتبار ذلك خرافة مكرّرة قديمة.

﴿قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ ويأتي الردّ عبر سؤال قاطع عن مالكيّة هذا الكون ولمن هي؟ ولا جواب لهم ـ وفق مرتكزاتهم ـ إلا الاعتراف بها لله، ليعود السؤال القاطع إذن ما معنى التشكيك بقدرة الله على البعث؟

﴿قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾﴾ والأسئلة بعد هذا تترى، فمن هو خالق السماوات السبع ؟ ومن هو المدبّر لكل حركة في الكون؟ ولا جواب إلا الاعتراف بالله، وحينئذ يأتي التساؤل الطبيعيّ التاليلماذا إذن لا تتّقون الله ولاتخشونه؟

﴿قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾﴾ ثمّ هذا التساؤل الكبير الوجدانيّ: لمن الملك وتدبير الأشياء كلها، ومن هو المجير الوحيد القادر الرحيم والذي لايمنع منه ومن عذابه مانع؟

ولاجواب لهم إلا الاعتراف بالله ليأتي التساؤل الأخير: فلماذا إذن هذا الجري خلف الوهم والخيال؟

وهكذا يتّضح ان الكثير من المشركين كان يؤمن بربوبيّة الله وخالقيّته ومالكيّته، ولكنّهم مبتلون بمرض الشرك والخرافات.

﴿بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٩٠﴾﴾ نعم لقد بطلت كل تشكيكاتهم، وتوضّح أن ما جاء به الرسول هو الحقّ وهم الكاذبون.

﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ

عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾﴾ إنّ الله يتنزّه عما كان ينسبه إليه المشركون وغيرهم، من ولد يحمل صفات الألوهيّة، وليس هناك من يشاركه فيها، وإلاّ لتفرّد كل إله بما خلق، باعتبار تفرده بخلقه، ولكان لكل إله امتداده وسيطرته على الكون، ونواجه حينئذ فرضيّة تنازع الآلهة الوهمية، وبالتالي فناء الكون، وما كل ذلك ينسجم مع واقع الكون المنظّم بكل دقّة ووحدة تدبيريّة، فسبحان الله وتنزّه عما يصفون.

﴿عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾﴾ إنّه تعالى عالم الغيب والحضور بلا فرق بينهما لديه، ومحيط بالكون، فلا معنى لادّعاء الشركاء، وكل ما عداه يقع تحت علمه وقدرته، فتعالى الله عما ينسبونه إليه.

﴿قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٩٤﴾ وَإِنَّا عَلَى أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ ﴿٩٥﴾﴾ وهكذا يعلّم القرآن الرسول ـ ومن بعده كل المؤمنين ـ أن يلجأ دائماً إلى ربّه ويطلب تأييده، وأن لا يجعله فيمن يعذّبهم من الظالمين، بعد أن يأتي الوعد بالعقاب، و الله قادر على تحقيق وعيده.

﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾﴾ وفي شدّة الضغط المشرك يؤمر الرسول بالردّ الحسن على إساءتهم تحت علم الله، وفي هذا الأمر ما فيه من تربية وفتح مجال للوعي وجذب للقلوب.

كما يؤمر بالاستعاذة من إيحاءات ومؤامرات الشياطين ومن حضورهم وعرقلتهم لمسيرته الخيّرة لتكون هذه الصفة أي صفة الاستعاذة ديدن أمته من بعده.

﴿حَتَّى إِذَا جَاء أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ إنّ الموت أكبر منبّه للإنسان المنحرف، فما أن يبصر رسل الله الآتين لقبض روحه، حتّى يبدأ بالاستغاثة وطلب المهلة والعودة إلى الدنيا، لعلّه يعمل صالحاً، ولكنه يواجه بالرفض، وأن لاقيمة لهذه الاستغاثة. فهو إذن يدخل عالم البرزخ الفاصل بين الموت والقيامة، ليواجه مصيره المشؤوم.

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءلُونَ ﴿١٠١﴾﴾ وحين ينفخ في البوق

الإلهيّ وتقوم القيامة فإنّه لن تنفعهم الأنساب ولا الاستنجاد والمساءلة بها، بل يقفون بمفردهم أمام الله العظيم.

﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ فمن شفعت له أعماله وثقلت موازينه بمستوى قربها من الحقّ فقد أفلح، ومن خفّ ميزانه عند الحساب فقد خسر وجوده وعانى الخلود في النار يلفحه لهيبها ويحرق وجهه فإذا هو بصورة تكشف القبح الأليم.

﴿أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ اخْسَؤُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾﴾ وزيادة في التبكيت وبالتالي تحذيراً للكافرين الذين يواجهون الرسالة، تعرض هذه الصورة من صور العذاب، حيث يُسأل الظالمون عن مدى اطّلاعهم على الدلائل، ليجيبوا معترفين بالإيجاب معتذرين بغلبة الشقاء والتكبّر والضلال عليهم، طالبين أن يمنَّ عليهم ربّهم بالإخراج من النار، ومنحهم فرصة جديدة، فإن عادوا إلى شقوتهم كانوا مستحقّين للعذاب لظلمهم، ليُنهروا بقوة ويُزجروا عن الكلام.

﴿إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾﴾ أليسوا هم الذين كانوا يستهزئون بفريق من المؤمنين المستغفرين الله الطالبين لرحمته وهو خير الراحمين، يسخرون من ذلك ناسين ذكر الله العظيم.

﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿١١١﴾﴾ ولكن ماذا كانت العاقبة؟ لقد فاز المؤمنون المستضعفون وخسئ المستهزئون.

﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾﴾ واستصغاراً لمتعة الدنيا في قبال الآخرة يأتي هذا الحوار، فيُسأل النّاس يوم القيامة عن مدة بقائهم في الدنيا، ليجيبوا إنّهم إنما لبثوا يوماً أو بعض يوم تقليلاً للمدّة في قبال طول أيّام الآخرة، ليأتي التاكيد على قلّة اللبث

هناك، ومن ثمّ ليُحسّوا أنّهم أشبعوا لذّات ذواتهم إشباعاً قليلاً وبقوا محرومين في حياة الخلود.

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾ إنّ وجود البعث والحساب يخرج مسيرة الإنسانيّة الطويلة بما فيها من هداية وضلال، وطاعة وعصيان، وتقدّم وتراجع، وعدالة وظلم، يخرجها من العبث إلى المسؤوليّة والتخطيط، ومن الضياع إلى التكامل ولامجال للعبث في خلق الله.

﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾ إنّ الله ـ جل وعلا ـ هو الملك المطلق، والحقّ الثابت والواحد المدبّر للكون بكرمه ولطفه، فلا مجال لتصوّر العبث في فعله، وهو القادر على بعث النّاس للحساب، وتبقى مسألة البعث والحياة الآخرة والحساب فيها عنصراً يهزّ المؤمنين ويدفعهم لعمل الصالحات وخلاصهم من الخسران، في حين أنّه يؤرّق الكافرين ويثبّط من عزائمهم ويبطل معاييرهم. وهنا يبدو الفرق بين مجتمع يؤمن بالآخرة وآخر ينكرها.

﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُل رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١١٨﴾﴾ وتاكيداً لما بدأت به السورة من فلاح المؤمنين وخسران الكافرين، يأتي ختامها ليعلن أنّ المشركين لا يستنيرون ببرهان، فحسابهم إلى ربّهم وهم لايفلحون، في حين يعيش المؤمنون في ظل اللطف الإلهيّ داعين بالغفران والرحمة ليغمرهم بها وهو أرحم الراحمين.

سورة النور (٢٤)

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ذكرنا أنّ البسملة تحمل معنىً عظيماً، وأنّها جزء من السورة.

﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝١﴾ تهدف سورة النور لبناء الحياة البشريّة النيّرة الطاهرة المتصلة بالهدى الإلهيّ، بتركيز على الحياة الاجتماعيّة والجانب العائليّ خصوصاً، فجاءت تعلن عن نفسها في المطلع أنّها أنزلت وفرضت بما فيها من آيات واضحة نيّرة، لكي تذكّر الإنسان بفطرته وربّه ودينه وشريعته وحياته النيّرة وهدف مسيرته.

﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ۝٢﴾ وهنا تطهير للعلاقات الاجتماعيّة من أكبر آفة ممزّقة وهي الزنا المخرّب للعائلة.

ولذا فلا هوادة فيه ولا مجال للرأفة في حكم الله إن كان المجتمع مجتمع المؤمنين. ويجلد الزاني والزانية غير المحصنين مائة جلدة علناً أمام طائفة من المؤمنين للاعتبار.

﴿الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ۝٣﴾ «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن»[١] ـ كما جاء في الخبروكذلك الزانية، ثمّ إنّ الزاني إنما يقصد الزانية لا العفيفة. فهما خارجان بعملهما عن الجماعة المسلمة الطاهرة. وهما مرفوضان إذا أشهرا عملهما، فإذا حدّا ولم يتوبا ترك تزويجهما طرداً لهما، بينما يتكافئان مع المشركين في النكاح.

﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاء فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ۝٤ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥﴾ وتطهيراً للمجتمع وحماية للأعراض وتحوّطاً للأمر فإن رمي النساء العفيفات أمر عظيم الخطر فإذا لم تؤيّده شهادة شهود الزنا الأربعة فإن عقوبة الرمي

---

١. الكافي، ج ٢، ص ٣١.

والافتراء هي ثمانون جلدة ليتمّ الارتداع. ولكن هؤلاء الرامين سوف يعدّون من الفاسقين الذين لا تقبل شهادتهم أبداً، إلاّ أن يتوبوا ويصلحوا فيشملهم الله بالغفران والرحمة.

﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٦﴾ وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٧﴾﴾ أما إذا رمى الزوج زوجته بالزنا ولم يكن لديه أربعة من الشهداء فعليه أن يشهد أربع مرات بالله أنّه من الصادقين ثمّ يعلن في الخامسة أنّ لعنة الله وغضبه عليّ إن كنت من الكاذبين.

﴿وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٨﴾ وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٩﴾﴾ ويدفع العذاب والعقاب عن الزوجة الشهادات الخمس بالله أربعة على كذبه والخامسة بغضب الله عليها إن كان صادقاً.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ إنّها أحكام تقوم على رحمة الله بالأمّة ـ لا القسوة كما تبدو ـ وبها يطهر المجتمع ويقوم على أسسه السليمة. وهنا تتجلّى أيضاً حكمة الله تعالى بفتح باب التوبة والطهارة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاؤُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾﴾ تأتي هنا الإشارة إلى نموذج صارخ من القذف وهو موضوع الإفك أي الكذب الذي قامت به مجموعة متآمرة منافقة من المجتمع المعاصر للرسول بحقّ فرد من أفراد بيت النبي ﷺ (روي أنّها أم المؤمنين عائشة، وروي أنّها أم المؤمنين مارية القبطية)[1] فهزّوا المجتمع آنذاك. باتّهامه بالفساد والزنا. ورغم الآثار السيّئة فإن القرآن يرى الجانب الايجابيّ هنا عبر كشف أهل الفساد ووضوح زيف الاتّهام وتحصين المجتمع من مثل هذه الانحرافات. أما من تولّى معظم المهمّة وهو عبدالله بن أُبي[2]، رأس المنافقين فهو مستحقّ للعذاب العظيم.

﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾﴾

---

١. البرهان في تفسير القرآن، ج ٤، ص ٥٢.
٢. راجع مجمع البيان، ج ٧ ص، ٢٠٦.

كانت الحالة الطبيعيّة للمجتمع الإسلاميّ أن يرفض هذه الشائعة منذ البدء، فهي ترتبط بكل فرد فرد وهي لا تحمل عناصر التصديق فيجب تكذيبها بكل وضوح.

﴿لَوْلَا جَاؤُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاء فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاء فَأُوْلَئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٣﴾﴾ ومادام ناشرو الإشاعة لم يأتوا بالشهداء الأربعة فهم محكومون بالكذب.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾﴾ مازال القرآن يربّي الأمّة خطوة بعد خطوة، وبفضل الله ورحمته يعبر بها العقبات، ويغفر لها زلاّتها وإلاّ ففي الخوض في مثل هذه الأمور عواقب سيّئة عظيمة، خاصّة وأنّها كانت تحاول تشويه سمعة الرسول ﷺ والتأثير على الرسالة.

﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾﴾ لقد كان كلاماً تلقّته الألسن وتناقلته الأفواه دون تثبّت وتأكّد، ظانّة أنّه أمر عاديّ، ولكنّه عند الله عظيم، فكان الصحيح الطبيعيّ التحرّز عن الدخول في الأمر بل التبرّي منه والاستعاذة بالله من هذا الافتراء الصارخ.

﴿يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾﴾ وبالتالي يحذّر القرآن المجتمع المسلم أن يكرّر هذا الخطأ الفادح. ما دام مؤمناً بالله ورسوله.

﴿وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾﴾ تأكيد للطف الله إذ يبيّن للمجتمع معالم مسيرته باستمرار، ويمنحه من علمه وحكمته ما يسدّد به خطاه.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٢٠﴾﴾ إنّ المجتمع الإسلاميّ مجتمع طاهر وأيُّ قصد بل أيّ ميل لنشر الفواحش وإشاعتها فيه وتلويث أجوائه يعني الظلم الكبير المستحقّ للعذاب الأليم. ولهذا فيجب أن تتعلّق النفوس بتعليمات الله فهو العالم بمصالحها ويجب أن تستمدّ من فضله ورحمته وهو أهل الرأفة والرحمة.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ

يُزَكِّي مَن يَشَاء وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾﴾ إنّ الشيطان هو العدوّ المتربّص بالإنسان، يمزّقه فرداً ويحطّمه مجتمعاً عبر تآمره وتخطيطه وخطواته الماكرة. فيجب أن ينتبه المؤمنون لذلك. إنّه يدعو لإشاعة الفاحشة وهي تعني الخروج عن الحالة الطبيعيّة، والمنكر الذي ينكره العرف والطبع والفطرة الإنسانيّة، فيجب استشعار اللطف والرحمة الإلهيّة دائماً والتمسّك بشريعة الله، ولولاها لما طهر أحد، فمنه الهدى ومنه التزكية وهو يرقب مسيرة الإنسان فهي تحت سمعه وعلمه.

﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُوْلِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ ويجب أن يشعر الأغنياء وذوو المكنة بحاجات المجتمع من أولي القربى واليتامى والمساكين ومن تركوا أموالهم وأهلهم وهاجروا في سبيل الله، فينفقوا عليهم. كما يجب أن يسود المجتمع الوئام والصفح، وبالتالي المحبّة، لتشملهم محبّة الله وغفرانه، خاصّة والمجتمع المسلم في بداية تكوينه واختلاف تركيبته وتعقيدها.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾ تأكيد جديد على ضرورة الابتعاد عن تسميم المجتمع عبر التشكيك بالعلاقات الزوجيّة، واتّهام الغافلات عما يحاك لهنَّ في الخفاء، والمحصنات اللواتي انتهجن نهج العفّة والمؤمنات الصالحات، اتّهامهنَّ بالانحراف، وبثّ الشكّ والريب في المجتمع. فإن ذلك العمل يؤهّل فاعله للطرد من رحمة الله والعذاب الشديد في الدنيا والاخرة.

﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴿٢٥﴾﴾ ويوم القيامة له خصائصه حيث تشهد الألسن والأيدي والأرجل بما عملت، فلا مجال للتخلّص والإنكار، وهناك يلاقون حقّهم من الجزاء ويكتشفون الحقيقة الكاملة. فالله هو الحقّ وكلماته هي الحقّ ووعوده هي الحقّ، وهو لا يدعو إلاّ إلى الحقّ.

﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُوْلَئِكَ مُبَرَّؤُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾﴾ وكما أسلفنا في الآية الثالثة فإن حالة الزنا حالة غير منسجمة مع المجتمع الإسلاميّ ومعزولة عنه، وكذلك حالة الخبث

والقذر الخلقيّ تجرّ أصحابها وصاحباتها بعيداً عن الجماعة التي يحفّها الطيب والطهارة، فهم مبرّأون من التهم بعيدون عن الانحراف مستحقّون للمغفرة والرزق الكريم. وفي الآية تاكيد على ضرورة الفصل والتمايز والتكافؤ في الزواج بين مجتمعي الطهر والمعصية. (إذا جاءكم من ترضون خلقه ودينه فزوّجوه)[١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ توجيه إلهيّ اجتماعيّ آخر ربما غفل عنه النّاس آنذاك، وهو يأمرهم أن لا يقتحموا بيوت الآخرين دونما تعريف واستئذان، فقد يخرقون حرمة أصحابها، وقد يطّلعون على مالايجوز لهم الاطّلاع عليه، وهكذا تزول بعض عوامل الخلل في العلاقات السليمة.

﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ فلا يجوز دخول دار لم يؤذن في دخولها، فإذا رفض صاحب البيت ذلك وجبت العودة والانصراف، فإن ذلك أطهر للمؤمن الذي يحيى تحت علم الله وبصره.

﴿لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾﴾ وهناك أماكن توجد قرائن فيها على الإذن العام للداخلين كي يحصلوا فيها على ما يريدونه من متاع وحاجات وضيافة فلا مانع من دخولها. وليعلم المؤمنون بدقّة أنّهم يعيشون بما يظهرونه أو يخفونه تحت علم الله التامّ بهم.

﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾﴾ ويستمرّ القرآن في توجيهاته الاجتماعيّة المطهّرة للعلاقات بنهي المؤمنين عن النظر إلى مالا يحلّ النظر إليه من النساء. والنظرة باب الفتنة وتهييج الشهوة وبالتالي تدنيس العلاقات. ثمّ جاء الأمر بحفظ الفروج وهي كناية عن عدم صرف الشهوة الجنسيّة في غير ما أحلّ لها في الآية السادسة من سورة المؤمنون، وذلك ليؤدّي الدافع الجنسيّ دوره الطبيعيّ في شد المجتمع إلى بعضه،

---

١. الكافي، ج ٥، ص ٣٤٧.

وإدامة النسل الإنسانيّ دونها تخريب لأسس المجتمع، وبه تتمّ طهارة المجتمع.

﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاء بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاء بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُوْلِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاء وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾ كما تؤمر المؤمنات بدورهنَّ بعدم النظر إلى مالا يحلّ لهن أيضاً، وحفظ أنفسهنَّ عن الرذيلة، وعدم فعل مايحرّك كوامن الشهوة في الجنس الآخر، فلا يظهرن مواقع الزينة والفتنة إلاّ الوجه والكفّين والقدمين. كما يؤمرن بتغطية فتحة الصدر من الثوب بواسطة غطاء الرأس والنحر وهو (الخمار) لمنع موارد الفتنة. واستثني من النهي عن إبداء الزينة للآخرين كل من الأزواج والآباء وآباء الأزواج والأبناء وأبناء الأزواج والإخوة وأبناء الإخوة وأبناء الأخوات، والنساء المؤمنات وما ملكن من العبيد والإماء والرجال المولّى عليهم الذين لا حاجة لهم لإشباع الشهوة، والأطفال الذين لا تثور فيهم شهوة لعدم اطّلاعهم على مواضعها، كما نهين عن الحركات التي تهيجّ الشهوات من خلال فعل ما يكشف عن وجود أنماط من الزينة المخفيّة.

وتختم الآية بهذا التوجيه العام حيث المطبّات والمزالق الكثيرة في هذه المجالات بالتوبة والإنابة إلى الله، وذلك مقتضى إيمانهم لكي يصلوا للمجتمع الطاهر السعيد، مجتمع الفلاح والطهارة والأمن الاجتماعي والعلاقات النظيفة بين الجنسين. والحقيقة أن الغرائز ـ ومنها الغرائز الجنسيّة ـ تقوم بدور حياتي ضروري لصالح الفرد والنوع الإنساني، ولكنها عمياء قد تغرق الإنسان في الفتنة والفساد إن لم تنضبط بضوابط العقل والشرع فتقوم بدور ايجابيّ فعّال في الحياة. وربما أمكن التمثيل لذلك بالمياه المتحدّرة من الأعالي فإنّها لو أمكنت السيطرة عليها بالسدود ووجّهت التوجيه الصحيح لنشرت الخير، أما لو تركت لوحدها فهي تؤدي إلى التهديم والتخريب.

﴿وَأَنكِحُوا الْأَيَامَى مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِن يَكُونُوا فُقَرَاء يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾﴾ وبعد أن أغلق القرآن أبواب الفتنة والانحراف، راح

يفتح باب التصريف والإشباع الصحيح للغريزة الجنسيّة وهو الزواج، ويدعو لتسهيل زواج من لا أزواج لهم من الأحرار والصالحين للزواج من العبيد والإماء، والتركيز على الصلاح بدلاً من الاهتمام بالعناصر المادّيّة والوهميّة، والإنفاق في هذا السبيل، واعداً بتوفير الأرزاق لهذه العوائل الجديدة بفضله تعالى وهو الغنيّ العليم.

﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمْ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاء إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِن بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾﴾ في حين يطلب من الذين لم تتح لهم فرص الزواج أن يتحصّنوا بالعفّة، حتّى يفرّج الله عنهم ضيقهم. ولما كان وجود العبيد في المجتمع يشكّل أحياناً مصدراً للفساد لعدم تخلّقهم بالخلق الإسلاميّ، ولغربتهم عن قيمه، فقد هيّأ الإسلام فرص الحريّة لهم، ومنها أن يطلب العبد من مولاه أن يكاتبه على أن يدفع العبد مالاً معيّناً يكسبه لقاء تحريره. وهنا يؤمَر المؤمنون بقبول ذلك، تحقيقاً للرأفة ودفعاً للعمل وسدّاً لباب الفساد، بإنهاء الرق والعبودية. كما يؤمَر الحاكم الإسلاميّ بمعونة هؤلاء المحرّرين من بيت المال أيضاً. ثمّ ينهى القرآن عن عمل الجاهليّة من إكراه الفتيات المملوكات على البغاء والتكسّب بذلك، فيجب أن لا يحدث هذا في المجتمع الإسلاميّ. وبهذا يحافظ الإسلام على طهارة المجتمع وسلامته.

﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾﴾ هذا هو القرآن آيات واضحات، وعرض للتاريخ للاتّعاظ والاعتبار، كما فيه الهدى والرشاد والنور.

﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونِةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاء وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾﴾ إنّ الله هو النور بمعانيه، فهو الذي يهب الوجود، ويهدي الخلق لكماله هداية تكوينيّة وتشريعيّة، ويطهّر الكون من شوائبه، ويهيّئ الحياة للإنسان

ويطهّر الإنسان من شوائبه ويسوقه إلى الكمال. وهنا يركّز القرآن على صورة محسوسة تحاكي الصورة المعقولة: إنّها تنطلق من كوّة صغيرة (مشكواة) يوضع فيها مصباح لتوهّج نوره وتألّقه، تحميه زجاجة وتعطيه صفائها فهو ككوكب درّي منير شفاف، تغذّيه شجرة مباركة زيتونة بدهنها الصافي الذي تعطيه الشمس المشرقة عليه شروقاً وغروباً صفاء خاصّاً، فيكاد يضيء قبل أن تمسّه النار. فهي إذن عوامل لتلألؤ هذا النور وتألّقه ليملأ الكون عطاءً وتهتدى له القلوب المستعدّة. وهكذا يأتي المثل القرآني للنور الإلهيّ، لينهل من عطائه الجميع، فيعبدوا الله ويشكروه.

﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿٣٦﴾﴾ والمساجد محلّ إشراق النور الإلهيّ، واتّصال الأرواح بالنور، فلها العظمة والرفعة وفيها يرفع اسم الله وفي أجوائها يعلو التسبيح لله باستمرار صباحاً ومساءً.

﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴿٣٧﴾﴾ ويعمر بيوت الله ومساجده مؤمنون لا تمنعهم تجارتهم ومكاسبهم من أن يعيشوا ويحيوا بذكر الله قلوبهم، وإقامة الصلاة وإعطاء الزكاة قياماً بالواجبات وخشية من الله وحسابه، في يوم رهيب تحار فيه القلوب والأبصار.

﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾﴾ ولا ريب أنّ مثل هؤلاء سيجزون الجزاء الأوفى، نتيجة أعمالهم الصالحة، وفوق ذلك فضل عميم ورزق كريم بإرادته وكرمه.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾﴾ أمّا الكافرون فهم محرومون من النور والحياة المتعالية، أعمالهم سراب ووهم، يحسبه العطشان المتلهّف ماء وحقيقة، فيقترب منه ليجده خيالاً خلاباً. فلا شيء هناك إلاّ مايشير إلى الله من دلائل. ولكن العناد والعمى لا يزالان يغمرانه فيستحقّ العذاب يوم الحساب.

﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾

وحياتهم الظلام الدامس كظلمات البحر بأمواجه المتلاطمة بعضها فوق بعض، ويغطّيه السحاب فيحجب عنه أضواء السماء. وهكذا تتراكم الظلمات فلا يبصر الإنسان يده ولا يهتدي طريقه. ذلك لأنّ حياة الكفر لا صلة لها بالنور ولا تعرف طريقها إلى مصدره الوحيد وهو الله جل وعلا ـ وهكذا تتوالى الأمثال القرآنيّة كأسلوب بلاغيّ لتقريب الحقائق.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾﴾ بالله يستنير الكون، وكل مافيه مفتقر إليه في وجوده وسيره، فهو علامة تشير إلى عظمته وتسبيح وتنزيه وحمد له، كل شيء بلغته ووجوده يسبّح الله ويتّجه نحو غايته وهدفه، ومنها هذه الطيور الصافّة بأرجلها، والله يحيط بالكون بعلمه ونوره. فمنه يبدأ الكون وبه يقوم، وله المالكيّة الحقّة وإليه المصير.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ ﴿٤٣﴾﴾ فليتأمّل المتأمّلون عجائب الكون ويتدبّروا فيه. فقدرة الله هيّئت دورة المياه في الطبيعة، وهي في كل مراحلها عطاء للإنسان: حيث تدفع السحاب ليتراكم ويتجمّع فيثقل ليخرج الودق أي المطر من خلال شقوقه، أو ينزل البرَد (الثلج) ليتجمّع كالجبال في بعض المناطق، أو يصيب مناطق ويعبر أخرى، والبرق يصحبه بما يكاد نوره يعمي الأبصار. كل ذلك وفق تقدير دقيق وقوانين هائلة وتدبير وحكمة، تشدّ النفوس إلى الله المدبّر الحكيم، وهكذا تتوجّه العقول للنظر والتأمّل واكتشاف قوانين الطبيعة.

﴿يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٤٤﴾﴾ وهذا التبادل المستمرّ بين الليل والنهار ألا يشكّل عبرة ضخمة لأصحاب الأبصار والبصائر؟

﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِن مَّاءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾﴾ إنّها حقيقة يراها الإنسان العاديّ ويدركها العلم الدقيق: فكل حيوان يدبُّ على الأرض مخلوق من ماء وتختلف أحوال هذه الحيوانات، فمنها ما يمشي على بطنه كالزواحف، ومنها ما يمشي على

رجلين كالإنسان، ومنها ما يمشي على أربع كالبهائم. فرغم وحدة أصلها (وهو الماء) تتنوّع أشكالها ووظائفها بمشيئة الله وقدرته، وفق نظام عام شامل متناسق، يحقّق أهدافاً متجانسة.

﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاء إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾﴾ إنّ هذا الكون مليء بآيات الله المخلوقة والمنزلة. ويبقى أن يسعى الإنسان للوصول للحقيقة، فيستعدّ لتلقّي الهداية إلى الصراط المستقيم.

﴿وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُوْلَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٥٠﴾﴾ إنّ الإيمان بالله وبالرسول له لوازمه. وبدونها ينكشف عدم الإيمان. ولذلك فلا صحة لادّعاء المنافقين الإيمان، ثمّ هم لا يعملون بأوامر الرسول ولا ينسجمون معه، ولا يتحاكمون إليه، ولا يقبلون حكمه إلاّ إذا كان لصالحهم. إنّ ذلك يكشف عن ضعف إيمانيّ، ومرض قلبيّ، وشكّ في صلاحيّة النبيّ للحكم، وخوف من أن يظلمهم الله ورسوله. أما الحقيقة الواضحة فهي أنّهم إذ يخالفون وجدانهم وفطرتهم ويتّبعون أهواءهم يقعون في الظلم نفسه.

﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٥٢﴾﴾ إنّ الإنسان المؤمن بطبعه منقاد إلى الرسول، مطيع له بكل وجوده خشية لله وتقوى، وذلك ضمان لنيله نتائج الإيمان والفوز بالفلاح. فالإيمان قد يكون عقليّاً خالصاً يفرضه الدليل والبرهان ولكن القرآن يركّز على أنّه لن يكون مؤثّراً إلا إذا نفذ إلى الأعماق والأحاسيس، وحينئذ يمكنه أن يترك أثره المطلوب في السلوك والحياة كلها. أما من لا يبدو أثر الإيمان على سلوكه وطاعة الرسول على عمله فإن ذلك يكشف عن نقص في الإيمان وعدم انخراط كامل في المسيرة المفلحة الفائزة.

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُل لَّا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾﴾ وربما استعان هؤلاء بالقسّم الغموس لإثبات إخلاصهم

وطاعتهم لأوامر الرسول في الخروج إلى الجهاد، في حين أنّهم في مقام العمل متقاعسون عن الاستجابة الحسنة، متناسون علم الله بسلوكهم.

﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٥٤﴾﴾ تأكيد على لزوم طاعة الله وارتباطها بطاعة الرسول، وإتمام للحجّة عليهم، فإن أعرضوا عن ذلك فإن الرسول قد أدّى ما عليه، فعليهم أن يواجهوا مسؤوليّاتهم. وليعلموا أنّهم إن أرادوا الهدى فإن طريقه الطاعة، ولا إجبار في البين ولا إكراه في الدين.

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾ وهذا مبدأ ثابت يؤكّده القرآن أكثر من مرة وملخّصه: أنّ البشريّة تسير بوعد إلهيّ نحو المجتمع الصالح الشامل، يقوده المؤمنون الصالحون تماماً، كما حدث من قبل في عهد داود وسليمان، ويتمكّن الإسلام من الحياة، ويسود الأمن والسلام والعبادة الخالصة دونما خوف أو تقيّة. هذه هي المسيرة الحقّة، أمّا الكافرون فهم خارجون عن الطبيعة وفاسقون فلا دور لهم في الحياة. والآية كما هو واضح من مدلولها تشير إلى مستقبل إنسانيّ مشرق بقيادة صالحة، وتطبيق كامل للشريعة، وتمكين للدين في مجالات الحياة، دونما خوف من الطغاة وأعداء الحقيقة ودونما أية لوثة شرك.

وهذه النهاية السعيدة على مستوى العالم لم تتحقّق لحدّ الآن ، وإنما ستتحقّق في زمان المهدي عليه السلام . وقد تواتر عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنَّ المهديّ من ولده، وسيظهر فيملأ الأرض قسطاً وعدلا كما ملئت ظلما وجوراً.

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾﴾ إنّ عدّة المجتمع المؤمن هو ارتباطه بالله عبر الصلاة، والتكافل فيه عبر الزكاة وتنفيذ أوامر الرسول، وكل ذلك يؤهّله لرحمة الله ولطفه وهي سرّ التكامل.

﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾﴾ أمّا

الكافرون المتجبّرون فهم أعجز من أن يقفوا في وجه مسيرة الحقّ ووراءهم العذاب ولبئس المصير.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِن قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِن بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاء ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾﴾ تعليم اجتماعيّ آخر ـ بعد التعاليم السابقة ـ وهو يطلب إلى العبيد والإماء والأطفال غير البالغين الاستئذان من الأزواج في الحالات المفروض فيها التحرر و نزع الثياب، وهي ماقبل صلاة الفجر وعند القيلولة من الظهيرة وبعد صلاة العشاء باعتبارها أوقاتاً للراحة والخلوة لا ينبغي الاطلاع عليها. أما ما سوى ذلك فإن التعايش البيتيّ يقتضي التواصل المستمرّ فلا حرج في عدم الاستئذان.

﴿وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾﴾ وإذا بلغ الأطفال سنّ البلوغ وجب عليهم الاستئذان كالآخرين. وهذه كلها آيات إلهيّة من عليم حكيم، يراد من بيانها تربية المجتمع وتساميه نحو الكمال.

﴿وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاء اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾﴾ ويرتفع وجوب الحجاب عن النساء الكبيرات اللواتي لا يرجى لهن النكاح لكبرهنّ. مع لزوم عدم إظهار الزينة، وإن كان الأفضل لهن أن يتحجّبن زيادة في الحصانة والتعفف.

﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِن بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾﴾ ولتحكيم التواصل، وتشديد الأواصر، ومساعدة المعاقين والمحتاجين تأتي هذه

الآية لتسمح لذوي العمى والعرج والمرضى بالإضافة للأقارب أن يدخلوا إلى بيوت أقاربهم: آبائهم أو أمهاتهم، وإخوانهم، وأخواتهم، وأعمامهم، وعماتهم، وأخوالهم، وخالاتهم ، ومن اؤتمنوا على مفاتيح بيوتهم، وأصدقائهم، فيأكلوا منها قدر الحاجة ودونما إضرار بصاحب البيت. سواء كان الأكل جماعياً أو منفردين. وحينئذ يوصى المؤمنون بعد الاستئذان بالسلام على هؤلاء، فهم جزء من الذات العائلية فإن السلام تحيّة إلهيّة فيها البركة والطيب والمحبّة. وهكذا يتمّ التأكيد مرّة بعد مرّة على أن آيات الله هي سبيل التكامل الاجتماعيّ والتكافل، لو فكّر فيها المفكّرون.

إن الإسلام دين الترابط والمحبّة والسلام والعلاقات الطبيعيّة المتوازنة، وهو يستغلّ كل عوامل الترابط السببيّة والنسبيّة لشدّ المجتمع إلى بعضه، وتوثيق العلائق فيما بين أفراده، دونما أيّ حرج أو إخلال بالتوازن في إطار عاطفيّ من التحيّة والسلام المبارك الطيّب، والجميل اعتبار أن هذه العلائق توجدُ الوحدة (على أنفسكم) والبركة والحالات الطيّبة المنسجمة مع الفطرة، وهو مفهوم يؤكّد عليه القرآن عندما يقول «أحلّ لكم الطيبات» ليثبت انسجام الشريعة مع الميول النفسيّة الفطريّة، وأنها إنما جاءت لإسعاد البشريّة، وإثارة الكوامن الإنسانية ليتحرك الإنسان نحو كماله، وكل ذلك على أساس اللطف الإلهيّ بالبشريّة، ولعلّ ختام الآية يشير إلى هذه المعاني إذ يدفع الإنسان للتفكير في آيات الله، والتعقّل المطلوب.

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾﴾ هكذا هو المجتمع المؤمن: منضبط مرتبط بقائده، وخصوصاً إذا كانت المسألة ترتبط بأمر جامع عامّ. وكل الأفراد يتحرّكون بأوامر القيادة، ولن يخرج فرد إلاّ بعد أن يؤذن له؛ لأنّ ذلك من لوازم الإيمان والإحساس بالمسؤوليّة. وللرسول ﷺ أن يأذن لمن يشاء حسب تقديره للمصلحة، وليستغفر لهم الله إن وجد عندهم شيئا من الوهن تطييباً لخواطرهم فإن الله غفور رحيم.

﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاء الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاء بَعْضِكُم بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ إنّ دعوة الرسول النّاس دعوة ملزمة، وليست كدعوة بعض المؤمنين بعضهم الآخر، فيجب

الاهتمام بها، وربما كان هناك من يتسلّل هارباً من الاستجابة، فليعلم هذا أنّه تحت علم الله، وليحذر هذه المخالفة لأمر القائد فقد تؤدّي للتعرّض للفتنة أو العذاب الأليم.

﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٤﴾﴾ والكون كله تحت علم الله وإحاطته؛ لأنّه يملكه ملكيّة حقيقيّة ويمدّه بالوجود، وإليه تعود المسيرة، فينبّئها بما عملت، فليحذر الهاربون الجاهلون. وهكذا يعمّق كل المفاهيم التي تؤدّي الى تحكيم اللحمة الاجتماعيّة والارتباط بالقائد، فالإيمان هو أهم الأسس التي تتحكّم في العلاقات، ومقام الرسول يحتل الأساس الآخر وعلم الله بالأمور كلها يمثل دافعاً قوياً للالتزام والانضباط بالضوابط الاجتماعيّة.

سورة الفرقان (٢٥)

آياتها ٧٧

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

البسملة آية قرآنيّة رائعة، وهي جزء للسورة.

﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾﴾ جلّت وعظمت وكثرت بركات الله الذي قدَّم هذا القرآن المتفرقة آياته ولكن مع إحكام وتنسيق للبشريّة ليشكّل الفارق الفيصل بين الحقّ والباطل، والجاهليّة والإسلام، ومعجزة الإسلام الخالدة التي تنذر كل الأرض. وهذه العالميّة التي يعلنها القرآن بمكّة تردّ على من اتّهم الإسلام بأنّه انطلق محليّاً ثمّ اتّجه اتّجاهاً أوسع.

﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾﴾ إنّها رسالة للعالمين من قبل مالك الكون الواحد الخالق لكل شيء بلا شريك والمقدّر المخطّط لسير الكون نحو هدف خلقته بدقّة متناهية. وهذا التاكيد بعد التأكيد، وفي أكثر من آية، وبشتّى الصور وأنواع الأداء لموضوع التفرّد بالملك والخلق والوحدانيّة إنّما هو كله لتستقرّ في النفوس وتشيع على جنباته خصوصيّات الإيمان ولوازمه باعتباره الحجر الأساس لكل المنظومة المفاهيميّة الإسلاميّة.

﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾﴾ أمّا المشركون فهم في سخف، إذ اتّخذوا من دون الله آلهة لا تقدر على خلق شيء، بل هي مخلوقة، ولا تملك لنفسها ضرّاً ولا نفعاً، كما أنّها لا تملك موتاً ولا حياةً ولا بعثاً فكيف تتخذ إذن آلهة؟!

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاؤُوا ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾﴾ ثمّ هم على سخفهم يتّهمون الرسول بالكذب والتحايل والاستعانة بأهل الكتاب، وتجميع الأساطير القديمة التي تملى عليه باستمرار في الغداة والعشيّ.

﴿قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾﴾

والجواب الواضح على هذا الافتراء أنّ الله هو منزل القرآن بما يحمله من معاني عالية وعلوم سامية، وهو العالم بأسرار الكون بما لا يتوفّر ولن يتوفّر لغيره، وقد أنزله ليهدي البشريّة ويغفر لها انحرافها ويرحمها لتسير السير الصحيح.

﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾﴾ ويمعن هؤلاء في الظلم والتزوير فيطرحون شبهة تنافي الرسالة مع البشريّة، لعدم إمكان اتصال البشر بعالم الغيب، فيجب أن يكون ملكاً أو ينزل إليه ملك منذر، أو يلقى إليه كنز يصرفه في طريق رغائبه، أو جنّة يأكل منها. وأخيراً راحوا يتهمونه بالوقوع تحت تأثير الشياطين والسحرة. وهذه التهمة شبيهة بتهمة المستشرقين له بشبهة (الوحي النفسيّ) رغم ما يعلمه السابقون واللاّحقون من عظمة وعيه، وعلوّ فكره، وإحكام منطقه والاثنينيّة الواضحة بينه وبين الوحي الإلهيّ.

﴿انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾﴾ إنّها تخرّصات وكلام وأمثلة سخيفة، منطلقة من منبع الضّلال والغيّ الذي أغرقهم، فلا سبيل لهم للنجاة لقد تاهوا إذن في تلمّس المنهج الأفضل باستخدام الفطرة السليمة والعقل للوصول إلى الحقّ.

﴿تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ﴿١٠﴾﴾ إنّ الله غنيّ مطلق منه الخيرات والجنّات والبركات، فلو شاء لأعطى رسوله كل خير وجنة وقصور وليس ضروريًا أن يكون ذلك في الدنيا، كما كانوا يتصوّرون، بل وقد يكون الله تعالى قد أخرها عنه للآخرة؛ لأنّها قد تلهي عن القيام بمقتضيات الرسالة وأعبائها.

﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾﴾ والحقيقة أنّ الكافرين ينطلقون من تكذيبهم بيوم الحساب، ليكيلوا التهم. وهؤلاء المكذّبون سوف يلقون جزاءهم سعيراً يوم القيامة. ومن هنا يتضح أن التكذيب بالساعة وعدم الإيمان بها يحوّل الإنسان إلى وجود تافه لا يؤمن بمعيار إنسانيّ قويم، ولا يتورّع عن أي تخرّص، وتوجيه أيّ تهمة وإثارة أيّ شبهة مهما كانت واهية، وبث أيّ شائعة والامتناع عن التعقّل الإنساني، والسلوك الواعي.

﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا

مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾﴾ تصوير مرعب لجهنّم وهي تستقبل المكذّبين بالآخرة من بعد ما جاءتهم الأدلّة، فهي تزمجر غضباً وتنفث زفراتها ، فإذا قربوا منها ألقوا فيها مقيّدين في مكان ضيّق وراحوا يدعون بالويل والثبور، فيأتيهم النداء: إنّه لا يكفي الويل الواحد بل عليهم الدعوة المكرّرة بالويل والثبور تنكيلاً بهم جزاء عنادهم.

﴿قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاء وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاؤُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْؤُولًا ﴿١٦﴾﴾ هلاّ قورنت تلك النهاية الرهيبة بنهاية المؤمنين المتّقين التي تحقّق أقصى ما يأمله الإنسان، وهو الخلود في الجنّة محققّين فيها كل رغباتهم. وهو وعد إلهيّ سأله المؤمنون وضمنه ربّ العالمين الصادق القادر.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاء أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاء وَلَكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَاءهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا ﴿١٨﴾﴾ ويوم المحشر سيحشر هؤلاء، ومعهم ما يعبدون من دون الله ـ مهما كانوا ـ فتسأل الآلهة المزعومة عن دورها في إضلالهم، لتجيب مسبّحة لله عائذة به متبرّئة من ذلك ناسبة الضّلال إليهم، بعد أن متّعهم الله ومتّع آباءهم، فغرّتهم الدنيا ونسوا ذكر الله، فاغتربوا عن ذواتهم فعادوا فاسقين فاسدين.

﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾﴾ وهكذا تكذّب الآلهة المزعومة أتباعها، فلا صارف للعذاب عنهم ولا ناصر لهم. والعذاب العظيم ينتظر الظالمين.

﴿وَما أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾﴾ إنّ شبهة بشريّة الرسول لا قيمة لها، فما كان المرسلون السابقون إلاّ بشراً وهم مسيرة واحدة تقدم نماذج إنسانيّة عالية تحمل رسالة الله ويمتحن بها العباد، أيتّبعونهم أم لا؟ وتمتحن هي بالصبر على الشدائد والله تعالى بصير محيط بهذه المسيرة. وتكرار هذه الشبهة من قبل المشركين يعبّر عن سعة تأثيرها في نفوس الأتباع. ولعل للحالة الخرافيّة التي ابتليت بها الجماهير تأثيراً كبيراً في تقبّل هذه الشبهة، فهم

يتصورون أن من لوازم النبوّة التي ترتبط بعالم الغيب المجهول الرهيب أن تتمتّع بقوى خارقة وقدرات هائلة تتناسب مع تصوّرها عن الغيب ومجاهيله، في حين أن التكامل الروحيّ للإنسان واستعداداته المعنوية هي الشرط المطلوب لتحقق قابليّة الاتصال بالغيب. ثم إن المراد أن يقدّم اللطف الإلهي نموذجاً إنسانيّاً حيّاً يحيى حياة الإنسان وله كل احتياجاته؛ يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ولكنّه يشكّل نموذجاً للإنسان المتديّن المؤمن بأسمى المعاني.

وحينئذ تمتحن الجماهير بمدى تقرّبها منه والتأسّي به وطاعته تحت سمع الله وبصره.

وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾ وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ وهذا اعتراض ولجاج آخر للمكذّبين بالآخرة مفاده أن الرسول إذا أمكن أن يكون بشراً يتلقّى الوحي فلماذا لا تنزل عليهم الملائكة ولا يرون هم ربهم؟ ويجيب القرآن بأنهم ينطلقون من منطلق استكباريّ وتجبّر وظلم كبير فهم يعلمون أنّهم بنفوسهم الدنيئة لا يستحقّون هذا الشرف.

أما رؤية الله فقد أعرض القرآن عن ذكر جوابها؛ لأنّ عقولهم قاصرة عن إدراك استحالتها، لاستلزامها التجسيم، وأما رؤية الملائكة فسوف تتمّ لهم في البرزخ أو في القيامة فلا تبشّرهم هناك الملائكة إلاّ بالعذاب فيستعيذون منها، ولا ملجأ لهم؛ لأنّهم مجرمون مطرودون، ولا عمل يشفع لهم بعد أن أبطل الله كل ما عملوه وحوّله إلى غبار متطاير.

﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾﴾ أمّا أصحاب النعيم فهم الفائزون بأفضل مقرّ وأروع استراحة ومقيل، بعيداً عن الأهوال والعذاب.

﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾﴾ يوم القيامة يوم رهيب، يوم تجرى فيه تطورات ضخمة يعلمها الله وحده، ومنها أن تتشقّق السماء بما فيها من سحاب متراكم، وتتنزّل الملائكة برهبة وعظمة. وتتجلّى عظمة الرحمن، وملكوته الحقّ، في حين تشتدّ الوطأة على الكافرين.

﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ

خَذُولًا ﴿٢٩﴾ يوم يحيط الندم بالظالم، فهو يعضُّ يديه كلتيهما متمنّياً أن لو كان في خطّ الإيمان وطاعة الرسول، وان لو كان ابتعد عن صداقة فلان الذي أضلّه وأبعده عن ذكر الله، بعد أن فتحت له سبل الهداية فأعرض عنها، واتّبع أهواء الشيطان ووعوده الكاذبة ، وهاهو يخذله اليوم ولا يقدر على تخليصه من العذاب.

﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾﴾ يومئذ يشكو الرسول لربّه قومه الذين هجروا القرآن وهو أعظم هديّة ثمينة قدّمها الله للإنسان، فلم يعملوا ولم يهتدوا به.

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾﴾ وهكذا وفي كل زمان يقف المجرمون في قبال خطّ الأنبياء. ولكن الخطّ الرساليّ منصور يهديه الله إلى النصر والكمال.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾﴾ شبهة أخرى يثيرها المكذّبون فلماذا لم ينزل القرآن مرّة واحدة؟ ويجيبهم القرآن بذكر بعض فوائد التدرّج في نزوله، فهو يعالج قضايا مختلفة تواجهها الأمّة والرسالة ويعطي حلولها، كما أنّه جاء لتقوية الرسول خلال مسيرته ومراحلها وتسديده وتثبيت فؤاده، وكذلك تربية الأمّة المؤمنة الصابرة الواعية وتهديد أعدائها، وهكذا جاء متتابعاً في آياته ليحقّق تلك الأهداف.

﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ ثمّ إنّ القرآن يتابع شبههم واحدة تلو الأخرى، فيفنّدها ويوضّح الموقف الصحيح منها.

﴿الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ أُوْلَئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾﴾ إنّهم ضالّون مغرمون ببثّ الشبه ضد الرسول والتهم الباطلة، ولكنهم سيلاقون جزاءهم ويحشرون على وجوههم سوقاً إلى جهنم، فبئس المكان وبئس السبيل اليها.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾﴾ وهذا موسى آتاه الله الكتاب وجعل أخاه وزيراً ومعاوناً له ، وأمرهما بالذهاب إلى المكذّبين بآيات الله التي تملأ الوجود. وعندما أصرّوا على عنادهم دمّروا أيما تدمير.

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾﴾ وهؤلاء قوم نوح لما كذّبوا الرسالة أغرقوا وبقوا عبرة للتأريخ، وهكذا هو مصير الظالمين دائماً.

﴿وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾﴾ وكذلك أهلكت عاد وثمود وأصحاب الرس (اسم لأحد الأنهار) والأمم الكثيرة الأخرى عرضت عليها الدلائل والآيات فأعرضت عنها فقضي عليها وتفتتت ونسيها التاريخ.

﴿وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾﴾ وهاهي قرية قوم لوط التي أمطرت بالعذاب ، يرونها في طريق تجارتهم إلى الشام فلا يعتبرون بها، بل كانوا لا يؤمنون بالمعاد فلا يمكنهم الاعتبار.

﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾﴾ ومن أساليب المشركين الخبيثة الاستهزاء بالرسول، والتخفيف من شأنه، وأنه لا يستحقّ الرسالة، وأنه كاد يضلّهم ويصرفهم عن السعادة وعبادة الأصنام لولا أنّهم صمدوا وثبتوا عليها. ولكن هؤلاء المغرورين سيعلمون حين يرون العذاب أن سبيلهم كان هو الضلال، وأن الرسول إنما جاء لينقذهم منه لو كانوا يعلمون.

﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾﴾ إنّهم غارقون في شهواتهم، عابدون لأهوائهم، وحينئذ لا تنفع معهم كل أساليب الهداية، وليس الرسول موكّلاً بهداية مثل هؤلاء. إن القرآن هنا يذكر أخسّ الصفات للإنسان المنحرف، إنّه إطلاق العنان للشهوات العمياء الجامحة دونما لجام بل منحها مقام الإله الحاكم، وهي حالة تصل إلى غاية الأنانية، إنها انحراف حضاريّ ضخم ابتليت به الإنسانيّة حين نسيت ربّها وفسقت عن مقتضيات فطرتها فألّهت هواها وسخّرت طاقاتها لخدمة هذا الإله الصنم. ونحن نعتقد أن الوهدة الحضارية التي ابتليت بها (الحداثة) في العصور الأخيرة بل وقد ابتليت بها حالة (ما بعد الحداثة) ناتجة عن هذه الحالة الصنميّة القاتلة التي اغترب فيها الإنسان عن حالته وفطرته الحقيقيّة «نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ»[١].

---

١. الحشر: ١٩.

﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾ لقد فرَّط هؤلاء بالأسماع والعقول، وبكل وسائل المعرفة لديهم، فعادوا كالحيوانات بل تنزّلوا حتّى عن رتبتها، فهي لا تقدم على ضررها وهم يقدمون، ثمّ إنّهم فتحت لهم سبل المعرفة ولم يفتح لها ذلك.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾﴾ ومن ظلال الهدى إلى ظلال الشمس يربّي القرآن النفس والعقل ويقودهما نحو الله. والظلّ راحة الجسم كما الهدى راحة النفس، وهنا يركّز عليه وعلى حركته المرتبطة بحركة الأرض والشمس والأجرام لتمهد جميعاً للإنسان أجمل حياة. ولو شاء الله لجعله ساكناً ولكنه اللطف الإلهيّ المحرّك له بحركة الشمس، فهو يمتدّ وينقبض ليبعث البهجة في الحياة.

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾﴾ ثمّ هاهو الليل يُلبس الأرض ثياب السكون، وهاهو النوم يخلد المرء فيه للراحة وتجديد الطاقة لينشره النهار ويبعثه نحو السعي من جديد.

﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾﴾ وهاهي الرياح المتحرّكة وفق نظم دقيقة أرضيّة وجويّة وضوئيّة وغيرها لتنشر البشرى والرحمة، من خلال المطر وتهيّئ لنزول الماء الطهور في نفسه والمطهّر لغيره، والمشبع لحاجة المخلوقات، والمحيي للبلاد الميتة. ألا تدعو كل هذه الظواهر للسير نحو المنعم المفضل؟

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾﴾ إنَّ لطف الله وحبّه للهدى يتجلّى في بعثه للرسل، ولو شاء لبعث في كل قرية رسولاً. ولكن الهدى نفسه قد يقتضي أن يبعث رسول واحد للبشريّة جمعاء، كما هو الحال بالنسبة للرسول الكريم. فلينطلق في دعوته غير آبه بالكافرين، مجاهداً بالقرآن ببذل الجهد الكبير في عرض مفاهيمه وهداه، فالجهاد بالقرآن وما فيه هو الأصل والأساس في التصوّر الإسلاميّ قبل الجهاد بالسيف والقوّة.

﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾﴾ وحركة المياه وطعمها من الظواهر العجيبة، ولكلٍّ طعم دوره في تحقيق هدف حياتيّ، وهي لا تختلط ببعضها رغم ما يوجد من دواعي الامتزاج، ولكن قوانين الطبيعة ـ بإذن الله ـ تشكّل برزخاً وحاجزاً منه ليتحقّق الهدف وتحلو حياة الإنسان وهو غافل عنها.

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾﴾ ثمّ هاهو لطف الله يحوّل الماء إلى نطفة فيها مظاهر الحياة، ليتخلّق منها الجنين: ذكراً ومنه يتمّ النسب، وأنثى وبها يتمّ الإصهار، وتتشابك الحياة ويولد المجتمع الإنسانيّ الكبير بقدرة الله فهل من معتبر؟

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾﴾ ولكنّ هؤلاء الكافرين ينكرون كل هذه الدلالات، ويعبدون ما لاينفعهم ولا يضرّهم. بل يعينون على ربّهم في نشر الكفر والضلال.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَاء أَن يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾﴾ فليمض الرسول مبشّراً بالخير والسعادة، ومنذراً من الضياع والهلاك دون أن يهتمّ بتكذيب هؤلاء المعاندين، ودون أن يسألهم أجراً، فاتحاً لهم طريق الهدى ليختاروه بإرادتهم فيسعدوا، ذلك أن سعادتهم وهداهم هو الأجر المطلوب.

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾﴾ والتوكّل على الوجود الحيّ المطلق، والتسبيح بحمده ـ وهو أهل الحمد ـ والإحساس بلطفه وإحاطته بأعمال العباد، كل ذلك زاد المؤمن وقوامه وعدّته في مسيرته الجهاديّة نحو التكامل الفرديّ والإجتماعيّ.

﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾﴾ إنّه تعالى خلق الكون في مراحل ستّ (ومنها مراحل الرتق والفتق والدخان وغيرها)، وأدار الكون من نقطة العرش العظيم، رحمة بالخلق والإنسان، وخبرة بما يصلحه ويحقّق هدف خلقته.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴿٦٠﴾﴾ (سجدة مستحبة) هذه مظاهر رحمة الله تملأ الوجود، فينبغي أن يخشع لها الإنسان العاقل،

ولكن هؤلاء المعاندين يغلقون أبصارهم عن الحقيقة، فإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن؟ أهو الذي تأمرنا أن نسجد له دون أن نؤمن به؟! وزادهم عنادهم ذلك نفوراً وابتعاداً عن الحقيقة الواضحة عبر ما يلاحظونه من مظاهر الرحمة.

﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاء بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾﴾ هذه الخيرات الكثيرة، وهذه النظم الدقيقة التي تدير الكون، وهذه المنازل التي تتحرّك فيها السيارات الهائلة، وهذا القمر بعجائبه المنيرة، وهذه الشمس المضيئة للكون ، وتعاقب الليل والنهار، الا تكفي لمعرفة الرحمن، وتذكّر آلائه والسجود له وشكر نعمته بامتثال أوامره وتحكيم شريعته، والإحساس بقدرته الهائلة؟

﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴿٦٣﴾ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴿٦٤﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَاءتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾﴾ وكما مرَّ فإن القرآن فرقان بين منهجين ونمطين من الحياة: حياة الإيمان وحياة الكفر. وهنا نجد تفصيلاً رائعاً لحياة الإيمان؛ حياة عباد الرحمن ـ وما أجملها من نسبة وإضافة الذي أنكره المنكرون ولكنه أعظم الحقائق، وعباده أروع الخلائق: إنّهم الخاشعون المتواضعون الماشون بتؤدة ووقار، الرادّون بسلام على الجاهلين المتعرّضين، المحيون ليلهم بالسجود والقيام والارتباط المتجسّد بالغيب، المتّقون ربّهم واللاجئون إليه، ليصرف عنهم العذاب الدائم والمقر والمقام السيّئ في جهنّم، والمقتصدون في الإنفاق؛ فلا إسراف في تبديد ثروة ولا تقتير أو بخل بل هم وسط بين الأمرين.

﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾﴾ ثمّ إنّ عباد الرحمن يربطون العقيدة بالعمل، والتوحيد بالطاعة والسير وفق نهج الله، يحرّمون حرماته ويحافظون على

حياة عباده، فحرام إزهاق النفسإلاّ أن يقتضي الحقّ غير ذلك ويعملون على حماية المجتمع من الزنا المخرّب للعلاقات والمؤدّي إلى الآثام والعقاب الأليم لفاعله، إذ يضاعف له العذاب ويخلد مهاناً فيه إلاّ أن يتوب إلى الله ويعود إلى إيمانه ويعمل صالحاً ، فإنه سيبدّل الله سيئاته إلى حسنات ويعفو عنه ـ وهذا من أعظم روافد الأمل ـ والتوبة الحقيقيّة والرجوع الخالص لله تؤدّي بلطف الله إلى هذه النتيجة السعيدة.

﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴿٧٢﴾﴾ وهم بعيدون عن حياة الزور والكذب واللغو، وإنما حياتهم الصدق والجدّ والوعي، وهم لا يشهدون زوراً لأحد، ويعملون على محو اللغو من الحياة باهماله والتكرم عنه.

﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾﴾ وهم واعون كل الوعي، كل ظاهرة لديهم مادّة للدراسة والاعتبار والاكتشاف، وتذكّر نعمة الله وعظمته، وتذكّر رسالتهم في الحياة. فلا صمم في الأسماع أو غشاوة على العيون مع كل هذه الآيات الباهرة.

﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾﴾ وهم يلجأون باستمرار لربّهم الرحمن الرحيم، ليوفّقهم لتكوين العائلة الصالحة بما تقرّبه العيون، وبأداء دورهم في مسيرة البشريّة المستمرّة بالسير بهم للأمام، وبالعمل الصالح الذي يتحوّلون به أئمة للمتّقين وليس من المتّقين العاديّين فحسب، وفي هذا أعظم تحفيز للرقيّ والتسامي إلى أعلى مستويات الكمال الإنسانيّ وللتنافس الخيّر على طريق بناء مجتمع المتّقين (ويصفه الإمام عليّ في كتابه إلى محمّد بن أبي بكر أروع وصف)[١].

﴿أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا ﴿٧٥﴾ خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾﴾ هؤلاء هم عباد الرحمن الحقيقيّون الذين ينتظرهم الخلود في الدرجات العالية من الجنّة، جزاء صبرهم في هذه الدنيا القصيرة الأمد، ليحصلوا على حياة السلام الخالد والتحيّة الإلهيّة الكبرى. وما أروع هذه العاقبة وهذا المقام.

﴿قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴿٧٧﴾﴾ إنّ

---

١. نهج البلاغة، الرسالة ٢٧.

الدعاء وسيلة تجسيد العقيدة، والارتباط بعالم الغيب، وباب الأمل الكبير، وتعبير عن وصل الضعيف الحقير بالقوّي الكبير العزيز، وتهيئة واستعداد معلن لتلقي العطاء الإلهيّ. فالإعراض عنه يعني الحرمان من كل هذا العطاء، والاستغناء عن العناية الإلهيّة، والله لا يغيّر ما بقوم حتّى يغيّروا ما بأنفسهم، ويحقّقوا قابليّتهم للطف. أما المكذّبون المتجبّرون فسوف يلازمهم الشقاء والحرمان. وربّما كانت الآية تؤكّد للمكذّبين أنّ الله لا يعبأ بهم إلاّ أن دعاهم للإيمان وأتمّ عليهم الحجّة.

سورة الشعراء (٢٦)

آياتها ٢٢٧

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تحدّثنا سابقاً عن البسملة.

﴿طسم ۝١ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝٢﴾ هذه الحروف المقطّعة وما فيها من أسرار يتكوّن منها هذا الكتاب الواضح المعجز الذي لا يستطيع أن يجاريه الآخرون المتمكّنون من اللغة.

﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ۝٣﴾ فلينطلق الرسول في تبليغه، ولا أهميّة لتكذيبهم ، ولا داعي لإهلاك النفس لأجلهم.

﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ۝٤﴾ إنّ الله قادر على إلجائهم وإكراههم على ذلك، ولكنه يريد أن يؤمنوا بإرادتهم.

﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ۝٥ فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون ۝٦﴾ إنّهم عاشوا على العناد وكلّما جاءهم ذكر إلهيّ وتجدّدت لهم آياته زادوا في إعراضهم، وكذّبوا واستهزأوا به، وسوف يلقون نتيجة ذلك العمل.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ۝٧﴾ ألا يتأمّل هؤلاء في هذا الكون وعظمته، وكيف امتنّ الله على الإنسان فوهبه من الأرض ما يشبع له حاجاته، وكل ما يحقّق له البهجة من الأزواج النباتيّة الرائعة.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝٨﴾ إنّ كل مافي الكون ومنها هذه النباتات المتنوّعة لآيات للإيمان ولكن أكثرهم معاندون.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۝٩﴾ إنّ عنادهم لا قيمة له في قبال عزّة الله وقدرته، وماهذا الإصرار الإلهيّ على هداية النّاس إلاّ تعبير عن رحمة الله لا غير. وهذا التقارن بين العزّة والرحمة فيه إيحاءان متكاملان، ولذا تركّز عليه هذه السورة في مقاطع مختلفة لتثبّت قلب النبيّ ﷺ .

﴿وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ۝١٠ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ ۝١١﴾ وتأكيداً لإيحاءي العزّة والرحمة تذكر قصص بعض الأنبياء، ومنها قصة موسى إذ بعثه الله للقوم الظالمين، قوم فرعون لعلهم يتّقون ويستجيبون.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ۝١٢ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ ۝١٣﴾ ويشعر موسى بعظمة المهمّة خصوصاً وهو وحيد، يخشى من عدم سعة صدره لمشكلات المواجهة مع قوم عتاة متجبرين معاندين، فيطلب إلى الله أن يدعمه بأخيه هارون الأفصح لساناً منه والأقدر على استيعاب مشاكل التكذيب.

﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ۝١٤﴾ ثمّ إنّ قوم فرعون كانوا يطلبون موسى بقتل سابق لرجل مذنب منهم.

﴿قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ۝١٥ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝١٦ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ۝١٧﴾ وهكذا شاء موسى أن يحتاط لمهمته الكبرى، ويصحب معه من يعينه فيها بل ويتحمّل مهمّة مواصلة المسيرة إن حدث له حادث. فيحقّق له ربّه مايريد، ويعده بالنصر ويأمرهما بالانطلاق القويّ تحت علم الله ومتابعته، ليبلّغا فرعون أنّهما مبعوثان من ربّ العالمين، وأن عليه أن يسمح لهما بقيادة بني إسرائيل وتحريرهم من عبوديّته واستغلاله لهم، لتحقيق العودة إلى الأرض المقدّسة، والنهوض بالمهمّة التاريخيّة.

﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ۝١٨ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ۝١٩﴾ وهنا يذكّر فرعون موسى بما وفّره له سابقاً من تربية، وبما فعله من قبل من قتل القبطيّ المتخاصم مع الإسرائيليّ، معتبراً ذلك كفراً بالنعمة ، وإفساداً لا يستحقّ صاحبه أن يدّعي الرسالة.

﴿قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ۝٢٠ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝٢١﴾ فأجابه موسى بأنَّ قتل القبطيّ تمّ جهلاً منه بحقيقة الأمر، وأنه فرَّ من مصر خوف البطش، وها قد منَّ الله عليه بالنظر الصائب والحكمة، وبالتالي جعله من المرسلين.

﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ ۝٢٢﴾ وهل تعتبر نقمتك على بني إسرائيل وقمعهم وبالتالي ما أنتج ذلك من اضطرار أمّي لإلقائي في البحر لتلتقطني أنت، نعمة تمتّن بها عليّ، وقد عاملت قومي كالعبيد؟

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ۝٢٣ قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم

مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ وهنا سأله فرعون ـ متهكّماً ـ عن ماهيّة ربّ العالمين، ليجيبه موسى بأنّه ربّ السماوات والارض وما فيهما والمدبّر لهذا الكون، وهو ما ينتهي إليه كلّ موقن بهذا التدبير عارف بهذا التنسيق منصف بالحكم.

﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾﴾ وهنا يلتفت فرعون إلى من حوله سائلاً إياهم: إلا تستمعون؟ وكأنه يتعجّب من هذه الحجّة العجيبة. فيردّ عليه موسى من جديد بأنّه ربّ الجميع، ربّهم وربّ آبائهم الأولين، وخالق البشريّة جمعاء، فلا مجال لادعاء فرعون للربوبيّة.

﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾ وعندما يفشل في التشكيك في صلاحيّة موسى للرسالة، وفي مفهوم ربّ العالمين، يلجأ لمنطق الاتّهام لهذا الرسول ـ متهكّماً به ـ بالجنون ، ليؤكّد موسى الربوبيّة الواحدة بتعبير أنّه ـ تعالى ـ ربّ المشرق والمغرب وما بينهما، والشروق والغروب ظاهرتان واضحتان عظيمتان. متسائلاً عن مدى تعقّلهم وتأمّلهم في هذا الكون المتناسق ودلالاته.

﴿قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣١﴾﴾ وبعد الاتّهام بالجنون يأتي أسلوب التهديد بالسجن، إن اتّخذ إلهاً غير فرعون. فينبّهه موسى إلى أنّه يحمل معه ما يثبت صحّة ما يدّعيه بكل وضوح فيطلب منه فرعون محرجاً الإتيان به برهاناً على صدقه.

﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاء لِلنَّاظِرِينَ ﴿٣٣﴾﴾ وهنا يظهر موسى معجزتيه: عصاه التي تنقلب ثعباناً حقيقة هائلة، ويده التي يتحوّل لونها ـ بعد أن نزعها من كمّه ـ إلى البياض المبهر للناظرين.

﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ فما كان من فرعون إلاّ أن يتّهمه ـ أمام الأشراف من حاشيته ـ بالسحر المتميّز، مدعياً بأنّه إنما يسعى للتآمر على المجتمع، والسيطرة على الأرض، وإخراجهم منها، مستميلاً لهم ومستشيراً بعد أن كان يّدعي الإلوهية، مما يدلّ على حراجة موقفه وضعفه أمام قوّة موسى وإعجازه.

﴿قَالُوا أَرْجِهِ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾﴾ فأشاروا عليه أن يمهله إلى مدّة معيّنة ـ هو وأخاه ـ ثمّ يبعث وفوداً إلى المدن الكبرى ليجمعوا له السحرة المميّزين، وذلك في يوم معلوم، فتمّ ذلك ودعيت الجماهير لمشاهدة هذا الحدث الكبير.

﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ ﴿٤٠﴾﴾ وتمّ الإيحاء للناس بأنّ السحرة ـ وبالتالي مايمثّلونه من منهج فرعون ـ هم الغالبون ولكن بشكل قضية مشترطة بأن يكونوا هم الغالبين.

﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾﴾ وتساءل السحرة عن أجرهم عندما يتغلبون على موسى، فضمن لهم الأجر والمكانة المقرّبة، فهم إذن جماعة مأجورة تسخّر لتحقّق هدف الطاغية.

﴿فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾﴾ وبلغة الواثق من نفسه ـ رغم هول الموقف حيث السحرة والسلطة المتجبّرة والناس ـ طلب موسى من السحرة أن يظهروا مهارتهم فيلقوا مالديهم من حبال وعصيّ، فالقوها مستندين إلى عزّة فرعون (وهو الضعيف الحقير في الواقع) لتحقيق نصرهم.

﴿فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾﴾ وألقى موسى عصاه (مستنداً إلى قوّة الله) فإذا بها تتحوّل إلى ثعبان عظيم يبتلع كلّ التزوير والسحر الماثل أمام الناس، فلا يبقى للحبال والعصيّ أثر، ليكتشف السحرة أنها المعجزة الحقيقيّة لا ما يأفكون.

﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿٤٨﴾﴾ ويخرّ السحرة ساجدين لله، مؤمنين برسالة موسى بقوّة وثبات أمام أعين الطغاة والجماهير، معلنين هذا الإيمان برب العالمين ربّ موسى وهارون.

﴿قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾﴾ وبعد أن آمن السحرة والكهنة، وبطلت وسيلة فرعون وافتضح أمره، راح ينكر عليهم إيمانهم واستسلامهم قبل أن يأذن لهم (وكأنّ الإيمان يحتاج إلى استئذان)، ويتّهمهم بالتآمر على

النظام، ويركّز الاتّهام على زعيمهم المعلّم لهم وهو موسى، فهو الذي تآمر معهم للتمويه على الآخرين؛ وهدّد السحرة بأشدّ العذاب: تقطيع الأيدي والأرجل من خلاف (اليد اليمنى والرجل اليسرى أو العكس) والتصليب.

﴿قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾﴾ وما كان من السحرة المؤمنين إلاّ أن يعلنوا ـ بكل وضوح ـ أنّهم لا يأبهون بذلك، بعد أن كان المنقلب إلى الله، فيغفر لهم ذنوبهم وخطاياهم، بعد أن كانوا أوّل المؤمنين. وهكذا يشرق الإيمان في النفس، فتنسى كل الصعاب، طمعاً في الثواب العظيم، ورضوان من الله أكبر.

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾﴾ وبعد هذه المواجهة، أوحى الله تعالى إلى موسى ليسير بقومه ليلاً من مصر، وليعلم أن فرعون سيتبعهم ليلحق بهم ويعيدهم إلى حكمه.

﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَؤُلَاء لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ وهنا عبّأ فرعون النّاس بإرسال رسله إليهم، معتبراً أتباع موسى مجموعة قليلة عاصية مثيرة لغضب فرعون، ثائرة ضد أمّته الكبيرة، وأنّه ـ فرعون ـ مدرك للخطر ومحذّر منه.

﴿فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٥٩﴾﴾ وهكذا مهّد الله لفناء سلطة فرعون وأتباعه، وفقدانهم ماكانوا يتمتعون به من جنّات وعيون وكنوز ومقامات رفيعة، ليرثها من بعدهم بنو إسرائيل المستضعفون.

﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾﴾ فتحرّك الجيش الفرعونيّ عند شروق الشمس متعقّباً موسى وقومه.

﴿فَلَمَّا تَرَاءى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾﴾ فلما لحق جيش فرعون بهم كان أتباع موسى قد وصلوا إلى البحر وليس معهم سفن يركبونها ولا سلاح يدافعون به، فأحسّوا بالخطر وأعلنوا أنّهم مدرّكون لا محالة.

﴿قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾﴾ ولكنّ موسى المؤمن الواثق باللطف الإلهيّ أعلن لهم أنّ الله معه يرعاه ويهديه.

﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾﴾ وهكذا جاءت بشائر الرعاية الإلهيّة فأوحي له أن يضرب بعصاه البحر فانشقّ البحر إلى جبلين عظيمين من الماء، فدخله موسى وبنو إسرائيل فعبروا إلى الجانب الآخر.

﴿وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَى وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ وقرّب الله الآخرين من قوم فرعون إلى هذا المكان ليدخلوه أسوة بأتباع موسى. ولكن ليغرقوا وينجو قوم موسى أجمعون.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾﴾ وعاد قوم فرعون عبرة للتاريخ، ولكن أكثر النّاس لا يعتبرون ولا يؤمنون.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾﴾ تأكيد على هدف العرض ـ كما أسلفنا ـ وهو اقتران العزّة الإلهيّة بالرحمة دائماً، والتدخّل لصالح أهل الإيمان وإنقاذهم.

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ ﴿٧١﴾﴾ وهذا عرض لجانب من حياة إبراهيم وحواره مع قومه، فهو يسألهم عمّا يعبدونه، ليجيبوه بأنهم يعبدون أصناماً يلازمونها ويعكفون عليها.

﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾﴾ ويأتي السؤال الصارخ، فهل تسمع الأصنام الدعاء وهل تنفع أو تضرّ؟.

﴿قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾ ليجيبوا بأنّهم يتبعون سنّة آبائهم لا غير، تعصّباً من دون حساب وتفكير.

﴿قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾﴾ وهنا يوجّه إبراهيم ضربته الصارخة، ليهزّ وجدانهم في الصميم، مبيّناً أنّه يعادي ما يعبدونه هم وآباؤهم، وأنّه يترك هذه الآلهة الوهميّة ليعبد الربّ المطلق الحقيقيّ، وهو ربّ العوالم جميعها، المتناسقة في مابينها، والكاشفة بنفسها عن ربّها الواحد.

﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿٨٢﴾﴾ إنّ النفس الإنسانيّة تبقى تلحّ وتتطلّب الخالق للكون الهادي المطعم الساقي الشافي المميت

المحيي المدبّر لهذه المسيرة بتناسق وإحكام والمعيد لها إليه ليحاسبها يوم الدين، ومالم تصل إليه فإنّها تبقى متلهّفة ظامئة وتبقى الحياة الدنيا عندها مسيرة عابثة.

﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿٨٣﴾﴾ ليرفع يديه بالدعاء والتضرّع للخالق العظيم، طالباً منه الرؤية الصائبة، وأن يلحقه بركب الانبياء والصالحين، وهم البشريّة الخيّرة الواعية العاملة عبر التاريخ.

﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴿٨٥﴾﴾ إنّه دعاء من ينظر إلى المستقبل البعيد فيسأل ربّه أن يبقيه ومنهجه حيّاً على امتداده، يذكر بخير، وتقتدي به الأجيال، ويحمل الآخرون دعوته. وبالتالي فهو يدعو ربّه أن يمتدّ مع المسيرة إلى نهايتها في الآخرة وهي جنّة النعيم.

﴿وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٨٦﴾﴾ وهو إذ ينظر للمستقبل يرتبط بالماضي بصلة، فيدعو لأبيه ـ أو عمه بالغفران رغم أنّه من الضالّين عسى أن يهديه الله، ولكنه تبرّأ منه حين أصرَّ على معاداة الله.

﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ وهو ـ رغم أمله الكبير ـ خائف من الخزي والعذاب يوم القيامة، يوم لا ينفع مال ولا بنون، إلاّ من أقبل على الله بقلب طاهر سليم. والمؤمن يعيش بين الخوف والرجاء. وهكذا يستعرض إبراهيم تصوّراته العقائديّة بشكل دعاء خالص. وهو ما شهدناه من أساليب الصالحين كالإمام زين العابدين علي بن الحسين عليه السلام.

﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾﴾ وهنا ينتقل القرآن لعرض مشهد من القيامة: تبرز فيه الجنّة رائعة للمتّقين، والنار مرعبة للمعاندين العاصين، وينادون بتحدّ: أين آلهتكم المزعومة، وهل لها قدرتها اليوم على نصركم وتخليصكم أو حتّى تخليص نفسها من العذاب.

﴿فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾﴾ وهكذا يُركم الجميع في جهنّم: الأصنام وعبدتها، وكلّ جنود إبليس.

﴿قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ ويبدأ النزاع في جهنّم بينهم معترفين بغرقهم سابقاً في الضّلال الواضح حينما كانوا يساوون بين الاصنام السخيفة وبين ربّ العوالم كلها، ملقين باللّوم على المجرمين، وأئمّة الجور، متحيّرين حين يرون أنفسهم في العذاب، بلا شفيع ولا نصير ولا صديق مخلص يتوسّط لهم، متحسّرين متمنّين أن يفسح لهم المجال من جديد لكي يسلكوا طريق الإيمان، ولكن فات الأوان.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ إنّ في كل ماتقدّم علائم ومواد للاعتبار والعودة إلى الحقّ. ولكن الأكثرية تكفر به.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾﴾ تأكيد مجدد على الاقتران بين العزّة والرحمة الإلهيّة دائماً، وفي كل مقطع من مقاطع التاريخ.

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾﴾ وهذه تجربة تاريخيّة أخرى: إنّه نوح يكذّبه قومه بعد أن يدعوهم للتقوى، ويؤكّد لهم أنّه الرسول الأمين، وأنَّ عليهم مخافة الله و الطاعة لتوجيهاته.

﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾ معلناً أنّه لا يطلب منهم أجراً مادّيّاً بعد أن كان يستند إلى الغنيّ المطلق ربّ العالمين، فليعتبروا وليتّقوا ويطيعوه.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾ قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾﴾ وثار الاستكبار فيهم، فكيف يؤمنون ويسلمون له، وقد اتّبعه الضعفاء من أهل الطبقة الدانية؟!

﴿قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾﴾ فأجابهم نوح بأنّه لا يعلم شيئاً عن عملهم السابق، والله تعالى هو العالم الذي يحاسب طبق العدالة التي لا يشعر بها هؤلاء المتكبّرون.

﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾﴾ أمّا نوح فالمهم لديه ليس الطبقة الاجتماعيّة، ولا العمل السابق، وإنما هو الإيمان، وقد آمنوا فكيف يطردهم من حوله، وهو إنما جاء يدعو للإيمان وينذر المكذّبين.

﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾﴾ وبعد التشكيك في سلامة الدعوة باعتبار أن أتباعها من الأراذل، راحوا يتّبعون أسلوب التهديد بالرجم بالحجارة حتّى الموت.

﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾﴾ فلا يجد نوح بعد استنفاد كل الطرق والسبل لهداية قومه إلاّ أن يلجأ إلى ربه العزيز الرحيم، ليفصل الأمر بينه وبين قومه، ويخلّصه وباقي المؤمنين من جورهم وإعراضهم.

﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ فمنّ الله عليه وعليهم بالنجاة بعد أن ركبوا السفينة المملوءة بنماذج من الأحياء، وأغرق المكذّبين.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾﴾ وهذه عبرة أخرى، ولكن أكثر النّاس بعيدون عن الاعتبار.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾﴾ تأكيد على محور السورة من اقتران العزّة الإلهيّة بالرحمة.

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٧﴾﴾ وهذه عاد قوم النبيّ هود وهم من العرب العاربة التي سكنت الأحقاف في جزيرة العرب، وكانت لهم مدنيّة وثروات، وقد كذّبت بخطّ الرسالة، بعد أن دعاها أخوها هود إلى الإيمان والتقوى، وهو الرسول الأمين دون أن يسألها أجراً مادّياً فأجره على الله (وتلاحظ هنا إيحاءات هذه القصص إلى التشابه بينها وبين وضع المشركين في مكّة).

﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ إنّهم كانوا يبنون ويعمّرون فوق الهضاب ولكن لا لهدف اقتصاديّ إعماريّ بل للتفاخر والتعالي والعبث، كما كانوا يبنون الحصون والقصور آملين أن يخلدوا على مرّ الزمان.

﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ وإذا اعتدوا أو تجاوزوا أو ردّوا، ردّوا بعنف وبطش، كما يفعل كلّ الطغاة والجبابرة.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾﴾ وبعد أن بيّن أخطاءهم ونقائصهم، دعاهم إلى العودة للحالة الطبيعية: حالة التقوى الإلهيّة وطاعة

الرسول، فالله تعالى هو سرّ العزّة والرحمة، اذ منحهم الطاقات، ومنها الأنعام والبنون والجنّات والعيون، فإذا لم تشكر هذه النعم عوقبوا بعذاب يوم عظيم.

﴿قَالُوا سَوَاء عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٣٦﴾﴾ إلاّ أنّهم أخذتهم العزّة بالقوة والإثم والغفلة، فقالوا له: إنّه لا قيمة لوعظه لهم ولا أثر.

﴿إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾﴾ فهم مصرّون على منهج آبائهم وخُلقهم في التكبّر والبطش والعبث والإعداد للخلود! ولا يشعرون بأنهم مقبلون على عذاب.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾ ولذلك كذّبوا رسولهم فاستحقّوا الهلاك. فليعتبر المعتبرون، ولكن أكثرهم لا يؤمنون.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾﴾ نعم، إنّ الله عزيز ورحيم في آن واحد، وهذا المعنى هو محور السورة.

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٤٥﴾﴾ ثمّ هذه ثمود وقوم صالح وقد استمرّت على التكذيب لدعوة أخيها صالح لها إلى التقوى، بعد أن كان لها رسولاً أميناً، فعليها الطاعة. وماهو بطالب منها أجراً فأجره على ربّ العالمين.

﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ ولكن هل أعطيت ثمود هذه النعم العظيمة، وتُركت وأهملت، لتنعم بما فيها من جنّات وعيون وزروع ونخل لها طلع وثمر متجمّع سائغ للأكل، وتبني بيوتاً من صخور الجبال فارهة ناعمة فخمة، نعم هل تركت آمنة دونما مسؤوليّة؟

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾﴾ إنّ مسؤوليّتها الإنسانيّة والفطريّة تكمن في الإيمان والتقوى والطاعة لرسولها الكريم.

﴿وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾﴾ ورفض منهج الإسراف والمسرفين المبذرين لثروة الله، المفسدين في الأرض و غير المصلحين.

﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٥٤﴾﴾ فتأصّل العناد فيهم، واتّهموه بأنّه واقع تحت تأثير السحرة ومغلوب على

أمره، وأنه بشر مثلهم، فإذا أراد أن يؤمنوا به فليظهر معجزته.

﴿قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾﴾ وكانت معجزته الناقة الأعجوبة، شريطة أن تشرب مايرد للقرية من ماء يوماً فتعطيهم لبنها، ويشربون هم في اليوم الآخر دون أن يعتدي أحد على الآخر.

﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ ﴿١٥٧﴾﴾ ولكنّهم نحروها وقضوا عليها بدل أن يعتبروا بها، فشملتهم الندامة، حين لاينفع الندم.

﴿فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾﴾ فأخذهم العذاب. وفي قصّتهم عبر للبشريّة ولكن أكثرها لا يؤمن، بل ويستمرّ على الضلال.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾﴾ عودة إلى تأكيد سر السورة وهو ارتباط العزّة الإلهيّة بالرحمة.

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٤﴾﴾ إشارة تتمشّى مع السياق إلى قوم لوط الذين كذّبوا الرسالة أيضاً، بعد أن دعاهم نبيّهم إلى الإيمان والتقوى والطاعة له، وهو الرسول الأمين الذي لا يسألهم أجراً فأجره على ربّ العالمين.

﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾﴾ وذمّهم على صفتهم الذميمة وهي اللواط والشذوذ، وترك السبيل الصحيح وهو الزواج المعروف. فهم بذلك يعتدون على الفطرة والخلق السليم ويدمّرون الكيان العائليّ والاجتماعيّ.

﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾﴾ وكغيرهم من الطغاة هدّدوه بالطرد من المدينة.

﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ الْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٧١﴾﴾ والتجأ إلى ربّه يدعوه بالخلاص وأهله من هذا الجو الفاسد فاستجاب له الله ونجّاه وأهله إلاّ امرأته العجوز المشجّعة لقومه فبقيت مع الباقين.

﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاء مَطَرُ الْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾﴾ فأمطر قومه بالعذاب فعادوا عبرة لمن اعتبر، ولكن اكثر النّاس لا يؤمنون.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾﴾ ولله العزّة والرحمة بهما خلق الكون وأداره وهدى البشريّة.

﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٠﴾﴾ وأصحاب الأيكة هم قوم شعيب. وكانت تشتهر بشجرة وارفة ضخمة (الأيكة). وقد كذّبوا الرسالة كغيرهم بعد أن دعاهم نبيّهم الرسول الأمين إلى الإيمان والتقوى والطاعة، دون أن يسألهم أجراً فأجره على الله.

﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِين أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾﴾ كما دعاهم إلى الوفاء بالكيل، والعدل في الميزان، وعدم الإخسار والإنقاص فيه، لما فيه من السعي في الأرض بالفساد وخاصة الاقتصاديّ منه، حيث يؤثّر ذلك على مجالات أخرى في المجتمع.

والملاحظ تركيز نبيّ الله على الجانب العقائديّ وهو الإيمان، ولازمه وهو مفهوم التقوى، والجانب التشريعي في الحياة الاقتصاديّة وبالخصوص الوفاء بحقوق الآخرين وإعطائها كاملة وافية وعدم إنقاصها والاهتمام بالمعايير العادلة، وكذلك عدم التقليل من القيم التي يملكهم الآخرون لغرض تملّكها بقيم أقل من الواقع وبالتالي رفض كل فساد في الأرض.

وهذا يعبّر عن اهتمام الإسلام بالجانب العملي الاجتماعي تماماً كما يهتم بالجانب العقائدي فهما مترابطان في منهجه الواقعي، ولا معنى للفصل بينهما.

﴿وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾﴾ ودعاهم لعبادة الله وتقواه وهو خالقهم وكلّ البشريّة من قبلهم.

﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾﴾ وبنفس ما ووجه به الأنبياء اتّهموه بأنّه واقع تحت تأثير السحرة.

﴿وَمَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ

السَّمَاء إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٨٧﴾ وأنّه مجرّد إنسان مثلهم، وأنهم يظنّونه كاذباً والا فليسقط عليهم قطعة سماويّة تهلكهم.

﴿قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾﴾ فأجابهم أن لا أمر بيده وإنما الأمر بيد الله وهو الأعلم بما يعملون.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾﴾ وهكذا كذّبوه فأخذهم عذاب السحابة العاصفة المدمّرة، وهو العذاب العظيم.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾﴾ وكان الأولى للناس أن يعتبروا بذلك، إلاّ أنَّ أكثرهم لا يؤمنون.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾﴾ والله هو العزّة المطلقة والرحمة المطلقة. وتقارنهما هو محور هذه السورة.

وهكذا يأتي هذا الاستعراض التاريخيّ لقصص الأنبياء ليؤكّد: وحدة دعوة الأنبياء إلى حدّ التطابق اللفظيّ، ودعوتهم للإيمان والتقوى والطاعة، وبعدهم عن المنافع المادّيّة، وتركيزهم على أهمّ النقائص في مجتمعاتهم، وصبرهم على التهم والتشكيك والتهديد بالقتل والنفي والرجم، والتآمر والسخرية وغير ذلك، معتمدين في مسيرتهم على رعاية الله وإيمانهم باقتران العزّة والرحمة الإلهيّة، فلا حيف ولا خذلان وإنما هو النصر للحقّ مهما طال الزمان. وفي هذا الاستعراض دعوة للمشركين بأن يعتبروا بالماضين، وتحذير لهم من تكرار تلك التجارب ونهاياتها، وفي الآيات القادمة إشارة لذلك.

﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ عاد القرآن ليثبّت فؤاد الرسول ويؤكّد للناس أنّه تنزيل من ربّ العالمين، نزل به جبرئيل الروح الأمين على الوحي، على قلب الرسول فوعاه بكل وجوده ، وانطلق لينذر به بلغة عربيّة واضحة المعاني. ورغم أنها لغتهم إلاّ أن القرآن معجزة لا يقدر أحد أن يجاريها.

﴿وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاء بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٩٧﴾﴾ وقد أشارت إلى الرسول صحف الأوّلين ، وعلمه علماء بني إسرائيل، وحدّثوا به، فلا معنى للتشكيك بنسبه الوحيانيّ.

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ ولو جاء بعض الأعاجم بمثل القرآن فقرأه عليهم ما آمنوا به، متعلّلين بعدم فهم معانيه، ولكنّه العناد لا غير.

﴿كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾ إنّ القرآن يأخذ سبيله إلى القلوب، وإن كان التكبّر والعناد يمنع من الاهتداء وحينئذ سيعرفون الحقّ ويتساءلون هل نحن مؤجّلون؟

﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَاءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾﴾ إنّ هؤلاء يدفعهم تجبّرهم لاستعجال العذاب. وسيعرفون الحقيقة حين تنقضي مدة التمتّع والإمهال لسنين فيواجههم العذاب الموعود.

﴿مَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾﴾ إنّهم سيعرفون أنّ ما تمتّعوا به لا قيمة له ولا يدفع عنهم العذاب.

﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَى وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٠٩﴾﴾ إنّ الله تعالى لا يهلك ولا يعذّب أحداً إلاّ بعد الإنذار وإتمام الحجّة والتذكير بالواجب، وإلاّ كان ذلك ظلماً يتنزه عنه الله.

﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾﴾ وقد اتّهم الرسول بأنّه تلقّى القرآن من الشياطين على طريقة الكهّان، وهم الداعون إلى الضّلال والعمى والفساد، وهذا الكتاب ينزّه الإنسان من كل ذلك. إنّه من عند الله العزيز الحكيم. وهو لا يعطيه إلاّ للصادق الأمين. والشياطين عناصر شرّيرة معزولة عن مسير الوحي الطاهر.

﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾﴾ فيجب الابتعاد عن حياة الشرك المنتهية بسوء العاقبة.

﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ ولينطلق الرسول في دعوته، وليبدأ بعشيرته الأقربين أولاً، فهم الدائرة الأولى والأقرب لتقبّل الدعوة والتفاعل معها. وفي الروايات إنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم قام بذلك ولم يستجب له سوى علي عليه السلام وكان أصغر القوم سناً[1].

---

١. يراجع البرهان في تفسير القرآن (ج ٥ ، ص ٧٩٠)، دعائم الاسلام للقاضي النعمان (ج ١ ص ١٥)، علل الشرائع للصدوق (ج ١ ص ١٧٠)، مسند احمد (ج ١ ص ١١١)، تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر (ج ٤ ص ٣٢)، تفسير ←

﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾﴾ وقد علّمه السمة العامّة للدعاة وهي التواضع للمؤمنين، والبراءة من عمل العاصين. والتوكّل على الله احساساً بقدرته وعزّته ورحمته، وهو إحساس كل الإنبياء والمؤمنين، كما تقدّم في الآيات السابقة.

﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾﴾ إنّه تعالى يتابع مقامك ونشاطك، وعبادتك وتردّدك بين الساجدين كما ربّاك من قبل وراقب وجودك وتحرّكك في الأرحام الطاهرة الساجدة فهو السميع العليم بكل الأمور.

﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾﴾ إنّه المحيط بهذا الكون والعليم بكل حركة فيه، يمدّها بالوجود رحمة منه.

أمّا الشياطين فإنّها معزولة عن هذه المسيرة النبويّة الطاهرة، بل تصبّ شرّها على المكذّبين الآثمين. لتوحي لها ما تدّعيه أنّه الحقيقة وما هو إلاّ الكذب.

﴿وَالشُّعَرَاء يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾﴾ اما ما اتّهمه به الكفار من كون القرآن شعراً فهي تهمة لا قيمة لها أيضاً؛ لأنّ الشعر تخيّلات منظمة، ومشاعر وانفعالات شخصيّة ، والقرآن منزّل من وجود منزه عن ذلك. والشعراء يتبعهم الهائمون في مشاعرهم، التائهون في وديان الوهم، الذين تتناقض أقوالهم مع أفعالهم ، وهذا القرآن يبني الأمّة الواعية العاملة.

﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانتَصَرُوا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾ ليس الشعر كله ذمياً، فمن الشعراء من يقول الحقّ؛ لأنّه مؤمن عامل للصالحات ذاكر لله كثيراً، ناصر للحقّ، منتصر على الظلم. والظلم مصيره وخيم، وأمام الظالمين منقلب صعب لا يعلمون مداه.

وفي الآية دعوة واضحة لاستخدام الشعر، ومن خلاله الفن وسيلة صالحة لحياة أفضل وسلاحاً فاعلاً في معركة الخير والشرّ.

ابن كثير (ج ٣ ص ٣٦٣)، مجمع الزوائد للهيثمي (ج ٩ ص ١١٣) جامع البيان للطبري (ج ١٩ ص ١٤٨) وغيرها.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تحدثّنا من قبل عن معاني البسملة، وأكّدنا جزئيّتها للسورة.

﴿طس تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾﴾ تبدأ السورة بهذا الإعلان الإلهيّ وبذكر بعض الحروف كما سبق، بأن آيات القرآن الكريم جاءت واضحة مبيّنة سبيل الحقّ للبشريّة، الراغبة في معرفة الحقيقة، تهديها إلى كمالها وأسلوب تحقيقها لهدف خلقتها، وبالتالي تبشّرها بأروع أمل وأروع حياة في الدارين.

﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾﴾ إنَّ الإيمان بالله يفتح القلب لتلقّي الفيض والبشرى القرآنيّة، وإن القيام بلوازم الإيمان من الصلاة التي تشدّ الإنسان بالحقيقة المطلقة، والزكاة التي تشدّ الأواصر بين المجتمع، كل ذلك يعمّق الإيمان في القلب، ويرفع الاستعداد النفسيّ لتلقّي العطاء القرآنيّ عند ما يتحقّق اليقين بالآخرة والمعاد يوم القيامة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ ﴿٥﴾﴾ أما الذين لا يؤمنون بالآخرة فهم في حيرة تتجاذبهم الأهواء الخدّاعة، فهم يخطئون المسير الحقّ، دون أن يحسّوا بالخطر. وبالتالي ينتظرهم مصير أسود من العذاب والخسران الكبير.

﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾﴾ إنّ القرآن كنز العلوم والمعارف الإنسانيّة ومنهج العلاء؛ لأنّه آت من الله الحكيم المطلق والعليم المطلق بكل حقائق الكون والحياة والإنسان، وما يحقّق له كماله وانسجامه مع الكون القائم بالحقّ.

﴿إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾﴾ ولتقديم بعض الصور الرائعة عن حكمة الله وعلمه يأتي الحديث عن النبيّ موسى، حيث أعدّته يد الحكمة الإلهيّة لينهض بمهمّة تاريخيّة كبرى، فيحطّم رمز الطغيان فرعون، ويقود قومه إلى العلاء. وها هو في طريق عودته من مدين ومعه أهله قاصداً العودة إلى مصر، ماراً بصحراء سيناء وقد ضلَّ طريقه في ليلة باردة فأبصر على البعد ناراً

فتحرّك نحوها، ليعرف خبر الطريق أو يأتي منها بما يمكن ان يستدفئ به أهله.

﴿فَلَمَّا جَاءهَا نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨﴾ يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٩﴾﴾ وهنا يتجلّى اللطف الإلهيّ إذ ما أن يصل موسى حتّى يسمع نداء البركة التي تشمل النار ومن حولها من موجودات، وكلها تسبّح الله وتنزّهه ، ويعلن لموسى أنّ النداء صادر من الله القويّ الحكيم المطلق، وأنه مبعوث بالنبوّة.

﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاء مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَاءتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾﴾ ويطلب من موسى أن يلقي عصاه ليراها تهتز، كما تتحرّك الحيّات السريعة، ليهرب منها بلا عودة. وهنا يطلب منه أن لا يخاف من شيء وهو بحضرة الله، فلا خوف هناك إلاّ أن يبتلى أحد بظلم فيخاف العقاب، فإذا بدّل الظلم بفعل حسن نجا من العذاب. فكانت العصا وتحوّلها إلى ثعبان، وتحوّل يده إلى يد بيضاء معجزتين من معاجز تسع حملها موسى تصديقاً له.

ورغم كون الآيات والمعاجز واضحة الدلالة، فقد اتهمه فرعون وقومه الفاسقون بأنّه ساحر.

﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾ ورغم أنّهم تيقّنوا في أنفسهم من صحّتها لوضوحها ووضوح إعجازها، لكنّ ظلمهم واستكبارهم دفعهم للجحود والإنكار، وبالتالي الإفساد والضياع والبقاء عبرة للآخرين.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾﴾ وهذه صورة أخرى لعلم الله وحكمته تقدّم من حياة داود وسليمان اللذين يعطيهما الله من علمه وحكمته فيحمدان الله الذي فضّلهما بذلك على كثير من المؤمنين.

﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴿١٦﴾﴾ ويرث سليمان من داود المال والملك والمهارة في معرفة لغات الطيور ورموزها التي تتخاطب بها، فيفتخر أمام النّاس بلطف الله الذي منحهما كل ما يستحقّانه من نعم مادّيّة ومعنويّة وهو من أعظم الفضل وأوضحه.

﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾﴾ وهكذا جُمع لسليمان معسكر عظيم، فيه من الجنّ والإنس والطير، والكلّ يدخل تحت نظام عسكريّ منضبط.

﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِي النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾﴾ وعندما وصل إلى وادي النمل، طلبت نملة من النمل أن يأوي إلى جحوره وإلاّ تعرّض للسحق تحت أقدام الجند المتحرّك الذي لا يشعر بوجود النمل.

﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴿١٩﴾﴾ وعلم بذلك سليمان وانشرح صدره له وابتسم لهذه الدقّة والتنظيم، وراح يدعو ربّه أن يلهمه ـ بكل وجوده ـ شكر نعمته عليه وعلى والديه، وأن يتجلّى الشكر في القول والعمل الصالح الذي يحقّق الرضا الإلهيّ ـ وهو غاية ما يبتغيه المؤمن ـ كما يدعو ربّه أن يسلكه برحمته في سلك العباد الصالحين.

﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾﴾ وحين استعرض جنوده لاحظ القائد سليمان أن طائر الهدهد غير متواجد في محلّه، فتساءل عن هذا النقص وهل هو غياب وتخلّف يستحق عليه الهدهد العذاب الشديد أو الذبح، لتخلّفه عن مسيرة عسكريّة منضبطة، إلاّ أن يكون غيابه ناتجاً عن حجّة بيّنة تبرّر له ذلك.

﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾﴾ وبعد مدّة قصيرة حضر الهدهد معلناً أنّه حصل على علم لم يعلمه سليمان وأنه جاء من مملكة سبأ (باليمن) بخبر قطعيّ متيقن.

﴿إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾ إنّه وجد هناك مملكة تحكمها امرأة توفّرت لها أسباب المنعة والقوّة والتمدّن، ولها مركز فيه مظاهر الغنى والتقدّم تدير منه المملكة.

﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ

مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٢٦﴾﴾ (سجدة مستحبة)

إلاّ أنها وقومها كانوا من عُبّاد الشمس. فقد زين الشيطان لها الكفر (وتحويل المؤثّر النسبيّ إلى مطلق وهميّ) وتقديم الطقوس للشمس والانحراف عن السبيل القويم وهو عبادة الله المطلق الحقيقيّ الخالق لكل شيء، يخرجه من ظلمات العدم إلى نور الوجود، ويعلم ما هو في السرّ أو العلن، فهو المحيط بكل شيء، وهو الواحد الأحد ربّ العرش العظيم، الذي يدار منه الكون كله.

﴿قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾ اذْهَب بِّكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾

فردَّ سليمان بأنّه سيعمل على التأكّد من هذا الخبر، في تعليم نبويّ واضح، لعدم التسرّع في التصديق بالأخبار إلاّ بعد التثبّت والتحقيق، وأمره بحمل كتاب موجّه إليهم، ثمّ الركون إلى جانب آخر وانتظار ردِّ فعلهم على الكتاب.

﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ وجمعت الملكة أشراف قومها وأخبرتهم بأن كتاباً كريماً (باعتبار شيوع صيت سليمان آنذاك) قد وصلها، هذا الكتاب كان مبدوءاً بالبسملة، ويتضمن أمراً سليمانيّاً بالطاعة له، والاستسلام لله الذي يدعو إليه سليمان والإيمان به.

﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾﴾ وتبدو حكمة الملكة من استشارة ذوي الراي والحلّ في الأمر معلنة أنها لا تصنع شيئاً دون مشورة. ويبدو في ذلك أيضاً أهميّة الاستشارة في الأمور.

﴿قَالُوا نَحْنُ أُوْلُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾﴾ أجابوا معتزّين بقوّتهم وبأسهم الشديد أولاً، وموكلين الأمر القاطع إليها.

﴿قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾﴾ ولحكمتها ذكرت أن الملوك الجبابرة إذا دخلوا مدينة أفسدوها وأذلّوا العزيزين فيها، باعتبار ذلك من عادتهم وطباعهم.

﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾ ولكي تتمّ معرفة طبيعة

سليمان ، وربّما لكي يتمّ إغراؤه بالهدايا فيكفّ عنهم، أعلنت أنّها سترسل إليه هديّة مع أشخاص، ثمّ إنها ستلاحظ ردود الفعل منه عند عودتهم. ويلاحظ إن أقوالها وتصرّفاتها تنبئ عن حكمة وكمال عقل أهّلها لاحتلال هذه المكانة في قومها، كما يلاحظ أنّ نقل هذه القصّة يشير إلى تكريم القرآن للمرأة وأنها يمكن ان تطوي طريق التكامل كالرجل.

﴿فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ وعندما دخل رسول الملكة ومعه الهدايا على سليمان، استنكر ذلك الإغراء بالمال، في حين كانت دعوته للعودة إلى الإيمان بالله، واعتبر أن ما آتاه الله من العلم والنبوّة والقوّة هو خير مما لديهم من مال يفرحون به، فليرجع بها إلى الملكة وقومها وسيواجهون جيوشاً لاطاقة لهم بمقابلتها لتخرجهم من أرضهم بذلّة وصغار، بعد أن أصرّوا على الكفر.

﴿قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾﴾ ولعلّ سليمان لاحظ استعداد الملكة للإيمان فأراد أن يظهر لها شيئاً من القدرة التي منحها الله له، فسأل جنوده من يستطيع جلب عرشها قبل أن تقبل هي وقومها مسلمين؟ فأجابه مارد جنّي، بأنّه سيأتي به قبل انقضاء جلسته.

﴿قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ وكأنّ سليمان أراد عملاً أسرع فنهض شخص يعرف شيئاً من أسرار هذا الكون، وله بأمر الله قدرة تكوينيّة فوعد بالإتيان به بطرفة عين، وكان ذلك. وحينئذ أعلن سليمان أنّ ذلك من فضل الله، وأنه امتحان له، لكي يشكره على نعمائه ولا تبطره القوّة والعزّة فيكفر بالنعمة، وطبيعيّ أنّ كفرها يعود بالسوء وإنّ شكرها يعود بالخير على الإنسان نفسه، والله هو الغنيّ الكريم المطلق لا يحتاج لشيء «لأنّه لا تضرّه معصية من عصاه ولا تنفعه طاعة من أطاعه»[١]، كما يقول علي عليه السلام.

﴿قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَاءَتْ

١. نهج البلاغة، الخطبة ١٩٢.

قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾﴾ وأراد سليمان أن يختبر فراستها، فطلب أن تغيّر معالم عرشها بحيث لا يعرف. فلمّا جاءت سئلت أهذا هو عرشها؟ وفاجأها الأمر رغم معرفتها به فقالت: إنّه شبيه بعرشها، وعقّبت على ذلك بأنها كانت قد علمت بعظمة سليمان قبل ذلك، ولذلك قرّرت الاستسلام.

﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ ولكنها كانت تعبد الشمس إلهاً موهوماً وصدّها ذلك ـ من قبل ـ عن الإيمان بالمطلق الحقيقيّ وعندما طلب منها أن تدخل الصرح أي القصر الذي صنع من البلور الصافي ظنّته ماء لصفائه فجمعت ثيابها وكشفت عن ساقيّها، ولكنها اكتشفت الحقيقة بإخبار سليمان لها، ورأت روعة الفن وعظمة القدرة الإلهيّة، فرجعت إلى ربّها واعترفت بظلمها، وأعلنت إسلامها مع سليمان لربّ العالمين.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾﴾ وهذه صورة أخرى من حياة الأنبياء: فهذا صالح يُبعث إلى قومه ثمود داعياً إلى عبادة الله لينقسموا إلى فريقين؛ مستجيب ومعاند.

﴿قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾﴾ وكان المعاندون يستعجلون العذاب، فكان صالح يدعوهم إلى عدم استعجاله والاتّجاه نحو الطريق الحسن طريق الاستغفار، لتشملهم الرحمة الإلهيّة.

﴿قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾﴾ وهنا يلجأ المعاندون إلى خرافة التطيّر والتشاؤم لتلازم دعوته مع المحن والبلايا التي مرّوا بها، فيجيبهم ناهياً إيّاهم عن هذا السخف فلا قيمة للتطيّر، وإنّما الأمر موكول إلى الله بيده المستقبل والمصير، والإنسان ممتحن هل يسلك طريق الخير فيرحم أم يسلك سبيل الشرّ فيصاب بالعذاب.

﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٤٩﴾﴾ وتجمّع تسعة أشخاص متآمرين مفسدين غير مصلحين، وأقسموا بالله على قتل صالح وأهله ليلاً،

وإخفاء أثرهم وإنكار الجريمة أمام أولياء الدم؛ لأنّهم لم يروه بسبب الظلام.

﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾﴾ وهكذا يعتبرون أنفسهم صادقين، ولكن عين الله كانت ترقبهم وتبطل مكرهم وهم لايشعرون، لقد ابتلوا هم وقومهم المعاندون بالدمار الهائل، وضاعوا في متاهات التاريخ، وبقيت بيوتهم الخاوية المتهدّمة عبرة للمعتبرين، وذلك جزاء الظالمين. والمكر المنسوب إلى الله تعالى في الآية إنما هو مواجهة مكرهم بتخطيط حكيم لإبطاله.

﴿وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾﴾ أمّا المؤمنون فهم الناجون على مر العصور، نتيجة لتقواهم وتحسّبهم للعواقب.

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾﴾ وهذا لوط النبيّ ينهى قومه عن الإتيان بفاحشة اللواط المنكرة فطريّاً وعرفيّاً، والأنكى أنّهم كانوا يفعلونها على مرأى من الآخرين، وماذلك منهم إلاّ عن جهل فظيع.

والغريب أننا نشاهد الغرب وهو يدّعي التقدّم والعلم يتّجه نحو مثل هذا الشذوذ الجنسيّ المقيت من قبل كل الأمم عبر التاريخ، مبرّراً ذلك بمقولات عصريّة كالحريّة الجنسيّة والحقوق الفرديّة.

والأغرب من ذلك أن يتّجه بعض دعاة الكنيسة الى إقرار هذا العمل الوحشيّ تمشّياً مع الواقع وانهزاماً في مواجهة هذه الموجة اللاإنسانيّة.

وربما سعى البعض لإدراجه تحت مقولة حقوق الإنسان كما نشاهد ذلك في بعض الوثائق العالميّة حول (التوسعة والتنمية) وهو مما يبرّر تدخّل الدول الكبرى ومنع العقاب على هذا العمل التشنيع.

فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ إنّه جواب الطغاة: بإخراج لوط وآله من القرية ولا ذنب لهم إلاّ أنّهم أُناس يتطهّرون. قالوا ذلك إمّا تهكّماً، أو إنكاراً.

﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٥٧﴾﴾ ولكن الله نجّاه وأهله إلاّ امرأته التي قبلت عمل قومه المنحرفين، فكانت من الباقين في العذاب.

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاء مَطَرُ الْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾﴾ وأمطر الله المذنبين بحجارة جهنّميّة قاتلة وما أشدّ هذا العذاب.

﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾﴾ بعد عرض الصور الماضية يأتي هذا التوجيه الإلهيّ العامّ للرسول ومن بعده للمؤمنين أن يقدّموا الحمد كلّه لله، فهو أهله الحقيقيّ؛ لأنّ الخير والعطاء كله منه، ثمّ يتوجّهوا بالسلام على قادة البشريّة والعباد الذين اختارهم لهدايتها نحو الكمال. ثمّ يأتي هذا السؤال الصارخ الذي يهزّ الوجدان: هل الله هو الخير أم مايشركون به من موجودات ضعيفة عاجزة تستمدّ وجودها منه، ومالديها من خير فهو منه؟

﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاء مَاء فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾﴾ إنّه تعالى خلق هذه الظواهر الكبرى كالسماوات والأرض بكل عجائبها، وأنزل الماء في دورة رائعة تنشر الخصب والنبات المتنوّع الباعث للبهجة والجمال في كل مكان، كل ذلك ليحيا الإنسان حياة طيّبة جميلة، فهل للإنسان أن يوجد بنفسه هذه الأشجار؟ وهل للشركاء ذلك؟ كلا، إنّ الحقيقة تشير إلى الله فقط؛ أما المشركون فهم منحرفون عن الواقع والفطرة، إذ يساوون بين الله وهذه الموجودات.

﴿أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾ ثمّ من الذي أعطى الأرض هذه الحركة المتوازنة وهذا الإمكان بحيث تجرى خلالها الأنهار وتثبت توازنها الجبال الراسيات الثابتات، تتقارب البحور بمياهها وطعومها ولكن لا تختلط، ليؤدّي كلّ دوره في حياة الإنسان. إنّه الإله الواحد، ولا معنى لفرض الشريك، ولكنّ أكثر النّاس غارقون في الجهل.

﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاء الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾ ألا يرجع هؤلاء إلى وجدانهم فيتساءلون عن تلك القوّة التي يلجأ إليها المضطرّون الواقعون في الشدائد فتكشف الشدّة عنهم، ثمّ يمكّن الله لهم حياة جديدة في الأرض ، فهل يبقى بعد هذا مجال للشرك المعبّر عن غفلة وبعد عن الوعي والتدبّر؟

﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾﴾ إنّ الإنسان توصّل بما أعطاه الله من إدراك إلى اكتشاف أمور تهديه في ظلمات البر والبحر. ولولا لطفه تعالى لما استطاع ذلك. وهذه الرياح تقوم بحركاتها الضروريّة لاستمرار الحياة، وتلقي الرحمة الإلهيّة. وكلها ظواهر تشير إلى الله، فهل هناك معنى للشرك مع ذلك؟ والله هو السمّو والرفعة والنزاهة عن كل ما يدّعيه هؤلاء الجاهلون.

﴿أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦٤﴾﴾ وتتواصل هذه الأسئلة المثيرة للوجدان، فمن هو خالق الكون والحياة ومعيدها من جديد؟ ومن هو مبدأ الرزق والعطاء بشتّى ألوانه؟ إنّه الله تعالى، ولا مجال لفرض الشريك. إنّ أي ادعاء يحتاج إلى برهان يقتنع معه العقل وتطمئنّ إليه النفس، ولا يملكون أي دليل على مدّعاهم الباطل بوجود شريك لله.

﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾﴾ ثمّ إنّ كل من في السماوات والأرض، ومنهم هذه الآلهة الموهومة لا علم لهم بالغيب؛ لأنّه منحصر بالله فكل الأزمان لديه متساوية، بل هم لا يعلمون شيئاً عن القيامة والبعث.

﴿بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾﴾ لقد قصر علم هؤلاء المشركين عن إدراك حقيقة الآخرة، فهم في شكّ دائم، بل هم عمي عن هذه الحقيقة. إنّهم يتساءلون عن إمكان أن يحشروا من جديد بعد أن يتحوّلوا إلى تراب هم وآباؤهم، ثمّ يعقّبون على تساؤلهم هذا، بأن الوعد بالآخرة وعد قديم لم يتحقّق، فهو من أساطير الأقدمين.

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾﴾ يجب على هؤلاء أن يتأمّلوا في عاقبة أمر المجرمين، حيث ابتلوا بالعذاب والدمار، وهي نتيجة طبيعيّة للظلم والفساد، ومن هنا فلابد من يوم للحساب يجازى فيه المسيئون ويثاب فيه المحسنون، لتكتسب المسيرة البشريّة مضموناً عادلاً.

﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ إنّ هذا العناد والمكر

والابتعاد عن الحقّ يجب أن لا يترك أثره في نفس النبيّ فيتألّم ويتضايق منه. وإن كان حزنه في الأساس إنما هو لمصلحتهم، وعدم الاستجابة لما فيه خيرهم وهدايتهم.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٧١﴾ قُلْ عَسَى أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾﴾ ويتمادى هؤلاء فيستعجلون العذاب. إذن فلينتظروا شيئاً قريباً منه.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ إنّ فضل الله يعمّ الوجود والنّاس، وحتى هؤلاء المكذّبين إذ أمهلهم ولم يعاجلهم بالعذاب، ولكن أكثر النّاس لا يشكرون.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاء وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾﴾ فكلّ الكون والأشياء وما تخفيه الصدور وما تعلنه واقعة تحت علمه وإحاطته، مسجّلة في كتاب علمه، مكشوفة له حاضرة عنده.

﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾﴾ وهذا القرآن نفسه دليل على علم الله الواسع بكل ماجرى ويجري في الكون، ومن هنا فهو يقصّ الحقّ ويعلن الحقيقة والقول الفصل فيما اختلف فيه بنو إسرائيل، وما دخل في تراثهم من خرافات وتحريفات.

﴿وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾﴾ إنّه كتاب الهداية الإلهيّة للبشرية نحو كمالها وعلائها، وكتاب الرحمة التي تنقذ المؤمنين من الضلال، يبيّن لهم حكم الله الفصل في مختلف الأمور بما يحقّق لهم الرشاد، فالله تعالى لا يريد لهم إلاّ ذلك، وهو القويّ الغنيّ عن أيّ شيء والعليم بكل شيء.

﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاء إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَا أَنتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَن ضَلَالَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾ ومن الطبيعيّ أن يستند الرسول إلى ربّه ويتوكّل عليه ويمضي في دعوته متيقّناً أنّه على الحقّ الواضح ، وأن لا يأبه لتكذيبهم. إنّهم موتى لا يسمعون، وصمّ مدبرون عن الحقّ، لاتصل إلى عقولهم دعوة ، وعمي غارقون في الضّلال لا يؤثّر فيهم هدى، بعد أن فقدوا القابليّة التي لا تتحقّق إلاّ عبر الإيمان بالآيات الإلهيّة والاستسلام للحقيقة، وحينئذ تتحقّق ثمار الهداية الإلهيّة.

﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾﴾ إنّ هذا النمط من النّاس المكذّبين بآيات الله المشهودة سيستمرون في موقفهم، حتّى يقضي الله أن يشهدوا قبل وقوع القيامة حادثة ضخمة هي خروج دابة من الأرض تكلّمهم وتكشف لهم الحقيقة، ليذعنوا بها. وتعتبر من علامات الساعة.

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾ ويتحدّث القرآن هنا عن مشهد يحدث يوم القيامة، يحشر فيه من كل أمّة فوج من المكذّبين بآيات الله، فيحبس أوّلهم على آخرهم، ليتجمّعوا وليساق الجميع إلى موقف رهيب.

﴿حَتَّى إِذَا جَاؤُوا قَالَ أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾﴾ وهنا يتوجّه الخطاب الإلهيّ المرعب المذكّر لهم بتكذيب آيات الله، رغم أنّهم لم يحيطوا بها علماً بل انشغلوا بالتكذيب والعناد. وتفرض الرهبة نفسها عليهم فلا يملكون ما يقولونه بعدما قدّموه وشاهدوه.

﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾﴾ ويعود القرآن إلى هؤلاء المكذّبين بعد أن عرض لهم صورة تسبق القيامة لينبّه وجدانهم إلى الظواهر التي أنعم الله بها عليهم، ومنها ما تملكه ظاهرة الليل من سكون النفس وارتياحها فيه، وظاهرة النهار المشرقة، الدافعة للحركة والسعي.

﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاء اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ ﴿٨٧﴾﴾ لينتقل إلى يوم القيامة ـ من جديد ـ حيث ينفخ في البوق (الصور) وتدعى الأجيال إلى البعث ليفزع الجميع إلاّمن شاء الله، ويتحرّكوا للبعث صاغرين.

﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾ وهكذا يتحقّق التحوّل الكونيّ، فإذا بالجبال التي تبدو ساكنة تمرّ مرّ السحاب، وكل شيء في هذا الكون يقع بتقدير متقن، ويسير نحو غاية له وبعلم واسع بالواقع.

﴿مَن جَاء بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَن جَاء بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾﴾ إنّ فزع القيامة لن يصيب المحسنين بل سيلاقون ماهو خير من الحسنة، أمّا المسيئون فأمامهم النار يلقون على

وجوههم فيها، انعكاساً لما عملوا من قبل.

﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾﴾ بعد هذا الحديث عن حكمة الله وعلمه، وعرض صور من حياة الأنبياء، ومواقف الأمم، ومشاهد القيامة، تأتي خاتمة السورة لتؤكّد أنّ الرسول أمر أن يعبد ربّ مكّة المكرّمة التي حرّمها وكرّمها (ولكنهم لم يرعوا حرمتها بل كذّبوا بربّها) وهو ربّ الكون ومالكه، وأن يعلن الإسلام، ويتلو القرآن منهجاً للحياة، وسبيلاً للهداية، ويبقى الخيار أمامهم فإما الهدى وفيه العلاء للنفس، وإما الضّلال وفيه الانحطاط لها لا غير وليس على الرسول إلاّ الإنذار وقد أنذر.

﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ إنّ الحمد لله وحده هو الهادي البشريّة عبر آياته، وهو المراقب لسيرها.

سورة القصص (٢٨)

آياتها ٨٨

بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تحدّثنا من قبل عن البسملة.

﴿طسم ۝١ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝٢﴾ إنّ الكتاب الكريم الذي يرسم للإنسانيّة مسيرتها، مكوّن من حروف يعرفها الجميع، ولكن الجميع يعجزون عن الإتيان بمثله لا شكلاً ولامضموناً، مما يشكّل معجزة خالدة لدين خالد.

﴿نَتْلُوا عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٣﴾ تهدف هذه السورة لتقوية الفئة المؤمنة المستضعفة من جهة، وتثبيط عزيمة الفئة الكافرة المستكبرة المعتزّة بقوّتها ومالها وعديدها، فتذكر قصّة فرعون ـ رمز الطغيان ـ ومواجهة موسى ـ رمز الإيمان ـ له، فتكشف الحقيقة للمؤمنين.

﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ۝٤﴾ فهذا فرعون يعلو ويتجبّر في الأرض. وكما يفعل كلّ الطغاة، مزّق شعبه إلى فرق لئلاّ تجتمع كلمتهم على موقف واحد. ثمّ ركّز على بني إسرائيل الذين كانوا يؤمنون بالله وإن أصابت عقائدهم بعض الانحرافات، فراح يستضعفهم، فيذبّح أبناءهم ويبقي النساء ويهتك حرمتهن كي يقف بوجه تكاثر هذه المجموعة التي لا تؤمن بربوبيته، وهذا هو ديدن كلّ الطغاة المفسدين في الأرض.

﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ۝٥﴾ ولكن الإرادة الإلهيّة في التاريخ اقتضت ان تمنّ ـ بنعمة كبرى ـ على المستضعفين في الأرض فتجعلهم قادة التغيير التاريخيّ وورثة الأرض بعد فناء المستكبرين، وتلك سنّة إلهيّة ستقود البشريّة إلى زمان تُملأ الأرض فيه قسطاً وعدلاً بإمامة المهديّ، حيث يوصل الأمّة إلى مستوى الإمامة الحضاريّة التي تؤهّلها لوراثة الأرض.

﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ ۝٦﴾ فيتمكّنون بقوّة في الأرض بإرادة الله، رغم إرادة فرعون وهامان ـ وهو وزيره ـ وجنوده

التابعين ليذوقوا من هؤلاء المستضعفين ماكانوا يخافونه منهم من زوال الملك والسلطان.

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾﴾ وأُلهمت أم موسى التي حملت به في هذا الجو الطاغي أن ترضعه بلا خوف، فإذا خافت عليه فإن عليها أن تضعه في صندوق وتلقيه في النهر الكبير بلا أن تخاف عليه التلف أو تحزن لفقده، فإنّه ـ بقدرة الله ـ سيعود إليها وسيكون بالتالي من المرسلين القادة. إنّها مشيئة الله النافذة في كل الوجود.

﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ﴿٨﴾﴾ ويلتقطه آل فرعون من البحر لينمو هذا الموجود الضعيف ظاهراً في قلب القوّة الطاغية التي كانت تستهدفه أصلاً، ويكون هو العدوّ المحطّم لهم، والمحزن لقلوبهم. وهكذا أخطأ الطغاة في استخدام أسلوب القتل والتنكيل لتحقيق مآربهم.

﴿وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾﴾ وليلقي الله محبّة الطفل في قلب امرأة فرعون، فراحت تطلب منهم أن لا يقتلوه ليبقى لها ولفرعون قرّة عين، فقد ينتفعان به أو يتّخذانه ولداً، بعد أن لم يكن لهما ولد، فيستجاب لها دون أن يشعر الجميع بالحقيقة، وهي أن موسى يصنع على عين الله ليحقّق إرادة الله.

﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾﴾ أما قلب أم موسى فكان فارغاً ولهاً حائراً لا يدري شيئاً عن المستقبل ومصير الطفل الحبيب، حتّى كادت لتشي بالسرّ للآخرين لولا التثبيت الإلهيّ، لتبقى مؤمنة بالوعد الإلهيّ فلا يمزّقها الخوف والحزن.

﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ﴿١٢﴾﴾ وقالت أم موسى لأخته: تتبّعي أثره، ففعلت ذلك لتجده ـ على البعد ـ في أيدي جنود فرعون، وهم يطلبون له مرضعة. وهكذا تشاء القدرة الإلهيّة ألا يتقبّل ثدي أيّة امرأة عرضت عليه، فتعرض أخته عرضها الرائع؛ إنّها تعرف أهل بيت يتمتّعون بميزة الكفالة التامّة، والتربية

والنصيحة للطفل، وبطبيعة الحال يُسلّم الطفل إلى هذا البيت الكريم.

﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾ وهكذا تعيد القدرة الإلهيّة موسى إلى أمّه، فتقرّ عينها به، ويذهب حزنها على فراقه، وتعلم أنّ وعد الله حقّ، وإن كان أكثر النّاس ـ ومنهم هؤلاء الذين يقفون بتجبّر في وجه الدعوة ـ لا يعلمون بهذه الحقيقة.

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾﴾ ولمّا بلغ موسى مرحلة الشباب والقوّة البدنيّة والعقليّة والتوازن بينهما منحه الله تعالى الحكمة والعلم جزاء لكونه سلك سلوك المحسنين باستمرار.

﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾ وفي فترة لايكون النّاس فيها عادة في الأسواق والشوارع كالظهيرة دخل موسى المدينة الكبرى ليجد أمامه رجلين يتنازعان أحدهما إسرائيليّ يشاركه في دينه، والآخر قبطيّ معاد له، فاستغاث به الإسرائيلي فانتصر له وضرب القبطيّ ضربة قضت عليه دون أن يقصد ذلك، وحينئذ أدرك الخطأ ونسبه إلى الشيطان وهو العدوّ الواضح للإنسان المتربّص به.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾﴾ وعاد إلى ربّه مستغفرا عائذاً به طالباً منه تخليصه من النتائج السيّئة لهذا الخطأ، ولما أحسّ من ربّه الغفران تعهّد أن لايكون مطلقاً معيناً للمجرمين الغاوين.

﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾﴾ وعاد موسى خائفاً ينتظر نتائج عمله الخاطئ، ليجد مشهد الإسرائيليّ يتكرّر مع قبطيّ آخر، وعندما استغاث به الإسرائيليّ ردَّ عليه بأنّه ليس راشداً ولايتصرّف بتعقّل وإنما يثير الآخرين ويحرّكهم على بني إسرائيل.

﴿فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا

قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾ ومع ما سبق فإن ظلم العدوّ دفعه للعزم على البطش بالفرد المعادي، وكان هذا قد علم بما فعله موسى بالأمس، فذكّره به، معتبراً ذلك من عمل الجبّارين لا المصلحين. ويحتمل أنّ القائل هو الإسرائيليّ الذي نهره موسى فظن أنّه يريد البطش به.

﴿وَجَاء رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢٠﴾﴾ وشاع الخبر وعلم رجال القصر به فراحوا يتآمرون لقتله، فانطلق رجل ـ مشفق عليه ـ علم بالتآمر من أقصى المدينة حيث القصر ليخبره بذلك وينصحه بالخروج.

﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢١﴾﴾ وخرج موسى من المدينة وهو في حالة من الخوف والترقّب، وتوجّه من جديد إلى ربّه الرحيم أن يحيطه بحفظه وعنايته، ويخلّصه من القوم الظالمين. وظاهرة لجوء الأنبياء وسائر المؤمنين إلى الله باستمرار وبالخصوص في حالات الضيق والشدة هي ظاهرة طبيعية تعبّر عن أنس المؤمن بالله واحتياجه المستمرّ إلى عطف الله ورحمته كما تعبّر عن حضور الله الدائم في الوجدان المؤمن وهو الضمان العظيم للطمأنينة القلبيّة وطرد الوساوس الشيطانيّة والتصميم باستمرار على طيّ طريق الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وبالتالي الانفتاح على عالم الخلقة الإلهيّة والانسجام معه.

﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاء مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاء السَّبِيلِ ﴿٢٢﴾﴾ واتّجه موسى إلى مدين، وتقع في جنوب الشام وشمال الحجاز، حيث لاسلطة لفرعون عليها، وحيث الصحارى الشاسعة، فدعا ربّه أن يهديه السبيل السويّ.

﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاء مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاء وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾ وعندما ورد إلى المنطقة التي تقع فيها العين التي يستقي منها أهل مدين، وجد الرجال من رعاة الأغنام يستقون، في حين تقوم امرأتان بمنع غنمهما عن ورود الماء فسألهما عن أمرهما فأجابتا بأنّهما لا تسقيان غنمهما تعفّفاً، حتّى يبتعد الرعاة عن الماء، وأنّهما مضطرتان لرعي الغنم؛ لأنّ أباهما شيخ كبير لايقدر على الرعي.

﴿فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ فقام

لوحده بسقي الغنم عنهما، ثمّ لجأ إلى الظلّ ليستريح، وتوجّه إلى الله تعالى ـ كما هي عادته ـ ليعلن فقره الدائم إليه ويشكره على ذلك العطاء. والسياق يؤكّد على لجوئه المستمرّ والدائم إلى ربّه الودود المنعم.

﴿فَجَاءتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاء قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾ ويتجلّى لله لطف آخر به حينما تأتيه إحداهما ـ وهي تمشي بكل حياء وعفّة فتطلب إليه أن يجيب دعوة أبيها الشيخ الكبير ليعطيه أجر عمله. فيستجيب لذلك ويلتقي بالشيخ وهو شعيب النبيّ ويقصّ عليه قصته، فيبشره بالنجاة من القوم الظالمين. وبذلك تحقّقت دعوة موسى بالنجاة والهداية والرزق.

﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴿٢٦﴾﴾ وتقترح إحدى البنتين ولعلّها تلك التي أخبرته بالدعوة أن يعمل أبوها على استئجاره للعمل معه وتبرر اقتراحها بأنها لاحظت قوّته وأمانته معاً، وهما أهم ما يطلبه المستأجرون من العمال والموظفين: إنّها الأمانة والطاقة. بل هما من أهم الخصال التي تحتاج إليها الأمم والبلاد لإدارة شؤونها وإصلاحها.

﴿قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاء اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٧﴾﴾ وبكل بساطة وصراحة عرض شعيب عليه الزواج بإحدى ابنتيه ـ ولعلّها كانت محدّدة ـ على أن يكون أجيراً عنده ثماني سنوات (وأسميت السنة بالحجّة والحجّ من سنن إبراهيم) فإن أتم عشر سنوات فهو أمر موكول إليه، وأنه لايريد أن يثقل عليه العمل، ويعده أن يكون بإرادة الله من الصالحين.

﴿قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾﴾ وقبِل موسى العرض مع الاحتفاظ بالتخيّر بين الأجلين فلا عدوان في البين ولا إلزام في الزيادة، وجعل الله وكيلاً على هذا العقد. وروي: إنّ موسى قضى الأكثر والأتم[١].

---

١. وسائل الشيعة، ج ٢١، ص ٢٨١، الكافي، ج ٥، ص ٤١٤.

﴿فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾ وقضى موسى السنوات العشر في حياة عاديّة بين النّاس بعيداً عن حياة القصور، وعاد يحمل أهله معه إلى مصر عبر سيناء، وفي ليلة باردة ضل الطريق ولمح من جانب جبل الطور ناراً، فطلب من أهله أن يمكثوا مكانهم ليذهب إلى مكان النار ليأتي منها بخبر أو يقتبس منها جذوة ليتدفّؤوا بها.

﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِي مِن شَاطِئِ الْوَادِي الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٠﴾﴾ وهنا وحينما يصل إلى النار يأتيه النداء المقدّس من قطعة مباركة من الشاطىء الأيمن من الوادي ومن الشجرة التي كانت فيها; إنّه نداء الله ربّ العالمين، يكلّفه بحمل أعظم أمانة وهي النبوّة، والصراع ضدّ أعتى الطغاة: فرعون.

﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ ﴿٣١﴾﴾ وطلب النداء منه أن يلقي عصاه فالقاها فإذا هي حيّة مسرعة كصغار الحيات، ليهرب منها دون أن يفكّر بالعودة وتبيّن الحال، ولكن النداء الإلهيّ يؤمّنه.

﴿اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاء مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٣٢﴾﴾ كما أمر أن يدخل يده في فتحة ثوبه عند صدره ويخرجها ليراها بيضاء دونما مرض أو برص ـ خلافاً لما تذكره التوراة ـ وهكذا أعطي موسى علامتين واضحتين يستدلّ بهما على صحّة دعواه أمام فرعون والأشراف من حوله، وقد فسقوا وخرجوا عن طبيعتهم الإنسانيّة. فيجب أن ينطلق موسى ضامّاً يديه إلى صدره مطمئناً بالنصر بلا رهبة، عازماً على إبلاغ الرسالة، خاشعاً مطيعاً لامر ربّه.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾﴾ وتذكّر موسى أن قوم فرعون يطلبونه بدم، مما يخشى معه أن يقتلوه فأعلن ذلك.

﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾﴾ وأعلن لربّه أنّه يحتاج إلى أخيه هارون، ليكون بفصاحة لسانه أبلغ في الدعوة وليحمي ظهره ويدعم مسيرته ويصدّق ويؤمّن على دعواه في قبال تكذيبهم له.

﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ

اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ ﴿٣٥﴾﴾ فاستجاب له ربه ووعده بتأييده بأخيه، وأن يمنحهما سلطاناً ومنعة، لاتستطيع أية قوّة معها أن تصل إليهما، وأن يعطيهما وأتباعهما الغلبة عبر ما معهما من آيات إلهيّة. وينطلق موسى وأخوه هارون بما أعطاهما الله من وعود وهو الصادق القاهر الرحيم وبما يملكان من آيات الهيّة؛ ينطلقان لمواجهة جبّار عنود مكذب بآيات الله ومستغلّ لعباد الله. والملاحظ بوضوح أنّ القرآن يكرّر ويركّز على قصة موسى وصراعه مع فرعون باعتباره صراعاً بين الحقّ والباطل، وبين خطّ الانبياء وخطّ الطغاة والجبابرة والمستكبرين. وهو مستمر مع المسيرة التاريخيّة، وهذا ما نشاهده يتكرّر في عالمنا وتتكرّر أساليبه كما تتكرّر نتائجه.

﴿فَلَمَّا جَاءهُم مُّوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾﴾ وانطلق موسى حاملاً رسالته، واثقاً بنصر الله، مستدّلاً بآيات الله البينات على صدقه، ولكنه ووجه بالعناد وتهم السحر والافتراء والابتداع غير المعهود عند الآباء والأجداد.

﴿وَقَالَ مُوسَى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَن جَاء بِالْهُدَى مِنْ عِندِهِ وَمَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٣٧﴾﴾ ويردّ عليهم موسى بأنّ الله هو ربّه، وهو أعلم منهم بمنهج الهداية، وصدقه في الدعوة إليه، وهو أعلم بعواقب الأمور في الدنيا والآخرة وأنّ سبيل الظلم لايؤدّي إلى الفلاح والخير.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٣٨﴾﴾ ويبدأ فرعون بالتمويه مؤكداً أنّه لم يصل إلى وجود إله آخر غيره هو. ولكي يواصل تمويهه يطلب من وزيره هامان أنْ يبني له من الطين الذي تلفحه النار بناءً عالياً مكشوفاً ليصعد إلى أعاليه راصداً وباحثاً عن إله موسى. هكذا وبتهكّم وتلاعب يستسخف عقولهم، ويظهر لهم نفسه باحثاً عن الحقيقة.

﴿وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾﴾ وهكذا سلك فرعون وجنوده سبيل الاستكبار في الأرض بغير الحقّ، ظانين أنّهم يفلتون من عذاب الله وأنهم لا يرجعون إليه.

﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾ و تتجلّى

القدرة الإلهيّة ـ كما تجلّت مراراً في مقاطع السورة ـ فتأخذ فرعون وأتباعه بالعذاب فتقذفهم في البحر وتلك عاقبة الظلم.

وهكذا يتحوّل البحر إلى مأمن للطفل موسى، ومنبذ للجبار فرعون وجنوده.

﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾﴾ وبذلك كان فرعون وأتباعه أئمة ودعاة للضلال والنّار عبر التاريخ في الدنيا وأمامهم عذاب الآخرة، حيث لاناصر ولاشفيع.

﴿وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾﴾ فهاهم يحملون عار اللّعنة والطرد من رحمة الله في الدنيا، وعار القبح والذمّ في الآخرة.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾﴾ أما موسى فقد عاد إمام الهدى بعد أن أهلك الله الأمم المكذّبة، فعادت التوراة المنزلة هادية للأجيال تجد فيها معاييرها ومنارات سيرها، وتسير بهداها إلى علائها، وتستقبل الرحمة الإلهيّة، وتستذكر الحقيقة باستمرار.

وفي هذا العرض ببعض تفاصيله وجزئياته مافيه من تثبيت للمؤمنين المستضعفين، ومن تثبيط لعزائم المستكبرين المعاندين.

﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٤٤﴾﴾ بعد أن ذكر القرآن قصّة موسى، راح يركّز على صدق الرسول، إذ لم يكن شاهداً لأحداثها بنفسه، وإنما هو الوحي الصادق الذي بيّن له حقائقها، وحتّى بعض مافيها من تفاصيل جزئية.

﴿وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾﴾ ورغم مرور زمن طويل وعبور أجيال تمادى بها الزمان، فقد قصّ القرآن قصص أهل مدين وحوادث الطور، حيث كان النداء المقدّس لموسى والرحمة الإلهيّة له ليتحول من رجل تائه في الصحراء إلى إمام هدىً للأجيال. وهكذا هي الرحمة الإلهيّة تعمل على هداية البشرية، وقد تجلّت في الإسلام لينذر به الرسول قومه الذين لم يأتهم نذير من قبل هذا ومنذ زمن طويل، وليهديهم السبيل

الأقوم، وليعودوا إلى الحقيقة ويتذكّروا الواقع.

﴿وَلَوْلَا أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾ وهكذا تمّت الحجّة عليهم بعد كل هذه الآيات البيّنات فليخشوا أن يبتلوا بالعواقب السيّئة والمصائب نتيجة أعمالهم، وحينئذ فلا يستطيعون التذرّع بعدم إرسال الرسول المنذر، وأنّهم لوكانوا قد أنذروا لاتّبعوا الآيات وكانوا من المؤمنين.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِن قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ ولكن العناد مستمرّ في هؤلاء، فما أن أنزل القرآن الحقّ حتّى راح المشركون يتذرّعون بأنّه لماذا لم يؤت الرسول مثل ما أوتي موسى من الخوارق، أو من الالواح التي نزلت عليه مرّة واحدة، وهم أنفسهم لم يقبلوا التوراة التي بشّرتهم برسالة الرسول، فلم يُذعنوا لها وكفروا برسالة موسى، وأتّهموا موسى والرسول معاً بالسحر المتطابق مع بعضه، وأعلنوا أنّهم يكفرون بهما معاً إمعاناً في العناد.

﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٩﴾﴾ ويستمرّ القرآن في إفحامهم، فيطلب منهم أن يبرزوا كتاباً من عند الله هو أكثر هدىً وقوّة منطق من القرآن والتوراة ليتّبعه الرسول إن كانوا صادقين في دعواهم ومنطقيّين في حجاجهم.

﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٠﴾﴾ وإذ لم يستجب المشركون لهذا التحدّي فإن ذلك دليل داحض على اللجاج والعناد المتأصل، وتبعيّتهم للأهواء، وابتعادهم عن الهداية الإلهيّة وأنّى تشملهم الهداية وقد ساروا سيرة الظلم والفسق عن الطبيعة الإنسانيّة.

﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾﴾ وها قد تتابعت الآيات وتواصلت الأقوال تدعوهم إلى الحقّ، وتذكر الحقيقة، ولكنهم استمروا في العناد.

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾﴾ وإذ أصرَّ هؤلاء المشركون على عنادهم فإن هناك من أهل الكتاب من آمن بالكتاب الكريم وصدّق رسول الله فيه، وعندما تتلى آياته عليهم يؤكّدون أنّه الحقّ وأنّهم كانوا يسلّمون به من قبل؛ لأنّهم وجدوا ما يؤيده في كتبهم.

﴿أُوْلَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴿٥٥﴾﴾ وإذا كان هؤلاء قد آمنوا بالحقيقة وثبتوا على إيمانهم وتحمّلوا الأذى، نتيجة إيمانهم بالإسلام، فقد استحقّوا الأجر الإلهيّ مرتين ودفعهم إيمانهم للردّ على الإساءة بالإحسان، والإنفاق في سبيل الله، والإعراض عن اللغو وفضول الكلام من هذر وسب، وتحمّل مسؤوليّة عملهم، وإلقاء مسؤوليّة عمل الآخرين عليهم، وعدم التعامل معهم بعنف وعدم مجالستهم ومعاشرتهم.

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاء وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾ لقد هذَّبوا نفوسهم فاستحقّت الهدى الإلهيّ، أما الآخرون فإنّهم لم يهيّئوا أنفسهم لذلك، فهي لا تستحقّ هذه النعمة، رغم إصرار الرسول على ذلك. حيث كان يحزن على عدم إيمانهم وعدم استجابتهم.

وواضح أنّ الآية تشير إلى المشركين المعاندين المصرّين على استكبارهم من زعماء قريش.

﴿وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِن لَّدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ وهذه حجّة أخرى تذرَّع بها مشركو مكة، وهي أنّهم لو آمنوا به فسيفقدون سلطانهم على القبائل المعظّمة للكعبة، وأنها سوف تهاجمهم وتمزّقهم.

ولكن القرآن يردّ عليهم بتذكيرهم ـ أولاً ـ بنعم الله عليهم وهو القويّ العزيز الرحيم. إذ وهبهم هذا الحرم الآمن، وجعل القلوب تهوي إليه وتحمل من الثمرات المتنوّعة لتعرضها فيه. فهو إذن المؤمّن الرزّاق الحقيقيّ، وإن كان أكثرهم لايعلمون ذلك.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴿٥٨﴾﴾ وليذكّر هؤلاء ـ ثانياً ـ بالسنّة الإلهيّة التاريخيّة القائلة بأن الظلم وكفران النعمة عاقبته الهلاك والضياع والبقاء عبرة للآخرين، الذين تهدّمت مساكنهم فلم تسكن إلاّ قليلاً، ولم تورّث، وكان الله هو الوارث، وهكذا ينبّههم إلى أنّ خوفهم من الفناء بيد الآخرين يجب أن لا يدفعهم لعدم الإيمان بالحقيقة، وبالتالي التعرّض للفناء بأمر الله.

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ وتلك سنّة أخرى: إنّ الله لايهلك قرية أو قرى حتّى يبعث في مركزها رسولاً ـ بحيث يصل النداء إلى الجميع ـ يتمّ الحجّة عليها، ويتلو عليها آيات الله، فلا تستحقّ العذاب إلاّ لظلمها وعنادها وبعدها عن المنطق السليم.

﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾﴾ ثمّ يردّ عليهم ـ ثالثاً بأنّه ما قيمة ما يخافون فوته من سلطان ومتاع، إنّه متاع وزينة دنيويّة زائلة. أما ما عند الله فهو خير من ذلك وأكثر بقاءً وأثراً في الحياة لو كانوا يعقلون.

﴿أَفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾﴾ إنَّ هذا المتاع الدنيويّ الزائل مع ما فيه من تبعات ومؤاخذة يوم الحساب، لايقاس إلى ما وعد الله به من عطاء عظيم لابد وأن يحصل عليه الموعود به.

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاء الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾﴾ وهناك في الآخرة يعرض موقف يجب أن يحسب له حسابه حيث يطلب من المشركين أن يبحثوا عن الشركاء المزعومين لله ويعيّنوهم، فيجيب الشركاء المزعومون الغاوون عنهم قائلين: إنّهم وقعوا في الغواية والانحراف فانجرّ أتباعهم أيضاً باختيارهم اليها، وإنهم يبرأون إلى الله من ذلك العمل الباطل.

﴿وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾﴾ ومن جديد يؤمر المشركون تبكيتاً بدعوة هؤلاء الشركاء، فيدعونهم فلا يستجيبون ولايقدّمون دعماً لهم فلا يجدون شيئاً إلاّ العذاب، وهو أمر كان عليهم أن يتوقّعوه لو كانوا يعقلون.

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنبَاء يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءلُونَ ﴿٦٦﴾﴾ ومرّة أخرى يسألون عن حقيقة ما ردّوا به على المرسلين، فلايملكون جواباً بعد أن كانوا غرقوا في العمى المحيط بهم، وفقدوا قدرة التساؤل والإجابة.

﴿فَأَمَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَى أَن يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾﴾ في قبال صفّ الكفّار المبتلى بالذهول والعمى والعيّ، يبدو صفّ المؤمنين العاملين بالصالحات راجياً رحمة ربه وعاقبة الفلاح والخلاص.

﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاء وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴿٧٠﴾﴾ ويعقّب القرآن بجواب رابع على تبريرهم عدم إيمانهم بالخوف من فقدان سلطتهم لو آمنوا، فيذكر أن الأمر كله بيد الله فهو يخلق مايشاء ويختار مايريد، سواء في المجال التكوينيّ أو التشريعيّ وحينئذٍ فليس لأحد أن يقيم طاعته لله على مصالحه التي يراها هو؛ لأنّ الامر كله بيده وحده لاشريك له، وهو المحيط بالكون والإنسان والعالم بما يخفيه الإنسان أو يعلنه، إنّه الإله الواحد المتصرّف المستحقّ للحمد في الدنيا والآخرة، فإليه الأمر والحكم تكويناً وتشريعاً، وإليه المرجع والمنتهى فلا معنى للعصيان والتذرّع بالذرائع الواهية.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاء أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ يذكّر القرآن هنا بنماذج في هذا الكون يعيشها الإنسان ويألفها، مما يستوجب الإيمان والحمد الدائم ولكنه يغفل أو يتغافل عن ذلك، إنّه تعاقب الليل والنهار، وكل منهما يؤدّي أكبر الأدوار في حياة الإنسان ويبعث فيها السكينة والنشاط، لتقوم بدورها الكامل. فيتساءل عن هذه الظاهرة ومدى ما يتركه ثبات الليل أو النهار إلى الأبد من آثار سلبية يشعر بها الإنسان العاديّ بوضوح، ويدركها العالِم بشكل أعمق بكثير، لينبّه إلى رحمته ولطفه تعالى وتنسيقه لكل الظواهر المناسبة للحياة، مما يستوجب أن يسمع الإنسان ويبصر ويتأمّل فيشكره على نعمائه.

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾﴾ ويعود للتذكير بيوم القيامة ونداء التبكيت المتسائل عن الشركاء المزعومين لله، وهل لهم من تأثير أو دعم؟

﴿وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾ ويوم يدعى من كل جماعة فرد شهد أعمالها، فيطلب من هؤلاء أن يقدّموا ما لديهم من براهين على مدّعياتهم الباطلة، ولا أدلّة ولابراهين، وليس هناك إلاّ تجلّي الحقّ الإلهيّ وبطلان الافتراءات المشركة.

﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾﴾ بعد أن أبطل القرآن تبريرات المشركين وخوفهم من فقدان شوكتهم إذا آمنوا، جاء الحديث عن قارون ـ رمز الطغيان بالمال، كما كان فرعون رمز الطغيان بالقوّة فقد كان هذا من قوم موسى ولكنه سلك سبيل البغي واكتناز المال الكثير، ومنعه من دوره الحياتيّ للمجتمع، وكان ماله كثيراً إلى الحدّ الذي لاتستطيع مجموعة من الأقوياء أن تحمل مفاتيح كنوزه. وقد نصحه قومه بعدم البطر والفرح المفرط بهذا المال، فإن الله تعالى لايحبّ أصحاب هذه الحالة.

﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾﴾ وطلبوا منه الاعتدال، واستخدام إمكاناته لتحقيق الفوز بالآخرة مع عدم نسيان حظّه من الدنيا والاستمتاع فيها بماله بشكل معقول، واتّباع سبيل الإحسان شكراً لله على إحسانه إليه ومنحه هذا المال، والعمل على إصلاح الحالة الاجتماعيّة، وعدم الظلم والبغي والفساد في الأرض، فالله تعالى لايحبّ المفسدين ولايشملهم بلطفه الكريم.

﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾﴾ وأزاء هذه النصيحة المبتنية على منطق الشكر لله على إحسانه، يأتي منطق قارون ليعلن بسخف وجهل أنّه إنما حصل على هذا المال بسبب علمه وإمكاناته الذاتيّة لاغير ، جاهلاً أن هذا منطق الغرور المؤدّي بذوي القوّة ـ ومن كانوا أقوى منه وأغنى إلى الهلاك والضياع بسبب إجرامهم وكفرهم بالنعمة.

﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾﴾ وهنا يخرج قارون في زينته وتبختره ليبهر ضعفاء النفوس ممن يعشقون الحياة الدنيا وزينتها فيتمنّون أن يكون لهم هذا الحال، ويعتبرون قارون من ذوي السعادة والحظّ العظيم.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا

الصَّابِرُونَ ﴿٨٠﴾ أمّا الواعون فقد أنّبوهم على هذا التمنّي الوضيع، وأشاروا إلى ثواب الله الواسع الباقي فهو خير من هذا التمتّع الزائل، مما يدفع الإنسان للإيمان والعمل الصالح، والصبر في هذا السبيل، للحصول على ثواب الله العظيم.

﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾﴾ وجاء الأمر الإلهيّ فخسفت الأرض به وبداره وفيها كنوزه الكثيرة دون أن يعينه أحد وينقذه من عذاب الله والخسران والضياع. وهكذا يخسر المال دوره الإيجابيّ في الحياة، فيتحوّل وبالاً وخسراناً وانحطاطاً.

﴿وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾ وهنا أدرك المبهورون الضعفاء سخفهم وتفاهتهم حينما تمنّوا الحالة القارونيّة، وعادوا إلى رشدهم ووعيهم لقدرة الله، وأنه هو الذي يبسط الرزق ويضيّقه كما يشاء. وراحوا يحمدون الله على أن لم يحقّق لهم أمنياتهم الباطلة، فلم يرافقوا قارون في نكبته، وعلموا أنّه لن ينجح الكافرون في مسعاهم الباطل.

﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾ وهكذا تتقرّر هذه الحقيقة الخالدة وهي أن العلاء في الآخرة إنما هو لاولئك المتواضعين المصلحين في الأرض ، وأن العاقبة الحقّ هي للمتّقين لا المتكبّرين الطغاة.

﴿مَن جَاء بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَمَن جَاء بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾﴾ وهذا باب رائع للأمل يفتحه الله للمحسنين، فإن الحسنة تُجزى بخير منها من الثواب أما السيّئة فلا تجازى إلاّ بما يعادلها فلا يلقى المسيؤون إلاّ حقائق أعمالهم الجهنميّة.

ويلاحظ هنا أمران مهمّان هما:

أولاً ـ هذا الباب الواسع من الأمل الذي يعمل القرآن على فتحه أمام المحسنين العاملين للصالحات حيث يعدهم القرآن بمضاعفة الحسنات، ويضمن لهم حسن العاقبة واستمرار مسيرة الخير إلى أن ترث الأرض ومن عليها.

ثانياً ـ هذا التهديد المرعب للمسيئين حيث تتجسّد أعمالهم في عالم القيامة ناراً رهيبة تشوي الوجوه.

﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ مَن جَاء بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾﴾ بعد هذه القصص يأتي هذا الوعد الإلهيّ الصادق لرسوله الكريم الذي حمل قرآنه الكريم وعمل به وربّى أتباعه عليه، بأن الله سيعيده إلى مكّة منتصراً على الشرك والمشركين، معلناً أن الله ربَّه، وأنه الأعلم بمن سار على طريق الهدى، ومن أصرَّ على الضّلال من المشركين.

﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُو أَن يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾﴾ إنّها رحمة الله الشاملة التي ألقت الكتاب للرسول بعد أن لم يكن يتوقّع ذلك، وقادته إلى النصر العظيم. وعلى ذلك فإن عليه أن يستمرّ في دعوته ويتبرأ من خطّ الشرك والإجرام ولايتعاون معه مطلقاً.

﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾﴾ ويجب أن لا تقف في وجه الدعوة وحمل آيات الله الموانع والعقبات مهما كانت. والمنهجان؛ منهج الدعوة ومنهج الشرك متمايزان لايلتقيان.

فيجب الإخلاص الكامل للتوحيد والإيمان، بأن الله تعالى وصفاته الكريمة من حياة وعلم وقدرة وماينتهي اليها من صفات الفعل كالخلق والرزق هو الباقي، وأما باقي ما عداه فهو إلى زوال، وأنّ الامر والحكم والقضاء النافذ له، وإليه ترجع الخلائق. وبالتالي فهو تعالى القادر النافذ حكمه في الكون، وكل القوى والطواغيت إلى فناء.

سورة العنكبوت (٢٩)

آياتها ٦٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تحدّثنا من قبل عن البسملة.

﴿الم ۝١ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ۝٣﴾ تركّز السورة على مسألة الاستقامة على الخطّ مهما كانت العقبات، وهي تبدأ بالتأكيد على سُنّة الامتحان وأنها ضروريّة للمسيرة، فيجب أن يكون الجميع مستعدّين له، ولايحسبوا أنّهم إذ قالوا كلمة الإيمان فقد قاموا بما عليهم، كلا، فسيمتحنون كما امتحن غيرهم، وكانت النتيجة أن امتاز فريقان عن بعضهما: فريق الصادقين، وفريق الكاذبين.

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا سَاء مَا يَحْكُمُونَ ۝٤﴾ ويجب أن لايتصوّر الفاسدون المنحرفون أنّهم قادرون على الإفلات من عذاب الله. فإنه تصور سخيف بالنظر لضعفهم، ولان الله أقام الكون على الحقّ والعدل.

﴿مَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝٥﴾ أمّا الواعون الراجون للقاء الله ونيل عطائه فيجب أن يعمّقوا هذا الرجاء في نفوسهم ويطمئنّوا له؛ لأنّه تعالى هو القويّ القادر والسميع العليم بكل شيء.

﴿وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ۝٦﴾ وليتاكّد المؤمنون من أن جهادهم وعملهم بأوامر الله سيعود عليهم أنفسهم بالعطاء، فالله تعالى هو الغنيّ المطلق عن العالمين، فلاتضرّه معصية ولا تنفعه طاعة.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝٧﴾ ويرتفع الأمل لدى المؤمنين العاملين للصالحات عندما يعدهم المولى الرحيم بالعفو عن سيّئاتهم ـ وكلُّ ابن آدم خطّاء ماعدا المعصوم ـ وإيتائهم درجات تناسب أحسن أعمالهم.

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٨﴾ وقد يبتلى الإنسان المسلم بأبوين

كافرين مصرّين على أن يرجعاه إلى الشرك وحياة الجهل والضياع. وهي فتنة كبيرة يدور فيها الصراع بين العقيدة والعاطفة، وواجب الاحترام الإنسانيّ. ولاريب في لزوم عدم الانجرار معهما إلى الشرك والجهل، وإن كان الاحترام ضرورياً والإحسان لازماً. هذا وسيعود الجميع إلى الله ليعرفهم حقيقة أمرهم ونتائج أعمالهم.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴿٩﴾﴾ تأكيد مجدّد على مسيرة الصالحين وتحقيق أمل المؤمنين في الانضمام إليها، وغفران سيئاتهم ومضاعفة جزاء حسناتهم حتّى يلحقوا بالركب الصالح وتحقيق المجتمع المطلوب.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاء نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ ﴿١١﴾﴾ فإن المواقف الصعبة تفرز وضوحاً وفصلاً بين الفريقين: المؤمنين والمنافقين، وهؤلاء ناس يعلنون الإيمان ولكن يدركهم الضعف عندما يواجهون المصاعب في هذا الطريق، فيساوون عذاب النّاس بعذاب الله تخاذلاً وجهلاً. ولكنهم إذا واجهوا نصراً إلهيّاً يتباهون بأنهم كانوا ثابتين على الخطّ لتشملهم الغنيمة. ولكن يجب أن لاينسى هؤلاء علم الله بما تخفي الصدور؛ لأنّه محيط بها، وأنه يعلم بخلجات النفوس.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُم بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾﴾ وهذه لعبة أخرى للكافرين، يمتحن بها المؤمنون خصوصاً أولئك المستضعفون الذين آمنوا حديثاً. إذ يقال لهم عودوا إلى صفّ الشرك لتحصلوا على امتيازاته في الدنيا فإذا كانت هناك تبعات أو خطايا فإن المشركين يتعهّدون بتحمّل هذه التبعات عنهم يوم القيامة. والحقيقة هي أنّ هذا كذب وافتراء، فالمسؤوليّة فرديّة، وسوف لن يحملوا عنهم أيّة تبعة، بل سيحملون تبعة إغواء الآخرين وثقلها، بالإضافة إلى تبعة انحرافهم وظلمهم وشركهم وكذبهم، وسيسألون يوم القيامة عن أكاذيبهم.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ

ظَالِمُونَ ﴿١٤﴾﴾ ولكي يعطي القرآن بعض النماذج من حياة الأنبياء وأممهم، يذكر هنا قصة نوح النبيّ الصابر المثابر على دعوة قومه لابثاً فيهم ألف سنة إلاّ خمسين عاماً، فلايلقى من أكثريّتهم القاطعة إلاّ الصدود والظلم، وبطبيعة الحال فإن عاقبة الظلم هي الفناء، حيث عوقبوا بالطوفان.

﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٥﴾﴾ وينجي الله النبيّ الصابر نوحاً وأصحابه في سفينة جعلت علامة تاريخيّة وعبرة تعتبر بها الأمم.

﴿وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾ وهذا إبراهيم يطلب من قومه أن يعبدوا الله ويتقوا نقمته، فيحصلوا على حياة إنسانيّة تفضل حياة الشرك البائسة، فليتأمّلوا في الأمر فهم لا يعبدون إلاّ أصناماً وأحجاراً لاقيمة لها، وأوهاماً مكذوبة تافهة، يقيّدون بها مسيرتهم، ويغرقون في الخرافة والسخافة. فهذه الآلهة المزعومة لاتملك أن تهب الإنسان شيئاً. والتعقّل يدعوهم إلى الاتّجاه نحو الرزّاق الحقيقيّ وعبادته وشكر نعمائه، لتسعد حياتهم ويملكوا ما يجيبون به حين يرجعون إليه.

﴿وَإِن تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٨﴾﴾ فإذا أصرَّ القوم على التكذيب فقد اختاروا مصير الأمم المكذّبة سابقاً، وبالتالي فهم يتحملون وزر عملهم، وما على الرسول إلاّ البلاغ الواضح.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾﴾ وباستدلال فطريّ واضح يخاطب القرآن على لسان إبراهيم كلّ المعاندين. فيذكّرهم بقصّة خلق هذا الكون العظيم بكل ما فيه من ظواهر وعجائب متناسقة ومتناغمة، تشير جميعاً إلى الخالق الحكيم القادر، وبالتالي فإن البادىء بالخلق قادر لا محالة على إعادته من جديد، وكل ذلك على القادر المطلق أمر يسير.

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾ فليسر الإنسان في هذه الأرض ، وليتأمّل عجائب الخلق في النفوس والآفاق، وعندها سيكتشف روعة التناسق بين الإنسان والحيوان والنبات والطبيعة وقوانينها

وخصائصها، ويؤمن بالله والآخرة (المبدأ والمعاد) والقدرة الإلهيّة المطلقة على كل شيء.

﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَاء وَيَرْحَمُ مَن يَشَاء وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاء وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾﴾ إليه تعود المسيرة البشريّة فيحاسبها على أعمالها، فيعذِّب من يشاء ويرحم من يشاء، دون تحديد في القدرة وفق موازين العدل والإحسان، ودون أن يمنع من تحقّق إرادته مانع من ولي أو نصير ، أو يفلت منها أحد أو شيء في الكون كله.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُوْلَئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾ وهكذا تتقرّر هذه الحقيقة الكبرى وهي أن الفئة الكافرة بالله والمعاد فئة تائهة يائسة من رحمة الله منقطعة عن الحقيقة غارقة في العذاب الأليم. وبهذا تتوضّح الصورة بين الفريقين: فريق الإيمان حيث اللجوء إلى الله، وابتغاء الرزق منه وهو الرزّاق القادر المطلق، وتقديم الشكر للمنعم وهو ما تقتضيه الفطرة، وحيث التعقّل والمنطقيّة والولاية والنصرة والهدفيّة، وفريق الكفر حيث عبادة الأوثان واختلاق الأكاذيب، وطلب الرزق من العاجزين، وانتظار العذاب الأخرويّ الرهيب، وفقدان الوليّ والنصير، واليأس من رحمة الله وبالتالي العبثيّة الشاملة.

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ بهذا المنطق الفطريّ الرصين واجه إبراهيم قومه، فلم يملكوا معه إلاّ التهديد بالقتل والإحراق، لينجيه الله من نارهم، ويبقى آية تدعم مسيرة الإيمان واليقين.

﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ ويقف إبراهيم بصلابة أمام الطغاة المعاندين ليجبههم من جديد بسخفهم، إذ اتّخذوا أحجاراً آلهة، لا لشيء إلاّ ليجامل بعضهم بعضاً وإلاّ ليحافظوا على سننهم وأعرافهم الموروثة وتقاليدهم البالية في هذه الدنيا. وهم في الواقع يفرّطون في عقولهم وسعادتهم في سبيل ذلك، أمّا يوم القيامة فسوف تتساقط هذه المجاملات والتقاليد ويبدأ التلاعن والتنافر الذي لاينفع حينذاك، إذ يساق الجميع إلى جهنّم دون أن ينصرهم أحد.

﴿فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾﴾ وكانت حصيلة دعوته أن آمن له لوط النبيّ. وقد قرّر بعد ذلك أن يهاجر من أرض الكلدانيين بالعراق إلى ماوراء الأردن،

معلناً أنّه إنما يهاجر إلى الله لاغير معتمداً عليه. وهو العزيز الحكيم، فهو أهل للاعتماد والتوكل.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٧﴾﴾ وهكذا كان الجزاء الإلهيّ لإبراهيم رائعاً وفيراً في المقياس الحقيقيّ. فقد وهبه الله إسحاق وولده يعقوب وهما نبيّان كبيران، وجعل في نسله النبوّة والكتاب، و بهما تهدى الأجيال الإنسانيّة إلى العلاء والكمال. وبذلك نال أجره في الدنيا أن عاد و ذريته مناراً للهدى، وهو في الآخرة من الصالحين الفائزين.

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٩﴾﴾ وهذا نموذج آخر من الإمتحان: إذ يبتلى لوط النبيّ بقوم ابتدعوا الفاحشة وانحرفوا بها عن الفطرة السليمة، حيث يشبع الرجال رغبتهم الجنسيّة بإتيان الرجال دون النساء، خارقين بذلك هدف الغريزة الجنسيّة وهو إبقاء النسل الإنسانيّ لتحقيق هدف الخلقة، قاطعين الطريق على الآخرين. فاعلين ذلك المنكر على رؤوس الأشهاد، وفي النوادي علناً، مما يكشف عن انحراف فطريّ كبير. ويزداد عنادهم بعد أن يستمعوا لتحذيره فيتحدّونه أن يحقّق وعيده ويأتيهم بعذاب الله إن كان صادقاً فيما توعّدهم به.

﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾﴾ فلا يرى لوط سبيلاً إلاّ ان يتوجّه إلى الله طالباً نصرته على القوم المفسدين. ذلك أن الانحراف إذا بلغ مداه ولم يعد من المفيد معه وعظ وبلاغ فلا مناص من العذاب.

﴿وَلَمَّا جَاءتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ و هنا يعود القرآن إلى قصّة إبراهيم الذي جزاه الله خيراً على جهوده المخلصة، بأن وهبه إسحاق ويعقوب. وكانت هذه بشرى حملتها له الملائكة، وأخبرته أيضاً بأنّها مرسلة لإهلاك أهل قرية لوط(سدوم)؛ لأنّهم ظلموا وانحرافوا.

وعندما قال لهم بأن فيها لوطاً أكّدوا له أنّهم أعلم بمن فيها وأنه سينجو مع أهله إلاّ امرأته التي كانت تقرّ جرائمهم، فكان جزاؤها أن تبقى معهم.

﴿وَلَمَّا أَن جَاءتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاء بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾﴾ وعندما دخل رسل الله على لوط وهم بشكل فتية حسني المنظر، وهو يعرف ميول قومه ضاق بوجودهم صدره، وعلم الرسل منه ذلك، فطمأنوه وأعلنوا له أنّهم سيصبّون العذاب عليهم بعد أن ينجوه وأهله إلاّ امرأته من هذا العذاب وهو إنزال حجارة ملوثة بالطين عليهم فتهلكهم نتيجة فسقهم، لتبقى ديارهم عبرة واضحة لمن أراد التدبّر.

﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٣٧﴾﴾ بعد ما سبق تأتي الإشارة إلى قصة شعيب وأهل مدين، حيث دعاهم إلى الإيمان بالمبدأ والمعاد ونهاهم عن الفساد في الأرض والإخلال بالموازين. ولكنهم كذّبوه فعوقبوا بعذاب الرجفة والاضطراب الذي أصابهم فعادوا موتى لاحراك لهم.

﴿وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾﴾ وهذه عاد وثمود كانوا من قبل على دين الفطرة يعبدون الله، ولكنهم اتّبعوا الهوى والشيطان فانحرفوا عن الخطّ المستقيم للإنسانيّة، فكان عاقبتهم الهلاك والدمار، وهو ما كان العرب يشهدونه عند عبورهم على ديارهم الخاوية في جنوب الجزيرة وشمالها.

وتكرّر هذه المشاهد من تأريخ الأنبياء مع أممهم فيما سبق وفيما سيأتي إنّما هو لوروده في مواقع مختلفة من مراحل الدعوة، وكذلك لتأكيد وحدة المسير والمصير للاعتبار والتذكّر، وشدّ المسيرة الإسلامية بمسيرة الأنبياء وهي مسيرة الطاعة والولاية الإلهيّة والانسجام مع الفطرة والواقع الكونيّ العادل، والإصلاح في الأرض والصراط المستقيم، وإبعادها عن مسيرة الظالمين الشاذين والغابرين والفاسقين والمفسدين السائرين في خطّ الشيطان الناكبين عن الصراط السويّ المبين.

﴿وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءهُم مُّوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾ وتشمل الإشارة قارون ـ رمز التكاثر الماليّ والبخل والاعتداد ـ وفرعون

ـ رمز الطغيان والعتوّ والمكر ـ وهامان ـ رمز التبعيّة العمياء والزهو ـ وكلهم واجهوا الآيات البيّنات التي حملها موسى بالتكذيب والعناد والاستكبار في الأرض، فأخذهم الله بذنوبهم، وما كانوا قادرين على الإفلات.

﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ وتنوّع العذاب لهذه الأمم المكذّبة: فابتلي البعض بحصباء الأرض، وابتلي الآخر بالصرخة المدوّية المهلكة، وخسفت الأرض بثالث، وأغرق آخرون، وكل ذلك نتيجة ظلمهم وفسادهم، وإلاّ فإن الله عادل رحيم.

﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاء كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾﴾

هذه هي حقيقة كل من اعتمد على غير الله، فهو ضعيف يركن إلى ضعيف واهٍ كالعنكبوت تستند إلى نسيجها، وهو لايملك أيّة قدرة أو حماية من حرّ أو برد أو هواء أو اعتداء، أما القوّة الحقيقيّة المطلقة فهي لله وحده، وهو العزيز الحكيم، خالق القوى ومدبّرها والمحيط بها وبأعمالها، فيجب أن تلتجيء البشريّة إليه وتستمدّ منه القوّة والهدى.

﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ إنّ العالمين المتأمّلين ليدركون عمق هذا التمثيل ومدى واقعيّته وقوّة تصويره للواقع. وإن لم يدرك ذلك الآخرون.

﴿خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾﴾ وهذا هو الكون أمامهم فليتأمّلوه ويتعقّلوه، إنّه بنظمه ودقّته وقوانينه يعلن بوضوح أنّه يقوم على أساس من دقّة وحكمة وهدف، وبالتالي فهو يقوم بالحقّ ويشير بكلّ وضوح إلى الحقّ، وهو مالايدركه إلاّ المؤمنون.

﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾﴾ بعد ذكر الأمم التي أفسدت في الأرض وأشاعت المنكرات فأهلكها الله، يؤكّد القرآن هنا على السبيل السويّ وهو تلاوة الكتاب الموحى به من قبل الله وإبلاغ رسالاته المحيية، واقامة الصلاة وإشاعتها باعتبارها بطبيعتها

تنهى عن الخروج عن الحدّ، وإتيان المنكرات، وتثبت الإنسان على خطّ الارتباط المستمرّ بالله، وذكره تعالى، وهو أكبر قيمة في حياة الإنسان واكبر ضمان لاستمراره على خطّ التكامل؛ خطّ الاستمداد منه تعالى ومراقبته والحذر من غضبه، وهو المحيط العليم بما يصنعه الإنسان.

وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾ تفتح الآية الكريمة باب الحوار مع أهل الكتاب على أساس التوصّل للتوافق حول الأصول والثوابت، وفي جوّ تتوخّى فيه أحسن السبل وأشدّ الاحترام، باستثناء الظالمين المعاندين منهم. وإشاعة للأجواء الإيجابية معهم، يؤمر المسلمون بأن يقولوا لهم بأننا في الوقت الذي نؤمن بما أنزل الينا (القرآن) فإننا نؤمن أيضاً بما أنزل إليكم (التوراة والانجيل...) أمّا الثوابت المشتركة بين كل الأديان فهي أنّها جميعا تمثّل دعوة واحدة لعبادة الله الواحد، وأن كلّ أتباعها يشكّلون أمّة واحدة عابدة، لا تفرقها لغة أو قوميّة أو مكان أو زمان، وانما يجمعها التسليم لله الواحد.

﴿وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاء مَن يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ ﴿٤٧﴾﴾ واستمراراً لإنزال الكتب السماويّة السابقة ينزل هذا الكتاب الجامع (القرآن)، ومن الطبيعيّ أن يؤمن به أهل الكتاب؛ لأنهم يعرفون أنّ مضامينه تصدّق ماجاء في كتبهم، ويدركون عمق معانيه وبعض خلفياتها. كما أنّ بعض المشركين ينتقلون إلى صفّ المؤمنين به، لروعة معانيه وانسجامها مع الفطرة، وإن كان البعض الآخر يصرّ على عدم الإيمان لجحوده وعناده وتغلغل الكفر في وجوده.

﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾﴾ وقد عاش الرسول بينهم عمراً طويلاً، وشهدوا أنّه لم يكن يقرأ ولا يكتب، ولكنّه جاءهم بهذا القرآن العظيم بعرضه وبمعانيه، فلا مجال للتشكيك في صدقه، إلاّ من قبل من تركّز الباطل في نفوسهم.

﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾ إنّ القرآن الكريم يحوي علائم ودلالات تنسجم معها صدور العالمين الواعين الطالبين للحقيقة، ولا يمكن أن ينكرها إلاّ من تأصّل الظلم في نفوسهم.

﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٥٠ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٥١﴾ وقد طلب الجاحدون من الرسول أن يأتي بالخوارق المادّيّة، متجاهلين أن القرآن يشكّل أعظم معجزة إن شاءوا أن يصلوا إلى الحقيقة، إنّه معجزة مستمرّة خالدة، لرسالة يراد لها أن تكون خاتمة خالدة، إنّه الرحمة المستمرّة والتذكير الدائم بحقيقة الكون وصحيح الإيمان، أما الخوارق فهي بيد الله إن شاء أعطاها وإن شاء منعها وما النبيّ إلاّ منذر واضح بالحقيقة.

﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ۝٥٢﴾ وكفى بالله الذي أنزل هذا القرآن بمعانيه السامية شهيداً على صحّة الرسالة، وهو العليم بكل شيء في هذا الكون وبسبل الفلاح الإنسانيّ الحقيقيّة، وأما الذين تركّز الوهم والباطل والضياع في نفوسهم فهم أشدّ الخاسرين.

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٥٣ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ۝٥٤ يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٥٥﴾ وهكذا يتأصّل العناد في نفوس المكذّبين فيستعجلون الرسول بإصرار أن يأتيهم بالعذاب الموعود تحدّياً وعناداً وكبراً، إلاّ أنّ هناك أجلاً مسمّى يعلمه الله للبشرية، وعلى أساسه يتمّ إمهالها، وقد يكون الإمهال لاستدراج الظالمين أو امتحان المؤمنين، أو الإبقاء على بعض نسلهم من المؤمنين، وما إلى ذلك من المصالح، وإلاّ فهؤلاء لو كان ينظرون بعين الواقع لأدركوا أنّ جهنّم بمعانيها المختلفة تحيط بهم يوم يغطّيهم العذاب ويبكّتهم بما كانوا يعملون.

﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ ويتوجّه القرآن بعد تعنيفه للكافرين إلى الفئة المؤمنة المستضعفة، بخطاب كلّه لطف ومحبّة بنسبتهم إليه (عبادي)، طالباً منهم الهجرة فأرض الله واسعة، والمهم هو التوحيد وعبادة الله وحده فهي طريق الكمال الإنسانيّ الذي يجب أن يحافظ عليه أينما حلّ وارتحل.

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ۝٥٧﴾ ولا داعي للخوف من الموت فالكل سيذوقونه، حتّى الباقون في ديارهم، والكلّ سيرجعون إلى الله ليشهدوا الحساب.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿٥٨﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾﴾ حيث يلقى المؤمنون الصادقون النعيم الأبديّ في الجنّة، وهو خير أجر يمكن أن يحصل عليه العاملون الصابرون المتوكّلون.

﴿وَكَأَيِّن مِن دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾﴾ ولا خوف من عدم توفّر الرزق عند الهجرة فالرزق عند الله، وهاهي أمامهم سبل الرزق متوفّرة وهاهي الدوابّ في الأرض لا تستطيع أن تعرف أساليب الرزق، ولكنَّ الله يوفّره لها، فلا معنى للخوف من عدم توفّر الرزق، بعد أن كان الله سميعاً عليماً بكل الحقائق.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾﴾ إنّ المشركين يعيشون حالة من التناقض العجيب فهم من جهة يؤمنون بخلق الله للسماوات والأرض، وتسخيره للشمس والقمر، وأنّ بيده بسط الرزق أو تحديده، وأنه العليم بكل شيء، وأنه المنزل للمطر من السماء ليحيي به الأرض بعد موتها، ولكنهم من جهة أخرى يقعون فريسة للإفك والتمويه والضلال وعدم التعقّل، فيعبدون غير الله ويصدّون عن سبيله.

﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ هكذا يجب أن ينظر العاقلون إلى الحياة الدنيا، فهي مجرّد لهو ولعب زائل، فلا تقاس إلى الحياة الأخرى، فهي الحيَوان الحقيقيّ والبقاء الذي لازوال له واللذّة والسعادة الحقّة، ولذلك فليعمل العاملون.

﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾﴾ إستمرار في عرض تناقضات المشركين وتخبّطهم؛ فما أن يقعوا في موقف مخيف كأن يركبوا الفلك في بحر لجّي عاصف حتّى يدعوا الله مخلصين له الدينونة والطاعة، ولكنّهم يعودون إلى سفاهتهم وشركهم حينما ينجّيهم الله إلى البرّ.

﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾ تهديد بعذاب مجهول سوف يعلمونه بعد حين، بعد كفرهم بنعم الله وغفلتهم عنها وتمتّعهم بشهواتهم.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾﴾ وهذه نعمة الحرم والأمان فيه، رغم أنّه في منطقة رهيبة يكثر فيها السلب والنهب والاعتداء، ألا تستحق الشكر والعودة إلى الله المنعم، ورفض الشرك والباطل.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴿٦٨﴾﴾ إنّه لظلم ما بعده ظلم أن يكذّب هؤلاء ويفتروا على الله بالقول بالشركاء وإنكار الحقّ والقرآن الواضحة حقيقته، بعد أن كانوا يؤمنون أصلاً بالخالقيّة والرازقيّة والرحمة الإلهيّة، ويرون دلائل الصدق في هذه الرسالة، ثمّ تدفعهم أهواؤهم للتكذيب والابتلاء بالتالي بعذاب جهنّم، فهي محلّ إقامتهم ومثواهم.

﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾ أما المجاهدون الصابرون في سبيل الله فسوف تتفتّح أمامهم أبواب الهدى، فيبصرون السبيل إلى الكمال والعلاء. ويتمتّعون بالقرب الإلهيّ، حيث أنَّ الله يلازم المحسنين ليرعاهم ويسدّد خطواتهم ويمنحهم الروح والريحان وجنات النعيم.

سورة الروم (٣٠)

آياتها ٦٠

بِسْمِ اللَّه الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تحدّثنا عن البسملة وجزئيّتها للسورة.

﴿الم ۝١ غُلِبَتِ الرُّومُ ۝٢ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣ فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاء وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۝٥﴾ يشير القرآن إلى حدث عاصر صدر الإسلام، وهو انتصار الفرس المشركين على الروم المسيحيين، مما أقلق المؤمنين، فجاء هذا الوعد القرآنيّ بقرب غلبة الروم على الفرس بعد أقل من عشر سنوات ليفرح المؤمنون بانتصار الجانب الأقرب لهم، ولكثرة المشتركات معهم، باعتبارهم أهل ديانة سماويّة وأهل كتاب وتوحيد بعكس المشركين، ويعلموا أن الأمركله من قبل الغلب ومن بعده إنما هو بيد الله وهو الذي يعطي النصر من يشاء وله العزّة والرحمة. والنص يكشف عن اهتمام القرآن بما يجري في العالم والاستفادة منها في تأكيد المفاهيم الأصيلة، ومنها رحمة الله المستمرّة لخطّ الإيمان. كما أنّه يمثّل جانباً من الاعجاز القرآنيّ من باب التنبّؤ بالغيب وصدقه.

﴿وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٦ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ۝٧﴾ إنّه وعد الله الذي لا يتخلّف، رغم جهل الأكثريّة اللاواعية بذلك، فليطمئنّ أتباع الخطّ المؤمن به، وليثقوا بإيمانهم، وليشعروا بأن الله معهم، أما هذه الاكثريّة فهي تعلم بالظواهر الدنيويّة، وتغفل عن البواطن والحياة الآخرة.

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاء رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ۝٨﴾ يجب أن يعود الغافلون إلى وعيهم وإلاّ فالغفلة سبب ضياع الأفراد والأمم، فيتفكّرون ويتأمّلون في نواميس الكون ومافيه من نظم وهدفيّة واضحة وتخطيط دقيق لأجل مقدّر تسير نحوه الحياة، إلاّ أن الكثير من النّاس يغفل عن هذه الحقائق الواضحة، فيكفر بلقاء الله والمعاد إليه. وللمرّة الثانية في هذه الآيات

كما في أماكن أخرى يلوم القرآن هذه الأكثريّة الغافلة المتمسّكة بالظاهر والبعيدة عن التعمّق والتفكير، وقد تكون الأكثريّة أحياناً ذات قيمة إيجابيّة.

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾﴾ نعم يجب أن تهزّ هؤلاء الغافلين عواقب من سبقهم، وكانوا أقوى منهم، وأكثر تأثيراً وحرثاً وإعماراً للأرض، ولكنهم لما لم يستمعوا لصوت الحقّ ابتلوا بالعاقبة السيّئة، وظلموا أنفسهم بأيديهم.

﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا السُّوأَى أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِؤُون ﴿١٠﴾﴾ولا ريب أنّ عاقبة العمل السيّئ لن تكون إلاّ السوء، وقد يكون المراد أن العمل السيّئ يقود بالنهاية إلى العقيدة السيّئة وربما قاد العمل الحسن إلى العقيدة الحسنة، لوجود التفاعل بين العمل والإيمان. وقد نجد أناساً يمتلكون عقيدة إلهية ويسلكون سلوكاً مادّياً بعيداً عن الله ولكنّها حالة غير طبيعيّة لأنّها تنقض الترابط الطبيعيّ في شخصيّة الإنسان؛ حيث تنتج القدرة التعقلية الأفكار المتنوّعة وتقود الأفكار العواطف والأحاسيس، وهذه بدورها تصنع الشوق الأكيد وبالتالي الإرادة الإنسانية وهي بدورها تحرّك الحواس وتصنع السلوك. ولذلك نجد في حالتنا هذه أنها ستنتهي إما بتسلط العقيدة الإلهيّة فتغيّر السلوك أو بتغلّب السلوك المادّي فيغيّر العقيدة.

﴿اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾﴾ إنّها الحقيقة التي يجب أن تدركها البشريّة بكل وعي، فهو المبدأ والمنتهى، وسوف يعيد الخلق ليرجع اليه فيحاسبه على مسيرته الماضية وإلاّ كان الخلق عبثاً والعبثيّة محال في خلق الله.

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاء وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ ﴿١٣﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾﴾ حيث ييأس المجرمون فلا شفعاء لهم، ولا قيمة لما كانوا يشركون بالله، بل هم معزولون عن بعضهم يعاني كل من مصيره الأسود كما يتميّز خطّ الإيمان عن خطّ الكفر.

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾﴾ فأما خطّ المؤمنين العاملين فهو فرِح في النعيم.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾﴾ وأما الكافرون المكذّبون بالآيات والآخرة فسوف يغمرهم العذاب.

﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ إنّ الكون والإنسان يجب أن يسبّح الله وينزّهه ويحمده في كل حركاته وسكناته، في صباحه ومسائه وعشائه وظهره وكلّ آنائه.

﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾﴾ إنّه تعالى خالق الحياة والموت ومحيي الأرض بعد أن تموت، فلا معنى لإنكار البعث وهو القادر على كل شيء.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ تذكير بآيات الله ونعمه على الإنسان: فقد خلقه من تراب لا قيمة له فإذا به يصبح إنساناً له ميّزاته التكامليّة وحركته في هذا الكون.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ وامتنَّ على الإنسان بخلق الأزواج من نفس العنصر والمنشأ لإيجاد السكينة والاطمئنان بينهما وليشعرا بالمودّة والرحمة الخاصّة لتقوم عليها العائلة الإنسانيّة لبنةً لقيام المجتمع الإنسانيّ الذي يحقّق الخلافة الإنسانيّة في الأرض. ولا شكّ أنّ هذه المحبّة التي يشعر بها الزوجان نحو بعضهما بعد علقة الزواج إنّما هي من آيات الله التي يجب أن يتوقّف عندها المتفكّرون.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ ﴿٢٢﴾﴾ وامتنَّ على الإنسان بخلق السماوات والأرض بما فيها من القوانين التي لا تعدّ ولا تحصى، وكلها يهيّئ لحياة إنسانيّة هانئة بهيجة متنوّعة. وكان من ألطافة هذا الاختلاف في الألسن والألوان، ليتمّ التعارف وتتوزّع الأدوار وتتحقّق الأهداف من خلال الباقة الإنسانيّة باختلاف عطرها وألوانها.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾﴾ ثمّ يأتي التذكير بنعمة النوم في الليل، والتحرّك النشط في النهار.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاء مَاء فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾﴾ والتذكير بالبرق المخيف والمبشّر بالمطر الذي يحيي الأرض بدورات المياه فيها.

إنّها آيات كبرى وظواهر لا متناهية تجمَّعت كلها ليتحقق للحياة الإنسانيّة الفضاء المناسب للتكامل، فيجب أن يفكّر الإنسان ويتأمّل آياتها بعقله وعلمه، ويسمع نداءها ودلالاتها بحيث يستحيل معها تصوّر الإلحاد والعبثيّة، أما فكرة الصدفة فهي من المحالات، ذلك أن هذه المليارات من تجمّع الصدف لتخدم كلها هذه الحياة وتمهّد لها سبيل التكامل من المستحيل عقلا تصورها مما يدفع الإنسان الى القبول الكامل بفكرة الإله المدبّر القادر الحكيم.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاء وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴿٢٦﴾﴾ إنّ السماء والأرض تقومان وتتحرّكان بأمره تعالى وفق نظام دقيق لا يتخلّف، مما يوضّح أمام العقل دقّة التخطيط وعظمة التنظيم وسعة القدرة الإلهيّة ليتقبّل بسهولة استجابة الخليقة للأمر الإلهيّ للخروج من الأرض إلى الحشر، كما يتقبل فكرة الخشوع الكونيّ بما في الكون من موجودات لله تعالى.

﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾ فهو تعالى مبدأ الخلق يخلقه ويعيده من جديد بعد أن يبلى وهو أهون عليه من خلقه من العدم، كما يتناهى إلى الفهم البسيط وإلاّ فقدرته مطلقة لا يختلف فيها الخلق والإعادة. وهو تعالى يمتلك كل صفات الكمال وأعلاها بحيث يتقارن ذلك مع الإطلاق، وحينئذ فرغم أن الإعادة للشيء في نفسها أهون من خلقه من العدم، لكن ذلك لا يعني الفرق بينهما في الساحة الإلهيّة ذات العزّة والحكمة المطلقتين.

﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاء فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاء تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾ مثل يضرب من حياة المشركين ملخّصه أنّهم لا يتصوّرون مشاركة عبيدهم لهم في الأموال التي رزقهم الله بها، ولا يتصوّرون أن يحسبوا لعبيدهم حساب الأحرار أنفسهم أو أن يخافوا منهم، فكيف إذن يتصوّرون أن يشارك الله بعض عباده في الأمر وهو خالقهم ورازقهم؟!

﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ وحقيقة الأمر هي أنّ هؤلاء المشركين الظالمين لا ينطلقون من منطق معقول، وإنّما يتّبعون أهواءهم الدنيئة دونما علم أو منطق، فهم خارجون من جادّة الهدى بظلمهم، فلا يستحقّون الهداية ولا ينفعهم أحد.

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ بعد كل هذا اللوم للمشركين يأتي هذا التوجيه الإلهيّ الرائع:

يجب أن يتوجّه النبيّ وبعده المسلمون بكل وجوده إلى الله (حنيفاً) دونما ميل إلى يمين أو يسار منسجماً مع طبيعة تركيبته الإنسانيّة التي خلقه عليها، والتي تهديه إلى الله وتوحيده والى عمل الخير، وهو ما يتمّمه الدين المنسجم مع الفطرة؛ لأنّه منطلق معها من نفس المنشأ، ولا تبديل لتركيبة الفطرة، بل تتناسق مع القيمومة الدينيّة على الحياة التي لا يلتفت إليها ولا يعلمها الأكثر من الناس.

﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾﴾ والنتيجة هي الخضوع لله والصلاة والتوحيد والنفور من المشركين المتفرّقين شيعاً وجماعات، وكلّ حزب وفرقة منها تفرح بما لديها فقط دون النظر إلى ما عند الآخرين من أدلّة وحجج.

﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾ تعبير عن حالة نفسيّة إنسانيّة منحرفة إذ ترجع إلى ربّها متضرّعة داعية، عندما يصيبها ضرر مهما كان قليلاً، فإذا شملتها رحمة نسيت حالتها الأولى وربما أشركت بالله.

﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾﴾ إلاّ أنها حالة انحرافية خطيرة، إذ تعني اضطراباً نفسياً وكفراً بنعم الله، مما يستوجب التهديد الإلهيّ، وعليه فيجب الثبات على الحقّ واعتبار اللجوء إلى الله في حالة الضرّ دليلاً فطريّاً على التوحيد.

﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾﴾ وبتهكّم يسأل هؤلاء عن الدليل الذي خوّلهم ان يقولوا كلمة الشرك.

﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾﴾ وهذه حالة أخرى تشير إلى فرح البعض فرحاً مبطراً عندما يتذوّقون رحمة ما، فإذا أصابتهم سيئة نتيجة بعض أفعالهم تستولي عليهم حالة اليأس، وهي حالة سطحيّة تكشف عن ضعف في الفهم والعقيدة.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاء وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾﴾ والحقيقة أن الرزق بيد الله يبسطه تارة ويحدّده أخرى طبق قوانين ثابتة، فالمطلوب السعي من جهة وإيكال الأمر إليه دونما بطر أو يأس.

﴿فَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾﴾ ومن هنا ينطلق مبدأ الإنفاق على أساس عقائدي سليم، فيطلب من المؤمن أن ينفق على ذوي القربى لتأصيل العلاقات الاجتماعيّة، وإذا كانت الآية مدنيّة فالخطاب للرسول يعني إيتاء الخمس لذوي القربى وهم أهل البيت عليهم السلام ، وكذلك الإنفاق بإرادة وجه الله والتقرّب إليه على المسكين، وابن السبيل المنقطع عن أهله وبلده، لسدّ الخلل الاقتصادي في المجتمع، وتحقيق إرادة الله في سريان التكافل الاجتماعي، مما يؤدّي إلى الفلاح والازدهار الفرديّ والاجتماعيّ.

﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾﴾ إنّ قصد القربة في الإنفاق يوجّهه الوجهة الصحيحة لسدّ الخلل الاجتماعيّ لدى المحتاجين، وبالتالي يأتي النماء والثواب الإلهيّ مضاعفاً، أما إذا أريد به أن يؤدّي إلى عائد ماليّ أكبر من خلال إعطائه إلى الأغنياء أو استخدام طرق أخرى من الربا وأمثاله فليس يحظى بالثواب الإلهيّ ولا يكون هو الإنفاق المطلوب.

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَلِكُم مِّن شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾﴾ إنّها حقائق لا يملكون المماراة فيها: فالله هو الخالق والرازق والمميت والمحيي، ولكن هل يستطيع الشركاء المزعومون أن يفعلوا ذلك؟! إنّ الله منزّه متعال عن أن يكون له شريك في ذلك.

﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا

لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ وهذه سنّة كونيّة يخبرنا عنها القرآن: فأعمال النّاس السيّئة تترك آثارها الوضعيّة في حياتهم المادّيّة بالاضافة لآثارها المعنويّة، وهي حقيقة لو أدركها النّاس ازدادت دوافعهم للامتناع عن المفاسد، والعودة إلى طريق الخير.

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾﴾ وتأكيداً للحقيقة المذكورة في الآية السابقة يدعو القرآن للسير والسياحة في الأرض للاطّلاع على ما أصاب الأمم المفسدة من ضياع ومصائب، بسبب انحرافهم عن طريق الله والإشراك به، وليستفيدوا من تجارب الآخرين.

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾﴾ فالعودة إلى الله هي السبيل القويم والتسليم لله ودينه القويم، وتحكيم قيمومته على الحياة هو طريق النجاة من مشاكل الحياة قبل أن تأتي أهوال يوم القيامة، حيث تصدّع الخلائق وتقسّم فهذا فريق إلى الجنّة وذاك إلى النار.

﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾﴾ حيث يتحمّل الكافرون وزر كفرهم، ويمهّد الصالحون سبيل الفوز لأنفسهم، وبذلك يشعر المؤمن بأنّه إذ يعمل الخير فإنّه يحقّق مصالحه الذاتيّة أيضاً.

﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِن فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿٤٥﴾﴾ فيشمله فضل الله في حين يطرد الكفار من رحمة الله.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾﴾ ويعود القرآن لبيان فضل الله ورحمته في الكون على الإنسان، ويذكر هنا الرياح التي تبشّر بالخير والعطاء في حركتها العالميّة، فبها تتحرّك السحب وبها تنظّم الحرارة وبها تجري الفلك وفق القوانين الإلهيّة في الكون، وبها تهتزّ الأمواج، وبذلك تنتظم حركة التجارة البحريّة، كلّ ذلك مما يدعو الإنسان إلى الشكر واللجوء الدائم إلى الله.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾ وإرسال الرسل مظهر عظيم من مظاهر اللطف والرحمة،

إذ بها تقوى العقول وتتوضح المعالم بالتفصيل ولكن المجرمين يبدّلون نعمة الله كفراً، فينتقم الله منهم وينصر الخطّ المؤمن عبر التاريخ. وهذا الانتصار للمؤمنين من الوعد الإلهيّ الذي لابدَّ أن يتحقّق، وإن بصور مختلفة معنويّة أو ماديّة في الدنيا أو في الآخرة.

وفي هذا مزيد من القوّة والأمل عند المؤمنين، وهم يخوضون ساحات المواجهة مع الأعداء.

﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاء كَيْفَ يَشَاء وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾﴾ ويعود القرآن إلى نعمة الرياح فيفصّل بعض أدوارها المهمّة: حيث تحمل بخار الماء من البحار فيتحوّل إلى سحاب منبسط في السماء، ثمّ يتراكم (كسفاً) ويتصادم مما ينتج المطر (الودق)، وهو سرّ الخير والحياة والبشر وطهر الأجواء بعد أن كان النّاس الذين ينتظرونه قلقين يائسين (مبلسين).

﴿فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾ إنّها آثار رحمة الله التي تدعو للتأمّل في نموذج الإحياء الماثل أمام النّاس والمعبّر عن قدرته تعالى المطلقة، ومنها قدرته على إحياء الخلق ليوم الحساب.

﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِن بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾﴾ فإذا جاءت الريح مصفرّة فيها تراب أو كانت جافّة يصفرّ النبات بعدها، فإنّهم يكفرون حنقاً ويأساً بدلاً من التسليم لقدر الله.

﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاء إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَا أَنتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَن ضَلَالَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾﴾ فينبغي أن لا يهتمّ الرسول بالذين فقدوا قابلية الهداية، إنّهم كالموتى والصمّ لا يسمعون مطلقاً؛ لأنّهم أدبروا عن الحقّ عناداً، فلا سبيل إلى دعوتهم، فحتى الصمّ يمكن تنبيههم بالإشارة مثلاً، وكالعمي لا يبصرون فلا أمل فيهم، إنما الأمل فيمن أعدَّ نفسه للوصول إلى الحقّ إذا تبيّن له والتسليم له.

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاء وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾﴾ هكذا هو الإنسان يبدأ من شيء هو في غاية الضعف والمهانة (الخليّة) فيعطيه الله القوّة حين يبلغ أشدّه إنساناً شاباً قوّياً واسع

الذهن مفكّراً مفتول العضلات ثمّ يعرض عليه ضعف الشيخوخة والشيبة.

إنّه قانون إلهيّ للخلقة يجب أن يتأمّله المرء في كل حالاته، ليؤمن بقدرة الله وعلمه.

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾﴾ وحين تكون القيامة يكتشف المجرمون المخدوعون الحقيقة، فيؤكّدون أنَّ الحياة الدنيا أو مدّة بقائهم في القبور لا تعدل إلاّ ساعة أمام هذا الموقف العظيم الممتدّ ويكتشفون كم كانوا عليه من إفك وضلال إذ استبدلوا الخلود بتمتّع ساعة. وربما تصوّر هؤلاء أن الحياة الدنيا مازالت مستمرّة رغم قصرها بالقياس إلى أيام الآخرة.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾﴾ ليردَّ عليهم أهل العلم والإيمان بأنهم إنّما لبثوا في تقدير الله إلى يوم القيامة الذي كانوا ينكرونه ويغفلون عن حقيقته.

﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾﴾ ولكن هل ينفعهم اعتذارهم بالغفلة ووقوعهم تحت تأثير الأفّاكين؟! وهل يكفي العتاب عليهم؟ كلا إنّه يوم الحساب والعقاب.

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾﴾ هذا هو أسلوب القرآن: يضرب الأمثال، ويستخدم مختلف الأساليب، ويعمل على إيقاظ الغافلين وتنبيه النائمين، ولكنهم وقد ران على قلوبهم الزيغ والكفر يكذّبون كلّ آية ويتّهمونها بالبطلان.

إنّها القلوب التي استسلمت للعمى وآثرت الضلال، فطبع الله عليها وتركها في جهلها المطبق.

﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾﴾ إنّه الموقف الذي يؤمر به الرسول بعد هذه الرحلة من التكذيب والعناد: إنّه الصبر والأمل المؤكّد بتحقّق الوعد الإلهيّ بالنصر، وعدم الاكتراث أو الوهن نتيجة عناد من صمّموا على أن لا يؤمنوا.

وقد بدأت السورة وختمت بالوعد بالنصر للمسلمين، كما تحقّق للروم من قبل.

سورة لقمان (٣١)

آياتها ٣٤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مرّ بنا الحديث عن البسملة.

﴿الم ۝١ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ۝٢﴾ هذه هي آيات الكتاب المليء بالحكمة والمتناسق بإحكام معجز، رغم أن تركيبته من هذه الحروف المعروفة.

﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ۝٣﴾ إنّه يهدي البشريّة إلى سبل علائها، ويربّي العقول والمشاعر لتوجد سلوكاً إنسانيّاً مهتدياً فهو حامل الرحمة ومنبعها لكل من يرغب في سلوك سبيل الإحسان.

﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤﴾ إنّه سبيل متقوّم بإقامة الصلاة الرابطة للإنسان بالمطلق الحقّ، وإيتاء الزكاة الكاشف عن الترابط الاجتماعيّ الحقّ، واليقين التام المؤكّد بالآخرة وحوادثها والذي يصبغ المسيرة بالهدفيّة.

﴿أُوْلَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝٥﴾ إنّها مسيرة الهداية الإلهيّة الأصيلة، والفلاح الإنسانيّ الكامل.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٦﴾ أمّا الضالّون فهم غارقون بطلب اللهو والباطل. والأنكى أنّهم لا يكتفون بضلالهم هم بل يعملون على التصدّي لمسيرة الهدى بطرح أحاديث اللهو وقصص الفجور في قبال آيات الحقّ، والاستهزاء بها، مما يجعلهم مؤهّلين للعذاب المشين والهوان.

﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٧﴾ ويتمادون في العناد بالاستهانة بآيات الله، والاستكبار عليها وعدم الاستعداد لسماعها، وكأنّ في أذنيهم ثقلاً، وكل ذلك يسوقهم للعذاب الأليم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ ۝٨ خَالِدِينَ فِيهَا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝٩﴾ أما المؤمنون العاملون للصالحات بطبيعتهم فهم السالكون إلى جنّات النعيم، حيث الخلود وهو أقصى ما يتمنّاه الإنسان.

إنّه وعد الله الحقّ، والله عزيز حكيم قادر على تنفيذ وعده.

﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾﴾ إنّه تعالى خلق السماوات وفق قوانين لا تحصى ولا يدركها ولا يراها الإنسان، ومهّد الأرض له بحركة متوازنة عبر السلاسل الجبليّة التي أقرّت على سطحها، وهيأ لبيئة مناسبة لحياة الإنسان تدبّ عليها مختلف الدواب، وأنزل من السماء مطراً ينبت به أنواع النبات الكريمة في عطائها بمقتضى قانون الزوجيّة الشامل.

﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾﴾ إنّه خلق الله وتدبيره المناسب لحياة الإنسان بدقّة متناهية، لكن ماذا صنع الشركاء المزعومون؟ لاشيء هناك إلاّ الظلم والضّلال.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾﴾ ما يستفاد من الروايات أنّ لقمان لم يكن نبيّاً، ولكنه كان رجلاً جادّاً متعبّداً رزق الحكمة[١] بمعانيها السامية وتتلخص في المعرفة النافعة والوعظ الجميل ووضع الشيء في موضعه والشكر الجميل لله، فالحكيم يعي الحقيقة فيشكر المنعم وبالتالي تسمو نفسه أما من لا يشكر فإنّه لا يضرّ إلاّ نفسه، والله غنيّ عن عباداتنا وشكرنا، وله مطلق الحمد.

﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ ومن هنا كان نهيه لابنه عن الشرك أول وعظه، فهو إنكار للمولويّة وظلم للوعي والعقل والفطرة وكفر بكل الهبات التي منحها الله للإنسان وهو مفتاح البلايا والشرور.

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿١٤﴾﴾ إستطراد قرآنيّ بالتأكيد على حقوق الوالدين، لربط شكرهما بالشكر لله؛ لأنّ لهما نوعاً من الإنعام في طول نعمة الله، ولما فيه من تقوية العائلة، وهي الحجر الأساس لبناء المجتمع، ويتمّ التركيز على الأمّ لشدة عنائها وتحمّلها لأنماط الضعف

---

١. راجع: بحار الأنوار، ج ١٣، ص ٤٢٤.

الناتج من الحمل والرضاع والفطام بعد عامين والتربية الشاقّة. وتختتم الآية بالتذكير بالقيامة وأهوالها ليتأكّد الشكر.

﴿وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَى أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾﴾ إنّ للوالدين حقّهما العظيم، ولكن العقيدة أقوى من هذه الرابطة، فإن أمرا بشرك فلا معنى لطاعتهما ولكن من غير جفاء ولا عنف ولا هجر، فليلتحق المسلم بسبيل الصالحين المنيبين إلى الله، ولكن يصحبهما بالمعروف. وهذا يعبّر عن واقعيّة الإسلام وأخلاقيّته.

﴿يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾﴾ ويستمرّ وعظ لقمان لابنه وتذكيره بعلم الله الواسع الدقيق، فلو كانت هناك حبّة خردل صغيرة مخلوطة مع غيرها ومخفيّة في صخرة أو تائهة في السماوات الواسعة أو الأرض الرحيبة، فإن علمه يشملها ويجلبها، فهو بها لطيف خبير.

﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٧﴾﴾ هذه هي أصول الأخلاق الفاضلة إنّها تتلخّص في إقامة الصلاة لتذكّر دائماً بالله، وتبعد عن الغفلة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والصبر في الشدائد، وبذلك ينطلق المرء قويّ القلب ناشراً الخير.

﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾﴾ ثمّ يأتي النهي عن الإعراض عن النّاس تكبّراً، والمشي بخيلاء تبختراً وافتخاراً بالباطل. وكل ذلك مبغوض من قبل الله؛ لأنّه يسبّب تفكيك العرى الاجتماعيّة المبنيّة على المحبّة والتكافؤ والتواصل، وكذلك فإنّه لا ينسجم مع الخلق الكريم.

﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾ والأمر بالاعتدال في السير، والغضّ والتقليل من علوّ الصوت تواضعاً وابتعاداً عن التشبّه بالحمير والبعد عن الإنسانيّة الوزينة.

﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾﴾

وهكذا يؤكّد القرآن في كل مناسبة على عدم الغفلة عن الظواهر التي أعدّها الله للإنسان والتي لا تحصى، وهي تملأ الكون نعماً تامّة قد يدركها الإنسان وقد تخفى عليه، ولكنّه يلحظ في هذا النظام التخطيط الهائل الدقيق الذي يمهّد للإنسان بقاءه وهناءه. في حين يبلغ السخف بالبعض أن يجادلوا في آلاء الله جهلاً وعمى، بلا دليل أو برهان.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٢١﴾﴾ فإذا طُلب منهم أن يشكروا هذه النعم ويتّبعوا أوامر الله التي نزلت هدىً ورحمة أعرضوا بجهلهم وادّعوا أنّهم يسيرون سيراً أفضل باتّباع سنّة آبائهم، ولكن السؤال: هل من المنطق أن تتبّع سنّتهم حتّى لو كانت تقود إلى الضّلال والنّار؟ إذن يجب التقييم أولاً ثمّ يتمّ الاتباع.

﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿٢٢﴾﴾ إنّ الإنسان يجب أن يسلّم زمام أموره إلى المنعم المفضل المالك الذي تعود إليه الأمور وهو الله، فمن فعل ذلك فقد سلك السبيل المنطقيّ الأقوم، واستند إلى عروة وثيقة.

﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٢٣﴾﴾ أما الكافرون فيجب أن لا يأسى النبي عليهم وسوف يعودون إلى الله وينبّئهم العليم الخبير بمكنونات الصدور وبما عملوه ويحاسبهم عليه.

﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾﴾ إنّهم في قبضة الله وتحت قدرته، فهو يمتّعهم قليلاً لحكمة منه، ثمّ يأخذهم إلى العذاب الشديد.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾ إنّهم من جهة يصدقون بأن الله هو خالق الكون، ومن جهة أخرى يقودهم جهلهم إلى الشرك والفساد والعصيان.

﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾﴾ إنّ الله إذ يأمر وينهى ويرشد الإنسان لا يريد أن يكرّس ذاته أو يحصل على شيء والعياذ بالله، فهو الغنيّ وله الحمد المطلق، وإنما يريد أن يتفضّل على الإنسان فيصلح نقصه.

﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ

اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾ إنّه تعالى مصدر النعم والفضل والعطاء كلّه، فلو أمكن التعبير عن أفضاله بكلمات، وكانت الأشجار ومكوناتها أقلاماً، والبحار تمدّها سبعة اضعافها (تعبيراً عن الكثرة) مداداً لما استطاعت أن تكتب تلك الكلمات ولما نقص من ملكه شيء، فهو العزيز المطلق والحكيم المطلق. وقد تكون الكلمات هنا تعبيراً عن أسرار الكون والحياة وقوانينهما.

﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾﴾ لا يختلف لديه أن يخلق أو يبعث من جديد نفساً واحدة أو يخلق ويبعث الكون كلّه، إنّه العليم السميع البصير بكل شيء.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾ ويتابع القرآن تذكيره للإنسان بالنعم العظمى، فيذكّر هنا بظاهرتي الليل والنهار واندماجهماالرائع أبداً طولاً وقصراً والمرتبط بحركة الشمس والقمر الذين سُخّرا بأسمى دقّة، ولكلّ منهما مسير محدّد لا يتخلّف، مما يوضّح التدبير والقدرة والرحمة الإلهيّة بكل جلاء.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾﴾ كلّ ذلك لأنَّ الله هو الحقّ والثبوت ولطفه وتدبيره وصفاته، هو الحقّ الذي يقوم ويدوم به الكون، وأنَّ ماذكر وزعم له من شريك هو الباطل الداني، فهو تعالى في غاية العلوّ والكبر، وكل شيء مهما كبر وعظم نسبيّ دانٍ محتاج إليه، وبالتالي فهو عالٍ على كلّ نقص، ومتّسع لكلّ كمال.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾﴾ وهنا إشارة لقوانين حركة السفن وما أكثرها وأعظمها في الأرض والرياح والمياه، بل ومواقع الشمس والقمر، فليتأمّلها الإنسان، وليثبت على إيمانه صابراً في الشدائد شاكراً على كلّ حال.

﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾﴾ دون أن يكون متقلّباً يؤمن بالله ويلجأ إليه عند ما يغطّيه الموج كالسحاب، فإذا منَّ الله عليه وأنجاه إلى برّ الأمان راح البعض يجحد بآيات الله، نتيجة غدرهم الشديد وعنادهم وكفرهم.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴿٣٣﴾﴾ في ختام السورة تأتي الآيات عادة لتلخص رسالتها. فيطلب من البشريّة هنا أن تتّقي الله وتخشى يوم القيامة الرهيب الذي تتقطع فيه العلائق، ولا يغني فيه والد عن ولده ولا ولد عن والده شيئاً، وحيث يتجلّى وعد الله وهو حقّ لا يتخلّف، فلتحذر البشريّة من أساليب الشيطان وإغراءاته، والغفلة التي ينتجها التعلّق بالدنيا ووساوسها. وليحذروا حلم الله وأناته وإمهاله.

﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾﴾ ويأتي التأكيد على علم الله الخاصّ بالساعة والقيامة وحوادث الزمان، من نزول المطر وما تحمل كل أنثى وآجال النفوس وما تكسبه، فليسلّم الخلق أمرهم إليه وليرقبوا علمه فيهم، وليعلموا أن الكون بماضيه وحاضره ومستقبله حاضر لديه، أما هم فجاهلون بما سيكسبونه في الغد، وفي أي مكان سيموتون، في حين أن علم الله يشمل كلّ الأمور وهذا الزخم العظيم من المواعظ القرآنيّة والمعارف الإسلاميّة حول: التقوى وخشية القيامة، وحساب أهوالها وانتظار تحقّق الوعد الحق، ولزوم الابتعاد عن الاغترار بالدنيا والغرور الشيطاني، وضرورة التصوّر المستدام لعلم الله ونقص العلم الإنسانيّ، كل هذا الزخم يربّي الجيل المؤمن ويسدّد خطاه ويبقيه واعياً على الخط المستقيم.

سورة السجدة (٣٢) آياتها ٣٠

بِسْمِ اللّه الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مرّ بنا الحديث عن البسملة.

﴿الم ۝١ تَنزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ۝٢﴾ إنّه الكتاب المعجز رغم تأليفه من الحروف العربيّة المعروفة: وأيّ تأمّل فيه ينفي الريب في كون مصدره إلهيّاً وكونه من ربّ العالمين.

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ۝٣﴾ ولاقيمة لتشكيك المشكّكين لوضوح كونه الحقّ من الله، نزل بلطف منه ليحذّر قوماً لم يبعث فيهم نذير من قبل، وان كانت دعوة الأنبياء قد بلغتهم، يحذّرهم من اتّباع الوثنية ويهديهم إلى العبوديّة المطلقة لله.

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ۝٤﴾ فهو تعالى خالق السماوات والأرض في ستّة مراحل يعلمها الله، ودبَّر الكون من نقطة معيّنة هي محوره، فكل شيء ينسجم مع هذا المحور بأمر الله وحده، فلا وليّ للكون والإنسان إلاّ هو، ولا شفيع بمعنى تسبيب الأسباب ومنح نظامها كله الوجود غيره.

﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاء إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۝٥﴾ من العرش حيث تمركز القدرة الإلهيّة وتجلّيها ينطلق التدبير الكونيّ بمقاييس لا نعهدها، وبأيام تفوق تصورنا وتتفوّق على أيامنا بكثير، فلا ندرك معناه لكننا نقف أمامه مدهوشين، كما نقف كذلك أمام هذا الكون الرحيب.

﴿ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۝٦﴾ إنّه تعالى عالم الغيب كما هو عالم الشهادة، له مطلق العزّة والرحمة.

﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاء مَّهِينٍ ۝٨ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ

وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾ منح كل شيء في الكون وجوده وقدّره أحسن تقدير، ومن الأشياء هذا الإنسان المكرَّم الذي تدرّج به من طين لا قيمة له، ثمّ استمرّ نسل الإنسان في عصارة هي ماء مهين (المنيّ)، وتكامل في خلقه وتصويره حتّى استحقّ نفخة الروح الإلهيّة، وأعطيت له كل وسائل المعرفة وهي السمع والأبصار والأفئدة أي القلوب الواعية، فبلغ أحياناً أسمى مرتبة يمكن أن يصل إليها موجود ممكن، كما في مراتب الأنبياء. إنّها مسيرة يقف أمامها الفكر إكباراً وإعجاباً وشكراً، ولكن يقلّ الشاكرون.

﴿وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ ﴿١٠﴾﴾ وتثور في البعض الوساوس الشيطانيّة فيشكّون في البعث بعد أن يموت الإنسان وتضمحل أجزاؤه ضالّة في هذه الأرض الرحيبة، وهكذا ينسى الإنسان قدرة الله ويدخل في عداد الكافرين.

﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾﴾ ويأتيهم الجواب كامناً في قدرة الله وملك الموت المنفّذ لأمر الله، فيقبض أرواحهم ثمّ ليرجعهم جميعاً إلى الله.

﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُؤُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾﴾ منظر من مشاهد القيامة يبدو فيه المشركون المجرمون مطأطئي الرؤوس أمام ربّهم العظيم، خجلاً وهواناً معترفين بخطئهم، مؤكّدين أنّهم استوعبوا الحقيقة طالبين العودة إلى الدنيا، ليعملوا صالحاً بعد حصول اليقين لهم.

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾﴾ ولو شاء الله لهدى النّاس جميعاً ولكن حكمته شاءت أن يختار الإنسان الهدى بإرادته، وبذلك يتمّ التكامل وتبرز كوامن النفوس ويتميّز الإنسان عن غيره، ومن هنا خُيّر الإنسان بين السبيلين، وقام البعث والجزاء، وكانت جهنّم مثوى الكافرين من الجنّة والنّاس.

﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾ وزُجَّ بالمجرمين المنكرين للبعث والناسين ما اقتضته عقولهم، فاستحقّوا أن ينساهم الله ـ بتركهم وشأنهم ـ وأن لا يأبه بهم فيذيقهم عذاب الخلود في جهنم نتيجة أعمالهم.

﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٥﴾﴾ (سجدة واجبة)

والمؤمن الحقّ هو ذلك الإنسان الذي إذا ذُكّر بآيات الله خرّ ساجداً، وسبّح بحمد الله خاضعاً متصاغراً دون استكبار ، وهكذا لا يكون الإيمان أصيلاً إلاّ إذا نفذ إلى الأعماق والمشاعر. (وفي قراءة هذه الآية سجدة واجبة).

﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾﴾ إنّهم يتركون النوم في الليل ويلجأون للصلاة والمناجاة والدعاء خوفاً وطمعاً، ويؤدّون ما عليهم من حقوق ماليّة تجاه الآخرين مما رزقهم الله تعالى بدوافع إيمانيّة ذاتيّة.

﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاء بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ وحينئذ يستحقّون ثواباً عظيماً لا يعلمه إلاّ الله تقرّ به أعينهم، وتتحقّق به آمالهم الكبرى.

﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ ﴿١٨﴾﴾ من الطبيعيّ أن يختلف خطّ الإيمان عن خطّ الفسق، ذلك أنّ الإنسان كلّ مترابط، فأيّ تغيير في القناعة النفسيّة يترك أثره على العواطف والسلوك بلاريب، والبعد عن الفطرة يقلّص الصفات الإنسانيّة حتّى يمحوها.

﴿أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾﴾ ومن هنا يحقّق المؤمنون بعملهم الصالح كلّ مسبّبات الحضور في الجنان.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾﴾ أما الفاسقون فلهم الانحطاط المستمرّ الذي يوصلهم إلى عذاب النار الرهيب الخالد، الذي لا مخرج ولا مفرّ منه، نتيجة تكذيبهم.

وهذا التأكيد على حقيقتي الجنّة والنار يراد منه نقلهما في ذهن المتّقين من مستوى التصوّر الى مستوى الحسّ ليكون لهما الأثر القويّ في سلوك المؤمنين وقد عبّر أمير المؤمنين علي عليه السلام عن عمليّة التصعيد هذه بقوله ـ واصفاً المتّقين ـ «فهم والجنّة كمن قد رآها فهم فيها منعّمون وهم والنار كمن قد رآها فهم فيها معذّبون»[1].

﴿وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾﴾ وسوف ينالهم العذاب الأدنى في هذه الدنيا قبل العذاب الأكبر في الآخرة، لعلّهم يثوبون إلى رشدهم، ويتوبون ويرجعون إلى الله.

---

١. نهج البلاغة، ص ٣٠٣.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ لا ظلم أكبر من أن ينكر الإنسان عقله وفطرته، فيتكبّر أمام آيات الله التي تقبلها العقول وتنسجم معها الفطرة، وحينئذ فالإعراض جريمة كبرى وتمزّق في الشخصيّة، يجعلها مستحقّة للانتقام الإلهيّ.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٢٣﴾﴾ ينتقل القرآن لذكر موسى فيؤكّد وحدة المنطلق بين الدينين، وحقيقة اللقاء بين الرسولين الكريمين، ووحدة الهدى الذي جاءت به التوراة الأصيلة وجاء به القرآن.

﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ ويُذكّر هنا القادة الهداة بأمر الله لبني إسرائيل بعد أن قدَّموا امتحانهم العمليّ بالصبر، والفكري باليقين والإيمان بالتوراة وحقائقها. وفي الآية تربية للمسلمين على الإنصاف والعدل في التقييم وعرفان الفضل لأصحابه، رغم عداء اليهود ومواجهاتهم الحاقدة للإسلام وأهله.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾﴾ وقد حدثت في بني إسرائيل اختلافات والله تعالى سيفصل بينها يوم القيامة، كما أنَّ القرآن ذكر القول الفصل في بعض ذلك.

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾﴾ وهؤلاء المكذّبون بحقائق الإيمان، ومجيء العذاب أليس الأهدى لهم أن يلاحظوا آثار القرون المكذّبة الماضية، وهاهم يتجوّلون في مساكنهم ويشاهدون آثارهم، أليس الأجدر بهم أن يعتبروا بها، ويستمعوا إلى صوت الحقّ.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ إلا ينظر النّاس إلى نعم الله المحيطة بهم، ومنها حركة الماء ودورته في الطبيعة، حيث يجلب الخير معه إلى الأراضي اليابسة (الجرز) فتنبت النبات الذي تأكل وتشبع منه الأنعام والإناس، ولولا ذلك لما استمرّت الحياة.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾﴾ ثمّ هم يتساءلون: متى يتمّ الفصل، ويتحقّق الوعد الإلهيّ؟

مكذبين مستبعدين له فيؤمر الرسول بإخبارهم بأنّه لا ينفعهم إذا جاء، فلا مجال حينئذ للإيمان النافع والمنجي من العذاب ولا مجال لتأخير العقاب.

﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾﴾ فينبغي أن يعرض الرسول عن المعاندين ويهدّدهم بانتظار العذاب.

سورة الأحزاب (٣٣) آياتها ٧٣

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مرّ بنا الحديث عن البسملة.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾﴾ خطاب للرسول الكريم ومن بعده للمؤمنين بضرورة ملاحظة تقوى الله، ورفض طاعة الكافرين والمنافقين ومهادنتهم والاستماع إلى آرائهم. وكان بعض الكفار يقترحون أن يُتركوا وآلهتهم فيتركوا المسلمين وإلههم، فنهى القرآن عن ذلك وأكّد على اتّباع الوحي والتوكّل على الله، وكفى به وكيلاً.

﴿مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴿٤﴾ ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥﴾﴾ إنّ القلب وعاء واحد بتوجّهه وقناعاته، فلا يجتمع فيه متناقضان وميزانان، ولا يمكن الفصل بين قناعات الإنسان وإحساساته وسلوكه كما يدعي البعض ـ وإلاّ انفصمت الشخصية. وهذه النظرة توضّح التناقض بين التقوى وطاعة الكافرين، كما تشكّل مقدّمة لرفض الظهار وهو أن يقول الشخص لزوجته: أنتِ عليَّ كظهر أمي، فينفرط عقد الأسرة وهي عادة جاهليّة ألغاها الإسلام، وكذلك رفض التبنّي الجاهليّ بحيث تترتّب على الدعيّ أحكام الولد الصلبيّ، وبهذا أقام الإسلام مبادئ أسريّة جديدة وقاية للعائلة واعترافاً بدورها لبنة أصيلة لبناء المجتمع.

فلا يمكن التلاعب بها بالألفاظ بل توضع الأمور في نصابها، فيدعى الأفراد بآبائهم الذين ولدوهم، فذلك منسجم مع العدالة، فإذا لم يعرف آباؤهم فهم أخوة في الدين والموالاة، وبهذا تقوم الأسرة على أساس طبيعيّ هو النسب. وقرّر القرآن أن لا جُناح إذا

حدثت أخطاء من قبل، والمهم أن لا يتعمّد الإنسان أن يذنب، والله هو الغفور الرحيم.

﴿مَّا النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُوْلُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَن تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُم مَّعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾﴾ ويتقرّر هنا مبدأ أولويّة النبيّ في كلّ شيء على نفوس المؤمنين، حتّى في المجال العاطفيّ، حيث يتقدّم حبّه على حب النفس، فهو أولى في الشؤون الدنيويّة والأخرويّة. كما يتقرّر مبدأ آخر وهو اعتبار أزواجه أمّهات للمؤمنين في مجال التعظيم وحرمة الزواج لا في مطلق أحكام الأمومة، ثمّ تم الغاء نظام المؤاخاة الذي قرَّر لفترة ما بعد الهجرة، وبنيت العلاقة على أساس النسب فقط، وان كان للفرد أن يوصي لوليّه بشيء من المال في حدود الثلث من التركة.

وكل هذه الأوامر قائمة على أساس تشريع إلهيّ مسبق.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾﴾ هذا ميثاق وعهد خاصّ أخذه الله من النبيّين جميعاً بما فيهم الرسول الأكرم وأولو العزم، وهو ميثاق قويّ لا يقبل التخلّف: إنّه ميثاق الوحدة والاستقامة والشهادة.

﴿لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾﴾ فالجميع مسؤولون: الصادقون عن صدقهم، والكافرون عن انحرافهم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾﴾ يشير القرآن هنا إلى بعض أحداث غزوة الخندق ودروسها في تحقّق مقتضيات العهود. فيذكّر بنعمة الله فيها حيث هجوم العدو المدجّج بالسلاح، وحيث لطف الله بإرسال الريح والجنود غير المرئيّين، وهزيمة العدو، وكون المعركة تحت علم الله وبصره.

﴿إِذْ جَاؤُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتْ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴿١٠﴾﴾ وهكذا أطبق الشرك ومعه الكفر بجنوده على المسلمين من كلّ جانب، فمن الشرق غطفان واليهود ومن الغرب قريش والأحابيش وكنانة، وعمَّ

الهول والكرب ومالت (زاغت) الأبصار وبلغت النفوس الحناجر وكأنّ الأرواح تحاول الخروج من البدن بالهزيمة وعدم تحقّق الوعد الإلهيّ.

﴿هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾﴾ فكان البلاء والامتحان العظيم وتزلزل النفوس.

﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾﴾ أمّا المنافقون وضعاف القلوب فقد اتّهموا الله سبحانه ورسوله بالتغرير بهم.

﴿وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾﴾ ونادت طائفة منهم مخذّلة المؤمنين من أهل يثرب (المدينة) طالبة منهم العودة إليها، ويقوم فريق منهم بالاستئذان من النبي ليعودوا إلى بيوتهم التي ادّعوا أنّها غير مصونة ومكشوفة للعدو، ولم يكن ذلك إلاّ للفرار.

﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾﴾ وهذا يعني أنّهم مستعدّون إذا دخل العدو بيوتهم أن يعطوه ما يريد، ويرتدّوا عن دينهم بعد قليل من التريّث الذي يعقبه الاستسلام.

﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْؤُولًا ﴿١٥﴾﴾ في حين أنّهم كانوا قد أعطوا الله عهداً في الثبات حتّى النصر، ومسؤوليّة العهد مازالت قائمة.

والملاحظ أن القرآن في مواجهته لأعداء الدعوة من المشركين وأهل الكتاب والأعراب والمنافقين ركز كثيرًا على المنافقين لأنهم كانوا متغلغلين في المجتمع الإسلامي ولهم نفوذهم فيه، وأي تحرك منهم يترك أثره مباشرة، فعمل على كشف ألاعيبهم وصفاتهم وأساليبهم وتوعّدهم بالعواقب الوخيمة، وحدّد معالمهم ليحذر منهم المجتمع المسلم، ويتحصّن من مؤامراتهم وخصوصاً في حالات الشدّة، وكانت صفة الخيانة وعدم الوفاء من أهم صفاتهم المخرّبة.

﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾﴾ تقرير لمبدأ القدر الإلهيّ وتفنيد لتصوّر النجاة في الفرار، فهو لا ينفع في تأخير الأجل، وإن كان نافعاً فهو إلى مدة قليلة، أو هو نفع قليل تمتّعه.

﴿قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾﴾ وإنّ الشر والخير، والسوء والرحمة إنما هي بأمر الله ولا مفرَّ منها ولا عاصم، فلا سبيل إلاّ إيكال الأمر إليه فهو المولى وهو النصير لاغير.

﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾﴾ أمّا المثبّطون المخذّلون الداعون إلى القعود عن القتال والذين لا يمارسون الجهاد إلاّ قليلاً يُبقي على ماء الوجه فهم تحت علم الله وبصره ومراقبته الدقيقة.

﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾﴾ إنّهم بخلاء بنفوسهم، وعندما يخيّم الخوف يفقدون اتّزانهم ويستولي عليهم الجبن المقرف، فهم كالمغشيّ عليه من الموت، لا تستقرّ عيونهم في أحداقها، فإذا ذهب الخوف طالت ألسنتهم واحتدَّت وراحت ترتفع وتنتفخ أوداجهم وتتبجّح، وتنسى أنها كانت تحتضر وأنها شحيحة على كل عمل خيّر. فكان جزاؤهم إحباط أعمالهم وحرمانهم من الثواب عليها، وذلك أمر يسير على الله.

﴿يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِن يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُم مَّا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾﴾ صورة أخرى من نفسيّتهم المهزوزة، فهم يحسبون أنّ الأحزاب المتألّبة على المؤمنين مازالت تحاصرهم، حتّى وإن كانت جيوشها قد غادرت المعركة. وإذا عادت هذه الجيوش يودُّ هؤلاء المنافقون الجبناء أن لو كانوا من أهل البادية فلا يشاركون أهل المدينة في مصاعبهم وإنما يترصّدون الأحداث من بُعد، وحتى لو بقوا في المدينة فإنّهم لن يسهموا في القتال إلاّ قليلاً يُبقي على ماء وجوههم.

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ لقد كان رسول الله القدوة الرائعة، والأسوة الحسنة في الوعي والتخطيط والثبات، وقوّة الجنان والأمل بالنصر الإلهيّ والثواب الأخرويّ والاتّصال الدائم بالله، فليتأسّ به المؤمنون بالله وباليوم الآخر الطالبون لهذه الخصال.

﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا

زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾﴾ إنّ المؤمنين إذا واجهتهم المصاعب قوي تصديقهم بالرسالة وتحقّق الوعد الإلهيّ وارتفعت وتيرة الإيمان والتسليم في نفوسهم، وتحوّل التهديد لديهم إلى فرصة لزيادة الإيمان والتسليم. وقد تتحوّل هذه الحالة إلى صفة حياتيّة مستمرّة مع المؤمن الواعي الصابر فهو يرى الحياة بكل ما فيها من حوادث حلوة أو مرّة هي مجموعة فرص يمكن استغلالها لصالح الدعوة وتحكيم المسيرة الإيمانيّة وتحقيق الرضوان الإلهيّ لأنّه يحيا بعين الله ويصنع تحت رحمته.

﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ هكذا ينغرس الإيمان الصادق فيصدق المؤمنون فيما عاهدوا الله عليه، فينطلق منهم من ينطلق إلى الشهادة ويبقى الآخرون ينتظرون دورهم، والإيمان والعهد والإخلاص ثابت لا يتغيّر.

﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾﴾ والمعيار ثابت فالصادقون لهم الجزاء الأوفى؛ لأنّهم صدقوا، أما المنافقون فهم موكولون إلى الله إن شاء عذبهم وإن شاء منحهم فرصة أخرى وتاب عليهم، وهو الغفور الرحيم.

﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾﴾ وعاد الكفار يقتلهم الحقد والغيض واليأس، إذ لم يحقّقوا ما أرادوه وتحقّقت إرادة الله كما هي دائماً نافذة، وكفى الله المؤمنين قتالهم، والله هو القويّ العزيز.

﴿وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾﴾ أما اليهود من بني قريظة الذين نقضوا عهدهم مع النبيّ ودعموا المشركين وضيّقوا الخناق على المؤمنين فقد قذف الله في قلوبهم الرعب من هذه النتيجة، وحاصرهم المسلمون في قلاعهم الحصينة فاستسلموا لهم، فقتل فريق وأسر فريق آخر، ووزّعت أراضيهم وديارهم وأموالهم، فكانت أراضي غنمها المسلمون ولم يحاربوا عليها.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ

وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾ رأينا ان القرآن اختار لأزواج النبي صفة (أمهات المؤمنين) ولهذه الصّفة مقتضياتها فلا مجال لاتّباع الرغبات والحصول على متع الدنيا وطلب النفقات الزائدة، خصوصاً والمسلمون في الشدائد، فجاءت آية التخيير هذه فإما اختيار الحياة الدنيا وزينتها الزائلة ومعها مفارقة رسول الله بالحسنى ومال يدفع اليهن، وإما الرسول والعطاء الأخرويّ وتحمّل حياة الزهد وانتظار الأجر العظيم للمحسنات منهن.

﴿يَا نِسَاء النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾﴾ إنّ مقام الزوجيّة للرسول الأكرم مقام رفيع، ولكنه في نفس الوقت يرتّب مسؤوليّة كبرى فأيّ عمل فاحش كبير يصدر منهن يستوجب مضاعفة العذاب. وهو أمر يسير على الله.

﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُّؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾ أما من تلتزم طريق الإيمان والخشوع لله وإطاعة الرسول والعمل الصالح فلها بدورها الأجر المضاعف والرزق الكريم في الجنّة.

﴿يَا نِسَاء النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاء إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾﴾ إنّ نساء النبي يحظين بمكانة سامية إن حافظن على التقوى، فيجب أن لا يرقّ كلامهن مما يدعو للريبة ويحرّك مكامن الشهوة لدى مرضى القلوب، وإنما ينبغي أن يكون كلامهنّ متعارفاً وزيناً.

﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ والأصل أن تقرَّ نساء النبي في بيوتهن، فإذا ماشئن الخروج لحاجة فيجب أن لا تبرز المفاتن (كما تظهر البروج) كما كان الأمر في الجاهليّة التي سبقت عصر النبيّ ﷺ. وعليهن أن يقمن الصلاة ويؤتين الزكاة ويطعن الله ورسوله. وبعد هذا تأتي آية التطهير التي نزلت في خصوص أهل البيت عليهم السلام وقد أكّدت الروايات الكثيرة من كتب السنة والشيعة على

اختصاصها بالنبيّ وعليّ وفاطمة والحسنين دون غيرهم[١] وكان هذا المعنى شائعاً معروفاً بين المسلمين فهي مقطع قرآنيّ مستقل وضع هنا بأمر النبيّ ﷺ كما روي-، ويلاحظ هنا أيضاً تغيير الضمير من نون النسوة إلى ميم الجمع عند الخطاب لأهل البيت. ووجود كلمة (إنما) تعني إرادة إلهيّة خاصّة مقصورة على أهل البيت، وهذا المعنى يؤكّد العناية الإلهيّة الخاصّة بهم، لتطهيرهم من أي دنس وعصمتهم من أي انحراف لتأهيلهم للقيادة والإمامة، ولو كانت إرادة عامّة للتقوى لما كان هناك معنى للحصر بل لشملت كلّ المسلمين. وبهذا لا يصحّ الاستناد الى السياق لتعميم الآية لنساء النبي ﷺ فإنه اجتهاد في قبال نصّ الروايات.

﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾ عودة إلى نساء النبيّ والطلب منهن أن يتذكرن دائماً مايتلى في بيوتهنّ من آيات الله والحكمة.

﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾﴾ تأكيد قرآنيّ رائع المعنى على أن الرجل والمرأة تنفتح أمامهما بالتساوي آفاق التعالي الإنسانيّ. فهما في التكامل الإنسانيّ سواء ويتأكّد ذلك بتكرار التذكير والتأنيث في مجال الإسلام والإيمان والقنوت والصدق والصبر والخشوع والتصدّق والصوم وحفظ الفروج وذكر الله كثيراً، فهم جميعاً يطوون طريق التكامل وبالتالي يحصلون على الغفران والأجر العظيم.

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾ إذا صدر أمر من الله وهو مولى الكون أومن الرسول وهو أولى بالمؤمنين من أنفسهم فلا خيَرة للمؤمنين في أمورهم في قبال ذلك الأمر الإلهيّ

---

١. يراجع الدر المنثور، (ج ٦، ص ٦٠٣ ـ ٦٠٥)، تفسير الرازي (ج ٨ ص ٨٥)، سنن الترمذي (ج ٥ ص ٣٠ وص٣٢٨)، جامع البيان (ج ٢٣ ص ١٢) مسند أحمد (ج ٦ ص ٣٩٢)، صحيح مسلم (ج ٧ ص ١٣٠)، تفسير الثعلبي (ج ٨ ص ٣٥) وغيرها. قال الإمام الرازي: «اتفق أهل الحديث والتفسير واجتمعوا على صحة هذه الروايات» وهي أحاديث الكساء أو العباءة وجاءت في مواضع عديدة جداً.

أو النبوي، وهو عام يشمل الأحكام التشريعيّة والأحكام الولائيّة التي تصدر من الرسول ﷺ باعتباره إماماً وحاكماً، وعصيان هذه الأوامر ضلال مبين، وتستفاد من الآية حجّية السنّة النبوية.

﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾﴾ روي[1] أنّ الآية نزلت في زيد بن حارثة وكان عبداً للنبيّ ثمّ حرره وتبنّاه، فاستشار الرسول في تطليق زوجته التي زوجه النبي إياها ـ وكأنّ ذلك ليلغي الفوارق الطبقية وهي الشريفة القرشيّة زينب بنت جحش ابنة عمة النبيّ وهو العبد المحرر فنهاه النبيّ عن ذلك، ولكنه طلّقها وتزوّجها النبي وكان ﷺ يخشى أن يقول البعض إنّه تزوّج مطلقة إبنه بالتبنّي وهو مالم يكن مقبولاً، فجاء هذا العتاب بلطف. وقد فرض الله أن يتزوّج بزينب ليرتفع الحرج في تزوج المؤمنين من أزواج الأدعياء بعد طلاقهنّ حتّى لو قضوا منهنّ وطراً، فما كان النبيّ يخفيه هو زواجه بزوجة ولده المتبنّى لا شيء آخر، إذ هو الذي أبداه الله.

﴿مَّا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾﴾ إنّه أمر الله صدر لحكمة اجتماعيّة فلا حرج على النبيّ إذا نفّذه. وتلك سنّة الله في الأنبياء والرسل ولا تبديل لأمر الله.

﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾﴾ فالأنبياء ومن بعدهم الدعاة والمبلّغون يحملون رسالات الله إلى الآخرين، بلا خشية من أحد إلاّ الله والله هو الوكيل الحسيب. والإبلاغ هنا بمعنى الإيصال الدقيق إلى المخاطب لا مجرد الإعلام، لذا فعلى الدعاة أن يتحرّوا كل الطرق المناسبة للتبليغ.

﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ دفع للشبهة السابقة فما كان الرسول أبا أحد من رجالهم عند صدور الخطاب، ولا تترتب على التبنيّ آثار البنوّة الحقيقيّة، ولكنه كان خاتم النبيّين به تختتم النبوّة والرسالة.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ توجيه

١. البرهان، ج ٤، ص ٤٧١، مجمع البيان، ج ٨، ص ٥٦٣.

إلهيّ لذكر الله كثيراً وتسبيحه في كل آن وكل تحوّل زمانيّ من أي نقص أو تحوّل، والذكر والتسبيح زاد المؤمن يبعده عن الغفلة، وهي شرٌّ ما يبتلى به الأفراد والأمم.

﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾﴾ فهو تعالى يتوجّه إلينا باللطف وملائكته في كل آن، ولولا ذلك لكنّا في ظلمات العدم والعمى والضياع، ولكنّه يخرجنا إلى النور ويغمرنا بالرحمة، فعلينا أن نعيش مع ذكره وتسبيحه.

﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾﴾ هكذا تقوم علاقة المؤمنين بالله على أساس اللطف الإلهيّ والمحبّة المتسامية والطاعة الكاملة والسلام الحقيقيّ يحيّيهم به الله والملائكة عند اللقاء، وبعد ذلك يكون الأجر المتناسب مع كرم الله وعظمته.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾﴾ هذه هي سمات النبيّ وأهدافه، فهو النموذج الأعلى للأمة يربّيها لتكون شاهدة على النّاس كما هو شاهد عليها، وهو المبشِّر بكل خير ليسلكه الناس، والنذير من كل شرّ ليتركه الناس، وهو الداعي إلى سبيل الله والقائد للإنسانيّة بإذن الله نحو الكمال، وهو السراج المنير لها دروبها الحالكة.

﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾﴾ وهو المبشّر للمؤمنين بالفضل الإلهيّ العميم، وتحقق كلّ آمالهم. وما أروع هذه البشارة للمؤمنين التي تقوّي قلوبهم وتؤكّد وحدتهم وتحقّق إيمانهم بأنّهم يسيرون بعين الله فيشملهم بفضله الكبير.

﴿وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾﴾ فلا تنتبه ـ أيها النبيّ ـ للخط المنحرف كفّاراً كانوا أو منافقين، ولا تأبه بأذاهم والتجئ إلى الله، فهو الوكيل فحسب. وهنا أيضاً نلاحظ هذه الاثنينيّة بين المرسل والرسول وهذا التثبيت الإلهيّ لقلب الرسول ليتوكّل عليه ولا يعتنِ بالعقبات التي يضعها أعداء الله في طريقه.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾﴾ إنّ النساء إذا نكحت وطلّقت قبل الدخول فلا عدّة لهنّ للطلاق، ويجب أن يدفع إليهنّ شيء من المال ويقال إنّه نصف مهر المثل ويسرحن سراحاً جميلاً. أما إذا فرض لهنّ مهر معين فيعطين نصف المهر بمقتضى الآية ٢٣٧ من سورة البقرة.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاء اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٠﴾﴾ تذكر الآية سبعة أصناف من النساء التي تحلّ للنبيّ، وهي التي تزوّجها بمهر، والتي ملكها من إماء الغنائم والأنفال، والمهاجرات من بنات عمه وعماته، وخاله وخالاته، وكذلك المرأة المؤمنة التي تهب نفسها للنبي ﷺ ويريد أن يستنكحها.

وأحكام الإسلام واضحة لعامة المسلمين في أزواجهم وما ملكت أيمانهم. وجاءت هذه الآية لترفع الحرج عن النبيّ ببيان ما يحلّ له خاصّة دون غيره.

﴿تُرْجِي مَن تَشَاء مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاء وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنَى أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾﴾ فللرسول قبول من وهبت نفسها له أوردّها، كما أنّ له أن يقسّم بين نسائه بالنحو الذي يراه كل ذلك، لكي تقر أعينهن بما اختاره الرسول، ولا يحزنّ ويرتضين خيرته من أعماق قلوبهنّ والله هو العالم بالمصالح والحليم بالنّاس.

﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاء مِن بَعْدُ وَلَا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا ﴿٥٢﴾﴾ ليس للرسول بعد هذا أن يتزوّج امراة أخرى، وحتى لو طلق بعض نسائه فإنه لا يستطيع تبديلها بأخرى حتّى ولو أعجبه حسنها، اللّهمّ إلاّ فيما ملكت يمينه.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاء حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾﴾ تبيّن الآية آداب الدخول إلى بيوت النبيّ، فلا يتمّ الدخول إلاّ بعد الإذن بتناول الطعام، وأن

لا يدخلوا قبل الطعام بمدّة كثيرة ثمّ ينتظرونه، وإنما يدخلون في الوقت المناسب، ثمّ يتفرّقون بعد انتهاء تناوله دون الاستئناس بالحديث بعده، فإن ذلك يؤذي النبيّ فيستحي من المدعوّين، والله لا يستحي من الحقّ، ووقته ﷺ ثمين ثمين.

وإذا أراد المدعوّون أن يكلّموا زوجات النبيّ فعليهم أن يكلموهن من وراء حجاب؛ لأنّ ذلك أطهر لقلوبهم وقلوبهنّ.

وليس لأحد أن يؤذي الرسول كما يحرم على المؤمنين أن ينكحوا أزواجه من بعده ـ وقد مر أنهن بمثابة أمهاتهم ـ فهو أمر عظيم عند الله.

﴿إِن تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾﴾ وربما تحدّث البعض لكي يؤذي النبيّ بشيء عن نكاح أزواجه بعده، فجاءت هذه الآية تهدّدهم بعذاب الله الذي يعلم مايبدون وما يخفون.

وهذه التعاليم القرآنيّة تجعل حياة القيادة ـ وحتى أحوالها الشخصيّة ـ مكشوفة بوضوح أمام المسلمين فلا يبقى مجال للتقوّلات والإشاعات التي يطلقها المنافقون والذين في قلوبهم مرض (ولعلهم فئة أخرى غير المنافقين) كما أنها تنظّم أدقّ العلاقات الاجتماعيّة مع القيادة لتفسح المجال لها كي تؤدّى دورها المطلوب.

﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاء إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاء أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَاتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾﴾ إستثنت هذه الآية من حكم الحجاب. الآباء والإخوان والأخوات وأبناء الإخوان وأبناء الأخوات، ونساء المؤمنين (بدليل الإضافة إلى هن) وما ملكت أيمانهن مع الأمر بالتقوى، ومراعاة الشهود والرقابة الإلهيّة.

﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾﴾ إنّ الله تعالى يتوجّه إلى النبيّ بالرحمة وملائكته يدعون له بها ويستغفرون، فمن الطبيعيّ أن يدعو المؤمنون بذلك. وهكذا يرتبط الكون في جو عاطفيّ بهذا الوجود الطاهر، وترتبط الأمّة بقائدها في جوّ عاطفيّ رحيم، خصوصاً إذا ضممنا آله إليه كما استفاضت الروايات

بذلك[١]، وخاصّة ما عرف بالصلاة الإبراهيميّة[٢].

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾﴾ أمّا الذين يؤذون الله والرسول فهم ملعونون مطرودون في الدارين وينتظرهم عذاب مهين.

﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾﴾ كذلك من يتصدّون للمؤمنين والمؤمنات بالأذى دون أن يكون لهم مبرر، وهم بذلك يرتكبون البهتان والافتراء، والإثم الواضح.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾﴾ أمر لنساء النبي وبناته ونساء المؤمنين جميعاً بأن يتستّرن بجلابيبهن وهو ما تشتمل به المرأة فيغطّي بدنها أو رأسها ووجهها فلا تظهر جيوبهنّ وصدورهنّ للناظرين، فذلك أدنى وأقرب أن يعرفن بالعفة فلا يتعرّض لهن الفاسقون بالأذى. وهذه الآية الكريمة واضحة كل الوضوح لتشريع الحجاب، وهو ما فهمه العلماء فلا يصغى لقول المشكّكين الجاهلين في هذا المجال.

﴿لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾﴾ تهديد للمنافقين ومرضى القلوب، والذين يبثّون الشائعات بأن يكفّوا عن الإفساد والإرجاف وإلاّ أُغري الرسول بهم ليطردهم من المدينة فلا يقطنونها إلاّ قليلاً.

﴿مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾﴾

إنّهم يستحقّون الطرد والملاحقة والقضاء عليهم أينما قبض عليهم؛ لأنّهم يضعفون الجبهة الداخليّة بأراجيفهم.

﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾﴾ إنّها سنّة إلهيّة جرت في الماضين، وليس لها من تبديل، فإذا بالغ المفسدون ومزّقوا الصفوف تمّ العمل على محوهم والتخلّص منهم.

---

١ و٢ ـ يراجع الدر المنثور، (ج ٦، ص ٦٤٦ ـ ٦٥٠)، سنن أبي داود (ج ١ ص ٢٢١) سنن ابن ماجه (ج ١ ص ٢٩٣)، سنن الترمذي (ج ١ ص ٣٠١) سنن النسائي (ج ٣ ص ٤٧) وغيرها.

﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾﴾ علم الساعة أختص الله به، وقد حاول البعض رغم ذلك، التساؤل عن ذلك، ولكنّ القرآن يذكر دائماً أنّ علمها عند الله، وزيادة في الإبهام يذكر احتمال قربها ليؤكّد أنّ الرسول أيضاً لا يعلم بذلك.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا ﴿٦٦﴾﴾ ويأتي هذا التهديد الرهيب للكافرين بالطرد من رحمة الله، والسوق إلى الجحيم خالدين فيها، لا يجدون من يدافع عنهم أو ينصرهم، وانما يعانون عذابها وتتقلّب وجوههم فيها، متحسّرين على أيام العمل قائلين: ليتنا أطعنا الرسول.

﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا ﴿٦٧﴾ رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾﴾ ويقفون أمام ربّهم معترفين بالانحراف ناسبين ذلك إلى إطاعة السادة والكبراء، داعين الله أن يؤتي هؤلاء ضعفين من العذاب ويصبَّ عليهم اللعنة الكبيرة.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾﴾ ويشير القرآن هنا إلى بعض الشائعات التي كان بعض قوم موسى يطلقها ضدّه، ويحذّر المؤمنين من الحذو حذوهم، ولكن الله برّأ موسى بعد أن كان وجيهاً عند الله، وكذلك سيبرئ الله نبيّه من كل التّهم.

ولعلّ الآية تشير إلى الشائعات التي رافقت قصّة زيد وزينب.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ وهكذا تلخّص آيات ختام السورة مضامينها:

فيطلب من المؤمنين تقوى الله والقول الرصين السديد ليصلح الله أعمالهم، ويغفر لهم ذنوبهم، وأن يطيعوا الله ورسوله ليحصلوا على الفوز العظيم.

﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ

وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾ إنّما الامانة الإلهيّة التي تشفق منها السماوات والأرض والجبال، فلا يستطعن حملها، وحملها الإنسان بمقتضى فطرته وعقله وإرادته الحرّة، وهي كما يظهر طيّ طريق التكامل الإراديّ وفق القيام بحق المولويّة الإلهيّة، وتنفيذ الخلافة الإلهيّة وإقامة المجتمع العابد. ومن الواضح أن حمل الامانة الإلهيّة يتطلّب العلم بكل ما ينبغي أن يُعلم من قبل المؤمنين لتحقيق هذه المهمّة التاريخيّة، وإقامة العدالة في الأرض وفق التصوّر الديني فالإسلام لم يطرح العدالة مفهوماً عامّاً وإنما حدّد معالمها وأحكامها بشكل دقيق.

ولكن البعض يغلبه جهله ويدفعه هواه إلى الظلم فينكل عن حمل الأمانة وهم المنافقون والمنافقات والمشركون والمشركات فيبتلون بالعذاب، ويمضي المؤمنون العاملون للصالحات في طريق حمل الأمانة فيتوب الله عليهم ويشملهم بالغفران والرحمة.

سورة سبإ (٣٤)

آياتها ٥٤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تحدّثنا قبل هذا عن البسملة.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿١﴾﴾ الحمد لله وحده فهو تعالى مالك الكون حقيقة ومفيض الوجود عليه في كل آن، وتتجلّى هذه الحقيقة للجميع في الآخرة فيتكرّر الحمد والثناء للحكيم الخبير.

﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاء وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾ هو العليم بكل ما يدخل في الأرض وما يخرج منها، وما ينزل إليها من السماء وما يصعد والكل يقع تحت رحمته وغفرانه.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾﴾ ولأنّ الكفار لم يدركوا حكمة الله في الكون، فقد أنكروا الساعة، فيأتيهم الردّ بكل جزم أنها ستأتي حتماً بعد أن كان العلم الإلهيّ شاملاً لكل صغيرة وكبيرة في الكون، فلا يغيب عن علمه شيء ذرّة كانت أو أصغر منها أو أكبر وإنّما هو مشمول بالعلم يحصيه كتاب مبين. إنّ تصوّر السعة العلمية والقدرة المطلقة والحكمة التامّة يوصل الإنسان بلا ريب للإيمان بالآخرة.

﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾ حيث يصل المؤمنون العاملون للصالحات إلى أقصى مبتغاهم وهو الغفران الإلهيّ والنعيم الخالد.

﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿٥﴾﴾ ويلقى المعاندون لآيات الله الساعون لإثبات عجز الله القدير شرّ العذاب وسوءه.

﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٦﴾﴾ إنّ العلماء بالحقائق العلميّة يصدّقون بوضوح بهذا القرآن، ويرون فيه الحقّ الصراح والهدى الحقيقيّ إلى صراط الله ذي العزّة والحمد.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي

خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾﴾ أما الكافرون فهم لسخفهم وجهلهم يثيرون الشبهات الواهية، ويهزأون بالحقيقة، فيتساءلون عن منطقيّة البعث والخلق من جديد بعد الموت، وتوزّع أجزاء البدن وتلاشيها الكامل وكأنّ الإنسان جسد خال بلا روح وكأنّ صغر الأشياء يغيبها عن علم الله.

وهم يستخدمون عنصر الاستهزاء ليمرّروا منطقهم السخيف، الذي لا يثبت أمام المنطق الدينيّ الذي يعتمد على قيام الكون بالعلم والقدرة الإلهيّة والحقّ والعدل والحكمة بكل وضوح وهي مفاهيم تنتهي إلى الإيمان بالآخرة.

﴿أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ ﴿٨﴾﴾ وراح المشكّكون في البعث يتّهمون الرسول بالافتراء أو الجنون، ولكنّ الردَّ يأتي قاطعاً فالمشكّكون أنفسهم مغمورون في العذاب والضلال البعيد.

﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاء وَالْأَرْضِ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاء إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾﴾ إلا يبصر هؤلاء مظاهر القدرة الإلهيّة أمامهم، ومن ورائهم في هذا الكون الرحيب، ولو شاء الله لخسف بهم الأرض أو أنزل عليهم قطعة محطّمة من السماء. إنّ في هذه المظاهر ما يذكّر العباد بلزوم العودة والتوبة لله.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾﴾ هذا النبيّ داود مّن الله عليه بفضله فكانت الجبال والطير ترجّع مع تلاوته وتسابيحه (مما يكشف عن تناغم الكون كله في مجال التسبيح لله)، ومنحه ما يليّن الحديد الصلب ليعمل الدروع الواسعة مع دقّة في تركيب الصفائح والحلق، ليسهل استخدامها، وأوحي إليه وإلى آله أن يعملوا الصالحات تحت علم الله وبصره. فكان عبداً منيباً.

﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاء مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾ وهذا النبيّ سليمان تسخَّر له الرياح لتقلع به وبعرشه الذي

تحمله مسيرة شهرين في اليوم الواحد، شهر في الغداة (من الصبح إلى الظهيرة)، وشهر في الرواح (من الظهر إلى آخر النهار). وأسال الله له عين النحاس، وسخّر الجنّ لتعمل له طائعة، وإلاّ عذّبت بشدّة، فكانت تصنع له ما يريد من أماكن العبادة ومحاريبها والتماثيل المجسّمة وصحاف الطعام (الجفان) كالأحواض (الجواب) والقدور الضخمة الثابتة، وجاء النداء لآل داود أن ينيبوا إليه ويشكروه رغم قلّة الشاكرين.

﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿١٤﴾﴾ كل هذه العظمة الخارقة والهيبة التي يدأب الجنّ في ظلّها على عملهم تبقي الإنسان ضعيفاً، والجميع ذاهلين أمام التدبير الإلهيّ إذ يقف سليمان متّكئاً على عصاه يراقب العمل والعمّال فيوافيه أجل الموت دون أن تدرك الجنّ العاملة ذلك، حتّى تأتي الأرضة فتنخر عصاه (منسأته) فيسقط، وحينئذ تعلم الجنّ أنها لو كانت تعلم الغيب مالبثت في عذاب العمل المهين.

وهكذا يتواضع كل عظيم لعظمته، ويتصاغر كل كبير لكبره، وتضعف كل قوّة أمامه (تعالى)، وكل الكون مسخّر له، وتحت إمرته.

إن تعظيم الله (جلّ وعلا) هو الحقيقة الكبرى التي ينبغي أن يتواضع الكون والإنسان أمامها وحينئذ يتطامن الإنسان ويتواضع عارفاً قدر الله وقدره هو مبتعداً عن غروره وتجبّره عاملاً على طلب رضا الله، شاكراً نعمه وأفضاله محقّقاً بذلك عبوديّته. إنه بذلك يتكامل. وكلما ارتفع شعوره بالعبوديّة ارتفع في تكامله، وقرب من واقعه. ومن هنا كان عرفان الحقيقة هدفاً[١] وكانت العبوديّة هدف الخلقة.

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾﴾ وهذه سبأ وهم قوم سكنوا جنوب اليمن وارتقت بهم سبل التمدّن وأقاموا السدود وانشأوا البساتين عن اليمين والشمال، وغمرهم الرزق الإلهيّ بالنعم التي تستوجب الشكر، وهل أروع من العيش في بلد طيّب في ظل ربّ ودود غفور.

---

١. روى الصدوق عن الامام الحسين قوله: «إن الله ما خلق الخلق الا ليعرفوه...» (علل الشرائع ج ١ ص ٩). واعتبره الرازي في تفسيره (ج ٢٨ ص ٢٣٤) حديثاً قدسياً.

﴿فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَى أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾﴾ ولكنهم أعرضوا عن شكر الله فكان عقابهم أن أُرسل عليهم السيل (العرم) الجارف للصخور الهائلة، ليحطّم السد وتطغى المياه فتغرق تلك المدينة العاتية، فلم يبق لهم إلاّ بعض النباتات البريّةشجر الأراك أو شجر الأشواك والطرفاء والنبق (السدر) القليل.

﴿ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴿١٧﴾﴾ إنّه جزاء كفر النعم وهو أكبر مشكلة اقتصاديّة، نتيجة لما كسبته أيديهم.

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ ﴿١٨﴾﴾ ثمّ إنّ بلادهم وطرقهم كانت ماتزال في نعمة الأمان متّصلة تقريباً بقرى آمنة قدَّر فيها السير بحيث لا يستغرق مسافة تبقي المسافر في الصحراء ليلاً لتقارب المدن والمنازل، ولكنّه الشقاء غلب عليهم فسألوا ربهم أن يباعد بين أسفارهم، فظلموا بذلك أنفسهم فشملهم عذاب الظلم ومزّقتهم الأيام كل ممزّق، وعادوا أحاديث يتحدّث بها القصّاصون ويرويها التاريخ. وفي كل ذلك عبرة وغنىً للصابرين الشاكرين، واليائسين الكافرين أيضاً.

﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾﴾ إنّهم لم يستعملوا عقولهم فوقعوا في الغفلة، وصدق ظنّ الشيطان بهم فاتّبعوه فانهاروا إلاّ القليل منهم.

﴿وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾﴾ ولم يكن الشيطان ليستطيع أن يحقّق مبتغاه بنفسه وسلطانه لو كانوا واعين لظروف الامتحان صابرين شاكرين لنعم الله مؤمنين بالآخرة عاملين للخير شاعرين بإحاطة الله. ومن هنا تعدّ الغفلة من أهم أمراض النفس الإنسانية، كما يعدّ التذكر من أهم الأساليب لعودة الوعي الإنساني والذكر الإلهي سبيلاً جامعاً للعودة الى الحالة الطبيعية، وهو أمر تعمل العبادات على تحقيقه بأروع الأساليب، فالصلاة ذكر الله والصوم والحج موسمان

لذكر الله يقول تعالى: «فإذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشدّ ذكراً»[١].

﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾﴾ أُمر ﷺ بأن يطلب من المشركين أن يدعوا الذين زعموهم شركاء لله أن يحقّقوا لهم شيئاً ليكتشفوا أنّهم لا يملكون مثقال ذرّة في هذا الكون، ولا يدبّرون أيَّ شيء، وليس لله منهم أي نصير أو ظهير فلا قيمة لهم.

﴿وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾ إنّهم عاجزون عن فعل أيّ شيء لتعود هذه الشفاعة بخير على أتباعهم، إلاّ أن يأذن الله بذلك لمن يشاء من عباده فالأمر موقوف على إذنه تعالى، وإذنه بالطبع إنما يشمل من فيه أهليّة خاصّة لذلك، وفي ذلك الموقف الرهيب يسود الفزع الشافعين والمشفوع لهم، وحين ينكشف الخوف ويتساءل الجميع عن القرار الإلهيّ يكون الجواب إنّه القرار الحقّ القائم على المعايير الحقّة، والله هو العليّ على كل شيء، والكبير بكل معاني الكبر، فله الأمر وهو القائم بالحقّ.

﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾﴾ هذه الآية تعبّر عن دعوة القرآن الرائعة لالتزام الموضوعية والإنصاف في الحوار، فبعد أن تتساءل عن الرازق في الكون تجيب بكل وضوح وفطرية إنّه الله تعالى، ثمّ تطلب من الرسول أن يقول للمشركين: إنّ الأمر لايخلو من أن يكون أحد الطرفين على الهدى والآخر على ضلال، وبهذه الروح يمكن أن يثمر الحوار.

﴿قُل لَّا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾ ولكي يصل الحوار إلى نتائجه المرجوّة يجب أن يتجنّب الدخول في مطبّات ونزاعات جانبيّة، فلا ينظر فيه إلى الأعمال السابقة والتي لاترتبط بموضوع الحوار، فكل طرف مسؤول عن أعماله، كما أنّ من شروط الحوار الناجح استخدام الألفاظ المناسبة واحترام الآخر، وهذا ما يبدو من ملاحظة التقابل بين عبارتي (أجرمنا) و (تعملون).

---

١. البقرة: ٢٠٠.

﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾﴾ فيجب أن تكون النوايا جادّة في الوصول إلى الحقيقة خصوصاً وأنّ الجميع سيعودون إلى الحكم الفيصل العليم الذي يجمع الطرفين، ويفتح بينهما بالحقّ. ولعلّ الآية تشير إلى ضرورة وجود الحكم في عملية الحوار.

﴿قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِ شُرَكَاء كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾ وبعد توفّر شروط الحوار يتمّ التساؤل عن هؤلاء الشركاء الملحقين بالله، وما هو أثرهم وما مدى قوّتهم وعزّتهم؟ ليعود القرآن مؤكّداً على العزّة والحكمة الإلهيّة المطلقتين، وهما تنفيان الشريك، فالمطلق لا شريك له.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾ إنّ دعوة الاسلام دعوة للنّاس كافّة، وهي تستهدف التبشير بالسعادة والإنذار بالهلاك عند الانحراف عنها، وهو أمر تجهله الأكثريّة.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ ويستعجل المشركون الوعد والوعيد، وهو بأمر الله وحده، لكنّه محدّد مقرّر لا محيد عنه فلا صدفة ولاتسيّب، بل الحكمة والعدل هما الاساس.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن نُّؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾﴾ ويتجلّى العناد في الإصرار على رفض القرآن والكتب السماويّة السابقة، والالتزام بالكفر والظلم فيهدّدهم القرآن بمشهد القيامة، حيث يقفون بذهول يتلاومون ويتعاتبون ويتبادلون التعنيف والمسؤوليّة، فيتوجّه المستضعفون ليلقوا تبعة الضّلال على المستكبرين.

﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾﴾ ويلقي المستكبرون المسؤوليّة على المستضعفين باعتبارهم اختاروا طريق الإجرام، ولم تنفتح نفوسهم للهدى الذي وصلهم بوضوح.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ

كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾ وهنا يذكّرهم المستضعفون بأساليبهم الخدّاعة الماكرة في إغواء المستضعفين، والتي كانت تستغل كل فرصة للإغواء والإضلال والشرك في ليل أو نهار. وهكذا تعمّ الجميع الندامة والكمد الدفين حين يرون العذاب المهول والأغلال التي توضع في الأعناق المعاندة، وكل ذلك انعكاس لأعمالهم في صورتها الجهنمية.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ هكذا كانت الحقيقة في كل عصر، فما أن يحمل الرسل دعوة الله إلاّ ويجابههم المترفون البطرون بالكفر والتكذيب، وكأنّهم يخافون على مواقعهم من الزوال.

﴿قَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾﴾ متبجّحين بكثرة الأموال والأولاد، وأنّ ذلك يدل على رضا الله عنهم، فلا احتمال للعذاب.

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاء وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾ فيفصل القرآن بين الرضا الإلهيّ القائم على معايير القيم، والالتزام بالأوامر الإلهيّة، وبين موضوع التنعّم بالنعم المادّيّة التي قد تعطى للعصاة استدراجاً لهم، وكشفاً لما في نفوسهم من شرّ.

﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَى إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ لَهُمْ جَزَاء الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ ﴿٣٧﴾﴾ فالنعم المادّيّة لاتكشف عن قرب أصحابها من الله، والمعيار في ذلك إنما هو الإيمان والعمل الصالح الذي يجازى بالأجر المضاعف، والتنعّم بالمقامات العالية بأمن وسلام.

﴿وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُوْلَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ أمّا المعاندون الذين يتصوّرون أنّهم خارجون عن قدرة الله فسوف يحضرون عاجزين إلى العذاب المهين.

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾ تأكيد مجدّد على انفصال مسألة الرزق على العباد في معاييرها وأهدافها عن مسألة الجزاء الإلهيّ الذي يقوم على أساس الإيمان والعمل الصالح، كالإنفاق الذي يخلفه الله ويبدله بالجزاء الأوفى، وهو خير الرازقين.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاء إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾ تبكيت

آخر للمشركين الذين يعبدون الملائكة وماهم إلاّ عباد مخلصون لله، حيث يحشر الجميع يوم الحشر ويسأل المعبودون عن مدى رضاهم بتلك الحالة، ليجيبوا مسبّحين منزّهين معترفين بالولاية لله، مؤكّدين على تَوَهُم العابدين الألوهية في الجن، ويلاحظ أنّ الآية تؤكّد إيمان الأكثرية، أما الأقلية ـ أي الزعماء ـ فربما روَّجوا لذلك رغم عدم إيمانهم لكي يبقوا نفوذهم.

﴿فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾﴾ وبعد عملية براءة المتبوعين من تابعيهم يأتي النداء الإلهيّ الحقّ أن ليس هناك في القيامة أي تبادل للنفع والضرر وإنما هو العذاب الأليم، والنّار التي كانوا بها يكذّبون فيسلكون مسلك الظلم والانحراف.

﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُّفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾﴾ عودة إلى أساليب الكافرين في مواجهة الدعوة الإلهيّة فما أن تتلى على هؤلاء الآيات الإلهيّة البيّنات الواضحات حتّى يواجه الرسول بتهمة التحريض على رفض العادات القديمة، وسنن الآباء، والكذب والافتراء والسحر والتدجيل، في حين أنّهم لو تأمّلوا فيه لرأوه الحقّ بعينه.

﴿وَمَا آتَيْنَاهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾﴾ إن مشركي العرب لم يحصلوا من قبل على ما يؤهّلهم لمثل هذه الادعاءات، فلم تأتهم من قبل كتب يدرسونها فترفع عنهم أمّيّتهم، ولم يأتهم نذير يوضّح لهم الموقف، فهم في جهل مطبق لايتيح لهم الحكم في الموقف.

﴿وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾﴾ ولم يؤتوا عشر ما أوتي الذين سبقوهم من قوّة ومال وعلم وعمران، وقد ابتلوا بالعذاب لما كذّبوا فلتتأمّل قريش هذا النكير المدمر.

﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾﴾ وتشير الآية هنا إلى شرط آخر من شروط الحوار، وهو توفير الجو المنطقيّ الهادىء وعدم الصخب والتهويل، ففي جوّ الاتهامات الجمعيّة الهائجة للرسول بالجنون لامعنى للاستدلال المنطقي فيطلب إلى الرسول

أن يعظهم بأمر واحد، وهو أن يكسروا هذا العقل الجمعي ويتفرقوا اثنين اثنين أو فرادى، ثمّ يتفكروا في الأمر بكل إخلاص وصدق وقيام لله، ويدرسوا حالة صاحبهم الرسول الذي قضى عمره بينهم، فما عرف إلاّ بالأمانة والصدق ورجاحة العقل، وإن ما يدعو إليه من إنذار لهم من الوقوع في العذاب الأليم إنما هو لصالحهم تماماً.

﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾﴾ ثمّ إنَّ الرسول ـ على سنّة من سبقوه من الرسل ـ لايطلب منهم أجراً شخصياً، وكل أجره أن يهتدوا ويتحقّق لهم الصلاح أما أجره فعلى الله الذي هو على كل شيء شهيد.

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾﴾ إنّ رسالة الرسول هي الحقّ الذي يقذفه الله على الباطل، وسوف يقضي عليه بعلم الله وهو علاّم الغيوب.

﴿قُلْ جَاء الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾﴾ نعم جاء الحقّ فليعلنه الرسول، أما الباطل فلامجال له ولابدء ولا معاد.

﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾﴾ وهذه الآية تركّز حقيقة الثنائيّة بين شخصيّة الرسول الذي يهتدي بهداية ربّه، فإذا ضلَّ فإنّه يضلّ على نفسه، والحقيقة الإلهيّة الموحية بالهدى إلى الرسول، وهي سميعة مجيبة تراقب خطاه وتستجيب لدعائه وتضرّعه.

﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾﴾ وتعطى هنا لمحة قرآنيّة عن الآخرة تهزّ المشاعر فينصبّ الفزع على هؤلاء المكذّبين ليفرّوا منه، ولكن لامفرَّ من عذاب الله ولا إفلات، بل يقبض عليهم بكل يسر وقدرة، ومن أقرب الأماكن حيث لا يتوقّعون.

﴿وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِن مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِن قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾﴾ وفي هذه الحالةيعلن هؤلاء الإيمان ولكنّهم بعيدون عن الدنيا، وهي عالم التكليف والإيمان، وقد عاشوا فيها كافرين معاندين يكفرون بالآخرة وهم بعيدون عنها.

﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴿٥٤﴾﴾ وهكذا فقد هؤلاء كل مناهم وآمالهم تماماً، كما فعل مع أتباعهم وأشباههم، كل ذلك نتيجة عنادهم وتشكيكهم وريبهم في الحقّ.

سورة فاطر (٣٥)

آياتها ٤٥

بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تحدّثنا عن البسملة.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاء إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾﴾ لله الحمد كله وهو خالق الكون ومدبّره وفاطره من العدم، وهو خالق الملائكة وهم رسله ووسائط وصول النعمة إلى الخلق باجنحتها الثنائيّة أو الثلاثيّة أو الرباعيّة ـ وهذا التنوّع من أسرار الخلق التي نجهلها ـ وهو تعالى يعلم حكمة الخلق، وله الارادة المطلقة، والقدرة التامة على كل شيء.

﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢﴾﴾ بيده مصادر الرحمة فإذا فتحها فلا رادّ لها، وإذا أغلقها فلا فاتح لها، وله العزّة والحكمة المطلقة.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاء وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾﴾ فيجب أن يرجع النّاس إلى وجدانهم وقناعاتهم الفطرية، ليجدوا أنّه تعالى هو الخالق وهو الرازق دون غيره، فلا يسلِّموا عنانهم للوهَم والإفك، وإنما يلجأون إلى ركن ركين.

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٤﴾﴾ تثبيت للرسول وتقوية لقلبه وتذكيره بأن الأمور كلّها ترجع إلى الله تعالى، وأن تكذيب الرسل هي حالة متكرّرة تزول؛ لأنّ الحقّ ثابت والعاقبة للمتّقين.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴿٥﴾﴾ إنّ كل وعود الله حقّ لامراء فيه؛ لأنّه العليم القويّ القادر الصادق، أما هذه المظاهر الدنيويّة والوعود الشيطانيّة والإغراءات الكاذبة فماهي إلاّ إغراءات زائفة لاثبات لها ولاثبوت.

﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿٦﴾﴾ إنّ الشيطان هو العدوّ الاكبر؛ لأنه يعمل على أن يغترب الإنسان عن ذاته وفطرته، وأن يقع

فريسة الأهواء العمياء، فالحذر الحذر من الاغترار به والغفلة عن أحابيله، وإنّما يجب التنبّه الدائم لهذه العداوة التي تتحيّن الفرص، لتجرّ أتباعها لحالة العصيان التي تقودهم إلى الجحيم.

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾﴾ فيجب التنبّه لخطّ الكافرين الذي يقودهم إلى العذاب الشديد، والاعتصام بخطّ المؤمنين العاملين للصالحات، الذي يؤدّي بهم إلى الغفران الإلهيّ والأجر الكبير.

﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاء وَيَهْدِي مَن يَشَاء فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾﴾ إنّ خطّ الكفر واهم تائه، يتصوّر عمله السيّئ حسناً، في حين يدرك خطّ الإيمان الأمور على واقعها فيرى السيّئ سيئاً، وبالتالي يلاقي كل طرف مصيره ليهتدي المتبصّرون ويضلّ الواهمون، فلاداعي لتألّم الرسول وتحسّره على ضلال الضالين، بعد أن كان الله بصيراً عليماً بما يصنعون.

﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ ﴿٩﴾﴾ هذه آيات الله في الكون واضحة بيّنة، كحركة الرياح القائمة على قوانين كونيّة دقيقة متناهية في العظمة والدقّة، والتي تستتبعها حركة المياه من البحار إلى السحاب إلى المطر إلى الأنهار التي تحيي البلاد الجافّة فإذا بها خضراء يانعة يحيا بها الإنسان والحيوان. إنّ كل ذلك يكشف عن التدبير الحكيم والتخطيط والهدفيّة وإمكانيّة البعث والعودة إلى الحياة بعد الموت.

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُوْلَئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾﴾ ومن التخطيط لدعم الحياة الإنسانيّة إلى الدعوة للاعتزاز النفسيّ والمعنويّ بالله، فهو العزيز المطلق، فإذا استجاب الإنسان لدعوة الفطرة له للاعتزاز والتكامل فإن عليه أن يلجأ إلى العزّة الحقيقيّة المطلقة مبتعدا عن الأوهام متقرّباً إلى الله بالكلام الطيّب يدعمه العمل الصالح، اما الماكرون العاملون للسيئات فأمامهم العذاب والضياع.

﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ

يَسِيرٌ ﴿١١﴾ فليتأمّل الإنسان عمليّة التكامل، إذ يتحوّل التراب الجامد إلى نطفة حيّة إلى موجودات متكاملة متزاوجة عاقلة عالمة؛ مسيّرة يعلمها الله ويرعاها.

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾﴾ واستمراراً في بيان الظواهر الطبيعيّة الممهّدة للحياة الإنسانيّة، تطرح ظاهرة توفّر المياه بطعومها المتفاوتة، فهذا العذب الطيّب، الفرات الذي يروي العطش، السائغ الذي تتلقّاه النفس بلهفة لعذوبته، وذاك المالح المقزز أو المر، ولكل هذه الطعوم خواصّها في إشباع الإنسان وتربية السمك وصنع اللؤلؤ والمرجان، وبهما تصاغ حلية الإنسان، بالاضافة إلى أنّ خواصّ الماء تساهم في حركة السفن التي تشقّ الأمواج لتوصل الإنسان ورزقه وما يحمل، وتحقّق له تجارة نافعة. كل ذلك يستدعي الشكر والتعظيم لا الكفر بأنعم الله.

﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾﴾ وهاتان ظاهرتان كونيّتان أخريان يشهدهما الإنسان ويدرك أثرهما العظيم في حياته، وهما ظاهرة تعاقب الليل والنهار واختلافهما في الطول والقصر، وكذلك ظاهرة حركة الشمس والقمر في مدار دقيق وقوانين لاتتخلّف يتأمّلهما الإنسان، ويدرك أنّهما مسخرتان بأمر العليم الحكيم، الربّ المالك للملك والملكوت، فلايقيس إليه هذه الآلهة الجامدة الموهومة المزعومة التي لاتملك حتّى الشيء القليل (قطمير) من القدرة بازاء قدرة الله المطلقة.

﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾ إنّها أصنام جامدة لاتسمع دعوة ولو سمعت لما أمكنها الاستجابة. وعندما يحشر الجميع في القيامة فإن هذه الآلهة المزعومة سوف تكفر وترفض عملية إشراكها بالله. وتلك حقيقة يكشفها الله وهو الخبير العليم.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾ هذه حقيقة يجب أن تتركّز في خلد البشريّة، فهي الفقر كلها المادّيّ والمعنويّ في البدء وعند الاستمرار، في الحياة البدنيّة والاجتماعيّة والتشريعيّة، إنّها فقيرة محتاجة حتّى في إثارة مكنوناتها الفطريّة وهي كنوز

إلهيّة. نعم هي فقيرة إلى الله والله هو الوجود الواجب والغنيّ المطلق الكامل الحميد.

﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾﴾ له الإرادة المطلقة في إفناء الخلق واستبداله بخلق آخر فذلك عليه سهل يسير.

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَن تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾ إنّ المسؤوليّة شخصية وكلّ يتحمّل تبعة ما كلّف به فيجب أن لايتّكل الأفراد على غيرهم، فمهما ثقلت أوزارهم ودعوا غيرهم إلى حملها فإنّهم لن يلقوا آذاناً صاغية حتّى من الأقارب، ولذا فعليهم محاسبة أنفسهم والاستعداد للآخرة، وتربية أنفسهم لما يؤهّلهم للخشية والخوف من الله، وإقامة الصلاة له، وبالتالي تحقق أهليّة التأثّر بالإنذار النبويّ، والتزكية بمعنى التطهير من جهة والنمو من جهة أخرى، وبها يحقّق الإنسان مسؤوليّته ومصلحته فالله غنيّ عن أعمالنا وإنما هي لصالحنا نحن ـ وذلك يوم يقوم الحساب فيه أمام الله.

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاء وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاء وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ﴿٢٢﴾﴾ إنّهما خطان لكلّ منهما خصائصهماخطّ التزكية وهي طريق الفلاح وخطّ الانحراف وهو طريق الخسران. إنهما لايستويان كما لايستوي العمى والبصر، والظلمات والنور، والظل البارد والحرّ السموم، والحياة والموت. فيجب أن يهيئ الإنسان نفسه للهدى فتشمله دعوة الله، أما الذين أماتوا نفوسهم فهم البعيدون عن استماع دعوة الله.

﴿إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾ أنّهم أُناس معاندون، فلا معنى للأسى عليهم بعد أن أدّى الرسول رسالته وأنذرهم بالعاقبة الوخيمة.

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ فهو ﷺ مرسل بالحقّ مبشراً للخير محذّراً من الشر مثله مثل كل المنذرين الذين أرسلهم الله برحمته ولطفه، إلى كل الأمم ليتمّ عليها الحجّة.

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾﴾ وإذا كان هؤلاء قد اختاروا سبيل التكذيب فإنه سبقتهم أمم سالفة كانت قد

كذّبت رسلها، رغم أنّهم جاؤوها بالآيات المعجزات والصحف المذكّرة بالله، والكتب المتضمّنة للشريعة المثلى.

﴿ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾﴾ وكانت نتيجة التكذيب والعناد أن أخذها وعذّبها العذاب الشديد.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾﴾ واستمراراً للتذكير بنعم الله وتقديره يشير القرآن ـ من جديد ـ إلى نعمة إنزال المطر الذي يسقي الأرض فتنتج الثمار المختلفة في ألوانها مما يشبع حاجة الإنسان وشوقه للتنوع وذوقه للجمال، وهكذا تتمّ الإشارة إلى الجبال الشاهقة التي لها دورها الكبير في التوازن الأرضيّ من جهة وهي تشبع حاجة الإنسان إلى أنماط معدنيّة كثيرة، بالإضافة لجمالها الخلّاب وألوان تربتها البيضاء والحمراء والسوداء وطرقها وسبلها الرائعة.

﴿وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾ وهكذا يشار إلى التنوّع اللّوني في النّاس والدوابّ والأنعام، وهو أيضاً يدخل في دائرة الحاجة الإنسانيّة المادّيّة والمعنويّة، لتتمّ النقلة القرآنيّة إلى حقيقة كبرى وهي أن العلماء بعجائب الطبيعة وانسجامها مع حاجات المسيرة الإنسانيّة يقودهم علمهم إلى الإيمان بالله إيماناً يهزّ مشاعرهم ويزيدها خشية؛ لأنّه العزيز الغفور.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾﴾ ويدعوهم إلى التأمّل في كتاب الله عند تلاوته وإقامة الصلاة والإنفاق مما رزقهم الله في السرّ والعلن، وربط آمالهم بالتجارة معه، وهي التجارة التي لا تخسر، وبهذا ينسجم كل الوجود الإنسانيّ عقيدة وعاطفة وسلوكاً وأملاً فيستحقّ الأجر وزيادة الفضل من الله وهو الغفور الشكور.

﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾﴾ وقد جاء القرآن الكريم لهذه الأمّة نازلاً بالحقّ، ومعلناً منهجها الحقّ، مصدّقاً بالنبوات السابقة منسجماً معها، لأنّها جميعاً جاءت من عند خالق البشريّة الخبير البصير بواقعها وقوانينها ومصالحها.

﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾﴾ ولقد جاءت الكتب الإلهيّة يحملها الأنبياء لترسم للبشريّة منهجها التكامليّ الصاعد. وترك الأنبياء كتبهم للأمم التي اختيرت لحمل الرسالة، وبالنسبة للإسلام حملت الأمّة رسالتها ممثلة بقادتها الهداة الطاهرين الذين تشبّعوا بالكتاب، وعرفوا أبعاد معانيه وتكفّلوا بنشرها، وهم الرسول الكريم ﷺ وأهل البيت عليهم السلام، كما يؤكّده حديث الثقلين[1]، إلاّ أنّ هذه الأمم افترقت على ثلاث طوائف، فهناك من ظلم نفسه وآخر على الخطّ مقتصد سائر، وثالث هو السابق للخيرات الفائز ـ بإذن الله ـ بأعظم الدرجات؛ فالكتاب هو محور الحركة ومعيار القرب والسبق والمجسّد للفضل الإلهيّ الكبير.

﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾ وهل هناك أعظم من تحقيق أعظم آمال الإنسان وهو الخلود في جنان عدن، وثبات تحيطهم كل ما تهفو إليه النفوس من الذهب وألبسة الحرير، وكلها قيم ماديّة تعطى في إطار القيمة الأعظم وهو رضوان الله، كما قال تعالى: ﴿ورضوان من الله أكبر﴾[2].

﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾﴾ وحينئذ يعلو نداء الحمد لله الذي نجّاهم ـ إلى الأبد ـ من كل حزن وأحلّهم دار الثبات المتنعّم من فضله ولطفه، فلا ينالهم تعب ولا مشقّة (لغوب).

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾﴾ أما الكافرون فأمامهم العذاب الرهيب والخلود فيه، فلا هم بميّتين لينهي الموت عذابهم، ولا العذاب مخفّف عنهم، جزاءً على عنادهم وكفرهم. إنّهم يصرخون

---

١. راجع: مسند احمد، ج ٢٢، ص ٢٢٦، السنن الكبرى للنسائي، ج ٥، ص ٥١، ١٣٠. المستدرك على الصحيحين، ج ١٠، ص ٣٧٧و ج ١١، ص ٧٣. سنن الدارمي، ج ١٠، ص ١٩٠ وغيرها.
٢. التوبة:٧٢.

ويستعطفون فلا يؤبه لهم، ويسألون ربّهم أن يمنحهم فرصة من جديد ليعملوا الصالحات، خلافاً لما كانوا يعملونه في الدنيا فيأتيهم الردّ القاطع: إنّ الفرصة الكافية قد منحت لهم بالمقدار الذي يؤهّلهم لتذكر الحقيقة والنذير الواضح أمامهم، فلم يستفيدوا منها وعاشوا ظلماً فلا ناصر اليوم للظالمين. وفي هذا المشهد ما فيه من تحريض على اغتنام الفرصة القائمة.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٣٨﴾﴾ إنّ الله تعالى عليم بالنوايا في إطار علمه بكل الكون، وهو إذ يعاقبهم بهذا العذاب الأليم فإنما ذلك لعنادهم المتأصّل، وإصرارهم على انتهاج منهج الظلم.

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾﴾ وعندما اصطفى الله الأمم بحمل أمانة الكتاب، أكّد عليها أنها مستخلفة على دين الله، تعمر به الأرض وتبني به المجتمع العابد؛ مجتمع المتّقين، دون أن تأبه للكافرين الذي سيهلكهم كفرهم، ويوصلهم إلى الغضب الإلهيّ والخسران الأبديّ، باعتبار أنّ الكفر يعني البعد عن المسار الطبيعيّ والهلاك.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَتٍ مِّنْهُ بَلْ إِن يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾﴾ وهؤلاء الذين تدّعى شراكتهم لله وجودات لا قيمة لها ولا أثر من خلق ولا تأثير لها في حركة السماوات ولا تدبير، وليس لها من توجيه أو كتاب منزل يحمل بيّنات صادقة، كلا فما هنالك إلاّ الوهَم والغرور المتبادل.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾﴾ إنّ قدرة الله المطلقة هي التي تحرّك الكون، بل تمدّه بالوجود آناً فآناً، وهي تعطي قوانين الوجود قوّتها ونفوذها، وبها تقوم السماوات والأرض، ولو انفصلت هذه الحالة عن الإرادة الإلهيّة فذلك يعني العدم لاريب؛ لأنّها وجودات تعلّقية بالوجود الواجب. إنّه تعالى يجلّ عن أن يتوهّم النقص في قدرته أو الشرك في تدبيره، ولكنّه يحلم ويغفر لهؤلاء الذين يتوهّمون ثمّ يعودون إلى رشدهم.

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا

جَاءهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾» ومن جهالات المشركين ادّعاؤهم قبل أن يأتيهم الرسول مقسمين بأقصى الإيمان أنّهم أمّة موضوعيّة ومستعدّة لحمل الهدى والرسالة أكثر من غيرها، فلما جاءهم النذير الإلهيّ بالبينات الواضحة لم يكتفوا بالتكذيب والنكوص عن ادّعائهم السابق، بل ازدادوا في العتو والنفور من الحقّ.

﴿اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾» إنّهم مبتلون بأعظم الادواء وهو الاستكبار، وبه خرج إبليس عن العبوديّة وهو سرّ الظلم كله في التأريخ والدافع لكل مكر سيّئ، وقد بني الكون على الحقّ والعدل، وعدم الانسجام مع الباطل، ولذلك فإن المكر السيّئ لا يصيب إلاّ الماكرين ولو على المدى الطويل، فهي سنّة تاريخيّة إلهيّة ثابتة لا تبديل لها ولا تحويل.

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾» هاهو التاريخ أمامهم فليسيحوا في الأرض وليروا بأنفسهم عاقبة السابقين من الجبابرة والأمم القويّة المكذّبة بأنعم الله كيف طواها النسيان، تحدّت الله فقهرتها قوّته، وهو العالم والقادر المطلق.

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا ﴿٤٥﴾» ولو أن الله جلّت قدرته شاء أن يعذّب كل ظالم على التوّ مؤاخذة دنيويّة نتيجة ما كسبه من ظلم وفساد، فإنّه لن يبقى على وجه الأرض من ديّار يدبّ ويتحرّك ، ولكنه برحمته وحكمته يمهل الظالمين إلى أجل معيّن فإذا حلّ هذا الأجل وفّاهم جزاءهم بمقتضى علمه وهو البصير الخبير بعباده.

وهكذا انتهت السورة بتقرير الحقيقة التي بدأت بهاحقيقة خلق الله الكون بقدرة ورحمة وحكمة وتدبير.

سورة يس (٣٦) آياتها ٨٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ذكرنا معاني البسملة وجزئيّتها للسورة.

﴿يس ① وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ② إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ③ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ④ تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ⑤﴾ قسم بالقرآن، وما أعظم القسم! ووصف القرآن بالحكيم يوضّح أروع صفة فيه وهي الحكمة، وتوضيح حقائق الوجود والأسلوب الأمثل للتعامل معها، والسير المتوازن نحو الكمال ، ويأتي هذا القسم لتأكيد رسالة الرسول الأكرم الذي حمل هذه المعجزة للبشريّة صراطاً مستقيماً لا عوج فيه ولا تمايل، حمله كل المرسلين من قبل وكان ﷺ آخرهم وخاتمهم ليبلّغوا النّاس رسالة ربّهم الذي شاء بعزّته وقدرته، ولطفه ورحمته أن يمنَّ على أفضل المخلوقات بما يوصله إلى كمال خلقته.

﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ⑥ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ⑦﴾ وقد جاءت هذه الرسالة إنذاراً يهزّ الغافلين الذين مرّت عليهم دهور طويلة لم ينذروا فيها فانحطّوا في هوّة الغفلة، وهي أشدما تبتلى به أكثريّة الأمم فتبتعد عن حياة الإيمان.

﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلاَلاً فَهِيَ إِلَى الأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ⑧ وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ ⑨ وَسَوَاء عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ ⑩﴾ وإنّه لعذاب رهيب; أيدٍ مشدودة بالسلاسل إلى الأعناق وقد وضعت تحت الأذقان، ورؤوس مرفوعة إلى السماء فلا يمكنهم أن ينظروا إلى الأمام، وسدود وموانع أوجدوها بأعمالهم تقف أمامهم ومن خلفهم فتغطّيهم عن رؤية ما يحيط بهم. ولعلّ في نوع العذاب رمزيّة لنوع الإعراض والعناد الذي واجهوا به القرآن والرسالة، حتّى عاد الأمر سواء لديهم أيأتيهم الإنذار أم لا، لأنّهم مصرّون على ضلالهم.

﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَن بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ⑪﴾ إنّ الإنذار الإلهيّ كالمطر لا يؤثّر إلاّ في أرض خصبة، فإذا كانت النفس مستعدّة لمعرفة الحقيقة التي يحملها القرآن، خائفة من الرحمن الذي تشير إليه الفطرة، فإنّ مثل هذا الأمر يوفّر جو الاستفادة من الإنذار والبشارة بالمغفرة والأجر الكريم.

﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ ﴿١٢﴾﴾ فالله هو المسيطر على الكون ومحيي الأموات، وكل ما يحدث وكل آثاره بل كل شيء يحصيه علمه ويشتمل عليه اللوح (الإمام) المحفوظ عنده.

﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾﴾ مثل قرآنيّ يضرب تأكيداً لما سبق، وهو يعبّر عن عناية الله الشديدة بقضيّة الهداية، رغم التكذيب والصدود، فهذه قرية (روي أنها انطاكية)[١] يرسل لها رسولان فيتمّ تكذيبهما، فيعزّزهما الله بثالث ليؤكّدوا جميعا على الرسالة.

﴿قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمن مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾﴾ وكان التشكيك بذكر شبهة البشريّة، وكأنّها لا تناسب الرسول، ثمّ إنكار الرسالة التي حملوها من الرحمن، واتّهامهم بالتالي بالكذب.

﴿قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَا إِلاَّ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ ﴿١٧﴾﴾ فأكّد الرسل رسالتهم بأن الله يعلم بذلك، وأنّ ما عليهم هو الإبلاغ الواضح للرسالة، ومن واجب المخاطبين أنفسهم التأمّل في الخطاب.

﴿قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾﴾ وهنا أثار المكذّبون شبهة التشاؤم والتطيّر، وتوقّع الخلاف، وعقّبوا ذلك بالتهديد بالرجم والعذاب الأليم إن لم يتركوا الدعوة.

﴿قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾﴾ وأكّد الرسل أنّ التطيّر سخف ووهم، وأنّ الإنسان يستطيع أن يؤثّر في مستقبله من خلال مايفعله من خير أو شرّ.

فلا ينبغي أن يقابل التذكير بالله والإنذار بمثل هذه الشبه والتهديدات، فما صدر منهم منبعث من إسرافهم وتجاوزهم الحدّ الطبيعيّ، والتصرّف السليم تجاه الأمور.

﴿وَجَاء مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ اتَّبِعُوا مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾﴾ وهنا يشير القرآن إلى رجل أسمي ب (مؤمن آل يس) إذ

---

١. تفسير القمي، ج ٢، ص ٢١٣.

جاء من آخر المدينة ساعياً لتأييد الدعوة وحملتها، مؤكّداً على ضرورة اتّباع الرسل، مستدّلاً على سلامة نواياهم بعدم طلبهم الأجر من جهة وبوضوح الهدى في الدعوة من جهة أخرى.

﴿وَمَا لِي لاَ أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾﴾ ووضّح الرجل معالم الهدى هذه بإشارته إلى كون الإنسان يؤمن بفطرته أن له خالقاً منحه الوجود، وأنَّ حكمة هذا الخالق تؤدّي إلى أنّه سوف يحاسب هذا العالم بعد رجوعه إليه فينبغي أن يعبد الخالق؛ لأنّه خالق، وأن لا يعصى؛ لأنّه سيحاسب العاصين. فالعبادة هي المنهج الطبيعيّ السليم.

﴿أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَن بِضُرٍّ لاَّ تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلاَ يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾﴾ أما المنهج المنحرف فهو منهج من اتّبع غير الله من مخلوقات لا قيمة ولا غنى لشفاعتها ولا تستطيع إنقاذ الإنسان مطلقاً، إنّه منهج الضّلال الواضح والانهيار والضياع.

﴿إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾﴾ وهكذا أعلن هذا الرجل إيمانه بكل وضوح وتحدّ، فليسمع كل أولئك الطغاة المكذّبين.

﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾ ونودي هذا المؤمن أن يدخل الجنّة بعد أن قتل ـ كما يوحي به السياق ـ وكأن كل العذاب مما لا يستحقّ الذكر وإنما المهمّ أن تقال كلمة الحقّ ثمّ يكون العطاء الإلهيّ الكريم، وهنا يتمنّى أن يكون قومه المتكبّرون على علم بهذا اللطف الإلهيّ، حيث الغفران والتكريم فيرجعوا عن غيّهم ويسلكوا سبيله المستقيم.

﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِن بَعْدِهِ مِنْ جُندٍ مِّنَ السَّمَاء وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴿٢٩﴾﴾ أمّا قومه المتجبّرون المعاندون فلم تنزل عليهم ملائكة من السماء لتقاتلهم، بل كفاهم هواناً أن أهلكتهم صيحة واحدة فإذا هم بائدون.

﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُون ﴿٣٠﴾﴾ وهنا يتجلّى اللطف الإلهيّ المعبَّر عنه بالتحسّر على العباد الذين كان من المفروض بهم أن يسلكوا سبيل العبوديّة وهو سبيل تكاملهم، ولكنهم انتهجوا منهج تكذيب الرسل والاستهزاء بهم.

﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنْ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لاَ يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾﴾ إلا يعتبر هؤلاء بفناء العصور السابقة، وفقدانها لكل ما كانت تتفاخر وتتكبّر به.

﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾﴾ وإنّها سترجع جميعاً إلى ربّها فيحاسبها على ما عملته.

﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾﴾ وأمام هؤلاء الآيات الإلهيّة الواضحة، وكلها تتناسب مع حاجة الإنسان ليحيا حياة طيبة; فهذه الأرض خلقت بالشكل المناسب، فلا هي بالرخوة التي لا يستقر عليها شيء، ولا هي بالصُلبة التي لا يخرج منها شيء وإنها هي معدّة لتلقّي المطر فتحيى به، وتخرج نباتاً يتغذى منه الإنسان ويحمل معه حبّاً يديم وجود النبات ويوفّر منبع الغذاء باستمرار.

﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴿٣٤﴾﴾ وهذا التنوّع الرائع في النبات ، وهذه الجنّات من نخيل التمر وأنواع العنب، وهذه العيون الرقراقة المتفجرة بالخير هنا وهناك تنشر الحياة وتوزّع الأرزاق.

﴿لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ كل ذلك الذي ينتج أحيانا بشكل طبيعيّ أو عبر العمل البشريّ إنّما هو لإشباع الحاجة الإنسانيّة للطعام والجمال، ثمّ ليشكروا الله عليه شكراً قوليّاً وعمليّاً.

﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾ إنّ هذه الزوجيّة الحاكمة في حياة الإنسان والنبات، وفي مختلف المجالات التي لا يعلمها الإنسان، تعبّر عن وحدة التخطيط والتدبير واللطف، مما يدع الكون في تسبيح متناغم.

﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾ وهذا التعاقب الجميل بين الليل والنهار لتتحقّق الفوائد المترتّبة عليه، وهذه الشمس بعطائها العظيم وحركتها الهائلة بتقدير من العزيز العليم وهذا القمر بمنازله المتنوّعة وحركته الدقيقة وصورته التي يظهر بها هلالاً يكبر قليلاً فقليلاً ليصبح بدراً، ثمّ يتناقص حتّى يعود كالعذق القديم (هلالاً مقوّساً) وكل يسبّح في فلكه بدقّة متناهية لتسهل أمور الحياة لهذا الإنسان.

﴿وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾﴾ وهذه الفلك الجارية في البحار، المملوءة بالنّاس وأمتعتهم لتحقّق لهم طيّ المسافات البعيدة،

والمستفيدة من القوانين والنواميس الإلهيّة في الكون، وللسفن مثيلاتها التي تحقّق نفس الأغراض.

﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾﴾ ولوشاء الله ما ثبتت هذه المراكب بالعواصف وغيرها، ولغرقت دون أن ينقذها أحد.

﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ ﴿٤٤﴾﴾ نعم، إنّ الرحمة الإلهيّة الشاملة هي التي سهّلت هذه الطبيعة، وسخّرتها لصالح الإنسان إلى مدّة معلومة.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾﴾ أمام كل هذه الآيات يجب أن يقف الفكر متأملاً واعياً وهي مما ينبغي أن يثير في نفوس هؤلاء المشركين الرهبة والخشوع لعظمة الله والخوف نتيجة ما يقومون به من معاص تجري أو جرت بين أيديهم، وما يتوقّعونه من عذاب يواجهونه بعد موتهم، ولكنّهم يبقون في الغيّ سادرين، معرضين عن آيات ربّهم الواضحات.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾﴾ وعندما طلب منهم أن ينفقوا على عباد الله الفقراء من مال الله الذي امتنَّ به عليهم، ورزقهم إيّاه راحوا يستهزئون من ذلك مبرّرين امتناعهم عن إطعامهم، بأنّ الله لو شاء لأطعمهم، ومتّهمين من دعاهم لذلك بالضّلال الواضح، خلطاً منهم بين إرادة الله التكوينيّة فهي لا تتخلَّف، وبين الإرادة التشريعيّة التي تدعو لقيام من لهم المكنة الماليّة بمساعدة الضعفاء وإعطائهم من رزق الله.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾﴾ ويستمرّون في لجاجهم مستعجلين عذاب الله، ولكن هذا العذاب قائم على أساس من الحكمة وله موعده وليس رهيناً بأهوائهم، فاذا حلّ أخذتهم صيحة واحدة تنسفهم وهم مشغولون في جدالهم وصراعهم فلا يستطيعون أن يوصوا بشيء أو يرجعوا إلى أهاليهم وأوطانهم.

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾﴾ فإذا نُفخ في البوق إيذاناً بالبعث تجدهم ينهضون من قبورهم مسارعين إلى الحشر متسائلين عن هذه القدرة التي بعثتهم من جديد، مدركين أنّها قدرة الله وإرادته التي وعد بها الله، وصدق المرسلون بتبليغها.

﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾﴾ صيحة واحدة نقلتهم من عنادهم إلى الفناء ثمّ نقلتهم إلى محضر الله، ليحاسبوا بكل عدالة، ويواجهوا الحقيقة الجهنميّة لأعمالهم دونما ظلم، والظلم لا يعقل في الساحة الإلهيّة.

﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِؤُونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَامٌ قَوْلًا مِن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾﴾ إنّها النّعمة التي ما بعدها نعمةحيث الاشتغال بالنعيم واللذائذ، وحيث الظلال والاتّكاء على الأرائك والمساند مع الأزواج ، وحيث تستطاب الأطعمة والفواكه وكل ما يدّعون وتشتهيه أنفسهم، وحيث الرضا الإلهيّ والأمن والسلام، والتحيّة المهداة من الربّ الرحيم.

﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ أمّا المجرمون المعاندون فهم مأمورون بالانعزال عن المؤمنين والانطواء على العذاب.

﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾﴾ إنّها جرائمهم هم بحقّ أنفسهم، بعد أن تغافلوا عن أمر الله وعهده المبين إليهم أن يبتعدوا عن خطّ الشيطان، إذ كان لهم عدوّاً بيّناً يعمل على إغوائهم وانحرافهم عن خطّ الفطرة وخط التكامل، لتحقيق الهدف الأسمى للخلقة البشريّة وهو الخطّ المستقيم، ولكنّهم لم يأبهوا لذلك ولم يلحظوا المصير البائس للأجيال الكثيرة التي اتّبعته، فقادهم إلى الذل والحضيض، إنّ هذه النتيجة كانت حريّة أن تقودهم ـ لو تعقّلوا ـ إلى الهدى.

﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾﴾ لقد كذّبوا من قبل بالوعيد الإلهيّ وهاهم اليوم يبصرون جهنّم ويصلونها، لقاء كفرهم وتكذيبهم.

﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾﴾ وهاهم في موقف رهيب؛ أفواه مكمّمة لا تملك الصراخ والاحتجاج، وأيدٍ وأرجل تتكلّم وتشهد على أصحابها بالجريمة، فلا مجال للإنكار.

﴿وَلَوْ نَشَاء لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾﴾ وتزداد الرهبة

حين نجدهم عمياناً مطموسين يتزاحمون ويتسابقون لعبور الصراط دونما بصر أو وعي وبكل تخبّط وضياع.

﴿وَلَوْ نَشَاء لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾﴾ ولو شاء الله لشدّهم إلى مواقفهم وجمدّهم فيها، فلا يمكنهم التقدم أو التأخّر، وفي ذلك الغاية من الخزي والذلّ والهوان.

﴿وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾﴾ إنّها العبرة التي يجب أن يعتبر بها المعتبرون، ويستغلّوا كل فرصة للتكامل والسير في طريق تحقيق الأهداف. ذلك أنّ الطاقات الشبابيّة المتفجّرة سوف تفنى بامتداد العمر وستنخفض وتيرة الخلق وينتكس هذا العلم الشامخ ممّا يدفع الإنسان للتعقّل واستثمار الفرص والتفكير بالمصير.

﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾﴾ وتبدأ السورة من هنا بتلخيص النتائج فالقضية الأولى هي أنّ القرآن كتاب الوعي والذكر البيّن الهادي ، وليس كما يزعم المعاندون شعراً وخيالاً فهو مما لا ينبغي للنبيّ.

﴿لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧٠﴾﴾ وهو إنّما يهدي النفوس المستعدّة التي تملك مقوّمات الحياة الحقيقيّة من التعقّل والفكر، والعاطفة المنسجمة والإرادة القويّة الواعية، أمّا المعاندون الكافرون فقد اختاروا لأنفسهم طريق الضلال، ولذا يسجّل عليهم العذاب.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ والقضية الثانية التي أكّدت عليها السورة هي قضيّة التوحيد في الخلق، من خلال استعراض النعم المترابطة والمؤثّرة في استمرار الحياة الإنسانيّة حيث الأنعام التي يسيطر عليها الإنسان ويسخّرها لمصالحه ، فهي مذلّلة يركبها ويأكل من لحومها، وينتفع بها ويشرب ويستسقي. ولو شاء الله لما ذلّت له وهي أقوى منه أحياناً، إنّها ظاهرة ضخمة تستحقّ الشكر لا الكفر.

﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾ وبذلك تتقرّر قضيّة التوحيد في العبادة له تعالى والابتعاد عن الشرك واتّخاذ الآلهة الوهميّة من دون الله، واللجوء اليها طلباً لحمايتها، وهي لا تستطيع أن تحمي نفسها، بل هي ربما اكتسبت قوّتها وهيبتها من الجماهير المحتشدة حولها. وفي هذه المعاني توضيح لحقائق

كبرى، فربما قيّدت الجماهير نفسها بقيود وأصنام وفراعنة لا حقيقة لهم ولا قوّة، وإنما حكموا الجماهير بما اكتسبوه منها.

﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۝٧٦﴾ وهذه قضيّة مترتّبة على ما سبقتها؛ فالنبيّ ومن بعده المؤمنون يجب أن لا تفتّ في عضدهم أقاويل المستهزئين وتهديدات الطغاة، ذلك أنّها جميعاً تحت سمع الله وبصره مهما استخفوا بها أو أعلنوها.

﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ۝٧٧﴾ وهذه قضية أخرى ركّزت عليها السورة وهي مسألة البعث فطرحتها بأسلوب فطريّ واضح لا لبس فيه؛ إذ تبدأ بتذكيره بكونه أوّل الأمر نطفة حقيرة، ولكنّ الله منّ عليها باعظم المنن حتّى عادت إنساناً مكرماً عاقلاً. وبدلاً من أن يشكر الله ويتذكّر هذا الخلق راح ينساه، ويتساءل عن إمكان أن يحيي الله هذه العظام بعد أن يموت الإنسان وتتحوّل إلى وجودات بالية.

﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۝٧٨﴾ هذا هو الجواب القاطع لذلك التساؤل السخيف: إنّ المحيي من جديد هو المنشئ الأوّل المبدئ، وهو العليم القادر على إيجاد كل التحوّلات وبه تتمّ ومنه تستمدّ.

﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ۝٧٩﴾ إنّها القدرة الإلهيّة التي سهّلت للإنسان حياته وأعطته من الشجر الأخضر المليء بالماء طاقة وناراً حارّة سخّرت له ليوقد منها ما يسهّل له أكل طعامه، بل يستعين بها على تسهيل مختلف أموره، فكلّها تتوقف على الطاقة، وهي نِعم لا يمكن إحصاؤها.

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ۝٨٠﴾ وهذا الكون وهذه المجرّات وهذه الأرض بما فيها من عظمة خلقتها يد القدرة الإلهيّة فهل يستكثر منها أن تعيد الرميم إلى حالته الأولى ويبعث الإنسان من جديد. نعم سيتحقّق الأمر بيد الخلّاق العليم.

﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ۝٨١ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ۝٨٢ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٨٣﴾ هذه هي الحقيقة الكبرى فهو تعالى الوجود المطلق والقدرة المطلقة التي لا تحتاج إلى شيء ولا يقف أمامها شيء، فتكفي إرادته لتحقّق الأشياء وتوجد. إنّ الكون كله قائم به تعالى مملوك له منقاد إليه مسبّح منزّه له، وعائد بالتالي إليه.

سورة الصافات (٣٧)

آياتها ١٨٢

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تحدّثنا عن البسملة سابقاً.

﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ۝١ فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ۝٢ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ۝٣﴾ وهذه السورة هي أوّل سورة تبدأ بالقسم، والقسم هنا كما يبدو بالملائكة التي تصطفّ لتنفيذ أمر الله، والتي تزجر العصاة عن أمره، والتي ترتّل أمر الله وتتلو ذكره على الأنبياء.

﴿إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ ۝٤ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ ۝٥﴾ بعد هذا القسم العظيم يأتي التأكيد على الإله الواحد ربّ الكون كله، وكل ظواهره ومنها مشارق الشموس والنجوم، وما أعظم هذه الظواهر.

﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ ۝٦﴾ ولكنها عند الله صغيرة، إنّها تزيّن السماء الدنيا وتساهم في تسهيل حركة الكون وتسخيره. وكل هذا الترابط دليل على الإله الواحد المدبّر.

﴿وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ ۝٧ لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ۝٨ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ۝٩ إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ۝١٠﴾ ومن وظائف الكواكب أنّها تمنع بشهبها النافذة حركة الشياطين الماردة إلى حيث معرفة الأسرار الإلهيّة لدى الملائكة، فتدحرها وتدفعها وتعذّبها عذاباً أليماً إن حاولت أن تنتهز الفرص لتجاوز الحدّ. ولهذه الآيات ظواهر نفهمها، كما لها بواطن تحتاج إلى المزيد من التفكّر والتأمل.

﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ۝١١﴾ إنّها جميعاً مخلوقات الله يدبّر أمرها ويسيطر عليها ولا تقاس إلى عظمتهاخلقة الإنسان من طين لزج مهين، فيجب أن ينسجم الإنسان مع هذا الكون العظيم ويعبد إلهه الواحد العظيم.

﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ۝١٢ وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ ۝١٣ وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ ۝١٤ وَقَالُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝١٥﴾ و إذ يعجب الرسول من سخفهم وعنادهم للآيات الواضحة يستمرّ هؤلاء في استهزائهم بالحقيقة، وغرقهم في الغفلة رغم التذكير، والسخرية من آيات الله البيّنات، واتّهام الرسول بالإتيان بالسحر الواضح ويعنون به القرآن.

﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾﴾ وطرح الشبهات الواهية، وأن البعث بعد الموت، والتحوّل إلى تراب وعظام أمر غير ممكن، وهل يمكن أن يبعث آباؤهم الأولون؟!

﴿قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَاخِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ ليأتيهم الجواب القاطع المستند إلى علم الله وقدرته، أن نعم سيتحقّق البعث رغم أنوفكم لتعودوا أذلاّء خانعين.

﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿٢٠﴾﴾ إنّها زجرة وصيحة واحدة، تكفي لبعثهم وإدخالهم إلى يوم الحشر، لينظروا الحقيقة بأمّ أعينهم، ويعلنوا الويل وخوف العذاب في يوم الحساب.

﴿هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴿٢٤﴾﴾ إنّه يوم الحقيقة الفاصلة الذي كانوا به يكذّبون ، يوم النداء الرهيب بزجّ الكافرين الظالمين المعاندين وقرنائهم وآلهتهم المزعومة المعبودة من دون الله، زجّهم جميعاً إلى النار المتأجّجة، حيث يحاسب الجميع في هذا المسير الرهيب على مدى قيامهم بمسؤوليّاتهم.

﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾﴾ وزيادة في التبكيت يُسألون عن السبب في عدم معونة بعضهم البعض الآخر ليأتي الجواب: إنّ الكل اليوم مستسلم ذليل للعذاب الرهيب.

﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ ﴿٣٢﴾﴾ إنّه حوار العصاة والغواة وتلاومهم، فالعصاة الأتباع يتّهمون الغواة المغررين بهم بأنّهم كانوا يخادعونهم بفتح طرق اليمن الوهميّ واللذّة والسعادة والعزّة الكاذبة أمامهم ، ليجيب الغواة بأنّ العصاة هم أنفسهم لم يكونوا يملكون مقوّمات الإيمان، بل كانوا مؤهّلين للغواية وإلاّ فلم يكن للغاوين على قلوبهم سلطان بل كانوا قد اتّبعوا أهواءهم وطغوا وتجاوزوا حدودهم الإنسانيّة الفطريّة، فمهّدوا لتأثير الغواة عليهم ليستحقّ الجميع عذاب الله، وتسري الغواية إلى هؤلاء الأتباع.

﴿فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾﴾ وهكذا يشترك التابعون والمتبوعون في العذاب؛ لأنّهم ساهموا جميعاً في دعم مسيرة الباطل، وهذا هو قضاء الله في المجرمين المتكبّرين المعاندين.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ لقد تأصّل الاستكبار في نفوسهم، فأنكروا أوضح الحقائق وهو التوحيد.

﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴿٣٦﴾﴾ وتمادوا في العناد والتعصّب قائلين: أنترك آلهتنا ونتّبع شاعراً مجنوناً؟!

﴿بَلْ جَاء بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾﴾ إلاّ أنّ الحقيقة ، وكل الظواهر وملاحظة ماضي الرسول الصادق الأمين، والتأمّل فيما يطرحه من كلام حكيم كل ذلك يؤكّد أنّه جاء بالحقّ وأكمل مسيرة النبوّة الواعية.

﴿إِنَّكُمْ لَذَائِقُو الْعَذَابِ الْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾﴾ إنّهم إذن يستحقّون العذاب الأليم لعنادهم، ولا يجزون إلاّ ما جنته أيديهم.

﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُوْلَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَاكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٤٣﴾﴾ أمّا عباد الله المخلصين فلهم حياة الوعي والإخلاص ولهم الجزاء الأوفى والرزق المعلوم وما يلتذّون به في ظل الإكرام الإلهيّ في جنّات النعيم.

﴿عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَاء لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾﴾ والأسرّة المتقابلة ، والكؤوس الملأى بالشراب الصافي المشبع للّذة الإنسانيّة بعيداً عن مضار الخمر في الدنيا وفسادها وإذهابها للعقل، كل ذلك يضيف لذّة رائعة لصورة النعيم في الجنّة.

﴿وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾﴾ ويضيف وجود الحُور اللواتي تقصر الأنظار عن رؤيتهن، واللّواتي يتمتّعن بالعيون الشديدة السواد والبياض، الرائعة الساحرة الجميلة بهاءً وروعة لهذا المنظر. والآيات إنما تعرض نموذجاً لنعيم الجنّة لبعض المؤمنين، والتي فيها مالا عين رأت ولا إذن سمعت.

﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾﴾ وفي قبال

حوار العصاة يأتي هذا الحوار الواعي ليقول قائل منهم: إنّه كان معه صاحب يشكّكه في الآخرة.

﴿يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾﴾ ويتذكّر كيف كان يعجب منه، وكيف يصدّق مسألة البعث بعد أن تتحوّل الأبدان إلى تراب وعظام نخرة ليعود النّاس ويقوم الحساب.

﴿قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾﴾ وفي التفاتة إلى جهنّم يرى قرينه هذا في وسط الجحيم.

﴿قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾﴾ فيخاطبه بتبكيت إنّه كاد أن يسوقه معه إلى الردى والضياع، وإنَّ الفضل لله تعالى، إذ أنقذه من ذلك الموقف الرهيب.

﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾﴾ ويستمرّ في التبكيت قائلاً: ترى أصحيح ماكان يردّده قرينه بأننا لن نموت إلاّ موتتنا الأولى المعهودة، ولا بعث بعدها ولا عذاب؟

﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلْ الْعَامِلُونَ ﴿٦١﴾﴾ كلا، إنّ الحقيقة التي اتّضحت لتؤكّد خطأ ذلك التشكيك، وصحّة الإيمان بالبعث المنسجم مع الإيمان الفطريّ بعدم العبثيّة في الكون. إنّ الإيمان قاد إلى هذا الفوز العظيم، وهو الخلود في النعيم، الأمر الذي ينبغي أن يعمل لمثله العاملون.

﴿أَذَلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِؤُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٦٦﴾﴾ تأكيد على المقارنة بين منزلة الفريقينالمستكبرين والمخلصينذلك التكريم الذي لا مثيل له، وهذا العذاب المهين للظالمين، حيث يطعمون من شجرة الزقوم التي تنمو في أصل جهنّم، فيفتتن بها الظالمون ويبتلون، نتاجها في أقبح صورة وأكثرها رعباً، ولكن عليهم أن يأكلوا منها ويملأوا بطونهم من ثمرها المرّ الكريه.

﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾﴾ يضاف إلى ذلك الطعام مزيج بالغ الحرارة، واستقرار في النار اللاّهبة.

﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءهُمْ ضَالِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾﴾ إنّه عذاب إهمال العقل والفكر، فهؤلاء رأوا آباءهم على طريقة ضالّة فاتّبعوهم دونما تأمّل، سائرين بسرعة على نفس الطريقة بلا وعي.

﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾﴾ وهكذا سبقتهم من قبل أمم أعماها التقليد عن رؤية ما عرضها عليهم الأنبياء المنذرون فابتلوا بنفس العاقبة، ونجا المخلصون المفكّرون.

﴿وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾﴾ وتضرب قصّة نوح وقومه مثالاً لهذه العاقبةفيتمّ التذكير بنداء هذا النبيّ الذي طلب فيه النصرة على المكذّبين، فاستجاب الله ونجّاه وأهله من البلاء العظيم والطوفان العامّ.

﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمْ الْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿٧٨﴾﴾ وهكذا طهّرت الأرض من المعاندين، ولم يبق إلاّ ذريّة نوح ليحملوا أمانة الخلافة الإلهيّة جيلاً بعد جيل.

﴿سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴿٨٢﴾﴾ إنّه سلام الله وبركاته على البشريّة الخيرة آنذاك، وقائدها نوح الذي اختار طريق الإحسان ، والعبوديّة والإيمان ، وإنّه الدمار والغرق للآخرين.

﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَاء رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾﴾ واستمرّت مسيرة لتوحيد بعد نوح، ليحمل لواءها إبراهيم الذي أسلم وجوده لله.

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ ورفع نداء الحقّ معترضاً على قومه في عبادتهم الآلهة المزوّرة من دون الله. ذلك أن تصوّرهم عن الله سخيف، ولذلك عبدوا غيره وهو الحقيقة والقدرة والوجود المطلق. ولو تصوّروه بشكل صحيح لآمنت به فطرتهم بلاريب.

﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾﴾ وأراد قومه أن يخرجوا في عيد لهم فتخلّف عنهم، بحجّة أنّه سيعتريه مرض، وأنّه اكتشف ذلك من تأمّله في حركة النجوم، فتركوه وأسرعوا إلى فرحهم.

﴿فَرَاغَ إِلَى آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا

بِالْيَمِينِ ﴿٩٣﴾﴾ فاتّجه إلى محلّ الآلهة وأمامها طعام مقدّم لها ليقول لها بتهكّمكُلي من هذا الطعام وطلب منها أن تجيب، وهو يعلم حالها فمال عليها ضرباً بكل قوة.

﴿فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ وحين علم القوم بالأمر اتّجهوا إليه مسرعين ومتسائلين، فواجههم بموقفه ومنطقه المتين، مستنكراً عليهم أن يعبدوا ما يصنعونه بأيديهم، والواقع الفطريّ يؤكّد أنّ الله هو خالق الجميع؛ الصانعين والمصنوعات.

﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾﴾ فصمّموا على بناء محلّ يشعلون فيه النيران ويلقونه فيها عقاباً.

﴿فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾﴾ وهكذا احتالوا للقضاء عليه فأنجاه الله وإرادته هي النافذة.

﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾﴾ وصمّم على الهجرة ليبدأ مرحلة حياتيّة اخرى مؤمناً بهداية الله ورعايته.

﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ ودعا ربّه أن يرزقه ولداً صالحاً فجاءته البشرى بالولد الحليم الصابر الواعي (إسماعيل).

﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ وحين بلغ الولد حدّ السعي والإرادة الحرّة، أخبر الوالد ابنه بأنّه أُمر في المنام (ومنام الأنبياء وأحلامهم حجّة؛ لأنّها صادقة) أن يذبحه فما هو موقفه؟ ليأتي الجواب الرائع الواثق المؤكّد بأنّه يمتثل لما أمر به وأنه سيستجيب لأمر الله مع الإعلان بأنّه إن صبر على هذا الموقف فإن ذلك بإرادة الله ولطفه، وبذلك عبر عن تسليم واع حليم.

﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾﴾ وهكذا تجلّت صورة التسليم الرائعة للأب وابنه معاً، حيث مدّه أرضاً استعداداً للذبح، وهنا نودي إبراهيم أنّه قد استجاب لأمر الله وحقّق ما جاء في الحلم ونجح في الامتحان الصعب، وكان بذلك من المحسنين العاملين المتحمّلين لكل الظروف مهما كانت صعبة، استجابة لأمر الله.

﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ۝١٠٧ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ۝١٠٨﴾ و فدا الله الولد بكبش كبير ليذبحه الأب بدلاً عنه، ليمضي إبراهيم مثلاً حيّاً في تاريخ البشريّة الواعية على التسليم لله الواحد.

﴿سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ ۝١٠٩ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ۝١١٠ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ۝١١١﴾ وها هو سلام الله يتكرّر على إبراهيم وكل المحسنين في الأرض، الذين قاموا بحمل أمانة الإيمان والعبوديّة الحقّة.

﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ۝١١٢ وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ ۝١١٣﴾ وجاءت هذه البشارة الثانية بإسحاق بعد البشارة الأولى بإسماعيل لتعلن أنّ البركة شملت إبراهيم وإسحاق لتحمّل ذريتهما الأمانة الإلهيّة، فمن حملها منهم فهو محسن ومن نكص عنها فهو ظالم، وهكذا كان شأن بني إسرائيل. وفي هذا تلميح إلى بعض أهل مكّة المنتسبين إلى إبراهيم والمنحرفين عن خطّه.

﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ ۝١١٤ وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ۝١١٥ وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ ۝١١٦﴾ وهذا مثال ثالث لموضوع عاقبة المنذرين، إذ تتمّ الإشارة إلى موسى وأخيه هارون، والمنّة عليهما بالنبوّة والنجاة لهما ولقومهما من البلاء العظيم ظلم فرعون وقومه، ونصرهم عليهم.

﴿وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ ۝١١٧ وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝١١٨ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ ۝١١٩﴾ وقد آتاهما الله الكتاب الموضّح للحقائق، ووضّح لهما الصراط الأقوم، ليبقيا أيضاً معالم لائحة في تاريخ الشهادة النبويّة على مسيرة الخلافة.

﴿سَلَامٌ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ ۝١٢٠ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ۝١٢١ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ۝١٢٢﴾ ويأتي السلام عليهما، لأنّهما كانا في مسيرة المحسنين والعباد المؤمنين.

﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝١٢٣ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ ۝١٢٤ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ۝١٢٥ وَاللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ۝١٢٦﴾ ويستمرّ ذكر النبوّة والأنبياء، فيذكر هنا إلياس الذي دعا قومه لتقوى الله واعترض عليهم باتّخاذهم الصنم (بعلاً) وتركهم أحسن الخالقين، والكون بكل جماله وجلاله يشهد له وهو ربّ البشريّة جمعاء.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ۝١٢٧ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ۝١٢٨ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ۝١٢٩﴾

ورغم الوضوح والمنطقيّة في الاستدلال فقد كذّبه قومه، ولكنّهم سيحضرون إلى الحساب ويستثنى منهم العباد المخلصون ، وسيبقى مثلاً حيّاً للآخرين.

﴿سَلَامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾﴾ وهكذا تستمرّ مسيرة الشهادة النبويّة ليبقى إلياس مثلاً تاريخيّاً حيّاً لجزاء الله للمحسنين والعباد المؤمنين.

﴿وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ ﴿١٣٦﴾﴾ ويستمرّ العرض السريع للنماذج الشاهدة ورحمة الله الشاملة لها ولمن تبعها، فهاهو لوط النبيّ ينجّيه الله وأهله إلاّ امرأته العجوز الضّالة التي تتخلّف فتلقى مع الهالكين، فيصيبها الدمار والضياع.

إنّها العبرة التي يجب أن يعتبر بها المكذّبون في عصر البعثة، وهم يمرّون على آثارها صباح مساء دون أن يتأمّلوا أو يفكّروا في مثل هذه العاقبة.

﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنْ الْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾﴾ وهذه لمحة إلى النبيّ يونس الذي كان ينبغي له أن يكون في قمّة المطيعين، فضاق صدره بقومه المكذّبين وتركهم بما لا ينبغي له أن يفعل. فتوجّه هارباً إلى البحر، وحين ركب سفينة ضربتها الأمواج فارتأى الركاب أن السفينة معرّضة للغرق لثقلها، فاقترعوا ورست القرعة عليه فألقوه في البحر، وهنا التقطه الحوت وهو مستحقّ للّوم على إباقه.

﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنْ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ وهنا يعود هذا العبد الصالح الذي فعل ما كان أولى به أن لا يفعله، فلجأ إلى الله مسبّحاً مستغفراً معلناً أنّه كان من الظالمين، ليستجيب الله له دعاءه، ولولا ذلك لبقي سجيناً هناك إلى الأبد.

﴿فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاء وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾﴾ وعندما إذن الله ألقاه البحر إلى اليابسة عارياً سقيماً في العراء، فمنّ الله عليه وأنبت إلى جنبه شجرة القرع بورقها العريض لتظلّه.

﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ ﴿١٤٨﴾﴾ ثمّ أرسله الله

إلى قرية فيها مائة ألف إنسان أو أكثر لينذرهم ويهديهم فآمنوا به وشملتهم الرحمة الإلهيّة، وتمتّعوا بها عباداً صالحين إلى أجل معيّن.

﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ ﴿١٥٠﴾﴾ وانطلاقاً من حقيقة عبوديّة الخلق لله يردّ القرآن على توهّم المشركين من كون الملائكة بنات الله، فيسخر من هذه الدعوى، فهم يحبّون البنين وينسبون لله البنات، وهم يدّعون كون الملائكة إناثاً وكأنّهم شهدوا كيفية خلقهم.

﴿أَلَا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾﴾ إنّ صفة الكذب الإفك والافتراء هي التي تدفعهم لنسبة الولد لله سبحانه وتعالى عن أن يكون له ولد أو يصطفي البنات على البنين، فكل ذلك من توهّمات الشرك وضلالاته.

﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٥٧﴾﴾ توبيخ للمشركين على توهّماتهم وأحكامهم السخيفة، وابتعادهم عن المنطق والوعي السليم، وإطلاقهم المزاعم دونما دليل واضح أو كتاب منزل يستندون إليه.

﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾﴾ ردٌّ على وهم آخر للمشركين إذ جعلوا لله مع الجنّ نسباً وهو سبحانه منزّه عن ذلك، وماهم إلاّ خلق من عباد الله يحضرهم يوم القيامة فيحاسبهم على أعمالهم، ويؤاخذهم بذنوبهم وينجي العباد المخلصين منهم، الذين ينزّهون الله عن هذه الصفات ويعبدونه ولا يشركون به شيئاً.

﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾﴾ بعد أن ردَّ القرآن على موهوماتهم أعلن لهم هنا أنّهم وكل ما يعبدون من أصنام لا يستطيعون أن يفتنوا أو يغروا أحداً باتّباع أضاليلهم إلاّ من كان مؤهّلاً للإغراء وسلوك السبيل المؤدّي للنّار.

﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾﴾ أمّا الملائكة فإنّهم يعلنون عبوديتهم لله، ولكلٍ مقامه المعلوم وواجبه المعيّن يؤدّونه، وإنّهم يقفون صفاً منفّذين ومطيعين لأوامره ومسبّحين منزّهين له.

﴿وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ استمرار في الردِّ على ادعاءات المشركين فقد كانوا يعلنون من قبل أنّهم لو أنزل عليهم كتاب ـ كما أنزل على الآخرين ـ لآمنوا به عابدين مخلصين، وها قد أنزل عليهم هذا الذكر الحكيم، ولكنهم لم يؤمنوا به، وبالتالي سوف يرون عاقبة هذا التكذيب.

﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ نعم إنّها كلمة الله ووعده الصادق لعباده المرسلين أنّ دعوتهم هي المنتصرة؛ لأنّها الحقّ والعدل، وأنّ جند الله هم الغالبون على أعدائهم مهما كانوا من القوّة والجبروت؛ لأنّهم على الباطل.

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾﴾ فليتركهم الرسول على عنادهم حتّى يحين العذاب الذي سيراه الجميع.

﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾﴾ إنّهم يهزأون بالوعيد ويستعجلون العذاب، ولكنّه حين ينزل بهم سيجدون البؤس والشقاء.

﴿وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ تكرار للتهديد بالعذاب الذي سيشهده الجميع.

﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾ ختام يوضّح كل أهداف السورة؛ فالله تعالى هو ربّ العزّة المنزّه عن كل ما يصفون، ومسيرة الأنبياء هي مسيرة السلام والنصر، ويبقى الحمد والشكر والفضل كله لله ربّ العالمين.

سورة ص (٣٨)

آياتها ٨٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ذكرنا معاني البسملة وأنّها جزء السورة.

﴿ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ۝١﴾ تحدّثنا من قبل عن الحروف المقطّعة التي تبدأ بها بعض السور، وتبدأ السورة بالقسم بالقرآن الذي يتركّب من هذه الحروف، ويعجز عن الإتيان بمثله الآخرون، تأكيداً على وظيفة التذكير والهداية للإنسان والإنذار له، فالقرآن فيه الاقتضاء التام للهداية.

﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ۝٢ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوْا وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ۝٣﴾ إلاّ أنّ الكافرين يعرضون عن الذكر والعودة إلى مقتضيات الفطرة من خلال اعتزازهم الأعمى وشقاقهم وعصيانهم، فلا يتأمّلون في عواقب التكذيب التي أصابت من قبلهم، فنادوا بالويل دون أن يكون لهم سبيل للخلاص.

﴿وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ۝٤﴾ لقد دفعهم عنادهم للتعجّب من قضية كون الرسول بشراً مثلهم، واتّهامه بالسحر والكذب، في حين أنّه هو الأمر المنطقيّ؛ لأنّه يجب أن يكون قدوة لهم وقائداً إلى الكمال وهو هدف النبوّة.

﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ۝٥﴾ لقد تأصّل العناد والشرك في نفوسهم فراحوا يتعجّبون من التوحيد، رغم أنّه ما تقتضيه الفطرة والمنطق السليم.

﴿وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ۝٦﴾ وجاء أسلوب التحذير فراح أشراف القوم ينطلقون إلى كل مكان للتحذير من هذه المؤامرة! ويطلبون الوقوف ضدها.

﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ ۝٧﴾ ولكي يؤكّدوا التحذير راحوا يموّهون على النّاس بأنّ أقوال الرسول إنّما هي أقوال مبتدعة لم تقل بها الشعوب المعاصرة، فهي من أساطير الأوّلين.

﴿أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ ۝٨﴾

ولكي ينفذوا إلى نفوس الآخرين من السذّج يتساءلون عما يتميّز به الرسول على غيره، حتّى يخصّه الله بالوحي، والحقيقة هي أنّهم يشكّون في الذكر نفسه، فلينتظروا إذن عذاب الله.

﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ ۝٩﴾ إنَّ الوحي رحمة الله ولطفه ينزله الله على من يستحقّه من النفوس الكاملة، وعنده خزائن الرحمة وهو العزيز القويّ الحكيم الفيّاض، على النفوس المستحقّة.

﴿أَمْ لَهُم مُّلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ ۝١٠﴾ وبتهكّم يطلب القرآن منهم أن يستخدموا ما يملكون من قدرات في السماوات والأرض، ويرتقوا الأسباب، ليمنعوا نزول الوحي على الرسول!!

﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الْأَحْزَابِ ۝١١﴾ كلا، فهم فئة مهزومة، وآراء متفرّقة ومجموعة منبوذة لا قيمة لها رغم ادّعاءاتها.

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ ۝١٢ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ أُولَٰئِكَ الْأَحْزَابُ ۝١٣ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ۝١٤﴾ إنّهم امتداد لأمم مكذّبة أخرى كقوم نوح وعاد وفرعون صاحب الأعمدة والأهرام وثمود وقوم لوط وقوم شعيب (أصحاب الأيكة)، فقد كانوا أحزاباً معاندة كذّبت الرسل فاستحقّت العقاب.

﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ۝١٥﴾ نعم، إنّ هؤلاء المستكبرين مجموعة لا قيمة لها تكفيها صيحة تقضي عليها في مدّة قصيرة.

﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ۝١٦﴾ وهي من عنادها تدعو ربّها أن يعجّل لها نصيبها (قطّنا) من العذاب.

﴿اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ۝١٧﴾ إنّ الصبر هو عدة الأنبياء والدعاة إلى الله، به يستعينون وعلى ربّهم يتوكّلون. وتذكّر حياة الأنبياء يمنح الإنسان دروساً فيه، وهذا درس من حياة داود إنّه يملك قوّة في الملك والعلم والحرب، ولكنه أمام الله توّاب أوّاب ضعيف.

﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ۝١٨﴾ لقد كان مسبّحاً ينزّه ربّه فتسبّح معه الجبال ليلاً ونهاراً، وهذا من أجمل صور الانسجام بين الإنسان والطبيعة وكلاهما مخلوق لله.

﴿وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾﴾ وكانت الطيور تتناغم مع تسابيحه لطفاً من الله به.

﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ ﴿٢٠﴾﴾ وجاءه الدعم الإلهيّ بتقوية ملكه ومنحه الحكمة والمعارف الدقيقة، والقدرة على معرفة الحقائق وبيان الراي النهائيّ القاطع في مختلف المسائل.

﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاء الصِّرَاطِ ﴿٢٢﴾﴾ إنّ داود رغم قوّته ضعيف محتاج لتسديد الله، فها هو يفاجأ بشخصين يتسوّران حائط المحراب الذي كان يتعبّد فيه فيفزع من هذا العمل ليطمئناه بأنهما إنّما جاءا ليقضي بينهما بعد أن تعدّى أحدهما على الآخر، طالبين منه الدقّة والعدالة والحكم بالحقّ.

﴿إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴿٢٣﴾﴾ فهما أخوان أحدهما يملك تسعاً وتسعين نعجة، والآخر يملك نعجة واحدة، وقد طلب مالك النعاج الكثيرة من أخيه نعجته الوحيدة لتكون تحت كفالته وشدّد عليه (عزّه) في الطلب.

﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنْ الْخُلَطَاء لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾﴾ (سجدة مستحبة) واندفع داود يحكم بما ظهر له ـ ودون الاستفسار من الخصم ـ بظلم صاحب النعاج لأخيه وتابع: إنّ الكثير من الشركاء يتعدّى بعضهم على الآخر إلاّ المؤمنين العاملين للصالحات، وهم قلّة عادة، وبسرعة لاحظ داود الموقف الصحيح وعلم بأنّ الأمر كان مجرد امتحان (فتنة)، (وقد روي: أنّ الخصمين كانا ملكين) [١]، فرجع مباشرة إلى ربّه مستغفراً عابداً تائباً طالباً التسديد. وفي الآية تربية على التروّي في إصدار الأحكام وضرورة الاستقصاء ودراسة حيثيّات الموضوع من مختلف جوانبه.

﴿فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٢٥﴾﴾ ويأتي التسديد والغفران والتأكيد على منزلته وحسن عودته.

---

١. عيون أخبار الرضا، ج ١، ص ١٩٤.

﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴿٢٦﴾﴾ ويتوجّه النداء إلى داود بتذكيره بنعمة الخلافة التي أعطيت له، وأنّ عليه أن يتخلّق بأخلاق الله، فيحكم بالعدل، وينبذ الانفعال والهوى الذي يضلّ عن سبيل الله، وواضح أنّ الضالين عنه سيؤول أمرهم إلى العذاب الشديد لنسيانهم يوم الحساب، رغم أن المنطق السليم يؤكّد وقوعه.

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴿٢٧﴾﴾ إنّ الهدفيّة في الخلق عنصر أساسيّ في تصوّر المسلم، وحقيقة يقود إليها العقل المؤمن بالله الحكيم، المتأمّل في عظمة الكون وتوازنه وقيامه على الحقّ، وانسجامه الرائع، وهو ما يعرض عنه الكافرون فيعرّضون أنفسهم للنّار.

﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾ وقيام الأمر في الكون على الحقّ والعدل يقتضي التمييز بين خطّ الإيمان والتقوى والعمل الصالح، وخطّ الفساد والفجور والانحراف، وتتجلّى الهدفيّة في الكون والتمييز بين الخطّين في الحياة الآخرة. وهكذا يعرض القرآن هذا الترابط العقائديّ الرائع.

﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٢٩﴾﴾ إنّ القرآن الكريم كتاب الخير العميم والتعقّل والتدبّر وصياغة السلوك العقلانيّ للفرد والمجتمع، والعودة إلى مقتضيات الفطرة.

﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾﴾ وهنا ينتقل القرآن إلى سليمان ليعطيه أروع صفة، فهو نعم العبد وهو التوّاب.

﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾﴾ وراح سليمان يستعرّض قوّته الجهادية في آخر النهار، متمثّلة في خيله الصافنة التي تقوم على ثلاث قوائم (تعبيراً عن استعدادها) والجيدة الأصيلة ، فشغلته هذه الحالة عن صلاة مستحبّة يعيش فيها مع ذكر ربه حتّى توارت الشمس بالغروب وفات وقت صلاته فتألّم لذلك،

وطلب أن تردَّ الخيل من جديد ليربت على سوقها وأعناقها لتسبيلها في سبيل الله ويعوّض عن ما فاته بالجهاد ويتقرّب إلى ربّه أكثر فأكثر (وهناك آراء أخرى في الآية).

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾﴾ وقد امتحن مرة أخرى إذ ألقي على كرسيّه ـ كما قيل ـ صبيّ له قد فقد الحياة، وقد كان يأمل فيه خيراً فكانت إرادة الله هي الحاكمة[1]. وكان هذا الامتحان تدريباً جديداً على الصبر وإيكال الأمر لله. وهكذا عاد سليمان إلى ربّه تائباً عابداً مستغفراً.

﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاء حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاء وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾﴾ وبعد الخروج من الامتحانات المختلفة، وبعد الإنابة والإخلاص في العبوديّة، طلب من الله ملكاً عظيماً يفوق كل ملك آخر ليسخّره في مسيرته الدعويّة، عالماً أنّ ذلك يسير عند الله الوهّاب، فسخّرت له الريح يوجهها حيث يشاء، فتنشر الرخاء، وسخّرت له الجنّ بنّائين وغوّاصين يصنعون العمران والنماء في حين كان البعض من الجنّ مقرّنين بالأغلال لئلاّ يخرّبوا ذلك أو لأمر آخر.

﴿هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾﴾ إنّه عطاء الله الوفير، وقد ترك له الخيار بالمنح أو المنع عن الآخرين.

﴿وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٤٠﴾﴾ ولما كان نعم العبد فإن له المكانة وحسن المآل عند ربه .

﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾﴾ وفي قبال العبد القويّ يذكر نبيّ آخر هو أيّوب إذ ابتلي بغاية الضعف، نتيجة كيد الشيطان، ولكنه يبقى عبداً أوّاباً يدعو ربّه أن يخلّصه من التعب والعذاب، فيستجيب الله له ويأمره بالتحرّك ـ بعد أن كان قعيداً ـ والاغتسال والشرب من عين ماء فجّرت له ليبرأ بإذن الله.

---

١. الميزان، ج ١٧، ص ٢٠٤.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَى لِأُوْلِي الْأَلْبَابِ ﴿٤٣﴾﴾ وهكذا رحمه الله، فوهب له أهله ومثلهم معهم، فعاد مثلاً و ذكرى لأولي العقول.

﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾﴾ ولما كان قد حلف من قبل أن يجلد امرأته لذنب أتته أو لأنّها تأخّرت عليه في رعايته وهو المريض القعيد، فقد أمره القرآن أن يأخذ مجموعة من العيدان بعدد ما حلف به ويضربها برفق مرة واحدة فينفّذ القسم ولا يتخلّف عنه وبالتالي يصفه القرآن بنفس الصفة السابقة فهو التوّاب الصابر وهو نعم العبد. ولا يختلف الحال أكان في منتهى القوّة أم في غاية الضعف.

﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ﴿٤٥﴾ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾﴾ ويستمرّ القرآن في عملية ربط مسيرته ﷺ بالمسيرة التاريخيّة للأنبياء بتذكيره بعباده إبراهيم وإسحاق ويعقوب الذين سخّروا قدرتهم ووعيهم للرسالة، فمنحهم الله خاصيّة التفاعل الصادق مع ذكر الآخرة، وهو من كمال المعرفة الإنسانيّة، كما جعلهم من الأخيار الذين اصطفاهم لحمل رسالته.

﴿وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنْ الْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾ هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّاتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ الْأَبْوَابُ ﴿٥٠﴾﴾ وهكذا جاء التذكير بإسماعيل واليسع وذي الكفل وهم من الأنبياء ومن أخيار البشريّة وذلك لتحقيق الترابط بين مسيرة الأنبياء ورسالة الرسول ﷺ وتقوية قلبه وتأكيد عبوديّته وصبره مع المتّقين وإيمانه بالعاقبة الحسنة، حيث جنّات الخلد والنعم المتاحة بأبوابها المفتّحة للمتّقين.

﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾﴾ فهم في أتمّ راحة ولذّة واسترخاء، وأمامهم الطيّبات من الفواكه والشراب والحور العين الجميلات الأقران اللّواتي تقصر عن رؤيتهن العيون أو يقصرن عيونهن على أزواجهن.

﴿هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾﴾ إنّه الوعد الصادق ليوم القيامة، حيث العطاء الإلهيّ الذي لا ينتهي ولا ينفد.

﴿هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ ﴿٥٨﴾﴾ أما الظالمون الذين عبدوا مظاهر الطاغوت المختلفة

والمطلقات الوهميّة فلهم شرُّ عاقبة تتمثّل في نار جهنّم يقاسونها، وهي شرُّ مكان، شرابهم فيها سائل ساخن يحرق بطونهم، وقيح نتن مقيّئ، وأزواج أخرى من الأطعمة المشابهة لذلك.

﴿هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ ۝٥٩ قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ ۝٦٠﴾ وهنا يقتحم النار فوج آخر من أهلها كانوا ربما اتّبعوا من سبقهم إليها ليواجههم السابقون بعدم الترحيب بهم والعذاب ينتظرهم، فيردّ عليهم المقتحمون بعدم الترحيب المتقابل، متّهمين إياهم بإغوائهم وإيصالهم إلى هذا المصير.

﴿قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ ۝٦١﴾ ويزداد حنقهم فيدعون الله أن يضاعف العذاب على الغاوين الذين ساقوهم إلى هذا المصير.

﴿وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الْأَشْرَارِ ۝٦٢ أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ ۝٦٣﴾ وراح هؤلاء يتساءلون عن أناس مؤمنين ولكنهم كانوا يعدّونهم من الأشرار ويتردّدون في حالهم بعد أن كانوا يهزأون بهم، ترى هل استصغروا مكانتهم أو أغفلتهم عيونهم أم ماذا؟ غافلين عن أنّ هؤلاء المؤمنين يتنعّمون في الجنّة.

﴿إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ ۝٦٤ قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ۝٦٥ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ۝٦٦﴾ إنّه من لوازم المتخلّفين عن منهج الله المنتهين إلى النار أن يتخاصموا ويتنازعوا. ولن تهدأ نفس الإنسان، ولن تقف عن البحث حتّى تصل إلى الحقيقة الواحدة القاهرة، التي خلقت الكون وأدارته بحكمة وعزّة ورحمة واسعة.

﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ۝٦٧ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ۝٦٨﴾ إنّها الحقيقة العظمى في الكون جاء بها القرآن وفصّلها، ولكن المشركين يعرضون عنها ويتغافلون.

﴿مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ ۝٦٩ إِن يُوحَى إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٧٠﴾ إنّها حقيقة أوحى بها الله لرسوله فهو لا يعدو أن يكون نذيراً موضّحاً للحقّ، وهو لا يبلّغ إلاّ ما أوحي إليه وإلاّ فهو لا يعلم ما يجري في عالم الغيب من حوار.

﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِن طِينٍ ۝٧١ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ۝٧٢﴾ وهنا يعرض القرآن قصّة منطلق المسيرة البشريّة حيث يخبر الله تعالى الملائكة بأنّه سيخلق بشراً من طين فإذا سوّاه الله ونفخ فيه من روحه فعليهم أن

يقعوا له ساجدين. إنّه المخلوق العاقل المريد الحرّ الذي سيحمل الأمانة الإلهيّة، ويبني مجتمع المتّقين العابدين بوعي وإرادة حرّة وقدرة على التكامل.

﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ۝٧٣ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنْ الْكَافِرِينَ ۝٧٤﴾ وبطبيعة الحال سجد الملائكة كلّهم، إلاّ أن إبليس الذي كان بينهم ولم يكن منهم استكبر ولم يطع أمر ربّه وانخرط في سلك الكافرين.

﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ ۝٧٥ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ۝٧٦﴾ ولما سئل عن سبب امتناعه عن تنفيذ أمر ربّه والسجود للإنسان الذي خلقه الله بقدرته أكان ذلك استكباراً أم أنّه رأى أنّ مقامه أسمى من أن يسجد لبشر؟ أجاب بأنّه مخلوق من نار فهو أفضل من الإنسان المخلوق من طين، وهكذا كفر إبليس بتكبّره وغفلته عن الروح التي نفخها الله في الإنسان فجعلته قابلاً للسمو حتّى إلى ما يعلو مقام الملائكة.

﴿قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ۝٧٧ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ۝٧٨﴾ وهنا يطرد إبليس من رحمة الله، وتعلن اللعنة عليه إلى يوم القيامة.

﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝٧٩ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ۝٨٠ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ۝٨١﴾ فيطلب من ربّه أن يبقيه حيّاً إلى ذلك اليوم وهو يوم البعث، فيجيبه الله بإمهاله إلى يوم معيّن لحكمة يعلمها.

﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٨٢ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ۝٨٣﴾ فيعلن مقسماً بالعزّة الإلهيّة أنّه سيعمل على إضلال بني آدم أجمعين إلاّ العباد المخلصين منهم. فلا نجاة من هذه الغواية إلاّ بالالتجاء إلى طريق العبوديّة المخلصة، طريق التكامل الحقيقيّ للإنسان.

﴿قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ ۝٨٤ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٨٥﴾ وهكذا يأتي هذا النداء الإلهيّ الحقّ عبر التاريخ معلناً أنّ جهنّم ستمتلئ من الشيطان وأتباعه أجمعين.

﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ۝٨٦﴾ وهنا يتلخّص هدف السورة، إنّ الرسول قد بلّغ الحقيقة الناصعة دون أن يبتغي أجراً دنيويّاً ودون أن يتكلّف شيئاً من عند نفسه.

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ۝٨٧ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ۝٨٨﴾ وإنّ هذه الرسالة وهذا القرآن ذكر لكل الإنسانيّة، وطريق لخلاصها وعلائها، وهي حقيقة ستتجلّى بكل وضوح في المستقبل.

سورة الزمر (٣٩) آياتها ٧٥

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تحدّثنا عن البسملة.

﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ۝١ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ۝٢﴾ إعلان لحقيقة تؤيّدها كل الظروف، وهي أنّ هذا الكتاب نزل من عند الله ذي العزّة والحكمة، يحمل في طيّاته كل معاني العزّة ومبادئ الحكمة، وتبعاً لهذه الحقيقة فإنّه يجب أن يسلك الرسول طريق العبوديّة والإخلاص والدينونة لله.

﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ۝٣﴾ إنّ التوحيد الخالص يملأ وجود الإنسان، عقله وعواطفه وسلوكه فلا مجال لأيّ شرك، ومن هنا يردّ القرآن على انحراف خطير إذ تصوّر المشركون أنّ هناك أولاداً لله يشاركونه التدبير، وأن الاصنام تمثّل هؤلاء الأولاد المقرّبين، فعبادة الأصنام تعني التقرّب إلى الله، وكل ذلك تخرّص وكذب وانحراف وكفر بالتوحيد الخالص.

﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاء سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ۝٤﴾ إنّ إرادة الله مطلقة، وله أن يصطفي بعض مخلوقاته، ولكن فرض الولد يلازم الشرك بالله في الخلق والتدبير، وهو محال على الواحد الخالق القهار لكل ما سواه، فسبحان الله و تنزّه عن أيّ لوثة شرك.

﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ۝٥﴾ إنّه تعالى خالق الكون ومبدع هذا النظام الرائع في كل جوانبه، والمقيم له بالحقّ، فالهدفيّة سمة هذا الكون الفسيح بعجائبه الآخذة بالألباب، ومنها هذا التتابع العجيب والتداخل بين الليل والنهار بما يلازمه من ملايين القوانين التكوينيّة والظواهر الهائلة، وهذا التسخير الدقيق للشمس والقمر، وكلٌّ يتحرّك في مساره إلى هدف وأجل معيّن يعلمه الله ذو العزّة المطلقة، والغفران المضاعف لعباده المؤمنين.

﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنْ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ۝٦﴾ وهوتعالى خالق الإنسانيّة من نفس واحدة هي نفس آدم، ثمّ خلق منها (من نفس مادّتها وعنصرها) زوجها وهي حواء. وتكفي نظرة واحدة متأمّلة لهذا الانسجام بين تركيبة الرجل والمرأة وتكاملهما الحكيم، وانسجام ذلك مع هدف المسيرة الإنسانيّة ككل، لاكتشاف عظمة الخلق والخالق. وهكذا يتعمّق هذا الأمر بالنظر إلى خلق أزواج الأنعام (ذكرها وانثاها) المسخّرة لصالح الإنسان، وهي الإبل والبقر والضأن والمعز، باعتبارها نماذج متاحة ومعاشة لرفد الحياة الإنسانيّة وتسهيلها، إلى جانب الملايين من الظواهر الأخرى، وهي تتعاون لتحقيق الهدف المذكور، مما يكشف عن دقّة هذا التقدير الإلهيّ الذي يرعى الإنسان ويطوّره في بطن أمّه مرحلة بعد مرحلة في ظلمات ثلاث هي ظلمات البطن والرحم والمشيمة، إنّه إذن الربّ الرحيم القادر المالك الذي يجب أن يعبد لوحده، ولكنّ الشياطين والأهواء تنحرف بالإنسان عن هدفه الأصيل.

﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ۝٧﴾ إنّ التأمّل في وجود الإنسان يوقفه على فقره المطلق، واحتياجه الدائم لله الغنيّ المطلق اللطيف بهذا الإنسان، والعليم بما يحقّق له كماله من قدرات تكوينيّة وهدايات تشريعيّة، فهو يوفّرها له جميعاً ولا يرضى له أن يكفر بالله؛ لأنّه بذلك يهدر كل ذلك، وإنما يرضى عنه إذا سلك مسيرته الطبيعيّة مسيرة الشكر والتكامل، معتمداً على الله، مسؤولاً عن شكر نعمه غير متحمّل لأوزار تقصير الآخرين، سائراً كادحاً إلى ربّه، حيث ينبّؤه ربّه بما عمل في مسيرته، والله عليم بكل خبايا النفس التي خلقها بلطفه وقدرته.

﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ۝٨﴾ ويتابع القرآن مسيرة الإنسان ويبيّن له نقاط ضعفه وقوّته، مسدداً هذه المسيرة، فالإنسان عندما تغلق أمامه أبواب النّجاة يلجأ بفطرته إلى المنقذ الحقيقيّ، فإذا فرّج الله عنه

هذه الحالة وعاد في نعمة منحه الله إياها نسي حالته السابقة وراح يكفر بالله، ويجعل له شركاء ويغري الآخرين بالانحراف، تحقيقاً لمتعه الزائلة، ومثل هذا الفرد الكافر سيقال له: تمتّع قليلاً، ولكن تذكّر العاقبة الرهيبة وهي النّار.

﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٩﴾﴾ وهل يقاس هذا الإنسان الغافل بذلك الإنسان الواعي الذي ملأ الله قلبه إيماناً وخشوعاً، فهو قائم يعبده ويتوسل إليه ويستمدّ منه، خصوصاً في أوقات الليل حيث الصفاء والسجود والقيام وانفتاح النفس على الكون والهدفيّة إلى العلى، نعم هل يقاس هؤلاء العالمون إلى أولئك الجاهلين؟ إنّه سؤال يطرح نفسه بقوّة أمام ذوي العقول النيّرة فيتذكّرون ويعتبرون.

﴿قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾ بعد هذا الشدّ التوحيدي بالله يأتي هذا الخطاب الرحيم الموجّه لعباده، داعياً إيّاهم إلى التقوى وشدِّ الوجود بكل إحساساته وسلوكه بالله، مطمئنّين بأن الإحسان سيترك أثره الحسن في الدنيا قبل الآخرة، مؤكّدين على النظرة الواسعة والاستعداد للتضحية والانطلاق في أرض الله الواسعة، متحمّلين مصاعب الهجرة صابرين على كل المشاق، مشتاقين للأجر الإلهيّ العظيم الذي لا حدّ له.

﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾﴾ أمر من جديد بإعلان التوحيد الخالص والعبادة المخلصة والتسليم المطلق لله، وكون الرسول في طليعة الموحّدين المطيعين المسلمين، باعتباره قائداً وقدوة للآخرين.

﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِي ﴿١٤﴾﴾ وإنّه يخاف ربّه ويخشى العذاب في القيامة إن هو عصى الله وخالف أوامره، وإنّه من جديد يؤكّد طاعته وعبادته لله مخلصاً له دينه متّبعاً أوامره مسلّماً له في كل شيء.

﴿فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١٥﴾﴾ أمّا المشركون فلهم أن يعبدوا ما شاؤوا، ولكن يجب أن يتذكّروا أنّهم يتجنّبون طريق الفلاح ويرتكسون في الخسران المبين، إذ سيخسرون

ذواتهم الإنسانيّة وأهليهم الذين يجرّونهم معهم إلى الشرك فيبتلون بالعذاب يوم القيامة.

﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ ﴿١٦﴾﴾ حيث تغطّيهم ظلل من اللهيب، كما تلفحهم من تحتهم ظلل في مشهد رهيب ترجف له قلوب الواعين العابدين فتعتصم منه بتقوى الله.

﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾﴾ إنّ كل المصائب الإنسانيّة ترتبط بالمظاهر الطاغوتيّة المستكبرة والمتمرّدة على الله، فاجتناب الطاغوت هو سبيل الخلاص، والإنابة إلى الله سبيل الكمال، المبشّر بتحقّق هدف الخلقة ونيل السعادة.

﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُوْلَئِكَ هُمْ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ ﴿١٨﴾﴾ إنّ عباد الله المستحقّين للبشرى هم الواعون، الحكماء الذين يستمعون لما يقال ويختارون الأحسن فيتّبعونه، مستحقّين بذلك شمول الهداية الإلهيّة، ومستفيدين من نعمة العقل الكبرى. وفي الآية تربية على الإحاطة بما يقال ويعرض من الآراء، ومن ثمّ تمحيصها للوصول إلى الأحسن والأفضل، فلا جمود ولا تعصب وإنما هو تتبّع واجتهاد.

﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي النَّارِ ﴿١٩﴾﴾ أمّا المعاندون الأشقياء فقد أهّلوا أنفسهم للعذاب وارتكسوا في النار، ولا سبيل لانقاذهم منها.

﴿لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾﴾ في حين فاز الذين اتّقوا ربّهم بالجنّة والغرف المتعالية والأنهار الجارية من تحتها (في قبال ظلل النار المحيطة بالكافرين)، وذلك تحقيقاً للوعد الإلهيّ الذي لا يتخلّف.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُوْلِي الْأَلْبَابِ ﴿٢١﴾﴾ يعود القرآن بين الحين والحين للتذكير بالظواهر القائمة أمام الإنسان، ليحرّك فيه التأمّل والتدبّر، وهاهو يذكّره بظاهرة دورة المياه في الطبيعة ونزولها من السماء ومرورها بدهاليز الأرض لتخرج ينابيع غنيّة بالماء العذب الذي يغذّي الزرع، لتبدأ دورة الطعام الإنسانيّ النباتيّة، حيث ينمو ويكبر ويفرع ويثمر ويهيج بألوانه الزاهية فيشبع الإنسان ويؤمّن له

حاجاته المادّيّة والفنيّة، ليعود مصفرّاً ثمّ حطاماً هشيماً بعد أن ساهم في تيسير الحياة الإنسانيّة إنّها ظواهر عظمى لو تأمّلها الإنسان بلبّه الواعي لوصل إلى عظمة الله ولطفه وتدبيره.

﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٢٢﴾﴾ إنّ الإيمان بالإسلام هو بنفسه لطف إلهيّ يشرح الصدور لتلقّيه، والاستنارة بهديه، حيث تلين القلوب وتمرع الأحساسيس وتنتعش المشاعر، أما البعيدون عن ذكر الله فهم القاسية قلوبهم، فلهم الويل والعذاب وهم الغارقون في الضّلال المبين.

﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاء وَمَن يُضْلِلْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾ وهذا الكتاب الكريم المنزل من الله هدى ونوراً يمثّل أحسن حديث يستمع له ذوو الألباب وأروع عرض لآيات الهداية المتناسقة المتجانسة التي يثني بعضها على بعض ويفسّر بعضها البعض الآخر في تركيبة رائعة المعنى والعرض معاً لتهز معها النفوس وترتجف منها جلود الخاشعين الخائفين، لتعود ليّنة آمنة مطمئنّة القلوب، ناعمة بذكر الله وهدايته التي تفيض من عطائها على القلوب المستعدّة، في حين لا تجد القلوب الشاردة عن الله لدى سواه أيّة بارقة من نور.

﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾﴾ إنّ هؤلاء سيواجهون يوم القيامة سوء العذاب، ويزيدهم التبكيت الإلهيّ عذاباً، إذ يقال لهم ذوقوا اليوم ما كنتم تكسبونه في دنياكم.

﴿كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾ إنّهم لم يعتبروا بالذين كذّبوا من قبلهم فلاقوا العذاب من حيث لم يحتسبوا وارتكسوا في العار الدنيويّ، في حين ينتظرهم عذاب أكبر في الآخره لو كانوا يعلمون.

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ إنّ القرآن كتاب الهداية وهو يتّبع الأساليب المتنوعة لتحقيقها ومنها ضربه للأمثال التي تقرّب الأمور المعنويّة إلى الذهن، وتثير لديه عنصر التذكّر والوعي.

﴿قُرآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾﴾ إنّه القرآن العربيّ الواضح المبين بلالفّ أو دوران، إنّه يفتح الطريق الرحب المؤدّي للتقوى والكمال.

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاء مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾﴾ وهذا مثل قرآنيّ رائعفهل ترى يقاس سلوك إنسان عبد مملوك لأسياد متنازعين كلٌ يأمره بالسير إلى جهة فهو حائر قلق، إلى سلوك رجل أسلم قياده لرجل حكيم؟ وهكذا هو حال المشرك التائه في متطلّبات الأهواء والآلهة الوهميّة المتعدّدة الحائر في عملية إرضائها وهي عمياء متعارضة فهل يقاس إلى رجل مؤمن بالله الحكيم القادر اللطيف الخبير، فلله الحمد المطلق وان كان اكثرهم غارقين في جهلهم.

﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾﴾ إنَّ الرسول واحد من النّاس يموت كما يموتون فلا بقاء إلاّ لله، ولكنَّ المهمّ أن يشعر الجميع بالهدف من هذا الكون، وبالحياة الآخرة حيث الحساب الإلهيّ والقضاء الذي يعيّن الحقّ ويفصل بين الخصوم.

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَالَّذِي جَاء بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَاءونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاء الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾ حيث يقف الظالمون في صف والمتّقون في آخر، أما الظالمون الكاذبون على الله المكذّبون بالحقيقة التي هي الصدق بعينه فتنتظرهم جهنّم مثوى ومأوى لهم، في حين يحقّق المتّقون سواء الذين بلّغوا الصدق أو الذين آمنوا به وصدّقوه يحقّقون رغباتهم في ظل الرضا الإلهيّ، نتيجة إحسانهم بعد أن يكفّر الله الأسوأ من سيئاتهم ويجزيهم الثواب الأفضل عن حسناتهم، وما أروع هذه العاقبة التي تبعث الأمل في القلوب. ولا يقاس الأمل الذي يوجده الدين بغيره إنه أمل يبعثه الإيمان بالله القادر الصادق اللطيف، والإيمان بامتداد الحياة إلى مستوى الخلود في النعيم، وفي ظلّ الرضوان الإلهيّ العميم. في حين لا يتجاوز الأمل المادّيّ الحدود المادّيّة وفي هذه الحياة الدنيا الملأى بالغصص والعذاب.

﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾

وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انتِقَامٍ ﴿٣٧﴾ إنّ الله تعالى هو القادر على دعم عبده وإمداده بما فيه الكفاية، أمّا الذين يعبدون من هم دونه فلا قيمة لهم ولا خوف منهم ولا يؤبه لهم إنّما الخوف الحقيقيّ أن يأتي الإنسان بعمل يؤهّله للغضب الإلهيّ والضّلال، وحينئذ لا أمل في الهداية؛ لأنَّ الهدى الحقيقيّ إنمّا هو من عند الله فحسب، فإذا هدى الله أحداً فقد نجا ولا تأثير لأي شيء عليه؛ لأنّ العزّة كلها لله وحده ولن ينجو المعاندون من نقمته.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾﴾ وإذا سئل المشركون آنذاك عن خالق السماوات والأرض فإنّهم يجيبون دون تردّد: إنّه الله وإن كانوا يشركون من دونه في تدبير الأمور. لذلك يأتي هذا السؤال الاستنكاريّ: إذا أراد الله بعبد ضرراً فهل يستطيع من دونه أن يدفع هذا الضرر؟ وإن شاء أن يصيب احداً برحمة فهل يستطيع أحد أن يمنعها؟ ولذا فإن الله كاف عبده وعليه يتوكّل المتوكّلون. أما الشرك فهو كما أكدنا مراراً عمليّة تصعيد ذهنيّ سخيف لموجودات نسبيّة ناقصة محتاجة إلى مستويات الإطلاق، ولكن هذه العملية سينكشف زيفها بمجرد انطراح بعض الأسئلة ووعي العقول لحقيقة أجوبتها.

﴿قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾ ﴿مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ هذا هو موقف الرسول القاطع، فليعمل الآخرون على السير في منهجهم، ولا تلاقي بين المنهجين، وسيكشف المستقبل الموقف الحقّ من الموقف الباطل موقف الخزي والعذاب المقيم.

﴿إِنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾﴾ إنَّ هذا الكتاب أنزل على الرسول لهداية البشريّة بالحقّ، والصراط الضامن لتكاملها وعلائها وليس الرسول موكّلاً على الناس، فإذا اهتدوا به فقد نفعوا أنفسهم وإن انحرفوا وضلّوا فقد أضرّوها.

﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾ والنّاس

جميعاً في قبضة الله فهو الذي يتوفّى ويقبض الأرواح التي حان أجلها فتموت، والنوم حالة تقبض فيها الأرواح أيضاً، ولكن إلى حين فإذا كان قد حان أجلها فإنّه يمسكها فلا يقظة ـ إذن ـ وإلاّ فإن النفس تعاد إلى البدن. إنّها حالة إنسانيّة قابلة للتأمّل من كل حيث ليصل الإنسان إلى حقيقة النعم الإلهيّة، وأنّه ومصيره بيد الله دائماً. فيجب ان يراقب الله في كل آن، وأن يبتعد عن الغرور والغفلة والنسيان، ويتّجه إلى العبادة وطاعة الله والتفكر في آياته.

﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاء قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾﴾ إنَّ التأثير المطلق لله وله أن يتّخذ شفعاء، وأن يقبل شفاعتهم وليس لما سواه ذلك، ولكن المشركين توهَّموا واخترعوا له شفعاء راحوا يعبدونهم، في حين أنَّ هؤلاء الشفعاء المزعومين لا يملكون شيئاً ولا يعقلون، ولا قيمة لشفاعتهم ولا تأثير، والله ـ جلَّ وعلا ـ مالك الكون ومنه المبدأ وإليه المصير، فبيده الشفاعة وله القبول.

﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾ إنَّ هذه القلوب المشركة الكافرة بالآخرة لُوّثت بحبّ الطاغوت، فإذا ذُكر الله وحده اشمأزّت ونفرت ، وإذا ذكرت الآلهة الوهميّة استبشرت، فهي قلوب ممسوخة الطباع. إن الإيمان بالمعاد له أثره العظيم في صقل القلوب وصفائها ووعيها وإشراق نور الله فيها وإبعاد شبح الطاغوت عنها.

﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾﴾ وفي قبال هذا المسخ يطلب إلى الرسول أن يعلن أنّ الله هو مبدع الكون بكل مافيه، وعالم الغيب والشهادة والحكم الفصل بين العباد، ولذلك إليه تهوى القلوب النقيّة وبه تحيا.

﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾﴾ إنَّ هؤلاء المشركين سيلقون جزاءهم الرهيب يوم القيامة ولا مفرَّ لهم منه ولا فداء، إنّهم آنذاك لو كانوا يمتلكون ضِعف ما في الأرض من كنوز، لقدّموه فداءً لأنفسهم، وخلاصاً من العذاب الذي لم يكونوا

يتصوّرون فداحته وشدّته. وهذا ما سيدفعهم لاغتنام هذه الفرصة الحياتيّة للعودة الى الله، وتطهير النفوس من العادات والبدع، والقلوب من الطباع اللاإنسانيّة.

﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون ﴿٤٨﴾﴾ لقد وضح لهؤلاء ما اقترفوه من سيئات، وأحاطت (حاق) بهم ألسنة العذاب التي كانوا يسخرون ويستهزئون بها.

﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾﴾ هذا هو الإنسان إلاّ من عصم الله، إنّه حين يحيط به الهول والخطر تنتبه فطرته إلى الخالق العظيم القادر على نجاته، فيبدأ بالدعاء، وعندما يمنّ الله عليه بنعمة الأمان يبدأ بالغرور، فينسب الأمر إلى جهده وعمله. والحقيقة أنّ النعمة امتحان، وإن كان أكثر النّاس جاهلين بذلك.

﴿قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاء سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾﴾ إنّها ظاهرة متكرّرة في حياة الإنسان وفي التاريخ، مرَّ بها الإنسان وأصابه الطغيان وابتلي بالضياع والهلاك، ولم يمنعه من ذلك حول ولا قوّة. وهي عبرة يجب أن يعتبر بها هؤلاء المشركون في عصر الرسول الذي غرّتهم قوّتهم، ولكنّهم لا يُعجزون الله بل سيبتلون بنفس المصير.

﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاء وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾ إنّ أمر الرزق بيد الله القادر المطلق، يمسكه ويرسله، ولا يستطيع أحد غيره أن ينسبه إلى علمه وقدرته، وهذه هي إحدى حقائق التوحيد.

﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ باب عظيم من الأمل يفتحه الله لعباده، وهو التوبة والعودة إلى الله، والتنعّم برحمته الواسعة التي لا حدود لها، فهو يغفر الذنوب جميعاً لرحمته بعباده ومحبّته لهم، والتي تشمل حتّى الذين أسرفوا على أنفسهم، فلا يأس ولا قنوط في نفس المؤمن بالله. وفي الآية أكثر من إشارة رحمانيّة.

﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾﴾ فليستغلّ المذنبون هذه الفرصة السانحة، ويعودوا إلى الله، ويسلّموا له قبل أن يحيط بهم العذاب فلا ينصرهم أحد.

﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾﴾ وليتّبعوا الأفضل والأحسن من السبل المتاحة للنجاة والخلاص قبل أن يفاجأوا بالعذاب دون أن يشعروا به.

﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَى عَلَى مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾ إنّه إنذار وتنبيه للعقول والقلوب كي تسارع للتوبة، فتتخلّص من حالة الحسرة والندم على ما فرّطت به تجاه ربّها فكانت تسخر من الوعيد.

﴿أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾﴾

وربّما تصوّر البعض أنّ الهداية الإلهيّة تأتي اعتباطاً فتصوّر أنّها لو كانت شملته لكان من المتّقين الذين يشهدهم سائرين بكل عزّ إلى الجنّة آنذاك، ولكن لا مجال لهذا التصوّر فيجب أن يستفيد من هذه الفرصة ويهيّئ نفسه للهدى في هذه الحياة، ويعطيها الاستعداد لتلقّي الفيض الإلهيّ والهداية، فإن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم.

﴿أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَى قَدْ جَاءتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٥٩﴾﴾ كما لا مجال هناك لتمنّي فرصة جديدة يعمل فيها بإحسان فلات حين مناص إذ يقال له إنّ الآيات الواضحات جاءتك من قبل فقابلتها بالتكذيب والاستكبار والكفر.

﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾﴾ وهكذا تتمايز الصفوف فهذا صفّ المكذّبين على الله بوجوههم المسودّة ينتظر مثواه وملجأه الاخير في النّار مع المستكبرين في التأريخ، وهذا صفّ المتّقين وقد نالوا الفوز العظيم فلا يمسّهم سوء ولا حزن.

﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٦٣﴾﴾ إنّها أكبر حقيقة في الوجود فكل شيء مخلوق لله وهو مستمدّ بقاءه باستمرار من فيض الله العميم، ومفاتيح الأمور وكل العلاقات الكونيّة بيد الله العظيم، ولا ينكر هذه الحقيقة إلاّ من انفصل عن الواقع وجحد بآيات الله ومآله إلى الخسران المبين.

﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ﴿٦٤﴾﴾ إنّه الجهل المطبق أن يعبد الإنسان غير الله، فضلاً عن أن يطلب من الرسول أن يفعل ذلك.

﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾ وقد أعلن الوحي للرسول وكل الأنبياء من قبل أنّ الشرك بالله والإيمان بالآلهة المصطنعة مضيعة للإنسان ومفسدة لكل الأعمال، حيث يكون مصيره إلى الضياع الحضاريّ المدمّر والخسران.

﴿بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ وإنَّ العبادة والعمل بمقتضيات العبوديّة لله وشكر نعمه هي لوحدها سبيل التكامل.

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾ إنَّ العظمة وباقي الصفات الجلاليّة والجمالية لله، الأمر الذي لم يدركه هؤلاء ولم يقدّروه حقّ قدره، فله القدرة المطلقة الهائلة بحيث تعود الأرض كلها في قبضته وتحت سيطرته، والسماوات ورقة مطويّة بيد قدرته يوم القيامة، إنّه أمر عظيم لو أدركه الإنسان لفنى في حبّ الله وسخّر نفسه لطاعته وزوى نفسه عن ما سواه، فسبحان الله وتنزّه عمّا يصفه المشركون.

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُم قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾ وهنا يتحدّث القرآن عن مراحل بدء يوم القيامة، فيذكر النفخة الأولى في البوق العظيم (الصور) ليموت بها كل حيّ آنذاك، إلاّ من شاء الله من النّاس أو الملائكة، ويذكر النفخة الثانية ليقوم الجميع للحشر.

﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾﴾ وحينئذ تكون الحقيقة قد أشرقت بنور الله، وظهرت بواطن الأمور وتجلّت قدرة الله فتظهر الخافيات وتطرح صحائف الأعمال، ويؤتى بالنبيّين وكل الشهداء أي النماذج السامية التي تقاس إليها الأعمال والتي شكّلت خطّ الشهادة على عمليّة قيام البشريّة بمقتضيات الخلافة الإلهيّة في الأرض، ثمّ يأتي القضاء الإلهيّ بالحقّ فلا ظلم ولا إجحاف، وتوفّى كل نفس حقيقة أعمالها على أساس من العلم الإلهيّ المطلق بكل الأفعال.

﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاؤُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاء يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾﴾ ويبدو هنا تمايز الخطّين في منظر هائل، فهاهنا فرق وزمر من الكافرين تساق إلى جهنّم، حتّى إذا كانوا على أبوابها فتحت، وسألهم خزنتها تبكيتاً ألم تأتهم رسل منهم لتتلو عليهم آيات الله، وتنذرهم من هذا اليوم؟ فلم يكن بدّ من الاعتراف بالتقصير والعناد والكفر، وبالتالي استحقاق هذه العاقبة فيردّ الخزنة: ادخلوا أبواب جهنّم لتذوقوا عذاب الخلد نتيجة تكبّركم. وما أشدّه من تبكيت، وما أعظم وقعه عليهم في هذا الموقف الرهيب.

﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاؤُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾ وهنا صف المتّقين يساق فرقاً وزمراً إلى الجنّة حتّى إذا وصلوها وفتحت أبوابها واجههم خزنتها بالسلام، معلنين أنّهم اختاروا سبيل الطيب والطهارة في الدنيا فلينعموا بأقصى ما يتمنّاه الإنسان وهو الخلودفي النعيم.

﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاء فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿٧٤﴾﴾ وهنا يعلو نشيد المؤمنين بالحمد لله الذي وعد فصدق فأورثنا الأرض في الدنيا، نقيم فيها شرعه وحكمه والجنّة في الآخرة ـ أو أورثنا أرض الجنّة ـ لننال فيها كل ما نشاء وهو أروع أجر للعاملين. وهل يمكننا أن نتصوّر أعظم من هذا الأجر؟!

إن المبادئ المادّيّة الكافرة قد تقدّم بعض الآمال لأتباعها ولكنها آمال وضيعة مادّيّة محدودة سرعان ما ينكشف زيفها وتفقد مفعولها، وهكذا لا يتوقع أن ينشد المغرورون بها نشيد النصر أو الشكر، في حين يملأ الكون نشيد المؤمنين بتقديم الحمد لله وهو أهل الحمد لأنه القادر الصادق الرحيم.

﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ ويتلو عرض المشهد السابق مشهد عظيم حيث يبدو العرش، وهو النقطة التي يدار منها الكون، وحوله الملائكة التي تدبّر أمر الكون بإذن ربها، والكل في تسبيح، في حين يجري القضاء بالحقّ، ويصدح النشيد الخالد (الحمد لله ربّ العالمين). مؤذناً بنهاية دورة بشرية بكل ما فيها من سعادة وشقاء.

سورة غافر (٤٠)

آياتها ٨٥

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تحدثنا عن البسملة.

﴿حم ①﴾ من الحروف المقطَّعة التي يتألف منها هذا الكتاب المعجز.

﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ② غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ ③﴾ عرض للصفات الإلهيّة التي جاء على أساسها تنزيل الكتاب العزيز وهيالعزة، والعلم، وغفران الذنب، وقبول التوبة، وشدة العقاب، والإنعام المتواصل، والتوحّد في الذات والصفات والأفعال، وامتلاك مصير الكائنات. إن هذا الكتاب جاء ليؤكّد هذه الصفات، ولتسير البشريّة إلى كمالها وفق منهجه، وتكدح إلى ربّها فتلاقيه في يوم الحساب.

﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ ④﴾ إنَّ آيات الله واضحات بيّنات لا يشكّك فيها إلاّ الكافرون المعاندون المترفون، ولكن هذا الترف زائل باطل ينبغي أن لا يغرَّ أحداً.

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِن بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ⑤ وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ⑥﴾ وقد سبقهم بالتكذيب قوم نوح والأحزاب من بعدهم كعاد و ثمود وغيرهم وراحوا يحاولون البطش بالرسل، ويجادلون بالباطل ليردّوا على الحقّ فاستحقوا الأخذ الإلهيّ والعقاب المدمِّر، وحقّ عليهم قضاء الله بأنهّم سينتهون إلى النار.

﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ⑦﴾ وفي الجانب الأعظم من هذه المسيرة يسير الذين آمنوا تجللهم دعوات الملائكة الذين ينفّذون أوامر الله طائفين حول مركز القدرة الإلهيّة، مسبّحين بحمد ربهم،

مؤمنين بعظمته، مستغفرين لخطّ الإيمان سائلين الله بعلمه و برحمته التي وسعت كل شيء أن يغفر للتائبين السائرين على سبيل الله ويقيهم عذاب الجحيم.

فهناك في الخطّ المنحرف عدم انسجام مع الحقيقة والكون وكفر وعناد وترف وبطش برسل الحقّ وجدال بالباطل، وبالتالي عقاب أليم، وهنا في خطّ الإيمان انسجام مع مصدر القدرة وترابط مع المدبّرات أمر الكون وهم الملائكة التي تدعمهم بالدعاء والاستغفار والنجاة من النار.

﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُم وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَن تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٩﴾﴾ ويستمرّ دعاء الملائكة كي يدخل الله المؤمنين جنّات الإقامة الدائمة التي وعدهم إيّاها، وكل من دخل في مسيرة الصالحين من آبائهم وأزواجهم وذرّياتهم زيادة في الثواب والإحسان والنعمة، والله هو العزيز الحكيم. ويضيف الملائكة داعين أن يصون الله الخطّ المؤمن الصالح من السيئات بلطفه ورحمته ويمنحه الفوز العظيم. وبهذا الجوّ الاحتفاليّ الرائع الزاخر بدعاء الملائكة وانضمام الآباء والأزواج والذريّة يدخل المؤمنون جنات الإقامة الدائمة. يتبعهم أيضاً دعاء الملائكة طالبين من الله لهم الابتعاد عما ينغّص حياتهم من السيئات.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾﴾ أمّا الخطّ الكافر فهاهو يحتقر نفسه التي أوصلته إلى هذا الحضيض، ويأتي النداء معلناً أنّ غضب الله عليكم أكبر من غضبكم على أنفسكم حينما كنتم تدعون إلى الإيمان، ولكنّكم كنتم تصرّون على الكفر.

﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾﴾ ويبدأ التوسّل إلى الله أن يحييهم وينقذهم من ذنوبهم هذه المرّة، بعد أن أحياهم وأماتهم مرّتين مرة عند نفخ الروح في الموات أو البرزخ، وأخرى عند الحشر.

﴿ذَلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ﴿١٢﴾﴾ ولكن لا جدوى من ذلك؛ لأنّهم كانوا معاندين، فإذا ارتفع صوت التوحيد كفروا وإذا علا نداء الشرك آمنوا به، هكذا كانوا في الدنيا، أمّا اليوم فالحكم الفصل لله العليّ الكبير.

﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السَّمَاء رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾

فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿١٤﴾ إنّه الله الذي يريكم الآيات البيّنات لتهتدوا إلى الواقع الحقّ والذي ينزل برحمته من السماء ما يوفّر رزقكم، فيجب أن يتأمّل الإنسان اللطف ويرجع إلى ربّه ويدعوه مخلصاً له الطاعة والعبوديّة، رغم أنَّ ذلك يغيض الكافرين.

﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٦﴾﴾ إنّه تعالى أسمى من كل ما سواه وأقدر، وله العرش الذي يدار الكون منه وهو الذي ينزل الروح برسالاته على من يشاء من عباده، ليتّخذهم رسلاً ينذرون النّاس ويخبرونهم عن الآخرة، حيث تبرز الخلائق على حقائقها دون أن يخفى منها شيء، وهناك يتجلّى الملك لله الواحد القهّار دونما أي ريب.

إنّ العقل الإنسانيّ إذ يتأمل هذه المشاهد العظيمة ويشعر بهذه الصفات الإلهيّة الحقّة وهذه القدرة التي لا مثيل لها، وهذا اللطف والرحمة الإلهيّة من جهة، ويلاحظ من جهة أخرى هذا الحشر للناس وانكشاف كل مساوئهم وخفاياهم أمامه تعالى، ليقف خاشعاً ذليلاً أمام القدرة الإلهيّة الهائلة القاهرة والعجز الإنساني الذليل، ولا سبيل له إلا أن يراجع نفسه، ويستغلّ الفرصة السانحة للانخراط في معسكر الإيمان.

﴿الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٧﴾﴾ إنّ يوم القيامة هو يوم العدل، وكل نفس ستلقى جزاءها العادل بما ارتكبته، وكل عمل محفوظ فلا غموض ولا بطء في الحساب.

﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾﴾ إنّ القيامة حادثة قريبة فيجب أن يحسب لها حسابها، إنّها يوم الهول العظيم حيث تصل القلوب إلى الحناجر ـ كناية عن عظيم الهول ـ ويرتفع مستوى الغمّ ويشتدّ الكرب وتسدّ السبل على الإنسان الظالم فلا يجد قرابة تنفعه ولا شفيعاً يشفع له.

﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾﴾ إنّه الحساب الحقّ من السميع البصير العالم حتّى بخيانة العين ومكنونات الصدر فلا تخفى عليه خافية فهو يقضي بالحقّ، أمّا الشركاء

المزعومون له ـ تعالى ـ فلا قيمة لهم ولا وعي ولا قضاء. إنها حقائق رهيبة، وإنه حساب دقيق عسير، وإنه استكناه لكل النوايا الخيانيّة، وعرض لكل الخفايا المطويّة، ولا مفرّ أو مخلص، ولا شفيع ولا قريب ولا صديق ولا حكم ولا قضاء الا لله والله سميع بصير بكل الحقائق.

﴿أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٢﴾﴾ إنَّ على مشركي العرب وقد دعاهم إلى ذلك باستمرار أن يراجعوا التاريخ، ويدرسوا الأحداث ويلحظوا مصير الأمم التي سبقتهم وكانت أكثر منهم قوّة وتأثيراً في الأرض، ولكنها إذ كذّبت بآلاء الله واستكبرت، ابتليت بالقهر الإلهيّ وآلت إلى الضياع ولم يكن لها من دون عذاب الله أيّة حماية. ذلك لأنها كانت ترفض دعوات الأنبياء ولا تتأمّل في الآيات البيّنات للرسل، الأمر الذي عرّضها لعقاب الله، والله قويّ شديد العقاب.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٢٥﴾﴾ فهذا النبيّ موسى أرسل إلى قوم فرعون وأتباعه هامان وقارون بآيات بينات واضحات ومعاجز واضحة بيّنة، ولكن هؤلاء واجهوه بتهمة السحر والكذب ثمّ القهر لكل من آمن به وقتل الأبناء وإبقاء النساء للخدمة أو هتك سترهنّ، ولكن ماذا كانت عاقبة البطش والطغيان والكيد؟ إنّه الفشل والضياع وانتصار الحقّ. فهل يعي المشركون هذه العاقبة، وهل يعتبرون بها فيرجعون إلى الحقّ؟!

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴿٢٦﴾﴾ ولما كانت سمعة موسى قد انتشرت فإن بعض الملأ من آل فرعون ربّما كانوا يشيرون عليه بالتأمّل والتريّث، في حين كان استكباره يلحّ عليه بقتله، متبجّحاً بأنّ له أن يدعو ربّه لينصره، وراح يعلّل قراره بقتل موسى بأمرينالأول تبديله لدين الشرك وماهم عليه، والثاني نشر الفساد والاختلاف، وهي حجّة كل ظالم مستكبر يواجه دعوة منطقيّة للتغيير.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٢٧﴾﴾ وكان

موقف موسى هو اللجوء إلى الله ربّ الجميع والاستعاذة به من المتكبّرين الذين لا يؤمنون بالآخرة. والحقيقة هي أنّ الطغيان وعدم الإيمان بالقيم المطلقة والإيمان بالقيم النسبيّة الناقصة هما أكبر عاملين على تحقّق الفساد في التاريخ.

﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٢٩﴾﴾ وهنا يتدخّل رجل مؤمن من حاشية فرعون ليوقف قراره بقتل موسى محتجّاً أوّلاً: بأنّ موسى لم يفعل شيئاً سوى الإقرار بالربوبيّة لله، وأنّه قدَّم أدلّة قويّة على مدّعاه، وثانياً: بأنّه لا يخلو الأمر من حالين فإما أن يكون كاذباً، فإن الكذب وبال على صاحبه، وإمّا أن يكون صادقاً في وعيده فإنّه سيصيبكم شيء من العذاب الذي يعدكم به؛ لأنكم طغيتم وكذّبتم، وأضاف هذا المؤمن مذكّراً إياهم بالنعم التي يملكونها، محذّراً من قوّة الله وبأسه، ولكنَّ المنطق الفرعونيّ منطق عناد وفرض للرأي على الآخرين بحجّة أنّه هو الحقّ، وأنّ على الآخرين اتباعه، وأنَّ الطريق هو ما اختاره الطغاة؛ لأنّهم لا يقودون إلاّ إلى الخير. وهكذا نلاحظ أنّ المنطق الفرعونيّ هو نفس منطق الطاغين والمستبدّين عبر التاريخ.

والحقيقة أنه منطق اللامنطق! منطق القوّة وتكميم الأفواه ومنع الحريّة، والادّعاء الفارغ.

﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾﴾ وعاد الرجل المؤمن ليحذّرهم مما أصاب الأمم المكذّبة من قبل كقوم نوح وعاد وثمود ومن خلفهم، إذ طغوا وظلموا فأصابهم العذاب بظلمهم.

﴿وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾﴾ وعاد الرجل المؤمن يؤكّد محذّراً قومه من يوم التناد أي يوم تعالي نداءات الاستغاثة ويوم محاولات الفرار من العذاب، وهل يمكن ذلك ولا عاصم من الله ولا هادي لمن أضلّه الله.

﴿وَلَقَدْ جَاءكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءكُم بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾﴾ ويستمرّ المؤمن في نصائحه لآل فرعون فيذكّرهم برسالة النبيّ يوسف المدعمة بالبيّنات، وتشكيكهم بها، وبعد أن توفّاه الله أعلنوا أنّه لن يرسل الله بعده رسولاً وها قد جاء موسى مكذّباً هذا الزعم. ونعى عليهم إسرافهم وتشكيكهم معلناً: إنَّ الله لا يهدي من هو مسرف غارق في الريب والشك.

﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾﴾ إنّ الإسراف والتكبّر يدفع صاحبه للتشكيك في آيات الله دونما مبرر أو دليل قاطع، ولذلك يتعرّض لكره الله والمؤمنين له، ويطبع الله على قلبه طابع العصيان والعناد.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴿٣٧﴾﴾ ورغم هذه المحاولة الجادّة بقي فرعون على عناده وراح يطلب من وزيره هامان أن يبني له بناءً عالياً ليصعده، ويصل إلى آفاق السماء، فيبحث عن إله موسى مع ظنّه بكذبه، وهكذا حاول فرعون التظاهر بالبحث عن الحقيقة بمثل هذا الأسلوب السخيف، وزّين لفرعون هذا العمل وأبعد عن فهم الحقيقة الواضحة، ولكن هذه الحيلة حيلة فاشلة. وهكذا نجد القرآن يعرض أساليب فرعون باعتبارها أساليب كل الطغاة للوقوف بوجه الحقّ. فهم يموّهون على الجماهير بمختلف الأساليب ليحقّقوا مبتغياتهم بذلك. ولكنها أساليب فاشلة وخطط مكشوفة البطلان. فالله تعالى خالق الكون وفوق الزمان والمكان.

﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴿٣٩﴾﴾ وعاد الرجل المؤمن من آل فرعون أكثر تحدّياً، طالباً من قومه رفض طريقة فرعون واتّباع طريقه، ليهديهم إلى الحقّ، مؤكّداً أنّ هذه الحياة الدنيا وهذه الزخارف إنما هي متاع زائل وأنّ الآخرة هي دار الخلود والاستقرار.

﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ

فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾﴾ باب واسع عظيم من أبواب الأمل تفتحه هذه الآية على لسان مؤمن آل فرعون، ذلك أنّ السيّئة تجزى بمثلها في حين أنّ العمل الصالح أيّاً كان عامله ذكراً أو أنثى ـ فهما في طريق التكامل سواء ـ إذا تم في إطار الإيمان، فإن جزاءه الجنّة حيث يرزق المؤمنون بغير حساب. وهذا يكشف عن أن هذا المؤمن كان على مستوى رفيع من المعرفة والشجاعة الإيمانية.

ولعل بعض هذه المعارف أستطراد قرآني في هذا المجال، أو لعله من كلام موسى (ع).

﴿وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ ﴿٤٢﴾﴾ وهكذا يقارن بين دعوته لهم إلى النجاة والسعادة، ودعوتهم له إلى النار والشقاء، ودعوتهم له إلى الكفر بالله، والقول بآلهة موهومة لا يقبلها العقل ولا يؤيّدها العلم، في حين يدعوهم إلى الإيمان بالقيمة الحقيقيّة في الكون بربّ العزّة الرحيم الغفور الذي يشير إليه كل الوجود. إنّها مقارنة فطريّة بين دعوة الإيمان المنسجمة مع المنطق والعقل، والمنتهية الى النجاة والسعادة والحياة السائرة على أساس الإيمان بالقيمة الحقيقيّة المطلقة التي تفسّر كل الوجود، ودعوة تعادي العقل والمنطق السليم وترفض القيم الإنسانيّة وبالتالي تقود إلى الشقاء والعذاب الأخروي الرهيب.

وأسلوب المقارنة بين الحياتين والدعوتين أسلوب قرآنيّ يهدي الدعاة في كل آن.

﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٤٣﴾﴾ ثمّ إنّ ما يدعونه إليه لا يملك قيمة الدعوة إليه في الدنيا، حيث لا يضرّ ولا ينفع ولا في الآخرة؛ إذ لا يملك ثواباً أو عقاباً، في حين أن كل الكون يشهد لله ويدعو له، ومردّ الجميع إليه وحينئذ يكتشف المسرفون مصيرهم الجهنميّ.

﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٤٤﴾﴾ إنّها شهادة حقّ قويّة واضحة مبرهنة قالها مؤمن آل فرعون، وذكّرهم بأنّهم سيذكرونها حتماً، وأعلن بعدها ما يعلنه كل مؤمن في كل حال، وهي قضية تفويض الأمر إلى الله، فهو البصير بالعباد.

﴿فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾ فكانت

العاقبة الطبيعيّة له هي فوزه بالنّجاة وخلاصه من حبائل المكر، في حين غمر فرعون وآله العذاب المهين الرهيب؛ إنّه النار يعرضون عليها ـ صباحاً ومساءً ـ في عالم البرزخ، ولكنهم سيد خلونها في القيامة حيث أشد العذاب.

﴿وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاء لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴿٤٨﴾﴾ وهنا يعرض مشهد من مشاهد النار فيه الكثير من الاعتبار، فهؤلاء الضعفاء المعذّبون يطالبون المستكبرين بأن يقوموا بما يخفّف عنهم العذاب جرّاء تبعيّة المستضعفين لهم في الدنيا، ليردَّ عليهم المستكبرون بأنّهم معهم في العذاب مشتركون بعد أن حكم الله بين العباد.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ ﴿٤٩﴾﴾ وعندما لا ينفع أهل النار حجاجهم يتوجّهون إلى خزنة جهنّم طالبين الشفاعة منهم والدعاء إلى الله، كي يخفّف عنهم يوماً من العذاب. ولكن أبواب النجاة مغلقة أمامهم ولا حيلة لهم في الخلاص.

﴿قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاء الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٥٠﴾﴾ ولكن جواب خزنة جهنّم جاهز، إنّه إرجاعهم إلى أنفسهم وتذكيرهم بموقفهم المعاند، رغم اعترافهم بمجيء الرسل إليهم ومعهم الآيات البيّنات الواضحات، فكذّبوهم واستحقّوا هذا المصير. ولم يعد ينفعهم دعاؤهم ولا توسّلهم فهو سعي خائب ضالّ لا ينفع.

﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴿٥١﴾﴾ خطّ الرسالة ومبادؤها هو المنتصر في النهاية. إنّها حقيقة يقرّرها القرآن، ويشهد لها التاريخ ويخلّدها، رغم ما يلاحظ من نكسات ظاهريّة مؤقّتة. فالرسل بما يحملون من مبادئ إنسانيّة هم القادة الحقيقيّون للمسيرة المتكاملة وهم المنتصرون بإرادة الله في الدنيا، حيث الذكر الحسن وتعلّق الآمال بها وتوجّه النّاس إليها، كما أنّهم هم وأتباعهم الفائزون يوم القيامة.

﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٥٢﴾﴾ حيث يخسأ الظالمون الواقفون بوجه الأنبياء، فلا ينفعهم اعتذار، بل يبقون بعيدين عن رحمة الله غارقين في جهنّم وهي أسوأ دار.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرَى لِأُولِي

الْأَلْبَابِ ﴿٥٤﴾ تذكير بالنصر الإلهيّ لموسى (الضعيف في الظاهر) وبني إسرائيل على فرعون وقوّته وجبروته وملئه، بعد أن اهتدوا بهدى الله وحملوا كتابه. هدى لمسيرتهم وذكرى لذوي العقول الواعية.

﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴿٥٥﴾﴾ بعد الحديث عن رحلة الأنبياء وموقف الأشقياء وعاقبة الطرفين يأتي هذا الاستنتاج؛ إنّ الطريق واضح أمام الرسول والمؤمنين العاملين على تحقيق الأمل الكبير، أمل خلاص الأرض من الطغاة والفراعنة، إنّه الصبر والأمل بالله، ووعده الحقّ والتزوّد بزاد التقوى والاستغفار والتسبيح بحمد الله في كل آن، في المساء والصباح.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾﴾ أمّا هؤلاء المجادلون المشكّكون في آيات الله فهم لا ينطلقون من منطق سليم، وإنّما من تكبّر وعناد دفين في أنفسهم، يعملون على التعبير عنه لإبطال الحقّ، ولكنهم لن يحقّقوا هدفهم مطلقاً. وما على النبي والمؤمنين إلاّ الاستعاذة واللجوء إلى الله السميع البصير.

﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ إن هذا الإنسان المتكبّر لو تأمّل في عظمة هذا الكون الفسيح وأدرك أبعاده العظيمة لوجد نفسه ضعيفاً حقيراً أمامه ولاعترف بالقدرة الإلهيّة المطلقة، ولكنّ الأكثريّة من النّاس جاهلة لا تعلم الحقيقة.

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾﴾ ولا ريب أنّ الإنسان الواعي البصير ، يختلف عن الأعمى الواهم، وأنّ المؤمن العامل للصالحات يختلف عن المسيء، فالواعي الصالح هو الإنسان المنتصر لو تأمّل المتأمّلون، ولكن الإنسان قليلاً ما يتأمّل ويتذكّر.

﴿إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾﴾ إنّ التأمّل في هذا الكون وقيامه على الحقّ والعدل والحكمة والهدفية الواضحة في هذا النظام الدقيق، يؤدّي إلى الإيمان بلا ريب بالمعاد، وإن كانت الأكثريّة تبتعد عن هذه الحقيقة.

﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ

جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ يأتي هذا الوعد الإلهيّ بالاستجابة لدعاء الداعين، تركيزاً للأمل، وشدّاً للعباد بربّهم الكامل اللطيف، وإنقاذاً لهم من حالة الاستكبار المدمّرة، والتي تقودهم إلى جهنّم بذلّة وهوان.

﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾﴾ وهاهي نعم الله العظيمة معروضة أمام المتأمّلين؛ ليل داج ساكن تسكن فيه النفوس، ونهار مشرق مبصر تتحرّك فيه للعمل والبناء، ظاهرتان تقومان إلى جانب غيرهما من الظواهر التي لا تحصى بتسهيل الحياة الإنسانيّة، وتكشفان عن مدى الفضل الإلهيّ على الناس، في حين تنسى الأكثريّة شكر هذا الفضل.

﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾﴾ إنّ وحدة هذه الظواهر في الكون خلقة وهدفاً تكشف عن وحدة الخالق وحكمته بلا ريب، فلماذا يسلّم التائهون أنفسهم للأوهام والتضليل، وهكذا يُصرف المنكرون لآيات الله عن الهدى إلى الضلال.

﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاء بِنَاء وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾ هاهي النعم الإلهيّة تترى؛ قرار الأرض وسكونها المتوازن، وارتفاع السماء بما فيها من العجائب والظواهر المنسجمة مع الحياة، وجمال الصورة الإنسانيّة، وتتابع الرزق الطيّب المنسجم مع حاجات الإنسان ، كل ذلك يهزّ الوجدان، ليعلن عظمة البركة الإلهيّة لربّ العالمين.

﴿هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٥﴾﴾ إنّه الحيّ الحقيقيّ الذي يحيا به الوجود كله ، وهو الواحد المتفرّد بالألوهيّة والربوبيّة فلا يدعى ولا يرجى إلاّ هو، ولا تكون الدينونة باخلاص ولا يكون الحمد المطلق لغيره وهو ربّ العالمين.

﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٦﴾﴾ فلييأس الكافرون؛ لأنّ العقل والفطرة والحقيقة تركّز على عبادة الله بعد كل هذه الآيات الواضحات، وتنهى عن اللجوء إلى أوهام المشركين، وتدفع إلى التسليم المطلق لربّ العالمين، فهو المطلق الحقيقيّ لا غير. أما ما يدعون من دونه فلا

يملك أيّة بيّنة تدلّ عليه ولا يستحقّ أي طاعة أو تسليم، بل هو مخلوق محتاج ضعيف لا يقاس مطلقاً لربّ العوالم كلها.

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ ثمّ ليتذكّر الإنسان تكامله العجيب، تراب ثمّ نطفة ثمّ علقة (يعلق فيها الحويمن بالبييضة) ثمّ ليولد هذا الطفل الإنسان (وهو ضعيف لا يعلم شيئاً) ثمّ مرحلة اشتداد الطاقات، ثمّ مرحلة الشيخوخة، كل هذه المراحل التكامليّة تنبئ عن القدرة الكاملة التي توجد العمليّة، وإلاّ فمن المحال أن تكون المرحلة الناقصة علّة للمرحلة التي هي أكمل منها، وربما توفيّ الشخص في إحدى المراحل، وربما استمرَّ إلى أجل محدّد عند الله، كل ذلك يدفع بجدٍ نحو التعقّل والتفكير. في القدرة الجبّارة التي خلقت هذا الكون الهائل بنظم وتنسيق ومنحته القدرة على التكامل وهي تفيض عليه ذلك باستمرار.

﴿هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾﴾ وهذا الإحياء والإماتة لا يمكن أن يفسرا إلاّ بتلك النفخة الإلهيّة العجيبة عندنا، ولكنها عنده متحقّقة بمجرّد إرادته تعالى.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾﴾ إنّها مسيرة يعيها الواعون فيصلون إلى الحقيقة، ويشكّك فيها المجادلون المعاندون فيبتعدون عنها إلى الضّلال.

﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾﴾ فيكذّبون بكتاب الله الهادي إلى الحقّ، ورسله الذين يحملون الهدى، فيقعون في أسوأ العواقب.

﴿إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾﴾ إنّه عذاب الآخرة، حيث الأغلال في الأعناق والسلاسل بها يسحبون ذلّة وصغاراً إلى حيث الحرارة الشديدة ليصبحوا وقود النار.

﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُو مِن قَبْلُ شَيْئًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾﴾ ليقال لهم تبكيتاً: أين آلهتكم المزعومة من دون الله؟ ليجيبوا: إنّهم أضاعونا بل كأنّنا كنّا في أوهام صاغتها أذهاننا، فكأنّنا لم نكن ندعو من قبل شيئاً، وهكذا هو منطق الكفر والضّلال.

﴿ذَلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾﴾ لقد كانت تلك عاقبة الزهو والفرح والمرح بغير الحقّ ووفق الوهم الباطل.

﴿ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾﴾ إنّها جهنّم، وإنّه الخلود في العذاب وما أتعس هذا المصير للمتكبّرين.

﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾﴾ من جديد يأتي هذا التذكّر بأهمّية الصبر، والأمل بالله ووعده الحقّ. وسواء شهد النبيّ تحقّق بعض الوعيد الإلهيّ أم توفّي قبل ذلك فإنّهم سوف يرجعون إلى الله حتماً ويبتلون بالعذاب الموعود. وبهذا يدعم القرآن هذه المسيرة، ويثبّت قلب الرسول وقلوب المؤمنين.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاء أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾﴾ ويتأكّد التثبيت بالتذكير بمسيرة القيادة الصالحة إنّها مسيرة متّصلة للأنبياء، والرسل، وقد قصَّ الله أنباء بعضهم ولم يقصَّ أنباء آخرين. وإنّها سنّة الله التي لا تتخلّف، إذ يحمل الرسول الرسالة ويعرض الآية والعلامة على صدقه بإذن الله على قومه، ويقف المبطلون أمام الرسالة، ويقضي الله بالحقّ المصير المحتوم، فينجو الصالحون، ويخسر أنصار الباطل.

﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾﴾ إلاّ يشهد المبطلون نعم الله التي تمهّد لحياة إنسانيّة سعيدة متكاملة، فهذه الأنعام تّشبع بشكل رائع حاجة الإنسان للتنقل، وللغذاء، وتحقّق له منافع كثيرة، ومقاصد متنوّعة ترغب فيها النفس، وهذه الفلك التي تحمل الإنسان وبضاعته فتحقّق له أعظم المقاصد، وهي إنّما تتحرّك وفق قوانين عظيمة أوجدها الله في الطبيعة من هواء وماء وبحار، كل ذلك من آيات الله المعروضة بوضوح أمام العقل والوجدان الإنسانيّ، فهل يستطيع هؤلاء أن ينكروا أيّاً من هذه الحقائق الباهرة؟ ودورها العظيم في استمرار الحياة الإنسانيّة، إنّ الهدفيّة في الكون من أوضح الواضحات التي تؤكد وجود الله ووحدانيّته كما تؤكد الإيمان بالمعاد.

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ

وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ ثمّ هل يستطيعون أن ينكروا سنّة الله في التاريخ والتي قضت بإهلاك الأقوام التي كذّبت سابقاً بنعمه وكانت أقوى وأشدّ آثاراً في الأرض من هؤلاء المكذّبين، فلم تغنهم قدرتهم عن سوء العذاب.

﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُون ﴿٨٣﴾﴾ لقد واجهوا رسل الله الذين حملوا الآيات البيّنات بالتكذيب، واغترّوا بما لديهم من قدرة وعلم وعمران، واستهزأوا بوعيد الله، فأحاط بهم العذاب الذي كانوا به يستهزئون.

﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ وعندما رأوا بأس الله وعذابه راحوا يعلنون الإيمان بالله وحده والكفر بالآلهة المزعومة، ولكن هذا الإيمان لم ينجهم من العذاب. إنّها ـ إذن ـ سنّة الله السارية في التاريخ، فليسرع هؤلاء للخلاص وإلاّ استحقّوا الخسران والضياع، دون أن ينفعهم لجوؤهم للإيمان بعد أن يحيق بهم العذاب.

سورة فصلت (٤١)

آياتها ٥٤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تحدّثنا فيما مرّ عن البسملة.

﴿حم ۝١﴾ من الحروف المقطّعة التي ترمز إلى تركيب القرآن، وعجز الآخرين عن الإتيان بمثله

﴿تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۝٢ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣﴾ إنّ هذا الكتاب الكريم منزّل من الله الرحمن الرحيم، مفصّلة آياته بكل إحكام وشمول، عربيّاً في لسانه معرباً عن معانيه لمن يشاء معرفة الحقيقة.

﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝٤ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ ۝٥﴾ يحمل البشرى بسبيل الكمال المستقيم، وينذر المنحرفين بالعواقب الوخيمة، ولكنّ الأكثريّة انحرفت وعاندت فكأنّها لم تسمع نداء الحقّ الواضح، وأعلنت أنّ قلوبها مغلّفة بحجاب يمنعها من وعي الدعوة، وآذانها في صمم منها، وأنّ هناك حاجزاً يمنعها من الاستجابة، فلتكن هناك مسيرتان إذن، ولا تصالح. كل ذلك عناداً للحقّ وتيئيساً من تلبية النداء.

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝٦﴾ إلاّ أنّ القرآن يطلب من الرسول أن يقول لهم ما يكسر هذه الحواجز الوهميّة، فما هو إلاّ بشر مثلهم، ولكن يوحى إليه من الله، وأنّه تعالى الإله الواحد، مما يتطلّب أن يلجأوا ويسلكوا الطريق المستقيم إليه، ويستغفروه من ذنوبهم. فإذا أصرّوا على الشرك فلهم الويل والهلاك.

﴿الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ۝٧﴾ إنّ الشرك يحطّم إنسانيّة الإنسان فلا يعرف معنى للتزكية، ولا يؤدّي الزكاة كحقّ لله في ماله، ولا يدرك معنى الحياة الهادفة، مما يؤدّي لإنكار الآخرة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٨﴾ في حين يحصل المؤمنون

العاملون للصالحات على العطاء المستمرّ والتكامل المطلوب.

﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاء لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾﴾ كما أمر ﷺ أن يستنكر عليهم كفرهم وشركهم بالله، وهو خالق الأرض على مرحلتين، وهو ربّ العالمين المنعم عليهم بحركة أرضيّة متوازنة عبر إرساء الجبال، وبركات كثيرة، وتقدير دقيق لحاجات الإنسان والحيوان والنبات (وهم السائلون) على مرحلتين من الخلق أيضاً (وقيل في أربعة فصول). فهل يمكن لهؤلاء أن ينكروا هذه الظواهر العظيمة في الأرض وهذا التناسب الرائع بين الطبيعة والحاجة الإنسانيّة.

﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ اِئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾﴾ ثمّ توجّه الخلق الإلهيّ إلى السماء، وكانت بشكل دخان وصدر الأمر التكوينيّ للسماء والأرض بالانصياع طوعاً أو كرهاً فما كان منهما إلاّ الطاعة الكاملة.

والتأمل في الترابط الرائع بين الأجرام السماويّة والانسجام الدقيق بين حركاتها وتأثيراتها على الأرض وبحارها ويابستها أمر لا يحتاج الى استدلال وهم يشهدونه بأم أعينهم.

وهل يمكن لهذا الترابط والانسجام والتأثير المتبادل أن يتمّ بأقصى درجات الدقّة إلا بأمر القادر الحكيم والطاعة التكوينية له؟

﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاء أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٢﴾﴾ فقضى الله أن يتحوّل الدخان إلى سبع سماوات على مرحلتين زمانيّتين، وقدَّرت القدرة والحكمة الإلهيّتين في كل سماء تركيبها المناسب، وجاء التقدير للسماء الدنيا أن تزيّن بالكواكب والنجوم، وأن تحفظ بقوانين خاصة.وكل ذلك يكشف عن تقدير عظيم لمن له العزّة والعلم المطلقان.

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَاءتْهُمُ الرُّسُلُ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاء رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴿١٤﴾﴾ فإن استمرأ هؤلاء العناد، وأعرضوا عن الحقّ فليستعدّوا لهلاك شبيه بهلاك عاد وثمود، بعد أن جاءتهم الرسل تدعوهم بمختلف السبل إلى الله الواحد، ولكنهم ردّوا عليهم

بأنّهم لا يعترفون بهم، وأنّ الله لو شاء لأرسل ملائكة، وأنّهم يكفرون إذن برسالاتهم.

﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾﴾ وكان أن استكبرت قوم عاد بغير الحقّ، وراحت تفتخر بقوّتها ـ ناسية أنّ الله وهو خالقها أقوى منها ـ ولكنه العناد والجحود لآيات الله، فكان أن أبتليت بريح شديدة السموم فأهلكتها في أيّام مشؤومات، وذلك عذاب الخزي في الدنيا، في حين أنّ عذاب الآخرة أخزى، ولا يملكون من ينصرهم. ويخلصهم من عذاب الله وهو أكثر نحساً وخزياً، ولا مجال مطلقا للاعتزاز بالقوّة.

﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾﴾ أمّا ثمود فقد منَّ الله عليهم بالهدى، ولكنهم فضَّلوا طريق العمى فاستحقّوا الهلاك والعذاب المهين نتيجة أعمالهم. وما أسوأ أن يستحبّ الإنسان طريق العمى والضلال ويفضّله على الهدى الإلهيّ إنّه بذلك يقف بوجه فطرته، إشباعاً لهواه وعناداً واستكباراً أهوج وفسقاً عن المسير الإنسانيّ السويّ.

﴿وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾﴾ في حين نجى المؤمنون المتّقون من ذلك العذاب.

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّى إِذَا مَا جَاؤُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾﴾ إنّ أعداء الله يوم القيامة سوف يجمعون ويساقون إلى جهنّم، بعد أن يشهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون، فلا يملكون الإنكار. وما أخزاهم حينئذٍ وهم يشهدون جوارحهم تشهد عليهم فلا يملكون إلا الاعتراف المهين.

﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾﴾ وعندما يعترض هؤلاء على جلودهم التي بها تمّت المعصية لشهادتها عليهم، فإنّها تجيب بأنّ الله أنطقها وهو واهب النطق لكل شيء، وهو خالق البشريّة وإليه تعود، وهي بهذاتعطي درساً في التوحيد والمعاد لكل ساعٍ لمعرفة الحقيقة.

﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنْ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ توبيخ للمجرمين يوم القيامة بأنّهم ما كانوا يستخفون عند ارتكاب المعاصي؛ لأنّهم لا يحتملون أن تشهد عليهم أعضاؤهم أنفسها، وما كانوا يخشون ذلك بل كانوا يظنّون أنّ الله يخفى عليه الكثير من أعمالهم، ولكنه الظنّ الباطل الذي أركسهم في الضياع والخسران.

﴿فَإِن يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾﴾ فلا مناص هناك ولا خلاص، والنار تنتظرهم، ولا ناصر لهم ولا ينفعهم استعطاف. أو عتب أو أية وسيلة للنجاة.

﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاء فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ إنّ هؤلاء إذ لم يحاولوا الاستماع إلى الحقيقة، تهيّأ لهم من يقترن بهم ويسوّل لهم ارتكاب السيّئات، ويقودهم إلى مستقبل مظلم مما يؤهّلهم للانحدار إلى مصير الأمم المفسدة من قبلهم من الجنّ والإنس، والهلاك والضياع. وفي هذا البيان ما فيه من إيقاظ الضمير وتحريك العقل ودفع النفس للاستفادة من الفرصة السانحة أمام المشركين لتقييم موقفهم واللجوء الى معسكر الإيمان.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾﴾ ومن أنماط تزيين قرناء السوء هؤلاء أن دفعوهم لإغلاق أسماعهم لئلاّ تسمع القرآن وتتأثّر به، أو للقيام بجلبة أو ضوضاء من لغو الكلام عسى أن يفسح المجال كذلك ليغلبوا الحقّ بمثل هذه الأساليب.

﴿فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَلِكَ جَزَاء أَعْدَاء اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاء بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾﴾ ولكن القرآن يهدّد أعداء الله هؤلاء بالعذاب الشديد والعاقبة السيّئة. وهي الخلود في النار جزاء على تكذيبهم وعنادهم.

﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾﴾ وهنا تشتدّ عليهم الحالة فيدعون الله أن يريهم الذين أضلاّهم من الإنس والجنّ لينتقموا منهما ويسحقوهما نتيجة ما عملاه لهم. ولكن ماذا ينفعهم هذا

الدعاء؟! وهل يخفّف عنهم العذاب الأليم؟ إنّها هزّة لوجدانهم لإعادة النظر في موقفهم هنا في الدنيا، وعدم الاستماع لوساوس الشياطين من الجنّ والإنس ، والاهتداء لنداء الرسول والانفتاح على عالم الإيمان.

﴿وإِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾ في قبال خطّ الطغيان والتكذيب يتحدّث القرآن عن خطّ الإيمان والاستقامة عليه دونما ميل أو انحراف، ومهما كانت الظروف والمطبّات، هذا الخطّ تتنزّل عليه الملائكة ، فلا يحزن على شيء فاته، ولا يخاف أي مكروه يستقبله، قويّاً ثابتاً متوازناً منشدّاً بالجنّة مطمئنّاً بنيلها، متكاملاً في سبيلها.

﴿نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ إنّه خطّ يتولاّه الله القويّ اللطيف دنياً وآخرة ليسير به نحو الخلود في الجنّة، يحقّق به كل مشتهياته وكل ما يرغب، لطفاً منه وهو الغفور الرحيم. وبهذه الولاية والرعاية الدائمة من الله يتعاظم الشعور بالأمل والقوّة عند المؤمنين، في حين يبقى خطّ الطغيان محروماً من الولي الذي يرعاه ويسدّ خطاه ويمده بالعون فهو خط متروك لحاله في مهب الريح والعواقب السيئة تنتظره في الآخرة.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ وهل هناك أروع من الرسول وأتباعه أصحاب هذا الخطّ؟ يدعون إلى الله، ويعملون الصالحات، ويعلنون تسليمهم لله.

﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ نعم، لا يقاس السلوك الحسن إلى السلوك السيّئ، فإن الردَّ الحسن يغزو القلوب حتّى الحاقدة، فإذا بها وهي تواجه السلوك الإنسانيّ اللطيف تنسى حقدها وتنجذب إلى المحسن وكأنه وليّ وصديق حميم.

﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾ وتلك خصلة لا يمتلكها إلاّ المحظوظون من البشر الصابرون على الخطّ.

﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾﴾ ولكن

الشيطان يتربّص بالإنسان، ويحرّك فيه عناصر الردّ العنيف، وربما الردّ السيّئ، فيجب أن يبقى وعي الإنسان متيقّظاً راصداً. والضمان من وساوس الشيطان يتمّ باللجوء إلى الله، والاستعاذة به، فهو تعالى السميع العليم بوساوس الشيطان، الضامن لدفعها.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾﴾ عودة للتذكير بأبعاد النعمة الإلهيّة، إذ تتجلّى آيات الله في الليل والنهار والشمس والقمر، فيجب أن تكون سبلاً لله المطلق الحقيقيّ لا أن يصعّدها الإنسان في وهمه فيحسبها مطلقات ويعبدها، كلا فالسجود لخالقهنّ فقط، وعبادته لا تنسجم مع عبادة غيره. (وفي الآية سجدة واجبة).

﴿فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ ﴿٣٨﴾﴾ (سجدة واجبة) ولا يحسب المستكبرون عن عبادته أنّهم يوحشون طريق الحقّ، فإن هذا الطريق مليء بالعباد المسبّحين ليلاً ونهاراً دونما ملل، وهم المخلصون والملائكة. أما الوحشة الحقيقيّة فهي لهؤلاء المستكبرين المنبتّين المنقطين عن الله اليائسين من ألطافه القلقين على مصيرهم.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ وهذه آية الأرض ـ بما فيها من عجائب وإتقان تشدّ القلوب والعقول فليتأمّلها الإنسان؛ إنّها تبدو ذليلة خاشعة لله تستمدّ منه الحياة، فيُنزل عليها رحمته ماءً يهزّها وينمّيها ويلبسها خضرة الحياة. ألا تعبّر هذه الظاهرة حسّاً عن القدرة الإلهيّة على إحياء الموتى؟

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَن يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾﴾ إنّها آيات الله الباهرة فكيف يمكن إنكارها والميل عنها؟ وإنّ الملحدين يعرّضون أنفسهم لعذاب الله بعد أن كانوا مكشوفين له. إنّهم يعرّضون أنفسهم للنار في حين أنّهم كانوا يستطيعون سلوك طريق الأمان عند الحشر بإرادتهم فالأعمال كلها تحت علم الله وبصره.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ لقد جاءهم هذا القرآن ذكراً يعيدهم إلى

الحقيقة التي غفلوا عنها ولكنهم كفروا به ولم يتدبّروا في آياته وألحدوا بها، وواضح ماهو مصير الملحدين المعاندين؟ إنّه كتاب العزّة عزيز في نفسه، ويمنح العزّة للمتمسّك به، لا تناله يد الأوهام والتحريف، فهو مصون عنها حالاً ومستقبلاً، ولا يمكن أن ترقى إليه شبهة؛ لأنّ الذي نزّله هو الحكيم المحمود على الإطلاق.

﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ (٤٣)﴾ إنّه كتاب يعبّر عن الحقيقة التي صدع بها الأنبياء جميعاً في مسيرة واحدة، ولذلك فإن تكذيب الملحدين هو هو بالنسبة لخطّ النبوّة. فلينعم أهل الإيمان بالغفران وليتنظر المكذّبون العقاب الأليم.

﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاء وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ (٤٤)﴾ إنّه كتاب عربيّ واضح ولو جاء أعجمياً مبهماً لاعترضوا عليه وطلبوا شرحه وتفصيله واعترضوا عليه بعدم التناسب بين الخطاب الأعجميّ مثلاً والمخاطبين العرب. كل ذلك مراءً وجدلاً، كلا، إنّه فيض الهدى والنور والشفاء ولكن لمن جلوا قلوبهم بالإيمان، أمّا الذين اختاروا طريق الإلحاد، وسدّوا آذانهم لئلاّ تستمع للحقّ فإنّه لا يزيدهم إلاّ عمىً وكأنّهم غائبون عن المشهد، فلا يأتيهم النداء إلاّ من مكان بعيد.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ (٤٥)﴾ تذكير برسالة موسى وتكذيب قومه له وإمهالهم إلى يوم الحساب، وهي الكلمة والوعد الإلهيّ، ولولا الوعد لتمّ الفصل بينهم والقضاء عليهم بعد أن غمرهم الشكّ والريب فيه. وفي هذا التذكير تسلية للرسول والمؤمنين وتهديد للمكذّبين.

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاء فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ (٤٦)﴾ إنّ العمل الصالح يعود بالخير على النفس ويعود العمل السيّئ بالشرّ عليها، فلا ظلم في النظام الإلهيّ.

إنّ هذا التعليم القرآنيّ يوسّع من آفاق النفس لتشمل الحياتين ويدفع الإنسان في نفس الوقت الذي يحبّ فيه ذاته إلى عمل الخير، فيحلّ بذلك التناقض بين المصالح الفرديّة والمصالح الاجتماعيّة.

إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَاتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا

بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي قَالُوا آذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾﴾ إنّ علم الله شامل لكل الحقائق ولا يخفى عليه شيء، فإليه وحده يرجع علم السّاعة، وهو يعلم ببواطن الأمور وبالثمرات في أكمامها وأوعيتها، وبالأرحام وما تحمل ومتى تضع من حمل. وهذه الحقيقة يجب أن تتجلّى في وعي الإنسان وعقله، ولكن الغافلين يشركون بالله غيره من مخلوقاته، وهؤلاء يواجَهون يوم القيامة بالسؤال المحيّر: أين الشركاء؟ فلا يجدون إلاّ الإعلان عن العجز.

﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَدْعُونَ مِن قَبْلُ وَظَنُّوا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾﴾ لقد انقطعت الحجّة، وغابت عنهم الآلهة المدّعاة، وأيقنوا أن لا مفرّ لهم من العذاب.

﴿لَا يَسْأَمُ الْإِنسَانُ مِن دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ فَيَؤُوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾﴾ هكذا هي طبيعة الإنسان الذي لا يهتدي بهدى الله؛ إنّه لايملّ من طلب الخير النافع له، فإذا مسّه الشرّ غمره اليأس والقنوط فهو بين نهم ويأس.

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّاء مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَى فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾﴾ فإذا منّ الله عليه بالرحمة من بعد حالة عسيرة نسي حالته وغفل عن شكر النعمة، بل راح يتصوّرها ملكه الدائم وينكر الآخرة، بل يتصوّر لنفسه حظوة خاصّة، فإذا كانت هناك آخرة فإنه سينعم فيها. ولكن الحقيقة الصارخة تواجهه بأن عاقبة الكفر هي العذاب الغليظ.

﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاء عَرِيضٍ ﴿٥١﴾﴾ إنّها حالة الضعف النفسيّ للإنسان فإذا شملته النعمة تكبّر وأعرض وطغى، وإذا أصابه الشرّ راح يتضرّع ويستمرّ في صراخه ودعائه.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾﴾ إنّ مجرّد احتمال صدق القرآن ـ وهو الصادق الحقّ ـ يجب أن يدفع هؤلاء إلى الاحتياط، ودفع الضرر المحتمل وهو أعظم الأضرار. والعقل السليم يدعو إلى دفع الضرر، وتجنب التعرض له.

﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاء رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ ﴿٥٤﴾﴾ وينطلق القرآن بالعقل الإنسانيّ ويعده بالوصول إلى الحقيقة إن هو ثابر على اكتشاف آيات الله

في الآفاق وفي النفس نفسها، وحينئذ تتبيّن له بكل وضوح كل الظواهر المنسّقة التي تؤكّد وجود الخالق المنظّم الحقّ الثابت الذي خلق كل شيء، فالأشياء حاضرة لديه وهو عليها شهيد. لا يخرج أيّ جزء عن التخطيط والطاعة والنظام، فلا معنى للشكّ والريب في الله، والمعاد إليه بعد ثبوت الإحاطة الإلهيّة الكاملة بكل الوجود، والهدفيّة التامّة في كل الأشياء.

ومن يدرس حالة المسلمين ونموّهم العلميّ والحضاريّ في عصر يموج بالظلمات والتقهقر، وما أنتجوه من علوم وفلسفة، يجد أن الدور الأعظم لهذه النهضة يعود لتأثيرات القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة وتعاليمهما المحيية للأمم.

سورة الشورى (٤٢)

آياتها ٥٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ذكرنا من قبل جزئيّة البسملة للسورة.

﴿حم ① عسق ②﴾

من الأحرف المقطّعة.

﴿كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ③﴾ إنّ الوحي الإلهيّ للأنبياء لطف مستمرّ متناسق بالبشريّة من الله القادر على الهداية الحقيقيّة، الحكيم في تدبيره التكوينيّ والتشريعيّ وبهذا يتمّ التأكيد على وحدة المسيرة، ووحدة المنطلق، ووحدة الهدف في إطار حكيم.

﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ④ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ⑤﴾ إنّه تعالى مالك الكون والوجود، العليّ فوق كل شيء، العظيم فلا عظمة لغيره، تخشع له السماوات حتّى لتتفطَّر من الخشية، وتسبّح الملائكة بحمده وله مطلق الحمد، وتطلب منه الغفران لأهل الأرض وهو أهل المغفرة والرحمة. إنّه جوّ العظمة والحمد والتسبيح والاستغفار والرحمة، فهل يعي الإنسان هذا الجلال فينسجم معه؟

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ⑥﴾ ولكنّ البعض يغفلون عن هذا الجوّ فيتّخذون لهم أولياء من دون الله، فيغرقون في الانحطاط والضّلال، ولكنهم تحت سيطرة القدرة الإلهيّة القاهرة فلا داعي للاهتمام بأمرهم.

﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ⑦﴾ وهكذا اقتضت الرحمة الإلهيّة أن يوحي الله هذا القرآن عربيّاً واضحاً ليتمّ إنذار أمّ القرى وهي مكّة المكرّمة، البقعة الطاهرة التي أقيم فيها أوّل بيت لله، فكانت خير مكان لانطلاقة الدعوة إلى من حولها، ثمّ إلى كل الأرض. وقد ركّزت الدعوة أول ما ركّزت على يوم القيامة؛ لأنّه مقتضى الهدفيّة في خلق الإنسان ليتميّز الفريقان؛ فريق الجنّة وهم الهداة، وفريق النار وهم الطغاة.

﴿وَلَوْ شَاء اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن يُدْخِلُ مَن يَشَاء فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾﴾ إنّ الله قادر على التوحيد الإجباريّ للبشريّة، ولكنّ إرادته تعلّقت بالمسيرة الاختياريّة؛ لأنّ الإرادة الحرّة هي سرّ التكامل وهي محور المسؤوليّة. فإذا اختار الإنسان بإرادته التكامل دخل في جوّ الرحمة، أمّا إذا اختار سبيل العتوّ والظلم فإنّه سيلقى العذاب دون أن يحميه وليّ ولا نصير.

﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾﴾ إنّه السخف البالغ أن تتّخذ أولياء من دون الله، إذ لا قيمة لها ولا تأثير؛ لأنّ الولاية الكاملة لله واهب الحياة ومحيي الموتى والقادر على كل شيء.

﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾﴾ إنّه الحقّ، وله كلمة الفصل، وبيده الحكم القاطع، ولذلك يجب الرجوع عند الاختلاف إلى حكمه العادل الحقّ؛ لأنّه الربّ العليم الحكيم، عليه يتوكّل النبيّ ومن بعده المؤمنون، وإليه يعودون في كل ما يبتلون به.

﴿فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ الله هو مبدع السماوات والأرض، وهو خالق البشريّة وراحمها في زوجيّة متراحمة متناسقة، وتسري هذه الزوجيّة إلى الأنعام فتُشبع حاجة الإنسان وتديم حياته، وكل هذه ظواهر تركّز في الإنسان دقّة التنظيم واللطف الإلهيّ فيقدّر الله حق قدره، ولا يتصوّر له مثيلاً، فليس كمثله شيء وهو السميع البصير العليم بكل الأمور. وتعد الآية الشريفة من المحكمات وخصوصاً مقطع (ليس كمثله شيء)، وهذه المحكمات هنّ أم الكتاب ومرجع الآيات المتشابهات التي قد تحتمل معاني لا يريدها القرآن ولا تنسجم مع الأحكام العقليّة القطعيّة لما فيها من شبهة التشبيه والتجسيم.

﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاء وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ بيده تعالى مفاتيح الأمور في الكون وأسرارها وتدبيرها ورزقها، كيف يشاء، وبالقدر الذي يشاء، فهو العليم بكل شيء والمدبر له.

﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ

وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاء وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾ وكما بدأت السورة بتقرير حقيقة وحدة مسيرة الأنبياء فهي هنا تؤكّد ذلك بالتفصيل، فالمنبع واحد استقى منه نوح والرسول محمّد وبينهما إبراهيم وموسى وعيسى، والوصيّة الإلهيّة الكبرى واحدة هي لزوم إقامة الدين لله وتعميقه في النفوس والانضواء تحت رايته الواحدة وعدم التفرّق فيه وبسببه، فالدين عامل وحدة وتأليف للقلوب، ولا عجب أن يكبر ويعظم على المشركين الطغاة ما يدعوهم الرسول إليه من عبادة الله الواحد، وطاعة رسوله دون كبرائهم؛ لأنّها إرادة الله يختار من يشاء ويهدي إليه المطيعين.

﴿وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِن بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾ فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾ لقد كان المفروض بأتباع الرسل أن يتّحدوا على طريق الهدى ولكن ورغم علمهم بذلك ـ أسلموا قيادهم للظلم والبغي فاستحقّوا الهلاك لولا أنّ الله أوكل مسألة الحساب إلى الآخرة، وكانت عاقبة أهل الكتاب الشكّ في كتاب الله نفسه، ففقدوا أهليّة قيادة المسيرة المتديّنة، وأعطيت هذه القيادة لهذا الرسول وهذه الأمّة، فليحمل الرسول هذه الدعوة وليستقم في مسيرته وفق ما أُمر، وليرفض أهواء المنحرفين، وليعلن إيمانه بالله والكتب التي أنزلها، وليقم العدل ونظامه.

وليكن الإيمان بالله ربّاً للجميع محوراً للحياة، ولتكن المسؤوليّة فرديّة تابعة للعمل نفسه، ولتنقطع الحجّة والصّلة ليوكل إلى الله أن يحكم بين الفريقين حين يجمعهم يوم القيامة.

والأمر الإلهي بالاستقامة على الخطّ شيء عظيم المسؤليّة وهذا ما نبّه عليه الرسول ﷺ وربما لأن الهداية قد تشمل الإنسان في لحظة وعي فيصبح على الصراط المستقيم، ولكن الاستقامة عليه باستمرار والقيام بلوازمه أمر يتطلّب الوعي المستمرّ والتضحيات الجسيمة.

﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ

غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾ وبعد أن استجاب العقلاء والمؤمنون فلا معنى لأقوال المشكّكين في الله فحججهم واهية لا قيمة لها عند الله، وهم مشمولون لغضبه وعذابه الشديد. إنّهم يجادلون في أمر منسجم مع فطرهم التي جبلت على ضرورة وجود المنظّم لهذا الكون.

﴿اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾﴾ إنّ الله بمقتضى لطفه أنزل القرآن بالحقّ، وجعل تعاليمه معياراً له، وسبباً في إيجاد التوازن التشريعيّ، فهو بنفسه دليل على الحقّ، والحقّ أحقّ أن يتّبع، وهو ميزان الفوز في الآخرة، وماذا يدري الرسول فلعلّ الساعة قريب. وكأنّها إجابة على سؤال عن الساعة وتوقيتها وقد تكرّر ذلك منهم.

﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾﴾ هناك موقفان من الآخرة، موقف المشركين المشكّكين المستعجلين استهزاءً، وموقف المؤمنين الخائفين من هولها المتيقّنين بها؛ لأنّها مقتضى الهدفيّة في الكون، وهو موقف الواعين المنسجمين مع فطرهم، أمّا موقف التشكيك فهو الضّلال البعيد.

﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَن يَشَاء وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿١٩﴾﴾ ويبقى اللطف الإلهيّ يلحّ على الجميع بالعودة إليه. فهو الرزّاق وهو القويّ العزيز، لا يحتاج إلى خلقه وإنّما هو اللطف والرحمة الشاملة.

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾﴾ ويتمثّل هذا اللطف في المنّ والزيادة على من يريد عطاء الآخرة، وهو نتاج العمل الصالح في الدنيا، ويتمثّل أيضاً في إعطاء الكافر من عطاء الدنيا أيضاً، ولكنه سيفقد النصيب العظيم في الآخرة؛ لأنّه لم يشكر المنعم بل طغى وكفر.

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاء شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾﴾ إلاّ يدرك المشركون أنّ خطّ الأنبياء يدعو إلى ربّ واحد، وأنّ الآلهة المزعومة لم تقدّم لهم شيئاً، فليس التشريع إلاّ لله ولا يتمّ إلاّ بإذنه. إنّ مزاعمهم هي من أعظم الظلم، ولولا أنّ حكمة الله اقتضت تأجيل العذاب إلى الآخرة لشمل العذاب الأليم هؤلاء الظالمين.

﴿تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُم مَّا يَشَاؤُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾﴾ إنّه يوم الهول على الظالمين نتيجة عملهم الذي تحوّل إلى هذه الحالة القائمة، ولكنّه يوم النعيم وروضات الجنّات للمؤمنين العاملين بالصالحات، ينالون فيه ما يشاؤون من نعم في ظلّ رحمة الله وفضله الكبير. فشتان ما بين الحالتين؛ حالة إشفاق وضعف وهول عظيم لا خلاص منها ولا مفرّ، وحالة استبشار وتنعّم بالخيرات والجنّات وحصول على ما تتمنّاه الأنفس وتلذّ الأعين وقبل كل شيء رضوان من الله وهذا هو الفضل الكبير.

﴿ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾﴾ إنّها البشرى الكبرى للمؤمنين العاملين بهدي الرسول، وهو صلى الله عليه وآله وسلم لا يطلب على رسالته أجراً إلاّ ما هو لصالحهم أيضاً، وهو محبّة أهل البيت عليهم السلام ومودّتهم[١]، باعتبارها من أفضل الأعمال، وتقودهم إلى المنهج القويم، وهم يشكّلون الامتداد الطبيعيّ للقيادة الصالحة، وهكذا يتجلّى اللطف العميم فمن يعمل صالحاً يزيده الله في ثوابها حسناً ويغفر له سيئاته ويشكره بما يناسب عظمته.

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِن يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٢٤﴾﴾ تشكيك آخر في أقوال الرسول، وأنّها مجرّد افتراء على الله، ولكنَّ العقل يمنع أن تجري المعجزة على يد الكاذب (وهي هنا كتاب الله) فالله قادر على أن يختم على قلب الرسول، ويكشف الافتراء ويعلن الحقّ وهو عليم بكل شيء وما تكنّه الصدور. إنّ هذا الاستدلال يؤكّد أحقّية كلام الرسول وصدقه في دعوته.

﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾ فليعد الجميع إلى ربّهم، وهو تعالى قابل التوب والعافي عن السيئات والعليم بكل الأفعال، وهكذا تشكّل التوبة إحدى أكبر مظاهر اللطف وروافد الأمل عند الإنسان.

﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ

---

١. راجع الكافي للشيخ الكليني (ج ١ ص ٤١٣)، المحاسن للبرقي (ج ١ ص ١٤٥) مجمع الزوائد للهيثمي (ج ٧ ص ١٠٣)، سنن الترمذي (ج ٥ ص ٥٤)، صحيح البخاري (ج ٤ ص ١٥٤) مسند أحمد (ج ١ ص ٢٢٩) وغيرها.

شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾ إنّه تعالى يستجيب للمؤمنين العاملين دعاءهم، ويزيدهم من فضله، في حين يلاقي الكافرون مصيرهم من العذاب الشديد.

﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاء إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾﴾ ويأتي الرزق الإلهيّ مقدّراً متدرّجاً لئلاّ يطغوا ويظلموا، وإنّ الإنسان ليطغى أن رآه استغنى، والله تعالى خبير بصير بعباده.

﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾﴾ تذكير بلطف آخر من ألطافه. إنّه الغيث والمطر الذي تقوم به حياتهم، وذلك بعد قنوط ويأس. إلاّ يشعر الإنسان بعظمة هذه الرحمة من الله الذي يتولاّه ويرعاه ويغمره بما يسهّل حياته، فله الحمد كله.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاء قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾ وهذه عجائب السماوات والخلق، وما نشر فيها من دوابّ وحيوانات، وكل ذلك يساهم في توفير الطبيعة الملائمة له، ولكنها جميعاً في قبضته فإذا شاء جمعها بأمره.

﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾﴾ إنّ المصائب كلها من نتائج عمل الإنسان وضعفه، ولكنّ الله رحيم يعفو عن كثير من الأمور.

﴿وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾﴾ إنّ الإنسان ضعيف عاجز لولا أن يرفده الله بلطفه، ولا وليّ نصير له من دونه.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴿٣٢﴾﴾ ويستمرّ التذكير بألطاف الله عبر التذكير بالقوانين الكونيّة التي تسير وفقها السفن في البحر، كالجبال المتحرّكة إذ تتعاون في ذلك الرياح وحركتها، والمياه وأوزانها وكثافتها وعمقها وقوانينها وغير ذلك.

﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾﴾ ولو شاء الله لسكنت الريح وركدت السفن على صفحة الماء هامدة جامدة، فليتأمّل المتأمّلون في آيات الكون بكل صبر، وليشكروا الله على كل هذه النعم الباهرة.

﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾﴾

وقد تبدو القدرة الإلهيّة الجبّارة فتحطّم هذه السفن نتيجة جرائم راكبيها، وقد يعفو الله عن ذلك فتقدّم خدماتها للعصاة أيضاً رحمة من الله.

﴿وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾﴾ وهكذا يعلم المجادلون المعاندون أنّهم في قبضة الله، وأن لا سبيل إلاّ العودة إليه وشكره وطاعته.

﴿فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾﴾ إنّ العقل السليم المنطقيّ عندما يتأمّل الظواهر الكونيّة وتناسقها في خدمة الإنسان يؤمن بالله ويدرك الهدفيّة في الكون، ويشعر بأنّ الحياة الدنيا بكل مافيها مجرّد تمتّع قصير، ويتوجّه إلى ما يدّخره الله في الآخرة للذين آمنوا به وأطاعوه وساروا على منهجه وتوكّلوا عليه واستندوا إليه في مسيرتهم كلها.

﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ هذه هي صفات المؤمنين المتأمّلين في الكون؛ إنّهم يجتنبون الآثام الكبيرة والفواحش المدمّرة كالزنا واللواط، فتبتعد مسيرتهم عن كل طغيان أو انحراف عن الفطرة السليمة، وهم لا يندفعون في غضبهم إلى ما يتجاوز الحدّ، بل يغفرون للآخرين وينشرون الرحمة والحبّ.

﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾﴾ وهم مطيعون لأوامر ربّهم مصلّون ذاكرون، وهم متّصفون بالتشاور في أمرهم وشأنهم المشترك، بعيدون عن الاستبداد بالرأي، وهم ينفقون على الآخرين ليقوموا بوظيفة الخلافة والتخويل الإلهيّ.

﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾ ولكنهم مقاومون يرفضون الظلم والعدوان بكل قوّة وعزيمة تصنع النصر، ومع ذلك فهم يجزون السيّئة بمثلها، وربما عفوا فاستحقّوا أجراً إلهيّاً، ولكنهم لن يقدموا على ظلم؛ لأنّ الله لا يحبّ الظالمين.

﴿وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُوْلَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُوْلَئِكَ لَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾﴾ إنّ الردَّ على العدوان حقّ طبيعيّ، ولا سبيل على المقاومين، وإنما السبيل على الظالمين المفسدين في الأرض بغير الحقّ وجزاؤهم العذاب الأليم.

﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾ ومع ذلك يدعو القرآن للصبر والغفران، ويعتبر ذلك من قوّة النفس.

﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن وَلِيٍّ مِّن بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾﴾ إنّ الهدى هو هدى الله والضالّون لاوليّ لهم، وهاهم الظالمون يستغيثون حين يرون العذاب طالبين العودة إلى الحياة الدنيا ليتداركوا ظلمهم، ولا مجال بعد لذلك.

﴿وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَاء يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾﴾ ثمّ هم يوم القيامة يعرضون على النار، يعلوهم الذلّ والصّغار، ينظرون بأبصار منكسرة في حين يعلن المؤمنون انتصارهم وخسارة الكافرين لكل شيء كانوا يفاخرون به، لذواتهم وأهليهم وارتكاسهم في العذاب الأليم وفقدانهم لمن يلي أمرهم ويعينهم بعد أن ارتضوا العناد فأضلّهم الله ولا سبيل لهم للخلاص.

﴿اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾﴾ فلتبادر البشريّة للاستجابة لأوامر الله، والسير على منهجه القويم، وبدون ذلك لتنتظر يوم الحساب الآتي لا محالة، وحينئذ فلا ملجأ إلاّ إلى الله ولا اعتراض على حكمه النافذ.

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنسَانَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾﴾ فإذا أصرّ هؤلاء على العناد والإعراض فما على الرسول من بأس، وليس مكلّفاً بحفظهم من الهلاك، وإنّما هو مبلّغ لرسالة الله لا غير، ولهم أن يختاروا طريق الخير فيفلحوا، أو طريق الشرّ فيهلكوا. وهكذا هو الإنسان الغافل إذا شملته الرحمة الإلهيّة فرح بها واغترّ، فإذا أصابته مصيبة نتيجة فعله السيّئ راح يكفر بالله العظيم.

﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاء يَهَبُ لِمَنْ يَشَاء إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاء الذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاء عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾ والله تعالى مالك الكون وخالق كل شيء بقدرته وإرادته وواهب كل النعم ومنها الذريّة البشريّة، فيهب لمن يشاء إناثاً وللآخرين ذكوراً، ويزوّجهم من الذكور والإناث أو يجعل البعض عقيماً

لا يلد. وهكذا تستمرّ البشريّة تحت عطائه ورحمته وقدرته، لتحقّق أهداف خلقتها بهداية تكوينيّة وتشريعيّة منه.

﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاء حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاء إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ وقد فتح الله للإنسان الصالح المستعدّ باب الهداية التشريعيّة من خلال الوحي أو التكليم من وراء حجاب أو إرسال رسول من الملائكة ليبلّغ وحيه بإذنه وإرادته ما يشاء الله من أوامر ونواه، ينحصر بها طريق السعادة الإنسانيّة، والله هو العليّ على من عداه الحكيم العليم بحقيقة الإنسان وما يصلحه. والأحكام الالهيّة كلها تبتني على مصالح ومفاسد ندرك الكثير منها بعقولنا ولا ندرك الكثير أيضاً ولكنا نعلم إجمالاً أنّ كل الأحكام إنما جاءت رحمة بالبشرية وامتناناً عليها وعلى أساس من اللطف الإلهي والحكمة والعلم الواسع.

﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاء مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾ وهكذا أوحى الله لرسوله ليعلِّمه بواسطة الروح الأمين أوامره ، وإلاّ فإن الرسول الكريم لم يكن يعلم ماهي الشريعة، وماهي معالم الإيمان التفصيليّة، إلى أن منّ الله عليه بهذا النور الكاشف عن السبيل القويم، ليهدي به عباده الطالبين للحقيقة والسير على الخطّ المستقيم، والصراط الذي رسمه الله الخالق الرحيم مالك الكون وهادي الإنسان نحو العلاء، وإليه تصير الأمور كلها ليحكم فيها بحكمه القويم.

وقد جاء ختام السورة كبدئها مركّزاً على الوحي و على وحدة الدين، والمنطلق والطريق والهدف.

آياتها ٨٩ — سورة الزخرف (٤٣)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

البسملة آية قرآنيّة تحمل معاني رائعة.

﴿حم ①﴾ من الحروف المقطّعة.

﴿وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ② إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ③﴾ قسم بالقرآن الواضح في دلالاته لتأكّيد الهدف من إنزاله وعربيّته ووضوحه، إنّه يركّز العقلانيّة في اتباعه بعد أن غرقت البشريّة في جهلها وانحرافها الفكريّ والعمليّ.

﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ④﴾ إنّ للقرآن حقيقة علويّة ثابتة في اللوح المحفوظ في علم الله، تسمو بحكمتها وتعلو على كل المعاني الأخرى بما تملك من معانٍ وقيم.

﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ⑤﴾ ولكن هؤلاء لا يدركون قيمته وسمّوه، ويسرفون في أمره. ورغم ذلك فإن اللطف الإلهيّ يركّز عليه ويدعوهم إلى الهدى ويحذّرهم من الضلالة.

﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ ⑥﴾ ويذكّرهم بألطاف الله المتتالية بإرسال الأنبياء تباعاً إلى الأمم السابقة.

﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُون ⑦ فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ ⑧﴾ إلاّ أنّها لم تستفد من الفرص الإلهيّة واستهزأت بالأنبياء فأصابها الهلاك، وكانت أشدُّ بطشاً وقوّة فكان هلاكها مثلاً وعبرة للتاريخ.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ⑨﴾ لقد كان مشركو مكّة يعترفون بأنّ الله خلق الكون بعزّته وقدرته المطلقتين، ولكنهم لم يحقّقوا مقتضيات هذا الإيمان من طاعة الله وعبادته وعدم الشرك. إن التأمّل في هاتين الصفتين يؤدّى بوضوح إلى رفض الشرك؛ فلا معنى لتصوّر عزّتين وقدرتين مطلقتين، فالشرك يعني نقص القدرة فيه جلّ وعلا، كما يعني فساد الكون وانتفاء النظام.

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ⑩﴾ كل

الظواهر الكونيّة والنعم الكبرى تشهد له بالوحدانيّة والتفرّد ومنها تمهيد الأرض للحياة الإنسانيّة، وواضح أنّ التمهيد يعني خلق الأرض والقوانين الحاكمة فيها على شكل يحقّق كل متطلّبات الحياة، والعلم يكشف يوماً بعد يوم عظمة هذا الانسجام وأبعاده. وكل ذلك يتطلّب شكره وطاعته. والاهتداء بهديه.

﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاء مَاء بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾﴾ ومن هذه النعم الكبرى حركة الماء الموزونة ودورته في الطبيعة، هذه الحركة التي تهب الحياة للعباد والبلاد، وتحيي الأرض الميتة فتمنحها الخصب لتدلّ على أسلوب حيّ من الإحياء للقيامة.

﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ ومن النعم المتوالية ظاهرة الزوجيّة التي تدوم الحياة كلها بها، كما أنّ منها هذه القوانين التي لا تعدّ ولا تحصى، والتي تمهّد البحر والأنعام لتمكنَّ الإنسان في حركته في الأرض فيركب متنها، وبطبيعة الحال ليشكر واهبها معلناً له التسبيح والتنزيه والحمد على هذا التسخير العجيب، معبّراً عن عجزه هو عن تحقيق أيّ شيء من هذه النعم المتوفّرة، منتقلاً بعقله من هذا النظام العجيب إلى الهدفيّة فيه، وبالتالي إلى الإيمان بالحياة الأخرى والعودة إلى الله.

﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾ ولكنَّ الإنسان ينسى كل هذه النعم ودلالاتها التوحيديّة، ويجنح إلى الشرك والأساطير، فيزعم لله ولداً من عباده ويعتبره جزءاً منه وهم الملائكة ويعتبرها بنات له وهذا سخف وكفر واضح.

﴿أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ ﴿١٦﴾﴾ وإذا كان سبحانه متخذاً من عباده ولداً فلماذا يختار البنات ويخصّهم بالبنين.

﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾﴾ إنّهم ينسبون البنات لله الرحمن ويتألّمون إذا ولدت لهم بنت وبشّروا بها فيغمرهم الغضب حتّى لتسوّد وجوههم، وهم يسترون هذا الغضب خجلاً؛ لأنّ البنت إنّما تنمو في الحلية والزينة، ولا تملك منطقاً قويّاً عند الجدال، في حين ينمو الرجال في الفروسية ويمتلكون قدرة الردّ في الخصام والجدال.

﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴿١٩﴾﴾ هكذا تصوّر هؤلاء الجاهلون الملائكة وهم عباد الرحمن إناثاً، سخفاً من عند أنفسهم، وهم لم يحضروا عمليّة خلق الملائكة فليتحمّلوا إذن وزر هذه الشهادة الباطلة. وكأنّهم حين نسبوا الملائكة إلى الله تعالى وأنّهم بناته مع أنّهم يتشاءمون من البنت لانفسهم أرادوا أن ينتقصوا من هيبة الله وقدرته ونسبة العجز والضعف إليه تعالى عن ذلك علواً كبيراً.

﴿وَقَالُوا لَوْ شَاء الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُم مَّا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾﴾ ويستمرّ هؤلاء، في غيّهم وسخفهم فيزعمون أنّ الله راض عن عبادتهم للملائكة، ولو لم يكن راضياً لما سمح لهم بذلك، متناسين أنّهم اختاروا بإرادتهم هذا الضّلال والوهم دونما استناد إلى علم أو كتاب يستمسكون به.

﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ وحينما تتهاوى هذه الدعاوى الفارغة يلجأون إلى حجّة سخيفة أخرى، وهي مسألة استدامة سيرة الآباء وحفظ التقاليد والاهتداء بها.

﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾ وتلك حجّة كل المترفين المعاندين في مواجهة دعوة الأنبياء المنذرين، إنّها التمسّك بالتقاليد والسنن الماضية واقتفاء آثار الآباء دونما تدبّر وتفكير، أو حفاظاً على مصالح وامتيازات خاصّة.

﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾﴾ والقرآن هنا يهزّ وجدانهم وقناعاتهم القائلة بضرورة اتّباع الأفضل على كل حال. متسائلاً: هل كانوا سيبقون على هذا السلوك لو علموا بأن ماجاء به الرسول أهدى وأفضل مما وجدوا عليه آباءهم؟ إذن، فعليهم أن يتأمّلوا في الأمر ليكتشفوا الأفضل ، وهنا يصيبهم الفلج ولا يملكون منطقاً إلاّ العناد وإعلان الكفر، مما أهّلهم للانتقام والعاقبة السيّئة.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاء مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾﴾ وهنا يعيدهم القرآن إلى موقف إبراهيم ـ وهم يفتخرون بالانتساب إليه ـ

حيث واجه أباه وقومه المشركين بموقفه الرافض لهم، المتبرئ من شركهم براءةً لا رجعة فيها، والعائد به إلى ربّه الخالق والهادي له. وبذلك يعرض القرآن انحرافهم عن إبراهيم كما يوضّح موقف الرسول القويّ منهم.

﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ إنّها كلمة التوحيد والمواقف المبدئيّة التي تركها إبراهيم خالدة لدى أبنائه وذريّته عبر التاريخ، لعلّهم يرجعون إلى الحقّ في كل المسيرة.

﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاء وَآبَاءهُمْ حَتَّى جَاءهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَاءهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٠﴾﴾ ولكن هؤلاء المشركين الذين ينتسبون إلى إبراهيم والذين متّعهم الله ومتّع آباءهم من قبل بالخيرات حتّى جاءهم الحقّ متمثلاً في القرآن والرسول الواضح ، هؤلاء بدلاً من الإيمان به اتّهموه بالسحر وأعلنوا كفرهم به رغم وضوحه.

﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ وإمعاناً في العناد والتمويه راحوا يعترضون على نزول القرآن على الرسول الكريم باعتبار أنّه ليس من زعماء القبائل في مكّة والطائف، مما يكشف عن تدنّي القيم لديهم ، وتذرّعهم بالحجج الواهية.

﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾﴾ إنّ الرسالة رحمة إلهيّة يؤتيها الله من يشاء من النفوس السامية القادرة على حملها. وتتفاوت الاستعدادات لدى البشر، فتتفاوت الأرزاق وتختلف الدرجات الاجتماعيّة كي يستفيد البعض من الآخر، لتستمرّ المسيرة، والأرزاق مادّيّة ومعنويّة منسوبة للتكامل، والرحمة الإلهيّة هي أفضل الأرزاق.

﴿وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فَضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾﴾ إنّ هذه الدنيا لا قيمة لها ولولا خشية افتتان النّاس بها واجتماعهم على الكفر لوهب الله للكافرين بيوتاً سقوفها من فضّة، وسلالمها من ذهب يصعدونها ويظهرون للآخرين.

﴿وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِؤُونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾﴾ نعم لولا افتتان النّاس بالكافرين لوهبت لهم بيوت لها أبواب

كثيرة وفيها سرر للراحة، وزخارف للزينة، كل ذلك مما لا قيمة له بحساب الله، إنّه متاع الدنيا ولا يقاس إلى متاع الآخرة المعدّ للمتّقين المكرّمين عند ربّهم بالخصوص، فهو القيمة الحقيقيّة.

﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾﴾ أمّا من تعامى عن ذكر الله فقد قرن الله به شيطاناً ملازماً يسوقه نحو الهاوية والانحراف عن السبيل القويم ويزيّن له هذا الضياع.

﴿حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ ﴿٣٨﴾﴾ وعندما يعود إلى ربّه ويقف على الحقيقة ينفر من هذا الشيطان، متمنّياً أن لو كان ابتعد عنه بمقدار ما بين المشرق والمغرب فبئس القرين الغاوي.

﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾﴾ إنّها مسيرة مشتركة في خطّ الضلالة تؤدّي إلى مصير مشترك في العذاب.

﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَن كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾﴾ وما على الرسول من أمرهم شيء، إنّهم صمّ لا يمكن إسماعهم، وعمي لا يمكن هدايتهم بعد أن غرقوا في الضّلال الواضح. وإذا فارقهم الرسول فإنّهم سيتعرّضون للانتقام الإلهيّ، وإذا استمرّ بينهم فسيرى تحقّق الوعد الإلهيّ وتجلّي القدرة الإلهيّة عليهم.

﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ وليثبت الرسول على خطّ الحقّ الموحى إليه، فهو الصراط المستقيم، وهو تذكير للرسول وقومه، وسوف يسألون جميعاً عن تبعات حمل هذا الذكر ومدى القيام بها. وما يزال القرآن يعمل على تقوية قلوب المؤمنين عبر المراحل المختلفة من عمر الدعوة الإسلاميّة وتذكيرهم بالهدف ومسؤوليّتهم الكبرى عن تحقيقه، وربطهم بمسيرة الأنبياء العابدة لله، والرافضة لكل الآلهة المزيّفة والمطلقات الموهومة.

﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾

إنّها رسالة التوحيد التي حملها جميع المرسلين، فدعوا إلى الله ونبذوا كل ما دونه من آلهة مزيّفة، ولم يأبهوا لكل العقبات.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٦﴾﴾ وهذا النبيّ موسى أرسله الله بآياته إلى فرعون وقومه المترفين المتكبّرين ليعلن لهم رسالته بكل قوّة.

﴿فَلَمَّا جَاءهُم بِآيَاتِنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾﴾ فما كان منهم إلاّ أن استهزأوا بهذه الرسالة، وهذا هو شأن الطغاة والذين لا يملكون دليلاً وحجّة منطقيّة.

﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾﴾ وتتابعت الآيات والدلائل كل آية أكبر من أختها، وحتى أنّ العذاب كان يتنوّع ويتتابع عليهم، عسى أن يرجعوا عن غيّهم.

﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾﴾ ولكنّهم لا يرعوون وإنّما يخاطبونه (يا أيها الساحر) ويطلبون منه أن يكشف عنهم العذاب بدعائه لربّه بما عهد عنده، فهم غارقون في العذاب ولكنهم معاندون كافرون رغم أنّهم كانوا يعدونه بالإيمان، ولذا نكثوا وعدهم بعد أن كشف عنهم العذاب.

﴿وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾﴾ ويحاول فرعون أن يخدع الجماهير بقدرته وملكه لمصر والأنهار التي تجري فيها، ليثبت لهم أحقيّته بهذه المظاهر الحسّيّة الزائفة التي يفتقدها موسى الفقير المستضعف الذي لا يكاد يستطيع التعبير عن مراده لعقدة في لسانه.

﴿فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاء مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾﴾ وزيادة في التمويه على الجماهير يذكّرها بأنّه لو كان موسى رسولاً لأمكنه أن يجلب أسورة وأطواقاً من ذهب ولجاءت معه الملائكة مقترنة حافّة به.

﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٤﴾﴾ وهكذا هي سيرة الجبابرة إذ يستضعفون الجماهير ويستخفّونها ويقلّلون من قدرتها على التّأثير والتفكير والمحاسبة، ويسخّرونها لمصالحهم فتطيعهم بعد أن تنسى ذواتها وتغترب عن قدراتها وتفسق عن طبيعتها.

﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾ إنّهم أغضبوا الله وآسفوه فاستحقّوا النقمة وأُغرقوا أجمعين. وهكذا يعتبر القرآن ويصرّح

بكل وضوح بأن إطاعة الطغاة والجبابرة فسق وخروج عن الطريق السويّ والحكم الإلهيّ، ويستحقّ العذاب في الدنيا والآخرة.

﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾﴾ وعندما ذكر عيسى بن مريم مثلاً للعظمة والقدرة الإلهيّة والطاعة والعبوديّة لله راح المشركون يجادلون فيه، ويستهزئون ويعرّضون به ويعلنون أنّ آلهتهم خير منه؛ لأنّهم كانوا يعبدون الملائكة فلا يقاس إليها ما يعبده النصارى من شخص عيسى! وربما شكّكوا في ولادته من غير أب، كل ذلك جدالاً ومراءً وعناداً للحقّ.

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٥٩﴾﴾ والحقيقة الناصعة هي أنّه عبدلله أنعم الله عليه بالنبوّة والطاعة، وتجلّت فيه القدرة الإلهيّة، وعاد قدوةً لبني إسرائيل.

﴿وَلَوْ نَشَاء لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾﴾ والملائكة أنفسهم مخلوقات مطيعة لله، ولو شاء الله لرفع البعض من النّاس إلى مستوى الملائكة ليخلف بعضهم بعضاً في الأرض.

﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾ إنَّ ولادة عيسى من غير أب علامة على قدرة الله على إحياء الموتى وإقامة الساعة. وعودة المسيح إلى الدنيا من علاماتها، فلا مبرّر للإنكار، بل يجب الاستعداد لها باتّباع الرسول، فهو الذي يرسم لهم صراط النجاة المستقيم.

﴿وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾﴾ هذه هي حقيقة الأمر، فيجب أن لا يستمعوا لوساوس الشيطان؛ لأنّه ينطلق من عدائه البيّن ليغوي الإنسان ويصدّه عن الحقيقة.

﴿وَلَمَّا جَاء عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾﴾ لقد كان عيسى من أنبياء الله الذين يحملون البيّنات من الله والحكمة، والذين يرسمون للبشريّة المنطق الفصل في الحياة، فتجب خشية الله واتّباع رسوله وإطاعته.

﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾﴾ إنّه الله ربّ الجميع، ومن الحقّ أن يعبدوه بكل معاني العبادة؛ لأنّ ذلك هو الصراط المستقيم للكمال والنجاة في الآخرة.

﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾﴾ إلاّ أنّ أمّة عيسى اختلفت وتوزّعت على أحزاب وفرق مؤمنة وظالمة، فلينتظر الظالمون منهم العذاب الأليم.

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾﴾ إنّ السّاعة والقيامة حقيقة لامراء فيها، ويبقى علمها عند الله، وسوف تأتيهم فجأة والناس في غفلة فيجب الإعداد والتنبه لها.

﴿الْأَخِلَّاء يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾ إنّها حدث عظيم تختلف فيه الظواهر، فإذا المتّفقون في الدنيا على الانحراف يختلفون يوم القيامة ويتعادون، فلا جامع فيه إلاّ تقوى الله والمتّقون هم الفائزون بالخلّة والصداقة الحقيقية.

﴿يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٧١﴾﴾ المتّقون هناك هم الفائزون، ودادهم مستمرّ من الدنيا إلى الآخرة، لا يصيبهم الخوف من الآتي والحزن على الماضي؛ لأنّهم آمنوا بآيات الله وأسلموا أمرهم له، فكان جزاؤهم الجنّة، لهم ولأزواجهم من أهل الإيمان، يعيشون في حبور وفرح دائم وحياة رغيدة يطاف عليهم فيها بصحون ذهبيّة وأكواب رائعة ويحصلون على كل ما تشتهيه أنفسهم وتستلذّه أعينهم خالدين في النعيم.

﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾﴾ إنّها جنّة الله ورثها المؤمنون العاملون بما فيها من ثمار وإشباع دائم في ظل الرضا الإلهيّ، وهل يهفو الإنسان إلى أكثر من ذلك؟

﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ﴿٧٦﴾﴾ وعلى الجانب الآخر يعاني المجرمون المعاندون من عذاب جهنّم الذي لا يهدأ لحظة ولا يبرد هنيهة فلا أمل بالخلاص وإنما هو اليأس القاتل والخلود في العذاب، كل ذلك نتيجة ظلمهم وعنادهم لا غير.

﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ ﴿٧٧﴾﴾ ويلجأون إلى مالك

خازن النيران والملك الموكّل بجهنّم طالبين الهلاك والنهاية والقضاء عليهم من قبل الله، ليأتيهم النداء الرهيب: إنكم باقون في العذاب.

﴿لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴿٧٨﴾ أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾﴾ ولقد قاوموا الحقّ الذي جاءهم في الدنيا وكرهوا اتّباعه، وهو الأحقّ بالاتّباع، وأصرّوا على موقفهم المعاند وهاهم اليوم يواجهون الموقف الحازم.

﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾﴾ هل يحسب هؤلاء أنّ الله لا يعلم سرّهم وتآمرهم في الخفاء؟ كلا، إنّ رسل الله وملائكته يكتبون كل صغيرة وكبيرة فلا يفلت من علم الله شيء.

﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ وأعظم فرية يفترونها على الله أسوة بالنصارى هي ادّعاء الولد لله، والرسول هنا يؤمر ليقول لهم بأنّه لو كان لله ولد فهو أول المؤمنين العابدين المطيعين لهذا الولد بمقتضى بنوّته لله ولكنه يستحيل ذلك على الله سبحانه.

﴿سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾﴾ سبحانه فهو ربّ الكون كله بما فيه النقطة التي تديره كلّه، سبحانه المنزّه عما يصف هؤلاء الجاهلون.

﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾﴾ إنّهم يخوضون في الأوهام، ويلعبون بعقولهم، حتّى يلاقوا يوم الحساب الموعود.

﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾﴾ إنّه تعالى إله السماء وإله الأرض، إله الكون كله الحكيم العليم المطلق.

﴿وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾﴾ إنّه العظيم المالك للكون كله المفيض عليه بالبركة والعليم بكل شيء، العليم بالساعة، حيث ترجع الخلائق إليه.

﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾ وتتجلّى هناك الولاية للحقّ تعالى ولا تملك الآلهة المزعومة أيّ قدرة على الشفاعة لهؤلاء، إنّ الشفاعة إنّما تكون للذين آمنوا وشهدوا بالحقّ عالمين به.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾﴾ لقد كان المشركون يؤمنون

بالله الخالق، ولكن يزعمون له شركاء إفكاً وزوراً.

﴿وَقِيلِهِ يَارَبِّ إِنَّ هَؤُلَاء قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾ ويلجأ الرسول إلى ربّه شاكياً قومه إليه، بأنّهم لا يؤمنون رغم الدلائل والبراهين والبيّنات.

﴿فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾ ليأتيه التوجيه الإلهيّ بأن يعفو ويصفح ولا يأبه بذلك، وإنّما يسالمهم حتّى يأتي يوم الحقّ.

سورة الدخان (٤٤)

آياتها ٥٩

بِسْمِ اللّٰه الرَّحْمَنِ الرَّحِيم

مر بنا الحديث عن البسملة.

﴿حم ①﴾ من الحروف المقطّعة التي يتألّف منها الكتاب الكريم معجزة الرسالة الخالدة.

﴿وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ② إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ③ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ④ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ⑤﴾ قسم بكتاب الله الواضح على إنزاله من الله في ليلة فيها البركة كل البركة على البشريّة كلها، بعد أنّ مهّد لذلك كل الأنبياء ليعدّوا البشريّة للعمل بهذا النهج الخالد المنسجم مع الفطرة. والظاهر هو الإنزال الكامل إجمالاً، وفي ليلة القدر المباركة على قلب الرسول لصياغته وتأهيله، ولكنّ الإنزال التدريجي سار مع مسيرة الدعوة لتربية الأمّة، وإنذارها وإعطائها المعيّار الفاصل الحكيم بين الحقّ والباطل، بلّغه الرسول الكريم بأمر الله.

﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ⑥﴾ إنّه المظهر الكامل للرحمة الإلهيّة بالبشرية، وهي أساس إرسال الأنبياء وهداية البشريّة إلى أفضل منهج للسعادة، قائم على علم الله بالإنسان وعلاقته بالكون، وما ينبغي له أن يعرف ويسلك ليحقّق هدف خلقته.

﴿رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ⑦﴾ إنّه تعالى ربّ الكون الذي تتجه إليه الفطرة، وتتيّقن منه العقول.

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ⑧﴾ إنّه الإله الواحد الحي المحيي والمميت، وهو ربّ البشريّة كلها.

﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ⑨﴾ أمّا هؤلاء المعاندون فهم غارقون في أوهام الشكّ، يلعبون ويلهون بعيدين عن الواجب والتكليف والإعداد للمستقبل.

﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاء بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ⑩ يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ⑪ رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ⑫ أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ⑬ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ⑭﴾ تهديد لهم بآية إلهيّة هي الدخان الواضح الذي يسدّ

عليهم منافذ الحياة، ويوقع النّاس في عذاب أليم، فيجأرون إلى الله طالبين كشفه عنهم واعدين بالإيمان، ولكنهم غارقون في غفلتهم لا يستطيعون أن يتذكّروا بعد أن وقفوا بوجه الرسول المبين عن الحقّ، والحامل لكل مقتضيات الصدّق فاتهموه بكسب العلم من الآخرين ووصفوه بالجنون.

﴿إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ﴿١٥﴾﴾ فإذا كشف عنهم العذاب قليلاً عادوا إلى غيهم وسفههم.

﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾﴾ فاستحقّوا الانتقام الكبير والبطش العظيم.

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾﴾ إلاّ يعتبر هؤلاء بمصير قوم فرعون من قبل الذين غرقوا في الغفلة، وأسرفوا في النعمة، وكذّبوا برسولهم الكريم.

﴿أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾﴾ الذي دعاهم أن يفرّجوا عن عباد الله(بني إسرائيل) الذين كانوا تحت سيطرة وأسر فرعون كما دعاهم للعمل برسالته وأنه رسول أمين على وحي الله.

﴿وَأَنْ لَّا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾﴾ ونهاهم عن التكبّر على الله حاملاً معه البرهان الساطع مستعيذاً بربّه وربّهم من أن يرجموه ويعذّبوه.

﴿وَإِنْ لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَؤُلَاء قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ وإن لم يشاؤوا الإيمان فليعتزلوه، ولكنهم أصرّوا على العدوان فدعا ربّه عليهم معلناً أنّ الإجرام قد تأصّل فيهم.

﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾﴾ فأمره الله أن يتحرّك بالمؤمنين من عباده ليلاً؛ لأنّ قوى فرعون تتّبعهم.

﴿وَاتْرُكْ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾﴾ كما أمره بعبور البحر بعد أن انشقّ له طريق واسع فيه، فعبره وتركه كذلك ليدخله جيش فرعون مما يؤدّي به إلى الغرق.

﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ﴿٢٧﴾﴾ وهكذا تجلّت القدرة الإلهيّة وغرق الظالمون المسرفون، تاركين وراءهم جنّات وعيوناً كثيرة ومحاصيل زراعية وافية ومقامات ومساكن زاهية، ونعماً كانوا يتفكّهون فيها ويتمتّعون.

﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿٢٨﴾﴾ وكذلك هلك هؤلاء الطغاة، وأورث الله ما تركوه للآخرين وهم بنو إسرائيل.

﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاء وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ لقد رحلوا غير مأسوف عليهم، وكأنَّ نتوءاً غريباً تمّت إزالته ولم يكن باستطاعتهم أن يمنعوا ما حل بهم عند حلول أجلهم. فالتأجيل والإمهال إنّما يكونان لاحتمال التغيير والإصلاح، ولم يكن ذلك متوفّراً في فرعون وقومه.

﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِّنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾﴾ ومنّ الله بذلك على بني إسرائيل ونجّاهم من العذاب المذل الذي كان فرعون يصبّه عليهم بكل جبروته وإسرافه، في تجاوز خطّ الاعتدال إلى أعلى درجات الظلم.

﴿وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَآتَيْنَاهُم مِّنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاء مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾﴾ وقد اختارهم الله لحمل رسالته بعد أن علم فيهم قدرة حملها دون غيرهم، وبعد أن امتحنهم بأنواع البلاء، ومحّصهم فرآهم الأفضل لهذه المهمّة الكبرى، ومنحهم كل الآيات التي تحقّق هذا الهدف الكبير، وإن كانوا نكصوا وانقلبوا على هذه المهمّة ولم يستقيموا، فواجهوا بتآمرهم رسالة عيسى ورسالة الإسلام.

﴿إِنَّ هَؤُلَاء لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٦﴾﴾ عودة إلى المشركين في عصر الرسالة وردٌّ على دعواهم بإنكار البعث والنشور، وأنّ الأمر يقتصر على هذه الموتة الأولى لا غير وإلاّ فهل يستطيع الرسول أن يحيي آباءهم إن كان صادقاً.

﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾﴾ وقبل أن يجيبهم يذكّرهم بقوم تُبَّع من ملوك حمير، ومن سبقوهم من الجبابرة الذين كذّبوا وأجرموا فاهلكهم الله، مع أنّهم كانوا أقوى وأشدَّ من هؤلاء.

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴿٣٧﴾ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾

هذا هو الردّ القاطع على ذلك التكذيب، إنّه توجيه الفكر إلى الهدفية الرائعة المشهودة

حسّاً في خلق الكون، فلا خلل ولا عبثية بل خلق بالحقّ وإن لم يعلم ذلك أكثرهم.

وتتكشف يوماً بعد يوم عظمة التنسيق الكوني لتمتلئ النفوس بالإيمان بالهدفية وبالتالي الإيمان بالآخرة.

﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٤٠ يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ۝٤١ إِلَّا مَن رَّحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۝٤٢﴾ إنّ القيامة هي يوم الفصل والحساب، وهي ميقات جميع الخلائق، وبه تتحقّق الهدفية ويعود الحقّ إلى نصابه ويُجزى الجميع بما عملوا دونما نصير أو شفيع إلاّ من رحمه الله ونصره وقبل الشفاعة فيه، وهو العزيز الرحيم بعباده.

﴿إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ ۝٤٣ طَعَامُ الْأَثِيمِ ۝٤٤ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ۝٤٥ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ ۝٤٦﴾ ما أتعس مصير المجرمين هناك في الجحيمطعامهم شجرة الزقوم كريهة الرائحة الملوّثة بالمواد المنفرّة السائلة تغلي في البطون كما يغلي النحاس الذائب.

﴿خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ ۝٤٧ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ۝٤٨ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ۝٤٩ إِنَّ هَذَا مَا كُنتُم بِهِ تَمْتَرُونَ ۝٥٠﴾ ويأتي النداء الرهيب خذوه وشدوه إلى قلب الجحيم، ثمّ صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم، ثمّ يأتي التنكيل اللاّئق به: ذق إنّك أنت العزيز الكريم، استهزاءً به ونكاية وجزاءً على ما كان يكذّب به وما يدعيه من العزّة والكرامة.

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ۝٥١ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۝٥٢ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَابِلِينَ ۝٥٣ كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ ۝٥٤ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ ۝٥٥﴾ وفي قبال هذا المنظر الرهيب يعرض هذا المنظر الرائع، حيث يقيم المتّقون في مقام أمين فلا خوف ولا حزن، بل نعمة وجنّات وعيون ولباس مريح من حرير ناعم (سندس) وسميك (إستبرق) وجلوس متقابل وسمر، وزواج بالحور العين، وتمتّع بما تشتهيه الأنفس مع الأمن من انقطاع هذا النعيم.

﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ۝٥٦﴾ إذ لا موت بعد موتتهم الأولى، بل هو خلود دائم في العطاء وبعد عن العذاب.

﴿فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۝٥٧﴾ إنّه الفضل الإلهيّ وهو الفوز العظيم.

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۝٥٨﴾ تلخيص لهدف السورة الكريمة، وأنّ هذا

القرآن الكريم أنزل على رسول الله فتلاه بلغة واضحة هي العربية لعلّ هؤلاء يخرجون من غفلتهم ويعودون إلى فطرهم، فيؤمنون ويعملون به ويطبّقونه في حياتهم ويحملونه للآخرين.

﴿فَارْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾ وإذا لم يتذكّروا فلينتظر الجميع أهوال القيامة. وهكذا تركّز هذه الآيات كما في غيرها أيضاً، وبشتى العبارات والأساليب على موضوع التخويف من الأهوال والعقاب الشديد المرعب الذي لا يمكن تحمّله للحظة فكيف يمكن الخلود فيه وتحمّل أهواله. والترغيب في الجنّة والثواب، وكل ذلك لإعداد الأمّة الواثقة من رسالتها ودورها في الحياة. والتي يراد لها أن يغيّر التاريخ وتمشي على قمم العصور. وسيظهر الزمان الدور الذي سيقوم به الإسلام في صنع الحضارة.

سورة الجاثية (٤٥)

آياتها ٣٧

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تحدثنا من قبل عن البسملة.

﴿حم ﴿١﴾﴾ من الحروف المقطّعة

﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾﴾ إنّه الكتاب المعجز المنزل من الله تعالى ذي العزّة والحكمة هداية للبشرية، ولطفا بها لتستفيد من هذه الهداية التشريعية، وتحقّق هدف خلقتها.

﴿إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾ وإنّ التأمّل في هذا الكون الفسيح وعجائبه يؤدّي إلى الإيمان.

﴿وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾﴾ وكذلك يؤدّي إليه التأمّل في خلق الإنسان وعظمة التنسيق فيه، وفي الدواب التي لا تحصى أنواعها وكلها تؤدّي وظائفها مسخّرة لخدمة الإنسان، مما يركّز اليقين بالله وعزته وحكمته.

﴿وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾﴾ وهذا التناوب الكوني في الليل والنهار ودوره المحسوس في تسهيل الحياة الإنسانيّة، وهذا المطر الوهوب الذي يحيي الأرض بعد موتها، وحركة الرياح التي تؤدّي أدواراً كبرى في حياة الإنسان، كل هذا التناسق في قوانين الخلقة يهزّ الوجدان، ويدفع العقل إلى الإيمان.

﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾﴾ إنّها آيات الله تتلى بالحقّ وتنسجم مع الواقع والفطرة وتصنع الإيمان، وإذا لم تستطع أن توجده بسبب العناد فإن الإنسان سيبقى تائهاً لا يؤمن بأية قيمة، وحينئذ فالضياع كل الضياع.

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾﴾ إنّ الهلاك هو جزاء كل كذّاب آثم يرى ويسمع آيات الله البيّنات تتلى عليه، ثمّ يبقى على عناده مستكبراً وكأنّه لم ير الحقيقة، فليبشر بالعذاب الأليم.

﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾﴾ إنّه عندما يستمع إلى آيات الله يستهزئ بها فيستحقّ العذاب المذلّ.

﴿مِن وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُم مَّا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاء وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ إنّ هؤلاء سوف تلاحقهم جهنّم يوم القيامة، ولا تنفعهم أموالهم ولا أولادهم ولا الآلهة التي زعموها من دون الله ولهم عذاب عظيم.

﴿هَذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مَّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾ إنّ القرآن هدىً ونور، أمّا الكافرون به فلهم العذاب الأليم.

﴿اللَّهُ الَّذِي سخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾﴾ لقد منَّ الله على البشريّة فسخَّر لها ظواهر الكون ومنها البحار، حيث تسمح قوانينها الهائلة للفلك لتسري بأمر الله وفضله وحكمته ـ فتشبع حاجات البشر، وكل ذلك يدفع الإنسان للإيمان والشكر.

﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لَّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾ إنّ هذا التناسق وتوافر الظواهر لتسهيل الحياة الإنسانيّة، يسير بالفكر الإنسانيّ إلى الإيمان بالخالق المنظّم الرحيم الحكيم.

﴿قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لا يَرْجُون أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِما كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ يدعو القرآن المؤمنين إلى الصبر في قبال المشركين، والعفو عن سيئاتهم، خصوصاً وهم في حالة ضعف، ولجذبهم للإسلام كما حصل، وإيكال أمرهم إلى الله.

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاء فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾﴾ هذه هي الحقيقة، إذ يعود العمل الصالح بالخير على نفس العامل، في حين يعود العمل الطالح بالشر عليها، وهنا تلتحم المصالح الفردية والإجتماعية ثمّ يعود الجميع إلى الله، وبذلك يتحقّق مقتضى الهدفية.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾﴾ لقد أوتي بنو إسرائيل الكتاب الإلهيّ، والقيادة الدينية والدنيوية، وأعطاهم الله الطيّبات وفضّلهم بذلك على العالمين؛ لأنّهم كانوا في البدء مؤهّلين لذلك.

﴿وَآتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾﴾ وساروا يحملون النور الإلهيّ والبيّنات

من أمر الدين والدنيا، ولكن علماءهم لم يحفظوا هذه الأمانة جيداً بل دعتهم مصالحهم الضيّقة إلى البغي والعدوان والاختلاف في الدين والتمزّق في المذاهب والمواقف، رغم ماجاءهم من العلم الذي يدعوهم إلى الوحدة في الموقف العملي، وحمل الأمانة بقوّة، وحينئذ فقدوا أهليّة القيادة في الأرض، وسيقضي الله بينهم يوم القيامة فيما اختلفوا وتنازعوا فيه.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاء الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾﴾ وتحوّلت القيادة والأمانة إلى هذا الرسول فليحملها بقوّة، ولا يأبه لأهواء الجاهلين والطامعين والمساومين.

﴿إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾﴾ فهؤلاء لا قيمة لهم عند الله، وإنّما يتولّى بعضهم بعضاً دون أن يمنحهم ذلك قوّة ووزناً، وتبقى الولاية الحقيقيّة لله وهو ولي المتّقين. وشتّان ما بين الولايتين.

﴿هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾﴾ إنّ النور والبصائر الهادية والمعايير الحقيقيّة واللطف والرحمة تكمن في القرآن، شريطة أن يوقن الإنسان به ويتفاعل معه، وينظر إلى الأمور بدقّة وبصيرة، بعيداً عن السطحية والتبسيط.

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَّن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاء مَّحْيَاهُم وَمَمَاتُهُمْ سَاء مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾﴾ هما إذن خطان متمايزان لا يتساويان عند الله، يختلفان في المحيى والممات، خطّ يحمل النور والهدى ويعمل الإنسان بمقتضاه صالحاً، ويؤمن بأنّه سيعود إلى ربّه فيجزيه الجزاء الأوفى، وخط يعيش به في عمىً ويرتكب السيئات، ويرى أنّه يفنى إذا مات فلا حساب. والحكم بتساوي الفريقين عند الله، سواء كان في الحياة أو الممات حكم سيئ وسخيف.

﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ هذا ما يقتضيه المنطق السليم، فإن الكون كله مخلوق لله وعلى أساس من الحقّ والقيم الثابتة، وستعود الخلائق إلى ربّها لتجزى كل نفس بما فعلت بالعدل والفضل، فلا يمكن أن يتصوّر الظلم في هذا النظام.

﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى

بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ توضيح إضافي للفرق بين الفريقين: ذلك أنَّ فريق الباطل يعيش في عمىً وضياع ويفقد معالم الإنسانيّة وتختل القيم لديه، فهواه إلهه، ولا مجال في سلوكه لعقل أو فكر أو إرادة واعية، وإنما هي العواطف الجامحة والضلال، رغم علمه بالحقيقة، ولكنه لا يتّبع علمه بل يسير أعمى خلف هواه، وكل منافذ الهدى لديه مغلقة، سمعه وبصره معطّل؛ لأنّ الأساطير تعطّل رؤيته، ولأنّ الأوهام والأصنام لا تهدي أحداً فالهدى بيد الله لا غير لو تذكّر المتذكّرون.

﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾﴾ هكذا هو التصوّر القاصر لهؤلاء السطحيين ـ قديماً وحديثاً ـ فالحياة هي هذه الحياة والأجيال تتعاقب على مسرحها، والزمان هو الذي يفرض ذلك دونما وعي ولا هدف. إنّها هي السخافة والوهم لا غير.

﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٥﴾﴾ فإذا جاءتهم الأدلّة القاطعة راحوا يتذرّعون بالحجج الواهية، ومع أنّ الحديث عن المعاد وإعادة الموتى إنّما هو في الآخرة والقيامة، فإنّهم يتحدّون الرسل أن يرجعوا إليهم آباءهم الذين ماتوا في هذه الدنيا إن كانوا صادقين.

﴿قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾ إنّ الله هو المحيي والمميت، وهو الجامع إلى يوم الحساب الذي لا ريب فيه، حتّى لو أنكره أكثر الناس.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ فلله القدرة المطلقة وله الملك في الكون يحكم ما يشاء، وسيعلم هؤلاء أنّ الخسران الحقيقيّ سيكون من نصيبهم يوم القيامة.

﴿وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾﴾ حيث تجثو الأمم على ركبها هناك تنتظر مصيرها وتدعى إلى حسابها لتجزى، وتواجه حقيقة أعمالها التي تتجلّى عذاباً لها.

﴿هَذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ

آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ إنّ كل ما عملته هذه الأمم محفوظ في كتاب ناطق بالحقّ لا يغادر صغيرة ولا كبيرة، فأمّا المؤمنون العاملون فأمامهم رحمة ربّهم ولهم الفوز المبين، وأمّا الكافرون فلهم التبكيت والتساؤل القاتل عما بدر منهم، إذ كانت آيات الله تتلى عليهم فيستكبرون ويجرمون.

﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾﴾ وعندما كانت عقولهم تذكّرهم بأنّ الله قادر وصادق في وعده، وأنّ القيامة حقيقة لا ريب فيها كانوا يشكّكون فيها ويدّعون أنّهم يعيشون الظن ولا يستيقنون.

﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُون ﴿٣٣﴾﴾ هاهي أعمالهم السيّئة تبدولهم مجسّدة بما لها من عواقب، وهاهي اليوم جهنّم التي كانوا يكذّبون ويستهزئون بها. تحاصرهم من كل جانب.

﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاء يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمْ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَلِكُم بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾﴾ وتنكيلاً بهم يقال لهم: اليوم ننساكم كما نسيتم هذا اليوم فذوقوا عذاب النار من دون وليّ يلي أمركم أو نصير، بعد أن كنتم تستهزئون بآيات الله غارقين في الإغراءات الدنيوية، فلتغرقوا في العذاب بلا أمل في النجاة ولا قبول للعذر.

﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ الْكِبْرِيَاء فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾﴾ إنّه صوت الحقيقة يعلو بالحمد المطلق لله ربّ الكون وربّ العالمين، له العظمة والجلال، له وحده العزّة والحكمة، فلتسبح بحمده الكائنات كلها.

سورة الأحقاف (٤٦) آياتها ٣٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تحدثنا من ذي قبل عن معاني البسملة وجزئيتها للسورة.

﴿حم ۝١﴾ من الحروف المقطّعة.

﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ۝٢﴾ تأكيد على أنّ الله أنزل هذا الكتاب من عنده، وعلى أساس من عزّته وعلمه وحكمته ليهدي البشريّة لأفضل سبيل لعلائها.

﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ ۝٣﴾ وخلق الكون بالحقّ وكون ذلك إلى أجل معيّن ولهدف مقدّر، يشكّل تجلّياً للعزّة والقدرة والحكمة الإلهيّة، وهو ما يجب أن يتركز في وجدان الإنسان بعد أن يلاحظ هذا التنسيق الدقيق في الآفاق وفي نفسه.

أما الكافر فهو بعيد عن الوعي، معرض معاند، يشرك بالله موجودات مزيّفة.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۝٤﴾ وهذه الآلهة المزيّفة ما قيمتها وما أثرها في الأرض أو في السماء، وهل جاء ما يدلّ عليها من كتاب أو بقيّة من علم؟ إنّ هذا التساؤل من شأنه أن يهزّ وجدانهم ليكفروا بهذه الآلهة ويعبدوا ربّ هذا الكون الذي خلقه وأداره بدقة ونظم هائل وأرسل رسله تترى لهداية البشرية.

﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَومِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ۝٥﴾ نعم هو الضّلال البعيد أن يدعو الإنسان إلهاً من دون الله لا قيمة له ولا يستجيب لداعيه إلى يوم القيامة؛ لأنّه غافل عاجز ضعيف لا يسمع ولا يعقل وليس بيده شيء فكيف يستجيب لمن يدعوه ويحقق له غرضه؟

﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاء وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ۝٦﴾ وسوف تكون هذه الآلهة المزيّفة أعداءً لعبدتها تكفر بعبادتهم وتستنكرها.

﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧﴾

إنّ العناد يتأصّل في نفوس الكافرين حتّى إذا ما واجهوا الحقّ والآيات البيّنات راحوا يصفونها بالسحر والوهم.

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَى بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٨﴾﴾ ثمّ إنّهم ينسبون الافتراء إلى الرسول، ولكنه يؤمر بالردّ عليهم وتذكيرهم بأنّه لو كان افترى فمن الذي يحميه من الله القادر على كل شيء والعالم بكل ما يطرحه هؤلاء من افتراء وتكذيب واتهام، فكفى بالله شهيداً بعد أن أنزل إليه هذا الكتاب المعجز، وإجراء المعجزة على يديه شهادة على صدقه، وبعد كل ذلك ليعد هؤلاء إلى الله ويستغفروه وهو الغفور الرحيم.

﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنْ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾﴾ لم يكن الرسول إلاّ على نهج الرسل السابقين يقول أقوالهم ويدعو إلى ما دعوا إليه، وهو مثلهم عبد مطيع لله لا يعلم إلاّ ما يعلّمه الله، ولا يدري ما يريده الله به وبمخاطبيه، إنّه إنمّا يتّبع ما يوحى إليه وما هو إلاّ نذير ومبلّغ عن الله، واضح في إنذاره. وهو يعمل بتكليفه.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠﴾﴾ إنّه من التهوّر أن يكفر به هؤلاء المشركون، رغم احتمالهم أن يكون من عند الله ـ وهم يعرفون الرسول بالصدق والأمانة ـ ، خصوصاً بعد أن شهد بعض الشهود من بني إسرائيل على صدق معلوماته وانسجامها مع دعوات الرسل السابقين وبالتالي آمن به وصدّقه، مما يدعو هؤلاء إلى إعادة النظر في موقفهم، فإن لم يفعلوا ذلك ظلموا أنفسهم واستحقّوا الضلال.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾﴾ من مقولات الكافرين وتبريراتهم لتكذيبهم بالرسالة قولهم: أن لو كان فيها خير لم يسبقهم المؤمنون إليه لما يمتازون به من مكانة! والواقع هو أنّهم ينطلقون من كبر وتعال على الحقّ ولأنّهم لم يهتدوا، فهم يعتبرون الرسالة إفكاً وزوراً قديماً.

﴿وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ الَّذِينَ

ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾ إنّ هذا القرآن سبقته كتب إلهيّة هدت أممها وقادتها للحقّ، وعلى نفس النهج وتصديقاً للرسل جاء القرآن بلسان عربي واضح إماماً ورحمة، منذراً للظالمين ومبشراً للمحسنين.

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾﴾ إنّ الذين دانوا لله بالربوبيّة وعملوا بمقتضياتها واستقاموا على الخطّ هم الفائزون حقاً، فلا يخافون من المستقبل ولا يحزنون على ما فات.

﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاء بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾ إنّهم ينالون أعظم ما يمكن أن يتمنّاه إنسان، وهو الخلود في النعيم جزاء بما كانوا يعملون.

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾﴾ إنّها وصية للنوع الإنسانيّ أن يحسن لوالديه ولا ينسى ما بذلاه من تضحيات وخصوصاً الأم في زمان الحمل والوضع، حيث المعاناة الشديدة والرضاع ثمّ الفصال عنه الذي يبلغ جميعه بطبيعة الحال ثلاثين شهراً، وعندما يبلغ الإنسان أربعين سنة يصل إلى أوج نضجه وتكمل طاقاته ويتوجّه إلى الله أن يوفقه لشكر النعمة عليه وعلى والديه، وعمل الصالحات، ويدعوه أن يديم نسله في طاعته ـ فالنسل غير الصالح غير مرغوب فيه ـ ويعلن التوبة والاستسلام لربّه هذا ولعلّ الآية تشير إلى شخص بعينه دون الحديث عن النوع الإنسانيّ.

﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾﴾ مثل هذا المؤمن مؤهّل للقبول، والغفران والدخول في أصحاب الجنّة، كما وعدوا وعداً صادقاً من الله.

﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتْ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴿١٨﴾﴾

وهناك من ردَّ على والديه وتأفّف منهما ورفض دعوتهما له للإيمان بالآخرة، مشكّكاً فيها بأنّ القرون السابقة قد فنت ولن تعود، فيعزُّ عليهما ذلك فيستغيثان بالله ويحذّرانه من وعيد الله لأنه حقّ فيردّ عليهما بأنّ ذلك من أساطير السابقين، إنّ مثل هذا سوف يدخل في سلك المكذّبين الذين سبقوا من الجنّ والإنس، وحقّ عليهم القول الإلهيّ بالخسران والعذاب.

﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾ بعد عرض هذين المثالين للمؤمنين الفائزين والمكذّبين الخاسرين يقرّر القرآن أنّ المعايير واضحة منضبطة عادلة، فلكل جزاؤه ودرجته، نتيجة عمله، وسوف يوفّى حسابه بلا ظلم.

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾﴾ موقف رهيب يواجه الكفار في القيامة إذ يعرضون على النار، ويقال لهم بأنّهم لم يدّخروا من الطيّبات لذواتهم في الآخرة شيئاً، بل استنفذوها واستمتعوا بها جميعاً في القسم القصير من الطريق، ومالهم هنا إلاّ العذاب المذلّ في قبال استكبارهم في الدنيا بغير الحقّ، وفسقهم وخروجهم عن الطبيعة الإنسانيّة. إن المؤمن وحده هو الذي يعي طول الطريق، ويدّخر لنفسه ما يحقّق لها حاجاتها في الآخرة من خلال الإنفاق والإحسان والإيثار. وبذلك يحلّ الإيمان مشكلة التضادّ بين المصالح الذاتية والمصالح الاجتماعية في الدنيا، بالإضافة الى تربية الفرد الصالح وتعميق إيمانه باستمرار.

﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾﴾ وهنا يذكّر القرآن بنبيّ الله هود الذي أرسل إلى عاد ـ وهو أخوهم ومنهم ـ وكانت عاد تسكن الأحقاف وهي مرتفعات رملية في جنوب الجزيرة العربية، قيل: إن بعض آثارها باقية. وقد صدع بنفس الدعوة التي صدع بها الأنبياء قبله وبعده، وطلب منهم عبادة الله الواحد الأحد، وحذّرهم من عذاب الآخرة.

﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٢﴾﴾ فردّوا عليه مثل كل الأمم المكذّبة، متّهمين إياه بالعمل على إبعادهم عن آلهتهم إفكاً وافتراءً، متحدّين كل ما وعدهم به من عذاب نتيجة التكذيب.

﴿قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ فيجيبهم هو بأن أجل العذاب بيد الله، وما عليه إلاّ الإبلاغ، فعليهم أن يتجاوزوا جهلهم ويفكّروا في مادعاهم إليه.

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾ وحين جاءهم العذاب بشكل سحاب بعد جفاف أصابهم استبشروا به خيراً ليمطرهم ويمرعهم، وسرعان ما اكتشفوا أنّه عذاب وريح مدمّرة بأمر ربّها، تمحو هؤلاء الظالمين وتطهّر الأرض منهم، فلا يرى بعدهم إلاّ مساكنهم الخالية، وذلك جزاء المجرمين.

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُون ﴿٢٦﴾﴾ لقد مكّنهم الله وأعطاهم القدرة والمال والعلم بأكثر مما مكّن به المشركين في عصر الرسالة، ومنحهم كل وسائل المعرفة من السمع والأبصار والقلوب فلم يستغلوها كما ينبغي، وجحدوا بآيات الله وأحاطت بهم نتائج الجحود والاستهزاء، ولو كانوا استغلوا الإمكانات المعرفية وآمنوا بالله، ورفضوا الآلهة المزيفة وتركوا العناد والاستهزاء بالعاقبة لحصلوا على العاقبة الحسنى بدلاً من الهلاك المرعب.

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَى وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾﴾ فليتأمّل المشركون فيما حواليهم من القرى كالأحقاف، والحجر، وسبأ، ومدين وغيرها وليعتبروا بهلاكها بعد أن منّ الله عليها بالهدى لعلّها تعود إلى ربّها، فكذّبت فأصابها العذاب، ولم تنصرها آلهتها المدعاة من دون الله، والتي كانت تعبدها لتقرّبها إليه، إفكاً وافتراءً على الحقيقة. وقد يكون التأكيد على قوم عاد بالخصوص في هذه السورة لقرب مكانهم وآثارهم في الجزيرة من المشركين.

وإن المرء ليعجب من هؤلاء المشركين الذين يواجهون الآيات القرآنية بما فيها من

ترغيب وتشويق، وترهيب وإنذار، واستدلال عقلي متين ووعود بالنصر والعواقب الحسنة، ولكنهم يصرّون على العناد القاتل.

﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ وهنا ينقل القرآن قصّة نفر من الجنّ استمعوا إلى القرآن خاشعين منصتين، ليترك القرآن أثراً كبيراً في نفوسهم، وراحوا على إثره إلى قومهم منذرين. قائلين لهم: إنّهم استمعوا إلى كتاب إلهيّ جديد أنزل من بعد موسى، يصدّق ما قبله، ويهدي إلى الحقّ وإلى طريق مستقيم، طالبين منهم أن يجيبوا هذه الدعوة ويؤمنوا بها، كي يفلحوا وتغفر ذنوبهم ويجاروا من عذاب أليم.

﴿وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَولِيَاء أُوْلَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾﴾ ويستطرد القرآن بأن عدم الاستجابة للهدى الإلهيّ يمثل نقصاً وسوء حظ للرافضين، ولا يعني القدرة على مقاومة الله، بل هم معرّضون للضلال الواضح دون أن يكون لهم من ينصرهم من دون الله.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾ أولا يرى المنكرون للبعث هذه القدرة الإلهيّة المطلقة التي خلق بها الكون بكل قوانينه وعظمته، ولم يصبه بذلك عناء أو عجز، وهي قادرة على إحياء الموتى. نعم إنّها مطلقة وقادرة على كل شيء.

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ إنّه إحياء ليوم القيامة، حيث الحساب العسير، يوم يعرض الكافرون على نار جهنّم، ويقال لهم؛ أليس هذا بالحق؟ فلا مناص إلاّ الاذعان ويقسمون على ذلك ليقال لهم: إذن ذوقوا العذاب نتيجة كفركم.

﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ وهكذا

يطلب القرآن من الرسول أن يصبر كما صبر أولو العزيمة من رسل الله على مر التاريخ والمبعوثون برسالات عالمية؛ وهم نوح وابراهيم، وموسى وعيسى والرسول آخرهم، ولا يستعجل لهم العذاب رغم أذاهم، فإنّه سيأتيهم ما يوعدون، وحينئذ سيعلمون أنّ هذه الدنيا ليست إلى جانب الآخرة إلاّ ساعة من النهار حصل فيها البلاغ، وتمت الحجّة فلا هلاك إلاّ للفاسقين المنسلخين عن تركيبتهم الإنسانيّة، الذين بذّروا بطاقاتهم المعنوية، وتمتّعوا بساعة من عمرهم صرفوها في ملاذّهم الحيوانيّة، وتناسوا حياة الخلود في النعيم حيث يشبعون ذواتهم هم بكل الملذّات، ولكنه الإشباع الطاهر في ظل رضوان الله دون أن ينغّص ذلك شيء ومع دوام الى الأبد.

آياتها ٣٨ — سورة محمد (٤٧)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

البسملة تحمل معاني جليلة وهي جزء السورة.

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ①﴾ لقد انقسم المخاطبون في صدر الرسالة إلى فريقين؛ فريق الكفر وفريق الإيمان، أمّا فريق الكفر والصاديّن عن المسجد الحرام والواقفين في طريق الدعوة فإن القرآن يتوعّدهم بالضلال والإحباط في العمل، في حين يعد المؤمنين العاملين للصالحات المصدّقين لرسول الله محمد ﷺ وما أنزل عليه من الحقّ بالتكفير عن السيئات وإصلاح البال بما فيه من استعداد دائم للتفكير واطمئنان للنفس وراحة للأحاسيس.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ②﴾ والأساس في هذه العواقب هو الفرق بين الباطل والحق، فالباطل لا يستند إلى ركن ولا جذور له، وهو شيء نشاز في الخلقة، أمّا الحقّ فمعه الله والكون كله. وهذا هو المثل والملاك القويم لتقويم الأشياء.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ ③ فَإِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاء حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاء اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ④ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ⑤ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ⑥﴾ وبعد هذا التقرير يوجّه القرآن المؤمنين للقتال، فإذا لقوا الكفار قتلوهم، فإذا أكثروا فيهم القتل وتم إضعافهم فليوقفوا القتل فإزهاق الأرواح ليس هو الهدف وحينها يقومون بأسر الباقين بتقييدهم بقوّة، ثمّ يتمّ النظر في الأسرى وما تقتضيه المصلحة العليا فإما أن يمنَّ عليهم فيطلق سراحهم وإما أن تتمّ مفاداتهم مقابل مال أو إطلاق أسرى المسلمين، حتّى تتمّ الحرب. هكذا إذن شاءت القدرة الإلهيّة أن يبذل المسلمون جهدهم ويقاتلوا العدو، رغم أنّ

الله قادر على القضاء عليهم، ولكنه الامتحان والبلاء الذي يصهر النفوس ويحقّق القوّة والتكامل، فمن قتل في سبيل الله فقد فاز وبلغت أعماله إلى نتيجتها، وسيظل الله يتعهّدهم برحمته في الملأ الأعلى ويمنحهم هدوء النفس ويدخلهم الجنّة التي وضّحها لهم من قبل.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ۝٧﴾ تحريض للمؤمنين على طول الخطّ على الجهاد، وتعهد إلهيّ بالنصر والتثبيت، والقوة لمن ينصرون الله ويطبّقون منهجه، ويدافعون عنه بإخلاص وتفان ونية خالصة.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ۝٨ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ۝٩﴾ أمّا الكافرون فينتظرهم المصير التعيس والإحباط في العمل؛ لأنّهم كرهوا رسالة الله وعاندوا الحقّ.

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ۝١٠﴾ إلا يرى هؤلاء سنة الله في الذين مضوا من قبل، وكيف دمَّرهم ومحا قوتهم، فلينتظر هؤلاء نفس العاقبة.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ ۝١١﴾ إنّ الله مصدر القوّة والعزّ، وهو الذي يتولّى أمر المؤمنين ودعمهم، أمّا الكافرون فلا يستندون إلى ركن ركين ولا مولى لهم.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۝١٢﴾ فالمؤمنون العاملون يعيشون الدنيا بكل وعيهم حياة رغيدة في ظل رضا الله وولايته، ولهم في الآخرة الجنّة بكل نعيمها، في حين يعيش الكافرون حياة وضيعة يأكلون كما تأكل الأنعام بلا معايير ولا إرادة أو هدف، ولا همَّ إلاّ إشباع البطن، ثمّ هم في الآخرة ثاوون مقيمون في نار جهنّم.

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ۝١٣﴾ يجب أن لا يطغى المشركون من أهل مكّة بقوّتهم وموقعهم إذ أخرجوا الرسول، فهناك قرى كثيرة أخرى أقوى منهم طغت فأهلكت دون أن يشفع لها أحَد.

﴿أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُم ۝١٤﴾ ولا يقاس المؤمنون الواعون الذين يمتلكون الوضوح والمعايير الدقيقة من الله توضح لهم

المسير، إلى أولئك الغارقين في اتباع الهوى، والذين فقدوا المعايير فهم يحسبون سيئات أعمالهم حسنات.

﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاء غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاء حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءهُمْ ﴿١٥﴾﴾ كما لا يقاس مصير المؤمنين المتّقين وهو الجنّة بما فيها من أنهار من مياه صافية لا يتغيّر طعمها ولا رائحتها، وأنهار من لبن لا فساد له، وأخرى من خمر حلال تحوي ما يستلذّه الإنسان، وكذلك أنهار من عسل صاف، بالإضافة إلى ما تشتهيه أنفسهم من مختلف الثمار، وفوق كل ذلك رضوان إلهيّ وغفران، نعم لا يقاس هذا المصير إلى مصير المعاندين وهو النار والخلود فيها، حيث شرابهم الماء الساخن الذي يقطع أمعاءهم.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُوْلَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءهُمْ ﴿١٦﴾﴾ ومن هؤلاء المشركين من يصغي إلى الرسول باهتمام، حتّى إذا خرجوا من عنده راحوا يسألون أهل العلم من الصحابة عمّا يعنيه الرسول، إمّا جهلاً أو استهزاءً بعد أن ختم الله على قلوبهم فلم تبق على صفائها؛ لأنهم سلّموا أنفسهم للأهواء والنزعات العمياء.

﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْواهُمْ ﴿١٧﴾﴾ أمّا الذين فتحوا قلوبهم للهدي الإلهيّ فهم الذين تشرق في نفوسهم الآيات التي يتلوها الرسول فتزيدهم هدى إلى هداهم، وتثمر فيها تقوى وسلوكاً صالحاً.

﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَاء أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ ﴿١٨﴾﴾ إنّ على أولئك المستهزئين الضالين أن يتوقعوا حصول يوم الحساب فجأة بعد أن قامت العلامات على حدوثها، ولعلّها مظاهر الهدفية في الكون المتناسق والتي تشير إلى ضرورة قيام القيامة، وحينئذ فهل تنفعهم غفلتهم من قبل وصحوتهم آنذاك.

﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ ﴿١٩﴾﴾ فما على الرسول إلاّ الثبات على منهج التوحيد الخالص،

واللجوء إلى الله والاستغفار لذنبه ـ مما يعتبر ذنباً في نظره لشعوره الدائم بالتقصير أمام الله تعالى ونعمه، وإلاّ فهو في الحقيقة وباعتقادنا معصوم من الذنوب المتعارفة لدينا ـ ولمن تبعه من المؤمنين والمؤمنات، فإن الله عليم بكل الحركات والسكنات.

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَى لَهُمْ ﴿٢٠﴾﴾ ويتطلّع المؤمنون إلى الوحي لينفّذوا أوامره، وعندما تنزل سورة واضحة محكمة تدعوهم إلى القتال في سبيل الله تتوضّح المواقف وصدقها، فهناك الفريق الصادق وهناك الفريق الخائف المتخاذل ذي القلب المريض ينظر إلى الرسول نظر المحتضر وذلك حريّ بهم وبقلوبهم الضعيفة. والظاهر أن فريق الذين في قلوبهم يختلف عن المنافقين وإن كان مبتليً ببعض أمراضهم.

﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾﴾ إنّ السبيل الأقوم هو الطاعة والتسليم والكلام المعروف المطلوب من المؤمن والانطلاق إذا جد الجد إلى الجهاد والصدق مع الله فذلك هو سبيل السعادة. وهذا هو مقتضى نفوذ الإيمان إلى الأعماق.

﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾﴾ إنَّ الذين يتقاعسون عن تنفيذ أوامر الله معرّضون للنكوص عن سبيل الهدى والعودة للفساد في الأرض وتمزيق العلاقات مع الأرحام وهي التي أمر الله بها أن توصل.

﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ ﴿٢٣﴾﴾ ومثل هؤلاء معرّضون للطّرد من رحمة الله والضلالة، حيث تصمّ الآذان وتعمى العيون فلا يبقى أمل في الوعي والهداية.

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿٢٤﴾﴾ إلا يرى هؤلاء عظمة المعاني القرآنيّة، ويدركون ماوراءها من آفاق واسعة للهداية، أم أنّهم أقفلوا على قلوبهم ومنعوها من التأمّل والتدبّر.

﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ ﴿٢٥﴾﴾ إنّ حالة الارتداد والنكوص عن سبيل الحقّ بعدما توضّحت معالمه تمثّل انتكاسة كبرى لهم، وانتصاراً للشيطان عليهم، فهو الذي زيّن لهم وأملى عليهم ذلك وأمّلهم بسرابه.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾﴾ والذي جرّهم إلى الارتداد هو أنّهم كانوا يداهنون أعداء الإسلام ويعدونهم

بتبعيّتهم لهم في ما يتسنّى لهم من الأمور ناسين أنّ الله يعلم بهذا الوعد الخفيّ. إنّها حالات مرضية قد يصاب بها المجتمع فتمثل انتكاساً فضيعاً وربما ارتداداً قاتلاً.

﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمْ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٢٨﴾﴾ إنّ هؤلاء المتراجعين عن الحق يعرّضون أنفسهم لمشهد رهيب إذ تتوفّاهم الملائكة عند الموت وهي تضرب وجوههم وأدبارهم؛ لأنهم ساروا في الطريق الذي يغضب الله، وكرهوا رضوانه فحبطت وبطلت أعمالهم السابقة.

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ ﴿٢٩﴾﴾ إنّ مرضى القلوب هؤلاء الذين تقاعسوا عن الجهاد وداهنوا أعداء الله وارتدّوا عن سبيل الهدى معرَّضون لانكشاف واقعهم وأحقادهم أمام الجميع. وبذلك يفقدون مكانتهم، ويعودون القهقري.

﴿وَلَوْ نَشَاء لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٠﴾﴾ تهديد لهؤلاء المرضى بتعريفهم للرسول بسيماهم ومنظرهم بالذات وإن كان حالهم قد يظهر في أسلوب قولهم وثنايا كلامهم. وعلى أيّ حال فإن الله يعلم أعمالهم فلا يظنّ هؤلاء أنّ الإسرار يخفي منهم شيئاً.

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾﴾ إنَّ الامتحان والبلاء سنّة إلهيّة تنجلي فيها حقائق النفوس، فيعرف المجاهدون والصابرون والعاملون بصدق دون غيرهم، فإن أخبار كل نشاطاتهم يتمّ تتبّعها واختبارها بدقّة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ ﴿٣٢﴾﴾ وليعلم الكافرون المعاندون الصادّون عن الله والمعادون لرسوله بعد أن توضّحت لهم معالم الهدف والصدق فيه، ليعلموا أنّهم أضعف من أن يضرّوا الله بشيء، فلا قيمة لهم تجاه قدرته بل هو القادر المطلق، وسوف يجعل ما عملوه هباءً ويفشل كل خططهم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٣﴾﴾ وليعلم المؤمنون أنّ الإيمان يلازم التسليم والطاعة الكاملة مهما كانت شاقّة، فلا معنى للتبعيض في الطاعة فإنّه يحبط الأعمال.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾﴾ وإذا حبطت الأعمال سقط الإنسان في الكفر، والصدّ عن سبيل الله ومواجهته، وبالتالي تنقضي الحياة في ذلك الطريق الضالّ، ويفقد حينئذ قابليّته للغفران الإلهيّ.

﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٥﴾﴾ فلا مجال إذن للمؤمن أن يضعف ويجنح للمسالمة والمساومة على مبادئه ومواقفه، وهو يطمئنّ إلى أنّه الأعلى إيماناً وعزيمة ورؤية للحياة، والله ذو العزّة والطول معه يسدّده ويكمله ويجازيه خير الجزاء.

﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ ﴿٣٧﴾﴾ وما قيمة الحياة الدنيا لدى المؤمن المجاهد، إنّها مجرّد لعب ولهو إذا لم تحمل هدفاً سامياً وتدافع عن قيم علياً، فلا تقاس إلى الحياة الأخرى وخلودها ونعيمها، أمّا حياة الإيمان والتقوى والطاعة فهي الحقيقة المطلوبة وهي التي تؤدّي للفلاح والأجر الجزيل، ومع ذلك فإنّ الله لا يطلب منهم أن يبذلوا كل أموالهم لئلاّ تقعد بهم المشقّة والبخل وحبّ المال عن الاستجابة، وتتحرّك بعض الأضغان والأحقاد، فبعض النفوس لا تتحمّل ذلك.

﴿هَاأَنتُمْ هَؤُلَاء تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاء وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ ﴿٣٨﴾﴾ إنّ الإنفاق في سبيل الله من لوازم الإيمان وتلبية لحاجات المجتمع في الحرب والسلم، ولكنّ البعض قد يقعد به البخل عن ذلك، وهو في الواقع يخسر الأجر العظيم، بل يفقد نفسه بذلك، والله إذ يطلب ذلك منهم فإنّما يريده لهم، وإلاّ فهو الغنيّ المطلق وكل الخلق فقير إليه. وفي الختام يأتي هذا التهديد الكبير فإذا نكص المؤمنون عن القيام بأعباء الرسالة وحمل الأمانة، فإنّها ستعطى للآخرين القادرين على حملها، والذين يعملون بمقتضياتها بخلافهم.

سورة الفتح (٤٨)

آياتها ٢٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تحدّثنا مراراً عن البسملة.

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ①﴾ إنّ ما وقع من صلح في (الحديبية) بين الرسول والمشركين يعدّ فتحاً مبيناً؛ لأنّ قريشاً اعترفت لأول مرة بالرسول والمسلمين باعتبارهم قوّة وطرفاً يجب التصالح معه. وحاولت أن تدفعهم عنها بالتي هي أحسن ومن دون قتال، وقوي المسلمون في نظر القبائل، واعتذر المتخلّفون عن عدم المسير مع المسلمين، وصمت المنافقون، واستعدَّ المسلمون لكسر قوّة اليهود المشاغبين عليهم، وبدأت السرايا ترسل إلى مختلف الأماكن، ومهّد ذلك لفتح مكّة وغير ذلك.

﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ② وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ③﴾ إنّ هذه الخطوة الفاتحة مهّدت الأجواء لانتشار الدعوة وغطّت بإذن الله كل ما صاحبها من تبعات وما اعتبر ذنباً في نظر المشركين، وولّدت أضغاناً قبل الهجرة وبعدها، وأتمّت النعمة الإلهيّة ورسمت لها في شخص قائدها وأتباعه الصراط المستقيم نحو النصر والعلاء وتغيير التاريخ.

﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ④﴾ وكان من نتائج الصلح وظهور إيجابيّاته أن اطمأنّت القلوب إلى لطف الله وحكمته وتسديده لرسوله، وانزاحت الشكوك وقوي الإيمان، وعلم الجميع أنّ الحوادث كلها جنود مجنّدة لله وللحقّ والله عليم حكيم.

﴿لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِندَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ⑤﴾ وهكذا يحظى المؤمنون ببشرى النصر والحياة السعيدة في الدنيا وأمامهم في الآخرة خلود في جنّات تجري من تحتها الأنهار في ظل الرضوان والغفران، أليس هذا هو أعظم فوز يمكن أن يتمنّاه إنسان ويضحّي في سبيله؟

﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ

عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾﴾ أما المنافقون والمشركون فهم يشكّكون ويظنون بالله سوءاً وهو مرتدّ عليهم، فمالهم إلاّ العذاب والغضب الإلهيّ والطرّد من رحمة الله، وبالتالي جهنّم وما أسوأه من مصير!

﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾﴾ إنّ الكون كله مسخّر لله، ينفذ أوامره وهو العزيز الحكيم.

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾﴾ إنّ خطّ الشهود والإشراف والرقابة يتمثّل في مسيرة الأنبياء ليبشّروا وينذروا البشريّة لتحقّق مقتضيات خلافتها، والرسول الأكرم خاتم الأنبياء وحامل رسالتهم.

﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾﴾ فمن الحقّ أن يؤمن النّاس بالله والرسول، وأن يعزّروه (ينصروه) ويوقّروه ويعطوه مقامه اللائق به، مسبّحين لله في كل آن.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾﴾ إنّ بيعة الرسول هي بمنزلة البيعة مع الله والتعهّد ببذل الطاعة له ومنحه القيادة، وليعلموا أنّ يد الله وقدرته فوق أيديهم، وحينئذ فأي نقض لها أو إخلال بمقتضياتها هو وبال على النفس، وتعريض لها لعقاب الله، أمّا المضيّ على العهد فهو يعني تأهيلها للأجر العظيم.

﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١١﴾﴾ يحاول المتخلّفون من الأعراب الساكنين حوالي المدينة وكانوا يشكّلون نقطة ضعف في المجتمع وقد تعامل معهم الرسول بكل حكمة عن مسيرة الرسول إلى مكّة، والذي انتهى إلى صلح الحديبية، أن يعتذروا عن ذلك بانشغالهم بأموالهم وأهليهم وخوفهم من ضياعها، طالبين من الرسول أن يستغفر الله لهم، ولكن السبب الواقعي لتخلّفهم ليس ماقالوه بألسنتهم وإلا فلو كان هذا الخوف هو الداعي لكان جوابهم: إنّ الله إذا شاء أن يصيبهم بضُرّ أو نفع ماكان لأحد أن يمنع ذلك، حتّى لو كانوا

بين أهليهم وأموالهم، فليراقب هؤلاء الله فيما يدّعون؛ لأنّه الخبير بما يعملون.

﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴿١٢﴾﴾ إنّ الداعي الحقيقيّ الذي تكشفه هذه الآية هو ظنهم أنّ الرسول والمؤمنين سوف لن يعودوا من رحلتهم هذه إلى أهليهم مطلقاً، لقوّة العدو، ولم يدركوا أنّ المؤمن يجب أن يؤدّي واجبه مهما كانت المصاعب. وهكذا كانت قلوبهم بوراً كالأرض البائرة لا حياة فيها ولا خصب ولا حركة، ذلك لأنّها لم تتفاعل مع العقيدة ولا تحمل حرارتها.

﴿وَمَن لَّمْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾﴾ والذين يفقدون الإيمان بالله ورسوله مصيرهم جهنّم وبئس العاقبة. فما قيمة الأموال والأهلين إذا كان المصير إلى السعير.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاء وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاء وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾﴾ إنّ الله هو مالك الكون وبيده الغفران والعذاب فليختر هؤلاء أهليّتهم لأي منهما خصوصاً وأنّ رحمة الله تسبق غضبه.

﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾﴾ وعد الله أهل البيعة في الحديبية أن يرزقهم غنائم يختصّون بها في غزوة أخرى ـ قيل: إنها خيبر[١] وكانت غنية، وحين علم هؤلاء المخلّفون طلبوا من المسلمين أن يشاركوهم في الغزو وهم بذلك سيشاركون في الغنائم رغم أنّ الله وعد المسلمين بالاختصاص بها، فأمر الرسول برفض طلبهم تبعاً لأمر الله من قبل، ومن هنا فسيقول المخلّفون: «بل تحسدوننا» وهو قول سخيف لعدم وجود مقتضى الحسد، وإنّما ينّم عن جهل بحكمة الله وعلل أمره.

﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾﴾

---

١. تفسير التبيان، ج ٩، ص ٣٢٢.

ويتابع القرآن معالجة حالة المتخلّفين من أعراب حوالي المدينة، فيؤمر الرسول بأن يخبرهم بأنّهم سيدعون لقتال قوم أشداء ـ وقد اختلفت الآراء فيهم[١] ـ حتّى يسلموا، فإن استجابوا لأوامر الرسول استحقّوا الأجر الحسن، وإن أعادوا موقفهم السابق من التخلف والتقاعس استحقوا العذاب الأليم.

﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾﴾ الأعمى والأعرج والمريض هم أهل الأعذار، ويمكنهم التخلّف عن القتال، والباقون عليهم الطاعة لله وللرسول لينعموا بالثواب الإلهيّ، وفي حالة العصيان يعرّضون أنفسهم للعذاب.

﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾﴾ كانت بيعة الشجرة التي سبقت صلح الحديبية موقفاً رائعاً من الرسول والمسلمين، بيّن عظمة القائد وارتباط المسلمين به وعهدهم على الطاعة له، فاستحقّوا هذا الوسام الكبير وهو رضا الله عنهم بالخصوص، بعد أن علم مافي قلوبهم من النيّة الحسنة والشوق لانتصار الرسالة، فمنحهم السكينة وعدم القلق والاضطراب فيما يواجهون، ووعدهم بفتح قريب ومغانم كثيرة، وهو ما حدث في خيبر، ليعلموا أنّ الله هو العزيز الحكيم فيما يفعل.

﴿وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾﴾ وهكذا عظمت المنّة الإلهيّة حيث الوعد بالمغانم الوفيرة بعد صلح الحديبية، وأولها ظهور قوّتهم وتثبيت مواقعهم، وحيث خوف أعداء الإسلام منهم وامتناعهم عن إلحاق الأذى بهم، وليكون كل ذلك علامة على نصر الله لعباده المؤمنين وتأكيداً على سيرهم على الصّراط المستقيم.

﴿وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾﴾ وهذه بشارة بفتوحات أخرى

---

١. يراجع: تفسير الميزان، ج ١٨، ص ٢٨١.

مازالوا بعد غير قادرين عليها، ولكنّ الله محيط بكل الأمور، وهو يعدهم بتحقّقها وهو القادر على كل شيء وهذه المعاني تؤجّج الأمل في النفوس فتدفعها لمزيد من الفعل والجهاد.

﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ إنّها سُنّة الله في التاريخ أن ينتصر أولياء الله إذا صدقوا ما عاهدوا الله عليه، وسنّة الله لن تتغيّر.

﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ ولعلّ المراد هنا هو صلح الحديبية نفسه أو حادثة أخرى كادت تشعل القتال في مكّة، إلاّ أنَّ الله كفَّ أيدي بعضهم عن الآخر، وكان في ذلك فتح وظفر للمسلمين، وإنّ عين الله لترعى هذه المسيرة لتنتهي بها إلى النصر.

﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاء مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَؤُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاء لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾﴾ لقد كان إجرام المشركين في مكّة عظيماً بعد شركهم وهو منع المؤمنين من المسجد الحرام ومنع الهدي ـ وهي القرابين ـ وإبقاؤها محبوسة عن الوصول إلى أماكن ذبحها المشروعة، وهذه الأمور مستهجنة حتّى في الجاهلية. ولولا أنّ هناك مستضعفين من الرجال والنساء المؤمنين الذين لا يعرفهم المسلمون قد يصابون بالهجوم على مكّة ويداسون تحته وتصيبهم معرّة ومكروه، لما كفَّ الله أيديكم عنهم ورحمة الله واسعة شاملة. ولو أمكن أن يتميّز الكفار المعاندون عن غيرهم لتم تعذيبهم بعذاب أليم. وتدل الآية على المنع من استخدام أسلحة الدمار الشامل، وهو ما نشاهد استخدامه كثيراً في عصرنا.

﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾﴾ لقد تعمّق في قلوبهم التعصّب للجاهليّة والسخف، فوقفوا بوجه الرسول ونيّته لأداء العمرة وصدّوه عن ذلك لئلاّ تقول العرب عنهم أنّهم لم يستطيعوا منعه، في حين تنزّه الرسول والمؤمنون عن الحميّة الجاهليّة فأنزل الله السكينة في قلوبهم لتطمئنّ بذكر الله، ولازمتهم كلمة التقوى، وهي من مقتضيات الإيمان بعد أن كانوا أحقّ بها وأهلاً لها، والله تعالى عليم بالقلوب ودوافعها وهو عليم بكل شيء.

﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاء اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾﴾ كان النبيّ ﷺ رأى في المنام أنّ المؤمنين سيدخلون المسجد الحرام فبشّر المؤمنين بها، وحينما انطلقوا إلى مكّة كانوا يتصوّرون أنّهم سيحقّقون ذلك في سفرهم، فلمّا أن صُدّوا كان لذلك أثر سلبيّ في النفوس، وها هو القرآن يبشّرهم بأن الله صدّق رسوله في رؤياه، فلقد كانت صادقة، فسوف يدخلون المسجد الحرام ـ إن شاء الله ـ آمنين محلّقين رؤوسهم ومقصّرين أي معتمرين، والله عليم بالأمور في حين يقصر علمهم عنها. وقد جاء فتح الحديبية قريباً بأمر الله، ليمهّد لدخول المسجد بعد اشتراط ذلك في عقد الصلح الذي أوجد هذا الأمن ودفع الخوف.

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾﴾ ويرتفع هنا مستوى البشرى للمؤمنين حيث يتمّ الإعلان بأنّ الله أرسل رسوله بالهدى المطلق، وبدين الحقّ المنسجم مع الواقع والفطرة والعلاء الإنسانيّ، ليجعله المنتصر والمتفوّق على كل الأديان بحجّته وبراهينه ومنطقه وسلطانه؛ لأنّه الدين الخاتم الخالد والسبيل الأوحد للسعادة، وكفى بالله شهيداً على ذلك، وسيشهد العالم ظهور المهدي عليه السلام وتطبيق الإسلام وشرعه وعدله في كل مكان.

﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾ خاتمة رائعة لسورة محمّد تعلن أنّه ﷺ رسول الله ـ خلافاً لتشكيكات الذين عقدوا صلح الحديبية ـ وأن صحابته الكرام يعيشون التوازن المطلوب لحمل الدعوة، فهم أشداء على الكفار لأنهم أعداء الله والبشرية وحتى أنفسهم ولكنهم رحماء بينهم ليتم بناء المجتمع الصالح، وهم يهتمّون بقضية الدنيا والآخرة، فتراهم ركّعاً سجداً، يبتغون فضلاً ورضواناً إلهياً في المسيرة الحياتية والجهادية، تعلو محياهم مظاهر السجود بما يعبّر عنه من عبادة وتواضع ورضاً، إنّها صورة

المؤمن الحقّ المرسومة في التوراة أما الإنجيل فقد وصفهم بالزرع الذي ينمو فيخرج فرعه الذي يقوّي الزرع نفسه ليستغلظ ويستوي على سيقانه متوازناً سويّاً يعجب الفلاّحين والراعين له من جهة، ويغيظ الكفار والحاسدين له من جهة أخرى، وهكذا جاءت هذه الصفات الجليلة للجيل الإسلاميّ الطليعيّ الأول وجاء معها الوعد ـ بشكل طبيعيّ ـ للذين يديمون قوّة الإيمان والعمل الصالح منهم إلى نهاية الخطّ مغفرة وأجراً عظيماً.

سورة الحجرات (٤٩)

آياتها ١٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قمنا بالحديث من قبل عن البسملة.

يمكن أن يقال إن هذه السورة هي ـ بحقّ ـ سورة بيان قواعد النظام الأخلاقي الإسلاميّ الرفيع.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾﴾ إنّ المؤمنين لا يتقدمون الله ورسوله ولا يتجاوزون حدودهم، وإنّما هم مستسلمون لله ورسوله بكل مافي الكلمة من معنى داخلون في ولاية الله ورسوله، متّقون لغضبه تعالى، شاعرون بهيمنته ومراقبته وعلمه بكل ما يجري.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾﴾ وتبقى منزلة رسول الله في أسمى مقام احتراماً وتوقيراً وحبّاً، فلا يرفع المؤمن صوته فوق صوت رسول الله، ولا يتعامل معه كما يتعامل مع الاخرين، وإلاّ تعرَّض لبطلان عمله وهو لا يشعر بذلك.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾﴾ وعندما يغضّ المؤمن صوته ـ أي يخفض منه ـ فإنّه يكشف عن تعمّق التقوى في نفسه، مما يؤهّله للمغفرة والأجر العظيم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾ هذا مصداق من عدم الأدب مع رسول الله، إذ كان بعض الجفاة ينادون النبيّ باسمه من وراء حجرات بيته دونما رعاية لأدب الخطاب، فذمّهم القرآن واعتبر العمل كاشفاً في أكثر الأحيان عن عدم التعقّل؛ لأنّه سلوك ينافي الأدب حتّى مع سائر الناس.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾﴾ إنّ من الأفضل لهؤلاء الجفاة الذين ينادون الرسول باسمه من وراء الحجرات أن يتريّثوا حتّى يخرج من بيته، والله بعد غفور رحيم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴿٦﴾﴾ وهذه الآية تقرّر مبدأ عاماً في قبول الخبر في المجتمع المسلم، فإن

جاء به رجل فاسق[١] معروف بعدم الالتزام والتديّن وجب التشكيك في خبره والتأكّد، لكيلا يتعرّضوا للآخرين بسوء مستندين إلى خبره جاهلين الحقيقة، مما يؤدّي بهم إلى الندم، وإذا أخذنا بمفهومه المخالف فإنه يؤدّي إلى عدم لزوم التبيّن عندما يخبر العادل بشيء، وهذه حالة عقلائية، وهذا يؤدّي إلى حجّيّة خبره.

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ۝٧ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٨﴾ تذكير للجماعة المسلمة بعظمة رسول الله واتصاله بعالم الغيب فعليهم أن يستشعروا هذه الحالة، وأن يسلّموا له ولا يقترحوا ويلحّوا على شيء، فإن نتيجة ذلك المشقّة والعنت والإثم الذي سيصيبهم.

ولينتبهوا إلى نعمة الله الكبرى عليهم، إذ هداهم للإيمان وشرح صدورهم له وحبّبه في قلوبهم، وبغّض إليهم كل أنماط الانحراف، وهي الكفر والفسوق عن الحالة الطبيعيّة الإنسانيّة وعصيان الأوامر الإلهيّة. والذين يعيشون مثل هذا الميل للحقّ والنفور من الباطل هم الراشدون الواعون. وهو فضل إلهيّ ونعمة كبرى، والله عليم حكيم.

﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ۝٩﴾ وهذه قاعدة اجتماعيّة إسلامية تتكفّل القضاء على ظاهرة الخلاف العملي المؤدّي للاقتتال بين المسلمين، فالمسلمون مكلّفون في هذه الحالة بالإصلاح بين طرفي القتال إن حدث، فإن رفض أحدهما الصلح أو تجاوز بعد الصلح بنوده المتّفق عليها فبغى وتعدى على الآخر فيجب أن يقف المسلمون ضد الباغي حتّى يعود إلى أمر الله والصلح والتحاكم المنطقيّ الشرعيّ. وحينئذ يتمّ الإصلاح النهائيّ وفقاً للعدالة والقسط والقوانين الإسلاميّة والله يحبّ المقسطين.

---

١. المشهور أنه الوليد بن عقبه راجع مجمع البيان للطبرسي (ج ٩ ص ٢٢٠) والتبيان للشيخ الطوسي (ج ٩ ص ٣٤٣) ونفى ابن عبدالبر في (الاستيعاب) (ج ٤ ص ١٥٥٣) الخلاف في ذلك. وراجع السنن الكبرى للبيهقي (ج ٩ ص ٥٤) وتفسير مجاهد (ج ٢ ص ٦٠٦) مسند احمد (ج ٤ ص ٢٧٩) ومجمع الزوائد (ج ٧ ص ١٠٨) وغيرها.

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾﴾ وهذا هو الإطار العام الذي يحكم العلاقات بين المسلمين، وهو الأخوّة مما يدعو إلى الصلح بينهم إذ لا يقاتل الأخ أخاه، وتقوى الله في نوعية التعامل، وتوحيد الموقف العملي تجاه التحدّيات، والعمل على تقريب وجهات النظر باكتشاف المشتركات، وكل ذلك يؤهّلهم لرحمة الله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَومٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاء مِّن نِّسَاء عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الاِسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١١﴾﴾ وهذه قاعدة إسلاميّة أخرى تركّز على لزوم الاحترام المتبادل بين المسلمين فلا يسخر أحد من أحد نتيجة معايير سخيفة، كالغنى والمقام الاجتماعيّ والجنس والعنصر واللون وغيرها، فمعايير الله تختلف عنها، والإنسان مكرّم وخصوصاً المتّقي، وقد يكون من وقعت عليه السخرية خيراً من الساخر، ثمّ جاء النهي عن االلمز والتنابز بالألقاب؛ لأنّ الجميع نفس واحدة وإلاّ جاء احتمال الفسوق بعد الإيمان، وهنا جاءت الدعوة للتوبة إلى الله، وإلاّ فهناك مجال التصنيف مع الظالمين.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ وهذه قاعدة أخرى لحفظ كرامة المؤمنين وحريّاتهم وستر الحرمات ومنع الخلل الاجتماعيويلاحظ أنّ هذا الخلل يبدأ بشكل طبيعيّ بالمراحل التاليةسوء ظنّ بالأخ، ثمّ تجسّس لاكتشاف الواقع، ثمّ نشر ما اكتشف في المجتمع. وعلى نفس النسق يعمل القرآن على إيقاف الخلل، فهو ينهى عن الظن السيّئ بالأخ، فإن بعض الظنّ إثم عبر ترتيب الأثر عليه، ثمّ ينهى عن التجسّس، ثمّ إذا اكتشف العيب يمنع من الغيبة أشد المنع، وهي ذكر الأخ عند غيبته بما يسوؤه، وبها تتمزّق العلائق الاجتماعيّة، ولذا يعتبرها القرآن مثل أكل لحم الأخ الميت وهو مكروه أشد الكره للطبع البشريّ، وبعد كل هذا يأتي التذكير بالتقوى والعودة إلى الله التوّاب الرحيم.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ وهذا خطاب إنسانيّ عام يوجّهه خالق

البشريّة لها معلناً لها: أنّها خلقت من ذكر وأنثى وجعلت شعوباً وقبائل ليتمّ التعارف بينها، فالتنوّع طريق للتعارف لا للصراع أو التمييز، ويبقى الإنسان كريماً بجنسه، ويكتسب كرامة إضافيّة بتقواه لله وخدمته للبشريّة عبر التقرّب إلى الله، ومراقبته لأوامر الله العليم الخبير.

﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾﴾ تصحيح لمقولة ردّدها الأعراب بقولهم إنا آمنا، وتأكيد على أنّهم أسلموا وحسب، فالإيمان أمر قلبيّ تطمئنّ له النفس أمّا الإسلام فيتحقّق بأداء الشهادتين، فهو قائم باللسان وتحقن به الدماء وتجري عليه المناكح والمواريث، فإذا أطاعوا الله ورسوله لم ينقصهم الله من جزاء أعمالهم شيئاً، وهو الغفور الرحيم، وطبيعيّ أنّ أجر العمل يتضاعف كلما تعمّق الإيمان.

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿١٥﴾﴾ أمّا المؤمنون حقّاً فهم من تأصّل الإيمان في قلوبهم واستقرّت عليه نفوسهم، فلم يشكّوا في شيء واستقاموا وانطلقوا يجاهدون بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، فكانوا من الصادقين في إيمانهم.

﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾﴾ هذه هي حقيقة الإيمان والله تعالى هو العالم بها، وينبغي أن لا يتجرّأ أحد بتقرير حقيقة دينيّة من عنده بل يكل ذلك إلى الله العليم بما في السماوات والأرض وبكل شيء في الكون.

﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٧﴾﴾ من السخف ما منّت به الأعراب على الرسول بإسلامها فإن المنّة والفضل لله المنّان الذي هدى البشريّة برحمته وهدى هؤلاء للإيمان إن كانوا صادقين في أقوالهم.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾﴾ وهو تعالى المطّلع على أسرار النفوس وكل غيب، وهو الخبير بما يعمل العباد، فيجب أن يراقبوه في كل قول وعمل.

سورة ق (٥٠) آياتها ٤٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سبق الحديث عن البسملة.

﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ۝١ بَلْ عَجِبُوا أَن جَاءهُمْ مُنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ۝٢﴾ قسم بهذا الحرف والقرآن والمجيد ذي الشرف الوسيع، والسموّ في المعاني على كون البعث حقّاً أنذر به الرسول، ولكنّ النّاس في تعجّب من مجيء منذر من جنسهم، ويزداد التعجّب من الكافرين إذ يطلب منهم التصديق بعملية الإحياء.

﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ۝٣﴾ وهم يكرّرون مقولة السابقين المتسائلة عن إمكان عودة الموتى إلى الحياة بعد أن عادوا تراباً، واستبعاد هذه الرّجعة.

﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ ۝٤﴾ ونسي هؤلاء المشكّكون بالبعث أنّ الله عليم بكل شيء، وقادر على كل شيء، فهو يعلم مدى ما تنقص الأرض منهم، ولديه كتاب حافظ لكل شيء.

﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ ۝٥﴾ والحقيقة هي أنّ هؤلاء كذّبوا بالحقّ الذي جاءهم يحمل معه علامات صدقه، فتخبّطوا بعد ذلك في أمرهم، وخالفوا عقولهم التي تشهد الهدفيّة في الكون، فتؤكّد قضية المعاد.

﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاء فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦﴾ هذه هي السماء فوقهم فلتسرح أنظارهم فيها وفي نظامها الدقيق وفي تركيبتها وزينتها دون أن يتخلّلها خلأ أو فراغات غير منسجمة. إنّ هذه الدقّة في الخلق تقود إلى الهدفية، وهي بدورها تستلزم يوم الحساب.

﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۝٧﴾ وهذه الأرض بسطها الله ومهّدها لحياة الإنسان، ووازن حركتها بوجود الجبال الرواسي، وجعل فيها ميزات وقوانين تنسجم مع إنبات الحقول الفيحاء والبساتين الغناء لتساهم في إشباع الإنسان، كي يديم حياته.

﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝٨﴾ إنّ تناسق كل هذه الظواهر (والعلم يكشف

كل يوم أبعاداً ضخمة منها) يثير بصيرة الإنسان العائد إلى فطرته وربّه، ويذكّره بالمعاني التي يقتضيها التنسيق، ويعرّفه على قدرة الله وعلمه، والهدفيّة في خلق الكون.

﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاء مَاء مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ۝٩ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۝١٠﴾ وهذا الماء المبارك من كل جهة يحمل معه الحياة، وهو ينزل من السماء فتنبت به الجنّات الغنّاء، ويحصل الحبّ المحصود لتتكاثر به الزروع، ويتعالى النخيل السامق بطلعه وثمره المنضّد المنظّم الجميل.

﴿رِزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ۝١١﴾ إنّه رزق الله لعباده، وإنّها الحياة يهبها للبلد الميت، وهي علامة على إمكان البعث.

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ ۝١٢ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ۝١٣ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ۝١٤﴾

إنّ تكذيبهم هذا مسبوق بتكذيب قوم نوح وأصحاب الرس (البئر المطوية)، وثمود وعاد وفرعون وإخوان لوط وأصحاب الأيكة (الشجر الملتف مع بعضه) وقوم تبّع، فماذا كانت العاقبة؟ إنّها تحقّق الوعيد الإلهيّ وهلاك الطغاة.

﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ۝١٥﴾ ثمّ هل تأمّل هؤلاء في الخلق لأوّل مرة أنّه تمّ بأمر الله دون أن تكون هناك مشقّة، فكيف تصعب الإعادة من جديد؟ إنّهم إذن يعيشون حالة من التخبّط واللبس.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ۝١٦﴾ إنّ الله تعالى خالق الإنسان، العليم بكل خفاياه وحركاته وسكناته، ومايدور في خاطره، وهو أقرب إليه من حبل وريده الذي يجري فيه دمه، فهو إذن تحت علمه ورقابته الكاملة.

﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ۝١٧ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ۝١٨﴾ إشارة إلى الملكين الموكّلين بالإنسان، الذين يتلّقيان كل أعماله ويسجّلانها، قاعدين عن يمينه وشماله، فهو إذن تحت علم الله ورقابته الدائمة التي تحصي عليه كلماته بشكل دقيق وعتيد (مهيّأ لكل حادثة).

﴿وَجَاءتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ۝١٩﴾ وإنّ لحظة الانتقال إلى

الحياة الأخرى لتحمل معها سكرة وذهولاً عن كل شيء، وهي اللحظة التي كان الإنسان يسعى لتجنّبها رغم علمه بكونها آتية لا محالة.

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ ۝٢٠﴾ وهذه هي النقلة الثانية إلى عالم القيامة، حيث ينفخ في البوق ويعلن بدء اليوم الموعود.

﴿وَجَاءتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ۝٢١﴾ وجاءت كل نفس إنسانيّة يقودها سائق ومعها شاهد على كل أعمالها، وكل هذه الآيات تثير الحذر الشديد، والشعور بالمراقبة الصارمة.

﴿لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ۝٢٢﴾ وهناك ينتبه الإنسان من غفلته المدمّرة، وينكشف الواقع أمامه، ويعود بصره قويّاً حادّاً نافذاً للحقيقة بأبعادها.

﴿وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ۝٢٣﴾ ويعلن له الملك المقارن له أنّ سجلّه معدّ مهيّأ دقيق.

﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ۝٢٤ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ۝٢٥ الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ۝٢٦﴾ وهكذا يصدر الأمر الإلهيّ العادل للملكين المقارنين أن يلقيا في جهنّم هذا الكفّار المعاند المانع بشدّه من عمل الخير، المعتدي على حقوق الآخرين، المشكّك في البعث، المشرك مع الله غيره لينال العذاب الشديد.

﴿قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِن كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ۝٢٧﴾ وهنا يتبرّأ منه حتّى الشيطان الذي كان قرينه في الدنيا قائلاً إنّه لم يجبره على الطغيان، ولكنه كان مهيّأ للضلال.

﴿قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ ۝٢٨ مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ۝٢٩﴾ ليأتي هذا النداء الإلهيّ الرافض لأيّ خصام هناك، فلا نفع فيه بعد أن جاء الوعيد الإلهيّ في الدنيا بكل وضوح، فلا تبديل لما قضاه الله وهو قائم على العدالة، فلا مجال لتصوّر الظلم عنده.

﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ۝٣٠﴾ وتشتدّ الرهبة حين يقال لجهنّم: هل امتلأت؟ فتجيب: هل من مزيد.

﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ۝٣١ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ۝٣٢ مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَن بِالْغَيْبِ وَجَاء بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ۝٣٣﴾ وعلى الجانب الآخر أعدّت الجنّة للمتّقين

وقربت لهم، تحقيقاً للوعد المعطى لكل من عاد إلى ربّه باستمرار، وحافظ على أداء ما عليه بدقّة، وخشي الله وجاء بقلب مستسلم عائد إلى ربّه.

﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَاؤُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾﴾ فليدخلوا الجنّة وليهنأوا خالدين، ولينالوا ما يشاؤون، ولدى الله المزيد من اللطف والعناية.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾﴾ وما أكثر الهالكين من القرون المتمادية في الشرك، وكانت أكثر بطشاً وأشدّ تحرّكاً في الأرض من هؤلاء المشركين المعترضين لمسيرة الرسالة، فلا ملجأ ولا مفرّ من الله.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾ إنّ هذه الآيات لتهزّ وجدان الإنسان وقلبه وحواسّه وتدفعه للتذكّر وترك الغفلة والإحساس بعظمة الله وقدرته المطلقة.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾﴾ فهو خالق الكون في ستّ مراحل لا يُعلم مداها ولم يمسّه ـ سبحانه ـ أيّ تعب.

﴿فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾﴾ فليصبر الرسول على عنادهم، وليستعن بالتسبيح لله والحمد له قبل طلوع الشمس وقبل غروبها بما تعبّر عنه هاتان الظاهرتان من جلال.

﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ ﴿٤٠﴾﴾ أما الليل فهو مجال التسبيح والقيام والسجود لله والتكامل المعنويّ.

﴿وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾﴾ ولينتظر نداء المنادي من مكان قريب محيط بالخلائق ليعلن بدء يوم الحساب. من خلال الصيحة المقدّرة بالحقّ لتخرج الخلائق إلى ربّها.

﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾﴾ إنّ الحياة كلها بيد الله فمنه إفاضة الحياة في بدئها، وبيده الإماتة وإليه المصير.

﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾﴾ وتنشقّ الأرض عما حوت من أجساد، لتنهض حيّة مسرعة إلى الله. وذلك على الله أمر سهل يسير.

﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾﴾ فلا ييتئس الرسول ولا يكترث بها يقولون، فالله أعلم بذلك، وليس عليه إجبارهم على الهدى وإنّما عليه إيقاظهم وتنبيه المستعدين منهم بتلاوة آيات القرآن الكريم، وتحذير من يخاف الوعيد الإلهيّ.

سورة الذاريات (٥١)

آياتها ٦٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تحدّثنا من قبل عن البسملة.

﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ۝١ فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ۝٢ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ۝٣ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا ۝٤ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ۝٥ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ۝٦﴾ قسم بالرياح المثيرة للتراب، والسحب الحاملة للمياه المثقلة بها، والسفن الجارية وفق قوانين الله بيسر، (وكلها ظواهر متعاضدة لتسهيل الحياة الإنسانيّة) ثمّ يتتابع القسم بالملائكة الذين ينفّذون أوامر الله في هذه الكون الوسيع، قسم بكل هذه الأمور العظيمة لتأكيد صدق الوعد الإلهيّ بوقوع المعاد، حيث يوم الدين والجزاء. والملاحظ أنّ كل ما تمّ القسم به هو من عوامل تدبير الكون وتنسيقه واستهدافه لهدف عظيم، وهذه الهدفيّة تقود الإنسان للإيمان بيوم الدين.

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ۝٧ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ۝٨﴾ يقسم القرآن بالسماء المحبوكة المزيّنة على أن قول المنكرين مضطرب لا يقوم على أسس مستوية (ويلاحظ أنّ القسم بشيء منسجم على أمر غير منسجم) إنّهم يتناقضون في إنكار الحقيقة، ويتّبعهم في ذلك من يتّبعهم من أهل الإغراء والمتأثّرين بالإفك.

﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ۝٩ قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ ۝١٠ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ ۝١١ يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ ۝١٢﴾ إنّ أقوالهم مبنيّة على الظنون والأوهام دونما علم ولذا يُدعى عليهم بالفناء؛ لأنّهم موجودات لا قيمة لها، تخوض في الجهالة والغفلة وتتساءل في خبث واستنكار عن موعد يوم الحساب.

﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ۝١٣ ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ۝١٤﴾ إنّهم سيقبلون على هذا اليوم حيث يعرضون على النار التي كانوا بها يكذّبون، ويقال لهم: ذوقوا عذاب تكذيبكم الذي كنتم به تستعجلون.

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۝١٥ آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ۝١٦ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۝١٧ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۝١٨ وَفِي

﴿أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾﴾ أما المتّقون فهم ينعمون في جنّات وعيون، ويتلقّون عطاء ربّهم الوفير لقاء ماقاموا به من إحسان في الحياة الدنيا، وعبادتهم وإحيائهم الليل بالطاعة، واستغفارهم في الأسحار، وإنفاقهم على السائلين والمحرومين، بتخصيص حقّ خاص لهم في أموالهم. فهم المحسنون العبّاد المستغفرون المنفقون فما أسعد حالهم.

﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ إنّ أولئك المتّقين نظروا في هذا الكون الوسيع ورأوا كل ما يوصل إلى الحقّ؛ فكل ما في الأرض آيات واضحات لمن يطلب الحقيقة ليوقن بها، والنفس تحوي عجائب الخلقة الباهرة وليس هناك إلاّ أن يفتح الإنسان بصره متأمّلاً.

﴿وَفِي السَّمَاء رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ وهذه السماء توفّر للإنسان أسباب الرزق وتحقق له ما يتمنّاه، ففيها تقديرات الحياة ومتطلّباتها، أليس ذلك دليلاً على وحدة الخلق والتنظيم.

﴿فَوَرَبِّ السَّمَاء وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾﴾ فقسماً بربّ الكون كله إنّ ما جاء به الرسول هو الحقّ الصارخ، وهو الغيب النافذ إلى اليقين، حتّى يعود المعقول كالمحسوس تماماً، كما نحسّ بنطقنا نحن.

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ وفي قصص الأنبياء عبر وتذكير بقدرة الله وحكمته، فهذا إبراهيم يدخل عليه ضيوف كرام فيسلّمون عليه فيردّ عليهم سلامهم ولكنّه ينكرهم.

﴿فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاء بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾﴾ وراح إلى أهله وأحضر لهم عجلاً سميناً وقرّبه إليهم، فلما وجدهم لا يأكلون ـ إذ كانوا ملائكة ـ أوجس في نفسه شيئاً وتساءل عن هذه الحالة الغامضة، فكشفوا عن واقعهم وبشّروه بولد عالم يُرزقهُ.

﴿فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾ وعندما أقبلت أمرأته وعرفت ما حدث صرخت ولطمت وجهها وتساءلت: كيف تلد وهي عجوز عقيم.

﴿قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾﴾ فكان جوابهم تذكيرها بأن ذلك من أمر الله وهو الحكيم العليم.

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾﴾ وعندما سألهم عن هدفهم أخبروه بأنّهم أُرسلوا إلى قوم مجرمين (قوم لوط) لعقابهم بحجارة طينيّة معدّة للمجرمين المسرفين الخارجين عن الحدّ الإنسانيّ الطبيعيّ.

﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾﴾ وشاء الله تجنيب المؤمنين العذاب وإخراجهم من القرية، ولكنه لم يكن فيها غير بيت مؤمن واحد، هو بيت لوط باستثناء امرأته.

﴿وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾ وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾﴾ وهلك قوم لوط وعادوا عبرة لمن اعتبر ممن يخافون عذاب الله الأليم. وهذا موسى أرسله الله إلى فرعون بآيات بيّنات قويّة واضحة فتولّى فرعون وأعرض بجانبه عن قبول الحقّ، واتّهمه بالسحر أو الجنون فعوقب بعقاب الغرق هو وجنوده، مُلاماً على مواقفه المتجبّرة.

﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾﴾ وهذه عاد عصت أمر ربّها فأرسل عليها ريحاً لا تحمل إلاّ الدمار، فتترك ما تأتي عليه كالرميم المتناثر والحطام المتراكم.

﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا اسْتَطَاعُوا مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾﴾ وكذلك ثمود قوم صالح فبعد أن كذّبوا أُمهلوا قليلاً ليراجعوا أنفسهم، ولكنهم عتوا وطغوا وعصوا أمر ربّهم فأهلكتهم الصاعقة وهم ينظرون ـ دهشة ـ فلم يستطيعوا القيام بأيّ حركة ولم يقدروا على المقاومة.

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٤٦﴾﴾ وهكذا كان الحال مع قوم نوح من قبل، هؤلاء بعد أن خرجوا من طبيعتهم الإنسانيّة ففسقوا فنالوا عقابهم.

﴿وَالسَّمَاء بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ ﴿٤٨﴾﴾ عودة قرآنيّة للإشارة إلى آيات الله الدالّة على عظمته وحكمته. فهذه السماء بكل عظمتها بنيت بقدرة إلهيّة ومنحة ربانيّة، وهذه القدرة تعمل على مدّها وتوسعتها. وهذه الأرض مهّدت وفرشت

لينمو عليها الإنسان فتشبع له كل ما يحتاجه من خلال مالا يحصى من قوانين وميزات.

﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ ومن القوانين العامّة قانون الزوجيّة في الكون والإحياء. إنّه يكشف عن دقّة التنسيق ووحدته وهدفيّته.

﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾﴾

فليتخلّص البشر من ربقة الأوهام والأوثان، وليفرّوا ويتوجّهوا إلى الله الواحد القهّار وليتّبعوا الرسول فهو النذير المبين.

﴿وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾﴾ وليرفضوا الشرك بكل أنواعه والآلهة المزيّفة، منيبين لله مطيعين للرسول متّعظين بإنذاره الواضح.

﴿كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾﴾ وهكذا هو ديدن المكذّبين السابقين، فلا يأتيهم رسول إلاّ اتّهموه بالسحر أو الجنون.

﴿أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾﴾

هل هو تواصٍ وتوافق على ردود الفعل؟ كلاّ، إنّه الطغيان والخروج عن الحدّ الإنسانيّ.

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾ فلا يأبه الرسول بهذه المواقف ولا لوم عليه، وإنّما عليه التذكير والتنبيه من الغفلة، والتذكير ينفع المؤمنين الذين فتحوا قلوبهم للهدى.

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ الهدفيّة واضحة في خلق الجنّ والإنس، كما هي في كل الخلق. والقرآن يعلن أنّ الهدف من خلقهما العبادة وتحقيق مقتضى العبوديّة لله والانصياع لأوامره، فهو هدف خلقتهما؛ لأنّ فيها تكاملهما إلى مستويات سامية قد لا تصلها الملائكة أنفسها.

﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ وليس هناك حاجة لديه ـ سبحانه ـ تحقّقها هذه الخلقة، فهو الغني المطلق. ولا تعني العبوديّة تكريسًا للذات الإلهيّة والعياذ بالله بل تعني أنّه تعالى علم أنّ الإنسان قادر على التكامل، فأفاض عليه الوجود بمقتضى رحمته، ومن هنا فلن يحتاج إلى رزق أو طعام أو حتّى لعبادة، كما يتصوّر الجاهلون فلا تنفعه طاعة من أطاعه، وهو الرزّاق القويّ المطلق، وإنّما تعود على المطيع نفسه بالتكامل.

﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾﴾ إنّ لهؤلاء الظالمين المكذّبين المتقوّلين على الله نصيبا من العذاب، كنصيب أمثالهم فلا معنى لاستعجالهم، وأمامهم الويل في يوم الحساب.

سورة الطور (٥٢) آياتها ٤٩

بِسْمِ اللَّه الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قلنا: إنّ البسملة تحمل معاني عظيمة، وهي جزء من السورة.

﴿وَالطُّورِ ۝١﴾ قسم بالجبل الذي نزلت فوقه ألواح موسى، وهو مقدّس لانتسابه إلى الله.

﴿وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ ۝٢ فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ ۝٣﴾ ثمّ بالكتاب الذي عرض على النّاس وأنزل على موسى في صفحات مكتوبة.

﴿وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ۝٤﴾ ثمّ بالبيت الموجود في السماء والذي تعمره الملائكة بعبادتها وتطوف حوله.

﴿وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ۝٥﴾ ثمّ بالسماء وهي مظهر عظمة الله وقدرته.

﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ۝٦﴾ ثمّ بالبحر المملوء بالماء، وهو أيضاً مظهر للعظمة الإلهيّة.

﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ۝٧ مَا لَهُ مِن دَافِعٍ ۝٨﴾ كل هذا القسم بمظاهر العظمة لتأكيد قدرة الله على إنزال العقاب الأخرويّ لا محالة بهؤلاء المكذّبين، ولا دافع له ولا مانع منه.

﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاء مَوْرًا ۝٩ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ۝١٠﴾ إنّه ليوم عظيم تضطرب فيه السماء وتموج، وتتحرّك فيه الجبال وتهتزّ ويعمّ الرعب.

﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ۝١١ الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ۝١٢﴾ دعاء بالويل والثبور على المكذّبين الخائضين الداخلين في الأباطيل والسخافات، اللاّعبين بعقولهم والسائرين دونما وعي في تصوراتهم الصبيانيّة.

﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ۝١٣ هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ۝١٤﴾ وهاهم اليوم يُزجّون زجاً إلى نار جهنّم كالقطعان الهائمة، ويقال لهم انظروا هذه هي النار التي كنتم بها تكذّبون متّبعين لأهوائكم.

﴿أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ۝١٥﴾ أهذا الذي تبصرونه وتحسّونه سحر ووهم كما كنتم تدّعون.

﴿اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاء عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝١٦﴾

هكذا أيضاً عليكم أن تقاسوا العذاب ولا ينفعكم الصبر عليه، إنّها معاناة صبرتم عليها أم لم تصبروا فهي أعمالكم نفسها ولكن بشكلها الجهنّمي.

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾﴾ وعلى الجانب الآخر يتمتّع المؤمنون بجنّات الخلود ونعيمها.

﴿فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿١٨﴾﴾ يتلذّذون بالعطاء الإلهيّ الكريم بعد أن صرف عنهم عذاب الجحيم.

﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾﴾ فهنيئاً لهم بهذا العطاء والأكل والشرب عبر ما كانوا يعملونه من الصّالحات.

﴿مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾﴾ وهنيئاً لهم براحتهم واستنادهم على وسائد وضعت على أسرّة منظّمة وقد زوّجوا واقترنوا ببنات جميلات رائعات.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾﴾ والحقت بهم عوائلهم المؤمنة حتّى ولو قصرت بها أعمالها عن بلوغ درجة المتّقين إذ يمتنّ الله عليها ويرفع درجاتها دون أن ينقص شيئاً من درجات المتّقين، كل ذلك رغم أنّ كل فرد مرهون بعمله ولكنها المنّة الإلهيّة.

﴿وَأَمْدَدْنَاهُم بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾﴾ وتستمرّ النعم بمدّهم بفاكهة ولحم كما تشتهي نفوسهم، ويتعاطون كأساً تنعشهم دون أن يصاحبها ما يصاحب خمر الدنيا من اللغو والهذر والإثم.

﴿يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾ ويقوم على خدمتهم غلمان هم غاية في الجمال والصفاء والإشراق، فهم كمثل اللؤلؤ الصافي المخزون لئلاّ يلوّثه شيء.

﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءلُونَ ﴿٢٥﴾قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾ ويتسامرون ويتساءلون عن علل هذا الرخاء، ويكتشفون أنّ سببه يعود إلى خشيتهم من الله وتقواهم من عذابه، وسعيهم لإنقاذ أهلهم من الضلال.

﴿فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ ﴿٢٧﴾﴾ فحصلوا على الامتنان الإلهيّ ونجوا من عذاب جهنّم وحرارتها.

﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾﴾ بعد أن كانوا يعيشون حياة الدعاء لله واللجوء إليه، وهو البرّ الرحيم بعباده.

﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾﴾ هذه هي الحقيقة الناصعة، فلينطلق الرسول في دعوته غير آبهٍ باتّهامهم له بالكهانة التي تتلقّى أباطيلها من الشياطين ـ كما كانوا يزعمون ـ أو اتّهامهم له بالجنون.

﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾﴾ أو اتّهامهم له بأنّه شاعر تلهمه الجنّ ما يقول، وبالتالي فهم ينكرون النسب السماويّ للوحي وهم ينتظرون أن يموت الرسول ويستريحون، ولكنه يسفّه أحلامهم وتربّصهم، ليؤكّد أنّ العاقبة الحسنة له، وأنّهم السفهاء فيما ينتظرون.

﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُم بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾﴾ أترى عقولهم هي التي دعتهم إلى هذه المواقف المعاندة؟ كلاّ، إنّ العقل لا يدعو إلى هذه المواقف بل هو الطغيان والسفه.

﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾﴾ فهم يتّهمون الرسول بتكلّف القرآن وصياغته من عنده، وهذا سفه بعد ملاحظة الجانب الإعجازيّ فيه، ولكنّ الحقيقة هي أن عدم إيمانهم هو الدافع لمثل هذه الاتّهامات.

﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٣٤﴾﴾ وإلاّ فليأتوا بمثل هذا القرآن إن كانوا صادقين في دعواهم وهم من فصحاء العرب، ولكنّهم عاجزون، مما يدل على إعجازه وكونه موحى به من الله وغير متقوّل عليه.

﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ إنّه سؤال يهزّ الفطرةفهل خلقوا من لا شيء وهو محالّ أم خلقوا من غير علّة أم خلقوا أنفسهم بأنفسهم وهو محالّ وجداناً، إذن عليهم أن يلجأوا للخالق العظيم ويحقّقوا أوامره ويخافوا عذابه.

﴿أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾﴾ وهل هم الخالقون لهذا الكون؟ كلاّ، فهم أضعف من ذلك فتجرّؤهم على الله ناتج من عدم اليقين والتشكيك الباطل.

﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ وهل يملكون خزائن الله وهل لهم القدرة المطلقة حتّى يفعلوا ما يشاؤون؟ كلاّ، فينبغي لهم التسليم للقادر المطلق.

﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾﴾ وهل لهم ما يمكّنهم من الصعود إلى الملأ الأعلى والاستماع إلى أسراره؟ فليكشفوا هذه الأسرار إذن، ولو ادعى أحدهم الاستماع فليأت بما يثبت مدّعاه بوضوح. كلاّ، إنّهم أضعف من ذلك.

﴿أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ ﴿٣٩﴾﴾ وهكذا يستمرّ القرآن في طرح هذه الأسئلة لإبطال ما يدّعون، ومنها ادعاؤهم اختصاص الله بالبنات واختصاصهم بالبنين.

﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾﴾ ثمّ هل سألهم الرسول أجراً فأوقعهم في مشاكل الغرامة وأثقال الديون مما دعاهم لعدم الإيمان؟

﴿أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾﴾

وهل عندهم قدرة على معرفة الغيب فهم يكتبون في سجلّه ما يشاؤون من مصير؟

﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾﴾ وهل يستطيعون أن يخطّطوا لأمر بعيداً عن علم الله، والحقيقة هي أنّهم المصابون بآثار الكيد والتآمر.

﴿أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾﴾ ثمّ هل يدّعي هؤلاء أنّ لهم إلها مؤثّراً غير الله؟ لقد تنزّه الله أن يكون له شريك.

﴿وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾﴾ إنّهم يستسهلون الأمور فإذا رأوا قطعة ساقطة من السماء قالوا إنّه مجرّد سحاب متراكم، فليدعهم الرسول حتّى يواجهوا الحقيقة الصاعقة فلا يغني عنهم كيد ولا ينصرهم ناصر، ولهم عذاب دون ذلك وإن كانوا لا يعلمون.

﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ ﴿٤٩﴾﴾ فليعتمد الرسول على الصبر؛ لأنّه بعين الله وتحت حراسته، وليلجأ إلى التسبيح في كل آن؛ حين القيام وفي الليل وحين غياب النجوم.

سورة النجم (٥٣) آياتها ٦٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تحدّثنا عن البسملة قبل هذا.

﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى ۝١﴾ قسم بالجرم السماوي، وهو مخلوق عظيم تنكشف في كل يوم جوانب العظمة فيه، وإشارة إليه حين يهوي بأمر الله.

﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ۝٤﴾ وتأكيد على الوعي الكامل لرسول الله ـ وهو صاحبهم الذي يعرفونه بالصدق والأمانة وبوضوح الرؤية ـ وإيمانه بحقيقة الوحي، وعدم خروجه عن الصراط السوي فلا ضلال ولا خطأ، ولا حديث عن ما يهواه، وإنما هو الوحي الإلهيّ الصادق.

﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى ۝٦ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى ۝٧﴾ حمله إلى الرسول جبرئيل الملَك القويّ ذو القدرة والرّجاحة في العقل، والمكانة عند الله، وقد ظهر للرسول في صورته الحقيقيّة، مالئاً الأفق بعظمته.

﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ۝٩﴾ ثمّ قرب إلى النبيّ أشدّ القرب، فهو منه كبعد مابين القوسين أو أقرب من ذلك. وكل ذلك يعبّر عن اليقين والإحساس.

﴿فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى ۝١٠ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى ۝١١ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى ۝١٢﴾ فبلّغ الوحي إلى عبد الله ورسوله بكل وضوح دون أن يكون هناك غبش أو لبس، وإنّما هي رؤية بصرية يؤيدها القلب واليقين. فلا مجال ـ إذن ـ للمماراة والوهم بعد تعاضد الحسّ والعقل.

﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى ۝١٣ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى ۝١٤ عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى ۝١٥ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى ۝١٦ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى ۝١٧ لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى ۝١٨﴾ كما تمّت الرؤية مرة أخرى وفي نزول آخر في ليلة الإسراء والمعراج، وذلك عند شجرة السّدر التي ينتهي عندها المسير وصحبة جبرئيل للرسول، ليرى بعد ذلك آفاقاً من العظمة الإلهيّة تتجلّى عند هذه الشجرة وتحيط بها. كما رأى هناك الجنّة التي تأوي إليها الخليقة. إنّها الحقيقة المحسوسة بكل وعي دونما انحراف أو تجاوز للحدّ وإنّها رؤية للآيات الإلهيّة الكبرى.

﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى ﴿١٩﴾ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَى ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى ﴿٢٢﴾﴾ وفي قبال ذلك الوضوح يذكر هنا الغبش والوهم الذي يلفّ الفكرة الصنمية حول (اللاّت) و(العزّى) و(مناة) ـ وهي ثالثة الصنمين ـ حيث الوهم بأنّها تمثّل الملائكة المؤنّثة بزعمهم، وأنّ الله اختصّ بالأنثى وترك لهم الذكر، فكانت تلك قسمة جائرة واستهزاء بالأمور حسب تصوّراتهم.

﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَى ﴿٢٣﴾﴾ نعم إنّها أباطيل وأوهام صاغتها مخيّلة المشركين، وقسّمتها بين الله ومخلوقاته دونما برهان أو دليل وإنّما هي ظنون لا واقع لها وأهواء نفسيّة باطلة لا تقوى على معارضة الهدى الإلهيّ.

﴿أَمْ لِلْإِنسَانِ مَا تَمَنَّى ﴿٢٤﴾﴾ وليس للإنسان أن يصوغ من خيالاته وأمنياته واقعاً يغترّ به وينظّم سلوكه على أساس منه.

﴿فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى ﴿٢٥﴾﴾ هذا وكل الكون والأدلّة تشهد لله وملكيّته للدنيا والآخرة.

﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاء وَيَرْضَى ﴿٢٦﴾﴾ حيث الأمر كله لله أمّا الملائكة في هذا الكون فهم ينفّذون أمر الله ولا يشفعون ولا ينصرون أحداً إلاّبإذنه ورضاه. فالشفاعة حقيقة ولكن بعد إذن الله ولمن يرتضيه.

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنثَى ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴿٢٨﴾﴾ إنّه وهم الكافرين بالآخرة إذ يعتقدون بأنوثة الملائكة انطلاقاً من ظنونهم الكاذبة، في حين يجب أن تقوم العقائد على العلم لتنسجم مع الحقّ، أما الظن والوهم فهو لا يغني من الحقّ شيئاً.

﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّى عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٢٩﴾﴾ وما دام هؤلاء غارقين في الوهم والأهواء الباطلة معرضين عن ذكر الله مكبّين على الدنيا فليعرض عنهم الرسول، وليتركهم لشأنهم.

﴿ذَلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى ﴿٣٠﴾﴾ إنّهم رضوا بهذا المستوى الداني من العلم، والله عليم بالضّالين والمهتدين فلن يخفى عليه شيء.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴿٣١﴾﴾ وهو مالك الكون والقادر العادل يجزي المسيئين بعاقبة سيئة بما عملوا ويجزي المحسنين بالعاقبة الحسنى.

﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى ﴿٣٢﴾﴾ إنّ المحسنين أقاموا حياتهم على اجتناب الانحراف عن الخطّ الوسط وترك المعاصي والفواحش التي تخرجهم عن منهجهم الإنسانيّ السوي، رغم أنّهم قد تصدر منهم بعض الهفوات ويلمّون بذنب أحياناً وهو في معرض الغفران، والله واسع المغفرة يفتح أبواب الأمل دائماً، وهو العليم بمسيرة الإنسان، يربّيه ويرحمه آناً فآناً من المرحلة الجنينية وحتى المراحل الأخرى، وإذ يشعر المرء بهذا اللطف المستمرّ والمراقبة الدائمة فإنّه يجب أن لا يزكّي نفسه بل يلتجئ إلى ربّه دائماً، طالباً منه الغفران والتوفيق للتقوى.

﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى ﴿٣٤﴾﴾ وإنّ القرآن ليعجب من إنسان هداه الله للحقّ فبدأ ينفق قليلاً في سبيل الله، فوسوس له شيطان الجنّ والإنس، وتعهّد بأن يحمل عنه ذنوبه، فتولّى عن طريق الحقّ وأمسك عن الإنفاق.

﴿أَعِندَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى ﴿٣٥﴾﴾ إنّ هذا الإنسان لا يعلم الغيب ولا يرى الحقيقة فكيف يصدّق أن الآخرين يحملون عنه ذنوبه، كلاّ، إنّ عليه أن يواصل عمل الخير حتّى يضمن قيامه بما عليه ونجاته من التبعات.

﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴿٣٨﴾﴾ وتلك حقيقة ثابتة في شريعة الأنبياء، في صحف موسى وملّة إبراهيم الذي وفّى بحقيقة التوحيد والتزم بلوازمها، وهي تعلن أن تبعة الأعمال ووزرها تتبع الأفراد أنفسهم دون غيرهم.

﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى ﴿٤١﴾﴾ وإنّه لا يلحق بالإنسان إلاّ نتيجة سعيه، وإن سعيه سوف تتجلّى آثاره في الآخرة وحينئذ يجازى هذا السعي بجزاء وافٍ وكافٍ وتامّ.

﴿وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنتَهَى ﴿٤٢﴾ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾﴾

فإلى الله تعود الخلائق وترجع الأمور، فيحاسب ويجزي الجميع، إنّه مدبّر الكون والمسيرة، ورازق الحياة بكل لوازمها وقوانينها ونظمها من (الضحك والبكاء، والحياة والموت) بكل ما تحمله هذه الظواهر من تدبير وحكمة ولطف.

﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾﴾ ومن ظواهر الحياة خلق الزوجين وهي ظاهرة عامّة سارية في الخلق بشكل دقيق ومن نطفة تخرج من الإنسان بشكل منيّ سائل لتتطوّر الحياة أروع تطوّر بعده.

﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾﴾ وهكذا تسير الحياة من مبدئها إلى منتهاها تحت علم الله وتدبيره ولطفه، وعطائه وتمكينه (أغنى وأقنى).

﴿وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾﴾ إنّه ربّ الكون كلّه، وربّ السماء بعظمتها، وربّ الشعرى بالتالي وهي كوكب مضيء من الثوابت كانت تعظمه العرب.

﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾﴾ وهو ربّ المسيرة الإنسانيّة كلها يهديها ويعاقبها إذا عصت، كما أهلك عاداً الأولى، وثمود فلم يبق منهم أحد.

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّاهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾﴾ كما أهلك قوم نوح وقد أمعنوا في الظلم والطغيان، وكذلك كل قرية ضلّت وكذّبت فأكبّها على وجهها فلاقت ما لاقت من العذاب.

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾﴾ إنّها آيات الله وتدبيراته في الكون، فلا مجال للتشكيك والوهم.

﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ النُّذُرِ الْأُولَىٰ ﴿٥٦﴾﴾ إنّ هذا القرآن والوحي نذير من النذر الأولى

﴿أَزِفَتِ الْآزِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾﴾ ولقد قربت القيامة ولاكاشف لمصائبها وشدائدها.

﴿أَفَمِنْ هَٰذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَامِدُونَ ﴿٦١﴾ فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا ﴿٦٢﴾﴾(سجدة واجبة) لا مجال إذن للتعجّب من حديث الله وشريعته وهذه الرسالة، ولا مجال للضحك واللّهو (السمود) وعدم الاهتمام بل عليهم البكاء لعظمة المسؤوليّة، وإنّما يجب القيام بالمسؤوليّة الكبرى والسجود لله وعبادته وتنفيذ أمره (وفي قراءة الآية سجدة واجبة).

سورة القمر (٥٤)

آياتها ٥٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

البسملة آية قرآنيّة رائعة.

﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ۝٣﴾ لقد اقتربت القيامة، ووقعت حادثة انشقاق القمر علامة على ذلك، ولعلّ القرآن يشير إلى علامة من علامات القيامة تقع في المستقبل. ولكنَّ المشركين يضلّون في عنادهم مهما جاءت الآيات البيّنة، واصفين عمل الرسول بالسحر المتواصل مكذّبين له متّبعين لأهوائهم دون أن يفكّروا في عظمة هذا الكون ودقّة التدبير فيه، واستقرار كل أمر فيه في موضعه، وبالتالي فسوف يلاقون جزاءهم الطبيعيّ؛ لأنّه من قوانين الكون.

﴿وَلَقَدْ جَاءهُم مِّنَ الْأَنبَاء مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۝٤ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ ۝٥﴾ لقد جاءتهم النذر والآيات والأخبار التي تزجر وتمنع العقلاء بطبعها عن الانحراف بعد أن يعرفوا مكامن الحكمة السارية في الكون، ولكنّهم ماضون في غيهم دون أنْ تنفعهم هذه النذر.

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُّكُرٍ ۝٦﴾

ولما كانوا مستمرّين في العناد فلا قيمة لهم، فليتركوا إذن ليواجهوا أهوال يوم ينادي فيه المنادي لمواجهة حوادثه المنكرة على الظالمين.

﴿خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۝٧ مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ۝٨﴾

حيث تنطلق الجموع الخارجة من القبور خاشعة أبصارها كأنها جموع الجراد المنتشر، مسرعة مستجيبة لدعوة الداعي، وهنا يستشعر الكافرون الخطر فيعلنون أنّه يوم عسير شديد عليهم.

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ۝٩﴾ ألا يعتبر هؤلاء بمصير قوم نوح الذين كذّبوه واتّهموه بالجنون وزجروه بقوّة ليرجع عن دعوته.

﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ ۝١٠﴾ فلجأ نوح إلى ربّه ليعلن له حاجته وليطلب منه أن ينتصر له وإلاّ فإنّه مغلوب.

﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاء بِمَاء مُّنْهَمِرٍ ۝١١ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاء عَلَى أَمْرٍ

قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾﴾ فكانت الاستجابة فانهمر المطر منصبّاً بشدّة، وتفجّرت الأرض عيونا فوّارة، والتقت المياه لتحقّق ما قدر لها أن تحقّقه، وكان الطوفان.

﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾﴾ وحملت يد الرحمة الإلهيّة نوحاً في سفينة مكوّنة من ألواح خشبيّة ومسامير لتجري بأمر الله وتحت عينه، لينجو هو ويغرق الكافرون، جزاءً له بعد أن أُنكر عليه عمله، فصمد وثبت على خطّه.

﴿وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٦﴾﴾ ولتبقى حادثة الطوفان عبر التاريخ عبرة للمعتبرين، وليعرفوا دائماً مدى العذاب الإلهيّ وصدق المنذرين.

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾ وهاهو القرآن يُسِّرت مفاهيمه السامية بعبارات بيّنة ليتذكّر من لديه قابلية التذكّر فأين المستفيدون؟

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾﴾ وهذه عاد كذّبت الرسل فلينظروا مصيرها وعذاب الله لها وصدق المنذرين. إذ أُرسلت عليهم ريح باردة قارصة في يوم شؤمه مستدام، فكانت تنزعهم من بيوتهم وتمزّقهم وكأنّهم بقايا نخل مقلوع من أصله. فليعتبر المعتبرون، وليعرفوا مدى العذاب ومدى صدق المنذرين.

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾﴾ تأكيد مجدد على أنّ القرآن يُسّرت آياته ليعتبر المعتبرون.

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَؤُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾﴾ تذكير بثمود التي كذّبت النذر الإلهيّة متسائلة عن إمكان تبعيّة بشر هو واحد منهم معلنة أنّ ذلك يعني الضّلال والغرق في أنماط من السعير!! مشكّكة في الإيحاء إليه، بل معتبرة إياه كذّاباً طمّاعاً.

﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ ﴿٢٦﴾﴾ ولكنّهم سرعان ما يكتشفون في الغد من الكذّاب الطمّاع؟

﴿إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾﴾ فهاهي الناقة المعجزة سترسل إليهم امتحاناً، ليعلم كيف سيتعاملون معها.

﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاء قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾﴾ لقد كانت ناقة معجزة، وقد أمروا بتقسيم الماء بينها وبينهم، فيوم لها تحضره ويوم لهم يحضرونه.

﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾﴾ وهنا ينبري أشقاهم فيتعاطى الخمر فيعقر الناقة فيصيبهم العذاب الذي يجب أن يعتبر به المعتبرون.

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾﴾ إنّه عذاب الصيحة التي هزّتهم فكانوا كالأعواد المحطّمة، التي يجمعها صاحب الحظيرة.

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾﴾ تأكيد على تيسير القرآن للفهم ليعتبر المعتبرون.

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾﴾ وهكذا كذّب قوم لوط فأرسل الله عليهم ريحاً تجلب معها الحصباء والحجارة فدمّرتهم إلاّ آل لوط نّجّاهم الله بليل وعند السحر رحمة بهم، وكذلك هو جزاء الشاكرين.

﴿وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾﴾ أمّا المكذّبون من قومه فقد ذاقوا جزاءهم بعد أن لم يكترثوا بالإنذار والبطشة الإلهيّة وراحوا يستمرّون في فعلتهم القبيحة ويراودون ضيف لوط ـ وكانوا من الملائكة ـ فصبَّ عليهم العذاب فاعمى عيونهم، جزاء على أفعالهم الشاذّة.

﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾﴾ وباغتهم في الصباح عذاب مستقرّ بينهم، ليعرفوا مذاق الاستكبار ومخالفة النذر.

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾﴾ من جديد يأتي التأكيد على أنّ القرآن ميسّر للذكر، فهل يعتبر المعتبرون.

﴿وَلَقَدْ جَاء آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾﴾ ويمرّ الاستعراض على آل فرعون الذين تأتيهم نذر الله فيكذّبون النذر كلها ليأخذهم الله أخذ القادر العزيز القهّار.

﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءةٌ فِي الزُّبُرِ ﴿٤٣﴾﴾ بعد استعراض حال

الأمم المكذّبة واحدة بعد أخرى ـ يأتي هذا التساؤلترى هل كفّار قريش خير منها؟ أم أنّ لهم ضمان براءة من العذاب جاءت به الصحف المنزّلة من الله؟

﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾﴾ أم هل يفتخر هؤلاء بجمعهم وقوّتهم التي تحقّق لهم الانتصار في زعمهم، ولكن هذا الجمع سيهزم قطعاً ويولّي دبره هارباً، أمّا عذاب الآخرة فهو أشدّ بلاءً وأعظم مرارة.

﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾﴾ حيث المجرمون محرومون من الخلاص والنعيم، راكسون في نار الجحيم، يسحبون على وجوههم تبكّتهم الملائكة أن ذوقوا مسَّ النار وعذابها.

﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ لقد قدَّر الله كل شي خلقه، وأوجد القوانين الضابطة في هذا الكون، فلابد أن ينال كل جزاءه، ولا عبثيّة متصوّرة في ما قدَّر الله.

﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴿٥٠﴾﴾ إنَّ أمر الله التكوينيّ يعني وقوعه بلا تخلل فاصل زمانيّ، فهو تعالى ـ وحده ـ مفيض الوجود.

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾﴾ وبأمره النافذ تم إهلاك أمثالهم من المكذّبين فليتذكّر المعتبرون.

﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾﴾ فإن كل ما يفعله النّاس من صغير أو كبير مسطور ومحفوظ بدقّة في كتب الأعمال.

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾﴾ في قبال حالة المجرمين البائسة في النار تذكر حالة المتّقين السعيدة في جنّات وأنهار ومقعد حقيقيّ صادق العطاء في ظل رضوان عميم من الله مالك الدنيا والآخرة، والقادر المطلق على إسعاد الإنسان.

سورة الرحمن (٥٥) آياتها ٧٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تحدّثنا عن البسملة.

﴿الرَّحْمَنُ ۝١ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝٢ خَلَقَ الْإِنسَانَ ۝٣ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ۝٤﴾ إنّ الله هو الرحمة الواسعة التي تملأ الوجود وتهديه هداية تشريعيّة ـ بتعليم القرآن وهو أعظم النعم وأروع تجلّ للرحمة وهداية تكوينيّة بخلق الإنسان وإفاضة الوجود عليه ليحقّق كمال خلقته متقرّبًا إلى الكمال المطلق، مستعيناً بقدرته على تبيين أفكاره للآخرين بواسطة اللغة وباقي علامات البيان والتوضيح، وما أروعها من نعمة فاضت بها الرحمة الإلهيّة وشكّلت أساساً لقيام المجتمع وبناء الحضارة.

﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝٥ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝٦﴾ وقام هذا الكون المتناسق ليحقّق هدفه بدقّة ونظم بالغين، وحساب لا يتخلّف ينظّم حركة الشمس والقمر والنجوم وكل الظواهر الأخرى كالنبات، فهي جميعاً تنفّذ أوامر الله التكوينيّة وتنزّهه وتكشف عن عظمة الخالق الرحمن.

﴿وَالسَّمَاء رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ۝٧﴾ وينتظم التوازن التكوينيّ كل الكون، والسماء بكل عظمتها تقوم على هذا التوازن الحكيم العادل.

﴿أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ۝٩﴾ وهكذا ينسجم الأمر التكوينيّ بالتوازن مع الأمر التشريعيّ بالعدالة والتوازن، وعدم إنقاص الميزان وإقامته على العدل وعدم بخس الحقوق.

﴿وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ۝١٠ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ ۝١١ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ ۝١٢﴾ ويستمرّ القرآن في عرض مظاهر الرحمة بالإنسان بتذكيره بما في الأرض من خصائص تسهّل له حياته الحضاريّة من نبات وفواكه ونخل له طلع، وحبّ مغلّف بغلاف يحفظ له حيويّته وقدرته على استدامة الحياة.

﴿فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٣﴾ إنّها آلاء الله ونعمه المتناسقة لتوفير حياة أفضل للإنسان، فبأيّها يستطيع الإنس والجنّ أن يكذّبا أو ينكرا؟

﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ۝١٤ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ۝١٥ فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٦﴾ هذا الإنسان بكل خصائصه خلقه الله من طين جامد كالخزف، وهذا الجانّ خلق من لهب ناريّ، وكل يحمل خصائصه فبأيّ نعم الله وآياته يمكن التكذيب؟

﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ۝١٧ فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٨﴾ إنّه ربّ المشرقين (مشرق الشمس والقمر أو الشتاء والصيف) والمغربين وبهما تعمر حياة الإنسان وتسهل مسيرته فبأيّ نعم الله يمكن التكذيب؟

﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ۝١٩ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ۝٢٠ فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٢١﴾ وقد حرّك دورة المياه في الطبيعة لتنتقل من بحر مالح وللملوحة دورها ـ إلى سحاب إلى ماء عذب ـ وللعذوبة أيضاً دورها في الحياة الإنسانيّة ـ وبين الملوحة والعذوبة موانع من المزج بقوانين لا يعلم عظمتها إلاّ الله والراسخون في العلم، فكيف يمكن إنكار النعم الإلهيّة المتناسقة ونسبتها إلى الصدف العمياء؟

﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ۝٢٢ فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٢٣﴾ ويحوي البحران المالح والعذب الكثير مما تحتاجه الحياة، ومنه اللؤلو الجميل والمرجان الرائع الألوان، فكيف يمكن إنكار هذه النعم؟

﴿وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ۝٢٤ فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٢٥﴾ ووفق قوانين الله الهائلة تتحرّك السفن الضخمة كالجبال فتخدم مسيرة الإنسان أيّما خدمة فكيف يمكن الإنكار؟

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝٢٦ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ۝٢٧ فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٢٨﴾ وهنا تأتي الإشارة إلى تعاقب الأجيال بالولادة ثمّ الفناء وتبقى القدرة الإلهيّة وصفات الله ذي الجلال هي الحقيقة الخالدة التي تنقل الإنس والجنّ إلى الحياة الآخرة وحسابها مما يحقّق إكمالاً للهدفيّة وانسجاماً مع الرحمة التي أفاضت الوجود وهدته إلى كماله، فهل يمكن التكذيب بكل هذه المظاهر؟

﴿يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ۝٢٩ فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٣٠﴾ إنّه الغني المطلق الذي يحتاج إليه الوجود، ويتعلّق به، فهو محيط به يمدّه في كل آن برحمته وإلاّ فالعدم لا غير، فأين مجال التكذيب؟

﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾﴾ وهكذا تطوى الحياة الدنيا ويقف الجنّ والإنس للحساب يوم القيمة، فلا مجال لإنكار نعم الله وقدرته وحكمته.

﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾﴾ إنّ الخلق كلهم في قبضة الله وتحت علمه وسيطرته، فلا يمكنهم الخروج منها إلاّ بقدرة وسلطان لا يملكونه فما معنى التكذيب؟

﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾﴾ إنّ اللهيب والدخان سوف يلاحقان من يظنّ الفرار، فلا ينفعه ذلك ولا ينصره ناصر، فكيف يمكن التكذيب بالقدرة والعظمة الإلهيّة المطلقة؟

﴿فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاء فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾﴾ من مظاهر القيامة انشقاق السماء وتحوّلها إلى وردة حمراء سائلة كالأديم الاحمر تعبيراً عن التغيير الكونيّ الهائل، وهل يمكن أن ينكر آلاء الله وقدرته وتدبيره أحد؟

﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلَا جَانٌّ ﴿٣٩﴾ فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾﴾ إنّ الأعمال كلها مسجّلة، ولا حاجة في بعض مواقف القيامة للسؤال، فكيف يمكن التكذيب بآلاء الله وقدرته ونعمه؟

﴿يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾﴾ فالمجرمون معروفون بعلاماتهم الواضحة في وجوههم وأبدانهم. وهنا يجمع شعر نواصيهم مع أقدامهم ثمّ يزجّ بهم في نار جهنّم ووجودها نعمة إلهيّة؛ لأنّها تزجر العصاة والمجرمين، فكيف يمكن التكذيب بآلاء الله ونعمه؟

﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ ﴿٤٤﴾ فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾﴾ إنّها جهنّم وما أعظم هولها! يتقلّب المجرمون بين لهيبها وبين سائل حارّ قائم بالفعل فكيف يكذّب المجرمون؟

﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾﴾ أمّا من اتّقى الله وخاف مقامه فله جنّتان مادّيّة ومعنويّة تغمره فيهما رحمة الله ولطفه، فهل يمكن إنكار ألطاف الله؟

﴿ذَوَاتَا أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾﴾ فيهما أغصان نديّة متنوّعة، فهل يمكن الإنكار؟

﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾﴾ وفيهما عينان فيّاضتان بالماء الغزير، فهل يمكن إنكار آلاء الله ونعمائه؟

﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾﴾ وفيهما من كل فاكهة صنفان، فهل يمكن إنكار آلاء الله ونعمائه؟

﴿مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾﴾ يتنعّمون فيهما ويتّكئون على فرش ناعمة بطانتها من الحرير السميك ويتدلّى عليهم قطاف الثمر ليسهل لهم قطفه فما معنى الإنكار؟

﴿فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾﴾ وهناك فتيات حسان تقصر أنظارهنّ على أزواجهنّ أو تقصر الأنظار عن التوجّه إليهن مباشرة لشدّة جمالهن، لم يمسسهنّ قبل ذلك إنس ولا جانّ، فهل هناك مجال للتكذيب بآلاء الله ونعمه؟

﴿كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾﴾ إنهنّ يتمتّعن بالجمال والبهاء والصفاء والألوان الباهرة، فلا مجال للإنكار.

﴿هَلْ جَزَاء الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ﴿٦٠﴾ فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾﴾ إنّ الإحسان الإلهيّ يجب أن يقابله الإحسان من العبد، وإنّ إحسان المحسنين لاجزاء له إلاّ إحسان الله وحنانه، فلا معنى للإنكار أو التكذيب. وهذا العالم الوسيع زاخر بالإحسان الإلهي الفيّاض بالرحمة الشاملة الواسعة.

وبالطبع فإنّ العمل الحسن الصادر من عبيده سيقابل باللطف من قبله تعالى وهو أمر يدركه العقل السليم.

﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾﴾ وإلى جانبهما جنّتان أخريان زيادة في الإنعام الإلهيّ، فهل يمكن التكذيب؟

﴿مُدْهَامَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾﴾ هاتان الجنّتان شديدتا الخضرة متشابكتا الشجر، فهل يمكن التكذيب؟

﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾﴾ وفيهما عينان فوّارتان، فلا معنى لإنكار عظمة آلاء الله.

﴿فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾﴾ وفيهما من الفواكة المتنوّعة وأشجار التمر والرمان، فلا معنى للإنكار.

﴿فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾﴾ وفي هذه الجنان الأربع أو في هذه الفواكه الخيرات الحسنة الكبيرة، فلا داعي للإنكار.

﴿حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾﴾ وهناك الفتيات الرائعات اللوّاتي تصونهنَّ الخيام، فلا داعي للإنكار.

﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾﴾ نعم هنَّ مصونات لم يتزوجهنَّ من قبل إنس ولا جانّ، فلا معنى للإنكار.

﴿مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾﴾ ويتنعّم المؤمنون في هاتين الجنّتين أيضاً متّكئين على وسائد خضر وطنافس جميلة، فهل يمكن الإنكار؟

﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾﴾ إنّها جميعاً مظاهر الرحمة الإلهيّة عدّدتها هذه السورة المباركة التي ختمت بمباركة أسماء الله الجليلة والجميلة التي تغمر آلاؤها الكون. والملفت للنظر في هذه السورة تكرار آية ﴿فبأي آلاء ربّكما تكذّبان ﴿٧٩﴾﴾ واستغراب التكذيب بنعم الله التي لا تحصى، وهو أسلوب بلاغيّ للتأكيد على أهميّة الموضوع، حيث يتوالى السؤال بإيقاع خاص ليستقرّ في الوجدان.

سورة الواقعة (٥٦)

آياتها ٩٦

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تحدّثنا من قبل عن البسملة.

﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ۝١ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢﴾ تصوّر هذه السورة هول يوم القيامة ومظاهره، فهي تعبّر عنه بالواقعة والحدث الكبير، وتتساءل عنه دون أن تجيب، ولكن تؤكّد هذا الوقوع فلا ينفع التكذيب.

﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ۝٣﴾ إنها تهزّ الكون وتقلب الأمور وتبدي السرائر وتذل الأعزّة وتعزّ الأذلّة.

﴿إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا ۝٤ وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا ۝٥ فَكَانَتْ هَبَاء مُّنبَثًّا ۝٦﴾ إنّها ترجّ الأرض وتهزّها وتزلزلها، وتدكّ الجبال فتجعلها ذرّات متناثرة هنا وهناك.

﴿وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ۝٧ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ۝٨ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ۝٩ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ۝١٠ أُوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ۝١١ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ۝١٢﴾ وتنقسم البشريّة إلى أصناف ثلاثة هي:

أصحاب اليُمن والسعادة ، وأصحاب الشؤم والشقاء، والسابقون بالخيرات والإنسانيّة، لذلك فهم المقرّبون عند الله وجزاؤهم جنّات النعيم. ويبدو أنّهم أحسن حالاً وتميّزاً عن الفئة الأولى. لأنهم تحدّوا الباطل وأذعنوا للحقّ رغم قساوة الموقف وصعوبة الظروف، وجهالة المصير ظاهرًا، وبذلك مهّدوا لمستقبل الدعوة واستحقوا هذا اللقب بجدارة.

﴿ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ ۝١٣ وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ۝١٤﴾ إنّهم جمع كثير منتقى من الماضين وقليل من الباقين.

﴿عَلَى سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ۝١٥ مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ ۝١٦﴾ إنّهم يتنعّمون بالخلود في الجنان، يتّكئون على سرر منظّمة ومزيّنة، ويتقابلون في التنعّم والحديث والمسامرة.

﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ۝١٧﴾ ويخدمهم غلمان لا يؤثر الزمان عليهم، فهم في شبابهم دائمون.

﴿بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾﴾ بآنية متنوّعة فيها خمر حلال صافية.

﴿لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾﴾ إنّها خمر لا تصيبهم بالصّداع، ولا تفقدهم الوعي كخمر الدنيا الحرام.

﴿وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾﴾ وأمامهم من الفواكه من كل لون ليتخيّروا ما يشاؤون، ومن لحم الطير ما يريدون.

﴿وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾﴾ كما وإنّهم يحظون بفتيات جميلات رائعات بعيون واسعة بيضاوات كأمثال اللؤلؤ المصون، بعيداً عن الثقب أو التلوّث.

﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾﴾ كل ذلك بطبيعة الحال جزاء لهم على أعمالهم الحسنة.

﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴿٢٦﴾﴾ حيث الحياة الهانئة البعيدة عن كلام اللغو والإثم، والمليئة بمعاني السّلام والأمان والمحبّة.

﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾﴾ أمّا أصحاب اليمن والسعادة فهم تحت أشجار السدر (النبق) الذي قطعت أشواكه، وأشجار الموز ذات الرائحة الطيّبة بثمر منظّم منسّق.

﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾﴾ وفي ظلال لا تزول، ومياه مستمرّة الجريان، وفواكه كثيرة بلا انقطاع ولا حصول موانع من التناول.

﴿وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾﴾ وعلى فرش ممهّدة بعيدة عن الدنس، عليها نساء طاهرات باكرات، صباح الوجوه متقاربات في السن.

﴿لِّأَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ﴿٤٠﴾﴾ وأصحاب اليمين هؤلاء هم مجموعة كثيرة من الماضين، ومجموعة كثيرة من الباقين.

﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾﴾ وأمّا أصحاب الشمال التُعساء فمصيرهم أنّهم يلاقون ريحاً حارّة تنفذ إلى المسامّ، وماء شديد الحرارة ودخاناً أسود في ظلّه العذاب الخانق لا البرد ولا الكرامة.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾﴾ ذلك لأنّهم استمرأوا حياة الترف وركنوا إلى الدنيا وطغوا وغفلوا عن الحقيقة.

﴿وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ ۝٤٦ وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ۝٤٧ أَوَ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ۝٤٨﴾ وأصّروا على نقض عهودهم مع خالقهم كما تقتضي فطرهم، وأذنبوا وانحرفوا وأنكروا الآخرة، مستبعدين العود بعد الموت والفناء هم وآباؤهم.

﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ۝٤٩ لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ۝٥٠﴾ فليؤكّد الرسول أنّ الأولين والآخرين سوف يبعثون ويجمعون في ميقات يوم الحساب المعيّن.

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ ۝٥١ لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ۝٥٢ فَمَالِؤُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ۝٥٣ فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ ۝٥٤ فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ ۝٥٥ هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ ۝٥٦﴾ وهكذا اختار هؤلاء طريق الضّلال والضياع والتكذيب بالحقيقة، فكانت عاقبتهم السيّئة يوم القيامة أن يملأوا بطونهم من نبات تكرهه النفوس والعيون، ويشربوا فوقه من الماء الحارّ، كما تشرب الإبل المصابة بداء العطاش حتّى تفنى، تلك هي حالتهم البائسة، ومنزلتهم يوم القيامة.

﴿نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ۝٥٧﴾ إنّ كل شيء في الكون يشير إلى الخالق العظيم، ومن ذلك خلق الإنسان بكل مافيه من مظاهر الإبداع والتنسيق والهدفيّة ولكن هؤلاء ينكرون هذه الحقائق الباهرة.

﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ۝٥٨ أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ۝٥٩﴾ ومن أروع الدلائل ما يشهده الإنسان من بدء خلقة الإنسان بكل عظمته من المنيّ وهو سائل مهين، ثمّ ليلتحم مع بييضة المرأة لتتكوّن اللقيحة وتتطوّر حتّى تكون إنساناً، إنّ هذا التحوّل العظيم إنما يتمّ بأمر الله وقدرته، ولا يد للإنسان فيه.

﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ۝٦٠ عَلَى أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٦١ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ۝٦٢﴾ وتسير الحياة ويتحرّك التقدير الإلهيّ الرائع موّجهاً لها ومنهياً لمرحلة منها بالموت، ولا يد لأحد في هذا الأمر ، وتتعاقب الأجيال الإنسانيّة لتحقّق أهداف خلقتها وتقوم بمسؤوليّاتها، وينتهي أمد نشأتها الأولى، ويبدأ أوان نشأتها الأخرى بعد الموت. إنّها مسيرة لا يعلم الإنسان أبعادها، ويبقى التقدير الإلهيّ هو كل الحقيقة، فكيف يكذّب بها هؤلاء ولا يتذكّرون النشأة الأولى باعتبارها دليلاً على النشأة الثانية.

﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَاء لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾﴾ ومن الدلائل حركة النباتات الرائعة وتطور البذرة ونموّها وإشباعها لحاجة الإنسان، إنّها تتمّ برعاية الله وأمره، ولو شاء تعالى لحوّلها إلى حطام تافه غير مفيد، ولبقي الإنسان حائراً جائعاً محروماً لا يستطيع أن يديم حياته.

﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاء الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَاء جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ ومن الدلائل حركة الماء في الطبيعة؛ بخار، ثمّ سحاب ثمّ مطر يملأ الأجواء خصباً، ويملأ مخازن الأرض والأنهار ماء. وهكذا تستمرّ الحياة بيد القدرة الإلهيّة، ولو شاءت لأوقفت هذه الحركة، ولجعلت الماء مالحاً لا يصلح للشرب، فهلاّ يعي الإنسان ويشكر هذه النعم؟!

﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ﴿٧١﴾ أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِؤُونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾﴾ ثمّ حركة الحرارة، وتكوّن النار التي يورون زنادها فتشتعل، وتقوم بها حياة الإنسان دفئاً وطبخاً وصهراً وغير ذلك، هذه النار أشعلتها يد القدرة الإلهيّة وأعطتها هذه الخاصيّة، ومنحت النباتات قدرة الاشتعال لتستفيد منها الحياة والمسافرون في البراري، ويتذكّر النّاس نار الآخرة ويشعروا بعظمة النعمة.

﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾ إنّها حقائق ونعم هائلة تستوجب أن يقوم الإنسان بتنزيه الله وتعظيمه، وتساؤلات تهزّ الوجدان ليفكّر فيهما بعمق وتأنٍ كبيرين.

﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾ ثمّ هذه النجوم ومواقعها المحيّرة، وعجائبها التي لا تنتهي، فتستحقّ أن يقسم بها الله وهو قسم عظيم عظيم لو علم الإنسان بأبعاده.

﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾ هذا القسم العظيم بمواقع النجوم في هذا الكون العظيم يتمّ على تأكيد شيء عظيم هو كون هذا القرآن كريماً بعطائه الإلهيّ الذي لا ينقطع، ومصدره ذي العلم والقدرة والكرم، وكتابه ولوحه المحفوظ المصون عن أن تمسّه يد التغيير والتحريف، فلا يلمسه إلاّ المطهّرون، ولا يقرب منه المبلسون، فهو تنزيل مقدس من ربّ الكون لهداية الإنسان كل الإنسان.

﴿أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ ومثل هذا الكتاب المقدّس يستحقّ التكريم لا التهاون والتليين وتسهيل الأمر، والاسترزاق بتكذيبه حفاظاً على المواقع.

﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَا إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٨٧﴾﴾ فليتصوّر هؤلاء المكذّبون حالهم حينما تبلغ أرواحهم حلاقيمهم فيشرفون على الموت، وقد يئس منهم الحاضرون فليس لديهم إلاّ النظر الباهت، وتسليم الأمر لله وقدرته، فهو الأقرب والأقدر، وهم الأعجز عن صنع أيّ شيء وإرجاع الروح إليهم وإنقاذهم من الجزاء والعقاب.

﴿فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ كلاّ، فهم مستسلمون للقدرة الإلهيّة، وللحساب العادل، فإن كانوا قد عملوا ما يقرّبهم إلى الله فالروح والريحان والنعيم وتلك درجة المقرّبين.

﴿وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٩١﴾﴾ وإن كانوا من أصحاب اليمين واليمن، فهم يبلغون سلامهم للرسول الكريم على ما بهم من نعمة.

﴿وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾﴾ أما المكذّبون الضّالون فمصيرهم العذاب الساخن والجحيم الحارقة.

﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾﴾ هذه هي الحقيقة الناصعة التي يجب أن يقف عندها الإنسان، منزّهاً ربّه العظيم.

آياتها ٢٩

سورة الحديد (٥٧)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تحدّثنا قبل هذا عن البسملة.

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ①﴾ إنّ الكون كله يسبّح لله وينزّهه ويسيروفق سننه وقوانينه؛ لأنه الحقيقة كلها والعزّة كلها والحكمة كلها.

﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ②﴾ إنّه مالك الوجود والحياة والموت، وله القدرة المطلقة.

﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ③﴾ إنّه الأوّل قبل كل أوّل، والآخر بعد كل آخر، والأظهر من كل ظاهر، والأخفى من كل خفي، والأعلم بكل شيء؛ لأنه المحيط بكل الوجود، وهو خالقه وممدّه في كل آن.

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاء وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ④﴾ وهو تعالى خالق الكون في مراحل زمنية ستّ، وهو الماسك بأزمّة الأمور وإدارة الكون من نقطة معيّنة هي العرش، يعلم دقائق الكون وما يدخل في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يصعد إليها، فهو تعالى محيط بالكون ممدّ للوجود، عليم بكل الأعمال، بصير بكل الأمور.

﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ⑤﴾ تأكيد على الملكيّة الإلهيّة الحقيقيّة للكون كله، وعودته بكل شؤونه إليه تعالى.

﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ⑥﴾ إشارة إلى الحركة الكونيّة التي تنتج تعاقب الليل والنهار واندماجهما طولاً وقصراً، فهو تعالى محيط بها كما أنّه محيط بكل حركة نفسيّة فلا يعزب عنه شيء. في إشارة رائعة للعلاقة بين الكون والإنسان.

﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ⑦﴾ بعد تلك الإشارات إلى عظمة الله وقدرته وإحاطته وعلمه المطلق، يأتي هذا النداء لتعميق الإيمان به وبرسوله، والإنفاق مما جعل النّاس خلفاء عليه،

فملّكهم إيّاه ملكيّة اعتبارية، ليقوموا بحقّ الخلافة ويصرفوه حيثما يأمرهم المالك الحقيقيّ، فينالوا بذلك استحقاق الأجر الكبير.

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾﴾ إنّ كل العلائم والأدلّة تقضي بعظمة الحقيقة الإلهيّة فلماذا يعرض هؤلاء عنها أو لا يعطونها حقّها؟ وهاهو الرسول الصّادق الأمين يدعوهم إليها وإلى القيام بمقتضيات الإيمان ولوازمه بعد أن أخذ منّهم البيعة والعهود.

﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٩﴾﴾ إنَّ هذا الرسول الكريم الصادق المصدّق عبدالله يحمل رسالته بآيات واضحات ليخرج البشر من ظلمات الجاهليّة وعماها إلى نور الإسلام، رحمة من الله ورأفة بهم.

﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾﴾ إنّ الإنفاق في سبيل الله هو لازم الإيمان بالله ومالكيّته للكون، وكلّما كان الإخلاص أسمى ـ كما هو الحال في الإنفاق والجهاد قبل فتح مكّة أو الحديبية حيث الظروف الشاقّة للمسلمين ـ كان أكثر أجراً وكشفاً عن سمّو الدرجة الإيمانيّة، نسبة لمن جاهد وأنفق بعد ذلك ، وإن كان الإنفاق والجهاد في نفسه يؤدّي للعاقبة الحسنة، والله تعالى يراقب كل الأعمال فيجزيها.

﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾﴾ رغم أنّ المال مال الله، ولكنه يستقرضه من عبيده لينفق على هؤلاء العبيد، ثمّ يضاعفه في مقام الجزاء ويزيد ذلك أجراً كريماً من عنده يوم الحساب، وكل ذلك من لطف الله وكرمه.

﴿ يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾﴾ زيادة في الحثّ على الإنفاق يعرض القرآن هنا الجوّ الذي يُجزى به المنفقون في القيامة. إنّه يوم يسير فيه المؤمنون والمؤمنات ونورهم يسعى أمامهم وعلى أيمانهم، وتأتيهم البشرى الرائعة بتحقّق أقصى ما يتمنّاه إنسان، وهو الخلود في النعيم.

﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴿١٣﴾﴾ أمّا المنافقون والمنافقات فهم يعانون ظلمة العذاب ووحشته، فيسألون المؤمنين أن يتريّثوا في مسيرهم إلى الجنّة حتّى يصل المنافقون إليهم ويقتبسوا من نورهم، فيأتيهم الخطاب أن ارجعوا وراءكم إلى الدنيا والتمسوا هناك نوراً، والدنيا هي دار العمل الذي ينتج النور. وهنا يضرب بين الفريقين سور باطنه باتّجاه المؤمنين يوحي بالرحمة، وظاهره باتّجاه الآخرين يوحي بالعذاب.

﴿يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾ وهنا ينادي المنافقون المؤمنين مذكّرين إياهم بأنّهم كانوا يعيشون معهم في الدنيا، فيحسبهم الرائي أمّة واحدة ليأتيهم الجواب أن بلى كان ذلك ولكنكم ألقيتم أنفسكم في الفتنة وعشتم مردّدين مشكّكين مغرورين بالآمال الكاذبة، متّبعين لإغراءات الشيطان، فلا تنفعكم اليوم فدية، كما لا تنفع الكافرين من حلفائكم، ومصير الجميع هي النار.

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿١٦﴾﴾ وهنا يتوجّه القرآن للمؤمنين طالباً منهم تعميق الإيمان، ليملأ وجودهم فتخشع قلوبهم وأحاسيسهم لذكر الله وآياته النازلة بالحقّ، ويبتعدوا عن نكسة إيمانية أصيب بها أهل الكتاب من قبل حين طال بعدهم عن منبع الرسالة والإيمان، فابتلوا بقسوة القلوب والابتعاد عن الفطرة السليمة.

﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾﴾ ولكنّ الله تعالى وهو محيي الأرض بعد موتها، يبثّ الآيات والمواعظ ليحيي بها العقول والقلوب.

﴿إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾﴾ عودة للحثّ على التصدّق من خلال مدح المتصدّقين والمتصدّقات، المتعاملين مع الله بإقراضه قرضا حسناً طيباً، وإنّهم سيحصلون على الأجر المضاعف وزيادة كريمة تتناسب

وكرم الله. ومن الواضح دور الإنفاق في تلك الظروف الضيّقة لتحقيق التوازن الاجتماعيّ، وسدّ الخلل، ودعم الدعوة، وبالتالي تحقيق الأهداف المنظورة، بالاضافة لما يتركه العمل التبرّعيّ من تزكية للنفس، وتركيز للإيمان.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاء عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١٩﴾﴾ إن الإيمان بالله ورسله إيماناً جامعاً يملأ الوجود، يوصل الإنسان إلى مقام الصدّيقين والشهداء، الذين هم نماذج وقدوة للآخرين، ويستحقّون ما لهم من النور والأجر، في حين تلاحق الكافرين والمكذّبين لعنة صحبة الجحيم؛ لأنهم أبعدوا أنفسهم عن السبيل القويم.

﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿٢٠﴾﴾ ولكي تبدو روعة حياة الإيمان يعرض القرآن الصورة الحقيقيّة للحياة الدانية، فما هي إلا لَعِب كلعب الاطفال ولهو كلهو الشباب وزينة كزهو الاقوياء وتفاخر وتكاثر في الأموال والأولاد كما يفعل المترفون دونما هدف سام، فهي سراب وخداع زائل، وهي كمثل مطر يعجب الزّراع لما يؤدي إليه من نبات ثمّ ينمو بكثرة استعداداً للحصاد ثمّ يتحوّل بعدها إلى هشيم متلاش في لحظة سريعة، في حين يتمّ الحساب يوم القيامة بدقّة فإما العذاب وإمّا الغفران ورضوان الله، فلا تقاس به الحياة الدنيا التي هي متاع الخداع. والحديث هنا عن حياة دنيا في قبال الحياة المتسامية للصالحين، فإن الدنيا عندهم قنطرة الآخرة، ووسيلة يستطيعون من خلالها خدمة إسلامهم ودعوتهم وبناء مجتمع صالح، كما يعمرون آخرتهم فيزيد ثوابهم.

﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاء وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاء وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢١﴾﴾ وعلى أساس من هذه الحقيقة يدعو القرآن لأن تتحوّل الحياة إلى منافسة حقيقيّة ـ لا وهميّة ـ في مضمار الغفران الإلهيّ، حيث الجائزة هي الجنّة التي تعدل سعة السماء والأرض ـ والكون أوسع منهما ـ وقد أعدّت للمؤمنين بالله ورسله الملحقين بمقام الصدّيقين وكل ذلك فضل من الله، والله ذو

الفضل العظيم. إن التنافس في الخير، والتسابق في جلب مؤهّلات الغفران هي صفة المجتمع المسلم، ومن الجانب الآخر يتصف هذا المجتمع بصفة تجنّب الطاغوت وكل صفاته الشيطانيّة.

﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾﴾ إنّ ما يصيب الإنسان من مصائب في الأرض أو في النفس محفوظ معلوم عند الله مقدّر لديه، فلا مكان للصدفة في هذا الكون وهو أمر يسير على الله، فينبغي أن يحتفظ الإنسان بتوازنه ووعيه تجاه الحوادث، فلا يحزن على ما فاته حزناً يفقده وعيه، ولا يفرح بما يحصل عليه فرحاً يفقده توازنه فيعود مختالاً مزهواً فخوراً، بل عليه أن يكون زاهداً بالمعنى الإيجابيّ للزهد. وتعدّ هذه الآية من أروع التعبيرات عن الزهد الذي يدعو إليه الإسلام فليس الزهد أن لا تملك شيئاً ولكن الزهد أن لا يملكك شيء.

﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾﴾ وعلى الإنسان أن يحسّ بموقعه وعضويته في المجتمع فلا يبخل، ولا يأمر بالبخل، وإلا اعتبر منحرفاً عن الصراط السويّ، والله هو الغنيّ الحميد.

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾﴾ في هذه الآية بيان لهدف إرسال الرسل ومعهم العلامات الواضحات والكتاب أي الوحي الذي يحمل أوامر الله وهي تحوي معايير الحقّ والباطل، والخير والشرّ وهي أمور يعلمها ـ كلها ـ خالق الكون والإنسان ، كل ذلك ليقوم مجتمع العدالة الحقيقيّة التي يتوق إليها الإنسان بفطرته.

واعطى الله ـ لطفا منه ـ الحديد بما فيه من صلابة وقوة تنفع الإنسان في جميع مسيرته الحضاريّة شريطة أن يعي الإنسان واجبه ويستخدمه خير استخدام ومنه استخدامه لنصرة الرسل وصنع مجتمع القسط. هكذا شاء الله للإنسان أن يحقّق هدف خلقته وإلاّ فإن الله قويّ عزيز لا ينقصه شيء ولا يحتاج إلى شيء. وبذلك يتلخص هدف الرسالات الإلهيّة في مجتمع قوامه العدل والقوّة اللازمة لإقامته.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٦﴾﴾ وهكذا شاءت القدرة والرحمة الإلهيّة أن تستمرّ مسيرة النبوّة المتناسقة في أهدافها، ويذكر هنا نوح وإبراهيم ـ نموذجاً ـ كما تذكر مسيرة البشريّة المتمثّلة في ذريّتهما وانقسامها لقضيّتي الهدى والضلال.

﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاء رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٧﴾﴾ وعلى هذا السياق تتابعت الرسل حتّى وصل الأمر إلى عيسى فجاء قومه يحمل إليهم الانجيل فاتّبعه المؤمنون وغرس الله في قلوبهم الرأفة والعطف والرحمة، وقد دفعتهم الخشية من الله إلى ابتداع حالة الترهبن والتركيز على العبادة والاعتزال لها رغم أنها لم تكن واجبة عليهم، ولكن هذه الحالة التطوعيّة لم تبق على أصالتها وفقدت مضمونها التربوي، بانعزالها عن الحياة، ولم تعط حقّها لدى البعض وطبيعيّ أن يجازى المؤمنون المخلصون ويعاقب الفاسقون المنحرفون.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ بعد ما سبق يتوجّه الخطاب للمؤمنين لتأكيد تقواهم وإيمانهم بالرسول ليتأهّلوا للرحمة الإلهيّة المضاعفة، ويتّصفوا بنور العقل والحكمة والإيمان، وبه يكتشفون سبيل سعادتهم وينالهم الغفران والرحمة. وهكذا يبدو التصوّر الإسلاميّ للحياة فلا ترهبن فيها وانما مشي وسير وتفاعل ولكن مع نور يشع بالروح والمعنويّات.

﴿لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاء وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾ إن الرحمة الإلهيّة ليست حكراً على أهل الكتاب ـ كما يزعمون ـ فالفضل بيد الله لا غير، تستحقّه كل أمّة سارت على خطّ الرسل وحقّقت مقتضيات الخلافة.

سورة المجادلة (٥٨)

آياتها ٢٢

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مرّ الحديث عن البسملة.

﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ۝١ الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ۝٢ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝٣ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٤﴾ هذه الآية نموذج لعلم الله بكل شيء وحضوره مع كل تحرّك، فلا يشغله شيء مهما كان عظيماً عن شيء، كما أنّها مثال على الرعاية الإلهيّة لهذه الأمّة في كل شيء، فهي تعلن الاستجابة الإلهيّة لنداء إمرأة جاءت تشكو زوجها في ما فعله من (الظهار)، إذ قال لها (أنت عليّ كظهر أمّي) وما هو بمعناه، وهو أسلوب جاهليّ للطلاق المؤبّد، ثمّ عاد عليها ليراجعها فامتنعت حتّى يحكم الله. فحكم الله بأنّ هذا القول زور باطل منكر، وأنّها لازالت زوجة له، وأنّ عليه نتيجة ذلك أن يعتق رقبة، فإن لم يجد ذلك فصيام شهرين متتابعين، وعند عدم القدرة فإطعام ستّين مسكيناً، وذلك قبل أن يتماسّا زوجيّاً. إنّه إذن عقاب على اتّباع سنّة جاهليّة يرفضها الإسلام، فينبغي التقيّد بحدود الإسلام، فإنّه مقتضى الإيمان بالله والرسول، أما الكافرون فوراءهم العذاب الأليم. ويلاحظ في موضوع الكفّارة هنا وفي أمثالها من الكفارات الاهتمام بالعتق والتحرير وإطعام المساكين والصيام، باعتباره تربية روحيّة وكل منها ذو مفهوم اجتماعيّ وروحيّ يمنع من تكرار المعصية. كما يلاحظ التعبير القرآني المهذّب عن الجماع بلفظة (يتماسّا) ليعطينا درساً جميلا في انتخاب التعبيرات المؤدّبة في كل شؤون الحياة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٥﴾ نعم، يجب التقيّد بالشريعة الإلهيّة تحقيقاً للوازم الإيمان وخلاصاً من عذاب الله. أمّا الذين يعاندون الأوامر الإلهيّة ويتعدّون على الحدود الشرعيّة

فسيكبتون ويذلّون كما تمّ إذلال أمثالهم من الأمم السابقة الذين دفعهم العناد لتكذيب الحقيقة، رغم الآيات الواضحات التي كانت تدلّ عليها، فكفروا بها واستحقّوا العذاب المهين.

﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝٦﴾ إنّهم يجب أن يعلموا أنّ الله تعالى يحصي أعمالهم بدقّة نتيجة قدرته المطلقة، وأنّه سيواجههم بها يوم القيامة حين يبعث النّاس جميعاً. إنّهم ينسون جرائمهم، ولكن الإحصاء الإلهيّ لا يغادر صغيرة ولا كبيرة؛ لأنّه تعالى خالق الكون والعليم بما خلق والشاهد الحقّ عليه. وهذه المراقبة والإحساس بالمحاسبة الإلهيّة لها أعظم دور في دفع الإنسان للسلوك الصالح.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِن ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝٧﴾ إنّه العليم بكل ما في الكون، وحتى الكلام الخفيّ الذي يجري بين ثلاثة أشخاص أو خمسة أو أقل أو أكثر فهو تعالى رابعهم وسادسهم، فهو مع كل حركة وسكنة في الوجود معيّة كاملة؛ لأنّه ممدّ الوجود في كل آن وكل مكان، فالإحصاء دقيق وشامل، وسينبّئهم الله بأعمالهم يوم القيامة.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ ۝٨﴾ كشف لتحرّكات بعض المنافقين الخفيّة لعرقلة مسيرة الدعوة، رغم أنّهم قد نبّهوا إلى عدم القيام بذلك، ورغم تحذيرهم بأنّها أعمال مكشوفة أمام الله العليم. لقد كانوا يكرّرون ويخطّطون لتخطيطات آثمة وعدوانيّة، وسلوكات مخالفة لأمر الرسول، وأخرى سخيفة كأن يلوون ألسنتهم بالسّلام على الرسول ليكون الظاهر هو السلام والباطن هو الدعاء عليه بالفناء. وهو مما تعلّموه من حلفائهم اليهود. ثمّ يكشف القرآن عن حديثهم النفسيّ بدعوى أنّه لو كان صادقاً في دعواه لعذّبهم الله نتيجة سلوكهم، ولكنّ الردّ الحاسم يأتي ليخبرهم بالمصير الرهيب، إنّها العاقبة الجهنّميّة، فبئس المصير.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ۝٩﴾ وبعد نهي المنافقين عن

التجمّعات السّرية المعادية، يأتي هذا النهي للمؤمنين عن مثل تجمّعات المنافقين وما يدور فيها من تخطيط عدوانيّ آثم، ليصرفها إلى تجمّعات منسجمة مع توجّهات القيادة الحكيمة، ومستهدفة لإشاعة البر والتقوى والعمل البنّاء طلباً لمرضاة الله، وبعداً عن عذابه يوم الحشر، وهكذا يأتي التأكيد على التشاور الجماعيّ للمؤمنين وعدم التفرّد، فهو مظنّة الانقسام.

﴿إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾﴾ إنّ انفراد البعض بالتشاوّر الخفيّ بعيداً عن الجماعة المسلمة إنما هو تسويل وتسويغ شيطانيّ لبثّ الفرقة والريب في المجتمع، ولكنّ الله يعد المؤمنين المخلصين بصيانة المجتمع من مكائد الشيطان وضرره، فكل شيء واقع تحت علمه وقدرته، فليتّكل المؤمنون عليه وليطمئنّوا به.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾ إستمراراً في عملية تهذيب المجتمع المسلم يأتي الأمر بالتفسّح أي فسح المجال للقادمين كي يشاركوا في مجالس الخير وطلب العلم، فإن التعاون في ذلك يؤدّي إلى أن يفتح الله على المتعاون من عنايته. وكذلك الأمر حينما يطلب من أحدهم ـ عند حضور العالم ـ أن يخلي المكان وينصرف، فإن الطاعة سبب للعزّة وارتفاع الدرجة، كما أنّ للعلماء المؤمنين درجاتهم الرفيعة عند الله العليم الخبير بكل ذلك.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ تتعرّض الآية لبعض حالات التزاحم للانفراد برسول الله والحديث الخاصّ معه، ولعلّ ذلك كان يتمّ من الأغنياء أكثر من الفقراء، ففرضت هنا ضريبة خاصّة عند إرادة النجوى مع النبيّ، فإن لم يكن هناك تمكّن ماليّ فإن الأمر معفوّ عنه، وقد عمل الإمام علي عليه السلام بهذا التكليف وكان معه دينار صرفه إلى دراهم[١] امتثالاً وشكراً لله على نعمة الحديث مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

١. التبيان للطوسي (ج ٩ ص ٥٥١)، الخصال للصدوق (ص ٥٧٤) مناقب الإمام أمير المؤمنين ٧ (ج ١ ص ١٨٧)، مستدرك الحاكم النيسابوري (ج ٢ ص ٤٨٢)، تحفة الأحوذي للمباركفوري (ج ٩ ص ١٣٨) جامع البيان للطبري (ج٢٨ ص ٣٧) وغيرها.

﴿أَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾﴾ ويبدو أنّ الهدف كان تربويّاً وتنبيهاً إلى لزوم مراعاة الآخرين وفسح المجال للرسول ﷺ، خصوصاً بعد أن امتنع المؤمنون عن ذلك، لما يترتّب عليه من إنفاق، ولذا جاءت الآية لترفع هذا الأمر والتكليف، عفواً ولطفاً من الله، فليتم التركيز على إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وإطاعة الله ورسوله ومراقبة الله في كل المسير.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاء مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾﴾ تركيز على المنافقين وتحرّكاتهم حيث كانوا يتودّدون إلى اليهود المغضوب عليهم ويتردّدون في الانتماء الاجتماعيّ، فلا هم من المؤمنين ولا هم من أعدائهم، ولكنّ هؤلاء المنافقين عندما كانوا يواجهون بهذا السلوك المنافق كانوا يحلفون كذباً على أنّهم منسجمون مع المسلمين رغم علمهم بكذبهم، مما يؤهّلهم لعذاب الله الشديد، نتيجة هذا السلوك السيّئ.

﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾﴾ إنّهم اتّخذوا حلفهم بالله كاذبين وقاية لهم من تأنيب المؤمنين، وراحوا يعرقلون مسيرة الإيمان، ولذلك استحقّوا العذاب والهوان.

﴿لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٧﴾﴾ إنّهم أناس تغريهم الدنيا بما فيها من أولاد وأموال، ولكن ذلك لا يغنيهم من عذاب الله شيئاً، وما أشدَّ هذا العذاب إنّه الخلود في الجحيم.

﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٨﴾﴾ إنّهم سفهاء يكرّرون غلطتهم وحلفهم حتّى حين يبعثهم الله، ظانّين أنّ ذلك ينفعهم وهم الكاذبون في حلفهم والواهمون في ظنّهم.

﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُوْلَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٩﴾﴾ إنّهم أسلموا قيادهم للشيطان الذي أنساهم ذكر ربّهم فعادوا من حزبه وأتباعه الخاسرين حقاً.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ فِي الأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾﴾ لقد انضمّوا إلى المعسكر المعادي لله ورسوله ـ ابتغاءً للعزّة، ولكنّه معسكر الأذّلاء.

﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾﴾ أمّا المعسكر الإلهيّ ومعسكر الأنبياء والرسل فهو معسكر الغلبة الحقيقيّة؛ لأنّ الله هو القدرة المطلقة والعزّة الحقيقيّة.

﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءهُمْ أَوْ أَبْنَاءهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾ إنّ هناك انفصاماً بين خطّ الحقّ والإيمان بالله والآخرة وخطّ الباطل والعناد، ولا معنى لتصوّر العلاقة العاطفيّة بينهما؛ لأنّ العقيدة هي التي تصوغ العاطفة، بل حتّى العلائق النسبيّة كالأبوّة والبنوّة والأخوّة ووحدة القبيلة لن تبقى مؤثّرة في إيجاد ربط عاطفيّ، ذلك لأن الإيمان المتأصّل في القلوب يزيح كل ما يتنافى معه، والروح التي يوجدها هذا الإيمان لا تنسجم مع أوضار الجاهليّة، وبذلك يستحقّ أهل خطّ الإيمان المركّز في القلوب أن يؤيّدهم الله بروح منه ورعاية مميّزة، والخلود في الجنان الفيحاء يظلّلهم الرضوان الإلهيّ المتبادل بين العبد وربّه، وما أعظمها منزلة، ويعودون من حزب الله، وحزب الله هم المفلحون.

سورة الحشر (٥٩)

آياتها ٢٤

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مرّ بنا الحديث عن البسملة.

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ①﴾ إنّ الوجود كله يسبّح لله ذي العزّة والحكمة المطلقتين، وقد جاء ذكر هذه الحقيقة الإيمانيّة مقدّمة للتعرّض لما جرى لبني النضير.

﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ②﴾ لقد كان بنو النضير قوماً من اليهود يجاورون المدينة، وقد طرح الرسول عهده الشهير لينظّم العلاقات الإنسانيّة بين المسلمين وغيرهم، فعاهدوه على ذلك ولكنهم خانوا العهد وتآمروا لقتله، وبيّتوا علاقة تآمرية مع المنافقين مما شكّل خطراً كبيراً على المجتمع الإسلاميّ الوليد، فطلب منهم الجلاء والخروج الجماعيّ دونما عودة، بعد أن خانوا العهد، فرفضوا ذلك وتحصّنوا في حصونهم مستقوين بوعود المنافقين، فأمر رسول الله بمحاصرتهم ، ولما طال عليهم الحصار واستولى عليهم الرعب حملوا متاعهم وجلوا بعد أن ضمن لهم الرسول الجلاء الآمن، ولكنّهم هدّموا بيوتهم، كما قام بعض المؤمنين بهدم بعض البيوت أيضاً، وهكذا أراد الله بعزّته أن يقي المسلمين شرّهم، ويجعلهم عبرة لأولي الأبصار.

﴿وَلَوْلَا أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ ③﴾ ولولا قيامهم بالجلاء لعذّبوا في الدنيا بعذاب العار والهزيمة أو أيّ عذاب آخر وفي الآخرة لهم عذاب النار؛ لأنّهم عاندوا ووقفوا في وجه الحقّ. ولا يزال القرآن الكريم يعرض بين الحين والحين الآخر رذائل المجتمع اليهوديّ، وفي طليعتها عدم الالتزام بالعهد. وهي صفة خطيرة شكّلت خطراً كبيراً على المجتمع الإسلاميّ الوليد، ولذا استحقّ اليهود هذا العقاب.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ④﴾ ٤ إنّ

العذاب في الدارين نتيجة لحركتهم المعاندة لله ورسوله، مما يؤهّلهم لعذاب الله الشديد.

﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ ﴿٥﴾﴾ إنّ كل لوازم الحصار وما يسّببه من قطع شجرة أو نبتة أو بقائها قائمة بجذورها، فهو بإذن الله وقضائه؛ لأنّه سبب لخزي هؤلاء الفاسقين الخارجين على العهد.

﴿وَمَا أَفَاء اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَن يَشَاء وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ مَّا أَفَاء اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاء مِنكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٧﴾﴾ ولما كان الجلاء نتيجة الرعب دون أن يقوم المسلمون بإركاض خيلهم أو جمالهم، فإن الغنيمة هنا ليست للمسلمين وإنّما يوكل أمرها إلى الرسول باعتبارها من الفيء (وحكمه عامّ) حيث يعود إلى الله والرسول وقرابة الرسول واليتامى والمساكين وابن السبيل، وهو حكم إسلاميّ يهدف إلى أن لا يتداول المال في المجتمع الإسلاميّ بين الأغنياء خاصّة، بل يتّسع ليشمل كل المجتمع ويوجد التوازن فيه، وهو إضاءة قرآنيّة اقتصاديّة رائعة، وقد قسّم الرسول هذا الفيء بين المهاجرين ونفر من الأنصار، وفق ما رآه من المصلحة. ومن الطبيعيّ أن يطيع المسلمون الرسول في كل ما آتاهم به وينتهوا عما نهاهم عنه، فإن ذلك مقتضى التقوى والإيمان.

﴿لِلْفُقَرَاء الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾﴾ إنّ من حقّ الفقراء الذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأموالهم مستهدفين خدمة الرسالة والأهليّة لفضل الله ورضوانه، ونصر الله ورسوله، صادقين في ثباتهم على الخطّ، نعم إنّ من حقّهم الحصول على ما يقيم أودهم ويضمن معاشهم الطبيعيّ، ولا تتباعد مستويات المعيشة في المجتمع فإنه يؤدي إلى اختلال التوازن، وهذا التوازن إلى جانب التكافل يمثّلان التفصيل العمليّ لمفهوم العدالة الاجتماعيّة في الإسلام.

﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ

نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾﴾ أمّا الأنصار الذين سكنوا المدينة من قبل وآمنوا بالدعوة فإنّهم يحملون للمهاجرين الحبّ الإيمانيّ ولا يحسّون في أنفسهم بأي ضيق، نتيجة ما يحصل عليه المهاجرون من فيء، بل يؤثرونهم على أنفسهم وإن كانت لديهم هم حاجة إلى ما يؤثرون به، ذلك أنّ الإيمان وسّع من أهدافهم ومن نفوسهم فتعالوا على الصفات الدنيا كالبخل والحسد، وطبيعيّ أنّ من يتعالى عليها يسير في درب المفلحين السعداء. وبهذه الصفات الحسنة سما المجتمع في صدر الإسلام إلى مستويات عالية، مما يدعو المسلمين إلى العمل على تقريب مستوياتهم الاجتماعيّة والأخلاقيّة الى تلك المستويات.

﴿وَالَّذِينَ جَاؤُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ صورة رائعة لمن يأتي بعد المهاجرين والأنصار من المؤمنين؛ إنّهم في دعاء خالص لأنفسهم ولإخوانهم الذين سبقوهم بالإيمان، طالبين الغفران، سائلين المولى ـ عزّ وجلّ برأفته ورحمته ـ أن يجعل قلوبهم طاهرة من الغلّ والعداوة والحقد للمؤمنين جميعاً، وهكذا يبني القرآن هذا المجتمع المتحابّ المتآخي المتلاحم.

﴿أَلَمْ تَر إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾﴾ وهذه لفتة إلى حالة المنافقين الذين تآمروا مع إخوانهم! من بني النضير، حيث شجّعوهم على التحصّن ومقاومة الرسول، مؤكّدين لهم أنّهم لو أخرجوا من أماكنهم فسيخرج المنافقون معهم، وأنّهم في هذا الأمر مصمّمون لا يستمعون فيه لرأي أحد، وأنّهم سينصرونهم إذا نشب القتال بينهم وبين المسلمين، كل ذلك كذباً وتحريكاً وتحريضاً لئيماً، فهم لن يخرجوا معهم ولن ينصروهم، ثمّ إنّهم لو اشتركوا في القتال لنصرتهم فسيفتون من عضدهم؛ لأنّهم سيكونون من الفارّين المهزومين.

﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾﴾ بيان لسرّ الخور في نفوس المنافقين، وهو أنّهم يخافون المؤمنين أكثر من خوفهم من الله، وهو دليل سخفهم وخفّة عقولهم، فالله تعالى هو القوّة والقدرة المطلقة ولا قيمة لغيره مهما كان في قباله.

﴿لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاء جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾﴾ إنّ هؤلاء الذين يقفون في وجه الدعوة جبناء لا يقاتلون المؤمنين إلاّ وهم متحصّنون في حصونهم أو متمترسون خلف جدر وحيطان تقيهم البأس، وهم فيما بينهم يتفاخرون بالقوّة ويتبادلون الادّعاءات بها، فإذا جدّ الجدّ رأيتهم في غاية الخور، إنّهم يبدون الصلابة والتلاحم، لكنهم في الواقع متمزّقون؛ لأنّ قلوبهم ممزّقة وأهواءهم مشتّتة، فلا وليّ لهم ولا أمل في المستقبل ولا تجمعهم إلا الجهل والحميّة والمنافع والعناد لرسول الله والمؤمنين. وهذا ما أثبتته الأيام.

﴿كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾﴾ إنّهم نموذج سبقته نماذج أخرى كبني القينقاع الذين نقضوا العهد فنفاهم الرسول ولم تنفعهم وعود المنافقين، وذاقوا عاقبة سلوكهم ووراءهم العذاب الأليم في الآخرة.

﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾﴾ وهذا هو ديدن الشيطان يحرّض الإنسان على الكفر، ويغريه بالمتع الدنيويّة، وعندما يستجيب الإنسان ويغرق في الوحل الجاهليّ يتبرّأ الشيطان منه، معلناً أنّه يخاف الله ربّ العالمين.

﴿فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاء الظَّالِمِينَ ﴿١٧﴾﴾ وهكذا ضعف الطالب والمطلوب، والغارّ والمغرور وسقطا في هاوية الهلاك، جزاء لظلمهما وهي جزاء لكل ظالم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾﴾ بعد هذا الدرس الذي لخّصه القرآن من موقفي بني النضير والمنافقين، يتّجه إلى المؤمنين موسّعاً أفق نظرتهم، داعياً للإعداد المطلوب للمستقبل في إطار من تقوى الله أولاً وآخراً واستشعاراً للمسؤوليّة الكبرى أمام الله، وهو المحيط الخبير بكل الأعمال.

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٩﴾﴾ مؤكّداً على نبذ النماذج البشريّة المنحطّة المنتكسة التي نسيت الحقيقة المطلقة التي تدركها الفطرة السليمة، وهي وجود الخالق العظيم، وحينئذ أنساها الله واقعها هي واغتربت عن ذاتها إلى ذات منتكسة، وفسقت وخرجت من وضعها الطبيعيّ.

﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾﴾ نعم إنّهما طريقان لا يستويان، فهذا يسير إلى الهاوية على غير هدى فينتهي به الأمر إلى النار، وهذا يسير بكل وعي وهدفيّة لتحقيق مسؤوليته الكبرى في الحياة فيصل إلى جنّة الرضوان الإلهيّ والفوز بغاية ما يتمنّاه إنسان.

﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ وهذا القرآن هو طريق الجنّة بما فيه من تعاليم وتوجيهات ونظم تبني الذات الفرديّة والمجتمع الإنسانيّ الفريد، فيجب أن تنفتح له النفس وتتفاعل معه الروح، إنّه لو أنزل على جبل شامخ لانهدّ خاشعاً من خشية الله.

فلماذا لا تستجيب بعض النفوس لهذه العظمة فتعتبر بهذه الأمثال، وتنطلق إلى الحالة العقلانيّة المطلوبة.

﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾﴾ وتختتم السورة بالتذكير باسماء الله الحسنى، والفطرة الإنسانيّة لا تستريح حتّى تصل إلى هذا الموجود المطلق الذي يخشع له الكون بكل ما فيه.

إنّه الواحد بلا شريك، والعالم الذي يستوي لديه الغيب والحضور، والرحمن، الرحيم المالك للكون ملكيّة حقيقيّة، أصل القدس والنزاهة، ومصدر السلامة والأمان، المسيطر على كل ما عداه، القويّ فلا قوّة لغيره، النافذ الإرادة والمشيئة في كل الوجود، الذي لا تصلح الكبرياء والعظمة إلاّ له، فسبحانه أن يجعل له ندّ أو شريك.

﴿هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاء الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾ إنّه الخالق الموجد للكون، والمنشئ له بتقدير دقيق والمصوّر للأشياء لتمتاز عن غيرها.

إنّها صفات الذات الإلهيّة الحسنى، والفعل الإلهيّ الأكمل، ولله جلّ جلاله كل ما يتصوّره الإنسان من الأسماء الحسنى، ولذا فإن الكون كله ينزّهه ويقدّسه ويخشع له، فهو وحده العزيز الحكيم.

سورة الممتحنة (٦٠)

آياتها ١٣

بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

البسملة آية قرآنيّة، وهي جزء من السورة.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاء تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاء مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاء السَّبِيلِ (١)﴾ إنّ خطّ الإيمان وخطَّ الشرك لا يلتقيان، ولا تقوم بينهما علاقة عاطفيّة، لأنّ العاطفة تصوغها العقيدة، فيجب أن يتحرّز المؤمنون، وقد خرجوا للجهاد عن أيّة مودّة مع أعداء الله بعد أن كفروا بالحقّ وأخرجوا الرسول والمؤمنين من بلدهم لا لشيء إلاّ لأنهم آمنوا بالله، وجاهدوا في سبيل الله ولتحقيق مرضاته.

وكان البعض قد جرّته روابطه العاطفيّة لإخفاء مودّته لبعض المشركين من الآباء أو الأبناء أو الأقارب والأصدقاء مما كاد أن يعود بالخطر على المسلمين، فجاء هذا التحذير مذكّراً بعلم الله بالخفاء والعلن على حدّ سواء، ومحذّراً من الضّلال وهو أسوأ عاقبة.

﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاء وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ (٢)﴾ وتأكيداً للتحذير يذكّرهم القرآن بنوايا أعداء الله الحقيقيّة، فهم يبقون أعداء، وتتجلّى عداوتهم بوضوح حينما يظفرون بالمؤمنين ويتناولونهم ـ مسيئين ـ بالأيدي والألسن مركّزين على عودة المؤمنين لحضيض الكفر.

﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٣)﴾ ولئن كانت هناك وشائج قربى في معسكر الأعداء فيجب أن لا تبعث على المودّة وما يلحقها من تبعات تضرّ بالمسيرة المؤمنة. إنّ وشيجة العقيدة هي فوق العلائق الأخرى، فهي المنجية يوم القيامة ولا قيمة آنذاك لباقي العلائق، بل ستقطع، فلا ينبغي للإنسان أن يتأثّر بها اليوم فيضلّ عن سواء السبيل.

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاء مِنكُمْ

وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاء أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٤﴾﴾ وهنا يضرب المثل بشيخ التوحيد إبراهيم الذي يفتخر المؤمنون بالانتساب إليه. فها هو يقف ومعه أتباعه متبرئين من قومهم ومن عبادتهم لما سوى الله، كافرين بمنهجهم معلنين افتراق الصفّين عقيدة وعاطفة إلى الأبد، حتّى يرجع الكافرون إلى منهج التوحيد لا غير.

أما استغفار إبراهيم لأبيه المشرك ووعده له بذلك فإنما كان رجاء منه في أن يؤمن كما بيَّن ذلك في آية سورة التوبة (١١٤)، فلما تبيَّن له خلاف ذلك تبرّأ منه.

وتشير الآية إلى إنابة إبراهيم لله وتفويض الأمر إليه، فهو لا يملك لأبيه نفعاً ولا ضراً ولا قدرة على الهداية، بل أن كل الأمور موكولة إليه، وإليه يتوب المؤمنون وينتهي مسير الخلق.

﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٥﴾﴾ ويستمرّ دعاء المؤمنين ليستمدّوا من الله قدرتهم على الثبات والاستقامة ويطلبوا منه أن لا يسلّط أعداءه عليهم، ويغفر لهم فهو العزيز الحكيم في كل ما يفعل.

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٦﴾﴾ تأكيد على التأسّي بإبراهيم وقومه، فهم مثل رائع للمؤمن الذي يرجو الله ولا يرجو غيره، ويؤمن بالآخرة بكل أعماقه، أمّا الذي ينحرف فإنّما يضرّ نفسه، والله غنيّ عنه وله ـ تعالى ـ وحده الحمد على هداية البشريّة.

﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾﴾ وعد للمؤمنين الذين طلب منهم تغليب العلاقات العقدية على العاطفة، بأنّ الله قد يمنّ على الآخرين ـ الذين عادوهم ـ بقدرته وعفوه ورحمته فيهديهم إلى خطّ الإيمان، وحينئذ تعود المودّة وهي أقوى ما يكون، وهو ما تحقّق بعد ذلك.

﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾﴾ جاءت هذه الآية لتوضح المراد من الأعداء الذين أمروا بقطع علاقات المودّة معهم والبراءة منهم بشكل تامّ لتؤكّد أنّ المراد هم أولئك

الذين قاتلوا المسلمين عداء لدينهم وأخرجوهم من ديارهم أو تعاونوا على إخراجهم عناداً، أمّا من عداهم ممن لم يرتكب ذلك أو ممّن عاهد المسلمين فلا مانع من البرّ إليهم والتعامل معهم بالعدل والله يحب المقسطين. وهذا المعنى يكشف عن إنسانيّة الإسلام وانفتاحه على الآخر، واستعداده لإقامة علاقات البرّ والقسط والتعايش السليم، لأن الله يحبّ العدل والقسط بأي شكل كان، ومن هنا قيل: العدل حسن على كل حال، لأنّه علّة تامّة للحسن.

﴿إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩﴾﴾ تأكيد لما جاء في الآية السابقة من توضيح للموقف.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُم مَّا أَنفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنفَقُوا ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ يتعرّض القرآن هنا لحكم النساء اللّواتي هاجرن إلى المدينة بعد صلح الحديبية، وقد كانت قريش قد اشترطت على الرسول أن يرجع أي رجل ينضمّ للمسلمين إلى مكّة، وحدث أن أسلمت بعض النساء وهاجرن إلى المدينة فكانت هناك شبهة اقتضاء المعاهدة الإعادة إلى مكّة، وحينئذ سيفتنّ ويستغل ضعفهنَّ، ومن هنا استفيد من عدم قاطعيّة نصّ المعاهدة فطلب القرآن أن يمتحنّ لئلاّ تكون الهجرة لداع آخر، فإذا علم إيمانهنَّ فلا إعادة ولا يحللن للكفار ولا يحلّون لهنَّ فقد انقطعت علقة الزوجيّة. وحينئذ يعطى الزوج الكافر ما أنفق من المهر، ولا مانع من تزويجها لمؤمن بمهر. أما الزوج إذ اسلم وبقيت زوجته على الكفر فعليه إخلاء سبيلها وعدم الامساك بعصمتها، وله أن يطالب بما أنفق بمقتضى التعاهد بين المسلمين والكفار.

﴿وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم مِّثْلَ مَا أَنفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾ فإذا حدث وأن عادت زوجة إلى حظيرة الكفر ولم يردّوا مهرها فلكم إن أصبتم بعض الغنائم أن تعطوا الزوج المسلم مثل ما

أنفق. وبالتالي يأتي الأمر مكرّراً بالتقوى، ليحقّق قاعدة الالتزام الكامل بالحكم الشرعيّ.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ تركّز الآية على بيعة النساء وتذكر شروطها وهيالتوحيد، وعدم السرقة، وعدم الزنا، وعدم قتل الأولاد (بالوأد وإسقاط الجنين)، وعدم إلحاق الولد (الذي يسقط بين اليدين والرجلين) بالزوج إن كان من سفاح وهي عادة جاهليّة، وعدم عصيان الرسول في أوامره بالمعروف، وحينئذ تتمّ البيعة ويستغفر لهنَّ الرسول، والله هو الغفور الرحيم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ ﴿١٣﴾﴾ ويشكّل ختام السورة كل رسالتها حينما يدعو القرآن المؤمنين لعدم مدّ صلة الولاء لكل أولئك الذين استحقّوا غضب الله، ويئسوا من الآخرة كما يئس الكافرون من أصحاب القبور وعودتهم إلى الحياة.

سورة الصف (٦١)

آياتها ١٤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تحدّثنا قبل هذا عن البسملة.

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝١﴾ التنزيه لله يعمّ الوجود كله؛ لأنّه يشهد له بوجوده ونظمه وهدفيّته بالوحدانيّة، وكل صفات الجمال والجلال ومنها العزّة والحكمة. ومهما جال الإنسان ببصره في هذا الكون الرحيب فإنّه يرى آثار التسبيح والتنزيه والعزّة والحكمة الإلهيّة في كل شيء، وكلما تقدّم العلم كشف عن آفاق سامية.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٣﴾ إنّ الإنسان المؤمن بطبعه ينسجم قوله مع عمله، وظاهره مع باطنه، فالله يكره ـ بشدة ـ التلوّن والنفاق والادّعاء الباطل، فهي حالة مَرَضية يجب على المؤمنين التخلّص منها، ومن مصاديق ذلك أولئك الذين كانوا يدّعون الجهاد ولا يجاهدون.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنيَانٌ مَّرْصُوصٌ ۝٤﴾ إنّ الجهاد الحقّ هو ما سما هدفه فكان في سبيل الله إعلاء لكلمته، وقويت وسيلته بالتماسك والتلاحم بين المقاتلين دونما خلل أو خور أو ثغرة، فهم البنيان المرصوص روحاً وشكلاً، منسجمين مع القائد وتحرّكاته لا يعصونه ولا يخذلونه، وعلى عكس ذلك نلاحظ تنافر قلوب المشركين، فكأنّهم خشب مسنّدة لفقدانهم الترابط الروحيّ المطلوب.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ۝٥﴾ تذكير بعلاقة موسى مع قومه وكيف كانوا يؤذونه وهم يعلمون بعظمته ورسالته، ولكنّ الزيغان والانحراف والعناد يهوي بالإنسان إلى الحضيض، وحينئذ يحرف الله قلبه عن الهدى، ويسلخه عن طبيعته الإنسانيّة فيدعه من الفاسقين.

﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا

سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾﴾ وهذا الرسول عيسى يواصل درب موسى ويعلن رسالته لبني إسرائيل، وهي تصدّق بالتوراة، وتواصل دربها مع بعض التغيير في مسيرة نبويّة يبشّر عيسى بأنّه سيحمل لواءها ـ بعده ـ نبيّ اسمه أحمد، وهي بشارة أقرّ بعض علماء أهل الكتاب بها، وربما دلّت عليها نصوص في التوراة والإنجيل المحرّفين أيضاً. ولكنّ الرسول المبشّر به ووجه كغيره باتهامه بالسّحر البيّن، رغم ما حمل معه من البيّنات والمعاجز وأوّلها القرآن الكريم.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٧﴾﴾ لقد جاء الرسول بالإسلام بكل نقائه ووضوحه وانسجامه مع الفطرة، تدعمه آيات القرآن البيّنات، ولكن هؤلاء لم تهدهم هذه الآيات ولا تلك البشائر في كتبهم بل اتّهموه بالسّحر فافتروا على الله الكذب بتكذيب رسالة الرسول، وهذا هو عين الظلم.

﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِؤُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٨﴾﴾ إنّهم يعملون على طمس الحقيقة وإطفاء نور الله بكل عظمته وسطوعه بنفخة حقيرة من أفواههم الضعيفة، ولكنّ القدرة الإلهيّة المطلقة تعلن مشيئتها النافذة في إتمام هذا النور ونشره في الأرض كلها رغم أنف الكافرين.

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾﴾ إنّه تعالى أرسل هذا الرسول بالهدى ودين الحقّ الساطع في حقيقته وهداه، وضمن له أن يكون الدين الأكمل والظاهر والمتفوّق على كل الأديان وخاتمها، ليقود البشريّة إلى تحقيق هدف خلقتها وإن كره المشركون وخطّطوا للوقوف بوجهه، ولا قيمة لذلك أمام إرادة الله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾﴾ بعد هذه الخلفيّة الإيمانيّة والوعد الكبير، يأتي هذا التحريض على الجهاد بالإعلان الإجماليّ عن تجارة مربحة تنجي المؤمنين من عذاب أليم.

﴿تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾﴾ إنّها الإيمان بالله ورسوله الذي يستتّبعه الجهاد في سبيله وإعلاء كلمته في الأرض بالتضحية بالمال والنفس، لتحقيق الخير العظيم لمن يدرك عظمة الهدف.

﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً

فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾﴾ إنّ الجهاد باب للغفران التام ومسيرة إلى الجنّة والنعيم الخالد الثابت، وذلك هو الفوز والفلاح.

﴿وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ كما أنّه سبيل النصر الإلهيّ الذي يعشقه المؤمنون ، والفتح القريب والبشارة المضمونة لأمّة مستضعفة يراد لها أن تقود الأمم وتغيّر التاريخ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴿١٤﴾﴾ إنّ صدق النيّة ومواصلة العمل لنصرة الله هي شرط النصر، وهو أمر طلبه عيسى من أصحابه المقرّبين الحواريّين فأعلنوا له ذلك، في حين اختلف بنو إسرائيل بين مؤمن وكافر وكان الصراع، وانتصر المؤمنون بعون الله وتأييده.

سورة الجمعة (٦٢) آياتها ١١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تحدّثنا مراراً عن البسملة.

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ۝١﴾ كل ما في الكون يلهج بتنزيه الله مالك الكون، والمنزّه عن كل نقص، والقويّ الكامل، والحكيم في كل ما يفعل فهو بالتالي أهل للطاعة وديّان الدين.

﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۝٢﴾ وقد بعث في العرب ـ وقد سمّوا أميّين لقلّة من يقرأ ويكتب فيهم آنذاك ـ رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكّيهم ويربّيهم ويعلمهم الكتاب الكريم بكل أبعاده البنّاءة للبشريّة، فالتزكية مقدمة على التعليم؛ لأنّها هي التي تضمن الغاية من التعليم. والعلم بلا روح ومعنويّة قد يقود إلى الدمار، إنه الرسول الذي يعطيهم ما ينيرون به طريقهم، ويقيمون به حياتهم العقلانيّة الحكيمة، وذلك بعد أن كانوا ـ ضمن وضع بشريّ عامّ ـ في ضلال وضياع وفوضى عارمة.

﴿وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝٣ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاء وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ۝٤﴾ لقد كان العرب الأمّة التي اختارها الله لتحمل الرسالة الإسلاميّة وستلتحقّ بهم أمم العالم الأخرى بإذن الله وعزّته وحكمته وفضله الذي يشمل الأفراد والأمم قدر صلاحيّتها، والله ذو الفضل العظيم.

﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ۝٥﴾ ولقد كُلِّف بنو إسرائيل من قبل بحمل الرسالة والأمانة، ولكنّهم نكلوا ولم يقوموا بمقتضيات ذلك وتخلّوا عنها، فكانوا كالحمار الذي يحمل كتب العلم ولا يعي ما فيها، ففرّطوا بالتوراة ولم يعملوا بهداها، وكذّبوا بآياتها وظلموا أنفسهم فاستحقّوا الضلال، وسلبت الأمانة منهم وأعطيت لغيرهم، وكم هُدّدت هذه الأمّة بالقيام بمسؤوليّاتها وإلاّ استبدلت بآخرين.

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاء لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۝٦ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ۝٧﴾ أمّا زعم اليهود بأنّهم شعب الله المختار، وأنّهم أولياء الله دون سواهم من النّاس فهو ادّعاء باطل، ولو كان الأمر كذلك فليتمنّوا الموت علناً وليضحّوا في سبيله؛ لأنّ في الموت لقاء الله الذي يزعمون أنّهم أولياؤه ولكنّهم لن يقوموا بذلك، فهم أجبن النّاس وأحرصهم على الحياة؛ لأنّهم يعلمون أنّهم أجرموا وخالفوا كتاب الله وظلموا، مما يؤهّلهم لعذاب الله، والله عليم بالظالمين، الذين فقدوا الأهليّة اللازمة لحمل دين الله لباقي الأمم.

﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٨﴾ ولكنّهم سيلاقون الموت لا محالة، ولن ينفعهم الفرار فسيرجعون إلى الله العليم بما فعلوه في السرّ والعلن من ظلم وفساد فيحاسبهم عليه. وهكذا وباستمرار يعمل القرآن على لوم اليهود على الحالة التي وصلوا إليها من الفساد والضياع المتأصّل، ويهدّدهم بالعذاب.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِي لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٩﴾ بعد الآيات التي تحدّثت عن نكول بني إسرائيل عن تحمّل الأمانة الإلهيّة، وعدم قيامهم بمقتضياتها فحرموا من ذلك الشرف، وحملت الأمّة الإسلاميّة الأمانة فعليها الارتفاع إلى مستواها، تأتي هذه الآيات لتؤكّد أحد هذه المقتضيات وهو الالتزام بصلاة يوم الجمعة، والإسراع إليها، فهي تصلهم بالله وتذكّر بعظمته وواجباتهم تجاهه، كما أنها خير مظهر لوحدتهم واجتماعهم وهيبتهم، تاركين ما يشغلهم عنها كالبيع، فإن ذلك خير لهم وأزكى.

﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝١٠﴾ فإذا انتهت الصلاة فلينطلقوا إلى طلب رزق الله وفضله مستشعرين ذلك في إطار من تذكّر دائم وكثير للنعم الإلهيّة العظيمة، فهو سبيل الفلاح، أما الغفلة فهي أكبر انحراف يبتلى به الإنسان.

﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ

التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١﴾ ومن موارد الغفلة ماحدث لبعض المسلمين الذين حضروا صلاة الجمعة فدخلت المدينة قافلة فيها أموال تجارة وهي تضرب بالدفوف والطبول فانفض هؤلاء إليها وتركوا النبيّ قائماً يخطب. وهنا يأتي التنبيه لهم على أن ما عند الله من العطاء المادّيّ والمعنويّ خير من اللّهو ومن التجارة، والإنسان المسلم يجب أن ينظر دائماً إلى الله خير الرازقين.

سورة المنافقون (٦٣)

آياتها ١١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تحدّثنا عن البسملة.

﴿إِذَا جَاءكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ۝١﴾ لقد شكّل المنافقون في صدر الرسالة عائقاً وخطراً كبيراً أمام تقدّم الدعوة الإسلاميّة، فكان من اللاّزم الاهتمام بأمرهم وكشفهم، وعرض معالمهم وخططهم لئلاّ يتركوا أثرهم السلبيّ فهم يعلنون الإسلام ويشهدون بالرسالة والله إذ يؤكّد هنا حقيقة الرسالة يؤكّد كذبهم في مدّعاهم لئلاّ يغترّ المسلمون بهم.

﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاء مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝٢﴾ إنّهم يُقسمون على مدّعاهم لكي يتترّسوا بذلك ويستروا خططهم التي تصدّ عن سبيل الله وهو عمل خبيث سيّئ يجب أن يرصد.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ۝٣﴾ وإنهم متلوّنون لا يصدقون في واقعهم مع ادّعائهم الإيمان، وربما ذاق بعضهم حلاوة الإيمان ثمّ انتكس إلى الكفر فطبع الله على قلبه ليعود إلى الجاهليّة لا يفقه الحقيقة ولا يفهمها. وربّما أدّى إيمانهم ثم كفرهم إلى زعزعة الصفوف، وخصوصاً إذا تكرّر ذلك، لذلك رأينا القرآن ينبّه على أساليبهم الماكرة ويحصّن المجتمع منها.

﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ۝٤﴾ إنّهم ذوو مظهر حسن خلاّب، ومنطق جذّاب، لكنّهم في الواقع خُشب صمّاء لا تحمل وعياً أو عاطفة، مصفوفة إلى بعضها يسند بعضها البعض دونما رابط عقائديّ أو عاطفيّ، إنّهم يخافون من كل نداء وصيحة لعلمهم بواقعهم، نعم إنّهم العدوّ المتخفّي فليحذرهم المسلمون وليدرك هؤلاء أنّهم مبغوضون لله ومشمولون لغضبه لشدّة ما يفعلونه من إفك وبهتان وتزوير.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُؤُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم

مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾﴾ وقد تتكشّف للمسلمين بعض أساليب المنافقين، فيرفق بهم المسلمون ويطلبون منهم أن يتوبوا على يد رسول الله مستغفراً الله لهم، ولكن استكبارهم يدعوهم لرفض هذا الطلب معرضين عن سبيل الحقّ.

﴿سَوَاء عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٦﴾﴾ لقد طبع على قلوبهم فعُجنت بالعناد وفقدت أهليّة الهدى وفسقت وخرجت عن وضعها الإنسانيّ الطبيعيّ، فلم يعد يختلف لديها استغفار الرسول لها من عدمه.

﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَى مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾﴾ وهذه خطّة خبيثة للمنافقين تطلب من أغنيائهم عدم الإنفاق على فقراء المسلمين دفعاً لهم لترك الإسلام، وعدم الالتفاف حول رسول الله والجهاد تحت لوائه، ولكنّهم يجهلون حقيقة أنّ خزائن الأرض هي ملك لله وهو لو شاء لرزقهم وأطعمهم منها.

﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾ مقولة أخرى للمنافقين جاءت في غزوة بني المصطلق على لسان عبدالله بن أبيّ بن سلول ـ وهو أبرزهم ـ مهدّداً على إثر نزاع بين مكّي ومدني بأنهم لو رجعوا إلى المدينة فسوف يعمل الأعزّ ـ ويقصد نفسه أو أهل المدينة ـ على إخراج الأذلّ ـ ويقصد رسول الله أو أهل مكّة ـ وهنا جاء الردّ القرآنيّ كسابقه معلناً أنّ العزّة الحقيقيّة هي لله ولرسوله والمؤمنين لا غير، ولكنّ المنافقين جاهلون بهذه الحقيقة.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩﴾﴾ ينتقل القرآن من كشف المنافقين وصفاتهم إلى ذكر حالة قد تورث النفاق محذّراً المؤمنين منها، وهي الغفلة عن ذكر الله والالتهاء بمتع الدنيا كالأموال والأولاد، إذ تعدّ نكسة إنسانيّة عن مسيرة التعالي.

﴿وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاء أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾﴾ وإنّ من نتيجة ذكر الله الدائم أن تسمح نفس المؤمن بالإنفاق بعد

أن تتذكّر أنّ المال رزق من الله، وأنّ مالكيّتها اعتباريّة لا غير، أمّا الغفلة فهي سرّ الخسران، وسوف يدرك صاحبه الحقيقة حينما يشرف على الموت ليدعو ربّه، أن يؤخّر أجله ليعمل عمل الواعين، فيتصدّق ويكون من الصالحين.

ولكنه دعاء لا يستجاب، فإن الله لن يؤخّر أجلاً قد حدّده، فيجب أن يواجه الإنسان عاقبة الغفلة وهي معلومة تماماً عند الخبير العليم. والحقيقة أن القرآن يتابع مسيرة الأمّة باستمرار، يصلح لها أمرها، ويحفظها من الأخطار، وأشدّها الغفلة عن التصوّرات والمفاهيم الإسلاميّة فهي سرّ الإنحراف، ودواؤها ذكر الله والعودة إلى الحالة الواعية.

سورة التغابن (٦٤)

آياتها ١٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تقدّم الحديث عن البسملة.

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝١﴾ إنّ تنزيه الكون لله ودلالته عليه وعلى صفاته الحسنى إجمالاً حقيقة وجدانية يؤكّد عليها القرآن مراراً، فله الملك الحقيقيّ وله الحمد الخالص وله القدرة المطلقة.

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٢﴾ إنّه خالق البشريّة والرحيم بها، والمشرّع لها بطبيعة الحال ما يصلحها ويحقّق لها هدف خلقتها، وتبقى حرة في اختيار طريق الكفر أو طريق الإيمان، وحينئذ فعين الرقابة الإلهيّة خبيرة بما يعمل الفريقان.

﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ۝٣﴾ من حقائق التصوّر الإسلاميّ الكبرى أنّ الكون خلق بالحقّ، وله هدف ثابت، كما أنّ من هذه الحقائق أنّ كل شيء وضع في محله وبأسمى حالة ومن ذلك الإنسان؛ إذ هو يمتلك أحسن صورة ممكنة وكل الطاقات وأنماط الهداية التي تحقّق إمكان السير إلى الهدف المنشود. ويعود الكون كله إلى الله بعد ذلك.

﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ۝٤﴾ وكل تلك الهداية والتشريعات إنما تقوم على أساس من علم إلهيّ مطلق بكل ما في الكون من حركات وسكنات وما يظهر أو يخفى حتّى ما يدور في الصدور من خلجات.

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٥﴾ إنّ على هؤلاء الذين يقفون بوجه الدعوة أن يعتبروا بمصير الأمم الكافرة السابقة، وقد وصلت أنباؤها إليهم، إذ ذاقوا نتائج أعمالهم وضاعوا وضلّوا واستحقّوا العذاب الأليم.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوا وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ۝٦﴾ ذلك أنّ الرسل كانت تأتيهم تباعاً بالآيات الواضحات، فكان استكبارهم يمنعهم عن التسليم مدّعين أنّه لا يمكن أن يحمل هدى الله بشر مثلهم. وهكذا

أصرّوا وأعرضوا عن الهدى فاستحقّوا العذاب، والله غنّي عن عبادتهم وله الحمد كله.

﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ۝٧﴾ إنّ الإيمان بقيام الكون بالحقّ والهدفيّة فيه، والهداية الإلهيّة والعلم المطلق والرقابة التامّة تؤدّي بالطبع للإيمان بالآخرة والحساب الدقيق، وليس ذلك على الله بأمر صعب بل هو أمر يسير.

﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝٨﴾ فلتؤمن البشريّة بتشريعات الله، ولتستمدّ من أنوارها القرآنيّة ما يوضّح لها سبيل الكمال والله ـ تعالى ـ بما تعمل في مسيرتها خبير تماماً.

﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۝٩﴾ وسيجمعها يوم القيامة وهو يوم يشعر فيه النّاس بالغبن ونقص الحظّ، فالمؤمن يتحسّر على درجات أسمى كان يمكنه الوصول إليها لو عمل أكثر واستغلّ كل الفرص، والكافر يتحسّر على ما فرّط فيه من فرص النجاة. وعلى أي فالفائزون حقّاً هم أولئك الذين آمنوا حقّ الإيمان وعملوا الصالحات فمحا الله عنهم تبعات ما قاموا به أحياناً من سيّئات وأدخلهم جنّات الخلود.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ۝١٠﴾ في حين خسر الكافرون المكذّبون بآيات الله، فكانت عاقبتهم الخلود في النار، وما أسوأه من مصير.

﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝١١﴾ لا يؤثّر أي شيء في الكون أثراً إلاّ بإذن الله التكوينيّ، فهو وحده مفيض الوجود ومن الأشياء المصائب، فكلها تقع تحت قدرته وبإذنه. وقد لا يرضى تشريعاً أن تقع مصيبة ما فيأمر بمقاومتها، ولكن عالم التكوين غير عالم التشريع. فليمهّد الإنسان عبر إيمانه بالله للهداية القلبيّة وهو يعيش تحت علم الله.

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ۝١٢﴾ وليبن على إطاعة الله وإطاعة رسوله في كل شيء فهي سبيل النجاة وإلاّ فالانحطاط والضياع، وما على الرسول إلاّ أن يبيّن بوضوح سبيل الفوز.

﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾﴾ فالله هو المتفرّد بالوحدانيّة في الذات وفي العبادة والطاعة، وعليه فليتوكّل المؤمنون، وليسلّموا أمرهم إليه، وليحسنوا الظنّ به دائماً.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾﴾ ويجب أن يتوجّه الإنسان بكل مكوّنات شخصيّته إلى الله؛ بعقيدته وبعاطفته وبسلوكه، وقد تقف بعض المعوّقات العاطفيّة كحبّ الأزواج والأولاد والأموال أمامه، فليحذر ذلك تماماً. فإذا ظهرت بعض السلوكات المعادية منهم فللإنسان أن يعفو ويصفح ويغفر، ولكنّه يجب أن يصلح النقص ولا يتأثّر ولا يفتتن مطلقاً.

﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾﴾ تأكيد لمضمون الآية السابقة.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾﴾ هكذا إذن يجب أن يبذل الإنسان وسعه للقيام بحقّ التقوى الإلهيّة بالسمع والطاعة لله والإنفاق في سبيله، فذلك هو السبيل الأقوم لتقويم النفس ذاتها وللخلاص من أمراضها والبخل منها، فإذا تمكّن الإنسان من التعالي على النقائص وتوقّى البخل والإمساك فقد أفلح وسعد.

﴿إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾﴾

ويتكرّر هذا الأسلوب القرآنيّ الجميل هنا فالمال مال الله، والإنفاق هو على عباد الله لتخليص المجتمع من أمراضه، ولكنّ التعبير يأتي بأن من يقرض الله سيحصل على الردّ المضاعف، بالإضافة للغفران والشكر الإلهيّ الرائع، في إطار من حلم الله ولطفه بالبشريّة.

﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾ وهكذا تسير الإنسانيّة بهدي من الله العليم بما ظهر وما خفي، العزيز الحكيم إلى غايتها المنشودة إذا قامت بمقتضيات التقوى الإلهيّة.

سورة الطلاق (٦٥)

آياتها ١٢

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تقدّم منّا الحديث عن البسملة.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاء فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِن بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا ﴿١﴾﴾ بمقتضى صفته الواقعيّة رضي الإسلام بفكرة الطلاق رغم إيمانه بأنّ العائلة تشكّل اللّبنة الأساسيّة للمجتمع الإنسانيّ السليم، ورغم إعطائه العائلة صفة تقديسيّة، والزواج حالة تطهيريّة وصيانيّة. ولكنّ الطلاق أحياناً يعود ضرورة، ومع ذلك يعمل على أن لا يقع فينبّه إلى الصبر على الزوجة المكروهة، كما يطرح مسألة الصلح، فإن لم ينفع ذلك فهو يضع شروطاً لصحّة الطلاق فإذا تمّ فهناك العدّة، وهي ثلاثة قروء (القرء فترة الطهر بين الحيضتين ظاهراً) للتي تحيض وتلد، ولا عدّة للآيسة لكبرها والصغيرة، وفترة الحمل عدّة للحوامل، والزوجة غير المدخول بها لا عدّة لها، ويجب إحصاء العدّة بدقّة، وعدم تضييع حقوق المرأة، ومنها عدم إخراجهنّ من البيوت التي كنَّ يسكنّها قبل الطلاق، ومنها كسوتهنّ ورزقهنّ. كما أنّ عليهنَّ أن لا يخرجن، كل ذلك مالم تصدر منهنّ فاحشة واضحة كالزنا والأذى للأهل، وفي هذا الحكم ضمان لسكن الزوجة وترغيب في الرجوع، ويأتي التأكيد على لزوم الالتزام بأحكام الله وحدوده وعدم تجاوزها، فذلك ظلم للنفس وايقاع لها في الهلكة، وحرمانها من الكمال ،ولعلّ الله يُحدث شيئاً بلطفه وكرمه، فتلين القلوب ويحدث الوئام.

﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾﴾ فإذا تمّت مدّة العدّة أي قربت من النهاية فالزوج مخيّر بين الرجوع في حالة عرفيّة مقبولة، أو تركها تنقضي تماماً بمعروف أيضاً دونما مضارّة أو تحايل.

ويجب أن يشهد على الطلاق عادلان مستقيما السلوك، كما يجب أن تتمّ الشهادة لله توكيداً لها واتّعاظاً بوعظه واتّقاءً لغضبه وتوكّلاً عليه، والله يتكفّل للمتّقين المتوكّلين عليه ما يخرجهم به من حالات العسر، ويرزقهم به من رزق غير متوقّع؛ لأنّ الأسباب كلها بيده، وله القدرة التامّة على بلوغ أمره وفعل ما يشاء، وقد قدّر كل شيء فأحسن تقديره.

﴿وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ وَأُوْلَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ﴿٤﴾ ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا ﴿٥﴾﴾ وعدّة النساء اليائسات من المحيض مهما كانت العلّة في ذلك والشكوك في أسباب اليأس، وكذلك عدّة النساء اللائي لم يحضن أصلاً، وهنَّ جميعاً في سن من تحيض، هي ثلاثة أشهر. أمّا الحوامل فعدّتهنّ هي وضعهنّ للحمل. وجاء التعقيب بالتأكيد مجدّداً ودائماً على التقوى، فهي ضمان السير الصحيح وهو ضمان اللطف الإلهيّ بتيسير الأمور وتكفير السيّئات وتعظيم الأجور.

﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِن كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى ﴿٦﴾﴾ يجب أن يُسكن الرجل زوجته المطلّقة بمقدار وُسعه وتمكّنه بلا أي قصد للإضرار والتضييق، كما يجب الإنفاق عليها، وخصوصاً على المطلّقة الحامل مدّة الحمل وإن طالت. ويجب أن يقدّم الوالد للأمّ أجرة الرّضاعة إن قبلت بالرّضاعة، على أن يتمّ التشاور بين الوالدين بالمعروف المعتاد دونما إضرار بالأب أو الأمّ أو الطفل، أما إذا عسر الاتفاق فستسترضع له امرأة أخرى.

﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾﴾ وتحدّد الإنفاق قدرة المنفق وتمكّنه وضيقها، فإن الله لا يكلّف نفساً إلاّ بما مكّنها منه وأعطاها، والله بلطفه يعد باليسر بعد العسر.

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾﴾ كل ما مرّ هو من حدود الله وأحكامه، فيجب الالتزام بها وعدم العتوّ والعناد، وهو ما ابتليت به بعض الأمم

فحوسبت حساباً شديداً وعذاباً منكراً ولاقت آثار عملها وابتليت بالخسران. ويلاحظ هنا التحذير الشديد من مخالفة أحكام الله في الطلاق، احتراماً للعلاقة بين الرجل والمرأة وكل العلاقات الاجتماعيّة، والتزاماً دقيقاً بحدود الله، وعملا بحلاله وحرامه الذي يقوم على مصالح ومفاسد علمها الله وشرّعها لنا بلطفه وكرمه، وقد لا تدركها عقولنا ولا نعرف وجه المصلحة فيها إلا أنّ علينا التعبّد والالتزام بها بحدّها.

﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُوْلِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا ﴿١١﴾﴾ تأكيد جديد على الالتزام بحدود الله، وعدم التعرّض لعذابه الشديد الذي أصاب الأمم العاتية وتذكير بالتّقوى وضرورة التعقّل والاحتفاء والاهتمام بذكر الله النازل على يد الرسول آيات واضحات، لينقذ المؤمنين العاملين بالصالحات من حياة الظلمات إلى حياة النور، وبالتالي المصير إلى أسمى ما يمكن أن يتمنّاه إنسان وهو الخلود في الجنّة والتمتّع برزق الله الحسن.

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿١٢﴾﴾ إنّها نعم الله المتجلّية في خلقه سبع سماوات وسبع أرضين مثلهنّ أو من جنسهنّ، نفذ في الجميع أمر الله فلا يعجزه شيء ولا يغيب عنه شيء فهو محيط بهذا الوجود، وكل هذا يدفع الإنسان إلى المعرفة والتسليم والطاعة لأوامر الله. ونواهيه وعدم التهاون فيها، ورفض للاحكام الوضعية التي تتعارض وأحكام الله.

سورة التحريم (٦٦)

آياتها ١٢

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تحدّثنا من قبل عن البسملة.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ①﴾ في هذه السورة دليل واضح على التعدّدية بين منزل القرآن والمنزل عليه، مما يبطل نظرية الوحي النفسي التي روّج لها المستشرقون، فها هو الله ـ تعالى ـ يخاطب نبيّه معاتباً إيّاه على تحريم شيء على نفسه عبر القسم وقد أحلّه الله له، وذلك طلباً لمرضاة أزواجه، وقد اختلف في ذلك الشيء، أهو الخلوّ إلى جاريته، أم هو شرب العسل، والله أعلم.

﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ②﴾ بيّن الله ـ تعالى ـ للمؤمنين كيفية التحلّل من تبعات ما أقسموا عليه من خلال الإتيان بالكفارة، والله يرعى المؤمنين ويسدّد خطاهم وهو العليم بكل شيء، الحكيم في كل ما يفعل.

﴿وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَن بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ ③﴾ حياة الرسول شفافة واضحة أمام الأمّة، ومن هنا يعرض بعض ما يجري وبهذا الشكل لحكمة خاصّة. فقد أخبر النبي زوجته حفصة بخبر وأوصاها بكتمانه، ولكنّها نبّأت به غيرها، وعرّفه الله ذلك فراجعها وأعلمها ببعض الخبر وعندما سألته عن مصدر علمه أخبرها أنّه نبّأه به الله العليم الخبير بكل شيء، وهكذا كانت عين الله ترعى نبيّه وحياته الزوجيّة.

﴿إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ④﴾ ويتوجّه الخطاب إلى زوجتي الرسول حفصة وعائشة[١] طالباً منهما التوبة؛ لأنّ قلبيهما قد مالا عن الخطّ المستقيم فتجب التوبة وان

١. راجع سنن الترمذي (ج ٥ ص ٩٢)، صحيح مسلم (ج ٤ ص ١٩٢) وصحيح البخاري (ج ٣ ص ١٠٣) ومسند أحمد (ج ١ ص ٣٣) وغيرها من كتب التفسير والحديث..

لم تقوما بذلك وتعاونتا على إيذائه فلتعلما أنّ الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين[١] والملائكة من أنصاره وأعوانه.

﴿عَسَى رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا ۝٥﴾ ثمّ يتوجّه القرآن إلى أزواج النبيّ (وقد شاع آنذاك أنّه طلّقهنّ واعتزل) مؤكّداً على أنّه إن طلّقهنّ فعسى أن يبدله الله أزواجاً خيراً منهنّ متّصفات بالصفات النموذجيّة للصالحات فهنّمسلمات مطيعات لله، مؤمنات إيماناً يملأ الوجود، قانتات داعيات، تائبات عابدات سائحات متأمّلات في هذا الكون صائمات لله، وقد يكنّ ثيّبات (في قبال الأبكار) أو أبكاراً.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۝٦﴾ ثمّ يتوجّه القرآن إلى عموم المؤمنين طالباً منهم الاحتياط لأنفسهم وأهليهم من نار مسعرّة وقودها النّاس والحجارة، ويشرف عليها ملائكة لهم غلظة وشدّة ينفّذون ما يؤمرون بدقّة متناهية، وكل ذلك يزيد القلوب رهبة وخوفاً.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٧﴾ ويُخاطب الكافرون بها زجراً: لا مجال للاعتذار فما جزاؤكم هنا إلاّ مواجهة لحقيقة عملكم بصورتها الجهنّمية.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٨﴾ يواصل القرآن هنا دعوته المؤمنين إلى التوبة النصوح الخالصة التي يتبعها العمل على إزالة آثار الذنوب، إذ بها تكفّر السيئات ويضمن المصير إلى الجنّات في الآخرة، حيث لا يصيب الخزي والانكسار ركب النبيّ والمؤمنين معه، بل هم في مسيرة نورانيّة

---

١. فسّر صالح المؤمنين في رأي بعض المفسرين بعلي(ع) راجع التبيان للطوسي (ج ١٠، ص ٤٨)، الأمالي للصدوق (ص ٨٣) تفسير الثعلبي (ج ٩ ص ٣٤٨)، تفسير السمعاني (ج ٥ ص ٤٧٤) عمدة القاري للعيني (ج ١٩ ص ٢٥٣) وقيل إن المراد غيره.

حافلة، يسعى نورهم أمامهم وعلى يمينهم إلى حيث الخلود، وهم يستزيدون من النور فيطلبون إتمامه ثمّ الغفران من الله القادر على كل شيء.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٩﴾﴾ ثمّ إنّ مسألة البناء الاجتماعيّ الداخليّ يجب أن يصحبها جهاد ضد أعداء الأمّة من الكفّار والمنافقين والغلظة عليهم، فهم منبع الفتنة والشّر، ومأواهم جهنّم وما أتعسه من مصير.

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ ﴿١٠﴾﴾ يتغيّر مستوى التقييم سلباً أو إيجاباً كلّما اختلفت الظروف ، فهاتان زوجتان لنبيّين صالحين في القمّة لكنهما رغم الظروف الصالحة اختارتا الخيانة فاصبحتا نموذجين للكفر والانحراف. ولم ينفعهما الارتباط الزوجي في الخلاص من عذاب النار فدخلتاها مع الآخرين.

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١١﴾﴾ وهذه امرأة فرعون عاشت في قلب الترف والسرف والتجبُّر فرفضت كل الإغراءات وتعلّقت نفسها ببيت عند الله وفي ظلّ رضوانه في الجنّة، واعتبرت تلك الحياة المرفّهة مع فرعون سجناً ثقيلاً، طالبة من الله النجاة من الظالمين وأعمالهم، فعادت مثلاً ونموذجاً لكل الذين آمنوا من الرجال والنساء عبر التاريخ، وهكذا لا تشكّل الأنوثة حاجزاً للارتقاء للمدارج العليا من الكمال الإنسانيّ. يتأسّى بها المؤمنون جميعاً، فلا فرق بين الرجل والمرأة في الصفات الإنسانيّة، والقدرة على التكامل حتى الوصول إلى درجة العصمة وهو ما تدلّ عليه الآيات والروايات من توفّرها في السيّدة فاطمة الزهراء باعتبارها من أصحاب الكساء.

﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ ﴿١٢﴾﴾ وهذه مريم مثال الطهارة لم تغرّها حالة المجتمع المنحرف، بل عملت على تزكيّة نفسها فمنحها الله بنفحة روحيّة منه، مقام الأمومة لعيسى نبيّ الله، وقد كانت مصدّقة من أعماقها بكلمات الله وكتبه مطيعة خاضعة خاشعة لله.

وواضح تناسب ماجاء في الآيات الثلاث الأخيرة مع قضية التحريم، فهي أمثلة تضرب لأزواج النبيّ ليسرن في طريق البناء الذاتيّ دون اغترار بالصّلة الزوجيّة.

سورة الملك (٦٧) آياتها ٣٠

بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مرّ بنا الحديث عن البسملة.

﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝١﴾ الله جلَّ وعلا هو البركة المطلقة والمالك الحقيقيّ والقادر المطلق؛ كل هذه الصفات عندما تنغرس في الوجدان الإنسانيّ تجعله يسبّح بكل وجوده لله لا غير.

﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ۝٢﴾ ومن الظواهر المهمّة مسألة الموت والحياة، وقد خلقها الله امتحاناً للإنسان، وكيفية وفائه لإنسانيّته وبالتالي مدى انسجامه مع فطرته التي تدعوه للإيمان بالخالق المالك القادر المبارك العزيز الغفور.

﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ ۝٣ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِأً وَهُوَ حَسِيرٌ ۝٤﴾ إنّ الفطرة حينما تسرح في هذا الكون الرحيب، وهذه السّماوات التي تمثّل طبقات لها أبعادها، وهذا النظام الدقيق، والحركة المنسجمة، والتناسق العجيب دونما تخلّف أو انفصال أو صدع، تقف منبهرة عاجزة ولا يزيدها التأمّل والنظر المتكرّر إلاّ انبهاراً وخشوعاً وتصديقاً بالخالق القادر المتبارك برحمانيّته.

﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ ۝٥ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ۝٦﴾ وهذه النجوم في السماء الدنيا بمواقعها العظيمة وجمالها الأخّاذ وكأنّها مصابيح الكون تأسر الألباب والنفوس فتخشع أمام خالقها العظيم، في حين تقوم هذه النجوم بوظيفة رمي الشياطين ورجمها ومنعها من العبث بنظم الكون وتحقيق مآربها الخبيثة، ولها بعدُ مصيرها الرهيب كمصير الكافرين جميعهم، إنّه عذاب جهنّم وما أتعسه من مصير.

﴿إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ ۝٧ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝٨﴾ وزيادة في الرهبة يأتي وصف جهنّم هنا فلها

شهيق فوّار، وهي تهتزّ من الحقد والغيظ على الكافرين، ويقف عليها خزنة غلاظ يسألون الأفواج المذعورة التي تدفع إلى الجحيم عما حدا بهم إلى هذه الحالة، ألم ياتهم من قبل نذير يحذّرهم مما سيؤولون إليه ويواجهونه؟

﴿قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١١﴾﴾ فيجيبون بكل ذلّة وضعف: بلى قد جاءنا نذير ولكنّا واجهناه بالتكذيب وأنكرنا أن يكون الله قد أنزل شيئاً، واتّهمنا الرسل بالضلال الكبير، وبالتالي لم نتّبع نداء السمع والبصر والفطرة، وإلاّ لما بلغنا هذه الحالة. إنّه اعتراف بالذنب واستسلام للمصير الرهيب فسحقاً لهم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾﴾ أمّا أولئك الذين انسجموا مع إنسانيّتهم وآمنوا بربّهم وخشعوا له بالغيب والسّر فإن لهم الغفران والأجر الكبير.

﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ إنّه عالم الغيب والشهادة ، فلا يختلف الأمر لديه أكان القول في السّر أم العلن، بل يعلم حتّى ما يتردّد في الصدور من خلجات، ذلك لأنّه الخالق الذي يمدّ الخليقة بالوجود دائماً، فهو العليم اللطيف الخبير.

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾ تذكير بنعمة الله في تذليل الأرض وتمهيدها لتوفّر للإنسان حياة هانئة رغيدة ينتقل بين ربوعها وسهولها وجبالها ويأكل من نباتها، وهو رزق الله، ويشكره على نعمه، ثمّ ليعود الجميع إلى الله في هدفيّة تدركها العقول. ويوماً بعد يوم يكشف العلم عن أبعاد ضخمة وقوانين لامتناهية كلها توفّر الحياة الهانئة فسبحان الله.

﴿أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾﴾ فهل يأمن هؤلاء المكذّبون من أن يخسف الله الأرض بهم فهي ترتجّ تحتهم؟ أم هل يأمنون من أن ترسل عليهم ريح

تحمل الحصباء فتضربهم بعذابها؟ إنّ هذا التساؤل يشكّل نذيراً للإنسان كي لا تغرّه الحالات العادية فينسى أبعادها ودلالاتها، وبالتالي يكفر بالله.

﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾﴾ وقد سبقت هؤلاء المكذّبين أمم مكذّبة فلماذا لا يعتبرون بآثار التكذيب والإنكار.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَٰنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾﴾ إلا يلاحظ هؤلاء تلك الطيور التي تطير صافّة أجنحتها، وقد تقبضها بكل روعة ورشاقة، وهل من يمسكها غير الله ذي الرحمة العامّة من خلال قوانين الحركة المقدّرة أروع تقدير، وهو بكل شيء بصير.

﴿أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَٰنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ﴿٢٠﴾﴾ وهل لهم أن يجدوا ناصراً لهم غير الرحمن، فلماذا إذن يأخذهم الغرور؟

﴿أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَل لَّجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾﴾ وهل هناك من يتكفّل برزقهم إن منعهم الله رزقه؟ إنّهم إذن في طغيان وهروب من الحقيقة.

﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾﴾ ترى هل يستوي في الهدى والسير من يمشي ووجهه مشدود بالأرض لايبصر أمامه ولا يتطلّع إلى مسيره، مع من يمشي مستوياً يلاحظ سيره على بصيرة ويخطّط لخطاه بتوازن وانسجام على خطّ مستقيم.

﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ فلماذا يقصّر هؤلاء في شكر من منحهم كل مصادر المعرفة الحسّية والعقليّة كالسمع والأبصار والأفئدة؟

﴿قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ إنّه هو أعطاكم قدرة التكاثر والانتشار وإليه تعودون.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾﴾ ويتساءلون متى يكون زمان العود والحساب؟ وجوابهم: إنَّ الله هو العليم بذلك، وإنَّ الرسول نذير واضح لا غير.

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾﴾

إنّهم حين يرون العذاب ويواجهونه فجأة ستسوء وجوههم ويقال لهم هذا الذي كنتم به تكذّبون وتدّعون عدمه.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾﴾ على هؤلاء المتربّصين أن يموت الرسول ومن معه أن يفكّروا بعذاب الله ومن يخلّصهم منه قبل كل شيء نتيجة عنادهم وإلاّ فإن الرسول ومن معه هم بيد الله يهلكهم أو يرحمهم بالبقاء.

﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾﴾ إنّ الرسول ومن معه قد آمنوا بالخالق الرحمان وفوّضوا أمرهم إلى مولاهم وتوكّلوا عليه وهو ذو العزّة والجلال، فاطمأنّوا إلى العاقبة، وسيعلم هؤلاء من هو الغارق في الضلال، والمنكر للحقيقة.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاء مَّعِينٍ ﴿٣٠﴾﴾ ويأتي في آخر السورة هذا التساؤل الصارخ: إنّ غارت المياه وجذبتها الأرض فمن الذي يوفّر لكم الماء الصافي الذي يروّي عطشكم؟!

سورة القلم (٦٨)

آياتها ٥٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تحدّثنا من ذي قبل عن البسملة.

﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١﴾ ن هي أحد الحروف التي يتشكّل منها هذا الكتاب المعجز، ثمّ يأتي القسم بالقلم، والكتابة التي تنقل المعرفة بين بني البشر وكلها نعم إلهيّة كبرى أراد الله بتعليمها للإنسان أن يسير سيرته الحضاريّة ليحقّق هدف خلقته، ومسؤوليّة خلافته عبر إعمال قدراته الفكريّة وبهداية من الله.

﴿مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝٣﴾ بهذا القسم الذي يرتبط أكبر الارتباط بقضيّة الوعي والفكر وتكريم القلم وأهله وما يكتبون، يؤكّد القرآن سفاهة شبهة الجنون في الرسول، فهو يعيش بنعمة الله ويحظى بعطاء الله الدائم المستمرّ.

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ ويعلن أنّ كل معاني النبل والخلق الفطريّ الكريم تتجلّى فيه كأعظم ما يكون، وفي هذا شهادة وإشادة وتكريم للنبيّ ﷺ بأسمى أشكاله.

﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝٥ بِأَييِّكُمُ الْمَفْتُونُ ۝٦ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ۝٧﴾ وسينكشف بوضوح من هو الضّالّ المجنون المنحرف عن الفطرة. والله أعلم بمسيرة الضالّين عن سبيله، والمهتدين إلى الصّراط المستقيم.

﴿فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ ۝٨ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ۝٩ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝١٠ هَمَّازٍ مَّشَّاء بِنَمِيمٍ ۝١١ مَنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ ۝١٣﴾ فليثبت الرسول على منهجه ويرفض عروض المكذّبين الذين يساومونه على دينه فيتنازل ويتنازلون، ويلين ويلينون، إنّ خطّه الإسلاميّ يرفض هذا الذي يُكثر من القسَم تهاوناً به وهو نفسه من أهل المهانة، والذي يكثر من تعيير الآخرين وإهانتهم، كما يكثر من المشي بالنميمة بين الناس، ويعمل على سدّ سبل الخير، ونشر حالة العدوان الآثم على الحقوق، والذي يحمل وصف (العتلّ) وهو مجمع الرذائل، والزنيم الذي ضاع نسبه.

﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ۝١٤ إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ۝١٥﴾ إنّه يجزي نعمة المال والولد عليه بدلاً من شكرها بتكذيب آيات الله ووصفها بأساطير السابقين.

﴿سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾﴾ إنّه سيُدمغ بوصمة العار على أنفه وهو كأنف الخنزير.

﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾﴾ إنّهم سيُمتحنون كما امتُحن أصحاب البستان الكبيرة الغنّاء، وقد أقسموا ليلاً على جني ثمارها في الصباح ومنع المساكين حقّهم فيها، وكان مقرّراً من قبل.

﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾﴾ فأرسل الله عليها وهم نائمون بلاء يطوف بها ويدعها خواء كالشجر مقطوع الثمر.

﴿فَتَنَادَوا مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾﴾ وفي الصباح تحرّكوا يهمس بعضهم في إذن بعض أن لا يسمح أحد بدخول الفقراء.

﴿وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ وظنّوا أنّهم على تنفيذ ذلك الحرمان قادرون.

﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾﴾ وعندما يواجهون ما حدث في جنّتهم من دمار يظنّون ابتداءً أنّهم ظلّوا الطريق، ثمّ يكتشفون الحقيقة المرّة؛ حقيقة الحرمان.

﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ وهنا ينبّههم أعقلهم الذي كان قد خالفهم من قبل، إلى وصيّته لهم بتقوى الله ورعاية حقوقه، فيعترفون بذلك ويندمون على ظلمهم.

﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ وهكذا هي طبيعة الخاسرين إذ يلقي بعضهم اللّوم على البعض الآخر.

﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَى رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ ﴿٣٢﴾﴾ ثمّ يعودون معترفين بتجاوزهم للحدود وطغيانهم، ويعلنون العودة والدعاء لله أن يبدلهم خيراً من جنّتهم، فهم إلى نعم الله مشتاقون راغبون.

﴿كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ هذا هو مصير كفر النعم، فإذا أصرَّ الإنسان عليه فأمامه عذاب الآخرة وهو أكبر.

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٣٤﴾﴾ أمّا المتّقون فلهم حياة الطمأنينة والخلق القويم، ولهم في الآخرة جنّات النعيم.

﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾﴾ لكل مسير عاقبته المناسبة، ولا يستوي مسير المسلمين والمجرمين، وكيف يتوقّع هؤلاء التسوية بين المسيرين والمصيرين؟ إنّه حكم وتوقّع باطل، وليس له مايؤيّده من مستند أو كتاب يدرسونه.

﴿إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ يستطيع هؤلاء أن يختاروا منطقاً أعوج كهذا.

﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾﴾ وهل لهم مواثيق أخذوها على الله، إلى يوم القيامة أن يعطيهم ما يريدون، ويصحّح ما يختارون؟

﴿سَلْهُم أَيُّهُم بِذَلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاء فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٤١﴾﴾ وهل هناك من متعهّد بذلك، وهل لهم شركاء متعهّدون؟ فليأتوا بهم إن كانوا صادقين.

﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾﴾ إنّ عليهم أن يواجهوا هذه الأسئلة ويعدّوا أجوبتها في يوم رهيب يكنّى عنه بيوم كشف الساق، وهو يوم القيامة بأهواله، حيث يدعون إلى السجود لعظمة الله فلا يستطيعون ذلك؛ لأنّهم لم يسجدوا في الدنيا.

﴿خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ إنّهم في منتهى الانكسار والذل؛ أبصار منكسرة، وصَغار مرهق، ذلك أنّهم كانوا يدُعون إلى الإيمان والسجود في الدنيا وهم سالمون فكانوا يستكبرون ويمتنعون.

﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ تهديد إلهيّ رهيب للكافرين، حيث ينصبّ الغضب العظيم على هؤلاء الضعفاء المستكبرين، إنّهم سيجرّون ويستدرجون إلى المصير الأسود من حيث لا يشعرون ولا يعلمون.

﴿وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾﴾ فيمهلون قليلاً ويعطون نعمة فيكفرون بها فيُصبّ عليهم العذاب. إن كيد الله وتدبيره ضدهم قوي محكم ولا يفلتون منه.

﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾﴾ إنّ الرسول يدعوهم إلى الهدى والنور ولا يسألهم أجراً على دعوته ليردّوا عليه بأنهم مرهقون بالديون ولا يملكون ما يدفعونه.

﴿أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾﴾ ثمّ إنّ الغيب و عذابه ينتظرهم وهم لا يملكون من أمرهم شيئاً فضلاً عن أن يتصوّر هؤلاء أنّهم يسطّرون الغيب ويكتبونه ويخطّطون له ويتحكّمون فيه.

﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَوْلَا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾﴾ فليثبت الرسول على خطّه ومنهجه مطمئنّاً إلى نصر ربّه ودعمه، وليتذكّر ـ في هذا الصدد ـ النبيّ يونس إذ آلمه عناد قومه الممتدّ فغادرهم مغاضباً وركب سفينة تعرّضت للغرق لثقلها، فأُلقي إلى البحر ليلتقطه الحوت، ولولا أن أدركته رحمة الله بعد أن دعاه واستغفره لتركه الحوت منبوذاً على الشاطئ وحيداً لا يملك شيئاً، مذموماً على فعلته.

﴿فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٥٠﴾﴾ ولكنّ الله اختاره وجعله من الصالحين لإخلاصه وحسن نيّته وتسبيحه وتوحيده واعترافه في ظلمات بطن الحوت بارتكاب ماكان الأولى به ألاّ يرتكبه.

﴿وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ إنّ الكافرين إذ يستمعون للقرآن ينظرون بحقد وحسد إلى النبيّ، ويصفونه بالجنون، ولكنّ القرآن ذكر و هدى للبشريّة جمعاء لو فهموه. وهذه الآية المكيّة دليل على النظرة العالميّة للإسلام من أوّل الأمر.

سورة الحاقة (٦٩)

آياتها ٥٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مرّ بنا الحديث عن البسملة.

﴿الْحَاقَّةُ ① مَا الْحَاقَّةُ ② وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ ③﴾ تأكيد مكرّر على كون القيامة هي الحاقّة المحتّمة الرهيبة التي يتجلّى فيها الحقّ.

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ ④﴾ لقد كذَّبت ثمود وعاد بهذه الحقيقة التي تضرب الأسماع والقلوب.

﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ⑤ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ⑥ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ⑦ فَهَلْ تَرَى لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ ⑧﴾ فأمّاثمود فقد أهلكت بالصاعقة الطاغية على حياتهم، وأمّا عاد فقد أهلكوا بريح باردة شديدة دامت عليهم سبع ليال وثمانية أيّام حاسمة قاطعة، فعادوا صرعى مفرّقين، كأنّهم بقايا أصول نخل خاوية من المحتوى، ودُمِّروا فلم تبق لهم باقية.

﴿وَجَاء فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ ⑨ فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ⑩﴾ وهكذا كان أمر فرعون والمكذّبين من قبله، وقوم لوط إذ ارتكبوا الإفك والزور والخطايا، وعصوا أمر الرسول فأخذهم الله بالعذاب الغامر المدمّر.

﴿إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاء حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ⑪ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ⑫﴾ وعلى أساس من وحدة المسيرة البشريّة المؤمنة يشير القرآن إلى حمل الفئة المؤمنة في السفينة الجارية أثناء الطوفان، إنّها حادثة تحمل معنى كبيراً، وعبرة لمن اعتبر ووعى واستوعب عبر التاريخ.

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ⑬﴾ إنّ هذه المسيرة هادفة، وستنتهي إلى يوم الحساب حيث يبدأ بنفخة البوق الواحدة.

﴿وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ⑭ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ⑮﴾ فإذا بالأرض والجبال تحملها يد القدرة الإلهيّة فتحطّمها، وحينئذ تحدث تلك الحادثة الكبرى وهي يوم القيامة.

﴿وَانشَقَّتِ السَّمَاء فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ⑯﴾ ويصيب السماء الانشقاق، وتفقد ترابطها، فإذا هي واهية ضعيفة.

﴿وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ ۝١٧﴾ وتقف الملائكة على أرجاء الكون تجلّياً لقدرة الله وسيطرته المتمثّلة في عرشه، وهو محور إدارة الكون ويحمله ثمانية منهم، والله أعلم بإيحاءات هذا العدد.

﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنكُمْ خَافِيَةٌ ۝١٨﴾ وحينئذ وفي هذا المنظر الرهيب وأمام الخلائق يعرض النّاس على واقعهم مكشوفين تماماً.

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَؤُوا كِتَابِيهْ ۝١٩ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيهْ ۝٢٠﴾ فأمّا الذين يحملون كتاب أعمالهم بأيمانهم وهم الصالحون فإنهم يعلنون فرحهم برضا الله، ويعرضون كتابهم أمام الجميع مؤكّدين أنّهم كانوا يحسبون ليوم الحساب حسابه.

﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٢١ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝٢٢ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ۝٢٣﴾ إنّ الفرد منهم آنذاك يعيش حياة الرضا محقّقاً أمله في جنّة سامية بمضامينها وعطائها وثمارها الطيّعة المتدلّية المتنوّعة.

﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ۝٢٤﴾ ويقال لهم أن تنعّموا بكل هذا نتيجة ما عملتموه في أيام الدنيا الماضية.

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيهْ ۝٢٥ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيهْ ۝٢٦ يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ۝٢٧﴾ أمّا من يحمل كتابه بيساره تعبيراً عن انحرافه وخسرانه فهو ينادي بالويل، ويتمنّى أن لم يعط كتابه، ولم يدر ما حسابه، وأن لو كانت موتته أو قيامته هي النهاية.

﴿مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيهْ ۝٢٨ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيهْ ۝٢٩﴾ إنّه الوحيد الفرد الذي لم ينفعه ماله ولا سلطته الفانية. وتلاحظ حالة اللّهاث لدى المؤمنين والكافرين التي تكشفها هاء السكت لتكشف عن أهوال القيامة.

﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ۝٣٠ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ۝٣١ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ۝٣٢ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ۝٣٣ وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ ۝٣٤﴾ وهنا يأتي هذا النداء الرهيب؛ أن يؤخذ ويوثق بالسلاسل ويلقى في الجحيم التي تشبعه عذاباً، ويشدّ في سلسلة طولها سبعون ذراعاً. كل ذلك لأنّه كفر بالله ـ وهو العظيم في تجلّياته ـ ولم يرحم العباد ولم يرغّب في إطعام المسكين. ويلاحظ هنا اختلاف اللحن لإختلاف الموقف.

﴿فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ ۝٣٥ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ۝٣٦ لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِؤُونَ ۝٣٧﴾

إنّه يعاني العذاب ولا يملك من يحنو عليه، ويعاني الجوع فلا يطعم إلاّ من غسلين، وهو غسالة الجهنّميين وقيحهم المقزّز الذي لا يأكله إلاّ المجرمون.

﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾﴾ إنّه قسم بكل المحسوسات التي يبصرها الإنسان، وبكل مالا يبصره من الكائنات، وهي أكثر مما يبصر ـ في إشارة للمجهولات التي ينبغي أن يتوجّه لاكتشافها، قسم على أنّ هذا القرآن رسالة جاء بها رسول كريم.

﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾ وليس قولاً لشاعر يعيش في الخيال، ولا لكاهن ينبئ كذباً عن أشياء وهمّية بل كل هذه الاتّهامات منشؤها عدم الإيمان وفقدان الوعي والتذكّر والدقّة في الأمور؛ لأنّ حقائق القرآن واضحة لكل ذي بصيرة.

﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٣﴾﴾ إنّه كتاب منزل من ربّ العالمين، تشهد لذلك كل مضامينه.

﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾ بلّغه الرسول بكل أمانة وصدق، ولو أنّه ـ والعياذ بالله ـ تقوّل على الله شيئاً ونسبه إليه لأخذ بقوّة وقطع وريد قلبه، ولما منعه من الله أحد.

﴿وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾﴾ إنّ هذا القرآن يرفع من وعي المتّقين، وينجيهم من أخطر أمراض البشريّة، وهي الغفلة عن حقائق الكون والتاريخ والإنسان.

﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾﴾ والله يعلم بوجود المكذّبين فلتبق الحقيقة حسرة في قلوبهم، وليرتكسوا في الغفلة.

﴿وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾﴾ إنّ هذا القرآن يترك حسرة في قلوب الكافرين، إلاّ أنّه عين اليقين والواقع، فليلجأ الرسول للشكر والتسبيح والتمجيد لله.

سورة المعارج (٧٠)

آياتها ٤٤

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تحدّثنا عن البسملة

﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ① لِّلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ ② مِّنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ ③﴾ لقد بلغ العناد ببعض الكافرين إلى مستوى تحدّي الرسول بطلب العذاب وهو واقع بهم، ولا دافع له من الله القادر المالك لهذا الكون ومصاعده ودرجاته التي تعرج إليها الملائكة.

﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ④﴾ وسيأتي اليوم الذي تعرج فيه الملائكة والأرواح إلى الله، إنّه يوم القيامة وهو مصير الجميع، إنّه طويل يعادل خمسين ألف سنة من أيام الأرض.

﴿فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ⑤﴾ فليثبت الرسول على خطّه وليصبر على العقبات والتكذيب والعناد.

﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ⑥ وَنَرَاهُ قَرِيبًا ⑦﴾ إنّهم يرون يوم القيامة بعيداً وربما مستبعداً، ولكنه في عين الله والحقيقة قريب واقع.

﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ ⑧ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ⑨ وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ⑩﴾ حيث تسبقه التحوّلات الكونيّة الهائلة، فتصبح السماء كالمعادن السائلة، والجبال كالقطن المنفوش، وحيث ينشغل النّاس بأنفسهم وهول القيامة، فلا يسأل قريب قريبه عن حاله.

﴿يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ ⑪ وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ ⑫ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ ⑬ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ⑭﴾ إنّهم ـ أي النّاس ـ يرون أقاربهم ولكنهم منشغلون عنهم، أما المجرم فهو غارق في الهمّ والرعب حتّى ليودّ أن يفتدي نفسه من العذاب بتقديم بنيه وزوجه وأخيه وعشيرته التي ينتسب إليها من الأقربين له بل كل من في الأرض جميعاً بدلاً عنه لينجو بنفسه من العذاب.

﴿كَلَّا إِنَّهَا لَظَىٰ ⑮ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ⑯ تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ⑰ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰ ⑱﴾ كلا إنها تمنّيات باطلة وأمامه النار المشتعلة التي تنزع الجلود والأطراف وهي تدعو إليها من

أدبر عن الفطرة، وراح يعبد هواه ويجمع المال ويملأ به أوعيته ويمنعه عن المستحقّين.

﴿إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾﴾ هكذا هو الإنسان، إنّه خلق شديد الحرص على ما يهواه فإذا مسّه شرّ جزع وفقد توازنه وإذا مسّه خير تعلّق به وكأنّه دائم له ومنعه من غيره فهو ضيّق النفس والأفق نتيجة عدم اتّصاله بالحقيقة.

﴿إِلَّا الْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ ذاك هو الإنسان المنفصل، فإذا اتّصل بالحقيقة الكبرى، بالله العظيم وخضع له وعبده صار موجوداً علوياً اتّصل بالمطلق، وصلّى واستمرّ في صلاته، ليشرق النور في كل وجوده.

﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾﴾ وراح يحقّق مقتضى العبوديّة بالإنفاق المستمرّ على الفقراء والمحرومين.

﴿وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾﴾ واعياً للهدفيّة في هذا الكون، مؤمناً بيوم القيامة، مشفقاً خائفاً من عذاب الله لا غير، فعذاب الله غير مأمون، ولذا فهو يعيش بين الخوف والرجاء.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٣١﴾﴾ مدركاً أنّ الله يريد له حياة طاهرة وعلاقات اجتماعيّة نظيفة، ولذا فهو يحفظ فرجه وعورته إلاّ في المساحات التي تسمح بها الشريعة حيث توجد علقة الزوجيّة أو ملك اليمين من الإماء، فإنّه لن يلام على إشباع غريزته الجنسيّة في جوّ من الطهارة دون أن يتعدّى ذلك الإطار.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٣٢﴾ وَالَّذِينَ هُم بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ إنّه يعيش أميناً ويحفظ للآخرين حقوقهم وأماناتهم، ويشهد لهم بالحقّ.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾﴾ كل ذلك في إطار حفظ الصلاة بما تحمله من معان فرديّة واجتماعيّة.

﴿أُولَٰئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾﴾ إنّ أمثال هذا الإنسان هم الواعون الذين سيكرمهم الله بالجنّة.

﴿فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾ أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾ فماذا جرى لهؤلاء

الكافرين إنّهم ينظرون إليك مستطلعين دون وعي ثمّ يتفرّقون إلى اليمين والشمال يتآمرون ويتهامسون، وهل يطمعون رغم هذا السلوك السخيف أن يدخلهم الله جنّة النعيم، كلاّ، فإن الله خلقهم من نطفة، وأوصلهم إلى هذا المستوى، ليقوموا بحقّ الإنسانيّة، ولكنهم ارتكسوا في الجهل.

﴿فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَى أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾﴾ قسم بربّ مشارق الشمس ومغاربها، إذ لها مشرق ومغرب في كل لحظة، نتيجة دوران الأرض حول نفسها، أو مشارق النجوم لتأكيد أنّ الله قادر على أن يبدّل الأجيال ـ كما يبدّل المشارق والمغارب ـ فيحذفهم ـ أي الكافرين ـ من صفحة الوجود ويستبدل بهم من هم خير منهم، فإرادته نافذة ولا يعجزه شيء.

﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾﴾ إنّهم ممن لا يؤبه بهم، فليتركوا على حالهم يخوضون في العمى، ويلعبون كما يلعب الصغار الغافلون حتّى يأتيهم اليوم الذي وعدوا به.

﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾﴾ إنّهم سينطلقون من قبورهم مسرعين وكأنّهم قوم مسرعون إلى صنم يعبدونه، وأبصارهم منكسرة يطغى عليهم الذلّ والصغار، وهم يرون اليوم الموعود.

سورة نوح (٧١)

آياتها ٢٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قلنا إنّ البسملة تحمل معنىً رائعاً وإنّها جزء السورة.

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٢ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝٣ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٤﴾ لقد أرسل الله نوحاً لينذر قومه ويحذّرهم من سلوك سبيل الانحراف، والشرك الذي يؤدّي بهم إلى الضياع والهلاك والعذاب ، وراح يدعوهم إلى السبيل الأقوم سبيل عبادة الله وتقواه وطاعة رسوله، ليغفر الله لهم ما سلكوه وفعلوه، ويعطيهم مهلة حياتيّة جديدة ليصلحوا من أمرهم حتّى يأتيهم أجلهم الحتميّ المكتوب لهم والذي لا يتأخّر.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا ۝٦ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ۝٧﴾ وبعد أن بذل أقصى ما يستطيع لهدايتهم، وتحمّل ما تحمّل في سبيل ذلك مدّة طويلة عاد نوح إلى ربّه يشكوهم إليه، ويعلن أنّه دعاهم ليلاً ونهاراً ولكنّهم كانوا يستكبرون ويفرّون ويضعون أصابعهم في آذانهم لئلاّ يستمعوا إلى صوت الحقّ، ويسترون وجوههم بثيابهم لئلاّ يروا داعي الله، ويصّرون على الضلال، ويستكبرون غاية الاستكبار. وتصرّفات قوم نوح تكشف عن سخف كبير، واستكبار خطير، في حين نجد هذا النبيّ الصابر يسعى جهده ولمدّة طويلة جدّاً، وبكل رغبة ليضمّهم إلى ركب الهدى والوعي والحالة الإنسانيّة السويّة، ولكنّهم يتمادون في الضلال.

﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝٨ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ۝٩ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠﴾ وأنّه واصل عمله الدعويّ الخالص، معلناً تارة ومسرّاً تارة أخرى، طالباً منهم العودة إلى الله ربّهم، ومؤكّداً أن الله سيغفر لهم؛ لأنّه التوّاب الغفّار، ولكنهم كانوا يتمادون في الانحراف.

﴿يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٢﴾﴾ إنّ الكون وسننه التكوينيّة مرتبط مع السنن التشريعيّة، فالكل من عند الله والكل يقوم على الحقّ فمن الطبيعيّ أن يقوم الترابط. وها هو نوح يدعو قومه للاستغفار ويعدهم بالرخاء، حيث تنهل السماء بالمطر، وتزداد الأموال والأولاد وتنمو الزراعة وتسيل الأنهار ويعمّ الرخاء.

﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾﴾ حجّة قويّة واضحة تقوم على أساس التذكير بمراحل التكامل الإنسانيّ من النطفة الحقيرة إلى الموجود المفكّر الحكيم والتي تنبئ بما لا يقبل الشك عن القدرة والحكمة والمدد الإلهيّ المستمرّ، وتهيئة كل أجواء النموّ والتكامل المادّيّ والمعنويّ. وحينئذ ألا يستحقّ هذا الوجود المطلق أن يحترموه ويوقّروه.

﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾﴾ إنّه ـ تعالى ـ خالق السّماوات السّبع طبقات بعضها فوق بعض، وخالق القمر بنوره المكتسب، والشمس لتكون منبعاً للنور، وكل هذه المخلوقات تترك أثرها الأساسيّ في نموّ الإنسان وتكامله.

﴿وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾﴾ وهو الذي أنعم على الإنسان وأنبته في الأرض ليحيا فيها، وتتركّب منها بنيته.

﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾﴾ ثمّ هو يعيدهم إلى الأرض ثمّ يخرجهم منها إلى البعث.

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾﴾ إنّه جعل الأرض بساطاً مريحاً ميسّراً بسبلها ومنافذها. وهذا الفهم الذي قد يبدو بسيطاً كشف العلم أبعاده العظيمة بعد ذلك، وكيف تسهم في تيسير الحياة الإنسانيّة كأروع ما يكون، فلا تدع الإنسان إلاّ أن يؤمن بالخالق.

﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾﴾ ورغم كل التّعب والبيان القويّ يؤكّد نوح أنّهم عصوه واتبعوا من غرّته الدنيا، وما زاده ماله

وولده إلاّ خسراناً، واتّبع الأساليب الماكرة الخدّاعة، لإثارة حميّة قومه للدفاع عن أصنامهم؛ ودّ وسواع ويغوث ويعوق ونسر، و هي أصنام يعرفها العرب، ولعلّ ذكرها من باب وحدة الظاهرة الصنميّة.

﴿وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ﴿٢٤﴾﴾ وهكذا استطاعوا إضلال الكثيرين ويدعو نوح أن يزيدهم الله ضلالاً؛ لأنّهم ظلموا أنفسهم.

﴿مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾﴾ فابتلوا نتيجة خطيئاتهم بعذاب الغرق في الدنيا والنار في الآخرة، دون أن ينصرهم أحد من دون الله.

﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾﴾ وهنا يدعو نوح ربّه ليطهّر الأرض من الكفر وقادته؛ لأنّهم يضلّون العباد ولا يلدون إلاّ الفجّار الكفّار بعد أن أمعنوا في الضلال.

﴿رَّبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴿٢٨﴾﴾ ثمّ يستغفر لنفسه ووالديه والمؤمنين من قومه، وكل المسيرة المؤمنة رجالاً ونساءً عبر التاريخ، طالباً أن يزيد الله مسيرة الكفر هلاكاً وضياعاً.

سورة الجن (٧٢)

آياتها ٢٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تحدّثنا من قبل عن البسملة.

﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ① يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ②﴾ أُمر الرسول أن يقول للنّاس إنّه أوحي إليه أن عدداً من الجنّ استمعوا للقرآن، ثمّ عادوا لقومهم فاخبروهم بأنّهم سمعوا قرآناً هزَّ مشاعرهم بلفظه وبمعناه السامي الهادي إلى الرشد، ونموّ الوعي والحقيقة، مما دفعهم للإيمان به والدخول في مسلك التوحيد.

﴿وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ③﴾ فهو ـ تعالى وتمجّد ـ ربّنا بحقّ لم يتّخذ صاحبة ولا ولداً.

﴿وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ④ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن تَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ⑤﴾ وإنّ سفهاءهم كانوا يخرجون عن جادّة الصواب حينما كانوا يشركون، فكانوا يصدّقونهم ظنّاً منهم أنّ أحداً من الإنس أو الجنّ لا يستطيع أن يكذب على الله.

﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ⑥﴾ ولقد كان هناك رجال من الإنس يلوذون ويلجأون إلى رجال من الجنّ، طالبين منهم الهدى والعون ولكنّهم بدل ذلك زادوهم ضلالاً وإثماً.

﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا ⑦﴾ وقد كان رجال الإنس يظنّون ـ كما ظنَّ رجال الجنّ ـ أنّ الله لن يبعث رسولاً، وهو ظنّ باطل؛ لأنّ اللّطف الإلهيّ يشمل المخلوقات فيهديها إلى سواء السبيل.

﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاء فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ⑧ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا ⑨﴾ ولعلّ الجنّ كانوا يسترقون السمع عبر محاولتهم الاتّصال بالملأ الأعلى، ويأتون ببعض الأخبار إلى أوليائهم من الكهّان والمشعوذين، مما يعينهم على فتنة الناس، وهاهم الآن يخبرون قومهم بانغلاق هذا الباب؛ لأنّ السماء ملئت حرّاساً أشدّاء وشهباً ترصدهم، مما ينبئ عن حادثة كبرى.

﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾ وإنّهم لا يدرون حقيقة هذه الظاهرة الجديدة أهي شرّ للبشريّة أم خير لها؟

﴿وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾﴾ تقرير بأنّ الجنّ كالبشر، لهم إرادة، ويمكن أن يختاروا أحد الطريقين طريق الهدى وطريق الضلال، وهكذا سار بعضهم سير الصالحين العاملين لخير الآخرين، وانحرف بعضهم عن السبيل فكانوا مذاهب شتى متفرّقة.

﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن نُّعجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَبًا ﴿١٢﴾ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾﴾ وهم يؤكّدون هنا أنّهم يقدّرون قدرة الله عليهم، وأن لا مهرب منها، وأنّهم اهتدوا وآمنوا لما سمعوا القرآن، وأنّ من يؤمن بالله فقد أمن من الظلم والعذاب المرهق أو التكليف بما لا يطاق.

﴿وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾﴾ تأكيد جديد على انقسام الجنّ إلى فريقينفريق مسلم يتحرّى الصّالحات ويتوخّى الرشد والنموّ الفكريّ والهدى، وآخر قاسط منحرف عن الفطرة معاند، يعرّض نفسه للعذاب لتكون حطباً ووقوداً لجهنّم.

﴿وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاء غَدَقًا ﴿١٦﴾﴾ وهذه سنّة يؤكّدها القرآن مراراً، فالثبات على الخطّ والمنهج الإلهيّ يؤدّي للرفاه الدنيويّ والنموّ بتوفّر الرزق والماء الهاطل الشديد.

﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾﴾ ثمّ إنّ النعمة المادّيّة نفسها هي امتحان إلهي، فإن أدّت إلى الشكر استمرّ العطاء، وإن أدّت إلى البطر والترف والإعراض عن الخطّ السليم، فإن العاقبة هي العذاب المتصاعد في حدّته.

﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾ السجود يشكّل هيئة عباديّة سامية، والمساجد سواء أكانت محالّ العبادة أو الأعضاء التي يرتكز عليها الساجدون هي محالّ مخصوصة لله وحده، وتسخّر له لا غير.

﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾﴾ والعبادة هي الأسلوب الذي يعبّر به المؤمن عن عبوديّته، ولكنّ المشركين لما لم يفهموا ذلك كانوا يتجمّعون ويتراكمون، متعجّبين من عبادة النبيّ وهو عبدالله المخلص.

﴿قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾﴾ ليوضّح النبيّ لهم حقيقة العبادة وعبوديّته لله، وأنّه لا يملك لنفسه ولا للآخرين ما يستطيع به أن ينفع أو يضرّ، بل هو عبد فقير محتاج إلى ربّه.

﴿قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَاغًا مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴿٢٣﴾﴾ وأنّه رسول مبلّغ عن الله، حامل لرسالاته إلى البشريّة غير متقوّل عليه ولا متجاوز لما أمره، وإلاّ فإنّه لا ينقذه من الله أحد ولا يحميه وينصره من دونه ناصر، ومن يعصي الله ورسوله ويخرج عن خطّه فإن جزاءه الرهيب هو جهنّم، والخلود فيها.

﴿حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾﴾ وسيعلم الكافرون الذين يعتدّون بعدّتهم وعديدهم حين يرون يوم القيامة، وتجلّي القدرة الإلهيّة، أنّ ما يعتزّون به لا قيمة له أمام القدرة والجبروت الإلهيّ.

﴿قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴿٢٨﴾﴾ وربّما كانوا يستبطئون العذاب ويتساءلون عن موعده، فإن الرسول يعلن لهم أنّه هو لا يعلم موعده أهو قريب أم أنّ له أمداً بعيداً، فهو مما اختصّ به الله، وهو وحده عالم الغيب بالإصالة، فلا يظهر على غيبه أحداً إلاّ من ارتضاه رسولاً له، فإنّه يعلّمه علوم الغيب بالتبعيّة، كما أنّه يهيّئ لهذا الرسول حرّاساً ومراقبين من أمامه وخلفه يراقبون مسيرته ويسدّدونها ليتحقّق قيامه بعملية الإبلاغ المبين، وتتحقّق له العصمة من الانحراف، بعد أن كان الله محيطاً بكل شيء عالماً بأبعاد المسيرة ودقائقها.

سورة المزمل (٧٣)

آياتها ٢٠

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تحدّثنا عن البسملة.

﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ① قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ② نِصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ③ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ④﴾ إعداد رائع للرسول لينهض بحمل الرسالة العظمى للبشريّة، عبر بناء ذاته والارتقاء بمعنوياته من خلال ترك النوم الذي كان قد تزمّل له أي التفّ بثوب لينام، وقد كان ذلك بعد نزول الوحي وبداية الرسالة، ودعوته لإحياء اللّيل إلاّ قليلاً منه، مخيّراً بين النصف أو الأقل أو الأكثر من ذلك، مصلّياً عابداً تالياً مرتّلاً للقرآن ترتيلاً تتوضّح فيه الحروف ويتفاعل مع الوجود الإنسانيّ فيبنيه ويعدّه.

﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ⑤﴾ إنّ ذلك الإعداد هو لتحمّل ثقل الرسالة التي بيّن القرآن الكريم أبعادها.

﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْءًا وَأَقْوَمُ قِيلًا ⑥﴾ إنّ العبادة في اللّيل تعني القوّة والثبات في وجه دعوة البدن للراحة والخلود إلى النوم الدافئ، مما يعطي الروح قوّتها والإرادة ثباتها، كما أنّ الذكر والقرآن والدعاء ينفذ إلى الأحاسيس والمشاعر، فيملؤها إيماناً وصفاءً ووعياً قوياً.

﴿إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ⑦﴾ أمّا النهار فهو ظرف النشاط والحركة المستمرّة.

﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ⑧﴾ وفي كل آنائه يعيش المؤمن مع الله يذكره، ويسبّحه، ويشكره، ويلجأ وينقطع إليه (يتبتّل) تماماً.

﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ⑨﴾ فربّه هو ربّ الكون، وواهب الوجود في كل آن، ومصدر القوّة والرحمة، ولذا فإن المؤمن ـ والنبيّ سيد المؤمنين ـ يعيش دائماً حالة التوكّل الدائم والاطمئنان التامّ إليه.

﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ⑩﴾ وعندئذ تهون الصعاب عليه ويعزل خطّه عن خطّ أعداء الله، ولكن بكل حكمة وأسلوب جميل.

﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ⑪ إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالًا وَجَحِيمًا ⑫ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ⑬﴾ ويوكل أمر الذين يقفون في طريقه إلى ربّه وقدرته التي تمهلهم قليلاً ليكفروا بنعمه وتعدّهم للأغلال والجحيم، والطعام الذي تغصّ به الحلوق والعذاب الأليم.

﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾﴾ إنّه يوم القيامة الذي يسبقه رجيف الأرض، وتفكّك الجبال، لتصبح تراباً متراكماً متفتّتاً.

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾﴾ إنّ هذه الرسالة هي امتداد لخطّ الأنبياء الذي يشهد على مسيرة البشريّة، ومنهم موسى الذي أرسل إلى فرعون فعصى هذا المتكبّر أمر الرسول فابتلي بالعذاب الشديد.

﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ﴿١٧﴾ السَّمَاء مُنفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾﴾ فليحذر هؤلاء المكذّبون عذاباً يُشيب الأطفال وتنهدّ له السماء، وذلك وعد نافذ لا مردَّ له.

﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاء اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿١٩﴾﴾ إنّه تحذير خطير يجب أن ينبّه الإنسان ويذكّره، فيسلك منهج الله إذا اراد لنفسه الفلاح والنجاح.

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَؤُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَؤُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾﴾ وهنا يقرّر القرآن أنّ الله يعلم أنّ رسوله وبعض المؤمنين يقومون الليالي بما هو أقل من الثلثين أحياناً، ونصف اللّيل وثلثه أحياناً أخرى، وهو تعالى ينظّم ويقدّر حركة اللّيل والنهار، محيط بالكون يعلم ما فيه، كما يعلم بعدم إمكان أن يحصي كل المكلّفين، ويقوموا كل المقدار المطلوب من قيام الليل بشكل مستمرّ، ولذلك نظر بعين اللّطف والرحمة وخفّف عن المؤمنين، فطلب أن يقرأوا ما تيسّر لهم من القرآن ومن قيام الليل، وهذا التخفيف يسمح بأن يقوم الجميع بهذا العمل التربويّ الرائع كالمرضى والمسافرين والمقاتلين في سبيل الله. فليواظب المؤمنون على أداء واجباتهم من أداء الصّلاة المفروضة وإيتاء الزكاة، والانفاق لسدّ الخلل الاقتصاديّ في المجتمع، علماً بأنّ هذا الإنفاق يعود بالخير على نفس المنفق وبشكل مضاعف مضمون، وكذلك الأمر في كل عمل خيّر، فلينطلق المؤمنون لعمل الخير والاستغفار الدائم من الغفور الرحيم.

سورة المدثر (٧٤)

آياتها ٥٦

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تحدّثنا قبل هذا عن البسملة.

﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣﴾ يخاطب الله رسوله وقد استراح، وألقى على نفسه غطاءه لينام، بعد ان نزل عليه الوحي في غار حراء، ورجع إلى البيت وقد شعر برجفة في جسمه من ثقل المسؤوليّة فطلب أن يتدثّر، فيأمره أن ينهض وينطلق للإنذار، إنذار البشريّة من الانحراف المدمّر، ودعوتها للعودة إلى الله وتكبيره وهو أكبر من كل شيء، وأكبر من أن يوصف.

﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ۝٥﴾ والدعوة إلى الله يجب أن تكون في إطار طاهر، فالثياب طاهرة والعمل خير والنفس زكيّة والصّلاة بمعناها العام قائمة، والإثم والانحراف مرفوض.

﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ۝٧﴾ إنّ الهدف كبير كبير ومهما عظمت التضحيات في سبيله فهي قليلة غير مستكثرة، ولا منّة فيها لأَحد، فيجب الصبر والثبات وتحمّل الصعاب في سبيل تحصيل رضا الله.

﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ ۝٨ فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝٩ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ۝١٠﴾ ويجب تخويف المكذّبين من يوم يبدأ بنفخ البوق، لينطلق الموتى للحشر في يوم شديد الوطأة غير يسير على الكافرين.

﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۝١١ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا ۝١٢ وَبَنِينَ شُهُودًا ۝١٣ وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا ۝١٤﴾ وهناك سيحاسب الجبّار ذلك الطاغي ـ وهو الوليد بن المغيرة ـ الذي خلقه بقدرته وحدها، وأمدّه بما ل وفير وبنين حاضرين معه مغنين حياته، في حياة مهّدت له كل تمهيد.

﴿ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ۝١٥ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ۝١٦ سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا ۝١٧﴾ ومع كل ذلك فهو يطمع أن يزيده رغم طغيانه وكفره وعناده لآيات الله، كلاّ، بل أنّه سيشدّد عليه في مسيرته الوعرة.

﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾﴾ لقد فكّر هذا الرجل العنيد في أمر القرآن وعظمته، وحاول أن يقدّر الموقف، فلا هو يستطيع أن ينكر العظمة ولا هو يستطيع أن يتنازل عن كفره، وكان تقديره أسوأ تقدير فسحقاً له وسحقاً آخر على تقديره السيّئ.

﴿ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾﴾ إنّه راح يتأمّل، ثمّ أصابه العبوس فقطّب حاجبيه، ثمّ راح يقبض ملامح وجهه وكأنه يتعمّق في الأمر مليّاً، ثمّ أدركه عناده واستكباره فأعلن لقومه أن هذا القرآن سحر ساحر يتعلّمه الرسول من السحرة وليس من كلام الله، بل هو من كلام البشر.

﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾﴾ وهنا يتجلّى غضب الله عليه، معلناً أنّه سيبتليه بعذاب جهنّم، ولا يدري أحد ما هذا العذاب.

﴿لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾﴾ إنّها النار المحرقة التي لا تبقي شيئاً مما نالته، اللّواحة التي تدعو إليها الإنسان بغضب، وعليها تسعة عشر من الخزنة الغلاظ الشداد.

﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾﴾ وإذ راح الكفّار يستهزئون بهذا العدد، أكّد القرآن على كون خزنة النار من الملائكة المنفّذين لأوامر الله دون تردّد، وأنّ عددهم شكّل امتحاناً لردود الفعل، فأمّا أهل الكتاب فقد استيقنوا بصحّة ماجاء في القرآن؛ لأنه ينسجم مع مافي كتابهم، وأمّا المؤمنون فهم مصدّقون مطمئنّون بصحّة القرآن، ويبقى المشككون يتساءلون عن ماذا يرمز إليه هذا العدد؟ إنّهم أناس حائرون جاهلون، لا تزيدهم آيات الله إلاّ ضلالاً، في حين يهتدي بها الواعون الذين يوكلون الأمر إلى الله، فهو العليم بجنوده وهو المذكّر للإنسانيّة بحقائق الوجود.

﴿كَلَّا وَالْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ ﴿٣٥﴾

نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ إنّ توهّمات هؤلاء سخيفة، فقسماً بالقمر وباللّيل بعد أن يرحل، وبالصبح بعد أن ينجلي للخليقة، قسماً بكل هذه الظواهر العظيمة إنّ حقائق القيامة والنار والخزنة هي أمور ضخمة يجب أن تهزّ وجدان البشريّة وتنذرها من العذاب.

﴿لِمَن شَاء مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾﴾ ويبقى الإنسان مخيّراً بين أن يتقدّم على طريق الوعي أو يتأخّر فينهار في هوّة الظلام.

﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾﴾ وكل نفس مرهونة بعملها، فأصحاب اليمين وهم الصالحون يعيشون جنّات النعيم وهم يتساءلون: ما الذي أدّى بالمجرمين إلى جهنّم.

﴿قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ ﴿٤٧﴾﴾ ليجيبوا بأنّهم استحقّوا هذه العاقبة؛ لأنّهم لم يصلّوا ولم يطعموا المسكين، ولأنّهم كانوا يسيرون مع السائرين في الضلال، ويكذّبون بالآخرة إلى أن جاءهم الموت اليقين.

﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾ ولذلك فلم تعدّ تنفعهم شفاعة؛ لأنّهم لا يملكون أيّة حسنة أو أهليّة.

﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾﴾ ما لهؤلاء يعرضون عن الحقيقة ولا يريدون أن يعودوا إلى وعيهم، ويفرّون منها كما تفرّ حمر الوحش من الأسد (قسورة).

﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَى صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾﴾ هؤلاء الحمقى الفارّون من نداء الوحي يتوقّعون أن ينزّل الله إلى كل منهم كتبه، وهم على هذا المستوى!

﴿كَلَّا بَل لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ ﴿٥٣﴾﴾ إنّهم معاندون لا يخافون عذاب الله وحسابه.

﴿كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَاء ذَكَرَهُ ﴿٥٥﴾﴾ إنّ هذا القرآن يذكّر البشريّة بكل الحقيقة، ولا يهتدي به إلاّ من شاء الوعي وتذكّر الحقيقة.

﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَن يَشَاء اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾﴾ إنّ الله هو الهادي لمن أهّل نفسه للهدى والتذكّر، وهو تعالى الوجود المطلق المؤهّل لأن يتّقى ويستغفر، فيمنّ على البشريّة بالغفران.

سورة القيامة (٧٥)

آياتها ٤٠

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مرّ بنا الحديث عن البسملة.

﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ۝١ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ۝٢﴾ قسم بيوم القيامة وهو قسم عظيم، وكذلك قسم بالنفس اللّوامة، وربمّا كانت تعبّر عن الوجدان الذي عبّئ في الفطرة ليلوم الإنسان باستمرار على ابتعاده عن الخطّ الإنسانيّ الأصيل، كل هذا القسم لتأكيد الهدفيّة في الكون وعودته إلى الله.

﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ ۝٣ بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ ۝٤﴾ والهدفيّة تؤدّي للإيمان بالآخرة، وتلوّن الحياة الإنسانيّة بلون العدالة، أمّا من يستبعد قدرة الله على إعادة الموتى إلى الحشر والحساب فهو سخيف الفكر واهم لا غير، فالله تعالى قادر على كل شيء حتّى على إعادة رؤوس الأصابع، ولعلّ تخصيصها بالذّكر لدقّة تركيبها وحساسيّتها.

﴿بَلْ يُرِيدُ الْإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ ۝٥ يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ۝٦﴾ ولكن سرّ إنكار الكافرين للآخرة نابع من رغبتهم الجامحة للتقدّم في ارتكاب الفجور، باعتبار أنّ الإيمان بالآخرة يحجز الإنسان عن الانحراف الأخلاقي. ولذا فهو يتساءل مستنكراً عن موعد القيامة.

﴿فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ ۝٧ وَخَسَفَ الْقَمَرُ ۝٨ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ۝٩ يَقُولُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ ۝١٠ كَلَّا لَا وَزَرَ ۝١١ إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ۝١٢ يُنَبَّأُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ۝١٣ بَلِ الْإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ۝١٤ وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ ۝١٥﴾ إنّ القيامة تسبقها إرهاصات منها: فقدان الأبصار تركيزها، وخسوف القمر، واقتران الشمس والقمر عبر اختلال النظام الكوني فإذا حدثت فإن الإنسان سيتساءل: أين المفرّ؟ ولا مفرَّ ولا ملجأ وإنمّا ستعود البشريّة إلى ربّها لينبّأ الإنسان بما فعله من حسنات وسيّئات، والإنسان نفسه بصير بنفسه ولو حاول أن يصوغ بعض المعاذير الباطلة.

﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ۝١٦ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ۝١٧ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ۝١٨ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ۝١٩﴾ إنّ على الرسول أن يتلقّى الوحي ويؤدّيه حينما يسمح له بذلك، فالله هو المتكفّل بجمع أجزاء الآية أو السورة والسماح للرسول بعرضها على الناس. وهذا

مظهر من مظاهر الاثنينية بين المرسل والرسول.

وتحريك اللّسان والاستعجال بالقراءة لمعرفة النبي ﷺ المسبقة به، حيث نزل عليه كاملاً قبل التدرّج في التنزيل.

﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ ﴿٢١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾﴾ إنّ هؤلاء المكذّبين يركّزون على الدنيا العاجلة ولذّاتها،متناسين أنفسهم في الآخرة وهي مرحلة أعظم،حيث توجد هنا وجوه تعلوها النضارة والسعادة وهي تنظر بقلوبها إلى الجلال والجمال الإلهيّ، وهناك وجوه يسودها العبوس،باعتبار أنّها تنتظر العذاب الذي يقصم فقرات الظهر.

﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتْ التَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾﴾ كلاّ،إنّهم في وهَم وضلال،فحين تبلغ أرواحهم تراقيهم (عظام العنق) وييأس الجميع من العلاج ويتحقّق أمر الفراق،وتتجمّع أطراف الإنسان وتفقد تماسكها الطبيعيّ بالتفاف بعضها على بعض، حينئذ سيعلمون أنّ الموت حقّ، وأنّهم سيصيرون إلى ربّهم لا محالة.

﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّى ﴿٣١﴾ وَلَكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى ﴿٣٣﴾﴾ نعم، سيذهب هذا خالي الوفاض، فلا هو صدّق بالحقيقة الإلهيّة ولا صلّى وتعبّد بل اتّبع سبيل التكذيب والإعراض عن الحقّ، وراح يتبختر ويستكبر بين أهله وأقرانه.

﴿أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى ﴿٣٥﴾﴾ ولكن أولى لهذا الإنسان ثمّ أولى له أن يتذكّر خطله وضعفه وضلاله، ويعي ما هو عليه.

﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾﴾ من الخطل أن يتوهّم الإنسان العبثيّة في الكون، فمحال على الله أن يخلق الإنسان عبثاً دونما غاية.

﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَى ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَى ﴿٤٠﴾﴾ إنّ التأمّل في مراحل التكامل الإنسانيّ: نطفة منيّ تقذف، ثمّ علوق ببييضة المرأة تطبع عليه صفات الإنسان ثمّ تنمو فتستوي لتنقسم إلى ذكر وأنثى، وليصل الإنسان إلى هذا المستوى الرفيع، وتستمرّ البشريّة، كل ذلك يُنبئ عن القدرة الإلهيّة على كل شيء، ومنه إحياء الموتى، كما يوضّح الهدفيّة في هذا المسير.

آياتها ٣١

سورة الإنسان (٧٦)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

البسملة آية قرآنيّة رائعة، وهي جزء من السورة.

﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا ۝١ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ۝٢﴾ تساؤل تقريري يدفع الإنسان للتأمّل في ماضيه، وكيف منَّ الله عليه بخلقه من نطفة الرجل بما تحويه من (أمشاج) خليط عجيب، لينتقل من طور، إلى طور ماراً بمراحل التكامل، ليصل إلى مرحلة السمّع والبصر، ويصبح موجوداً معقّداً متكاملاً.

﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣﴾ ثمّ أعطاه الله القدرة العقليّة والإرادة الحرة، ليختار سبيل الهدى والشكر أو الضّلال والكفر، بعد أن هداه تكويناً وتشريعاً عبر الوحي.

﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَا وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا ۝٤﴾ أمّا الذين اختاروا طريق الكفر فأمامهم القيود والأغلال والنار.

﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝٥﴾ وأمّا الأبرار المهديّون فأمامهم الجنّة والخلود، والكؤوس بطعومها وروائحها الأخّاذة.

﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ۝٦﴾ إنّها من عين يرتوي منها عباد الله وتتفجّر أمامهم بماء غزير كلما أراد الأبرار ذلك.

﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ۝٧ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاء وَلَا شُكُورًا ۝٩ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ۝١٠﴾ وترسم هنا صفات هؤلاء الأبرار ـ والروايات تؤكّد نزول الآيات في عليّ وفاطمة والحسن والحسين: حينما نذروا وصاموا وتصدّقوا بإفطارهم[١]، وهي بالتالي جارية فيمن اقتدوا بهذا السلوك الحسن ـ فهم أهل الوفاء بما ينذرون وهم يخافون يوم القيامة وشرّه المتزايد، وهم يطعمون الطعام ـ رغم حاجتهم

١. تفسير فرات الكوفي، (ص ٥٢١)، تفسير الدر المنثور، (ج ٦، ص ٢٢٩)، العمدة لابن البطريق (ص ٣٤٦) شواهد التنزيل للحسكاني (ج ٢ ص ٣٠٧) تفسير القرطبي (ج ١٩ ص ١٣٠) الأمالي للطوسي (ص ٥٤٥)، تفسير القمي (ج ٢ ص ٣٩٨) وغيرها

ورغبتهم فيه ـ المسكين واليتيم والأسير، مؤكّدين أنّ القصد هو الحصول على رضا الله دون أن يقصدوا الأجر و الشكر ممن يحسنون إليهم، وإنّما هو الخوف من الله ويوم الحساب، بما فيه من عبوس وشدّة وصعوبة.

﴿فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾﴾ فكان جزاؤهم أن كفاهم الله شرّ ذلك اليوم، ومنحهم بهاءً ونضارة وسروراً وجنّة ولباساً من حرير، نتيجة إيمانهم وإخلاصهم ووفائهم وصبرهم الرائع.

﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾﴾ يتكئون فيها على الأرائك في جوّ ملائم بلا شمس حارقة ولا ريح قارصة (زمهرير)، وترفّرف عليهم الظلال، وتدنو إليهم الثمار الميسّرة المعدّة.

﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾﴾

وتطوف عليهم آنية الفضة وأكوابها وقواريرها الشفّافة اللامعة بحجوم رائعة، لكل منها مقدار معيّن، ممزوجة بشراب الزنجبيل، مأخوذة من عين تسمّى (سلسبيلاً)، فهي كاسمها عين رقراقة سائغة رائعة الطعم، ويحمل تلك الكؤوس غلمان مخلّدون دائمون في نظارتهم، يحسبهم الناظر لؤلؤاً متناثراً.

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاء وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾﴾ إنّه منظر رائع للجنّة: نعيم ما بعده تنعّم، وملك كبير لا يقاس إليه ملك، يعيش فيه الأبرار منعّمين بلباسهم الحريريّ الرقيق والسميك، وحليّهم وهي أساور من فضّة، وشرابهم الطاهر حقاً يسقون به من عند ربّهم. ويأتي الإعلان الكريم أنّ هذا هو الجزاء الأوفى على السعي المشكور.

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾﴾ ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾﴾ تأكيد مكرّر على تنزيل القرآن من

عند الله، ودفع للرسول للصبر والثبات على الخطّ ورفض خطّ الآثمين المجرمين الكافرين، وحثّ إلهيّ على الاعتصام بذكر الله بالغدوّ والعشيّ.

﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾﴾ ومواصلة للحثّ يأتي ذكر السجود والتسبيح لله المستمرّ في اللّيل الطويل، فهو أوقع في النفس.

﴿إِنَّ هَؤُلَاء يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾﴾ أمّا هؤلاء الذين انحرفوا فهم يركِّزون على الدنيا العاجلة والأهداف الضيّقة، وينسون الحياة الآخرة حياة الخلود والحساب الشديد.

﴿نَّحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾﴾ إنّهم يكفرون بنعم الله، إذ خلقهم وشدّ من أزرهم وربط أعضاءهم، ولو شاء لقضى عليهم واستبدل بهم غيرهم، فهم محكومون لقدرته.

﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاء اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَن يَشَاء اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾﴾ وإنّ هذه الآيات تذكّرهم بالحقيقة وتهزّ مشاعر من أراد أن يعرفها فيتّخذ إلى ربّه منهجاً وسبيلاً، وقد شاء الله أن يمتلكوا إرادة حرة في اختيار الطريق وإلا لما ملكوا حتّى هذه القدرة، إذ كل شيء في الكون يتمّ بإرادته وتحت سيطرته وعلمه وحكمته.

﴿يُدْخِلُ مَن يَشَاء فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣١﴾﴾ فهو يدخل من يشاء في رحمته ـ عندما تكون فيه أهليّة الشمول ـ ويوصل الظالمين إلى العذاب بعد أن اختاروا سبيل الضلال.

سورة المرسلات (٧٧)

آياتها ٥٠

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

البسملة آية قرآنيّة ذات معاني سامية وهي أوّل آية من السور القرآنيّة.

﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ﴿١﴾ فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا ﴿٢﴾ وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا ﴿٣﴾ فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا ﴿٤﴾ فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا ﴿٥﴾ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴿٦﴾﴾ قسم بأفواج الملائكة المرسلة بالتتابع، وسرعتها المذهلة كالعواصف ، ونشرها للصحف التي تحمل الوحي، ومعاييرها التي تميّز الحقّ من الباطل، وإلقائها الذكر الإلهيّ بإعذاره وإنذاره. وقيل: إن بعض المقسم به يشير إلى الرياح.

﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ ﴿٧﴾ فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ ﴿٨﴾ وَإِذَا السَّمَاء فُرِجَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴿١٠﴾﴾ كل ذلك القسم تأكيد على وقوع يوم القيامة الموعود به، وستسبقه علامات منها أن ينطفئ نور النجوم، وتتشقّق السماء، وتنفجر الجبال مما يعبّر عن تحوّل كونيّ هائل ومرعب.

﴿وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ ﴿١١﴾ لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴿١٢﴾ لِيَوْمِ الْفَصْلِ ﴿١٣﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ ﴿١٤﴾﴾ وحينئذ يحلّ موعد حضور الرسل المؤجّل ليوم الفصل بالحقّ.

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾ أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾﴾ ألا يعتبر هؤلاء بما حدث للأوّلين من الأمم من هلاك، وهو ما تكرّر في من جاءوا بعدهم لما كذّبوا، فكان ذلك جزاء لإجرامهم.

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾﴾ فالهلاك الهلاك يوم الدين للمكذّبين به.

﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاء مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَى قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ ﴿٢٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾﴾ ألا يلاحظ هؤلاء المكذّبون مراحل خلقة الإنسان وتجلّي قدرة الله فيها، إذ تبتدئ من نطفة قذرة مهينة توضع في مقرّ محصّن هو الرحم، وقد وفّرت له كل الضمانات التي تهيّئ لهذه النطفة وصولها إلى المراحل التالية المقدّرة بدقّة متناهية بآجال معلومة، إنّها قدرة الله الخارقة، فويل يوم القيامة للمكذّبين بها.

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَاء وَأَمْوَاتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاء فُرَاتًا ﴿٢٧﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾﴾ ثمّ ألا يلحظون كيف مهّدت الأرض بحيث تجمع الأحياء والأموات، فلا يؤثّر هؤلاء على هؤلاء، وكيف تتحرّك بحركتها المنظّمة بعد أن جعلت فيها

الجبال الثابتات العاليات، والتي تؤثّر في تكّون السحب التي تتحوّل إلى مياه عذبة تساهم أكبر مساهمة في حفظ حياة الإنسان، مما يكشف بوضوح عن النظام والهدفيّة ، فالهلاك يوم الدين للمكذّبين به.

﴿انطَلِقُوا إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ۝٢٩ انطَلِقُوا إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ ۝٣٠ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ ۝٣١ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ ۝٣٢ كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ ۝٣٣ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝٣٤﴾ فلينطلق هؤلاء هاربين من يوم الحساب ولكن إلى ظل كاذب ناتج من دخان جهنّم، له شعب ثلاث لا يمنع من الحرّ ولا يغني من اللّهيب، إنّها النار التي تبدو وكأنّها قصر ملتهب ، وألسنة اللهيب التي تبدو وكأنّها جمال صفراء ملتهبة. فالهلاك الهلاك يوم الدين للمكذّبين به.

﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ۝٣٥ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ۝٣٦ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝٣٧﴾ إنّه اليوم الذي لا يمكنهم فيه أن ينطقوا أو يعتذروا، فالهلاك يومئذ للمكذّبين.

﴿هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ ۝٣٨ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ۝٣٩ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝٤٠﴾ إنّه اليوم الذي يجمع فيه هؤلاء مع كل الأمم السّابقة، فهل يستطيعون فيه أن ينفّذوا مكائدهم؟ فويل يومئذ للمكذّبين بيوم الدين.

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ ۝٤١ وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ۝٤٢ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٤٣ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ۝٤٤ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝٤٥﴾ أمّا المتّقون فهم في ظلال صادقة وعيون دفّاقة بالخير، وفواكه كما تشتهي أنفسهم، ويقال لهم: أن كلوا وأشربوا هنيئاً نتيجة أعمالكم وجزاء لكم على إحسانكم، أمّا الهلاك والويل يومئذ فهو للمكذّبين بيوم الدين.

﴿كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ۝٤٦ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝٤٧﴾ نعم فليأكل المكذّبون وليتمتّعوا قليلاً في الدنيا، ولكنهم مجرمون يستحقّون الويل يوم الدين.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ ۝٤٨ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝٤٩﴾ إنّهم كانوا يدعون إلى الصّلاة فيرفضون ذلك، فويل لهم يوم الدين.

﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ۝٥٠﴾ إذا لم يؤمن هؤلاء عبر استماعهم لحديث القرآن القويّ النافذ، فهل يتوقّع أن يؤمنوا بأيّ حديث آخر؟

وتتابع التأكيد والتكرار للويل والهلاك يوم القيامة للمكذّبين، يخلق جوّاً من الرهبة والخوف، عساها تؤثّر في تلك القلوب المتوتّرة.

سورة النبإ (٧٨)

آياتها ٤٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تحدّثنا عن المعاني الرائعة التي تحملها البسملة، وقلنا إنّها أول آية من السورة القرآنيّة.

﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ۝١ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ۝٢ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ۝٣﴾ تساؤل من المشركين عن أمر عظيم يختلفون فيه، وكان الأجدر بهم أن لا يختلفوا فيه، وكل الشواهد تجيب عنه.

﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٤ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٥﴾ تأكيد مكرّر على الاستغراب من طرح هذا التساؤل.

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ۝٦﴾ إنَّ الكون يجيب بكل وضوح عليه، فهذه الأرض ألم يجعلها الله للإنسان ممهّدة معدّة لحركته ولزراعته ولحياته وكل ما يحقّق له استمرارها من ماء وهواء ورياح وحرارة وهدوء وغير ذلك، من شتى أنواع التّمهيدات،

﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝٧﴾ وهذه الجبال الضخمة التي تحقّق التوازن الأرضي والثبات، كالمسامير التي تتحكّم في السفينة، والتوازن الجوّي وغير ذلك،

﴿وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ۝٨﴾ وظاهرة الزوجيّة العامّة ـ كما يبدو من هذه الآية والآيات الأخرى بما تحمله من عطاء يديم المسيرة الحياتيّة.

﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۝٩ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ۝١٠ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ۝١١﴾ وظاهرة النوم بما تتركه من آثار إيجابيّة كبرى تتوقّف عليها الحياة، وتنسجم معها ظاهرة الليّل لباساً للنوم، وظاهرة النهار بخصائصها المنسجمة مع النشاط الإنسانيّ بما يستلزمه من نور وصحوة.

﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ۝١٢ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ۝١٣ وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ۝١٤ لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ۝١٥ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ۝١٦﴾ وهذه السماوات السبع التي تحكمها القوانين الصّارمة، وهذه الشّمس بما لها من عطاء عظيم له أثره في استمرار الحياة، وظاهرة السّحب في إطار حركة الماء العجيبة، حيث تؤدّي إلى مطر كثير يديم الحياة وينبت الحبَّ والنبات، والجنّات كثيفة الأشجار؟

﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا ۝١٧ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ۝١٨﴾ إنّ الصدفة مستحيلة، وكل هذه الظواهر العظيمة توضّح حقيقة النظام والهدفيّة فيه، وتستلزم الإيمان بالمعاد، حيث الفصل والحسم والحساب، ويبدأ حين ينفخ في البوق فيحشر النّاس أفواجاً.

﴿وَفُتِحَتِ السَّمَاء فَكَانَتْ أَبْوَابًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾﴾ وتسبقه إرهاصات، فأبواب السماء تفتح، وتتحوّل الجبال إلى سراب.

﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِلْطَّاغِينَ مَآبًا ﴿٢٢﴾ لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾﴾ وهناك جهنّم ترصّد العصاة، وتشكّل مأوى للطغاة ليبقوا فيها طويلاً، لا يجدون فيها ما يشبع عطشهم ويطفئ حرارتهم إلاّ السوائل الحارّة، وما يسيل من جسوم أهل النار.

﴿جَزَاء وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾﴾ إنّه الجزاء المطابق لعملهم بعد أن كانوا يرفضون يوم الحساب، ويكذّبون بآيات الله أي تكذيب

﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا ﴿٢٩﴾﴾ فكل شيء عملوه مدوّن في كتاب عند الله بكل دقّة.

﴿فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾﴾ إذن فلتذوقوا جزاءكم عذاباً بعده عذاب متزايد.

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾﴾ ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا ﴿٣٥﴾﴾ أما المتّقون فلهم الفوز العظيم: حدائق وأعناب، وفتيات ناهدات متماثلات، وكؤوس ملأى بما لذَّ وطاب دونما ضوضاء ولا لغو ولا حديث كاذب فارغ، ولا تكذيب ولا تشكيك في حديث الآخرين.

﴿جَزَاء مِّن رَّبِّكَ عَطَاء حِسَابًا ﴿٣٦﴾ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرحْمَنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾﴾ إنّه الجزاء الإلهيّ والعطاء المقدّر من ربّ الكون كله، الرحمان بكل شيء، والحاكم دون أن يسأل عن حكمه، فله الأمر والنهي يفعل ماشاء.

﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾﴾ إنّها العظمة الإلهيّة المتجلّية آنذاك، حيث تقف الملائكة والروح صفّاً واحداً لا يتكلّم أحد فيه إلاّ بإذن الله ناطقاً بالحقّ.

﴿ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَن شَاء اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ مَآبًا ﴿٣٩﴾﴾ إنّه يوم ظهور الحقيقة وانكشافها، وتصوّره يدفع الإنسان الواعي للإيمان واتّباع سبيل الله، والحصول على مأوى في كنفه.

﴿إِنَّا أَنذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا ﴿٤٠﴾﴾ إنّه الإنذار بالعذاب القريب ، والحساب الدقيق الذي يواجه الإنسان بكل ما عمله، فيتمنّى الكافر أن لو كان تراباً عدماً ولم يكن ليواجه هذا الموقف.

سورة النازعات (٧٩)

آياتها ٤٦

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تحدّثنا من قبل عن البسملة ومعانيها وجزئيّتها للسورة.

﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ۝١ وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا ۝٢ وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا ۝٣ فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا ۝٤ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ۝٥﴾ قسم بأنواع الملائكة ـ كما يظهر ـ التي تنزع الأرواح نزعاً مشدّدة مغرقة في النزع أو تغيّر الأمور تغييراً شديداً، والتي تنشط في تحريك الكون، والتي تسبح فيه وتمخر عبابه، والتي تسبق وتتسابق في تنفيذ الأوامر والتي تدبّر الكون وأموره.

﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ۝٦ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ۝٧ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ۝٨ أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ ۝٩﴾ إنّه لقسم عظيم على وقوع يوم عظيم هو يوم القيامة، إذ تسبقه رجفة كونيّة هائلة، تتبعها رجفة أخرى، فتترك القلوب في وجوم واضطراب عجيب، والأبصار في خشوع رهيب.

﴿يَقُولُونَ أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ ۝١٠ أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً ۝١١﴾ إنّ هؤلاء السفهاء يصعب عليهم الإيمان بهذا اليوم، فكيف يمكن أن يعودوا بعد الموت والإقبار، وبعد تحوّلهم إلى عظام منخورة متفتّتة إلى الحياة؟

﴿قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ۝١٢﴾ إنّها عودة خاسرة بلا ريب.

﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ۝١٣ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ ۝١٤﴾ ولكن الحقيقة أنّ صرخة إلهيّة واحدة كافية، لإخراجهم من بطن الأرض إلى سطحها.

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ۝١٥﴾ إشارة تناسب المقام إلى قصّة موسى.

﴿إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ۝١٦ اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ۝١٧ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَى أَن تَزَكَّى ۝١٨ وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى ۝١٩﴾ فقد كلّفه الله في الوادي المقدّس (طوى) بالذهاب إلى فرعون ليكبح طغيانه ويدعوه للاهتداء إلى الله وخشيته، فهي وسيلة التزكية.

﴿فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى ۝٢٠ فَكَذَّبَ وَعَصَى ۝٢١﴾ وبطبيعة الحال طرح موسى برهانه على صدق رسالته، وهي عصاه التي تحوّلت بقدرة الله إلى ثعبان، وسائر معاجزه، ولكنّ فرعون كذّب وعصى أمر الله.

﴿ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَى ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴿٢٤﴾﴾ وراح يسعى بكل دهائه ليقف بوجه الدعوة، وجمع جماهير النّاس ونادى فيهم بأنّه الربّ الأعلى، فغرّته جماهيره وتصوّر نفسه الإله الأكبر وما هو إلاّ المخلوق الضعيف.

﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَى ﴿٢٦﴾﴾ فأخذته يد القدرة الإلهيّة وعذّبته عذاب الآخرة والدنيا، فتركته عبرة وذكرى لمن شاء أن يتذكّر ويعتبر ويخشى قدرة الله وغضبه.

﴿أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاء بَنَاهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴿٢٩﴾﴾ يتوجّه الخطاب بعد هذا للمشركين المستكبرين، مذكراً إيّاهم بمظاهر القدرة الإلهيّة عليهم، فإنّه خلق الأشدّ خلقاً منهم، إنّه خلق هذا الكون الواسع وهذه السماء التي بناها وأحكم مداراتها ورفع قامتها (سمكها) فسواها أروع تسوية بما فيها من قوانين وما تنتجه حركتها من ليل مظلم (أغطش) ونهار مشرق بترتيب دقيق مدهش.

﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءهَا وَمَرْعَاهَا ﴿٣١﴾ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ﴿٣٢﴾ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴿٣٣﴾﴾ وهذه الأرض التي مدّها ومهّدها للإنسان بما يخرج منها من ماء ونبات يتغذّى منه الإنسان ويحيا، وما فيها من جبال تحفظ توازنها، كل ذلك ليتمتّع الإنسان وتحيا الأنعام لصالحه هو.

﴿فَإِذَا جَاءتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ مَا سَعَى ﴿٣٥﴾﴾ كل تلك الظواهر تبيّن قدرة الله وحكمته والهدفيّة في الكون وتؤدّي للإيمان بالآخرة، حيث الحادثة التي تغطي كل شيء وتعلوه، فإذا جاءت ذكّرت الإنسان بالحقيقة وعرّفته ما صدر منه تماماً.

﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَى ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَن طَغَى ﴿٣٧﴾ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى ﴿٣٩﴾﴾ وبرّزت النار الضخمة للرائين، وهي تدعو إليها الطاغين الذين اختاروا الدنيا واللذات الزائلة فيها فعادت الجحيم مأواهم.

﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴿٤١﴾﴾ وفي قبال الطاغين المنكوبين يأتي ذكر الخائفين من عظمة ربّهم، الناهين أنفسهم عن اتّباع الهوى، حيث سيحصلون على الجنّة كأروع مأوى.

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا (٤٢) فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا (٤٣) إِلَى رَبِّكَ مُنتَهَاهَا (٤٤) إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا (٤٥) كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا (٤٦)﴾ وإذا كان المشركون يتساءلون عن القيامة ومتى تكون، فإنّه يقال لهم: وما فائدة أن تعلموا ذلك، فإن علمها عند الله، والمهمّ أن يؤثّر فيهم الإنذار فيتذكّروا ويخشوا ربّهم، إنّهم حين يرونها يبدون وكأنهم يتصوّرون أنّ حياتهم الدنيا ليست في قبال الآخرة إلا مجرّد ليلة واحدة أو صباحها.

آياتها ٤٢

سورة عبس (٨٠)

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ذكرنا من قبل أنّ البسملة آية تلخص التصوّر القرآنيّ عن الكون.

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى ﴿١﴾ أَن جَاءهُ الْأَعْمَى ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَى ﴿٤﴾﴾ جاء في بعض التفاسير أنّ هذه الآية نزلت تعاتب النبيّ عندما كان منشغلاً بدعوة كبار المشركين، فجاءه الأعمى يسأله فعبس في وجهه. وقيل ـ وهو الأرجح ـ: نزلت في رجل من بني أميّة كان عند النبيّ فجاء ابن أم مكتوم وكان أعمى فلما رآه تقذّر منه وجمع نفسه وعبس، فجاءت الآية تنكر عليه وتؤكّد أنّ الأعمى ربما كان قد جاء لاكتساب العلم وتزكية النفس وتذكيرها، فيجب الاحتفاء به لا العبوس.

﴿أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّى ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى ﴿٧﴾﴾ أمّا المتكبّر المدعي للاستغناء فإن التصدّي والإقبال عليه حرصاً على أن يهتدي أمر صحيح، ولكن لا داعي للإصرار، فإنّه إن بقي على موقفه أضرَّ بنفسه وليس عليك شيء.

﴿وَأَمَّا مَن جَاءكَ يَسْعَى ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَى ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّى ﴿١٠﴾﴾ أمّا من جاء يسعى للحصول على ما يحقّق به خشيته ويزكّي نفسه، فيجب الاهتمام به وعدم التلهّي عنه.

﴿كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَاء ذَكَرَهُ ﴿١٢﴾ فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾﴾ كلاّ، لا داعي للعبوس والاهتمام الزائد بالمستكبرين، فالقرآن تذكرة وموعظة بيّنة مفتوحة للجميع، إن شاؤوا أن يتّعظوا، محفوظة في كتابات كريمة القدر، بعيدة عن الباطل، يحملها سفراءكرام أبرار.

﴿قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ﴿١٧﴾ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ﴿١٩﴾ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ﴿٢٠﴾﴾ نفور قرآنيّ شديد من الإنسان المتكبّر على ربّه أو من الإنسان بطبعه ، إنّه كفر عظيم أن ينسى الإنسان خلقته ونشوءه من نطفة مهينة، هيّئها الله لتصل بتقدير دقيق إلى هذا المستوى الرفيع، ثمّ منّ عليه بأن أراه منهجه الدقيق إلى السعادة، وأعطاه الإمكانات التي توصله إليها.

﴿ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَاء أَنشَرَهُ ﴿٢٢﴾﴾ وهكذا لتستمرّ الحياة إلى الموت، وبالتالي إلى النشور والحساب بأمره تعالى، تحقيقاً لمقتضيات الهدفيّة.

﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ ﴿٢٣﴾﴾ إنّ الإنسان مازال لم يحقّق هدفه الحقيقيّ الذي أمره الله به.

﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاء صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴿٣٢﴾﴾ ألا ينظر إلى طعامه ونوع احتياجاته الجسميّة وانسجامها مع مافي الطبيعة، والماء الذي صبّه الله صبّاً، واستعداد الأرض لتقبّله، ثمّ إنتاج الحبّ والعنب والبقول الطريّة والزيتون والنخل والحدائق كثيفة الأشجار والفواكه والكلأ، بما يتمتّع به الإنسان والحيوان. إنّ الصدفة في اجتماع هذه الظواهر في خدمة الحياة، تدرك الفطرة استحالتها، فكيف يكفر الإنسان بالخالق المنظم؟

﴿فَإِذَا جَاءتِ الصَّاخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾ ولكنّ يوم الحساب قادم، عندما تنطلق الصيحة الهائلة، فحينئذ يفرّ الإنسان من أخيه وأمّه وأبيه وزوجته وبنيه؛ لأنّ لكلّ منهم ما ينشغل به من هموم.

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُوْلَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾﴾ وتختلف الوجوه، فهذه نيّرة ضاحكة مستبشرة، وتلك يعلوها الكدر والاكتئاب، إنّها وجوه الكفرة الفجرة.

سورة التكوير (٨١)

آياتها ٢٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تحدّثنا من قبل عن البسملة.

﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ① وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ ② وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ③ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ④ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ⑤ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ⑥﴾ تذكر السورة أشراط الساعة وإرهاصاتها، بتتابع يأخذ بمجامع القلوب، إذ تتكوّر الشمس وتلتفّ حول نفسها وينطفئ وهجها، وتنكدر النجوم وتتغيّر أو تتناثر، وتهيم الوحوش وتترك جحورها، وتتفجَّر البحار ناراً.

﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ⑦ وَإِذَا الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ ⑧ بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ ⑨ وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ ⑩ وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ ⑪﴾ وتزوج النفوس وتجمّع الأرواح المتقاربة، وتسأل البنت المدفونة حيّة ـ كما كان يفعل بعض جهلة العرب ـ عن ذنبها الذي استدعى ذلك (والتركيز عليها هنا رفض شديد لهذه العادة الجاهليّة) وتنشر صحف الأعمال، وتطوى السماء وتتشقّق.

﴿وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ⑫ وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ⑬﴾ وتتأجّج النار، وتزيّن الجنّة استعداداً لأهلها.

﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ ⑭﴾ وحينئذ يتمّ الحساب وتعلم النفوس بما قدّمته للقيامة وما أخّرته من نصيب.

﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ ⑮ الْجَوَارِ الْكُنَّسِ ⑯ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ⑰ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ⑱﴾ قسم بالكواكب الجارية تظهر وتختفي كما تأوي الطيور إلى أعشاشها (كناسها)، والليل المعسعس أي المقبل والمدبر، والصبح الحيّ المتنفّس ضياءً وحركة، وكلها مظاهر كونيّة رائعة وآيات جماليّة أخّاذة، تشعر بألطاف الله ونعمه.

﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ⑲ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ⑳ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ㉑﴾ قسم بتلك الظواهر ونظمها وجمالها، على أنّ هذا القرآن قول لرسول كريم هو جبرئيل يبلّغه عن الله، وهو ذو مقام منيع عنده، مطاع هناك من قبل الملائكة، أمين على وحي الله.

﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾﴾ إن صاحبكم النبيّ الذي عاش معكم ورأيتم رجاحة عقله وأمانته ليس مجنوناً ولا متوهّماً.

﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ ﴿٢٣﴾﴾ بل رأى جبرئيل بكل وضوح ويقين ، رآه بالأفق الواضح البيّن.

﴿وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾﴾ إنّ النبيّ لا يبخل ولا يقصّر في حمله للوحي، بل يؤدّيه بكل أمانة ودقّة ووضوح.

﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ﴿٢٥﴾ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾﴾ إنّه قول الله العظيم لا إلقاء من شيطان رجيم ـ كما يزعمون ـ فأين تسير بهم الظنون؟

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾ إنّه تنبيه وذكر ورسالة للعالمين (تلاحظ هنا الصّفة العالميّة منذ انطلاق الرسالة).

﴿لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾﴾ إنّه هدى لكل من أراد أن يستقيم على خطّ الإنسانيّة المتكامل.

﴿وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ هكذا شاءت الإرادة الإلهيّة أن يكون الإنسان حراً في اختياره، وبدون إرادته ـ تعالى ـ لا يتحقّق شيء في الوجود.

سورة الإنفطار (٨٢) آياتها ١٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تحدّثنا من ذي قبل عن البسملة وجزئيّتها للسّورة.

﴿إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴿٤﴾﴾ تتحدّث السورة عن علامات يوم القيامة وأشراطه ومنها: انشقاق السماء وتناثر الكواكب، وانفجار البحار، وتبعثر القبور وانقلابها.

﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾﴾ يوم القيامة تعلم النفوس بشكل تامّ ما قدَّمت للآخرة من خير و ما أخّرت من أعمال الشرّ، ففقدت نصيبها من الحسنات.

﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴿٦﴾ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾﴾ عتاب ودعوة للإنسان للتأمّل في نعم الله وكرمه العميم، إنّه منَّ عليه بالوجود وسوّاه بشكل متعادل إنسانا يملك كل فضائل الموجود السويّ المتوازن. ويكتشف العلم يوماً بعد يوم جوانب العظمة والقوانين المعقّدة في التركيبة الإنسانيّة ومدى انسجامها مع القوانين الكونية. وتركيبة الإنسان تكشف عن عظمة هدفه: فهناك الجانب الفطريّ بمكوّناته العقليّة والعاطفيّة والغريزيّة والإراديّة، وكلها تصنع السلوك السويّ المتعادل، ليقوم بواجب الخلافة الإلهيّة.

﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ ﴿٩﴾﴾ لكنّ البعض بدلاً من الشكر يتّجه إلى الكفر والتكذيب بنظام الكون وهدفيّته والقيامة.

﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾ وحينئذ فليعلم أنّه مراقب تماماً بملائكة كرام عند الله، يسجّلون كل حركة وسكنة.

﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ﴿١٦﴾﴾ وهناك في يوم القيامة ينقسم الصفّان، فالأبرار إلى النعيم، والفجّار إلى الجحيم يصلونها ويبتلون بحرارتها باستمرار، وخلود دون أن يغيبوا عنها لحظة واحدة.

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾﴾ إنّ يوم الدين يوم هائل لا يدرك أحد هوله، إنّه اليوم الذي تتقطّع فيه الأسباب. وتنشغل فيه النفوس بشأنها، فلا تنفع غيرها، والأمر كل الأمر يبقى لله لا غير، متجلّياً ذلك للجميع.

سورة المطففين (٨٣)

آياتها ٣٦

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مرّبنا الحديث عن البسملة.

﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُواْ عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾﴾ الويل والهلاك للذين ينقصون الكيل والميزان، إنّها سرقة واعتداء على الآخرين عند دفع الحقوق إليهم، في حين أنّهم يستوفون كل مالهم عندما يأخذون حقوقهم.

﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾﴾ إنّ هذا السلوك المفسد يكشف عن عدم إيمان بيوم الحساب الدقيق عند البعث يوم القيامة، وعدم تصوّر لعظمة ذلك اليوم، حيث تقف الخلائق مكشوفة أمام خالقها العظيم.

﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ ﴿٧﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾﴾ إنّ هؤلاء المعتدين على الحقوق خرجوا على المسيرة الطبيعيّة ففجروا، ولذا كتب عليهم أن يكونوا مسجونين في مكان متسافل شديد الهول، يعبّر عنه القرآن بقوله: ﴿وما أدراك ما سجين﴾.

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿١١﴾ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾﴾ فالويل والهلاك للمكذّبين بحقيقة كبرى هي يوم الحساب، إذ لا يكذّب بها إلاّ كل من تجاوز وعيه وخالف فطرته وغرق في انحرافه وفسوقه، وراح ينكر آيات الله البيّنات، ويصفها بأنّها خرافات السابقين.

﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ ولكنّها في الواقع مواقف ناتجة من صدأ القلوب وعماها، وابتعادها عن نداء الفطرة الصافية، نتيجة آثار تركتها الأعمال الإجراميّة اللاّإنسانيّة السيّئة.

﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾﴾ فحجبهم ذلك الصدأ عن رؤية ربّهم في مسيرتهم الدنيويّة، مما أدّى لعدم رؤية مظاهر الجلال والجمال وحجبهم عنها في الآخرة.

﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُو الْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾﴾ إنّهم سيعذّبون بنار حامية، ويقال لهم تبكيتاً هذا ما كنتم به تكذّبون.

﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾﴾ وفي قبال مصير الفجّار يكتب الله للأبرار أن يكونوا في محلّ متعال، يحضره المقرّبون إلى الله، فهم في نعيم خالد وراحة وانفتاح على الجمال بكل معانيه، تعلو وجوههم النضارة والبهجة والإشراق، ويسقون شراباً صافياً رقراقاً لم يصبه لوث ولا قذر.

﴿خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴿٢٦﴾﴾ إنه يختم بالمسك الأصيل، فيحمل رائحته وخاصّيّته، فما أروع هذه الجائزة الإلهيّة وهذا النعيم الخالد الذي يمثل غاية ما يمكن أن يتمنّاه بشر، فليتنافس لأجله المتنافسون.

﴿وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ إنه ممزوج بماء ينبع من (تسنيم) وهي عين في الجنّة يشرب منها المقرّبون.

﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُواْ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا انقَلَبُواْ إِلَى أَهْلِهِمُ انقَلَبُواْ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ ﴿٣٣﴾﴾ لقد كان المجرمون يسخرون من المؤمنين ويشيرون إليهم بأعينهم، استحقاراً ومهانة، لينطلقوا إلى عشيرتهم متفكّهين بغمزهم ولمزهم والتندّر بأحاديثهم، إنّهم يتّهمونهم بالضلال والعمى والتخلّف، وهي صفات المجرمين أنفسهم، وما كان لهم ذلك ولم يكلّفوا بتقييمهم من قبل أحد.

﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُواْ مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾﴾ أمّا يوم القيامة فإن الأمور ستنعكس، فالضاحكون من الكفّار هم المؤمنون، وحقّ لهم أن يستهزئوا بهم.

﴿عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾ إنّهم يستمتعون بكل مظاهر الراحة، متّكئين على أرائكهم، يجولون بأنظارهم ويبصرون مصائر الكفّار البئيسة نتيجة أفعالهم.

سورة الإنشقاق (٨٤) آياتها ٢٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تحدّثنا عن البسملة وأنّها جزء السورة.

﴿إِذَا السَّمَاء انشَقَّتْ ﴿١﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴿٤﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٥﴾﴾ من أشراط الساعة أن تنشقّ السماء مستسلمة لربّها العظيم حقاً، وأن تمتدّ الأرض وتتّسع وتتغيّر قوانينها، وتلقي ما بداخلها من خلائق مدفونة ومعادن مكنونة، مستسلمة حقاً لربّها طائعة مذعنة.

﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ ﴿٦﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿٩﴾﴾ نعم ليعرف الإنسان بوضوح أنّ الله أراد له أن يسير بقوّة واندفاع ومعاناة، وتعبر أجياله التاريخ ويحقّق هدف خلقته وهو المجتمع العابد لله، فهو قمة كماله وقربه من الله الكامل المطلق، ثمّ يعود إلى الله ليحاسبه، فأمّا العاملون بأوامر الله ممّن يحملون كتابهم بأيمانهم فسوف يلقون الحساب اليسير، وينقلبون إلى أقرانهم وأهلهم في سرور.

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاء ظَهْرِهِ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَى سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَى إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا ﴿١٥﴾﴾ وأمّا الذين يؤتون كتابهم من وراء ظهورهم فليس لهم إلاّ الصراخ والعويل والثبور ودخول النار، بعد أن كانوا مسرورين في أهلهم في الدنيا، يظنّون أنّهم خالدون في ذلك، فليخوضوا إذن في الانحراف، ولكنّهم كانوا ينسون أنّ عين الله تراقبهم بدقّة.

﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾﴾ إنّه قسم بالشفق وهو الأفق الممتدّ للناظر بعد الغروب، وبالليل بكل ما يحمله من أسرار وعوالم، وبالقمر عند ما يكتمل ، قسم على أنّ المسيرة الإنسانيّة ستتقلّب في أحوالها، وستلاقي صنوف الأوضاع لتصل إلى نهايتها المحتومة عند ربّها.

﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ﴿٢١﴾﴾ (سجدة مستحبة)

عجباً كيف لا تؤثّر هذه الآيات العظيمة في هؤلاء إيماناً وطاعة، وكيف لا يسجدون وهم يستمعون إلى القرآن العظيم بكل ما يعبّر عنه من جلال وعظمة.

﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾﴾ كلاّ، إنّهم فقدوا الحسّ الإنسانيّ المطلوب، وعادوا يكذّبون بالحقيقة مهما كانت واضحة، والله أعلم بما تشتمل عليه صدورهم، فليبشروا ـ تبكيتاً ـ بعذاب أليم.

﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٢٥﴾﴾ أمّا المؤمنون العاملون للصّالحات فلهم الأجر غير المنقطع.

سورة البروج (٨٥)

آياتها ٢٢

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

البسملة تحمل معاني رائعة وتلخّص التصوّر الإسلاميّ للحياة، وهي جزء من السورة.

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ۝١ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ۝٢ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۝٣﴾ قسم ببروج السّماء، وهي مدارات الكواكب في السماء، وبيوم القيامة الموعود وما يقع فيه من حوادث ضخمة ومواقف للشهود، وفي طليعتهم الأنبياء والمشهود عليهم وهم الخلائق.

﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ۝٤ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ۝٥ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝٦ وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝٧ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ۝٨ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝٩﴾ بعد القسم يأتي المقسم عليه، وهو انتقام الله من الذين يوقعون المؤمنين والمؤمنات في الفتنة. وهنا تذكر قصّة أصحاب الأخدود، وهم فئة من المؤمنين عرض عليهم أن يخرجوا عن دينهم فرفضوا، فحفرت لهم حفيرة (أخدود) وأضرمت فيها النار وألقوا فيها، والظالمون قعود يتفرّجون عليهم شاهدين لعذابهم، ولم تكن نقمتهم عليهم إلاّ لإيمانهم بالله، والله هو ذو العزّة والحمد والملك في الكون كله، وهو الشهيد القائم عليه.

وهذه القصّة بقدر تعبيرها عن وحشيّة الظالمين تعبّر عن صمود المؤمنين بوجه الفتنة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ۝١٠﴾ تهديد شديد لأولئك الذين يفتنون المؤمنين والمؤمنات إمّا بالمكر والخديعة أو بالتخويف والعذاب، ولم يرعووا عن غيّهم ويتوبوا إلى الله بأنهم سيبتلون بألوان العذاب، ومنها عذاب الحريق الذي يهدّدون به المؤمنين.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ۝١١﴾ أمّا المؤمنون العاملون للصّالحات فأمامهم الجنّات التي تجري من تحتها الأنهار، وهو أعظم فوز يمكن أن يتمنّاه إنسان.

﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ۝١٢ إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ۝١٣ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ۝١٤ ذُو

الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾ إنّ الإنسان يجب أن يعيش بين الخوف والرجاء، بعد أن يؤمن بأنّ عذاب الله شديد، إذ بيده القدرة المطلقة في الكون كله، وله العظمة كلها ولا يصعب عليه ولا يمنع منه أحد، كما أنّه هو الغفور الودود الرحيم المتودّد لعباده.

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾﴾ وليعتبر المعتبرون بحديث جنود الشيطان والطغيان في قصّة فرعون وثمود، إذ أخذهم الله أخذ عزيز مقتدر.

﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ ﴿٢٠﴾﴾ إنّ المشركين إذ يكذّبون برسالة الرسول، يجب أن يدركوا أنّ الله بهم محيط، وأنّ عذابه شديد شديد.

﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴿٢٢﴾﴾ فليعودوا إلى رشدهم، وليتأمّلوا في هذا القرآن الرفيع في أسلوبه وفي معانيه الخالدة والرفيع في مكانته، إنّه في لوح مصون من الباطل.

سورة الطارق (٨٦)

آياتها ١٧

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مرّ بنا الحديث عن البسملة.

﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ۝١ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ۝٢ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ۝٣ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ۝٤﴾ قسم قرآنيّ مؤكّد بالسماء وبالنجم الذي يظهر ليلاً، ويثقب ستر الظلام، على أنّ هناك رقيباً على كل فردّ يراقب مسيرته، ويسجّل حركاته وسكناته. وربما كان يحافظ عليه، مما يترك الإنسان يشعر دائماً بالمسؤوليّة.

﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ۝٧﴾ فليتأمّل الإنسان في خلقه وكيف بدأ؟ أنّه بدأ من ماء متدفّق خرج من بين صلب الرجل (عظام ظهره) وترائبه (عظام صدره) ليجتمع مع بييضة المرأة في الرحم.

﴿إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ۝٨ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ۝٩ فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ۝١٠﴾ إنّ الذي منحه الوجود وطوّره حتّى أوصله إلى هذا المستوى قادر تماماً على إرجاعه بعد الموت، وبعثه يوم الحساب يوم تمتحن النفوس وينكشف ما أخفته من أسرار فتعلن أمام الخلق، وحينئذ يجد الإنسان نفسه وحيداً لا تسنده قوّة ولا ناصر ولا معين.

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ۝١١ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ۝١٢ إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ۝١٣ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ۝١٤﴾ إعادة القسم بالسماء ذات الظواهر المتتابعة كالمطر والبرق والرعد، وبالأرض ذات القابليّة للتصدّع، وبالتالي الإنبات وهي ظواهر تحيي الإنسان، للتأكيد على أنّ هذا القرآن وحقيقة البعث هو القول الحقّ الفاصل بلا مراء ولا هزل ولا باطل.

﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝١٥ وَأَكِيدُ كَيْدًا ۝١٦ فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ۝١٧﴾ إنّ الكفّار يكيدون ويتذرّعون لإنكار المعاد، والدعوة، ولكن كيد الله فوقهم، وسيعطون فرصة ثمّ يساقون للعذاب.

سورة الأعلى (٨٧)

آياتها ١٩

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تحدّثنا من قبل عن البسملة.

﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ۝١ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ۝٢﴾ أمر للنبيّ بتنزيه ربّه الذي يعلو على كل ماعداه ويتنزّه عن كل نقص، إنّه خالق كل شيء بأروع صورة.

﴿وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ۝٣ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى ۝٤ فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى ۝٥﴾ والذي وضع كل شيء في محلّه بقدره، وهدى الكل إلى هدف خلقته، والذي أخرج الزرع الذي ترعاه الأنعام ليتحوّل بعد ذلك إلى نبات يابس أسود، وهكذا تستمرّ مسيرة الحياة.

﴿سَنُقْرِؤُكَ فَلَا تَنسَى ۝٦ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى ۝٧﴾ إنّ الله يتكفّل للنبيّ أن يقرئه القرآن فلا ينساه، وتبقى إرادة الله مطلقة، وهو العالم بالأمور الظاهرة والخفيّة.

﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى ۝٨ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى ۝٩ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَى ۝١٠ وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى ۝١١ الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى ۝١٢ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى ۝١٣﴾ كما تكفّل له أن ييسّر له مسيرته الدعويّة، فلينطلق فيها وليتذكّر من تذكّر وهو من يخشى عذاب الله، أما الأشقى التعيس فهو من يعرض عنها، فيعرّض نفسه للهيب النار الكبرى، حيث يبقى خالداً لا هو بميّت ولا حيّ.

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى ۝١٤ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ۝١٥﴾ إنّ السعادة والفلاح الإنسانيّ يكمنان في تزكية النفس، وذكر الله والصلاة الخاشعة.

﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۝١٦ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ۝١٧﴾ إلاّ أنّ البعض تغلبهم نزعاتهم ولذائذهم المادّيّة الدنيويّة فيقدّمونها على عطاء الآخرة، وهو خير وأكثر بقاءً.

﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى ۝١٨ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ۝١٩﴾ إنّها حقيقة بشرّ بها الأنبياء وكتبهم ومنها كتب إبراهيم وموسى.

سورة الغاشية (٨٨) آياتها ٢٦

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قلنا إنّ البسملة آية قرآنيّة تبدأ بها السورة.

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ۝١﴾ تساؤل لغرض التهويل عن الحادثة التي تحيط الجميع بالرهبة.

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ۝٢ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝٣ تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً ۝٤ تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ ۝٥ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ۝٦ لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ ۝٧﴾ فحينئذ تجد بعض الوجوه ذليلة خاسرة لسعيها متعبة، تواجه ناراً ملتهبة، وتشرب ماء حاراً لاسعاً، وتأكل طعاماً جهنّمياً خبيثاً سامّاً لا فائدة فيه ولا يسدّ الجوع.

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ۝٨ لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ۝٩ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝١٠ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً ۝١١ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ۝١٢ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ۝١٣ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ۝١٤ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ۝١٥ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ۝١٦﴾ و وجوهاً على النقيض ناعمة رضيت سعيها فنالت جنّة سامية بلا لغو بل هي التمتّع كله بالجمال، حيث الماء الجاري، والأسرّة المرتفعة، والأكواب المنظّمة المعدّة للشراب، والوسائد المصفوفة الجميلة، والبسط المبسوطة وكلها تريح النفس.

﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝١٧ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۝١٨ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۝١٩ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ۝٢٠﴾ إنّ هذا الكون مملوء من مظاهر النظام: فهذه الإبل وما تتمتّع به من طاقات عجيبة ـ وللإبل بالخصوص آنذاك موقع مميّز يعيشونه عن قرب ـ وهذه السماء بقوانينها وظواهرها، وهذه الجبال وارتفاعها وآثارها على حياة الإنسان، وهذه الأرض مهّدت غاية تمهيد لتنسجم مع حياته، كل ذلك يشير إلى المنظّم الحكيم، فالصدفة محال بالفطرة، ولا يمكن أن تجتمع هذه الملايين من الظواهر لتخدم الحياة دونما منظّم.

﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝٢١ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ۝٢٢﴾ وما على الرسول إلاّ أن ينبّه الإنسان إلى هذه الحقائق ليخرج عن غفلته، فلا إكراه ولا جبر على العقيدة. بل يجب ان يفكّر بنفسه، ويصل إلى النتيجة المطلوبة بعد تعقّل وتأمّل مهتدياً بأقوال الرسول مستجيباً لنداء

الفطرة. إنّ العقيدة لا يمكن فرضها بالقوّة بل يجب أن تقتنع النفس بها، ثم يتحوّل هذا الاقتناع إلى إيمان يملأ الوجدان ويحرّك المشاعر.

﴿إِلَّا مَن تَوَلَّى وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴿٢٦﴾﴾ أمّا المعرضون الكافرون فأمامهم العذاب المهول، بعد أن يعودوا إلى الله ويواجهوا الحساب الإلهيّ العسير، لإنهم أهملوا طاقاتهم وفرّطوا بعقولهم، وتولوا كافرين.

سورة الفجر (٨٩)

آياتها ٣٠

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قلنا من قبل إنّ البسملة آية قرآنيّة تلخّص التصوّر القرآنيّ للكون.

﴿وَالْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ۝٣ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ۝٤ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ۝٥﴾ قسم بظاهرة الفجر، وبالليّالي العشر الأولى من ذي الحجّة، وقيل: العشر الأواخر من رمضان. وقيل: الليالي العشر الأولى من محرم[1]. بما تحملها جميعاً من دلالات، وبالأعداد زوجها وفردها لما فيها من ضبط للأمور أو بعض أعداد الصلوات أو الأيّام أو الأماكن، وبظاهرة الليل حيث تسري في الكون فتنشر عطاءها، وجواب القسم محذوف يعرف من ما يأتي وهو تعذيب الطغاة. فكل أنماط القسم هذه تثير ذوي الألباب للإيمان بهذه الحقيقة وتجنّب الطغيان.

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝٧ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ۝٨ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ۝٩ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ۝١٠ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ۝١١ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ۝١٢ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝١٣ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ۝١٤﴾ إنّ التأمّل في قصّة عاد إرم الأولى، حيث كانت تسكن «الأحقاف» في جنوب الجزيرة العربيّة، وكانت أقوى قبيلة وأكثرها تحضّراً وأقواها بناءً، وكذلك في حال «ثمود» التي سكنت شمال الجزيرة ببيوت صخريّة منيعة، وحال «فرعون» الساكن الى الجانب الغربي المتجبّر المعذّب لخصومه بالصلب وشدّ الأطراف بالمسامير، إنّ التأمّل في مصير كل هؤلاء الطغاة المفسدين، وكيف نالتهم يد القدرة الإلهيّة فصبّت عليهم سياط العذاب بعد أن رصدت كل أعمالهم، يقود الإنسان إلى الحقيقة.

﴿فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ۝١٥ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ۝١٦﴾ هكذا هو الإنسان، فإذا امتحنه ربّه وأكرمه بالنعم راح يعتبر ذلك اصطفاء له وهو امتحان، أمّا إذا ضيّق عليه رزقه امتحاناً أيضاً، فإنّه

---

١. تفسير الميزان، ج ٢٠، ص ٢٧٩.

يعتبر ذلك إهانة له. والحقيقة هي كيفية أداء الإمتحان، والقيام بمستلزمات العطاء أو المنّع وفقاً للهدى الإلهيّ.

﴿كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾﴾ إنّ عدم إكرام اليتيم، وعدم التأكيد على إطعام المسكين يعني فقدان التكافل والرحمة، كما أن التهافت على جمع المال طيّباً أو خبيثاً بحقّ أو دون حقّ حبّاً وولهاً في جمعه، يعبّر عن حرص وطمع أعمى بعيد عن الإنسانيّة السليمة الملتزمة، وطغيان على الفطرة.

﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾﴾ إنّهم سيدركون الحقيقة حين تحطّم معالم الأرض وتقوم القيامة وتتجلّى مظاهر القدرة الإلهيّة كاصطفاف الملائكة، وظهور جهنّم بكل هولها، نعم يومئذ سيدرك الإنسان الحقيقة ويعود إلى رشده، ولكن بعد فوات الأوان.

﴿يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴿٢٤﴾﴾ يومئذ يتحسّر ويتأوّه ويتمنّى أن لو كان قدّم لنفسه هو ما يسعدها في الآخرة.

﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾﴾ ولكنّ الواقع أنّ عليه أن يتحمّل عذابه وقيوده وقلقه لوحده دونما نصير.

﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ﴿٢٩﴾ وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴿٣٠﴾﴾ في حين يأتي النداء الرحيم للنفوس التي اطمأنّت لربّها وربطت نفسها بالمطلق وأطاعته أن ترجع إلى عطاء ربّها، وتدخل في مسيرة عباد الله وجنّة الله الخالدة.

سورة البلد (٩٠) آياتها ٢٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ذكرنا معنى آية البسملة التي تبدأ بها السورة.

﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ① وَأَنتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ ② وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ③ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ ④﴾ قسم بمكّة المكرّمة بما فيها من إيحاءات معنويّة وتاريخيّة، خصوصاً مع وجود النبيّ الكريم فيها، وبعملية التوالد واستمرار الإنسانيّة لتحقّق هدف الخلقة الإنسانيّة الكبير، قسم على أنّ الإنسان لم يخلق للرّاحة والبطر، بل خلق في كدّ وتعب ونشاط مستمرّ لتحقيق هدفه.

﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ⑤ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ⑥ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ ⑦﴾ فيجب أن يبتعد عن السرف والبطر والتكبّر، ولا يظن أنّه أقدر موجود على صنع مستقبله، مدّعياً أنّه أنفق الكثير من ماله ليحصل على ماحصل عليه، ظاناً أنّه فعل ذلك بقدرته دون أن يراه أو يرعاه أحد.

﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ ⑧ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ⑨ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ⑩﴾ إنّ الله هو خالقه وهو معطيه ما يرى به الوجود، من عينين عجيبتين، وينطق من لسان وشفتين لينقل مافي رأسه إلى الآخرين، ويصنع الحضارة والرقيّ باستخدام الآخرين، كما منحه الهداية الفطريّة والتشريعيّة وعلّمه سبيل الخير والشرّ، وأعطاه الإرادة الحرّة للاختيار.

﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ⑪ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ⑫ فَكُّ رَقَبَةٍ ⑬ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ⑭ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ⑮ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ⑯ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ⑰ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ⑱﴾ فلينطلق إذن إلى الكدّ بجد نحو اقتحام المصاعب والموانع بوجه تكامله: إنّها الشّح النفسيّ والقساوة القلبيّة والالتذاذ الوهميّ، فليرفضها وينطلق لإطلاق الأسير وعتق الرقاب (العبيد) وإطعام الجياع، واليتامى من الأقرباء والمساكين الملتصقين بالتراب لشدّة حاجتهم، ولينخرط في سلك المؤمنين المتواصين بالصبر وبالتراحم المستمرّ، وهو سلك أصحاب اليمين.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ⑲ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ ⑳﴾ أمّا الكافرون بآيات الله فهم أصحاب الشؤم والضياع والتعاسة، وستسلّط عليهم نار مغلّقة الأبواب، فلا نجاة لهم منها.

سورة الشمس (٩١)

آياتها ١٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

البسملة أوّل آية من السورة، وتحمل معاني سامية.

﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ۝١ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ۝٢ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ۝٣ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ۝٤ وَالسَّمَاء وَمَا بَنَاهَا ۝٥ وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا ۝٦ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝٨﴾ قسم بالشمس وما تتركه من ضياء باهر على الأرض، وبالقمر الذي يتبعها في الظهور ليلاً، ثمّ يزيّن الليل بذلك النور الجميل، وبالنهار الذي يفتح العيون على مفاتن الأرض ونعمها، والليل الذي يغطّي ذلك الجمال، ولكن لهدف خيّر آخر، وبالسماء بكل عظمتها، ويد القدرة والسرّ الذي بنى هذه السماء والأرض، والسّر الذي مهّدها للإنسان، وبالنفس البشريّة والسرّ الذي ركّبها أروع تركيب في فطرة إنسانيّة تتركّب من قدرات عقليّة، وعواطف جيّاشة، وغرائز هادية دافعة، وإرادة حرّة مميّزة، وألهمها سبل الخير وسبل الشرّ إجمالاً.

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ۝١٠﴾ كل هذه الأنواع العظيمة التي أقسم بها القرآن العظيم جيء بها للتأكيد على أن سبيل الفلاح والسعادة هو تزكية النفس، في حين تشكّل عملية قتل هذه الاستعدادات وتحريفها وكبتها منحدراً نحو الهاوية والخيبة والضياع.

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ۝١١ إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا ۝١٢ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ۝١٣ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا ۝١٤ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ۝١٥﴾ هذه ثمود طغت وكبتت فطرتها، وحرّكت أشقى اشقيائها وتحدّت تحذير نبيّها صالحاً من أن يمسّوا الناقة المعجزة بسوء، ويمنعوها من التفرّد بيوم شربها، فكذّبوه وقتلوها فاستحقّوا غضب الله عليهم لذنبهم، ولا يسأله سائل عن سبب عقابه وعاقبة الأمر.

سورة الليل (٩٢)

آياتها ٢١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

البسملة تعلن قيام الكون وانطلاق حركته باسم الله، وهي آية قرآنيّة.

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى ۝١ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى ۝٢ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ۝٣ إِنَّ سَعْيَكُمْ
لَشَتَّى ۝٤﴾ قسم بظاهرة الليل الذي يغطّي الأرض، والنهار الذي يتجلّى ويظهر فتبدو فيه الأشياء، وبظاهرة الزوجيّة، وهي من مظاهر العظمة الإلهيّة، على أنّ كل نشاطات الإنسان لها آثارها ومصيرها الخاص بها.

﴿فَأَمَّا مَن أَعْطَى وَاتَّقَى ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى ۝٧ وَأَمَّا مَن بَخِلَ
وَاسْتَغْنَى ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى ۝١٠ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى ۝١١﴾
فأمّا من تسامى على رغبات النفس فأعطى وأنفق متّقياً الله، وصدّق بوعده الحسن فسيوفّقه الله للعمل الصالح وبالتالي لحياة الخلود، وأمّا من أصابه البخل وحرص على جمع المال من أي وجه كان، وكذّب بوعود الله فسييسّر ولكن للانحراف والضياع، وحينئذ فلن ينفعه ماله عندما يهوي في جهنّم.

﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى ۝١٢ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى ۝١٣ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى ۝١٤﴾ إنّ
الله تعالى أوجب على نفسه هداية البشريّة، وله تعالى الحياة الدنيا والآخرة معاً، وهكذا جاء هذا الإنذار بالنار المشتعلة ليتنبّه الغافلون.

﴿لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ۝١٥ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى ۝١٦﴾ وإنّما يبتلى بها الأشقياء المكذّبون
المعرضون عن سبيل الحقّ والهدى.

﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ۝١٧ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى ۝١٨ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَى ۝١٩
إِلَّا ابْتِغَاء وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى ۝٢٠ وَلَسَوْفَ يَرْضَى ۝٢١﴾ أمّا الأتقياء الصالحون المطيعون لله الباذلون أموالهم المزكّون المطهّرون لأموالهم وأنفسهم قربة لله، وهو أعلى من كل ما عداه وأكبر، لا ابتغاء لجزاء ممن يعطونه من النعم، فإن ربّهم سيعطيهم حياة الرضا بها قسم، واطمئنان النفس والانفتاح على الكون والشكر لله، بعد أن يجنّبهم عذاب النار.

سورة الضحى (٩٣) — آياتها ١١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

البسملة أوّل آية في السورة القرآنيّة، وهي تركّز أهم مقوّمات التصوّر.

﴿وَالضُّحَى ﴿١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ﴿٣﴾﴾ قسم بالضحى، حيث ينتشر نور الشمس رحمة على البشريّة، وبالليل حيث الهدوء والسكينة وهي رحمة أخرى بها، على أنّ الله لطيف برسول الله عبده المخلص، لم يتركه ولم يودّعه ولم يجفه، بتأخّر الوحي إليه، كلاّ، فهو مشمول برحمة ربّه دائماً.

﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى ﴿٤﴾ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى ﴿٥﴾﴾ وهو مورد العناية الإلهيّة في الدنيا، وكذلك هو الحال وبمستوى أسمى وأكثر خيراً في الآخرة، إذ سيمنحه كل ما يرضاه مطلقاً، لطفاً به وكرامة وعطفاً.

﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى ﴿٨﴾﴾ تذكير بلطف الله به سابقاً، إذ رعاه وهداه وأكرمه وهو يتيم الأب، حينما ولد ويتيم الأمّ بعد سنتين (وقيل ست سنين)، وفاقد الجدّ الرحيم بعد ثمان سنين ليكفله عمّه في جوّ من الحنان، وتذكير بالهداية الإلهيّة له باستمرار، مما ينعكس على نفسه، باستمرار وعياً وتزكية وعلماً في جوّ جاهليّ متخلّف، وكذلك تذكير بما منَّ الله عليه من الغنى بعد زواجه من السيدة خديجة.

﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾ فليعكس النبيّ هذه الرحمة على سيرته بعدم القهر لليتيم، وعدم زجر السائل المحتاج وردّه، والحديث عن نعمة الله وشكرها، لينعكس هذا الأمر على مجموع الأمّة.

سورة الشرح (٩٤)

آياتها ٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

البسملة آية قرآنيّة رائعة المعنى.

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤﴾ وتكمّل هذه السورة معاني السورة السابقة، حتّى روي: أنّهما سورة واحدة[١]، فتتحدّث عن لطف الله على نبيّه بمنحه انشراحاً في الصدر وسعة، لتحمل المصاعب وهو شرط أساس في الداعية، وكذلك بتخفيف الأعباء عنه في مسيرته الشاقّة، ورفع ذكره بين البشريّة على مرّ القرون، واقترانه بالتوحيد.

﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۝٧ وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ ۝٨﴾ تطمين مؤكّد من الله لرسوله أن سيعبر الحالة العسيرة إلى اليسر، فليعمل على التعبّد وتربية المعنويّات، رغبة وشوقاً متصاعداً لرضا ربّه العطوف الودود.

---

١. الإستبصار، ج ١، ص ٣١٨، ح ٤، وسائل الشيعة، ج ٦، ص ٥٥.

سورة التين (٩٥)

آياتها ٨

بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

البسملة آية تفتتح بها السور القرآنيّة، وتحوي معنىً سامياً.

﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ۝٣﴾ قسم بالتّين والزيتون وما يحملان من فوائد جمّة للإنسان، وربما أشارا إلى أماكن مقدّسة، وبطور سينين وهو الجبل الذي كلّم الله موسى عليه، وبمكّة المكرّمة الأمينة على وحي الله الآمنة لعباد الله.

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ۝٥﴾ هذه الحقيقة الكبرى هي المقسم عليه، فقد جعل الله الإنسان عناية به وإكراماً في أحسن تقويم، سواء في تركيبه البدنيّ المادّيّ المعقّد المحكوم لآلاف الظواهر التي تجعله ينسجم مع ظواهر الكون، أو في منظومته الروحيّة التي ترفعه فوق المخلوقات وتميّزه عنها بفطرته. ولكنه قد يردّ إلى أحطّ هيئة معنويّة، فينزل حتّى عن مستوى الحيوان والجماد، فلا يسلم إلاّ أولئك الذين انسجموا مع إنسانيّتهم وآمنوا وعملوا الصالحات، إذ سينالون الأجر الدائم.

﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٦ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ۝٧ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ۝٨﴾ ترى ما الذي يدفع الإنسان المخلوق بأحسن تقويم إلى هدف قويم تحت هدى الله الحكيم للتكذيب بيوم الجزاء، وهو لازم حتميّ للهدفيّة وحكمة الله وقدرته وهو أحكم الحاكمين.

سورة العلق (٩٦)

آياتها ١٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

البسملة آية قرآنيّة، تلخّص التصوّر القرآني عن حركة الكون.

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢﴾ هذه السورة هي أول ما نزل على الرسول عند البعثة، وبها تمّ اتصال عالم الشهود بعالم الغيب ـ تأمره بأن يقرأ الحياة والمسيرة باسم الله الخالق للوجود من العدم، والخالق للإنسان من حويمن ذكريّ يعلق ببييضة أنثويّة، ويطوي مراحل كماله الضخمة.

﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ وتجلّى الكرم الإلهيّ العظيم بمنح الإنسان القدرة العقليّة والذهنيّة على التعلّم والاستزادة من المعلومات، ونقلها إلى الآخرين عبر رموز اللغة والكتابة بالقلم، ليتمّ التفاهم والتعاون، وتسير البشريّة لتحقيق هدف خلقتها.

﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى ۝٦ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى ۝٧ إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى ۝٨﴾ إلاّ أن الإنسان قد يُسيء استخدام طاقاته ولا يحكّم العقل فيها فيخرج عن الحدّ ويطغى حينما ينسى ضعفه عندما يستغني قليلاً، ولكنه سيعود إلى ربِّه ليحاسبه على سيرته.

﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّى ۝١٠ أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَى ۝١١ أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى ۝١٢﴾ وغريب أمر هذا الإنسان الطاغي، إذ ينهى عبداً مصليّاً مهتدياً آمراً بتقوى الله عن فعله!

﴿أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّى ۝١٣ أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى ۝١٤﴾ إنّه يكذّب ويعصي الله والله محيط عليم به؛ لأنّه خالقه ومانحه الوجود في كل آن.

﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ۝١٥ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ۝١٦﴾ إنّه إن لم يعد عن سلوكه سنأخذ بجبينه الكاذب الخاطئ ونصرعه، فإذا هو ذليل.

﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَه ۝١٧ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ۝١٨﴾ وليدعُ أعوانه وانصاره لندعو الزبانية الشداد الموكّلين بالنار، ليسحقوه ويصلوه جهنّم.

﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ۝١٩﴾ (سجدة واجبة)

فيجب أن لا يقيم الرسول وزناً له، وإنمّا يمضي في بناء نفسه بالسجود والتقرّب إلى الله (والسجود عند تلاوة هذه الآية واجب شرعي).

وهكذا نجد في هذه السورة وهي أوّل ما نزل من القرآن التوجيه إلى القراءة والعلم والقلم عنواناً لرسالة الإسلام وأمّته.

سورة القدر (٩٧)

آياتها ٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مرّ بنا الحديث عن البسملة باعتبارها آية قرآنيّة.

﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ۝١ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ۝٢﴾ إنّ الله تفضَّل على البشريّة فأنزل إليها القرآن الكريم ـ إجمالاً على قلب الرسول ـ، في ليلة مباركة من شهر رمضان المبارك يعلم الله عظمتها وهي ليلة القدر، التي يفرق فيها كل أمر حكيم وترسم معالم المسيرة الإنسانيّة الصاعدة إلى الكمال بشكل متجدّد. وتوضع عجلة التاريخ على خطّها الصحيح.

﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝٣﴾ إنّها ليلة نزول القرآن أعظم هديّة لأجيال البشرية، ليلة تربّيها لتكون عابدة شاكرة، فهي خير من ألف شهر، لا قيمة لها في حساب الرقيّ المعنويّ، ويرتع فيها الطغيان كأيام بني أميّة.

﴿تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝٤ سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ ۝٥﴾ إنّها ليلة تتّابع بالنزول فيها الملائكة ومنهم جبرئيل، وهي تحمل الأمر الإلهيّ بإذنه تعالى والبشرى للبشريّة، فهي ليلة السّلام والأمان، وميدان التكامل والتفاعل الروحيّ حتّى طلوع الفجر.

سورة البينة (٩٨)

آياتها ٨

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تحدّثنا عن البسملة.

﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾﴾ إنّ الكافرين من أهل الكتاب ـ والمشركون مثلهم ـ لم يكونوا ليتخلّوا عن تصوّراتهم الباطلة والمنحرفة عن ما تقتضيه الفطرة الإنسانيّة والمنطق القويم، حتّى يأتيهم الدليل الواضح الذي يحمله رسول من الله، يقرأ عليهم صحفاً مطهّرة من الأوهام والتصوّرات السخيفة، وهي القرآن. إذ فيه كل ما يصحّح التصوّر ويطهّر السلوك وينظّم الحياة ويؤكّد على القيم.

﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاء وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾﴾ والحقيقة إنّ أهل الكتاب تفرّقوا بعد أن جاءتهم الرسالة البيّنة والواضحة الجامعة. وما كان لهم أن يتفرّقوا بعد أن أكّدت رسالتهم على التوحيد وعبادة الله، وإخلاص العمل له وإقامة الصلاة وإعطاء الزكاة، وكلّها تعبّر عن قيم دينيّة أصيلة تبني المسيرة القويمة الواحدة، وهو بالضبط ما أكّد عليه القرآن وبشكل أدقّ وأكثر تفصيلاً واستدلالاً.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُوْلَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾﴾ إنّ الكافرين من أهل الكتاب والمشركين بالإسلام وقيمه التي هي قيم كل الرسالات، يسلكون السبيل الخطأ ويقفون ضدّ الحقّ، فمصيرهم بالتّالي الخلود في جهنّم، في حين يشكّل المؤمنون العاملون بالصّالحات والمقتدون برسولهم، والطاهرين من أهل بيته خير البشريّة ونماذجها.

﴿جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴿٨﴾﴾ وبالتّالي فجزاؤهم عند ربّهم الرحيم جنّات الاستقرار الدائم والخلود، يظلّلهم رضوان متبادل بينهم وبين ربّهم، انعكاساً لحياتهم التي تميّزت بطاعة الله والخشية من غضبه.

سورة الزلزلة (٩٩)

آياتها ٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تحدّثنا قبل هذا عن البسملة.

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢ وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا ۝٣﴾ تسبق يوم القيامة أشراط وحوادث، منها زلزال عظيم يهزّ الأرض ويخرج ما تحويه من معادن ومكنونات وأثقال، فيتساءل الإنسان عن هذا الزلزال الرهيب وماذا دهى الأرض؟

﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا ۝٥﴾ وحينئذ ستتحدّث الأرض عن الحقيقة الهائلة بأنّ الله أمرها بذلك، وأنّها ستشهد على أعمال الخلق إيذاناً بيوم الحشر.

﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ۝٦ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝٨﴾ يوم ينطلقون متفرّقين كلٌ يعاني مشكلة نفسه، ويواجه عمله بكلّ صفاته الحسنة والقبيحة وتفاصيلها، فمن كان قد عمل خيراً ولو بمقدار ذرّة رآه، ومن قد عمل بقدر ذرّة شرّاً رآه.

سورة العاديات (١٠٠)

آياتها ١١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ذكرنا معنى البسملة.

﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحاً ۝١ فَالْمُورِيَاتِ قَدْحاً ۝٢ فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحاً ۝٣ فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً ۝٤ فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً ۝٥ إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ۝٦﴾ قسم بالخيل المسرعة الصاهلة، وبالمورية التي ينطلق الشرر من حوافرها، وبالتي تحمل على الأعداء فجأة في الصباح، فتثير الغبار لتدخل قلب صفوف العدوّ فتربكها، هذا القسم بخيول المجاهدين يتمّ ليؤكّد على أنّ الإنسان كفور بنعمة ربّه المنعم عليه.

﴿وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ ۝٧﴾ وهو إذ يكفر بالله، يشعر في قرارة نفسه بعظمة هذه النعم ويشهدها.

﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ۝٨﴾ ولكنه حريص على تحقيق لذّاته، وتحصيل رغباته من متع الدنيا.

﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ۝٩﴾ إلا يعلم هذا الإنسان العنيد الكفور ماذا سيكون مصيره عندما تزلزل الأرض، وتلفظ مافي بطنها من أجساد فتبعثرها في العراء؟

﴿وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ۝١٠ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ۝١١﴾ وعندما تتكشّف الأسرار وتمزّق الأستار وتظهر البواطن، سيعلم الجميع أنّ الله عليم خبير بكل ما فعلوه.

سورة القارعة (١٠١)

آياتها ١١

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

البسملة آية قرآنيّة تفتتح بها السورة.

﴿الْقَارِعَةُ ۝١ مَا الْقَارِعَةُ ۝٢ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ۝٣﴾ إنّ القيامة حادثة تهزّ القلوب والنفوس، وتضرب الآذان بهولها المشدّد المؤكّد، عبر التساؤل المكرّر عن مدى العلم بأبعاد هذا الهول.

﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ۝٤ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ ۝٥ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ۝٦﴾ لتجيب السورة ببيان بعض هذه الأهوال: إذ ستكون البشريّة المنطلقة من قبورها هائجة مائجة متلاطمة، كما يهيج الفراش إلى كل جانب، وستكون الجبال كالصوف المندوف المتطاير بلا وزن يذكر.

﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ۝٨ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ۝٩ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةٌ ۝١١﴾ وحينئذ يتمايز الصفّان، صفّ ثقلت موازينه بالموازين الحقيقيّة الإلهيّة، فهو في وضع مرضٍ له ومحبوب عند الله، وصف خفّت موازينه فلا قيمة له، فعاقبته هي الانحطاط والهلاك الرهيب في النار شديدة الحرارة. والملاحظ أن القرب من الحق هو معيار الوزن.وليس المراد ما يتبادر لأول مرة من الثقل فإن الباطل لا وزن له عند الله.

آياتها ٨ — سورة التكاثر (١٠٢)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تحدّثنا عن البسملة.

﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ① حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ②﴾ تهديد رهيب لكل أولئك السائرين خلف السراب الخادع، والتجميع السخيف للمتع الدنيوية الزائلة، والتكاثر الملهي للبسطاء المتخلّفين، فهدفهم التكثير لغرض التكثير، دونما وعي لهدف الحياة ومسؤوليّة الإنسان، ومضوا في عماهم حتّى ماتوا فسكنوا المقابر، وربّما كان المقصود التكاثر والتفاخر حتّى في عدد القبور.

﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ③ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ④ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ⑤﴾ هؤلاء الصمّ البكم الساهون سوف يكتشفون الحقيقة بكل تأكيد، وبعلم يقينيّ لا شكّ فيه.

﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ⑥﴾ إنّها الجحيم التي تهزّ وجدان الإنسان، وتستعر في وجوده، ويحسّ بها بكل مشاعره.

﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ⑦ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ⑧﴾ إنّ كل ما تكاثروا فيه وجمعوه ثمّ خلّفوه خلف ظهورهم، أمور تتبعها مسؤوليات تجاه الله والنفس والمجتمع، وسوف يسألون بدقّة عمّا قاموا به أو أهملوه، وعليهم الإجابة الدقيقة. فليحسبوا للأمر حسابه الدقيق.

سورة العصر (١٠٣)

آياتها ٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مرّ بنا الحديث عن البسملة.

﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝٣﴾ قسم بالزمان، وقيل: هو عصر الرسول وزمن انطلاق الإسلام، على أنَّ الإنسان بطبعه خاسر فاقد لأصالته وما يتمتّع به من طاقات كبرى، إلاّ إذا استفاد منها وربّاها وفجّرها وتكامل بها، ولا يتمّ ذلك إلاّ بالتأمّل في الوجود المنظّم، والوصول إلى الخالق العظيم والإيمان به، لتنفتح أمامه آفاق العلم بالكون، وسبل التكامل الإنسانيّ، ونظم السعادة متّصلاً بالمطلق القادر الحكيم، الذي يرسم له المنهج القويم للعمل الصالح بشتّى أنواعه الممكنة، فيعمل به لصياغة الشخصيّة السليمة الفرديّة والإجتماعيّة، عبر التوصية المتبادلة بالتزام الحقّ بعد معرفته، والصبر والاستقامة على الخطّ الربانيّ الأصيل، مهما كانت الصعاب.

سورة الهمزة (١٠٤)

آياتها ٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تحدّثنا عن معاني البسملة.

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١ الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ۝٢ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ۝٣ كَلَّا لَيُنبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ۝٤ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ ۝٥﴾ تهديد لأولئك المستكبرين المترفين، الذين لاهمَّ لهم إلاّ تكديس الثروات من أي طريق جاءت، وتعديد الأموال، ظانّين أنّ المال هو سرّ الخلود والسعادة، في حين أنّه أمانة ومسؤوليّة يجب أن تؤدّي غرضاً معقولاً، وتساهم في البناء الفرديّ والاجتماعيّ، ولكن هؤلاء يستخدمون مكانتهم على العكس لتحقيق التمزّق، وتحقير الآخرين وبثّ التباغض، وتكبير نقاط الضعف، فلا جزاء لهم إلاّ النار المحطّمة لشخصيّتهم والمهشّمة لمكانتهم.

﴿نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ ۝٦ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ ۝٧ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ۝٨ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ۝٩﴾ إنّها نار الله الموقدة لهم، تحرق قلوبهم كما تحرق أجسادهم، تطبق عليهم فلا مخلص لهم منها، في أعمدة وأوتاد تشدّهم إلى العذاب.

سورة الفيل (١٠٥)

آياتها ٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

البسملة آية قرآنيّة تفتتح بها السورة.

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ① أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ② وَأَرْسَلَ
عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ③ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ④ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ⑤﴾
تشير السورة إلى حادثة توجّه الحاكم الحبشي لليمن (أبرهة) بجيشه لهدم الكعبة المشرّفة، بعد أن بنى بناء في اليمن، سعياً لجعل العرب تتّجه إليه، فلم يتحقّق له ذلك، فوجّه جيشه وفي مقدّمته (الفيل)، ولكنّ الله كان بالمرصاد، فأبطل كيدهم بإرسال طيور جاءت مجموعة مجموعة فرمتهم بحجارة حارقة فأهلكتهم، حتّى عادوا كورق الزرع الذي عاث به الفساد وأكلته الديدان.

سورة قريش (١٠٦)

آياتها ٤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قلنا إنّ البسملة آية تفتتح بها السور القرآنيّة، وتحمل معاني رائعة.

﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ① إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ② فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ③
الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ④﴾ كان من عادة قريش أن تكون لها رحلتان
إحداهما في الشتاء إلى اليمن والأخرى في الصيف إلى الشام. وكانت هاتان الرحلتان تشكّلان مصدر تجمّع وتآلف بين أفرادها الذين كانوا يحيطون بالبيت الحرام، ومصدر نماء ورفاه مادّيّ يجلب إليها أنواع الأرزاق، خصوصاً وأنّ الله منَّ عليهم بالأمن، حيث كانت القبائل تعتبر مكّة محلاً آمناً حتّى للحيوانات، تتّفق عليه، وقد زادت حادثة الفيل من هذا الاحترام والأمن. كل هذه النعم على قريش يجب أن تدفعها إلى احترام الحرم وربِّ الحرم، الذي امتنَّ عليها بذلك فتعطيه حقّه من العبادة.

سورة الماعون (١٠٧) آياتها ٧

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ذكرنا سابقاً معاني البسملة.

﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ۝١ فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ ۝٢ وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ ۝٣ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُونَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ۝٧﴾ وهذه السورة توجد ربطاً كاملاً بين العقيدة والعاطفة والسلوك، فتؤكّد على أنّ الإيمان بيوم القيامة يتطلّب امتلاك الرّحمة الإنسانيّة، وبالتالي العطف على اليتيم والترغيب في سدّ جوعة المسكين، والاتّصال الواعي بخالق الكون عبر الصلاة والتضرّع إليه، ورفض ماعداه من قوى وضغوط، وعدم الرياء لمراعاتها، وبالتّالي الإقدام على أنماط التعاون الاجتماعيّ لسدّ الخلل في المجتمع، فإذا فقدت مثل هذه العواطف وهذه الأنواع من السلوك، فإن ذلك يكشف عن عدم نفوذ الإيمان إلى أعماق الوجود.

سورة الكوثر (١٠٨) آياتها ٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مرّ بنا الحديث عن البسملة.

﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ۝٢﴾ إشارة قرآنيّة إلى منّة إلهيّة عظمى على الرسول، بعد أن اتّهمه بعض المبغضين له (وقيل: هو العاص بن وائل) بأنّه أبتر لا عقب له، وهذة المنّة تتمثّل بأنّه ستكون له ذرّيّة متكاثرة من نسل الزهراء فاطمة، وتشكّل منبع خير عميم للبشريّة علماً وعملاً. (وفسّر الكوثر بالخير الكثير وذكرت له مصاديق أجلاها ماذكر، ونتيجة لهذه المنّة يطلب القرآن أن يشكرها مصلّياً لربّه، رافعاً يديه إلى نحره عند التكبير وبه تفتتح الصلاة ويتم الانتقال من مقطع إلى آخر (وقيل: بمعنى النحر وإطعام الفقير).

﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ۝٣﴾ أمّا الأبتر المقطوع الذنب والعقب الذي لا يرجى منه خير، فهو عدوّك المبغض لك.

سورة الكافرون (١٠٩)

آياتها ٦

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تحدّثنا عن البسملة.

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ۝١ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝٣ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝٦﴾ كان المشركون يؤمنون بالله، ولكنهم آمنوا معه بمطلقات وهميّة كالملائكة أو الجنّ أو رموز الحجارة والخشب وأمثالها، معتبرين ذلك ديناً موروثاً، وعندما بعث الرسول بالإسلام ودعم منطقه وكثر أتباعه وعجزوا عن مقاومته، حاولوا المساومة، معتقدين قرب المسافة بين العقيدتين، مقدّمين انصاف الحلول، كأن يعبدوا الله سنة ويعبد المسلمون آلهتهم سنة أخرى، فجاء النفي القاطع لهذا الاقتراح الوهميّ فلا يمكن الجمع بين العقيدتين ولا العبادتين، بل هما مسيران متناقضان تماماً لا يلتقيان قطعاً، وقد جاء التأكيد على هذا النفي بأكثر من صيغة.

سورة النصر (١١٠)

آياتها ٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ذكرنا من قبل معاني البسملة.

﴿إِذَا جَاء نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢﴾ وعد وبشرى لرسول الله بنصر وفتح سيمنّ الله به عليه. قيل: إنّه فتح مكّة وهو الأرجح وقيل إنّه استجابة اليمن للدعوة من دون قتال، وقيل: نزلت بعد أن استقرّت الدولة الإسلاميّة، ودخل النّاس في الإسلام، وحل أجلّ الرسول وانتقاله إلى الرفيق الأعلى.

﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ۝٣﴾ وهذا الفتح العظيم يجب أن لا يؤدّي بالمسلمين المنتصرين إلى الغرور ونشوة النصر، وإنّما يستلزم حمد الله وتسبيحه واستغفاره وتنزيهه وشكره على نعمه المتوالية، والله توّاب رحيم، يعود على رسوله والأمّة باللّطف والتوبة والمنّة باستمرار.

سورة المسد (١١١)

آياتها ٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

البسملة آية قرآنيّة تحمل معنىً عظيماً.

﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴿٥﴾﴾ أبو لهب هو عمّ النبيّ وعدوّه اللّدود، وقد تعاونت معه زوجته (أم جميل) على وضع العقبات في طريقه وإيذائه أشدَّ الأذى، وباعتباره قريباً من النبيّ وعمّه فقد كان له تأثير سلبيّ في مسار الدعوة الإسلاميّة. وجاءت هذه السورة لتصبَّ الويل والهلاك عليه، وتعده بعذاب شديد لايدفعه عنه ماله وثروته التي كسبها، فسيبتلى بنار مشتعلة هو وامرأته التي كانت تحمل الشوك وتضعه في طريق رسول الله، فستنعكس هذه الحالة عليها في جهنّم، لتحمل الحطب المشتعل، مشدودة من عنقها بحبل قويّ من ليف جهنّميّ يشدّها إلى النار جزاء على فعلتها.

سورة الإخلاص(١١٢)

آياتها ٤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تحدّثنا عن البسملة.

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾﴾ سورة الإخلاص هي سورة التوحيد، وتعدل ثلث القرآن باعتبارها تركّز على الوحدانيّة الإلهيّة والقدرة المطلقة. فالله أحد لا يقبل أيّ تصوّر للكثرة، إنّه الحقيقة الكبرى في الوجود وما عداها قائم بها مستمدّ منها الوجود في كل آن، فهذه الصّفة الذاتيّة هي أساس صفاته (جلّ وعلا).

﴿اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾﴾ إنّه القدرة المطلقة في الوجود، والمرجع الأوّل والأخير، فهي أساس الفعل الإلهيّ. وربمّا أريد بها الغنى المطلق عن كل ما عداه.

﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾﴾ نفي لتصوّرات باطلة عن الله ـ تعالى ـ فلا والد له؛ لأنّه واجب الوجود الغني المطلق، ولا ولد له؛ لأنّه غير مركّب وغير محتاج ولا شريك له ولا كفء، سبحانه عن الأوهام.

سورة الفلق (١١٣) — آياتها ٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ذكرنا من قبل معاني البسملة.

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣ وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ۝٤ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥﴾ يطلب الله من رسوله أن يلوذ به، ويطلب منه الأمان والحماية، فهو ربّ الكون والوجود ومنه الصبح الذي ينشقّ عنه الظلام، وبه يحيا الجميع. وهو القادر على دفع أذى الآخرين من المخلوقات أيّاً كانت قدرتها وتأثيرها، وتحت أي ستار جاء الأذى، وقد يأتي تحت جنح الليل وظلامه حينما يغطّي المنطقة، كما قد يتمّ في إطار السحر الذي تقوم به الساحرات اللّواتي ينفخن في خيوط يعقدنها خداعاً وتضليلاً للحواسّ والمشاعر ، أو يتمّ في جوّ من الحسد واستكثار شمول الخير للآخرين، كما قد يدفع الحاسد للتآمر والكيد لسلبه منه، فالله لوحده هو القادر على دفع الشرور.

سورة الناس (١١٤) — آياتها ٦

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

البسملة آية قرآنيّة تعطي أساساً للتصوّر الإسلاميّ عن الكون وقيامه بإرادة الله.

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ۝١ مَلِكِ النَّاسِ ۝٢ إِلَهِ النَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ۝٤ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ۝٥ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ۝٦﴾ يطلب الله من رسوله أن يلجأ إليه وهو ربّ البشريّة جمعاء، ومالكها المطلق وإلهها ومعبودها، وبالتالي فهو كل الحقيقة في الكون، إنّه من يستطيع لوحده أن يكفيه شرّ التآمر الخفيّ، والمكر غير المعلن من قبل من لا يكشف نفسه، فهو يخنس ويوسوس ويوحي لمن يتقبّل الدسّ والشائعات والتحريك والاستفزاز من أعداء الرسول، سواء كانوا من الجنّ أو الناس.

فهرس بعض المصادر المعتمدة

١. قرآن الكريم
٢. نهج البلاغه
٣. الاتقان في علوم القرآن، السيوطي، المكتبة الثقافية، بيروت.
٤. الاحتجاج، أبو منصور أحمد بن علي بن أبي طالب الطبرسي، تعليقات: السيد محمد باقر الخرسان، مطبعة النعمان، النجف، ١٣٨٩ هـ ، ق، ١٩٦٦م.
٥. إحياء علوم الدين، ابو حامد الغزالي، نشر: دار المعرفة، بيروت.
٦. الاسلام على مفترق الطرق، محمد أسد، نقله الى العربية: عمر فروخ، دار العلم للملايين.
٧. الاصول العامة للفقه المقارن، السيد محمد تقي الحكيم، مؤسسة آل البيت للطباعة والنشر، ط٢، ١٩٧٩م.
٨. اصول الفقه، الشيخ، محمد الخضري، ط ٢، الاستقامة، مصر ١٣٥٨هـ /١٩٢٨م.
٩. أصول الفقه، محمدرضا، المظفر المطبعة العلمية، النجف الاشرف، ١٣٧٨ هـ/١٩٥٩م.
١٠. اعلام الموقعين عن ربّ العالمين، ابن قيم الجوزية، رتبه وخرج آياته: محمد عبدالسلام ابراهيم، دار الكتب العلمية، بيروت ط١، ١٩٩١م.
١١. افاضة العوائد (تعليق على درر الفوائد للشيخ عبد الكريم الحائري) آية الله العظمى السيد محمد رضا الكلبايكاني، دار القرآن، قم، ط١، ١٤١٠ هـ.
١٢. اقتصادنا، الشهيد محمد باقر الصدر، مكتب الإعلام الإسلامي، خراسان، وبوستان كتاب قم ١٣٨٢ هـ. ش.

١٣. الأمالي للصدوق.
١٤. الأمالي للمرتضى
١٥. الإنسان والقدر للشهيد المطهري.
١٦. الانصاف في معرفة الراجح من الخلاف على مذهب الإمام المبجل أحمد بن حنبل، علاء
١٧. بحار الانوار، العلامة محمد باقر المجلسي، مؤسسة الوفا لبنان، ط ٢، ١٤٠٣ هـ ، ١٩٨٣م.
١٨. البحر المحيط، بدر الدين الزركشي، وزارة الاوقاف والشؤون الإسلامية بالكويت، ط ٢، ١٤١٣هـ ، ١٩٩٢م.
١٩. بحوث في علوم القرآن، للسيد الزرندي، نشر جامعة المدرسين.
٢٠. البرهان في علوم القرآن، بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل ابراهيم، ط١، ١٣٧٦ هـ، ١٩٥٧م، دار احياء الكتب العربية.
٢١. البيان في تفسير القرآن، السيد أبو القاسم الخوئي، مؤسسة احياء آثار الامام الخوئي، قم، ط١، ١٤٢٧ هـ، ٢٠٠٧م.
٢٢. تاريخ دمشق
٢٣. تأسيس الشيعة لعلوم الاسلام، السيد حسن الصدر، منشورات الأعلمي، طهران.
٢٤. التبيان، أبو جعفر الطوسي، تحقيق وتصحيح: حبيب قصير العاملي، مكتب الاعلام الاسلامي، ط١، ١٤٠٩ هـ، ق.
٢٥. تحف العقول عن آل الرسول، أبو محمد الحسن بن علي بن الحسين بن شعبة الحراني، تصحيح: علي أكبر الغفاري، مؤسسة النشر الاسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم، ط٢، ١٤٠٤ هـ، ق.
٢٦. تذكرة الفقهاء، العلامة الحلي، من منشورات المكتبة الرضوية لاحياء التراث الجعفري.
٢٧. التشريع الجنائي الاسلامي مقارناً بالقانون الوضعي، عبد القادر عودة، مكتبة

التراث، القاهرة.
٢٨. تفسير البغوي
٢٩. تفسير الجواهر، الطنطاوي، طبعة مصطفى البابي، مصر، ١٣٥٠ هـ.
٣٠. تفسير الصافي، المولى محسن الفيض الكاشاني، صححه: الشيخ حسين الأعلمي، منشورات مكتبة الصدر، طهران، ط٢، ١٤١٦.
٣١. التفسير العلمي للآيات الكونية بالقرآن، حفني أحمد، مصر، ١٩٩٠م.
٣٢. تفسير العياشي، محمد بن مسعود بن عياش السلمي السمرقندي، وقف على تصحيحه: السيد هاشم الرسولي المحلاتي، المكتبة العلمية الاسلامية، طهران.
٣٣. تفسير القران الحكيم الشهير بتفسر المنار، محمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت، ط٢.
٣٤. تفسير القرآن، محي الدين ابن العربي، بيروت، ١٣٨٧ هـ.
٣٥. تفسير القمي، أبو الحسن علي بن ابراهيم القمي، صححه وعلق عليه: السيد طيب الموسوي الجزائري، مؤسسة دار الكتاب للطباعة والنشر، قم، ط٣، ١٤٠٤ هـ، ق.
٣٦. التفسير الكبير المسمى البحر المحيط، أبي عبدالله محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان الاندلسي الغرناطي (أبو حيان) دار احياء التراث العربي، بيروت، ط٢، ١٤١١هـ ـ ١٩٩٠م
٣٧. التفسير الكبير، الفخر الرازي، ط ٣.
٣٨. تفسير المراغي، أحمد مصطفى المراغي، مصر، ١٩٥٣م.
٣٩. التفسير والمفسرون في ثوبه القشيب للشيخ معرفت.
٤٠. التفسير والمفسرون، محمد حسن الذهبي، نشر: دار الكتب، مصر، ١٩٦١م.
٤١. تلخيص التمهيد، محمد هادي معرفة، مؤسسة النشر الاسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المقدسة، ط١، ١٤١٦ هـ.
٤٢. التوحيد للصدوق.

٤٣. تهذيب الاصول ، تقريرات بحوث الامام الخميني، الشيخ جعفر السبحاني، انتشارات دار الفكر، قم، ط ٣.
٤٤. جامع البيان، للطبري
٤٥. الجانب العلمي في القرآن، صلاح الدين الخطاب، مصر، ١٩٧٠م.
٤٦. جواهر الكلام، الشيخ محمد حسن النجفي، دار الكتب الإسلامية، ط٣، انتشارات خورشيد ١٣٦٧ش.
٤٧. الحدائق الناظرة في أحكام العترة الطاهرة، الشيخ يوسف البحراني، مؤسسة النشر التابعة لجماعة المدرسين بحوزة قم.
٤٨. الحلبي وشركاه، القاهرة، ١٣٩٩ هـ، ق، ١٩٧٩م.
٤٩. حول الدستور الإسلامي للتسخيري، نشر مجمع التقريب ـ طهران.
٥٠. الدر المنثور في التفسير المأثور، جلال الدين السيوطي، دار الفكر للطباعة والنشر، ١٤٢٣ هـ.
٥١. الدين المرداوي، صححه وحققه: محمد حامد الفقي، دار احياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٣٧٧هـ ، ١٩٥٧م
٥٢. رحمة الامة في اختلاف الائمة، أبو عبدالله محمد بن عبدالرحمن الدمشقي الشافعي، المطبوع بهامش الميزان الكبرى، لعبدالوهاب بن أحمد الشعراني، شركة ومكتبة مصطفى الباني وأولاده ط١.
٥٣. روح المعاني، الآلوسي، بيروت، ١٩٧٠م.
٥٤. زاد المعاد.
٥٥. سنن أبي داود، أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني، تحقيق: سعيد محمد اللحام، دار الفكر، ط١، ١٤١٠ هـ، ق، ١٩٩٠م.
٥٦. سنن الترمذي، تحقيق: عبدالرحمن محمد عثمان، دار الفكر، بيروت، ط ٢، ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م.
٥٧. شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، تحقيق: محمد أبو الفضل ابراهيم، دار احياء الكتب العربية، ١٣٧٨ هـ، ١٩٥٩م.

٥٨. شواهد التنزيل.
٥٩. صحيح البخاري، دار الفكر، دار الطباعة العامرة باستانبول، ١٤٠١هـ، ١٩٨١م.
٦٠. صفوة البيان لمعاني القرآن، حسنين محمد مخلوف، نشر: دار الكتاب العربي، مصر، ١٩٠٦م، ١٣٧٧ هـ.
٦١. العقائد الإسلامية، مركز المصطف بقم.
٦٢. العقوبة للشيخ محمد أبو زهرة
٦٣. علم اليقين، محمد محسن الملقب بالفيض الكاشاني، انتشارات بيدار، قم، ايران ١٣٥٨هـ.ش.
٦٤. علوم القرآن، الشهيد محمد باقر الحكيم، نشر: مجمع الفكر الاسلامي، قم، ط٨، ١٤٢٨ق.
٦٥. العناوين الفقهية، الحسيني المراغي، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم، ط ١، ١٤١٨هـ.
٦٦. عوالي اللئالىء العزيزية في الأحاديث الدينية، محمد بن علي بن ابراهيم الاحسائي المعروف بابن أبي جمهور، تحقيق: آقا مجتبى العراقي، مطبة سيد الشهداء، قم، ١٤٠٣ هـ، ق، ١٩٨٣م.
٦٧. عوائد الأيام، المحقق المولى أحمد النراقي، نشر: مكتب الإعلام الإسلامي، قم، ط١، ١٤١٧هـ.
٦٨. عيون أخبار الرضا، أبو جعفر محمد بن محمد بن علي الصدوق، تصحيح: حسين الأعلمي، منشورات مؤسسة الأعلمي، بيروت، ط١، ١٤٠٤ هـ، ١٩٨٤م.
٦٩. غرر الحكم ودرر الكلم، عبد الواحد الآمدي التميمي، منشورات الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ط١، ١٤٠٧ هـ، ١٩٨٧م.
٧٠. الفتاوى الواضحة، الامام الشهيد محمد باقر الصدر، مطبعة الاداب في النجف الأشرف.
٧١. فقه القرآن، قطب الدين أبي الحسن سعيد بن هبة الله الراوندي، تحقيق: السيد أحمد الحسيني، نشر: مكتبة آية الله العظمي المرعشي، ط٢، ١٤٠٥ هـ، ق.

٧٢. الفكر الاسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، محمد البهي، ط٦، دار الفكر، بيروت.
٧٣. فهرست أسماء مصنفي الشيعة (رجال النجاشي)، أبو العباس أحمد بن علي بن أحمد بن العباس النجاشي، تحقيق: السيد موسى الشبيري الزنجاني، مؤسسة النشر التابعة لجماعة المدرسين بقم.
٧٤. الفهرست، محمد بن اسحاق النديم، اوفسيت مروي، تهران، ايران، الطبعة الثانية، مع مقدمة لرضا تجدُّد، ١٣٩١ هـ، ١٩٧١ م.
٧٥. في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق.
٧٦. القاموس الفقهي، الدكتور سعدي أبو حبيب، مطبعة دار الفكر، دمشق، الطبعة الثانية ١٤٠٨ هـ.
٧٧. القرآن في الاسلام، محمد حسين الطباطبائي، تعريب: السيد أحمد الحسيني.
٧٨. قواعد التفسير للشيخ الميبدي، نشر مجمع التقريب بقم.
٧٩. القوانين المحكمة، الميرزا القمي، نسخة حجرية قديمة.
٨٠. الكافي، ابن عبدالبر، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٧هـ.
٨١. الكافي، أبو جعفر محمد بن يعقوب بن اسحاق الكليني الرازي، تعليق وتصحيح: علي أكبر الغفاري، نشر: دار الكتب الاسلامية، تهران، ط٣، ١٣٨٨هـ، ق.
٨٢. الكافية في الجدل، الامام الجويني، تقديم وتحقيق: د. فوقية حسين محمود، ط عيسى البابي
٨٣. كتاب الوافي، المولى محسن الفيض الكاشاني، منشورات مكتبة آية الله العظمى المرعشي، قم، ١٤٠٤هـ، ق.
٨٤. الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، أبو القاسم جار الله الزمخشري، تصحيح: مصطفى حسين أحمد، طبعة بولاق، ١٢٨١ هـ، ق.
٨٥. كفاية الاصول، الحجة محمد كاظم الخراساني، طبع مؤسسة آل البيت لاحياء التراث، ١٤٠٩هـ.

٨٦. كلمة حول الرؤية للسيد عبدالحسين شرف الدين.
٨٧. كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، علاء الدين علي المتقي بن حسان الدين الهندي، ضبطه: الشيخ بكري حياني، صححه: الشيخ صفوة السفا، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٩ هـ، ١٩٨٩م.
٨٨. لباب النقول، جلال الدين السيوطي، تحقيق: محمد الفاضلي، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ١٤٢٤ هـ، ق، ٢٠٠٣م.
٨٩. لسان العرب، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الافريقي، نشر: أدب الحوزة، ١٤٠٥ هـ، ق.
٩٠. مباحث في علوم القرآن، د. صبحي الصالح، انتشارات الشريف الرضي، ط٢ ١٣٦٨ ش، اوفسيت عن الطبعة الخامسة لدار العلم للملايين، بيروت، ١٩٦٨م.
٩١. متشابه القرآن لابن شهر آشوب.
٩٢. مجلة رسالة الإسلام السنة ١٢.
٩٣. مجمع البيان لعلوم القرآن، أبو الفضل بن الحسن الطبرسي، دار التقريب بين المذاهب الاسلامية، القاهرة، ١٣٧٨ هـ، ١٩٥٨م، اوفسيت طهران، ١٣٧٩ هـ.
٩٤. مجموعة كتابات الشهيد المطهري.
٩٥. المحاسن، أبو جعفر أحمد بن محمد بن خالد البرقي، تصحيح: السيد جلال الدين الحسيني، دار الكتب الاسلامية، ١٣٧٠ هـ.
٩٦. المحجة البيضاء في تهذيب الأحياء، المولى محسن الفيض الكاشاني، تصحيح: علي أكبر الغفاري، نشر: مؤسسة النشر التابعة لجماعة المدرسين بحوزة قم المقدسة، ط٢.
٩٧. المدرسة القرآنية لآية الله الصدر، مركز الأبحاث، قم.
٩٨. المستصفى من علم الاصول، ابو حامد الغزالي، ومعه كتاب فواتح الرحموت، دار الفكر للطباعة والنشر.
٩٩. مسند أحمد، الامام أحمد بن حنبل، طبع ونشر: دار صادر، بيروت.
١٠٠. مصباح الاصول، تقرير بحث آية الله العظمى الخوئي، السيد محمد سرور

الواعظ الحسيني البهسودي، منشورات مكتبة الداوري، قم، ط ٥، ١٤١٧هـ
١٠١. المصحف المفسر، فريد وجدي، طبعة دار الشعب.
١٠٢. المعاد الجسماني للشيخ مرتضى بويان، قم.
١٠٣. المعالم الجديدة للاصول، آية الله الشهيد الصدر، مطبعة النعمان، النجف ١٣٨٥هـ.
١٠٤. معاني الأخبار، أبو جعفر محمد بن محمد بن علي الصدوق، تصحيح: علي أكبر الغفاري، انتشارات جامعة المدرسين بقم، ١٣٦١ هـ، ش.
١٠٥. المعتبر في شرح المختصر، نجم الدين أبي القاسم جعفر بن الحسن المحقق الحلي، تصحيح: عدة من الأفاضل، نشر: مؤسسة سيد الشهداء، ١٣٦٤ هـ، ش.
١٠٦. المفردات في غريب القرآن، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الاصفهاني، نشر كتاب، ط٢، ١٤٠٤ هـ، ق.
١٠٧. من لا يحضره الفقيه، ابو جعفر الصدوق، تصحيح: علي اكبر الغفاري، منشورات جماعة المدرسين في الحوزة العلمية بقم، ط٢.
١٠٨. مناهل العرفان، محمد عبد العظيم الزرقاني، دار احياء التراث العربي، بيروت، ط٢.
١٠٩. المنجد في اللغة والأعلام، دار المشرق، بيروت، ط٢٦،
١١٠. المنطق، محمد رضا المظفر، مؤسسة النشر التابعة لجماعة المدرسين بحوزة قم.
١١١. الموافقات، ابواسحاق الشاطبي المطبعة الرحمانية، مصر١٩٦٥.
١١٢. ميزان الحكمة، محمد الريشهري، نشر: دار الحديث، قم، ط١، ١٤٠٣ هـ،ق.
١١٣. الميزان في تفسير القرآن، محمد حسين الطباطبائي، منشورات جامعة المدرسين في الحوزة بقم.
١١٤. النص الخالد للسيد الدارابي، مجمع البحوث في مشهد.
١١٥. النظم الاسلامية، صبحي الصالح، بيروت، ١٩٦٥م.
١١٦. نهج البلاغة، الشريف الرضي، شرح محمد عبده، دار المعرفة بيروت.

١١٧. الوافية، الفاضل محمد التوني، تحقيق: السيد محمد حسين الرضوي، مجمع الفكر الإسلامي، قم، ط ١، ١٤١٢هـ.
١١٨. وسائل الشيعة، الشيخ محمد بن الحسن الحر العاملي، عني بتصحيحه: عبدالرحيم الرباني الشيرازي، دار احياء التراث العربي، لبنان.
١١٩. هداية المسترشدين، الشيخ محمد تقي الرازي، مؤسسة النشر التابعة لجماعة المدرسين بحوزة قم.
ـ وغيرها

الفهرس

المقدمة ٧
سورة الفاتحة (١)........ ٩
سورة البقرة (٢) ١١
سورة آل عمران (٣) ٩٠
سورة النساء (٤) ١٣٨
سورة المائدة (٥) ١٨٩
سورة الأنعام (٦) ٢٢٩
سورة الأعراف (٧) ٢٦٨
سورة الأنفال (٨) ٣١٤
سورة التوبة (٩)........ ٣٣٢
سورة يونس (١٠) ٣٦٤
سورة هود (١١) ٣٨٦
سورة يوسف (١٢) ٤٠٩
سورة الرعد (١٣)........ ٤٢٧
سورة ابراهيم (١٤) ٤٣٦
سورة الحجر(١٥)........ ٤٤٦
سورة النحل(١٦)........ ٤٥٥
سورة الإسراء (١٧)........ ٤٧٥

سورة الكهف (١٨) ٤٩٣
سورة مريم (١٩) ٥٠٩
سورة طه (٢٠) ٥٢١
سورة الأنبياء (٢١) ٥٣٧
سورة الحج (٢٢) ٥٥١
سورة المؤمنون (٢٣) ٥٦٥
سورة النور (٢٤) ٥٧٧
سورة الفرقان (٢٥) ٥٩١
سورة الشعراء (٢٦) ٦٠٢
سورة النمل (٢٧) ٦١٧
سورة القصص (٢٨) ٦٢٩
سورة العنكبوت (٢٩) ٦٤٤
سورة الروم (٣٠) ٦٥٥
سورة لقمان (٣١) ٦٦٤
سورة الأحزاب (٣٣) ٦٧٥
سورة فاطر (٣٥) ٦٩٨
سورة يس (٣٦) ٧٠٦
سورة الصافات (٣٧) ٧١٤
سورة ص (٣٨) ٧٢٤
سورة الزمر (٣٩) ٧٣٢
سورة غافر (٤٠) ٧٤٤
سورة فصلت (٤١) ٧٥٧
سورة الشورى (٤٢) ٧٦٦
سورة الزخرف (٤٣) ٧٧٥
سورة الدخان (٤٤) ٧٨٥

سورة الجاثية (٤٥) ٧٩٠
سورة الأحقاف (٤٦) ٧٩٥
سورة محمد (٤٧) ٨٠٢
سورة الفتح (٤٨) ٨٠٨
سورة الحجرات (٤٩) ٨١٥
سورة ق (٥٠) ٨١٩
سورة الذاريات (٥١) ٨٢٤
سورة الطور (٥٢) ٨٢٩
سورة النجم (٥٣) ٨٣٣
سورة القمر (٥٤) ٨٣٧
سورة الرحمن (٥٥) ٨٤١
سورة الواقعة (٥٦) ٨٤٦
سورة الحديد (٥٧) ٨٥١
سورة المجادلة (٥٨) ٨٥٧
سورة الحشر (٥٩) ٨٦٢
سورة الممتحنة (٦٠) ٨٦٧
سورة الصف (٦١) ٨٧١
سورة الجمعة (٦٢) ٨٧٤
سورة المنافقون (٦٣) ٨٧٧
سورة التغابن (٦٤) ٨٨٠
سورة الطلاق (٦٥) ٨٨٣
سورة التحريم (٦٦) ٨٨٦
سورة الملك (٦٧) ٨٨٩
سورة القلم (٦٨) ٨٩٣
سورة الحاقة (٦٩) ٨٩٧

سورة المعارج (٧٠) ٩٠٠
سورة نوح (٧١) ٩٠٣
سورة الجن (٧٢) ٩٠٦
سورة المزمل (٧٣) ٩٠٩
سورة المدثر (٧٤) ٩١١
سورة القيامة (٧٥) ٩١٤
سورة الإنسان (٧٦) ٩١٦
سورة المرسلات (٧٧) ٩١٩
سورة النبإ (٧٨) ٩٢١
سورة النازعات (٧٩) ٩٢٣
سورة عبس (٨٠) ٩٢٦
سورة التكوير (٨١) ٩٢٨
سورة الإنفطار (٨٢) ٩٣٠
سورة المطففين (٨٣) ٩٣١
سورة الإنشقاق (٨٤) ٩٣٣
سورة البروج (٨٥) ٩٣٥
سورة الطارق (٨٦) ٩٣٧
سورة الأعلى (٨٧) ٩٣٨
سورة الغاشية (٨٨) ٩٣٩
سورة الفجر (٨٩) ٩٤١
سورة البلد (٩٠) ٩٤٣
سورة الليل (٩٢) ٩٤٥
سورة الضحى (٩٣) ٩٤٦
سورة الشرح (٩٤) ٩٤٧
سورة التين (٩٥) ٩٤٨

سورة العلق (٩٦).. ٩٤٩
سورة القدر (٩٧).. ٩٥١
سورة البينة (٩٨) ٩٥٢
سورة الزلزلة (٩٩).. ٩٥٣
سورة العاديات (١٠٠).. ٩٥٤
سورة القارعة (١٠١) ٩٥٥
سورة التكاثر (١٠٢).. ٩٥٦
سورة العصر (١٠٣) ٩٥٧
سورة الهمزة (١٠٤).. ٩٥٧
سورة الفيل (١٠٥) ٩٥٨
سورة قريش (١٠٦).. ٩٥٨
سورة الماعون (١٠٧) ٩٥٩
سورة الكوثر (١٠٨).. ٩٥٩
سورة الكافرون (١٠٩) ٩٦٠
سورة النصر (١١٠).. ٩٦٠
سورة المسد (١١١).. ٩٦١
سورة الإخلاص(١١٢).. ٩٦١
سورة الفلق (١١٣) ٩٦٢
سورة الناس (١١٤).. ٩٦٢
فهرس بعض المصادر المعتمدة.. ٩٦٣
الفهرس.. ٩٧٢